وَقـائِع وَمَشاهِير

روايــة الأحـداث التاريخيــة الكبـرى

بأقـلام شــاهـدي عيـان 399 ق. المسيح ـ 1986 إفرنجي

حــررهُ: **جــون كــاري**

ترجمـهُ: **محمـد المغـربي**

« **كتـاب ســاحـر ...** » صحيفة « الأنـدبـنـدنـت »

« **إنــه الصــدمــة ...** » صحيفة « الجـارديــان »

« **قراءة أخاذة، مثيرة، مرعبة** » صحيفة « الاسبكتاتور »

الـدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

□ **وقائع ومشاهير**

حزره: جون كاري

الطبعة الرابعة: الفاتح 1372 ﷺ (2004)

رقم الإيداع المحلي : 401/ 1993 دار الكتب الوطنية بنغازي

رقم الإيداع الدولي : ردمك 4 - 0164 - 0 - 9959 ISBN

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراته: هاتف: 614658 ـ 051 ـ 606086 ـ 021

ص.ب. 1459 ـ بريد مصور 619410 ـ 051

E-mail: daraljamahiriya@maktoob.com

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

وَقائِع وَمَشاهِير

رواية الأحداث التاريخية الكبرى

بأقلام شاهدي عيان 399 ق. المسيح ـ 1986 إفرنجي



إهداء

إلى بور سعيد.. العروبة 1956، وسرت التحدي.. 1986.

« وفيما بين التاريخين من انتصارات أو هزائم عربية، سينتهي بانتصار العروبة إن شاء الله ».

محمد المغربي

هذا الكتاب

يبسط التاريخ والسياسة والحرب بين يديك ويصدمك بعنف ودهشة.

فأنت تشرب السم مع سقراط وتعيش لحظة موته البطيء خطوة خطوة. وفجأة تشعر بنيران روما تشتعل حولك ونيرون يتلهى بمساخره الشهيرة، ثم تبكي لمن أكلت رضيعها في حصار القدس، وينهال فوقك بركان فيزوف بثورته الراعدة، لتنتقل إلى العشاء الساحر مع «أتيلاّ الهوني» خان المغول العظيم، وتغرق في الضحك على الحمار الممثل في شوارع القاهرة، وتصرخ في رعب لحظة إعدام «ماري» ملكة اسكوتلندة، بينما تنتابك الدهشة لرباطة جأش الجاسوسة «ماتاهاري» ساعة إعدامها، وتعيش معركة واترلو بعنفها وقسوتها، ثم يسود العار من ذلك الجنس البشري المتسلط حين تقرأ «العبودية في أمريكا»، وتغرق في أعماق المحيط مع السفينة الشهيرة «تيتانيك» لتملأك السخرية بعدها حين تعيش مع «جورج برناردشو» لحظة وفاة أمه، وتعيش بدايات الحربين العالميتين وتكتوي بنيران مُصابيها، وترى أول غواصة حربية وتتابع أول دبابة قتال في معركة، وتمضي مع الجيوش التي اجتاحت خط «ماجينو» العظيم، لتمتلىء بالرعب والدهشة مع انفجار القنبلة الذرية فوق «نجازاكي» الهادئة ثم تدخل مع جيوش الحلفاء مدينة برلين بعد أن دمرتها نيران الحرب الغربية المتوحشة، وتصعد إلى القمر مع أول من صعدوا إليه، لتسقط من أعلى الإنسانية إلى أدنى وحشية معاصرة في مذابح صبرا وشاتيلا. هكذا يطوف بك الكتاب الجديد من نوعه بين دفتي التاريخ.

المترجم: محمد المغربي ـ بورسعيد

مقدمـة

قبل تحرير أي كتاب عن «التحقيقات» عليك أن تقرر معنى كلمة «تحقيق». . وكيف يمكنك أن تميز بين الصحيح والسيء كي تُخبر عنه. ولقد قررت مبكراً بهذا الشأن، أن «التحقيق» يجب أن يكتبه شاهد عيان، وهو ما التزمت به معظم وقتي، بالرغم من أنني أحياناً اعتمدت نصاً لم يكتبه شاهد عيان بنفسه وإنما كُتب بناءً على رواية شاهد عيان آخر. . ومثالٌ على ذلك قصة «ويليام أوف نيوبورج» التي تدور حول طفلين لونهما أخضر هبطا إلى الأرض من أحد الأبعاد الفضائية الخارجية في منتصف القرن الثاني عشر، وهذا النص مثل باقي الاستثناءات الأخرى لقاعدة شاهدي العيان، التي تبدو ملائمة كي نجنبها هذه القاعدة، ويجب أن تُبنى على بعض الحقائق ذات النوعية المعينة، مهما كانت منتقاة.

هناك ميزة في الإصرار على الاعتماد على دليل شاهد العيان إذ إن ذلك يجعل الموضوع غير قابل للجدال في حقيقته، فكل المعارف المتحصلة من الماضي، والتي ليست مجرد افتراضات، مستقاة بشكل مطلق من الناس، الذين يمكنهم أن يقولوا: «إنني كنت هناك». مثل توكيدات الذين حضروا مصادفة أو الرحالة، أو المحاربين، أو القتلة، أو الضحايا، أو حتى كاتبي التحقيقات المحترفين الذين يمكن القول: إنهم كانوا هناك. . كما أن هناك ميزة أخرى نمطية، فتقديرات شاهد العيان تحمل مشاعر الحقيقة لأنها سريعة، وذاتية، وغير مكتملة. . عكس الرواية المعاد بناؤها أو الموضوعية التي تكون مرهقة ولا حياة فيها.

ومن أجل التركيز الحاد فَضّلتُ أن تكون الأحداث التي يمكن تأريخها باليوم والشهر والسنة، وأحيانا في العصور المبكرة والتي لم تع التاريخ جيداً كان عليَّ تنمية هذا المطلب. وحتى في الفترات التالية تركت النص الغريب الذي يظل غير واضح بالنسبة لتاريخ حدوثه إذا كان مؤكداً بطرق أخرى مثل نص «مذكرات و.هـ. هدسون حول إجازة على ساحل نورفولك». وعلى أية حال فإن القاعدة العامة بشأن التاريخ تبقى كما هي وكاتب التحقيق هو «مُخبر» يعمل في منطقة عامة ويجب أن يكون موضوع تحقيقه غير خيالي أو مختلق. وإنما يجب أن يتعلق متحققاً بزمن الواقع.

ولا يعني هذا أن «التحقيق» يجب أن يدور حول الأحداث الهامة، فقد كان عليَّ أن أختار ـ في البداية ـ بين مبدأ الاختيار الذي يضع أولوية على مادة الموضوع «وما إذا كان هذا الحدث له أهمية تاريخية؟» والمبدأ الذي يعتمد على أولوية جودة الكتابة وعرض الملاحظات، وقد اخترت المبدأ الثاني على أساس أنه لا شيء يعد هاماً أو غير هام إلاّ من خلال إدراكه.

وبالطبع فإن الكثير من النصوص المنتقاة هنا ليست ـ بالرغم من ذلك ـ خاصة بالأحداث التاريخية الضخمة، لأنها من نوع الأحداث التي يميل الناس إلى تسجيلها حال وقوعها إذا تصادف وجودهم حولها. . ولكن كيما نعطي مثالاً للنوع الآخر، فمن النصوص التي يجب أن أدافع عنها بشدة إذا ما اقترح عليَّ أحد أن أدعها جانباً «المدخل ليوميات جو إيكرلي» التي تدور حول الخروج في رحلة لصيد الأرانب برفقة صبي صغير ذات مساء. ومن الواضح أنه حدث تافه في مضمونه، ولكن لأنه يخبرنا عن الكيفية التي يتكيف بها صبي صغير مع عملية القتل، فهو حدث هام يسجل فقدان البراءة التي لاحظتها عدسات «إيكرلي» اللماحة، وهي مرتبطة بكل المذابح والمآسي التي يحفل بها هذا الكتاب.

وبعض تعريفات «التحقيق» تُصر على أنه يجب أن يُكتب في عنفوان لحظة الحدث عاكساً الاندفاع والتركيز والجهل بما ستسفر عنه الأحداث فيما بعد وكل ما يتعرض له كاتبو التحقيقات.

وهناك كثير من هذه التحقيقات «وليدة لحظتها» في هذه المجموعة، وبعضها يحظى بالأهمية من خلال المكان الذي حدث فيه مثل «عُجالة جيتسبورج» التي كتبها صامويل ويلكنسون بجوار جثة ابنه، ولكن أن نكتفي بجمع القصص ذات الاستجابات الفورية فقط يبدو أمراً مستعصياً، لذا مررت أيضاً على السِّير الذاتية وكتب الرحلات، والتي ـ غالباً ـ ما تكون قد كُتبت بعد الحدث بفترة طويلة. وعندما يترك لنا كاتبان مثل «ريتشارد هاردنج دافيز» و «ويب ميللر» تقريرين مختلفين لحادث واحد: تقرير في عمود من أعمدة الصحيفة، والآخر في مذكراتهما التي تستغرق جهداً أكثر، فإنني أعمد إلى اختيار الأخير.

ما الذي يجعل «التحقيق» الجيد جيداً؟.. إننا نجد المساعدة في الإجابة على السؤال في نص «ستيندال» «أمينة المحفوظات لمدينة بارم» ويدور حول تجربة «فابرزيو» في «واترلو»، فهو إنسان بريء، ولم يشهد معركة من قبل، وقد أزعجته الفوضى الضاربة أطنابها حوله، وحيث إنه لم تكن لديه أدنى فكرة عما يجب أن يفعل، فقد قام بنفس حركات من هم حوله، وقد امتلأ ذهنه ـ لبُرهة ـ بالخيالات الرومانسية حول المارشال «نيّ» الذي رآه يسير قريباً منه وحوله حراسه، وفجأة تحركوا جميعاً في هرولة سريعة، وبعد دقائق قليلة رأى «فابرزيو»، وعلى بُعد عشرين خطوة أمامه، قطعة من الأرض المعدة وقد حُرثت جيداً بطريقة مميزة، كما كانت قيعان مجاريها ممتلئة بالمياه، وكانت التربة المبتلة ـ والتي كانت تشكل حواف لهذه القنوات ـ تتطاير في كتل صغيرة سوداء تعلو ثلاثة أو أربعة أقدام في الهواء، ولاحظ «فابرزيو» هذا التأثير الغريب أثناء مروره، وحينئذ عاد ذهنه للحلم بالمارشال ومجده، ثم سمع صرخة حادة بجواره، كانت صادرة عن اثنين من الخيّالة سقطا مصابين بطلقات الرصاص، وعندما نظر إليهما كانا على بعد عشرين خطوة تماماً خلف الحرس.

«هاه، أخيراً ها أنذا تحت النيران ـ قالها لنفسه مستطرداً ـ لقد رأيت إطلاق النيران ـ كررها بشعور من الراحة ـ الآن أنا جندي حقيقي». عند هذه اللحظة بدأ الحرس يعدو في خطوات مضطربة، وقد أدرك بطلنا أنه قد أصيب من الأسلحة

التي كانت تجعل الأرض تتطاير عالياً في كل مكان حوله.

و «ستيندال» هنا أعد نصه ليتجنب العلاقات المعتادة بين اللغة والواقع وقد أوضح لنا ما يراه «فابرزيو» بالفعل فقط «كتلاً سوداء صغيرة متطايرة في الهواء» وبعد لحظات يعطينا المصطلح اللغوي الذي يرمز لذلك «إنني تحت النيران» وذلك كي نندهش نحن و «فابرزيو» معاً - إلى حد ما - باكتشاف ما يحدث. وبهذه الوسيلة يذكرنا إلى أي مدى، تبتعد مثل هذه التراكيب اللغوية عن الواقع، ويكرر «فابرزيو» هذه التركيبة اللغوية لنفسه بارتياح، لأنها طريقة اللغة في تضمين الاستحقاق لما هو بصدده وهي أيضاً طريقة اللغة في استقبال مضمون هذا الاستحقاق وضمه إلى مجموعة ضخمة من المعلومات والخبرات المتينة، وقد تنعمت وأضحت بلا ملامح نتيجة الاستعمال المتواصل والذي يشكل غالباً معظم مجريات الحياة.

إن قوة اللغة كي تواجهنا بما يمتلىء حياة، أو بما هو مرعب أو بغير المعتاد تتوازن - فقط - بنقائض ذلك، أي بقوة اللغة في حجب مثل هذه المنبهات، حتى لو كانت تلك القوة متاحة لمستخدمي اللغة، لكن التحقيق السيء يميل بثبات نحو جناح المعادلة الثاني. وأي إنسان يقوم بجمع مختارات أدبية من هذا النوع لا بد له أن يمر خلال ذلك. وكمثال على هذا، مئات من صفحات المعارك تمتلىء بعبارات من قبل «إن حصاننا قد أوقع بالجناح الأيمن للعدو غُرماً فادحاً» أو «إن السرية الرابعة قد نفذت أحكام إعدام مروعة بالسونكي» تلك الإيماءات المُسهبة التي باستخدامها الشاذ لصيغة «المُفرد» كبديل لصيغة «الجمع»، وبحذفها لأي كلمة تعني القتل في حذر غير مُبرر، قد صُممت لتحيير وإخفاء خبرات يرى فيها الكاتب أنها جد مخيفة، أو أنها غير ملائمة، أو أنها معتسفة لمستقبل النظام الصحيح، أو الانضباط العسكري إذا ما كُتبت مباشرة، من هذه «الكنايات» تبرز وظيفة رئيسية للغة ألاَ وهي أن تبقى الحقيقة راكدة فوق الرصيف.

ومن الملامح المُميزة للتحقيق الجيد، أن يقاتل هذا التحقيق الانسحاب - المخطط له والمُغري - بعيداً عن الحقيقة مهما كان جيداً.

فالتحقيق الجيد لا يستطيع بطبيعة الحال أن يتخطى اللغة، لأنه لغة في حد ذاته. ومن بديهيات نظرية نقدية حديثة تقول بأنه لا توجد حقائق يمكن الوصول إليها، لكن توجد فقط نصوص ترتبط ببعضها البعض في علاقات متداخلة، وحتى لو كان الكاتب يعتقد أن سعيه الدؤوب لفصل «التفردات» التي سوف تجعل من عمله حقيقة أمام القُراء، ليس مجرد شيء مكتوب، وإنما هو شيء يرى، إلاّ أنه على الكاتب الجيد أن يبذل وسعه كي يمنع ذلك.

وهذا الكتاب يمتلىء «وقد قصدنا منه أن يكون كذلك» بالعديد من الصور غير المعتادة وغير المقبولة، والطارئة والتي تطبع نفسها بألم على عين العقل؛ كالسفير الذي يحملق في مقدمة أسفل رداء الملكة إليزابيت الأولى متأملاً التجاعيد، وفتحتا أنف «جولويس» الشبيهة ببندقية صيد مزدوجة الماسورة، و«ماتاهاري» ترسم على جوربها الشفاف صباح يوم تنفيذ حكم الإعدام فيها، وناهب التاميل يُنهي مشاهدة فيلم كرتوني حول كرات تنس «سلازنجر» الثلجية، وذلك لحظة سقوط كوالالمبور، وريتشارد هيلاري يغلق عيناً واحدة ليرى شفتيه مثل إطارات المحرك، والرجال في «جاليبولي» يصرخون لأنهم كانوا متسخين، والصلب غير المغُلّف في «بالاكلاڤا» يشبه «عودة أسراب الماكريل»، والقاتل «بوث» وقد علق كعب حذائه بالأقمشة حول صندوق لنكولن، و «بليني» يشاهد الناس بأغطية حول رؤوسهم تحميهم من الرماد الساقط من بركان ثائر، و «ماري» ملكة سكوتلندا «فجأة وقد علتها الشيخوخة في الموت» وكلبها فزعاً بين ردائها ورأسها معلق بقطعة غضروفية واحدة تمردت على القطع، والإيرلنديون الذين يتضورون جوعاً بأفواههم الخضراء بسبب غذائهم المقتصر على الحشائش.

إن هذه الأعمال تقدم تاريخاً، لكنه تاريخ مُبعد عن التعميمات، فالكُتّاب غرباء أمام المعرفة اللانهائية، وقد أزحنا بريق التفسيرات حتى يمكننا رؤية البشر بوضوح، كما كانوا في الأص ل - يحملقون بدهشة فيما كان يحدث في هذه اللحظة، التي يقع فيها أكثر الأحداث جدة أمامهم. ولتحقيق هذا التأثير، فإن تحقيق الكاتب يجب أن يكون ذاتياً، إذ لا بد أن يستعيد في خبراته التفرد الذي

يمتلكه بصدق، والذي تحاول اللغة القشرية أن تسرقه، وقد دلل «نيتشه» على أن اللغة قد تطورت أساساً لتحجب الإنسان عن ذلك الخضم الذي لا يمكن تخيله لواقع ما قبل اللغة، والذي فيه كل شيء، كل شجرة، وحجر، ونسمة هواء كانت متفردة. ولتبسيط هذه المتغايرات العقلية المختلطة فإن اللغة توفر لنا أطراً لفظية مثل: حجر، شجرة، ريح، تسمح للإنسان أن يعممها، ورغم أننا اعتبرنا ذلك مكسباً فقد جر وراءه الخسارة، لأن الفردية التي يمتلكها كل كائن بالفعل أضحت مخبوءة الآن تحت عباءة الكلمات الرمادية.

والكاتب الجيد يجب أن يقاوم هذا، ويقاوم اللغة والتحقيقات التي تنزلق إلى التشابه، ونتائج هذا الانزلاق تبرز ملامحها في رواية «ميشيل فرايان» «صانع الزنك» وتصف الرواية معهداً للبحوث حيث تتم برمجة عقل آلي لإصدار صحف يومية تحوي كل أنواع الموضوعات، ويحتوي العقل الحاسة الصحفية نحو المادة المتفوقة، لكنها لا تحمل أية علاقة مع الأحداث التي تقع بالفعل، وقد نظم مبرمجو العقل الآلي استقراءات جماعية لتحديد القصص الإخبارية التي يفضلها الناس، وكيف يريدونها أن تتكرر، وأي التفاصيل يفضلون أن تشملها هذه الأخبار، وهل يجب أن تكون هناك قصة تحطم طائرة كل شهر، أو أكثر قليلاً؟ وهل من الأفضل أن توجد ألعاب الأطفال بين الحطام أم لا؟ ولو أن حادثة اغتيال ذُكرت، هل يجب أن تكون الضحية ـ تفصيلاً ـ فتاة صغيرة، أم سيدة عجوز أم امرأة صغيرة حملت سفاحاً، وهل يجب أن تكون الجثة عارية أم ترتدي ملابسها الداخلية؟، وعندما يجمع العقل الآلي متطلبات القُراء ويحللها، يصبح بإمكانه إخراج صحف يومية وشعبية بلا حدود، دون المضايقات والنفقات الأساسية في العمليات الحقيقية لجمع الأخبار.

وسخرية«فرايان» تسلط الضوء على الصعوبات التي يواجهها الكاتب.. فالتراكمات المتزايدة من اللغة المؤطرة وفقاً لمستويات مُثلى والخطوط القصصية الجاهزة تقبع في الانتظار، مستعدة لكي تقفز من بين أصابعه إلى صفحات الطباعة، وبمعنى من المعاني، تلك هي مشكلة كل كاتب، لكنها أسوأ بالنسبة

لكاتب التحقيق، لأنه يجب أن يبقى صادقاً مع الواقع، فبالرغم من استمرارية تَغَرُّبِهِ عن هذا الواقع. يجب عليه أن يراه، ويخبرنا عنه، كما لو كانت هذه هي المرة الأولى. وهذا يثير صعوبة أخرى، إذ على الكاتب الجيد أن يزرع عيناً بريئة، لكنه هو نفسه يجب ألاّ يكون بريئاً، فماذا يمكن أن تشبه البراءة في كتابة التحقيقات؟، ذلك ما نستطيع أن نقدره من خلال وصف «تولستوي»، في قصته «الحرب والسلام»، لرد فعل «ناتاشا» التي دخلت ـ لأول مرة في حياتها ـ عرضاً مسرحياً وشعرت بالخجل لحضورها شيئاً بمثل هذه الغرابة: «لوحات خشبية ناعمة شكلت مركز خشبة المسرح وعلى الجانب ترتفع لوحات من النسيج المشغول الملون، تمثل أشجاراً، وفي خلفية المسرح مُدَّ نسيجٌ قماشي على لوحات خشبية، وفي منتصف المسرح، جلست بعض الفتيات بقمصان «بلوزات» حمراء وتنورات «جونلات» بيضاء، وكانت هناك فتاة ضخمة في رداء حريري أبيض تجلس وحدها على مقعد منخفض أُلصقت على ظهره ورقة كرتونية خضراء، وكُنَّ كلهن يغنين شيئاً ما، وعندما أنهين غناءهن الجماعي، تقدمت الفتاة ذات الرداء الأبيض نحو صندوق الملقن، وجاء إليها رجل له أقدام ممتلئة وملفوف بأربطة حريرية، ريشة مثبتة على قبعته، وخنجر على وسطه، وبدأ يغني محركاً ذراعيه حوله». وعلى الكاتب الجيد أن يحوز بعضاً من الحَرْفية المترامية التي تملكها ناتاشا ويجب أن يرى مثلها، ما يوجد هناك، وليس ما هو مقصود من وجودها، ولكن ما قامت به ناتاشا لن يقوم ـ بوضوح ـ مقام أي مقابلة أوبرالية. فهي جاهلة، وكاتب التحقيق لا يمكن أن يكون كذلك، فمن مهام عمله أن يعرف، وهو يجب أن يكون الخبرة المسربلة بالبراءة، كما كان «تولستوي» عندما جمعهما معاً في عقل «ناتاشا».

لماذا نحتاج إلى التحقيق؟ من الواضح أننا فعلاً نحتاجه، لأن هناك مئات الآلاف من الكلمات بهذه التحقيقات تنتج يومياً لتشبع نهم هذا العالم، وبالرغم من أنه ما زالت هذه تطوراً حديثاً نسبياً لكنها أضحت ممكنة بفضل التقنية الحديثة وتعليم الجماهير، وأخطر هذه المستحدثات قوانين التعليم التي ظهرت أواخر

القرن التاسع عشر، وابتكار المبرقة الكهربائية، التي أُستخدمت لأول مرة بواسطة المراسلين الأمريكيين أثناء الحرب الأهلية، وعندما جاؤوا إلى أوروبا لتغطية الحرب البروسية ـ الفرنسية، قاموا بالإبراق لصحفهم داخل الوطن، بالعديد من قصص المعارك وسرعان ما تبعتهم الصحف الشعبية البريطانية.

وفي سبتمبر/ الفاتح عام 1870 افرنجي، سافر «ويليام هوارد روسيل» بنفسه وهو المراسل المتطوع إلى «كريميا» من ميدان المعركة في «سيدان» حتى وصل ميدان «برنتنج هاوس»، وظل يكتب طوال الليل، لتكون قصته المأساوية حول المذبحة جاهزة لجريدة «التايمز»، لكن صحف لندن الأخرى مستخدمة المبرقة، كانت قد نشرت أخباراً عن النصر الألماني قبل يومين مضيا، وفي السنوات التي أعقبت ذلك، أستخدمت نتائج هذا التقدم بواسطة جماهير القراء بشكل متزايد.

فيما بين عام 1880 افرنجي وعام 1900 افرنجي تضاعف عدد الصحف، وبكل الدلائل فإن ظهور وسائل الاتصال الجمعي يمثل أعظم تغيير في الوعي الإنساني حدث في التاريخ المدون؛ فالتطور خلال أحقاب قليلة من موقف كان فيه أغلب سكان الكرة الأرضية لا يملكون معرفة كيف يحيا الآخرون يوماً بيوم، إلى موقف تمتلىء فيه كل فراغات عقل الإنسان العادي ـ ويجب أن يُعاد ملؤها يومياً أو كل ساعة، ما لم يستتبع ذلك شعورٌ بالاضطراب ـ بتحقيقات دقيقة حول الأفعال كلية الغرابة، يُمثل ثورة في النشاط العقلي لا يمكن حصر تأثيراتها. وبالنسبة للإنسان في بداية هذا العصر، يصبح الموقف الحالي غير مفهوم. ففي مسرحية بن جونسون «عِمَادُ الأخبار» تتمحور استحالة البرهنة الذاتية في جمع الأخبار كنشاط إنساني، لكن التاريخ لم يعضد أحكام بن جونسون، إذ من الصعب على إنسان عصر الاتصالات أن يتخيل ما كان يفكر فيه إنسان ما قبل عصر الاتصالات، ولكننا إذا ما تساءلنا عن البديل الذي كان يحل محل التحقيق قبل أن يصبح متاحاً لجميع الملايين المستفيدة منه، فإن الإجابة المُثلى تتمثل بلا شك في أنه. . الدين.

ولا ندعي ـ بالطبع ـ أن إنسان عصر ما قبل الاتصالات كان متديناً بعمق ـ على وجه العموم ـ إذ هناك عديد من البراهين التي تفترض أنه لم يكن كذلك، لكن

الدين كان هو السر الدائم لوجوده، مثلما يشكل التحقيق ذلك من جانبه العصري، فالتحقيق يمد إنسان العصر بحاسة ثابتة ومؤكدة للأحداث تتخطى ما وراء أفقه الآني. «وهي مُطَمئنةٌ حتى ـ أو بخاصة ـ عندما تكون الأحداث نفسها مفزعة» طالما تتناقض مع الأمن المفترض للقارىء فتدفعه للارتياح «كما يمد التحقيق، الإنسان العصري أيضاً بانطلاقة من نظم حياته المتواترة «الروتينية» المنافسة، ووهم الاتصال اليومي المعتاد بالواقع، أكثر من ذات الإنسان نفسه، وبكل هذه المعاني، فالدين يفرض نفسه بديلاً مثالياً يمكن أن يتوافى لإنسان ما قبل هذا العصر في كل معدلات الغرب.

وعندما نرى التحقيق تابعاً طبيعياً للدين، فإن ذلك يساعدنا أن نفهم لماذا يجب أن يتناول التحقيق موضوع الموت بعمق، في جميع أشكاله: اغتيال، مذابح، حوادث، كوارث طبيعية، حروب إلى آخره، وهو الموضوع الذي يتجاذب معه التحقيق بالطبيعة. وهناك صعوبة وحيدة في تجميع مختارات من هذا النوع، هي إيقاف هذه التحقيقات عن أن تصبح خيطاً من المذابح، والدين أضحى الإجابة التراثية للجنس البشري حول الموت، يسمح للإنسان بالاعتقاد في وجود أنواع مختلفة من الديمومة تجعل من وجوده الفاني احتمالاً أكثر أهمية ينفي خوفه من ذلك الفناء كله. والمسيحي الذي يؤمن بخلود الفرد مثال واضح ومطلق لذلك، والتحقيق بديلاً عن الدين أخذ يمد القارىء بأسباب الموت عند الآخرين، ولهذا يضعه باستمرار في مكان الذي يحيا، كواحد يهرب من العنف أو النهايات المرعبة التي تحدث لآخرين. إن التحقيق ينبه وعي الإنسان بحيوية، وبهذا الطريق يمنح التحقيق الفرد إحساساً مريحاً بخلوده مثلما يفعل الدين!

ولو أنجز التحقيق مهامه المختلفة كاملة يصبح واضحاً أنه سيحظى بالقيمة الاجتماعية مقارنة بما حظي به الدين من قبل، إلاّ أن قيمته الثقافية أصبحت تُعد مما يمكن تجاهله عموماً، ـ باستثناءات قليلة محببة مثل ما كتبه «مارك توين» بعنوان: «البريئون في الخارج» التي عُدَّت من باب الأدب لأن كاتبها أخرج لنا كُتباً أدبية جيدة. والسؤال عما إذا كان التحقيق يُعد أدباً أم لا هو سؤال ممتع في ذاته،

أو حتى هو سؤال له معنى، والأدب - نحن نعمل الآن - ليس إطاراً موضوعياً مؤكداً يمكن أن تصنف خلاله أعمالٌ بعينها بشكل طبيعي، لكنه مجرد مصطلح تستخدمه المؤسسات والمعاهد والجماعات المستحوذة على الثقافة، وذلك لتكريم نصوص يريدون أن يُضفى عليها الكثير من الأهمية لسبب أو لآخر، والسؤال الذي يستحق أن يُسأل - لذلك - هو ليس ما إذا كان التحقيق أدباً أم لا، ولكن هو: لماذا يصر المثقفون والمعاهد الثقافية والأدبية عموماً على إنكار حق التحقيق في هذا الوصف؟. ولا مبالاة الجماهير - الذين يُعتبرون مشاهدو التحقيق -، عامل واضح في تنمية هذا الحكم المتعسف، والمصطلحات التي تستخدم للتعبير عنه غالباً ما تكون مصطلحات اجتماعية في تطبيقاتها.

يقولون «الثقافة» تتمايز عن «الفجاجة» بأنها عالية، وذلك كي يمكن توصيف التحقيق، ولكن الاستخفاف بالتحقيق يعكس رغبة في تفضيل الخيال على الواقع، وأعمال الخيال تعد متفوقة بالوراثة - كما يشاع - ولها قيمة روحية تفتقدها الصحافة، والفنان المبدع يكون على علاقة بحقائق أبعد من الواقع تفسح له مدخلاً انفرادياً إلى روح الإنسان. ومثل هذه الإدانات تمثل بقايا التفكير الخرافي، وإن معين الأخيلة المتعالية التي توضح توجهاتها، كالتأكيد على الطهارة وتجنب الدنس الأرضي، والميل نحو الإيمان بالإلهام، كلها تعود للمحيط التراثي لمرحلة الرهبنة والطقوس الغيبية.

وأولئك الذين يحملون مثل وجهات النظر هذه حول الأدب، يميلون كذلك إلى تحقير المحاولات النقدية التي تربط بين أعمال الكاتب وحياته، ويقال أن توجه الأدب للسيرة الذاتية يحط من قيمته بربطه بالواقع المجرد، إذ علينا أن نطلق النصوص الأدبية من قيد مؤلفيها ونتأملها نقية وغير مجسدة، أو بأية معدلات أخرى، نتأملها بصحبة نصوص أخرى تتساوى معها في النقاء وعدم التجسد والهيمنة الغيبية التي تقبع وراء مثل هذه الإملاءات مثيرة باعتبارها ملامح للثقافة البدائية، لكن يصبح من الخطأ إعطاؤها عناية جادة كأدلة حجية، والمزايا التي يتمتع بها التحقيق فوق الأدب المتخيل - على الجانب الآخر - هي الوضوح،

في حين يعتمد الأدب الخيالي على «التعلق المرغوب في عدم الاعتقاد» في إحداث أثره في نفوس مشاهديه أو قرائه، وهذا يجر بالضرورة عنصراً من عناصر اللعب أو الحيل أو خداع النفس. أما التحقيق ـ فعلى النقيض ـ يضع دعواه مباشرة على قوة الواقع، الذي يستطيع الأدب المتخيل أن يقترب منه فقط من خلال الإيهام.

وقد يصبح من الحمق أن نُصغر من قيمة الأدب المتخيل بالطبع في هذا المجال، لكن الحقيقية أنه ليس من الواقع اعتبار الأحزان والحب والموت، كلها ادعاءات لسبب واحد ـ هو لماذا يمكنه أن يتحملنا هذا الواقع؟ إنه حلم يمكننا أن نفيق منه عندما نشاء، وهكذا يمدنا من بين الضرورات الراسخة للحياة الواقعية، بوهم ثمين حول الحرية، ويسمح لنا أن نستخدم للتعبير عن انفعالات المتعة والتعاطف ألفاظاً مثل الغضب، والخوف والشفقة إلخ، التي قد تظهر في الظروف الطبيعية فقط في مواقف الألم أو التعب، وبهذا المنحى يحرر حياتنا الانفعالية ويمتد بها. ويبدو من المحتمل أن التحقيق يُقرأ كما لو كان خيالاً بواسطة غالبية قُرائه، فاضطراباته وكوارثه لا تؤثر فيهم مثل الواقع، وإنما باعتباره ينتمي لعالم ظلّ يُعبِّر عن اهتماماتهم الخاصة، ويدون واقعهم المتضاغط، ولهذا السبب فالتحقيق يمكنه أن يحل بديلاً للأدب المتخيل في حياة أغلب الناس. فهم يقرأون الصحف بدلاً من الكتب، بل وصحف قد تكون خيالية أيضاً مثل تلك التي ابتدعها «فرايان» في روايته «صانع الزنك».

ومهما كان ذلك ممتعاً، فهو يمثل بالطبع، هروباً من الواقع كما يفعل الأدب المتخيل، والتحقيق الجيد مُصممٌ بحيث يجعل هذا الهروب مستحيلاً. فهو ينفينا من عالم الخيال إلى أرض الحقيقة، فجميع كُتَّاب الواقعية العظام في القرن التاسع عشر: بلزاك وديكنز وتولستوي وإميل زولا، اقتدوا بتقنيات التحقيق، والأعمال المبنية على شهود العيان والقصص الصحفي، وأدخلوها في أعمالهم الخيالية، وذلك لإعطائها مسحة الواقعية المُكبرة، لكن الهدف الذي ناضلوا من أجله ظل بعيداً عن متناولهم، فاستطاعوا ـ على أفضل التقديرات ـ إنتاج تحقيقات مُقلَّدة،

تنقصها أكثر محتويات التحقيق حيوية وهي الحقيقة البسيطة التي يعلم القارىء أنها تحدث بالفعل.

ولكي نختار مثالاً بارزاً لذلك، عندما نقرأ أعمالاً عن كارثة كتبها الباقون على قيد الحياة أو المشاهدون، (وبعضها قد ضمنّته كتابي هذا)، فنحن لا يمكن أن نطمئن أنفسنا ـ كما نفعل عندما نضطرب بقراءة الأعمال المؤلمة في الروايات الواقعية ـ بتذكير أنفسنا أنها ـ بعد كل هذا ـ مجرد قصة؛ فالحقائق المقدمة تستوجب إدراكنا وتتطلب الاستجابة، رغم أننا لا نعرف كيف، ونحن نقرأ التفاصيل؛ . . وقد سيطر علينا عدم التوازن، وبرغبة ساخرة في المساعدة، بالشفقة التي لا تشفع ولا تنفع، وربما لا تكون عديمة النفع كلية، لأنه عند هذا المستوى «وهذا ما يأمله الإنسان» يُغيِّر التحقيق من قرائه، فلربما يُرِّبي عواطفهم، أو ربما يمد ـ في كلا الاتجاهين ـ أفكارهم حول ما يجب أن يكون الإنسان، وقد يحد من استعداداتهم كي يصبحوا «لا آدميين». وهذه المكاسب قد نُسبت ـ وفقاً للمتواضعات ـ للأدب المتخيل. لكن طالما أن التحقيق ـ خلافاً للأدب ـ يرفع الغشاوة عن الواقع، فدروسه تكون ـ ويجب أن تكون ـ إخباراً أكثر. وطالما هو يصل للملايين التي لم يلمسها الأدب فهو يمتلك إمكانات متعاظمة لا يمكن حصرها.

وعبر السنوات الأربع الماضية، ضايقت بانتظام أصدقاء لي ومعارف، وبعض الغرباء الذين فضلت أن أنظم عدة مناقشات معهم، كاقتراحات لما يجب أن يشمله هذا الكتاب. آمل أن يقبلوا مني شكراً عاماً ـ وإن كان من القلب ـ لصبرهم ومساعداتهم، وبالرغم من ذلك يجب عليَّ أن أبرز «كريج رايين» لشكر خاص، لأن الكتاب كان أساساً فكرته، وقد كان كريج قيمة لا تُقدر في جميع مراحل الكتاب منذ ذلك الحين.

جون كاري ـ أكسفورد

يناير ـ 1987 افرنجي

الوباء في أثينا

«عام 430 ق. المسيح»

*** ثوسي ديدز**

«الوباء في أثينا لم يمكن تشخيصه بأي مرض معروف، إلاّ أنه يحمل بعضاً من أعراض حمى التيفوس».

. . بدأ المرض ـ كما يقال ـ في أثيوبيا ما وراء مصر، ثم هبط إلى مصر وليبيا، وبعد ذلك انتشر فوق معظم أراضي الملك، ثم انقضّ فجأة على مدينة أثينا، وقد هاجم أولاً سكان مدينة «بيريه» وسوف أصف مجراه الفعلي، شارحاً أعراضه، من خلال الدراسة التي يصبح بها المرء أفضل قدرة على التعرف على هذا المرض ـ بعدما خبرته بنفسي ـ لو أنه ظهر مرة أخرى، لأنني أصبت بهذا المرض، نفس كما رأيت آخرين يمرضون به.

تصادف أن ذلك العام ـ كما اتفق على ذلك الجميع ـ كان خلواً من المرض إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأمراض الأخرى، لكن لو سقط أي شخص مريضاً، يسقط معه الجميع في المرض ذاته، وفي حالات أخرى ـ ودون علة واضحة ـ وإنما فجأة ـ وهو في تمام صحته يصاب الإنسان بحرارة مرتفعة في الرأس واحمرار والتهاب في العينين ويتحول كلاً من اللسان والحلْق داخل الفم إلى اللون الأحمر الدموي ويزفر أنفاساً غير طبيعية وكريهة. وفي المرحلة التالية يبدأ في إصدار شخير وأصوات مزعجة من أنفه، وفي وقت قليل يهبط الخلل إلى صدره، مصحوباً بسعال «كحة» حاد. وعندما يصل إلى المعدة، يكون هنا الاضطراب إذ يقيء السوائل المعدية الصفراء من جميع الأنواع التي صنفها الأطباء وتكون مصحوبة بألم عظيم، وفي أغلب الحالات يتبع ذلك قيء فارغ بسبب تقلصات عنيفة، تختفي أحياناً على الفور وقد تستمر لفترة طويلة. ومن الخارج لا يكون

الجسم دافئاً لدرجة يصعب فيها لمسه ولا يكون شاحباً لكنه يميل إلى الحُمرة كما يمتلىء بالبثور والتقرحات، وهو داخلياً يكاد يهلك من حرارة لا يتحمل معها المريض أن يغطى بأي غطاء وإن خف، بل إن بعض المرضى فضلوا أن يبقوا بلا غطاء ويتمنون لو ألقوا بأنفسهم في الماء البارد، وبالفعل فإن بعضاً ممن لم يحظوا بالرعاية ألقوا بأنفسهم في خزانات المياه، فقد أضناهم الظمأ الذي لا يمكن إرواؤه، لكن كان كل شيء يظل كما هو سواء أشربوا كثيراً أم قليلاً.

وقد أصيبوا بالأرق وعدم الراحة اللذين لم ينتهيا أبداً، رغم عدم ذبول أجسامهم والمرض في أعلى درجاته، لذا كانوا يقاومون ـ بصورة مدهشة ـ هجمات المرض المدمرة، حتى إنه عندما يموت المريض ـ كما يحدث لغالبيتهم ـ في اليوم السابع أو التاسع من شدة الحرارة الداخلية، يكون ما زال لديه من قوته، أو إذا مروا بالأزمة، ينتقل المرض إلى منطقة الحوض «أسفل الجسم» مُحدثاً تقرحات عنيفة وإسهالاً شديداً في الوقت نفسه حتى إنه في هذه المرحلة الأخيرة من المرض يموت معظم المرضى من الضعف الذي يُحدثه هذا الإسهال. وبالنسبة للمرض الذي يبدأ من الرأس حيث يتمركز في البداية ماراً إلى أسفل حتى ينتشر خلال أجزاء الجسم، ولو أن شخصاً ما اجتاز مرحلة الخطر، فهو يستحوذ على الأطراف حيث يترك علاماته هناك في النهاية، لأنه يهاجم أعضاء الجسم والأصابع والأنامل، والكثير أفلت بعد أن فقد هذه، بالرغم من أن بعضهم فقد عيونه أيضاً.

وفي بعض الحالات يصاب المريض بفقدان الذاكرة فور شفائه، الذي يمتد إلى كل الأشياء المألوفة حتى إنهم يفشلون في التعرف على أصدقائهم وعلى أنفسهم. والأكثر رعباً بشأن هذا المرض، ليس فقط الانهيار الذي يصيب الضحايا بمجرد أن يعلموا أنهم أصيبوا بالمرض لأن عقولهم تستسلم فوراً لليأس، ويتركون أنفسهم للضياع بدلاً من المقاومة، لكن أيضاً حقيقة أنهم قد حملوا العدوى بتمريض بعضهم البعض والموت مثل الغنم، لكن علاوة على الاضطرابات التي كان يعمل في ظلها الأثينيون، فقد عانوا أيضاً من صعوبات أخرى ترجع إلى

تكدس المدينة بالناس القادمين من مقاطعات الريف. وهذا أثّر على القادمين الجدد خاصة، حيث لم تكن تتوافر مساكن لهم ووجب عليهم أن يعيشوا في أكواخ خانقة في فصل الحر، وكانوا يموتون في فوضى وحشية.

أجساد الموتى فوق بعضها، وأشباه الموتى يتدحرجون في الشوارع، ولشوقهم الشديد للماء، يتجمعون بجوار جميع النافورات، وفي المعابد أيضاً - حيث وطنوا أنفسهم - امتلأت ساحاتها بجثث من مات فيها، لأن النكبة التي تثقل كاهلهم كانت أكثر من احتمالهم لدرجة أن الرجال - لأنهم لم يعرفوا ماذا سيحدث لهم - أصبحوا غير مبالين بالقوانين، المقدس منها أو البشري. أما العادات التي التزموا بها حتى ذلك الحين في الدفن، فقد ضاعت كلها في الفوضى، ودفنوا موتاهم كل بقدر استطاعته، وعديد منها كان يندى له الجبين أثناء الدفن لأن أفراداً عديدين من الأقارب ماتوا بالفعل، لكن كان هناك عجز في أدوات الجنازة السليمة. وبالالتجاء إلى محرقات أناس ما، فالبعض يتعجلون هؤلاء الذين بنوا المُحرقة، يضعون ميتهم ويشعلون النار، والبعض الآخر يقذفون بالجثة التي يحملونها فوق أخرى تكون قد احترقت بالفعل وتناثرت هباء.

الإغريق يسيرون نحو البحر

«عام 401 ق. المسيح»

*** زينوفون**

بعد هزيمة سايروس «الفارسي» الذي كان يساعده، قاد زينوفون جيشه من المرتزقة الإغريق صاعداً وادي نهر دجلة وعبر أحراش منطقة كردستان نحو البحر الأسود في تراجع ملحمي. وكانت مسيرة اليوم الثالث هي الأصعب، فالرياح الشمالية تلفح وجوههم وتقطع كل ما يصادفها تقريباً كالسكين، وتجمد البشر لدرجة التيبس. حينئذ اقترح أحد المنجمين أن يقدموا أضحية من أجل الرياح وسرعان ما نفذ اقتراحه، وقد اتفق الجميع على أنه كان هناك هبوط واضح في عنف الرياح، بعدئذ كان عمق الجليد ستة أقدام دفن فيه العديد من الحيوانات والعبيد ومعهم حوالى ثلاثين من الجنود.

وقد حافظوا على نيرانهم مشتعلة طوال الليل حيث توافر الكثير من الخشب في المكان الذي خيّموا فيه، بالرغم من أن هؤلاء الذين أتوا متأخرين لم يحصلوا على أية أخشاب، وما كان الذين أتوا مبكرين وأشعلوا نيرانهم ليسمحوا للمتأخرين منهم بالاقتراب من نيرانهم ما لم يعطهم هؤلاء نصيباً من قمحهم ومواد غذائية أخرى لديهم. وهكذا شارك كل طرف الآخر ما يملكه، وعندما تأججت النيران، تكونت ثقوب كبيرة تصل إلى سطح الأرض حال انصهار الجليد. وبذلك أمكن قياس عمق الجليد.

إن الجنود الذين فقدوا القدرة على الرؤية نتيجة «عمى الجليد» أو الذين فقدوا أطراف أصابعهم نتيجة «قرصة البرد» قد تركوا في المؤخرة. لكن كان أمراً مريحاً للأعين ضد عمى الجليد لو أن المرء تتبع شيئاً أسود اللون أمامه أثناء السير، وكذلك كان مفيداً للأقدام أن يستمر المرء في التحرك ولا يقف ساكناً أبداً مع خلع الأحذية أثناء الليل. إذ لو نام الفرد مرتدياً حذاءه، فإن سيور الحذاء سوف تغوص في لحم القدمين، وتتجمد نعال الحذاء مع القدمين. وقد كان متوقعاً أن يحدث ذلك، إذ إنه طالما أن أحذيتهم القديمة قد تمزقت فقد صنعوا لأنفسهم أحذية من جلد غير مدبوغ من جلود ثيران تم سلخها حديثاً.

وقد بدا أنه من الأكثر أمناً للقوات أن تقيم ثكناتها في القرى، إلاّ أن كريسوفوس بقي في مكانه، بينما سحب الضباط الآخرون جنوداً عديدين نحو القرى التي كانت على مرمى البصر. وذهب كل برجاله إلى القرية التي حصل عليها. وفي هذه الأثناء، طلب بوليكراتس ـ وهو قائد أثيني ـ أن يغادر ويستمر في تقدمه مستقلاً عن الآخرين وقد أسرع إلى القرية التي خُصصت لزينوفون آخذاً معه أكثر الرجال سرعة على أقدامهم وفاجأ القرويين ومعهم رئيسهم داخل الأسوار ومعهم سبعة عشر مُهراً كانوا يحتفظون بها كجزية للملك، إضافة لابنة رئيس القرية التي كانت قد تزوجت منذ تسعة أيام فقط وخرج زوجها لصيد الأرانب فلم يؤسر في القرية.

والمنازل هنا بُنيت تحت الأرض وقد بدت مداخلها مثل الآبار، لكنها تتسع

كلما انخفضنا لأسفل، كما كانت هناك أنفاق حفرت من أجل الحيوانات، بينما يهبط الرجال بواسطة سلالم. وتجد داخل المنازل بعضاً من الماعز والأغنام والبقر والدجاج وصغارها. وكل هذه الحيوانات كانت تتغذى على طعام كانوا يحتفظون به في منازلهم، وكان هناك أيضاً قمح وشعير وفول وخمر الشعير في أحواض ضخمة وقد طغت على سطح الأحواض حبوب الشعير حتى حافتها، وفي الأحواض توجد عدة أحجام مختلفة من البوص بدون عُقَل تسدها، وحينما يعطس المرء، عليه أن يتناول بوصة من هذه ثم يمتص الخمر إلى فمه، لقد كانت هذه قوية جداً ما لم يخلطها الإنسان بالماء، وعندما يعتادها يجدها مشروباً ممتعاً.

وقد دعا زينوفون رئيس القرية لتناول العشاء معه وطلب منه أن يكون طيب القلب طالما أنه لم يحرم من أطفاله، كما سأله عما إذا كان يرى في نفسه القدرة على إفادة الجيش حتى يصلوا إلى قبيلة أخرى، ولسوف يعيدون ملء مخزونه في المنزل بالمواد الغذائية عندما يرحلون فوعده رئيس القرية بالتعاون. ولكي يثبت لهم صدق نواياه كشف لهم عن أماكن بعض الخمور المخبأة.

في هذه الليلة كان كل الجنود قد استقروا في القرى وناموا هناك وكل أنواع الغذاء حولهم وقد خصصوا حارساً لرئيس القرية وراقبوا بعناية أطفاله أيضاً. . وفي اليوم التالي، قام زينوفون بزيارة كريسوفوس وأخذ معه رئيس القرية، وكان كلما عبر قرية يمر بمن قطنوها من الجنود، فيرى الجميع يحتفلون في كل مكان ويمرحون، ويرفضون بإصرار أن يدعوه يغادر قبل أن يعطوه شيئاً للإفطار، وفي كل حالة على حدة، يجد نفس المائدة، حمل، ماعز صغير، خنزير، لحم عجل، ودجاج وعدد من الأرغفة من الشعير والقمح، وعندما يريد أي إنسان أن يشرب نخب صحة صديقه كتعبير عن الصداقة، عليه أن يسحب صديقه إلى حوض ضخم يجب أن ينحني فوقه، ممتصاً الخمر إلى فمه مثل الثور، وقد دعوا رئيس القرية كي يأخذ ما يريد، لكنه رفض دعواتهم، لكنه كان كلما رأى بعضاً من أقاربه يأخذهم معه فقط، وعندما أتوا كريسوفوس، وجدوا رجاله أيضاً. يحتفلون بعقود من القش حول رؤوسهم، والصبية الأرمينيون بالملابس الوطنية

يقومون بخدمتهم، وقد قاموا بتعليمهم ما يجب أن يفعلوه بواسطة الإشارات كما لو كانوا صُماً بُكماً.

وبعد أن حيا كلاهما الآخر، قام زينوفون وكريسوفوس باستجواب رئيس القرية بواسطة المترجم الذي كان يتحدث الفارسية، وقد سأله أية بلدة هذه؟ فأجابه بأنها أرمينيا، وسألوه عن تلك الأحصنة لمن كانوا يحتفظون بها؟ فأجابهم بأنها جزية كانت تدفع للملك، وقد قال لهم إن البلد التالية لهم هي بلاد الكاليبس ودلهم على الطريق إليها. حينئذ ذهب زينوفون وأخذ معه رئيس القرية عائداً إلى شعبه وأعاد إليه الحصان [العجوز إلى حد ما] الذي أخذه منه وطلب منه أن يتولى تغذيته ثم يضحي به، وذلك لأنه سمع أن هذا الحصان قد وُهب للشمس، وقد خشي أنه ربما يموت. ومن الأمهر الصغيرة أعطى مُهراً لكل واحدٍ من قادته وضباطه، والجياد في هذا الجزء من العالم كانت أصغر من الجياد الفارسية لكنها جياد أكثر أصالة.

وقد أخبر رئيس القرية الإغريق أن يربطوا أكياساً صغيرة حول أقدام الجياد والحيوانات التي تحمل الأمتعة حيثما مروا بمنطقة جليدية، إذ بدون هذه الأكياس سوف يغوصون في الجليد حتى بطونهم، ثم استمرت مسيرة سبعة أيام بطول مائة وخمسين ميلاً عبر بلاد الكاليبس، وقد بدا عليها أنها قبائل محاربة خلافاً للقبائل الأخرى على طول طريقهم. وقد حاربوا الإغريق قريباً من مناطق سكنهم، وكانت لديهم دروع للجسم منسوجة من الكتان تصل إلى أفخاذهم، وبدلاً من ارتداء التنورة «الجونلة» القصيرة مع هذه الدروع كانوا يرتدون حبالاً سميكة ملتوية ويرتدون ـ كذلك ـ خوذات وواقيات ذقن ويحملون في أحزمتهم سكاكين من حجم الخنجر الإسبرطي. وبهذه السكاكين يذبحون أولئك الذين يتمكنون من التغلب عليهم ثم يقطعون رؤوسهم ويحملونها أثناء سيرهم وهم يغنون ويرقصون حيثما يتواجد عددهم حتى يراهم.

وهم يحملون كذلك رمحاً ذا طرف واحد طوله 20 قدماً، وقد اعتادوا أن يبقوا داخل مأواهم وحينما يعبر الإغريق يتبعونهم من الخلف ودائماً ما يكونون

على استعداد للقتال. وهم يقيمون بيوتهم في أماكن محصنة ويحضرون موادهم الغذائية داخل تلك التحصينات. وعلى ذلك لم يتمكن الإغريق من الحصول على شيء منهم. لكن الإغريق عاشوا على المؤن التي استولوا عليها من التاوكي.

ووصل الإغريقيون بعد ذلك إلى نهر هارباسوس. الذي كان عرضه، 40 قدماً، ثم ساروا عبر أراضي السيتنين[1] مسيرة أربعة أيام قطعوا فيها ستين ميلاً فوق مستوى سطح الأرض حتى وصلوا لبعض القرى. حيث مكثوا لمدة ثلاثة أيام وجددوا مخزونهم من المواد الغذائية، ثم أربعة أيام أخرى من المسير ليقطعوا فيها ستين ميلاً أخرى وصلوا بعدها إلى مدينة ضخمة مزدهرة وآهلة بالسكان، كانت تسمى جيميناس. وقد أرسل حاكم الإقليم دليلاً مع الإغريقيين من هذه المدينة، موحياً إليه أن يقتادهم عبر بلاد كانت في حرب مع قومه.

وعندما وصل الدليل أخبرهم بأنه في خلال خمسة أيام سيقودهم إلى مكان يستطيعون منه رؤية البحر، وأبدى استعداده أن ينفذ فيه القتل إذا فشل في هذه المهمة. وهكذا أرشدهم عبر الطريق وعندما عبروا الحدود داخل أرض عدوه حرضهم على حرق البلاد وتخريبها، موضحاً أنه لهذا الغرض وحده جاء إليهم وليس لخير الإغريق.

وأتى الجميع إلى الجبل في اليوم الخامس وكان اسم الجبل «ثيكس» وعندما وصل رجال المقدمة إلى قمة الجبل ولمحوا منظر البحر انطلق صياح عظيم. وسمعه زينوفون وحراس المؤخرة واعتقدوا أن هناك مزيداً من الأعداء يهاجمون المقدمة، لأنه كان هناك وطنيون من البلاد التي خربوها يتبعونهم في الخلف وقد قتل حراس المؤخرة بعضاً منهم وسجنوا البعض الآخر في أحد المخابىء. وغنموا عشرين درعاً من جلود الثيران الخام وعليها شعرها. على أية حال عندما تعالت حدة الصياح وازداد اقترابه، وهؤلاء الذين كانوا يتقدمون باستمرار بدأوا يجرون نحو رجال المقدمة الذين ظلوا على صياحهم وكلما ازدادوا عدداً كلما ازداد صياحهم، وبدا أن الأمر أصبح ذا أهمية لا تغفل.

---

(1) الطورانيون الذين يسكنون شمال البحر الأسود «المترجم».

وهكذا امتطى زينوفون جواده وأخذ ليكوس والخيّال معه وتقدم كي يدعم الآخرين، وحالاً سمعوا الجنود يتصايحون: البحر، البحر.. ومرت الكلمة عبر الصفوف. وحينئذ بدأ الجميع في العدْو، حراس المؤخرة والجميع، واقتادوا حيوانات حمل الأمتعة والجياد بأقصى سرعة، وعندما وصل الجميع للقمة اعتنق الجنود بعضهم البعض والدموع تملأ مآقيهم، وعانقوا قادتهم وضباطهم. وفي لحظة، وفور اقتراح شخص ما جمعوا الأحجار وجعلوا منها كومة ضخمة وضعوا على قمتها جلود الثيران غير المدبوغة والبراميل الخشبية والدروع التي غنموها وقام الدليل بنفسه بقطع الدروع إلى قطع ودعا الآخرين ليعملوا مثله أيضاً. وبعد ذلك ترك الإغريق الدليل كي يعود وأعطوه حصاناً كهدية من المخزن العام وكأساً فضية ورداء فارسياً وعشر داريكات، وما كان يريده فعلاً هو الخواتم التي يحملها الجنود، وقد حصل منهم على عدد منها، وقد حدد لهم قرية يمكنهم إقامة معسكرهم بها وأراهم الطريق التي من خلالها يمكنهم أن يذهبوا إلى مدينة المكرونز، وحينئذ كان المساء وذهب مرتحلاً مع حلول الليل.

موت سقراط

«عام 399 ق. المسيح»

*** أفلاطون**

«حُكم على سقراط بالموت، بتهمة «إفساد الشباب» و «إهمال الآلهة» وقد بقي في السجن لمدة شهر بعد الحكم، حتى عادت السفينة المقدسة من «ديلوس» إذ لا يمكن أثناء غيابها تنفيذ أي حكم بالإعدام، «وزانيتبي» كانت زوجة لسقراط.. وله منها ثلاثة أولاد، ولم يكن أفلاطون شاهد عيان لموته، ولكن كان قريباً جداً ممن شاهدوا ذلك».

سوف أحاول إخبارك بكل شيء من البداية، في الأيام السابقة كنت أنا والآخرون نداوم على عادة زيارتنا لسقراط، وقد اعتدنا أن نلتقي في الفجر في قاعة المحكمة، لأنها كانت قريبة من السجن، ولم يكن يفتح مبكراً، وفور فتحه



سقراط يشرب السم

نذهب إلى سقراط ونقضي معه معظم النهار، وفي ذلك اليوم جئنا معاً مبكرين، لأنه في اليوم السابق، عندما غادرنا السجن في المساء، سمعنا أن السفينة قد وصلت من «ديلوس»، ولهذا اتفقنا أن نحضر إلى المكان المعتاد مبكرين بقدر الإمكان، وأتينا، وجاء حارس الباب، الذي كان عادة ما يجيب على الآتين على الباب، ليخبرنا بأن ننتظر، وألا ندخل حتى يخطرنا بذلك؛ «لأن ـ أضاف الحارس ـ لجنة الأحد عشر يفكون قيود سقراط، ويعطونه التعليمات حول كيفية موته اليوم».

وهكذا بعد أن تأخر قليلاً، أتى وسمح لنا بالدخول، ودخلنا حينئذ ووجدنا سقراط قد تحرر من قيوده توّاً. وزانيتبي ـ التي تعرفونهاـ مع ابنه الصغير على ذراعيها جالسة بجواره وعندما رأتنا بكت بشدة، وقالت ما تتفوه به المرأة في حالة كهذه: «آه يا سقراط، هذه آخر مرة سوف يتحدث فيها أصدقاؤك إليك أو تتحدث إليهم». . نظر سقراط إلى كريتو وقال له: «كريتو»: «دع أحداً يأخذها إلى المنزل» فأخذها بعض من أصدقاء كريتو بعيداً وهي تعول وتلطم صدرها، لكن سقراط جلس على أريكته وثنى قدمه وحَكَّها بيده، وبينما كان يحكُّها قال: «يا له من شيء عجيب أيها الأصدقاء، ذلك الذي يدعوه الناس «اللذة» وكم هو رائع أنه

متعلق بذلك الذي يبدو نقيضاً له «الألم». وفي ذلك، فإنهما معاً لا يجتمعان بإنسان في وقتٍ واحد، ورغم ذلك فإنه لو تتبع واحداً منهما وحصل عليه، فهو مضطرٌ بشكلٍ عام إلى أن يأخذ الآخر أيضاً. كما لو كان الاثنان مرتبطين معاً في رأس واحدة، وأعتقد.. لو أن «أيسوب» فكر فيهما، لعمل منهما أسطورة تخبرنا كيف كانا يجتمعان في الحرب، وتمنى الرب أن يُصلح بينهما، وعندما لم يستطع أن يفعل ذلك، ربط رأسيهما معاً، ولهذا السبب فعندما يأتي أحدهما أي إنسانٍ فالثاني يتبعه».

وما إن أنهى حديثه حتى قال كريتو: «حسناً يا سقراط.. أتريد أن تترك معنا أية تعليمات بشأن أطفالك، أو أي شيء آخر.. أي شيء في إمكاننا كي نخدمك؟»، أجاب سقراط: «ما أقوله دائماً يا كريتو لا شيء جديد، لو أنكم ترعون ذواتكم، سوف تخدمونني وتخدمون أنفسكم وتخدمون نفسي، مهما فعلتم، حتى لو لم تعدوني الآن، لكن لو أهملتم ذواتكم، ولا ترغبون في الحياة متتبعينها خطوة فخطوة كما تكون، فلن تحققوا شيئاً، ولا يهم كم أو كيف تعدوني بشوق الآن». فأجابه كريتو: «لسوف نحاول جهدنا ـ بالتأكيد ـ لنفعل كما تقول. ولكن كيف سنقوم بدفنك؟» أجابه سقراط: «كيفما تشاء. لو أمكنك أن تمسكني ولا أهرب منك».

ضحك بخفة ونظر نحونا وقال: «أنا لا أستطيع أن أقنع كريتو يا أصدقائي، ذلك أن سقراط الذي يتحدث الآن ويرتب تفاصيل محاوراته، هو حقيقة أنا، هو يعتقد أنني ذلك الشخص الذي سوف يراه حالاً مجرد جثة، ويسأل كيف سيقوم بدفني، ورغم أنني دأبت على القول لفترة طويلة: إنني بعد أن أتناول السم سوف لا أكون بعد ذلك بينكم لكني سوف أذهب بعيداً إلى «مسرات المبارك» الذي تعرفونه، ويبدو عليه أنه يعتقد أن ذلك حديث عابث، أطلقته لتشجيعكم ونفسي، ولهذا ـ أضاف سقراط ـ أعطي الأمان لكريتو من أجلي، وهو النقيض لذلك الذي أعطاه كريتو للقضاة أثناء محاكمتي لأنه أعطى الضمان بأنني قد أبقى، لكنكم يجب أن تؤكدوا بأنني لن أبقى عندما أموت، وأنني سوف أذهب بعيداً، كي

يستطيع أن يتحمل كريتو ذلك بسهولة، وكي لا يضطرب إذا ما رأى جثماني يُحرق أو يُدفن، أو يعتقد أنني سوف أعاني من معاملة بشعة. وكي لا يقول أثناء الجنازة، إنه يُعد سقراط للدفن، أو إنه يتبعه إلى القبر، أو يدفنه، لأنك أيها العزيز كريتو، ربما تكون متأكداً أن هذه الكلمات الخطأ ليست فقط غير مرغوب فيها لذاتها لكنها - أيضاً - تنقل العدوى للروح بالشر، لا.. يجب عليك أن تكون صاحب شجاعة جيدة، وتقول إنك سوف تدفن جسدي وتدفنه كما تعتقد أنه الأفضل، وكما يبدو لك أكثر ملاءمة لي».

عندما قال هذا، نهض وذهب إلى حجرة أخرى ليستحم، وتبعه كريتو لكنه طلب منا أن ننتظر، فانتظرنا، نتحدث معاً ونتناقش في الحوار الذي سمعناه، ونتحدث عن المأساة الكبيرة التي أوقعت بنا؛ لأننا شعرنا بأنه مثل الوالد لنا، وأننا عندما نُحرم منه، يجب علينا أن نقضي بقية عمرنا يتامى، وعندما أنهى حمامه، وأحضروا أطفاله أمامه لأنه كان لديه طفلان صغيران وآخر كبير. كما حضرت نساء العائلة فتحدث إليهم في حضور كريتو وأعطاهم توجيهاته كما يُحب، ثم طلب من النساء أن يذهبن، وأتى إلينا، وقد قارب الوقت الآن الغروب، لأنه كان قد قضى وقتاً طويلاً بالداخل، وجاء ليجلس وهو منتعش من الاستحمام، وبعد ذلك لم نتحدث كثيراً.

جاء خادم «الأحد عشر» ووقف بجواره قائلاً «يا سقراط، إنني لا أجد خطأ معك، كما حدث لي مع الآخرين الذين غضبوا مني ولعنوني. عندما كنت أطلب - بأمر السلطة - أن يشربوا السم، لا لقد وجدتك طوال الوقت وبشتى الطرق، أفضل الرجال الذين أتوا هنا دماثة ونبلاً، والآن أعلم أن غضبك قد وجهته نحو الآخرين لأنك تعرف من يستحق اللوم، والآن لأنك تعلم الرسالة التي أتيت لأبلغها لك، أقول لك وداعاً، وحاول أن تتحمل ما يجب عليك بقدر ما يمكنك من البساطة»، ثم انفجر في البكاء، واستدار وخرج، ونظر إليه سقراط: ثم قال: «وداعاً لك أيضاً، سوف أفعل ما أشرت به عليّ». ثم قال لنا: «كم هو جذاب هذا الرجل، فمنذ جئت إلى هنا كان يأتي إليّ ويتحدث معي من آن لآخر، وكان

من أفضل الرجال، والآن كم هو نبيلٌ أن يبكي من أجلي! . . لكن تعال يا كريتو وهيا نطعه، ولندع أحداً يأتي بالسم إذا كان جاهزاً، وإذا لم يكن كذلك فليعده أحد» . . .

قال كريتو: «لكني أعتقد يا سقراط أن الشمس ما زالت فوق الجبال ولم تغرب بعد، وأنا أعلم أن هناك آخرون تناولوا السم متأخراً جداً، بعدما جاءهم الأمر بذلك، وفي الوقت نفسه أكلوا وشربوا، وبعضهم تمتع من المجتمع بمن يحب، لا تتعجل فما زال هناك وقت». فقال سقراط: «يا كريتو إن الذين ذكرتهم لهم الحق فيما فعلوه، لأنهم يعتقدون أنهم يكسبون بذلك، وسوف أكون على حق أيضاً في عدم فعل ما فعلوه، لأنني أعتقد أنني لا أكسب شيئاً بتناولي السم متأخراً قليلاً، إذ أجعل نفسي سخيفاً أمام عيني لو أنني تمسكت بالحياة وأبقيت عليها، حيثما لا فائدة ترجى منها، تعال - أضاف سقراط - وافعل كما أطلب ولا ترفض» .

على ذلك، أومأ كريتو للفتى الذي كان يقف قريباً، فخرج الفتى ومكث فترة طويلة، ثم حضر ومعه الرجل المخصص لإعداد السم، والذي أحضره معه في كأس جاهزاً للاستخدام، وعندما رآه سقراط قال: «حسناً أيها الرجل الطيب، إنك تعلم هذه الأشياء، فماذا يجب عليّ أن أفعل؟» . . أجاب الرجل: «لا شيء، عدا أن تشرب هذا السم، وأن تسير حتى تشعر بقدميك وقد ثُقلتا، حينئذٍ استلق راقداً، وسوف يقوم السم بدوره» . . وفي الوقت نفسه رفع الكأس لسقراط الذي تناولها وبرفقٍ شديد - يا عزيزي أخيكراتس - وبدون أن يرتعد أو يتغير لونه أو تعابير وجهه، فقد كان يتطلع للرجل بعينين واسعتين مفتوحتين - كعادته دائماً - ليقول: «ما رأيك أن نسكب بعض قطرات من الرحيق المقدس لبعض الآلهة، في هذا الكأس، أيمكنني ذلك أم لا؟» . . .

أجابه الرجل: «يا سقراط، إننا نُعد فقط ما نراه كافياً» .

قال سقراط: «إنني أفهم ذلك، لكن هل يمكنني - بل لا بد - أن أصلي للآلهة حتى يكون رحيلي، رحيلاً هانئاً، ولهذا أقدم هذه الصلاة وربما تُقبل» . وبهذه

الكلمات رفع الكأس إلى شفتيه وبمنتهى الهدوء والمرح صبها في جوفه، وحتى ذلك الوقت استطاع أغلبنا أن يحبس دموعه جيداً، لكننا حينما شاهدناه يشرب ورأينا أنه قد تجرع السم، لم نعد نستطيع أن نتحكم في دموعنا أكثر من ذلك، ورغماً عن نفسي، فاضت دموعي سيولاً حتى إنني أخفيت وجهي في العباءة وبكيت مع نفسي، لأنني لم أبك من أجله ولكن لأجل سوء حظي إذ أحرم من مثل هذا الصديق. ونهض كريتو وذهب بعيداً حتى قبل أن أفعل أنا ذلك، لأنه لم يستطع أن يحكم دموعه، لكن أبوللو دوروس الذي كان يبكي طوال الوقت من قبل، انتحب بصوت عالٍ من ألمه وجعلنا ننهار جميعاً، ما عدا سقراط نفسه، الذي قال: «ما هذا السلوك، أيها الرجال الغرباء، لقد أرسلت النساء بعيداً لهذا السبب أساساً، ولربما لم يتصرفوا بمثل هذا السلوك غير المعقول، لأني سمعت أنه من الأفضل أن تموت في سكون، فلتهدأوا ولتكونوا شجعاناً».

عند ذلك تحكمنا في دموعنا، ثم مشى سقراط قليلاً وعندما قال إن قدميه قد ثقلتا، رقد على ظهره، فهذه كانت نصيحة المسؤول عن العمل، ثم إن الرجل الذي أعد السم وضع يديه على سقراط وبعد فترة فحص قدميه ورجليه، ثم مدد قدميه بخشونة سائلاً إذ ما كان يشعر بذلك. فقال سقراط: «لا» ثم فحص بعد ذلك فخذيه ومر إلى أعلى بنفس طريقة الفحص، ولاحظنا أنه بدأ يبرد ويتصلب ولمسه الرجل مرة أخرى وقال إنه عندما يصل إلى قلبه سيكون قد انتهى.

وصلت البرودة الآن حتى حقوبه، ورفع سقراط الغطاء عن وجهه ـ الذي كان قد تغطى به ـ وقال: «كريتو، نحن مدينون لأسكولابيوس بدين، ادفع ذلك ولا تهمل». وكانت تلك آخر كلماته، فأجاب كريتو: «سوف أفعل، لكن هل هناك شيء آخر تود قوله؟». ولم يجب سقراط عن هذا السؤال لكنه بعد برهة قليلة تحرك، وكشف المسؤول الغطاء فوجدنا عينيه مثبتتين، وعندما رآهما كريتو أغلق عينيه وفمه، وهكذا كانت النهاية ـ عزيزي أخيكراتس ـ لصديقنا الذي كان من بين رجال عصره الذين عرفناهم، أفضل وأحكم وأكثر الرجال الذين على حق.. ربما نقول هذا.

قيصر يغزو بريطانيا

* يوليوس قيصر

واجه الرومان صعوبات خطيرة فأحجام السفن جعلت من المستحيل عليها أن تحملهم حتى الأرض، عدا أن يكون هناك عمق كاف للماء. والجنود - غير المعتادين على مثل هذه الأرض - بأيديهم الممتلئة والمثقلة بأحمال كبيرة من أسلحتهم، عليهم في الوقت نفسه أن يقفزوا من السفن ويسيروا وسط الأمواج ويحاربوا العدو، الذي - وهو واقف على أرض جافة ويتقدم مسافة في الماء - يحارب بكل أطرافه التي لا يعيقها شيء وهو معتاد على الأرض، يقذف نباله بشراسة ويعدو بجياده، التي دُربت على مثل هذا النوع من العمل.

وقد أرعبت هذه المخاطر جنودنا، الذين لم يتعودوا معارك من هذا النوع وقد نتج عن ذلك أنهم لم يظهروا توثبهم وحماسهم، كما اعتادوا أن يفعلوا في معاركهم على الأراضي الجافة.

وما إن رأى قيصر ذلك، حتى أمر سفنه الحربية - التي كانت أسرع وأسهل في العمل من الناقلات - وبالرغبة في التأثير على أهل البلاد بمظهر هذه السفن غير المعتاد - أن تبتعد قليلاً عن بعضها البعض، ثم يجدفون بقوة تندفع إلى الشاطىء على الجناح الأيمن للعدو من الوضع الذي من خلاله يمكن استخدام المقذوفات والأقواس والأسلحة بواسطة الرجال على ظهر السفينة حتى يدفعون العدو للخلف، وقد نجح هذا العمل تماماً، إذ توقف الأهالي وتراجعوا قليلاً لخوفهم من الشكل الغريب للسفن الحربية وحركة المجاديف، والآلات التي لم يعهدوها، ولكن بينما ظل الرومانيون مترددين أساساً آخذين في اعتبارهم عمق الماء صاح الرجل الذي يحمل نسر الفرقة العاشرة - بعد أن صلى للآلهة كي تجلب ما سيفعله الحظ الحسن لفرقته - في صوت جهوري: «اقفزوا - أيها الرفاق - ما لم تريدون تسليم نسرنا للعدو» وأنا - بأية معايير - قد انتويت أن أؤدي واجبي نحو وطني وقائدي. وبهذه الكلمات قفز من السفينة وتقدم نحو العدو والنسر في يديه، وعندئذ حرض الجنود بعضهم بعضاً ألاّ يلحقهم مثل هذا العار وقفزوا وحدة

واحدة من السفينة وعندما رآهم الرجال في السفن المجاورة تبعوهم وتقدموا ضد العدو.

روما تحترق

«عام 64 افرنجي»

*** تاسيتوس**

حاول نيرون ـ آنئذ ـ أن يظهر روما على أنها موطنه المفضل وسمح بالاحتفالات في الأماكن العامة، كما لو كانت المدينة كلها بيته الخاص، لكن أكثر المآدب شهرة وبذخاً كانت تلك التي أقامها تيجيلينوس.

وكيما أتجنب تكرار عد مظاهر البذخ، سوف أصف مظهراً واحداً منها كمثال، كان الحفل قد بدأ فوق طوف بُني على بحيرة «ماركوس أجريبا»، وكان مشدوداً للقوارب الأخرى بأجزاء من الذهب والعاج، وكان القائمون بالتجديف من المهجنين وقد رُتبوا وفقاً للسن وللنقص الخِلْقي. كما قام تيجيلينوس بجمع الطيور والحيوانات من بلاد بعيدة، وحتى منتجات المحيط. وعلى الرصيف تكدست دور الدعارة بسيدات من الطبقات العالية، وأمامهن تماماً نجد العاهرات العاريات يقمن بالحركات والتلميحات بلا حياء.

وعند هبوط الليل تتعالى أصداء الغناء في المنازل القريبة والغابات وتبرق بالأضواء. وقد أضحى نيرون فاسداً حتى آخر درجات الشهوانية، الطبيعية وغير الطبيعية. لكنه كذب كل احتمالات عدم تواجد أية انحطاطات أخرى ممكنة له، إذ إنه بعد أيام قليلة تالية، أقام حفل زواج رسمي لواحد ـ من العصابات التي أساء استخدامها ـ أسمه «بيثاجوراس»، وقام الامبراطور في حضور الشهود بارتداء خمار العروس، وكانت الدوطة[1] وفراش الزوجية ومشاعل الزفاف كلها موجودة، حقاً كل شيء كان مشهوداً، حتى في الجماع الطبيعي الذي يحجبه الليل.

---

(1) مهر كانت تدفعه العروس لزوجها.

ثم جاءت الكارثة، سواء كانت بالمصادفة أو بسبب فعل إجرامي من جانب الامبراطور فهو شيء غير مؤكد، فلكلا الاتجاهين مؤيدوه، إذ بدأت الآن أكثر النيران التي مرت بها روما تدميراً ورعباً، طوال تاريخها، بدأت من منطقة السيرك الذي يربط بين تلال «بالاتيني» و «كايليان» واضطرمت في محلات بيع المواد الملتهبة وقد أججتها الريح، وازداد الحريق فأتى سريعاً على كل السيرك، ولم تكن حوائط المعابد أو المنازل الضخمة أو أية عوائق يمكن أن تحد من انتشارها، وانتشرت النيران أولاً فوق الأراضي المستوية ثم بعد ذلك علت التلال. لكنها عادت لتدمير الأراضي المنخفضة مرة أخرى، وقد أحاطت بكل بقعة من الأرض، وساعد على زيادة انتشارها شوارع المدينة الضيقة والملتوية ومبانيها غير المنتظمة.

المرعبون، والنساء الفزعات، والأطفال والشيوخ غير القادرين، والذين لا يريدون سوى سلامتهم، والذين يساعدون العجزة أو ينتظرونهم في تضحية وإيثار، والهاربون وأشباه المترددين، كلهم رفعوا من حدة الفوضى، وعندما ينظر الناس خلفهم تندفع نحوهم ألسنة اللهب المهددة من الأمام أو تختفي آثارهم من الخلف، وعندما يهربون إلى منطقة سكنية مجاورة، تتبعهم النيران، وحتى المقاطعات التي ظنوها بعيدة شملتها النيران، وأخيراً ودون فكرة عن أين أو بماذا يهربون؟ تجمعوا على الطرق الريفية، ورقدوا وسط الحقول، وبعض من الذين فقدوا كل شيء حتى طعام يومهم كان بإمكانهم الهروب، لكنهم فضلوا الموت، وهكذا فعل البعض ممن فشلوا في إنقاذ من يحبون، ولم يجرؤ أحد على مقاومة النيران، لأن المحاولات التي بُذلت من أجل ذلك، منعتها تهديدات العصابات. وحتى المشاعل كانت تُقذف علانية، بواسطة رجال يدعون أنهم يفعلون ذلك بأوامر، وربما يكونون قد تسلموا أوامر أو ربما أرادوا أن ينهبوا دون أن يعوقهم أحد.

وكان نيرون في «أنتيوم» وقد عاد للمدينة عندما اقتربت النيران من القصر الذي بناه ليربط بين حدائق مايسينا وتل بالاتيني. ولم تتوقف ألسنة اللهب عن التهام منطقة بالاتيني بما فيها القصر، ومن أجل راحة جموع الهاربين والمشردين

فتح لهم حقل الإله «مارس» ومباني أجريبا العمومية، وحتى حدائقه الخاصة، وقد بنى نيرون مأوى عاجلاً للجموع المحتاجة، وكان الطعام يأتي من «أوستيا» والمدن القريبة، وقد توقف سعر القمح لأقل من 1/4 ربع سيسترسة للأوقية، إلاّ أن هذه الاعتبارات، رغم كل مظاهرها الشعبية، لم تجد عرفاناً بالجميل، لأن إشاعة بدأت تسري بأنه خلال الحريق الذي التهم المدينة، ذهب نيرون إلى مسرحه الخاص، ومقارناً الكوارث الحالية بالقديمة منها، بدأ يغني نشيد تدمير طروادة.

وعند اليوم السادس واجه الخراب الكبير ألسنة النار المدمرة بأرض عارية وسماء مفتوحة، وتوقفت النيران أخيراً عند أقدام تل الأسكويلين، ولكن قبل أن يزول الاضطراب ويحيا الأمل شبت النيران فجأة في أكثر مناطق المدينة، هنا كانت الخسائر أقل، لكن تدمير المعابد ومناطق المتعة كان أكثر سوءاً، وسبَّب هذا الحريق الجديد إحباطاً زائداً لأنه بدأ من منطقة تيجيلينوس في مقاطعة إيميليان، ولأن الناس اعتقدوا أن نيرون كان يطمح لتأسيس مدينة جديدة تسمى باسمه. ومن مقاطعات روما الأربع عشرة لم يبق إلاّ أربع فقط سليمة، وثلاث سُويت بسطح الأرض، والسبع الأخريات تحولت إلى آثار محترقة ومشوهة.

حصار أورشليم القدس

«عام 70 افرنجي»

*** يوسيفوس**

«استسلمت أورشليم بعد الحصار، للجيش الروماني بقيادة تيتوس ديوسيفوس وكان يهودياً ذهب رأساً إلى الرومان». .

في كل مناطق المدينة، كان الناس يموتون من الجوع بأعداد كبيرة. ويتحملون معاناة لا توصف، وفي كل منزل كانت أقل قطعة من الغذاء تشعل القتال، وتعارك أقرب الأقارب، وينتزع كلٌّ من الآخر أقل مسببات الحياة، ولا أحد يعطي أية اعتبارات حتى لمن يشرف على الموت.

كان المتطرفون ـ المتعصبون ضد الرومان ـ يفتشون الموتى بحثاً عما إذا كانوا يخبئون الطعام في مكان ما من ملابسهم أو أنهم يدّعون أنهم على وشك الموت، مسعورين بالجوع. مثل الكلاب المجنونة، أخذت العصابات بلا قانون تقتل وتدور في الشوارع يضربون الأبواب كالسكارى، مضطربين لدرجة أنهم يقتحمون نفس المنزل مرتين أو ثلاث في خلال الساعة، فالحاجة تدفع من يموت جوعاً لأن يعض أي شيء، والفضلات التي ترفضها حتى الحيوانات جمعوها وحولوها إلى طعام، وفي النهاية كانوا يأكلون الأحزمة والأحذية والجلود مزقوها من فوق دروعهم، وحزم الأعشاب الجافة التهمت، وبيعت في ربطات صغيرة مقابل أربع دراخمات[1].

ولكن السبب الذي جعل الناس يسكنون في مكان تجميع القمامة التي أجبر الجوعى على أن يعتمدوا في غذائهم عليها. جعلني أعيد تقديره كعمل غير متواز مع تاريخ الإغريق ولا البرابرة، ومن المخيف أن نربطه بذلك، ومن المستحيل أن نسمعه؟ ومن جانبي كان يجب عليَّ أن أحذف تلك المأساة وأنا سعيد خشية أن أتهم بمبالغة ضخمة، لكن كان هناك شهود عيان كثيرين من المعاصرين لي، بالإضافة إلى أنني يجب أن أؤدي خدمة بسيطة لبلدي لو أنني أملك أن أُنهي أحزانها التي مرت بها.

وكانت بين أهالي المنطقة التي تقع خلف الأردن امرأة اسمها ماري، ابنة اليعازار، من قرية «بيت زوبة» «تعني منزل هيسوب» كانت جيدة ومن بيت طيب وقد هربت إلى أورشليم «القدس» مع أقاربها حيث شملهما الحصار، ومعظم ما تملكه والذي أحضرته معها من «بيريه» قد نهب بواسطة الطغاة؛ سيمون وجون [سمعان ويوحنا] رئيسا لجنة جهود الحرب اليهودية، وبقية ما تملكه مثل الطعام كلما استطاعت توفيره كان أتباعهما يستولون عليه في غاراتهم اليومية.

وفي حالتها المريرة، لعنت المرأة وسبّت هؤلاء المغتصبين ومن أرسلهم

(1) الدراخمة عملة يونانية ما زالت تستعمل حتى اليوم اسماً «المترجم».

ضدها، وعلى أية حال لم يقتلها أحد، سواء بسبب التردد أو الشفقة، وقد ازداد قلقها لتوفير الطعام لأقاربها. وعلى كل أصبح من المستحيل الآن الحصول على أي شيء من الطعام أينما تحاول، والمجاعة تعض كل الحيوانات، ونار الغضب أصبحت أكثر شراسة من المجاعة، وهكذا مدفوعة بالغضب والحاجة، ارتكبت جريمة ضد الطبيعة.

أمسكت بطفلها، وكان رضيعاً على صدرها، وصرخت: «يا طفلي المسكين، لماذا أبقيك حياً في عالم الحرب والمجاعة هذا؟ فحتى لو عشنا حتى يأتي الرومان فسوف يأخذوننا عبيداً، وعلى أية حال سوف تلحقنا المجاعة قبل أن تلحقنا العبودية، والمتمردون أكثر شراً من الجوع والاستعباد، هيا، لتكن طعاماً لي، وغضباً منتقماً من المتمردين، وحكاية رعب للعالم كي يكتمل الحزن الكبير الذي يعيشه اليهود!»، وبهذه الكلمات قتلت طفلها، وشَوَتْ جسده، وابتلعت نصفه، واختزنت الباقي في مكان أمين.

لكن المتمردين ظهروا أمامها في الحال، وهم يتشممون رائحة اللحم المشوي وهددوا بقتلها فوراً إن لم تقدمه لهم، وأكدت لهم المرأة أنها أبقت لهم نصيبهم وكشفت لهم عن بقايا طفلها، فنهضوا وقد ألجمهم الرعب وفقدوا الإحساس، واصطفوا حول المنظر، لكنها قالت: «هذا طفلي وعمل يدي الوحيد، كلوا، لأنني أكلت فعلاً، ولا تظهروا أنفسكم أضعف من امرأة، أو أكثر رحمة من أم، لو أن بكم أي تردد أخلاقي أو ديني، أو تتراجعون أمام الأضحية البشرية فما أكلته يمكن أن نعتبره نصيبكم، وسوف آكل ما أبقيته كذلك». عندئذ فروا هاربين وهم يرتعدون ولم يجرؤوا على تناول الطعام، رغم أنهم ترددوا في ترك حتى هذا الطعام للأم.

واهتزت المدينة كلها بهذا العمل الشائن، وعندما سمع الناس به اقشعرت أبدانهم كما لو كانوا هم الذين فعلوه.

ثورة البركان ڤيزوف

«24 أغسطس/ هانيبال 79 افرنجي»

*** بليني الصغير**

«إنه ذلك الانفجار الذي حطم ودفن مدينتي بومبي وهيرا كولانيوم».

تمركز خالي في مدينة ميسينا ضمن قيادة الأسطول، ويوم 24 من أغسطس، في بداية المساء، لفتت أمي نظره نحو سحابة لها حجم ومظهر غير طبيعيين، وكان بعد أن أخذ حماماً بارداً قد خرج إلى الشمس وتناول غذاءه أثناء رقاده على الأرض ثم طفق يعمل في كتبه، فطلب حذاءه، وصعد إلى مكان يسمح له برؤية هذه الظاهرة أفضل، ولم يكن واضحاً خلال هذه المسافة من أي جبل كانت السحابة تتصاعد، «علمنا بعد ذلك أنه جبل ڤيزوف» ومنظر السحابة العام يمكن وصفه بمظلة شجرة الأراك، لأنها ارتفعت إلى شاهق فيما يشبه الخرطوم ثم انقسمت إلى فروع، وأعتقد أن ذلك لأنها قذفت إلى أعلى بأول انفجار ثم تلاشى الدفع نتيجة لتسرب الضغط أو لسبب آخر. إنها تنامت بثقلها الذاتي حتى انتشرت ثم تناثرت بالتدريج وفي بعض الأماكن بدت بيضاء، وأماكن أخرى بدت مُبقعة وقذرة، تبعاً لكمية الرماد والتراب التي تحملها.

لكن خالي رأى ببصيرته المدربة في الحال أنه من المهم أن يفحص الأمر عن قرب، وأمر بتجهيز قارب، وأخبرني بأنني يمكنني مرافقته إذا ما رغبت، وأجبته بأنني أفضل أن أواصل دراستي، وكما حدث فإنه أعطاني بعض الكتابات لإنجازها وبينما هو يغادر منزله، تسلم رسالة من «ريكتنيا» زوجة تاسكوس الذي يقبع منزله أسفل الجبل، حتى إن الهرب كان مستحيلاً إلا بواسطة قارب، وقد فزعت من الخطر الذي كان يهددها، وتوسلت إليه أن ينقذها من مصيرها، فغير خططه، وما بدأه كبحث واستفسار، أكمله كبطل، ثم أصدر أوامره بانطلاق السفن، واعتلى بنفسه سطح السفينة وهو ينوي مساعدة عديد من الناس بالإضافة «لريكتنيا»، لأن هذا الامتداد البديع من الساحل كان مزدحماً بالسكان، وأسرع إلى المكان الذي

يغادره الآخرون بسرعة، موجهاً طريقه مباشرة نحو منطقة الخطر، لقد كان بلا خوف تماماً، واصفاً كل خطوة جديدة أو مرحلة من عمله الفذ ويسجلها تماماً كما لاحظها بنفسه.

كان الرماد يتساقط فعلاً، أكثر سخونة وسُمكاً كلما اقتربت السفن متبوعة بأحجار بركانية وصخور سوداء، وقد أصابتها الخدوش والحريق من ألسنة اللهب، وفجأة أضحوا في مياه ضحلة، وقد سدت الساحل كتل منهارة من الجبل، وللحظة تساءل خالي إذا ما كان يجب أن يعود لكن عندما نصحه ماسك الدفة بالعودة رفض، وأخبره بأن الحظ يقف مع الشجاع، وأنهم يجب أن يعملوا من أجل صديقهم بومبونيانوس في ستابياي، حيث حوصر هناك بسبب عَرْض الخليج، «إذ ينحني الشاطىء تدريجياً حول حوض مملوء بماء البحر»، وحتى الآن لا يُعتبر في خطر، رغم أنه كان واضحاً أن الخطر سيأتي قريباً طالما هو ينتشر، ولهذا قام بومبونيانوس بوضع جميع متعلقاته على ظهر سفينة، عازماً على الهروب لو هبت الريح العكسية، والريح بالطبع كانت تهب مع طريق خالي واستطاع بذلك أن يصل لسفينته، وقام بعناق صديقه المفزوع، وشجعه وشد من أزره، ومعتقداً أنه سيتمكن من تهدئة مخاوف صديقه بإظهار هدوئه الشخصي، أمر بأن يحمل إلى الحمام، وبعد الحمام رقد على الأرض وتناول العشاء. كان مبتهجاً جداً، أو على أية مقاييس تظاهر بذلك، الذي لم يكن أقل شجاعة.

بعد لحظات على جبل ڤيزوڤ توهجت أشرطة عريضة من النيران وألسنة اللهب المتقافزة في عدة نقاط، وقد زاد لمعانها في سواد الليل، وقد حاول خالي أن يُبرد مخاوف رفاقه بتكرار تصريحه أن هذه ليست سوى نيران السمر التي تركها الفلاحون أثناء فزعهم، أو منازل خالية اشتعلت فيها النيران بعد أن تركها ساكنوها، ثم ذهب ليرتاح وبالتأكيد نام، لأنه كان رجلاً سميناً وصوت تنفسه مرتفع وثقيل، أمكن للمارين بجوار بابه أن يسمعوه، وإلى هذه اللحظة، امتلأ الفناء الملحق بغرفته، بالرماد والحجارة البركانية إلى درجة أن سطحه قد ارتفع بحيث لو أنه بقي في غرفته فترة أطول ما كان خرج منها أبداً، استيقظ خالي

ولحق برفيقه بومبونيانوس وبقية العائلة الذين ظلوا ساهرين طوال الليل، وتباحثوا فيما إذا كانوا يبقون داخل حجراتهم أم يأخذون فرصتهم في الخارج، حيث إن المباني ـ الآن ـ تهتز بصدمات عنيفة، وبدا أنها تتمايل للأمام وللخلف، كما لو كانت نُزعت من أساساتها، وبالمقابل فإن الخارج مملوء بخطر الأحجار البركانية المتساقطة، حتى لو كانت خفيفة ومسامية، وعلى أية حال بعد موازنة المخاطر، اختاروا الرأي الأخير، وفي حالة خالي فإن سبباً واحداً قد يفاضل الآخر، لكن بالنسبة للآخرين فهو اختيار الخوف، وكحماية لهم من الأشياء المتساقطة ربطوا وسائد على رؤوسهم بقطع من القماش.

في أماكن أخرى بزغ ضوء النهار في هذا الوقت لكنهم ما زالوا في ظلام أكثر سواداً وقتامة من أي ليلة عادية، فخففوا حدة ظلامها بإيقاد المشاعل والمصابيح الأخرى، وقرر خالي أن يهبط إلى الشاطىء ويبحث على الطبيعة أي إمكانية للنجاة عبر البحر، لكنه وجد الأمواج ما زالت خطيرة وهائجة، ففرشوا له ملاءة كي يرقد عليها، وكرر سؤاله عن مياه باردة ليشربها، حينئذ دفعت ألسنة اللهب ـ ورائحة الكبريت الدالة على اقتراب النيران ـ الآخرين إلى الهرب، وأجبرته على الوقوف، فوقف مستنداً على اثنين من العبيد، ثم فجأة انهار، وأظن ذلك بسبب الدخان الكثيف الذي منع تنفسه حين سد القصبة الهوائية التي كانت ـ على سبيل التوافق ـ ضعيفة وضيقة وغالباً ما كانت ملتهبة، وعندما عاد نهار يوم السادس والعشرين «26» ـ بعد يومين من آخر مرة شوهد فيها ـ وُجدت جثته سليمة ولم تجرح وبملابسه كاملاً ويبدو عليه النوم أكثر من الموت.

في هذه الأثناء كنت أنا وأمي في مدينة ميسينا. . وبعد رحيل خالي، قضيت بقية اليوم مع كتبي فهذا كان مبرر بقائي دون الذهاب معه.

وحينئذ استحممت وتعشيت ثم غفوت باستغراق برهة. ولعدة أيام مرت علينا كانت هناك هزات أرضية وإن لم تكن مزعجة بشكل خاص لأنها معتادة في سهل كمبانيا. ولكن في تلك الليلة كانت الهزات عنيفة لدرجة أن كل شيء شعرنا به ليس فقط يهتز وإنما مقلوباً، واندفعت أمي إلى حجرتي فوجدتني مستيقظاً جاهزاً

للذهاب إليها لإيقاظها إذا ما كانت لا تزال نائمة. وجلسنا في الفناء الأمامي للمنزل بين المباني، والبحر قريب بجوارنا. ولا أعرف إذا ما كنت أصف ذلك شجاعة أم حمقاً من جانبي (كنت في السابعة عشرة من عمري في ذلك الوقت) ولكنني طلبت جزءاً من كتاب (ليڤي) ومضيت في القراءة كما لو أنني ليس لدي ما أفعله حتى إنني استمررت مع القراءات التي كنت أقوم بها.

هنالك جاء صديق لخالي ـ وصل تواً من أسبانيا ليلحق به ـ وعندما رآنا جالسين هناك وأنا أقرأ نهرنا كلينا ـ إنا لحمقى، وأمي لسماحها لي بذلك ـ وبالرغم من هذا بقيت منهمكاً في كتابي وحتى هذه اللحظة هبط الفجر، ولكن الضوء ما زال خافتاً وضعيفاً والمباني حولنا كانت كلها بالفعل تترنح، والمنطقة الفراغ أمامنا كانت صغيرة جداً بدرجة تبقينا في الخطر الحقيقي لو انهار المنزل، وهذا ما جعلنا نقرر مغادرة المدينة وكنا متبوعين بخليط من البشر الذين أذهلهم الاضطراب ويريدون أن يتصرفوا وفقاً لقرار أي إنسان آخر بدلاً من قرارهم (نقطة يبدو الخوف فيها شبيهاً بالنبوءة) مما دفعنا في طريقنا بالتضاغط في ازدحام مكثف، وذات مرة فيما وراء المباني، توقفنا، حيث وُجِهْنا بتجربة غير عادية أزعجتنا بشدة، إذ إن العربات التي أمرنا بإحضارها خارج المدينة بدأت تجري في مختلف الاتجاهات رغم أن الأرض مستوية تماماً وما كان ممكناً أن تبقى ثابتة حتى لو وضعنا خلف عجلاتها أحجاراً، ورأينا البحر أيضاً وقد غاض بعيداً وكان واضحاً أنه تراجع بفعل الزلزال، وبأي مقياس فقد تراجع عن الشاطىء حتى إن مجموعات من مخلوقات البحر قد تُركت بلا حول ولا قوة على الرمال الجافة، وفي اتجاه الأرض كانت سحابة سوداء مرعبة ملحوقة بقذفات من ألسنة اللهب المتراقصة قد انقشعت لتكشف ألسنة ضخمة من النيران مثل ومضات البرق الضخم.

عند هذه اللحظة تحدث صديق خالي بشيء من التحريض: «لو أن أخاك، ولو أن خالك ما زال حياً لسوف يرغب أن تُنقذا كلاكما ولو أنه ميت، لرغب أن تبقيا ذكراه فلماذا تؤجلان هروبكما؟»، فأجبناه بأننا لم نضع في اعتبارنا أمننا طالما

كنا غير متأكدين من أمن خالي. وبدون انتظار أكثر من ذلك اندفع صديقنا وأسرع بعيداً عن الخطر بأقصى ما يمكنه وبعد لحظات قليلة هبطت السحابة إلى الأرض وغطت البحر وقد صبغت مدينة كابري وأخفت مرتفعات مدينة ميسينا عن الرؤية، حينئذ توسلت أمي ورجتني بل وأمرتني أن أهرب قدر استطاعتي.

ـ فالإنسان الفتى قد يهرب بينما هي عجوز وبطيئة ويمكنها أن تموت في سلام طالما لم تكن سبباً في موتي أيضاً ـ لكنني رفضت إنقاذ نفسي بدونها وأمسكت بيدها دافعاً إياها كي تسرع الخطى واستجابت وهي مترددة تلوم نفسها لتأخيرها إياي.

كان الرماد يتساقط بالفعل لكن ليس كثيفاً بعد، ونظرت حولي كانت هناك سحابة كثيفة سوداء آتية خلفنا، تنتشر على الأرض مثل الفيضان فقلت لأمي «هيا نترك الطريق حيث ما زلنا نستطيع الرؤية وإلاّ سوف نرتطم وننقلب على أعقابنا في الظلام بالازدحام الذي خلفنا».

جلسنا بصعوبة كي نرتاح عندما هبط الظلام ليس ظلاماً كظلام ليلة بلا قمر أو تمتلىء بالسحب، لكن كظلام حجرة أُطفىء فيها المصباح وهي مغلقة. كان بإمكانك أن تسمع نحيب النساء وعويل الأطفال، وصرخات الرجال. البعض ينادي والده، والبعض أطفاله أو زوجاته محاولين التعرف عليهم من خلال أصواتهم، أناس يندبون مصيرهم أو مصير أقاربهم المحتوم كما كان هناك البعض الذين طلبوا الموت بسبب فزعهم من الموت نفسه. واستنجد العديد بمعونة الآلهة، لكن ظل هناك أناس أكثر يعتقدون أنه لم تبق هناك آلهة بعد، وأن الكون قد غرق في ظلام أزلي للأبد.

كان هناك أناس أيضاً قد زادوا النكبة الحقيقية بابتكار أخطار متخيلة، فبعضهم أفاد بأن جزءاً من مدينة ميسينا قد انهار أو جزءاً آخر قد اشتعلت فيه النيران، وبالرغم من أن روايتهم كانت زائفة إلاّ أنهم وجدوا من يصدقها، وعادت التماعة ضوء، لكننا أخذناها كتحذير من ألسنة اللهب المقتربة من أن تكون ضوء النهار، على أية حال بقيت النيران بعيدة إلى حد ما، وحينئذ هبط الظلام مرة أخرى وبدأ

الرماد في التساقط من جديد هذه المرة في رشاشات ثقيلة، ونهضنا من وقت لآخر كي ننفض الرماد عنا وإلا لَدُفنا تحت الرماد وتحطمنا تحت ثقله، ويمكنني أن أتيه بأن لا صرخة رعب أو أنّة ألم قد صدرت عني خلال هذه النكبات، لكنني أعرف بأنني قد استخلصت مواساة بسيطة لموتي من الإيمان بأن العالم كله كان يموت معي وأنا معه.

وأخيراً خف الظلام، وانقشع مثل دخان أو سحابة، ثم جاء ضوء النهار العظيم، وأشرقت الشمس بالفعل لكن بصفرة، كما لو كانت في كسوف. وقد فزعنا حين رأينا كل شيء قد تغير ودفن في باطن الرماد مثل نَدْفَ الجليد. وعدنا إلى ميسينا حيث انهمكنا في سد حاجاتنا الطبيعية بقدر ما نستطيع وحينئذ قضينا ليلة قلقة مراوحين بين الخوف والرجاء، وسيطر الخوف لأن الزلازل استمرت ولأن بعض الأفراد المصابين بالصدمة العصبية جعلوا كوارثهم وكوارث الآخرين تبدو مضحكة بالمقارنة مع تنبؤاتهم المخيفة، ولكن حتى ذلك الوقت وبالرغم من المخاطر التي اجتزناها وما زلنا نتوقع المزيد، بقينا أنا وأمي بلا رغبة في الرحيل ما لم نتلق أخباراً عن خالي، وبالطبع فهذه التفاصيل ليست هامة بما فيه الكفاية للتاريخ، وأنت سوف تقرأها دون أي فكرة عن تسجيلها وإذا كانت تبدو غير مستحقة أن توضع في خطاب فأنت الوحيد الذي تلام لطلبك إياها.

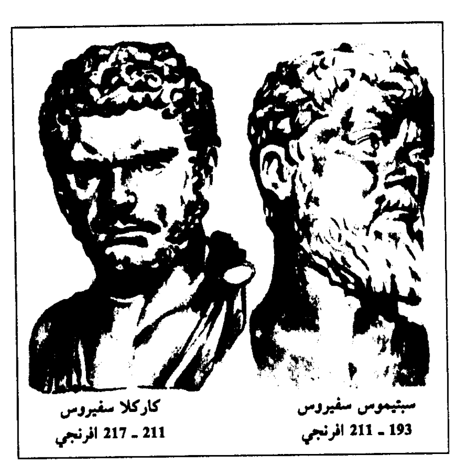
تأليه الامبراطور «سبتيموس سفيروس»

«عام 211 افرنجي»

*** هيـروديـان**

«مات سبتيموس سفيروس في بريطانيا، وكان هيروديان مؤرخاً إغريقياً يعيش في روما آنذاك».

قبل أن يفعلا أي شيء، أكمل كاراكولا وجيتا مراسم الجنازة لوالدهم، إنها التقاليد الرومانية التي تمنح قداسة لهؤلاء الأباطرة الذين يموتون وقد خلّفوا أعمالاً تمجدهم، وهذا الحفل يسمونه «التأليه». حزن عام مع طقس احتفالي وديني،



ولد في ليبيا وتعتبر وثائق التاريخ أنه زار مسقط رأسه في مدينة «لبدة» عام 201 افرنجي

يُعلن عنه عبر المدينة، وتُدفن جثة الميت بطريقة عادية مع جنازة مُكلفة، ثم يقومون بعمل نسخة مشابهة للميت من الشمع، حيث يضعونه على سرير ضخم من العاج، مغطى بملاءات ذات خيوط مُذهبة، ومرفوعاً إلى أعلى مكان في المدخل، هذه الصورة، شحوب الموت، باقية هناك كرجل مريض، وكلا جانبي السرير يأتيهما الناس معظم الوقت.. فجميع أعضاء مجلس الشيوخ يجلسون على اليسار، ملتفين بالسواد، في حين يكون على اليمين كل النسوة اللائي يحظين بمكانة نبيلة من مناصب أزواجهن وآبائهن، ولا واحدة منهن يمكن رؤيتها ترتدي ذهباً أو تتزين بالعقود، لكنهن جميعاً يلبسن الأردية المرسلة البيضاء، فتبدو مسحة الثكالى عليهن. ويستمر ذلك لسبعة أيام، يأتي خلالها الأطباء ويقتربون من السرير، ويلقون نظرة على «المفترض رحيله» ويعلنون تأخراً مستمراً في حالته الصحية يومياً، إلى أن يصرحوا بأنه مات أخيراً، ثم يُحمل السرير أو التابوت على أكتاف أكثر أعضاء مجموعة الفرسان نُبلاً وأعضاء مجلس الشيوخ من الشباب عبر الطريق المقدس ثم يوضع في قاعة المجلس الروماني، حيث يعقد المسؤولون الرومان دواوينهم عادة، وتُرص صفوف من المقاعد على كلا الجانبين، وتقف جماعة من أطفال النبلاء على جانب تواجه مجموعة مختارة من السيدات ذوات الحسب، وتغني كل مجموعة ترنيمات وأغاني شكر على شرف الإمبراطور الميت على لحن جنائزي، بعد ذلك يُرفع التابوت ويُحمل خارج إلى أسوار المدينة إلى «كامبوس مارتيوس»، حيث -

على أكبر بقعة منبسطة هناك ـ يقوم مبنى مربع كالمنزل مصنوع من أضخم الكتل الخشبية المربوطة ببعضها. ويمتلىء الداخل كله بالحطب المعد للنيران، بينما الخارج مغطى بأقمشة ذهبية وزخارف عاجية وصور ملونة، وفوق قمة ذلك يستقر بناء آخر مشابه في تصميمه وتركيبه للسابق لكنه أصغر بأبواب ونوافذ مفتوحة والطابق الثالث والرابع يتضاءلان في حجميهما، يعلوهما الدور الخامس أصغر ما فيهم، وشكلها جميعاً يمكن مقارنته بالمنارات التي تُسمى عادة فاروس[1].

وعندما يؤخذ التابوت إلى الطابق الثاني ويوضع بداخله، يُحضرون الأعشاب العطرية والبخور من كل نوع يأتي على سطح الأرض مع الزهور والحشائش والعصائر التي جُمعت لرائحتها، ويصبونها في أكوام، وكل قوم، وكل مدينة، وكل شخص ودون تمييز في المكانة أو المنصب، فالجميع يتنافسون في جلب هذه الهبات الأخيرة على شرف إمبراطورهم، وعندما تعلو كومة المواد المعطرة جداً وتملأ كل الفراغ، يبدأ عرض حول البناء فكل جماعة الفرسان تدور وتلف في دوائر منتظمة في رقصة النار. وتدور العربات أيضاً بنفس التشكيلات وقائدو العربات يرتدون ملابس قرمزية. ويحملون صوراً وأقنعة للأباطرة والقادة الرومانيين المشهورين. وينتهي العرض ويقوم وريث العرش فيحمل مشعلاً ويضعه على البناء ويتجمع المشاهدون أمام وخلف النيران.

ويصبح كل شيء ببساطة ويسر، نهباً للنيران بسبب كتل الحطب والبخور الموجودة في الداخل، ومن أعلى وأصغر طابق ـ كما لو كان من خلف ساتر ما ـ يُطلق نسر حاملاً معه ألسنة اللهب إلى السماء. ويؤمن الرومان بأن هذا الطائر يحمل روح إمبراطورهم من الأرض إلى السماء وفيما بعد، يعبد الإمبراطور مع بقية الآلهة.

---

(1) فاروس: جزيرة كانت في مواجهة مدينة الإسكندرية، بنى عليها المصريون القدماء أول منارة بحرية وأعلاها وإليها نُسبت جميع المنارات فيما بعد، اندثرت وتعد إحدى عجائب الدنيا السبع، «المترجم».

العشاء مع أتيلا الهوني

«عام 450 افرنجي»

*** برسكوس**

«أصبح أتيلا «سوط الإله» ملكاً على قبائل الهون عام 445 افرنجي وقد ذهب بريسكوس في سفارة إليه ممثلاً الإمبراطورية الشرقية».

دعا أتيلا كلا الجانبين منا للعشاء معه حوالى الساعة الثالثة ذلك المساء وقد انتظرنا اقتراب موعد الدعوة، وحينئذ اجتمعنا كلنا، ورسل الرومان الغربيين كذلك، ومثلنا أمام الممر المواجه لأتيلا، ووفقاً للتقاليد الوطنية، فإن حاملي الكؤوس، أعطونا كأساً لنصُب لأنفسنا مشروب التقدمة، قبل أن نأخذ مقاعدنا، وعندما أتممنا ذلك وارتشفنا خمرنا، توجهنا إلى مقاعدنا حيث سنتناول العشاء.

كانت جميع المقاعد قد صُفت إلى أسفل على جانبي الحجرة ثم إلى أعلى نحو الجدران، وفي المنتصف كان أتيلا جالساً على أريكة وراءها أخرى خلفه تماماً، وخلف ذلك خطوات قليلة تقود إلى سريره، الذي لأسباب جمالية قد غُطي بستائر مزينة مصنوعة من القماش الرقيق، مثل تلك التي يعدها الرومان والإغريق لحفلات الزواج، وأعتقد أن أكثر الضيوف تميّزاً كانوا على يمين أتيلا بينما ذوو المرتبة الثانية كانوا على اليسار حيث كنا نتواجد ومعنا بريكوس، وهو رجل له بعض الشهرة بين السيثيين[1] وكان جالساً أمامنا، في حين كان أوبخيسيوس على يمين أريكة أتيلا وفي مقابله جلس اثنان من أبناء الملك على مقاعدهم، والابن الأكبر كان جالساً على أقصى الحافة اليمنى لأريكة أتيلا، وعيناه مثبتتان على الأرض خوفاً من أبيه.

وعندما جلس الجميع تماماً في نظام، جاء حامل الكؤوس ليقدم لأتيلا وعاءً من الخشب مملوءاً بالنبيذ فأخذه أتيلا وشرب نخب أول جالس في الصف

(1) السيثيون هم الطورانيون ساكنو منطقة شمال البحر الأسود «المترجم».

الأمامي، الذي بدوره ـ بعد تشريفه هكذا ـ وقف على قدميه ولم يعد بإمكانه أن يجلس ثانية إلاّ بعد أن شرب أتيلا بعض أو كل الخمر ثم ناول الوعاء مرة أخرى للخادم، وكرمه الضيوف بنفس الطريقة، فتناولوا كؤوسهم، ثم شربوا الخمر نخب الرجل، ودار خادم حول الرجال في نظام ثابت بعد أن خرج حامل الكؤوس الخاص بأتيلا وعندما تم تكريم الضيف الثاني وباقي الجميع كل في دوره، حيّانا أتيلا في أسلوب محبب لنظامنا في الجلوس.

بعد أن تبودلت الأنخاب بين الجميع، خرج السُقاة، ثم مُدت مائدة أمام أتيلا ثم موائد أخرى لمجموعات ما بين ثلاثة إلى أربعة رجال في مجموعة، وساعد ذلك كل ضيف في تناول ما وضع على المائدة دون مغادرة مقعده.

دخل خادم أتيلا أولاً بأطباق ممتلئة لحماً، أما الآخرون الذين يخدمون الباقين فوضعوا الخبز والطعام المطبوخ على الموائد، وجبة باذخة في أطباق من الفضة أعدت لنا وللبرابرة الآخرين، لكن أتيلا تناول فقط بعضاً من اللحم في طبق من الخشب لأن ذلك كان مظهراً من نظامه الخاص، وفي الحال، قدمت كؤوس من الذهب والفضة إلى الضيوف الآخرين، بينما كأسه صنع من الخشب، وكانت ملابسه أيضاً بسيطة ولا مأخذ عليها سوى أنها يجب أن تُغسل والسيف المعلق إلى جانبه، وأربطة حذائه البربري، ولجام حصانه، كانت كلها خالية من الذهب أو الأحجار الكريمة أو أية حُليات قيمة تأثراً بالسيثيين الآخرين، وعندما فرغ الطعام من الطبق الأول، نهضنا جميعاً ولا أحد طالما نهض على قدميه، يعود إلى مقعده إلاّ إذا تناول ـ كما فعل من قبل ـ كأساً مملوءة بالخمر يتناولها نخباً في صحة أتيلا.

وبعد تقديم هذا التشريف له، جلسنا من جديد، ووضعت أطباق الدور الثاني على الموائد بطعام آخر وهذا أيضاً انتهى، ونهض كل واحد مرة أخرى، شارباً نخباً آخر، ثم يستأنف الجلوس من جديد. وعندما بزغ ضوء الفجر أضيئت المشاعل ودخل اثنان من البرابرة أمام أتيلا لينشدا بعض الأغاني التي لحنوها تدور حول انتصاراته وشجاعته في الحرب. وأولى الضيوف اهتماماً خاصاً بهما وبعض

الضيوف استمتعوا بالأغاني، بينما انفعل الآخرون عندما تذكروا الحروب، لكن البعض الآخر انهار وبكى حيث إن أجسامهم قد ضعفت بفعل الكبر وأُجبرت أرواحهم المحاربة على أن تبقى ساكنة.

بعد الأغاني دخل رجل سيثني كان رفيقاً مجنوناً أخبرنا بالكثير من الحكايات الغريبة والمزيفة لا توجد فيها كلمة حقيقية واحدة، جعلت الجميع يضحكون. وتبعه زيركون الموريتاني، فوضوي المظهر والملابس والصوت والكلمات وعندما خلط اللغة الإيطالية باللغة الهونية وبالقوطية، شد الجميع وجعلهم يغرقون في ضحك لاإرادي عدا أتيلا، فقد بقي ساكناً دون تغيير في تعبيرات وجهه وبلا أي كلمة أو إشارة ولم يبد عليه المشاركة في المرح إلاّ حينما جاء إرناس ابنه الأصغر ووقف أمامه، إذ جذب الصبي نحوه ونظر إليه بأعين ودودة. وقد دهشت لأنه لم يعط اهتماماً لأبنائه الآخرين في حين يجد وقتاً لابنه هذا فقط. لكن البربري بجانبي ـ والذي كان يفهم الإيطالية وما قلته بشأن الصبي ـ حذرني بألا أتكلم وأخبرني بأن المنجمين أفادوا أتيلا بأن أسرته سوف تنفى ولكن ابنه هذا سوف يسترد الحكم.

بعد أن قضينا أغلب الليل في الحفل، غادرناه ولم تعد لدينا أية رغبة في متابعة الشرب أكثر من هذا.

جنازة أحد رجال الفايكنج

«عام 922 افرنجي»

*** ابن فضلان**

«قام بها تجار اسكندنافيون على نهر الڤولجا، ولاحظها مبعوث الخليفة في بغداد».

أخبروني أن أقل شيء يفعلونه لرؤسائهم حين يموتون هو إهلاكهم بالنار وعندما علمت أخيراً بموت واحد من كبارهم، سعيت لمشاهدة ما يحدث.

أولاً قاموا بوضعه في المقبرة، التي وضعوا عليها سقفاً ولمدة عشرة أيام حتى يستكملون تفصيل وخياطة ملابسه، وفي حالة الرجل الفقير فهم يبنون له فقط قارباً حيث يضعونه فيه ويشعلونه بالنار. وعند موت رجل ثري فإنهم يجمعون ثروته ويقسمونها ثلاثة أقسام، أول قسم منها يخصص لأسرته، والثاني ينفق على الملابس التي يصنعونها، وبالقسم الثالث يشترون خمراً قوياً من أجل اليوم الذي تكرس فيه إحدى الفتيات نفسها للموت، وتحرق مع سيدها، لأنه باستخدام الخمر يتركون أنفسهم لحالة جنونية، يشربونه ليلاً ونهاراً، وليس نادراً ما يموت أحدهم وفي يده كأس.

وعندما يموت واحد من رؤسائهم، تسأل العائلة فتياته وتابعيه. «من منكم سوف يموت معه؟» حينئذ يجيب واحد منهم [أنا]، ومن اللحظة التي ينطق فيها بهذه الكلمة، لا يصبح بعدها حراً، وإذا ما رغب في الانسحاب لا يسمح له. والغالبية منهم ـ على أية حال ـ هن الفتيات اللائي يقدمن أنفسهن. ولهذا فالرجل الذي أتحدث عنه، عندما مات، سألوا فتياته: «من منكن سوف تموت معه؟» فأجابت واحدة منهن [أنا]. وفي الحال ألزموها بفتاتين، كان عليهما مراقبتها، ومصاحبتها حيثما ذهبت بل وحتى في بعض الأحيان يغسلان قدميها. وبدأ الناس الآن يشغلون أنفسهم بالرجل الميت، يقصون له الملابس ويعدون كل ما هم في حاجة إليه، وخلال هذه الفترة أغرقت الفتاة نفسها في الشراب والغناء وأصبحت مرحة ومبتهجة وعندما أتى اليوم الذي سيقدم فيه الرجل الميت والفتاة للنيران. ذهبت إلى النهر حيث توجد سفينته، لكنني وجدتها قد سحبت إلى الشاطىء وقد جهزت لها أربعة أركان من الكتل الخشبية الناعمة وبعض الأخشاب الأخرى بينما أُقيمت حولها أشكال خشبية ضخمة تمثل البشر، وفوق هذا كله وضعوا السفينة على هذه الأخشاب المذكورة كلها. في الوقت نفسه بدأ الناس يذهبون ويجيئون، ويلفظون كلمات لم أفهمها، وفي نفس الوقت يرقد الرجل الميت في مقبرته على مسافة قريبة حيث لم يخرجوه منها بعد.

بعد ذلك أحضروا سريراً ووضعوه في السفينة وغطوه بالقماش الإغريقي

المذهب المحشو والمطرز، وبالوسائد من نفس القماش. حينئذ جاءت عجوز شمطاء، يدعونها «ملاك الموت»، ونثرت الأشياء التي ذكرتها على السرير، لقد كانت هي التي أنجزت خياطة الملابس والتزمت بإنهاء كل التجهيزات، وهي أيضاً التي كان عليها أن تذبح الفتاة. لقد رأيتها، كانت سمراء بجلد سميك وظهر محني.

وعندما أتوا للمقبرة، أزالوا السقف الخشبي ووضعوه جانباً، وأخرجوا الرجل الميت بلفائفه الواسعة التي مات فيها. ورأيته حين ذاك شديد السواد بسبب برودة هذه البلاد، وبجواره في المقبرة كانوا قد وضعوا خمراً قوية، وفاكهة وآلة موسيقية، وهذه أخذوها أيضاً. والرجل الميت لم يتغير فيه شيء. ثم ألبسوه طبقات من القماش وواقيات الأرجل المصنوعة من الجلد والأحذية الطويلة وعباءة من القماش الذهبي بأزرار ذهبية واضعين على رأسه قبعة من القماش الذهبي بحافة من الفرو الأسود، وحينئذ حملوه إلى خيمة منصوبة على السفينة وأجلسوه على الأغطية المطرزة والمحشوة وأسندوه بالوسائد ووضعوا بجواره الخمر والفواكه والأعشاب العطرية، ثم أحضروا كلباً شطروه نصفين، وألقوا بلحمه إلى السفينة وكذلك ثورين، قطعوهما إلى قطع صغيرة وقذفوها داخل السفينة، وأخيراً أحضروا ديكاً ودجاجة قتلوهما وألقوا بهما إلى السفينة أيضاً.

كانت الفتاة التي كرست نفسها للموت تمشي جيئة وذهاباً في الوقت نفسه وتدخل خيمة وراء الأخرى من التي نصبوها هناك، فيضاجعها صاحب الخيمة قائلاً لها «اخبري سيدك أنني فعلت ذلك من أجل حبك».

وعندما أصبح اليوم الجمعة مساءً، اقتادوا الفتاة إلى شيء بنوه ويشبه إطار الباب، حينئذ وضعت قدميها على أيدي الرجال الممتدة فرفعوها عالياً فوق ذلك الإطار، وتلفظت بشيء بلُغتها. على أثر ذلك تركوها تهبط، ثم رفعوها ثانية، ففعلت مثل أول مرة، ومرة أخرى تركوها تهبط، ثم بعد ذلك رفعوها للمرة الثالثة، في حين فعلت ما سبق أن قامت به، فناولوها دجاجة، قامت بفصل رأسها، وقذفته بعيداً، لكن الدجاجة نفسها ألقوا بها في السفينة.

استفسرت من المترجم عما قامت بفعله، فأجابني: في المرة الأولى قالت: «انظروا إني أرى هنا والدي وأمي» وفي الثانية قالت: «انظروا الآن أرى كل أقاربي الراحلين يجلسون»، وفي الثالثة: «انظروا. . هاكم سيدي الذي يجلس في الجنة، والجنة جميلة جداً، وخضراء، ومعه رجاله وصبيانه، إنه يناديني، ولهذا أحضروني له. . .» حينئذ اقتادوها إلى السفينة. وهنا خلعت أسوارتيها وأعطتهما للمرأة العجوز التي يسمونها «ملاك الموت»، وخلعت أيضاً خلخاليها وأعطتها للخادمتين اللتين كانتا ابنتي المدعوة «ملاك الموت»، وحينئذ رفعوها إلى السفينة، لكن لم يصرحوا لها بالدخول إلى الخيمة بعد، وحضر الرجال الآن بالدروع والقسي، وناولوها كأساً من الخمر، فأخذته وغنت وهي تشربه حتى أفرغته، «بهذا» - كما أخبرني المترجم - «هي تبدأ مغادرة الأعزاء عليها»، ثم ناولوها كأساً آخر فأخذته بدورها وبدأت أغنية طويلة، فنصحتها العجوز بأن تجرع الكأس دون تسويف، ولتدخل الخيمة حيث يرقد سيدها.

في هذه اللحظة بدا لي أن الفتاة أصبحت مضطربة، فتحركت كما لو كانت ستدخل الخيمة ووضعت رأسها أماماً بين الخيمة والسفينة، عندما أمسكت الشمطاء برأسها وسحبتها للداخل، وعند هذه اللحظة بدأ الرجال يضربون دروعهم بالقسي كي يغطوا على الضوضاء الصادرة من صرخاتها التي ربما تخيف الفتيات الأخريات وتمنعهن من طلب الموت مع أسيادهن في المستقبل، وبعد ذلك تبعها ستة رجال إلى داخل الخيمة وكل واحد قام بمضاجعتها ثم أرقدوها بجوار سيدها.

وفي حين أمسكها رجلان من قدميها، وآخران من يديها، ربطت المرأة المعروفة بملاك الموت حبلاً حول رقبتها وأسلمت الطرفين للرجلين الآخرين ليجذباه، وحينئذ وبخنجر عريض النصل طعنتها بين ضلوعها، وسحبت النصل بقوة، بينما يخنقها الرجلان بالحبل حتى ماتت، واقترب الآن أول أقرباء الميت، وعندما أخذ قطعة من الخشب، أوقدها، ثم عاد نحو السفينة، حاملاً العصا بيد، وبالأخرى يغطي أسفله، حيث كان عارياً، حتى اشتعل الخشب المكوّم أسفل

السفينة، ثم جاء الآخرون بالعصي والحطب، كل واحد يحمل عصاً مشتعلة تماماً عند طرفها، وألقوا بها جميعاً إلى المحرقة، والتهمت النيران الكوم بسرعة، وبعد ذلك أتت على السفينة وأخيراً الخيمة والرجل والفتاة وكل شيء على ظهرها، وهبت عاصفة مخيفة، فألهبت النيران، ومنحت الأتون أجنحة.

الأطفال ذوو اللون الأخضر

«عام 1150 افرنجي»

* ويليام أوف نيوبرج

لا يبدو من الصحيح أن يهمل الإنسان خارقة غير مسموعة، كتلك التي ـ كما هو معروف ـ حدثت في إنجلترا أثناء حكم الملك ستيفن، ورغم أن العديد من الناس قد أكدوها، إلاّ أنني ظللت أشك طويلاً فيما يتعلق بالأمر، واعتبرت أنه من السخف أن أعطي ثقة في ظرف لا يعتمد على أساس عقلي، أو على الأقل، أنه من النماذج الغامضة جداً، إلاّ أنه، وبعد فترة، تراجعت تحت ضغط مثل هذا العدد العدول من الشهود لدرجة أنني أرغمت على الاعتقاد بل والتعجب من الأمر، الذي كنت غير قادر على فهمه، أو فك رموزه، بأية وسائط عقلية.

توجد في إيست أنجليا[1] قرية نائية، كما يقال، على مسافة أربعة أو خمسة أميال من دير الملك الشهيد المرحوم، إدموند. وبالقرب من هذا المكان يمكن رؤية بعض المغارات تسمى «ولف بيتز» أي أوكار الذئاب، والتي أعطت اسمها للقرية المجاورة «ووليت»، وأثناء الحصاد بينما كان يجتمع الحاصدون المستخدمون في جمع ما تنتجه الحقول، ظهر فجأة طفلان، صبي وفتاة، لونهما أخضر تماماً، ويرتديان ملابس غريبة اللون، ومن مواد غير معروفة، وخرجا من هذه الفتحات.

وأثناء تجوالهم بين الحقول في دهشة، أمسكهما الحاضرون، واقتادوهما إلى

(1) إيست أنجليا وميرسيا كانتا تشكلان مقاطعة نورثوميريا في إنجلترا شمال هومبر، «المترجم».

القرية، وجاء كثير من الأشخاص ليروا هذا المشهد العجيب، وقد بقيا عدة أيام دون طعام، وعندما أجهدهما الجوع، ولم يستطيبا أي نوع من الغذاء الذي قُدم لهما، تصادف أن البعض أحضر كمية من الفول من الحقول، فقاما بإمساكها بشدة، وفحصا الأعواد بحثاً عن حباتها، وعندما لم يجدا ذلك في فراغ الأعواد، بكيا بشدة، فقام واحد من الواقفين، بإخراج الحبوب من غلافها وقدمها للطفلين، اللذين أمسكاها مباشرة، والتهماها بلذة، وبهذا الطعام عاشا لأشهر عديدة، حتى تعلما استخدام الخبز.

وعلى المدى، وبالتدريج، تغير لونهما الأصلي بسبب التأثير الطبيعي لطعامنا، وأصبحا يشبهاننا بل وتعلما لغتنا، وبدا لبعض الحكماء من الأشخاص أنه من المناسب أن يتسلما أسرار التعميد[1]، الذي كان مفروضاً بناءً على ذلك. وعاش الصبي - الذي كان هو الأصغر - لفترة قليلة بعد التعميد، ثم مات مبكراً بينما عاشت أخته في صحة جيدة ولم تختلف في كثير عن نساء بلادنا.

وفيما بعد، كما صُرح لنا، تزوجت في «لين» وعاشت سنيناً قليلة بعد ذلك على الأقل، هكذا قالوا، وعلاوة على ذلك، بعدما تعلما لغتنا، كانا عندما يُسألان من هما ومن أين جاءا؟، يقال أنهما كانا يجيبان: «نحن من سكان أرض القديس «مارتين» الذي ننظر إليه باحترام عميق خاص في بلادنا التي وُلدنا بها». وعندما يُسألان أكثر عن مكان هذه الأرض، وكيف جاءا؟ حينئذ يجيبان على ذلك نحن نجهل كلا الظرفين، فقط نتذكر أنه في يوم ما، عندما كنا نرعى ماشية أبينا في الحقول، سمعنا صوتاً عظيماً، مثلما تعودنا الآن على سماع ذلك في كنيسة القديس إدموند عندما تُقرع الأجراس، وبينما نستمع للصوت في إعجاب، أصبحنا في حالة لاوعي - كما بدأ ذلك - ثم وجدنا أنفسنا بينكم في الحقول حيث كنتم تحصدون».

وعندما كانا يسألان عما إذا هم في تلك الأرض يؤمنون بالمسيح، وعما إذا

---

(1) التعميد أحد الطقوس السبعة التي يدخل بها الطفل إلى المسيحية وفيها ينال اسمه المسيحي. «المترجم».

كانت الشمس تشرق عندهم، يجيبان بأن بلادهم مسيحية، وبها كنائس، لكن ـ يجيبان ـ «الشمس لا تشرق على مواطنينا، فأرضنا تبتهج قليلاً بأشعتها، ونحن نرتاح لهذا الشفق الذي ـ ونحن بينكم ـ يسبق الشروق ويتبع الغروب، وعلاوة على ذلك كنا نرى مدينة لامعة ما ـ ليست بعيدة عنا ـ كانت مدينتنا تنفصل عنها بواسطة نهر عظيم، ذلك وأشياء أخرى، أكثر مما يمكن خصها بالذكر، قالوها لإشباع فضول المستفسرين، ولندع كل واحد يقول ما يشاء، ويفسر هذه الأشياء وفقاً لقدراته، أما أنا فلا أشعر بأي ندم لتسجيلي حدثاً بهذا القدر من الإعجاز والغرابة.

اغتيال توماس بيكيت
في كاتدرائية كانتربري بأوامر من الملك هنري الثاني.

«29 ديسمبر/ الكانون 1170 افرنجي»

*** إدوارد جريم**

لهذا فالأشخاص المزعومين، لم يكونوا فرساناً وإنما بؤساء ومساكين، بمجرد أن هبطوا سيدعون موظفي الملك، الذي سبق أن فصلهم عن الكنيسة ـ رئيس القساوسة ـ وبإعلانهم ـ كذباً ـ أنهم يعملون بأوامر من الملك وباسمه، فقد جمعوا عصابة خلفهم، وتجمعوا معاً في صف واحد، مستعدين لأي فعل سيء، وفي اليوم الخامس بعد ذكرى ميلاد المسيح، (كان هذا في اليوم التالي لعيد الأبرياء المقدسين)[1] اجتمعوا ضد البريء، فبعدما انتهت ساعة العشاء خرج القديس مع بعض رفاقه من وسط الازدحام إلى غرفة داخلية ليؤدي بعض الأعمال، تاركاً بقية المجموعة تنتظر في الصالة خارجاً، ودخل أربعة فرسان وأحد الخدم، وقد استقبلوا بكل الاحترام باعتبارهم في خدمة الملك، ومعروفين جيداً، وقد دعاهم هؤلاء ـ الذين كان يقومون بخدمة مائدة كبير القساوسة ـ إلى

(1) ذكرى المذبحة التي أعدها هيرود الروماني للأطفال وتوافق 28 من ديسمبر/ الكانون، «المترجم».

العشاء لأنهم هم أنفسهم كانوا قد بدأوا يتناولون عشاءهم.

لكن الفرسان الأربعة رفضوا الطعام بازدراء، فهم متعطشون للدم فقط، وبطريقتهم عَلِمَ كبير القساوسة بأن الرجال الأربعة يرغبون في الحديث معه من قبل الملك، فأذن لهم ودخلوا، جلسوا مدة طويلة في صمت، ولم يقوموا بتحية كبير القساوسة ولا الحديث معه، ولم يقم صاحب الحكمة بتحيتهم فور دخولهم، لأنه وفقاً للكتاب المقدس «بكلامك، تُدان» ولربما يكتشف نواياهم من أسئلتهم، وعلى أية حال، فبعد بُرهة، التفت إليهم ومركزاً على وجه كل واحد منهم بعناية، قام بتحيتهم في سلوك ودي لكن التّعساء، الذين عقدوا معاهدة مع الموت، أجابوا تحيته باللعنات وصلوا لله ـ بسخرية ـ داعينه أن ينقذه.

عند هذا الحديث المرير والحاقد تغيَّر لون رجل الدين بشدة، ورأى الآن أنهم أتوا من أجل إيذائه، وعلى ذلك انفجر فيتزورس ـ الذي يبدو أنه كبيرهم والأكثر تشوقاً للجريمة بينهم ـ في كلمات غاضبة: «لدينا ما نقوله لك بأوامر من الملك، أخبرنا إذا ما كنت تريدنا أن نقوله هنا أمام الجميع» لكن رئيس القساوسة أدرك ما سيقولونه، فأجاب: «مثل هذه المسائل يجب ألاّ تقال في جلسة خاصة أو داخل غرفة وإنما في العلن». والآن أصبح هؤلاء البؤساء متحرقين للمذبحة لدرجة أنهم تمنوا لو يقتلوه لولا أن حارس الباب نادى الكتبة كي يعودوا، لأن رئيس القساوسة كان قد أمرهم جميعاً بالخروج، وقد اعترفوا بذلك، أمام عصا الصليب الموجودة قريباً منهم.

وعندما عاد أولئك الذين خرجوا من قبل، قال الذي أهان كبير القساوسة منذ لحظات: «إن الملك، عندما أقام السلام بينكما، وانتهت كل الخلافات، أعادك حراً إلى مكانتك، كما طلبت، لكنك باليد الأخرى أضفت إهانات إلى أخطائك السابقة فقوضت السلام، نميت الشر في نفسك ضد مليكك». الآن ـ قال السفاحون ـ « هذه هي أوامر الملك، أن ترحل بكل رجالك من المملكة ومن جميع الأراضي التي تخضع له، لأنه منذ اليوم لا يمكن أن يكون هناك سلام معك ولا مع أي من رجالك، طالما قوضت السلام»... فأجابه عندئذ: «فلتتوقف

تهديداتك، وليثبت عراكك، إنني أثق في مَلِك السموات، الذي من أجله تألم فوق الصليب ولأنه منذ اليوم، لن يرى أحد البحر بيني وبين كنيستي، لقد أتيت. . لا لأهرب، فهنا من يبحث عني سيجدني، كما أنه ليس من اللائق بملك أن يأمر بهذا، لقد كانت الإهانات التي لحقت بي وبخاصتي كافية من القائمين بخدمة الملك. دون المزيد من التهديدات».

قفز الفرسان عند هذه الكلمات التي أثارتهم، إذ لم يعودوا يتحملون صلابته أكثر من ذلك، واقتربوا منه قائلين: «نحن نُعلمُكَ بأنك تفوهت بما يساوي سقوط رأسك»، فأجابهم «هل تأتون لقتلي؟ لقد رفعت قضيتي لحاكم الكل، حيثما لا أتحرك بالتهديدات، ولا سيوفكم ستكون أكثر استعداداً للقتل من استعدادي للشهادة، ابحثوا عمن يهرب منكم، أما أنا فسوف تجدونني قدماً بقدم في معركة الإله».

وبينما هم يخرجون بالإهانات والضوضاء، صاح ذلك الملقب أورسوس [أي دب] في صوت وحشي «باسم الملك، نطالبكم، كتبة ورهباناً ـ أن تأخذوا وتمسكوا ذلك الرجل كي لا يهرب عبر أحد الممرات، فقد أصدر الملك حُكماً على جسده»، وبينما هم يخرجون بهذه الكلمات، تبعهم رجل الدين إلى الباب وصاح: «هنا، هنا سوف تجدونني» واضعاً يديه على عنقه كما لو كان يريهم المكان الذي سوف يضربون فيه، ثم عاد بعدئذ إلى المكان الذي كان يجلس فيه من قبل وخفف عن كتبته وحثهم على ألاّ يخافوا ـ وكما بدا لنا نحن الحاضرين، انتظر بلا أي توتر ـ رغم أنه فقط وحده ـ من جاؤوا لقتله كما لو كانوا قد جاؤوا لدعوته لحفل زفاف وقبل مرور فترة طويلة عاد القتلة بالسيوف والفؤوس والمناجل وبقية الأسلحة الملائمة لارتكاب الجريمة التي استقرت عليها عقولهم. وحينما وجدوا الأبواب مغلقة بالقضبان ولم تفتح لطرقاتهم، التفوا جانباً من طريق خاص عبر ممشى الحديقة إلى جزء خشبي، قاموا بقطعه وتحطيمه حتى انهار.

عند هذه الضجة المخيفة ارتعب الخدم والكتبة، ومثل الغنم أمام الذئب، تناثروا هنا وهناك، أما الذين بقوا فقد طلبوا من كبير القساوسة أن يهرب إلى

الكنيسة، لكنه لم ينس وعده له بألاّ يهرب من قاتليه خشية الموت، ورفض أن يذهب وعندما لم يقتنع بالجدال أو بالرجاء أن يلجأ للكنيسة، أمسك به الرهبان رغم مقاومته، وسحبوه، وجذبوه، ودفعوه دون اعتبار لتوسلاته بأن يتركوه، وأحضروه إلى الكنيسة، لكن الباب الذي من خلاله يؤدي الطريق إلى صومعة الرهبان كان قد أُغلق بعناية منذ بضعة أيام مضت، لكن واحداً من الرهبان اندفع للأمام، وأمسك بالقفل، ولدهشة الجميع فتحه بسهولة كما لو كان ملصوقاً بالصمغ على الباب.

وعندما دخل الرهبان الكنيسة تبعهم الفرسان الأربعة بخطوات سريعة يصحبهم بعض الشمامسة المسلحين بالحقد مثل كبيرهم المدعو «هوف» والذي لقبه «موكليرك» ملائم تماماً لشره، حيث لم يظهر التوقير لله وللقديسين، كما سيتضح، وعندما دخل كبير الأساقفة المقدس الكنيسة، أوقف الرهبان ترنيماتهم التعبدية[1] التي كانوا قد بدأوها، وهرعوا إليه، يمجدون الرب، أن رأوا أباهم، الذي سمعوا أنه قد مات، ما زال حياً معافى، وأسرعوا لحماية راعيهم من المذبحة، فقاموا بإغلاق مزاليج الأبواب، لكن البطل التفت إليهم، آمراً بأن تفتح أبواب الكنيسة على مصراعيها قائلاً: «ليس من المقبول أن نجعل من دار العبادة حصناً، إن كنيسة المسيح مع أنها يجب ألاّ تغلق، فإنها قادرة على أن تحمي ما لها، ولسوف تنتصر على العدو بالألم بديلاً عن القتال، لأننا أتينا كي نتألم لا لنقاوم»... ودخلوا مباشرة بيت السلام والوئام بسيوفهم مُشرعة تنتهك حرمته، مسببين الذعر للحاضرين بأشكالهم وقرقعات أسلحتهم.

وأصاب الذعر والاضطراب جميع الحاضرين وأما هؤلاء الذين كانوا ينشدون ترنيماتهم فقد هربوا هنا من المشهد المرعب.

[وبينما هو يهبط الدرجات نحو الباب، بحث جون أوف ساليسبوري والكتبة

---

(1) في الأصل Vespers تعني الساعات الست المخصصة لدراسة وتسميع الواجبات الدينية اليومية للرهبان الجدد من بين سبع ساعات تسميها الكنيسة الكاثوليكية بالساعات القانونية المكرسة للعبادة أو الاحتفالات وكانت تبدأ من 8 صباحاً حتى 3 بعد الظهر، «المترجم».

ـ ما عدا روبرت القانوني، وويليام فيتزستيفن وإدوارد جريم[1]، الذي جاء حديثاً إليه ـ عن ملجأ بعضهم عند الطاولات، والبعض في أماكن مختفية وتركوه، وحقيقة لو أنه أراد فقد كان يمكنه أن ينقذ نفسه بالفرار، لأن كلاً من الوقت والمكان يتيحان الفرصة لذلك، فالوقت كان مساءً، وهناك ليل طويل مقبلٌ، والقبو كان قريباً حيث يمتلىء بالزوايا المظلمة، وكان هناك أيضاً باب حيث يوجد بجواره سُلَّمٌ دائري يقود إلى الصالة العليا[2] وسطح الكنيسة، لكنه لم يقم باختيار أي منها][3].

ومدفوعين بالغضب، صاح الفرسان: «أين توماس بيكيت؟، الخائن للملك وللملكة»؟. ولما لم يجبهم صرخوا بغضب أكثر: «أين كبير القساوسة»؟ عند ذلك هبط إليهم بشجاعة وبلا خوف، كما هو مكتوب «العادل، مثل أسد جسور، سوف يكون بلا خوف» من أعلى السلالم حيث كان الرهبان قد جذبوه من قبل خوفاً من الفرسان، وبصوت واضح أجابهم: «أنا هنا، لست خائناً للملك، وإنما مجرد راهب، لماذا تبحثون عني؟» وبينما قال لهم ذلك لم يعد يخشاهم فأضاف: «ولهذا فأنا على استعداد للتألم من أجل اسمه الذي خلصّني بدمه، فليكن بعيداً عني الهرب من سيوفكم أو الابتعاد عن العدالة».

وما إن قال ذلك، حتى استدار إلى اليمين، تحت عمود على أحد جانبيه لوحة لأم الرب المباركة «ماري العذراء أبداً» وعلى الجانب الآخر لوحة للقديس بنيركت المُعترف، الذي بمثاله وصلواته حين مسح بالصليب العالم وشهواته، تحمل كل ما يمكن أن يفعله القتلة بروح ثابتة كما لو كان قد خرج من جسده، وتبعه السفاحون، وصاحوا به: «أعلن غفرانك، وأعد لمجتمع الكنيسة هؤلاء الذين طردتهم منها، وأعد القوة لهؤلاء الذين منعتها عنهم». فأجابهم: «لم يكن هناك تكفير، ولن أعفو عنهم». فصاحوا: «إذن فسوف تموت. وتنال ما تستحق» أجابهم: «إني مستعد أن أموت من أجل ربي، فلربما تجد الكنيسة حريتها

---

(1) الكاتب نفسه، «المترجم».

(2) الصندرة، «المترجم».

(3) الفقرة المحصورة بين أقواس مربعة كتبها ويليام فيتزسيفن «المؤلف».

وسلامها في دمي، ولكن باسم الله العظيم، أنهاكم أن تؤذوا أحداً من شعبي سواء أكان كاتباً بالكنيسة أم إنساناً عادياً». هكذا طلب بطهارة وإمعان الشهيد النبيل ألاّ يُؤذَى أحد بجانبه أو يتعرض الأبرياء للقتل، وحيث حان حقوت مجده، إذ أسرع للمسيح، هكذا أصبح الشهيد ـ الفارس متتبعاً خطوات قائده ومخلصه[1]، الذي حين بحث عنه الشرير قال: «لو أنك تبحث عني، فاترك هؤلاء يذهبون لحالهم».

حينذاك وضعوا أيديهم المنتهكة للحرمات، يجذبونه ويسحبونه آملين في قتله خارج الكنيسة، أو يحملونه أسيراً، كما اعترفوا فيما بعد، لكن عندما لم يستطيعوا إجباره على الخروج بعيداً عن العمود، ضغط عليه واحد منهم وقد التصق به عن قرب، فدفعه رجل الدين بعيداً عنه داعياً إياه بـ «الشرير» قائلاً: «لا تلمسني، يا ريجينالد، فأنت مدين لي بالولاء، والخضوع، وأنت وتابعوك تتصرفون كالمجانين»... فاشتعل الغضب المروع في صدر الفارس عند هذا الرد الحاد، ولوّح بسيفه فوق الرأس المقدسة وصرخ: «لا إخلاص ولا خضوع أدين لك به ضد ولائي لسيدي الملك».

وعندما رأى الشهيد الذي لا يقهر أن ساعة الخلاص قد دنت، والتي يجب أن تضع نهاية لهذه الحياة البائسة، وتمنحه مباشرة تاج الخلود الذي أعطى به الرب وعداً، أحنى رقبته كإنسان يصلي، ورفع يديه عالياً بعد أن عقدهما معاً، وأودع قضيته وقضية كنيسته بين يدي الله، وللقديسة «ماريا» وللشهيد المبارك «دينيس»، وما كاد ينطق الكلمات، حتى إن الفارس الشرير ـ وخشية أن يقوم الناس بإنقاذه ويهرب حياً ـ قفز فوقه فجأة وجرح ـ هذا الحمل الذي قُدم أضحية لله ـ في رأسه، محطماً قمة الإكليل الذي يكرس في الزيت المقدس لله. وبنفس الضربة ـ جَرَحَ ذراع الذي يخبركم بذلك الآن، لأنه، عندما هرب كل من الكتبة والرهبان، التصق هو بالرجل المقدس، وأمسك به بين ذراعيه، إلى أن جُرحت ذراعه التي واجهت الضرب.

(1) يقصد يسوع المسيح «عليه السلام» «المترجم».

ومدركاً لوداعة الحمامة وحكمة الثعبان ـ في الشهيد الذي عرض جسده للذين ضربوه ظانين أنه سيبُقي على حياته ـ أي روحه والكنيسة ـ لم يُمسَّا ـ وما كان ليستخدم أية تدبيرات ضد هؤلاء الذين حطموا جسده، يمكنه بواسطتها أن يهرب، يا أيها الراعي المستحق التقدير، الذي أسلم نفسه بجرأة للذئاب لئلا يُمزّق قطيعه، لأنه رفض العالم، ذلك العالم الذي من خلال رغبته في تحطيمه، مَجَّدَهُ دون أن يدري، حينئذ تلقى ضربة ثانية على رأسه، لكنه وقف ثابتاً، وعند الضربة الثالثة وقع على ركبتيه وكتفيه، واهباً نفسه ضحية حية، قائلاً في صوت خافت: «باسم المسيح وحماية الكنيسة، أنا جاهز للقاء الموت».

عند ذلك وجه الفارس الثالث ضربة دامية له وهو راقد انكسر لها السيف على الممر والإكليل الذي كان كبيراً فُصل عن رأسه لدرجة أن الدم استحال لونه أبيض إذ اختلط بالمخ، والمخ استحال أحمر لاختلاطه بالدم، وقد صبغ أرضية كنيسة الأم العذراء بحياة وموت المعترف والشهيد في ألوان زهرة الليلك والورود، أما الفارس الرابع فقد منع أياً كان من التدخل حتى يُعد الآخرون جريمتهم بسهولة. وبالنسبة للخامس، الذي كان من غير الفرسان وإنما من الكتبة الكنسيون وقد دخل معهم، فلم تكن هناك حاجة لضربة خامسة للشهيد الذي كان شبيهاً بالمسيح في عدة أمور، فقد وضع قدمه على رقبة الراهب المقدس والشهيد الجليل، ـ ومن المخيف القول، أن مخه ودمه تناثرا على الممر ـ منادياً الآخرين: «فلنمض أيها الفرسان، فلن يقوم بعد الآن».

الملك ريتشارد الأول
يذبح المساجين بعد الاستيلاء على «عكا»
«2 ـ 20 أغسطس/ هانيبال 1191 افرنجي»
«رؤية عربية للحملة الصليبية»

*** بهاء الدين**

في نفس اليوم خرج حسام الدين ابن بارق، وهو مترجم يعمل مع الإنجليز،

من مدينة عكا مصحوباً بضابطين من رجال الملك ريتشارد الأول ملك إنجلترا، وجلب معه أخباراً بأن ملك فرنسا قد توجه نحو مدينة صور وأنهم قد أتوا لمناقشة مسألة إمكان تبادل المساجين ولرؤية الصليب الحقيقي الذي صلب عليه السيد المسيح. وعما إذا كان لا يزال في معسكر المسلمين أو للتأكد إذا ما كان أُرسل بالفعل إلى بغداد، وأُبرز لهم الصليب الحقيقي، وما أن شاهدوه، حتى أبدوا له توقيراً عميقاً، وألقوا بأنفسهم على الأرض حتى تغطوا بالتراب، وتصاغروا بأنفسهم في عبارات الولاء، وأخبرنا المبعوثون بأن الأمراء الأوروبيين قد قبلوا اقتراح السلطان صلاح الدين الذي ينص على توزيع كل ما تعيّن في الاتفاقية على ثلاث مراحل خلال نوبات في الشهر، وأرسل السلطان - حينئذ - مبعوثاً إلى مدينة صور بهدايا قيّمة، وكميات من العطور، والأقمشة الفاخرة كانت كلها من أجل ملك فرنسا.

وفي صباح اليوم العاشر من رجب [الموافق 3 أغسطس] عاد ابن بارق ورفيقاه إلى ملك إنجلترا في حين غادر السلطان وحرسه وأصدقاؤه المقربون المكان إلى التل الذي يشرف على شفا عمرو ولم يتوقف المبعوثون عن الانتقال من جانب لآخر، على أمل إرساء أسس سلام ثابت، وهذه المفاوضات استمرت حتى تحصّل رجالنا على عدد المساجين والأموال التي سوف يسلمونها للمسيحيين في نهاية الفترة الأولى طبقاً للاتفاقية، وكانت المرحلة الأولى تشمل الصليب المقدس، 100,000 ديناراً و 1,600 سجيناً من الذين تم تحديدهم بالاسم.

ووجد الرجال المؤتمنون الذين أرسلهم الجانب المسيحي كل شيء مُعداً عدا المساجين فقط الذين طُلبوا بالاسم والذين لم يتم جَمْعَهُم معاً بعد، وهكذا استمرت المفاوضات تزحف حتى نهاية الفترة الأولى، وفي هذا اليوم الثامن عشر من رجب [11 أغسطس] أرسل العدو يطلب تنفيذ ما يجب.

أجاب السلطان بما يلي: «اختاروا واحداً من اثنين، إما أن تعيدوا لنا رفاقنا وتتسلمون الفدية المقررة في هذا الشرط، في الحالة هذه التي سنعطي فيها رهائن لتأكيد التنفيذ الكامل للشروط التي بقيت، أو تقبلوا ما سوف نرسله لكم اليوم،

وبدوركم تعطوننا رهائن نحتفظ بهم حتى نسترد رفاقنا الذين تحتفظون بهم سجناء وحصل المبعوثون لذلك على الإجابة التالية: «لا ليس كذلك، أرسلوا لنا ما يجب في هذا الشرط وبالمقابل سوف نعطيكم ميثاقاً غليظاً بأنكم سوف تستردون أفرادكم». فرفض السلطان هذا الاقتراح وهو يعرف جيداً أنه لو قام بتسليم المال، والصليب والسجناء بينما رجالنا يبقون أسرى لدى المسيحيين، فسوف لا يكون لديه ضمان ضد الخيانة من جانب العدو. وذلك سيكون كارثة كبرى على الإسلام.

حينئذ عندما لمس ملك إنجلترا كل التأجيلات التي وضعها السلطان أمام تنفيذ الاتفاقية، تصرف بشأن سجنائه من المسلمين ناقضاً عهده، إذ عند تسليمهم مدينة صور ارتبط بأن يبقى على حياتهم، أضف إلى ذلك لو أن السلطان قام بتنفيذ المساومة لكان عليه أن يمنحهم حريتهم ويسمح لهم بمرور زوجاتهم وأطفالهم. ولو لم يف السلطان بالتزاماته، فلسوف يصبحون عبيداً، والآن نقض الملك وعوده، وأظهر علناً ما كان حتى الآن يخفيه في قلبه، بتنفيذ ما انتوى فعله حتى بعدما يتسلم النقود والسجناء المسيحيين فهذا ما صرح به الناس من أمته أخيراً.

ففي مساء الثلاثاء 27 من رجب [20 من أغسطس] حوالى الساعة الرابعة، جاء على ظهر حصان، ومعه كل الجيش المسيحي، والفرسان والمشاة، والتوركوبولز «وهم جنود خفيفو التسليح من مجموعة القديس جون في القدس» ثم تقدم نحو الأخاديد القابعة عند أقدام تل العياضية إلى ذات المكان الذي أرسل خيامه إليه فعلاً، وعندما وصل المسيحيون إلى منتصف السهل الممتد بين هذا التل وتل «كيسان» قريباً من المكان الذي انسحب إليه حرس السلطان المتقدم، أمر جميع السجناء المسلمين، الذين كتب عليهم الله الشهادة في هذا اليوم، بأن يحضروا أمامه وكان عددهم يزيد على ثلاثة آلاف، جميعهم مقيد بالحبال، حينئذ ألقى المسيحيون بأنفسهم عليهم دفعة واحدة، وذبحوهم بالسيف والرمح بدماء باردة.

وأخبر حارسنا المقدم السلطان بجميع تحركات العدو، وقد أرسل هذا له بعض التعزيزات، لكن بعد وقوع المذبحة وبعدما رأى المسلمون ما يحدث

للسجناء، اندفعوا نحو المسيحيين وفي المعركة التي استمرت حتى هبوط الليل، ذبح وجُرح العديد من كلا الجانبين، وفي صباح اليوم التالي، اجتمع أفرادنا في المكان ووجدوا المسلمين ممددين على الأرض، شهداء من أجل الإيمان. وحتى إنهم تعرّفوا على بعض من الموتى، وكان المنظر نكبة كبيرة لهم، ولم يُبق العدو إلاّ على الأفراد المُميزين أو الأقوياء بما فيه الكفاية لتحمل العمل.

إن دوافع هذه المذبحة قد رويت بصور مختلفة، فطبقاً للبعض، أنه قد تم ذبح الأسرى رداً على موت المسيحيين الذين ذبحهم المسلمون، بينما يقول الآخرون، إن ملك إنجلترا عندما قرر محاول غزو «عسقلان» رأى أنه ليس من الحكمة أن يترك مثل هذا العدد الكبير من السجناء في المدينة بعد رحيله، والله وحده يعلم ماذا كان السبب الحقيقي.

منتزه كوبلاي خان

«1275 افرنجي»

* ماركو بولو

«كوبلاي خان ـ 1216/ 1294 افرنجي ـ كان الإمبراطور المغولي الذي أكمل غزو الصين، وقد قضى ماركو بولو سنوات عديدة في خدمته».

في هذه المدينة «شانج ـ تو» بنى كوبلاي خان قصراً ضخماً من الرخام وأحجار الزينة الأخرى، صالاته وحجراته كلها مطلية بالذهب، والمبنى تم تجميله بصورة رائعة وزينة مترفة، عند أحد طرفيه، يمتد إلى منتصف المدينة، وعند الطرف الآخر يشرف على سور المدينة، وعند هذا الطرف يخرج من سور المدينة، سور آخر في الاتجاه المقابل للقصر، يشمل ويحيط ستين ميلاً من أرض المنتزهات المروية جيداً بالعيون والمجاري المائية، متمايزة بأراض منبسطة مزروعة ومُقسمة، وليس هناك مدخل لهذا المنتزه إلاّ عبر طريق القصر، فهنا يحتفظ الخان العظيم بحيوانات الصيد من كل الأنواع مثل الظبي والغزال، وذكر حيوان الرنة، لتوفير الطعام للصقور الايسلندية وغيرها من الصقور التي يربيها في

قفص، ويصل عدد الصقور الايسلندية وحدها إلى أكثر من 200 صقر، ويأتي بنفسه مرة في الأسبوع ليفحصها في قفصها، وغالباً أيضاً ما يدخل إلى المنتزه ومعه فهد على سرج حصانه.

وعندما يشعر بميل لذلك، يطلق الفهد وهكذا يصيد له ظبياً أو غزالاً أو ذكراً من غزلان الرنة، ليعطيها للصقور التي يحتفظ بها في القفص، ويفعل هذا للنزهة والرياضة، وفي وسط هذا المنتزه المسوّر، حيث توجد غابة صغيرة جميلة، بنى الخان العظيم قصراً كبيراً آخر، مبني كله من العُصي، لكن الداخل كله مطلي بالذهب، ومزين بصور الحيوانات والطيور بصنعة شديدة المهارة وهو مثبت على أعمدة مطلية بالذهب ولامعة، على كل منها يقف تنين، ملتف حول العمود بذيله، ويستند السقف على أطرافه الممتدة، والسقف أيضاً مصنوع من العُصي المطلية جيداً، ومقاوم للماء تماماً، وقد أمر الخان العظيم بتصميم هكذا ليمكن نقله عندما يشاء، ولأنه مثبت في مكانه بأكثر من 200 حبل من الحرير.

لعبة في الطريق إلى المدرسة

«1301 افرنجي»

يوم الثلاثاء [19 يوليو] كان ريتشاد ابن جون لومازون ذا الثماني سنوات، يمشي فور تناول العشاء، عبر كوبري لندن، إلى المدرسة وكي يُمتع نفسه، حاول أن يتعلق بيديه في «كمرة» على جانب الكوبري لكن يداه تخاذلتا، ثم سقط في الماء وغرق، وبسؤال من حضروا الواقعة، قال المحلفون إن جماعة كبيرة كانت تسير بالقرب، وأسماؤهم ليست معروفة، لكنهم لا يشكُون بأحد تسبب في الوفاة إلاّ الصدفة السيئة.

اللعب على كومة الخشب

«1322 افرنجي»

في يوم الأحد قبل عيد القديس دونستان، كان روبرت ابن جون دو سانت

بوتولف (عمره سبع سنوات) وريتشارد ابن جون دو شيستونت مع ولدين آخرين، أسماؤهما غير معروفة، يلعبون جميعاً على بعض قطع من الخشب في حارة تسمى «كيرون لين» في اتجاه ڤينتري، فوقعت قطعة منها على روبرت وكسرت رجله اليمنى، وبمرور الوقت، أتت جوهانا «أمه» وأبعدت الخشب عنه وحملته إلى المحل، حيث ظل ينازع الألم حتى يوم الجمعة، قبل عيد القديسة مارجريت، عندما مات في أول ساعات اليوم، بسبب رجله المكسورة وليس بسبب جريمة متعمدة، ولا حتى المحلفون يشكون في أحد تسبب في الوفاة لكن فقط الصدفة والكسر.

حوادث في الطفولة من «1301 - 1337 افرنجي»

ـ اللعب في الطريق ـ

«1301 افرنجي»

*** تقويم كورونر رولز**

في يوم الثلاثاء الموافق لعيد القديسين فيليب وجيمس (4 مايو)، من المؤكد أن هوف بيكارد كان يقود حصاناً أبيض بعد ساعات الصلاة، عندما كانت «بترونيلا» ابنة «ويليام دو ونيتونيا» ذات الثلاثة أعوام، تلعب في الشارع، وسرعان ما حمل الحصان صاحبه هوف ـ لأنه كان قوياً ـ وضد إرادة صاحبه، ماراً فوق بترونيلا، حتى إنه ضربها على جانبها الأيمن بقدمه الأمامية اليمنى، وظلت بترونيلا تعاني النزع حتى اليوم التالي، عندما ماتت ساعة الصلاة، من أثر الضربة، وبسؤال الذين حضروا الحادث، علم المحلفون بالمعلومات التي ذكرتها عالية فقط، وتمت مناظرة الجثة، والجانب الأيمن الذي بدا شديد الزرقة ويمتلىء بالكدمات بصورة سيئة، ولا توجد إصابات أخرى، وتحدد الحصان بعلامة سيقوم الشريف ريتشارد دو كومبس بالإجابة على ذلك. وهرب هوف وليس له منقولات يملكها، لكنه سلم نفسه بعد قليل لجون بوريفورد، المأمور.

ـ الصبي اللص

«1324 افرنجي»

في يوم الإثنين [في أبريل] في وقت الصلاة، كان جون ابن ويليام دي بورج ـ صبي له من العمر خمس سنوات ـ في منزل ريتشارد لو لاتير فأخذ لفة من الصوف وضعها في قبعته، ومن أجل معاقبته، قامت إيما زوجة ريتشارد بضربه بيدها اليمنى تحت أذنه اليسرى حتى بكى، وعندما سمعت إيزابيلا ـ أمه ـ بذلك صرخت وحملته إلى بيتها، وظل يعاني حتى ساعة الغروب في ذات اليوم، حينما مات من أثر الضربة وليس من أي جرم آخر، ولاذت إيما بالفرار، ولكن أين ذهبت ومن استقبلها، أمور لم يعرفها المحلفون، فيما بعد سلمت نفسها لسجن نيوجيت.

ـ كرة ضائعة

«1337 افرنجي»

في يوم الثلاثاء من «البنتيكوست ويك»[1]. هبط جون ابن ويليام آتيه نوك، بائع الشموع، من نافذة في منزل مستأجر من جون دوينتون، ويعمل لحّاماً، ليسترد كرة ضائعة سقطت في بالوعة الشارع أثناء لِعَبه، فانزلق وسقط، وهكذا جرح نفسه حتى مات في السبت التالي لسقوطه.

معركة كريشي

«26 سبتمبر/ الفاتح 1346 افرنجي»

*** سيرجون فرواسار**

«حوربت مدينة كريشي، عندما قام الملك إدوارد الثالث ـ بعد اجتياحه لنورماندي ـ بالتراجع نحو الساحل. . متبوعاً بالفرنسيين تحت قيادة فيليب السادس

(1) عيد الحصاد في الديانة اليهودية «الأحد الأبيض». «المترجم».

وأمير ويلز المذكور في النص هو أدوارد - «الأمير الأسود» فيما بعد - الابن الأكبر لإدوارد الثالث».

في تلك الليلة تسامر ملك فرنسا عند العشاء، في مدينة أبيڤيل مع كل الأمراء وقواد جيشه، وكان هناك حوار كثير متعلق بالحرب وبعد العشاء، رجاهم الملك أن يبقوا دائماً أصدقاء بعضهم لبعض، وأن يكونوا أصدقاءً بلا غيرة، ومتواضعين بلا غرور، ولم تصل بعد جميع القوات الفرنسية، لأن الملك كان لا يزال ينتظر وصول «إيرل أوف ساڤوي»[1] ومعه ألف حربة، حيث دفع ثمنها كاملاً في مدينة «تروي» في مقاطعة شمبانيا، لثلاثة أشهر مقدماً، وفي نفس المساء، قدم ملك إنجلترا عشاءً لقادة جيشه، وعندما انتهى العشاء انتحى جانباً في محرابه يصلي لله جاثياً على ركبتيه أمام المحراب راجياً أن يفوز بالمجد إذا ما قاتل عدوه في الغد. وعند منتصف الليل اعتزل الجميع ليستريح وعند استيقاظه مبكراً في اليوم التالي سمع هو وأمير ويلز جمهرة ونداءات.

وكذلك فعل الجزء الأكبر من الجيش. وبعد التجمع أمر الملك رجاله أن يتسلحوا وأن يتجمعوا على الأرض كما سبق وأن حدد لهم، وكان هناك منتزه كبير بالقرب من غابة عند مؤخرة الجيش كان الملك إدوارد قد سوّرها ووضع فيها كل الأمتعة، كالعربات والجياد، لأن رجاله المسلحين وحاملي الأقواس، كان عليهم أن يحاربوا مُشاة. وبعد ذلك أمر الجيش من خلال ياور قائد جيشه، أن ينقسم إلى ثلاث فرق: في الفرقة الأولى وضع الأمير الصغير (أمير ويلز) ومعه إيرل أرويك وإيرل إكسفورد والسير[2] جود فري دورها ركورت واللورد استافورد واللورد مولي واللورد لوار والسير جو شاندوس واللورد بارثلوميو بورجيرش واللورد روبرت نيڤيل واللورد توماس كليفورد واللورد بوشيه واللورد لاتيمر والعديد من الفرسان وملاك الأرض الذين لا أستطيع أن أحددهم.

(1) الإيرل: رتبة بين الماركيز والفيكونت. تُمنح لنبيل يقود جنود أمن مقاطعة معينة «المترجم».

(2) السير: لقب يمنحه الملك لبعض عامة الشعب الذين يؤدون أعمالاً جليلة للمجتمع ويعني السيد، «المترجم».

ربما كان يوجد في القسم الأول هذا حوالى 800 مسلح و 2000 من ضاربي الأقواس و 1000 من رجال مقاطعة ويلز كانوا كلهم متقدمين في تشكيل منظم إلى مناطقهم وكل قائد تحت علمه وشعاره وفي منتصف رجاله. أما الفرقة الثانية فكان يوجد إيرل أوف نوثامبتون وإيرل أوف أروندل واللوردات، روس، وولوبي وباست سانت البانس، والسير لويس توفتون، واللورد مولتين واللورد لاسيلز وعديد من الآخرين يصلون في مجموعهم إلى حوالى 800 رجل مسلح و 200 ضارب قوس، وكانت الفرقة الثالثة تحت قيادة الملك نفسه وكانت مكونة من حوالى 700 رجل مسلح و 2000 ضارب قوس.

امتطى الملك فرسه وفي يده عصا الملك البيضاء ويلحق به قائدا الجيش وبهذا الشكل سار على مهل متفقداً كل الرتب ومشجعاً الجيش راجياً منهم أن يحرسوا شرفه ويدافعوا عن ملكه وقد تحدث معهم برقة وبمرح لدرجة أن كل الذين قد أُحبطوا من قبل هدأوا مباشرة لسماع ذلك، وبمرور الوقت كان قد زار كل الفرق وكانت الساعة تقارب العاشرة، فاستراح في فرقته بعدما أمر رجاله بتسلية أنفسهم، وبعد ذلك عاد الجميع إلى فرقهم طبقاً لتعليمات قادة الجيش وجلسوا على الأرض واضعين خوذاتهم وأقواسهم أمامهم كي يكونوا مستعدين عندما يصل العدو.

في يوم السبت هذا نهض ملك فرنسا مبكراً وهو يسمع جلبة الجموع في دير القديس بيتر في مدينة أبيڤيل حيث تمركز بقواته، وبعدما أمر جيشه بأن يقوم بمثل ذلك، غادروا المدينة بعد الشروق وبعدما قطعوا مسافة تقدر بـ 6 أميال[1] من مدينة أبيڤيل كانوا يقتربون من العدو، نُصح بأن يضع جيشه في تشكيل المعركة وأن يدع المشاة يتقدمون حتى لا تدوسهم الخيول.

بعدما تم ذلك أرسل أربعة فرسان هم اللورد موايان أوف باستيلبرج واللورد نواييه واللورد بوجو واللورد أوبني الذين اقتربوا من الإنجليز حتى تمكنوا من تمييز

(1) في الأصل Leagues 2 وكان الليج يساوي ثلاثة أميال اليوم. «المترجم».

مواقعهم بوضوح وقد أدرك الإنجليز أن هؤلاء الفرسان قد أتوا للاستطلاع. وعلى أية حال لم يهتموا بالموضوع وتركوهم يعودون دون أذى وعندما رآهم ملك فرنسا عائدين أوقف جيشه وشق الفرسان طريقهم وسط الجموع حتى اقتربوا من الملك الذي خاطبهم متسائلاً: «ما هي الأخبار يا سادتي؟» لم يرغب أي منهم في الإجابة أولاً وأخيراً.

خاطب الملك بنفسه شخص اللورد موايان الذي قال «سيدي سوف أتحدث طالما يسرك أن تأمرني بذلك ولكن مع تصويب رفاقي لي. لقد تقدمنا بما يكفي لاستطلاع عدونا، فعلمنا حينئذ أنه انقسم إلى ثلاث فرق، وهم في انتظارك. ومن جانبي أود أن أنصح تاركاً الأمر على أية حال لحكمتكم الجليلة، بأن توقف جيشك هنا وتقيمون هذه الليلة حيث إنه قبل أن تصل المؤخرة ويعاد تنظيم الجيش سيكون الوقت قد تأخر، ورجالك سيكونون مرهقين، وفي حالة فوضى، في حين سيجدون أعداءك مستعدين ومنتظمين جيداً. أما في الغد فقد تُشكلُ جيشك بيسرٍ أكثر، وقد نستطيع تحديد أي الأماكن سيكون أكثر فائدة لنا، لنبدأ به الهجوم ولأنني متأكدٌ أنهم سينتظرونك».

فأمر الملك بأن يفعلوا ذلك وتقدم قائدا الجيش واحدٌ للمقدمة والثاني للمؤخرة صائحين: «فليتوقف حملة الأعلام باسم الله وباسم القديس دنيس» فتوقف الذين كانوا في المقدمة، أما الذين كانوا في الخلف فقد قالوا إنهم لن يتوقفوا حتى يصلوا المقدمة، وعندما لاحظت المقدمة أن رجال المؤخرة يضغطون عليهم، تدافع رجال المقدمة للأمام، ولم يستطع الملك ولا القادة إيقافهم، وواصلوا السير بدون أوامر، حتى وصلوا لمرأى أعدائهم، وحالما رأى الجنود المتقدمون الإنجليز أمامهم، تراجعوا في الحال في فوضى عظيمة، أزعجت الذين في المؤخرة إذ اعتقدوا أنهم في قتال.

وقد تغطت كل طرق أبيڤيل وكريشي بالناس العاديين الذين أتوا على بعد تسعة أميال من عدوهم شاهرين سيوفهم ويتصايحون «اقتل. اقتل» وكان معهم العديد من النبلاء والمتشوقين لاستعراض شجاعتهم.

ولا يمكن لأي إنسان ـ عدا من حضر ذلك ـ أن يصف أو يتخيل الفوضى الحقيقية في هذا اليوم، خاصة التنظيم والفوضى السيئة للفرنسيين، الذين كانت قواتهم كثيرة العدد. وما أعلمه وما سوف أقصه في هذا الكتاب، علمته أساساً من الإنجليز، ومن هؤلاء الذين التحقوا بخدمة السير جون أوف هينولت.

كان الإنجليز الذين كما سبق أن ذكرت قد انقسموا إلى ثلاثة أقسام، وكانوا جالسين على الأرض، وحالما رأوا عدوهم يتقدم، نهضوا بلا إبطاء، وانتظموا في صفوفهم، وكانت فرقة الأمير ـ التي أخذ ضاربو الأقواس فيها شكل معبر القلعة الحصين وفي الخلف يأتي المقاتلون من المشاة ـ.

كانت أول فرقة تبادر إلى القتال، وتمركز الإيرل نوثامبتون والإيرل أروندل ـ قائدا الفرقة الثانية ـ بنظام جيد على جناح فرقة الأمير لمساعدته عند الضرورة، ويجب أن تعلموا أن القوات الفرنسية لم تتقدم في أي تشكيل نظامي، وحالما وصل ملكهم إلى مرأى الإنجليز، غَلَى الدم في عروقه وصرخ في قادته: «مروا الجنويين[1] ليتقدموا، وابدأوا المعركة «باسم الله وباسم القديس دنيس» كان هناك حوالى 15000 جندي جنوي من حاملي الأقواس. لكنهم كانوا مرهقين تماماً، وقد ساروا على أقدامهم ذلك اليوم حوالى 19 ميلاً بأسلحتهم الكاملة وأقواسهم، وعلى ذلك أخطروا ياور الملك بأنهم ليسوا في حالة تسمح لهم بفعل شيء عظيم في المعركة، وعندما سمع إيرل أوف ألينسون ذلك قال: «هذا ما يحصل عليه الإنسان بتشغيل مثل هؤلاء الأشرار، الذين يتساقطون عند الحاجة إليهم».

وخلال ذلك الوقت هبطت أمطار غزيرة، مصحوبة بصاعقة وخسوف مفزع للشمس، وقبل ذلك المطر، حلّق سربٌ من الغربان في الهواء فوق جميع الفرق، مُحدثاً ضوضاء كبيرة، وبعد فترة بسيطة صفا كل شيء وأشرقت الشمس بتوهج، لكن الفرنسيين كانوا يواجهونها بينما الإنجليز يعطونها ظهورهم، وعندما استعاد الجنويون بعض نظامهم اقتربوا من الإنجليز، وأطلقوا صرخة عظيمة لإفزاعهم،

(1) جنود من مدينة جَنوا في إيطاليا الآن. «المترجم».

لكن بقي الإنجليز هادئين تماماً ولم يبدُ عليهم أن اهتموا بذلك، فأطلقوا صرخة ثانية وتقدموا قليلاً للأمام، ولم يتحرك الإنجليز أبداً، وما زال الجنويون يصرخون للمرة الثالثة، وتقدموا بأقواسهم مشرعة وبدأوا الإطلاق.

حينئذ تقدم ضاربو الأقواس الإنجليز خطوة واحدة، وأطلقوا سهامهم بسرعة وقوة كما لو كانت السماء تمطر جليداً، وعندما لمس الجنويون هذه السهام، التي اخترقت دروعهم، وقطع بعضها حبال أقواسهم، وبعضها الآخر ألقاهم أرضاً، عادوا جميعهم وتراجعوا بلا نظام.

وكان لدى الفرنسيين مجموعة كبيرة من المسلحين على ظهور الخيل لدعم الجنويين، وعندما رآهم الملك يتراجعون هكذا صرخ فيهم: «اقتلوا من أجلي هؤلاء الأشرار، لأنهم يعوقون طريقنا بلا مبرر». وواصل الإنجليز إطلاقهم وسقط بعض من سهامهم بين راكبي الخيل، دافعينهم فوق الجنويين، ولما أصبحوا في مثل هذه الفوضى، لم يتمكنوا من المسير ثانية أبداً.

وفي الجيش الإنجليزي، وُجد بعض الكورنواليين والويلزيين[1] مشاة، كانوا قد سلحوا أنفسهم بمدىً طويلة، فتقدم هؤلاء خلال صفوف المقاتلين المشاة وضاربي السهام، الذين أفسحوا طريقاً لهم، وهجموا على الفرنسيين، في مأزقهم الخطير هذا، وانقضوا على الإيرلات والبارونات والفرسان وملاكي الأرض، ذابحين الكثيرين منهم، فملك بوهيميا الشجاع ذُبح هناك، وكان يدعى تشارلز أوف لوكسمبورج، لأنه كان ابن الإمبراطور والملك المحبوب هنري أوف لوكسمبورج، إذ بعدما سمع عن مجريات المعركة، تساءل عن مكان ابنه اللورد تشارلز، أجابه خاصته بأنهم لا يعلمون، لكنهم يعتقدون أنه يقاتل، وعلى هذا قال لهم: «إنكم جميعاً شعبي، وأصدقائي، وأخوتي في السلاح هذا اليوم، ولهذا، لأنني لا أرى، آمل منكم أن تقتادوني إلى أبعد ما يمكن وسط المعركة حتى أضرب ولو ضربة واحدة بسيفي» فأطاعه الفرسان، ولكي لا يفقدوه في الزحام،

(1) كورنوال - و - ويلز مقاطعتان في إنجلترا.

ربطوا كل لُجم[1] خيولهم بعضها ببعض، واضعين الملك في المقدمة، حتى يمكن أن يحقق أمنيته، وبهذه الطريقة تقدم نحو العدو.

وكان اللورد تشارلز أوف بوهيميا، الذي رسم نفسه ملكاً على ألمانيا، يحمل معه الأسلحة، وقد أتى في نظام جيد إلى المعركة لكنه عندما أدرك أن الدائرة ستدور على الفرنسيين رحل، بينما قاد الملك «وهو أبوه» حصانه بين العدو وحارب هو ورفاقه بشجاعة ـ على أية حال ـ تقدموا كثيراً حتى قُتلوا جميعهم، وفي الغد وُجدوا على الأرض وقد ربطوا أنفسهم بخيولهم، تقدم إيرل أوف ألينسون في تشكيل منتظم نحو الإنجليز لمحاربتهم كما فعل ذلك إيرل أوف فلاندرس في مكان آخر، هذان اللوردان بجنودهما انحدروا وأتوا بضاربي الأقواس نحو فرقة الأمير، حيث حاربوا بشجاعة لفترة طويلة. وكان ملك فرنسا متشوقاً كي يذهب حيث يرى أعلامهم مرفوعة لكن كان هناك سورٌ من حملة الأقواس أمامه، وقد سبق له في هذا اليوم أن قدم حصاناً رشيقاً أسود كهدية للسير جون أوف هينولت الذي بدوره أركب عليه فارساً من رجاله، يدعى السير جون دوفوسيل فحمل علمه، وأسرع الحصان بفارسه، وقد شق طريقه عبر الجيش الإنجليزي. وحال عودته تعثَّر وسقط في خندق مصاباً بجروح خطيرة، وعلى أية حال فهو لم يمر بأية متاعب أخرى غير التي من جواده، لأن الإنجليز لم يدعوا جنودهم يأسرون أحداً في ذلك اليوم وبذلك أُضيئت صفحته ورفعه هذا الموقف عالياً.

لكن الفارس الفرنسي، لم يعد بنفس الطريق الذي أتى به، لأنه وجد ذلك صعباً لشدة الازدحام، وقد كانت هذه المعركة التي نشبت يوم السبت بين مدينة لابرواي وكرشي دموية وعنيفة، وقد برزت أعمال قتالية باهرة عديدة لم تكن معروفة. وبحلول المساء فقد العديد من الفرسان والنبلاء الفرنسيين سادتهم، وقد تجولوا فوق السهل هنا وهناك يهاجمون الإنجليز في مجموعات قليلة، لكنهم

(1) لُجُم: جمع لجام وهو مقود الخيل، «المترجم».

تحطموا بسرعة، لأن الإنجليز قد صمموا في ذلك اليوم على ألاّ يتركوا مأوىً وألا يسمعوا عن فدية من أي شخص.

وكان بعض الفرنسيين والألمان والسافويين[1] قد شقوا صفوف القواسين بفرقة الأمير في بداية اليوم. وتلاحموا مع المقاتلين المشاة، وعلى ذلك هبّت الفرقة الثانية لمساعدته، وكان التوقيت مناسباً لهذا الفعل، وإلاّ تعرض لضغط قاسٍ، وعندما رأت الفرقة الأولى الخطر المحدق بها، أرسلت فارساً بسرعة كبيرة إلى ملك إنجلترا، الذي تمركز فوق ربوة بالقرب من طاحونة هواء.

وعند وصول الفارس قال: «سيدي» إن إيرل أرويك واللورد ستافورد، واللورد ريجينالد كوبهام، والآخرين الملتفين حول ابنك، قد هُوجموا بعنف من قبل الفرنسيين، ويرجونك أن تَمُد لهم يد المساعدة بفرقتك، إذ لو تزايدت الأعداد ضده فهم يخشون أن يكون أمامه جهداً كبيراً، فأجابه الملك: «هل ابني ميت، أو بلا جواد، أو مصاب بشدة حتى لا يستطيع مساندة نفسه؟».

واصل الفارس قوله: «لا شيء من ذلك ـ الحمد لله ـ . . . لكنه في تلاحم عنيف، لدرجة أنه يحتاج لمعاونتك»، أجابه الملك: «عد الآن يا سيد توماس إلى من أرسلك، وأخبرهم عني ألاّ يرسلوا مرة أخرى لي في هذا اليوم، وألا يتوقعوا أنني سوف آتي، ولندع ما يحدث يحدث، طالما ظل ابني حياً، وأخبرهم أني آمرهم بأن يدعوا الولد يكتسب فروسيته، لأنني قررت لو رضي الله، أن أعطي كل مجد هذا اليوم له ولكل الذين أودعه في عنايتهم» فعاد الفارس إلى قادته وسرد عليهم ما أجاب به الملك، الذي شجعهم بقوة، وجعلهم يندمون على أنهم بعثوا بمثل تلك الرسالة.

إنها حقيقية مؤكدة أن السيد جود فري دهار كورت الذي كان في فرقة الأمير بعدما علم بواسطة بعض الإنجليز أنهم رأوا مجموعة أخيه قد اشتبكت بالمعركة ضده، كان شديد القلق لإنقاذه لكنه تأخر جداً إذ وُجد ميتاً على أرض المعركة

(1) من إقليم سافوي بفرنسا. «المترجم».

وكذلك كان ابن أخيه إيرل أوف أومرل. وعلى الجانب الآخر كان إيرل أوف ألينسون وإيرل أوف فلاندرس يقاتلون بشراسة في ظل حملة الأعلام ووسط رجالهم لكنهم لم يستطيعوا مقاومة القوة الإنجليزية فُذبحوا هناك مثل العديد من الفرسان والرجال الآخرين الذين كانوا يعملون في خدمتهم أو يصاحبونهم، وقد قدم إيرل أوف بلو ابن أخي ملك فرنسا، ودون اللورين ـ شقيقه بالتبني ـ بقواتهم دفاعاً رائعاً لكنهم أُحيطوا بالقوات الإنجليزية والويلزية وذُبحوا بالرغم من شجاعتهم وقد قتل أيضاً إيرل أوف سانت بول وإيرل أوف أوكسر وعديد آخرون.
وفي وقت متأخر جداً بعد أوقات العبادة لم يعد حول ملك فرنسا أكثر من ستين رجلاً معدودين. وقد أركب السير جون أوف هينولت ـ الذي كان واحداً من الباقين ـ الملك لأن حصانه قد قتل وهو يركبه بسهم. وعندما رأى الحالة التي كان فيها الملك قال له «سيدي فلتنسحب حيث لديك فرصة، ولا تعرض نفسك بهذه البساطة، وإذا كنت قد خسرت هذه المعركة، فسوف تكون المنتصر في معركة أخرى». وبعدما قال ذلك أخذ بلجام حصان الملك، واقتاده بعيداً بالقوة لأنه كان قد ترجاه من قبل. وواصل الملك، حتى وصل إلى قلعة لابرواي، حيث وجد بواباتها مغلقة، لأن الظلام كان شديداً فأمر باستدعاء حاكمها، الذي أتى بعد قليل من التأخير، إلى أسوار الحصن، وسأل من الذي ينادي في مثل هذه الساعة؟.
فأجاب الملك: «افتح أيها الحاكم إنه كنز فرنسا» وما إن سمع الحاكم صوت الملك، حتى هبط بسرعة وفتح البوابة، وأنزل المعبر فدخل الملك وصحبته القلعة، لكن لم يكن معه سوى خمسة بارونات[1] هم السير جون أوف هينولت، اللورد تشارلز أوف مونتمورينس، واللورد أوف بوجو، واللورد أوف أو بيني، واللورد أوف مونتفورت ولم يكن في نيته على أية حال، أن يدفن نفسه في مثل هذا المكان، لكن بعد أن أخذ قسطاً من الراحة خرج مرة أخرى مع رفقته، في حوالى منتصف الليل، وواصل السير بإرشادات الأدلة الذين يعرفون البلاد جيداً إلى أن وصل إلى مدينة «آميين» قرب طلوع النهار حيث توقف.

(1) البارون لقب يمنحه الملك لمن يقوم بخدمة عسكرية أو مهمة جليلة وهو أدنى لقب للنبلاء. «المترجم».

في هذا السبت لم يترك الإنجليز جنودهم يطاردون أحداً، لكنهم بقوا في الميدان يحرسون موقعهم، ويدافعون عن أنفسهم، ضد كل الذين يهاجمونهم. وقد انتهت المعركة عند أوقات العبادة[1] عندما تعانق ملك إنجلترا مع ولده قائلاً: «ابني الحبيب، لقد وهبك الله البقاء، أنت ابني ولأنك قد كرست نفسك بأقصى إخلاصه، فإنك تستحق أن تكون حاكماً: فانحنى الأمير بشدة مُرجعاً كل الشرف إلى والده الملك. وأقام الإنجليز خلال الليل حفلات شكر للإله على نتاج ذلك اليوم السعيد ولم تكن بهذه الاحتفالات أي فوضى لأن الملك قد عبَّر عن منعه للفوضى والضوضاء.

وفي اليوم التالي «يوم الأحد» كانت هناك بعض المساجلات مع القوات الفرنسية لكنها على أية حال، لم تصمد أمام الإنجليز، وسرعان ما تراجعت أو قُتل بعضها. وعندما أكدوا للملك ادوارد بأنه لا يبدو أن الفرنسيين يجمعون جيشاً آخر، أرسل لإحصاء عدد ورتب القتلى. وقد أوكل بهذه المهمة اللورد ريجينالد كوبهام واللورد استافورد، ويساعدهم ثلاثة ضباط لفحص الأسلحة، واثنان من السكرتارية لتسجيل الأسماء، وقد قضوا اليوم كله على أرض المعركة وأعدوا مذكرة تفصيلية وافية عن كل ما شهدوه.

وطبقاً لتقريرهم ظهر أن: 80 من حملة الأعلام وأجساد 11 أميراً و 1200 فارساً وحوالى 30,000 من عامة الناس وُجدوا قتلى في الميدان.

الموت الأسود (الطاعون)

«1348 افرنجي»

*** هنري نايتون**

«يُقدر أن الموت الأسود قد قتل ربع عدد سكان أوروبا، أي 25 مليون نفس، وهناك جدل عام حول طبيعة المرض، ولربما كان الوباء البابوني».

(1) الـ Vespers سبق التعرض لشرح معناها. وتنتهي حوالى الثالثة بعد الظهر، «المترجم».

. . . في هذا العام كانت هناك وفيات عامة بين الناس في أرجاء العالم. وبدت أولاً في الهند ثم ظهرت بعد ذلك في تارسيس، ثم بين عرب شمال الجزيرة العربية، ثم في النهاية بين المسيحيين واليهود. حتى إنه في خلال عام واحد، وبالتحديد من عيد القيامة[1] إلى ذات العيد من العام التالي مات 8000 مجموعة من البشر، وذلك وفقاً للتقديرات الشائعة المنتشرة في بلاد روما، وقد ماتوا في تلك الأقاليم البعيدة بالإضافة للمسيحيين، وعندما رأى ملك تارسيس مثل هذه الوفيات الفجائية وغير المسبوقة بين شعبه، خرج مع مجموعة كبيرة من النبلاء عازماً على الوصول إلى «البابا» في أڤينيون، ويتعمد كمسيحي، معتقداً أن ذلك الانتقام الإلهي يحيق بشعبه بسبب معتقداتهم الخاطئة، لكنه بعدما رحل مدة عشرين يوماً، سمع في الطريق، أن الوباء قد انتشر في صفوف المسيحيين مثلهم مثل بقية الأمم، ولهذا عاد أدراجه نحو بلده، لكن المسيحيين قاموا ـ وهم يتتبعون التارسينيين ـ بمهاجمتهم من المؤخرة وذبح 2000 منهم.

وقد اخترق الوباء المرعب ساحل البحر عند ساوثامبتون ووصل حتى بريستول، وهناك فقد كل سكان المدينة حياتهم تقريباً، كما لو كانت قد دُهمت بموت مفاجىء، إذ إن قليلاً، هم من أبقوا أسرتهم لأكثر من يومين أو ثلاثة، أو حتى نصف يوم، ثم انتشر ذلك الموت الشرير في كل مكان، متتبعاً مسير الشمس، وهناك في مدينة ليشسترفي التابعة لشعب كنيسة القديس ليونارد الصغيرة مات أكثر من 380 شخصاً، وفي منطقة كنيسة الصليب المقدس 400 شخصاً، ومنطقة القديسة مارجريت، في ليشسقر، 700 شخص، وهكذا في كل منطقة مجموعات كبيرة تموت حينئذ أرسل أسقف لندن خطاباً إلى كل كنائس شعبه مانحاً القوة لكل راهب، مُرسَّماً كان أو طالباً، أن يستمع للاعترافات وأن يهب الغفران للجميع بكل سلطات الكنيسة، عدا حالة الاستدانة، ففي هذه الحالة على المدين أن يسدد دينه، لو كان قادراً، أثناء حياته، أو يفي الآخرون بالتزاماته مما

(1) Easter ـ عيد قيامة المسيح عليه السلام، يأتي بعد أول استكمال للقمر يلي يوم 21 مارس. «المترجم».

يملك بعد وفاته، وأكثر من ذلك كفل البابا خلاص كامل من كل الخطايا لأي إنسان يتلقى الغفران أثناء مواجهة خطر الموت، وضمن أن تبقى هذه القوة حتى عيد القيامة القادم. وأن لكل شخص أن يختار من سيعترف أمامه كما يرغب.

في نفس العام، انتشر وباء كبير بين الأغنام في سائر أنحاء المملكة حتى لتجد في مرعى واحد في ذات المكان أكثر من 500 رأس غنم ميتة، وقد تعفنت لدرجة أن لا طير ولا حيوان يمكنه الاقتراب منها. كما هبطت أسعار كل شيء خشية عدوى الموت، لأن القليل من الناس من كان يهتم بالثروة أو الملكية من أي نوع. كان الفرد يستطيع أن يحصل على حصان يساوي 40 شلناً بنصف مارك [6 شلنات و 8 بنسات][1] وثور سمين بأربعة شلنات كما يحصل على بقرة باثني عشر بنساً وأخرى صغيرة وبكر مقابل ستة بنسات، وجدي سمين بأربعة بنسات، وخروف مقابل ثلاثة بنسات، والحمل ببنسين والخنزير الكبير بخمسة بنسات، وحِمْلٍ من الصوف [= 24 رطلاً] كان يساوي 9 بنسات، وقد تدفقت الماشية والأغنام عبر الحقول وبين المحاصيل، ولم يوجد من يقودهم أو يرعاهم، ولنقص الرعاية، نفقت بأعداد لا حصر لها في الترع وعند أسوار النباتات في أنحاء البلاد، ولا أحد يعرف ما يجب فعله، إذ ليست هناك ذكرى عن موت بهذه القسوة والوحشية منذ عهد ڤورتيجيرن، ملك البرايتونز، الذي في أيامه، لم يوجد من الأحياء ما يكفي لدفن الموتى، كما يؤكد «بيديه» في شهادته.

وفي الخريف التالي، لم يعد بالإمكان توفير رجال للحصاد بأجر أقل من 8 بنسات لكل حاصد مع الوجبات الغذائية، ولا رجال لدرس القمح وغيره بأقل من 10 بنسات للدارس بوجباته، مما أدى لضياع العديد من المحاصيل في حقولها لنقص الحصّادين، ولكن في سنة الوباء، كما سبق أن ذكرت، كان هناك هجر عظيم لجميع أنواع الحبوب حتى إنه لم يعد أحد يهتم بها.

وعندما سمع الاسكوتلانديون بالوباء المفزع بين الإنجليز، وقد ارتابوا أن

---

(1) الشلن Shilling عملة فضية إنجليزية = $^1/_{20}$ من الجنيه الإنجليزي واختصاري .S والبنس Penny عملة برونزية إنجليزية = $^1/_{12}$ من السلن واختصاره d. «المترجم».

يكون انتقاماً من الله، وطبقاً لما يشاع عامة، فإن الاسكوتلانديين قد اعتادوا حين يقسمون على القول «فلتحل عليّ لعنة موت الإنجليز» معتقدين أن الغضب الإلٰهي قد حاق بالإنجليز، وتجمع الاسكوتلانديون في غابة سيلكيرك بنية غزو المملكة، في حين انتشر بينهم الموت الوحشي ومات 5000 منهم في وقت قصير، وبينما يستعيد الباقون «ضعيفهم وقويهم» للعودة لبلدهم، تبعهم الإنجليز وهاجموهم وذبحوا منهم أعداداً لا تحصى. كان السيد توماس أوف براد واردين قد رسمَّهُ البابا «كبير أساقفة كانتربري» راهباً وعندما عاد إلى إنجلترا، وصل إلى لندن، ومات خلال يومين.

. . في تلك الأثناء، أصدر الملك إعلاناً بجميع البلاد، أن على الحصّادين والعمال الآخرين ألاّ يتاقضوا أجوراً أكثر من المعتاد، وإلاّ تعرضوا للعقوبة المنصوص عليها في القانون، لكن العمال كانوا قد ارتفعوا وتشددوا لدرجة أنهم لا يستمعون لأوامر الملك، وإذا رغب أي إنسان في تشغيلهم كان عليه أن يدفع لهم ما يريدونه، فإما فقد محاصيله وفواكهه، أو يلبي طمع ومغالاة رغبات العمال، وعندما علم الملك بأنهم لم يراعوا أوامره وأن العمال يتقاضون أجوراً أعلى، وضع غرامات ثقيلة على رؤساء الكنائس، والنبلاء، والفرسان، كبيرهم وصغيرهم، والجماعات الكبيرة والصغيرة في مملكته تتراوح هذه الغرامات بين 100 شلن للبعض، و 40 شلناً للبعض الآخر، و 20 شلناً في الأدنى، من كلٍ وفقاً لما يمكن أن يعطيه، وفيما بعد تجمع لدى الملك كثير من العمال المقبوض عليهم، فأرسلهم إلى السجن، والعديد منهم سحبوا أنفسهم ولجأوا للغابات، أما هؤلاء الذين قُبض عليهم فقد دفعوا غرامة كبيرة، وأُجبر رؤساء الطوائف على أن يقسموا بأنهم لن يتقاضوا أجراً يومياً أكثر من المتفق عليه قديماً، وحينئذ أُطلق سراحهم، وبنفس الأسلوب تمت معاملة بقية أصحاب الحرف في القرى والمدن، . . وبعد الوباء المذكور، تحول العديد من المباني الكبيرة والصغيرة إلى حطام في كل مدينة، ومركز، وقرية، لنقص من يسكنها بالإضافة إلى الكثير من القرى والكفور قد هُجرت، ولم يترك بها أي منزل فجميعها مات أصحابها، وكان من المحتمل أن هذه القرى العديدة لن تُسكن أبداً.

نساء يقلدن الرجال

«1348 افرنجي»

*** هنري نايتون**

في هذه الأيام سرت أقاويل وارتفعت شكاوى بين الناس بأنه حين تُعقد العروض الاحتفالية في كل مكان، تظهر مجموعة من السيدات، مثل المؤدين فيما بين الاستراحات، في ملابس رجال متنوعة ومدهشة، يصل عددهن أحياناً حوالى الأربعين أو الخمسين، من أكثر السيدات أناقة وجمالاً، ولسن من أفضلهن بالطبع، من جميع أنحاء المملكة يرتدين قمصاناً واسعة مُحزَّمة عند الوسط ومُقسمة، بحيث يمكن القول، إنها جزء من نوع وجزء منها من نوع آخر، وغطاء رأس صغير تتدلى منه ضفائر تتطاير حول الرأس كالحبال وملفوفة جيداً بالذهب والفضة، ويحملن ـ كذلك ـ سكاكيناً تحت المعدة أسفل وسطهن يسميها العامة خناجر، يضعنها في جيوب من أعلى، هكذا يأتين على ظهر جياد ماهرة أو أنواع أخرى منها مُزينة بصورة جميلة، ويدخلن مكان الاحتفال، وبهذه الطريقة ينفقن ويبعثرن ثرواتهن ويعرضن أجسادهن للانتهاك ولتعبيرات الرغبة السخيفة، لدرجة أن صيحات الرأي العام تصاعدت، وهكذا فلا هن احترمن الرب، ولا هن خجلن أمام صيحات الشعب المتواضعة. بعدما حرّرن أنفسهن من قيود الطهارة الزوجية، . . لكن الله ضد هؤلاء مثلما هو ضد كل ما يشبه ذلك، تجلى بعلاج رائع، جاعلاً سفاهاتهن مدحورة، إذ في الوقت والمكان المخصصين لهذا الغرور، هزمهم الله بعواصف ممطرة غزيرة، وصواعق، وبروق، وبالغضب الآتي من العواصف غير العادية، بمختلف أنواعها.

الإستيلاء على جوين

«يناير 1352 افرنجي»

*** جيوفري لوباكر أوف سوينبروك**

«وقعت مدينة كاليه بيد الإنجليز أثناء حكم الملك ادوارد الثالث عام 1347 افرنجي».

في بداية شهر يناير تقريباً، وبينما انشغل الفرنسيون بإصلاح أسوار مدينة جوين، التي دمرها الإنجليز، خطط بعض الرجال في كاليه ـ وهم يفهمون ما يفعلونه ـ لإفشال العمل كله، وهذه هي الحكاية:

كان يوجد في سجن قلعة جوين ضارب قوس اسمه «جون دانكاستر» ولم يكن يملك نقوداً ليدفع فديته، فأطلق سراحه بشرط أن يعمل مع الفرنسيين. وتصادف أن ضاجع غسالة، عاهرة، وعلم منها أنه يوجد فيما وراء قناة الماء الرئيسية ومن قاعها، سور عرضه قدمان، يمتد من ممشى الحصن عبر حافة القناة كي يغطى بالماء فلا يراه أحد، ورغم أنه ليس بارزاً، لكن الشخص الذي يسير على طول سطحه فلن يبتل إلى ما بعد ركبتيه، وقد صُنع من أجل استخدام صيادي الأسماك، ولذلك ففي المنتصف توجد هوّة اتساعها خطوتان.

قام جون ـ بعدما أدرته عشيقته المكان ـ بقياس ارتفاع السور بخيط، وبعدما علم هذه الأشياء، انزلق ـ ذات يوم ـ من فوق السور، وعبر القناة فوق السور المختبىء، وظل مختفياً في الأحراش حتى المساء، واقترب في الليل من مدينة كاليه، حيث بعد أن انتظر ضوء الصباح، دخل إلى المدينة.

هنا أخبر هؤلاء ـ المتعطشين للفريسة والمتلهفين لتسلق القلعة ـ بكيفية دخولها فصنعوا سلالم بالطول الذي ذكره جون دانكاستر، ثلاثون رجلاً يتآمرون معاً، ألبسوا أنفسهم دروعاً سوداء لا تلمع، وذهبوا إلى القلعة يرشدهم المزعوم جون، وما إن تسلقوا الأسوار بسلالمهم حتى ذبحوا حراسها وألقوا بجثثهم إلى جوار السور، وبعد ذلك، ذبحوا كثيرين ممن وجدوهم غير مسلحين يلعبون الشطرنج والنرد، واندفعوا إلى الحجرات والأجنحة مهاجمين السيدات والفرسان النائمين، وهكذا صاروا سادة لكل من بداخل القلعة، ثم حبسوا كل سجنائهم في غرفة محكمة واستولوا على أسلحتهم، وأطلقوا سراحِ الإنجليز الذين وقعوا في الأسر العام السابق وبقوا في السجن، وجعلوهم حرَاساً ـ بعد أن أراحوهم بالطعام والشراب ـ على أولئك الذين ألقوا بهم في السجن، وبذلك فازوا بكل حصون القلعة.

وأتى إيرل أوف جوين إلى القلعة، وسأل من بداخلها، كما يفعل في الأوقات الأخرى، باسم من يحتفظون بالقلعة، وما إن أكدوا له أنهم يحتفظون بها باسم جون دانكاستر، حتى سألهم إذا ما كان هذا «الجون» تابعاً لملك إنجلترا أو مطيعاً له، وعندما أجابه جون المزعوم بأنه لا يعرف أي معنى كانت عليه كلمة «مبعوثون» في إنجلترا. . قدم له الإيرل ـ بجانب الثروات التي وجدوها ـ آلاف الكراوونات[1] والممتلكات في مقابل استرداد القلعة بالإضافة إلى سلام متبادل مع ملك فرنسا.

وقد أجاب المدافعون عن القلعة على ذلك بقولهم، إنهم قبل الاستيلاء على القلعة كانوا إنجليزاً بقومهم، ولكن بأخطائهم تم نفيهم من أجل سلام ملك إنجلترا، بحيث إن المكان الذي استولوا عليه ويرغبون في بيعه أو مبادلته سيكون أولاً لملكهم الطبيعي، ملك إنجلترا، الذي سيبيعونه القلعة مقابل سلامهم، لكنه إذا لم يشترها، فسوف يبيعونها لملك فرنسا أو لمن يدفع أكثر. وبهذا تراجع الإيرل، واشتراها ملك إنجلترا ـ فعلاً ـ وهكذا تملك ذلك المكان الذي رغب فيه بشدة.

الخَرسُ الزائف

«اكتوبر/التمور 1380 افرنجي»

*** من سجلات مدينة لندن**

في اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر، من العام الرابع لحكم الملك ريتشارد الثاني، تم إحضار جون وارد من مقاطعة يورك وريتشارد لينهام من مقاطعة سومرست، وهما من المحتالين، أمام العمدة جون هادلي، وأعضاء مجلس المقاطعة، ورجال الضبط القضائي، وتم استجوابهما عن الآتي:

في حين هما قويا البُنية بما يكفي للعمل من أجل رزقهم وعيشهم، ولهما

(1) الكروان = خمسة شلنات. . «المترجم».

لسانان يمكن التحدث بهما، إلاّ أنهما، وبشخصيهما «جون وارد» و «ريتشارد لينهام»، ادعيا أنهما أبكمان، وقد نزع منهما لسانهما، وتنقلا في أنحاء متفرقة من المدينة المذكورة عاليه، يحملان في أيديهما مقياسين إيليين[1] وشصاً حديدياً وكماشة مع قطعة من الجلد تشبه اللسان بإطار من فضة وحولها كتابات تُقرأ، هذا لسان جون وارد.

وبهذه الأدوات وبمختلف الإشارات أفهما الناس بأنهما من التجار، وبالرموز التي منها أنهما يحملان المقاييس المذكورة وأنهما قد نُهبا بواسطة اللصوص وجُرِّدا من كل بضاعتهما، وأن لسانيهما قد شُدا إلى خارج الفم وقُطعا بالكماشة، وكانا يحدثان جلبة عظيمة مثل الزئير ويفتحان فميهما بحيث يبدو لكل من يفحص ذلك أن لسانيهما قد قُطعا، لغش الناس البسطاء، والأشخاص السُذَّج، في خداع بيّن لكل الناس.

من أجله سألناهما كيف سيبرآن نفسيهما مما سبق، وعليه أقرا بأنهما فعلا كل الأشياء المنسوبة لهما عاليه، وكما وضح للمحكمة القصد السيء والزائف من ارتكابهما الأشياء السابق ذكرها في خداع كل الناس.

ولوضع نهاية حتى ينتبه الناس لمثل هذه النوايا الشريرة، والزيف والخداع. حكمت المحكمة بأنهما يجب أن يوضعا في النّير[2] لمدة ثلاثة أيام مختلفة، وكل يوم منها لمدة ساعة وبالتحديد أيام الأربعاء، والجمعة والسبت قبل عيد القديس سيمون والقديس جود [28 اكتوبر] وأن تُعلق الأدوات المذكورة حول رقبتيهما كل يوم.

وصدر الأمر لرجال البوليس لتنفيذ الحكم المذكور، وبالنسبة للقضية فقد تم استكمال العقوبة، وصدرت التعليمات بأن يأخذوهما إلى سجن «جول أوف نيوجيت»، ويبقيا هناك حتى تصدر الأوامر بإطلاق سراحهما.

---

(1) الإيل ell = 45 بوصة. أداة قياس طويلة إنجليزية لم تعد تستخدم، «المترجم».

(2) النير: إطار من الخشب المزدوج به فتحتان للأيدي وأخرى للرأس يستخدم كعقوبة، أمام الناس. «المترجم».

ثورة الفلاحين

«مايو ـ يونيه/ الماء ـ الصيف 1381 افرنجي»

*** السير جون فرواسارت**

«من بين أسباب ثورة الفلاحين، عدم القبول الشعبي لقانون العمال 1351 افرنجي الذي ثبت حداً أعلى للأجور، خلال أزمة الأيدي العاملة، التي تلت انتشار الوباء «الموت الأسود»، وعند قيام الثورة كان ريتشارد الثاني في الرابعة عشرة من عمره».

لكي يصبح هذا التمرد المدمر مثالاً للإنسانية، فلسوف أتحدث عن كل ما تم من المعلومات التي استقيتها في حينها.

من المعتاد في إنجلترا، شأنها شأن بقية البلاد الأخرى، أن تحصل طبقة النبلاء على امتيازات عظيمة على الطبقات العامة، أي أن الطبقات الدنيا ملتزمة ـ بحكم القانون ـ بحرث أرض السادة، وحصد حبوبهم، وحمله إلى الأجران، ودرسه وتذريته، وهم أيضاً ملتزمون بجمع القش وتحميله إلى مخازنه، كل هذه الخدمات يُرغم رجال الدين والسادة تابعيهم على أدائها، وفي مقاطعات «كنت»، و «اسكي»، و «سوسكس»، و «بيرفورد». كانت هذه الأعمال أشد قهراً عما هي عليه بقية المقاطعات الأخرى في المملكة.

وكنتيجة لذلك بدأ الشر المستعر في هذه المقاطعات، بهمهمات تقول، إنه في بداية العالم لم يكن هناك عبيد، ولا أحد كان عليه أن يعامل بتلك الطريقة، ما لم يرتكب خطيئة ضد الرب، مثلما فعل الشيطان ضد الله، لكنهم لم يفعلوا مثل هذه الأشياء، ولأنهم ليسوا ملائكة ولا أرواح وإنما بشر خلقوا تماماً مثل سادتهم الذين يعاملونهم كحيوانات، فهذا ما لن يتحملونه أكثر من ذلك، وقرروا أن يكونوا أحراراً وأنهم إذا ما قاموا بأية أعمال أو شُغّلوا فلسوف يأخذون أجراً لما يؤدونه.

كان هناك راهب مجنون في مقاطعة «كنت» يدعى «جون بول» الذي سُجن

ثلاث مرات بأمرٍ من كبير أساقفة كانتربري بسبب عِظاته الدينية الغريبة، وكان أداة مؤثرة في دفع هذه الأفكار المتمردة، ففي كل أحد عقب التجمع، وعند خروج الناس من الكنائس، تعوّد «جون بول» هذا أن يجمع حوله الناس في السوق ويأخذ في وعظهم، وفي هذه المناسبات كان يقول:

«أصدقائي الطيبون، إن الأمور لا يمكن أن تتحسن في إنجلترا ما لم تصبح كل الأشياء مُشاعة، عندما لا يكون هناك عبيد وسادة وعندما لا يكون السادة أفضل منا، فكم هو مؤلم سلوكهم نحونا! ولأي سبب يبقوننا هكذا في العبودية؟ ألم نولد جميعاً من نفس الوالدين، آدم وحواء؟ وماذا يمكنهم أن يُبينوا لنا؟ وما المبرر الذي يمكنهم تقديمه؟ لماذا يجب أن يستمروا سادة علينا؟ إنهم يرتدون الملابس الحريرية والغالية، والمزينة بفراء القندس وأنواع الفراء الأخرى. بينما نُغصب نحن على ارتداء ملابسٍ رثة، إنهم يملكون الخمر والتوابل والخبز الجيد، بينما لا نجد نحن إلاّ الشعير وبقايا القمح، وعندما نشرب لا نشرب إلاّ الماء، لديهم المقاعد الضخمة والإقطاعيات، بينما نحارب الرياح والمطر أثناء عملنا في الحقول، وهم بنتاج عملنا يجدون ما يدعمون به ترفهم، نحن ندعى عبيداً وإذا لم نُتم خدماتنا نُضرب، وليست لنا سلطة على من نشكو إليه، أو حتى من يرغب في سماع شكوانا، فلنذهب إلى الملك، ولنتجادل معه، فهو صغير، ويمكن أن نحصل منه على استجابة مقبولة، وإذا لم يحدث، فلا بد أن نسعى لتحسين أحوالنا بأنفسنا».

بمثل هذا الأسلوب كان جون بول يخاطب الناس في قريته كل أحد، بعد الصلاة، فأمر كبير الأساقفة - بعد إعلامه بالأمر - بالقبض عليه وسجنه شهرين أو ثلاثة على سبيل العقاب. لكنه حالما خرج من السجن، عاد لمسلكه القديم، عندما سمع الكثيرون - من أهالي مدينة لندن الذين يحسدون النبلاء والأغنياء - بمواعظ جون بول، قالوا لأنفسهم إن البلد يُحكم حكماً سيئاً، وإن النبلاء قد استحوذوا على كل الذهب والفضة، لهذا بدأ هؤلاء اللندنيون الأشرار ينتظمون في جماعات، ولإظهار علامات عصيانهم، أرسلوا - كذلك - إلى كل من يحمل مثل

آرائهم في المقاطعات المجاورة، كي يأتوا إلى لندن، وأخبروهم بأن المدينة ستكون مفتوحة أمامهم وأمام العامة الذين يحملون نفس الأفكار، وأنهم سوف يضغطون على الجميع كي لا يعود هناك عبد في إنجلترا.

بهذه الوسيلة أحضروا أناساً من «كنت» و«اسكي» و «سوسكس» و «بيدفورد» وبقية المقاطعات المجاورة يصل عددهم إلى حوالى 60,000 شخص، إلى لندن، تحت إمرة «وات تايلر» و «جاك سترو» و «جون بول».

كان «وات تايلر» - قائد المجموعات الثلاث - مجرد حارس للمنازل وكان شريراً وعدواً لدوداً للنبلاء، وعندما بدأ هؤلاء الأشرار أولاً اضطراباتهم، انزعجت لندن كلها عدا أولئك الذين يميلون إليهم.

واجتمع العمدة والأثرياء في المجلس وتناقشوا فيما إذا كان يجب أن يغلقوا البوابات ولا يصرحون لهم بالدخول، وعلى أية حال، بناء على رأي ناضج، قرروا ألاّ يفعلوا ذلك إذ ربما يواجهون خطر إضرام الحريق في الضواحي المحيطة، وعلى ذلك انفتحت أبواب المدينة، ودخلت الجموع واستقرت حيث شاءت، وحقيقة أن ثُلثي هؤلاء لا يعرفون ما يريدون ولا لأي غرض يجتمعون، لقد اتبع كل منهم الآخر مثل القطيع وبهذا الأسلوب سار العديد من هؤلاء الرفاق المساكين إلى لندن من مسافات تصل لستين أو مائة «ليجاً»[1]، لكن الجزء الأغلب جاء من المقاطعات التي ذكرتها آنفاً، وجميعهم - حال وصولهم - طلبوا رؤية الملك، وبدا النبلاء والفرسان ومُلاك الأرض ينزعجون عند رؤية تجمع الناس بهذه الصورة ولهم العذر - حقيقية - أن ينزعجوا، لأن هناك أسباباً أقل سببت رعباً أكثر، فبينما كان المتمردون الكنتيون[2] في طريقهم إلى لندن كانت أميرة ويلز وأم الملك - عائدة من كانتربري بعد أداء مراسم الحج. وعندما رآها الأشرار، هاجموا عربتها، وتسببوا في أذى بالغ للسيدة الطيبة. لكن الله حفظها

---

(1) الليج سبق تفصيله في موضع آخر من الكتاب ويساوي ثلاثة أميال.

(2) من مقاطعة «كنت» «المترجم».

من العنف، وواصلت رحلتها كلها دون أن تخاطر بالتوقف حتى لندن، وعند وصولها، كان الملك ريتشارد في البرج، حيث صعدت إليه في الحال ووجدت الملك بصحبة إيرل أوف ساليسبوري، وكبير أساقفة كانتربري، والسير روبرت دونامور وعديد آخرين، الذين ظلوا بجانبه خشية عليه من المتمردين، وكان الملك ريتشارد يعلم جيداً أن هذا التمرد كان يتفاعل منذ مدة طويلة قبل أن يثور، ومما بعث على الدهشة أنه لم يسعَ لأي محاولة لعلاج الموقف.

. . ولكي يتعظ السادة والآخرون ويتعلمون تصحيح مثل هذه التمردات الشريرة، فلسوف أسرد بتفصيل وافٍ، كيف تم كل هذا العمل.

في يوم الإثنين السابق لعيد الكرازة المقدسة عام 1381 افرنجي. اندفع هؤلاء الناس بعنف من بيوتهم آتين إلى لندن، عاقدين العزم ـ كما قالوا ـ على مخاطبة الملك، وطلب حريتهم، وعند كانتربري، قابلوا «جون بول» و «وات تايلر» و«جاك سترو» وعند دخولهم هذه المدينة استقبلهم السكان باحتفاء شديد، وكانوا جميعهم يفكرون بطريقة واحدة.

وعقدوا مجلساً هناك قرروا فيه الاستمرار في مسيرتهم إلى لندن، وقد أرسلوا ـ كذلك ـ مبعوثين عبر نهر «التايمز» إلى «إسكس» و «سافولك» و «بيرفور» لحث الناس في هذه الجهات على القيام بنفس ما فعلوا، حتى يمكنهم أن تحاط لندن بأكلمها.

لقد كانت نية زعماء هذه الحشود، أن تنتظم كل هذه الجماعات المختلفة في عيد الكرازة المقدس «أي في اليوم التالي». . وفي كانتربري دخل المتمردون كنيسة القديس توماس، حيث أحدثوا خسائر كثيرة، ونهبوا أيضاً حجرات كبير الأساقفة، قائلين وهم ينتزعون أدواته المختلفة: «لقد حصل مستشار ملك انجلترا على هذه القطع من الأثاث بسعر رخيص، وعليه الآن أن يدفع لنا حساباً من عائداته، ومن المبالغ الضخمة التي فرضها منذ تتويج الملك».

بعد ذلك سرقوا رهبانية القديس ڤينسنت، وحين غادروا كانتربري، أخذوا طريق روشيستر، وخلال مرورهم كانوا يجمعون الناس من القرى يميناً ويساراً،

وواصلوا مسيرهم كالعاصفة، محطمين كل منازل المحامين، وممثلي الملك، وكبير الأساقفة التي صادفتهم في طريقهم، وفي روشيستر قوبلوا بنفس الترحاب الذي قوبلوا به في كانتربري، لأن كل الناس كانوا في شوق للانضمام إليهم.

ثم ذهبوا مباشرة إلى القلعة، وأمسكوا بفارس يدعى «السير جون دونيوتون» الذي كان قائداً للقلعة وضابطاً للمدينة، وطلبوا منه أن يرافقهم «كضابط في القيادة» وأن يفعل ما يطلبونه، وتوسل الفارس كي يُعفي نفسه لكنهم ردوا على اعتذاراته بقولهم: «سير جون، إذا رفضت، فسوف نقتلك»، على ذلك، ولأنه أدرك أن الحشد الغاضب مستعد لقتله، اضطر للرضوخ إلى مطلبهم.

وفي مقاطعات أخرى من إنجلترا سلك المتمردون نفس التصرفات، وأجبروا العديد من كبار اللوردات والفرسان على المسير معهم، مثل اللورد مانلي، والسير ستيفن هولز، والسير توماس كوسنجتون، وغيرهم.

وعندما قام المتمردون بكل ما يريدونه في روشيستر، غادروا المدينة وأتوا إلى دارتفورد، مواصلين تحطيم منازل المحامين وممثلي الملك على جانبي الطرق، ومن «دارتفورد» أتوا إلى «بلاك هيث». حيث تمركزوا فيها، قائلين: إنهم مسلحين من أجل الملك ومن أجل عامة الشعب في إنجلترا.

وعندما رأى كبار القوم في لندن أن المتمردين قد تمركزوا قريباً إلى هذا الحد منهم، جعلوا بوابات كوبري لندن تُغلق ويوضع عليها حرس بأوامر من السير ويليام وولورث عمدة المدينة، فلا يمكن الاحتمال، حيث كان هناك أكثر من 30,000 متعاطف مع الثوار داخل المدينة.

وسرعان ما وصلت معلومات إلى «بلاك هيث» بأن بوابات كوبري لندن قد أغلقت أمامهم وعلى ذلك أرسل المتمردون فارساً للتحدث مع الملك، وليخبره بأن ما يفعلونه من أجل خدمته، لأن المملكة ـ ولسنوات عديدة ـ قد أُسيء حكمها، بما لا يشرف الملك وبما فيه الاضطهاد للطبقات الدنيا من الشعب، بواسطة أعمامه، ورجال الكنيسة وعلى وجه الخصوص كبير أساقفة كانتربري، مستشاره، الذي قرروا أن يحصلوا منه على كشف حساب حول سلطته، وقد

حاول الفارس المخصص لهذه المهمة أن يعتذر، لكنه لم يجرؤ على ذلك، وهكذا أخذ قارباً ـ بعدما تقدم نحو التايمز في مواجهة البرج ـ وعبر النهر، وكان الملك ومن معه في البرج في حالة كبيرة من الانفعال والقلق لاستقبال شخص ما من المثقفين، عند إعلان وصول الفارس، الذي اقتيد بسرعة إلى حضرة الملك، وكان مع الملك ذلك الوقت أمه الأميرة، وأخواه الشقيقان، وإيرل أوف «كنت» والسير جون هولاند، وإيرلات أوف؛ ساليسبور، وأرويك، وسافولك وكبير أساقفة كانتربري، وقائد فرسان المعبد[1] السير روبرت دونامور، وعمدة لندن وبعض كبار القوم.

وألقى الفارس بنفسه جاثياً على ركبتيه، أمام الملك، فور دخوله الغرفة، قائلاً: «مع إجلالي لكم، سيدي الملك، أرجو ألا يسوءكم أن أحمل تلك الرسالة التي سوف أبلغها لكم، لأنني، يامليكي الحبيب، قد أُرغمت على الحضور هنا».. قال الملك: «.. لا يهم.. سيدي الفارس.. أخبرنا ما كلفوك به، فنحن نقبل عذرك».. أجابه الفارس: «سيدي الملك المُهاب، إن عامة هذه المملكة أرسلوني لأرجوكم أن تأتي إلى «بلاك هيث» وتحادثهم ويتمنون ألاّ يكون معك أحد آخر، ولست بحاجة للخوف على شخصك، حيث لن يمسوك بأدنى قدر من الأذى فهم دائماً ما احترموك مليكاً لهم، وسوف يستمرون في احترامهم، لكنهم يأملون في إبلاغك أشياءَ كثيرة، يقولون إنها ضرورية ويجب أن تسمعها، وهذه ما لم يمنحوني صلاحية تعريفها لكم على أية حال، وليحل عليك الخير، سيدي الملك، أرجو أن تعطيني إجابة تريحهم، وأن يقتنعوا بأنني مثلتُ في حضرتكم، لأنهم أخذوا أطفالي رهينة لحين عودتي، وإذا لم أعُد، فسوف يُسلمونهم للموت بالتأكيد».

أجاب الملك على ذلك تحديداً: «سوف تحصل على إجابتي بسرعة؟». وعندما انسحب الفارس طلب الملك من مجلسه أن يتشاوروا فيما يجب أن يتم، وبعد مشاورات نُصح الملك بأن يرسل كلمة للثائرين بأنهم إذا ما جاؤوا إلى النهر

---

(1) فرسان المعبد، جماعة عسكرية دينية أسست بزعم حماية حجيج الأرض المقدسة بفلسطين وتحولت لنواة للجيوش الصليبية.. أوقف نشاطها الرسمي عام 1312 افرنجي،.. «المترجم».

يوم الثلاثاء فلسوف يتحدث إليهم دون شك . . واستراح الفارس عندما تسلم تلك الإجابة، وغادر الملك وباروناته، عائداً إلى بلاك هيث حيث تجمع أكثر من 60,000 شخص، وأخبرهم عن الملك بأنهم إذا ما أرسلوا قادتهم ـ الصباح التالي ـ إلى نهر التايمز فسوف يأتي الملك ويسمع ما قد يجب عليهم قوله، وكانت الإجابة مرضية للجميع، وقضى المتمردون الليلة بقدر ما يستطيعون، لكن يجب أن تعلموا أن ربع المجتمعين كانوا بلا طعام.

في عيد «تجسد المسيح» سمع الملك ريتشارد جمهرة في برج لندن بعدها دخل قاربه الملكي، مصحوباً بالإيرلات أوف «ساليسبوري»، و «وأرويك» و«سافولك» وبعض الفرسان، وجدفوا بالقارب أسفل النهر نحو «روزرهيث» ـ وهي مزرعة للملك ـ حيث تجمع أكثر من 10,000 ثائر، وحالما أدرك الحشد أن قارب الملك قادم نحوهم، بدأوا في الصياح والصراخ كما لو أن أرواح العالم الآخر كانت معهم، وكان معهم أيضاً الفارس الذي أرسلوه للملك في البرج، بحيث إذا لم يأت الملك، قطعوه إرباً ـ كما سبق لهم أن هددوه.

وعندما رأى الملك ولورداته هذا الحشد من الناس، ووحشية سلوكهم، شعرت المجموعة بالانزعاج، ونُصح الملك بألاّ يهبط إليهم، وإنما يترك قاربه مجدفاً به أسفل وأعلى النهر، وسأل الملك التجمعات: «ماذا ترغبون؟ لقد أتيت هنا لأسمع ما تقولون» فأجابه القريبون منه: «نحن نأمل أن تنزل إلينا، وحينئذ سوف نخبرك بمطالبنا». عند ذلك صاح الإيرل أوف ساليسبوري، «أيها السادة، أنتم لا ترتدون ملابس لائقة ولستم في حالة مناسبة للتحدث مع ملك».

لم تتردد كلمة بعد ذلك على أي من الجانبين، لأن الملك شرع على الفور في العودة للبرج، وانفعل الناس بشدة حين رأوا ذلك، فعادوا إلى بلاك هيث ليخبروا زملاءهم بكيفية معاملة الملك لهم، وما إن سمعوا ذلك حتى صاح الجميع: «فلنمض على الفور إلى لندن». وعلى ذلك خرجوا فوراً وطوال الطريق هناك، دمروا كل بيوت المحامين ورجال القضاء والأديرة التي صادفوها. وفي ضواحي لندن ـ التي كانت أنيقة وممتدة ـ هدموا العديد من المباني الجميلة،

وهدموا أيضاً سجن الملك المسمى «مارشالسي» وأطلقوا سراح سجنائه، وأكثر من ذلك، هددوا اللندنيين عند مدخل الكوبري، لأنهم أغلقوا البوابات، معلنين أنهم سوف يستولون على المدينة اقتحاماً، وبعدها يحرقونها ويدمرونها.

وبالنسبة لعامة الشعب في لندن، فالأعداد المتعاطفة مع رأي المتمردين، وعند تجمعهم لدى الكوبري، سألوا حراسه: «لماذا ترفضون دخول هؤلاء الناس الشرفاء؟، إنهم أصدقاؤنا، وما يفعلونه هو لصالحنا؟». وبمثل هذا التحريض أصبح من الضروري فتح البوابات.

وعندما اندفعت الجموع وسيطرت على تلك المحلات التي يظهر عليها أنها ممتلئة بالغذاء، فحيثما ذهبوا - حقيقة - كانت توضع أمامهم اللحوم والشراب ولم يُمنعوا شيئاً استجلاباً لرضاهم، حينئذ سار قادتهم، «جون بول» و «جاك سترو»، و«وات تايلر»، عبر لندن مصحوبين بأكثر من 20,000 رجل إلى قصر سافوي - وهو قصر أنيق للدوق أوف لانكاستر مشرفاً على ضفة نهر التايمز على طريق ويستمنستر - وهناك قتلوا حرس الأبواب في الحال، واندفعوا داخل القصر، وأشعلوا فيه النيران، ولم يكتفوا بهذا الغضب فذهبوا لمنزل «نايت هو سبيتالرز أوف رودس»[1] والمخصص للقديس جون أوف موت كارميل، فأحرقوه مع كنيسته ومستشفاه.

بعد ذلك، ملأوا الشوارع، وقتلوا كل من قابلوه من الفلمنج سواءً في بيته أو في الكنيسة أو في المستشفى، كما حطموا منازل اللومبارديين ناهبين الأموال التي تصل إليها أيديهم، كما قتلوا مواطناً ثرياً يدعى ريتشارد ليون كان وات تايلر يعمل خادماً سابقاً له في فرنسا، ولأن ريتشارد ضربه ذات مرة لم ينسها له ذلك الوغد، وعندما اقتاد رجاله إلى منزل ريتشارد، أمرهم بقطع رأسه، ووضعها على حربة، وتُحمل عبر شارع لندن، هكذا كانت أعمال هؤلاء الأشرار.

(1) Knight Hospitalers، جماعة عسكرية من الرهبان أسست عام 1048. شارك بعضها في الحملات الصليبية على بيت المقدس، وكان المؤرخون المسلمون يسمونهم الفرسان الاسبتارية تميزاً لهم عن فرسان المعبد. «المترجم».

وفي يوم الثلاثاء هذا، ألحقوا بلندن دماراً كثيراً، وعند المساء أقاموا تجمعهم في ميدان القديسة كاثرين، أمام البرج، معلنين أنهم لن يبرحوا المكان حتى يحصلوا من الملك على كل ما يريدونه.

وحتى يقدم لهم مستشار الملك كشف حساب، يبين فيه كيف أنفقت المبالغ الضخمة التي جمعها - وإذا ما وضعنا في اعتبارنا الضرر الذي أحدثته الغوغاء، يمكن أن نتخيل بسهولة، إلى أي مدى كان موقف الملك سيئاً في ذلك الوقت، ومن معه أيضاً - وفي المساء عقد الملك وباروناته مع السير ويليام وولورث وبعض علية القوم اجتماعاً في البرج، حين قدم اقتراح بأن يسلحوا أنفسهم ويهجمون على هؤلاء الأشرار ليلاً عندما يكونون سكارى أو نائمين حتى يمكن قتلهم بكثرة كالبراغيث، إذ إن نسبة من يحملون السلاح منهم لا تتجاوز الواحد في العشرين، بينما المواطنون قادرون على فعل ذلك. لأنهم استقبلوا سراً أصدقاءهم وخدمهم في البيوت، ومُعدون جيداً للعمل، فالسير روبرت نولز بقي في منزله يحرسه ومعه أكثر من ست مجموعات من الرفاق - كل مجموعة حوالى عشرين رجلاً - مسلحة تماماً، ممن يستيطعون الهجوم بعنف في بُرهة وجيزة.

وكان السير بيرودوكاس وألبيرت في لندن أيضاً خلال هذه الفترة، ويمكن بالطبع أن يكون ذا نفع عظيم، حتى إنه يمكنهم أن يجمعوا أكثر من 8000 رجل مسلح، وعلى العموم فلم يتم شيء من هذا، لأنهم حقيقة كانوا يخشون العامة كثيراً، وقال الإيرل أوف ساليسبوري، وآخرون ناصحين الملك: «سيدي، لو استطعت تهدئة خواطرهم بكلمات عادلة، سوف يكون ذلك أفضل، إذ لو بدأنا ما لا نستطيع الاستمرار فيه، فسوف تنتهي كل الأمور بنا وبثرواتنا، وستصبح إنجلترا صحراء».

وقد اتبع الملك هذه النصيحة، فأمر عمدة المدينة بألا يتحرك، والذي أطاع بدوره حيث لم يجد من ذلك بُداً، وفي يوم الجمعة استعد المتمردون من الصباح - حيث تمركزوا في ميدان القديسة كاثرين أمام البرج - فصاحوا كثيراً قائلين إنه إذا لم يحضر إليهم الملك، فسيهاجمون البرج ويَعْصِفون به ويقتلون كل من بداخله.

ونتيجة لانزعاج الملك الشديد من هذه التهديدات قرر أن يتحدث مع الرعاع، لذا أرسل الأوامر لهم أن يلجأوا إلى مرعى هادىء عند «مايل إند» حيث يُرفه الناس عن أنفسهم في فصل الصيف. مشيراً إلى أنه سوف يقابلهم هناك ويضمن لهم مطالبهم، وأذاعوا إعلاناً بذلك، باسم الملك، وبناءً على ذلك بدأ عامة الناس من القرى المختلفة يسيرون، وعلى أية حال، فالعديد منهم لم يهتم بالذهاب لكنهم بقوا في لندن، لأنهم يرغبون في النيل من الأثرياء والنبلاء ونهب المدينة، وبالفعل كان الطمع والرغبة في النهب هما السبب الرئيسي لهذه الاضطرابات كما أوضح المتمردون بصورة بينة، فحينما فتحت البوابات الخاصة بالبرج ومر الملك منها بصحبة أخويه وبقية النبلاء، اندفع وات تايلر، وجاك سترو وجون بول ومعهم أكثر من 400 رجل آخرين، بالقوة من غرفة لأخرى، ووجدوا كبير أساقفة كانتربري، واسمه سيمون، وهو رجل شجاع وحكيم، فأمسكه الأوغاد وقطعوا رأسه، ولاقى قائد فرسان القديس جون نفس المصير وبالإضافة لذلك راهب من الفرنسيسكان وهو طبيب كان في خدمة دوق لانكاستر ومعهم أحد حراس الشرف اسمه جون ليج.

وقام المتمردون بتعليق رؤوس هؤلاء الأربعة فوق الحراب الطويلة وحملوها أمامهم عبر شوارع لندن، وعندما جعلوا منهم سخرية بما فيه الكفاية وضعوهم على كوبري لندن كما لو كانوا خونة للملك وللبلاد. ودخل الأشرار - بعدها - حجرة الأميرة، ومزقوا قماشها إلى قطع صغيرة مما أفزعها إلى درجة أنها فقدت الوعي، وحملها خدامها وبعض السيدات إلى ضفة النهر، حيث وضعت في قارب مغطى وحُملت إلى منزل اسمه «واردروب» حيث استمرت في حالتها البائسة طوال يوم وليلة.

وبينما كان الملك في طريقه إلى «مايل إند» انسل أخواه الإيرل أوف «كنت» والسير جون هولاند، بعيداً عن صحبته، إذ لا يجرؤان على إظهار نفسيهما للعامة، إلاّ أنه على أية حال، فقد أظهر الملك شجاعة عظيمة.

فحال وصوله إلى المكان المحدد، تقدم فوراً إلى وسط الحشود المجتمعة

قائلاً في أسلوب مُبهج: «شعبي الطيب، إنني ملككم وسيدكم، فماذا تريدون؟ ماذا ترغبون في قوله لي؟». فأجاب الذين سمعوه: «نتمنى عليك أن تجعلنا أحراراً للأبد، ولا ندعى بعد ذلك عبيداً، ولا نرسخ في العبودية». فأجابهم الملك: «إنني أؤمن لكم رغبتكم، ولهذا، عودوا الآن إلى منازلكم، واتركوا اثنين أو ثلاثة من كل قرية وراءكم، وسآمُر بتسليمهم خطابات ممهورة بخاتمي، تضمن لكم كل المطالب التي وضعتموها، ولكي تكونوا في رضىً تامٍ، فسوف آمر حملة أعلامي بالذهاب إلى كل مفوضية أو حصن أو إقليم بذلك.

أرضت هذه الكلمات الناس الأكثر اعتدالاً بين الجمهور، الذين قالوا: «هذا حسن، فنحن لا نرغب في أكثر من ذلك» إلاّ أن الملك أضاف فوق ذلك: «أنتم يا شعبي الطيب في «كنت» سوف يكون معكم واحد من حملة أعلامي وأنتم أيضاً يا شعب «إسيكس» و «سوسكس» و «بيدفورد» و سافولك» و «كامبردج» و«ستافورد» و «لنكولن» سيكون مع كل واحد منكم كذلك، وإنني أسامحكم في كل ما فعلتموه هنا، لكنكم يجب أن تتبعوا حملة أعلامي، والآن عودوا لبيوتكم على الشروط التي ذكرتها».

وقد فعلوا ذلك برضى عظيم، وهكذا انفض ذلك الاجتماع الضخم، واستخدم الملك أكثر من ثلاثين سكرتيراً، قاموا بتحرير الخطابات بأسرع ما استطاعوا، وعندما ختمت الرسائل وسلمت للناس، بدأوا في الرحيل إلى مقاطعاتهم، لكن أسوأ ما في الأمر - على أية حال - بقي وراءهم، وأعني، وات تايلر وجيمس سترو وجون بول، الذين أعلنوا، أنه بالرغم من أن الشعب قد ارتضى ما تم، إلاّ أنهم غير راضين، وكان معهم حوالى 30,000 شخص لهم نفس الرأي، استمروا جميعهم في المدينة دونما رغبة في استلام الرسائل أو خاتم الملك، لكنهم بذلوا ما في وسعهم لرفع المدينة إلى درجة من الفوضى، يُقتل فيها اللوردات والأثرياء، وتُنهب بيوتهم، وتُدمر، ولما شك اللندنيون في ذلك، ظلوا في بيوتهم، متسلحين جيداً، ومستعدين للدفاع عما يملكون.

وبعدما أراح الملك شعبه، عند الـ «مايل إند جرين» ذهب الملك ريتشارد إلى

«واردروب» كي يخفف عن الأميرة، التي كانت في أشد حالات الفزع - لكنني يجب ألاّ أهمل رواية مغامرة حدثت لبعض من هؤلاء المهرجين ولقائدهم، ويليام ليستر من مقاطعة ستافورد، أمام مدينة نورويتش - ففي الوقت الذي كانت فيه مجموعة من هؤلاء الأشرار في لندن تقوم بحرق قصر سافوي والكنيسة وبيت جماعة القديس جون، ومستشفى فرسان المعبد، اجتمع نفر كبير من الناس من لينكولنشاير ونورفولك وسافولك، الذين - وفقاً للتعليمات التي تسلموها - كانوا يسيرون نحو لندن، وفي طريقهم توقفوا بالقرب من نورويتش، وأجبروا كل من قابلوه على الانضمام لهم.

وكان سبب توقفهم عند نورويتش، أن حاكم المدينة، كان فارساً يدعى سير روبرت سال، الذي لم يكن نبيل المولد، لكنه نُصب فارساً بواسطة الملك أدوارد لقدراته وشجاعته، وعلاوة على ذلك، كان من أكثر رجال إنجلترا أناقة وقوة، واعتقد ليستر وصحبه أن بإمكانهم جعله قائداً لهم، لهذا أرسلوا تعليمات إليه كي يخرج لهم في الحقول ويتحدث معهم، معلنين أنه في حالة رفضه، سوف يهاجمون ويحرقون المدينة.

بعدما أخذ الفارس في اعتباره أنه من الأفضل أن يذهب إليهم بدلاً من ارتكابهم مثل ذلك العنف، امتطى جواده، وخرج من المدينة وحده، ليسمع ما سيقولون، وعند اقترابه أظهروا له علامات الاحترام ورجوه بإلحاح أن يهبط من فوق جواده ليتحدث معهم، وفعلاً هبط، وبذلك الفعل ارتكب حمقاً كبيراً، إذ أحاط به الرعاع في الحال، وفي البداية خاطبوه بودٍ قائلين «روبرت»، إنك فارس، ورجل له اعتباراته في هذه البلد، ومشهور بشجاعتك، إلاّ أنك لا تتلاءم مع ذلك كله، فإننا نعرف من أنت، وأنت لست من النبلاء، لكنك ابن لبنّاء فقير، مثلنا تماماً، فلتأت معنا، إذن، كقائد لنا، وسوف نجعل منك رجلاً عظيماً يأتمر بأمره ربع شعب إنجلترا.

عندما سمع الفارس كلامهم هذا، غضب بشدة، وألهبهم بنظراته الغاضبة، قائلاً: «اذهبوا عني، أيها الطغاة، والخائنون المزيفون هل تجعلونني أهجر مليكي

الطبيعي من أجل صحبة أوغاد مثلكم؟ هل تدفعونني لإلحاق العار بنفسي؟ إنني أفضل لو أنكم جميعاً شُنقتم فتلك يجب أن تكون نهايتكم». وعند قوله ذلك حاول أن يمتطي جواده، لكن قدمه انزلقت من الركاب، وفزع الجواد، فصاحت الغوغاء: «اقتلوه» وحالما سمعها السير روبرت، ترك حصانه، وسحب سيفاً مسلولاً من صناعة «بوردو»[1]، وبدأ يطعن به، وأبعد التزاحم من حوله بطريقة رائعة، وحاول العديدون الاقتراب منه، لكن كل ضربة يضربها، كانت تقطع رأساً أو يداً، أو قدماً، أو رجلاً، حتى إن الشجاع صار يخشى الاقتراب منه.

وكان عدد هؤلاء الحثالة 40,000، وقتل منهم الفارس اثنا عشر رجلاً وجرح الكثيرين، قبل أن يتغلبوا عليه، الذي فعلوه أخيراً بمقذوفاتهم، وحالما سقط على الأرض، قطعوا ذراعيه ورجليه، ومزقوا جسمه إرباً، وهكذا كانت النهاية المؤسفة للسير روبرت سال.

في صباح السبت، غادر الملك «واردروب» وذهب إلى «ويستمنستر»، وعندما سمع هو واللوردات معه ضجة أناس في الدير، وفيه يوجد تمثال «سيدتنا»[2]، التي يؤمن فيها ملوك إنجلترا إيماناً عميقاً، ولها - بالمناسبة القائمة - قدَّمَ الملك والنبلاء إخلاصهم وقدموا هباتهم، حينئذ ساروا صحبة مع الآخرين بطول الممر المؤدي إلى لندن، لكنهم بعد أن تقدموا مسافة قصيرة من الطريق، غير الملك وقليل من صحبته طريقهم يساراً مبتعدين عن المدينة.

في هذا اليوم اجتمعت الغوغاء ثانية تحت إمرة وات تايلر، وجاك سترو، وجون بول عند مكان يدعى «سميث فيلد» حيث يعقد سوق الجياد كل جمعة، كان هناك حوالى 20,000 وأكثر من ذلك موجودين في المدينة، يفطرون ويشربون خمر الراين وخمر المالمسي ماديبرا[3] في المحال العامة وفي منازل اللومبارديين دون مقابل، وسعيد ذلك الذي كان يشجعهم لإرضائهم.

---

(1) بوردو Bordeaux مدينة في جنوب غرب فرنسا كانت تشتهر بصناعة الخمور والسيوف.

(2) «Our Lady» مريم العذراء أم المسيح عليه السلام، «المترجم».

(3) الراين. نهر في ألمانيا، والمالمس ماديبرا خمر قوية كانت تصنع في أسبانيا واليونان وهي من أفخر وأغلى أنواع الخمور في حينها ق 14 افرنجي. «المترجم».

وكان مع هؤلاء الذين تجمعوا في «سميث فيلد» علم الملك الذي تسلموه في الليلة السابقة، ولم يتحمل الأوغاد ذلك، متمنين أن ينهبوا المدينة - يقول قادتهم - حيث إنهم لم يفعلوا شيئاً: «إن العفو الذي منحه لنا الملك، لن ينفعنا، لكننا إذا ما وحّدنا رأينا، سوف ننهب هذه المدينة القوية والغنية، لندن، قبل أن يصل أولئك القادمين من إسكس وسافولك، وكامبردج، وبردورد، وأرويك، وريرنج، ولانكشاير، وأرندل، وجيلدوفور، وكوڤنتري، ولين، ولينكولن، ويورك، ودورهام، لأنهم في الطريق ونحن متأكدين أن ڤاكير وليستر سوف يقتادان الجموع إلى هنا، فدعونا، إذن، نكون السباقين في الاستيلاء على الثروة من المدينة، لأننا إذا ما انتظرنا وصولهم فسوف يختطفونها منا، وعلى هذا الرأي وافق الجميع.

وعندما ظهر على مرمى البصر الملك مصحوباً بستين حصاناً، لم يكن وقتها يفكر في المتمردين، لكنه انتوى مواصلة سيره دون أن يأتي لندن، على أية حال، فعندما وصل أمام الدير الخاص برهبان القديس بارثلوميو، الموجود في «سميث فيلد» ورأى ازدحام الناس، توقف قائلاً إنه سيتأكد مما يريدون، ويعمل على تهدئتهم، وما إن رأى وات تايلر الملك وجماعته، حتى قال لرجاله: «ها هو الملك، سأذهب لمحادثته فلا تتحركوا حتى أعطيكم إشارة»، وعمل حركة بيده، ثم أضاف: «عندما ترونني أؤدي هذه الإشارة تقدموا للأمام فوراً، اقتلوا كل واحد عدا الملك، ولا تؤذوه، لأنه صغير، ونستطيع أن نفعل ما نريده معه، حاملينه معنا عبر إنجلترا وسوف نصبح لوردات البلد كلها دون أي اعتراض».

عندما قال ذلك نخس حصانه واندفع نحو الملك الذي اقترب منه حتى لامس رأس حصانه سرج حصان الملك. وكان أول كلماته: «أيها الملك، هل ترى كل هؤلاء الرجال هنا؟» أجابه الملك: «نعم ولماذا تسأل»؟ فرد عليه: «لأنهم جميعاً تحت إمرتي وأقسموا بإيمانهم وإخلاصهم أن يفعلوا أياً مما آمرهم به» قال الملك: «حسن جداً ليس لدي اعتراض على ذلك»؟ واصل تايلر الذي يرغب فقط في إثارة الاضطراب: «وتعتقد أيها الملك، أن هؤلاء الناس وآخرون كثيرون في

المدينة ـ أيضاً تحت قيادتي ـ مفروضٌ عليهم أن يرحلوا دون الحصول على رسائلك، لا، سوف نحملها معنا». أجابه الملك: «لماذا؟ لقد أمرت فعلاً بذلك، وسوف توزع الرسائل الواحدة تلو الأخرى، لكن أيها الصديق، عد لرفاقك، وقل لهم أن يرحلوا من لندن، وكونوا مسالمين، واعتنوا بأنفسكم، لأنه قرارنا، أن تحصلوا جميعكم على الرسائل مدناً وقرى، طبقاً لاتفاقنا».

وخلال إنهاء الملك حديثه جال تايلر ببصره حوله، ولمح أحد السادة ملتصق بشخص الملك، ويحمل سيفاً، وكان تايلر يكرهه بشدة، وعندما رآه صاح فيه: «ما الذي تحمله هناك؟ اعطني خنجرك». أجابه الرجل: «لن أفعل، ولماذا يجب عليّ أن أعطيك إياه؟» هنا قال الملك: «اعطه له، اعطه له». وفعل الرجل ذلك ضد إرادته، وعندما أخذ تايلر الخنجر، بدأ يلعب به بين يديه ومرة أخرى خاطب الرجل قائلاً: «اعطني ذلك السيف»، فأجابه الرجل «لن أفعل، لأنه سيف الملك وأنت لست إلاّ ميكانيكي لا تستحق أن تحمله، ولو أننا، أنا وأنت معاً، فلن تجرؤ على قول ما قلت ولو مقابل كومة من الذهب في حجم هذه الكنيسة»، فرد تايلر: «أقسم بأنني لن آكل اليوم قبل أن آخذ رأسك».

عند هذه الكلمات تقدم عمدة لندن ومعه حوالى اثنا عشر رجلاً، وأسلحتهم تحت ثيابهم، وقال حالما رأى طريقة تايلر في السلوك: «أيها الأفاق، كيف تجرؤ على التصرف هكذا في حضرة الملك»؟ وقدغضب الملك أيضاً لوقاحة هذا الرفيق فقال للعمدة: «اقبضوا عليه».

وبينما أعطى الملك ريتشارد هذا الأمر، ظل تايلر يواصل حديثه قائلاً للعمدة: «وماذا يجب عليك أن تفعل، هل ما قلته يعنيك؟». أجابه العمدة: «إنه يعنيني»، إذ وجد نفسه معضداً من الملك، فأضاف: «لن أعيش يوماً آخر ما لم أجعلك تدفع ثمن وقاحتك». وعند ذلك القول سحب ما يشبه السيف الشرقي، وضرب تايلر ضربة على رأسه، أوقعته عند أقدام حصانه، وحالما سقط المتمرد على الأرض، أحاطوا به من كل الجوانب، كي لا يراه رجاله، وقفز أحد مساعدي فرسان الملك واسمه «جون ستانويشي» فوراً من فوق حصانه، ساحباً سيفه، ودفعه في بطن تايلر حتى مات.

عندما اكتشف المتمردون أن قائدهم قد مات، انتظموا في نوع من تشكيلات المعركة، وكل رجل يحمل قوسه مثنياً أمامه، وانزعج الملك بشدة. بالرغم من أن الأمور بدت من حسن الحظ أمامه، لأنه حالما وقع تايلر على الأرض، غادر الملك رفاقه، مُصدراً أمراً بألاّ يتبعه أحد، وقاد حصانه قدماً نحو المتمردين، الذين كانوا يتقدمون للانتقام لمقتل زعيمهم، وقال: «أيها السادة، ماذا سوف تفعلون؟ سوف تأخذونني مقابل قائدكم؟ أنا ملككم، فابقوا مسالمين» فخجل الجزء الأعظم منهم عند سماعهم تلك الكلمات، وبدأ أولئك الذين يجنحون للسلم في التسلل بعيداً بينما احتفظ الفوضويون بأماكنهم ـ على أية حال ـ عاد الملك إلى لورداته وتشاور معهم فيما يجب أن يفعلوه، وكانت نصيحتهم أن يشقوا طريقهم عبر الحقول، لكن العمدة قال إن الانسحاب لن يكون متاحاً، وإنه من الصحيح أن التصرف كما فعلنا، وأنا اعتقد أننا سوف نحصل على مساعدة من أصدقائنا الطيبين في لندن.

وبينما الأمور على هذه الحالة، أسرع عدد من الأشخاص إلى لندن يتصايحون: «إنهم يقتلون الملك والعمدة». وعلى ذلك التنبيه، اندفع كل رجال الملك نحو «سميث فيلد» في حوالى سبعة أو ثمانية آلاف عدداً، وأتى بين أول من حضروا السير روبرت نولز والسير بير دوكاس وألبيرت مسلحين جيداً، وبعد ذلك عدد من كبار القوم مع أكثر من 600 رجل مسلح، ورجل قوي من المدينة يدعى نيكولاس برامبار «تاجر أقمشة الملك» ومعه قوة كبيرة على أقدامها، وهبط كل هؤلاء أمام المتمردين، الذين كانوا يحملون علم الملك، ويظهر عليهم أنهم قد عزموا على الإبقاء على الأرض التي يقفون عليها بالقتال.

في ذلك الوقت نصب الملك ثلاثة فرسان هم، السير ويليام وولورث، والسير جون ستاندويش والسير نيكولاس برامبار، وحالما وصل السير روبرت نولز إلى سميث فيلد، كانت نصيحته أن يسقط الجميع على الثائرين ويذبحونهم، لكن الملك ريتشارد ما كان ليوافق على هذا، فقال: «سوف تذهب إليهم أولاً، وتطلب علمي وسوف نرى حينئذ كيف سيتصرفون، لأنني قررت أن أنهي ذلك

سواء بوسائل هادئة أو عنيفة» وعلى ذلك تم إرسال الفرسان الثلاثة الجدد، وعند اقترابهم من المتمردين أشاروا لهم بألاّ يطلقوا سهامهم لأنهم يرغبون في الحديث معهم، وعندما وصلوا لمدى السماع، قالوا: «انتبهوا الآن، إن الملك يأمركم بأن تعيدوا أعلامه، ولو فعلتم ذلك، فنحن نثق بأنه سوف يمنحكم العفو، وعند ذلك تم تسليم الأعلام مباشرة، وأحضرت للملك، وحينئذ صدر الأمر ـ بعقوبة الموت ـ أن كل من حصل على رسائل الملك يجب أن يسلمها، والبعض فعل هذا، لكن ليس جميعهم، وعندما تسلمهم الملك، مزقهم قطعاً في حضورهم. ويجب أن تعلم أنه منذ اللحظة التي تم تسليم أعلام الملك فيها، لم يحتفظ بعدها هؤلاء الرفاق بأي نظام، لكن الجزء الأكبر، ملوحين بأقواسهم على الأرض، لملموا أطرافهم وعادوا إلى لندن، وكان السير روبرت نولز غاضباً جداً لأنهم لم يهاجموا المتمردين ويذبحونهم في الحال، وبطبيعة الحال ما كان الملك ليؤيد ذلك، بقوله، إنه يفضل أن يحصل على انتقام متواضع على أن يفعل ذلك.

وعندما تفرقت الغوغاء، عاد الملك وصحبته في نظام جيد، لفرط سعادتهم إلى لندن، من حيث أخذ الملك طريق «واردروب» فوراً ليزور الأميرة «أمه» التي بقت هناك ليلتين ونهارين، بخوف شديد، وعندما رأت ابنها، فرحت المرأة الطيبة كثيراً، وقالت «ياه، أيها الابن الحبيب، ما الألم والعذاب اللذين لم أعانيهما من أجلك هذا اليوم» أجابها الملك: سيدتي، أنا متأكد من ذلك، ابتهجي الآن، واشكري الله الذي أبقانا لنحمده، إذ إنني قد استعدت اليوم إرثي، مملكة إنجلترا، التي كنت قد فقدتها.

وقضى الملك ذلك اليوم كله مع أمه، وأذاعوا إعلاناً خلال كل الشوارع بأن على كل شخص لم يكن من سكان لندن أو لم يكن قائماً بها منذ عام كامل، أن يرحل فوراً، إذ لو وجد شخص بمواصفات مناقضة داخل المدينة صباح يوم الأحد عند الشروق فسوف يقبض عليه كخائن للملك وتقطع رقبته، ولم يستطع أحد أن يحرق هذا الإعلان لكن الجميع رحلوا في الحال إلى بيوتهم مدحورين تماماً.

وقد وجدوا جون بول وجاك سترو مختبئين في بيت مهدم، حيث أخفوا أنفسهم، معتقدين بإمكان تسللهم عندما تهدأ الأمور، لكنهم مُنعوا من ذلك، لأن رجالهم خانوهم، وبأسرهم، ابتهج الملك وباروناته وقطعوا رأسيهما، وكذلك رأس تايلر، وعلقوا على كوبري لندن في نفس المكان الذي علقوا فيه المساكين السابقين.

وقد أرسلت لندن أخباراً عن الهزيمة الكاملة للمتمردين عبر كل المقاطعات المجاورة، وذلك كي يسمعها كل القادمين في طريقهم إلى لندن، وحالما سمعوا ذلك، عادوا على الفور لبيوتهم دون أن يجرؤوا على التقدم أكثر.

معركة أجينكور
رؤية فارس فرنسي
«25 أكتوبر/التمور 1415 افرنجي»

*** جيهان دو واڤرين**

«عند.. أجينكور» هوجم جيش الملك هنري الخامس المُجهد، بقوات فرنسية ضخمة بقيادة تشارلز الأول دالبري، قتل فيها حوالى 6000 فرنسي».

.. في اليوم التالي بعدما غادر ملك إنجلترا مُخيمه الليلي، ساروا بالأسلوب المعتاد، ملتزمين دائماً الطريق المباشر المؤدي إلى «كاليه»، وكان ذلك يوم الرابع والعشرين من أكتوبر، اليوم السابق لعيد القديس سانت كريسبين، لكنه ما كاد يلتف حتى أخبره كشافوه بأنهم رأوا الفرنسيين في مجموعات ضخمة تحمي الطريق أمامه، وأنهم قد علموا أن الفرنسيين سيقيمون عند «روسوڤيل» و«أجينكور» لقتاله في الغد، وأجاب الملك على ذلك بأنه حسن.

وما إن أدرك الملك هنري ذلك، ولأن معبر النهر «بلانجي» في «تيرنوا» كان طويلاً وضيقاً، حتى قبل عبوره، فجعل ستة من النبلاء من طليعة الجيش يتجردون من دروعهم، ويعبرون أولاً ليروا ما إذا كان المعبر به أي من الحراس. وقد وجدوه بلا حرس، وأنه لا توجد موانع.

وهكذا عبر الجيش الإنجليزي في إرساليات ضخمة، وعندما انتقلوا تماماً عادوا إلى الطريق وتقدموا قليلاً، عندها رأوا الفرنسيين في قوة عظيمة، ولذلك جعل الملك هنري كل رجاله يهبطون من فوق خيولهم، ورتبهم في نظام قتالي جيد، متوقعاً أن يحاربوه في ذات اليوم، وانخرط كل الإنجليز في شعائر العبادة يُصلّون لله ربنا أن يكون عوناً لهم، وبقوا هناك حتى الغروب. وكذلك فعل الفرنسيون، الذين لاحظوا جيداً أوضاع القتال بين الإنجليز، متوقعين محاربتهم، وضعوا أنفسهم في نظام جيد، وارتدوا دروعهم، واستعرضوا حملة الأعلام والإشارات، ونصبوا فرساناً جدداً عديدين.

ومن بين أولئك الذين تسلموا ميثاق الفروسية، كان فيليب «كونت أوف نيڤير» بواسطة قائد الجيش «بوشي كو» مع عدد كبير من النبلاء المساعدين، وهناك بالقرب من أجينكور، تجمع كل الفرنسيين في تشكيل واحد.

عندما أدرك ملك إنجلترا أن الوقت أضحى متأخراً، جعل كل جيشه ينحدر نحو «ميزونسيل» التي كانت قريبة منهم، وقبل أن يحطوا رحالهم، منح الحرية للسجناء وللنبلاء وللآخرين الذين كانوا في ذلك الوقت مع جيشه، وقد وعدوه إذا ما كان النصر حليفه، فلسوف يعودون إليه ولسادتهم إذا ما كانوا أحياء، لكن إذا ما باء بالهزيمة، عليه أن يحررهم للأبد من الفدية ورق الأرض، وبعدما أطلق سراح السجناء، أقام ملك إنجلترا في مدينة «ميزونسيل» المذكورة. قريباً جداً من أعدائه لدرجة أن طلائعه المتقدمة أمكنها رؤيتهم بوضوح وسماعهم ينادون بعضهم بعضاً بالاسم، ويحدثون ضوضاء كبيرة، لكن بالنسبة للإنجليز، فقد كانت الضوضاء قليلة، حتى إن الإنسان نادراً ما يسمعهم يتلفظون بكلمة، أو يتحدثون معاً.

عندما رأى الفرنسيون ملك إنجلترا يقيم معسكره في «ميزونسيل»، وأنهم لن يُحاربوا ذلك اليوم، صدر أمر من ملك فرنسا وقائد جيشه بأن ينام كل فرد في مكانه، في هذه اللحظة كان يمكنك رؤية الأعلام والرموز تلتف حول الحراب، والدروع تُخلع، والبغال والصناديق تُفرَّغ، وكل اللوردات يرسلون خدمهم

وسُعاتهم إلى القرى المجاورة للبحث عن بعض القش أو الحشيات لتوضع تحتهم، فلربما ينامون في نفس المكان حيث يقفون، وحيث امتلأ المكان بالحفر تحت أرجل الخيل الداعسة، ولم تتوقف الأمطار تقريباً طوال الليل، وهناك استمرت ضجة عظيمة من مساعدي الفرسان، والسائسين[1] وجميع أنواع البشر لدرجة أن الإنجليز ـ كما يقال ـ يمكنهم أن يسمعوهم بوضوح، لكن أولئك الذين بجوارهم لم يُسمعوا، لأن كل ما تجده ـ خلال الليل، راهباً يستمع لاعترافاتهم أو الرجال يحكمون رباط دروعهم، ويلمعون رقائقها المعدنية، ويفعلون كل ما هو من شأنهم. وضاربو الأقواس، يفحصون أقواسهم وحبالها، وما هو ضروري لهم.

عند الصباح الباكر، بدأ ملك إنجلترا يسمع أصوات نفير الجمع إذ كان من عادته أن يسمعه ثلاث مرات كل يوم، الواحدة تلو الأخرى، ووضع جميع قِطَع درعه عدا غطاء رأسه، لكن بعد انتهاء صيحات الجمع، ارتدى خوذته، التي كانت رائعة جداً، وحولها تاج أنيق من الذهب مثل التاج الملكي، حينئذ وحينما أصبح معداً تماماً، امتطى حصاناً صغيراً رمادياً بدون مهمازين، وبدون نفير أو آلة تعلن ذلك، قاد فرقته بهدوء من مقرها الليلي.

وهناك فوق حقل بديع من القمح الصغير، رتب قواته، ولحراسة أمتعته وأمتعة رجاله، عين أحد السادة ومعه عشرة من حاملي الحراب وعشرين من ضاربي الأقواس، مع مساعدي الفرسان الذين كانوا من أصول نبيلة، وبعض المرضى الذين لا تُرجى مساعدتهم، وشكل كل رجاله في كتلة واحدة، مُجمعاً إياهم بقدر ما يمكن من التقارب: مشاته في الوسط، وحملة أعلامه متقاربين بشكل جميل، وعلى جانبي المشاة، وضع ضاربي الأقواس، وكان هناك حوالى 10,000 مقاتل جيد في مجموعهم، وللحديث عن أعلام ملك إنجلترا، كانت هناك خمسة حول شخصه، وهم، علم «ترينين»، وعلم «أورلادي» وعلم «سانت

(1) Groom سائس الخيل والجمع سائسون وسيّاس. «المترجم».

جورج» وعلم «سانت إدوارد»، وعلم قواته الشخصية، ثم بعد ذلك تأتي بقية الأعلام، وهي بالتحديد: دوق جلوشستر، دوق يورك، إيرل أوف مارش، إيرل أوف هنتنجدون، وإيرل أوف أوكسفورد، وإيرل أوف «كنت»، ولوردات دورروس وآخرون.

وبتنظيم هذه الأمور، تفقد الملك الصفوف ليرى ما ينقص في عمل قواته، وأثناء مروره، ألقى كلمات رقيقة في كل مكان، محرضاً لهم وراجياً منهم أن يبذلوا جهدهم قائلاً أنه أتى فرنسا لاسترداد إرثه بالحق، وأن له مبرراً قوياً وعادلاً لما يفعل، وأضاف على ذلك قائلاً أنه يمكنهم القتال بأمان وبقلب متحرر في هذا العراك، وأن عليهم أن يتذكروا أنهم أبناء مملكة إنجلترا حيث نشأوا، وحيث يعيش أباؤهم وأمهاتهم، وزوجاتهم وأطفالهم، الذين من أجلهم، أصبح عليهم أن يجاهدوا بأنفسهم، حتى يعودوا إلى هناك بالفرح والبرهان العظيم، وأراهم - بالإضافة لذلك - كيف أن أجداده ملوك إنجلترا قد فازوا بانتصارات رائعة على الفرنسيين، وسببوا لهم هزائم منكرة، ورجاهم أن كل واحد سيساهم اليوم في حماية نفسه وحماية تاج إنجلترا ومعه شرف المملكة، وشرح لهم أكثر من ذلك، كيف كان الفرنسيون يزعمون بأنهم سوف يقطعون ثلاثة أصابع من اليد اليمنى لكل قواس من الذين سيؤسرون حتى لا يقتل رجلاً ولا حصاناً مرة أخرى بسهامه، بمثل هذه التحريضات وغيرها مما لا يمكن حصره كتابة، تكلم ملك إنجلترا مع رجاله.

والآن سوف نتكلم عن حالة الفرنسيين الذين - كما سبق القول - رقدوا ليلة الثلاثاء على الحقل بين «أجينكور» و «ترامكور». ذات المكان الذي أتموا استعداداتهم وتنظيماتهم عليه في صباح اليوم التالي، وذلك لقتال ملك إنجلترا وقواته، في نفس اليوم، إذ إنهم يوم الثلاثاء قد اختاروا تلك البقعة حيث هجعوا وذلك كي يمكن قتال الإنجليز هناك، لو أنهم حاولوا المرور فيه، لأن ذلك كان الطريق المباشر المؤدي إلى «كاليه» أمامهم.

وتحت ظل العلم الملكي لقائد الجيش ألحق اللوردات العظام أعلامهم

المجتمعة برضى، نذكر منهم، مارشالات وأدميرالات وضباط ملكيين آخرين، وفي هذه الليلة، أوقد الفرنسيون نيراناً ضخمة حول العلم الذي سيحاربون تحت لوائه، وكان الفرنسيون 50,000 على الأقل مع عدد كبير من العربات والأمتعة، والسلاح، وكل العتاد المطلوب في هذا الشأن، ولديهم آلات موسيقية قليلة، وأثناء الليل لا يكاد يسمع الإنسان صهيل الخيل وسط الجموع، وأنا مؤلف هذا العمل، أعلم الحقيقة حول ذلك، لأني كنت وسط هذا الجمع، مع الجانب الفرنسي..

وحينئذ في صباح اليوم التالي، الموافق الجمعة، عيد القديس كريسبين الخامس والعشرين من أكتوبر عام 1415 افرنجي، قام قائد الجيش وضباط ملك فرنسا الآخرون، دوق أورليانز، ودوق بوربون، ودوق بار، ودوق أليـنسـون، والكونتات أوف أُي، وريشمون، وڤوندوم ومارل وڤيرمون وبلامون، وسالين، وجرامبريه، وروس، ودامب مارتان، وعموماً كل النبلاء الآخرين والمقاتلين، قاموا بتسليح أنفسهم وغادروا مضاجعهم، ثم أصدر قائد الجيش ومارشالات ملك فرنسا الأمر بتشكيل ثلاث فرق.

وعندما تشكلت القوات الفرنسية في ثلاث فرق، كان عظيماً أن تراهم، وبقدر ما يستطيع الإنسان أن يحكم بمجرد النظر، فقد كانوا يصلون لستة أضعاف الإنجليز عدداً، وعندما تم ذلك، جلس الفرنسيون في جماعات حول أعلامهم ينتظرون قدوم الإنجليز، متصافين فيما بينهم، وقد نحوا جانباً الكراهية التي حملوها لبعضهم منذ فترة طويلة، فالبعض قَبَّلَ وتعانق مع البعض الآخر، وكان ذلك شديد التأثير في نفس المشاهد، حتى إن كل الخلافات والعراك التي قامت بينهم في الماضي تحولت إلى حب كامل وعظيم، وكان هناك بعضهم ممن تناولوا الفطور معاً على ما يملكون.

وبقي الفرنسيون هكذا حتى الساعة التاسعة أو العاشرة من الصباح متأكدين تماماً ـ بالنظر إلى قواتهم العظيمة ـ أن الإنجليز لن يمكنهم النجاة منهم، وعلى أية حال كان هناك بعض من الحكماء الذين كانوا يخشون بشدة القتال معهم في

معركة مفتوحة، ومن بين الترتيبات التي أعدها الفرنسيون ـ كما سمعت وقتها رواية بواسطة الفرسان المميزين ـ أنه حدث تحت علم اللورد أوف كروي أن ثمانية عشر نبيلاً ترابطوا معاً باختيارهم وأقسموا إذا ما التقى الجمعان فسوف يناضلون بكل قوتهم للاقتراب من ملك إنجلترا حتى يتمكنوا من إسقاط التاج الملكي من فوق رأسه وإلاّ فليموتوا، كما حدث فيما بعد. لكن قبل ذلك اقتربوا كثيراً من الملك المذكور إلى درجة أن واحداً ضرب بالحربة التي يحملها الملك على خوذته، فأسقط جزءاً من زخارفها لكن لم يمر وقت طويل بعد ذلك إلاّ وأصبح النبلاء الثمانية عشر جميعهم موتى وأشلاء. وكانت تلك خسارة كبيرة، إذ لو كان كل واحد من الفرنسيين شديد الرغبة هكذا في بذل نفسه، لكانت أمورهم ستجري بصورة أفضل في ذلك اليوم. وكان قادة هؤلاء النبلاء كل من «لوڤليه دو ماسينج هم» «جارنو ـ دو ـ بورنوي».

نظم الفرنسيون فرقهم بين غابتين صغيرتين تقع الأولى قريبة من أجينكور والأخرى من ترامكور. كما أن المكان كان ضيقاً، وفي صالح الإنجليز وكان على العكس مدمراً للفرنسيين لأن هؤلاء ظلوا طوال الليل على ظهور جيادهم كما كانت السماء تمطر، كما أن مساعي الفرسان وسُيّاس الخيل وآخرين قد أفسدوا الأرض بمرور الخيل المستمر فوقها، فأصبحت شديدة الليونة لدرجة أن الخيول كانت تخطو بصعوبة في التربة. كما أن الفرنسيين أيضاً كانوا محملين بالدروع لدرجة أنهم لم يستطيعوا دفع أنفسهم أو التقدم للأمام، فأولاً كانوا مسلحين بمعاطف من الصلب تصل إلى رُكَبهم أو أبعد، وهي ثقيلة جداً على حركة القدم، وفوق ذلك كانوا يضعون درعاً معدنياً، كما أن أغلبهم يرتدي خوذات حيث أدى ثقل هذا الدرع مع نعومة الأرض المبللة «كما سبق ذكره» إلى بقائهم بلا حراك. لدرجة أنهم استطاعوا أن يرفعوا حرابهم بصعوبة عظيمة، وبكل هذه الأخطاء كان هناك أيضاً أن أغلبهم كانوا يعانون الجوع والحاجة إلى النوم، وكان هناك عددٌ كبير من الأعلام وقد صدرت الأوامر بأن يُطوى بعضها. كما استقر بين الفرنسيين أن يقوم كل واحد بتقصير حربته كي تكون أكثر صلابة في القتال المتلاحم. وقد

كان لديهم ضاربو أقواس ومقاليع بما فيه الكفاية، لكنهم لم يسمحوا لهم بالإطلاق لأن السهل كان ضيقاً ولا يوجد فراغ إلاّ للمشاة المقاتلين.

والآن لنعد إلى الإنجليز. فبعد أن انتهت المفاوضات بين الجيشين وعاد المفاوضون كل إلى قومه، عيَّن ملك إنجلترا فارساً يسمى «توماس إيربن جهام» كي يضع قوَّاسيه في المقدمة على الجناحين موكلاً المهمة إليه بثقة، وكي يؤديها السير توماس من جانبه، حرض كل واحد على أن يبذل جهده باسم الملك متوسلاً إليهم أن يحاربوا الفرنسيين بشجاعة ليؤمنوا حياتهم وينقذوها وهكذا قام الفارس الذي قاد حصانه مع اثنين آخرين فقط في مقدمة الفرقة مدركاً أن الساعة قد أزفت وأن كل شيء قد رُتب جيداً، فألقى عصاته التي كان يحملها بين يديه عالياً وقال «اضربوا الآن» التي كانت علامة القتال: ثم هبط عن حصانه ولحق بالملك الذي كان يسير على قدميه وسط رجاله وأمامه حامل العلم، وما إن رأى الإنجليز هذه الإشارة حتى بدأوا السير فجأة مطلقين صرخة عالية، أفزعت الفرنسيين بشدة. ولما رأى الإنجليز أن الفرنسيين لم يقتربوا منهم اندفعوا بقوة نحوهم في نظام بديع وأطلقوا صرخة أخرى حين وقفوا لالتقاط الأنفاس.

حين رأى القواسون الإنجليز الذين - كما ذكرت كانوا على الجناحين - أنهم صاروا قريبين بدرجة كافية بدأوا في إطلاق سهامهم على الفرنسيين بغزارة شديدة. وكان القواسون المذكورون ومعظمهم في أرديتهم الخفيفة بدون دروع وجواربهم ملفوفة حتى رُكَبهم، ومعهم بلطاتهم وفؤوس القتال أو سيوف كبيرة تتدلى من أحزمتهم، بعضهم كان حافي القدمين وعاري الرأس والبعض الآخر يضع غطاء رأس الجلد المدبوغ وبعضها من خشب الشجر المغطّى بالجلد.

عند ذلك، وما إن رأى الفرنسيون الإنجليز قادمين نحوهم بهذا الشكل حتى رتبوا أنفسهم في التشكيل، كل تحت علمه وخوذاتهم على رؤوسهم وحرض قائد الجيش والمارشال والأدميرالات وبقية الأمراء رجالهم بإلحاح على محاربة الإنجليز بشجاعة وقوة، وعندما اقتربا ارتفعت أصوات النفير والبوق في كل مكان، لكن الفرنسيون بدأوا في إخفاء رؤوسهم خاصة هؤلاء الذين ليس لديهم

دروع أمام كثافة السهام الإنجليزية التي سقطت بغزارة لدرجة لا يجرؤ معها أحدٌ على الانكشاف أو التطلع وهكذا تقدموا للأمام قليلاً ثم قاموا بانسحاب بسيط، لكن قبل أن يقتربوا من مواقعهم، كان كثير من الفرنسيين عاجزاً ومصاباً بالسهام، وعندما أصبحوا يواجهون الإنجليز تماماً، كانوا ـ كما سبق أن ذكرت ـ متضاغطين عن قرب الواحد تلو الآخر، حتى إن أحداً منهم لم يستطع رفع ذراعيه ليضرب العدو، إلاّ الذين كانوا في المقدمة، إذ اخترقتهم حرابهم التي سبق أن قصروها لتكون أكثر صلابة، وليكونوا أكثر قرباً من عدوهم.

أعد الفرنسيون خطة ـ سوف أصفها ـ وهي أن قائد الجيش ومعه المارشال قد اختارا حوالى من ألف إلى ألف ومائتين من المقاتلين المشاة، كان على جزء منهم أن يذهب من جانب أجينكور، وعلى الجزء الآخر أن يذهب من جانب ترامكور، كي يقوّضا قوة القواسين الإنجليز على الجناحين، لكن عند اقترابهم من المواقع، لم يكن هناك سوى ست مجموعات باقية من فرقة السير كلونيه دو باربان الذي كان مسؤولاً عن العمليات على جانب ترامكور، والسير ويليام دو سافو ـ الذي كان فارساً شجاعاً ـ مسؤولاً عن جانب أجينكور، ومعه حوالى ثلاثمائة محارب، ومعه اثنان فقط، تقدم أمام الجميع، الذين تبعوه كلهم، واشتبكوا مع الإنجليز القواسين، الذين ثبتوا أمامهم عصيّاً كالأعمدة، لكن الفرنسيين لم يثبتوا على مثل هذه الأرض الرخوة، وهكذا، كثف السير ويليام ورفيقاه هجومهم بشجاعة، لكن جيادهم تعثرت بين العصى وسرعان ما قتلهم القواسون، وكانت خسارة كبيرة أيضاً وهرب معظم الباقين من الخوف، وتراجعوا نحو مقدمتهم، فأصبحوا أمامهم عائقاً كبيراً، وفتحوا صفوفهم في أماكن متعددة، وجعلوهم يرتدون للخلف ويفقدون بضعة أقدام من أرض اكتسبوها منذ لحظة، ولأن جيادهم مجروحة بالسهام بكثرة لدرجة أن الرجال فقدوا السيطرة عليها. وهكذا، لهذه الأسباب أساساً وبهذه المغامرة أيضاً، وقعت مقدمة الفرنسيين في الفوضى، وبدأ المشاة يتساقطون بلا عدد، وخيولهم ما إن تشعر بالسهام تنهال عليها حتى تهرب أمام العدو، ويتبعهم العديد من الفرنسيين وقد استداروا وبادروا بالهروب، وبعد قليل

عندما رأى القواسون مقدمة الجيش الفرنسي تترنح، خرجوا من خلف أعمدتهم وألقوا بأقواسهم ونبالهم، ثم أخذوا سيوفهم، وبلطاتهم، ومطارقهم وفؤوسهم، ومناقير الصقور(1) وأسلحة أخرى واندفعوا نحو الأماكن التي رأوا فيها هؤلاء المنكسرين وضربوهم وقتلوا هؤلاء الفرنسيين بلا رحمة، ولم يتوقفوا عن القتل حتى قهروا تلك المقدمة المذكورة التي حاربت قليلاً أو لم تحارب على الإطلاق.

أما هؤلاء فظلوا يضربون يميناً ويساراً حتى أتوا عند الفرقة الثانية، التي كانت خلف الحرس المتقدم، وهناك ألقى الملك شخصياً بنفسه في أتون القتال ومعه مشاته، وهناك أيضاً جاء فجأة الدوق أنتوني أوف باربان الذي استدعاه ملك فرنسا، وكان متعجلاً خوفاً من التأخير لدرجة أن شعبه لم يستطع اللحاق به، لأنه ما كان لينتظرهم، لكنه أخذ علماً من نافخي بوقه، وصنع فتحة في وسط قماشه، وارتداه كالدرع، لكنه سرعان ما قتله الإنجليز.

ثم تجدد القتال، مع مذبحة عظيمة للفرنسيين الذين أبدوا دفاعاً قليلاً، إذ بسبب الفرسان الذين سبق ذكرهم، تحطم تشكيل قتالهم، ثم توغل الإنجليز بينهم أكثر وأكثر، وقد دمروا الفرقتين الأوليين في أماكن عديدة، طارحينهم أرضاً، وذابحينهم بقسوة وبلا رحمة، لكن بعضهم نهض من جديد بمساعدة سائسي خيولهم، الذين اقتادوهم خارج الملحمة، لأن الإنجليز الذين عقدوا العزم على القتل والأسر، لم يتتبعوا أي هارب. وعندئذ، حين رأى رجال المؤخرة - وهم ما زالوا على ظهور خيولهم - حالة الفرقتين الأوليين، استداروا وهربوا، عدا بعض الرؤساء والقادة من وسط هؤلاء الفارين، ويجب أن نذكر أنه بينما كانت الفرقة في تراجع، أخذ الإنجليز بعض الفرنسيين من ذوي المراكز أسرى.

وجاءت الأخبار إلى ملك إنجلترا بأن الفرنسيين يهاجمون رجاله في المؤخرة وبأنهم قد استولوا بالفعل على حيوانات النقل وباقي الأمتعة، تلك الهجمة قادها

---

(1) منقار الصقر. Falcon - beak. سلاح من السلاسل المعدنية بأطراف مدببة تشبه مناقير الصقور يستخدم في القتال المتلاحم قديماً، «المترجم».

فارس اسمه روبرت دو بورنوي ومعه ريفلار دو بلاماس، ويزمبار وأجينكور، وبعض المقاتلين المشاة المصحوبين بحوالى ستمائة فلاح، خطفوا الأمتعة المذكورة وعدداً كبيراً من الجياد الإنجليزية أثناء انشغال حراسها في القتال.

واضطرب الملك كثيراً لهذه السرقة، إلاّ أنه لم يتوقف عن القتال حتى يواصل انتصاره، وأخذ رجاله العديد من الأسرى ذوي القيمة، توقعوا أن يصبحوا أثرياء بواسطتهم ولم يأخذوا منهم سوى خوذة القتال، في الوقت الذي خشي فيه الإنجليز أن توقع بهم تلك القلة الباقية في مغامرة خطيرة، لأن تجمعاً كبيراً من جند المؤخرة ومجموعة الوسط من الفرنسيين التي كانت تشمل عديداً من البرايتون، والجاسكون والبواتفان[1] التفت حول بعض العلامات والرموز، وعادت في نظام جيد، وتقدمت بشجاعة ضد غزاة الميدان.

فلمّا رآهم الملك قادمين هكذا، أمر بالإعلان أن كل من لديه أسير عليه أن يقتله في الحال، ولم يرغب أولئك في تنفيذ الأمر، إذ كانوا ينتظرون مزية كبيرة منهم، لكن عندما تم إعلام الملك بذلك، عيّن أحد السادة مع مائتي قوّاس، أمرهم أن يمروا عبر الجيش ويقتلون كل الأسرى مهما كان مركز الأسير، ونفذ هذا الفارس دون تأخير أو اعتراض أوامر مليكه، مما كان شيئاً مؤسفاً جداً، إذ قُطعت رؤوس كل النبلاء الفرنسيين وقُطعوا إلى أشلاء بلا إنسانية وبمنتهى البرودة، وكل ما بقي من الصحبة الملعونة، مجموعة مؤسفة - إذا ما قارناها بالنبلاء الفرسان المأسورين - الذي ما إن رأوا الإنجليز قد استعدوا لملاقاتهم حتى استداروا جميعهم وهربوا، كل فاراً بحياته، وكثير من الفرسان هربوا، لكن هؤلاء السائرين على أقدامهم، مات منهم الكثير.

وعندما رأى ملك إنجلترا أنه أصبح سيد الميدان، وقد فاز بالنصر على عدوه، شكر بتواضع الرب مانح النصر، وأصبح له مبرر قوي، لأن من بين رجاله هناك، مات في المكان 1600 رجل من جميع الرتب، ومن بينهم دوق أوف

(1) أعراق فرنسية، «المترجم».

يورك، عمه الكبير، الذي تأسف عليه كثيراً، ثم جمع الملك في المكان بعضاً من أكثر المقربين إليه، وسأل عن اسم قلعة يرون أنها الأقرب للمكان، فأجابوه، «أجنيكور» فقال «حسناً إذن، إن نصرنا هذا سيحمل للأبد اسم أجنيكور، إذ كل موقعة يجب أن تسمى باسم القلعة القريبة للمكان الذي وقعت فيه».

وعندما مكث الملك وجيشه هناك فترة كافية، منتظرين في وسط الميدان، ويحرسون شرف النصر، أكثر من أربع ساعات، لم يظهر أحد فرنسياً كان أم غيره ليسبب لهم أي أذىً، ولأن السماء كانت تمطر والمساء بدأ يزحف، عاد إلى مرابط ميزونسيل، وشَغَلَ القواسون الإنجليز أنفسهم في تقليب الموتى حيث وجدوا تحتهم بعض الأحياء ذوي المكان فأسروهم، وكان منهم الدوق أوف أورليانز، وحملوا دروع الموتى على خيل النقل إلى مرابطهم، ووجدوا في ميدان المعركة دوق أوف يورك وإيرل أوف أوكسفورد، فحملوا جثتيهما إلى المعسكر، وإجمالاً لم يسبب الفرنسيون خسائر كبيرة للإنجليز فيما عدا هذين الاثنين.

وفي المساء، عندما علم ملك إنجلترا أن هناك أمتعة كثيرة تتراكم في أماكن التخزين، أمر بالإعلان في كل مكان وبصحبة صوت النفير بألاّ يرتدي أي إنسان من الدروع أكثر مما هو ضروري لحماية جسمه، إذ لم ينأوا كلية بعد عن خطر ملك فرنسا، وفي تلك الليلة وضعت جثتا الأميرين الإنجليزيين ـ دوق أوف يورك وإيرل أوف أوكسفورد في الماء المغلي لفصل العظام وإرسالها إلى إنجلترا، وما إن تم هذا، حتى أمر الملك بأن تُجمع كل الدروع التي تزيد عما يرتديه رجاله والتي فوق أجساد الموتى في جرن كبير وتحرق، وتم ذلك وفقاً لما أمر به الملك.

في اليوم التالي ـ السبت ـ خرج ملك إنجلترا وكل جيشه من ميزونسيل ومروا عبر أرض المذبحة، حيث قتلوا كل الفرنسيين الذين ما زالوا أحياءً، عدا بعضاً أخذوهم أسرى، ووقف الملك هنري هناك، متطلعاً للحالة المؤسفة لهذه الأجساد الميتة، التي أضحت عارية تماماً، إذ أثناء الليل قام الإنجليز والفلاحون بنهبها معاً.

صيادو الأسماك النرويجيون

« 1432 افرنجي»

* كريستوفورو فيوراڤانتي

«غرقت سفينة كريستوفورو فيوراڤانتي على ساحل النرويج عام 1432 افرنجي وقام ومعه أحد الناجين واسمه نيكولو دوميشيل بكتابه هذا العمل حول مغامرته».

في هذه الجزيرة، كان هناك اثنا عشر منزلاً يقيم فيها حوالى مائة وعشرين شخصاً، أغلبهم من الصيادين، وقد برعوا بحكم الطبيعة في فهم ومعرفة عمل القوارب والجرادل الخشبية وبراميل الخمر والسلال والشباك من كل الأنواع وكل ما هو ضروري، لاستعمالاتهم وتجارتهم، وكانوا ودودين الواحد تجاه الآخر وخدومين، ويرغبون في إسعادك حباً لا أملاً في هدية أو عائد يرجونه مرة أخرى.

والأسماك تسمى «سمك الصيد»، تستخدم في جميع مدفوعاتهم ومقايضاتهم بدلاً من النقود المسكوكة، وهي جميعاً تبدو في أحجام ومقاييس واحدة، ومنها يقومون كل عام بتجفيف عدد محدد في الريح، وفي وقت الربيع، يشحنون هذه الأسماك، ويحملونها عبر مملكة الدنمارك أي، السويد، والدنمارك، والنرويج، التي تخضع كلها لملك داسيا، حيث يقايضون ويبادلون السمك المذكور مقابل الجلد والقماش والحديد وحبوب البقل والأشياء الأخرى، التي تندر عندهم.

وسكان هذه البلاد كبارهم وصغارهم ذوو قلوب بسيطة، ومطيعون لأوامر الله، فهم لا يفهمون ولا يعرفون لا الزنا ولا الوطء المحرم[1] لكنهم يقيمون الزواج وفقاً لتعليمات الله، ولكي نضرب مثالاً حقيقياً لذلك، أنا ـ كريستوفورو ـ أقول: إننا كنا في منزل مضيفنا، ونمنا في نفس الكوخ حيث نام هو أيضاً وزوجته ويتلوهما في فراش ملاصق لهما بناتهما وأبناؤهما وهم في عمر ناضج، وبالقرب من هذا الفراش، نمنا نحن أيضاً، نكاد نلتصق بهم تقريباً، حتى إننا عندما ننام أو

(1) يفرق الغرب بين الجماع بين المتزوجين في الحرام وبين غير المتزوجين أصلاً فالأول زنا Adultery والثاني وطئاً Fornication، «المترجم».

نصحو أو نخلع ملابسنا، كنا نرى بعضنا بعضاً بلا تفرقة، وبهذه البراءة، كما لو كنا أطفالاً، وسأذكر لكم أكثر من ذلك، أنه ولمدة يومين معاً كان مضيفنا المذكور ومعه أولاده الكبار ينهضون للصيد، حتى في أمتع ساعات النوم، تاركاً امرأته وبناته في الفراش، بهذه الطمأنينة والبراءة كما لو كان يتركهم بين ذراعي وحضن أمهم، ولا يعود لبيته في أقل من ثماني ساعات.

وفي بداية الربيع، لاحظنا اختلافات وتغيرات كبيرة، أولاً، كانت النساء معتادة على الذهاب إلى الحمامات، التي كانت قريبة ومعدة جيداً، من أجل التطهر ومن أجل التقاليد التي يراعينها ويُقمنها متماشية مع الطبيعة، فقد اعتدن الخروج من منازلهن عاريات تماماً، كيوم ولدتهن أمهاتهن، ذاهبات دونما اعتبار للطريق، ويحملن في أيديهن اليمنى كومة من الحشائش فقط، على شكل مكنسة، وذلك كما قلن، لمسح العرق من على ظهورهن، واليد اليسرى يضعنها على مؤخراتهن، وينشرنها كما لو كان ذلك للظل، لتغطية أعضائهن الخلفية، التي لا يجب أن تظهر كثيراً.

وحيث رأيناهن مرتين، مررنا بجوارهن ببساطة كقومهن، وكانت البلد باردة جداً والرؤية المستمرة لهن، جعلتنا لا نُعيرهن اهتماماً، وعلى العكس فنفس هاته النسوة، كن يظهرن يوم الأحد وهن داخلات الكنيسة في ثياب طويلة وسابغة، لدرجة أنهن لا يرى منهن حتى الوجه، فهن يرتدين شيئاً يشبه غطاء الرأس ومعه «يَشْمَك»[1] به فتحة للنظر من خلالها، في نهايتها مثل فتحة المزمار، حيث لا يتمكنّ من الرؤية بأكثر مما يسمح به طول الفتحة ـ لدرجة أنه يبدو كما لو كان وُضع في فمهن لاستخدام الزمارة، والأسوأ من هذا أنهن لا يستطعن الرؤية ولا الكلام، ما لم يرجعن بأنفسهن مسافة ياردة أو أكثر من المستمع، واعتقدت أنه من الأفضل أن أذكر هذين المتغيرين الواضحين، حيث يستحقان الفهم.

(1) اليشمك، غطاء للوجه من قماش خفيف ذي ثقوب كانت ترتديه المرأة في العصور الوسطى في أوروبا وفي المشرق العربي، «المترجم».

العالم الجديد

«يناير/ أي النار - فبراير/ النوار 1502 افرنجي»

* أميريكو ڤسبوتشي

«في رحلته الثانية للعالم الجديد، وصل ڤسبوتشي إلى ساحل البرازيل، ورحل جنوباً حتى «ريو دي لابلاتا» التي كان أول أوروبي يكتشفها» . .

هذه الأرض مُبهجة جداً، مملوءة بأعداد لا حصر لها من الأشجار الطويلة التي لا تسقط أوراقها أبداً، وطوال العام تفوح بروائح زكية وتعطي نتاجاً لا نهاية له من الفواكه، الكثير منها حلوة المذاق، ومفيدة لصحة الجسم، وتثمر الحقول أعشاباً وزهوراً عديدة، وجذوراً كبيرة ولذيذة، وأحياناً ما كنت أعجب بشدة بالروائح الزكية للأعشاب والزهور والنكهة المميزة للفاكهة وللجذور حتى لأتخيّل نفسي قريباً من الجنة الأرضية، وماذا أقول عن مجموعات الطيور وريشها وألوانها وهي تغني، وأعدادها وجمالها، وأنا لا أرغب في التوسع في الوصف إذ أشك في أن يصدقني أحد . .

وماذا سأقول عن مجموعات الحيوانات المتوحشة، وفرةٌ من الأسد الأمريكي، والفهود، والقطط المتوحشة، غير الشبيهة بتلك التي في أسبانيا، ولكن من المنطقة المقابلة، والذئاب الكثيرة، والغزلان الحُمْر، والقرود وبعض حيوانات الفصيلة القطية، وقرود المارموسيت[1] من جميع الأنواع.

وعن الثعابين الضخمة العديدة؟، ولقد رأينا حيوانات أخرى كثيرة لدرجة لا أعتقد معها أن هذه الأنواع المتعددة استطاعت دخول سفينة نوح، وقد رأينا عديداً من الخنازير البرية، والماعز البري، والأيائل والرشا والأرانب لكن من الحيوانات المستأنسة لم نر واحداً.

والآن لنعُد للحيوانات العاقلة، لقد وجدنا الأرض كلها مسكونة بأناس عُراة تماماً، الرجال مثل النساء دون أية أستار على عوراتهم، وأجسامهم نشطة

---

(1) المارموسيت، قرد استوائي صغير بذيل كثيف ينتشر في غابات أمريكا الجنوبية «المترجم».

ومتناسقة، من لون خفيف، وبشعور طويلة، ولحية صغيرة أو بلا لحية، وقد بذلت جهداً عظيماً لفهم سلوكهم وعاداتهم، إذ أكلت ونمت بينهم طوال سبعة وعشرين يوماً وما علمته عنهم هو كما يلي:

إنهم يعيشون وفقاً للطبيعة، ليس لهم قوانين، ولا عقيدة إيمانية، ولا يفهمون شيئاً عن خلود الروح، ولا توجد حيازة للملكية الخاصة بينهم، لأن كل شيء على المشاع، ولا توجد لديهم حدود لممالك أو مقاطعات، وليس لهم ملك، ولا يطيعون أحداً فكل إنسان سيد نفسه، ولا توجد إدارة للعدالة، إذ ليست ضرورية لهم، حيث في نظامهم لا أحد يحكم، ويعيشون في مساكن جماعية، بنيت بشكل حجرات واسعة جداً.

وبالنسبة لشعب ليس لديه حديد أو ـ بالفعل ـ أية معادن، فالإنسان يمكنه أن يدعو منازلهم «المنازل العجيبة»، لأنني رأيت بيوتاً طولها مائتان وعشرون خطوة وثلاثون خطوة للعرض، مصنوعة بمهارة، وفي واحد من هذه البيوت يعيش خمسمائة أو ستمائة شخص، وينامون في شباك منسوجة من القطن، ويذهبون للنوم وسط الهواء بلا غطاء، وهم يأكلون جالسين القرفصاء على الأرض، وطعامهم جيد جداً، كمية كبيرة من السمك، ووفرة من الكريز المُر، والجمبري، والمحار، والاستاكوزا[1]، وسرطان البحر، وعديد من الأطعمة البحرية، واللحم الذي يأكلونه غالباً، عادة ما يمكن أن يدعوه المرء «لحماً بشرياً على الموضة»، عندما يحصلون عليه، فهم يأكلون لحوم الحيوانات والطيور، لكنهم لا يصيدون الكثير، إذ ليس لديهم كلاب، كما أن البلد عبارة عن غابة كثيفة ممتلئة بالحيوانات الشرسة، ولهذا السبب، فهم لا يجرؤون على اختراق الغابة إلاّ في مجموعة كبيرة.

وتوجد لدى الرجال عادة ثقب شفاههم، وخدودهم ويضعون في هذه الفتحات، حُليّاً من العظم أو الحجارة، ولا تعتقد أنها من القطع الصغيرة،

(1) Lobster. نوع ضخم من فصيلة الجمبري، يزيد عليه بوجود كلابتين أماميتين من بين أرجله العشرة، لذيذ عند السلق.

ومعظمهم له على الأقل ثلاث فتحات، وبعضهم سبع والبعض الآخر تسع، يضعون فيها قطعاً من الألباستر خضراء أو بيضاء، بنصف طول المسافة بين الرسغ والأصابع، وسميكة كالريشة الكاتالونية[1] وهذه العادة الهمجية لا يمكن وصفها، فهم يقولون إنهم يفعلون ذلك كي يبدون أكثر وحشية، وباختصار إنه عمل وحشي.

وزيجاتهم لا تتم مع امرأة واحدة فقط، لكنهم يترافقون مع من يهوون وبدون احتفالات كثيرة، وقد عرفت رجلاً لديه عشر نساء، وكان يغار عليهن، وإذا تصادف أن أخطأت واحدة منهن، يعاقبها ويطردها، وهم شعب وَلودٌ جداً وليس لديهم الإرث حيث لا يعرفون الملكية الخاصة، وعندما يصل أطفالهم ـ الإناث ـ إلى سن الإنجاب، فأول من يغري منهن واحدة، عليه أن يتصرف كوالدها بدلاً من أقرب أقربائها، وبعدما يعاملان هكذا، يتزوجان.

ونساؤهم لا يحتفلن بميلاد الأطفال، كما تفعل سيداتنا، لكنهن يأكلن جميع أنواع الأطعمة، ويغسلن أنفسهن عند كل ولادة، ونادراً ما يشعرن بآلام الميلاد.

وهم شعب مُعَمِّر جداً، فطبقاً لأسلوبهم في وصف الأمور، عرفوا رجالاً كثيرين لهم أربعة أجيال من الأحفاد، وهم لا يعرفون كيف يحصون الوقت بالأيام والشهور والسنين، لكنهم يتعرفون على الوقت بالشهور القمرية. وعندما يرغبون في الإشارة لشيء يشمل زمناً، يفعلون ذلك، بوضع الحصى، حصاة واحدة لكل شهر قمري ولقد وجدت رجلاً متقدماً في العمر، أشار لي بواسطة الحصى، أنه رأى ألفاً وسبعمائة شهراً قمرياً التي حسبتها فكانت مائة واثنتي وثلاثين سنة، باعتبار ثلاثة عشر قمراً لكل سنة.

وهم أيضاً أشبه برجال الحرب، وأشرار جداً بالنسبة لجنسهم، وكل أسلحتهم وأدواتهم التي يضربون بها هي ـ كما يقول بترارك ـ «تعتمد على الريح» فهم يستخدمون الأقواس والسهام والنبال، والأحجار، ولا يستخدمون دروعاً للجسم، لكنهم يدخلون المعركة عراة، وليست لهم تشكيلات في أعمال الحرب عدا أنهم يفعلون ما ينصحهم به الرجل العجوز.

(1) كاتالونيا ـ إقليم أسباني. «المترجم».

وعندما يحاربون، يذبحون بلا رحمة، والذين يبقون في ميدان المعركة يدفنون الموتى من جانبهم، لكنهم يقطعون ويأكلون أجسام عدوهم، وأولئك الذين يأخذونهم أسرى، يتخذونهم عبيداً في أعمال حياتهم اليومية، ولو ضاجعت النسوة أسيراً، وكان رجلاً فحلاً فهم يزوجونه بناتهم.

وفي أوقات معينة، عندما ينتابهم مس شيطاني من الجنون، يدعون أقاربهم وكل القبيلة ويضعون أمامهم «أماً» مع جميع أولادها، وبطقوس معنية يقتلونهم بالسهام ويأكلونهم، ويفعلون نفس الشيء للعبيد المذكورين سابقاً وبأولادهم الذين أنجبوهم، وهذا بالتأكيد، لأننا وجدنا في بيوتهم لحوماً بشرية معلقة للتجفيف، وكثيراً منها.

ولقد اشترينا منهم عشرة مخلوقات ـ ذكوراً وإناثاً ـ من الذين كانوا يعدونهم للتضحية، أو فلنقُلْ ـ الجريمة ـ، وكثيراً كما أثبتنا لهم، ولا أدري أنهم طوروا أنفسهم، إذ إن ذلك أدهشني جداً أمام حروبهم ووحشيتهم مما لم أتمكن من فهمه منهم، لماذا يشنون الحرب ضد بعضهم، باعتبار أن الملكية الخاصة لا يعرفونها ولا سيادة إمبراطورية أو مملكة ولا يعرفون أياً من هذه الأشياء التي تعد شراهة للامتلاك، إذ إن النهب أو الرغبة في الحكم تبدو لي هي السبب الحقيقي في الحروب وفي كل فعل مخالف للنظام، وعندما سألناهم أن يحددوا السبب، لم يعرفوا كيف يحددون سبباً آخر غير أن هذه اللعنة التي حلت بهم بدأت في العصور القديمة وهم بحثوا عن الانتقام لمقتل أجدادهم الأولين.

السلَمَنـدر[1]

«1505 افرنجي»

*** بنفينوتو سيلليني**

عندما كنت في الخامسة من عمري، حدث أن كان أبي في الغرفة السفلية في

(1) السلمندر: حيوان أسطوري يشبه السحلية يفترض فيه أن يعيش في النار، «المترجم».

منزلنا، حيث كانوا يغسلون، وحيث توجد نار جيدة من كتل خشب البلوط تظل مشتعلة، وكان معه آلة كمان يلعب عليها ويغني بمفرده بجوار النار، وكان الطقس شديد البرد، وتصادف أن نظر إلى النار، واكتشف في وسط ألسنة النار الشديدة الالتهاب حيواناً صغيراً يشبه السحلية، كان يتربض في القلب الملتهب للفحم، وما أدرك كُنه ذلك الشيء، حتى دعاني أنا وأختي، وأشار إليه وحدده لنا نحن الأطفال، ثم كال لي لكمة عنيفة على أُذني، جعلتني أصرخ وأبكي بكل ما أوتيت من قوة، ثم قام بتهدئتي بأسلوب لطيف وتحدث كما يلي:

«ابني الصغير الحبيب، أنا لا أضربك لخطأ ارتكبته، وإنما لأجعلك تتذكر، أن السحلية التي تراها في النار هي السلمندر، مخلوق لم يره أحدٌ من قبل ممن تكون لدينا عنه معلومات موثوقة»، هكذا قال، ثم قبلني وأعطاني بضع قطع من النقود.

فظائع الأسبان في جزر الهند الغربية

«1513 ـ 1520 افرنجي»

* بارتولومية دو لاس كاساس

«لاس كاساس، الذي أصبح مبعوثاً دومينكانياً، كان أول أوروبي يعاني اضطهاد الأجناس الوطنية في أمريكا اللاتينية، لقد تمزقت نفسه عند غزو كوبا 1513 افرنجي».

بدأ الأسبان بخيولهم وحرابهم ورماحهم يرتكبون أعمال القتل والشرور الغريبة، وقد دخلوا المدن والضواحي والقرى ولم يتركوا أطفالاً ولا شيوخاً ولا نسوة بأطفالهن ولا الراقدين وإنما أعملوا سيوفهم في بطونهم، وقطعوهم إرباً كما لو كانوا مجموعة من الحملان حُبست في حظيرتها، ورصوا العمال بطريقة إذا ما ضربوهم بها ضربة سيف واحدة تخترق معدة أو بطن الرجل الذي في المنتصف. أو بضربةٍ واحدة من سيف تكون معدة وجيدة، تقطع رأسه، أو ربما تخترق أحشاءه بضربة واحدة.

وقد أخذوا الأرواح الصغيرة[1] من كعوبها، واختطفوهم من بين أثداء أمهاتهم، وحطموا رؤوسهم فوق الصخور، وألقوا ببعضهم إلى الأنهار، ضاحكين وساخرين، وعندما سقطوا في المياه، قالوا، الآن استبدلوا بأنفسكم، جسداً واحداً، كما وضعوا آخرين مع أمهاتهم ومع كل من قابلوهم، على نصل السيف.

وقد أقاموا مشانق معينة طويلة أو منخفضة، بطريقة تجعل المشنوق تكاد قدماه تلامسان الأرض، وكل مشنقة تكفي ثلاثة عشر شخصاً، على شرف وعبادة مخلصنا[2] وحوارييه الاثني عشر، ـ كما اعتادوا أن يتحدثوا ـ. وكانوا وهم جالسون حول النار، يحرقون كل المقيدين بسرعة، وبالنسبة لكل الآخرين الذين اعتادوا أن يأخذونهم ويبقونهم أحياءً، فقد قطعوا يدي كل منهم ـ قطعاً غير كامل ـ وتركوهما معلقتين، ويقولون: «نرسلكم بهذه الرسائل، لتحملوا الأخبار إلى هؤلاء الذين هربوا إلى الجبال».

وقد قتلوا اللوردات والنبلاء عموماً بالأساليب التالية: يقومون بعمل أفران من القضبان موضوعة على شوكات معدنية ويوقدون ناراً صغيرة تحتها بغرض أن يجعلوا من يضعونه منهم بداخلها شيئاً فشيئاً يصرخ وينهار وسط هذا العذاب، حتى يسلموا الروح.

ذات مرة، رأيت أربعة أو خمسة لوردات كبار يُشْوَوْن ويُطْهَوْن فوق هذه الأفران. وأعتقد أنه كان هناك فُرنان أو ثلاثة أفران، مزينة بما يشبه الأثاث، حتى كانوا يصرخون طالبين الرحمة، الشيء الذي أزعج قائدهم فلم يستطع النوم فأمر بخنقهم، وضابط الصف الذي كان أسوأ من ذلك الهانجمان[3] الذي أحرقهم، ـ وأعرف اسمه وأسماء أصدقائه في سيڤيل ـ لم يرغب في خنقهم، فقام بنفسه بوضع طلقات الرصاص في أفواههم حتى لا يصرخون، وتركهم للنيران حتى تم شواؤهم، وفقاً لرغبته، ولقد رأيت كل الأمور المذكورة سابقاً وأخرى لا حدود

(1) يقصد الأطفال.
(2) كانوا يسخرون من المسيح عليه السلام.
(3) يقصد القائد القاتل المذكور آنفاً، «المترجم».

لها، وحيث إن كثيراً من الناس ـ كلهم تقريباً ـ الذين استطاعوا الهرب ـ اختبأوا في الجبال، وارتقوْا قممها، هاربين من رجال، فاقدين الرجولة إلى هذا الحد، ومفتقرين إلى الرحمة، يعاملونهم كحيوانات متوحشة، أولئك السفاحون وأعداء البشرية المميتين، علموا كلابهم المتوحشة أن يمزقوهم إرباً بمجرد أن يروهم.

وفي المسافة التي ـ بالكاد ـ يقول فيها كلمات إيمانه بالمسيح، يكون قد هوجم بشراسة والتهموا ـ هذا الهندي ـ كما لو كان خنزيراً. وهذه الكلاب أحدثت دماراً كبيراً ومذابح، وكما كان يحدث أحياناً، بالرغم من أن ذلك نادر.

عندما كان الهنود يقتلون بعضاً من الأسبانيين على أساس حقهم الطبيعي والقانون المبني على العدالة، استنوا لنفسهم قانوناً فيما بينهم، أنه مقابل كل أسباني واحد يموت، عليهم أن يذبحوا مائة من الهنود.

ذات مرة جاء الهنود لمقابلتنا، ومن أجل ملاقاتنا بالمؤن، وبالتشجيع الرقيق، وبكل وسائل الترفيه، ومن مسافة تبعد عشرة ليجات[1] عن المدينة الكبيرة، وعند وصولهم للمكان، أهدونا كمية كبيرة من السمك والخبز واللحوم، وفوق ذلك كله فعلوا لنا ما في وسعهم، وانظروا الشيطان الذي لا يرضى، الذي وضع نفسه داخل الأسبانيين، إذ قتلوهم جميعاً في حضوري، بلا أدنى سبب، وفوق ذلك، أكثر من ثلاثة آلاف روح، كانت جالسة أمامنا، رجالاً ونساءً وأطفالاً. رأيت شروراً عظيمة لم ير ولن يرى مثلها إنسان أبداً على قيد الحياة!!.

وفي وقت آخر، لكن بعد أيام قليلة من التمهيد لذلك، أرسلت رُسلي إلى كل لوردات مقاطعة هافانا، مؤكداً لهم أن لا حاجة بهم للخوف ـ إذ سمعوا بصدق كلمتي ـ وأنهم دون سحب أنفسهم، عليهم أن يأتوا لملاقاتنا، وأن ما سيحدث هناك لن يكون ضاراً، إذ إن كل البلاد كانت خائفة بسبب الجرائم والاغتيالات السابقة، وما فعلته أنا كان بناءً على نصيحة الكابتن نفسه، وبعد ذلك أتينا إلى المقاطعة وجاء واحد وعشرون لورداً وزعيماً هندياً لاستقبالنا، فقام

(1) الليج ثلاثة أميال ـ سبق التعرض له. «المترجم».

الكابتن بالقبض عليهم فوراً، محطماً سلوك الأمان الذي قدمته لهم، وانتوى أن يحرقهم أحياءً في اليوم التالي، قائلاً إنه كان مرغم على فعل ذلك وإلاّ قام هؤلاء اللوردات ـ ذات يوم ـ بفعل سيء يعود علينا.

وقد وجدت نفسي في اضطراب عظيم لإنقاذهم من النيران، حتى استطاعوا الهرب في النهاية وبعد ذلك عندما وجد الهنود في الجزيرة «كوبا» أنفسهم يساقون إلى العبودية وإلى الكوارث مثل أولئك في جزيرة أسبانيولا، ورأوا أنهم يموتون ويُفنون جميعاً بدون حل، بدأ بعضهم يهرب إلى الجبال، والآخرون وقد يئسوا تماماً، شنقوا أنفسهم، وهناك شنق أزواج مع زوجاتهم وقد شنقوا معهم أطفالهم الصغار.

ولوحشية أسباني واحد، كان طاغية جباراً، وهو واحد أعرفه، شنق أكثر من مائتي هندي أنفسهم هناك، وبهذا الأسلوب مات عدد لا محدود من البشر.

وكان هناك في هذه الجزيرة ضابط يمثل الملك، أعطوه ثلاثمائة هندي كنصيب له؛ مات منهم (خلال شهرين بواسطته أثناء الرحيل إلى المناجم)، مائتان وستون هندياً، وهكذا لم يبقى إلا ثلاثون، يمثلون العُشر، وفيما بعد أعطوه أكثر فأكثر، وهؤلاء أيضاً جعل منهم حطاماً ودماراً بنفس الطريقة، وما زال كلما أعطوه أكثر كلما ذبح أكثر، حتى مات وحمله الشيطان بعيداً.

في ثلاثة أو أربعة أشهر [كنت حاضرها بنفسي] مات أكثر من ستة آلاف طفل بسبب أنهم اختطفوا منهم آباءهم وأمهاتهم وأرسلوهم إلى المناجم.

الحمار الممثل

«القاهرة عام 1516 افرنجي»

*** جون ليو.**

«جون ليو ولد في غرناطة ـ أسبانيا ـ وتربى في المغرب، ورحل على مدى شمال إفريقيا وهو شاب».

كانت الضاحية تسمى باب اللوق، على مسافة من أسوار القاهرة تقدر بميل. وتعيش بها ثلاثة آلاف أسرة تقريباً، ويسكنها التجار والحرفيون من جميع الأنواع، ويقوم على مكان معين كبير من هذه الضاحية، قصر عظيم، وكلية فخمة، بناهما مملوك اسمه اليوزباشا، كان مستشاراً للسلطان في زمنه، وسُمي المكان نفسه باسمه «اليوزباشية».

هنا بعد انتهاء العبادات الدينية والاحتفالات الإسلامية، اعتاد عامة الناس في القاهرة مع القوادين والعاهرات أن يزوروا هذا المكان، وكثير من ممثلي المسرح أيضاً، مثل مدربي الجمال والحمير والكلاب على الرقص.

وهذا الرقص من الأشياء الممتعة جداً عند مشاهدتها، خاصة تلك التي يؤديها الحمار، الذي بعدما يقفز ويرقص برهة، يأتي إليه صاحبه ويخبره في صوت عالٍ «أن السلطان في سبيله لبناء قصر عظيم، يستخدم كل الحمير في القاهرة لحمل المونة»[1] والأحجار وبقية المواد المطلوبة، حينئذ يسقط الحمار على الأرض في الحال، ويرقد وأقدامه إلى أعلى، ويجعل بطنه منتفخاً، ويغلق عينيه، كما لو كان قد سقط ميتاً، في هذه الأثناء، ينعي صاحبه حظه السيء في فقد حماره أمام المشاهدين مناشداً بإلحاح مساعداتهم الودودة، وكرمهم نحوه كي يشتري حماراً جديداً.

وبعدما يجمع من كل شخص مبلغاً بقدر ما يستطيع، يقول: «لقد خُدعتم كثيراً أيها السادة إذ اعتقدتم أن حماري قد مات، لأنه، هذا الحمار الجوعان وهو يعلم بشدة عوز صاحبه، قد قام بهذه الخدعة، فلربما يحصل على بعض النقود لشراء الشعير له، ثم تحول نحو الحمار وأمره بالنهوض بسرعة، لكن الحمار بقي بلا حراك، رغم أنه أمره وضربه، وإن ليس كثيراً، وعلى ذلك استدار الرجل نحو الناس وهو يقول: «فليكن معلوماً للجميع، أن السلطان قد نشر وأعلن، أن في الغد الآتي سيذهب الناس جماعات من المدينة ليقيموا احتفالاً بالنصر، وأن جميع

(1) Mortar خلطة الأسمنت المعدة للاستخدام في البناء «المونة» «المترجم».

السيدات الجميلات والنبيلات والمهذبات سيركبن أكثر الحمير وسامة وسيقُمن بإعطائهم الشعير ليأكلونه، وماء النيل الصافي ليشربوه..

وما إن انتهت تلك الكلمات حتى قام الحمار من الأرض، يرقص ويقفز من الفرح، حينئذ استمر صاحبه في سرد ما يقول: «ولكن» شيخ حارتنا «استعار مني حماري الطيب لزوجته العجوز الشمطاء، كي تركبه». وعند هذه الكلمات، قام الحمار ـ كما لو كان لديه عقل بشري ـ بإرخاء أذنيه، وأخذ يعرج بأحد أقدامه، كما لو كان غير مسرور.

حينئذ قال سيده: «ماذا يا سيد حمار هل تحب السيدات الجميلات بشدة؟ فأومأ الحمار برأسه كما لو كان يقول، نعم، فقال صاحبه «فلنأت إذن يا سيد، ودعنا نَرى بين هؤلاء الفتيات الرائعات، أيهُنّ تَسرُّ خيالك أكثر». وعلى ذلك مر الحمار حول الواقفين، ولمح امرأة أكثر جاذبية جمالاً من الأُخريات، فسار نحوها مباشرة، ولمسها برأسه، فضحك المشاهدون وصاحوا بصوت واحد: «انظروا عشيقة الحمار، عشيقة الحمار»، وبهذه الكلمات قفز صاحبنا الذي استعرض هذه الألعاب فوق ظهر حماره وقاده إلى مكان آخر.

قربان بشري بين الأزتيك

«1520 افرنجي»

*** جوزيه داكوستا**

«مؤلف هذا العمل كان مبعوثاً للتبشير الجيزويتي في بيرو والمكسيك، وكتب مؤَلَّفاً في الإرشاد الديني باللغة الهندية المحلية، كان أول كتاب يُطبع في بيرو».

.. في الحقيقة، لم يقدم المكسيكيون قرابين لآلهتهم سوى الأسرى، وحروبهم العادية التي شنوها، كانت فقط للحصول على أسرى من أجل أُضحياتهم، ولهذا فعندما كانوا يقاتلون، عملوا على أن يأخذوا أعداءهم أحياءً، ولا يقتلونهم، حتى يستمتعون بالقرابين.

والأسلوب الذي اتبعوه في تقديم قرابينهم، كان بأن يتجمعوا داخل سور من جماجم الموتى، كما لو كانوا سيُضحى بهم، مستخدمين طقوساً معينة عند بداية السور، واضعين حراساً كثيرين حولهم، وفوراً يندفع هناك راهب يرتدي عباءة بيضاء تتدلى من أسفلها خيوط ندفية، أتى من قمة المعبر ومعه وثن مصنوع من عجينة القمح والذرة مخلوطة بالعسل، له عينان من حبيبات الزجاج الأخضر، والأسنان من حبوب الذرة، وهبط الراهب درجات سلم المعبد، بكل السرعة التي يستطيعها، ثم صعد على صخرة كبيرة ثُبتت على شرفة عالية في وسط الفناء، وكان اسم هذه الصخرة «كووكسكالي» بمعنى «صخرة النسر» صعد فوقها بواسطة سلم صغير، كان في الجزء المتقدم من الشرفة، وهبط بواسطة سلم على الجانب الآخر، وما زال يضم وثنه إلى صدره.

عندئذ صعد إلى مكان هؤلاء الذين سيُضحى بهم، وبدأ يُريهم الوثن كل بمفرده، قائلاً لهم: «هذا إلهكم». . وبعدما ينهي عرضه، يهبط بواسطة السلم الآخر، وكل أولئك الذين يجب أن يموتوا، يذهبون في تتابع إلى المكان الذي سيُقدمون فيه قرباناً، حيث يجدون المنفذين مستعدين لهذا العمل، والطريقة العادية للتضحية كانت بفتح المعدة ـ معدة ذلك القربان ـ وإخراج قلبه نصف حي.

وكانوا يُلقون بالرجل إلى أسفل درجات سلم المعبد التي لُطخت كلها وامتلأت بالدماء، ولتفصيل الأمر بوضوح أكثر، ستةٌ من رجال تقديم القرابين عُينوا لهذا الشرف، أتوا إلى مذبح الأضحية، أربعة لمَسْك اليدين والقدمين، والخامس لمَسْك الرأس والسادس لفتح المعدة وإخراج قلب الضحية، وهؤلاء الستة يُسمّون «شاشالموا» ويعني ذلك بلغتنا ـ بقدر الإمكان ـ «وزراء الأشياء المقدسة»، وكان ذلك شرفاً كبيراً، وتقديراً عالياً بينهم، حيث من خلالها يرثون، وينجحون كطبقة ثرية، «فالوزير» الذي له حق القتل، السادس فيما بينهم، يتم تقديره وتكريمه، راهباً رئيساً، وأسقفاً، ويتغير اسمه وفقاً لمتغيرات الزمن والطقوس.

وعاداتهم تتغير بالمثل، عندما يندفعون إلى مشهد الأضحية، ووفقاً لتغير

الزمن، واسم رئيس الشرف عندهم «بابا» و «توبيلزين»، وقماشهم وأرديتهم من ستائر حمراء تُفصّل على طراز العباءة، تتدلى من أطرافها خيوط للزينة، ومع ذلك تاج من الريش الملون: أخضر، وأبيض، وأصفر، على رأسه، وعند أذنيه ما يشبه الحَلَقْ من الذهب، مثبت فيه أحجار خضراء، وتحت شفته، في وسط اللحية يضع قطعة تشبه مدفعاً صغيراً جداً من حجر اللازورد، وهؤلاء القائمون بالقرابين كانوا قد حضروا ووجوههم وأيديهم تلمع بلون أسود، الخمسة منهم جعلوا شعرهم في ضفائر كثيرة ومربوط بشرائط من الجلد ومحكوم عند منتصف الرأس، وعلى جبهاتهم حملوا ميداليات من الورق الملون بألوان مختلفة، وكانوا يرتدون عباءة من اللون الأبيض ومشغولة بالأسود، وبهذا الزي مثلوا نفس شكل الشيطان كي يقذفوا الخوف والرعب في قلوب كل الناس، عندما يرونهم مندفعين في مثل هذا الشكل.

وحمل الراهب الأول سكيناً كبيرة في يده، ذات نصل ضخم وقاطع، بينما حمل راهب آخر ياقة من الخشب محفورة على شكل أفعى، ووضع الستة رجال أنفسهم في نظام، وصعدوا هذا الحجر الهرمي، الذي تحدثت عنه، وعندما أصبحوا أمام باب محراب وثنهم مباشرة. وكان هذا الحجر مدبباً حتى إذا ما وضع الرجل «القربان» فوقه على ظهره، يَنْثني نفسه إلى أعلى بصورة تجعل السكين إذا ما تركت تسقط على صدره، فإنها تشق معدته بسهولة في منتصفها.

وعندما أصبح رهبانهم مستعدين تماماً، سحبوا بالقوة أولئك الذين أُسروا في الحرب، والذين سوف يضحون بهم في عيدهم ذلك، ولكونهم مصحوبين بحراس جميعهم عراة كانوا يدفعونهم لصعود درجات السلم الضخمة في صفوف إلى المكان الذي استعد فيه أولئك «الوزراء».

وحيث جاء كل واحد في نظامه، أخذ القائمون بالتضحية الأسير الأول، واحد من يد، والآخر من اليد الأخرى، وواحد من قدم، والآخر من القدم الأخرى، وألقوه على ظهره فوق هذه الصخرة المدببة، حيث قام خامسهم بوضع تلك الياقة الخشبية التي على شكل أفعى، حول رقبته، وشق الراهب الأكبر معدته

بالسكين، وببراعة وسرعة غريبتين، أخرج قلبه بيديه، وأراه للجميع وهو يجففه في الشمس، التي قدم لها حرارة ودخان هذا القلب، ثم استدار ناحية الوثن وألقى القلب في وجهه، عندئذ قذفوا بالجسد ودفعوه إلى أسفل سلم المعبد.

ولأن الحجر كان موضوعاً بالقرب من السلم، إذ لم تزد المسافة بين أول درجة والصخرة على خطوتين فبخطوة واحدة من أقدامهم، ألقوا بالجثة من القمة إلى القاع ـ وبهذا النظام واحداً وراء الآخر، ضحّوا بهم، أولئك كل الذين تم تحديدهم، مذبوحين هكذا، وأجسادهم ملقاة إلى الأسفل، تقدم سادتهم ـ الذين أسروهم ـ فأخذوهم بعيداً، وقسموهم فيما بينهم وأكلوهم فعلاً، احتفالاً بالعيد وبطقوسه، وكان هناك دائماً أربعون أو خمسون على الأقل يقدمون كقرابين، لأن لديهم رجالاً خبراء في ذلك، والشعوب المجاورة كانت تفعل المثل، مقلدين المكسيكيين في عادات واحتفالات خدمة إلهِهم.

حديقة الإنكا الذهبية

«1530 افرنجي»

* جارسيلاسو دولا ڤيجا

«مؤلف هذا العمل هو الابن غير الشرعي لإحدى أميرات الإنكا، من عامل أسباني. وُلد في «كوزكو»، عاصمة الإنكا (بيرو) عام 1530 افرنجي».

كانت هذه الحديقة في عصر الإنكا، حديقة من الذهب والفضة كما اعتادوا ذلك في منازل الملوك، حيث كانت تحوي العديد من الأعشاب والزهور والنباتات والأشجار والحيوانات كبيرها وصغيرها، متوحشة أو أليفة، والأفاعي والسحالي، والحلزون، والفراشات والطيور الكبيرة والصغيرة. كلٌ موضوعٌ في مكانه. وكان لديهم الذرة ونباتات البقول وأشجار الفاكهة، والفاكهة التي عليها، كلها من الذهب والفضة متشابهة مع الطبيعة.

وكان لديهم أيضاً في البيت أكوامٌ من الخشب كلها مقلدة من الذهب والفضة كما كان في البيت الملكي: علاوة على ذلك تماثيل عظيمة للرجال والنساء

والأطفال، والعديد من أجران القمح، وكل يوم يبتكرون طُرزاً جديدة لمجد أعظم، معتادين سنوياً في أعياد إله الشمس أن يقدموا له كثيراً من الذهب والفضة المشغولة في أشكال مُقَلدة، وكل الأوعية - التي كانت بلا عدد - المُقدمة لخدمة المعابد من قدور وأوانٍ وأحواض وبراميل، كانت من الذهب وحتى الجاروف والفؤوس المستعملة في الحدائق. ومثل ذلك المعبد في «كوزكو»، كانت توجد معابد أخرى في مقاطعات المملكة في كل منها يبذل كل راهب، جهده وفقاً لمقدرته للحصول على هذه الثروات من الذهب والفضة.

تطور الإصلاح الإنجليزي

«1537 - 1538 افرنجي»

«تقرير وكلاء كرومويل»

*** جون لندن، روجر تاونشند، ريتشارد لايتون، جيوفري تشامبر**

«كان توماس كرومويل حامل أختام الملك هنري الثامن مسؤولاً - كلية - عن إرساء قواعد الإصلاح في إنجلترا».

. . في أسلوبي الشديد التواضع جاعلاً نفسي تبعاً لإرادتكم السامية، مؤكداً أنني أنزلت صورة سيدتنا العذراء «مريم» في كاڤرشام، التي كان يحج إليها الكثيرون، والصورة مطلية بالفضة، وقد وضعتها في صندوق، مغلق بإحكام، وتم تسميره.

ومع السفينة التالية التي تأتي من «ريدنج» إلى «لندن» سوف تكون أمام جلالتكم. . وقد هدمتُ المكان الذي كانت تقف فيه، مع كل مظاهر الاحتفالات مثل الأضواء والأكفان والصلبان والصور الشمعية المعلقة حول المحراب، وشوّهت كل هذه الأشياء بعناية متجنباً أي مزار آخر هناك، وهذه الكنيسة تتبع رهبانية نوتلي.

وكان هناك دائمًا قس كاتدرالي لهذا الدير يسمى «حارس كاڤرشام»، وكان يُنشد في هذه الكنيسة ويأخذ العطايا لمعيشته، وقد اعتاد على أن يعرض العديد

من الآثار المقدسة الرائعة، كانت ـ كما أقر ـ الخنجر المقدس الذي قتل به الملك هنري، والسكين المقدسة التي قتل بها القديس إدوارد.

هذه ومعها العديد مثلها وأغطية الصورة وغطاء الرأس وشعرها، سوف يحضرها أمام جلالتكم خدمي في الأسبوع هذا مع وثيقة الرهبان بخاتم الدير وختمهم كذلك، وقد أعدت القس لبيته مرة أخرى، إلى نوتلي، وأغلقت بإحكام أبواب الكنيسة المغطاة بطبقة من الرصاص بعناية.

ولو كان يسر جلالتكم سوف أتأكد من أنها جاهزة لاستعمال تشريفكم، وإذا لم تكن الأوامر هكذا، فإن الكنيسة تواجه ضرراً يمكن معه أن يُسرق كل رصاصها في الليل. كما حدث لي مع الرهبان، فبمجرد أن أخذت الرهبان مستسلمين، اندفع فقراء المدينة هناك وسرقوا كل الأشياء التي يمكنهم حملها، لدرجة أنهم حملوا طارقات النواقيس.

ولولا السيد فاشيل الذي شجعني كثيراً في منزله، وعمدة المدينة الذي ساعدني، لكانوا أحدثوا فساداً غير قليل،.. وفي كافرشام يوجد مبنى جميل حيث يعيش القس، بحديقة جميلة وممر تظلله الأشجار المثمرة، يستحق أن يخصص لأحد أصدقاء جلالتكم في هذه المنطقة.

ولتسمح سعادتكم أن تعلموا، أنه كانت هناك امرأة فقيرة من ويلز بجوار ويلزنجهام، تخيلت حماية ملفقة عن معجزة تُحدِثُها صورة «سيدتنا العذراء» التي كانت موجودة في ويلزنجهام، وحيث أحضروا المذكورة من هناك إلى لندن وبناءً على محاكمتها هناك، بتحقيقي من شخص لآخر، حتى اكتملوا ستة أشخاص.

وأخيراً وصلت إلى أنها صاحبة الرواية المذكورة آنفاً، وأنها مؤلفتها، بقدر ما ساقني إليه وعيي وإدراكي، فأوكلت حراستها لقائد ويلزنجهام، وفي اليوم التالي، وكان يوم سوق، أمرت بإجلاسها في النير[1] عند الصباح.

---

(1) Stoks ـ تاريخياً، إطار من الخشب به فتحتان للقدمين، وأخرتان لليدين توضع فيهم أطراف المتهم، «المترجم».

وحوالى الساعة 9,00 عندما امتلأ السوق المذكور بالناس، وُضعت على عربة وعلى رأسها ورقة كُتب بها هذه الكلمات: «مروجة إشاعات». وحُملت هكذا حول السوق والشوارع الأخرى في المدينة، وكانت تمكث في أماكن متعددة حيث يتجمع أغلب الناس، وقذفها الأطفال والصبية بكرات الجليد، وبعدما تم تنفيذ ذلك، وضعت في النير مرة أخرى، وهناك بقيت حتى انتهاء السوق.

هذا كان جزاؤها لأنني لم أعرف قانوناً آخر لعقابها إلاّ باجتهادي، واثقاً أن ذلك سيكون تحذيراً لذوي الأهواء أنه من الحكمة أن يضبطوا أنفسهم، على أي حال، أنا لا أستطيع أن أؤكد إلاّ أن تلك الأفكار ما زالت في رؤوس بعضهم بعض وأعتقد أنه من المقنع أن تعلنوا رأيكم في حقيقة هذا الأمر.

وبالنسبة لكبير رهبان «لانجدون» فقد مر بكل الرذائل العميقة التي سمعت عنها، حياة السكير المعربد، وكل قساوسته مثله تماماً، ولا بارقة فضيلة توجد بينهم، كلهم رجال معروفون بالرذيلة وسوء الخلق، وسمح كبيرهم بأن يأخذ معاونه إحدى المومسات، وحرضه على ذلك، فأحضرها إلى جناحه، وأخذ فراشاً من الفُرش المحشوة بالريش الخاص به، ونقل فراش معاونه الموجود في الغرفة الداخلية إلى غرفته، وألزمه بالنوم مع العاهرة التي وفرها له، ولكي أعيد عليك سرد القصة كلها.

إنها كانت قصة طويلة وكريهة على السماع. والمنزل في حالة تصدع كاملة، ويكاد ينهار تقريباً، عليك أن تستبعده وتستحوذ على ما يملكه، وتحصل على كشف بالممتلكات، ولا تستطيع أن تفعل أقل من هذا للعدالة، مليكي الوحيد.

إن واجبي الذي تذكرونه جلالتكم، بأن يعلن عن هدم الدير السابق في «بوكسلي» ونزع صور هذا الدير، فقد وجدت في صورة الصليب المسماة «صليب الرحمة» التي كان لها تقديس كبير بين الناس، آلات وأسلاك قديمة، وعُصياً قديمة متعفنة خلف تلك الصورة تجعل العيون الموجودة في الصورة تتحرك وتُحملق، وعلى ذلك تبدو كشيء حي، وأيضاً الشفة السفلى - كذلك - تتحرك كما لو كانت تتكلم، تلك الصورة - ولشُهرتها تلك - لم يكن غريباً لي وللآخرين ما

وجدناه عند هدمها، الذي على أثره، ذهب كبير الرهبان ـ عندما سمع ضجة الهدم ـ والرهبان العجائز الآخرين للاعتكاف الذين ـ لحنكتي ودهائي ـ قمت باختبار معلوماتهم عن هذا العمل، أعلنوا أنهم يجهلون ذلك.

مع الأسبان في الباراجواي

«1537 ـ 1540 افرنجي»

*** هولدريك شنيردل**

«شنيردل مواطن من أنتويرب، التحق ببعثة «بيدرو دي مندوزا» إلى أمريكا الجنوبية عام 1535 افرنجي. وكان حاضراً إنشاء مدينة بوينس آيرس عام 1536 افرنجي، وكما يروي هنا، إنشاء مدينة أسونسيون عام 1537 افرنجي، بواسطة مساعد مندوزا الحاكم چوان دايولاسي».

يعيش شعب كاريوس في بلدة كبيرة تمتد ثلاثمائة ليجاً[1] ـ طولاً وعرضاً ـ وهم بشر قصار القامة، ممتلئو الأجسام، شديدو القدرة على تحمل العمل والجهد أكثر من غيرهم. ولدى الرجال منهم فتحة صغيرة في الشفاه فيها قطعة من «الكريستال» الأصفر[2]، يسمونها في لغتهم بارابول ـ بطول شبرين، وبسُمك ريشة أو نبات الماء، ويسير الرجال والنساء في هذه البلد عراة، كما خلقهم الله، وبين هؤلاء الهنود، يبيع الأب ابنته، والزوج زوجته، وأحياناً ما يبيع الأخ أخته أو يُبدلها. ويقايضون المرأة بقميص أو سكين، أو بلطة، أو أشياء أخرى من هذا القبيل.

وهؤلاء الكاريوس يأكلون لحم البشر أيضاً، لو استطاعوا تدبيره، إذ عندما يأسرون أحداً في الحرب، سواءً أكانوا نساءً أم رجالاً، صغاراً أم كباراً، فإنهم يُسمنونهم، ليس كما نفعل نحن مع الخنازير، لكنهم يحتفظون بالمرأة بضع

(1) = 3 أميال.

(2) كريستال = بللور = زجاج متبلر. «المترجم».

سنوات، إذا كانت صغيرة، وذات جمال أخّاذ، لكنها لو كانت في ذات الوقت، لم تستجب لكل رغباتهم، فإنهم يقتلونها ويأكلونها، ويقيمون مأدبة احتفالية، مثل احتفالات الزواج عندنا، لكنهم يحتفظون بالمرأة العجوز، حتى تموت من ذاتها، وهؤلاء الكاريوس يقومون برحلات طويلة أكثر من غيرهم من الشعوب المقيمة على نهر «بلات» فهم شجعان، وشرسون في القتال، وقراهم ومدنهم تقع على نهر «بارانا» على أرض جبلية مرتفعة.

ومدينة هؤلاء الناس - والتي يسميها السكان «لامبير» - كانت محاطة بدُشَم مزدوجة صنعت بمهارة من الخشب ومعها سور أو حائط وكل حفرة بطول وحجم الرجل، والدشمة أو الحفرة تبعد عن مثيلتها 12 خطوة وقد حُفرت هذه التحصينات بعمق 6 أقدام[1] في باطن الأرض، وكانت ترتفع إلى ما فوق الأرض لدرجة يصل إليها الإنسان وطول سيفه.

ولديهم أيضاً مغارات وشقوق على بعد 15 خطوة من الأسوار تغطي ارتفاع ثلاثة رجال، وفي الوسط غرست الرماح إلاّ أنها لم تظهر على سطح الأرض وكانت حادة كالشوك وقد غطوا المغارات بالقش واضعين فروع الشجر وأوراقها هناك مع قليل من التراب فيما بينها، حتى إذا ما قمنا (نحن المسيحيين) بمطاردتهم أو مهاجمة مدينتهم نسقط داخل هذه المغارات، وكأنهم أعدوا هذه المغارات من أجلهم، لأنهم بعد فترة وقعوا فيها.

إذ عندما جمع قائدنا «جون أيولاس» كل جنوده معاً، الذين لم يزيدوا على 300 جندي (حيث تركوا 60 منهم لحراسة السفن) منظماً ومرتباً الجماعات، ذهبوا نحو مدينتهم لامبير، وقد علموا قبل وصولنا بذلك، فصنعوا ساتراً للإطلاق لجيشهم المكون من 4000 مزودين بالأقواس والسهام. ووفقاً لأسلوبهم، أمروا بأن نعلم بأنهم سيمدوننا بالمؤن والضروريات الأخرى آملين منا الرجوع، والعودة إلى سفننا، وأن نرحل بأسرع ما نستطيع، ونعود بسلام إلى رفاقنا.

---

(1) في الأصل Fathom = 6 أقدام. «المترجم».

ولكن ذلك لم يكن في صالح قائدنا، ولا في صالحنا أن نرضخ لطلبهم، لأن هؤلاء القوم وبلدهم بسبب وفرة المؤن، كانت أيضاً مناسبة لنا وملائمة تماماً، خاصة أننا في الأعوام الأربعة الماضية لم نر كسرة خبز، ونحيا على السمك واللحم، وفي أغلب الأوقات كنا في أشد حالات العوز.

وأخذ هؤلاء الكاريوس أقواسهم، وسهامهم، ثم قدّرونا وحيونا، لكن حيث إنه لم تكن لدينا نية إيذائهم بعد أمرنا أن تتم الإشارة إليهم بالهدوء، وبأننا سنصبح أصدقاءهم، لكنهم لم يقبلوا، إذ لم يجربوا بنادقنا وسيوفنا، ولهذا فعندما اقتربنا منهم، قمنا بإطلاق رصاصاتنا النحاسية نحوهم، التي عندما سمعوها ورأوا مثل هذا العدد الكبير الذي سقط ميتاً بجوارهم، وعندما لم تظهر لا الطلقات ولا السهام ولكن ثقوب فقط تظهر في أجسامهم، تعجبوا في دهشة، وانزعجوا بشدة، ولاذوا بالفرار في جماعات، وأوقعوا بعضهم البعض مثل الكلاب، وبينما أسرعوا بأقصى ما يمكن لحماية أنفسهم في مدينتهم، سقط أكثر من ثلاثمائة رجل - وسط هذا الفزع المثير - في الخنادق المذكورة التي حفروها بأنفسهم.

فيما بعد، عندما أتينا مدينتهم، هاجمناها، ودافعوا عنها وعن أنفسهم بشجاعة حتى اليوم الثالث، لكن عندما لم يعد باستطاعتهم مواصلة الدفاع أكثر من ذلك، وكانوا يخافون على زوجاتهم وأطفالهم الذين كانوا معهم داخل المدينة، طالبونا بإلحاح منحهم رحمتنا وعفونا، واعدين أن يفعلوا كل شيء من أجلنا ومن أجل خاطرنا، وما يسرنا، حتى نُبقي على حياتهم، وفي هذه المعمعة، قُتل ستة عشر من رجالنا، وأحضروا لقائدنا ست نساء، كانت أكبرهن ذات 18 عاماً، وقدموا لنا ستة غزلان، وحيواناً وحشياً آخر، راجين منا أن نبقى معهم وأعطوا امرأتين للجنود لأعمال الغسيل والخدمات الأخرى، وأمدونا كذلك بالمؤن والضروروات الأخرى للغذاء، وهكذا حل السلام بيننا وبينهم.

وما إن تم تنفيذ هذه الأشياء، حتى أجبرنا الكاريوس على بناء منزل كبير لنا من الحجر والخشب والرمل، حتى يحصل المسيحيون على مكان يأوون إليه فيما بعد لو أنهم أحدثوا تمرداً ضدهم، حيث يأمنون فيه، ويدافعون فيه عن أنفسهم ضد

الأذى، وقد استولينا على مدينتهم ـ أو قريتهم ـ تلك بالسلاح عام 1537 افرنجي، يوم عيد قبول العذراء في السموات، فأعطيناها هذا الاسم [أسونسيون][1]، ومكثنا هنا شهرين، وكان الكاريوس يبعدون حوالى خمسين ليجاً عن قبائل الإيجايس وعن جزيرة بوناسبيرانزا التي تسكنها قبائل التيمبوس حوالى ثلاثمائة وأربعة وثلاثين ليجاً.

لهذا عقدنا اتفاقاً مع الكاريوس، يعدون فيه، بمساعدتنا حال ذهابنا إلى الحرب، وإذا ما قمنا بتنفيذ أي عمل ضد «الإيجايس» فسوف يمدوننا بـ 18 ألف رجل، وحينما قرر قائدنا ذلك، أخذ ثلاثمائة أسباني مع هؤلاء الكاريوس، متتبعاً نهر بارابول مع مجراه، وقد سرنا 30 ليجاً بمحاذاة البر، حتى أتينا المكان الذي يسكنه الإيجايس المذكورين، وقتلناهم جميعاً، كبيرهم وصغيرهم، في المكان القديم حيث تركناهم هاجعين في بيوتهم، بينما ما زالوا نائمين، مبكراً جداً في الصباح حوالى الساعة الثالثة أو الرابعة، إذ بحث عنهم الكاريوس بإصرار، معذبينهم حتى الموت حيث من عادة الكاريوس إذا ما كانوا منتصرين في الحرب، أن يقتلوا الجميع بلا رحمة أو شفقة، بعد ذلك استبعدنا خمسمائة قارب «كانو»، وأحرقنا القرية، وأحدثنا الكثير من التخريب، وبعد مرور شهر، جاء إلينا بعض من شعب الإيجايس ـ كانوا متغيبين عن بلدهم أثناء الحرب، طالبين العفو، وسلموا أنفسهم بين أيدينا.

وفي اليوم التاسع بعد رحيلنا عنهم، وصلنا إلى شعب «الشيرڤيز» الذين كانوا قوماً كثيري العدد، إلا أنهم ليسوا صادقين ولا طبيعيين في حياتهم، ومن بينهم الملك نفسه لديه منزل، ولكن هؤلاء الشيرڤيز يحتفظون براهب خبير في أسرار العقيدة، وهم يضعون حلقة من الخشب معلقة في آذانهم، ويضعون بللورة «كريستال» زرقاء على شفاههم في حجم وشكل الزهر[2]، ويصبغون أنفسهم باللون الأزرق من أثدائهم حتى بقية أعضائهم، بمهارة أعتقد أنه لا يوجد فنان في

(1) أسونسيون = عيد قبول العذراء، في الإسبانية «المترجم».

(2) زهر النرد ـ تسمى أحياناً الَيك ويستخدم في عدة ألعاب منها لعبة الطاولة، «المترجم».

كل ألمانيا يمكنه أن يبدع مثل هذا العمل الفني الرائع. وهم يسيرون عراة، وذلك جميل بعد سلوكهم ذلك.

وقد بقينا لذلك بين «الشيرڤيز» يوماً، وبعد مسيرتنا طوال 14 ليجاً في رحلة استمرت ثلاثة أيام، على المدى، وصلنا إلى المكان الذي يسكن فيه ملكهم، الذي منه اشتق السكان اسمهم «الشيرڤيز» وتمتد بلده أربعة ليجات طولاً، إلاّ أنه يملك قرية تطل على نهر بارابول، ولهذا تركنا سفننا هنا في حراسة اثني عشر أسبانياً، قد نستخدمهم في حالة العودة لدفاعنا، وقد طلبنا من الشيرڤيز، المقيمين هناك، في نفس الوقت أن يتلاقوا مع المسيحيين كأصدقاء، وطلبنا منهم بود ـ الذي قاموا به فعلاً أيضاً ـ إمدادنا بالضرورات اللازمة لرحلتنا، وبمرورنا عبر نهر «بارابول»، وصلنا للمكان الذي يقع فيه قصر الملك وعرشه، الذي خرج يستقبلنا ـ ونحن على بعد ليج واحد ـ في حراسة أكثر من 12,000 رجل في استعراض بطولي، إلاّ أنه مسالم وودي، والطريق الذي كانوا يسيرون فيه، كان عرضه ثماني خطوات، يمتلىء بالزهر والأعشاب على كلا الجانبين، وكان نظيفاً بحيث لم يبد عليه سوى بعض الأحجار القليلة أو العصى أو القش، وكان مع الملك أيضاً موسيقيوه، الذين كانت آلاتهم تشبه البوق الملتوي عندنا، الذي نسميه «شالمز»، وقد أصدر الملك أوامره كذلك بصيد الغزلان والحيوانات البرية الأخرى على جانبي الطرق الذي يسير عليه، حتى إنهم اصطادوا ثلاثين ظبياً وعشرين جاندو[1]، كان منظرها مُبهجاً للمشاهد، وعندما أدخلونا القرية، خصص الملك ـ دائماً ـ مكاناً لكل اثنين من المسيحيين للإقامة، بينما أخذوا قائدنا وتابعيه إلى قصر الملك.

ولم يكن الملك يقدم موسيقى على مائدته، ولا خلال لقاءاته، التي ما إن تتم حتى يسمح بعدئذ بأن يقوموا بالعزف على الناي أو المزمار، ويؤدي الرجال الرقصات، قافزين مع أجمل النساء، وكانت تلك الرقصات والقفزات تبدو غريبة لنا، وفي بقية الأمور فالشيرڤيز يشبهون أولئك الناس الذين سبق أن تحدثت

(1) حيوان بري من نوع الغزال بأمريكا الجنوبية، «المترجم».

عنهم، والنسوة يصنعن جوناتهن «الرداء الأسفل» من القطن الرقيق مثل ملابسنا تقريباً التي يكون جزءاً منها حريرياً، التي نسميها «أراس» أو «بورشر» وهن ينسجنها في تلك الأشكال المختلفة للغزلان، والماعز الهندي، وفقاً لمهارة كل منهن في الحياكة.

وفي هذه الملابس ينامون، لو حدث أن كان الطقس بارداً إلى حد ما، أو يضعونها أسفلهن ويجلسن عليها، أو يستعملونها وفقاً لما يشاؤون في الخدمات الأخرى، وهؤلاء النسوة جميلات جداً وذوات جاذبية جنسية.

وفي استكمال هذه الرحلة، قضينا عاماً ونصف، ولم نفعل شيئاً آخر، سوى استمرارنا في الحرب، وخلال هذه الرحلة أخضعنا لسيطرتنا 12,000 رجل وامرأة وطفل، اضطروا لخدمتنا كالعبيد، فأنا مثلاً - امتلكت لشخصي حوالى خمسين رجلاً وامرأة وطفلاً.

إعدام كبير الأساقفة كرانمر

«21 مارس/ الربيع 1556 افرنجي»

*** رواية مشاهد.**

«كرانمر أول كبير أساقفة بروتستانتي في كانتربري، أدين بتهمة الهرطقة أثناء حكم الملكة «ماري» الأولى الكاثوليكية، وقد أُجبر في السجن على كتابة إدانة مهينة للبروتستانتية، لكنه صدم أعداءه بأن أنكر علانية تلك الإدانة قبل أن يموت».

.. لكنني أعلم وبسبب صداقتنا العميقة وحبنا المتواصل القديم، أنك ترى من الواجب أن أقوم بتحديد الحقائق في مثل هذه الأمور كما حدثت هنا بيننا، ولم أكن كتبت لك في ذلك الوقت النهاية المؤسفة والمأساة المريبة لأسقف كانتربري السابق توماس كرانمر، لأنني لا أجد متعة في تذكر مثل هذه المناظر المؤلمة. وعندما تمر تلك الأحداث لا أحب ترديدها مرة أخرى إذ تصبح مجرد إحياء لألمي، ومضاعفة لحزني، إذ بالرغم من حياته السابقة ونهايته البائسة فإنه

يستحق بؤساً أعظم - لو أن هناك ما هو أعظم مما حدث له - إلاّ أنه إذا ما وضعنا جانباً خروجه على الله وعلى وطنه ونظرنا للإنسان بدون أخطائه فلا أعتقد أن هناك إنساناً لا يشفق على حالته ولا يندب حظه، وأن يخشى أن يكون ذلك مصيره حين يرى هذا القس النبيل والمستشار الشجاع وبمثل حياة الشرف الطويلة هذه وبعد العديد من الأعمال السامية في سنوات عمره، يحرم من مكانته ويحكم عليه بالموت بل وبمثل هذا الموت المؤلم الذي أنهى حياته. وأنا لا أجد متعة في سرد المزيد. فيا للحسرة إنها ثقيلة في ذاتها بمثل هذه الحالة الصعبة التي تحدث لإنسان، أو إنسان يستحقها. ولكن لنأتِ للموضوع:

في يوم السبت الأخير الذي كان 21 من مارس وافق ذلك موعد موته. ولأن الصباح كان كثير المطر عقدت المراسم التي حددها الدكتور كول عند المحرقة[1] في كنيسة سانت ماري حيث قام العمدة ورجال مجلس المدينة ومعهم سيدي اللورد «وليمز» ورجال كثيرون من المقاطعة مثل السير «ت. . أ. بردجز» والسير «چون براون» وآخرين وأحضروا الدكتور كرانمر حيث أعدوا له مكاناً عالياً في مواجهة الشرفة، وعندما صعد إلى هذا المكان ركع وأخذ يصلي، وبكى برقة حركت دموع الكثيرين التي أكدت الأمل في توبته وإنابته.

عندما انتهت الصلاة وقف على قدميه، وبعدما تركوه يتحدث قال: «شعبي الطيب لقد عزمت فعلاً على ترغيبكم في الصلاة من أجلي بقدر ما أستطيع من أجل راحتي وأن ترتلوا الصلاة كلمة بكلمة كما كتبتها هنا». ثم قرأها واقفاً ثم بعد أن ركع رتل نص (المبتهل إلى الله) وصلى جميع الناس معه بإيمان وهم راكعون.

ثم نهض قائلاً: «كل إنسان يرغب في وقت موته - أيها الشعب الطيب - أن يُعطى بعض الإرشادات الطيبة، التي قد يتذكرها الآخرون بعد الموت. ولذلك تكون الأفضل، لذا أطلب من الله أن يهبني نعمته، حتى أتحدث بشيء عند رحيلي، والتي بها يتعظم الله وأنتم تزدادون إيماناً.

(1) كومة من الحطب تحط عموداً ضخماً من الخشب يربط به المحكوم عليه بالموت حرقاً في القرون الوسطى. «المترجم».

والآن آتي للأمر العظيم الذي يضطرب له عقلي أكثر من أي أمر آخر فعلته أو قلته في حياتي، وهو أن الكتابات المنشورة بينكم مخالفة للحقيقة، التي أرفضها هنا وأدينها، كأشياء كتبت بيدي، مناقضة للحقيقة التي أعتنقها من قلبي، وكتبت خشية الموت، ولإنقاذ حياتي، لو كان هناك أمل. . وهكذا كل مثل هذه الأوراق التي كتبتها ووقعتها بيدي أنا منذ عزلي حيث كتبت كثيراً من الأشياء غير حقيقية، وبقدر ما اعتدت يدي في الكتابة، مناقضة لما في قلبي لسوف تكون الأولى عقاباً، إذ لو أتيت إلى النار فلسوف تكون هي أول ما يحترق فيَّ، وبالنسبة «للبابا» فإنني أرفضه، باعتباره عدواً للمسيح ومضاداً للمسيحية هو وكل مذهبه الزائف». وهنا عندما ذكروه بارتداده وإخفائه نواياه قال: «للأسف، يا إلهي. لقد كنت رجلاً أحب الصراحة طوال حياتي، ولم أخف نواياي حتى الآن ضد الحقيقة، التي أنا لها الآن في أشد الأسف، على ما فعلت». وأضاف إلى ذلك، أنه يُقسم، إنه يؤمن بما علّمه في كتابه ضد أسقف وينشستر، ولم يسمحوا له بالحديث أكثر من ذلك.

عندئذ حملوه بعيداً، وجرى العديد من الناس خلفه، وقد رأوه يساق إلى موته بقسوة، ينصحونه ـ طالما بقي وقت ـ بأن يتذكر نفسه، وقد رحل معه شاب متعلم طيب هو الأخ جون لإثنائه عن تصريحه، لكنه رفض، وما قالاه بينهما على وجه الخصوص لا يمكنني ذكره، لكن التأثير ظهر في النهاية، إذ اعترف عند المحرقة بأن يموت على كل الآراء التي علّمها فربما تغفر له ردته، وبعدما أتى إلى المحرقة بروح متحمسة وعقل واعٍ، خلع ملابسه بسرعة، ووقف منتصباً في قميصه.

وحاول طالب لاهوتي اسمه «إيليا» من معهد «برازن نوز» أن يعيده إلى ردته الأولى مع اثنين من الرهبان الأسبانيين، وعندما رأى الراهبان. إصراره، قالوا لبعضهما باللاتينية: «لا يجب أن نكون بقربه، فالشيطان معه». لكن الطالب اللاهوتي كان أكثر إلحاحاً معه، فأجابه أنه بالنسبة لردته فهو يندم عليها بمرارة لأنه

يعلم أنها ضد الحقيقة وأضاف عدة كلمات أكثر من ذلك، بها صرخ اللورد ويليمز: «انتهوا، انتهوا». . حينئذ سلم الأسقف على بعض من أصدقائه باليد، في حين رفض طالب اللاهوت أن يناوله يده، وكال اللوم لمن فعل ذلك من الآخرين، وقال إنه يأسف أنه جاء برفقته، ومرة أخرى طلب منه أن يوافق على ردته السابقة فأجابه الأسقف ـ وهو يلوح بيده ـ: «هذه كانت اليد التي كتبتها ولهذا فسوف تعاني العقوبة الأولى».

وقد أُشعلت النار الآن فيه، مد للخارج يده اليمنى ووضعها في النار، وأبقاها كذلك برهة قبل أن تلتهم النار أجزاءَ أخرى من جسده، حيث كانت يده تُرى من قبل الجميع وهي تشتعل، صارخاً بصوت عظيم: «هذه اليد قد أجرمت». وحالما ارتفعت النيران، كان قد مات، بلا حركة ولا صراخ طوال الوقت.

لو أن صبره في العذاب، وشجاعته في الموت، أُخذا مثالاً، إما لمجد الرب أو لعظمة البلاد أو لشهادة الحقيقة، كما أخذت دليلاً على الخطأ المدمر والانقلاب على العقيدة الحقيقية، لكنت أخذته مثالاً جديراً وساويته بمجد أي من أبائنا في العصور القديمة، ولكن، إذ أرى أنه ليس الموت وإنما هو القضية والخلاف الذي قاد المتألم لذلك، ولا أستطيع أن أمتدح كثيراً عناده المطلق وثباته في الموت. وخاصة في قضية سيئة كهذه، وقد آلم موته بالتأكيد كل إنسان. لكن ليس في مثال واحد، إذ أشفق عليه بعضهم لرؤيتهم جسده يتعذب هكذا والنيران الغاضبة تلتهم جسده، وذلك لا يُعد من الحمق، وآخرون لم يهتموا كثيراً بالجسد، وإنما حزنوا عليه حيث يُهدر روحه البائسة دون غفران، فتلعن للأبد، وأسف عليه أصدقاؤه بدافع الحب، وأعداؤه للشفقة، والغرباء للطيبة الإنسانية العامة، التي نرتبط بها بعضنا البعض، وهكذا أجبرت نفسي من أجل خاطرك على أن أمر بهذا السرد المؤلم، مخالفاً لعقلي وبعدما صرت أكثر قلقاً، وضعت نهاية قصيرة له، متمنياً لك حياة أكثر هدوءاً مع مجدٍ أقل، وموتاً أكثر يسراً، مع الكثير من الثناء.

سجناء محاكم التفتيش

مغامرات بحار إنجليزي في المكسيك

«1568 ـ 1575 افرنجي»

*** مايلز فيليبس**

جون هوكنز قام برحلتين ناجحتين في تجارة العبيد للبحر الكاريبي، لكن كارثة واجهت رحلته الثالثة عام 1568 افرنجي، وأجبر على التخلي عن بعض من رفاقه، كما يروي هذا الباقي على قيد الحياة. فيليبس عاد ـ فيما بعد ـ إلى إنجلترا عام 1583 افرنجي».

. . في الغد التالي «25 من سبتمبر» توقفت العاصفة، وصفا الطقس، فرفعنا المرساة وشرعنا في الإبحار، ولكون عددنا كبيراً، والمتبقي من مخزون المؤن لا يكفي احتياجاتنا لأية مدة أخرى، كنا في يأس وخوف من الموت جوعاً، حتى إن بعضنا فكروا في تسليم أنفسهم لرحمة الأسبانيين والآخرون للمتوحشين أو للوثنيين.

وتجولنا على غير هدى عدة أيام في تلك البحار المجهولة، وقد دفعنا الجوع لأكل الجلود، والقطط، والفئران، والجرذان، والببغاوات، والقرود، وباختصار، كان جوعنا شديداً لدرجة أننا اعتدنا أن كل ما نستطيع أكله فهو لذيذ وحلو.

ويوم الثامن من أكتوبر، عدنا لنهبط من جديد عند نهاية خليج المكسيك، حيث رجونا أن نجد بعض السكان نحصل منهم على بعض من المؤن ومكان نصلح فيه سفينتنا، التي أُضرت بشدة لدرجة أننا قدرنا بصعوبة وبأيدينا الضعيفة المتعبة على إبقاء الماء خارجها.

ولانسحاقنا هكذا بالمجاعة من جانب، وبخطر الغرق من جانب آخر، لا نعلم أين نجد منها خلاصاً، بدأنا نشعر بيأس شديد، وكنا على آراء عديدة، من بينها، بعض يفضل أن يتركهم قائدنا السير جون هوكنز على الأرض، وقد قر اختيارهم على أن يسلموا أنفسهم لرحمة المتوحشين والوثنيين بدلاً من المخاطرة

بأنفسهم في البحر، وحيث إنهم أدركوا جيداً، لو بقي الجميع مع بعضهم، إذا لم يموتوا بالغرق، فإن الجوع سيدفعهم في النهاية لأكل بعضهم بعضاً.

وقد وافق القائد - مُرحباً - بهذا الطلب واضعاً في اعتباره، أنه كان من الضروري له تخفيض عدد رجاله، لسلامته وسلامة الآخرين، وذلك بالتوصل إلى قرار بإنزال نصف رجاله على الشاطىء - الذين غادرهم حينذاك أحياء. كنت ترى كيف في ذلك العالم يغير الرجال آراءهم فجأة، إذ إن هؤلاء الذين كانوا منذ قليل يرغبون في الهبوط إلى الشاطى، أصبحوا الآن برأي آخر، وطلبوا أن يبقوا. وبذلك أُضطر قائدنا لإرضاء كل آراء الرجال ويستبعد تماماً كل فرص الاعتراض، أن يتخذ هذا الأمر؛ أولاً: اختار الأشخاص ذوي الخدمة ويعتبرون في حاجة للبقاء، وما ان تم هذا، حتى قام بتحديد أولئك الذين يعتقد أن توفيرهم أفضل من بين من كانوا يرغبون في الهبوط إلى الشاطىء. وفوراً قرر أن ينزلوا للشاطىء بالقارب.

وقد وَعَدنا قائدنا، بأنه في العام القادم سوف إما يأتي بنفسه أو يرسل آخر لإعادتنا للوطن. وهنا ثانية، ما يحرك القلب الحجري أن تسمع أنات الحزن التي صدرت عن الكثيرين ولكم هو مؤلم الوداع، وكان الطقس - عند ذاك - عاصفاً ومحملاً بالأنواء، ولهذا كان علينا أن نمر بخطر عظيم، وحيث إن الأمر لا يحتمل، إذ لا علاج إلاّ أن نقوم - الذين تم تحديدنا - بالرحيل، وبالضرورة على أية حال، فهؤلاء الذين ذهبوا في القارب الأول وصلوا بسلام إلى الشاطىء، ولكن من بين هؤلاء الذين ذهبوا في القارب الثاني، كنت أنا واحداً منهم، كان البحر عالياً لدرجة أننا لم نصل للشاطىء، ولأننا كنا مرغمين بسبب المعاملة السيئة، لجون هامبتون، قائد السفينة «مينون» وجون ساندرز ضابط الإبحار على السفينة «جيسوس» وتوماس بولارد رفيقه، إلى أن نقفز من القارب إلى عرض البحر وما زال أمامنا أكثر من ميل نحو الشاطىء وأن ننتبه لأنفسنا فإما أن نغرق أو نسبح، ومن هؤلاء الذين كانوا مثلنا وألقوا بأنفسهم مضطرين إلى القفز وسط الماء، غرق اثنان من رجال الكابتن بلاند.

وفي مساء اليوم نفسه، الجمعة، الثامن من أكتوبر عام 1568 افرنجي، عندما وصلنا جميعنا إلى الشاطىء، وجدنا ماءً عذباً، شرب منه بعض من رجالنا كثيراً لدرجة أنهم ارتموا على الأرض متناثرين، وكنا نلمس الحياة تعود إليهم بصعوبة بعد ساعتين أو ثلاث، والبعض الآخر انتفخ بشدة، بسبب شرب المياه المالحة والبعض الثالث من أكل فاكهة تسمى كابول بها بذرة كبيرة كاللوز، وجدناها على الأرض، وكان الجميع في حالة سيئة، حتى إننا كنا ضعافاً، فاقدي الوعي، خائري القوى.

وفي الصباح ـ الذي كان السبت التاسع من أكتوبر ـ رأينا أنه من الأفضل الرحيل ملتزمين ساحل البحر، لنبحث عن مكان آهل بالسكان سواءً كانوا المسيحيين أو المتوحشين، فقد كنا غير مبالين، كي نجد لديهم ما يقوي أجسادنا الجائعة. وهكذا رحلنا من التل الذي بقينا فوقه طوال الليل، لا نلتف بخيط جاف واحد حول جسمنا، إذ إن الملابس التي لم تبتل من القفز في البحر، ابتلت تماماً من المطر، لأنها أمطرت طوال الليل بغزارة. وبينما نحن نهبط التل آتين إلى السهل، واجهنا صعوبات كبيرة كي نمر، لأن الأعشاب والأشجار التي كانت تنمو هناك، أعلى من أي إنسان، وعلى الجانب الأيسر أمامنا البحر، والأيمن أمامنا الأشجار الكثيفة، حتى إننا يجب أن نعبرها بالضرورة، في طريقنا باتجاه الغرب، خلال هذه المستنقعات.

وفجأة أثناء سيرنا هكذا، قام الهنود بمهاجمتنا، وهم أناس يحبون الحرب ويشبهون في سلوكهم آكلي لحوم البشر، بالرغم من أنهم لا يتغذون على لحم الإنسان كما يفعل آكلو لحوم البشر، وهؤلاء الناس يسمُون «الشيشمكس»، وقد اعتادوا ارتداء شعوراً طويلة تصل حتى رُكَبهم، وهم يلونون وجوههم ـ أيضاً ـ بالأخضر والأصفر والأحمر والأزرق، مما يجعلهم يبدون شديدي القبح ومخيفين لمن يشاهدهم.

وقد حافظ هؤلاء الناس على حروبهم مع الأسبانيين، الذين عاملوهم بقسوة شديدة في أغلب الأوقات، إذ مع الأسبان لا وجود للرحمة، وهم عندما

لاحظونا، عند أول هبوط لنا على الأرض، اعتقدوا أننا أعداءهم الأسبانيين، وعلموا بواسطة مستطلعيهم، عددنا وحالة الضعف والخور التي نعانيها وبدون سلاح أو دروع، ووفقاً لسلوكهم المعتاد عند ملاقاة الآخرين فيما يشبه الحرب، أطلقوا فجأة صرخة مفزعة حادة، واندفعوا بقوة إلينا، قاذفين نحونا سهامهم كالرشاش المتساقط لكثرته، وقد اضطررنا لتسليم أنفسنا تحت رحمتهم، إذ لا نملك فيما بيننا أي نوع من الدروع ولا حتى السلاح عدا غدارة واحدة وسيفين قديمين صدئين، حتى يمكننا بها المقاومة أو إنقاذ أرواحنا، فأدركوا أننا لا نسعى إلاّ لطلب الرحمة على أيديهم، وأننا لسنا أعداءهم الأسبانيين، فعطفوا علينا، وأتوا فأجلسونا جميعاً، وبعدما فحصونا وأخذوا فكرة كاملة عنا، قاموا بخلع ملابس كل من يرتدي ثياباً ملونة من بيننا تاركينه عارياً تماماً، وأخذوها معهم لكنهم تركوا أولئك الذين يرتدون ثياباً سوداء، وذهبوا في طريقهم، تاركيننا دونما أي ضرر آخر بنا، فقط قتلوا منا ثمانية رجال في بداية هجومهم، وعند رحيلهم، مدركين حالة الإعياء التي كنا فيها، أشاروا لنا بأيديهم، أي طريق يجب أن نلزمها للوصول لمدينة الأسبانيين ـ التي أدركنا فيما بعد أنها لا تزيد على عشرة ليجات من ذلك المكان ـ واستخدموا مع إشاراتهم هذه الكلمات: «تامبيكو كريستيانو أتامبيكو كريستيانو». التي تعني بقدر ما نعتقد، القول الإنجليزي «اذهبوا من هذا الطريق، فسوف تجدون المسيحيين» وكانت الأسلحة التي استخدمها هؤلاء لا تزيد على السهام والأقواس، وتهديفهم دقيق لدرجة أنهم نادراً ما يخطئون إصابة ما يطلقون عليه، وبعدما تركوننا عراة بفترة بسيطة كما ذكرت آنفاً، رأينا أنه من الأفضل أن نقسم أنفسنا إلى جماعتين، وهكذا تمت قسمتنا، ذهب نصفنا تحت قيادة أنطوني جودارد ـ الذي ما زال حياً، ويعيش الآن في مدينة بليموث ـ الذي اخترناه قبلاً قائداً لنا كلنا، ورحل هؤلاء الذين تحت قيادته ـ ومن بينهم أنا مايلز فيليب ـ باتجاه الغرب، الذي أشار لنا الهنود باتباعه.

وذهب النصف الآخر تحت قيادة جون هوبر الذين اختاروه قائداً لهم ـ وكان برفقته داڤيد انجرام ـ وقد يمموا شطر الشمال، وبعد فترة قصيرة، خلال يومين،

قابلهم المتوحشون مرة أخرى، وقد قُتل قائد المجموعة هوبر ومعه اثنان آخران، حينئذ، انقسمت المجموعة من جديد، فاستمر البعض باتجاه الشمال، والبعض الآخر وهو يعلم أننا نتجه غرباً، سعى لمقابلتنا مرة أخرى، كما حدث، حقيقة، إذ كان هناك حوالى 25 أو 26 منهم تقابلوا معنا في مدة أربعة أيام مرة أخرى. . حينئذ بدأنا نحصي أنفسنا، كم كان عددنا عندما نزلنا إلى الشاطىء، وقد وجدنا العدد 114 فرداً، منهم اثنان غرقا في البحر، وثمانية قتلوا في المواجهة الأولى، فيبقى 104 أفراد، ذهب 25 منهم باتجاه الغرب معنا، و 52 إلى الشمال مع هوبر وإنجرام، وكما أبلغني انجرام لم يزد من قتل منهم على ثلاثة، وكان هنا 26 منهم عادوا إلينا مرة ثانية، حتى إن الجماعة التي ذهبت باتجاه الشمال لا يزال ينقص منها ـ ولم نسمع عنهم شيئاً مؤكداً ـ عدد 23 فرداً، وفي الواقع أعتقد أنه ما زال بعضهم حياً، وتزوجوا في البلد المذكورة عند «سيبولا» كما قصدت أنا ـ هنا فيما بعد بمشيئة الله ـ لمناقشة الأمر على وجه الخصوص، بالأسباب والعلل التي جعلتني أفكر بهذا الشكل في أولئك المفقودين، الذين كان من بينهم قبلاً، دافيد إنجرام وتوايد، برادن ومجموعة أخرى، لا نتذكر أسماءها.

وبعدما تلاقينا هكذا معاً، استمر رحيلنا باتجاه الغرب أحياناً خلال تلك الغابات الكثيفة التي أجبرتنا على إزاحة الأفرع والشجيرات بعيداً بالهراوات كي لا تمزق أجسادنا العارية، وفي بعض الأحيان كنا نرحل عبر السهول وسط أعشاب عالية لدرجة لا يرى فيها بعضنا بعضاً، وبينما كنا نمر ببعض المناطق، كنا نفقد بعض رجالنا قتلى، يسقطون فجأة إذ يطعنهم الهنود الذي يختبئون خلف الأشجار والشجيرات، في أماكن غير ظاهرة، وهكذا قتلوا بعضاً من رجالنا، كلما مررنا بجوارهم، لأننا كنا نذهب متفرقين بحثاً عن الفاكهة لنقيم أودنا.

وكنا ـ أيضاً ـ في أغلب الأوقات في غاية الضيق من نوع من الذباب الذي يدعونه بالهندية «تيكواني» ويدعوه الأسبانيون موسكيتاس. «البعوض» كان هناك كذلك في هذا البلد، العديد من الحشرات الأخرى، لكن أي منها لم يكن مزعجاً بمثل إزعاج حشرات «التيكواني» هذه. فأنت تراها بصعوبة، فهي في منتهى

الصغر، ولا يزيد حجمها على حجم الهوام، وتمتص دم الإنسان بقوة، وإذا ما قتلتها أثناء الامتصاص، وهي سامة، فإن مكانها يتورم بشدة كما لو كان الإنسان قد لدغته نحلة أو دبور «زنبور». لكنك إذا ما تركتها تمتص كفايتها وتطير من تلقاء نفسها فلا يصبك أذى آخر، تاركة خلفها بقعة حمراء أكبر قليلاً من عضة البرغوث.

في البداية كنا شديدي الانزعاج بهذه الأنواع من الحشرات ولا نعلم طبائعها ولم نستطع إبداء أي مقاومة تجاهها إذ كنا عراة، أما بالنسبة للبرد فلم نكن نخشاه، لأن البلد هناك كانت دائماً دافئة، وبينما كنا نسافر هكذا لمدة عشر أو اثني عشر يوماً، قام قائدنا في أغلب الأوقات بإرسال بعضاً منا إلى قمم الأشجار العالية ليروا إذا ما كانوا يتبينون أية مدينة أو تجمعاً سكنياً لكنهم لم يلحظوا شيئاً وباستخدام هذا النظام في تسلق الأشجار العالية وبعد فترة، تبيّنوا نهراً كبيراً يجري من الشمال الغربي نحو عرض البحر. وبعد ذلك مباشرة سمعنا صوت إطلاق غدارة قديمة، مما شجعنا كثيراً إذ بهذا علمنا أننا قريبون من بعض المسيحيين ولذا أملنا أن نجد سريعاً بعضاً من المساعدة والراحة.

وخلال مدة ساعة بعد ذلك وبينما كنا نسير سمعنا صياح ديك فكانت فرحة عظيمة لنا.

وهكذا أتينا إلى الجانب الشمالي من نهر بانوكو حيث يملك الأسبانيون بعضاً من الملاحات في المكان الذي أطلقت منه الغدارة التي سمعنا صوت رصاصها من قبل ولم نذهب إلى هذا المكان مباشرة لكننا تجنبناه وتركناه بمسافة مدى رمية سهم في اتجاه يسارنا.

وقد شربنا من هذا النهر بشراهة لأننا لم نصادف مياهاً في الأيام الستة الماضية وبينما نحن بجوار النهر نريح أنفسنا، ونتلهف للوصول إلى المكان الذي صاح منه الديك وحيث صدر رصاص الغدارة، تبيّنا العديد من الأسبان على الجانب الآخر من النهر، يسيرون جيئة وذهاباً على ظهور الخيل، وبعدما لاحظونا اعتقدوا أننا من الهنود الشيشمكس» أعدائهم التقليديين، وإذ كان النهر لا يبعد

عنهم نصف مدى رمية سهم، ففي الحال أخذ أحد الإسبان قارباً هندياً يدعونه «كانو» وأتى نحونا، بينما كان فيه اثنان من الهنود يجدفان، وبعدما استطلع وضعنا جيداً، جدفوا له كي يعود في الحال إلى زملائه وبلا تأخير برز منهم فوراً حوالى عشرين فارساً صعدوا على ظهور القوارب وقادوا خيولهم باللُّجُم ليسبحوا خلفهم وما إن وصلوا إلى الجانب الآخر من النهر حيث كنا حتى أسرجوا خيولهم وامتطوها وبحرابهم المشرعة أتوا بوحشية مندفعين نحونا.

وعندما رأى قائدنا أنطوني جودارد هؤلاء القادمين بهذا الشكل، أقنعنا بتسليم أنفسنا لهم إذا كنا عراة في ذلك الوقت وبلا سلاح ولم نستطع أن نبدي أي مقاومة فأطعنا أمره.

ومع تسليم أنفسنا أدركوا أننا مسيحيين، واستدعوا المزيد من القوارب وحملونا عبر النهر كل أربعة في قارب. عندما وصلنا للضفة الأخرى وفهموا من قائدنا كم بقينا بلا لحم، وزعوا بين كل اثنين رغيفاً من الخبز صُنع من قمح هذه البلاد الذي يسميه الأسبان (الذرة) بحجم رغيف من خبزنا ذي النصف بنس. ويسمى باللغة الهندية (كلا شاكالي) كان هذا الخبز حلواً ورائعاً لنا، لأننا لم نتناول شيئاً منذ مدة طويلة فما هو الشيء الذي لا يجعله الجوع مقبولاً وحلواً؟.

وبعدما اقتسمنا الخبز بيننا هكذا، أرسلوا الكبار أولاً إلى المدينة ومعهم العديد من الهنود سكان المنطقة لحراستهم، وأما الصغار كالأولاد وبعض الضعاف فأخذوهم خلفهم على ظهور الخيل، وهكذا حملونا إلى المدينة حيث يسكنون وكانت قريبة على مسافة ميل من المكان الذي أتينا منه وهذه المدينة (تامبيكو) ذات موقع جميل وتمتلىء بكل أنواع الفاكهة مثل البرتقال والليمون والرُمَّان والمشمش والخوخ وبعض الأنواع الأخرى، يسكنها عدد من الهنود أو المكسيكيين المتحضرين وبها في نفس الوقت حوالى 200 أسباني (رجالاً ونساءً وأطفالاً) بجانب الزنوج.

ومن الملاحات، التي تقع على الجانب الغربي من النهر بمسافة أكثر من ميلٍ من هنا، جنوا أرباحاً ضخمة. إذ إن الملح سلعة تجارية هناك وجيدة يشتري

الهنود منه الكثير ويحملونه داخل البلاد ويبيعونه لشعبهم بعد مضاعفة الثمن. وعندما وصلنا إلى المدينة أظهر الحاكم نفسه لنا بمنتهى القسوة وهدد بشنقنا جميعاً ثم سأل عما نملك من نقود. التي كانت في الحقيقة قليلة جداً لأن الهنود أخذوها منا دون قصد، ومن القليل الذي تبقى اغتصب الأسبان، الذين أحضرونا، جزءاً آخر غير قليل. وعلى أية حال أخذ الحاكم من أنطوني جودارد سلسلة من الذهب كان قد أعطاها له حاكم قرطاجنة، وأخذ من الآخرين بعضاً قليلاً من النقود حتى إن ما حسبناه بيننا بلغ 500 بيزوس والسلسلة الذهبية، وبعدما أرضى نفسه بالاستيلاء على ما نملك أمر بوضعنا في منزل صغير مثل حظيرة الخنازير حيث كدنا نموت اختناقاً، وقبل أن نُحبس في هذا الكوخ الصغير، أعطونا بعضاً من قمح البلاد، الذي يسمونه ذرة مبللاً، والذي يطعمون به خنازيرهم، في حين رغب العديد من رجالنا الذين ـ أصيبوا في أول لقاءنا بالهنود والذين كانت جراحهم خطيرة ـ في الحصول على بعض العلاج من جراحهم كي تشفى الجروح، فأجابنا الحاكم ومعه معظم رجاله: «نحن ليس لدينا جرّاح سوى الجلاد[1] الذي يمكنه أن يشفينا بجلاء من آلامنا».

وهكذا حطوا من كرامتنا داعيننا «الكلاب الإنجليزية» و«الهراطقة اللوثريين»[2] وبقينا فترة ثلاثة أيام في هذه الحالة السيئة، لا نعلم ما سيحدث لنا، ننتظر كل ساعة أن نفقد حياتنا.

وفي اليوم الرابع من وصولنا هنا، وبقائنا في اضطراب عظيم، متطلعين كل ساعة للحظة نفقد فيها أرواحنا، جاء عدد كبير من الأسبان والهنود المسلحين، ليخرجونا من المنزل، وتبينا فيما بينهم واحداً أحضر أنشوطات عديدة وجديدة دُهشنا بشدة حال رؤيته، ولم نفعل شيئاً سوى الدعاء لله أن يرحمنا ويغفر لنا خطايانا، وأعددنا أنفسنا للموت.

---

(1) في الأصل Hangman الرجل الذي يقوم بالشنق ولا مرادف له في العربية بهذه الدقة.

(2) نسبة إلى مارتن لوثر صاحب ثورة الإصلاح الديني ضد الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا ومؤسس المذهب البروتستانتي، «المترجم».

وفي النهاية، كما أظهرت الأحداث، لم تكن تلك نيتهم، إذ ما إن خرجنا من المنزل حتى ربطوا أيدينا بهذه الأنشوطات خلف ظهورنا. وقسمونا اثنين، اثنين، وأمرونا بالسير عبر المدينة وهكذا على طول البلد من مكان لآخر باتجاه مدينة مكسيكو. التي تبعد عن «بانوكو» [تامبيكو] جنوباً بغرب مسافة ستين ليجاً، ومعنا أسبانيان فقط لسوقنا مصحوبين بعدد كبير من الهنود متقدمين على كلا الجانبين بالأقواس والسهام خشية أن نهرب منهم خلال سفرنا هكذا بهذا النظام، وفي اليوم الثاني عند الليل، وصلنا إلى مدينة يسميها الهنود «نويلي» ويسميها الأسبان «سانتاماريا» يوجد فيها دير للرهبان المدعوين «الأخوة البيض». الذين عاملونا بأدب، وأعطونا طبقاً ساخناً من المرق ولحم الغنم، وملابس نستر بها أنفسنا مصنوعة من الصوف الأبيض. وقد أكلنا اللحم بشراهة ومن فاكهة هندية تُدعى «نوكولي» ثمرتها صغيرة وطويلة تشبه الخيار، وتسبب نهمنا في الطعام لأن نسقط أعياء من الحُمى.

ومات هنا واحد من رجالنا اسمه توماس بيكر متأثراً بجراحه لأنه رُمي بسهم في عنقه أثناء الصدام الأولى. وفي الصباح التالي حوالى الساعة العاشرة رحلنا من هنا، قاصدين اثنين، اثنين معاً، وبحراسة سبق وصفها. ورحلنا في طريقنا إلى مكسيكو حتى وصلنا مدينة على مسافة أربعين ليجاً من مكسيكو اسمها «ستيكلان» حيث يوجد بها معبد لرهبان «الأخوة السود» وفي هذه المدينة حوالى 300 أسباني رجالاً ونساءً وأطفالاً، وأرسل الرهبان اللحم المطهو لنا، وعاملنا الرهبان والرجال والنساء بأدب كثير، وأعطونا قمصاناً وأشياء أخرى كانت تنقصنا. وهنا أيضاً كان رجالنا في شدة المرض من الحمى، ومن تناول فاكهة أخرى تسمى بالهندية «جوياكوس». . وفي الصباح التالي رحلنا من هناك ومعنا الحارسان الأسبانيان وبقية الحراس الهنود كما سبق أن ذكرت.

ومن بين هذين الأسبانيين، كان واحد كبير السن يعاملنا بمنتهى الأدب طوال الطريق، وكان يذهب بحرص ليمدنا باللحم والضروريات الأخرى بقدر استطاعته، وكان الآخر شاباً ـ رحل معنا ولم يفارقنا طوال الطريق ـ، وهو شخص

شديد الشر وجبان، وكان يحمل في يده رمحاً صغيراً، وعندما كان رجالنا لا يستطيعون السير بالسرعة التي كان يطلبها منهم بسبب ضعفهم وإعيائهم، يقوم بضربهم بهذه الحربة بكلتا يديه فيما بين الرقبة والكتفين بقوة لدرجة أنهم كادوا يقعون على الأرض، ثم يصيح بالأسبانية ما معناه «امضوا ـ امضوا أيها الكلاب الإنجليز، يا لوثريين يا أعداء الله». .

وفي اليوم التالي وصلنا مدينة تسمى «باشوكا» وهناك مكانان بهذا الاسم «مدينة باشوكا» و «مناجم باشوكا» التي هي مناجم للفضة وتبعد حوالى ستة ليجات من المدينة، باتجاه الشمال الغربي. في هذه المدينة سمح لنا الرجل الطيب ـ حارسنا ـ أن نقيم يومين وليلتين متألماً لمرض وضعف رجالنا، ضد رغبة رفيقه الشاب.

من هناك واصلنا رحلتنا أربعة أو خمسة أيام مروراً بقليل من القرى والنجوع التي هي مجرد مزارع أو معامل ألبان للأسبانيين، ودائماً كلما احتجنا كان الرجل الطيب العجوز يمدنا باستمرار بما يكفينا من اللحم والفاكهة والمياه ليقيم أودنا. وفي نهاية الخمسة أيام وصلنا إلى مدينة على بعد خمسة ليجات من مكسيكو تسمى «كووجليكان» حيث مكثنا يوماً كاملاً وليلتين وحيث كان يوجد دير جميل لرهبان «الأخوة الرماديين» وعلى أية حال لم نر أحداً منهم.

وهنا أخبرنا الأسبانيون من أهل المدينة، أننا لا نبعد أكثر من خمسة عشر ميلاً إنجليزياً من مكاننا حتى مدينة مكسيكو، مما جعلنا في منتهى السرور والسعادة آملين بمجرد وصولنا إما أن نرتاح ويطلق سراحنا أو نموت وينتهي الأمر. لأننا وجدنا أنفسنا نُنقل مقيدين هكذا من مكان لآخر، بالرغم من أن البعض عاملنا بأدب إلاّ أننا لم نجد المتعة ولا المرح حتى نجد أنفسنا مطلقي السراح بلا قيود أو نموت أو ما إلى ذلك.

وقد رحلنا في الصباح التالي من هناك في رحلتنا نحو «مكسيكو» ومضينا حتى وصلنا لمسافة «ليجين» منها، حيث بنى الأسبان كنيسة بديعة تدعى «كنيسة سيدتنا العذراء» وحيث توجد فيها صورة للسيدة العذراء من الفضة وطبقة من

الذهب، في طول وحجم امرأة طويلة، وفي هذه الكنيسة وأمام تلك الصورة توجد العديد من المصابيح الفضية بعدد أيام السنة، تُضاء في مناسبات معينة، وكلما مر الأسبان أمام هذه الكنيسة، حتى لو كانوا فوق ظهور الخيل، يهبطون ويدخلون الكنيسة ويركعون أمام تلك الصورة ويبتهلون للعذراء أن تدفع عنهم كل شر، حتى إنه لا يمكن لأي فرد ـ راكباً حصانه أو سائراً ـ أن يمر بجوار الكنيسة قبل أن يدخلها أولاً ويصلي كما سبق أن ذكرت. بحيث إذا لم يفعلوا ذلك فهم يعتقدون بأنهم لن يفلحوا أبداً. وتلك الصورة يدعونها بالأسبانية «نوسترا سنيورا أوف جوادالوب».

وفي هذا المكان توجد حمامات معينة باردة ترتفع، بنافورة عالية، رغم أن مياهها تكاد تغلي، ومذاقها مالح إلى حد ما، لكنها مفيدة لمن به جرح أو ألم إذا ما أخذوا حماماً بها، إذ إنها كما يقولون تشفي الكثيرين. وفي كل عام اعتاد الناس الحضور يوم ذكرى السيدة العذراء لعمل التقدمة، وللابتهال أمام الصورة، وهم يقولون إن السيدة «أوف جوادالوب» قد أتت عديداً من المعجزات. ولم يكن بين المناطق التي حول الكنيسة مدينة آهلة بالأسبان لكن ببعض الهنود الذين قطنوا هناك في بيوت من طراز بيوتهم الوطنية.

وقد تقابلنا هنا مع عدد كبير من الإسبان على ظهور الخيل، أتوا من مكسيكو لرؤيتنا من السادة والرجال ذوي الحيثية وقد حضروا كعامة الناس ليروا أعجوبتنا. وما زالوا يحثوننا على السير قدماً، وهكذا عند حوالى الساعة الرابعة من بعد الظهر، دخلنا مدينة مكسيكو من طريق يقال له (لاكالا دوسانتا كاترينا) ولم نسترح في أي مكان حتى وصلنا إلى قصر الحاكم (دون مارتن دو هنريكوز) الذي يقع في وسط المدينة بجوار ميدان السوق (لابلازاديل ماركيس).

ولم نبق فترة طويلة في ذات المكان وإنما هناك أحضر لنا الأسبان مؤونة كبيرة من اللحم من هذا السوق تكفي لسد حاجة خمسة أضعاف عددنا، وبعضهم أعطانا قبعات وبعضهم نقوداً حيث بقينا ساعتين في هذا المكان. ومن هناك أركبونا قوارب عبر النهر إلى مستشفى ما، حيث أبقوا بعضاً من رجالنا كانوا قد

أصيبوا من قبل في معركة سان جوان دو أولوا، وأما نحن فكان يجب أن نذهب لمستشفى سيدتنا العذراء، لكن كان هناك عديد من الرجال أُخذوا من قبل، بحيث لم يعد هناك حجرات لنا، وبعد وصولنا هناك مات العديد من الرفاق الذين أتوا بصحبتي من «بانوكو» وذلك خلال أربعة عشر يوماً، وبعد ذلك أخذونا ـ في الحال ـ من هذا المكان ووضعونا في مستشفى «سيدتنا العذراء» حيث أحسنوا معاملتنا، وفي أغلب الأوقات قام رجال وسيدات أفاضل من المدينة بزيارتنا، وأحضروا لنا أشياءً عديدة نستخدمها لحاجاتنا مثل، اللحوم، والمربيات وباقي هذه الأشياء، وقد أعطونا ذلك مرات عديدة وبكرم شديد، ومكثنا في هذه المستشفى مدة ستة أشهر حتى شفيت أجسامنا.

ثم أصدر الحاكم تعليماته بأخذنا إلى مدينة تيسكوكو، التي تقع على بعد ثمانية ليجات من مدينة مكسيكو إلى الجنوب الغربي، حيث يوجد بهذه المدينة بعض من دور الإصلاح والعقاب، مثل دار «برايدويل» الموجودة في لندن، بينما كان يباع في ذلك المكان الهنود كعبيد، بعضهم لعشر سنوات والبعض الآخر لاثنتي عشرة سنة، ولم يكن ألمنا قليلاً عندما فهمنا أننا سنذهب إلى هناك ويتخذوننا عبيداً، إذ كان من الأفضل لنا أن نموت.

وعلى أية حال، لم يكن أمامنا حلّ آخر، فحملونا إلى سجن تيسكوكو. وهناك لم نقم بأية أعمال وإنما ضيقوا علينا الحراسة حتى أصابنا الهزال تقريباً، إلاّ أنه بالبرهان الطيب لإلهنا الرحيم، تصادف أن تقابلنا هناك مع واحد اسمه «روبرت سويتنج» كان ابناً لرجل إنجليزي ومولود لامرأة أسبانية، وكان يتحدث الإنجليزية بطلاقة وبواسطته، دبر لنا الكثير من المؤن من الهنود، مثل، الخراف، والدجاج، والخبز، وإذا لم تكن حاجاتنا قد أشبعت هكذا، لكان من المؤكد أن نموت، إلاّ أن كل المواد الغذائية التي حصلنا عليها بهذا الشكل كانت ضئيلة، وقد أبقونا في هذه الشدة باستمرار لمدة شهرين في السجن، وفي النهاية اتفقنا فيما بيننا على أن نحطم سجننا مهما كانت النتائج، لأننا نفضل أن نموت على الحياة أكثر من ذلك في هذه الحالة البائسة.

وهكذا بعد هروبنا من السجن لم ندر إلى أين نهرب من أجل الأمان لأنفسنا، وكان الليل مظلماً، والسماء تمطر بغزارة، وليس معنا دليل، فمضينا لا نعرف إلى أين؟ وفي الصباح ومع قدوم ضوء النهار، كشف الأسبان أماكننا وطاردونا وأمسكوا بنا، ثم أحضرونا أمام الحاكم والقضاة، هددونا بالموت شنقاً بسبب تحطيمنا لسجن الملك، إلاّ أنهم في النهاية أرسلونا إلى حديقة تابعة للحاكم، وما إن وصلنا هناك حتى وجدنا ضباطنا الإنجليز الذي سبق تسليمهم كرهائن، عندما غُدر بقائدنا في «سان جوان دولوا»[1] كما سبق القول، ووجدنا معهم أيضاً روبرت باريت كابتن السفينة «جيسوس». وفي ذلك المكان، بقينا نعمل ونؤدي بعض الأمور التي يكلفوننا بها، لمدة أربعة أشهر، وليس لنا سوى خروفين في اليوم لسد حاجتنا جميعاً، ونحن حوالى مائة رجل، وبالنسبة للخبز، كان لكل فرد، رغيفان يومياً، من حجم رغيف العيش ذي النصف.

وبنهاية الأربعة أشهر، نقلوا ضباطنا الرهائن وقبطان السفينة «جيسوس» إلى سجن في منزل الحاكم، الذي أمر بالإعلان أن كل سيد إسباني - مهما يكن - راغباً أو لديه أحد الإنجليز في خدمته ومرتبط بإحضاره للمثول أمام المحكمة، خلال شهر من بعد إخطاره، عليه أن يأتي للحديقة المذكورة، وينتقي ما يريد، وبمجرد إصدار هذا الإعلان جاء السادة إلى تلك الحديقة مسرعين، وسعيداً كان هذا الذي يحصل على واحد منا. . وقد صنع السادة، الذين أخذونا خدماً أو عبيداً، زياً جديداً لنا، والذين عشنا معهم نقوم بأداء الخدمات التي عينوها لنا. وكانت في جزء منها، التخديم على مائدة الطعام، أو العمل كمدبري منازل لهم، أو متابعة عملهم عندما يسافرون للخارج، والتي كانوا يقدرونها تقديراً كبيراً، إذ إن في هذه البلد لا يوجد أسباني يخدم أسبانياً آخر، لكنهم جميعاً يقوم الهنود بخدمتهم ومعاونتهم أسبوعياً، وكذلك الزنوج الذين هم عبيدهم طوال حياتهم.

وبذلك الشكل، بقينا وخدمنا في مدينة مكسيكو المذكورة، وما حولها لمدة

---

(1) واضح هنا أن النص الذي بين أيدينا قد اجتزاه محرر الكتاب من نص أطول، إذ لم يسبق التعرض لهذه القصة من قبل، «المترجم».

عام أو أكثر قليلاً. والآن وبعد انتهاء الستة أعوام تماماً منذ أول قدوم لنا إلى جزر الهند الغربية، في هذه الفترة التي سُجنا فيها وخدمنا. كما سبق أن صرحت حقيقة، في عام 1574 افرنجي بدأت محاكم التفتيش عملها في جزر الهند الغربية، ضد الكثير من آراء عديد من الأسبانيين أنفسهم، إذ لم يسبق لهم أبداً حتى ذلك الوقت منذ غزوا واستعمروا هذه البلاد أن تعرضوا لمثل هذا التحقيق الدموي والوحشي.

كان المحقق الأول يسمى «دون بيدرو مويا دو كونتريرس» ورفيقه «جوان دو بويلا» والمدعي العام «جون سانخيز» وسكرتارية «بيدرو دولاريوس» كانوا يأتون ويقيمون في منزل جميل بجوار دير «الأخوة البيض»، آخذين في اعتبارهم أن يبدأوا مدخلاً ومنطلقاً لتحقيقهم المقيت هنا في مكسيكو، لإرهاب كل البلد، مفضلين استدعاءنا نحن الإنجليز لنكون بداية التحقيق، ولذا أرسلوا في طلبنا، وبحثوا عنا في سائر أنحاء القطر، وأذيع إعلان يحذر من عقوبة مصادرة الممتلكات والحرمان من الكنيسة لكل من يخفي أو يحتفظ سراً بأحد الإنجليز أو ببعض من ممتلكاته، وبذلك قبضوا علينا جميعاً في كل الأماكن وأخذت ممتلكاتنا وأرسلت إلى المحققين.

وهكذا ساقونا من جميع أنحاء البلاد وأرسلونا كسجناء إلى مدينة مكسيكو، وهناك وضعونا في السجن، في أقبية مظلمة مختلفة حيث لم نكن نستطيع الرؤية إلاّ بضوء الشموع ولم يتركونا حتى اثنين معاً في مكان واحد، كي لا يرى الواحد منا الآخر، ولا يروي ما يحدث لزميله.

وبقينا هكذا محبوسين بشدة لمدة سنة ونصف، وآخرون لمدة أقل، إذ أتوا للسجن بمجرد أن قبض عليهم.

وخلال فترة السجن، في البداية كنا نستدعى أمام المحققين بمفردنا ويمتحنوننا بقسوة في إيماننا، ويأمروننا بقول «أبانا، ومريم العذراء، وأناجيل الحواريين باللغة اللاتينية»، ويعلم الله أن عدداً كبيراً منا لم يستطيع نطقها إلاّ بالإنجليزية.

وكان معهم روبرت سويتنج الذي كان صديقنا في تيسكوكو، كمترجم دائماً، وقد كتب لهم تقريراً عنا، إننا نستطيع أن نقول هذه الكلمات بدقة بلغة بلدنا وإن لم تكن كلمة بكلمة مثلما هي في اللاتينية. فاستمروا في سؤالنا عن إيماننا: «ماذا نعتقد في الطقوس المقدسة؟» وعما إذا تبقى خبز وخمر بعد القداس، نعم أم لا؟، وإذا ما كنا نعتقد أن خبز التناول الذي يحمله القس على رأسه والخمر الموجودة في الكأس هما حقيقة وتجسدا دم وجسد مخلصنا المسيح، نعم أم لا؟ وعلى ذلك إذا لم تكن إجابتنا «نعم» فلا مفر من الموت. عندئذ كانوا سيسألوننا ماذا نذكر عن أنفسنا، وما الآراء التي تعلمناها خلافاً لذلك حينما كنا في إنجلترا؟» وهكذا ومن أجل إنقاذ أرواحنا.

اضطررنا للقول: «إننا لم نؤمن ولم نتعلم خلاف ما سبق أن ذكرناه». عندئذ يتهموننا بإننا «لم نخبرهم بالحقيقة إذ إنهم يعلمون عنا عكس ذلك، ولذلك فسوف يدعوننا كي نتذكر، ونقدم لهم إجابة أفضل في المرة القادمة وإلاّ فسوف نعَذب ونرغم على الاعتراف بقول الصدق سواء رضينا أم لم نرضَ».

وهكذا نُمثل أمامهم مرة أخرى ما زلنا نُسأل عن معتقداتنا عندما كنا في إنجلترا وكيف تلقينا تعليمنا؟ وكذلك عن رأينا في زملائنا وما نعرفه عنهم كما حددوهم لنا بالاسم، حتى إننا لم نستطع أبداً تجنب تلك الأسئلة، وفي أوقات أخرى، يعدوننا إذا ما أخبرناهم بالحقيقة فسوف نحصل على العفو ويطلقون سراحنا، رغم أننا نعلم تماماً أن كلامهم المعسول ليس سوى وسيلة للإيقاع بنا في المأساة وفقدان حياتنا.

وعلى أية حال، فالله برحمته عمل من أجلنا، وبوسائل سرية كنا رتبناها، بقينا على إجابتنا الأولى، واستمر قولنا «إننا قد أخبرناهم بالحقيقة، ولا نعلم أكثر بأنفسنا ولا بأي من رفاقنا مما سبق لنا التصريح به، وإنه بالنسبة لخطايانا ومعصيتنا في إنجلترا ضد الله وضد سيدتنا العذراء والقديسين المباركين، فإننا نندم من قلوبنا من أجل ذلك، ونلح في طلب رحمة الله، ونستحث المحققين، من أجل خاطر الله، أن يأخذوا في اعتباراتهم أننا جئنا بلادهم لرداءة الجو ورغم إرادتنا، وأننا لم

نتفوه ولم نأت فعلاً ضد قوانينهم، لذا قد يهبوننا الرحمة». . إلاّ أن ذلك كله لم يُجد معهم. . ومنذ فترة ثلاثة أشهر من قبل [يناير 1575 افرنجي]، كانوا قد استمروا في محاكمتهم القاسية، وكنا قد عُذبنا جميعاً، وأجبر بعضنا على الاعتراف ضد أنفسهم، مما كلفهم فيما بعد حياتهم.

وبعدما حصلوا على ذلك من أفواهنا، كان ذلك كافياً لهم للاستمرار في محاكمتهم ضدنا، فأمروا بعمل منصة في وسط ميدان السوق في مكسيكو، أمام الكنيسة الرئيسية مباشرة وقبل المحاكمة بأربعة عشر أو خمسة عشر يوماً، ومع أصوات النفير وصخب طبول «الأتابولي» يجمعون الناس في كل أجزاء المدينة ويعلن أمامهم رسمياً أن: «كل من يتواجد في ميدان السوق في ذلك اليوم، سوف يستمع لحكم المحكمة المقدسة ضد الإنجليز الهراطقة، اللوثريين، ويراهم وقد نُفذت فيهم تلك الأحكام».

وتم فعل ذلك، واقترب وقت الحكم الوحشي، ففي الليلة السابقة أتوا إلى السجن حيث كنا، مع بعض ضباط هذا المجلس المقدس الجهنمي، وقد أحضروا معاطف معينة للمتهمين أعدوها خصيصاً لنا يسمونها في لغتهم «سان بينتوس» كانت مصنوعة من القطن الأصفر، وعليها صلبان حمراء من الأمام والخلف، وانشغلوا بإلباسنا معاطفهم تلك حولنا، وأحضرونا إلى فناء كبير، ونظمونا وبينوا لنا في أي ترتيب سنذهب إلى المنصة أو مكان الحكم في الغد. حتى إنهم لم يسمحوا لنا بالنوم طوال تلك الليلة.

وعندما أتى الصباح التالي، أعطوا لكل واحد منا كأساً من الخمر وشريحة خبز مقلية مع العسل، لإفطارنا، وهكذا حوالى الساعة الثامنة في الصباح، أخرجونا من السجن، كل رجل بمفرده في معطفه الأصفر، وحول رقبته حبل، وشمعة خضراء ضخمة في يده غير مشتعلة، وعينوا أسبانياً للسير على كل الجانبين لكل واحد منا وهكذا سرنا بذلك النظام والسلوك نحو المنصة في ميدان السوق، التي كانت على مرمى ضربة قوس أو نحو ذلك، ووجدنا تجمعاً كبيراً من الناس طوال الطريق، ومتزاحمين لدرجة أن بعضاً من مكتب التحقيق على

ظهور خيولهم شقوا أمامنا الطريق. وبعد وصولنا للمنصة، صعدنا درجتين من السلالم ووجدنا مقاعد جاهزة ومعدة لجلوسنا، كل واحد في ترتيبه حيث يُنادى لتلقي الحكم عليه، وبعد أن جلسنا كما حددوا لنا، صعد المحققون بسرعة عبر درجتين أُخريين من السلالم، والحاكم ورئيس القضاة معهم.

وعندما جلسوا تحت علم الدولة، واصطفوا وفقاً لدرجاتهم الاجتماعية وألقابهم. حينئذ حضر أيضاً عدد كبير من الرهبان، البيض والسود والرماديين، يقرب من 300 فرد وجلسوا في الأماكن المعينة لهم هناك.

وارتفع صوت جاد طالباً الانتباه، والأمر بالسكوت، وبعدها بدأت على الفور محكمتهم القاسية والشريرة.

وكان الرجل الأول الذي نودي عليه، فرداً اسمه «روجر» رئيس حرس السفينة «جيسوس»، وحكم عليه بثلاثمئة جلدة على ظهر الجواد وبعدها يؤخذ إلى الأسطول للعمل كعبد لمدة عشرة أعوام.

وبعده، نودي على جون جراي، وجو براون، وجون رايدر، وجون مون، وجيمس كولبير وألفرد توماس براون، وحكم عليهم بـ 200 جلدة على ظهور الخيل، وبالعمل في الأسطول لمدة ثمانية أعوام.

ثم جون كييس وحُكم عليه بمائة جلدة على ظهر الحصان والخدمة بالأسطول لست سنوات، ثم نودي على الباقين حتى رقم 53 واحداً وراء الآخر، ونال كل رجل حكمه، بعضهم بـ 200 جلدة على ظهور الخيل، والبعض بـ 100 جلدة وحكم عليهم بالعبودية في الأسطول، بعضهم لمدة ست سنوات، والآخر لثمان سنوات وبعضهم لعشر.

وبعد ذلك، كنت أنا «مايلز فيليبس» نودي عليّ، وكان الحكم أن أخدم في الدير لخمسة أعوام بدون جلد، وبارتداء معطف الخطاة المسمى «سان بينتو» خلال هذه المدة.

ثم نودي على «جون ستوري» و «ريتشارد ويليمز» و «دافيد أليكساندر»

و«روبرت كوك» و «بول هورسويل» و «توماس هال» وحكم على هؤلاء الستة بالخدمة في الأديرة دونما جلد، البعض لثلاث سنوات والبعض لأربع، مع ارتداء معاطف «سان بينتو» هذه خلال مدة الحكم.

وبعدها تم تنفيذ ذلك، ومع اقتراب الليل، نودي على جورج ريفيلي، وبيرت موفري، والإيرلندي كورنيليوس وحكم عليهم بالحرق حتى يصبحوا رماداً، وبسرعة أخذوهم إلى مكان التنفيذ في ميدان السوق على مسافة قريبة من المنصّة حيث أحرقوا فوراً وماتوا.

وبالنسبة لنا الذين تلقوا الحكم، وكان عددنا 68، فقد حملونا عائدين للسجن مرة أخرى، وفي صباح اليوم التالي وكان «الجمعة الطيبة»[1] من عام 1575 افرنجي، أحضرونا جميعاً إلى فناء قصر المحققين، حيث وجدنا حصاناً جاهزاً لكل واحد من رجالنا الذين حكم عليهم بالجلد، وبالخدمة في الأسطول وكان عددهم 61 فرداً.

وهكذا أرغموهم على امتطاء ظهور الجياد، عراة من منتصفهم إلى أعلى، وحملوا ليعرضوا في مشهد أمام كل الناس في الشوارع الرئيسية والهامة بالمدينة، ونال كل واحد الجلدات التي حُددت له، نزلت على أجسادهم العارية بوحشية من سياط طويلة يمسكها رجال مختلفون معينون لتنفيذ تلك الأحكام. وأمام رجالنا تقدم اثنان من المنادين يصيحون وهم يسيرون: «انتبهوا لهؤلاء الإنجليز الكلاب، اللوثريين، أعداء الله». وطوال الطريق الذي يمشون فيه، كان هناك بعض من المحققين أنفسهم ومن المنتمين لهذا النظام الدنيء، يصيحون في القائمين بالتنفيذ، «اضربوا، انزلوا سياطكم على الإنجليز الهراطقة، هؤلاء اللوثريين، أعداء الله». وهكذا بعدما تم هذا الاستعراض المخيف في أرجاء المدينة، وعادوا إلى منزل المحققين وظهورهم تسيل جميعها بالدم ومتورمة بسحجات كبيرة، أخذوا من فوق ظهور الجياد، وحُملوا إلى السجن، حيث بقوا فيه إلى أن أرسلوا إلى أسبانيا للحاق بالأسطول، لاستكمال باقي حكمهم الاستشهادي.

---

(1) الجمعة الطيبة Good friday الجمعة التي تسبق عيد قيامة المسيح عليه السلام، «المترجم».

أما أنا ومعي ستة آخرون من الذين حكم عليهم مع الباقين، أن نلتزم بالخدمة في الأديرة، فقد أخذونا على الفور وأرسلونا إلى دور عبادة معينة حددوها من أجل هذا الغرض.

نهب الجيش الأسباني لمدينة أنتويرب

«4 نوفمبر/الحرث 1576 افرنجي»

*** جورج جاسكواني**

«.. كان «الغضب الأسباني» المزعوم الذي أسلم مدينة أنتويرب للخراب، حادثة في تاريخ الحروب الدينية في أواخر القرن السادس عشر وكان جورج جاسكواني شاعراً وروائياً إنجليزياً».

.. كنت قد أقمت في «السفارة الإنجليزية» ولم أغادرها ذلك الصباح، بسبب أعباء العمل التي بين يدي هذا اليوم، وعند وقت الغذاء - منتصف النهار -، أخبرني التجار من أبناء وطني - الذين أتوا من المدينة وتناولوا طعامهم بحجرتي - أن مناوشات حادة قد بدأت في فناء القلعة، وأن الغضب هناك ما زال يتأجج، وعند حوالى منتصف وقت طعامنا، جاءت الأنباء، بأن إطلاق النيران كان كثيفاً لدرجة أن الإنسان لا يمكنه تمييز الأرض ولا البيوت ولا البشر من الدخان المتصاعد بسبب ذلك.

وقبل أن ينتهي طعامنا تماماً، كان الأسبان على وشك الاستيلاء على الخنادق، عند ذلك نهضت من المائدة، وصعدت بسرعة إلى برج عال من السفارة الإنجليزية المذكورة، حيث شاهدت منه نيراناً تندلع في أربعة أو خمسة أماكن من المدينة في اتجاه فناء القلعة، وهنا تأكدت تماماً أن الأسبانيين قد دخلوا - حقاً - الخنادق، حتى إنني هبطت وأخذت عباءتي وسيفي، لأتبين الحقيقة هناك، وبينما كنت أمر باتجاه سوق المال «البورصة»، قابلت الكثيرين لكنني لم ألحق أحداً، أما أولئك الذين قابلتهم فلم يكونوا من أهالي المدينة، وإنما جنود لا يمشون كأناس في حركة مرور ولكنهم يسرعون كالخائفين.

عند ذلك ومع أسفي إلى حد ما وبرؤيتي لسكان المدينة، كل رجل أمام باب منزله بأي سلاح يملك، سألت واحداً منهم «ماذا يعني ذلك؟». فأجابني بهذه الكلمات: «يا للحسرة أيها السيد، لم يعد هناك تماسُك، وسيكون في ذلك دمار المدينة». فقلت له: «كن شجاعاً أيها الصديق».

ثم مضيت قدماً باتجاه «البورصة»، يقابلني في الطريق الكثير والكثير ممن يسرعون الخطى، وأخيراً، شَهر ضارب نفير «والّوني»[1] سيفه ـ وكان يبدو صغيراً في عمره ـ ووضعه حوله، وهو فوق حصان صارخاً «إلى أين تفرون أيها الأوغاد، ارفعوا رؤوسكم من أجل شرف الوطن». وبهذه الكلمات، أدار حوالى خمسين أو ستين منهم رؤوسهم وعادوا في اتجاه البورصة، وقد شجعني ذلك، بهذه الصحبة، على أن أتقدم في سيري.

لكن لشدة الأسف استمر ذلك برهة قليلة، إذ في ذلك الوقت وصلت للجانب الآخر من البورصة «سوق المال»، فوجدت قواتاً كثيرة تأتي مهرولة ورؤوسها متقاربة لبعضها كما لو كانت مدرسة للأطفال أو قطيعاً من الغنم، قابلوني على ذلك الجانب الآخر للبورصة باتجاه ميدان السوق. وفي مقدمتهم قادتهم، إذ إنني عرفتهم من سهامهم وحرابهم الصغيرة وحديد دروعهم؛ وألقوا بي أرضاً على ظهري وداسوا على بطني ووجهي، ومضت فترة طويلة قبل أن أستطيع الوقوف على قدمي، وأخيراً بعد أن نهضت نظرت حوالي ولما رأيتهم يجرون بسرعة كبيرة كهذه، بدأت أفكر في نفسي «لماذا أنا هنا، وحق الله»؟ وأنا لا مصلحة لي فيما يحدث، طالما أن الذين أتوا للدفاع عن هذه المدينة راضين بمغادرتها جميعاً وبالنجاة بأرواحهم.

وبينما أنا واقف هكذا تملؤني الدهشة، ألقتني جماعة أخرى من الفارين على وجهي وهرول الكثير منهم على ظهري كما فعل سابقوهم الذين مروا على بطني، وفي النهاية، نهضت كما لو كنت قد استطلت، وذهبت في صحبتهم لكن

(1) Walloon ـ الوالوّن، لغةً وأفراداً ينتمون لشعب يتناثر فيها بين بلجيكا وبعض مناطق فرنسا، «المترجم».

سرعتهم كانت شديدة لدرجة أني لم ألحق بهم إلى أن وصلت إلى تقاطع طريق عريض، يقع بين السفارة الإنجليزية والبورصة المذكورة.

ولحقت هناك ببعضهم يتقلب على التراب والبعض الآخر يئن في النزع الأخير، والبعض الثالث وقد استدار للخلف كي يتجنب لمسات المقذوفات الأسبانية - من حملة البنادق الصغيرة - الذين وصلوا لنهايات هذا الطريق العريض المتقاطع. وبدون أي كلمة تفاخر، مررت وسط خمسمائة طلقة قبل أن أتمكن من الوصول إلى السفارة الإنجليزية، وعند وصولي هناك، وجدت عديداً من التجار واقفين أمام البوابة، الذين لم أكن لأزعجهم أو أُثبط هممهم، وإنما قلت لهم: إن الأسبان قد دخلوا المدينة مرة، وإني آمل أنهم ذهبوا ثانية.

وعلى أية حال، ذهبت إلى الحاكم وأقنعته على انفراد أن ينسحب بصحبته ويُغلق البوابات، ووافق على ذلك، وأرادني أن أكون مسؤولاً عن المفتاح لأني أكثر اعتياداً على هذه الأمور من التجار. فأخذت المفتاح برضىً، لكن قبل أن أتمكن من إغلاقه وتتريس البوابة، كان الأسبان قد وصلوا - حتى الآن - إلى الشارع أمامنا، وبمرورهم أمام الباب، تداعوا للدخول، وأطلقوا النيران من خمس أو ست غدارات نحو البوابة، فرددت عليهم. واقتربت واحدة من طلقاتهم من أنفي واخترقت البوابة ولطمت أحد التجار على جبهته دونما خطر كبير.

ولكن معمعة المطاردة زادت حتى لم تترك لهم فرصة للحاق بالغنيمة، وإنما استمروا في المطاردة نحو المدينة الجديدة «نيوتاون» حيث قتلوا عدداً غير محدود من الناس، وعند حوالى الساعة الثالثة أو قبلها، عادوا منتصرين وقد قتلوا وطردوا جميع أعدائهم.

والآن، كي أفي بوعدي وأتحدث بلا تحيز، يجب أن أعترف أن ذلك كان أعظم نصر وأخطر عمل رأيناه أو قرأنا عنه أو سمعنا به في عصرنا. وكان شيئاً خارقاً أن نرى تحصينات بهذا الارتفاع، تُقتحم، ويتم عبورها والسيطرة عليها بالمشاة والفرسان معاً. إذ بمجرد أن دخلها المشاة وجد الفرسان وسائل لاتّباعهم.

ولأن العديد منهم كان من حملة البنادق على ظهور الجياد، فقد عبروا بواسطة رجالهم المشاة في الشوارع، وقد عجلوا بمطاردة الوالّونيين وجعلوا الطريق مفتوحاً أمام القتلة المتسارعين.

ولكن أياً من كان مادحاً الأسبان لشجاعتهم ونظامهم، إلاّ أنه يجب عليه الاعتراف بأن ذلك قضاء الله بانتقام عادل وعبرة إلهية لهذه المدينة، إذ إنها بأية حال تفوق قدرات الرجال لإقناعنا كيف أمكن ذلك، وفوق هذا كانت الفوضى والافتقار لبعد النظر عوناً كبيراً في زيادة مجد وفخار الأسبانيين.

والمحصلة أن المركيز «داڤرو شامباني» هرب من المدينة الجديدة المذكورة ولحق بسفن «برنس أوف أورانج»، وأسر الكونت الصغير «إيجمونت» وهو يقاتل بجوار كنيسة «سانت ميشيل» وأسر أيضاً السيد «دوكابر» والسيد «دوجواني» ولكني لم أسمع بأحد حارب بمثابرة عدا الكونت «إيجمونت» المذكور. الذي أنقذه ضابط أسباني «ذو عاطفة نبيلة وعقل حصيف يدعى ڤيرودوجو معرضاً حياته للخطر من أجل حماية الكونت.

وقد قُتل في هذا الصراع 600 أسباني أو حوالى ذلك، ويوم الخميس التالي (8 نوفمبر) تمت مناظرة جثث القتلى وقُدرت بـ 17,000 جثة، من الرجال والنساء والأطفال، في مذبحة تدعو للرثاء، رغم أن الله وهب الأسبان نصره، وبالتأكيد فإن شجاعتهم يجب أن تُمتدح لاعتبارات، إلاّ أنه يبقى باستطاعتي ذم وحشيتهم البربرية لاعتبارات عديدة، ولأنني أعتقد أنه إذا ما أنعم الله على إنسان بثروة وفيرة، فعلى مالكها أن يأخذ بعين الاعتبار لمن سيمنحها. وبهذا، عندما يهب الله نصراً عظيماً ومُعجزاً فعلى المنتصرين أن يتحسبوا جيداً عمليات القتل التي يقومون بها، وبالرغم من أن بعض الذين يميلون للجماعة الأسبانية سوف يدفعون بمبررات متعددة لإثبات العكس، إلاّ أنه عندما تهدأ النفوس ويروح الغضب، أعتقد أن القلب المسيحي الحقيقي يغتبط بالنصر ويأبى أن يستثير غضب الله بإهدار دم الأبرياء.

وتلك الأشياء الأخرى أذكرها لأنهم لم يتركوا عمراً ولا جنساً، مكاناً ولا

زماناً، فقيراً ولا غنياً، شخصاً ولا بلداً، مهنة ولا عقيدة، صغيراً ولا كبيراً، قوياً ولا ضعيفاً، إلاّ ـ وبلا أدنى رحمة ـ طبقوا عليه نصرهم الطاغي، وحيث لم يقف أمامهم لا إنسان ولا وسيلة لمقاومتهم. فبالنسبة للعمر وللجنس، صغاراً وكباراً، فقد ذبحوا أعداداً كبيرة من الأطفال الصغار، والأكثر من النساء اللائي تخطين الثمانين من العمر.

وبالنسبة للزمان والمكان، استمر غضبهم عنيفاً طوال عشرة أيام بعد انتصارهم، بنفس القدر من الغضب الذي كان حال دخولهم المدينة، وكذلك كان احترامهم للكنيسة وفناء الكنيسة، برغم كل إدعاءاتهم المصطنعة نحو العقيدة الكاثوليكية، لا يزيد عن احترام الجزار للمجزر أو للمذبح، وبالنسبة للأشخاص أو البلاد، لم يتركوا صديقاً ولا عدواً برتغالياً ولا تركياً.

وبالنسبة للمهنة أو العقيدة، كان على رهبان الجيزويت أن يقدموا هبة من العملة، أما كل أصحاب العقائد الأخرى، فيدفعون النقود ومعها كل الفضيات وجميع المحتويات ذات القيمة والسهلة الحمل. والغني أنتُهب لأنه يملك، والفقير شُنق لأنه لا يملك، ولم تستطع القوة أن تسود كي تجسد المقاومة ولا الضعف كي يستثير الشفقة فيوقف وحشيتهم المرعبة، ولم يتم ذلك فقط حين كانت المعركة ساخنة، وإنما كما سبق أن قلت، حدث بعد أن هدأت ثورة الحرب وبعد أن أصبحوا منتصرين بلا مقاومة.

ولا أستطيع أن أذكر أكوام عظام الموتى التي رقدت بجوار كل حصن دخلوه، والتي كان سُمكُها يربو على قامة الرجل.

ويصعب عليّ أن أحصي الأعداد الهائلة التي غرقت في المدينة الجديدة، حيث كان الإنسان يستطيع مشاهدة العديد من الأشكال والأوضاع لحركة الإنسان عند الموت كما جسّدها مايكل أنجلو في لوحته «مشاهد يوم القيامة».

ولم أقم بإحصاء العدد غير المحدود من الألمان المساكين، الذين احترقوا داخل دروعهم، وبعضهم احترقت أمعاؤه بينما ظل باقي جسده سليماً. والبعض الآخر احترق رأسه وأكتافه، لدرجة يمكنك معها أن تنظر إلى أسفل داخل الجسم

والصدر وتحصل على معلومة حول تشريح أسرار الطبيعة، والبعض الآخر يقف على وسطه بعدما احترقت فخذاه، والبعض ليس أكثر من أن قمة رأسه قد أكلتها النيران بينما يوضح باقي جسده عذاباً لا يمكن وصفه.

ولم أبق مع التلوث العفن والكريه في كل شارع يمتلىء بدماء وهياكل الجياد، كما لم أشتكِ أن هذا يحتاج إلى دفن والآخر ينهب، حتى أَمْرَضَ الهواء - الذي أفسده تحلل الموتى - كل الذين بقوا أحياء في المدينة. ولماذا يجب أن أصف دقائق كل هذا الاضطراب، طالما حدث على العموم في كل من المعسكرات والقلاع حيث رتبوا احتفالات للشهداء؟ لكنني لا أستطيع السكوت عن الحريق والتدمير الكاملين لمجلس المدينة وكل آثار وسجلات المدينة ولا أستطيع أن أمتنع عن رواية اغتصابهم المخجل وتعديهم الوحشي على العديد من السيدات الفاضلات والعذارى.

ومن الذكريات المؤسفة أيضاً، ذلك التاجر الإنجليزي، الذي لم يكن سوى أجير، والذي ما إن استرد بضاعة سيده مقابل 300 كراون[1] حتى وضعوه في المشنقة إلى أن كاد يموت، وذلك بسبب أنه لم يكن معه 200 كراون أخرى يعطيها لهم، وبمجرد أن قُطعت حبال المشنقة وأفاق إلى نفسه قليلاً، راح يجثو أمامهم على ركبته وبدموع مريرة، أن يسمحوا له بالخروج وسؤال أصدقائه ومعارفه في المدينة ليدبروا له بقية هذا الطلب غير المبرر، وحال عودته إذ لم يدبر شيئاً - فالحقيقة أن ليست هناك نقود كي تؤخذ - شنقوه في الحال مرة أخرى، وفيما بعد وبرجاء متزايد، سمحوا لرهبان «الفريار مينور» أن يدفنوه.

ويمكن أن نستنتج أنه من بين الـ 17,000 جثة التي تمت معاينتها يوم الخميس، أعتقد، بضمير حي، أن 5000، أو أقل قليلاً، قد قتلوا بعد النصر، لأنهم لم يملكوا معهم نقوداً آنئذ ليدفعوها فدية لبضائعهم التي فرض الأسبان أسعارها كما شاؤوا، وعلى الأقل، وأنا أمام العالم سأكون شاهده المعاصر، فإن

(1) الكراون = 5 شلنات ومن العملات غير الإنجليزية = كرونة. «المترجم».

العشرة أيام التالية قتلوا كل من أُشير إليه أو حُدد بأنه «والّوني» في الحال بلا شهود أو محاكمة.

ومن جانبي، فمن المعروف جيداً، أنني نجوت بصعوبة شديدة، إذ أخذوني كواحد من الوالونيين، وفي يوم الأحد، 11 من ذلك الشهر، الذي كان اليوم السابق لخروجي من المدينة، رأيت ثلاثة أرواح بائسة تُزهق في حضوري، حيث أخبروا عنهم بأنهم من الوالونيين، في حين ثبت فيما بعد، أن واحداً منهم كان حرفياً فقيراً، عاش في المدينة طوال ثمانية أعوام من قبل، ولم يُجد استخدام الأسلحة أبداً، وإنما كان مخلصاً لمهنته. وما هو أكثر، أن ما زرعوه من أعمال بربرية وغيرها، قد أثمر وأينع، ففي خلال ثلاثة أيام، أضحت «أنتويرب» التي كانت واحدة من أغنى مدن أوروبا، بلا نقود ولا ثروة، وإنما في أيدي القتلة والداعرات. إذ يتنزه كل أسباني[1] جيئة وذهاباً عبر الشوارع وبجواره عشيقته تتحلى بسلاسلها وأساورها الذهبية، والبورصة الشهيرة التي كانت مجلساً آمناً للتجار والرجال ذوي المهن الشريفة، قد نضبت من تجارتها الآن، إلاّ من موائد عديدة للقمار قد مُدت طوال النهار.

القبض على الراهب الكاثوليكي إدموند كامبيون ورفاقه

«17 يوليو 1581 افرنجي»

*** تقرير من وكيل الحكومة**

«.. كان إدموند كامبيون من الإرسالية التبشيرية الجيزويتية - إلى إنجلترا، أُقتيد وأقام وشُنق في تيبورن، يوم 1 ديسمبر عام 1581 افرنجي، ثم بوركت روحه عام 1886 افرنجي. كما حدث لويليام فيلبي المذكور في نهاية هذا التقرير، الذي أُعدم كذلك في 30 مايو عام 1582 افرنجي.

(1) في الأصل كل Don Diego كناية عن كل أسباني من المقاتلين «المترجم».

. . وحدث أنه بعد تسلمنا التفويض، تشاورنا فيما بيننا، أي الطرق نسلكها أفضل أولاً؟ إذا كنا نجهل كلية أين وفي أي مكان يمكن أن نجد بالتأكيد ذلك المدعو كامبيون، أو رفاقه، وقد أنهينا تشاورنا بسرعة، لأن الجزء الأعظم في مهمتنا وتعاملنا بهذه الخدمة، يقع أساساً على قراري أنا، بسبب معرفتي وخبرتي بمثل هذه الجماعات الدينية.

وقد طرأ لذهني في الحال ذكرى تعارف معين نشأ بيني وبين توماس كوبر الذي كان طباخاً في خدمة السيد توماس روبر أوف أوربنجتون لمدة عامين في «كنت»، وكنت أعمل معه بنفس العمل ونفس الوقت، وفي نوفبر 1578 افرنجي، ترك كلانا خدمة السيد توماس روبر، أنا إلى مقاطعة «أسّكس» وذلك المدعو كوبر إلى ليفورد في بركشاير، للعمل عند السيد «بيت»، ومن حينها، خلال نصف عام بعد ذلك، علمت وأنا في أسكس أن الطباخ المذكور قد استقر في العمل، وأن السيد المدعو «بيت» كان كاثوليكياً بابوياً متعصباً، وواحداً من الذين يهتمون بهذه الجماعة.

تلك الرواية كانت قد قُصت عليَّ في أسكس منذ عامين، وقبل أن نبدأ هذه الرحلة، وبالعطف الإلهي الكبير، خطرت بذاكرتي قبل يوم واحد من خروجنا لهذه المهمة، وعلى ذلك أخطرت المدعو داڤيد جنكنز، باعتباره رفيقي في التفويض، أنه سيكون من الأفضل أن نذهب هناك أولاً، حيث إنه ما كان يجب أن نذهب لمكان إلاّ ذلك الذي يكون لي فيه معارف. أو ببعض الوسائل الممكنة خلال الرحلة نتمكن من الحصول على معارف.

وأخبرته بأنه يمكننا ترتيب أمر رحلتنا بهذه الطريقة حيث نصل للسيد «بيت» يوم الأحد عند حوالى الساعة الثامنة صباحاً «وهناك ـ قلت ـ إذا ما وجدنا ذلك الطباخ وتكون هناك أية صلاة جماعية ستعقد ذلك اليوم، أو أي راهب للصلاة في المنزل، فلسوف يقوم الطباخ، لسابق معرفته بي ولاعتقاده أنني كاثوليكي، بإحضاري أمام ذلك الجمع هناك».

وعند ذلك الرأي، خرجنا من لندن في اليوم الرابع عشر من يوليو الماضي،

ووصلنا بيت المدعو «بيت» في السادس عشر من ذات الشهر، الموافق الأحد وحوالى الساعة المذكورة آنفاً.

وهناك، دون بوابات هذا المنزل، لمحنا واحداً من خدمه، الذي يبدو عليه - بسبب وضعه المنعزل - أنه مراقب استكشاف حتى يمكنهم ممارسة أمورهم السرية في أمان.

وناديت الخادم المذكور واستفسرت منه عن المدعو توماس كوبر الطباخ، الذي أجابنا بدوره أنه لا يمكنه إفادتنا بدقة إذا ما كان موجوداً أم لا. فرجوته أن يؤدي لي صنيعاً إذا ما ذهب لرؤيته وإخباره باسمي، وبدا أن ذلك الخادم قد فعل هذا، لأن الطباخ جاء بسرعة إلينا حيث كنا لا نزال جالسين على ظهور الخيل، وبعد كلمات قليلة كالتي تحدث بين صديق وصديق تباعدا فترة طويلة، أخبرته، ونحن على جوادينا، أنني كنت في شوق لرؤياه، وأنني كنت مسافراً إلى دير بيشاير لرؤية بعض أصدقائي، وحضرت رغم بعد ذلك عن طريقي لرؤيته، وقلت كذلك: «والآن بعدما رأيتك، فقد ارتاح ذهني، وأقول لك وداعاً».

فقال: «لا، لن تفعل ذلك قبل الغذاء»[1]. وجعلت المسألة تبدو ملحة في أن أذهب، وأصبح هو أكثر إصراراً وإلحاحاً على بقائي. لكن الحقيقة، أنني كنت أرغب في البقاء بنفس الشدة التي يرغبها هو.

وهكذا، وبالضرورة، لم يعد هناك حل إلاّ البقاء، وهبطنا من فوق الجواد، وأدخلنا هو إلى المنزل، ثم إلى مخزن المؤن، وهناك قدم لنا شراباً، وبعد ذلك، جاء الطباخ ليهمس متسائلاً إذا ما كان صديقي - يقصد جنكنز - مع جماعة الكنيسة أم لا، بمعنى إذا ما كان كاثوليكياً أم لا؟ فأجبته «أنه ليس كذلك، حتى الآن، وهو رجل أمين جداً، ويتمنى أن يسلك هذا الطريق بصدق». حينئذ قال الطباخ لي: «حسناً، فلنصعد». وبهذا الكلام عرفت أنه سيأخذني لصلاة جماعية. وأجبته

(1) يعرف الإنجليز نظام الأربع وجبات في اليوم، والـ Dinner هذه تأتي الثالثة، وموعدها بعد الظهر وقبل المساء. وصعب تعريبها إلا بذلك، «المترجم».

بالقول: «نعم لوجه الله، اسمح لي أن أفعل ذلك، وطالما أنا مضطر للبقاء، فدعني أحصل على شيء أناله معي، وهذا جيد».

وهكذا تركنا جنكنز في المخزن، واقتادني الطباخ عبر الصالة ثم بهو الطعام، ثم غرفتين أو ثلاث بالإضافة لذلك، وبعدها إلى حجرة واسعة مريحة، حيث كان في ذات اللحظة، راهباً يدعى «ساتويل» يتلو صلاة ويركع بجواره راهبان آخران الأول منهما كان «كامبيون» والآخر يدعى بطرس إلياس كولنجتون، وثلاث راهبات و 37 من الناس الآخرين. وعندما أنهى ساتويل صلاته، تقدم كامبيون ليتلو صلاته، وقام بذلك ومع نهايتها وزع خبزاً وماءً مقدساً على الجميع، ومنها أعطاني جزءاً أيضاً. وكان هناك مقعد في الحجرة أسفل مذبح الصلاة، حيث جلس المدعو كامبيون بعدئذ، وأدى حفلاً طقسياً استمر ساعة طويلة، وكان معنى قطعته التي تلاها على ما أذكر «أن المسيح بكى على أورشليم «القدس»، وبالمثل طبق هذا على وطننا إنجلترا لأن البابا وعقيدته الكاثوليكية وسلطانه الروحي لا يزدهر هنا بمثلما يأمل كامبيون».

وفي نهاية ذلك الحفل، هبطت إلى المدعو جنكنز بأسرع ما يمكنني، إذ في خلال كل وقت الصلاة الجماعية والحفل، ظل جنكنز في الأسفل، بالمخزن أو بالصالة لا يدري شيئاً من الأمر حتى أعلمته أنا ببعض ما رأيته، وهكذا رحلنا بقدر ما تسمح به سرعة الرحيل، إلى أن وصلنا للسيد ڤيتي بلاس، مسؤول الأمن في المقاطعة، الذي قدمنا له ملخصاً عن أعمالنا هناك، وطالبناه بناءً على سلطة التفويض الذي معنا بأن يأخذ معه قوة كافية ويأتي معنا هناك، وعلى ذلك قام مسؤول الأمن المذكور في خلال ربع ساعة بتجهيز نفسه تماماً، ومعه خمسون أو أربعون رجلاً مسلحون جيداً وأسرعنا ومعنا السيد ڤيتي بلاس المذكور إلى منزل المدعو السيد «بيت». وهناك حال وصولنا الفجائي الذي كان يقارب الواحدة من بعد ظهر نفس اليوم وقبل أن نقرع البوابات التي كانت حينئذ ـ وكما اعتادت أن تكون دائماً ـ محكمة الإغلاق «وكان المنزل محاطاً بخندق حوله وفي داخله كانت تنمو أشجار ضخمة من الفاكهة والأشجار الأخرى في صفوف كالسور لدرجة أن الخوف من هروب المدعو كامبيون ورفاقه مشكوك فيه».

وحاصرنا المنزل برجالنا حول الخندق بأفضل طريقة تخيرناها، وعند ذلك قرعنا البوابات وفي الحال سمعونا ولمحونا، ولكن أُبقينا فترة نصف ساعة، في خلالها، بدا لنا أنهم أخفوا كامبيون والراهبين الآخرين في مكان شديد الخفاء في المنزل المذكور ووفروا لهم مؤنة كافية ـ كما أذكر هنا فيما بعد ـ ثم سمحوا لنا بالدخول حيث أتت لرؤيتنا في الحال السيدة «بيت» زوجة صاحب المنزل وخمسة من السادة الرجال وإحدى السيدات مع ثلاث راهبات، وكانت الراهبات متنكرات في أزياء السيدات، بخلاف ما كن يرتدينه أثناء الصلاة الجماعية. وكلهم تذكرتهم جيداً، إذ رأيتهم في ذات الصباح عند الصلاة والقداس المذكور، إلاّ أن كل واحدة منهن أنكرت ذلك بشدة، خاصة السيدة «بيت» التي لم تكتف بتقديم إنكار واضح للصلوات المذكورة ولوجود الرهبان فقط، وإنما أقسمت بأعظم الأيمان لتأكيد ذلك، وبأن تذهب روحها للشيطان إذا ما كان هناك هؤلاء الأشخاص أو هذه الاحتفالات، ولولا أنني رأيتهم بعينيّ لصدقتها.

ولكن لأنني أعلم أن هذه مجرد ادعاءات عارية عن الصحة وأننا سنجد المدعو كامبيون وتابعيه إذا ما قمنا بتفتيش دقيق، ففي الحال ذكرت السيد ڤيتي بلاس بتفويضنا وهكذا ذهبت أنا وهو والمدعو جنكنز «مبعوث الملكة» لتفتيش المنزل حيث اكتشفنا عديداً من المخابىء السرية وواصلنا البحث، بالرغم من المجهود الشاق في ممرات الحديقة وأشجار السور والحفرْ في داخل الخندق ومختلف الأماكن الأخرى حتى وجدنا أخيراً السيد إدوارد بيت شقيق صاحب المنزل وآخرين يُسمّيان «ويبلين» و «مانسفيلد» مغلق عليهم بإحكام في بنية للحَمَام ولكننا لم نستطع العثور على كامبيون والراهبين الآخرين الذين نبحث عنهم بوجه خاصة في ذلك الوقت.

وقد اقترب المساء قليلاً وارتبنا خشية أن تكون قوتنا غير كافية فأرسلنا تفويضنا للسيد فوستر كبير مأموري مقاطعة بركشير وللسيد وايزمان مسؤول الأمن في المقاطعة نفسها للمزيد من المعاونة التي تتوافر لديهم. وقد أتى المدعو «السيد وايزمان» بسرعة كبيرة ووصلنا في مساء اليوم نفسه مع عشرة أو اثني عشرة من

رجاله الأكفاء والمختارين بعناية، بينما لم يظهر السيد فوستر، وذلك كما أوضح لنا المبعوث الذي أرسلناه إليه، وهكذا حوصر البيت المذكور بستين رجلاً جيدي التسليح على الأقل في نفس الليلة، وقاموا بمراقبة ذلك البيت بشدة، وفي اليوم التالي، الذي كان الإثنين، في الصباح الباكر، وصل إلينا السيد كريستوفر ليدكوت، مسؤول الأمن بنفس المقاطعة، مع مجموعة كبيرة من رجاله المنتقين بعناية، وقد أظهر مع رجاله إخلاصاً متزايداً وعملاً وثاباً في هذه المسائل، مما كوّن ارتياحاً وتشجيعاً غير قليلين لكل هؤلاء الذين كانوا موجودين، وكانوا يحملون قلوباً صادقة وإرادات مخلصة لجلالة الملكة.

وبدأنا بحثاً جديداً في هذا الصباح عن أولئك الرهبان، واستمر البحث حتى حوالى العاشرة من ظهر ذلك اليوم، لكن الرهبان لم يستبينوا، وقد اقتنع كل إنسان تقريباً بأنهم ليسوا موجودين، واستمر البحث بالرغم من شعورنا بفراغ الأمل في اكتشافهم، إلاّ أن داڤيد جنكنز، اكتشف ـ بالعناية الإلهية ـ مخبئاً سرياً ما، سرعان ما وضح أنه فتحة، وبسيخ من الحديد كان في يده، شديد الشبه بسن المحراث، قام بكسر الفتحة في المكان المذكور، حيث لمح على الفور الرهبان المطلوبين يرقدون جميعهم متقاربين فوق سرير، وُضع هناك من أجلهم، وحيث لديهم خبز ولحم وشراب يكفي احتياجاتهم ثلاثة أو أربعة أيام معاً، فصاح جنكنز هذا بصوت مرتفع قائلاً: «لقد وجدت الخونة» وفي الحال أسرع إليه عدد كاف من الرجال، فرأوا هناك أولئك الرهبان الذين ـ إذ لم يعد أمامهم بد من قبول الأمر الواقع[1] سلموا أنفسهم بهدوء.

وبعد برهة قصيرة حضر إليه «ريد» وهو مسؤول آخر للأمن بالمنطقة للمساعدة في هذا الشأن، ومن بين كل هذه الأحداث، نُقلت الأنباء بسرعة كبيرة إلى مجلس المستشارين وأعضائه اللوردات، الذي أصدر قراراً تفويضياً آخر، بأن يتم إحضار الرهبان المعنيين وبعضاً من رفاقهم أمام المحكمة وذلك بإشرافي

(1) في الأصل Willy Jilly وتعني سواء رضى أم لم يرض = Nolens - Volens «المترجم».

شخصياً ومعي جنكنز، وبتعليمات للمأمور أن يمدنا بقوة معاونة كافية من مقاطعته من أجل ضمان توصيل المذكورين.

وبعدما هدأت أحاديث وصخب اكتشاف كامبيون، وساتويل، وبطرس إلياس كولينجتون ولم تعد رؤيتهم أمام الناس ذات جدة لديهم، أرسلنا في طلب كبير المأمورين مرة أخرى الذي لم يظهر طوال هذه المهمة، لكنه حضر عندئذ وتسلم مسؤولية أولئك الرهبان ومعهم آخرين منذ ذلك اليوم وحتى الخميس التالي.

أما بشأن الراهب الرابع الذي أحضرناه إلى البرج، وكان اسمه ويليام فيلبي، فلم يكن قد أُسر يوم القبض على كامبيون وزملائه في ذلك المنزل، لكنه أوقف وقبض عليه بمعرفتنا بالصدفة، إذ جاء إلى ذلك البيت ليتحدث مع المدعو بطرس - كما قال - فتم تسليمه أيضاً لمسؤولية المأمور مع الآخرين.

ويوم الخميس الموافق 20 من يوليو الأخير، خرجنا من منزل المدعو السيد «بيت» نحو المحكمة مع المتهمين المذكورين، يعاوننا في ذلك السيد ليدكوت والسيد وايزمان ومجموعة كبيرة من رجالهم، الذين لم يتركونا حتى وصلنا إلى برج لندن، وبجانب ذلك كان يحرسنا هنا حوالى خمسين أو ستين فارساً من الرجال الأكفاء والمختارين جيداً، الذين استقبلناهم بعد تعيين المأمور لهم.

وقد ذهبنا ذلك اليوم إلى هينلي على نهر «التايمز» حيث أقمنا تلك الليلة، وعند حوالى منتصف الليل أصبنا بفزع شديد بسبب صرخة وضوضاء عظيمة أحدثها المدعو فيلبي أثناء نومه، فأيقظت أغلب الموجودين في المنزل، لدرجة أن كل واحد اعتقد تماماً أن بعض السجناء قد انفلتوا منا وهربوا، بالرغم من وجود قوة حراسة مشددة داخل البيت وحوله عُينت وأصبحت مسؤولاً لهذا الغرض، وكان أول الحاضرين إليهم السيد ليدكوت، وعندما فحص الموضوع، تبين أنه ليس سوى حلم للمدعو فيلبي، - وكما قال - إنه اعتقد حقاً أن هناك شخصاً ما ينزع جسمه أو تستخرج منه أمعاءه.

بعض مجرمي لندن «1581 افرنجي»
سجل تقارير لندن للورد بيرغلي

* ويليام فليتوود

يوم الثلاثاء الماضي، سلم تاجر فرنسي إلى زوجة حمال حانة «النورويتش». مبلغ 40 جنيهاً إنجليزياً لتوصيلها إلى «نورويتش»، لكنها نقلت المبلغ سراً إلى منزل بعيد بمسافة كافية عن الحانة، وخلال أقل من ربع الساعة[1] عاد التاجر الفرنسي مرة أخرى ليرى أن نقوده قد اختفت، وأنكرت المرأة أنها تسلمت على الإطلاق ولو بنساً واحداً، مع اعتراضات مخيفة لم أسمع مثلها من قبل، وقد كتبت إلى السيد السكرتير ولسنجهام خطابات لمعاونة الرجل الفرنسي، وبعد أن بذلنا بحثاً مضنياً، وجدنا النقود واستردناها.

ولأنها لم تعلم بذلك، فقد استجوبتها في تحقيقي بشكل خاص، لكنها لم تعترف بذلك وإنما استنزلت على نفسها لعنة الشيطان جسماً وروحاً لو أنها كانت لديها النقود أو رأتها أبداً، وتلك كانت مهارتها، إذ إن النقود لم تكن معها، وقد قالت فعلاً الحقيقة، لأن النقود إما كانت لدى صديقتها حيث تركتها، أو سلمتها في مكان آخر، وعندئذ ـ حين أدركتُ ما ترمي إليه ـ سألتها إذا ما لم يكن التاجر الفرنسي قد أحضر لها كيساً مختوماً مملوءاً بمعدن ذي وزن، يمكن أن يكون شرائح معدنية أو عملات فضية أو قطع يمكن عدها، أو ما أشبه؟، حينئذ قالت «لن أجيب أكثر من ذلك». عندها استخدمت نصيحة اللورد مايور، فوضعتها في برايدويل[2] حيث رأيتها ومعي السادة تُعاقب هناك، وبعدما ضُربت بالسوط جيداً، قالت: إن الشيطان وقف عند كتفها ـ في هذا الأمر ـ وزين لها أن تنكر ذلك. ولكن حالما وُضعت على الصليب لُتعاقب، أطلقها الشيطان. وهكذا يا سيدي الوحيد أنهيت هذا الجزء المأساوي لتلك المرأة الشريرة.

زار السيد «نويل» من المحكمة لندن مؤخراً، وقد أمر مساعده بأن يضرب

(1) في الأصل «نصف الربع ساعة»، لكن ترجمتها كما سبق أفضل، «المترجم».

(2) St. Bride's Well مؤسسة عقابية في لندن ـ سجن، «المترجم».

حوذياً، فقام بضرب الحوذي بمقبض سيفه حتى كسر جمجمته فقتله، ومن الواضح أن السيد نويل ورجله سوف يدانان، وبسببهما سوف أتعرض ـ بالتأكيد ـ للمضايقات، بالخطابات وبأصدقائه بالوسائل الأخرى.

ففي مثل هذه القضية المذكورة هنا، كنت أنا مع نفس الإنسان، فهناك مجموعات من السادة الصغار الذين يلجأون للمحكمة، ويسمون أنفسهم بشكل شائع «السادة»، عندما يخطىء واحد منهم، وتُقدم شكوى في حقه أو يُقبض عليه من أجل دَيْن، فهم يهرعون إليّ، ولا تجد لديهم إجابة أو مبرراً سوى قولهم: «إنني سيد، ولكوني كذلك لا يجب أن أخضع لعبد أو أجير». ولا أعلم ما المداولات الأخرى التي سوف يقدمها السيد «نويل»، لكن أقول: إن الحقيقة مؤلمة، وليعاونه الله للوصول إلى نتيجة طيبة، وأعتقد ـ في تفكيري ـ أنه لم يضع حساباته جيداً في هذه المسألة.

وفي يوم الجمعة الأخير، جلسنا بقاعة المحكمة من الساعة السابعة صباحاً حتى السابعة مساءً، وكان من بين أعمالنا تلك المسألة التي وقعت بين أيدينا بالمناسبة، أن شخصاً يدعى «وتون» وهو سيد بالميلاد، وأحياناً تاجر ذو سمعة طيبة، اضمحلت ثروته بمرور الزمن لكنه احتفظ بمخزن لصناعة شراب الشعير عند «سمارتس كواي» بالقرب من «بيلينجس»، وفيما بعد، حينما انهار بسبب بعض سوء التصرفات، استردف مهنة جديدة في الحياة، فاستقدم في ذات المنزل كل النشالين بأرجاء المدينة للجوء إلى منزله، وأقيمت هناك مدرسة منزلية لتعليم الصبية كيفية انتزاع أكياس النقود، وكان هناك جهازان معلقان، واحد منهما كان محفظة، وكان الآخر كيساً للنقود، وبداخل المحفظة بعض القطع المعدنية، وعلق حوله أجراس بالشص، وفوق قمته عُلق أيضاً جرس صغير كأجراس القداس، «كالذي يدق عند رفع خبز القداس».. وذلك الذي يحصل على قطعة من المحفظة دون ضوضاء، يُسمح له بأن يصبح «ملقاطاً عاماً»[1] وذلك الذي

(1) المقابل العامي لكلمتي Nipper. Foioter في لغة اللصوص. «ملقاط» ويعني نشال المحافظ و«مقص» ويعني مختطف الأشياء الثمينة بقطعها مما يربطها صاحبها مثل الساعات والقلائد إلخ.. على التوالي. «المترجم».

يستطيع أن يختلس قطعة فضية من الكيس دون دق أي من الأجراس يصرح له بأن يكون «مقصاً قانونياً»، ملحوظة: «الملقاط» هو النشال و «المقص» هو الخطاف.

بابل عام «1583 افرنجي»

*** جون إيلدرد**

«إن الأثر الذي يحدده التراث الشعبي بأنه برج بابل كان أصلاً معبداً للإله ماردوخ، وكان به برج ذا ثمانية طوابق».

.. يصل عرض نهر الفرات عند مدينة «بير» حوالى عرض نهر التايمز عند مدينة لامبث، ويضيق في بعض الأماكن، ويتسع في بعضها الآخر، وهذا النهر يجري بسرعة كسرعة جريان نهر «الترينت»، وبه أنواع عديدة من السمك متدرجة في أحجامها، وبعضها ضخم في مثل ضخامة سمكة «السالمون» مثل أسماك الباربل.

وقد هبطنا قرية «فيلوجية» يوم 28 من يونيه، حيث أقمنا لمدة سبعة أيام وذلك لنقص الجمال التي تقل أحمالنا إلى بابل، فالحرارة - في هذا الوقت من العام - تكون قوية في مثل هذه الأماكن لدرجة تُفقد الرجال رغبتهم في تأجير جمالهم للسفر. وفيلوجي قرية ذات مائة منزل تقريباً، وهي مكان تم تحديده لتفريغ مثل هذه البضائع الآتية إلى مصب النهر، وسكانها من العرب.

ولما لم نجد جمالاً هنا، اضطررنا لإنزال سلعنا وتأجير مائة حمار لحمل هذه البضائع الإنجليزية حتى بابل الجديدة فقط عبر صحراء صغيرة، استغرقنا في عبورها 18 يوماً مسافرين طوال الليل وجزءاً من النهار لنتجنب الحرارة الشديدة، وهنا ما زالت آثار برج بابل القديم قائمة كذلك، التي - ولكونها قائمة فوق أرض منبسطة - تبدو من بعيد ضخمة جداً، لكن كلما اقتربت منها بدت أقل حجماً، وأحياناً كثيرة كنت أذهب هناك لرؤيتها، وأجد البقايا التي ما تزال قائمة على حوالى ربع ميل محيط، وتكاد تقارب ارتفاع الحجر المستخدم في برج كنيسة القديس بول في لندن، لكنه يبدو أضخم.

والأحجار المتبقية من هذا الأثر - الشديد القدم - سُمكها نصف ياردة،

وطولها ثلاثة أرباع اليادرة، مجففة بحرارة الشمس فقط، وبين كل طبقة من الأحجار، وضعت طبقة من القش المخلوط بالطين ومصنوع من أعواد الغاب والقصب، وظلت سليمة لم تفن، كما لو كانت وضعت من عام فقط.

تطل مدينة بابل الجديدة على الصحراء الصغيرة المذكورة آنفاً، حيث كانت تقع المدينة القديمة من قبل، ويجري نهر دجلة قريباً من أسوارها، حتى يمكنهم إذا ما رغبوا، أن يفتحوا قنطرة ليجري ماء النهر حول المدينة، ومحيط المدينة أكثر من ميلين إنجليزيين، وسكانها يتحدثون بثلاث لغات ـ على وجه العموم ـ وتحديداً هي الفارسية والعربية والتركية. وللناس سحنة أسبانية، والنساء عامة يرتدين في فتحة من أنوفهن خاتماً كخاتم الزواج، وإن كان أكبر قليلاً، مثبت به لؤلؤة أو حجر كريم تركي. ويفعلن هذا مهما كن فقيرات.

ميلاد طبيعي لطفل في الهند

«1583 افرنجي»

*** جون هوريجن ڤان لينس شوتن**

«لينس شوتن مواطن من هارلم، ذهب إلى «جوا» مع الأسطول البرتغالي للهند الشرقية عام 1583 افرنجي».

تشكل طائفتا الكورمبيين والكناريين[1] أبناء الريف، وهم الذين يتعاملون في فلاحة الأرض وصيد الأسماك ومثل هذه الأعمال. وهؤلاء أكثر أفراد الشعب بؤساً واحتقاراً في كل الهند، ويعيشون في فقر مدقع يقيمون أودهم بقليل من اللحم، ويحيون في بيوت صغيرة من القش، أبوابها منخفضة، لدرجة تجعل الناس تزحف في دخولها وخروجها، وأثاث المنزل عبارة عن وسادة من القش فوق الأرض ينامون عليها، وحفرة أو ثقب في أرضية المكان لضرب[2] الأرز فيها، مع قدر أو اثنين للطهي.

(1) طائفة غير آرية تعيش غرب الهند.

(2) فصل قشرة الأرز عن لُبها. «المترجم».

وهكذا يعيشون ويصبحون كثيرين إذ إنها معجزة، فعموماً تمتلىء بيوتهم بالأطفال الصغار، يزحفون ويحبون هنا وهناك وهم عراة، حتى يبلغون السابعة أو الثامنة، وحينئذ يغطون سوءاتهم، وعندما تكون النسوة مستعدات للميلاد، يُتركن ـ عادة ـ كما هن وحيدات، وأزواجهن في الحقول، وكما تصادف ذات مرة، كنت أنا وبعض من أصدقائي قد ذهبنا للنزهة في المزارع، وفي القرى التي يسكنها أولئك الكناريون، وأحسسنا بالعطش، فذهبت لأحد منازلهم أطلب ماءً، حيث تبينت امرأة وحيدة داخل المنزل، تربط ملابسها بإحكام حول وسطها، وأمامها حوض خشبي (يُطلق عليه البرتغاليون «جاميلو») مملوء بالماء، حيث وقفت تغسل طفلاً، وضعته تواً دون أدنى مساعدة، وبعد أن غسلته تركته عارياً فوق الأرض على ورقة شجرة تين هندية.

وطلبت مني البقاء حتى تحضر لي الماء فوراً، وعندما علمت منها أنها وضعت طفلها هذا الآن بلا مساعدة، فقدت رغبتي في شرب مائها، وذهبت إلى منزل آخر لطلب الماء.

ثم لمحت نفس المرأة بعد فترة ليست طويلة تمضي حول منزلها كما لو لم يكن هنا هذا الحدث، والأطفال يُربّون بهذا الأسلوب، عراة تماماً، لا يفعلون شيئاً لهم، فقط يغسلونهم وينظفونهم في بعض الماء البارد، وبهذا الشكل ينمون ويكبرون كما يرجو الإنسان، وكأي طفل في هذه البلاد يستطيع أن يفعل أي شيء بكل الاتجاهات التي يحلم بها، ويحيون كثيراً حتى قد يصلون للمائة سنة من عمرهم دونما صداع أو ألم أسنان أو حتى يفقدون أياً من هذه الأسنان.

تحطم سفينة عند موزمبيق

«أغسطس/ هانيبال 1585 افرنجي»

*** جون هويجن ڤان لينس شوتن**

«في شهر مايو 1586 افرنجي، تم تسليم عدة خطابات للحاكم وكبير الأساقفة

في «جوا»، من قائد «سوفلا» و «موزمبيق» لإعلامهم بغرق سفينة الأدميرالية «سان جاجو» التي أقلعت من البرتغال في السنة السابقة، أي عام 1585 افرنجي».

. . لقد غرقت السفينة بهذا الشكل، بعدما آتت السفينة رياح سريعة جيدة وطقس صاف، من رأس الرجاء الصالح نحو موزمبيق، فاعتقدوا أنهم قد عبروا جميع المخاطر، بحيث لم تعد لهم حاجة للخوف من شيء آخر، ولا داع للاعتماد على مهاراتهم وتقديراتهم، كما فعلوا، مما كان سبباً رئيسياً في غرقهم.

ففيما بين جزيرة القديس لورنس والأرض الثابتة على خط 1/2 22 درجة جنوباً، توجد بعض المياه الضحلة يسمونها «إنديا» على بعد 95 ميلاً من موزامبيق، وهذه المناطق الضحلة تمتلىء أغلبها بالشعب المرجانية السوداء والبيضاء والخضراء، وهي خطيرة جداً، ولهذا فهي سبب قوي كي يتجنبوها، وكان على ربان السفينة أن يوليها عناية كبيرة بالتأكيد، وخاصة أولئك الذين في السفن الهندية، لأن السفينة بأكملها وسلامتها تكمن بين أيديهم، ولا تحكم إلاّ بهم فقط، وبأمر عاجل من الملك كي لا يعترضهم إنسان.

وبينما هم هكذا بين الأرضين، وبكل تقديرات البحارة الدقيقة عن مياه إنديا الضحلة، قام الربان بقياس ارتفاع الشمس، وقرر بحساباته أنهم عبروا تلك المنطقة الضحلة، وأمر القبطان بفرد كل أشرعته الممكنة، والإبحار الطليق إلى موزمبيق، دون تقاعس أو تأخير، وبالرغم من أنه كان هناك بحارة عديدون فوق ظهر السفينة، لديهم أيضاً مقترحاتهم، البعض ليتعلم، والبعض الآخر من أجل المتعة، كبقية الضباط، مثل القبطان ورئيس البحارة، اللذين قالا إنه من الأفضل الابتعاد عن مجرى الرياح، خاصة في الليل، ومن المستحسن أن يضعوا مراقبة جيدة لأنهم يرون، حتى هذه اللحظة، أنهم لم يتركوا المياه الضحلة، إلاّ أن الربان قال عكس ذلك، ورغب في إظهار قدرته على السيطرة والأمر، وكعادة البرتغاليين يضيعون أنفسهم بالتفاخر، إذ لا يأخذون باستشارة إنسان آخر، ولا يخضعون لأحد، خاصة إذا ما امتلكوا السلطة، كما حدث لذلك الربان، الذي لم يستمع لحديث الآخرين، ولم يعمل بنصيحة أحد سوى نفسه، ولذا أمرهم بأن ينفذوا ما حدده لهم.

وعلى ذلك، فردوا كل أشرعتهم، وأبحروا بهذا الوضع حتى منتصف الليل بريح طيب وطقس صاف، ولكن دون ضوء القمر، فسقطوا كلية وسط المياه الضحلة، التي تمتلىء بالشعب المرجانية البيضاء والحادة جداً لدرجة أنها مع قوة الريح والمياه التي دفعت السفينة فوقها، شقت السفينة نصفين كما لو كانت نُشرت إلى أجزاء، حتى إن هيكل السفينة وسطحيها ـ الأمامي والخلفي ـ بقيا على الأرض، بينما اندفع الجزء العلوي للأمام مسافة ما، التصق في نهايتها بشدة وانكسر الشراع كذلك.

ومن خلال ذلك كان يمكن أن تسمع صرخات هائلة لدرجة يرددها الفضاء معها، إذ كان يوجد على السفينة، باعتبارها تابعة للادميرالية «القيادة البحرية» على الأقل خمسمائة شخص، بينهم ثلاثين امرأة، مع الكثير من الأخوة الجيزويت والرهبان، حتى إنه لا يوجد شيء آخر يمكن فعله أمام كل إنسان سوى أن يستعد للموت ويودع الآخرين ويطلب منهم العفو مع العويل والبكاء، كما يمكن تصور الأمر.

وقام الأدميرال واسمه فرناندو دي مونروزا والقبطان والربان وحوالى عشر أو اثني عشر آخرين بالدخول إلى قارب صغير، ومنعوا عنه الآخرين بإشهارهم سيوفاً صغيرة حتى لا يدخله المزيد، مدعين أنهم سيذهبون للبحث عن أرض جافة وسط هذه المياه الضحلة، يتمكنون من بناء قارب من حطام السفينة عليها، ومنها يبحرون نحو الشاطىء، وهكذا ينقذون أنفسهم. وبهذا تركوهم وراءهم مع قليل من الترضية ولكن غير كافية. وعندما جدفوا هنا وهناك ولم يجدوا أية أرض جافة لم يجرؤوا على العودة ثانية للسفينة، خشية أن يحمل القارب أكثر من طاقته فيغرق، كما أنهم في السفينة لا يأملون في أية نجدة.

وعلى ذلك قرروا أن يتوجهوا نحو الشاطىء، ومعهم حوالى اثني عشر صندوقاً من المربى، وقنينة خمر وبعض البسكويت، كانوا قد ألقوها بسرعة في القارب، بعدما تباحثوا بشأنها كاحتياج فيما بينهم، وهكذا أسلموا أمرهم لله، ويمموا شطر الساحل، وبعدما ظلوا سبعة عشر يوماً في البحر، مع الجوع والعطش، والجهد، وصلوا للأرض حيث أنقذوا أنفسهم.

أما الآخرون الذين بقوا في السفينة، بعدما رأوا أن القارب لم يعد ثانية - ويمكن تخيّل الحالة التي كانوا عليها - ففي النهاية انهار الجزء الأعلى من السفينة والذي كان بين مقدمة السفينة ومؤخرتها، حيث كان قارب النجاة الكبير موجوداً وكاد أن ينهار تقريباً فبدأ يهبط بسرعة، حيث كاد الأمل ينعدم.

وحيث إن قليلاً منهم فقط لديه الرغبة في القيادة، فلم يقدم أحد منهم أية معاونة في هذا، وإنما جلسوا كل ينظر للآخر، وأخيراً نهض إيطالي يدعى «سيبريان جريمولدو» وبدأ يشجعهم قائلاً: «لماذا نبقى متخاذلين هكذا؟». . هيا نبحث كيف نساعد أنفسنا لنرَ إذا ما كان هناك حل لإنقاذ أرواحنا!». . ومعها قفز فوراً إلى القارب ومعه أداة في يده، وبدأ في تطهيره، وعند ذلك واتت الآخرين الشجاعة وساعدوه بقدر ما استطاعوا، بأية أدوات تصادف أيديهم، حتى أنه في النهاية قفز إلى القارب تسعون شخصاً.

وتعلق العديد بأيديهم في القارب يسبحون خلفه، بينهم بعض النساء، وكي لا يتسببوا في غرق القارب، اضطر الآخرون لقطع أصابعهم وأيديهم وأذرعهم، وأي شيء تعلق به، وتركوهم للغرق، وقذفوا الكثير من فوق سطح القارب ممن ليس معهم ما يدافعون به عن أنفسهم. وبعد أن تم ذلك، انطلقوا مُسلمين أمرهم لله، مع صرخات هائلة وضجة مثيرة للشفقة، لم يُسمع مثلها من قبل، كما لو كانت السماوات والأرض قد انطبقتا، عندما بدأوا مغادرتهم من هذا المكان الذي بقوا فيه في السفينة في هذه الحالة، وقد جدفوا عدة أيام، ومعهم قليل من المؤونة إذ كانوا كثيرين في القارب حتى أوشك على الغرق، كما أنه أصبح يُسرب الماء ولا يستطيع الصمود أكثر.

وفي النهاية اتفقوا فيما بينهم على أن يختاروا قائداً، يطيعونه، ويفعلون ما يأمر به، ومن بين الآخرين اختاروا سيداً يدعى «ميستيزو» «نصف مُخلّط» من الهند، وأقسموا أن يطيعوه، وقد أمر أن يقذفوا ببعض منهم في الحال من القارب، إذ حتى ذلك الوقت لديهم بالكاد الوسائل والقوة التي تعينهم، ومن بين أولئك «نجّار» كان من فترة بسيطة قد ساعد في إصلاح القارب. الذي ما إن رأى

الجمع قد تكالب عليه، حتى تمنى عليهم أن يعطوه قطعة من المربى وكوباً من الخمر، ففعلوا ذلك فألقى بنفسه من سطح القارب إلى البحر وغرق.

وكان هناك آخر من هؤلاء، الذين يسمونهم في البرتغال «المسيحيين الجُدُد»، فبعد اختياره كي يُقذف في البحر، كان له أخ صغير في نفس القارب، نهض الصغير فجأة وطلب من القائد أن يعفو ويطلق سراح أخيه ويدعه هو كي يحل محله قائلاً: «أخي أكبر مني، وله معرفة بالعالم أكثر مني ولهذا فهو أكثر ملاءمة للحياة في هذا العالم وليساعد أخواتي وأصدقائي في شدتهم، ولهذا فأنا أود أن أموت بدلاً عنه، على أن أحيا بدونه».

وعند هذا الطلب أطلقوا الكبير وقذفوا بالصغير إلى اليم بناء على طلبه، فسبح على الأقل لمدة ست ساعات وراء القارب، وبالرغم أنهم أشرعوا سيوفهم بأيديهم وقد حذروه أن يقترب من القارب، إلا أنه تعلق به، فقطعوا يده شطرين، لكنه لم يتوقف عنهم، حتى إنهم في النهاية اضطروا لأخذ كلا الأخوين معهم ثانية، أعرفهما وكنت بصحبتهما.

وفي هذا البؤس والألم، بقوا عشرين يوماً في البحر، وفي النهاية وصلوا للبر، حيث وجدوا الأدميرال وأولئك الذين كانوا في القارب الآخر، وبالنسبة للذين بقوا في السفينة، فبعضهم أخذ ألواحاً من الخشب أو قطعاً من خشب الشجر والأخشاب الأخرى، وربطوها معاً ليعملوا منها طوفاً يسميه البرتغاليون «جانجاداس»، وكل إنسان بما يستطيع أن يحصل عليه، يأملون جميعاً أن ينقذوا أنفسهم، لكن من كل هؤلاء وصل اثنان فقط سالمين إلى الشاطىء.

وهؤلاء الذين هبطوا من القاربين، ما إن نجوا من الخطر الأول، حتى وقعوا في آخر، فبمجرد أن وضعوا أقدامهم على الشاطىء، هوجموا بواسطة سكان تلك البلاد - واسمهم «الكافير» - وسُلبت منهم كل ملابسهم، وأدى ذلك إلى مواجهة الجوع والبؤس والمعاناة الأخرى التي يصعب ذكرها. وفي النهاية وصلوا لمكان وجدوا فيه نائب قائد سوفالا وموزمبيق، الذي ساعدهم بقدر استطاعته، ووفر لهم

وسائل الوصول لموزمبيق ومن هناك ذهبوا للهند، حيث عرفت عديداً منهم وغالباً ما تحدثت معهم، ومن بين أولئك الذين وصلوا سالمين للشاطىء، مات بعض منهم قبل الوصول لموزمبيق، حتى إنه بقي من الجميع حوالى ستين شخصاً أنقذوا أنفسهم، وغرق جميع الباقين أو انتهوا مع السفينة، ولم تعد هناك أنباء عن السفينة أكثر مما سمعت.

تاجر من لندن في القاهرة

«1586 افرنجي»

*** جـون ساندرسـون**

.. في الثامن والعشرين من أبريل عام 1586 افرنجي. ذهبت لمشاهدة الأهرام والمومياوات، وكنت مع ثلاثة من السادة الألمان سمحوا لي بأن أرافقهم، وعدنا في اليوم التالي، وكانت هذه الأهرامات ـ التي تعد واحدة من عجائب الدنيا السبع ـ متفاوتة، لكن اثنان منها ـ على وجه الخصوص ـ كانا متشابهين في الضخامة، كل واحد يقدر محيطه عند القاعدة بألف خطوة، واحد منهما كان مفتوحاً فدخلناه ومعنا شموع مضاءة وصعدنا حتى قمته، حيث تقوم في حجرة مربعة، مقبرة منحوتة من الرخام الأسود أو القاتم، حيث ذكروا عن ذلك أن الفرعون كان يحب أن يدفن فيها، ذلك الذي طارد أبناء إسرائيل، وهو في طول الإنسان وغير مغطى، ورأيت التابوت من الخشب المطلي.

وسقف الهرم المذكور من خمسة أحجار، طولها خمسة وعشرون قدماً وعرضها خمسة أقدام لكل حجر، وجوانب الحجر ذات ضخامة عجيبة، ويستحيل التفكير في كيفية حملها إلى مثل هذا الارتفاع، وهو أيضاً رائع في أساساته المستندة على أعمدة عظيمة[1] وهي تُسمى بحق واحدة من عجائب الدنيا

(1) الهرم لا يقوم على أعمدة ويبدو أنه يقصد جملة أحجار القاعدة الرباعية للهرم فأخطأ التعبير «المترجم».

السبع، وهناك أيضاً، شكل ضخم لرأس من الحجر يقوم منتصباً حتى رقبته بارزاً من الأرض[1].

أما المومياوات التي كانت موجودة على بعد حوالى خمسة أو ستة أميال فيها بعد الأهرام، فهي آلاف من الجثث المحنطة، دُفنت منذ آلاف السنين الماضية في كهف رملي، يبدو أنها كانت تحوي مدينة في العصور القديمة، وقد هبطنا إليها بحبال كما لو كنا في بئر ومعنا شموع مضاءة في أيدينا، وهكذا سرنا فوق جثث من كل الأنواع والأحجام، كبيرة وصغيرة، وبعضها محفوظ في قدور طينية صغيرة ليس لها شكل، وموضوعة عند أقدام الجثث الأكبر حجماً ولا يصدر عنها رائحة كريهة مطلقاً وإنما رائحة تشبه المواد الصمغية حين كسرها، وذلك لأنني كسرت من كل أنواع أعضاء هذه الجثث لأرى كيف تحول اللحم إلى مادة راكدة.

وقد أحضرت معي إلى الوطن رؤوساً وأيدٍ وأذرعاً وأقداماً مختلفة كي أعرضها، وأحضرنا أيضاً 600 رطل مفككين منها للشركة التركية، وأحضرنا إلى إنجلترا في متحف هرقل جثة كاملة وكل ذلك من المذكور أعلاه، ملفوف في مئات من رقائق القماش التي بهتت واهترأت حتى إنك تستطيع رؤية البشرة واللحم والأصابع والأظافر ثابتة وقد تحول لونها للأسود، وأحضرت معي يداً صغيرة إلى لندن لعرضها ثم أهديتها لأخي الذي أعطاها بدوره لأحد الأطباء في أكسفورد.

وفي الثالث والعشرين من سبتمبر خرج أمير الحج ـ الذي كان قائد القافلة ـ من القاهرة قاصداً مكة في مسيرة عظيمة وكل المدينة خرجت لرؤيته ولرؤية الكسوة الثمينة التي يحملونها في استعراض عظيم لتغطيه قبر محمد ﷺ نبيهم[2]، وينضم جميع أو معظم دراويش القاهرة (والذين يطلقون عليهم شيوخاً) للموكب بتقديس عظيم والبعض منهم يذهب مع الموكب إلى المدينة «المنورة» ويُعد من أكثرهم إجلالاً ذلك الذي يزور المدينة مرتين أو ثلاثة.

---

(1) يقصد تمثال «أبي الهول» وكان في ذلك التاريخ مدفوناً حتى رقبته في الرمال. «المترجم».

(2) الكسوة الشريفة في الموكب النبوي المذكور كانت تصنع وتخرج من مصر للكعبة المشرفة أساساً وليس لقبر الرسول في الأصل (ﷺ)، «المترجم».

وقد رأيت حانوتياً عجوزاً، ذا لحية طويلة رمادية، وهو يخرج في حفاوة عظيمة من القاهرة (وهو لا يملك إلاّ عيناً واحدة ـ أعور ـ) ورأيته يعود مرة أخرى مع الأمير المذكور آنفاً، وقد ترك عينه هناك، إذ قلعها بعدما رأى قبر نبيهم ﷺ لأنه لا يرغب في رؤية أية خطايا بعد ذلك: وقام الكثيرون من الأتراك والنساء المسلمات ـ وآخرون ـ فاحتاطوه ورحبوا به، مسرورين بعودته للقاهرة ـ وأولئك الذين تمكنوا من تقبيل يده أو ذراعه أو ملابسه، عدوا أنفسهم سعداء.

إعدام ماري ملكة سكوتلندا

«8 فبراير/ النوار 1586 افرنجي»

*** روبرت وينكفيلد**

عندما انتهت صلواتها، طلب منها الجلادون، وهم راكعون، عطفها بأن تصفح عنهم لمساهمتهم في موتها، فأجابت: «إنني أصفح عنكم من أعماق قلبي، إذ الآن، آمل أنكم سوف تضعون نهاية لكل آلامي».

حينئذ بدأوا مع وصيفتيها في مساعدتها على خلع ملابسها، وعندما وضعت صليبها على المقعد أخذ أحد الجلادين عقدها المرسوم عليه صورة الحمل والصليب[1] من عنقها، كانت قد أهدته لإحدى وصيفتيها، فأبعدت يديه عنه، وأخبرت الجلاد بأنه يجب أن يُعطى نقوداً بدلاً منه، ثم سمحت لهم مع وصيفتيها بأن ينزعوا منها قلادتها ذات الحبات الذهبية الفوّاحة العطر، وباقي أرديتها برضى تام، وببهجة بدلاً من الحزن ساعدت في تجهيز نفسها، وقد وضعت زوجاً من الأكمام بيديها وبنفسها، كانوا قد جذبوه منها، وببعض من السرعة كما لو كانت تتوق للموت.

وفي كل هذا الوقت الذي كانوا يخلعون عنها ملابسها لم تتبدل حالتها، وبابتسامة مشجعة نطقت بهذه الألفاظ: «أنها لم يكن لديها مطلقاً مثل هذا العدد

(1) يرمز للمسيح عليه السلام بالحمل، «المترجم».

من المدربين الذين يهيئونها، وأنها لم تخلع ملابسها أبداً أمام مثل هذه الصحبة».

وعندئذ بعدما نضت عنها كل أرديتها عدا ملابسها الداخلية، وانتحبت المرأتان اللتان تساندانها وبكتا ثم رسمتا علامة الصليب حول نفسهما وبدأتا في الصلاة باللاتينية، فاستدارت إليهما واحتضنتهما وقالت لهما بالفرنسية: «لا تبكيان، فإنني موعودة من أجلكما». ورسمت عليهما علامة الصليب ثم قبلتهما، وأمرتهما أن تصليا من أجلها وأن تبتهجا لا أن تبكيا، إذ إنهما سيريان الآن نهاية لكل متاعب سيدتهما.

وعند ذلك، بابتسامة مطمئنة، التفتت إلى خدمها من الرجال، ميلفين والآخرين، كانوا واقفين على أريكة بالقرب من منصة الإعدام، والذين كانوا يبكون أحياناً وأحياناً يصرخون، ويرسمون الصليب باستمرار، فصلّت باللاتينية ورسمت لهم الصليب بيدها ولوحت لهم بالوداع آملة منهم أن يصلوا من أجلها حتى اللحظة الأخيرة.

وما إن تم هذا، حتى قامت واحدة من المرأتين بوضع قطعة قماش عليها صورة جسد المسيح مثلثة الأركان على وجه الملكة وشبكته بدبوس في ياقة رأسها، ثم ابتعدت المرأتان عنها، وبعدما ركعت الملكة على حشية معدة للجلوس بثبات ودون أية إشارات أو تخوفات من الموت تحدثت في صوت مرتفع بهذه الترنيمة باللاتينية: «بألوهيتك أؤمن، فلا تُخْزِني في الآخرة.. إلخ».

وعند ذلك استجمعت نفسها ووضعت رأسها فوق النطع وقد ارتكزت بذقنها فوقه بكلتا يديها اللتين ـ لأنهما ما زالتا هكذا ـ تم قطعهما، إذ لم يتبينهما الجلاد، وهي ما تزال راقدة بهدوء، مدت ذراعيها وصاحت: «بين يديك يا إلهي.. إلخ».. ثلاث أو أربع مرات عند ذاك، استلقت بثبات على النطع، وأمسك بها أحد الجلادين بخفة بإحدى يديه، وتلقت ضربتين من بلطة الجلاد الآخر، فأصدرت أنّه بسيطة أو لم تصدرها أصلاً.

ثم رقدت ولم يتحرك أي جزء من جسدها حيث رقدت، وهكذا قطع الجلاد رأسها، عدا عِرْق واحدٍ، بعدما فصله رفع رأسها عالياً أمام بصر المجتمعين

وصاح: «فليحم الله الملكة» ثم سقط غطاء رأسها، وظهر رمادياً كما لو كان وجه امرأة في السبعين من عمرها، وشعرها قصير جداً، وقد تغير وجهها بشدة في لحظة عما كان عليه أثناء حياتها، إذ قلة من المجتمعين أمكنهم التعرف عليها من وجهها بعد الموت، وتحركت شفتاها لأعلى ولأسفل لمدة ربع الساعة بعد قطع رأسها.

عند ذلك صاح السيد دايان ـ دكتور فليتشر دايان من بيتر بورو ـ بصوت مرتفع «هكذا ينتهي كل أعداء الملكة». . وبعد ذلك قدم الإيرل «أوف كنت» إلى الجثة ووقف لديها صارخاً: «هكذا نهاية كل أعداء الملكة والإنجيل».

حينئذ، بعدما جذب أحد الجلادين رباط جواربها، لمح كلبها الصغير الذي كان قد زحف تحت ملابسها، ولم يستطع إخراجه إلاّ بالقوة، ومع ذلك لم يكن ليبتعد عن الجثة فأتى ورقد بين رأسها وكتفيها، فلطخته الدماء حتى حملوه بعيداً وغسّلوه، مثل الأشياء الأخرى، التي كانت عليها دماؤها فإما أُحرقت أو غُسلت حتى تنظف.

وابتعد الجلادون وقد حصلوا على أجورهم، ولم يأخذوا شيئاً مما يخصها، وهكذا بعدما أمروا جميع الناس بالخروج، عدا المأمور ورجاله، حملوها إلى حجرة كبيرة، أرقدوها جاهزة للجراحين كي يحفظوا الجثة.

الفصول في روسيا

«1589 افرنجي»

* جيلز فليتشر

«ذهب الشاعر فليتشر ـ في سفارة خاصة لروسيا عام 1588 افرنجي» تختلف البلد كلها بسبب تقلب السنة، حتى إن الإنسان ليعجب عند رؤيته التغير الضخم والاختلاف بين الصيف والشتاء في روسيا، فالبلاد كلها يغطيها الجليد في الشتاء، الذي يتساقط باستمرار، ويصل سُمكه ـ أحياناً ـ إلى ياردة أو اثنتين تزداد سُمكاً بالاتجاه شمالاً، وتتجمد الأنهار والمياه الأخرى بسُمكِ ياردة أو أكثر، كم كانت

ـ دوماً ـ عريضة وسريعة، وهذه الشهور الخمسة المستمرة، أي، التي تبدأ من نوفمبر حتى نهاية مارس، ذلك الوقت الذي يبدأ الجليد فيه في الذوبان، حتى إن الإنسان ليتولد لديه الإحساس بالصقيع إذا ما نظر إلى الخارج ذلك الوقت، ويرى وجه الشتاء في ذلك البلد.

وتستطيع أن تحكم على حدة الهواء بذلك؛ فالماء الذي يتساقط إلى الأسفل أو يتطاير في الهواء، يتحول إلى ثلج قبل وصوله للأرض، وفي قمة الشتاء، إذا ما أمسكت بيدك طبقاً من الصاج أو إناءً أو أي معدن آخر ـ عدا في الحجرات ذات التدفئة بمواقد الغاز ـ فسوف تتجمد أصابعك حول الإناء بشدة، وتنزع بشرتك إذا ما أبعدتها، وعندما تمر من حجرة دافئة إلى أخرى باردة، سوف تشعر بوضوح أن أنفاسك أضحت صلبة كالشمع، وتتصلب بالبرد أكثر كلما سحبتها للداخل أو للخارج.

والاختلاف ليس فقط لمن يسافر خارجاً، وإنما ذات الأسواق والشوارع داخل مدنهم، يموت الكثيرون بقرصة البرد ويُقتلون، حتى إنك ترى الكثيرين يتساقطون في الشوارع، والعديد من المسافرين يُنقلون إلى داخل المدينة موتى ومُجمدين في زلاقاتهم، والبعض يفقدون أنوفهم، أو أطراف آذانهم، وخدودهم، وأناملهم، وأقدامهم الخ.

وفي كثير من الأحيان ـ عندما يقسو الشتاء ويشتد ـ تخرج الدببة والذئاب في جماعات من الغابات يدفعها الجوع لتأتي للقرى، فتمزق وتنهش كل ما تجده أمامها، بينما السكان أنفسهم يكونون في حالة إعياء تمنعهم من الهرب إنقاذاً لحياتهم، ومع ذلك ففي فصل الصيف سوف تشاهد المسحة والوجه الجديدين للبلد، والغابات ـ ومعظمها من أشجار الشربين، والخيزران ـ يانعة وجميلة، والمراعي والسهول خضراء جيدة النمو، وهذا كله فجأة.

ومثل هذا التنوع في الزهور والصخب في أصوات الطيور ـ خاصة العندليب الذي يبدو أن له نغمات متمايزة عن زميله في البلدان الأخرى، لدرجة أن الإنسان لا يمكنه الرحيل ببساطة إلى بلد أكثر بهجة.

وهذا التنامي السريع واليانع للربيع هناك، يبدو أنه ينبع من فائدة الجليد، الذي ينتشر عبر أرجاء البلاد خلال فصل الشتاء، كرداء، أبيض، ويحفظها دافئة ليمنع عنها قرصة الصقيع، وعند فصل الربيع، حين تشع الشمس دفئها، وينصهر الجليد إلى ماء، يغرق الأرض ويروي ظمأها، وهي رملية السطح وخفيفة، ثم تسطع عليها الشمس مرة أخرى بشدة، حتى تنبت الأعشاب والنباتات في كثرة هائلة وأنواع متعددة في وقت قصير.

القتال الأخير للسفينة «الانتقام»

«13 سبتمبر/الفاتح 1591 افرنجي»

* جون هويجين ڤان لينس شوتن

«الانتقام، كانت السفينة التي ترفع علم «دريك» ضد الأرمادا[1] عام 1588 افرنجي».

. . . في الخامس والعشرين من أغسطس وصل أسطول ملك أسبانيا إلى تيرسييرا قادماً من فيرول، مكوناً من ثلاثين سفينة، بسكانية وبرتغالية وأسبانية، ومعها عشرة قوارب مطاردة هولندية سبق أسرها في لشبونة من أجل خدمة الملك، بالإضافة إلى بعض القوارب الصغيرة المسماة «باتاكسوس»، المخصصة للخدمة في نقل المبعوثين من مكان لآخر أو لاستكشاف البحار.

وفي الثالث عشر من سبتمبر، وصل أسطول الأرمادا إلى جزيرة كورفو حيث كان الإنجليز يتمركزون ومعهم حوالى ست عشرة سفينة، مترقبين الأسطول الأسباني للهند الغربية، الذي وصل بعض منه أو معظمه وكان لدى الإنجليز آمال طيبة في أَسْرهم.

لكنهم عندما تبينوا أن قوات الملك قوية، أمر الأدميرال[2] «لورد توماس

(1) الأرمادا. تعني الأسطول بالأسبانية، وقد اشتهر الأسطول الأسباني بسيطرته القوية على البحار ومد نفوذ ملك أسبانيا طوال القرنين 15/16، «المترجم».

(2) قائد البحرية.

هوارد» أسطوله بعدم الهجوم وألاّ تنفصل أية سفينة عن سفينة القيادة حتى يعطي هو بنفسه أمراً بذلك.

ولم يتحمل السير ريتشارد جرينڤيل «نائب الأدميرال» ذلك، وكان في سفينة تدعى «الانتقام» فتقدم نحو الأسطول الأسباني وأطلق عليهم نيرانه مسبباً لهم أذى كبيراً، معتقداً أن بقية السفن سوف تتبعه، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، وإنما تركوه وأبحروا بعيداً، ولم يُعرف السبب في ذلك، فأحاطه الأسبانيون بسبع أو ثماني سفن وحاصروا سفينته، لكنها قاومتهم جميعاً، متقاتلة معهم، لمدة اثنتا عشرة ساعة على الأقل، وأغرق منهم سفينتين، واحدة منهما كانت قارباً مزدوجاً خفيفاً حمولة 1200 طن والأخرى اسمها «الباسكاين». ولكن في النهاية وللعدد الذي هاجمها، تم أسرها، مع خسارة كبيرة لهم إذ فُقد أربعمائة رجل أثناء القتال بسبب الغرق، ومن الإنجليز قُتل حوالى مائة رجل، أما السيد ريتشارد جرينڤيل نفسه فقد جُرح في رأسه، ومات فيما بعد.

وحملوه إلى سفينة تسمى سان باولو، كان عليها أدميرال الأسطول الأسباني دون ألونسو دو باسان، وهناك ضمدوا جراحه بواسطة الجراحين الأسبان، لكن دون الونسو نفسه لم يره ولم يتحدث معه بينما بقية الضباط والسادة ذهبوا لزيارته، ولمواساته في سوء حظه ولإعجابهم بشجاعته وقلبه الجريء، إذ لم يظهر أية علامة على الضعف أو الشحوب وإنما ـ لإحساسه بدنو أجله ـ تحدث بالأسبانية قائلاً: «أنا ريتشارد جرينڤيل، أموت هنا بعقل مبتهج وهادىء، إذ أنهيت حياتي كجندي حقيقي فعل ما يجب عليه، حارب من أجل وطنه ودينه وشرفه، بذلك كله ترحل روحي من جسدي بابتهاج عظيم، ولسوف تترك وراءها شهرة خالدة لجندي حقيقي شجاع قام بواجبه كما يجب». ثم أسلم الروح عندما أنهى هذه الكلمات أو مثلها بشجاعة وجرأة كبيرين، ولم يلحظ عليه أحد أية علامة من علامات التردد.

... كان السير ريتشارد جرينڤيل سيداً مهذباً ثرياً وعظيماً في إنجلترا، وله عوائد مالية كبيرة سنوية من إرثه، لكنه كان رجلاً ذا عقل متقلب، وكثيراً ما يتأثر

بالحرب، لدرجة أنه - متطوعاً من ذاته - قدم خدماته للملكة، وقام بالعديد من الأعمال الشجاعة وكان شديد الهيبة في هذه البلاد، ومعروف لدى الجميع، لكنه كان ذا طبيعة قاسية، حتى إن أهله قد كرهوه لوحشيته ويتحدثون عنه بجفاء.

فعندما دخلوا أول مرة وسط أسطول الأرمادا، كان شراعهم الرئيسي مفروداً، وكان لديهم - ما يكفي - للإبحار بعيداً، إذ كانت سفينتهم أفضل سفينة إبحار في إنجلترا، وعندما أدرك كابتن السفينة أن بقية السفن «الإنجليزية» قد تركتهم، وأنه لم يعد وراءهم من يتبعهم أمر رجاله بقطع الشراع الرئيسي، فقد يتمكنون من إيجاد مخرج، لكن السير ريتشارد جرينڤيل قام بتهديده هو وبقية الرجال الموجودين بالسفينة، أن لو وضع أحد منهم يده على الشراع سيشنقه على الفور، وفي هذه اللحظة فُرض عليهم القتال، وفي النهاية، تم أسرهم.

وكان ذا طبيعة صعبة، حتى إنه - أثناء بقائه بين الضباط الأسبان - وعند تناولهم الغذاء أو العشاء كان يَعُبُّ ثلاث أو أربع زجاجات من الخمر، وبشجاعة يأخذ الكؤوس بين أسنانه ويحطمها إلى قطع صغيرة ويبتلعها، حتى إن الدم كان يسيل من فمه في أغلب الأحوال دون أن يؤذيه ذلك على الإطلاق، وقد أخبرني بذلك العديد من الأشخاص الموثوق بهم، الذين شاهدوه مرات عديدة.

الوقوع في الشَّرَك، بالمنطقة المتجمدة الشمالية «1596 افرنجي»

«محنة بحارة هولنديين»

*** جيريت دي ڤيير**

«كان قائد هذه البعثة - التي كان هدفها الكشف عن الممر الشمالي - الشرقي لآسيا - هو الملاّح الهولندي ويليام بارنيتس، وفي يونيه 1597 افرنجي - كانت سفينته لا تزال محاصرة بالثلج - وقد غادر السفينة مع صحبته في قاربين صغيرين، ومات بعد أسبوع من ذلك، بينما بقي أغلب الآخرين على قيد الحياة، وفي عام

1871 افرنجي تم اكتشاف البيت الذي قضى فيه بارنيتس شتاءه، مع الكثير من رفاته التي مازالت باقية». . .

. . . في الحادي عشر «من سبتمبر» كان الطقس هادئاً، وذهب ثمانية منا إلى البر، وكل واحد منهم مسلح، ليستقصوا إذا ما كان صحيحاً ما قاله لنا ثلاثة من رفاقنا الآخرين بأن هناك خشب موجود حول النهر، إذ بعدما رأينا أننا نلف وندور، أحياناً في الثلوج وأخرى خارجها وأُجبرنا على تغيير مسارنا، أدركنا أخيراً أننا لا نستطيع الخروج من الثلوج، لأنها أصبحت أكثر إحكاماً.

ولم نستطع إخراج سفينتنا، كما سبق لنا أن فعلنا في مرات سابقة، كما أن الشتاء قد بدأ، وتشاورنا معاً في أفضل ما يجب أن نفعله، بناءً على ذلك الوقت، الذي ينبىء بأننا قد نقضي الشتاء هنا، ونواصل تلك المغامرة إلى حيث يشاء لنا الله. . .

وبعدما تناقشنا حول المسألة «لنحفظ أنفسنا ونحميها من البرد والحيوانات المتوحشة» قررنا أن نبني منزلاً فوق الأرض كي نحتمي به بقدر استطاعتنا وهكذا نسلم أنفسنا لإرادة الله وبناءً على هذه النتيجة توغلنا داخل الأرض بحثاً عن المكان الملائم في رأينا، كي نقيم عليه منزلنا، إلاّ أننا لم يكن لدينا مواد كافية لنبني بها المنزل باعتبار أن الأشجار لا تنمو هناك، ولا أي شيء آخر في هذه البلاد صالح لبنائه به.

لكننا لم نترك أمراً لم نبحثه، إذ إن رجالنا خرجوا لاستطلاع المكان ولاكتشاف ما قد يجلبه الحظ لنا وفي النهاية وجدنا تلبية غير متوقعة لاحتياجاتنا، ذلك أننا وجدنا بعض جذور الأشجار (كما سبق أن أخبرنا بذلك أصدقاؤنا) والتي ألقاها البحر إلى الشاطىء إما من تارتاريا أو موسكو أو أي مكان آخر[1] إذ لم يكن هناك شيء ينمو على الأرض مما أراحنا كثيراً (كما لو كان الله أرسلها لنا عمداً).

---

(1) إقليم التتار شمالاً ووسط آسيا وموسكو كان إقليمها معروفاً باسمها في ذلك الوقت وتمتد إلى شمال شرق آسيا، «المترجم».

وقد ملأنا الأمل الطيب بأن الله سيبدي لنا المزيد من العناية، لأن هذه الأخشاب خدمتنا ليس فقط في بناء منزلنا وإنما أيضاً في التدفئة ووفرت ذلك لنا طوال الشتاء وإلاّ ـ ودون أي شك ـ كنا متنا هناك في بؤس وبرد عظيمين. . .

وفي الثالث والعشرين، كانت الرياح غربية، والبحر هادىء، لكن سفينتنا ظلت محصورة، مما أشعرنا بألم غير قليل، لكنها كانت إرادة الله ويجب أن نتحملها بصبر.

ثم بدأنا في تشييد منزلنا وذهب بعض من رجالنا لإحضار الأخشاب للتدفئة، وقام الآخرون بدور النجارين، وانشغلنا بالمنزل وكنا عند ذاك الوقت ستة عشر رجلاً لأن نجارنا كان قد مات، ومن بين رجالنا الستة عشر كان واحداً أو أكثر ما زال مريضاً. . .

وفي اليوم السابع والعشرين هبت رياح شمالية شرقية قاسية، وكانت شديدة البرد لدرجة أننا إذا ما وضعنا مسماراً في فمنا (كما كان النجارون يفعلون دائماً) نجد ثلجاً معلقاً عليه، وعندما نأخذه مرة أخرى من فمنا يتسبب في سيولة الدم منه. . .

وفي نفس اليوم جاءت دبة عجوز وأخرى صغيرة نحونا أثناء انشغالنا في بناء المنزل ولأننا جميعاً كنا معاً ـ إذ لم نكن نجرؤ على التحرك منفردين ـ فكرنا في اصطيادها لكنها فرت هاربة في الوقت الذي تناثر فيه الثلج بشدة وكان طقساً تملؤه الشمس المشرقة، لكنه شديد البرودة، حتى إننا كنا نعمل بصعوبة، لكن الضرورة دفعتنا لذلك. . .

وفي اليوم الثامن والعشرين كان الطقس معتدلاً والشمس أشرقت والرياح غربية هادئة والبحر مستوياً لكن سفينتنا ما زالت محاصرة وسط الثلج لم تتحرك. . .

وفي ذلك اليوم أتت إحدى الدببة لكنها عندما لمحتنا هربت وقد بذلنا أقصى ما نستطيع من سرعة لنبني المنزل. وفي صبيحة اليوم التاسع والعشرين كانت الرياح غربية وبعد الظهر هبت من اتجاه الشمال، وحينئذ شاهدنا ثلاث دببة في

المسافة التي بيننا وبين المنزل، واحدة عجوزاً واثنتين صغيرتين، لكننا لم ننتظر فسحبنا أمتعتنا من السفينة إلى المنزل، وهكذا وصلنا قبل الدببة، إلا أنهم تابعونا وعلى أية حال نحن لم نُخلِ لهم الطريق، ولكن ارتفع صياحنا عالياً بقدر ما نستطيع ظانين أنهم سيبتعدون، لكنهم لم يحيدوا عن طريقهم، حتى أصبحوا أمامنا وهنا كنا جميعاً نحن وهي عند المنزل وقد أصدرنا ضجة عظيمة جعلتهم يفرون، ولم يكن فرحنا قليلاً بذلك. . .

وفي اليوم الثلاثين كانت الرياح شرقية ثم شرقية جنوباً بشرق، وطوال تلك الليلة واليوم التالي هطل الجليد بغزارة، لدرجة لم يستطع معها رجالنا البحث عن أية أخشاب، وقد تراكم الجليد قريباً جداً ومرتفعاً طبقة فوق الأخرى، فأشعلنا ناراً ضخمة خارج المنزل نذيب بها جمود الأرض حتى نضع منها طبقات حول المنزل فتكون هي الأقرب لحوائطه، لكن ذلك كان عملاً بلا جدوى، إذ إن الأرض كانت متصلبة ومتجمدة في عمقها لدرجة لم نستطع معها صهرها، وكان يمكن أن تستهلك منا الكثير من الخشب، مما أرغمنا على ترك ذلك العمل. . .

وفي الأول من أكتوبر، هبت الرياح عنيفة شمالية شرقية، وبعد الظهر هبت من الشمال عاصفة شديدة وموجة من الجليد، لم نستطع بسببها أن نخرج وسط الرياح، وكان الرجل يسحب أنفاسه بصعوبة، فالجليد كان يصفع وجوهنا بشدة، وفي ذلك الوقت لم نكن نتمكن من الرؤية بطول سفينتين أمامنا، وفي الثانية قبل الظهر أشرقت الشمس، وبعد الظهر غيمت السماء من جديد، وهطل الجليد لكن الطقس بقي، الرياح كانت شمالية ثم جنوبية، وقد أقمنا منزلنا وفوقه وضعنا نُصب الربيع[1] مصنوعاً من الثلج. . .

وفي اليوم الثالث عشر، كانت الرياح شمالية وشمالية غربية وقد بدأت تهب من جديد بعنف، وعندئذ ذهب ثلاثة منا إلى ظهر السفينة، وحمّلوا إحدى الزلاقات بالبيرة، لكن ما إن حملناها، قاصدين الذهاب بها إلى المنزل، حتى

---

(1) May - Pole عمود يصنع من الثلج احتفالاً بالربيع وكان يُزين بكرات الثلج والأوراق الملونة. إلخ. في المناطق الباردة، «المترجم».

هبت ريح قوية وعاصفة باردة، لدرجة أرغمتنا على العودة للسفينة مرة ثانية، لأننا لم نستطع البقاء في الخارج، كما لم نستطع إعادة البيرة إلى السفينة وإنما تركناها قائمة في الخارج على الزلاقة مُجبرين، ولأننا أصبحنا فوق السفينة فقد واجهنا برداً شديداً، حيث لم يكن بها إلا ملابس قليلة. . .

وفي اليوم الرابع عشر، عندما خرجنا من السفينة، وجدنا برميل البيرة فوق الزلاقة، لكنه أصبح شديد التجمد عند قمته، وبسبب البرد الهائل فإن البيرة التي تناثرت تجمدت بقسوة على جانبي البرميل كما لو كانت ألصقت بصمغ، وبهذا الشكل سحبناه إلى منزلنا، ووضعنا البرميل على أحد طرفيه، وشربنا منه أولاً، لكننا أضطررنا لإذابة البيرة، إذ وجدنا بالكاد كمية ضئيلة غير مجمدة، لكن في تلك الخميرة المكثفة تكمن قوة البيرة، حتى إنها لا يمكن تناولها وحدها لقوتها، وذلك الذي تجمد أصبح مذاقه كالماء، وبعد إذابة ذلك كله خلطناه بعضه ببعض وشربناه، إلا أنه فقد طعمه وأثره. . .

ويوم السابع «من نوفمبر»، كان الطقس قاتماً وما زالت الريح غربية، بسببه لم نستطع التفرقة بين الليل والنهار، خاصة وأن الساعات توقفت في ذلك الوقت، ولم نستطع بأية وسيلة معرفة متى يكون الوقت نهاراً، لذلك، لم يخرج رجالنا من حجراتهم طوال اليوم، إلا للتبول، حيث لم يتمكنوا من معرفة إذا ما كان الضوء الذي رأوه هو ضوء النهار أم ضوء القمر، وكانوا على ذلك في آراء مختلفة، فبعضهم يقول: إنه ضوء النهار، والآخر يقول: إنه ضوء الليل، ولكن بعد أن تفحصنا الأمر بعناية، وجدناه ضوء النهار في الساعة الثانية عشرة عند الظهر. . .

وفي العشرين من ذات الشهر، ما زال الطقس كما هو والرياح شرقية، عند ذلك غسلنا أغطيتنا، لكن البرد كان شديداً لدرجة أننا عندما غسلناهم وعصرناهم تجمدوا فوراً وتصلبوا ورغم أننا وضعناهم بجوار النار، فإن الجانب المواجه للنار فقد صلابته، وظل الجانب الآخر شديد التصلب، حتى كدنا نمزقهم قطعاً بدلاً من فردهم مما دفعنا لوضعهم في الماء المغلي مرة أخرى لإذابتهم، فالبرد كان يتزايد.

وفي التاسع والعشرين، كان الطقس صافياً والهواء طيباً والرياح شمالية، وقد تمكنا من فتح باب لنا بجرف الجليد بعيداً. حين فتحنا ذلك الباب وخرجنا، وجدنا كل مصائدنا وشراكنا فارغة ومغطاة بالجليد فنظفناها وأعددناها لصيد الثعالب مرة أخرى، وفي هذا اليوم صدنا واحداً، حيث انتفعنا به ليس فقط بلحمه، وإنما بفروته التي صنعنا منها قبعات نرتديها فوق رؤوسنا لنحميها من البرد الشديد. . .

وفي الأول من ديسمبر، كان الطقس رديئاً برياح جنوبية غربية، وكميات كبيرة من الجليد المتساقط حُبسنا بسببه داخل المنزل مرة أخرى، وبذلك تراكم دخان كثير داخله حتى صُعب علينا إيقاد النار، وهكذا رقدنا طوال اليوم داخل حجراتنا، لكن الطاهي اضطر لإيقاد النار حتى يعد لنا اللحم. . .

في الثالث منه، كنا نواجه نفس الطقس، وكنا نرقد في حجراتنا، في الوقت نفسه الذي كنا نسمع فيه صوت تكسر الثلج في البحر، رغم أنه كان على بعد نصف ميل منا على الأقل، وكان يحدث قرقعة عظيمة، وكان رأينا أن تلك التلال الثلجية العظيمة، التي شاهدناها في البحر في فصل الصيف ينفصل بعضها عن البعض الآن. . .

وخلال هذه الأيام الإثنين أو الثلاثاء وبسبب الدخان المتراكم، لم نشعل ناراً كما تعودنا بكثرة، فأصبح البرد مؤلماً داخل المنزل حتى إن الحوائط والسقف قد تجمد حولها ما سُمكه إصبعين من الثلج. وكذلك في حجراتنا التي رقدنا فيها طوال الأيام الثلاثة هذه، في حين لم نستطع الخروج بسبب رداءة الطقس، وقد وضعنا الساعة الزجاجية ذات الاثنتي عشرة ساعة وعندما تنتهي كنا نعيدها مرة أخرى، ونظل نرقبها خشية أن نفقد حساب وقتنا، لأن البرد كان شديداً لدرجة أن ساعتنا كانت قد تجمدت، ولم تعد تعمل، رغم أننا وضعنا عليها أثقالاً أكثر من ذي قبل. . .

وفي اليوم السابع، ما زال الطقس رديئاً، وأمامنا عاصفة قوية مع رياح شمالية شرقية، حملت معها برداً شديداً، في وقت لم نعرف فيه ما نفعل، فنصحنا واحد

من رفاقنا بأن نشعل بعضاً من فحم البحر الذي أحضرناه معنا من السفينة، فهو ينشر حرارة كبيرة ويستمر لمدة أطول، وهكذا أوقدنا ناراً كبيرة هناك، فنشرت دفئاً عظيماً في الوقت الذي كنا حريصين جداً فيه على استمرارها إذ إن الحرارة كانت مصدر راحة لنا فراعينا أن نجعلها تستمر طويلاً.

وعلى ذلك اتفقنا أن نغلق كل الأبواب والمدخنة حتى نحفظ الحرارة بالداخل، ثم ذهبنا إلى حجراتنا لننام ناعمين بالدفء، وهكذا رقدنا فترة طويلة نتحدث معاً ولكن في النهاية أخذتنا إغماءة ودوخة دارت برؤوسنا، وكانت أقوى مع البعض دون البعض الآخر، عندما أدركناها أولاً من خلال رجل مريض، ولهذا فقلة هم من تحملوها، ووجدنا أنفسنا في منتهى الضعف عند الاسترخاء، فقام بعض منا ممن كانوا أقوياء، بالخروج من حجراتهم وفتحوا المدخنة أولاً ثم الأبواب، لكن الذي فتح الباب سقط مغشياً عليه فوق الجليد، وسمعته لأنني أرقد في الحجرة المجاورة للباب فقمت بسرعة ونثرت بعضاً من الشراب على وجهه فاستعاد نفسه وهكذا نهض، وعندما فتحت الأبواب استعدنا قوتنا ثانية بفضل الهواء البارد، وهكذا أصبح البرد الذي كان عدواً كبيراً من قبل، الراحة الوحيدة لنا وإلا، وبدون شك، كنا قد انتهينا في إغماءة مفاجئة. وبعد ذلك قام قائد الرحلة عندما عدنا إلى وعينا، بإعطاء كل واحد منا قليل من الخمر لتهدئة قلوبنا.

في اليوم الحادي عشر، كان الطقس هادئاً والهواء صافياً لكنه شديد البرودة حتى إن ذلك الذي لم يشعر به لا يمكنه أن يصدق، إذ إن أحذيتنا تجمدت فصارت بصلابة قرن الحيوان فوق أقدامنا وبداخلها أضحت أقدامنا متجمدة بيضاء لدرجة لم نستطع معها ارتداء الأحذية مما دفعنا لعمل نعالٍ كبيرة، الجزء الأعلى منها من جلد الغنم، وارتدينا معهم ثلاثة أو أربعة أزواج من الجوارب، ثم أدخلنا أقدامنا فيها لنبقيها دافئة...

وفي اليوم الثالث عشر كان الطقس هادئاً وصافياً، برياح شرقية، وحينئذ اصطدنا ثعلباً، وقد استنفذنا جهداً كبيراً في إعداد وتجهيز شراكنا بتعب غير قليل

إذ لو أننا بقينا طويلاً خارج المنزل فلسوف تظهر تقرحات على وجوهنا وآذاننا.

وفي اليوم الخامس والعشرين، وكان يوافق عيد ميلاد المسيح، كان الطقس رديئاً، برياح شمالية غربية رغم أنه كان طقساً سيئاً، إلا أننا سمعنا الثعالب تجري فوق منزلنا، مما جعل بعضاً منا يقول: إنها علامة سيئة، وقام بإيضاح ذلك بعض الرجال الآخرين، بأنها علامة سيئة لأننا لم نستطع أن نصيدهم ونضعهم في قدورنا ونطهيهم، لأن ذلك علامة جيدة لنا...

وفي اليوم السادس والعشرين كان الطقس رديئاً والرياح شمالية غربية، وكان الجو بارداً حتى إننا لم نتمكن من تدفئة أنفسنا، رغم أننا استخدمنا كل الوسائل الممكنة من نيران كبيرة وملابس كافية وأحجار وجمرات ساخنة، نضعها فوق أقدامنا وأجسامنا أثناء رقودنا في حجراتنا لكن ذلك كله لم يُجد، ففي الصباح كانت حجراتنا مجمدة جعلت كل منا يرى الآخر في حالة سيئة، لكننا هدّأنا أنفسنا مرة أخرى بقدر استطاعتنا، إذ إن الشمس كانت في ذلك الوقت في أقصى درجات انخفاضها وأنها الآن تبدأ في الاقتراب منا مرة أخرى، وقد وجدنا ذلك حقيقة لأن النهار بدأ في الاستطالة، وبدأ البرد يقوى، لكن الأمل وضعنا في راحة كبيرة، وخفف من آلامنا...

وفي اليوم السابع والعشرين مازال الطقس رديئاً برياح شمالية غربية لدرجة أننا لم نخرج ثلاثة أيام متتالية، ولم نجرؤ حتى على إخراج أيدينا خارج الأبواب، كما أن داخل المنزل كان بارداً جداً لدرجة أننا إذا ما جلسنا أمام النار وبدا أنها تكاد تحرقنا من الأمام، تجمدت ظهورنا من الخلف، وكنا جميعاً شديدي البياض، مثل رجال هذه البلاد عندما كانوا يأتون إلى بوابات المدينة في هولندا بزلاقاتهم ثم يذهبون طوال الليل...

وفي اليوم الثامن والعشرين، ما زال الطقس سيئاً مع رياح غربية، ومع بداية المساء بدأ يصفو، وفي ذلك الوقت فتح أحد رجالنا حفرة في أحد الأبواب وخرج ليستطلع الجليد في الخارج، لكنه وجد الطقس قاسياً، حتى إنه لم يبق

طويلاً، وأخبرنا أن الجليد يهطل بغزارة وأنه يتراكم أعلى من منزلنا وأنه لو بقي في الخارج أطول من ذلك فلسوف تتجمد أذناه دون أي شك. . .

في اليوم التاسع والعشرين، كان الطقس هادئاً والهواء مبهجاً والرياح جنوبية، وفي هذا اليوم قام الذي عليه الدور بفتح الباب وحفر فتحة خلال الجليد خرجنا منها بواسطة درجات كما لو كنت تخرج من قبو، على الأقل سبع أو ثماني درجات في الارتفاع وكل درجة تعلو الأخرى بخطوة، وعند ذلك قمنا بتنظيف شراكنا لصيد الثعالب التي لم نصد بها شيئاً لعدة أيام وبينما كنا ننظفها وجد أحد رجالنا ثعلباً ميتاً في واحدة منها وكان متجمداً كالحجر، فأحضره إلى المنزل وأذابه أمام النار، وبعد أن سلخه قام بعض رجالنا بأكله.

وفي اليوم الثلاثين عاد الطقس رديئاً مرة أخرى بعاصفة تهب من الغرب وأمواج من الجليد. حتى ذهبت كل أعمالنا وجهودنا التي بذلناها في اليوم السابق لعمل سلم نخرج به من المنزل وتنظيف شراكنا هباءً منثوراً، إذ إن كل ذلك غطاه الجليد مرة أخرى أكثر من ذي قبل.

وفي اليوم الواحد والثلاثين، ما زال الطقس سيئاً مع عاصفة تهب من الشمال الغربي، حوصرنا بسببها داخل المنزل كما لو كنا سجناء، وكان البرد قاسياً لدرجة أن النيران لم تشع أي دفء، لأننا عندما كنا نضع أقدامنا عند النار، كانت جواربنا تحترق قبل أن نشعر بالحرارة، وبذلك بذلنا جهداً كافياً لترقيع جواربنا، والأكثر من ذلك، أننا إذا لم نشم رائحة احتراقها في الحال، بدلاً من الشعور بها، كنا أحرقناها قبل أن ندرك ذلك.

في يوم الخامس «من يناير»، كان الطقس إلى حد ما هادئاً، حينئذ حفرنا بابنا مرة أخرى حتى يمكننا الخروج والتخلص من كل النفايات التي خلفناها خلال الفترة التي حُبسنا فيها داخل المنزل. ونعيد ترتيب كل شيء، ونحضر الأخشاب التي كسرناها للحطب، وكان ذلك كل عمل أيامنا، لتهيئة أنفسنا بقدر ما نستطيع، متخوفين أن نُحبس ثانية، وحيث إن هناك ثلاثة أبواب في مدخلنا، ولأن منزلنا قد علاه الجليد، لهذا استبعدنا الباب الأوسط، وحفرنا حفرة عميقة في الجليد، تقع

خارج المنزل، مثل قبو جانبي، نستطيع الذهاب إليه لقضاء الحاجة، ونلقي فيه بباقي فضلاتنا.

وعندما استغرقنا الجهد طوال اليوم، تذكرنا أن اليوم هو عيد قدوم المجوس للمسيح، لذا رجونا قائدنا أن نكون في مرح هذا المساء، وقلنا: إننا راضون أن نستهلك بعضاً من الخمر في تلك الليلة مما ادخرناه، ومما سيكون نصيبنا في يوم آخر، ومن ذلك أننا لم نشرب خمراً لمدة أيام تالية، وهكذا ابتهجنا في تلك الليلة وشربنا نخب ملوك المجوس الثلاثة[1] ومعها تناولنا رطلين من الطعام حيث صنعنا كعكة بالزيت ولكل رجل بسكوتة بيضاء غمسناها في الخمر، وهكذا افترضنا أننا في بلادنا وبين أصدقائنا، وقد أراحنا ذلك جيداً كما لو كنا صنعنا مأدبة عظيمة في منزلنا الخاص، وكذلك كتبنا تذاكر دعوة، وكان ضابط مؤونتنا ملك «النوڤاز يمبلا» التي تمتد مائتي ميل على الأقل طولاً[2] وتقع بين البحرين.

الراهب اليسوعي يُعذب في البرج

«14 ـ 15 أبريل/الطير 1597 افرنجي»

*** جون جيرارد**

«جيرارد ـ الذي كان عضواً في الإرسالية التبشيرية اليسوعية لإنجلترا ـ كان قد هرب من برج لندن في أكتوبر 1597 افرنجي، بواسطة حبل معلق عبر قناة البرج».

في اليوم التالي جاء الحارس إلى غرفتي بعد عشائه مباشرة، وأخبرني والأسف يبدو عليه، أن اللوردات المفوضين قد أتوا ومعهم المدعي العام للملكة، وأنني يجب أن أهبط إليهم في الحال، فقلت له: أنا مستعد، لكن دعني أتلو أبانا ومريم الحبيبة «عندما أهبط» فتركني أفعل، ثم خرجنا معاً إلى حجرة الضابط داخل أسوار البرج، كان هناك خمسة رجال في انتظاري، لم يستجوبني

(1) في الأصل Three Kings ويقصد الحكماء الثلاثة الذين أتوا من بلاد فارس ليشهدوا مولد المسيح عليه السلام وكانوا من المجوس، «المترجم».

(2) مملكة خيالية.

أحد منهم من قبل عدا «ويد»، وكان موجوداً لتوجيه الاتهامات لي.

وأخذ المدعي العام صفحة من الورق ثم بدأ يكتب رسمياً صيغة استجواب قضائي، ولم يضعوا أسئلة حول الأفراد من الكاثوليك، ـ إذ كانت كل الأسئلة حول مسائل سياسية ـ وقد أجبت عليها من خلال النقاط الأساسية التي أجبت بها من قبل، بأن أمور الدولة «السياسة» ممنوعة على الرهبان اليسوعيين، وبناءً على ذلك فلم أتناول أبداً مثل هذه الأمور.

وإذا ما رغبوا في تأكيدات فقد حصلوا عليها، فقد بقيت مسجوناً حتى الآن ثلاثة أعوام، واستجوبوني مرة بعد مرة بصورة متكررة، ولم يبرزوا حتى قطعة من رسالة أو شاهد عدل واحد ليبرهن أني شاركت في أي نشاط ضد الحكومة. عند ذلك سألوني عن الرسائل التي تلقيتها حديثاً من القساوسة في الخارج، وأدركت لأول مرة لماذا نُقلت من البرج، فأجبت «لو أنني تسلمت أية رسائل في أية أوقات، فهي لا تتناول السياسة أبداً، إذ إنها تهتم فقط بالمساعدات المالية للكاثوليك الذين يعيشون على هذه القارة».

فسألني «ويد»: ألم تتسلم طرداً منذ فترة قصيرة، وسلمته لفلان وفلان لتوصيله إلى هنري جارنيت»؟.

فرددت «أنني لو تسلمت مثل هذا الطرد ومن ثم سلمته، فقد فعلت ما يجب عليَّ فعله، ولكن الخطابات الوحيدة التي تسلمتها أو سلمتها هي تلك ـ كما سبق أن قلت ـ التي تختص بتوزيع الأموال لرجال وطلبة الدين في المنطقة». فقالوا: «حسناً جداً، فلتخبرنا إذن باسم الرجل الذي سلمته الخطابات وأين يعيش»؟.

.. «أنا لا أعرف وحتى لو عرفت فلا أستطيع ولا يمكنني إخباركم». ثم شرحت لهم المبررات المعتادة لمثل هذه الإجابة.

فقال المدعي العام: «تقول إنه ليس لديك رغبة في معارضة الحكومة، فأخبرنا ـ إذن ـ أين يوجد الأب جارنيت، إنه عدو للدولة، وواجبك أن تخبرنا عن جميع هؤلاء الرجال».

فقلت: «إنه ليس عدو للدولة، بل على العكس، إنني متأكد أنه لو منح فرصة ليهب حياته من أجل مليكته ووطنه، فلسوف يكون سعيداً بذلك، ولكن لا أعلم أين يعيش ولو كنت أعلم، ما أخبرتكم..».

.. «إذن، سوف نرى ذلك، فأنت ستخبرنا قبل أن نغادر مكاننا هذا».

فأجبتهم: «أرجو الله ألا تصلوا لما تريدون».

حينئذ أبرزوا أمراً بتقديمي للتعذيب، وكان جاهزاً بجوارهم وسلموه لي لأقرأه، «في هذا السجن، ثم طلب أمر خاص بالتعذيب».. وقد تبينت أن الأمر قد أعد بصورة صحيحة وتم توقيعه، عندئذ أجبتهم: «بمعونة الله لن أفعل شيئاً غير عادل أو أتصرف ضد ضميري أو عقيدتي الكاثوليكية، فأنتم الآن تتحكمون فيّ، إلا أنكم ستفعلون ما يسمح به الله أن يكون، وما هو أكثر من ذلك فلن يكون».. فبدأوا يرجونني ألا أرغمهم على اتخاذ خطوات يكرهون فعلها، وقالوا: إنهم سيضعونني في العذاب كل يوم، طالما بقيت على قيد الحياة، حتى أبوح لهم بالمعلومات التي يريدونها. وأجبتهم: «إنني أثق بنعمة الله، وإنه سوف يمنعني دائماً من ارتكاب خطيئة كهذه، خطيئة اتهام أناس أبرياء، فنحن جميعاً بين يدي الله، ولذا لا أخشى أي شيء تفعلونه معي».. وهذا كان معنى إجابتي، بقدر ما تسعفني الذاكرة بشأنهم الآن، ثم ذهبنا إلى غرفة التعذيب، في ترتيب كئيب، وقد سار القائمون بالخدمة أمامنا وهم يحملون شموعاً مضاءة كانت الحجرة سفلية ومظلمة، وبخاصة بالقرب من مدخلها، وهي عبارة عن مكان واسع وبها كل أداة أو جهاز للتعذيب البشري، وقد أشاروا إلى بعض منها أمامي قائلين بأنني قد أمر بهم جميعاً، وسألوني ثانية إذا ما كنت سأعترف أم لا. فقلت: «إنني لا أستطيع».

وجثوت على ركبتي للصلاة لحظة، ثم أخذوني إلى عمود قائم ضخم، وهو واحد من الأعمدة الخشبية التي يستند عليها سقف هذه الحجرة الضخمة السفلية، مثبت فيه حلقات حديدية لتعليق الأحمال الثقيلة، وعندئذ وضعوا القيد الحديدي حول رسغيّ وأمروني أن أصعد درجتين أو ثلاث على سلم من فروع الشجر، ثم

رفعوا يديَّ عالياً ثم أدخلوا قضيباً من الحديد في حلقة من أحد قيودي ثم عبر حلقات العمود ثم مرة أخرى من خلال حلقة القيد الثانية، وما إن تم ذلك، حتى أحكموا رباط القضيب بدبوس لمنعه من الانزلاق، وحينئذ أبعدوا الدرجات الخشبية واحدة بعد الأخرى من تحت قدميَّ، وتركوني معلقاً من يديَّ وذراعيَّ مربوطتان فوق رأسي، إلا أن أطراف أصابع قدمي ما تزال تلمس الأرض، وكان عليهم أن يحفروا الأرض أسفلها، وكانوا قد علقوني من أعلى حلقة في العمود، ولم يستطيعوا أن يرفعوني أكثر من ذلك دون تثبيت حلقة أخرى في العمود.

وأثناء تعليقي هكذا، بدأت الصلاة، فسألني الرجال الواقفون إذا ما كنت أرغب في الاعتراف أم لا. فأجبتهم: «بأني لا أستطيع، وأنني لن أفعل».

لكنني نطقت الكلمات بصعوبة، وبدأ ألم فظيع يزحف داخلي، وكان أكثر سوءاً في بطني وصدري، ويديَّ وذراعيَّ، وبدا أن كل الدم في جسدي قد اندفع عالياً إلى الذراعين واليدين، واعتقدت أن الدم قد انسل خارجاً من أطراف أصابعي ومسام جلدي، لكنه كان مجرد إحساس سببه تورم لحمي أعلى القيود الحديدية التي تمسكني، وكان الألم عنيفاً لدرجة أنني تخيلت عدم قدرتي على تحمله، بالإضافة إلى أنه كان لديّ إغراء داخلي، إلا أنني لم أشعر بميل أو رغبة في الإدلاء بالمعلومات التي يريدونها، فقد رأى الله ضعفي بعين رحمته ولم يسمح لي بأن أُمتحن بما فوق طاقتي، إذ مع ذلك الامتحان أرسل لي السكينة، باطلاعه على حزني ومقاومتي التي تتزايد في ذهني.

وهبني الله هذه الفكرة الرحيمة، إن أقصى ما يمكنهم فعله لك أن يقتلوك، وأنت رغبت مراراً في أن تهب حياتك من أجل الرب إلهك، وهو يرى كل ما تتحمله، ويستطيع أن يفعل كل شيء، فأنت في عناية الله، وبهذه الأفكار، أعطاني الله برحمته ونعمته الواسعة فضل الصبر على المكاره، وبرغبة شديدة في الموت آمل - أصرح به - أنني سوف أموت مسلماً نفسي لله يقضي بها مشيئته.

ومنذ هذه اللحظة توقف الصراع في نفسي وحتى الألم الطبيعي بدأ أكثر احتمالاً من ذي قبل، بالرغم من أنني متأكد أن الألم قد أصبح - في الحقيقة - أشد

مع تنامي الضغط والألم في جسدي. وعندما رأى السادة الحاضرون أنني لا أجيب عن أسئلتهم، خرجوا إلى منزل الضابط، ومكثوا هناك، وكل لحظة وأخرى يرسلون ليروا كيف تجري الأمور معي.

وكان ثلاثة أو أربعة من الأشداء قد تخلفوا معي لمتابعة وملاحظة التعذيب، وكذلك حارسي الذي بقي - فيما أعتقد - ودون دافع من الشفقة، كل دقائق قليلة تمضي، يأخذ قطعة من القماش ويمسح العرق الذي يسيل في قطرات مستمرة إلى أسفل وجهي وجسمي كله، وإن ساعدني ذلك قليلاً، إلا أنه زاد آلامي عندما بدأ يتحدث، إذ أخذ يتكلم ويتكلم، يتوسل إليّ ويرجونني أن أرحم نفسي، وأخبر الرجال بما يريدون معرفته، وقدم أسباباً إنسانية عديدة لذلك حتى اعتقدت أن الشيطان دفعه ليزيف هذا الشعور، أو أن الذين يعذبونني قد تركوه خلفهم ليحتال عليّ، لكني شعرت بأن كل هذه الاقتراحات من العدو مثل ضربات في الفراغ، حيث لم يظهر لها تأثير على نفسي ولم تلمس روحي بأية وسيلة، وقد قاطعته أكثر من مرة: « فلتتوقف عن هذا الحديث، أستحلفك بالله، أتعتقد أنني سوف ألقي بروحي بعيداً لأنقذ حياتي؟ إنك تزيد من آلامي».

لكنه واصل حديثه، وشاركه الآخرون عدة مرات، بقولهم: «سوف تصبح صاحب عاهة طوال حياتك، إذا ما عشت، وسوف تعذب كل يوم حتى تعترف». لكنني صليت في صوت منخفض بقدر ما أستطيع، مناشداً يسوع المسيح ومريم العذراء. ولبعض الوقت بعد الساعة الواحدة، على ما اعتقد، أغمي عليّ ولا أعرف كم من الزمن مضى عليّ وأنا فاقد الوعي، لكنني لا أظن أنه وقت طويل، لأن الرجال رفعوا جسدي لأعلى أو وضعوا درجات السلم تحت أقدامي حتى عدت للوعي، وعندما سمعوني أصلي تركوني لأسفل في الحال مرة أخرى، وفعلوا ذلك في كل مرة أفقد فيها الوعي، وكانت ثماني أو تسع مرات في ذلك اليوم - قبل أن تدق الساعة الخامسة.

وبعد الساعة الرابعة أو قبل الخامسة، عاد «ويد»، وحال وصوله عندي سأل: «هل أنت مستعد الآن لطاعة الملكة ومستشاريها»؟ فأجبته: «إنك تريدني أن

أرتكب ما هو خطيئة، ولن أفعل ذلك». قال «ويد»: كل ما يجب عليك قوله، أنك ترغب في التحدث إلى «سيسيل» سكرتير جلالة الملكة. فقلت: «ليس لديّ ما أقوله له، عدا ما قلته لك بالفعل، ولو أنني طلبت التحدث إليه، فلسوف أصدم مشاعر الناس، إذ يعتقدون أنني استسلمت، وأنني أخيراً سوف أقول شيئاً ما كان يجب أن أقوله».

وفجأة أدار ظهره لي في غضب واندفع خارج الحجرة، وهو يصيح بصوت مرتفع وهائج: «إذن، فلتعلق هناك حتى تتعفن في العمود». وغادر المكان وأعتقد أن المفوضين قد غادروا البرج حينئذ، لأنه وفي الخامسة دقت أجراس البرج، إشارة للجميع بالمغادرة وإلا أغلقت دونهم البوابات، وبعد قليل أنزلوني، ولم تكن الحالة التي فيها رجلاي وقدماي سيئة لكن الوقوف كان يحتاج إلى جهد كبير.

اقتادوني عائداً لزنزانتي، وقابلنا في الطريق بعض المساجين الذين يديرون أعمال البرج، فتلفت للحديث مع حارس متعمداً أن يسمعوا حديثي، قائلاً: «إن ما يدهشني، أن المفوضين يريدون مني أن أدلهم على إقامة الأب جارنيت، وهم يعلمون بالتأكيد أن خيانة رجل بريء يعد خطيئة؟ لن أفعل ذلك أبداً، حتى لو أرغمت على الموت». وقلت هذا حتى أمنعهم من نشر أنباء ـ كعادتهم دائماً ـ بأنني اعترفت بشيء ما، وأردت ـ أيضاً ـ أن ينتقل خبر عبر هؤلاء الرجال بأنني سئلت بشكل أساسي عن الأب جارنيت فلربما يسمع ذلك ويبحث لنفسه عن مأمن، ولاحظت أن الحارس لا يرحب بحديثي في مدى سمعهم، ولكن ذلك لم يشكل لي أية أهمية.

وعندما وصلت للزنزانة بدا الرجل شديد الأسف حقيقة من أجلي، وأشعل ناراً ثم أحضر لي بعض الطعام، إذ أصبح الوقت تقريباً وقت العشاء، لكني أكلت قليلاً جداً ورقدت على سريري، وبقيت في هدوء حتى الصباح. وفي الصباح بعد فتح بوابات البرج، جاء حارسي ليقول لي إن «ويد» جاء وأن عليَّ الهبوط لرؤيته، فارتديت عباءة بأكمام واسعة ـ لأنني لم أستطع إدخال يدي المتورمتين في أكمام ردائي الخاص ـ ثم هبطت إليه.

وعندما دخلت بيت الضابط، قال لي «ويد»: «لقد أُرسلتُ هنا باسم الملكة وسكرتيرها «سيسيل» وهما يقولان إنهما يعلمان على وجه التأكيد أن جارنيت يتدخل في السياسة وهو خطر للدولة، وأن الملكة تؤكد على كلمة جلالتها وسيسيل على شرفه ـ ما لم تختر أن تعارضهما معاً ـ بأنك يجب أن توافق على تسليمه لنا». . .

فأجبته: «بأنهما لا يمكن أن يتكلما بذلك عن تجربة أو عن معلومات موثوقة، فهما لا يعرفان الرجل، ولقد عشت معه وأعرفه جيداً، وأستطيع أن أقول على سبيل التأكيد إنه ليس ذلك النوع من الرجال».

قال «ويد»: «هيا، لماذا لا تصرح بالحقيقة وتجيب عن أسئلتنا»؟ فأجبته: «إنني لا أستطيع، ولن أفعل». فقال: «سيكون من الأفضل لك أن تفعل». وعندما قال هذا نادى على رجل ينتظر في الحجرة المجاورة، وكان رجلاً قوي البُنية، دعاه «ويد»: «سيد التعذيب»، وكنت أعلم أن مثل هذا الضابط موجود، لكني اكتشفت فيما بعد أنه لم يكن هذا الرجل، لأنه كان ضابط المدفعية، وقد أطلق عليه «ويد» هذا اللقب ليخيفني، وقد خاطب «ويد» هذا الرجل قائلاً: «بأمر الملكة ومستشارها، أسلمك هذا الرجل، وعليك بتعذيبه مرتين اليوم ومرتين كل يوم حتى يعترف».

اقتادني الرجل، وخرج «ويد»، ومن ذات الطريق ـ كالسابق ـ ذهبنا إلى غرفة التعذيب، ووضعوا القيود على نفس الجزء من ذراعيّ مثل المرات السابقة فهي لا تصلح لأن توضع في مكان آخر لأن اللحم على كلا الجانبين قد تورم في ارتفاعات تاركاً حفراً عميقة بينها، والقيود لا يمكن إحكامها إلا وسط هذه التشققات، وشعرت بألم حاد جداً عندما وضعوها في ذلك المكان. لكن الله ساعدني وقد قدمت يديّ وقلبي لله والسعادة تملؤني.

علقوني بنفس الطرق السابقة، لكن الآن شعرت بألم أكثر حدة في يدي، وأقل في صدري وبطني، ومن المحتمل أن يكون ذلك لأنني لم آكل شيئاً هذا الصباح. وبقيت هكذا وبدأت الصلاة، أحياناً بصوت مرتفع وأحياناً أخرى

لنفسي، وأسلمت نفسي لعناية يسوع المسيح وأمه المباركة، وقد طالت المدة هذه المرة قبل أن يغمى عليَّ، وعندما حدث ذلك وجدوا صعوبة شديدة في إعادتي للوعي ثانية حتى ظنوا أنني مت أو أموت فعلاً، وقاموا باستدعاء الضابط.

لم أعرف كم من الوقت بقي هناك وكم من الوقت بقيت أنا فاقد الوعي، لكن عندما عدت إلى وعيي، لم أجد نفسي معلقاً وإنما جالساً على أريكة والرجال يسندونني من الجانبين، وكان هناك أناس كثيرون حولي، وأسناني مفتوحة بقوة بمسمار أو أداة حديدية وماء ساخن صُب داخل جوفي.

وعندما رأى الضابط أنني أستطيع الكلام قال: «ألا ترى، كم هو حسن لك أن ترضخ للملكة بدلاً من الإنكار هكذا»؟.

وعاونني الله وأصبحت قادراً على أن أعطي إجاباتي روحاً عالية أكثر مما كنت أشعر من قبل حتى الآن وقلت: «لا. . لا. لا أريد، أفضل أن أموت آلاف المرات على أن أفعل ما يقترحونه عليَّ».

فقال: «. . إذن فلن تعترف». وأجبته: «لا، لن أفعل، ولن يكون هذا طالما بقي فيَّ نفس يتردد». فقال: «حسناً جداً، فيجب إذن أن نعلقك ثانية الآن، ومرة أخرى عقب العشاء».

وقد تحدث كما لو كان آسفاً لاضطراره لتنفيذ الأوامر.

قلت: «إن لديّ حياة واحدة، ولو أنني أملك عدة حيوات لبذلتها فداءً لذات المبدأ».

وقاومت بأقدامي وحاولت المشي نحو العمود، لكن كنت أحتاج المساعدة لقد كنت ضعيفاً جداً الآن، وإذا وجدت أية معنويات باقية في نفسي، فهي هبة من الله، رغم أنني لا أستحق، لأنني شاركت في مواطنة هذا المجتمع.

علقوني ثانية، وكان الألم مركزاً الآن، لكني شعرت بعزاء روحي عظيم، بدا لي أنه صادر عن رغبتي في الموت، وسواء نبع من حب حقيقي للتألم من أجل المسيح، أو من شوق أناني للوجود بصحبة المسيح، فالله يعلم، لكنني اعتقدت

عندئذ بأنني سوف أموت، وامتلأ قلبي بالسعادة إذ أسلمت نفسي لمشيئته وعنايته، واحتقرت إرادة البشر بالله، لو أنه منحني نفس هذه الروح دائماً، رغم أنني متأكد، أن روحي أمامه ليست روحاً فاضلة، ولأن حياتي كانت لتبدو أطول مما اعتقدت، وقد أعطاني الله الوقت، لتقريبها من الكمال أمام مرآه، وإن بدوت عندئذ غير مستعد لذلك.

وربما أدرك حاكم البرج بأنه لن يجني شيئاً بتعذيبي أكثر من ذلك، ولربما كانت ساعة عشائه، أو ربما حركته شفقة مؤثرة نحوي، مهما كان السبب، فقد أمر بإنزالي، وبدا لي أنني عُلقت لمدة ساعة فقط في هذه المرة الثانية اليوم، وبشكل شخصي، أعتقد أنه تأثر متعاطفاً معي، إذ لبعض الوقت بعد هروبي، أخبرني سيد ذو مركز، بأنه سمع أن السير ريتشارد بيركلي - ذات الضابط - قال بأنه استقال بإرادته من عمله لأنه لا يريد أن يكون أداة في تعذيب الأبرياء أكثر من ذلك، وعلى أية حال فهو قد استقال بالفعل، وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر فقط من تعيينه، وقد شغل منصبه فارس آخر - وذلك الذي هربت أثناء فترة توليه منصبه.

ولقد أعادني حارسي مرة أخرى لحجرتي، وظهرت عيناه متورمتين من الدموع وأكد لي أن زوجته - التي لم أرها أبداً - بكت وصلت من أجلي كل وقت. ثم أحضر لي بعض الطعام، فاستطعت أن آكل القليل، وقد اضطر الحارس لقطع ذلك القليل الذي آكله إلى قطع صغيرة، ولمدة أيام عديدة تالية، كنت لا أستطيع أن أمسك سكيناً في يدي، وفي ذلك اليوم لم أستطع حتى تحريك أصابعي أو أن أخدم نفسي في الأشياء الصغيرة، وكان عليه أن يفعل لي كل شيء، ولكن برغم هذا، وبناءً على أوامر من السلطات، قام باستبعاد سكيني ومقصي وآلة حلاقتي، واعتقدت أنهم يخشون أن أحاول الانتحار، لكنني علمت فيما بعد أنهم يفعلون هذا دائماً في البرج عندما يكون السجين خاضعاً لأوامر التعذيب.

وتوقعت أن أؤخذ ثانية وأعذب كما سبق وأن هددوا، لكن الله علم بضعف جنديه ومنحه نضالاً قصيراً حتى لا يهزم، وللآخرين الأقوى مني للأب «والبول» والأب «ساوثويل» والآخرين، أعطاهم قتالاً قاسياً قد يغلبونه، فهؤلاء الرجال «في

وقت بسيط ملأوا مساحات واسعة لكنني «بوضوح» كنت لا أستحق ما منحوه، إذ تركني الله لأستكمل أيام حياتي ولتصحيح أخطائي، ولأغسل بدموع غزيرة الروح التي لم أكن صالحاً لتطهيرها، ـ فوراً وبسرعة ـ بدمي، ولقد كانت نعمة الله وما هو في مشيئة الله لا بد أن يكون».

مرافق خاص مع الملكة أليزابيت الأولى

«8 ديسمبر/ الكانون 1597 افرنجي»

من تقارير السفير الفرنسي

*** أندريه هورو**

في الثامن من ديسمبر، لم أكن أفكر بأن أتلقى دعوة حضور لذلك اليوم وتهيأت لتقديم شكواي، لكن في حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر، حضر أحد السادة من طرف الملكة وأخبرني أن جلالتها تألمت كثيراً لأنها لم تمنحني دعوة حضور في الحال، وأنها ترجوني أن أحضر عندها في هذه الساعة وقادني في عربة حتى أصل إلى النهر حيث وجدت باخرة تنتظرني.

وذهبنا من هناك إلى بوابة قصر الملكة، وعند هبوطنا، حضر أحد السادة باحثاً عني وكان يتحدث الإيطالية بطلاقة واسمه السيد «وتون» وأخبرني بأن جلالتها أمرت بأن ألقى كل الترحيب وأنها في انتظاري، وكان معه أربعة أو خمسة رجال آخرون وبينما هو يقودني طول الطريق أخبرني أن البلاط كله قد ارتاح لرؤيتي، وأنهم يعلمون جيداً كم أحب كثيراً أمتهم، وأنني في إيطاليا قد فعلت كل ما أستطيع عمله لهم، وأجبته بأنني آسف جداً إذ لم أفعل أكثر، وأن ما قمت به كان بناءً على أوامر الملك الذي طلب من أن أشغل نفسي بكل ما يهم شؤون الملكة كما لو كانت تهمه شخصياً.

اقتداني عبر غرفة ذات حجم متوسط، كان بها حرس الملكة، ثم إلى حجرة «الحضور» كما يسمونها، التي يوجد بها الجميع حتى لو كانت الملكة غائبة، تبقى

الحجرة مهيأة، وأوصلني بعد ذلك إلى مكان على أحد الجانبين حيث يوجد مقعد مجهز من أجلي، وانتظرت هناك لبعض الوقت، وجاء اللورد تشامبرلين ـ المسؤول عن شؤون قصر الملكة، ليس كدور رئيس العاملين بأحد الفنادق، ولكن دوره، ترتيب المدعوين ومرافقة هؤلاء الذين يطلبونهم خاصة السفراء ـ، باحثاً عني حيث جلست، وقادني عبر ممر مظلم إلى حد ما ثم إلى حجرة يسمونها «حجرة الخاصة».

كانت الملكة تجلس على مقدمتها في مقعد منخفض وحدها، منعزلة عن كل اللوردات والسيدات الحاضرين، كانوا جميعهم في مكان والملكة في مكان آخر، وبعدما قدمت إليها احتراماتي حال دخولي الحجرة، نهضت وخطت نحوي خمس أو ست خطوات، تقريباً حتى منتصف الحجرة، فقبلت طرف ثوبها، وصافحتني بكلتا يديها، ونظرت إليّ برقة، وبدأت تعتذر لنفسها عن أنها لم تمنحني دعوة حضور في الحال، قائلة: إنها في اليوم السابق كانت تعاني من «دُمَّل» على جانب وجهها الأيمن، ما كنت أستطيع بسببه أن أرى عينيها ووجهها أبداً، لكنها لا تتذكر أنها مرضت بهذا الشكل من قبل، كما اعتذرت لأنني لاحظت أنها ترتدي ملابس المساء، وبدأت توبخ مستشاريها الموجودين قائلة: «ماذا سوف يقول هؤلاء السادة، ـ تقصد هؤلاء الذين اصطحبوني ـ عندما يرونني في هذا الزي؟ إنني شديدة الانزعاج لرؤيتهم لي في هذه الحالة.

وعندئذ أجبتها بأنه ليست هناك حاجة لتقديم تبريرات لجانبي، إذ إنني أتيت لخدمتها وفي شرف جلالتها، وليس لأسبب لها أي قلق، فأجابت بأنني لم أسبب لها أي شيء من ذلك، وأنها فهمتني جيداً، وأخبرتها أن الملك أمرني بزيارتها وتقبيل يديها نيابة عنه، وجعلني مسؤولاً عن متابعة أخبار صحتها وأحوالها، التي ـ بفضل الله ـ أراها كما يتمناها خدمها وأصدقاؤها على ما يرام، والتي أدعو الله أن يديمها عليها سنوات طويلة في عزة وفَلاح.

ووقفت أثناء حديثي، لكنها عادت إلى كرسيها، عندما أدركت أنني أتحدث فقط عن أمور عامة، فاقتربت من كرسيها، وبدأت أتعامل معها من خلال ما أنا

مسؤول عنه، ولأنني كنت أرفع غطاء رأسي، كانت تشير إليّ من وقت لآخر بيدها كي أرتديه، ففعلت، وفور ذلك أَمَرت بإحضار مقعد جلست عليه وبدأت أتحدث معها.

كانت ترتدي ثوباً من القماش الفضي ـ وكان ثوباً غريباً ـ مختلطاً بالأبيض والأحمر الداكن، أو ما يسمونه «بالفضي الشفاف» وكان لهذا الثوب أكمام ذات شرائح مخططة بالحرير الأحمر، وكان ملفوفاً بشرائط أخرى تتدلى نحو الأرض، كانت الملكة دائماً ما تلفها أو تفكها، وقد أبقت مقدمة ثوبها مفتوحة، ويستطيع المرء أن يرى كل صدرها، وأبعد من ذلك، وكثيراً ما كانت تفتح صدر ثوبها بيديها كما لو كان الجو حاراً جداً، وكانت ياقة الثوب مرتفعة جداً، وقماش البطانية الداخلية مزين بحبات من الأحجار الكريمة واللؤلؤ، كثيرة جداً لكنها صغيرة تماماً، وتحمل أيضاً سلسلة من الأحجار الكريمة واللؤلؤ حول رقبتها، وعلى رأسها كانت ترتدي تاجاً من نفس المادة، وتحته شعر مستعار شديد الحُمرة، مع عدد كبير من الحبّات الذهبية والفضية، وتتعلق فوق جبهتها بعض حبات اللؤلؤ مدلاة لأسفل، لكن ليست بذات قيمة كبيرة، وعلى كلا جانبي أذنيها تتعلق ضفيرتان من الشعر، تصل أسفل كتفيها تقريباً، ومن داخل ياقة ثوبها تلمع حتى قمة رأسها، وصدرها كان يلمع إلى حد ما ـ بالإضافة إلى ما يستطيع المرء رؤيته من جسمها حتى الياقة التي كانت ترتديها حول رقبتها، لكن أسفل من ذلك كان لحمها شديد البياض والرقة، بقدر ما يستطيع الإنسان أن يرى.

وبالنسبة لوجهها فهو ـ ويبدو كذلك ـ متقدم في السن، وهو طويل ورقيق وأسنانها صفراء وغير متساوية ـ بالمقارنة مع ما كانت عليه سابقاً ـ هكذا قالوا، وتوجد أسنان أقل في الجانب الأيسر عنه في الجانب الأيمن، والكثير منها مفقود، حتى إن المرء لا يفهمها بسهولة عندما تتحدث بسرعة، وشكلها العام مقبول، وهي طويلة ورشيقة في كل ما تفعله، بأقصى ما تستطيع فعله ويحفظ كرامتها، إلا أنها تفعل ذلك بتواضع ورشاقة.

وكل مرة تتحدث فيها، غالباً ما تنهض عن كرسيها، وبدأ عليها نفاد الصبر

بما كنت أردده، وكانت تشتكي من أن النار تؤذي عينيها، رغم وجود ستارة ضخمة أمام النار، وأنها على بُعد ستة أو سبعة أقدام منها، إلا أنها أمرت بإطفائها، وجعلتهم يحضرون الماء ليصبونه فوقها، وأخبرتني أنها مسرورة إذ تقف على قدميها، وأنها اعتادت الحديث هكذا مع السفراء، الذين يحضرون لرؤيتها، واعتادت أحياناً أن ترهقهم، مما كان يجعلهم في بعض المناسبات يشكون من ذلك، ورجوتها ألا ترهق نفسها بأي شكل، ونهضت عندما فعلت هي ذلك، وعندئذ جَلَسَت مرة أخرى وهكذا فعلت أنا، وعند انصرافي نهضت وأوصلتني إلى ذات المكان الذي استقبلتني عنده، وعادت مرة أخرى لتقول إنها حزينة إذ يراها السادة المرافقون لي في هذه الحالة، وطلبت أن تراهم، وقاموا بتقديم احتراماتهم أمامها، واحداً وراء الآخر، وصافحتهم جميعاً بجاذبية شديدة ومسحة مبتسمة.

تجار إنجليز في جاوا.. «1602 افرنجي»
مشاكل مع الصينيين

*** أدموند سكوت**

كان صيني المولد، لكنه تحول الآن إلى. . . . .، ذلك كان جارنا التالي الذي يدير محلاً للمواد الغذائية و«العرقي» المُخمر، وهو نوع من الشراب الساخن يستخدم في معظم أنحاء هذه البلاد كبديل للخمر، وللمحل منزلان جانبيان اعتاد ضيوفه على الجلوس في أحدهما وفي الآخر اعتيد تصنيع الخمر، الذي كان ملتصقاً بسورنا من الناحية الجنوبية لمنزلنا.

لكنه الآن بدأ تجارة جديدة، وأصبح رجل مناجم، فبعدما حصل على ثمانية رجال ـ كما لو كانوا خارجين من الجحيم ـ بالإضافة إليه، كان واحداً من أغراضهم أن يشعلوا في منزلنا النار، إذ قام هؤلاء العمال التسعة المُجدين، بحفر بئر في واحد من هذه المنازل، ومن قاع هذه البئر، وصلوا إلى منجم، أسفل أساس منزلنا تماماً، لكنهم عندما وصلوا إلى الألواح الخشبية في مخزننا، توقفوا،

لكنهم قبل أن يتمكنوا من حفر هذا المنجم، أضطروا لحفر بئر عميقة في فناء بيتهم، وذلك لسحب المياه التي كانت شديدة الفيض في هذا البئر، بعيداً ولكي لا نشك في شيء، قاموا بزراعة التبغ وأعشاب عديدة أخرى حول البئر، وكانوا يروونها كل يوم، ولكن لأنهم صانعو خمور، ولديهم العديد من الأحواض التي يقومون بغسلها وملئها، لم نشك في شيء من ذلك أيضاً.

وعندما وصلوا إلى الأساسات الخشبية التي ذكرتها سابقاً، لم يجرؤوا على قطعها، إذ دائماً ما كان بعضنا يسير فوقها، ليلاً ونهاراً، وبعد انتظارهم طوال شهرين، ولم يجدوا فرصة لقطع الألواح الخشبية بدأوا يحركون رؤوسهم الكلبية[1] معاً، كيف يمكنهم المرور، لكن الشيطان أوقعهم في الفعل الخطأ، إذ لو استمروا في العمل حتى يصلوا بعيداً عن المخزن في الجانب المقابل لهم، لوجدوا ثلاثين ألف ريال ثُمانية الوزن مدفونة في جرار، خشية الحريق، رغم أن هذه الحجرة أيضاً لم تُغط بالأخشاب إطلاقاً، فلربما يأتون إلى حجرة المخزن ويجدون ما يبحثون عنه، حسناً، كان واحد من هذا التآلف الشرير «حداداً» وقد نشأ عاملاً بين النيران دائماً، أخبر رفاقه بأنه سوف يزيل الألواح الخشبية بواسطة النار، حتى لا نسمعه أو نراه.

وفي اليوم الثامن والعشرين من مايو، عند حوالى العاشرة ليلاً، أشعلوا شمعة، وأحرقوا الخشب صانعين فيه ثقباً مستديراً، وحالماً أتت النيران عبر الثقب، التقطت حشيات أمتعتنا النيران، التي انتشرت في الحال، وبدأت تحترق، كل هذا دون أن نعلم أي شيء أو نلحظ أي شيء، بسبب إغلاق المخزن بإحكام، إذ إن كل النوافذ قد طُليت بطبقة لاصقة خشية النار مستقبلاً.

وبعد مرور الساعة الأولى، كنت فيها بمفردي، شممت في الساعة الثانية رائحة نار قوية لأنها في ذلك الوقت قد ازدادت كثيراً، لكنهم لم يعلموا مكانها، وبحثوا في كل غرفة وركن، وتذكر واحد منا حفرة الفئران أخيراً خلف صندوق

(1) في الأصل Cenbenus وهو كلب أسطوري ذو ثلاثة رؤوس يقوم بحراسة هاويس «الجحيم»، «المترجم».

الأمتعة، حيث لاحظ بوضوح الدخان ينفث من ثقبها، حينئذ أتى إلى حجرتي على الفور وأخبرني أن مخزن أقمشتنا قد شبت فيه النيران، وعند سماعي لكلمة «نيران» ورغم أنني كنت قد استغرقت في النوم، لم أكن بحاجة لكلمة «انهض»، ولا استهلاك الوقت في ارتداء ملابسي وإنما هبطت على الفور، وفتحت الأبواب، حيث خرج دخان قوي لدرجة أنه كاد يخنقنا، وهذا الدخان، بسبب عدم وجود رياح، كان كثيفاً حتى لم نتبين من خلاله أين توجد النار، وفي ذلك الحين كان لدينا جرتان كبيرتان من البارود المسحوق، موجودتان في هذا المخزن، وسبب لنا ذلك خوفاً شديداً من انفجارهما.

خلينا الخوف جانباً رغم ذلك، ورفعنا كل الأشياء التي توجد فوقهما، وكانت شديدة السخونة في أيدينا، وأخرجنا البارود وحملناه إلى الفناء الخلفي، ثم بحثنا بإصرار عن النيران حتى وجدناها، وأشعلنا شموعاً، لكن كثافة الدخان أطفأتها، عندئذٍ ربطنا اثنتي عشرة شمعة معاً وأشعلناهم، فاستمر الضوء، واستخرجنا الأمتعة بأسرع ما يمكننا لكن بسبب الحرارة والدخان اللذان خنقانا، ولأننا قلة، فقد أدينا شيئاً يسيراً أمامها، ولهذا دعونا الصينيين، وحضروا حينئذ مع أولئك الذين فعلوها آملين إفساد الأمر.

وعندما أدركت أن هؤلاء الصينيين الملعونين سيقدمون لنا خيراً قليلاً، وأذى أكثر، تملكني اليأس، وكان لديَّ في ذلك الوقت ألف جنيه من الذهب، كنت قد تسلمتها من الجنرال هيمسكيرك ثمناً للفلفل في صندوق نقودي داخل حجرتي أعلى السلم، فأسرعت منتوياً إحضاره، ، وإلقاءه في بركة الماء خلف المنزل، لكنني عندما وصلت إلى باب غرفتي، عدلت عن رأيي، وفكرت في العودة لمتابعة ما يحدث، وأثناء عبوري للصالة، تصادف أن ألقيت نظرة على حجرة الطعام، التي كانت فوق مكان بداية النار تماماً، كان هناك صينيون وقد أبعدوا المائدة، بدأوا يكسرون بلاط أرضية الحجرة، وكان بينهم جارنا الشرير، الذي كان المحرك الرئيسي لهذا، فأمرتهم بالخروج وأحضرتهم إلى أسفل، وذلك ما كانوا يرفضونه حتى عاملتهم بقسوة، وعندما طردتهم إلى أسفل، ذهبت خلفهم ورجوت بعض

التجار الواقفين - وكان لنا معهم تعاملات - أن يحثوا بقية الصينيين على مساعدتنا في استخلاص أمتعتنا، واعداً إياهم بدفع مقابل أتعابهم، وكان من كرم الله أن وضع الخير في عقولهم، التي - فيما أعتقد - لم يكن عندهم منها شيء من قبل ولا بعد، لدرجة أنهم انهمكوا في العمل بكل أياديهم، وفي الحال أخليت كل الغرفة، التي أخرج منها ما يزيد على خمسين عبوة، منها ست عشرة كانت النار قد مستها قليلاً، وهكذا تم إطفاء النار بمساعدتهم - التي يعرفونها - ولهذا لم يفعلوا أكثر من ذلك، وفي اليوم التالي دفعنا لهم أجرهم بخلاف ما سرقوه.

وقد تعجبنا كثيراً، كيف حدثت تلك النار، وشككنا في البرتغاليين أنهم قد استأجروا عدداً من الماليزيين لفعل ذلك، لكن أحد الصينيين وكان يعمل «مبيض محارة» في البيت الهولندي، قام بإخطار أحد الفلمنجيين[1] من الذين عاشوا طويلاً في هذه البلد، أن بعض الصينيين أشعلوا ذلك الحريق وأنهم هربوا الآن، وأننا إذا ما نظرنا جيداً داخل الحجرة، فلسوف نكتشف الأسلوب الذي تم به ذلك، وقام الرجل الهولندي بإخبار جراح إنجليزي بما سمع ورجاه أن يعود لإخبارنا بذلك، وسيقوم هو بنفسه - لأنه يجيد اللغة - بالاستفسار عنهم.

وحضر إليّ الجراح الإنجليزي وطلب مني أن يرى الغرفة التي شب فيها الحريق، فأخذت شمعة في الحال وقدته إلى الحجرة، فذهب إلى ركن فيها حيث وجد ثقباً مستديراً صغيراً، كان قد احترق عبر لوح خشبي من الأرضية وحيث كنت وضعت فيه عصاً طويلة كنت أحملها في يدي، لكنني لم ألمس بها قاع الثقب، فطلبت فأساً، وبقدر ما يمكننا من رفق، نزعنا اللوح الخشبي، وكان أسفله ممر، يمكن أن تخرج من خلاله أضخم صناديقنا أو بضائعنا، وما إن رأيته حتى ناديت على ثلاثة من رجالنا بقدر ما يمكن من السرية.

ذهبنا إلى المنزل الذي يبدأ من المنجم ومعنا أسلحتنا، وأوقفت واحداً منا عند الباب، وحذرته ألا يدع أحداً يخرج مهما كان، ودخلت أنا والاثنان

(1) من أهالي الفلاندرز بشمال أوروبا وكانت تشمل المناطق الواطئة «المترجم».

الآخران، حيث وجدنا في إحدى الغرف ثلاثة رجال، وفي غرفة أخرى اثنين آخرين، هربا من باب خلفي عندما سمعانا، لم نكن نعرف مكانه قبل أن نراهم، وأخذنا الثلاثة المذكورين بعد عدة لكمات، أحدهم كان ساكن البيت أما الآخران فلم نستطع إثبات شيء ضدهما، فوضعتهم بسرعة في القيود، وأرسلت السيد «تاورسون» إلى الحاكم لإعلامه إلى أي مدى وصلت القضية، ويرجوه أن يطلبهم ويقدمهم للعدالة، فوعده بذلك، لكنه كان شديد التراخي في التنفيذ.

وعندما سمع التجار الهولنديون بأننا أسرنا البعض، وتحسباً من أن يثور الصينيون ضدنا، أتوا متعاطفين بأسلحتهم، وأقسموا أن يموتوا أو يعيشوا في معركتنا هذه. ولما وضعنا البضاعة التي تشربت بعض الماء في الهواء قمنا باستجواب ذلك الشخص الذي كان يقطن المنزل، فأخبرنا بأسماء ستة كانوا قد هربوا، لكنه لم يعترف بأنه يعلم شيئاً عن الأمر، وقال أيضاً: إن الاثنين الآخرين لا يعلمان شيئاً من الأمر، وإنه لا يستطيع إفادتنا - كما قال - عما إذا كان الآخرون قد هربوا أم لا.

عندئذ أفزعناه بقضيب ساخن من الحديد دون أن نلمسه، فاعترف بالمسألة كلها، وأنه ساعد فيها، وقال: إن المنزلين الجانبيين قد بنيا لذلك الغرض في البداية، بالرغم من أنهم خصصاهما لاستعمالات أخرى، حتى لا نشك فيهم، وأكثر من ذلك، أن سرداب المنجم قد حُفر منذ شهرين مضيا، في ذلك الوقت أمضوا العديد من الليالي في السرداب يحاولون الدخول إلى منزلنا، لكنهم لم يستطيعوا، وقمنا بتعذيبه، لأنه أنكر كل شيء بمجرد أن وضعنا القضيب الحديدي جانباً، لكن بتعذيبه، قدم اعترافاً ثانياً.

وفي الصباح التالي أرسلته إلى المحاكمة، وبينما كان خارجاً من بواباتنا، قام الجاويون بسبه (إذ كانوا يفرحون عندما يرون صينياً يتعرض للمحاكمة، وكذلك الصينيون يبتهجون عند رؤية جاوي يموت) لكنه رد عليهم مرة أخرى بقوله: إن الانجليز أناس أثرياء، وإن الصينين فقراء، لذا لِمَ لا يسرقون من الإنجليز عندما يستطيعون ذلك.

وفي اليوم التالي قبض الأدميرال على واحد آخر منهم وأرسله لي، الذي أدرك أن له سبيلاً واحداً أمامه، فقرر لنفسه ألا يعترف بشيء لنا، وكانوا قد وجدوه مختبئاً في مكان سري، وكان هو الذي أشعل النار في منزلنا، وكان يعمل «صائغاً» واعترف بأشياء أخرى تتعلق بقضيتنا ولكن ليست كثيرة.

لكنه لم يخبرنا بشيء، لذلك، وبسبب عناده، ولأنه هو الذي أحرق منزلنا، أمرت بإحراق أسفل أظافره عند أصابعه في يديه وقدميه بقطعة حديدية ساخنة حادة، وأن تنزع أظافره، ولما لم يتراجع عند ذلك، اعتقدنا أن يديه ورجليه قد أصابهما الخَدَر بفعل القيد، فقمنا بإحراق ذراعيه وكتفيه ورقبته لكن ذلك كله كان سواءً عنده، عند ذلك أحرقناه داخل يده تماماً وبسيخ من الحديد المحمى، حينئذ أمرت بإدخال مسامير قلاووظ باردة في عظام ذراعيه، ثم تُنزع هذه المسامير فجأة، وبعد ذلك بتكسير عظام أصابعه وأطرافه «بالزردية»[1].

ورغم هذا كله، لم يسقط دمعة واحدة، أو حتى يدير رأسه جانباً، أو يحرك يداً أو قدماً، وإنما كلما ألقينا سؤالاً كان يضع لسانه بين أسنانه ويضرب ذقنه فوق ركبته ليعضه، وعندما استخدمنا أقصى وسائلنا دون جدوى، أمرت بإيداعه في القيود مرة أخرى وتركه للهوام والنمل الذي يكثر هنا كي يدخل في جروحه، وذلك عذبه أكثر مما فعلنا كما وضح من ملامحه.

ورجاني ضباط الملك بأن نطلق عليه الرصاص، فأفدتهم أن الموت شيء حسن بالنسبة لهذا الوغد، وقلت مضيفاً: إن في بلادنا إذا ما ارتكب سيد أو جندي شيئاً يستحق الموت من أجله فإنه يقتل بإطلاق الرصاص عليه، بالرغم من أنه كان ذا سلوك طيب أيضاً، لكنهم تمسكوا بأن هذا القتل من أسوأ وأحط طرق القتل، ولأنهم ذوو أهمية خاصة، وفي المساء اقتدناه إلى الحقول وربطناه في عمود، وانتزعت الطلقة الأولى قطعة من ذراعه، وعظمها كلها، والثانية اخترقته عبر الصدر بالقرب من الأكتاف، عندئذ أحنى رأسه لينظر إلى الجرح، والثالثة كانت مصنوعة،

(1) Penwis البنسة أو الزردية أداة لخلع المسامير أو ربطها إلخ. «المترجم».

إذ قام أحد رجالنا بشق الرصاصة إلى ثلاثة أجزاء، وتلك اخترقته في صدره على شكل مثلث، سقط على أثرها بقدر ما تسمح له أربطة العمود، ولكن بين رجالنا والهولنديين من أطلق عليه الرصاص حتى تناثر ممزقاً قبل أن يغادروه.

تأثيرات السياسة الأليزابيتية في ايرلندا

«1602 افرنجي»

*** فينس موريسون**

«كان موريسون سكرتيراً للسير تشارلز بلونت، اللورد النائب عن الملكة أليزابيت في ايرلندا».

. . . والآن ولأنني غالباً ما كنت أذكر رسمياً تدميرنا لحقول القمح الخاصة بالمتمردين، واستخدامنا لكل الوسائل المؤدية لتجويعهم، دعني بمثالين أو ثلاثة أوضح الحالة البائسة التي جلبناها على المتمردين.

أُرسل السير أرثر تشيشيستر والسير ريتشارد موريسون وقادة القوات الآخرون ضد بريان ماكارت، وفي أثناء عودتهم باتجاه الوطن رأوا أكثر المشاهد فظاعة لثلاثة أطفال ـ أكبرهم لا يزيد عمره على عشر سنوات ـ يأكلون ويمضغون بأسنانهم أمعاء أمهم الميتة، كانوا قد تغذوا على لحمها لعشرين يوماً مضت، وقد أكلوا كل شيء من الأقدام حتى العظام العارية، يشوونها باستمرار على نار بطيئة، وقد أتوا الآن على التهام الأمعاء المذكورة، بنفس طريقة الشي إلا أنها غير منفصلة عن الجسم، حيث لم يتم طهوها حتى تلك اللحظة.

وقد تم عمل تنويه رسمي في خطابات اللورد الحاكم حول الجثث المتناثرة في العديد من الأماكن، كلها مات أصحابها بسبب المجاعة، وليس هناك شك أن المجاعة كانت عسيرة، إذ كان الجنود المتمردون يستولون على كل الأناس العاديين الذين يُضطرون للاغتذاء بهم، ويحيون على ذلك بصعوبة ـ إذ بخلاف ذلك كانوا يتغذون ليس فقط بالصقور والنسور وبقية الطيور غير المقبولة من الجوارح، وإنما أيضاً بلحم الخيل والأشياء الأخرى غير الصالحة لغذاء الإنسان ـ.

ووصلت الحالة العامة للمتمردين لأسوأ ما لا يمكن الحديث عنه، وإلى أبعد مما سجلته الروايات التي قرأتها في هذا المجال. إن الإحاطة بكل ذلك مهمة لا تنتهي، إلا أني لن أغادرها دون إضافة أمثلة قليلة أخرى، إن الكابتن تريڤور والسادة الشرفاء الذين يقيمون في «النيوري» يستطيعون الشهادة بأن بعض النسوة العجائز اعتدن ـ في تلك المناطق ـ أن يشعلن ناراً في الحقول فيأتي الأطفال الصغار ـ الذين يقودون ماشيتهم في الصباح البارد ـ نحو النار للتدفئة، فتقوم العجائز بمفاجأتهم وقتلهم ومن ثم يأكلنهم، واكتشفن أخيراً بواسطة فتاة كبيرة هربت منهن بقوة جسمها، وقد أرسل الكابتن تريڤور الجنود لاستطلاع الحقيقة، فوجدوا جماجم الأطفال وعظامهم وقبضوا على النسوة العجائز، اللائي حُكم عليهن من جراء هذا الفعل، بالموت.

إن ضباط فرقة «كاريكفيرجوس» والقوات المتمركزة قريباً منها، في المناطق الشمالية، يمكنهم الشهادة بذلك عندما يستقر السلام ويُمنح المتمردون العفو. إنه كان سلوكاً عادياً بين البسطاء من الناس ـ وأقصد أولئك الذين لا علاقة لهم بالحرب ـ أن يدفعوا إبرة طويلة في أجسام خيول القوات الإنجليزية، فتموت بسببها، ويستعد كل واحد منهم لتمزيق رقبة أخيه من أجل قطعة من لحم هذه الخيول.

ولا يوجد مشهد أكثر شيوعا في خنادق المدن وخاصة القرى المخربة من منظر الجماعات من هؤلاء الناس الفقراء وهم موتى، وأفواههم تمتلىء باللون الأخضر لأكلهم الأعشاب والحشائش وكل ما استطاعوا أن ينزعوه من سطح الأرض.

«جنّية البحر» في نيوفاوند لاند

«1610 افرنجي»

*** ريتشارد هوايتبورن**

. . . والآن، سوف لن أترك رواية شيء عن مخلوق غريب، رأيته لأول مرة

هناك عام 1610، في صباح باكر، بينما كنت أقف على شاطىء البحر، في ميناء «سانت جونز»، لمحته يسبح بسرعة شديدة نحوي، يبدو مبهجاً كما لو كان امرأة، بوجهها، وعينيها، وأنفها، وذقنها، وأذنيها، ورقبتها، وجبهتها، وكانت تبدو جميلة جداً، وفي هذه الأجزاء وبتنسيق متناسب جميل توجد دائرة حول رأسها بشرائح زرقاء تمثل الشعر، منسدلة حتى الرقبة ـ ولكن بالتأكيد كان ذلك شعراً ـ لأنني راقبته طويلاً، وكذلك فعل واحد من صحبتي ما زال حياً، وهو لم يكن في ذلك الوقت بعيداً عني، وعندما رأيت تلك القادمة نحوي مسرعة، تراجعت للخلف، لأنها وصلت إلى مدى رمح طويل مني.

فلما رأت هذه المخلوقة العجيبة أنني ابتعدت عنها، غاصت على الفور قليلاً تحت الماء، وسبحت إلى المكان الذي هبطت فيه، وبذلك رأيت أكتافها وظهرها حتى منتصفه إلى الجزء الخلفي، الذي يستطيل بالتدريج مثل سهم عريض ذي خطاف، وكيف كان تناسب شكل المقدمة من الرقبة والأكتاف، لا أعلم.

لكن هذه المخلوقة أتت بعد قليل إلى قارب، كان فيه المدعو ويليام هوكريدج الذي كان حينئذ خادمي، وكان يعمل ضابطاً في سفينة تبحر لجزر الهند الشرقية، ثم استخدمه مؤخراً السير توماس سميث في هذه الرحلة، ووضعت هذه المخلوقة كلتا يديها على جانب القارب وجاهدت في محاولة الوصول إليه وللآخرين الذين كانوا حينئذ في القارب المذكور مما جعلهم خائفين، وقام واحد منهم بتوجيه ضربة شديدة إليها على الرأس، فسقطت من القارب، وفيما بعد أتت إلى قاربين آخرين في الميناء، ولخوف الرجال الشديد منها، هربوا إلى الشاطىء، وهذه ـ فيما أعتقد ـ هي جنية البحر.

الدراويش الراقصون

«1613 افرنجي»

* توماس كوريات

«كوريات، واحد من أشجع قدامى الرحالة، ترك لنا هذا الوصف مع العديد

من ملاحظاته الأخرى عن تركيا في مدينة حلب[1] قبل أن يخرج في رحلته الأخيرة إلى الهند في سبتمبر 1914 افرنجي».

توجد مدرسة للرهبان الأتراك في «جلاتة» يسمونهم الدراويش بالقرب من مقبرة عامة، كانوا كل ثلاثاء وجمعة ـ وكانت الجمعة هي سبت الأتراك[2] ـ يؤدون هناك أغرب شعائر العبادة التي رأيتها أو سمعتها في حياتي، وكانت فرحتي لمشاهدتها يوم التاسع من أبريل مع بعض الإنجليز الآخرين الذين ذهبوا هنالك لمشاهدة نفس الشعائر، ولهذا سوف أكتب قليلاً عن ذلك طبقاً لخبرتي الشخصية بها، ففي حوالى الساعة الثانية عشرة ونصف من ذلك اليوم، دخلت حجرة رائعة جميلة عبر فناء خارجي، وكانت مملوءة من قِبَلِ الأتراك تقريباً، الذين أتوا لعبادة الله بأسلوبهم الروحي، وقد خلعوا أحذيتهم ـ وفقاً لتقاليدهم المرعية ـ ووضعوها على الأرفف، كانت بعض حوائط هذه الغرفة مزينة بخطوط وأبيات باللغة التركية من الداخل، واحدة منها مباشرة فوق مفسر الشريعة[3] والأخريات متناثرة هناك وهنا، كلها متعلقة بالدين.

وكان الجزء الأوسط من الحجرة ـ المكوّن في شكل مربع ـ خالياً ومحجوزاً لرجال الدين فقط ليجلسوا فيه، لكن كل الأضلاع الأربعة حوله خُصصت للمشاهدين لرؤية ما سوف أشرحه الآن، وكان المشاهدون من الإنجليز والأتراك أيضاً، إذ هنا يسمح الأتراك للمسيحيين بالدخول، وليس إلى مساجدهم.

وكانت توجد أيضاً حجرات داخلية قريبة إلى حد ما من هذه الحجرة، تجلس فيها النساء وحدهن والحجاب فوق وجوههن، وبعد دخولي الحجرة بفترة وجيزة، أعد الدراويش أنفسهم في وسط الحجرة الخالي جالسين القرفصاء، وأجسامهم محنية تجاه الأرضية من أجل الموقف الديني، حتى كادوا ينقلبون على وجوههم، ويغمغمون ببعض الأوراد الدينية.

---

(1) كانت مدينة حلب في ذلك التاريخ وأجزاء أخرى من الوطن العربي تحت سيطرة الحكم التركي العثماني.

(2) يقصد يوم الراحة وعدم العمل.

(3) يريد الكاتب بمفسر الشريعة معنى «المفتي» لكن هنا لا يصح سوى «شيخ الطريقة» «المترجم».

وكان مجموع الصحبة كلها اثنين وخمسين شخصاً، وعادتهم تختلف كثيراً عن الأتراك الآخرين، أولاً كان غطاء رؤوسهم من نوع مختلف عن الآخرين، لأنهم كانوا يرتدون طاقية صوفية رمادية مصنوعة بصورة تخالف شكل القبعة التي نستخدمها في إنجلترا، فبعضها مغطى عند أطرافه السفلى بقطع من الشاش الأبيض، بالإضافة إلى العباءة أو الرداء العلوي «السترة» كانت في معظمها مبقعة ومُرقعٌ فيها الكثير من قطع القماش المختلفة، وبهذا الرداء الممزق ـ أعتقد ـ أنهم يعتبرونها مسألة مقدسة.

وبعدما استقر الجميع في أماكنهم، وقد أمسكوا بالكتب التركية المخطوطة في أيديهم، بدأ مطرب يجلس منفصلاً عنهم في حجرة عليا في إنشاد ألحان معينة، ولكن بأفظع وأبشع النغمات التي سمعتها أبداً، وتختلف كلية عن الإنشاد في كنائسنا المسيحية، لأن الزعيق والصراخ الفوضوي الصادر عنهم أصم أذني، وعند الانتهاء نطق باسم «محمد» ـ (ﷺ) ـ فألقوا رؤوسهم إلى أسفل ركبهم، وبعدما فعل ذلك، صعد مفسر الشريعة «شيخ الطريقة» إلى كرسي وقرأ كتاباً تركياً معيناً للمجتمعين، يحوي العقيدة المحمدية[1] لكنه عندما ذكر اسمه جثوا على وجوههم وقبلوا الأرض، حوالى ربع الساعة تقريباً، قبل أن يفعل ذلك.

وبدأ ثلاثة زمارين كانوا يجلسون مع المطرب في غرفته العليا، في نفخ مزاميرهم الطويلة التي لا تختلف عن صوت الطبلة الصغيرة، فأصدرت أصواتاً موسيقية غريبة ومضحكة، واستمرت حوالى ربع الساعة تقريباً بعدها أنهى رجل الدين محاضرته، ومعهم عَزَفَ آخر كان يضرب بيديه آلة غريبة من المعدن على شكل حوض صغير، وبعدما عزف ما يقرب من ربع الساعة، رفعوا أصواتهم فجأة أعلى من المعتاد، قام على أثرها ـ فجأة ـ حوالى خمسة وعشرين شخصاً من الاثنين وخمسين درويشاً، عاريي السيقان والأقدام يطيحون رداءهم العلوي على الأجناب، وكانت صدور بعضهم عارية تماماً وبدأوا شيئاً فشيئاً يدورون حول شيخ

(1) تلك فرصة لُننبه هنا أن فكرة الغرب الخاطئة عن الإسلام نبعت من مثل هذه الكتابات غير المسؤولة، إذ لم يدخل صاحبها إلى معرفة الدين عن طريقه الصحيح وهو المساجد وهو قد اعترف من قبل بأن المسيحيين كانوا ممنوعين من دخول المساجد. «المترجم».

الطريقة الذي يدور بهدوء في وسطهم، وبعد برهة ضاعفوا سرعتهم، وداروا بسرعة لا تصدق لدرجة أنني لم أجد بُداً من الإعجاب بهم.

وبين الباقين، كان يوجد صبي صغير عمره حوالى اثنتي عشرة سنة، كان يدور في ركن من أركان الحجرة، جذب إعجاباً غير قليل وسط المشاهدين الذين كانوا غرباء، وظلوا يحتفظون بهذا الدوران مدة ساعة كاملة على الأقل، خلال هذا الوقت كانوا يلفون أحياناً بسرعة متزايدة، وأحياناً بهدوء، وبعدما فعلوا ذلك بدأ المطرب يغني من جديد، وعند نطق بعض من كلماته، كان الدراويش يهمهمون بكلمات غريبة، بأكثر طرق الغمغمة خفاءً لدرجة أخافتنا وأدهشتنا نحن الذين كنا مجرد غرباء على مثل هذه الطقوس، وقد فعلوا ذلك ثلاث أو أربع مرات مع تشجيع كل الأتراك الموجودين.

وكان شكل رقصهم غريباً تماماً مثل استمرارية سرعتهم، إذ كانوا أحياناً يمدون أذرعتهم إلى أقصى امتداد يمكنهم، وأحياناً يعقدونها في دائرة أقل، وأحياناً يرفعونها حول رؤوسهم، وأحياناً أخرى يؤدون أشكالاً مرحة، كما لو كانوا يجذبون قوساً ويطلقون منه سهاماً، في حين استمر بعضهم في الدوران خلال هذه الفترة في نفس وذات المكان، والآخرون يتحركون من ركن لآخر، وقد وصلت هذه الشعائر الآن لنهايتها، فبدأ أحد الدراويش صلاة باللغة العربية وهو يدور باستمرار مع بقية الصحبة، ويلفظ الصلاة بصوت مسموع جداً، وبانتهاء صلاته توقفت هذه العبادة الغريبة والحارة عند ذلك، بعدما استمرت حوالى الساعة ونصف الساعة، وكان عنف دورانهم شديداً لدرجة أنني سمعت بعضهم يسقط ميتاً في مكانه، بسبب دورانهم السريع، وأي شخص يحدث له ذلك، يُعد قديساً.

عظمة المغولي الأكبر

«نوفمبر/الحرث 1616 ـ سبتمبر/الفاتح 1617 افرنجي»

* تقرير السفير الإنجليزي في آجمير: سير توماس رو

«كان جاهانجير «المنحل» 1569 ـ 1627 افرنجي، امبراطور المغول في دلهي، ولقبه كان يعني قاهر العالم».

في الأول من نوفمبر، جلس الملك عند الظهر في بلاطه حيث أحضر الأمير فِيلتَهُ ـ حوالى ستمائة فِيل مجهزة ومعدة بسخاء ـ، ورفاقه الذين يقدرون بعشرة آلاف فارس على خيولهم، العديد منهم في ملابس ذهبية بريش طيور البجع في عمائمهم، تشملهم الأُبهة، وهو ـ نفسه ـ في ملابس فضية مزينة بلؤلؤة كبيرة وماسات لامعة كقبة السماء، واحتضنه الملك وقبله وأظهر له وداً كبيراً، وعند رحيله، أعطاه سيفاً كان غمده كله من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، تقدر قيمته بمائة ألف روبية، وخنجراً بأربعين ألفاً، وفيلاً وجوادين مجهزين كلهم بالذهب المرصع بالجواهر، وأخيراً أعطاه عربة من العربات الجديدة ـ التي صنعوها تقليداً لتلك التي أرسلها جلالة الملك سيدي جيمس الأول ـ ثم أمر سائق العربة الإنجليزي بقيادته إلى خيامه حيث هبط وجلس في الوسط بينما الجوانب مفتوحة، وسار أكبر نبلائه بجواره على الأقدام إلى خيامه حوالى أربعة أميال، وكان طوال الطريق ينثر أرباعاً من الروبيات إذ تبعه الكثير من الناس، ثم مد يده إلى قبعة السائق ليضع فيها مائة روبية.

وفي اليوم الثاني من نوفمبر، انتقل الملك إلى خيامه مع نسائه، وكان بلاطه على بعد حوالى ثلاثة أميال، وقد ذهبت لمرافقته وهو آت للقصر، فوجدته عند شرفة الاستقبالات، ذهبت إلى المنصة التي يجلس عليها وكانت مكاناً لم أره من قبل وقد كنت سعيداً للمناسبة، وكان هناك طواشيان[1] يقفان على مساند خشبية، بأيديهما عصي طويلة في نهايتها مجموعة من الريش، يروحان بها عليه.

وقد وهب عطايا كثيرة وتسلم هدايا كذلك، وما كان يمنحه، كان يتركه يهبط بواسطة قماش حريري ملفوف على أداة دوارة، وما كان يُعطى له، كانت سيدة عجوز شمطاء تُعلقه بحلقات مثل الصورة المعلقة وتدفعه من فتحة بواسطة نفس الأدوات.

وفي أحد جانبي النافذة كانت توجد زوجتاه الأساسيتان اللتان دفعهما الفضول

(1) الطواش كلمة عربية الأصل وتعني الخصيّ.

إلى فتح ثقوب في شريحة بوص كان مدلى أمام النافذة ليحملقا فيّ، فرأيت أولاً أصابعهما، وبعدما اقتربتا بوجهيهما، مرة بعين ومرة بالعين الأخرى استطعت أن أميز تناسب صورتيهما كاملة، إذ كانتا بيضاوين تماماً، وبشعر أسود ناعم، حتى ولو لم يتوافر لدي مصدر ضوء آخر، كانت ماساتهما ولآلئهما تكفي لذلك.

وعندما نظرت عالياً تراجعتا وأضحتا مرحتين، حتى اعتقدت أنهما ضحكتا عليَّ، وفجأة نهض الملك، واسترحنا نحن في البلاط وجلسنا فوق السجاجيد ننتظر خروجه، خرج إلينا بعد فترة ليست طويلة، وجلس لمدة نصف الساعة تقريباً، حتى صعدت نساؤه ـ عند بابهن ـ الفيلة، التي كان عددها يصل إلى خمسين مزدانة بثراء، ثلاثة منها في الأصل هودجها من الذهب، وشرائح الذهب كانت في كل مكان تنظر إليه، والمفارش كلها من القماش الفضي.

وعند ذاك هبط الملك الدرج مصحوباً بصيحة نخب ـ في صحة الملك ـ عالية كما لو كانت ضربات مدافع، وعند بداية الدرج حيث قابلته، تحركت لأكون التالي، أحضر له أحد الأشخاص سمكة كبيرة، وآخر أحضر له طبقاً به مادة بيضاء كالنشاء، فوضع فيه إصبعه ثم لمس السمكة، وهكذا مسح ذلك فوق جبهته، وهو طقس يوحي بحسن الحظ.

في الأول من سبتمبر، وافق ذلك عيد ميلاد الملك، وفي حفل «وزن» الملك، ذهبت إليه واقتادوني إلى حديقة واسعة وجميلة، كان مربعها محاطاً كله بالماء، وعلى الجانبين زهور وأشجار، وفي وسطها منصة مزينة حيث أُعدت الموازين، وكانت معلقة على مصاطب عالية تصل بينها عارضة مغلفة بالذهب الرقيق، بينما الموازين من كتل الذهب، وحوافها مرصعة بأحجار كريمة صغيرة، ومن الروبيات والتركيات، والسلاسل من الذهب وهي من الكتل الكبيرة، لكنها مقواة بخيوط حريرية.

وهنا انتظرت كل طبقة النبلاء وهم يجلسون حول ذلك الميزان وفوق السجاجيد، حتى وصل الملك الذي ظهر أخيراً مرتدياً ـ أو فلنقل محملاً ـ بالماس والأحجار الكريمة واللآلىء والرياش الثمين، شديد العظمة، كثير المجد، ولا

أكاد أتمكن من وصف سيفه ودرعه وعرشه، أما رأسه ورقبته وصدره وذراعاه فوق الكتفين وعند المعصمين وأصابعه، فكل طرف منها عليه خاتمان أو ثلاثة مثبتة بالسلاسل أو حبات الألماس والأحجار الكريمة المصفوفة كل حبة منها كالبندقة أو أكبر قليلاً.

وكانت اللآلىء كبيرة بحجم عينيَّ هاتين اللتين أحملق بهما فيها، وفجأة، دخل الملك إلى الميزان، وجلس كالمرأة على قدميه، ووضع في مقابله الكثير من الأكياس لتعادل وزنه، وقد تغيرت هذه الأكياس ست مرات ـ وقالوا إنها من الفضة ـ حتى إنني أدركت أن وزنه يساوي تسعة آلاف روبية، تساوي ألف جنيه استرليني تقريباً، ثم بعد ذلك وزنوه بالذهب والجواهر والأحجار الكريمة، لكني لم أر شيئاً منها، إذ كانت في أكياس وقد تكون من الحصى، ثم بعد ذلك بالقماش الذهبي والفضي والصوف والكتان والتوابل وكل أنواع السلع الأخرى، وكان عليَّ أن أصدق ذلك، لأنها كلها كانت في ربطات.

وأخيراً وزنوه بالدقيق والزبد والقمح الذي قيل أنه سوف يوهب للمعوزين مع بقية المواد الأخرى، لكنني لاحظت أنه حمل ـ خفية ـ ولم يوزع، وإنما استبقيت الفضة فقط للغلابة، ويبقى للاستخدام في العام التالي، وقد اعتاد الملك في المساء أن يستدعي نفراً من الناس للمثول أمامه ويقوم بتوزيع هذه النقود بيده في تواضع وتواد كثيرين، ومن الميزان الذي جلس في إحدى كفتيه، حملق فيَّ وألقى عليَّ جواهره وثروته وابتسم، لكنه لم يقل شيئاً، إذ إن مترجمي لم يُسمح له بشرح شيء لي.

وبعدما تم وزن الملك، صعد إلى عرشه، وأمامه أطباق من البندق واللوز والفواكه والتوابل كلها صنعت من الفضة الرقيقة، كان يوزعها حوله، جعلت كبار رجاله يتدافعون وينحنون على بطونهم.

وعندما رآني لا أفعل ذلك ـ مد طبقاً مملوءاً تقريباً وصبه في عباءتي، وكان نبلاؤه من الجرأة بحيث أدخلوا أيديهم في العباءة بكثرة حتى لم يبق لي شيء، لو لم أجنب بعضاً منه، وقد سمعت أنه قذف ذهباً حتى دخلت أنا، لكني وجدته

فضة شديدة الرقة، لدرجة أن كل ما جمعته في البداية رغم أنه كان آلافاً من القطع المتعددة لم يزد على ستين روبية وزناً، وادخرت ما زنته عشرين روبية، إلا أنه ملء طبق معقول، كي أوضح مدى تفاخره، إذ بحساباتي النسبية وجدت أنه لم يوزع أكثر من مائة جنيه استرليني في ذلك اليوم. وفي المساء يشرب الملك مع جميع رجاله النبلاء في أوانٍ فاخرة. وقد دعيت لهذا الحفل، لكنهم أخبروني ألا أرفض الشراب ـ وشرابهم حار جداً ـ وقد كنت مريضاً وفي دمي بعض السيولة فلم أجرؤ على البقاء للمخاطرة بصحتي.

ملك المغول العظيم، ووحشيته

«1618 افرنجي»

*** إدوارد تيري**

ولشدة شروره، وضع حكماً بالموت القاسي على إحدى زوجاته، كانت يوماً ما رفيقته وموضع حنانه، لكنها الآن أهملت، إذ لا هو ولا نبلاؤه ـ كما يقولون ـ يقتربون من زوجاتهم إذا ما تعدين الثلاثين من العمر، وكانت غلطة هذه المرأة أن المغولي قد ضبطها مرة مع أحد الطواشية يقبل كل منهما الآخر، ولهذا السبب أمر الملك فوراً بعمل حفرة في الأرض وأن توضع المرأة فيها حيث تقف ورأسها فقط فوق سطح الأرض، وتهال عليها الرمال، وتبقى قائمة في الشمس الحارقة حتى تقتلها الأشعة اللافحة.

وقد عاشت في هذا العذاب يوماً بأكمله والليلة التالية وحتى الظهر التالي تقريباً، تبكي بشدة وبنواح عميق، بينما كانت قادرة على النطق بلغتها، كما يفعل طفل قبائل الشومانيتي في ثأثأته: «رأسي، رأسي»، وقد تم تنفيذ هذا الحكم أو ـ القتل ـ قريباً من منزلنا، حيث أمر الملك كذلك بإحضار هذا العبد الطواشي إلى المكان الذي دُفنت فيه هذه المرأة المسكينة حية، وأمام مرآها يُقطّع أشلاء.

اغتيال دوق باكينجهام

«23 أغسطس/ هانيبال 1620 افرنجي»

*** سير دودلي كارلتون**

«كان باكينجهام أول المقربين للملك جيمس الأول والصديق المحبب لابنه تشارلز الأول، وكان «فيلتون» ـ قاتله ـ قد رفض الدوق ترقيته، واعترف باقتراف جريمة الاغتيال فشُنق في 27 نوفمبر 1620 افرنجي».

. . . في هذا اليوم بين الساعة التاسعة والعاشرة في الصباح، خرج دوق باكينجهام من الردهة إلى الصالة ليلحق بعربته ثم يذهب إلى الملك ـ الذي يبعد عن المكان بأربعة أميال ـ وحوله العديد من اللوردات والضباط والقادة والكثير من خدمه، فاغتاله المدعو فيلتون ـ الذي كان ضابطاً في جيشنا ـ بطعنة واحدة من سكين خنجر، وأثناء طعنه التفت الدوق حوله وقد تفوه بهذه الكلمة: «شرير» ولم ينطق غيرها، إنما جذب السكين من جسده، وقبل أن يسقط على الأرض سار خطوتين أو ثلاث نحو الخائن، ثم سقط فوق منضدة رغم أن من حوله قد أسندوه ـ وبسبب الاقتراب الشديد لهذا الشرير في إتمام فعله ـ إلاّ أنهم لم يلحظوا أنه أصيب مطلقاً، وإنما اعتقدوا أنه أصيب بصرع مفاجىء حتى شاهدوا الدماء تندفع من فمه وجرحه بسرعة لدرجة أن روحه وتنفسه غادرا جسده المكوم.

ولربما أمكنك أن تتخيل الصرخات التي أطلقناها نحن الضباط والقادة الموجودون في هذه اللحظة، عندما رأيناه ميتاً هكذا في برهة بسيطة، ومقتولاً بيد مجهولة، إذ بدا أن الدوق هو نفسه الذي يعلم من اغتاله فقط.

وبسبب التزاحم الفوضوي حول شخصه في تلك الساعة، لم نتمكن أو نستطيع حتى التعرف على ذلك، وقد خشي الجنود أن يكون في فقده ضياعهم تماماً، لذا امتلأ البيت والفناء، وكل شخص وُجد مع جثة الدوق يجاهد في تقديم الرعاية، في الوقت الذي ترك فيه «فيلتون» هذه الزحمة ـ التي ملأتها الفوضى ـ ولم يتبعه أو يتبينه أحد، حتى لم يعلم أحد أين ولا من فعل ذلك.

وجاء البعض ليحرسوا البوابات، وذهب البعض الآخر إلى أسوار المدينة، وخلال كل هذا الوقت كان الوغد واقفاً في مطبخ نفس المنزل، وبعد تحقيق قام به جماعة من الضباط والسادة، اندفعوا داخل المنزل والفناء، وهم يتصايحون: «أين هذا الشرير؟ أين هذا الجزار؟»: فسحب «فيلتون» سيفه بقوةٍ وفي جرأة وحسم، خرج إليهم فوقف بينهم قائلاً: «أنا هو، ها هنا». وفور ذلك اندفع نحوه الجميع قاصدين قتله، لكن سير توماس مورتون وأنا وبعض الآخرين، باستخدام وسائل معينة ـ رغم صعوبتها ومعاناتها ـ جذبناه من بين أيديهم وبأوامر من سيدي اللورد تشامبرلين تولينا مسؤولية حمايته من أي فرد يقترب منه، حتى أحضروا حرساً من حملة البنادق لنقله إلى منزل الحاكم، حيث تركنا مسؤوليته.

وقام سيدي اللورد تشامبرلين وسكرتيره السيد كوك ـ اللذان كانا موجودين في منزل الحاكم ـ باستجوابه عما هو مجهول حتى تلك اللحظة، إذ بينما كان في أسرنا سألته عدة أسئلة، أجاب عليها بالآتي:

إنه كان بروتستانتي العقيدة، وقد صرح عن نفسه بأنه كان ـ من جهة أخرى ـ في ضيق لحاجته إلى الثمانين جنيهاً التي كان يتقضاها، حينما كان ضابطاً لفصيلة مشاة، لكنهم أوكلوا أمر الفصيلة لواحد غيره، لكن ذلك لم يدفعه لقراره بالقتل، وإنما دفعه إلى ذلك قراءته للإعلان الرسمي للشكوى العامة في البرلمان، فتداعى إلى ذهنه أنه بارتكابه اغتيال الدوق سوف يؤدي لوطنه خدمة جليلة، وقال بأنهم سوف يصلّون من أجله في اليوم التالي في لندن، فسألته عندئذٍ في أية كنيسة؟ ولأي سبب؟ فأخبرني بأن ذلك سيكون في كنيسة يؤدي إليها شارع «فليت».

وبالنسبة لرجل مضطرب في ذهنه، ولأننا رأينا الأمور تتناثر منه بهذا الشكل، فضلنا بألاّ يُستجوب أكثر من ذلك، ورأينا أنه من الأنسب أن يستجوبه اللوردات، وليكتشفوا أو يعلموا منه إذا ما كان قد تم تشجيعه أو دفعه بواسطة أي شخص للقيام بمثل هذا العمل الشرير.

لكن لنعد إلى الصرخات التي انطلقت ساعة الطعنة القاتلة، إذ خرجت بسرعة دوقة باكينجهام وكونتيسة أنجلزي إلى البهو الذي يطل على الصالة شهدتا دماء

اللورد - العزيز عليهم - وهي تندفع من جسمه، ويا للسيدتين المسكينتين، كم كانت وَلْوَلَتهما ودموعهما واضطرابهما، بما لم أسمع عنه في حياتي من قبل، وآمل ألاّ أسمع عن مثله فيما بعد، وكان حزن جلالة الملك بفقده أكبر مما يمكن التعبير عنه، وبالدموع التي ذرفها غزيرة عليه، أُنهي هذه الأخبار الحزينة وغير الملائمة.

وقد نشر فيلتون بعض الكتابات في قبعته، نصفها داخل الإطار، ليبين سبب إقدامه على هذا الفعل الشرير، معتقداً أنه سوف يُقتل في مكانه، وكانت كتابته هكذا: «. . .لو أنني قتلت، فلا تدعوا أحداً يلعنني، وإنما فليلعن نفسه، إذ من أجل خطايانا، غُلظت قلوبنا، وأصبحت عديمة الإحساس وإلاّ فلسوف لن يمر وقت طويل دونما عقاب، جون فيلتون.

و: «لا يستحق لقب سيد أو جندي - في رأيي - ذلك الذي يخشى التضحية بحياته فداءً لربه ولملكه وللوطن، جون فيلتون.

الهبوط في نيو إنجلند

«نوڤمبر/الحرث 1620 افرنجي»

*** ويليام برادفورد**

«تمت تسمية نيو إنجلند بذلك بواسطة الكابتن جون سميث الذي اكتشف شواطئها عام 1614 افرنجي، وكانت أول مباني أقيمت في بليموث بولاية ماساتشوستس بواسطة «آباء الحج» عام 1620 افرنجي الذين كانوا على ظهر السفينة «ماي فلور» - زهرة الربيع - الذي كان وصولها موصوفاً هنا».

. . عند حوالى الساعة العاشرة، وصلنا إلى وادٍ عميق، مملوء بالشجيرات، ونباتات المستنقع والحشائش الطويلة، وجدنا عبرها ممرات أو «مدقات» صغيرة، وشاهدنا هناك غزالاً وعيوناً للماء العذب، وأسعدنا ذلك فعلاً وجلسنا بجواره لنشرب أول شربة ماء على أرض نيو إنجلند بمتعة لم نشرب بها مشروباً في حياتنا من قبل.

وعندما استعدنا حيويتنا، اتخذنا اتجاهنا نحو الجنوب تماماً، فقد نصل للشاطىء الذي وصلنا إليه فعلاً بعد فترة قصيرة، فأوقدنا ناراً هناك كي يرانا الموجودون في السفينة ويحددون موقعنا ـ حيث كان لنا اتجاه ـ وهكذا مضينا قدماً نحو البحر الذي نقصده، وبينما كنا نمر بوادٍ آخر، وجدنا بركة صافية من الماء العذب عرضها في مدى رمية غدارة، وطولها ضعف ذلك، وقد نَمَتْ هناك نباتات الكروم، ويصاد فيها الغزال والدجاج البري، وكان نبات السافراس[1] ينمو هناك كذلك.

من هناك استمر تقدمنا حتى وجدنا أرضاً سهلة تقدر بخمسين هكتاراً صالحة للزراعة، وبعض آثار لقمح زرعه الهنود من قبل. بعد ذلك، رأى البعض أنه من الأفضل كي نقترب من النهر أن نهبط ونمضي على طريق البحر، مما أتعب بعضاً من رجالنا بسبب الرمال، وتأخروا في الخلف فبقينا وجمعناهم، وعدنا للأرض مرة أخرى، حيث وجدنا ممراً صغيراً نحو أكوام من الرمال، واحداً منها كان مغطى بالفُرُش القديمة، وفوق قمته وعاء خشبي مثل الرحى.

وفي فتحة عند نهاية الكوم يوجد قِدْر مصنوع من الفخار، وتساءلنا ماذا يمكن أن يكون ذلك، فحفرنا لنجد قوساً ومعه ـ فيما نعتقد ـ بعض السهام، لكنها كانت متحللة، فتوقعنا أن تكون هناك أشياء عديدة أخرى ولأننا رأينا أن هذه مقابر، وضعنا القوس مرة أخرى وتركناه كما كان، كما تركنا بقية الأشياء دون أن تمس، إذ سيكون بغيضاً لديهم أن ننتهك مقابرهم.

ومضينا قدماً فوجدنا عيدان القش الجديدة التي حصدوا منها قمحهم هذا العام، وكثيراً من أشجار البندق الممتلئة ثماراً وخزيناً كبيراً من الفراولة وبعض الكروم، وبعبورنا حقلاً أو اثنين ـ إذ لم تكن الحقول واسعة ـ وصلنا لحقل آخر، حُصد حديثاً، وهناك وجدنا منزلاً، وأربع أو خمس لوحات خشبية مربوطة معاً، ووجدنا أيضاً براداً كبيراً، يبدو عليه أنه كان براداً خاصاً بسفينة أتت به من أوروبا، وكان هناك أيضاً كوم من الرمال، يشبه الأكوام السابق ذكرها، لكنه تم حديثاً.

---

(1) نبات يستخدم في تحضير بعض الأدوية، «المترجم».

وقد استطعنا رؤية آثار أيديهم فوق رماله، فحفرناه، ووجدنا فيه سلة صغيرة قديمة مملوءة بالقمح الهندي الجميل، فحفرنا أعمق، فوجدنا سلة كبيرة ضخمة مملوءة بقمح طازج من حصاد هذا العام، وحوالى ست وثلاثين سنبلة سليمة من القمح، بعضها أصفر وبعضها أحمر، والأخريات مخلوطة بالأزرق، وأعطت منظراً رائعاً، وكانت السلة مستديرة وضيقة عند فتحتها وقد احتوت على ثلاث أو أربع بوشلات[1]، مما جعلها ثقيلة، حتى إن اثنين منا لا يكادان يرفعانها عن الأرض، وقد صنعت بدقة ومهارة.

وأثناء انشغالنا بهذه الأمور، نظمنا من رجالنا حرساً في حلقة دائرية، جميعهم عدا اثنين أو ثلاثة اللازمين لاستخراج القمح، وقد انتابتنا الحيرة، فماذا نفعل به والبراد، وأخيراً بعد مشاورات طويلة، قررنا أن نأخذ البراد مع ما يمكننا حمله من القمح، وإذا ما أتى قاربنا وتمكنا من مقابلة أي من هؤلاء الناس وتوصلنا لاتفاق معهم، فسوف نرد لهم البراد ثانية ونعوضهم بشأن قمحهم.

ولما سرنا خمسة أو ستة أميال داخل الغابات، لم نجد أية آثار لأي بشر، وعدنا من طريق آخر، وبينما نحن نقترب من الأرض المنبسطة، وجدنا مكاناً كالمقبرة، لكنه كان أكبر وأطول مما رأيناه من قبل، وكان مغطى بألواح من الخشب، وحيث إننا اندهشنا لما قد يكون، قررنا أن نحفره، فوجدنا أولاً فراشاً وتحته لوح من الخشب طوله ثلاثة أرباع[2] به حَفْرٌ دقيقٌ وملون، وعلى قمته ثلاث قطع من الحلى تشبه التاج، وبين الفِراش وجدنا أحواض وصوان وأطباق، ومثل هذه الأدوات الصغيرة.

وفي النهاية وصلنا لوسادة جميلة جديدة، وتحتها ربطتان، واحدة كبيرة وأخرى صغيرة، ففتحنا الكبرى ووجدنا بها كمية كبيرة من مسحوق أحمر قان وناعم، وبها عظام وجمجمة رجل، وعلى الجمجمة شعر أصفر ناعم، ما زال موجوداً وبعض اللحم الذي لم يندثر، وكان يوجد ما يتعلق بسكين وإبرة تعبئة[3]

---

(1) البوشل مكيال يعادل 8 جالونات للحبوب.

(2) الربع هنا يساوي من 6 ـ 8 أقدام. «المترجم».

(3) إبرة تستخدم في غلق أكياس «أجولة» البضائع بالخاطة، «المترجم».

واثنتين أو ثلاث قطع حديدية قديمة، كلها مربوطة بمعطف مطرز خاص بالبحارة وقطعة قماش من سروال قصير، وكان المسحوق الأحمر نوعاً من مواد التحنيط وتفوح منه رائحة قوية غير كريهة، بل كانت رائحة جميلة كرائحة الزهور، ثم فتحنا الربطة الصغيرة بنفس الطريقة ووجدنا بها نفس المسحوق مع عظام ورأس طفل صغير، مربوط حول أقدامه وبعض أجزائه خيوط وأساور من حبات بيضاء لامعة، وبجانبه أيضاً قوس صغير طوله ثلاثة أرباع، وبعض اللُعْبات الغريبة، وقد أحضرنا معنا أنواعاً من كل هذه الأشياء، ثم غطينا الجثث مرة ثانية.

ومضينا نجول صعوداً وهبوطاً حتى قاربت الشمس الغروب، فعند ذلك عجلنا بالخروج من الغابة كي نصل إلى قاربنا.

إلى هذه اللحظة عندما وصلنا ووصل القارب إلينا كان الوقت ليلاً، وقد تناولنا الطعام بنفس ما كنا نأكله من قبل. ولجأنا للراحة بعدما جهزنا ساعتنا. وعند حوالى منتصف الليل سمعنا صرخة مفزعة، وكان حارسنا يصيح «السلاح، السلاح» وعلى الفور أعددنا أنفسنا وأطلقنا قذيفتين من بنادقنا، فتوقف الضجيج، فاستنتجنا أن ذلك كان مجموعة من الذئاب والثعالب، لأن واحداً منا أخبرنا أنه قد سمع مثل هذه الضجة في نيوفاوندلاند، وعند الساعة الخامسة في الصباح بدأنا التحرك.. وفجأة سمعنا صرخة قوية وعظيمة أدركنا أنها نفس الأصوات رغم أن النغمة تختلف، وهرع إلينا واحد من أصحابنا كان في الخارج وهو يصرخ: «إنهم هنود، هنود» ومع هذه الكلمات تطايرت سهامهم بيننا فاندفع رجالنا بأقصى سرعة لتناول أسلحتهم، وكانت صرخات عدونا مرعبة، خاصة عندما اندفع رجالنا نحو السلاح، في حين كان العدو جاهزاً لقتلهم.

كان هناك رجلٌ قويٌ لا تنقصه الشجاعة، يبدو أنه قائدهم، يقف خلف شجرة على مدى نصف طلقة بندقية منا، وكان يطلق سهامه نحونا من هناك، وقد تَحمَّل ثلاث طلقات من بندقية، وفي النهاية صوب واحدٌ منا - كما قال بنفسه - هدفه تماماً نحو ذلك الرجل بعدها أطلق صرخة غير طبيعية ثم ابتعدوا جميعاً، فتتبعناهم حوالى ربع الميل، وتركنا وراءنا ستة من الرجال لحراسة قاربنا، إذ كنا حذرين لما نعمل...

وقد استولينا على 18 من سهامهم التي أرسلناها إلى إنجلترا عن طريق السيد جونز، بعضها كان ذا طرف نحاسي وبعضها الآخر من قرون الوعل، وبعضها الآخر من مخالب النسور، والعديد منهم بلا شك كان قد أصيب، لأن من وجدناهم كانوا مغطين بأوراق الشجر تقريباً، إلاّ أنه بعناية إلهية خاصة، لم يستطع أحد منهم إصابتنا أو إيذاءنا. . وفي يوم الإثنين وجدنا ميناءً صالحاً لرسو سفينتنا، وقد سرنا أيضاً داخل الأرض ووجدنا العديد من حقول القمح ونهيرات صغيرة جارية، ومكاناً طيباً للإقامة، وهكذا عدنا مرة أخرى إلى سفينتنا بأنباء طيبة لبقية زملائنا مما ارتاحت له قلوبهم.

أوليفر كرومويل يكتب إلى صهره بعد معركة مارستون مور

«2 يوليو/ ناصر 1644 افرنجي»

*** أوليفير كرومويل**

«في مارستون مور، تحطم الجيش الشمالي، الأمل الأساسي للملكيين في الحرب الأهلية، بفضل خطط كرومويل المفاجئة، فقد هاجم مع نهاية المساء، عندما ذهب قادة الجيش الملكي للراحة في عرباتهم، وكانت قواتهم في حالة استرخاء».

إلى أخي الحبيب الضابط ڤالنتين والتون.

إنه حق علينا أن نتعاطف في جميع الملمات، وأن نحمد الله سواء في السراء والضراء، إذ قد نتألم معاً.

في الحقيقة، إن إنجلترا وكنيسة الله قد نالا عطفاً عظيماً من الرب، بهذا النصر العظيم الذي وهبه لنا، والذي لم يكن له مثيل منذ بدأت هذه الحرب، وقد حاز كل البراهين كنصر مطلق حصلنا عليه ببركة من الله على عباد الله الحقيقيين. إننا لم نتعامل مع العدو بل اقتلعناه، فالجناح الأيسر الذي أقوده لأنه من أبناء

جلدتنا، عدا قليلين من الاسكوتلانديين في المؤخرة هزم كل جناح الأمير، وجعلهم الله أعواداً من القش أمام سيوفنا، ثم تعاملنا مع وحدات المشاة بقوتنا وقهرناهم جميعاً، ولا أستطيع أن أسرد عليك التفاصيل، ولكن أعتقد، أنه من بين العشرين ألف التي قادها الأمير، لم يبق له منها سوى أربعة آلاف، وليكن المجد، كل المجد لله.

سيدي. . لقد استرد الله ابنك الأكبر بقذيفة مدفع، كانت قد كسرت رجله فاضطررنا لبترها ومات بسبب ذلك.

سيدي، إنك تعلم اختباري بذات المصيبة ـ كان ابن كرومويل قد قتل منذ فترة بسيطة قبل ذلك ـ لكن الله أعانني بأن أرى أنه تلقاه السعادة العلوية التي نتنفس من أجلها وبخيالها. وهناك ابنك الغالي ممتلىء بالمجد ولم يعد يعرف الخطيئة أو الندم، لقد كان شاباً رائعاً، ذا فضل متزايد. فليمنحك الله سكينته، وقبل موته كان يشعر بالراحة لدرجة أنه لم يستطع التعبير عن ذلك لي أو لفرانك رسل، «لقد كانت راحة عظيمة فوق ألمه» هذا ما قاله لنا، حقيقة كان شيئاً رائعاً. . وقال بعد قليل. . إن شيئاً واحداً كان معلقاً بروحه، فسألته: «ما هو؟» فأخبرني أن الله لم يسمح له بأن يقتل المزيد من أعدائه، وعند سقوطه، كان حصانه قد قتل برصاصة ـ كما أعلموني ـ وثلاثة جياد أخرى، قالوا لي، إنه قد أمرهم أن ينتحوا يساراً ويميناً كي يتابع الموقعة الشرسة، وحقيقة كان محبوباً في الجيش، من كل الذين عرفوه، وكانوا قليلين، لأنه كان شاباً عزيزاً، ملائماً لجوار الله، وعليك أن تشكر الرب، فابنك قديس ممجد في السماء، به يجب أن تبتهج، ولتدع هذا يمتص حزنك، وإذ أرى أن هذه كلمات ليست زائفة لمواساتك، لكنها شيء حقيقي وواقع لا شك فيه، وربما تقوم بكل الأعمال بقوة المسيح، فابحث عن ذلك ولسوف تتحمل اختبارك بسهولة، ولتكن الرحمة العامة لكنيسة الله سبباً لتنفس ألمك الشخصي وليكن الرب في قوتك هكذا تصلي.

المخلص حقاً لك وأخوك المحب

أوليفر كرومويل

حفل ختان.. روما

«16 يناير/أي النار 1645 افرنجي»

*** جون إيڤلين**

ذهبت إلى الجيتو[1] حيث يعيش اليهود، في الضواحي بمفردهم، وحيث دعاني أحد معارفي من اليهود لمشاهدة حفل ختان، فمررت بالسوق اليهودي (حيث يبدأ سور الجيتو) إذ هو محاط بأسوار يغلقونها كل ليلة، وفي ذلك المكان توجد بقايا عمران فخم، أخبرني عنه صديقي اليهودي بأنه كان قصراً لهم مخصص لسفير شعبهم في العصور السابقة عندما كانت بلدهم تخضع للرومان وكانت هناك كتابات مخطوطة عليه، لم أستطع البقاء لقراءتها.

وبعد اقتيادي عبر مجمعهم الديني إلى منزل خاص، وجدت عالماً من البشر في الحجرة، وخطوة فخطوة أتى رجل عجوز، كان قد أعد ورتب أدوات مختلفة أحضرها صبي في السابعة من عمره داخل صندوق، ووضعها الرجل داخل حوض فضي، وكانت السكين شديدة الشبه بموس قصير يغلق في مقبضه، عندئذٍ أحرقوا بعض البخور في منجرة، تعطرت بها الحجرة طوال الحفل، وكان في الحوض غطاء أسطواني من الورق الأبيض يشبه العباءة لا يزيد على حجم إصبعي وكيس ورقي من مسحوق أحمر مطهر، من جذر شجرة على ما أعتقد، وآلة صغيرة من الفضة منقسمة في وسطها عند طرف منها لنزع الغُلفة بها، وقطع من قماش اللينوه الناعم ملفوفة بدقة، وبينما كل هذه في ترتيبها، أحضرت النسوة الطفل من غرفة أخرى في لفائفه وسلمنه لِلْحَبْرِ اليهودي، الذي حمله وقدمه أمام منضدة صلاة أو دولاب مغطى، تقبع فوقه الكتب الخمسة التي نزلت على موسى والوصايا.

---

(1) الجيتو: الاسم الذي أطلقه الأوروبيون على الحي الذي يسكنه اليهود، وكانوا يختارونه دائماً في بقعة منعزلة على أطراف المدن وكثيراً ما كان له سور يحيطه، «المترجم».

فكوا لفته قليلاً، وقبّل هذا وباحترام عميق، وبتمتمة كلمات قليلة، قام الحَبْر بهز الطفل أماماً وخلفاً لفترة بسيطة، وعندئذٍ سلمه لحبر آخر، كان جالساً طوال هذا الوقت على منضدة فأخذه بين يديه ووضعه بين فخذيه، بينما قام اليهودي الآخر بفك الأربطة التي حول الطفل للوصول إلى اللحم، وعند هذا الفعل أغرق الجميع في ترتيل نشيد عبري، وكما في النغمات البربرية، كانوا يتطوحون للأمام والخلف، وهو طقس يراعونه في كل عباداتهم، وتعرى الطفل الآن من عند بطنه إلى أسفل، وقام اليهودي بإمساك عضو الطفل وحكه بأصابعه حتى تصلب قليلاً، حينئذٍ بالآلة الفضية التي سبق وصفها - وحُملتْ إليه في الحوض - جمع كثيراً من الغلفة بقدر ما يستطيع تجميعه، وبالموس، قام بما يشبه نشرها لا قطعها مما جعل الطفل المسكين يبكي بشدة، في حين استمر الباقون في إنشادهم الغريب القريب من النُباح لا الغناء.

عندئذٍ رفع الحبر بطن الطفل عند وجهه، ووضع عضوه في فمه وامتصه بعدما شرب قليلاً من الخمر، وبصق ذلك كله مع الدم في زجاجة خمر حمراء في لون الخمر الفرنسي، وما إن فعل ذلك حتى نزع بقايا الغلفة إلى أقصى حدها باتجاه البطن، لدرجة أن ظَهَرَ اللحم تحتها، ثم نثر المسحوق الأحمر فوق العضو ليمنع النزف، وغطاه بالأربطة، وفوق ذلك قطعة من القماش، ثم لف الطفل كما كان من قبل، وتم كل هذا وهم مستمرون في تراتيلهم، وعند ذلك قام امرأتان ورجلان، وبالتحديد، ذلك الذي حمل الطفل والحبر الذي ختنه - بينما بقية الموجودين كانوا شهوداً فيما أظن - بشرب بعضاً من الخمر المخلوط بالدم والبصاق، وهكذا انتهى هذا الحفل الفوضوي، وصرخ الحَبْر فيّ بلغة إيطالية إذ أدرك أنني غريب: «انظر يا سيدي العزيز، إنها معجزة إلهية». لأن الطفل كان قد أوقف صراخه على الفور. . كان اليهود في روما يرتدون جميعهم قبعات صفراء. وعاشوا فقط على أعمال الربا والسمسرة، شديدو الفقر ومُحْتَقَرون أكثر مما هم في بقية أجزاء الإمارة حيث يسمح لهم بالبقاء.

الضحيـة[1]

«1650 افرنجي»

*** جان بابتست تافير نيير**

إنها ـ كذلك ـ عادة قديمة بين عبدة الأوثان من الهنود، فحين يموت الرجل لا تستطيع أرملته أن تتزوج مرة أخرى أبداً، وبمجرد أن يموت تتفرغ للبكاء على زوجها وبعد عدة أيام يقصون لها شعرها، وتجرد نفسها من كل الحلى التي كانت تتزين بها، وتقوم بخلع الأساور التي وهبها لها زوجها عندما تزوجها من يديها وقدميها، كعلامة على ارتباطها وتسليمها لزوجها، وتبقى حياتها دون أي اعتبار، وأسوأ من حالة العبيد، في حين كانت من قبل سيدة، وهذه الحالة البائسة تجعلها تكره الحياة، وتفضل الذهاب لمحرقة الجنازة كي تموت حية مع جثة زوجها الميت، بدلاً من أن ينظر إليها جميع الناس بقية حياتها في احتقار وازدراء.

بجانب هذا يدفع البراهمة هؤلاء النسوة للأمل بأنهن إذا ما متن بهذه الطريقة، مع أزواجهن، فلسوف يحيين مرة أخرى معهم في عالم آخر، أكثر مجداً ورخاءً عما قضوه من قبل، وهذان هما السببان في إقدام هؤلاء النسوة التعيسات على حرق أنفسهن مع جثث أزواجهن، ويجب أن يضاف لذلك تشجيع الرهبان لهن بأن في اللحظة اللائي يكن فيها في النيران، وقبل أن يلفظن أنفاسهن سوف يكشف لهن «راما»[2] أشياء رائعة، وأنه بعدما تمر الروح عبر عدة أجساد، فلسوف ترقى درجة عظيمة من المجد للأبدية النهائية.

ولكن يجب التنويه بأن المرأة لا تستطيع أن تحرق نفسها مع جثة زوجها دون حصولها على إذن بذلك من حاكم المنطقة التي تعيش فيها. . ويوقف الحكام ـ الذين هم من المسلمين ـ هذه العادة المخيفة في إزهاق النفس في فزع، وليس

---

(1) في الأصل العنوان Suttee يعني الأرملة التي تضحي بنفسها لتحرق مع زوجها الميت في العادات البراهماتية في الهند.

(2) راما: معبود هندي في الديانة البراهماتية. . «المترجم».

لديهم استعداد لمنح تراخيص بذلك، ومن جانب آخر فالأرامل اللاتي لم ينجبن فقط هن اللواتي ينظر إليهن على أنهن لم يُحببن أزواجهن إذا لم تؤاتيهن الشجاعة لحرق أنفسهن معهم عقب موتهم، وبالنسبة إليهن سيبقى افتقادهن لهذه الشجاعة نقطة سيئة بقية حياتهن، لأن الأرامل ذوات الأطفال لا يسمح لهن تحت أي ظرف أن يحرقن أنفسهن مع جثث الأزواج، وهن ينأين عن إلزام التقاليد لهن بذلك، فقد تعارفوا على أنهن سيعشن لرعاية وتعليم الأطفال.

وأما أولئك اللائي رفض الحكام منحهن تصاريح بصفة نهائية، فسوف يقضين بقية حياتهن يكفرن عن ذلك بقسوة، ويؤدين الأعمال الخيرية، فبعضهن يرتدن الطرق الرئيسية السريعة إما لسلق الخضار في الماء وتقديمه للمارة كشراب، أو إبقاء النيران مشتعلة دائماً لإشعال الغلايين لمن يرغب في تدخين التبغ، ومن بينهن من يقسمن ألاّ يذقن طعاماً إلاّ ما يجدنه من فضلات غير مهضومة من الثيران والأبقار والجاموس، ويفعلن أشياء أكثر غرابة من ذلك.

وعندما يرى الحاكم هؤلاء المجتمعين مع النسوة المقدمات على حرق أنفسهن، حتى بتحريض من أقاربهن ومن الرهبان البراهمة، يفشل في إثنائهن عن قرارهن الملعون بالموت بهذه الطريقة الشريرة، وعندما يُلمح إليه سكرتيره بإشارة معينة، أنه تسلم رشوة، يسمح لهن في النهاية بفعل ما يردن، ويخبر في غضب كل الوثنيين المصطحبين بأنهم سوف يذهبون جميعاً إلى الشيطان.

وفور حصولهم على التصريح، تصدح كل أنواع الموسيقى، ومع أصوات الطبول والنايات وكل آلات الموسيقى الأخرى، يعودون جميعاً إلى منزل المتوفى ومن هناك، كما سبق لي القول، يصطحبون الجثة إلى حافة نهر أو خزان للمياه[1] حيث ستحرق.

ويقوم أقارب وأصدقاء الأرملة الضحية بتهنئتها على إقدامها على السعادة التي

(1) يقصد الكاتب بخزان المياه هنا الأرض الواطئة أو المحصورة بين مرتفعين وتختزن مياه الأمطار طبيعياً، «المترجم».

ستنالها في العالم الآخر، والفخر الذي سيستمده كل أقاربها من قرارها النبيل، فتتزين كما لو كانت في يوم عرسها، ويقتادونها في انتصار إلى المكان الذي ستحرق فيه، وتعلو ضجة صاخبة بالآلات الموسيقية وأصوات النسوة التابعات، وهن يغنين أناشيد الفخر لتلك التعيسة التي على وشك الموت، ويحرضها الراهب البراهماتي الذي يصاحبها على إظهار شجاعتها وعزمها، ويعتقد الكثير من الأوروبيين أنه لكي يُزال الخوف من الموت الذي يكرهه الإنسان بطبعه، فهم يعطون المرأة نوعاً من الشراب يفقدها إحساساتها، ويبعد كل الإدراك الذي تحدثه تجهيزات موتها، وإبقاء أولئك النسوة التعيسات على قرارهن يكون لصالح الرهبان البراهمة، لأن كل الأساور اللائي يرتدينها، في الأقدام والأرجل مع خواتمهن وأقراطهن، تؤول حقاً من حقوق البراهمة، الذين يبحثون عن هذه الأشياء بين الرماد بعد احتراق النسوة.

وهذه الأساور والحلقان والخواتم مصنوعة إما من الذهب أو الفضة، والفقيرات يرتدينها من النحاس أو الصفيح، وبالنسبة للجواهر فهن لا يرتدينها مطلقاً عندما يذهبن إلى الموت.

وقد رأيت نساء أحرقن بثلاث طرق مختلفة، وفقاً لعادات البلدان المختلفة، ففي مملكة «جوجارات» وحتى امتداد مدينتي «أجرا» و«دلهي» حدث فيها الآتي:

على ضفة نهر أو خزان ماء «طبيعي»، يُبنى نوع من الأكواخ الصغيرة مساحته حوالى اثنا عشر قدماً مربعاً، من البوص والحطب وتوضع معه أوعية للزيت والعقاقير الأخرى للتعجيل بعملية الإحراق، وتجلس المرأة نصف راكعة في وسط الكوخ وتسند رأسها على نوع من الوسائد الخشبية وتستند بظهرها إلى عمود خشبي رُبطت فيه من وسطها ـ ويقوم بذلك راهب براهماتي ـ خشية أن تهرب عند شعورها باللهب، وتحمل جثة زوجها على ركبتيها في هذا الوضع، وتلوك في فمها مضغة نباتية طوال الوقت.

وبعدما تبقى في هذا الوضع قرابة نصف ساعة، يخرج الراهب البراهماتي الذي كان بجوارها من الكوخ، فتنادي الرهبان في الخارج كي يشعلوا النيران

ويقوم بذلك فوراً الرهبان والأقارب والأصدقاء الحاضرون، ويقذفون في النيران بقدور الزيت حتى لا تتعذب المرأة كثيراً إذ تموت بسرعة. وبعدما تتحول الجثث إلى رماد يأخذ البراهمة ما يجدونه على شكل ذهب أو فضة أو نحاس أو صفيح منصهر، من الأساور والخواتم والحلقان، كحق خاص بهم، كما سبق أن قلت.

أما في مملكة البنغال فالنسوة يحرقن بصورة مختلفة، فالمرأة في هذه البلاد لا بد أن تكون فقيرة، إذا لم تأتي بجثة زوجها إلى ضفة نهر الغانج، كي تغسلها بعد موته، ولتستحم فيه قبل أن تحرق، وقد رأيتهن يأتين إلى نهر الغانج بعد رحلة دامت أكثر من عشرين يوماً.

وتكون الجثث بفعل مرور الوقت قد تعفنت، وانبعثت منها رائحة كريهة، وكانت هناك واحدة منهن قد أتت من الشمال، بالقرب من حدود مملكة بوتان، مصطحبة جثة زوجها، وتحملها في عربة، بينما رحلت هي طوال الطريق على قدميها دونما طعام حوالى خمسة عشر أو ستة عشر يوماً، حتى وصلت لنهر الغانج حيث غسلت جثة زوجها التي تفوح منها رائحة نتنة، واستحمت أيضاً، ثم أحرقت نفسها بتصميم أدهش الذين رأوها.

وقد كنت هناك حينئذٍ، إذ عبر مجرى نهر الغانج، وخلال منطقة البنغال كذلك كان هناك حطب قليل، وتذهب هاته النسوة لتتسولن قليلاً من الحطب على سبيل الصدقة لإحراق أنفسهن مع جثث أزواجهن، وقد أُعدت كومة حرق من أجلهن، تشبه السرير بوسادة من البوص والحطب الصغير، ومعها توضع قدور الزيت والسوائل الأخرى للمساعدة في إحراق الجسد بسرعة، وتتقدم الطبول والنايات والمزامير تلك المرأة الضحية، ومزينة بأبهى جواهرها تأتي وهي ترقص نحو كومة الإحراق، وتصعد فوقها وتأخذ وضع نصف الجلوس والركوع، وتوضع جثة زوجها على ركبتيها.

ويقوم أصدقاؤها وأقاربها، بإحضار أشياءهم لها، فواحد يعطيها خطاباً، والآخر قطعة قماش، والثالث زهوراً، والرابع قطعاً من الفضة أو النحاس، طالبين منها أن تسلم هذه الأشياء للأم أو الأخ أو القريب أو الصديق أياً من كان الشخص الميت الذي كانوا يحبونه أثناء حياته، وعندما ترى المرأة أن الموجودين لا

يقدمون لها المزيد، تسألهم إذا ما كان لديهم أية تكليفات أخرى لها ثلاث مرات، وإذا لم يجيبوها، تلف كل ما أحضروه في قماش حريري، وتضعها بين وسطها وبين ظهر جثة زوجها الميت، منادية الرهبان لإشعال النار في كومة الإحراق، فيقوم البراهمة والأقارب معاً بذلك. ويوجد في مملكة البنغال - كما لاحظت - كمية قليلة من الحطب. ولذا فحالما تموت هؤلاء النسوة ويحترقن قليلاً، يلقى بأجسادهن إلى نهر الغانج مع جثث أزواجهن حيث تأكلهم التماسيح.

ويجب ألاّ أنسى هنا عادة شريرة يمارسها الوثنيون في مملكة البنغال، إذ عندما تضع امرأة طفلاً ولا يرغب وليدها (كما يحدث غالباً) في الرضاعة من صدر أمه، يحملونه خارج القرية ويضعونه في قطعة من القماش، تُربط من أركانها الأربعة في أفرع الشجرة، ويترك هكذا من الصباح حتى المساء، وفي هذا الوضع يتعرض الطفل المسكين للغربان التي تنهشه وقد وجد بعضهم مفقوئي الأعين، وهذا هو السبب في رؤيتنا للعديد من الوثنيين في البنغال الذين ليس لهم سوى عين واحدة، والبعض الآخر الذي جرحت أعينهم أو تم فقدها، وفي المساء يؤخذ الطفل لاختباره إذا ما كان يرغب في الرضاعة.

وفي الليلة التالية وإذا ما تصادف أنه ظل على رفضه يؤخذ مرة أخرى في اليوم التالي، لنفس المكان، ويتكرر هذا لمدة ثلاثة أيام متوالية، بعدها يعد الطفل شيطاناً إذا ما استمر في رفضه لصدر أمه، فيلقوَن به إلى نهر الغانج أو أي نهر أو خزان مياه آخر يكون قريباً.

وفي الأماكن التي تكثر فيها القرود، لا يتعرض الأطفال المساكين للغربان بسبب أنه حالما تكتشف القرود عشاً لهذه الطيور تتسلق الشجرة وتقذف بالعش في جانب وبالبيض في الجانب الآخر.

وفي المقابل هناك بين الإنجليز والهولنديين والبرتغاليين بعض فاعلي الخير الذين يتعاطفون مع هؤلاء الأطفال التعساء، فيبعدونهم عندما يوضعون ويعلقون في الشجر، ثم يرعونهم حتى يكبرون، كما سبق لي أن رأيت مثالاً منهم في «هوجلي»، وكان ذلك يتم في الأماكن القريبة من مصانعهم.

وهيا نرى الآن تلك العادات على طول ساحل كوروманديل، عندما تقدم النساء للحرق مع جثث أزواجهن المتوفين، تحفر حفرة كبيرة عمقها تسعة أو عشرة أقدام ومساحتها خمس وعشرون أو ثلاثون قدماً، ويقذف فيها كثير من الحطب مع العديد من السوائل للتعجيل بحرقها، وعندما تسخن الحفرة جيداً، توضع جثة الزوج على حافتها.

عندئذٍ، تأتي زوجته وهي ترقص وتلوك مضغة في فمها ومصحوبة بكل أقاربها وأصدقائها ومع أصوات الطبول والكؤوس المعدنية، فتدور المرأة حينئذٍ ثلاث دورات حول الحفرة وعند كل دورة تحتضن أقاربها وأصدقاؤها وعندما تكمل الدورة الثالثة، يلقي الراهب البراهماتي بجثة المتوفى إلى النار، والمرأة وهي تعطي ظهرها للحفرة، يقوم الرهبان بدفعها فتسقط إلى الخلف فيقذف كل أقاربها بقدور الزيت والسوائل الأخرى من هذا النوع، كما سبق لي أن قلت، كي تحترق الأجساد بسرعة. وفي معظم أجزاء ساحل كورومانديل لا تقوم المرأة بحرق نفسها مع جثة زوجها المتوفى وإنما تسمح لنفسها أن يضعوها حية معه في حفرة، يقوم البراهمة بحفرها في الأرض لأعمق من طول الإنسان بقدم واحد، وهم يختارون بقعة رملية عموماً، وعندما ينتهون من وضع الرجل والمرأة في الحفرة، يملأ كل واحد من أصدقائهما سلة من الرمال ويلقيها على الأجساد حتى تمتلىء الحفرة وتتكون الرمال فوقها بنصف قدم أعلى من سطح الأرض، ثم يرقصون ويتقافزون فوقها حتى يتأكدوا أن المرأة قد خُنقت.

جورج فوكس يزور ليتش فيلد

«1651 افرنجي»

* جورج فوكس

«فوكس» مؤلف هذا النص، هو مؤسس جماعة الأصدقاء «المرتجفون»[1].

(1) جماعة الأصدقاء أو «المرتجفون» أسسها فوكس 1648 ـ 1650 افرنجي تكريساً لمبادىء السلام وبساطة المظهر والثياب والتواضع واجتناب الألقاب، «المترجم».

. . وهكذا بعدما عدت للحرية مرة أخرى واصلت ـ كما كنت من قبل ـ خدمتي في سبيل الله، وبينما كنت أسير في جماعة من بعض الأصدقاء، رفعت رأسي فلمحت منزلاً ذا ثلاث قباب عالية، وهي ما تضايقني في حياتي، فسألتهم ما هو هذا المكان، فقالوا إنه ليتش فيلد، وعلى الفور ألهمتني كلمة الله أن أذهب هناك، هكذا ونحن نتوجه إلى المنزل الذي نقصده، أمرت الأصدقاء الذين كانوا معي بأن يذهبوا إليه بدوني ولم أخبرهم بالمكان الذي سأذهب إليه أنا، وما إن ذهبوا حتى خطوت بعيداً وتجولت بعيني عبر أسوار الحقول والترع إلى أن لمحت خلال ميل من ليتش فيلد، وفي حقل كبير، مجموعة رعاة يرعون أغنامهم، وكان الرب قد أمرني فجأة أن أفك رباط حذائي وأن أخلعه، ترددت قليلاً إذ كان الوقت شتاء، إلا أن كلمة الرب كانت مثل اللهب في داخلي وهكذا خلعت حذائي، وقد أُمرت بأن أعطيه للرعاة، وطلبت منهم ألاّ يدعوا أحداً يأخذه إلاّ إذا دفع ثمنه، فاضطرب الرعاة المساكين ودهشوا.

ثم مشيت قدماً حوالى الميل حتى أتيت إلى المدينة وحالما دخلتها، جاءتني كلمة الرب مرة أخرى أن أصرخ، «اللعنة على المدينة الدموية ليتش فيلد». وبمثل ذلك جلت الشوارع صارخاً في صوت عال «اللعنة على المدينة الدموية ليتش فيلد».

ولما كان اليوم هو يوم السوق، ذهبت هناك جيئة وذهاباً في مختلف أجزائه ووقفت عدة وقفات كنت أصرخ كالسابق «اللعنة على تلك المدينة الدموية ليتش فيلد» ولم يقبض عليّ أحد، ولكن بينما كنت أمضي صارخاً بهذا الشكل عبر الشوارع خُيل إليّ أن هناك قناة من الدم تفيض عبرها، وظهر ميدان السوق كبركة من الدماء وفي النهاية حضر بعض الأصدقاء والناس الطيبين وقالوا «يا للأسف يا جورج» أين حذاؤك؟ فأخبرتهم ألاّ أهمية لذلك.

والآن عندما أفصحت عما يقودني وبينت نفسي، خرجت من المدينة في سلام، ثم عدت إلى الرعاة وأعطيتهم بعض النقود، واستردت حذائي منهم مرة ثانية، لكن اللهب الإلهي كان متقداً في أقدامي وفي جسمي كله لدرجة لم أهتم معها بارتداء حذائي بعد ذلك.

وكنت عند موقف ما يجب، وما لا يجب، حتى شعرت بالحرية تأتيني من الله بأن أفعل ذلك، إذ حينما أتيت في النهاية إلى ترعة وغسلت أقدامي، انتعلت حذائي من جديد، بعد ذلك أحسست بإجلال عميق فلماذا ولأي سبب؟.

كان يجب أن أبعثَ للصراع ضد هذه المدينة، وأن أدعوها المدينة الدموية فبرغم أن البرلمان «المجلس النيابي» كان يسيطر على المدينة مرة، والملك مرة أخرى، وقد أُهرق الكثير من الدماء في المدينة خلال الحروب بينهما إلاّ أن ذلك لا يمكن اعتباره اتهاماً للمدينة، ولكن فيما بعد فهمت أنه في أثناء حكم الإمبراطور ديوكليزيان استشهد آلاف المسيحيين في ليتش فيلد وهكذا كان يجب أن أمضي مرتدياً جواربي في نهر دمائهم ووسط بركة دمائهم في السوق فربما أبعث ذكرى دماء هؤلاء الشهداء التي سالت لأكثر من ألف سنة سابقة وترقد باردة في شوارعهم.

طقوس دينية في دانكيرك

«1662 افرنجي»

*** جون جرين هالف**

. . . وأخبرني واحد من رجالنا الإنجليز الذين عاشوا في دانكيرك ثلاث أو أربع سنوات أن هؤلاء الرهبان يعيشون ـ في الغالب ـ فقط على عطايا المحسنين، وقد رأيت بعضاً من الرهبان المتسولين يتجولون في الشوارع كل اثنين معاً، ومع كل واحد سلة في ذراعه، يدخلون المحلات والبيوت، ولاحظت كيف أنهم يعاملون باحترام كبير ويرفع الناس مع جميع الطبقات قبعاتهم لهم ـ رغم أنهم متسولون ـ عند مرورهم، وهم يدققون بشدة في كل أمور دينهم، وقد أخبروني أن هؤلاء الرهبان يقومون كل يوم بتغطية مائدتهم بقطعة قماش مهلهلة ولكن نظيفة، ويضعون عليها ملحاً فقط، وينتظرون ما يجود به عليهم العطاؤون ويقومون بذلك مناوبة، ويعدون منه ـ كَثرَ أم قَلَّ ـ عشاءهم.

ولم يحدث أبداً أن اشتكى أولئك الذين سيقومون بالشحاذة في اليوم التالي.

فأسلوبهم ألاّ تسأل وإنما أن تقف ساكناً وأن تأخذ ما تُعطَى، وإذا ما تصادف أن تناولوا وجبات صغيرة لعدة أيام - وذلك نادراً ما كان يحدث - وعضهم الجوع إلى منتهاه، فلديهم جرس على قمة ركن من أركان معبدهم يسمى جرس الجوع، الذي بعدما يغطون مائدتهم الخاوية أولاً ويعدون عليها الملح، يفتحون باب صالتهم على اتساعه، ويخبئون أنفسهم - بدافع الخجل - داخل صوامعهم بعيداً عن الرؤية، يقومون بقرع الجرس عالياً، وعندما يُسمع الجرس في الشوارع يُحدث نفس التأثير الذي يحدثه جرس الحريق إذا سُمع في مدننا، إذ يهرع الناس إلى الشوارع يتصايحون: «يااللمسيح يالمريم العذراء، إنه جرس الجوع، يااللحزن والحسرة على القديسين» بفزع عظيم كما لو كان عقاب سادوم[1] على وشك أن يحل بالمدينة لإهمالهم شؤون قديسيهم، لذا ومن أغنى الطبقات، تقوم السيدات - بسرعة - بإرسال خدمهن، واحدة تجري بالجبن وأخرى برغيف وثالثة بطبق من الزبد وأخرى تحمل نصف كعكة كبيرة، وواحدة تجري بقطعة قائمة من اللحم المشوي إلخ، وجميعهن يدخلن إلى صالة الدير فيضعن ما يحملنه فوق المائدة ثم يخرجن ثانية. في هذه الأثناء يتلصص أحد الرهبان عبر فتحة صغيرة، وعندما يرى أن المائدة قد تم إعدادها يخرج ويغلق أبواب الصالة خجلاً، كيما يعود - الذين يأتون بعد ذلك - ثانية ومعهم لحومهم موفرين اللحم والقرض معاً، وعندما يذهب الجميع، يزحف الرهبان الجوعى من صوامعهم ويسقطون عليها.

في قمة السقف المقُبب للكاتدرائية - العالي جداً - توجد قبة أو فتحة دائرية ضخمة، مستديرة وواسعة كحجر الطاحونة، في هذه الفتحة عملوا وميضاً من برق ناري كما لو كانت السماء قد فُتحت هناك، ومنها تهبط حمامة حية بيضاء كاللبن، بواسطة بكرة يتدلى منها خيط رفيع مربوط بأجنحتها، وينتشر ذيلها ويمتد بعصاوين صغيرين جداً وبيضاوين عند الظهر، رُبط إليهما ريشها بواسطة خيوط بيضاء، ويمكن إدراكها بصعوبة.

(1) سادوم: واحدة من مدينتين في فلسطين - الأخرى عمورة - أنزل الله بهما غضبه فخسف بها الأرض وفيها عاش قوم لوط الذين شاعت فيهم الفاحشة وجاء ذكر ذلك في القرآن، «المترجم».

ولكن لأنني كنت واقفاً قريباً جداً فقد ميزتها، وإذا ما تم ذلك، والحمامة تبدو بديعة، كما يجب أن تكون في هبوطها تدريجياً، وعندما وصلت بالقرب من رأس الراهب وقفت وحومت فوقهم لمدة بسيطة، وهم ما زالوا ينشدون «فلتأت أيها الروح القدس».. إلخ، ثم جذبت إلى أعلى تدريجياً إلى القبة بعيداً عن مرمى البصر وبعد ذلك انتثرت ألسنة متفرقة من اللهب، هبطت مشتعلة فوق رؤوس الرهبان، لكنهم بدلاً من أن يتلقوها، تباعدوا نحو اليمين واليسار، وتركوها تسقط على الأرضية، كي يبعدوا رؤوسهم الحليقة، وقد أدركت أن هذه الألسنة أوراق مطلية بمادة فوسفورية لكي تجعلها لامعة أكثر. وعند سقوط هذه الألسنة، انطلقت صرخة داخل الكنيسة حتى إن المدينة جلجلت من جديد، وفي النهاية، نثروا رذاذ الماء المقدس الذي سقط في قطرات على الناس لتعميدهم وتقديسهم، وهكذا انتهت هذه العروض الحمقاء عند الظهر.

حريق لندن

«2 سبتمبر/ الفاتح 1666 افرنجي»

*** صامويل بيبس**

في يوم 2 سبتمبر عام 1666 افرنجي وكان يوافق عيد اللوردات، استيقظت إحدى خادماتنا في آخر الليلة الماضية استعداداً لعيدنا اليوم، وقد نادت جان علينا حوالى الساعة الثالثة صباحاً لتخبرنا عن حريق ضخم رأوه في المدينة، وهكذا نهضت وارتديت ملابس المساء وذهبت إلى نافذتها ورغم أنه يبدو فيما وراء حي مارك لين على أبعد تقدير، لكن لأنني لم أتعود على مثل هذه الحرائق - إذ كانت باهتة - اعتقدت أنها تبعد بعداً كافياً وهكذا عدت للسرير وللنوم مرة أخرى، وعند حوالى الساعة السابعة نهضت من جديد لارتداء ملابسي، وهناك نظرت عبر النافذة فرأيت النار ليست بالكثرة التي كانت عليها وأبعد قليلاً، ثم ذهبت إلى دورة المياه لأرتب الأشياء في مواضعها بعد نظافة الأمس.

ومرة فمرة كانت جان تأتي وتخبرني أنها سمعت أن أكثر من 300 منزلاً قد

دمرها الحريق هذه الليلة بالنار التي رأيناها، وأنها الآن تشتعل عبر شارع فيش بجوار كوبري لندن، فأعددت نفسي على الفور ومضيت إلى البرج وارتقيت أعلى مكان فيه، وصعد معي السيرجي. روبنسونز الابن الأصغر، وهناك رأيت المنازل عند ذلك الطرف تشتعل فيها النيران كلها، ونار ضخمة لا نهاية لها عند هذا الطرف وعند الجانب الآخر للكوبري، الذي أقلقني كثيراً - من بين الناس الآخرين - من أجل ميشيل الصغير المسكين، وعزيزتنا سارة عند الكوبري.

وهكذا هبطت وقلبي يخفق هلعاً إلى ضابط البرج، الذي أخبرني أن الحريق بدأ هذا الصباح في مخابز الملك عند بورنج لين وأنه قد أحرق كنيسة سانت ماجنيس تماماً ومعظم أجزاء شارع فيش ستريت، وهكذا هبطت لحافة النهر وأخذت قارباً ومررت بالكوبري وهناك رأيت حريقاً مؤسفاً. فكل منزل ميشيل المسكين وحتى منطقة «الأولد سوان» قد احترقت بهذه الطريقة والنار تزداد تقدماً، حتى إنه في وقت قصير وصل الحريق منطقة استيل يارد بينما كنت هناك وكل شخص يحاول جاهداً إبعاد أمتعته ويقذفها إلى النهر أو يأتي بها إلى القوارب الخفيفة الراسية.

وقد مكث الناس المساكين في بيوتهم حتى وصلت النار إليهم، وحينئذ هرعوا إلى القوارب أو تدافعوا فوق درجات السلالم المزدوجة على حافة النهر من سلم لآخر، ومن بين الأشياء الأخرى، لاحظت الحمامات المسكينة وقد أكرهت على مغادرة أعشاشها، لكنها حومت حول الشرفات والنوافذ حتى إن بعضاً منها قد احترقت أجنحته وسقط صريعاً، وبعدما بقيت هكذا في مدى ساعة من الزمان، رأيت غضب النيران في كل مكان، ولا أحد أمام ناظري يسعى لإخمادها وإنما يسعون لإبعاد أمتعتهم، ويتركون ما عدا ذلك للنيران.

وبعدما رأيت الحريق يصل حتى منطقة استيل يارد والرياح تتعاظم شدتها وتدفعه نحو المدينة، وكل شيء بعد طول هذا الجفاف أصبح قابلاً للاشتعال حتى حجارة الكنائس، وبين الأمور الأخرى كذلك القبة التي تعيش بجوارها السيدة هورسلي اللطيفة، والمسؤول عنها صديق الدراسة إلبورو، وقد أحرقتها النيران

عند قمتها واستمر اشتعالها حتى سقطت حطاماً، فذهبت إلى هوايت هول مع أحد السادة الذين رغبوا في الخروج من البرج لمشاهدة الحريق من قاربي ومن هناك إلى حجرة الملك الخاصة في المحراب، حيث التف حولي الناس فصرحت لهم بتقرير خيّب آمالهم جميعهم.

ورفعوا الخبر للملك فطلبني، ووصفت للملك ولدوق يورك ما رأيت وأنه إذا لم يصدر جلالته أمراً بإزالة المنازل أمام النار، فلا شيء قادر على إيقافها. فانزعجوا كثيراً، وأمرني الملك بالذهاب إلى سيدي اللورد مايور وآمره بألاّ يُبقي على أي بيت وإنما يزيل كل شيء أمام النار، وأمرني الدوق أوف يورك أن أخبره بأنه إذا ما احتاج لجنود إضافيين فلسوف يمده بهم، وهكذا فعل سيدي اللورد آرلينجتون - فيما بعد - كسرٍ عظيم.

وهنا بمقابلتي مع الكاتب كوك، ذهبت في عربته التي أعارها لي، ومعي «كريد» إلى «بولز»، ومن هناك سرنا بطول شارع «واتلنج» بقدر ما استطعت، وكان كل مخلوق يأتي هارباً محملاً بالمتاع رغبة في إنقاذه، ومرضى محمولون هنا وهناك على الأسرة، وأمتعة جيدة غير عادية تحمل في عربات وعلى الظهور. في النهاية قابلت سيدي اللورد مايور في شارع «كانينج» مثل رجل مُنْتَهٍ وحول رقبته منديل، وعند سماعه رسالة الملك صرخ مثل امرأة يكاد يغمى عليها. «يا ربي ماذا يمكنني أن أفعل، لقد قُضي عليَّ، فالناس لن يطيعونني، لقد كنت أهدم البيوت، لكن النار كانت تلتهمها أسرع مما كنا نفعل»، وأنه لم يعد بحاجة لجنود آخرين، وبالنسبة لنفسه فهو يجب أن يذهب ويستعيد حيويته، بعدما ظل في العمل طوال الليل.

وهكذا تركني وتركته، وعدت للمنزل وأنا أرى كل الناس مضطربين، ولا أحد يستخدم أية وسيلة لإطفاء النار، والبيوت كذلك شديدة الكثافة فيما بينها وتمتلىء بالمواد القابلة للاشتعال كالزفت والقطران في شارع التايمز ومخازن الزيت والخمر والبراندي والأشياء الأخرى، وهنا رأيت السيد إسحاق هوبلون، ذاك الرجل الأنيق، في ملابس رائعة ومتسخة عند باب منزله في «داوجيت»

يتسلم بعضاً من أمتعة أشقائه الذين التهمت بيوتهم النيران، وقال لي: إنه نقل اثنين بالفعل ويخشى - كما ثبت فيما بعد - أنهم قد يضطرون للانتقال من منزله في وقت قصير أيضاً، وهو أمر مؤسف أن ترى الكنائس كلها ممتلئة بالمتاع وبالناس الذين من المفترض أن يكونوا موجودين في سكينة بهذه الكنائس في هذا الوقت.

وحالما تناولنا الطعام، خرجت أنا و «مون» وسرنا خلال المدينة، كانت الشوارع غير مملوءة بشيء سوى الناس والخيول والعربات المحملة بالأمتعة ومستعدة لتتخطى كل منها الأخرى، ونقل الأثاث من منزل احترق إلى منزل آخر، وهم الآن ينقلونها من شارع كانينج - الذي كان يتلقى نفس الأمتعة في الصباح - إلى شارع لومبارد وما بعده. وبين هؤلاء، رأيت الآن صانع المصوغات الصغيرة «ستوكس» الخاص بي، يتسلم أمتعة أحد الأصدقاء، الذي احترق منزله نفسه بعد يوم من ذلك، وافترقنا عند «بولز» هو إلى منزله، وأنا إلى «بولز وارف»[1] حيث حددت قارباً لملازمتي، وأخذت فيه السيد كاركاس وأخيه، اللذين قابلتهما في الشارع وحملتهما إلى أسفل الكوبري وأعلاه مرة وأخرى، لمشاهدة النيران التي تزايدت الآن بصورة أكثر، سواء في الأول أو الآخر، ويبدو أنه لا توجد وسيلة لإيقافها.

وتقابلت مع الملك ودوق يورك في قاربهما، وصاحبتهما إلى كوين - هيث، وهناك طلب السير ريتشارد براون لمقابلتهما، وكانت أوامرهما هدم المنازل بأسرع ما يمكن فقط، وكذلك أسفل الكوبري بجوار حافة النهر، لكن القليل كان يمكن فعله، إذ كانت النيران تأتي نحوهم مسرعة، وكانت هناك آمال طيبة في إيقاف الحريق عند «الثري كراينز» فوق الكوبري وعند «باتولفز وارف» أسفل الكوبري لو استخدموا الحذر والعناية، لكن الرياح حملت النيران إلى المدينة، إذ كما نعلم أن النيران لا تفعل فعلها بجوار النهر كما تفعله هناك.

---

(1) رصيف شحن بمنطقة «بولز» في ميناء لندن.

وكان النهر مملوءاً بالقوارب والصنادل(1) التي تحمل الأمتعة، وأمتعة جيدة تسبح في الماء، وما لاحظته - فقط - كان قارباً أو صندلاً من ثلاثة كانت تحمل أمتعة منزل فيها وكان فيه هو أمتعة اثنين من العذارى.

وحيث إنني شاهدت بما فيه الكفاية بقدر ما أستطيع، عدت إلى هوايت هول بقاربي، ومن هناك سرت إلى منتزه «سانت جيمس» حيث قابلت زوجتي و «كريد» و «وود» وزوجته، ومشينا نحو قاربي، وركبناه عائدين للنهر من جديد، واتجهنا إلى الحريق هنا وهناك، وما زال يتزايد والريح تشتد.

واقتربنا من النار بقدر ما نتحمل من دخان، بطول نهر التايمز، ووجه الإنسان في الرياح يكاد يحترق تقريباً من رشَاشَات النيران المتساقطة، وهذه حقيقة، حتى إن البيوت كانت تحترق بهذه الرشاشات المتساقطة وبشرر النيران. ثلاثة أو أربعة بيوت - بل خمسة أو ستة - احترق بعضها من بعض.

وعندما لم نستطع أن نتحمل أكثر من ذلك فوق سطح الماء، ذهبنا لمحل يبيع المشروبات على الضفة في مقابل الـ «ثري كراينز» ومكثنا هناك حتى حل الظلام تقريباً وشاهدنا الحريق يزداد، وبينما يتزايد الظلام - يبدو الحريق أكثر فأكثر - في الأركان وفوق القباب وبين الكنائس والبيوت وعلى مدى إمكان أبصارنا فوق تل المدينة، في لهيب مفزع دموي مدمر، ليس لهيباً نقياً يتصاعد من نار عادية.

وقد سبقتنا باربرا وزوجها، بينما بقينا نحن، وبعدما أظلمت تماماً رأينا النار كقوس ضخم من اللهب يمتد من هذا الجانب إلى الجانب الآخر من الكوبري وفي قوس أعلى التل يمتد طوله لأكثر من ميل، وجعلتني تلك الرؤية أبكي، فالكنائس والمنازل وكل شيء ابتلعه الحريق واللهب في الحال، وكانت ألسنة اللهب تصدر أصواتاً مخيفة ومعها أصوات انهيار المنازل عند سقوطها.

---

(1) الصندل: قارب خفيف لحمل البضائع من السفن إلى داخل الموانىء، ولا يحتاج إلى عمق مائي كبير، «المترجم».

الصقيع الكبير

«يناير/ أي النار 1684 افرنجي»

* جون إيفلين

في الرابع والعشرين من يناير عام 1684 افرنجي. ما زال الصقيع مستمراً أكثر شدة فأكثر، وقد امتلأت لندن بالمظلات والخيام في الشوارع الرئيسية كما لو كان الأمر في وسط المدينة أو في معرض مستمر، فجميع أنواع الحرف والمحلات المجهزة المملوءة بالسلع، وحتى المطبعة حيث يستمتع الناس والسيدات برؤية أسمائهم مطبوعة وتحتها تاريخ اليوم والسنة عند طباعتها على ضفاف نهر التايمز، كلها موجودة، وهذه الروح سادت بشدة حتى قُدِّر أن ما يكسبه القائم بالمطبعة يصل إلى خمسة جنيهات في اليوم من أجل طباعة سطر واحد فقط، وبسعر ستة بنسات للاسم بالإضافة إلى ما يحصل عليه من كتابة القصائد وغيرها، وتقاطرت العربات الآن من «ويستمنستر» نحو المعبد ومن الأماكن العديدة الأخرى، كانوا يهبطون السلالم جيئة وذهاباً، وفي الشوارع أيضاً كانوا على الزلاقات يتزحلقون بها، بالإضافة إلى أنه كان هناك كذلك عراك الثيران وسباق الحصان والعربة، وألعاب العرائس واستراحات الترفيه والأطعمة والمشروبات وأماكن اللهو، وكل ذلك كما لو كانت الناس تحتفل بعيد (باخوس)[1]، في النصر أو المهرجانات على ضفاف النهر، بينما كان هناك قضاء قاس تمر به الأرض: فالأشجار لم تكن فقط تنشطر من ضربات الصواعق وإنما أيضاً كان البشر يموتون والماشية تنفق في مختلف البقاع، والبحار نفسها قد أغلقتها الثلوج فلم تعد السفن تستطيع الخروج أو الدخول، والأسماك والطيور، وكل مظاهر الحياة النباتية والخضراء تذوي كلياً، وقد تحطمت العديد من منتزهات الغزلان، وأضحت كل مصادر الوقود نادرة، لدرجة أن الحفاظ على مجرد الحياة كان يحتاج إلى عناء ضخم.

---

(1) باخوس إله الخمر عند الإغريق، ويقصد أن الناس كانت في لهو واستمتاع شديدين «المترجم».

ولـم يكن هذا الطقس السيء أقل شدة في أغلب بقاع أوروبا وحتى أسبانيا النائية وأبعد الأقاليم جنوباً، وفي لندن وبسبب برودة الهواء المتزايدة التي منعت تصاعد الدخان، امتلأ الجو بالغبار الكربوني لدرجة أننا لـم نستطع الرؤية عبر الشوارع وقد امتلأت رئاتنا بجزئيات الغبار الكثيفة والمتزايدة التي تثقل الصدر، حتى إن المرء ليتنفس بصعوبة، ولـم يكن هناك مياه يمكن الحصول عليها من الأنابيب أو الآلات ولـم يستطع صانعو البيرة ولا رجال الحرف الأخرى العمل، وكل لحظة كانت تحفل بالحوادث الخطيرة وغيرها.

حب الإنجليز للمقاتلة.

«1695 افرنجي»

*** ميسون دو ڤالبورج**

كل شيء أشبه بالقتال، محببٌ للرجل الإنجليزي، فالمارة يتوقفون إذا ما تعارك صبيان صغيران في الشارع، وتُشكِّل دائرة حولهما في لحظة، ويضعون الاثنين في مواجهة بعضهما حتى يمكن أن يتلاكما، وعندما يبدأ العراك، يخلع كل واحدٍ منديل رقبته «الكوفية» ومعطفه القصير ويعطيهما لأحد الأشخاص الواقفين ليحفظهما له، ثم يبدآن في التلويح بقبضتيهما في الهواء، وتُوجَّه الضربات نحو الوجه ويركل كلٌّ منهما مقدمة رِجْل زميله ويشدان شعر بعضهما البعض،والذي يلقي بالآخر أرضاً قد يوجه له لكمة أو اثنتين قبل وقوفه وليس أكثر من ذلك، ثم يترك الصبي ينهض وغالباً ما يضطر الآخر لملاكمته ثانية كلما رغب في ذلك.

وأثناء العراك تشجع حلقة المشاهدين الصبيين المتقاتلين بمتعة قلبية كبيرة، ولا يفرقان بينهما أبداً أثناء القتال وفقاً للقواعد المتعارف عليها، وهؤلاء الواقفون ليسوا فقط فتياناً أو حمالين أو رعاع، وإنما من كل أنواع البشر، فالبعض يندفع من بين الجمهرة كيما يرى بشكلٍ أوضح، والبعض الآخر يصعد فوق طاولات البيع، وقد يودّ الجميع استئجار أماكن لو أقيمت منصة في هذه اللحظة، والأم

والأب للصبيين يتركانهما للعراك مثل الباقين تماماً، ويؤثر فيه ذلك الذي ينسحب أو يخرج مهزوماً.

وهذا الاقتتال أقل انتشاراً بين الرجال دون الصغار وإن لم تكن نادرة، إذ لو أن حوذياً اختلف حول أجره مع أحد السادة الذين يستأجرونه وطلب السيد أن يقاتله لحسم الخلاف، يقبل الحوذي بكل رضى، فيقوم السيد بسحب سيفه ويضعه في محل ما مع عصاته وقفازيه وربطة عنقه ثم يتلاكمان بالطريقة التي أوضحتها آنفاً، ولو هُزم الحوذي بوضوح، وذلك دائماً ما يحدث على وجه التقريب، يُعد ذلك سداداً للأجرة، وأما لو كان هو الفائز، فعلى المهزوم أن يدفع المبلغ الذي اختلفوا عليه.

وذات مرة رأيت المرحوم دوق جرافتون في ملاكمة بالشارع العام مع مثل هذا الزميل، الذي أشبعه ضرباً مفزعاً، أما في فرنسا فنحن نعاقب أمثال هؤلاء الأوغاد بعصينا وأحياناً بظهر سيفنا،ولكن في إنجلترا لا يفعلون ذلك أبداً فهم لا يستخدمون السيف ولا العصا ضد إنسان أعزل، ولو قام أي غريب سيء الحظ بسحب سيفه - إذ إن الإنجليزي لا يفكر في هذا - بوجه إنسان أعزل فلسوف يجد مئة من الناس فوقه في لحظة.

شروط الحياة
فوق ظهر سفن الغليون الفرنسية
«1703 - 1704 افرنجي»

*** جـون بيـون**

. . . لأنني عملت كاتباً لعدة رحلات على ظهر واحد من الغليونات، اسمه «لاسوبيرب» أتاح ذلك فرصة كافية لي، كي أعلم حقيقة العلاقات التالية، لكن قبل أن أبدأ في توضيح المعاناة والبؤس الذي يعمل تحت وطأته المساكين، سوف أقدم وصفاً مختصراً لهذه السفينة.

الغليون سفينة مسطحة طويلة ذات سطح واحد، رغم أن بها شراعين، إلاّ أن هذه الغليونات تستغل استخدام المجاديف عموماً، لأن بنيانها بهذه الصورة لا يجعلها تتحمل البحر العنيف ولذلك فأشرعتها بلا نفع في معظم الأحيان، ما لم تكن في دورية، عندما تكون بعيدة عن مرأى الشاطىء، حينئذ خشية أن يفاجأوا بطقس سيء، يقومون باستخدامها بأفضل طريقة.

يوجد خمسة عبيد لكل مجداف، كان واحداً منهم تركياً وضعوه عند الطرف الأعلى للمجداف إذ كان أقوى من المسيحيين بصفة عامة ولكي يجدف بقوة أكثر، كان هناك 300 عبد في مجموعهم، و 150 رجلاً ما بين الضباط والجنود والبحارة والخدم، وهناك عند مؤخر الغليون حجرة على الشكل الخارجي لحوض السفينة، خاصة بالقبطان، له فقط في الليل وأثناء الطقس الرديء، ولكن في أوقات النهار شائعة للضباط وللكاتب. وكل باقي البحّارة - عدا مساعدي الضباط إذ يستريحون في أماكن أُخرى مجهزة - يتعرضون فوق سطح السفينة لحرارة الشمس اللافحة نهاراً، وللرطوبة والزمهرير ليلاً، وتوجد هناك حقاً نوع من الخيمة معلقة في حبل من المقدمة للمؤخرة توفر مأوى بسيطاً في الطقس المعتدل، أما عند هبوب ريح أو عاصفة فهي تُستبعد، لأن الغليون لا يتحملها فقد تسبب فقد التوازن.

وفي شتاءي عام 1703 ـ 1704 افرنجي كنا نحرس شواطىء «موناكو» و«نيس» و «جزر الأنتيب»، ولم تستطع تلك المخلوقات التعسة أن تتمتع بالميزة المعتادة من الليل الذي يضع نهاية لتعب وعمل النهار، إذ تتعرض للرياح وللجليد وللبرد ولجميع المتاعب الأخرى الخاصة بهذا الفصل، وكانت المتعة الوحيدة التي تمنوها هي حرية التدخين ولكن عند استحالة العقاب بالضرب على الأقدام تكون العقوبة البديلة هي منع التدخين.

لأن السفينة صغيرة لمثل هذا العدد، نجم عن ذلك تزاحم الرجال عليها. ومع العرق المستمر الذي يسيل من أجسامهم أثناء التجديف والملابس القليلة المسموح بها، يتخيل الإنسان بسهولة تكاثر ووفرة الحشرات بالرغم من كل العناية

التي يمكن اتخاذها، إلا أن هذه الغليونات تمتلىء بالقمل وغيره، التي تعشش في طيات ملابسهم وثناياها، تريح في الليل القائمين، على ضربهم وتعذيبهم بالنهار.

والمصرح به لهم طوال العام من الملابس هو قميصان من القماش الرديء وسترة قصيرة من الكتان الأحمر مفتوحة عند كلا الجانبين وحتى فتحات الذراع والأكمام أيضاً مفتوحة ولا تكاد تصل إلى أكواعهم، وكل ثلاث سنوات نوعاً من العباءة الرديئة وغطاء رأس صغير ليحمي رؤوسهم التي يضطرون لحلقها تماماً كعلامة على الضعة، وبدلاً من السرير يسمح لهم أصحاء أو مرضى بلوح من الخشب عرضه قدم ونصف، وهؤلاء الذين يتشرفون لسوء الحظ بالنوم قريباً من الضباط لا يجرؤون على استمرار الحركة بأكثر من مد اليد طلباً للراحة رغم عذابهم من الحشرات، خشية صلصلة قيودهم وإيقاظ أي منهم مما يجلب عليهم عقاباً أكثر قسوة من عض هذه الحشرات.

ومن الصعب أن نعطي وصفاً دقيقاً لآلام ومشاق العبيد الذين يعملون في البحر، خاصة خلال الرحلات الطويلة، فالتعب من جذب المجداف شيء غير عادي. إذ يجب أن يقفوا لسحب ضرباتهم، ثم يهبطون للخلف ثانية تقريباً على ظهورهم بكثرة في كل الفصول، لدرجة أن العرق يسيل حتى أطرافهم المتعبة.

وخشية أن يفشلوا - كما يحدث لهم غالباً بسبب الإعياء - يوجد هناك لوح خشبي يمر عبر منتصف السفينة معين عليه بصفة مستديمة ثلاثة آمرين - والآمر ضابط يماثل رئيس البحارة في سفن جلالة الملكة - الذين حين يجدون أو يعتقدون أن هناك مجدافاً لا يتلامس مع الآخرين ودون بحث عما إذا كان ذلك ناتج عن ضعف أو عن كسل يقومون بلا رحمة بإنزال عصاً حديدية على ذلك الرجل الذي يشكون فيه، ولأن هذه العصا الحديدية طويلة فغالباً ما يصل أثرها إلى اثنين أو ثلاثة أبرياء في جوار هذا الرجل، ولكونهم عراة أثناء التجديف تطبع كل ضربة آثارها الواضحة التي تَنُم عن وحشية المنفذ.

ومما يضيف إلى تعاستهم أنه لا يسمح لهم بإبداء أدنى علامة استياء أو

شكوى التي هي أقل وآخر ملجأ للبؤساء، وعلى العكس، يجب عليهم أن يبذلوا أقصى جهدهم لاستنفاذ قوتهم المتبقية، وأن يحاولوا باستسلامهم تهدئة غضب هؤلاء الوحوش الثائرة، الذين يتبع ضرباتهم عادة سيلٌ من الشتائم والسباب المقذع، وما إن يصلوا لأي ميناء حتى يتزايد عملهم بدلاً من أن ينتهي، فالعديد من الأعمال الشاقة، سابقة لإلقاء المرساة، ينتظر تأديتها منهم وهي في الغليون أصعب منها في السفينة.

وحيث إن مهارة الآمر الرئيسية تتبدى في مهارة إلقاء المرساة بدقة، ولأنهم يعتقدون أن الضربات هي روح العمل وحياته، حينئذ لا تسمع شيئاً سوى صرخات وآهات لبعض الوقت، ولأن أذرع العبيد المساكين مشغولة في تنفيذ أوامره، نجد ذراعيه تدربتا بمهارة على سياطهم، ولكي تُبقي على قوتهم في ظل كل هذه الصعوبات - خلال المرحلة - فهم يعطون كل رجل نصيبه من البسكويت عند الساعة الثامنة من كل صباح، الذي يحصلون منه على كفايتهم بالفعل وهو من النوع الجيد، وفي العاشرة يقدمون قدراً من الزيت والبازلاء أو الفول وغالباً متعفن وحامض، وأسميه حساء وفقاً لاستخدامهم، بالرغم من أنه ليس سوى قليل من الماء الساخن مع حوالى دستة حبات من البازلاء أو الفول تطفو فوق سطحه، وأثناء العمل يأخذون وعاء من الخمر يعادل ثلثي وعاء البينت[1] الإنجليزي، صباحاً ومساءً.

وعندما تُلقي السفينة مرساها يسمح لكل الذين يحملون نقوداً بشراء اللحم وبالنسبة للتركي الذي يترأس قيادة المجداف، وهو ليس مقيداً، فهو عادة الشخص الذي يستخدم في مثل هذه الأمور، كي يتابع طهو اللحم في المطبخ، لكنني غالباً ما رأيت طاهي القبطان، وهو رجل ذو انفعالات شريرة، يأخذ قِدر المساكين بدعوى أنه يعيقه، ويكسره أو يقذفه فوق ظهر السفينة، في حين يتهالك المساكين أعياءً لحاجتهم إلى بعض التنشيط، ولا يجرؤون على أكثر من الغمغمة أو

(1) البينت: مقياس إنجليزي خاص بالسوائل ويساوي $^1/_8$ من الجالون. «المترجم».

الشكوى، وحقيقة لم يكن ذلك معتاداً، إلاّ إذا تصادف أن يكون الطاهي شريراً، وهي نوعية منتشرة في الغليونات.

ومائدة الضابط تكون معدة جيداً في كمياتها ورقتها، وذلك ما يثير في العبيد إحساساً حاداً ببؤسهم ويزيد من فقرهم وجوعهم.

وكنا قد قضينا مهرجان عام 1704 افرنجي في ميناء موناكو، وقد استقبل ضباطنا أمير هذه المنطقة عدة مرات فوق ظهر السفينة، وكانت مسراتهم رائعة، من الموسيقى وكل ما يجلب السرور والبهجة كان موجوداً، ولكن من يستطيع التعبير عن آلام هذه المخلوقات التعسة، الذين لديهم مجرد الأمل في المتعة. وبينما ينطلق الآخرون على راحتهم، يغرق هؤلاء تحت أثقال قيودهم، يعضهم الجوع في جوفهم، ولا شيء يعزي أرواحهم القانطة.

بل والأكثر سوءاً، أنهم يجبرون على المساهمة في التفخيم والتشريف المُعدّان للعظماء الذين يزورون ضباطهم، ولكن في أسلوب يثير الأسى لدى كل الذين لم يعتادوا مثل هذه الاحتفالات البغيضة، إذ عندما يأتي شخص ذو حيثية إلى ظهر الغليون، يصدر الآمر تنبيهين بصفارته، في المرة الأولى يستعدون وفي الثانية يُرغمون على أداء «التحية»، كما يسمونها، ثلاث مرات، ليس بصيحة ترحيب مرحة كما ينطقها المقاتل الإنجليزي، وإنما «بالعواء» في نغمة مثيرة للشفقة فتشكل صرخة شاكية حزينة.

وعندما تمنع رداءة الطقس إبحار الغليونات، فالبعض الذي يعرف حرفة ما يعمل في الغليون، بينما البعض الذي لا يعرف، يقوم بعمل جوارب رديئة لحساب الآمر الذي يعطيهم كرات الغزل لاستخدامها في ذلك مقابل نصف الثمن المعتاد، وهذا النصف ليس نقوداً ولكن القليل من المواد الغذائية أو الخمر الذي يضطرون لأخذه من مخزن المؤن في السفينة ـ المسؤول عنه الآمر ـ رغم أنه فاسد عموماً ومخلوط بالماء، إذ بالرغم من أن بالسفينة ذهباً كثيراً بقدر ما يستطيعون حمله إلا أنهم لا يجرؤون على شراء أية خمور من الشاطىء خوفاً من العقاب.

وأكثر المشاهد تأثيراً من بينها كلها، مرأى هذه النفوس البائسة التي لا تعرفُ

مهنة أو حرفة، فهم ينظفون ملابس زملائهم ويقتلون الحشرات التي تعذب رفاقهم، الذين بدورهم، يعطونهم قسماً ضئيلاً من ذلك النزر اليسير الذي يشترونه من أجر عملهم، ويمكن للمرء أن يتخيل أن مثل هذه المعاملة السيئة، والوجبات الضئيلة والعدوى، لا بد أن يستتبعها مرض مستمر، وفي هذه الحالة تكون الإجراءات كالآتي:

يوجد في عنبر الغليون، حجرة ضيقة مظلمة، يدخل إليها الهواء بواسطة فتحة مساحتها قدمان مربعان، هي الممر الوحيد إليها، وعند كل طرف لهذه الحجرة يوجد نوع من المنصة يسمونه «تاولر» يُرقدون عليها المرضى بلا نظام، دون فراش أو شيء آخر تحتهم، وعندما تمتلىء هذه المنصات، وهناك مرضى آخرون فهم يمددونهم فوق الحبال، كما رأيت في عام 1703 افرنجي، عندما كنا على ساحل إيطاليا في فصل الشتاء، حيث كان لدينا أكثر من ستين رجلاً من المرضى، وفي هذا المكان المفزع، تسود جميع أنواع الحشرات بلا منازع، تعض المخلوقات المسكينة المريضة دون أن يزعجها شيء.

عندما تستدعي واجبات وظيفتي أن أكون بينهم، لإجراء الاعتراف[1] أو تقديم النصح أو الأمر براحة ما، وتلك كانت من المهام الدائمة وتحدث مرتين يومياً، ففي لحظة تملؤني تلك الحشرات، ومن الصعب أن يحفظ الإنسان نفسه من «جيوشهم» الزاحفة، والطريقة الوحيدة لذلك، أن أذهب إليهم بملابسي الخفيفة وأخلعها فور خروجي، وبذلك أخلص نفسي منها.

ولكني عندما كنت بينهم، اعتقدت أنني أمشي ـ بالمعنى الحرفي ـ بين ظلال الموت، وقد أُكرهت على إطالة فترة مكوثي في هذا المأوى الكئيب ـ مع عدم تحملي لذلك ـ لتلقي اعتراف أولئك الذين تحضرهم الوفاة، ولأن المسافة فيما بين المنصة والسقف لا تزيد كلها على ثلاثة أقدام فقد اضطررت أن استلقي أرضاً، وأمدد نفسي بجوارهم، لسماع اعترافاتهم، وغالباً ما كان يحدث أنه عند

---

(1) طقس تمارسه العقيدة المسيحية مع الذين تحضرهم الوفاة «المترجم».

سماعي لاعتراف أحدهم، يقضي واحد آخر نحبه بجواري، والرائحة لا يمكن احتمالها لدرجة أنه لا يوجد عبد - مهما كان ضعيفاً - إلاّ وفضل أن يختار التمسك بمجدافه وأن يموت راسفاً في أغلاله على أن يرتاح في هذا المستشفى الكريه.

وأنتقل الآن لإبراز نوع البشر المحكوم عليهم هناك: يوجد في كل غليون خمسة أصناف من الناس تحت مسمى «عبيد» بالإضافة للبحارة والجنود، وبالتحديد، الأتراك، ومن يسمّون «المحتالين، والمدانين، والمجرمين، ثم البروتستانت».

ويقوم الملك بشراء الأتراك لتنظيم ضربات المجداف - كما أوضحت تماماً من قبل - ويُطلق عليهم «مقدمو التجديف»، وهؤلاء يجلسون مع الفئة الثانية على مقاعد تسمى «مقاعد القيادة»، وبالنسبة لهم يحظون بنفس مسموحات الجنود، وهم بوجه عام أشداء البنية وأقوياء. والأكثر سوءاً في حظه وسط الطاقم، وهم ليسوا مقيدين بالأغلال، لكنهم يرتدون فقط حلقة معدنية حول أقدامهم علامة على العبودية.

وأما هؤلاء الذين يسمون «المحتالين»، فهم عادة من الفلاحين الفقراء الذين وُجدوا يشترون الملح في المقاطعات التي يرخص فيها ثمنه، مثل «بورجُندي» أو «دومب» في فرنسا، ما يسمونه «بالبين» من الملح الذي يزن أربعة أرطال ويساوي 3 سنتات و6 بنسات.

ويوجد بعض الفلاحين الفقراء وأسرهم الكاملة من الذين لم يذوقوا طعم الحساء أسبوعاً بأكمله لندرة الملح، رغم أنه غذاؤهم المعتاد، ورجل في هذه الحالة، يتألم إذ يرى زوجته وأطفاله يتضورون جوعاً، وتذبل حيويتهم، يغامر بالسفر خارج موطنه لشراء الملح من بلاد، ثمنه فيها ربع ثمنه عنده، ولو ضُبط، يُرسل - تأكيداً - للغليون، ورؤية الزوجة والأبناء وهم ينعون أباهم الذي يشاهدونه يرسف في الأغلال وقد ضاع بلا عودة، لا لجريمة ارتكبها ولكن لشقائه في توفير ما يقيم أود أولئك الذين جلبهم للحياة، هو منظر جنوني.

أما المدانون، فعقوبتهم تستمر مدى الحياة، وسابقاً اعتادوا أن يبتروا لهم

آذانهم وأنفهم، ولكن لأنهم غالباً ما تتقيح جروحهم وينشرون العدوى بين بقية الطاقم، فهم الآن يحدثون بهم ندبة صغيرة.

وبالنسبة للذين حكم عليهم في جرائم غالباً ما يكونوا نشالين، أو غشاشين أو مقامرين أو قطاع طرق، وأكثر المجرمين شهرة، يكونون أقلهم ترويضاً فهم يأسرون القلوب بسرعة، ويعقدون صداقات في الحال مع جماعتهم ويبدأون في سرد نوادر تشردهم ويتفاخرون بجرائمهم وأعظمهم شراً ينصبونه بطلهم العظيم، ويبقى البروتستانت هناك أنقياء، لأنهم اختاروا طاعة الله على طاعة الإنسان، ولا يريدون مبادلة أرواحهم بكنوز الدنيا.

موقعة شيلينبرج «2 يوليو 1704 افرنجي»

«تقرير ضابط فرنسي»

*** مسيو دولا كولوني.**

«عند شيلينبرج، وهي واحدة من المعارك في حروب الزحف الأسباني، هاجم مارلبورو تلاً دفاعياً يحميه الباڤاريون والفرنسيون، ورغم نجاحه إلاّ أن الهجوم كلفه 6000 رجل، وكانت خسائر العدو 9000».

. . أكدت على رجالي ضرورة الانتباه للأوامر، والطاعة الفورية في تنفيذ التكليفات خلال القتال بشجاعة ونظام جيد، وأكدت لهم أن في ذلك أماننا وربما أيضاً انتصارنا.

وما إن أنهيت كلامي، حتى فتحت بطاريات مدافع العدو نيرانها علينا، ومع أول تعامل معنا أزاحوا «الكونت دولا باستيد»، ومساعد مجموعتي الذي كنت أتحدث معه في تلك اللحظة واثني عشر من قاذفي القنابل اليدوية، الذين تساقطوا جنباً بجنب في صفوف، لدرجة أن معطفي غطته الدماء واللحم المهترئ من رؤوسهم، وكانت نيرانهم دقيقة حتى إن كل «دفعة» من المدافع كانت تلقي ببعض من رجالي موتى على الأرض، وقد عانيت الألم لرؤية أولئك الرفاق الشجعان يموتون دون فرصة للذود عن أنفسهم، ولكن كان من الضرورة المطلقة ألاّ يبرحوا مواقعهم.

ولم يكن هذا الهجوم المدفعي سوى مقدمة للهجوم الذي يطوره العدو، وقد انتظرت اللحظة التي سوف يُلقون فيها بأنفسهم على نقطة أو أخرى من مواقعنا الدفاعية وهي اللحظة التي لن أسمح فيها لأي من رجالي حتى بالانحناء أمام العاصفة، وكنت أخشى أن تجد الفرقة نفسها في فوضى عندما يحين الوقت للمبادرة بالحركة المطلوبة منا.

وفي النهاية تحركت قوات العدو للهجوم، وما زال يجب عليَّ أن أتحمل هذه التضحية حتى أتجنب المزيد من سوء الحظ القائم، رغم أنني مُنيت بقتل خمسة ضباط وثمانية من قاذفي القنابل في مواقعهم قبل أن نطلق رصاصة واحدة.

وكان المنحدر أمامنا شديد الميل لدرجة أنه بمجرد أن تقدم طابور العدو اختفى كله مع المنظر، ووصل مدى رؤيتنا إلى حوالى 200 خطوة فقط من خنادقنا، ولاحظت أن العدو تجنب بقدر إمكانه جانب منحدر المدينة والتزم جانب الغابة، لكن لم أستطع استنتاج أي جزء سوف لن تتماس حدوده مع الآخر بهدف الهجوم ويشكل جزءاً من تحصيناتنا المواجهة للعدو، وتسبب عدم يقيني هذا في تأخير قرار التحرك، ولم يكن هناك ما يدفعني للاعتقاد بأن العدو لديه معلومات وثيقة عن دفاعاتنا، تقودهم لنقطة مميزة عن أخرى في هجومهم.

ولو أنني كنت قادراً على التخمين بأن طابور العدو كان يقوده وغدٌ من ضباط الصف الذين خانونا، ما كنت وقعت في هذا الموقف الحرج ولا كنت اعتقدت بضرورة إبقاء هذا العدد الكبير من الرجال الشجعان معرضين لأخطار المدفعية، ولكن وصلت شكوكي لنهايتها بعد ساعتين من بعد الظهر، لأني لمحت من بعيد أطراف راياتهم الامبريالية، ولم أتردد أكثر من ذلك، فغيّرت الجبهة بأسرع ما يمكن، كي أضع قاذفي القنابل في مقابل الجزء الذي يتصل بالغابة من مواقعنا، أي ناحية الجزء الذي رأيت أن العدو يوجه تقدمه فيه. وقد تَركَتْ فصيلة القيادة الموقع الموجود في المدى الخطر للمدفعية، ولكننا وجدنا أنفسنا حالاً في موقف ليس أكثر تحسناً، إذ بمجرد أن تمركز رجالنا في الساتر الدفاعي الصغير، اندفع العدو في هجومه، وبأقصى سرعة، صارخين بأعلى أصواتهم ليلقوا بأنفسهم وسط استحكاماتنا.

وكانت سرعة تحركاتهم وارتفاع صيحاتهم مزعجة بالفعل، وما إن سمعتهم حتى أصدرت أوامري لقارعي الطبول بضرب نغمة «الاشتباك» كي أغرقهم في ضوضائها خشية أن ينتاب جنودنا تأثير سيء من جراء ذلك، وبهذه الوسيلة آثَرْتُ الحيوية في مقاتلينا وحِلْتُ بينهم وبين سماع صيحات العدو التي أحدثت اضطراباً مشتتاً.

وقادت الكتيبة الإنجليزية هذا الهجوم بشجاعة عظيمة مباشرة نحو سواترنا، ولكنهم وُوجهوا هناك بشجاعة مُكافئة لهم على الأقل، وقد ظهر الغضب والعنف والاستبسال من كلا الجانبين، بمزيد من التصميم كما لو كان المهاجمون والمدافعون أشجع جنود العالم، وأصبح الساتر الصغير الذي يفصل بين القوتين مسرحاً لأكبر نضال دموي يمكن تخيله، فألف وثلاثمائة من قاذفي المتفجرات الذين يتشكل منهم سبعمائة من حرس (إليكتر)، وستمائة منهم تشكلوا تحت قيادتي، كلهم تحملوا الصدمة الأولى لهجوم العدو في مقدمة جبهة الكتيبة الباڤارية.

ومن المستحيل أن نصف بكلمات تفي بقوتها تفاصيل المذبحة التي حدثت خلال الهجوم الأول، والتي استمرت ساعة كاملة أو ما يزيد، فقد كنا جميعاً نقاتل يداً بيد نلقي بهم خلفاً في حين يتشبثون بالساتر، ورجالٌ يُقتلون أو يُمزَّقون أمام فوهات البنادق أو حرابها التي اخترقت أحشاءهم، ومحطمين أصدقاءهم الجرحى تحت أقدامهم، وحتى كانوا يفقأون أعين أعدائهم بأظافرهم، عندما كان التلاحم شديد الاقتراب لدرجة لم يستطع معها أي من الطرفين استخدام السلاح.

وأعتقد بصدق أنه من المستحيل أن نجد أكثر رعباً من الجحيم في تمثيله سوى ما يبدو من وحشية لدى الجانبين في هذه الموقعة.

وفي النهاية بعدما فقد العدو أكثر من ثمانية آلاف رجل في ذلك الهجوم الوحشي الأول، اضطر لأن يرخي قبضته، فتراجعوا بحثاً عن مواقع في عمق المنحدر حيث لم نستطع إيذاءهم، وساد هدوء مفاجىء بيننا الآن، فرجالنا يلتقطون أنفاسهم وتبدو عليهم مظاهر التصميم أكثر مما كانوا عليه قبل الصراع، وكانت الأرض حول سواترنا مغطاة بالموتى والمحتضرين، في أكوام بارتفاع

أعمدة سواترنا تقريباً، لكن كل انتباهنا كان مسلطاً على العدو وتحركاته.

وقد لاحظنا أن قمم راياته ما زالت تبدو في نفس المكان تقريباً الذي بدأوا منه هجومهم الأول، غير تاركين أي شك في أنهم يستجمعون أنفسهم قبل معاودة الهجوم، وبأسرع ما يمكننا، عملنا بشدة كي نجعل عودتهم أكثر صعوبة لهم من ذي قبل، وبواسطة دفعات متزايدة من النيران أزحنا خطهم المتقدم بسيل من الطلقات، المصحوبة بعدد لا حصر له من القنابل اليدوية، التي كان لدينا منها حمولات عربات عديدة في مؤخرة موقعنا، وهذه - نظراً لانحدار الأرض - سقطت مباشرة بين صفوف العدو، مسببة لهم قلقاً عظيماً، وقد أضافت - بلا شك - شيئاً غير قليل لترددهم في التقدم للمرة الثانية نحو الهجوم، وكانوا مثبطي العزم بسبب الهجوم الأول لدرجة أن قادتهم واجهوا صعوبة عظمى في إعادتهم للتقدم من جديد، وما كانوا لينجحوا بالفعل في ذلك، رغم أنهم حاولوا بشتى الطرق، لو لم يهبطوا من فوق جيادهم ويضربوا مثلاً بأنفسهم، بالتقدم على رأس الصفوف وقادوهم وهم سائرين.

وقد كلفهم إخلاصهم الكثير، لأن الجنرال «ستيروم» وعديد من القادة الآخرين قتلوا، وحينئذ، تقدموا مرة أخرى للهجوم، ولكن ليس بالنجاح الذي كانوا فيه بالمحاولة الأولى، إذ لم تنقصهم الطاقة في هجومهم فقط، وإنما بعد دَحْرِهم العنيف، كنا طاردناهم بحراب البنادق طوال ثمانين خطوة فيها وراء دفاعاتنا، التي دخلناها مرة أخرى أخيراً بلا أذى، وبعد المحاولة الثانية تلك، بذل قادة العدو جهوداً عديدة، لكنهم لم يستطيعوا استقدام رجالهم لهجوم ثالث.

لكنني لاحظت في الحال، حركة غير عادية على جانب فرقتنا التي كانت في حالة استعداد مع إيقاف إطلاق النار. فمررت ببصري في جميع الاتجاهات لأرى سبب هذا السلوك، وحينئذ أبصرت صفوفاً عديدة من فرقة ترتدي أزياء رمادية البياض على جناحنا الأيسر، ومن بطء حركتهم على هذا الجانب ومن ملابسهم ومظاهرهم، اعتقدت حقاً أن التعزيزات قد وصلتنا، بل إن أي شخص آخر قد يعتقد ذلك أيضاً. فلم تكن هناك أية معلومات وصلتنا حول تحركات العدو، أو

حتى أن شيئاً مثل ذلك يمكن أن يحدث على الأقل، وهكذا في ظل الخطأ الذي عملت من خلاله، صِحْتُ برجالي: إنهم فرنسيون وأصدقاء، وفي الحال واصلوا التمركز في مواقعهم السابقة خلف الساتر.

وبعدما قمت بفحص قريب، اكتشفت حِزَماً من القش وأوراق الشجر مربوطة براياتهم وعلاماتهم كالتي يرتديها العدو في مناسبات القتال، وفي هذه اللحظة بالذات أصابتني قذيفة في فكي الأسفل من الناحية اليمنى الذي جرح، وخدعني ذلك حيث اعتقدت أنه تحطم، فتحسست جرحي بإصبعي بأسرع ما يمكنني، ووجدت أن الفك نفسه سليم فلم أعبأ به كثيراً، لكن واجهة سترتي كانت ممتلئة دماءً من الجرح لدرجة أن العديد من ضباطنا اعتقدوا أن جرحي خطير، فطمأنتهم وقمت بحثهم على الثبات مع رجالهم، وأوضحت لهم أنه طالما بقت فرقتنا متجاورة بشكل جيد فالخطر لن يكون عظيماً، ولو أنهم تصرفوا تصرفاً ثابتاً، فلسوف يدع لنا العدو ـ الذي كان يحافظ على تماسه معنا فقط دون أن يجرؤ على مهاجمتنا ـ مجالاً للانسحاب دون أن يقوم بما هو أكثر من المطاردة.

وفي الحقيقة أنه بالنظر إليهم يبدون أكثر أملاً في انسحابنا من الدخول في قتال معنا، ولهذا صِحْتُ في الحال بأعلى ما أستطيع بألا يترك أي فرد موقعه ثم شكلتُ رجالي في خط مواجهة بطول التحصينات المواجهة للغاية ومتقدمة نحو الجناح العكسي، وهو يشكل الاتجاه الذي يجب أن ننسحب منه. وهكذا في أي وقت أرغب فيه تشكيلَ موقفٍ، فما عليَّ إلاّ تحويل رجالي، وفي أي لحظة أستطيع استئناف الانسحاب في نفس الوقت، وذلك ما نفذناه بنظام جيد.

وقد حَافَظتُ على ذلك الوضع حتى عبرنا التحصينات على الجناح الآخر، وحينئذ وجدنا أنفسنا بعيداً عن الهجوم. وعلى أية حال لم يتم هذا الانسحاب دون خسائر، إذ بالرغم من أن العدو ما كان ليقترب منا عندما شاهد تشكيل خطنا الدفاعي للانسحاب، إلاّ أنه أطلق مقذوفاته على مدى قريب منا، وذلك أحدث بعض الخسائر.

وما إن تخلص رجالي من التحصينات حتى وجدوا أن المنحدر كان في

صالحهم، فتركوا صفوفهم وأسرعوا للهرب كي يصلوا للسهل الواقع أمامهم، قبل أن يلحقهم فرسان العدو، وحيث إن كل واحد جرى بأقصى سرعته منتوياً على إعادة التشكيل بالجانب الآخر فقد اختفوا مثل ومضة برق دون أن ينظروا للخلف. وأنا ـ إذ كنت مع جنود المؤخرة جاهزين لاتخاذ موقف عند الضرورة ضد خصومنا ـ قد تسلقت التحصينات بصعوبة، عندها وجدت نفسي وحيداً تماماً عند هذا الارتفاع مُعاقاً عن الجري بسبب حذائي الثقيل فتطلعت في كل الأنحاء بحثاً عن قارع الطبلة، الذي حذرته كي يبقى قريباً مع حصاني، لكنه رأى من الأفضل أن يهتم بنفسه، والنتيجة أنني وجدت نفسي وحيداً تحت رحمة العدو وأفكاري التعسة، ودونما أدنى فكرة عن مصيري القادم.

وقد أعملت ذهني بحثاً عن مخرج من موقفي الصعب بلا جدوى، ولم أستطع التفكير في أدنى شيء محدد، كان السهل متسعاً أمامي لدرجة لا أستطيع معها عبوره بحذائي الضخم وبالسرعة الضرورية، ومما زاد الأمر سوءاً أن السهل كان مغطى بحقول القمح، وإذا ما كان فرسان العدو لم يظهروا حتى اللحظة في السهل، إلاّ أنه سببٌ أكيدٌ للاعتقاد بأنهم لن يتأخروا في مجيئهم طويلاً، وقد كان من الحمق الكبير أن أعطيهم من جانبي فرصة اكتشافي مثقلاً هكذا، فطالما أعاقني حذائي، فسيجد أي جندي مسألة القبض عليَّ أمراً سهلاً، وعلى أية حال لاحظت أن نهر الدانوب لم يكن بعيداً عني، فقررت أن أشق طريقي نحوه بكل طاقتي على أمل أن أجد ممراً ممهداً، أو مكاناً تسنح فيه فرصة لإنقاذ حياتي، وقد رأيت أن اللحظة لم يعد فيها أمل للتفكير في تجميع قواتي.

وفي الحقيقة وجدت ممراً كافياً بطول ضفة النهر، لكن ذلك لم يكن متاحاً أمامي كثيراً، إذ بسبب جهودي وعنائي للوصول إليه عبر حقول عديدة من أعواد القمح، أصبحت شديد الإجهاد والتعب وأكاد أزحف قدماً بأبطأ خطوات ممكنة، وفي طريقي قابلت زوجة أحد الجنود الباڤاريين منهارة بالبكاء لدرجة أنها كانت لا تمضي بأسرع مني، وقد جعلتها تخلع عني حذائي، الذي كان ملتصقاً بإحكام حول قدمي لدرجة استحال معها أن أفعل ذلك بنفسي، وقد استغرقت المرأة

المسكينة وقتاً كبيراً لتفعل هذا، وبدا لي على الأقل كما لو أن هذه العملية لن تنتهي أبداً.

وفي النهاية تم كل شيء، وقد قلّبت في عقلي أفضل الطرق لاستغلال انطلاقي هذا، وبينما كنت أرفع رأسي فوق أعواد القمح عن جانبي الطريق، رأيت عدداً من قوات العدو متناثرة فوق المنطقة، مُنقبةً الحقول عن أي من رجالنا قد يكونون مختبئين فيها، بقصد قتلهم ـ دون شك ـ من أجل نهب ما يمكن أن يوجد معهم، عند هذا الاحتمال الشرير تبخرت كل آمالي، وماتت مشاعر الرجاء التي شعرت بها حال تخلصي من حذائي، فور ولادتها، وتفحصت خطط أولئك الفرسان تحت الغطاء الذي وفره لي القمح لأرى ما إذا كان هناك مخرج لي من هذا المأزق، وخطرت لي فكرة، لو قدر لها أن تُنفذ، لكان لها نهاية غريبة، وهي أنه لو اقترب أحد الجنود مني، وبقي زملاؤه بعيدين بصورة كافية، وظللت مختبئاً ومنتظراً حتى صار قريباً جداً بما يكفي لقتله برصاصة من مسدسي، لأن لدي اثنان منه في حزامي، لقمت بالاستيلاء على زيه وامتطاء حصانه، وأواصل هروبي في ذلك التخفي، وهي خطة يضمنها الظلام المقترب.

ولكن لأني لم أجد فرصة لتحقيق هذه الفكرة، فكرت في أخرى، وبالتحديد في أن أنزل النهر حتى ذقني في المياه، تحت الشجيرات الموجودة على الضفة، منتظراً هبوط الليل، وعودة جنود العدو إلى معسكرهم، وعندئذ أهرب في الظلام، لكن هناك صعوبات كثيرة كان يجب عليَّ مجابهتها في هذه المخاطرة أكثر من الحالة الأولى، وكحل أخير طرأ لي أن عبوري للنهر قد ينقذ حياتي، ولحسن الحظ فأنا أعرف السباحة.

وبالرغم من أن المخاطرة هنا كانت كبيرة بسبب عمق المياه وسرعة نهر الدانوب، إلاّ أنني صممت على هذه الخطة بسرعة، إذ رأيت في ذات اللحظة عدداً من الجنود يقتربون باستمرار من مخبأي، وكانوا يرفضون الإبقاء على حياة الجرحى الذين يجدونهم مختبئين في القمح، فيقتلونهم بلا رحمة وبسهولة أيسر من تركهم، ولم يكن لديَّ مبرر للاعتقاد بأنهم سيميلون لإظهار الرحمة تجاهي،

خاصة أنني أستحق النهب أكثر من الجندي الفرد، وذلك بالنظر إلى هيئتي، ولم يكن هناك وقت أضيعه في حسم الأمر، وقبل أن أتوجه نحو النهر، اتخذت احتياطات لازمة بترك أزيائي الغالية المطرزة، والمتسخة قليلاً بسبب الأحداث السابقة على الضفة، وقد نثرت بطريقة واحدة، قبعتي، وشعري المستعار، ومسدساتي، وسيفي، هنا وهناك، حتى إذا ما وصل الجنود قبل ابتعادي بمسافة كافية، يصبون اهتمامهم على جمع هذه الأشياء بدلاً من التطلع في الماء، وقد ثبت ما فكرت فيه، وكنت قد أبقيت على جواربي وسترتي «الجاكت»، وسروالي القصير وعقدت أزرار أكمام السترة «الجاكت» ولففت الجيوب داخل سروالي للأمان، وما إن تم ذلك، حتى أسلمت نفسي لرحمة النهر، ولم أبتعد بعد بالكاد إلاّ ووصل الجنود الذين، كما تمنيت، هبطوا من فوق جيادهم بأسرع ما يمكنهم حتى يستولوا على الأشياء الملقاة أمامهم بل إنهم بدأوا العراك حولها، إذ سمعتهم بوضوح يتصايحون ويقسمون بطريقة ممتعة، والبعض وضح أنهم لم يحصلوا على شيء، فقاموا بتسلية أنفسهم وتحيتي بعدة طلقات، لكن تيار النهر الذي حملني بسرعة في طريقي أخذني بعيداً عن مداهم، وأخيراً بعد سباحة طويلة وشاقة كنت سعيد الحظ بالوصول للضفة الأخرى برغم قوة تيار النهر.

اكتشاف روبنسون كروزو «آخر»

«2 فبراير/النوار 1709 افرنجي»

*** وودز روجرز**

«كان (سيلكيرك) - النسخة الحية لشخصية (روبنسون كروزو) التي ابتكرها الروائي (دوفو) - ابناً لصانع أحذية، وكان قد هرب إلى البحر وانضم لعصابة من المغامرين، وقد أُنزل إلى الشاطئ في سبتمبر عام 1704 على جزيرة (ماس آتييرا) غير الآهلة بالسكان وسط مجموعة جزر (جوان فرنانديز)، على بعد 400 ميل غرب مدينة (ڤالباريزو) في «تشيلي».

. . عاد قاربنا من الشاطئ محملاً بوفرة من «الجمبري»[1]، ورجل يرتدي فروة ماعز كان يبدو أكثر بدائية من مالكيها[2] الأوائل، كان هذا الرجل قد بقي على الجزيرة أربع سنوات وأربعة أشهر، وقد تركه هناك الكابتن «إسترادلنج» من السفينة «سانك بورتس» وكان اسمه الكسندر سيلكيرك، وهو اسكتلندي كان رئيساً لبحارة السفينة «سانك بورتس»، وهي سفينة أتت هنا مؤخراً مع الكابتن «دامبير» الذي أخبرني بأن هذا كان من أفضل الرجال هنا، فاتفقت معه في الحال على أن يكون رفيقاً على ظهر باخرتنا.

لقد كان هو الذي أشعل النار في الليلة الماضية عندما رأى سفينتنا وأدرك أنها إنجليزية. وخلال إقامته هنا رأى العديد من السفن تمر بجواره، اثنان منها فقط أتتا للرسو هناك، وعندما ذهب لاستطلاعهما وجدهما أسبانيتين فابتعد عنهما فأطلقتا عليه النار عندئذ، ولو كان هؤلاء من الفرنسيين لأسلم لهم نفسه لكنه فضل المخاطرة بالموت وحيداً على الجزيرة على أن يقع بين أيدي الأسبانيين في هذه الأنحاء، لأنه أدرك أنهم قد يقتلونه، أو يأخذونه عبداً إلى المناجم، ولأنه خشي أنهم لن يبقوا على حياة غريب لديه القدرة على اكتشاف البحر الجنوبي، وكان الأسبانيون قد هبطوا قبل أن يعرف من يكونون، واقتربوا كثيراً منه لدرجة أنه وجد صعوبة جمة في الهرب، إذ لم يكتفوا بإطلاق النار عليه، وإنما طاردوه إلى الغابة، حيث تسلق قمة إحدى الأشجار كانوا قد تبوّلوا أسفلها وذبحوا بعض الماعز بجوارها لكنهم عادوا ثانية دون اكتشافه، ولقد أخبرنا أنه ولد في «لارجو» بمنطقة فيف بأسكتلندا ونشأ بحاراً منذ صباه، والسبب في تركه على هذه الجزيرة كان خلافاً بينه وبين قائده. . وقد أخذ معه ملابسه وفراشه وغدارته وبعض البارود، والطلقات، والتبغ، وبلطة، وسكيناً، وبراداً، وإنجيلاً وبعض الأشياء العملية وأدواته الرياضية وكتبه.

(1) الـ Craw Fish حيوان قشري بحري من فصيلة الجمبري ولتقريب معناه من القارىء يحسن ترجمته بالجمبري. «الترجم».

(2) يبدو الضمير هنا عائداً لموضوع سبق طرحه قبل اجتراء هذا النص.

وقد التفت إلى نفسه ووفر لها بقدر ما يستطيع سوى أنه في الأشهر الثمانية الأولى وجد صعوبة كبيرة في تحمل الهستيريا والخوف من العيش منفرداً في مثل هذا المكان النائي، فقام ببناء كوخين بخشب من أشجار «البيمنتو» وغطاهما بأعشاب طويلة وأثثهما بفراء الماعز الذي يقتله بغدارته كلما شاء، وطالما بقي البارود الذي لم يزد عن رطل واحد، ولأنه اقترب من النفاد، فقد حصل على النار بحك قطعتين من خشب البيمنتو معاً فوق ركبته، وقام بتخزين مؤونته في الكوخ الأصغر الذي يقع على مسافة بسيطة من الكوخ الآخر، بينما كان ينام في الكوخ الثاني وهو الأكبر، ويستخدمه في القراءة وإنشاد التراتيل والصلاة حتى قال إنه كان أفضل مسيحي خلال وحدته تلك عما كان عليه من قبل، وعما يخشى أن يكون عليه فيما بعد.

وفي البداية لم يكن يأكل شيئاً حتى يرغمه الجوع جزئياً بسبب الألم والحزن، ومن ناحية أخرى بسبب نقص الخبز والملح، ولم يكن يذهب للنوم إلاّ حين يكف بصره عن الرؤية، وقد استخدم أخشاب البيمنتو التي كانت تحترق بسهولة في كل من الإشعال والإضاءة، وكان ينعشه برائحته الزكية وربما كان قد صاد أسماكاً عديدة لكنه لم يستطع أكلها لنقص الملح إذ إن الأسماك تفسد بسرعة ما عدا الجمبري الذي كان في ضخامة (الأستاكوزا)[1] وطعمها جيد، كان أحياناً يسلقها وأحياناً أخرى يشويها مثلما كان يفعل بلحم الماعز وقد صنع من لحوم الماعز حساءً جيداً لأنها ليست رديئة مثل حيواناتنا.

وقد قتل 500 منها أثناء إقامته، وأمسك أكثر من ذلك ثم وسم آذانها بعلامة وتركها تمضي، وعندما انتهى البارود أمسكهم بالجري وراءهم لأن طريقته في الحياة وممارسته الدائمة للمشي والجري، خلصته من كل المعوقات، حتى إنه جرى بسرعة رائعة خلال الغابة وفوق الصخور والتلال مثلما لاحظنا عندما استخدمناه لإمساك الماعز من أجلنا، وكان لدينا كلب من نوع «البولدوج» أرسلناه

---

(1) Lobster: حيوان قشري بحري من فصيلة الجمبري لكنه أضخم وله كلابتان أماميتان وليس من سراطين البحر. «المترجم».

مع العديد من أسرع عدائينا لمساعدته في صيد الماعز، لكنه سبقهم وأتعبهم سواء كان الكلب أم الرجال، وأمسك الماعز وأحضرهم على ظهره، وأخبرنا أن مهارته في مطاردة الماعز كادت ذات مرة أن تكلفه حياته، إذ تتبع إحداها بإصرار شديد، لدرجة أنه أمسكها على حافة هوة لم يكن منتبهاً إليها، لأن الشجيرات كانت تخفيها عنه، فسقط مع العنزة إلى أسفل الهوة المذكورة على ارتفاع كبير، وجُرح وصُدم من جرّاء هذه السقطة لدرجة أنه خرج منها حياً بصعوبة، وعندما عاد لوعيه وجد العنزة تحته وهي ميتة، وقد رقد هناك حوالى 24 ساعة وزحف بصعوبة إلى كوخه على بعد حوالى ميل واحد، ولم يتحرك خارج كوخه مرة ثانية خلال عشرة أيام وأخيراً بدأ يطيب له اللحم بشكل كاف دونما ملح أو خبز.

وفي المواسم أضحى لديه كمية كبيرة من الكرنب الجيد التي زرعها هناك رجال الكابتن دامبير وقد انتشرت الآن فوق عدة هكتارات من الأرض، ووجد أيضاً كمية كافية من الباذنجان في أشجاره، وأضاف لمائدته ثمار البيمنتو التي تشبه فلفل جامايكا ذي الرائحة الحلوة، وقد وجد هناك أيضاً نوعاً من الفلفل الأسود يسمونه «ماراجيتا»، كان جيداً في طرد الغازات وضد تقلص الأمعاء، وقد تمزقت كل أحذيته وملابسه بسبب جريه وسط الغابات، وفي النهاية، بعدما اضطر للتحرك بدونهم، أصبحت أقدامه خشنة حتى إنه كان يجري في كل مكان دون تألم، ولقد استغرق وقتاً كي يتمكن من ارتداء حذاء بعدما وجدناه، ولأنه لم يكن معتاداً على أي من الأحذية هذه الفترة الطويلة، تورمت قدماه عندما ارتداهم ثانية، وبعدما تغلب على هلوساته، كان ينبه نفسه أحياناً بحفر اسمه على الأشجار، وقد حفر معظم الوقت الذي تركوه وحيداً فيه واستمراره هناك.

وفي البداية، انزعج بشدة من الفئران والقطط التي تكاثرت بأعداد كبيرة من بعض الأنواع الهاربة إلى الشاطئ من السفن التي ترسو هناك من أجل الخشب والماء، وكانت الفئران تعض أقدامه وملابسه أثناء نومه، مما دفعه لاجتذاب القطط بواسطة لحم الماعز فأدى ذلك إلى استئناس العديد منهم لدرجة أنها كانت تنام حوله بالمئات، فخلصته من الفئران بسرعة، كما قام أيضاً بترويض بعض

الجداء الصغيرة، ويستعيد نفسه بالرقص والغناء معها مرة بعد الأخرى وأيضاً مع القطط.

وبالعناية الإلهية وبطاقته الشبابية ـ إذ بلغ الثلاثين من العمر ـ توصل في النهاية إلى التغلب على كل مساوئ عزلته فأصبحت شديدة اليسر، وعندما تمزقت كل ملابسه صنع لنفسه معطفاً وقبعة من جلود الماعز، كان قد خاطها معاً بخيوط جلدية قطعها من نفس الجلود بسكين ولم يكن لديه إبرة سوى المسمار، وعندما انثلمت سكينه صنع سكاكين أخرى بقدر استطاعته من بقايا الحديد المتروكة على الشاطئ التي طَرقهَا وسَطَّحها فوق الأحجار. وإذ كان لديه بعض القماش، قام بحياكة قمصان لنفسه بالمسمار، وعمل غرزاته بخيوط جواربه القديمة التي فكها لهذا الغرض، وقد كان يرتدي قميصه الأخير عندما وجدناه على الجزيرة.

وعند وصوله في البداية على ظهر سفينتنا كان لا يتذكر كثيراً من لغته لقلة استخدامها، حتى إننا كنا نفهمه بصعوبة، إذ بدا أنه يتحدث بأنصاف الكلمات، وقد قدمنا إليه كأساً لكن لم يلمسه ولم يشرب سوى الماء منذ كان هناك، وقد استغرق وقتاً قبل أن يستطيب أطعمتنا، ولم يستطع أن يصف لنا أي منتجات أخرى على الجزيرة سوى ما ذكرناه هنا ونوع من العنب الأسود كان جيداً لكن من الصعب الوصول إليه لأن الأشجار التي تحمله تنمو فوق الجبال والصخور.

عراك الثيران، لندن

«1710 افرنجي»

*** زكريا كونراد ڤون أوفنباخ**

عند المساء توجهنا لمشاهدة عراك الثيران الذي يُعقد هنا كل يوم إثنين تقريباً، وفي مكانين مختلفين، ففي صباح ذلك اليوم يدورون بالثور ـ أو أي حيوان آخر ستتم مقاتلته ـ ويحدث هذا العراك في فناء أو أرض واسعة مفتوحة وعلى جانبيها مقاعد عالية وضعت من أجل المشاهدين. وفي البداية يقدمون ثوراً صغيراً مربوطاً بحبل طويل في حلقة معدنية مثبتة بوسط الفناء، عندئذ يطلقون عليه حوالى ثلاثين

كلباً على مرات في كل مرة كلبين أو ثلاثة، لكن الثور يأخذ جهداً قليلاً معهم، فينطحهم قاذفاً إياهم إلى أعلى في الهواء بارتفاع طابق واحد.

عندئذ، ووسط الصيحات والصرخات يقوم السفاحون أصحاب هذه الكلاب بالقفز وسط الحلقة ويمسكون كلابهم حتى يمنعون سقوطها تماماً، وكان عليهم أن يحكموا إمساك كلابهم كي يمنعوها من معاودة القتال دون نباح، فقد كان بعضها يتعلق برقبة أو أذن الثور بشدة لدرجة أن أفواهها كانت تجبر على ترك ما تعضه بواسطة أعمدة من الخشب، وعندما يتحمل الثور ذلك مدة طويلة، يبرزون دباً صغيراً وهو مربوطٌ بنفس الطريقة وحالما تصل إليه الكلاب، يقف على قدميه الخلفيتين ويطلق بعض الصيحات المخيفة، ولكن إذا ما وصل واحد من الكلاب إلى فرائه يقوم على الفور بالتقلب بصورة تجعل الكلاب محظوظة إذا ما خرجت سليمة من تحته، ولكن أكثر المشاهد سوءاً وإيلاماً هي لحمار صغير عادي، أحضروه مسرجاً وعلى ظهره قرد، وبمجرد أن أطلقوا عليه زوجاً من الكلاب اندفع في عدو غريب - لأنه كان غير مقيد مثل الحيوانات السابقة الأخرى - وكان يرفس ويضرب في كل الاتجاهات حوله، وبدأ القرد يصرخ في رعب كبير خوفاً من السقوط، وإذا اقتربت الكلاب منه كثيراً فهو يقبض عليها بفمه ويهزها بعنف حتى إنها تنبح بشدة. وفي النهاية يظهر ثور آخر معلقة عليه عدة مشاعل نارية، وعندما يتم إشعالها تطلق عليه الكلاب، فجأة يصدر هرجاً ومرجاً عظيمين. وهكذا تنتهي هذه الرياضة الإنجليزية الصميمة، التي تُمتع هذه الأمة لكنها بالنسبة لي ليست ذات مذاق خاص.

حمام تركي: أدريانوبل

«1 أبريل/ الطير 1717 افرنجي»

*** السيدة ماري وارتلي مونتاجو**

«مؤلفة هذا النص كانت زوجة السفير الإنجليزي إلى تركيا».

.. ذهبت إلى «الباجنيو» حوالى الساعة العاشرة وكان قد امتلأ تماماً بالنساء،

وهو بناء من الحجر على شكل قبة بلا نوافذ إلاّ في سقفها توفر ضوءاً كافياً، وكانت هناك خمس من هذه القباب متصلة ببعضها، كانت أقصاها تستخدم كصالة لكونها أصغر من الباقيات حيث تقف المرأة المسؤولة على الباب، وكانت النسوة من الطبقة الراقية يعطين هذه المرأة ما قيمته كراوناً واحداً أو عشرة شلنات ولم أنس بدوري هذه العادة، وكانت الغرفة التالية ضخمة جداً ومرصوفة بالرخام وفيما حولها توجد أريكتان من الرخام، الواحدة فوق الأخرى، كما كانت هناك أربعة نافورات من الماء البارد في هذه الحجرة، تسقط أولاً داخل أحواض من الرخام ثم تسيل على الأرضية في قنوات صغيرة أعدت لهذا الغرض.

وتحمل تلك المجاري المياه إلى الحجرة المجاورة وهي أصغر بدورها من السابقة وبنفس نوع الأرائك الرخامية، لكنها أكثر سخونة بالبخار الكبريتي المتصاعد من الحمامات الملحقة بها، وكان من المستحيل البقاء هناك بالملابس التي يرتديها الإنسان. وكانت القبتان الأخيرتان هما الحمامات الساخنة واحدة منها بها صنابير للمياه الباردة تلف إليها لتخفيفها إلى درجة الحرارة التي يرغبها المستحمون.

وقد كنت في رداء السفر، وهو رداء مخصص للركوب، وبدوت ـ بالتأكيد ـ شديدة الغرابة أمامهم، إلاّ أن أياً منهن لم تبد أدنى مظهر للدهشة أو الفضول المتطفل وإنما تلقينني بكل الأدب والواجب الممكن، ولم أعرف أي مجتمع أوروبي تسلك فيه السيدات سلوكاً بمثل هذا الأدب نحو إنسانٍ غريب.

وأعتقد أن جملة ما كان هناك 200 سيدة، لم تكن من بينهن واحدة تظهر ابتسامات السخرية أو همسات التهكم التي لا نخطئها في مجتمعاتنا عندما يظهر شخص لا يرتدي الزي المطلوب تماماً، وكن يكررن لي: «أوزيل»، «بيك أوزيل»، التي لا تعني سوى، «رائعة»، «رائعة جداً»، وكانت الأرائك الأولى مغطاة بالوسائد والسجاد الفاخر، تجلس عليه السيدات وتجلس الخادمات على الصف الثاني من الأرائك خلفهن ولكن دون تمييز في مراتبهن بواسطة أزيائهن، وكلهن على الطبيعة أي وبإنجليزية عامية «عراة تماماً» دون أي تجميل أو إخفاء

لعيوب، ومع ذلك لا توجد بينهن أدنى ابتسامة خليعة أو ملمح من ملامح الكبرياء، فقد كن يتحركن بنفس الرشاقة العظيمة التي وصفها الأديب ميلتون في قصتنا «الأم الرؤوم».

وكانت من بينهن كثيرات يتمتعن بتناسق دقيق كألهة الجمال التي خطتها ريشة الفنان «جيدو» أو الفنان «تيتيان»، وأغلب بشراتهن بيضاء لامعة مزينة فقط بشعورهن الجميلة الموزعة على ضفائر عديدة وتنسدل على أكتافهن، ومضفرة إما باللآلىء أو الشرائط ويمثلن بدقة ملامح الرشاقة.

وقد اقتنعت هنا بحقيقة الانطباع الذي كنت أحمله غالباً بأنه إذا ما كانت العادة أن نسير عراة، عندئذٍ تصعب ملاحظة الوجوه، فقد أدركت أن السيدات ذوات البشرة الرقيقة والملامح الرشيقة قد نلن النصيب الأكبر من إعجابي، رغم أن وجوههن أقل جمالاً ممن يسرن في صحبتهن، ولكي أصدقك القول لقد كنت شريرة إذ تمنيت في أعماقي أن يكون السيد «جيرڤير» متواجداً هناك بصورة غير مرئية، وتخيلت أن ذلك قد يطور فنه إذ يرى مثل هذا العدد من النسوة الرقيقات عاريات وفي أوضاع مختلفة، فالبعض في ثرثرة والأخريات في عمل والبعض يشربن القهوة أو الشربات، والكثيرات يرقدن في لامبالاة على وسائدهن في حين تعمل الخادمات - وهن عموماً فتيات جميلات في سن 17 أو 18 - في تضفير شعورهن في أشكال عديدة خلابة.

وباختصار يعد هذا المكان مقهى النساء، حيث تنتشر كل أخبار المدينة وتشاع فضائحها. . إلى آخره. . وهن يقمن عادة بهذه النزهة مرة في الأسبوع ويبقين هناك 4 أو 5 ساعات على الأقل دون الإصابة بالبرد إذا ما خرجن مباشرة من الحمام الساخن إلى الحجرة الباردة وقد أدهشني ذلك بشدة.

وقامت السيدة التي يبدو عليها أنها أكثرهن مكانة بدعوتي للجلوس بجوارها وسرها أن تحاول خلع ملابسي من أجل استحمامي، لكنني اعتذرت ببعض الصعوبة لأنهن جميعاً ألححن في إقناعي، ولقد اضطررت أن أفتح تنورتي لأريهنَّ مشتملاتها، وقد أراحهن ذلك تماماً إذ رأيت أنهن اعتقدن أنني محبوسة في مثل

هذه الآلة لدرجة أنه لا يكون باستطاعتي أن أفتحها، ظانين أن زوجي قد وضعها هكذا.

مقتل طائر القطرس[1]

«1 أكتوبر/التمور 1719 افرنجي»

جورج شيلفوك

«عندما قام الأديب كولردج بقراءة هذا النص، أمده بفكرة روايته «البحار العجوز».

. . عند الساعة السابعة صباحاً وبينما كانوا يطوون الشراع الرئيسي، صرخ واحد يدعى وليم كامل لأن ذراعيه وأصابعه قد تخاذلتا، لدرجة أنه لم يتمكن من حفظ نفسه وقبل أن يسرع إليه القريبون منه لمساعدته سقط وغرق على الفور.

والبرد في هذه الأنحاء لا يمكن احتماله ـ بالتأكيد ـ عنه في نفس خط العرض باتجاه الشمال ـ إذ بالرغم أننا قد تقدمنا كثيراً في فصل الصيف وأضحى النهار أكثر طولاً إلاّ أننا واجهنا أعاصير ثلجية مستمرة وجليداً ومطراً، وكانت السماء مختفية عنا باستمرار بواسطة سحب قاتمة كثيفة.

وباختصار يعتقد الإنسان استحالة وجود أي شيء حي يمكنه البقاء في مثل هذا الطقس القاسي، وفي الحقيقة فقد لاحظنا جميعاً أننا لم نحظ بمرأى أية سمكة من أي نوع منذ وصلنا إلى المضايق الجنوبية من منطقة (اللومير) ولم نر طائراً بحرياً واحداً عدا طائر القطرس الأسود الحزين، الذي اصطحبنا عدة أيام محلقاً حولنا كما لو كان قد ضل طريقه حتى قام (هاتلي) وهو الضابط الثاني، إذ لاحظ ـ في واحدة من عاداته الهستيرية ـ أن هذا الطائر دائماً يحلق بالقرب منا، فتخيل بسبب لونه أنه يحمل مرضاً.

مما جعله فيما أعتقد يزيد من خوفه المجهول، تلك السلسلة المتصلة من

(1) طائر بحري من فصيلة النوارس وإن يكن أكبر حجماً. «المترجم».

العواصف الهوجاء المتقابلة التي أرهقتنا منذ دخلنا هذا البحر. وحيث كان الأمر كذلك، فقد قام في النهاية بعدة محاولات غير مجدية لإطلاق النار على طائر القطرس ولم يكن لديه شك - ربما - أننا سوف نواجه رياحاً معتدلة بعد ذلك.

كسوف شمسي.

«10 مايو/الماء 1724 افرنجي»

*** ويليام ستوكلي**

بناء على وعدي، أرسل لك ما لاحظته بشأن كسوف الشمس، رغم أنني أخشى ألا يكون في ذلك نفع عظيم لك، إذ لم أكن مزوداً بأية معدات لقياس الوقت، أو ما يشبهها، وافترضت على نفسي أن أقوم بمراقبة كل الظواهر التي ستوفرها الطبيعة للعين المجردة - فقط - في مثل هذه المناسبة الملحوظة، والتي نتطلع إليها بصفة عامة أو على الأقل نهتم بها بشدة، وقد اخترت لموقعي مكاناً يسمى تل «هارادون» على بعد ميلين شرق «آمسبوري» وشرق مدخل ميدان «ستونهينج» تماماً، الذي يُعد نقطة المشاهدة بالنسبة إليه، ويمتد أمامي السهل الفسيح حيث تجري أعمال المناسبة.

وقد علمت أن الكسوف سوف يظهر فوقه مباشرة بالإضافة إلى تمتعي بميزة وجود أفق ممتد جداً في كل اتجاه أمامي، لأن هذا كان أكثر التلال ارتفاعاً في هذه الأنحاء، وأقرب مكان لمنتصف الظل، باتجاه الغرب تماماً.

وفيما وراء «ستونهينج» يوجد تل مخروطي بديع، مثل قمة قمع يرتفع أعلى خط الأفق، هو تل «كلاي» بالقرب من «وارمينستر»، على بعد عشرين ميلاً، وبالقرب من خط الظلام المركزي، الذي يجب أن يسقط من هناك كي أتمكن من ملاحظة بدايته بشكل كاف حال حدوثه، وكان معي إبراهام ستورجيز واستيفن اوينز، هذان الرجلان الحساسان والمُجدان.

ورغم كثافة السحب الشديدة، إلاّ أن أشعة الشمس المشرقة كانت تأتينا بعض مرة، أكثر مما يمكن إدراكه في أماكن أخرى حولنا، وبينما كنت أقوم بتسجيل

بعض الاتجاهات للمنطقة بالجهاز، أكد لي الرجلان بثقة ـ إذ كانا ينظران خلال مناظير من الزجاج المدخن[1] أن الكسوف قد بدأ في اللحظة التي وجدت فيها ساعتي تشير إلى الخامسة والنصف، وبناءً على ذلك وضحت تطورات الكسوف منذ هذا الوقت وغالباً ما كانت ظاهرة للعين المجردة، وقد قامت السحب الرقيقة بمهمة النظارات.

وفي اللحظة التي تغطى فيها نصف جسم الشمس، ظهرت هالة طيفية دائرية شديدة الوضوح حول الشمس بألوانها التامة، وقد رأينا الرعاة يسرعون بقطعانهم نحو الحظائر في كل اتجاه، فالظلام قد بدأ يحل، لأنهم لم يتوقعوا شيئاً أقل من الكسوف الكلي لمدة ساعة وربع الساعة.

وعندما تحولت الشمس إلى خط رفيع مثل قمر جديد، أضحت السماء شديدة الصفاء في هذه البقعة، ولكن سحابة سميكة غطتها بسرعة.

في هذا الوقت اختفت هالة الطيف، وأصبح التل المخروطي ـ الذي سبق ذكره ـ مظلماً تماماً مع خط الأفق على كلا الجانبين إلى الجنوب والشمال وبدا أزرق اللون، ـ كما يبدو ـ تماماً حتى الشرق لحظة تميّز النهار، عند ذاك أصبح الوقت أمامنا ضئيلاً، فعندما أصبح برج «ساليسبوري» ـ ويبعد ستة أميال باتجاه الجنوب ـ شديد السواد، اختفى التل المخروطي تماماً، وحل بنا ليل ثقيل كامل الإظلام.

وعند هذه اللحظة لم نعد نرى الشمس في حين أن مكانها بين السحب هناك كان مميزاً بوضوح، لكنها الآن لم تترك أدنى أثر خلفها، ليس أكثر من الغياب لو كان التعبير حقيقياً، هنا رأيت في ساعتي ـ رغم صعوبة ذلك وبمساعدة بعض الضوء القادم من الشمال ـ أن الوقت يشير إلى السادسة وخمس وثلاثين دقيقة وقبل هذا تماماً بدأ كل محيط السماء والأرض مُغيّماً، إذا شئنا الدقة، لأنه كان ذا لون أزرق وأسود، وانتشر اللون الأزرق على الأرض فوق الأفق فقط.

(1) Smoked Glass: زجاج يكسر أشعة الضوء.

وكان هناك أيضاً بين السحب في السماء بقع شديدة الخضرة، لدرجة أن المنظر في إجماله كان شديد الرعب، كما لو كانت أعراضاً لطبيعة مريضة.

والآن رأيت الظلام التام يلفنا، وكان ملموساً، إذ أمكن القول بذلك، ورغم أنه حلّ بسرعة، إلاّ أنني كنت عاقداً العزم على ملاحظة خطواته، وأشعر به كما لو كان يسقط علينا، ويقع على الكتف الأيمن ـ كنا في هذه اللحظة ننظر باتجاه الغرب ـ مثل عباءة سوداء عظيمة، أو غطاء ـ فراش ـ ألقي علينا، أو يشبه سحب ستارة كبيرة على هذا الجانب، وكانت الجياد التي نمسكها بأيدينا شديدة الحساسية لهذا المنظر، وتزاحمت بالقرب منا وقد أذهلتها غرابة الموقف.

وبقدر ما أرى على وجوه الناس المحيطين بنا، كان أكثرهم يحمل مظهراً مرعباً، وهنا تلفت حولي، واستطعت تمييز الألوان في السماء مطلقاً صيحات لا تخلو من إعجاب، لكن الأرض فقدت لونها الأزرق وأظلمت جميعها، ولعدة لحظات ـ فيما بين السحب ـ بدت حزم من الأشعة المرئية الرقيقة المائلة نحو موضع الشمس كمركز لها، وبعد لحظات قصيرة، تحول كل المنظر في السماء والأرض إلى سواد تام، وكان ذلك أكثر المناظر ـ التي رأيتها أو أمكنني تخيلها في حياتي، روعة.

التمثيل الصامت والمصارعون «1728 افرنجي»
سائح فرنسي في لندن

*** سيزار دو ساسور**

يشتهر المسرح في «لنكولن إن فيلد» ببرامج التمثيل الصامت التي يقدمها عقب المسرحية الكوميدية، وتتكون هذه العروض من جزءين، جاد ومضحك، ويؤخذ الأول من أسطورة تراثية، كالآلهة والإلاهات. والأبطال ينشدون أجزاءهم وتكون الديكورات رائعة جداً والآلات المستخدمة فوق العادة أيضاً. أما الجزء

الثاني الذي يمثّل فيه هارليكان وكولومباين وسكاراموش وبيروت[1] فهو جزء يتم بالتمثيل فقط وغير منطوق «صامت»، لكن تسمح لك الملامح والمؤثرات بتتبع الأحداث بسهولة، وهو بوجه عام شديد الإضحاك.

وكان السيد «ريتش» مدير هذا المسرح ينفق مبالغ كبيرة على مسرحيات من هذا النوع، واثنتان منها شهيرتان هما «اغتصاب يوروبا» و «وأورفيوس في البلاد الواطئة». وفي المسرحية السابقة يوجد جزء من المسرح يمثل الجحيم، ويجلس فيه آلهة وإلاهات ويرتفع تدريجياً نحو السحب، وفي نفس اللحظة ترتفع من الأرض خشبة مسرح أخرى يمثل المنظر عليها منزل مزرعة أمامه كوم من السماد عليه بيضة في حجم بيضة النعام. وبسبب حرارة الشمس تنمو البيضة تدريجياً، وعندما تصل لحجم كبير جداً تنفتح متكسرة ويخرج منها هارليكاناً صغيراً في حجم طفل له ثلاث أو أربع سنوات من العمر، وشيئاً فشيئاً يصل لارتفاعه الطبيعي.

ويقال أن السيد «ريتش» أنفق أكثر من 4,000 جنيه إنجليزي على مسرحية «أورفيوس». وكان الثعبان الذي قتل «يوريدايس» ذا حجم هائل ومغطى بالخيوط الذهبية والخضراء كله وعليه بقع حمراء، وتلمع عيناه مثل النار، ويزحف فوق المسرح ورأسه عالياً، محدثاً فحيحاً صاخباً مرعباً لكنه طبيعي.

وفي الليلة الأولى التي عرض فيها هذا المشهد الصامت كان الملك حاضراً، وقد كنت سعيد الحظ أن أكون هناك، وكان واحد من الحارسين اللذين وقفا على جانبي خشبة المسرح وظهريهما للممثلين قد لاحظ الثعبان عندما وصل عند أقدامه فقط، وكان الثعبان طبيعياً لدرجة أن الرجل أسقط خوذته وسحب سيفه وشهره كما لو كان في سبيله لتمزيق الوحش إلى شطرين، ولم أعرف حقيقة إذا ما كان الحارس قد انزعج حقاً أم أنه كان يمثل، ولو كان الأمر كذلك فهو شيء جدير بالإعجاب وضحك المشاهدون مرات ومرات، وهذا الثعبان ـ كدمية ـ مملوء باليايات الرائعة والآلات الشبيهة بالساعة.

---

(1) شخصيات مسرحية متخيلة شهيرة انتشرت في المسرح الإيطالي الكوميدي والإنجليزي الصامت في ق 17.. وكانت تظهر في أزياء مضحكة تمثل الطيور والحيوانات.. «المترجم».

وعندما يعلم أورفيوس أن حبيبته قد ماتت، ينتحي إلى عمق المسرح ويعزف على آلته الموسيقية، وتظهر في الحال شجيرات صغيرة من بين الصخور تنمو بالتدريج حتى تصبح أشجاراً، إلى أن تمثل خشبة المسرح غابة تينع على أشجارها الأزهار، سرعان ما تتساقط وتحل محلها فاكهة مختلفة تراها تنمو وتنضج، وتزحف الحيوانات المتوحشة أسوداً، ودببة، ونموراً، من الغابة يجذبها أورفيوس وآلته الموسيقية، إنه في مجموعة، من أكثر المشاهد التي يمكنك تخيلها سحراً وإثارة.

ويقوم السيد ريتش بدور الهارليكان ببراعة عظيمة وإتقان، ويقال عنه أنه أفضل ممثل لهذا الدور في أوروبا، وفي المشاهد الصامتة يكون أغلب الراقصين من الرجال والنساء الفرنسيين من باريس، والسيدات يلتحقن بهذه المسرحيات في أعداد كبيرة، وهن دائماً يرتدين أبهى الأزياء. وقد ملأتني رغبة فضولية لمشاهدة المصارعين وسوف أصف طرائفهم في القتال.

تكون حلبة المتصارعين دائرية ويجلس المشاهدون في قاعات ويبدأ العرض عادة بالقتال بالعصي بين بعض العامة، ولا يرحم أحد منهم الآخر لكنهم شديدو المهارة في توزيع الضربات على الرأس، وعندما يسيل الدم من أحد المتصارعين، يلقون ببضع قطع نقدية إلى المنتصر، وتستخدم هذه الألعاب لتمضية الوقت حتى يصل المشاهدون.

وفي اليوم الذي ذهبت فيه لمشاهدة قتال المصارعين، شاهدت صراعاً غير عادي، فبطلا العرض كانتا امرأتين، وحالما صعدتا الحلبة، أبدتا تحية احترام عميق للمشاهدين ثم حيت كل منهما الأخرى واشتبكتا في نقاش حيوي ومدهش، فقد تفاخرتا بأنهما تمتلكان قدراً كبيراً من الشجاعة والقوة والجرأة، وقد أسفت إحداهما أنها لم تولد رجلاً، وأنها كانت ستحقق ثروتها بقوتها، بينما أعلنت الأخرى أنها كانت تضرب زوجها كل صباح، كي تبقى يدها في.. إلخ هذا الكلام.

وكلتا المرأتين ارتدتا النزر اليسير: قميص صغير وملابس داخلية قصيرة جداً

من القماش الأبيض، وكانت واحدة من هاتين المتصارعتين امرأة إيرلندية سمينة، قوية ومن السهل النظر إليها، وكانت الأخرى امرأة إنجليزية صغيرة، ممتلئة نشاطاً وشديدة المهارة، وقد تجهزت المرأة الأولى بشريط أزرق على رأسها، ووسطها ويدها اليمنى. بينما ارتدت الأخرى شرائط حمراء.

وكانت أسلحتهما نوعاً من السيوف مزدوجة المقبض طولها ثلاثة ـ أو ثلاثة أقدام ونصف ـ وكان المقبض مغطى والنصل عرضه حوالى ثلاث بوصات وليس حاداً كله وإنما حوالى نصف قدم منه فقط كان حاداً، لكن هذا الجزء يقطع كالموسى، وقد قام المشاهدون بعديد من المراهنات، بل إن بعض النبلاء الذين كانوا موجودين حددوا مراهنات مرتفعة جداً.

وكان على جانبي المرأتين رجل يقف قريباً، ويحمل عصاً طويلة، جاهزاً ليفصل بينهما إذا ما سالت الدماء، وبعد وقت، بدت المصارعة شديدة الحيوية وتواصلت بقوة وعنف بالجانب العريض من السلاح، وبالنسبة لإحراز النقاط لم يتم منها شيء، إلاّ أن المرأة الإيرلندية تلقت ضربة قوية ـ في الحال ـ على جبهتها، وبذلك انتهى الجزء الأول من القتال. وقام مؤيدو المرأة الإنجليزية بإلقاء الشلنات وأنصاف الكراونات عليها وصفقوا لها.

وخلال هذه الفترة تمت خياطة جرح جبهة المرأة الإيرلندية فوق الحلبة، ووضعت فوقه ضمادة، وشربت زجاجة كبيرة من الخمر القوية، لتستعيد شجاعتها، ثم بدأ القتال مرة أخرى، وكل مقاتلة بيدها اليسرى خنجر كي تُبعد به الضربات، وقد جرحت المرأة الإيرلندية للمرة الثانية، وتلقت غريمتها من جديد قطع النقود والهتافات من المعجبين.

وتمت خياطة الجرح، واستؤنف القتال للمرة الثالثة، وقد حملت المرأتان دروعاً من الخشب كأسلحة دفاعية، وهذه الجولة الثالثة من القتال استمرت لفترة دون نتيجة، لكن كان مصير المرأة الإيرلندية المسكينة أن تكون هي الخاسرة، لأنها تلقت إصابة بجرح طويل وعميق يمر من رقبتها حتى زورها، وخاطه الجراح لكنها كانت في حالة سيئة تمنعها من مواصلة القتال أكثر من ذلك، وقد أزف

الوقت، إذ إن المتصارعتين تقطعت أنفاسهما، إضافةً لجراح المرأة الإيرلندية. وألقى المشاهدون قليلاً من النقود للتخفيف عنها، في حين حازت المنتصرة على نتاج عمل يوم جيد من قتالها، ولحسن الحظ أنه نادراً ما يسمع المرء عن نساء مصارعات.

أميرة ويلز تضع طفلة

«31 يوليو/ ناصر 1737 افرنجي»

*** لـورد هيرڤي**

«تزوج «فريدريك» أمير ويلز من «أوجستا» ابنة «فردريك الثاني» ملك ساكسونيا عام 1736 افرنجي، والولادة الموصوفة هنا لابنتهما الأولى «أوجستا».

كانت العلاقات سيئة بين الأمير ووالده جورج الثاني لمدة طويلة، وبعد هذه الفترة من توالي الأحداث، مُنع من دخول قصر «سانت جيمس» وطُلب من السفراء الأجانب عدم زيارته، واللورد هيرڤي، قاص هذه الرواية، كان نائباً، للياور في القصر الملكي».

.. وأصل الآن إلى حادث شديد الغرابة، سأكون حذراً تماماً حياله، لقد شاع طويلاً أن الأمير قد انتوى وجوب بقاء الأميرة في لندن، ولأن الملك والملكة قررا ألاّ تبقى، فقد اتخذت الإجراءات لمنعها من ذلك. وقد تقرر في النهاية - بعد موافقة الملك والملكة والسير روبرت والبول - أن يرسل الملك رسالة للأمير يخبر فيها سموه بأنه قرر بقاء الأميرة في بلاد هامبتون.

قام اللورد هيرڤي بإخبار الملكة والأميرة كارولين بأن الأمير لن يتحمل هذه الرسالة وستكون إجابته عليها بأن الأميرة لن تقيم حيث قرر الملك والملكة، فسألته الملكة كيف يتخيل أن الأمير - بقدر ما هو عليه من إهانة - يغامر بعدم إطاعة أوامر الملك الثابتة في هذا الشأن؟

أجاب اللورد هيرڤي بأن الأمير سيتظاهر بأن ذلك كان محض مصادفة، لأنه

طالما أن الدكتور هولينجز والسيدة كانونز سَيُدفعان للقول بأن الرياضة مفيدة للأميرة في حالتها هذه، فلسوف تُحمل مرة أو مرتين أسبوعياً إلى «كيو» أو «لندن»، وأي من هذين المكانين، هما ما يريد الأمير أن تقيم فيه الأميرة، ولسوف يدفعها ـ عندما تكون في الشهر الأخير المحدد لها ـ للتظاهر بالمرض.

ولأن أي شخص لن يمكن إثبات عدم مرضها الذي ستشكو منه، فلن تستطيع الملكة ولا الملك ـ حتى لا يُتهما بالجفاء ـ أن يقولا بوجوب نقلها، وهناك بالطبع، سوف تقوم سموها بالوضع.. فأجابت الملكة: «حسناً إذن، لو كان الأمر كذلك، فلن أجد له حلاً، ولكن عند ولادتها سوف أكون معها بالتأكيد، فدعها ترقد حيث تشاء لأنها لا تستطيع أن تدخل الفراش بأسرع مما يستطيع الإنسان ضرب أنفه و «سوف أكون متأكدة من أنه طفلها، إذ من جانبي لا أراها حاملاً، وأنتم جميعاً تقولون إنكم ترون حملها، ولهذا فأعتقد أنه كذلك، وأنني عمياء».

وكانت الملكة تضغط كل يوم على السير روبرت لتوصيل هذه الرسالة إلى الأمير قائلة: «سير روبرت، سوف نقع في المأزق، لأنه سوف ينقلها قبل أن يتسلم أية أوامر بإبقائها هنا، ولسوف يقول فيما بعد بأنه عبَّر أمام الجميع عن مقاصده، وهو استنتج أنه لو لم يؤكد الملك أوامره فلسوف يسمع شيئاً عن ذلك». وقال السيد روبرت طالما أن الأميرة لم تتأكد حتى بداية أكتوبر، فذلك وقت كاف وطويل، وبهذه الطريقة تأجلت هذه الرسالة المنتواة، يوماً بعد يوم، حتى لم ترسل أبداً.

وفي يوم الأحد 31 يوليه، أُخذت الأميرة في المساء، بعدما تعشت أمام الجميع في ذلك اليوم مع الملك والملكة، وكانت بادية الإعياء وعليها كل أعراض الولادة الفعلية، حتى إن الأمير طلب عربة استعداداً لنقلها للندن في هذه اللحظة، وقد جاءت آلامها سريعة وقوية لدرجة أن ماءها انفجر قبل أن يحملوها خارج المنزل. وعلى أية حال، ففي هذا الوضع، قام السيد دونوابيه معلم الرقص يسندها إلى أسفل السلالم من أحد ذراعيها والسيد بلود ورث ـ وهو أحد ضباط

الأمير ـ من الذراع الأخرى، وكان الأمير في المؤخرة، وقد أدخلوها للعربة بصعوبة كبيرة.

وقامت السيدة آرشيبالد هاميلتون والسيد تاونشند بالإشارة بشدة لهذه الخطوة الطائشة، وتتوسل إليه الأميرة باسم الله أن يتركها لتبقى حيثما هي، لأن آلامها كانت عظيمة لدرجة أنها لم تستطع أن تخطو خطوة بعد أخرى، إذ كانت في أقصى ألمها «الطلق» عندما حركوها، لكن الأمير بغرابة تساوي حماقته، وحماقة تتساوى مع همجيته أصر على الاستمرار وهو يصرخ: «تشجعي، تشجعي، ياه، ياللسخف». ويخبرها ـ مشجعاً إياها بطريقة طبيب الأسنان ـ أو مواسياً ـ بطريقة الجلاد ـ بأن كل شيء سينتهي في دقيقة.

وبمثل هذه الإثارة وبهذا الأسلوب ـ بعدما أكد على كل الخدم بألا ينبسوا بكلمة حول الموضوع، خشية أن تصل أخبار حالة الأميرة للجانب الآخر من القصر ويمنعون ذهابهم ـ، قام بإدخالها إلى العربة، وكان هناك في العربة بالإضافة له ولها، السيدة «أرشيبالد هاميلتون» والسيدة «كلا فرنج» والسيدة «باين»، مع سيدتين حائكتين لملابس الأميرة، أما «ڤربيد» خادم حجرة الأميرة، الذي كان جراحاً ومولداً فكان موجوداً فوق جسم العربة والسيد بلودورث واثنان أو ثلاثة آخرون كانوا خلف العربة.

وبعد تحميلها بهذا الوضع، أمر الأمير حوذيه أن ينطلق بأقصى سرعة نحو لندن، وعند حوالى العاشرة وصلت هذه الحمولة إلى المدينة، ومع كثرة المناديل التي ألقيت واحداً بعد الآخر على ملابس «سموها» الداخلية في العربة، تلطخت ملابسها بالأقذار المتدفقة التي تصاحب هذه الحالات، لدرجة أن الأمير قام ـ عندما توقفت العربة عند قصر سانت جيمس ـ بإصدار الأوامر لإطفاء كل الأنوار حتى لا يظهر للناس برهان واضح على حمقه وعلى سوء حظها معروضاً أمامهم.

وعندما وصلوا إلى سانت جيمس لم يكن هناك شيء معد لاستقبالها، وجاء المولد في دقائق قليلة، والمناشف، وأواني التدفئة، والمعدات الأخرى الضرورية لهذه العملية، وكلها أتت بواسطة مبعوثين لمنازل مختلفة في المناطق المجاورة،

ولم تكن هناك وسائد، فوضعوا «سموها» على فراش بين ستارتين من مفارش الموائد وعند الحادية عشرة إلاّ الربع وضعت مولوداً صغيراً ضئيلاً، وكانت طفلة في حجم علبة خلع الأسنان الكبيرة.

ولم يكن موجوداً من مجلس المستشارين سوى اللورد الرئيس ويلمنجتون واللورد جودولفين حامل الأختام إذ أرسل الأمير مبعوثاً لإحضار الأول منهم من منزله في تشيزويك فور مغادرته بلاط هامبتون والثاني لأنه يعيش بجوار قصر سانت جيمس فقد أرسلوا له حالما وصل الأمير المدينة، وأرسل أيضاً للورد المستشار ولكبير الأساقفة لكن الأول كان قد ذهب للريف، والثاني وصل بعد ميلاد الطفلة بربع ساعة.

وفي هذه الأثناء، في بلاط هامبتون، مساءً، كان الملك يلعب الورق أسفل القاعة، والملكة تشترك في رقصة «الكوادرل» فوق، والأميرة إيميلي على طاولة اللعب، أما الأميرة كارولين واللورد هيرڤي فكانا يشتركان في لعبة ورق أخرى كالمعتاد وافترقوا جميعاً عند الساعة العاشرة.

وما هو مذهل لروايته أنهم ذهبوا للنوم جميعهم عند الساعة الحادية عشرة دون سماع حرف واحد عن مرض الأميرة أو حتى عن مغادرتها القصر، وبعد الساعة الواحدة والنصف، أي بعد ساعتين من دخول الأميرة لفراشها، حضر مبعوث بأول أخبار عن حالة ولادتها، وعندما دخلت السيدة «تيتشبيرن» - المسؤولة عن حجرات النوم - لإيقاظ الملك والملكة، سألت الملكة فور وصولها عن السبب في إيقاظهم في مثل هذه الساعة غير العادية، كسؤال عادي جداً، متساءلة إذا ما كان المنزل يحترق.

وعندما أجابتها السيدة «تيتشبيرن» بأن الأمير أرسل لإعلام جلالتهما أن الأميرة تلد، صرخت الملكة على الفور: «يا إلٰهي، إليّ بعباءة المساء، سوف أذهب إليها هذه اللحظة»، فأجابت السيدة تيتشبيرن «عباءتك سيدتي، وعربتك أيضاً، فالأميرة في قصر سانت جيمس». فقاطعتها الملكة «هل أنت مجنونة، أو نائمة عزيزتي تيتشبيرن إنك تحلمين»، وعندما أصرت السيدة تيتشبيرن بأنها متأكدة

من الحقيقة، اندفع الملك في عاصفة انفعالية وبدأ بالألمانية - ما أخبرتني الملكة فيما بعد - يوبخها قائلاً: «أترين الآن، بكل حكمتك، كيف احتالا عليك، إن كل ذلك خطؤك أنت، فهناك طفل زائف سينسب إليك، وكيف ستبررين ذلك لكل أطفالك؟»

عبور جبال الألب

«نوفمبر/ الحرث 1739 افرنجي»

*** توماس جراي**

«السيد (والبول) الذي مات كلبه في هذه الأحداث، هو (هوراس والبول) 1717 ـ1797 افرنجي، رفيق رحلات جراي».

تورين، في نوفمبر - اليوم السابع - عام 1739 افرنجي.

وصلت هذه الليلة هنا، وجلست هذه اللحظة لأريح نفسي بعد رحلة مرهقة دامت ثمانية أيام، ولمدة الأيام الثلاثة الأولى، اتخذنا نفس الطريق الذي مررنا منه للذهاب إلى جنيف، وفي اليوم الرابع تحولنا عنه، وخلال هذا اليوم واليوم الذي يليه رحلنا «بين» - بدلاً من القول «على» - جبال الألب، فالطريق بشكل عام يسير عبر واد عميق على جانب نهر «آرك»، الذي شق لنفسه ممراً، بصعوبة كبيرة وصخب هائل وسط كميات ضخمة من الصخور التي تدحرجت من قمة الجبل إلى أسفله.

وقد تقدم الشتاء كثيراً بدرجة كبيرة أفسد فيها جمال المدى، وعلى أية حال، ما زال هناك بعض الجمال باق بين وحشية المكان ورعبه، وفي اليوم السادس بدأنا نرقى بعضاً من هذه الجبال وبينما كنا نمر بواحد منها، واجهنا حادث شديد الغرابة، كان مستر «والبول» يملك كلب صيد صغير ذا لون أسود وسمين، وكان مغرماً به جداً وأحياناً ما اعتاد الجلوس ويترك كلبه يجري بجوار عربته، وكنا في ذلك الحين وسط طريق شديد الوعورة، عرضه لا يزيد على ياردتين على أكثر تقدير، وعلى أحد الجانبين غابة عظيمة من الصنوبر، وعلى الجانب الآخر هوة شاسعة.

كان الوقت ظهراً، والشمس مشرقة، وحدث كل شيء فجأة، فمن جانب الغابة التي كانت تميل بشدة لأعلى، في حين ينحدر الجانب الآخر لأسفل، اندفع ذئب عظيم حتى اقترب من رؤوس الجياد، وأمسك الكلب من زوره وعاد مندفعاً إلى التل وهو في فمه، وقد تم هذا في أقل من ربع الدقيقة ورأيناه جميعاً، بل إن الخدم لم يجدوا وقتاً لسحب مسدساتهم، أو أن يفعلوا شيئاً لإنقاذ الكلب، ولو لم يكن الكلب هنالك، وفكر هذا المخلوق «الذئب» في الإمساك بواحد من جيادنا، لسقطت العربة ونحن والجميع، إلى أكثر من خمسين باعاً[1] أسفل هذه الهوة السحيقة.

وفي اليوم السابع وصلنا إلى «لين بورج» المدينة الأخيرة بمقاطعة «سافوي»، وهي تقع على سفح الجبل الشهير «سينيس» الذي يتمركز بصورة لا تسمح بأي منفذ لطريق إلاّ من خلال أعلى قمته فقط، وهنا اضطررنا لحمل العربة في أجزاء، والأمتعة وغيرها تحمل على البغال، وأما نحن فقد التففنا بأنفسنا في الفراء، وجلسنا فوق نوع من المقاعد الموسدة بدون أرجل، وتحمل على أعمدة كالمحفة، وهكذا بدأنا نصعد بمساعدة ثمانية رجال.

كانت المسافة للقمة ستة أميال، حيث يتسع سهل ممتد أكثر من عرض الجبل نفسه، مغطى باستمرار بطبقة عميقة من الجليد، وفي وسطه بحيرة ضخمة لا قرار لها، ومن هنا يستمد النهر منبعه، ويتساقط فوق أحجار صخرية عملاقة أسفل الجانب الآخر للجبل تماماً، وكان الهبوط يستغرق ستة أميال أخرى، ولكنه أكثر انحداراً من الصعود كلية، وهنا كان الرجال يطيرون بك - تماماً - إلى أسفل، ينتقلون من حجر لحجر بسرعة لا تُصدق، في أماكن لا أحد - غيرهم - يستطيع أن يخطو ثلاث خطوات دون أن يقع.

وكانت ضخامة الهوة، وهدير النهر وروافده التي تجري إليه والقمم الضخمة التي يعلوها الثلج والجليد، والسحب أسفلك وحولك، كلها أشياء يصعب أن

(1) الباع = ستة أقدام.

تدركها ما لم تشاهدها، ورغم أننا سمعنا أوصافاً عديدة وغريبة حول هذا المنظر، لم يرق أي من هذه الأوصاف للتعبير عنه وقد أكملنا الهبوط في خمس ساعات، ومن ذلك يمكنك أن تدرك بسرعة حركة الرجال، ووصلنا الآن إلى «بيرمونت»، وتريثنا برهة في «لافيريير»، وهي قرية صغيرة على بعد ثلاثة أرباع الميل في طريق الهبوط.. لكن ما تزال بين السحب، حيث بدأنا نسمع لغة تخاطب جديدة حولنا، وأخيراً وصلنا إلى الأسفل تماماً، فمضينا عبر «البادوسوز» وهو ممر ضيق بين جبال الألب، ومحمي بواسطة قلعتين ويقع بالقرب من «بوسولون» وفي المساء التالي، عبر ميدان رائع طوله تسعة أميال، ومستقيم كالخط وصلنا إلى هذه المدينة.

الأسقربوط[1]

«1741 افرنجي»

*** ريتشارد واكر**

.. حالما عبرنا مضايق «لومير»، بدأ الأسقربوط يظهر بيننا، وبقاؤنا الطويل في البحر، والإرهاق الذي تجشمناه، ومرات الإحباط المتكررة التي واجهناها، سهلت انتشاره إلى هذه الدرجة التي ما إن وصلنا معها لنهاية أبريل حتى بقي قليل من الرجال فقط على سطح السفينة، الذين لم يتأثروا بالمرض إلى حد ما، وقد مات في هذا الشهر ما لا يقل عن ثلاثة وأربعين فرداً فوق السفينة «سنتوريون».

ورغم أننا اعتقدنا أن حدة المرض قد ارتفعت بصورة غريبة، وامتلأنا بالأمل أنه كلما تقدمنا نحو الشمال فسوف تَخفت ضراوته، إلاّ أننا وجدنا ـ على العكس ـ أنه في شهر مايو، فقدنا ما يقارب ضعف هذا العدد، وحيث إننا لم نهبط الشاطىء حتى منتصف يونيه، فقد استمرت الوفيات في الزيادة، وامتد المرض امتداداً مخيفاً وبعدما فقدنا أكثر من مائتي رجل، لم نستطع تشغيل أكثر من ستة رجال للشراع الأمامي في المراقبة وقادرين على العمل.

---

(1) الأسقربوط مرض ينتج عن نقص ڤيتامينات معينة بسبب أكل الطعام المحفوظ باستمرار، وذلك يكثر في الرحلات البحرية الطويلة حيث لا تتوافر الأطعمة الطازجة وخاصة الخضروات. «المترجم».

وكان هذا المرض يتكرر ملازماً كل الرحلات الطويلة، ولأنه شديد الدمار لنا بخاصة، فهو بالتأكيد الشيء الوحيد غير الموضوع في الاعتبار من بين ما يؤثر في الجسم الإنساني، ولأن أعراضه غير ثابتة ولا حصر لها، وتطوراته وآثاره غير منتظمة على الإطلاق، إذ نادراً ما تجد اثنين لهما نفس الشكوى، وحيثما نجد ثباتاً في الأعراض، فإن ترتيب ظهورها يختلف تماماً. وعلى أية حال، رغم أنه يتكرر ظهوره في صورة أمراض عديدة أخرى، ولهذا فإنه لا يُشخص وفقاً لأية معايير عملية مُحكَمة.

إلاّ أن هناك بعض الأعراض الأكثر عمومية من غيرها، ولهذا ـ باعتبارها تحدث في الأغلب ـ فهي تستحق تحديداً خاصاً أكثر، وهذه المظاهر الشائعة عبارة عن بقع ضخمة فاقدة اللون متناثرة فوق جميع أجزاء الجسم وأرجل متورمة، ولثة متعفنة وفوق ذلك كله، إعياء غير عادي يشمل الجسد كله، خاصة بعد أي عمل حتى لو كان تافهاً، ويتحول هذا الإعياء إلى انحناء شديد الألم لأقل جهد مبذول أو أدنى حركة.

ويصاحب هذا المرض ـ أيضاً ـ في العادة رفض للخمور بشكل غريب، وقشعريرة وارتعاش وعدم ثبات مع رعب شديد لدى وقوع أدنى حادث، وحقيقة أنه كان ملحوظاً ـ في كل خبراتنا المتكررة مع هذا المرض ـ، أنه مهما كان أفرادنا محبطين أو فاقدي الأمل في أي لحظة، فهو لا يني يضيف قوة جديدة لشراسته فهو يقتل ـ عادة ـ أولئك الذين وصلوا المرحلة المتأخرة، ويدفع بعضهم إلى البقاء في قمراتهم، أولئك الذين كانوا ـ قبلاً ـ قادرين على أداء بعض الواجبات حتى إنه يبدو كما لو كان نشاطاً عقلياً وأفكاراً دموية. وهي أشياء لا قيمة لها في تجنب ضراوة هذا المرض القاتل.

وليس من السهل استكمال القائمة الطويلة للظواهر المتعددة المصاحبة لهذا المرض، لأنه غالباً ما يحدث حمى عنيفة، واضطراب المرارة، وآلام روماتيزمية حادة. وأحياناً ما يؤدي إلى التهاب الأمعاء ويكون مصحوباً بصعوبة في التنفس، ويُعد هذا أكثر مظاهر مرض الأسقربوط خطورة، وفي أحيان أخرى، يتعرض

الجسم وبخاصة الأرجل لتقرحات من أسوأ نوع، مصحوبة بعظام متعفنة مع تورم متزايد في اللحم، لا يستكين أمام أي دواء.

ولكن هناك ظاهرة شديدة الغرابة، ولا يمكن تصديقها من خلال أي برهان، وهي أن ندبات الجراح التي شفت من سنين عديدة، تتفتح عنوة مرة أخرى بسبب هذا الاضطراب الڤيروسي. ومن ذلك، كان هناك مثال واضح في واحد من المرضى على ظهر السفينة «سنتوريون»، الذي جرح منذ خمسين عاماً في معركة «بوين» ورغم أنه شُفي منه بعد ذلك بسرعة، واستمر يحيا معافىً سنوات طويلة مضت، إلاّ أنه عندما أصابه الأسقربوط وبعد تقدم المرض، تفتحت جراحه من جديد، وبدت كما لو كانت لم تشف أبداً من قبل، بل والأكثر إدهاشاً أن صلابة العظام المكسورة، التي التأمت لمدة طويلة، وجدناها هنا وقد تحللت من جديد، وبدأ الكسر كما لو كان لم يلتحم أبداً.

والواقع، أن آثار هذا المرض كانت في كل لحظة مُبهرة تماماً، لأن العديد من أفرادنا، رغم التجائهم لقمراتهم ظهرت عليهم علامات اللامبالاة بشأن الصحة، لأنهم كانوا يأكلون ويشربون بنهم، وكانوا مرحين، ويتحدثون بحيوية أكثر وبأصواتٍ حادة مرتفعة، وبالرغم من ذلك، إذا ما تحركوا أدنى حركة، حتى لو كانت فقط من مكان في السفينة إلى مكان آخر، وبداخل قمراتهم، فإنهم يسقطون مقطوعي الأنفاس في الحال، والآخرون الذين وثقوا في قوتهم الظاهرية، وقرروا أن يخرجوا من قمراتهم، ماتوا قبل أن يصلوا إلى سطح السفينة.

ولم يكن شيئاً غير عادي لأولئك القادرين على السير فوق السطح وأداء بعض الواجبات، أن يسقط الواحد منهم ميتاً في لحظة، وفي رغبة قوية للعمل بأقصى حيويتهم، مات الكثير من رجالنا بهذه الطريقة أثناء هذه الرحلة.

جون ويزلي يعظ في «هول»

«24 أبريل/ الطير 1752 افرنجي»

*** جون ويزلي**

. . . فيما بين الخامسة والسادسة، حضرت العربة وأخذتني إلى «مايتون

ـ كار» على بعد نصف ميل من المدينة، وقد تجمع أناس كثيرون ـ فقراء وأغنياء، راكبون ومشاة، وبعربات متعددة ـ مع بعضهم، في الحال، فصرخت فيهم بصوت عال وروح عالية: «ماذا يفيد الإنسان، إذا ما كسب العالم، وخسر نفسه؟» فأنصت آلاف من الناس، لكن العديدين تصرفوا كما لو كان مولوخ[1] قد تملكهم، فتطايرت الأحجار وقطع الطين من كل الاتجاهات، لكنها لم تصل إليَّ أو تزعجني.

وعندما أنهيت موعظتي، مضيت لإحضار العربة، لكن الحوذي كان قد فَلّ، وأصبحنا في مأزق، حتى قامت سيدة مهذبة بدعوة زوجتي وأنا لركوب عربتها، وقد جلبت على نفسها بعض المتاعب لهذا السبب، ليس بسبب وجود تسعة أفراد منا داخل العربة فقط، وإنما لأن العامة لحقوا بنا مقتربين، وهم يقذفون النوافذ ـ التي لم نعتقد أن من الحكمة إغلاقها ـ بما يمكن أن يصل لأيديهم، لكن سيدة مهذبة ضخمة كانت تجلس بجواري أخفتني كي لا يقترب مني شيء ما.

قطيطة على سطح السفينة

«11 يوليو/ ناصر 1754 افرنجي»

*** هنري فليدنج**

وقعت حادثة مأساوية في هذا اليوم، عندما كانت الباخرة تستعد للإبحار، ولم تبعد كثيراً بعد كما سيبدو، سقطت قطيطة من بين أربع قطط تسكن القمرة من النافذة إلى البحر، وتم إصدار جرس تنبيه للقبطان فوراً الذي كان في هذه اللحظة فوق السطح، وتلقى النبأ باهتمام بالغ ولعنات مريرة متعددة، فأعطى أوامره في الحال لقائد الدفة من أجل الحيوان المسكين، كما أسماه، فَضُمت الأشرعة على الفور، وجاهدت كل الأيدي، تبعاً للأوامر، لاسترداد هذا الحيوان البائس.

---

(1) مولوخ: أحد آلهة المعتقدات الكنعانية، كانوا يقدمون الأطفال أضحية لرمزه. «المترجم».

وكنت مندهشاً تماماً أمام كل هذا، بصورة أقل - فعلاً - أمام رقة الكابتن الكبيرة عن دهشتي أمام أمله في أي إمكانية للنجاح، لأنه إذا كان للقط تسعة آلاف روح بدلاً من تسعة فقط، فإنني أستنتج أنها ضاعت كلها، وعلى أية حال فقد كان لدى «ريس البحارة» أفكاراً حارة أكثر، إذ إنه خلع «سُترته» وسرواله وقميصه وقفز بجرأة إلى الماء، ولدهشتي الشديدة عاد في دقائق قليلة إلى السفينة وهو يحمل الحيوان الهامد في فمه، ولم تكن هذه، فيما لاحظت، مسألة صعبة كما بدت أمام جهلي أو كما تبدو - من باب الاحتمال - لقارئي الجديد، فالقطة عرضوها - الآن - للهواء وللشمس على ظهر السفينة حيث يئس من حياتها الجميع إذ لا تظهر عليها أي علامات لذلك.

ولم تحطم إنسانية القبطان - لو كان لي تسميتها كذلك - فلسفة بتسليم نفسه لهذه المناسبة المفجعة، فلقد شعر بخسارته كرجل، وقرر أن يُظهر تحمله لذلك كرجل، وبعدما أعلن أنه ود لو يفقد قنينة خمر من الروم أو البراندي على ذلك، حمل نفسه على الانغماس في لعب النرد مع الراهب البرتغالي، وفي هذه اللعبة البريئة قضيا ثلثي وقتهما.

ولكن حيث إن لديَّ - ربما - رغبة على سبيل الدعاية لإثارة التعاطف الرقيق لدى قرائي في هذه الرواية، أعتقد أنني غير جدير بالتسامح إذا ما أنهيتها دون أن أمنح القراء الارتياح بسماع أن القطة الصغيرة شفيت في النهاية وفي هذا سعادة غامرة للقبطان، لكنها خيبة أمل بالنسبة لبعض البحارة، الذين أكدوا أن غرق قطة هو الطريق الأكيد لهبوب رياح ملائمة وهو افتراض، رغم أننا سمعنا تفسيرات عديدة ومبررة له، لن نستأنف تحديد السبب الأصلي والحقيقي له.

السجن الأسود في كالكوتا

«21 يونيه/ الصيف 1756 افرنجي»

*** جـ، ز، هولويل**

«هوجمت كالكوتا، المركز الرئيسي لشركة الهند الشرقية، عام 1756 افرنجي

بقيادة سراج الدولة المجاهد ضد الاستعمار البريطاني، وقد تم حبس الأسرى أكثر من طوال ليلة، في سجن عسكري بقلعة ويليام واسمه «الحفرة السوداء» وبعد عام من ذلك، هزم «كليف» سراج الدولة في بلاس».

. . . صوّر لنفسك يا صديقي، لو أمكنك ذلك، موقف مائة وستة وأربعين رجلاً في حالة بائسة، مجهدين من الإرهاق والحركة، يتكومون معاً في مربع مساحته ثمانية عشر قدماً، في ليلة مكتومة خانقة في إقليم البنغال، محبوسين من الشرق والجنوب - وهما الاتجاهان الوحيدان اللذان يمكن أن تهب منهما الرياح لتصلنا - بواسطة حوائط مصمتة، وبواسطة حائط وباب من الشمال، والفتحة الوحيدة باتجاه الغرب من خلال نافذتين، محكومة بقضبان حديدية، يأتينا منهما الحد الأدنى من تجدد الهواء بصعوبة.

وما سيترتب على ذلك، بدأ متجسداً لي بأشكال مرعبة، في اللحظة التي جلت فيها ببصري ورأيت حجم ووضع الغرفة، وقد بذلت محاولات عديدة لدفع الباب، لكن لأننا لا نملك إلاّ أيادينا في هذا العمل، ولأن الباب يُفتح للداخل، فقد ذهبت كل المحاولات هباءً وبلا نتيجة. وما هي إلاّ دقائق قليلة تم حبسنا فيها حتى غرقنا في عرق غزير، لا تستطيع أن تكوّن فكرة عنه، وقد نجم عن ذلك عطش قاس، تزايد كلما فقد الجسم سوائله.

كما تم التفكير في وسائل متعددة للحصول على مساحة أكبر وهواء أكثر ولكي نحصل على الأولى، تقرر أن يخلع الجميع ملابسهم، وقد لاقت هذه الفكرة تأييداً كحركة سارة، وفي دقائق قليلة - فيما أعتقد - تعرى كل شخص، عدا السيد كورت والشابين المهذبين المجاورين لي وأنا، ومتعوا أنفسهم لفترة وجيزة بما حصلوا عليه من تحسن كبير.

وقد حركوا جميع القبعات جلباً لهواء متجدد، كما اقترح السيد «بيلي» أن يجلس كل إنسان على مؤخرته «القرفصاء»، ونُفذت هذه المشورة عدة مرات، وفي كل مرة، كان العديد من هذه المخلوقات المسكينة، الذين كانت قوتهم الطبيعية أقل من الآخرين أو الذين أُجهدوا فوق طاقتهم، لا يستطيعون استرداد الإحساس بأرجلهم في الحال، كما يفعل الآخرون عندما تصدر إليهم التعليمات

بالوقوف، فلا يستطيعون الوقوف بعد ذلك، إذ سرعان ما يداسون بالأقدام حتى الموت أو الاختناق.

وعندما كان الجميع يجلسون، كانوا متلاصقين بشدة لدرجة أنهم كانوا يضطرون لبذل مجهودات كثيرة قبل أن يستعدوا للنهوض ثانية، وقبل الساعة التاسعة أضحى عطش كل فرد لا يمكن أن يحتمل، وأصبح العرق صعباً، ومن جديد بُذِلت المحاولات لدفع الباب لكنها كانت بلا طائل، ووجهنا عدة إهانات للحراس لحثهم على إطلاق النار علينا، أما أنا فمن جانبي كنت أشعر بألم أو قلق قليلين حتى هذه اللحظة، هو ما نتج عن قلقي لآلام أولئك الذين معي. وباحتفاظي بوجهي بين قضيبين من قضبان النافذة، حصلت على هواء يكفي كي تعمل رئتاي بيسر، رغم أن عرقي كان يتزايد، والعطش يبدأ.

في تلك الفترة تصاعدت رائحة بول نفاذة داخل السجن لدرجة أني لم أتحمل الالتفات بوجهي إلى تلك الناحية لأكثر من ثوان قليلة كل فترة وبدأ كل شخص يعلو غضبه، والكثير منهم كاد يُجن، عدا أولئك أصحاب الأماكن القريبة من النافذة أو عليها، وأصبحت كلمة «ماء» «ماء» هي الصرخة الموحدة، ثم أشفق علينا ضابط الحرس - السابق ذكره[1] - فأمر رجاله بإحضار بعض قرب الماء، وذلك ما كنت أخشاه فقد توقعت ضياع الفرصة الضئيلة الباقية لنا.

وحاولت مراراً التحدث إليه على انفراد لأمنعه من إحضار الماء، لكن النداءات كانت عالية فأضحى الحديث مستحيلاً، وظهر الماء، ولا يمكن للكلمات أن تصف الفوضى العامة والسباب الذي أوصلنا إليه منظر الماء، وكنت قد أقنعت نفسي بأن بعضاً منا قد يعيشون طوال الليل إذ ما احتفظنا بأفكار معتدلة عاقلة، لكن انطباعي الآن هو استحالة إمكانية أن ينجو أحدنا حتى لرواية هذه القصة المحزنة، وذلك ما أثار فيَّ ألماً كبيراً. . . وحتى وصول الماء، كنت أبقيت

(1) هذا النص مقتطع من نص أكبر كما يتضح هنا وإن كان ذلك لا يؤثر على مجرى الأحداث. «المترجم».

نفسي بعيداً عن معاناة ألم العطش، فنمى عطشي بسرعة، ولم تكن لدينا وسائل لنقله داخل السجن سوى بواسطة القبعات المتدافعة من خلال القضبان، وهكذا قمت أنا والسيدين كولز وسكوت بإمدادهم به بأسرع ما يمكننا، لأننا لم نتحمل رؤية الآلام التي يعانونها من جراحهم، لكن هؤلاء الذين خبروا العطش الشديد، أو الذين اعتادوا على سبب وطبيعة هذه الشهوة، سيكونون مدركين أن الأمر لن يزيد على راحة وقتية لبُرهة، فالمسألة مازالت قائمة بأسبابها، فبرغم أننا أدخلنا قبعات مليئة داخل القضبان إلاّ أن نشوء عراك عنيف وتضارب مستمر للوصول للماء أدى إلى بقاء أقل من سعة كوب من الماء داخل هذه القبعات قبل أن تصل لشفاههم، وكانت هذه الدفعات مثل صب الماء على النار، تفيد وتزيد اللهب.

آه، يا سيدي العزيز، كيف يمكنني أن أعطيك فكرة عما شعرت به أمام صرخاتهم ونداءاتهم في الأماكن القاصية من الغرفة، أولئك الذين لم يستمتعوا بمجرد الأمل في الحصول على قطرة ماء، لم يمنعوا أنفسهم من الرجاء، ـ علماً أنه غير متوافر ـ وهم ينادونني بعشم الصداقة والتعاطف، وأولئك الذين كانوا يعرفون أنهم أعزاء عندي، هلا فكرت، لو أمكنك، فيما يعانيه قلبي عند رؤية وسماع إلحاحهم المؤلم؟، دون أن يكون في مقدوري التخفيف عنهم، إذ إن الفوضى قد عمت الآن وأصبحت مفزعة، وترك العديد منهم النافذة الأخرى ـ السبيل الوحيد لبقائهم على قيد الحياة ـ كي يشقوا طريقهم نحو الماء، وكان التدافع والتزاحم على النافذة فوق الاحتمال، فالعديد شقوا طريقهم من الجانب الآخر للغرفة ضاغطين على أولئك الذين في طريقهم، وهم أكثر ضعفاً، وداسوهم حتى الموت.

ومن حوالى التاسعة حتى الحادية عشرة تقريباً، تحملت هذا المنظر البشع والموقف المؤلم، وما زلت أمدهم بالماء، رغم أن أقدامي كادت تنكسر تحت ثقل هذه الأحمال عليها، وحتى هذه اللحظة، انسحقت أنا أيضاً حتى كدت أموت، وكان رفيقاي مع السيد ويليام باركر ـ الذي شق طريقه بالقوة للنافذة ـ قد عانينا نفس الحالة، وكانوا لفترة طويلة يحملون لي احتراماً وتقديراً أكثر مما توقعت بالفعل، مع الأخذ في الاعتبار الظروف القائمة.

والآن فإن كل التمايز قد انتهى، وقد أوشك صديقي بيلي والسادة «جنكز» و «ريڤلي» و «لو» و «بوخانان» و «سيمبسون» والعديد من الآخرين الذين أكن لهم تقديراً وتعاطفاً حقيقياً، على الموت عند أقدامي، وقد داستهم أقدام الجنود وضباط الصف العاديين، الذين بمساعدة بُنْيَتِهِم القوية قد شقوا طريقهم إلى النافذة وتمسكوا بقضبانها بشدة فوق رأسي حتى انسحقت وتَسَمَّرْتُ في مكاني، وفقدت كل حركتي، فقررت حينئذٍ أن أترك كل شيء.

ناديتهم ورجوتهم في إشارة أخيرة للاعتبارات التي يحملونها لي، كي يرفعوا الضغط عني ويسمحوا لي بالابتعاد عن النافذة كي أموت في هدوء، فأفسحوا الطريق، وبصعوبة شديدة شققت طريقي إلى منتصف السجن، حيث انخفض الازدحام بسبب العديد من الموتى - الذين كانوا فيما أعتقد يقاربون ثلث الموجودين - وبسبب الأعداد التي فرت إلى النافذة لأن الماء في ذلك الوقت كان قد وصل للنافذة الأخرى.

ويوجد في سجن الحفرة السوداء سطح متصل بمساكن الجنود، فمررت عبر الموتى ووصلت إلى الجانب الآخر له مقابل النافذة الثانية تماماً، وهنا جاءني صديقي المسكين السيد «إدوارد إير» متطوحاً فوق أجساد الموتى نحوي وبهدوئه المعتاد وطبيعته السمحة سألني عن حالي، لكنه سقط إعياءً قبل أن أجد وقتاً للإجابة عليه، فجلست فوق بعض الموتى خلفي على هذا السطح وأسلمت أمري إلى الله، وقد أراحني التفكير بأن آلامي لن تدوم طويلاً، وتزايد عطشي حينئذ بصورة حادة مع تزايد صعوبة التنفس.

ولم أمكث في هذا الموقف عشر دقائق - في اعتقادي - حتى أصابني ألم في صدري مع تسارع نبضات القلب، ووصل كلاهما إلى درجة حادة، مما دفعني إلى النهوض مرغماً، لكن الألم والخفقان والعطش وصعوبة التنفس كلها ظلت تتزايد واستعدت حواسي المتعبة، وملأني حزن لرؤية الموت غير قريب مني كما تمنيت، لكنني لم أعد أحتمل الألم الذي عانيته دون محاولة تخفيفه، وإذ أعرف أن الهواء النقي هو الذي سوف - ويمكنه - أن يمنحني إياها فقررت على الفور أن

أفتح طريقاً نحو النافذة المقابلة لي، وبواسطة مجهود ضعف القوة التي كنت أملكها وصلت إلى الصف الثالث نحوها وبيد واحدة أمسكت بأحد قضبانها واليد الأخرى أمسكت الثاني، بالرغم من اعتقادي أنه كان هناك ستة أو سبعة صفوف على الأقل بيني وبين النافذة، وفي دقائق قليلة توقف الألم والخفقان وصعوبة التنفس بينما استمر العطش بصورة لا تطاق فصحت بأعلى صوتي طالباً الماء من أجل خاطر الله.

كانوا قد اعتبروني ميتاً لكن حالما وجدوني بينهم كان ما زال لديهم الاحترام والرقة في معاملتي فصرخوا: أعطوه ماء أعطوه ماء، ولم يحاول أي واحد من أولئك القائمين بجوار النافذة أن يلمس الماء حتى شربت، لكنني لم أحصل على الراحة من الماء فعطشي قد ازداد بسببه فقررت ألاّ أشرب المزيد وإنما أنتظر الأحداث بصبر، وحافظت على فمي رطباً من وقت لآخر بامتصاص العرق الذي يسيل من أكمام قميصي وبالتقاط القطرات حال سقوطها مثل المطر الغزير من رأسي ووجهي، ولك أن تتخيل كم كانت تعاستي إذا فرت واحدة منهم من فمي.

كنت قد أتيت السجن دونما معطف أو سترة «جاكت»، فالفصل كان شديد الحرارة بالنسبة لارتداء الأول، أما الثاني فقد أغرى منظره جشع أحد الحراس فسرقه مني عندما كنا أسفل الشرفة، وبينما أنا بجوار النافذة الثانية، رآني أحد أصدقائي البائسين الواقفين على يميني، في محاولة تخفيف حدة عطشي بامتصاص أكمام قميصي، فاستَغل الفكرة، وسرقني مرة بعد مرة، مستهلكاً جزءاً غير قليل من مخزوني، رغم أنني اكتشفت ذلك فيما بعد.

فقد هممت بأن أبدأ بأحد الأكمام أولاً عندما ظننت أنه قد امتلأ بما فيه الكفاية من مخزني، هنا تلاقت أفواهنا وأنوفنا متقابلة، وقد اكتشفت أن هذا السارق فيما بعد كان سيداً مهذباً ذا حيثية يعمل معنا وهو السيد «لوشنجتون»، وهو واحد من القلائل الذين نجوا من الموت ومن لحظتها وهو يوجه لي مشاعر التقدير، فهو يعتقد أنه مدين بحياته لتلك الرشفات العديدة المريحة التي اختلسها من أكمامي، وقبل أن أصل إلى هذا الحل المريح، كانت تملكتني نوبة حادة من

العطش لا يمكن التحكم فيها، فحاولت شرب بولي لكنه كان شديد المرارة ولا يمكن احتمال تذوقه للمرة الثانية، في حين لا يوجد ماء بشري أكثر عذوبة ونعومة من ذلك الذي يأتي من العرق.

وقد سقط الكثير منا على اليمين واليسار تحت عنف الضغط واختنقوا بسرعة إذ تصاعد الآن البخار من الأحياء والموتى، وذلك ما أثر علينا في جميع الأحوال كما لو كنا مربوطين بقوة من رؤوسنا فوق حوض يمتلىء بروائح قوية نفاذة من أملاح الأمونيا حتى الاختناق، ولم يعد في الإمكان التمييز بين رائحة فرد وآخر، وغالباً عندما كان يدفعني الضغط على رأسي وأكتافي لإبقاء وجهي إلى أسفل، كنت اضطر لرفعه في الحال مرة ثانية نظراً لاقترابي من النافذة كي أنجو من الاختناق.

وعندما طلع النهار واكتشف الجميع أن كل توسلاتهم لن تؤدي لفتح الباب، خطر لواحد منهم - أعتقد أنه السيد السكرتير كوك - القيام بالبحث عني على أمل أن يكون لي تأثير يكفي للخروج من هذا الموقف المزري، وعلى ذلك قام السيدان «لوشنجتون» و «ولكوت» بالبحث، وبواسطة قميصي اكتشفوا مكاني تحت جثث الموتى فوق الأرض، فأخذوني من هناك ولأنهم رأوا بعض علامات الحياة فيَّ، أحضروني نحو النافذة التي كنت بجوارها من قبل. لكن لأن الحياة غالية عند كل إنسان ولأن الرائحة الكريهة بدأت تتصاعد من الموتى لدرجة غير محتملة، فلم يقبل أحد التخلي عن مكانه بجوار النافذة أو بالقرب منها، وهكذا اضطروا لحملي مرة أخرى والعودة بي، لكن الكابتن ميلز قام بسرعة - وهو الآن قائد يخوت الشركة - بالتخلي عن مكانه بدافع الإنسانية لأن مكانه كان عند النافذة.

عند هذه النقطة من الأحداث أرسل (السوبا) حاكم البنغال - لأنه تلقى حصراً بالقتلى بيننا - واحداً من ضباط حرسه لاستفسار عما إذا كان الرئيس ما زال حياً أم لا. فأخذوني إليه وأخبروه بأن بقية من رمق الحياة ما زالت فيَّ، واعتقدوا أنني أشفى إذا ما فتح الباب حالاً، فأرسلوا هذا الرد إلى السوبا، وأتت الأوامر مسرعة بالإفراج عنا وكانت الساعة في هذه اللحظة تقارب السادسة صباحاً.

وحيث إن الباب يفتح للداخل وإن الموتى تكوَّموا خلفه، بل وغطوا بقية

الأرضية كان من المستحيل فتحه بأية جهود من الخارج، لذا كان من الضروري رفعهم بواسطة العدد القليل الذين كانوا في الداخل والذين أضحوا شديدي الضعف لدرجة أن هذه المهمة لم تتم دون صعوبة كبرى، ورغم أنها مسألة حياة فقد استغرق الأمر عشرين دقيقة بعد وصول الأوامر حتى تمكنوا من فتح الباب.

وعند حوالى السادسة والربع صباحاً كانت بقية الـ 146 روحاً البائسة لا تزيد على ثلاثة وعشرين فرداً، خرجوا أحياءً من الحفرة السوداء لكنهم كانوا في حالة أثارت الشك فيما إذا كانوا سيرون صباح اليوم التالي أم لا، وكان بين الأحياء السيدة كاري لكن السيد ليتش المسكين كان ضمن الموتى، وقام الجنود بسحب الجثث من الحفرة وألقوا بها بلا نظام في خندق لم تنته أعمال حفره بعد، ثم ملأوه بالرمال بعد ذلك.

جنازة الملك جورج الثاني

«13 نوفمبر/الحرث 1760 افرنجي»

*** هوراس والبول**

هل تعلم أن الرغبة الفضولية قد ثارت لديَّ للذهاب إلى الجنازة في الليلة التالية، إذ لم أر من قبل جنازة ملكية أبداً. فسرت كجزء من الطبقة الراقية التي رأيت أنها قد تكون ـ بل وقد كانت ـ أسهل طريقة لرؤيتها؟ لقد كان مشهداً راقياً على الإطلاق، فحجرة الأمير يملؤها الرخام الأحمر وكثير من المصابيح الفضية، وكان التابوت تحت ستائر العرش من القطيفة المخملية، وست ثريات ضخمة من الفضة على حوامل عالية لها تأثير جميل.

وقد أخذوا سفير طرابلس وابنه لمشاهدة الحجرة، مروراً عبر صف من الجنود المشاة، كل جندي «سابع» منهم يحمل مشعلاً، بينما يصطف حرس الخيَّالة من الخارج، وضباطهم شاهري السيوف وحاملي علامات الحداد، وهم فوق ظهور جيادهم، وقرعت الطبول ودقت الأجراس والمزامير، وأطلقت المدافع وكان كل ذلك من المراسم الهامة، لكن السحر كله كان في مدخل الكنيسة،

حيث استقبلنا القس ومساعده بعباءات فخمة والمنشدين وأصحاب السبيل كلهم يحملون المشاعل.

وقد أُضيئت الكنيسة كلها لدرجة أن رؤيتها في الليل أكثر جمالاً من النهار، فالمقابر والممرات الطويلة والأسقف المزينة تظهر كلها في تمايز واضح وتناغم جميل بين الظل والضوء، ولم ينقص شيء سوى البخور وبعض الرهبان هنا وهناك مع القساوسة يرتلون صلاة من أجل سكينة الميت، إلا أن المرء لا يستطيع أن يشكو كونه كاثوليكياً غير كامل. وقد كنت أخشى أن يقع عليّ الاختيار لمصاحبة طفل في سن العاشرة، لكن المراسم لم تكن دقيقة فمضيت مع «جورج جرينڤيل» وهو أطول وأكبر مني بما يكفي لتشجيعي.

وعندما وصلنا لكنيسة «هنري السابع»، توقفت كل الطقوس والمراسم، ولا يوجد نظام ملحوظ هنا، فالناس يجلسون أو يقفون حيثما يريدون أو يستطيعون، وكان حرس برج لندن يطلبون المساعدة، مسحوقين تحت الثقل الضخم للتابوت، وقرأ الأسقف قراءة حزينة، وتاه في صلواته، فالإصحاح الرقيق الذي يقول «الإنسان ذلك المولود من امرأة» كان يُغني لا أن يقرأ، كما أن الإنشاد، بجانب كونه مزعجاً بصورة لا يمكن قياسها، يصلح للاستخدام في حفلات الزواج.

وكان الجزء الجدير بالأهمية هو شكل «دوق كمبرلاند» وقد أثارته آلاف المشاغل الهستيرية، فقد كان يرتدي شعراً مستعاراً وعباءة من القماش الأسود بذيل طوله خمسة أقدام والمشاركة في جنازة أب، شيء غير سار، مهما وجد مبرر ضئيل كي يحبه، وبالرغم من أن قدمه كانت في حالة سيئة، إلاّ أنه اضطر للوقوف عليها حوالى الساعتين وقد تورم وجهه وانبعج بسبب إصابته الأخيرة بالشلل والذي أثر كذلك على واحدة من عينيه.

ثم توقف عند فتحة القبر الذي سوف يهبط إليه قريباً مهما كانت الاحتمالات - تمعن كم هو منظر غير مبهج - وقد تحمل كل ذلك بملامح ثابتة وغير متأثرة. وناقض هذا المنظر الجاد، منظر «دوق نيوكاسل» الذي يدعو للسخرية إذ انخرط في دفعة من البكاء لحظة وصوله إلى الكنيسة، وارتمى بنفسه على مقعد، وقام

الأسقف بتشميمه سائل الإنعاش، لكن فضوله تغلب على واجبه فهرع داخل أنحاء الكنيسة ليتفحص من أتى ومن لم يأت ونظارته في يده.

كان يتفحص بيد ويمسح عينيه باليد الأخرى، ثم عاد خشية أن يصاب بالبرد، وشعر دوق «كمبرلاند» - الذي كان غارقاً في الحر - بأن هناك ما يجذبه إلى أسفل، فالتفت ليجد دوق «نيو كاسل» واقفاً على ذيل عباءته تجنباً لبرودة الرخام، وقد كان مشهداً مسرحياً أن تنظر داخل القبر حيث يرقد التابوت مصحوباً بالندابين ومعهم مشاعلهم، أما «كلافرنج» المسؤول عن حجرة النوم فقد رفض أن يبقى مع الجثة، فصرفوه وفقاً لأوامر الملك.

ملك أثيوبيا يعبر عن استيائه

«23 ديسمبر/ الكانون 1770 افرنجي»

*** جيمس بروس**

«كاتب هذا العمل، هو المكتشف جيمس بروس، الذي استكشف منابع النيل الأزرق، والملك الذي استقبل بروس في عاصمته «جوندار» هو «تيكلا هايمانوت الثاني»».

. . . كان اليوم الثالث والعشرين من ديسمبر، عندما نصبنا خيامنا في «موجيتش» القريبة من «جوندار»، وقد كان هذا العمل واضحاً أمام كل الناس حتى إنه بمجرد نصب الخيام - وكانت الساعة الحادية عشرة تقريباً - قاموا بالتسلل إلى بيوتهم في «جوندار» في جماعات صغيرة دون عشاء، وانتشر خبر في الحال بأن «الملك» ومعه «رأس ميخائيل» قد أتوا مصرين على إحراق المدينة، وقتل كل سكانها وقد أدى هذا إلى فزع هائل، وتسبب في هرب الكثيرين إلى «فاسيل».

وبالنسبة لي، أظهر لي سلوك الملك بوضوح أن كل شيء ليس على ما يرام، وقد أرادني أن أقود أمامه جواداً أحضرته من «فاسيل» لكي يراه، وكان جواداً رائعاً وقوياً احتفظت به خصيصاً من أجله، وقد تصادف أثناء عبورنا لقاع نهير صغير، أن كان نبات «الكانتوفا» نامياً عبر هذا النهير.

وكنت أرتدي حول أكتافي فروة ماعز لم يعلق بها النبات، لكن الملك ـ الذي كان يرتدي ملابسه العادية، وشعره الطويل ينسدل حول وجهه وهو ملتف بعباءته، وهي عباءة قطنية رقيقة لا تكاد ترى منه سوى عينيه ـ، كان يولي اهتمامه للجواد أكثر من فرع «الكانتوفا» النامي بجواره، فعلق النبات أولاً بشعره، وطيات العباءة التي تغطي رأسه، وامتد عبر كتفيه، بطريقة جعلت كل المساعدات التي أمكن تقديمها له غير ذات جدوى، وحتى ما قدمته في البداية عند رؤيتي له، بقطع هذا الفرع أشلاءً، لم يبق حل سوى أن يُلقى عنه رداءه الخارجي، ويظهر في الملابس الداخلية أو «السترة» ورأسه ووجهه عاريين أمام المشاهدين، ويعد هذا ضعة لمكانة الملك، الذي يظهر دائماً مغطى أمام العامة.

وعلى أية حال لم يبد عليه الانزعاج ولم يظهر على ملامحه تغير خاص عن ذي قبل، وإنما سأل مرتين بهدوء شديد وصوت منخفض: «من حاكم هذه المقاطعة؟» ولم يكن المعنى بعيداً لسوء حظه، إذ هرول رجل نحيف في الستين من عمره، ومعه ابنه في الثلاثين من العمر، وكعادتهم كانا عاريين حتى وسطهم، ووقفا أمام الملك، الذي ارتدى ملابسه تماماً مرة أخرى.

عند هذه اللحظة، ولا أدري ما طرأ في خيال ذلك الرجل فجأة، لكنه مرّ بحصاني وهو يضحك، وبدا عليه الرضى عن نفسه، ولم أستطع النظر إليه باعتباره إنساناً بوجه عام فهو لا يبدو واثقاً من نفسه ولامبالياً إلاّ عندما يكون بصدد فعل تدميري، إذ سأله الملك عما إذا كان هو حاكم المكان. فأجاب أن «نعم» مضيفاً ما لم يُسأل عنه، بأن الآخر الذي معه هو ابنه.

وكان دائماً مع الملك أثناء سيره ضابطاً يدعى «كانيتز كيتزيرا» وهو جلّاد المعسكر، كان يحمل معه في سرج حصانه كمية من الخيوط المصنوعة من جلد الثور، وقد جُدِلَت بمهارة فائقة، وتسمى «التاراد» وأعطى الملك إشارة برأسه، وأخرى بيده، دونما كلام، وعلى الفور التفت «خَيّتان» أنشوطتان حول الحاكم وولده عند الرقبة، وعُلقا معاً على نفس الشجرة وقطعت بقية «التاراد» وأُحكمت نهايتها حول فرع الشجرة وقد تُرك كلاهما معلقاً، ولكنني فكرت ـ في ارتعاد ـ

أنهما لن يموتا قبل عدة دقائق، وكان يمكن إنقاذهما لو جرؤ أحد على قطع مشنقتيهما وإنزالهما، لكن الخوف شل الجميع الذين لم يلحقوا بالملك نحو «تيجر».

هزل الدكتور جونسون

«10 مايو/الماء 1773 افرنجي»

*** جيمس بوزويل**

كان له مكانة وثراء الرجال ذي الحيثية، نقيضاً لرأي أحد أصدقائنا (بينيت لانجتون)، الذي استعان بالسيد تشامبرز في ذلك اليوم كي يكتب له وصيته واهباً ملكيته لأخواته الفتيات الثلاث مفضلهن على وريث ذكر بعيد في القرابة. فأسماهن جونسون: المتزمتات الثلاث[1] وقال بروح البارون الجريء في أزهى أيام النظام الإقطاعي: «إن الملكيات القديمة يجب أن تؤول للذكور فقط، وإنه لحمق عظيم أن تدع غريباً يحصل عليها لمجرد أنه يتزوج ابنتك، وينال لقبك، أما بالنسبة للملكيات الجديدة التي نحصل عليها من التجارة، فيمكنك أن تعطيها ـ إذا شئت ـ للكلب (توسر) وأن تدعه يحتفظ باسمه».

ولقد عرفته عدة مرات يتسلى بما يتراءى للبعض أنه روح رياضية خفيفة. وهو الآن يضحك بكثرة دونما سبب يمكننا فهمه، وفي كتابة صديقنا لوصيته نعته بأنه «الراحل ذو الوصية» وأضاف: «إنني أجرؤ على القول بأنه يعتقد أنه فعل شيئاً عظيماً وهو لن ينتظر حتى يصل لمقعده في منزله بالريف، كي ينشر هذا الفعل الرائع، إذ سوف يدعو صاحب أول حانة على الطريق، وبعد تمهيد مناسب يدور حول الموت وتفاهة الحياة سوف يخبره بأنه يجب ألاّ يتأخر في كتابة وصيته. وسوف يضيف:

وهاك يا سيدي وصيتي التي أنهيتها تواً، بمعاونة واحد من أكفأ المحامين في

(1) في الأصل: dowdy تطلق على المتمسك بالزي أو السلوك القديم. «المترجم».

المملكة، وسوف يتلوها عليه ـ وكان يضحك طوال هذا الوقت ـ، إنه يعتقد بأن وصيته قد تمت، لكنه لم يتمها، إنه أنت يا تشامبرز، الذي أتمها له، وأنا أثق أنك أكثر وعياً من أن تجعله يقول: «إنه تفكير سليم، ها. ها. ها! وآمل أنه ترك لي إرثاً أحول به وصيته إلى شعر كالأنشودة الشعبية» واستمر بهذا الأسلوب الهزلي مستمتعاً بدعاباته الشخصية التي لم تكن بالتأكيد مقبولةً من مؤلف رواية «المتجول» لكنها هنا محفوظة كي يتعرف عليها قرائي من خلال أدنى ملامح الشخصية لمثل هذا الرجل المتميز.

ولم يستمتع السيد تشامبرز ـ بأية صورة ـ بروح الدعابة هذه على أساس أن ذلك لم يكن شيئاً يسيراً. وبدا عليه عدم الصبر إلى أن تخلص منا ولم يستطع جونسون إيقاف مرحه، إذا استمر في ذلك طوال الطريق حتى وصلنا خارج (تمبل جيت) وعندئذٍ أغرق في نوبة من الضحك حتى بدا كما لو كان في حالة تشنج تقريباً، وكيما يُثبِّت نفسه، رقد ممسكاً بأحد الأعمدة على جانب طرف الرصيف، وأطلق قهقهات قوية وعالية لدرجة أن صوته تردد صداه وسط سكون الليل من منطقة «تمبل بار» إلى «فليت ـ ديتش».

يوم رأس السنة في نيوكوليج

«أكسفورد 1773 افرنجي»

*** جيمس وودفورد**

. . . تناولت غدائي في الصالة، وتبعني أربعة عشر عضواً آخرين، وقد دعوت المراقب للعشاء معنا كما هي العادة في مثل هذا اليوم، لكن، لأن أخته كانت هنا، فلم يستطع، وكان لدينا عشاء فخماً من تنظيمي، لأنني أنظم الغداء كل يوم أكون فيه نائباً للمراقب، كان أمامنا للغداء حوتان مسلوقان وبعض أسماك موسى المقلية حولهما وحساء المحار، وشرائح ضلوع لحم البقر المحمرة وبعض من حساء البازلاء وفطيرة البرتقال، للوجبة الأولى، أما للثانية فكمية من البط البري المحمر وربع مقدمة خروف صغير وسلطة وفطائر رقيقة.

وقد تناولنا كأساً بسيطة قبل الوجبة الثانية، أحضرها الساقي لمضيف الصالة، وهو السيد آدافر عضو وزميل لنا، الذي نهض من مكانه وأتى عند مقعدي وسقاني منها متمنياً لي سنة سعيدة جديدة، فأخذتها منه متمنياً له مثل ذلك، ثم تناقلوا الكأس ثلاث مرات ونحن وقوف طوال هذا الوقت، وقد انتقلت الكأس من المنضدة الرئيسية إلى الخريجين والطلبة، وبعد الوجبة الثانية كانت هناك كعكة العنب الجميلة، أحضروها لرئيس المائدة كعادتنا ذلك اليوم، ثم تمضي بعد ذلك للخريجين.

وبعد ذكر الأنخاب، أحضروا كأساً أخرى نشربها نخب كل جيراننا فشربناها كسابقتها، إلاّ أن مضيف الصالة لم يحضر هذا النخب الثاني، وتناولنا الغداء عند الساعة الثالثة تماماً واستغرق ذلك ساعة ونصف.

عند ذاك ذهبنا جميعاً إلى الحجرة الرئيسية العامة، حيث حضر إلينا المراقب وجلس معنا حتى موعد الصلاة، ويقوم راعينا بسداد ثمن الخمر التي شربها الأخوة الزملاء، ولم تبدأ الصلوات هذا المساء حتى الساعة السادسة، التي انضممت إليها وكذلك المراقب. وتعشيت بعدها.. إلخ. ففي المنزل كان لدينا أرانب محمرة معدة للعشاء كالمعتاد في مثل هذا اليوم وأخذ نائب المراقب واحداً لنفسه وأمناء الخزانة لكل واحد قطعة، ولكل أستاذ زميل نصف واحد لكل منهم وللزملاء الأدنى مرتبة، أرنب واحد لكل ثلاثة.

ملاحظة هامة: كنت أرتدي في هذا اليوم معطفاً جديداً (سترة) لأول مرة.

جاريك يؤدي دور هاملت

«سبتمبر/ الفاتح 1775 افرنجي»

* جورج كريستوف لختنبرج

«بدأ دافيد جاريك احتراف التمثيل مع حكم الملك ريتشارد الثالث عام 1741 افرنجي وقد أكسبه أسلوبه في الأداء الطبيعي كشيء جديد، شهرة شعبية محمومة».

الآن يا عزيزي «ب» في حالة إذا ما صورت لنفسك من خلال ما ذكرته شخصاً آخر لـ «جاريك» غير ما يكونه هو، فسوف تراه الآن في مشاهد قليلة من خلال مشاهدتي ولأنها رُتبت هكذا، فلسوف استعرض هذه من مسرحية هاملت، عندما ظهر الشبح. . .

يظهر هاملت في رداء أسود، الوحيد بين البلاط كله، ويا للحسرة فهو ما زال يرتديه من أجل والده المسكين الذي لم يمض على موته أكثر من شهرين، وكان معه «هوراشيو» و «مارسيلوس» في زيهما، وهم في انتظار الشبح، ويعقد هاملت ذراعيه تحت عباءته جاذباً قبعته إلى أسفل فوق عينيه، إنها ليلة باردة والساعة الثانية عشرة تماماً، ويتم إظلام المسرح ويسود الهدوء. كل المشاهدين المكونين من بضعة آلاف، تبدو وجوههم بلا حركة كما لو كانوا لوحة مرسومة على جدران المسرح، حتى لو سقطت إبرة في أبعد ركن من المسرح لاستطاع المرء سماعها.

وفجأة بينما هاملت يتحرك نحو عمق المسرح ببطء إلى اليسار ويدير ظهره للجمهور، يبادئه هوراشيو: «انظر سيدي ها هو آت» وهو يشير إلى اليمين حيث يظهر الشبح بالفعل ويقف بلا حراك، قبل أن يلحظه أحد، عند هذه الكلمات يستدير جاريك بحدة في اللحظة التي يتراجع فيها مترنحاً خطوتين أو ثلاث وركبتاه توشكان على الانهيار تحته، وتسقط قبعته إلى الأرض مع كلا ذراعيه خاصة اليسرى إذ تمتدان إلى أقصى طولهما تقريباً، وقبضتيه في ارتفاع رأسه لكن اليمنى منحنية أكثر واليد تنخفض والأصابع تتفرق وفمه مفتوح يقف هكذا راسخاً في مكانه.

وتنفرج قدماه لكنه لا يفقد ثباته، مستنداً على أصدقائه الذين هم أكثر منه اعتياداً على ظهور الشبح وكانوا يخشون انهياره، ومظهره كله معبر عن موقف الرعب لدرجة أنه جعل جسمي يقشعر حتى قبل أن يبدأ الكلام، وكان السكون المرعب الذي خيم على الجمهور - والذي يسبق هذا المشهد ويملأ المرء بشعور من عدم الأمان - قد ساعد كثيراً على انتشار هذا الأثر على وجه الاحتمال.

وأخيراً يتحدث، مع نهاية تنفسه وليس مع بدايته بصوت مرتعد «يا أيتها

الملائكة ويا رسل الرحمة امنحونا رعايتكم»! كلمات تمد هذا المشهد بأي شيء ينقصه حتى تجعله واحداً من أعظم وأكثر المشاهد رعباً مما سيؤدى على أي مسرح، ويومىء الشبح إليه ـ لكم تمنيت أن تراه ـ وعيناه مثبتتان على الشبح رغم أنه يتحدث إلى رفاقه محرراً نفسه من قبضات أيديهم، إذ يحذرونه كي لا يتبع الشبح ويمسكوه للخلف، لكن في النهاية عندما استنفدوا صبره لنهايته، يلتفت بوجهه إليهم، ويشد نفسه بعنف كبير من قبضاتهم، ويسحب سيفه عليهم بسرعة تجعل الإنسان يرتجف، قائلاً: «والله لأجعلن شبحاً من يعوقنا» ففي هذا الكفاية لهم.

ويقف عند ذاك وسيفه موجه نحو الشبح قائلاً: «تقدم وسأتبعك ثم يختفي الشبح من المسرح»، ويبقى هاملت ساكناً بلا حراك شاهراً سيفه أمامه كي يبقى مسافة، وفي النهاية عندما لا يتمكن المشاهد من رؤية الشبح بعد ذلك يبدأ في متابعته ببطء، يتقدم مرة ويتوقف أخرى وسيفه ما زال مشهراً وعيناه مثبتتان على الشبح وشعره أشعث ومقطوع الأنفاس، حتى اختفى هو أيضاً عن الأنظار.

ويمكنك أن تتخيل جيداً التصفيق الحاد الذي رافق هذا الخروج فهو يبدأ حالما يختفي الشبح من خشبة المسرح ويستمر حتى يتلاشى هاملت كذلك، يا له من نصر مذهل.

جوردون ومتمردوه

«8 يوليه/ الصيف 1780 افرنجي»

* جورج كراب

«قاد اللورد جورج جوردون (1751 ـ 1793 افرنجي) تمرداً مضاداً للكاثوليكية مطالباً بإلغاء قانون العناية الكاثوليكية، وقد مات حوالى 500 من الناس خلال أسبوع التمرد».

أمس بعدما تقرر عملي، كنت في ويستمينستر عند حوالى الساعة الثالثة مساء ورأيت الأعضاء يذهبون إلى المجلس. وقد أوقف المتجمهرون العديد من

الأشخاص، لكنهم تركوهم يمرون، كما رأيت، عدا اللورد ساندويش، إذ رأيتهم يعاملونه بقسوة ويكسرون نوافذ عربته، ويجرحون وجهه، ثم يرغمونه على العودة، وفي الحال تم استدعاء بعض حرس الخيالة والمشاة الذين لم يقوموا بشيء يذكر لأن تزايد عدد المتمردين هزمهم.

وغادرت ويستمينستر عندما دخل جميع أعضاء المجلس - الذين سمح لهم - مقر المجلس وعدت للمنزل، وفي طريقي قابلت جماعة من الرفاق شريرة المظهر، رثة الثياب، شديدة القذارة ووضيعة، مسلحة بالهراوات ذاهبين للحاق برفاقهم، عندئذ علمت بأن هناك ثماني أو عشر جماعات من مثل هؤلاء في مناطق مختلفة من المدينة. وعند حوالى الساعة السابعة مساء خرجت مرة أخرى.

كان المتمردون عند ويستمينستر قلة، وكان مظهرهم هادئاً ولطيفاً، فعبرت ميدان سانت جورج الذي كان خالياً وعدت مرة أخرى للمنزل عن طريق كوبري بلاك فريارذ، وفي الذهاب من هناك إلى الغرفة التجارية فإنك تمر بمنطقة «أولدبلي» وهنا رأيت أول مشاهد الرعب والفوضى التي واجهتني منذ بداية الأحداث. إذ كان السجن الجديد كبيراً جداً ومتيناً وذا مبان بديعة، وله جناحان يمكنك منها توقع امتداده عندما تأخذ في اعتبارك استخداماتها، وبالإضافة لهذه، كان يوجد مبنى مدير السجن إيكرمان، وهو مبنى متين متوسط، ومثل باقي الأجزاء لا أستطيع أن أعطيك وصفاً له.

وكان إيكرمان يضع في سجنه أربعة سجناء قبض عليهم في التمرد وقد ذهب المتمردون لمنزله يطلبونهم، فرجاهم أن يرسل إلى المأمور بذلك لكنهم لم يسمحوا له. وكيف هرب أو أين ذهب؟ أنا لا أدري لكن في اللحظة التي أتحدث عنها تلك قاموا بإشعال النار في منزله، وقد ثاروا وقذفوا كل قطعة أثاث وجدوها إلى الشارع وأحرقوها أيضاً في لحظة. وأتت سيارات الإطفاء لكنها كانت تكفي لحماية المنازل الخاصة فقط والقريبة من السجن.

وبينما كنت واقفاً بالقرب مما يحدث اقتربت جماعة أخرى من الناس - أعتقد 500 منهم - واللورد جورج جوردون في عربة تجرها العامة نحو ميدان ألدرمان

بول، وهو ينحني أثناء مروره طول الطريق، وهو شاب صغير حيوي المظهر لا أكثر من ذلك رغم أنه حتى الآن هو البطل المطاع.

وعند الثامنة كانت ألسنة اللهب قد ابتلعت منزل إيكرمان فاقتربت منه ولم أر أكثر من ذلك رعباً. كان السجن كما قلت مبنىً متيناً وجذاباً لكن لأنهم قرروا اقتحامه فقد كسروا بواباته بالروافع والأدوات الأخرى ثم تسلقوا المبنى حيث كان رفاقهم محبوسين ووقفت أنا حيث أرى عملياتهم بوضوح.

كانوا قد كسروا السقف ونزعوا أعمدته الخشبية وبعدما حصلوا على بعض السلالم هبطوا إليهم. وكان أورفيوس لا يملك شجاعة ولا حظاً أكثر منهم، فاللهب يحيط بهم والجنود قد يصلون في أي لحظة ومع ذلك كانوا في حالة تحد وضحك أمام كل المعوقات.

وهرب السجناء إذ كنت أقف ورأيت اثنتا عشر امرأة وثمانية من الرجال يخرجون من محبسهم إلى الهواء الطلق، ثم اقتادوهم عبر الشارع في سلاسلهم وكان ثلاثة منهم سيشنقون يوم الجمعة. فأنت لا تتصور مدى حمية الجموع. وما إن تم ذلك، حتى أصبح منزل إيكرمان الآن مجرد هيكل من الطوب، وقد احتفظوا ببعض من اللهب هناك لأغراض أخرى وقد أصبح شديد الحمرة والسخونة وبدت الأبواب والنوافذ كمدخل إلى براكين عديدة.

وببعض الصعوبة فجروا في هذه اللحظة سجن المدنيين وكسروا الأبواب وجعلوهم يهربون جميعاً أيضاً. وبعدما تعبت مما شاهدته، عدت لمنزلي ثم رجعت مرة أخرى عند الحادية عشر ليلاً فقابلت جماعات كبيرة من الخيَّالة وجنود المشاة قادمين لحراسة المصرف، وبيوت بعض المواطنين الرومان الكاثوليك المجاورين لهم، وأصبحت «نيوجيت» عند ذلك الوقت مفتوحة للجميع، فأي واحد يستطيع أن يدخلها وهو ما لم يحدث من قبل، وأي واحد يمكنه الخروج، وقد فعلت الاثنين، لأن الناس الآن قد أصبحوا مشاهدين بصورة أساسية، لقد تم الخطأ وذهب فاعلوه إلى الجانب الآخر من المدينة.

لكن لا يمكنني إغفال ما هزني بشدة. إذ حوالى عشرة أو اثنا عشرة من

المتمردين الذين ارتقوا إلى سطح سجن المدنيين أثناء احتراقه جذباً للانتباه رأيتهم ملتفين بسحابات الدخان الأسود المخلوط بألسنة من النيران مثل مدارج الجحيم عند ملتون، وكانوا معتادين على النيران بعضهم البعض.

وبمقارنة ملاحظاتي مع جيراني وجدت أنني لم أشاهد سوى جزء بسيط من الأضرار. لأنهم قالوا إن قصر اللورد مانسفيلد تأكله النيران الآن.

رانيـلاج

«12 يونيه/ الصيف 1782 افرنجي»

*** كارل فيليب موريتس**

«افتتحت حدائق الترفيه والقاعات الدائرية في رانيلاج بمنطقة تشيلسي للعامة عام 1742 وأغلقت عام 1805 افرنجي».

. . وكما سمعت ـ غالباً ـ عن «رانيلاج» التي يتحدثون عنها، كونت عنها فكرة غير كاملة، فقد توقعتها حديقة تختلف قليلاً عن منتزه ڤوكسهول، لكن الحقيقة أنني ما كنت أعلم أن ما تصورته عنها هو قليل، فمساء أمس خرجت في نزهة لزيارة هذا المكان الترفيهي الشهير، لكنني ضللت الطريق فوصلت إلى تشيلسي حيث تقابلت مع بائع بعربة يد، لم يكتف بإرشادي للطريق الصحيح بشكل متحضر وإنما تحدث معي طوال المسافة التي سرناها معاً. وعندما وجد ـ أثناء استفساره ـ أنني من رعايا ملك بروسيا، رجاني بإلحاح أن أروي له بعض طرائف هذا الملك العظيم.

وفي النهاية وصلت رانيلاج، وبعدما دفعت نصف كراون عند الدخول، سألت في الحال عن باب الحديقة، وسرعان ما دلوني عليه، وإذ بي أجد نفسي ـ لدهشتي الشديدة ـ في حديقة بسيطة، رديئة المنظر، ضعيفة الأضواء، حيث قابلت قلة من الناس، ولم أبق هنالك طويلاً حتى رافقتني سيدة صغيرة، كانت تسير هناك أيضاً، وقدمت لي يدها دون كلفة، وهي تتساءل، لماذا أسير وحيداً هكذا؟ . . وقد استنتجت ـ هذه الآونة ـ أن المكان لا يمكن أن يكون هو رانيلاج

الرائعة والمحتفى بها، وهكذا، عندما رأيت عدداً من الناس يدخلون باباً، تبعتهم آملاً إما في الخروج ثانية أو في تغيير ما أرى.

لكن بمجرد خروجي من تلك الحديقة الكئيبة، أجد التعبير عن أثر ذلك عليَّ أو وصفه مستحيلاً، إذ فجأة دخلت مبنى مستديراً مضاءً بمئات عديدة من المصابيح، له روعة وجمال تخطيا كل شيء من نوعه رأيته من قبل، وكل شيء هنا تبدى مستديراً، وفى أعلى، توجد صالة مقسمة إلى قاعات في ركن منها توجد آلة الأرغن الموسيقية مع جوقة جميلة، تصدر عنهما موسيقى صوتية وآلاتية معاً، وأسفل هذه الصالة يحيط به قاعات ذات طلاء أنيق لمن يرغبون في تجديد نشاطهم، فالأرضيات مغطاة بالفُرش في وسطها أربعة أعمدة سوداء عالية، بداخلها مواقد نظيفة لإعداد الشاي، والقهوة، والمشروبات الكحولية الممزوجة بالماء الساخن، وفي كل مكان ـ أيضاً ـ توجد مناظر مزودة بكل أنواع المنعشات، داخل هذه الأعمدة الأربعة، في نوع من القباب السحرية، يتحرك كل مجتمع الموضة اللندني وهو يدور باستمرار لا يتوقف.

في البداية غرقت في هذا الخضم من البشر، من كل الأجناس والأعمار، والبلدان والشخصيات، وعليَّ أن أقر بأن التغيير الدائم للوجوه التي معظمها بديع في جماله، بالإضافة للإضاءة، وامتداد وفخامة المكان مع أصوات الموسيقى المتتالية تعطي انطباعاً رائعاً لا يمكن تصوره في المخيلة. وأنتهز الفرصة كيف أضيف أنه حالما رأيت ذلك لأول مرة شعرت بالروعة وبنفس الإحساس الذي أذكر أنني شعرت به في شبابي عندما قرأت «حكايات الجنيّات» في مرّتها الأولى.

وعندما تعبت في النهاية من التزاحم، ولإجهادي ـ كذلك ـ من اللف والدوران باستمرار في دائرة، جلست في واحدة من القاعات، كيما أحظى ببعض الانتعاش، متأملاً ـ في هذه اللحظة ـ خلال استرخائي، هاته المجموعة المذهلة والمتزاحمة لعالم مبتهج وسعيد، الذين أتوا هنا يُمتّعون أنفسهم خاليّ الهموم، وإذ بأحد السقاة يسألني بكل أدب عن الشراب الذي أرغب في تناوله.

وفي لحظات قليلة عاد ومعه ما طلبت، ولدهشتي لم يقبل أية نقود مقابل هذا

الشراب، وهو شيء لم أفهمه حتى أخبرني بأن كل شيء يدخل في حساب النصف كراون الذي دفعته عند الباب، وأن ما عليَّ إلاّ أن آمر إذا ما رغبت في شيء آخر، ولكن إذا ما شئت منحه بقشيشاً زهيداً كهدية، وهو ما فعلته وأنا سعيد، إذا ما كنت لأتخيل ذلك، لأنني لم أتعود مثل ذلك التحضر ومثل هذه الخدمة الجيدة مقابل نصف كراون واحد. وصعدت ـ الآن ـ إلى الصالة وجلست في إحدى قاعاتها هناك.

من هذا المكان وبعدما أصبحت ـ فجأة ـ مشاهداً خطيراً وأخلاقياً، نظرت إلى هذا الخليط البشري، الذي ما زال يدور في حلقة خيالية، وعند ذاك استطعت تمييز بعضاً من نجوم المجتمع، وبعضاً من رتب الفرسان، فالشعور المستعارة وأكياس الشعر[1] الفرنسية يتناقض مع الرؤوس الإنجليزية ذات الشعر المسترسل، أو الشعر المستعار لدى أصحاب الوظائف الرسمية، وتمييز الكهول عن الشباب، والنبلاء عن العامة، والكل يمر بالآخر في هذا الخضم الزاخر، وقد قام أحد الإنجليز، كان قد رافقني، خلال راحتي، بناءً على استفساراتي بالإشارة للأمراء واللوردات ذوي النجوم اللامعة، بها خفت بريق الجزء الآخر من صحبتهم.

وقد دار هنا بعضهم في دائرة لا نهائية كي يرون الأشياء وكي يشاهدهم الآخرون كذلك، وفي حين جلس بعض الهواة الذواقة أمام الموسيقى يشنفون بها أسماعهم، كان البعض الآخر أمام الموائد العامرة يرطبون حلوقهم الجافة بسخاء، وآخرون مثلي يجلسون منفردين في ركن من إحدى قاعات الصالة، يسجلون ملاحظاتهم وانطباعاتهم حول هذا المنظر المثير وأغرقت نفسي مرات ومرات في متعة التغيير، إذ لدقائق قليلة، تأتي كل هذه العظمة والروعة، بديلاً لكآبة الحديقة، كيما أجدد الدهشة الممتعة التي خبرتها حال دخول المبنى أولاً، وهكذا قضيت بضع ساعات من الليل، في تغيير دائم من التسلية، وعندما بدأ الازدحام يخف مرة واحدة، أخذت عربة أيضاً وتوجهت لمنزلي.

---

(1) كانت بعض الباروكات «الشعور المستعارة» في ذلك العصر ـ ق 18 ـ ذات أكياس صغيرة مدلاة للخلف ويُعقد فيها أطراف الشعر الحقيقي. «المترجم».

الطالب البحري (جاردنر) ـ عمره 12 سنة
في اشتباك مع الفرنسيين

«20 أكتوبر/ التمور 1782 افرنجي»

*** جيمس أنتوني جاردنر**

بسبب الرياح الخفيفة ومعاودة العدو الانسحاب ثم الظهور، كانت الساعة تقارب 6 مساء، قبل أن ينظم خطوطه بدأت سفينة ذات ثلاثة أسطح ـ أعتقد أنها السفينة رويال لويس ـ كانت تقود مقدمة أسطوله ـ القتال بإطلاق النيران على السفينة جوليت التي كانت تقود سفننا. واستمر الاشتباك من الساعة 6 مساء إلى الساعة 3/4 10، وقد تلاحمت المقدمة والمؤخرة حتى إن الوسط لم يكن أمامه ما يفعل سوى القليل، وامتد وسط العدو حتى أقصى مؤخرة سفننا لدرجة أن إحدى عشرة أو اثنتي عشرة من هذه السفن ـ وهي كل مؤخرتهم ـ لم تطلق قذيفة واحدة، كان بيننا أربعة قتلى وستة عشر جرحى، ومن بين الآخرين كان السيد «روبرت استروجيز» وهو طالب بحري يقضي الخدمة كزميل لي وسيد مهذب شديد الاحترام وقد حزن عليه كل ضابط ورجل على سطح السفينة، وقد كنت أنا وصبي آخر تحت إشرافه وقد بذل أقصى جهده لتعليمنا واجباتنا وقد كان رفيقاً شجاعاً طوال حياته وعندما أصيب في فخذه عند مؤخرته، قام بتشجيع الرجال أثناء احتضاره. لقد كانت قذيفة طائشة تلك التي قتلته، وتزن 28 رطلاً.

وما هو جدير بالملاحظة أن هذه الطلقة قد خلعت في نفس الوقت ساق خنزير في الحظيرة الموجودة أسفل كابينة المقدمة. وقد كان لي منفذ ضيق أثناء وقوفي على السطح الأوسط مع الكابتن فورستر من البحرية، وأتى الضابط الأول ـ وهو المرحوم الأدميرال الكساندر فريزر ـ نحونا وأثناء الحديث انطلقت قذيفة بيننا، وارتطمت بالجناح الأيسر لسطح السفينة وكنا في هذه اللحظة قريبين جداً على بعد بوصات قليلة منها، واصطدمت ببوق التخاطب في يد فريزر فقذفته بعيداً، ووضح أنها هزتنا أنا والكابتن فورستر.

كانت القذيفة حادة وتزن إما 12 أو 18 رطلاً ـ وقد نسيت أيهما ـ كما تقطعت أشرعتنا الأمامية والخلفية وكذلك صوارينا وقواربنا وكل الأجزاء الخشبية في

المقدمة مع المرساة والحبال وتطايرت الأدوات الاحتياطية كلها، وكذلك الطرف المعدني للمرساة، وكان جانبنا من أقصى مدفع إلى الذي يليه يشبه الغربال، وكان من المدهش حقاً عدم وجود قتلى وجرحى بيننا أكثر من ذلك.

كانت بعض الثقوب التي أحدثتها الطلقات عديدة نحو الماء، وكان نجارنا الكفء العجوز السيد كوك يكاد يموت في هذا الجناح، وصدمته شظية لكنها لم تؤذه كثيراً. وأقلع العدو في الظلام وأمكننا رؤيته من رؤوس الأشرعة في الصباح، وكان يفترض أنهم ذاهبون إلى «كاديز».

وقد حدثت ظروف أثناء الاشتباك إذ تصادف أن اثنين من الصبية ذهبا لإحضار البارود من أسفل فاختلفا في محاولة أن يأخذ كل منهما الصندوق من الآخر عندما نشب القتال، وكان من المضحك رؤيتهما يتصارعان على الجانب الأيسر من السفينة في حين كان هناك قتال ساخن على الجانب الأيمن، كما انشطر واحد من زملائنا المساكين إلى نصفين بقذيفة ذات رأسين على سطح السفينة الرئيسي، والتصق نسيج معدته - وهو في رقة كعكة صغيرة - على جدار قارب النجاة، حيث تكوم وسط السفينة على سطحها مع بقية الأغنام، وعندما لاحظ الجزار - الذي يرعاهم - ما هو ملتصق بجدار القارب، بدأ يزيله بأظافره وهو يقول: «من، بحق السماء - كان يعتقد أن معدة زميلنا سوف تلتصق هكذا؟ أكون ملعوناً إذا لم أظن أنها ألصقت هنا بصمغ»!..

أول طائرة بشرية في إنجلترا

«15 سبتمبر/ الفاتح 1784 افرنجي»

*** فينسنت ليوناردي**

«خشي ليوناردي - وهو سكرتير لسفير نابولي - أن تحطم الجماهير منطاده إذا ما انتظر طويلاً، كما فعلوا مع الفرنسي (ديموريه) في الشهر السابق وكان قد صعد من أرض المدفعية وهبط جنوب «ممس» في هيرت فوردشاير، كي ينزل قطته التي كانت تعاني من البرد».

قبل الساعة الثانية بقليل من يوم الأربعاء قمت مع السيد بيجن بالاستعداد لرحلتنا، وقد ركز انتباهه على الخبرات الفلسفية والملاحظات، أما أنا فركزت على قيادة الآلة وعلى استخدام العجلات الرأسية في تخفيض المنطاد وفقاً لما نريد، وكان نفاد صبر المجتمعين قد جعل من الصعب الاستمرار في ملء المنطاد لمدة بالقوة التي خططناها له، ولأن العملية قد توقفت بسبب ذلك، فقد انتحيت جانباً لعدة دقائق كي أستعيد نفسي ونشاطي قبل الرحيل.

وإذا بأحد الخدم يحضر لي تقريراً مفاجئاً بسقوط واحد من الأشرعة التي نصبت بغرض إسناد المنطاد أثناء ملئه، فقد أصيب إصابة بالغة مما يجعل احتمال التأخير قائماً، هذا إذا لم يمنع الرحلة أصلاً، وفي الحال أسرعت من مبنى القيادة حيث كنت، ورغم أنني سعدت أن أجد الحادث وقد تم إيقافه بتغيير اتجاه العمود الساقط للناحية المقابلة، إلاّ أنني صدمت بشدة أمام هذا الخطر لدرجة أخافتني وبالملاحظة التي تسلمتها لم أتمالك نفسي أو أسترد قدرتي على الإدراك خلال الفترة المتبقية لبقائي على سطح الأرض.

والنتيجة أنني وسط اضطرابات أفكاري، نسيت التزود بآلات الملاحظة المعدة من أجل الرحلة، وعند تقدير قوة الرفع للمنطاد، افترضنا أنه يصعب أخذ السيد «بيجن» معي ـ وسواء شعر هو بالأسف لإلغاء خطته أو لأنني حرمت من صحبته وهو ما يصعب تحديده ـ إلاّ أننا كنا أمام موقف حاسم يتطلب قراراً سريعاً بالضرورة إذ إن أي تردد أو تأخير قد يؤدي إلى الخطأ، ويؤدي الضيق الذي حل بنا إلى موقف حرج لو أنه في لحظة لم يملك الشجاعة لمغادرة المنطاد، وكان القرار الذهاب بمفردي.

وقد قررت هذه اللحظة إقلاعي في الحال، يحَضُني الخوف من أي حادث يوقعني ومنطادي تحت طائلة غضب العامة، الذين دفعهم نفاد صبرهم إلى درجة من الاستثارة، وقد بدأ هنا مظهر مؤثر إذ بَرَزَ دليل غير متعمد لتأييدي والاهتمام بمصيري، فأمير ويلز وكل الجماهير المحيطة رفعت قبعاتها تقريباً في لحظة واحدة تشجيعاً لقراري، معبرة عن أطيب وأعمق التمنيات بنجاحي وسلامتي.

وتم فك الأربطة، وارتفع المنطاد، ورَدّتْ عليَّ الجماهير بإشارات الوداع بأقصى الهتافات والتصفيق الذي لا يمكن تخيله، وكان التأثير خارقاً في نفوس الجماهير التي أحاطت بالمكان وتحولوا من تهديد وخطر إلى أقصى مظاهر التأييد والبهجة. وعند ارتفاع المنطاد إلى عشرين ياردة، توقف قليلاً بفعل الرياح وكان لذلك أثر طيب، إذ أبقاني فوق الأرض لعدة ثوان، وبدا أنه يقف بعظمة قبل رحيله، وعند التخلص من جزء من أثقال المنطاد[1]، صعد إلى ارتفاع مئتي ياردة ولأن الجماهير الواقفة أمامي تصل لمئة وخمسين ألفاً من الناس الذين لم يروا لحظة إقلاعي من سطح الأرض، كان عليَّ بذل كل المحاولات كي أعلمهم بأني ما زلت في المنطاد وبدورهم ملأوا السماء بهتافاتهم وتصفيقهم وفي خلال هذه المحاولات رفعت علمي، وأعملت مجاديفي، وانكسر منهم واحد في الحال وسقط مني، كما هربت حمامة كذلك، وهي مع كلب وقطة كانوا رفاقي الوحيدين في رحلتي.

وعندما انخفض مقياس الحرارة من 68 درجة مئوية إلى 61 درجة مئوية أدركت اختلافاً عظيماً وأصبحت أشعر ببرد شديد، وجدت أنه من الضروري أن أتناول قليلاً من الخمر، كما أكلت ساق دجاجة، لكن خبزي ومؤونتي الأخرى أضحت دون نفع باختلاطها بالرمال التي حملتها معي كأثقال.

وعندما وصل مقياس الحرارة إلى 50 درجة مئوية أثار الجو مع تضافر الظروف حولي في نفسي متعة هادئة، لا يمكن التعبير عنها ولا يستطيع توفيرها أي موقع على الأرض، فالثبات والامتداد وعظمة المنظر أعطته روعة كبرى، فالأفق أمامي بدا دائرة كاملة، وخط النهاية يمتد عدة مئات من الأميال في محيطه، هذا ما تخيلته لمنظر لندن من النقاط القصوى التي تشكل زاوية ذات درجات قليلة فقط تم اختزالها بمقياس رسم كبير أمامي لدرجة أنني لا أجد أي مثال ينقل فكرة عنه كاملة.

---

(1) أثقال المنطاد: أكياس من الرمل توضع في المنطاد وتلقى منه كلها رغب قائده في الصعود لأعلى. «المترجم».

وقد استطعت تمييز كنيسة سانت بول وبقية الكنائس عن المنازل، ورأيت الشوارع كالخطوط الممتلئة حياة بالكائنات، الذين أُدرك أنهم رجال ونساء، ولكن أجد صعوبة رغم ذلك في وصفهم، لقد كانت خلية نحل هائلة، لكن صناعتها كانت معلقة، وكل الكتل المتحركة ظهر أن ليس لها هدف، والانتقال من الشك وربما الاحتقار من ساعة مضت، إلى الإحساس العاطفي والإعجاب بمجد اللحظة الحاضرة كل ذلك لم يمر دون تأثير على عقلي.

لويس السادس عشر والأسرة الملكية الفرنسية سجناء في التويليري

«4 يناير/ أي النار 1790 افرنجي»

*** آرثـر يونـج**

«حاول لويس السادس عشر الهروب من باريس بأسرته في يونيه 1791 افرنجي ولم تنجح المحاولة، وأعدم بالمقصلة يوم 21 يناير 1793 افرنجي، ومات وريثه لويس تشارلس في سن العاشرة عام 1795 افرنجي بالسجن».

حاول أن تتمشى بعد الإفطار في حدائق التويليري، حيث يوجد أكثر المشاهد - التي يمكن للعين الإنجليزية أو الفرنسية رؤيتها - غرابة.. الملك يسير مع ستة حراس من البورجوازية العسكرية مع ضابط أو اثنين من ياورانه وأحد الخدم، وتبقى أبواب الحدائق مغلقة توقيراً له، ولاستبعاد كل شخص عدا الحراسات أو من يحمل تصاريح دخول.

وعندما يدخل القصر، تفتح الأبواب أمام الجميع دون استثناء، رغم أن الملكة ما تزال تتجول مع سيدة من بلاطها، ويلحق بها بعض جنود البورجوازية كذلك إلى مسافة قريبة جداً تكاد تمنعها من الكلام، إلاّ في صوت منخفض كي لا يسمعونها بينما تتبعها مجموعة من الناس تتحدث بصوت عال، ولا يبدون نحوها أي مظهر من مظاهر الاحترام سوى رفع قبعاتهم حيثما مرت بهم، وكان ذلك أكثر مما توقعته بالفعل.

ولم تبد جلالتها في صحة تامة، وظهر عليها تأثير ما يحدث ووضح على وجهها، في حين أن الملك ازداد سمنة بقدر ما تتيحه الراحة، كما أحيطت حديقة صغيرة بسور من أجل الترفيه عن ولي العهد، وغرفة صغيرة تم بناؤها يستريح فيها أثناء المطر، بفأسه الصغير وشوكته، لكن مع حرس مكون من اثنين، وهو طفل بديع الشكل في سن الخامسة أو السادسة من عمره، مع ملامح مقبولة، وحيثما يذهب يرفع الناس قبعاتهم له، وأسعدني ملاحظة ذلك، وقد تم إبقاء كل الأسرة مسجونة هكذا ـ ولأنهم متأثرون بذلك ـ يعطي هذا صورة صادمة من النظرة الأولى، وهو بالفعل كذلك لو لم يكن ضرورياً على الإطلاق، للتأثير على الثورة.

شاتوبريان يهبط إلى العالم الجديد

«خليج تشيسابيك 1791 افرنجي»

*** فرانسوا رينيه دو شاتوبريان**

«غادر شاتوبريان فرنسا بسبب الثورة، وأبحر إلى أمريكا في ربيع عام 1791 افرنجي».

. . . سرنا نحو أقرب منزل، ووسط غابات أشجار البلسم العطرية والأرز الڤرجينية تعلن الببغاوات وطيور الكاردينال الملونة عن أشكالها وظلالها، وأصواتها وألوانها، لدرجة أننا أصبحنا في منطقة جديدة، وكان المنزل ـ الذي وصلناه بعد نصف الساعة ـ على تقاطع بين منزل ريفي إنجليزي وكوخ هندي غربي، وهناك قطعان من البقر الأوروبي ترعى في مراع محاطة بأسوار.

كانت السناجب المخططة تلعب عليها، وكان السود ينشرون كتلاً من الخشب، بينما يعتني البيض بشجيرات التبغ، وقامت فتاة زنجية في حوالى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، شبه عارية ومتفردة الجمال، بفتح البوابة لنا مثل «ليلة صغيرة»، وقد اشترينا بعض الكعك من القمح الهندي، والبيض، والدجاج واللبن ثم عدنا للسفينة بسلالنا وقنيناتنا، وكنت أعطيت منديلي الحريري للفتاة الإفريقية، لقد كان من رحب بي في أرض الحرية، عَبْداً.

ماري أنطوانيت في الأوبرا

«يولية/ ناصر 1792 افرنجي»

* جريس أليوت

بعد العشرين من يونيه، رغب الناس الذين تمنوا للملك والملكة الصحة الجيدة أن تظهر جلالتها أحياناً للعامة مصحوبة بولي العهد - وهو طفل جميل ومثير - وابنتها الجذابة السيدة رويال، وعلى أثر ذلك ذهبت لمشاهدة فرقة «الكوميدي» الإيطالية مع أبنائها، والسيدة أليزابيت - أخت الملك - والسيدة تورزيل مربية أولاد الأسرة المالكة، وكانت تلك آخر مرة شوهدت فيها جلالتها في مكان عام، وكنت هناك في مقصورتي المواجهة تقريباً لمقصورة جلالتها، وإذ كانت أكثر إثارة من المسرحية ذاتها، فلم أرفع عيني عنها أو عن أسرتها، وكانت الأوبرا المعروضة هي «أحداث عارضة» وقامت السيدة دوجازون بدور الخادمة، وقد بدا الامتعاض على وجه جلالتها أول دخولها المكان، لأنها صُعقت بالهتاف الحاد، ورأيتها تجفف دموعها عدة مرات من عينيها.

كما ظهر القلق على ولي العهد الصغير - الذي كان جالساً على ركبتها طوال الليلة - بحثاً عن سبب دموع أمه التعسة، ووضح أنها تحاول تهدئته، في حين انتظم الجمهور جيداً شاعرين بالموقف السيء لمليكتهم الجميلة، وفي مشهد من فصول المسرحية ينشد الخادم والخادمة أغنية ثنائية تقول فيها السيدة دوجازون: «هيا. . . إنني أحب سيدتي». بينما تنظر للملكة على نحو خاص، وفي اللحظة التي قالت فيها ذلك، قفز بعض اليعاقبة[1] - من الذين حضروا للمسرح - فوق خشبة التمثيل، ولولا أن الممثلين قاموا بإخفائها لقتلها اليعاقبة، وعجلوا بخروج الملكة المسكينة وأسرتها من المسرح، وبقدر جهد كل الحراس تمكنوا من إخراجهم سالمين إلى عربتهم.

(1) اليعاقبة Jacobins. أحد الأجنحة المتشردة المشاركة في أحداث الثورة الفرنسية، «المترجم».

رحلة إلى باريس

«يوليه/ ناصر - أغسطس/ هانيبال 1792 افرنجي»

*** ريتشارد تويس**

. . . توجد في كل واحدة من المدن فيما بين كاليه وباريس، شجرة كبيرة نامية. . - وعادة ما تكون مشهورة - مزروعة في الميدان العام، بالكثير من فروعها وأوراقها، وما إن تجف هذه الأوراق، حتى تعطي مشهداً سيئاً، وفوق قمة هذه الشجرة أو العمود يوجد غطاء رأسي ليلي من القطن أو الصوف لونه أحمر، يسمى «قبعة الحرية» مع بعض الرايات حول العمود أو شرائط حمراء وزرقاء وبيضاء، كما رأيت عدة تماثيل للقديسين سواء داخل أو خارج الكنائس وكذلك في باريس مع نفس أغطية الرأس، والعديد من الصلبان تحمل الشارات الوطنية من شرائط مربوطة على الذراع الأيسر على صورة الصليب، لكن ولا واحدة منها في مكانها الصحيح، ولا أدري لماذا.

ولا يقوم الكثيرون بارتياد الكنائس في باريس في أيام الأسبوع حالياً، إذ وجدت قليلاً من النسوة العجائز راكعات في بعض من هذه الكنائس، يستمعن لإحدى الصلوات. في نفس الوقت وفي الطرف الآخر لواحدة من هذه الكنائس يجلس المفوضون لتسجيل أسماء المتطوعين للجيش، أما الأعمدة الحديدية التي تفصل الجوقة عن مركز الكنيسة وتلك التي تحيط بالمذبح وبالقبور فقد أمروا بتحويلها إلى رؤوس للحراب، وهناك أيضاً يرتدون شارات من الحرير.

وكان الارستقراطيون يرتدون شارة من الأزرق والأحمر الأكثر شحوباً من تلك التي يرتديها الديمقراطيون، وكان الأخيرون يتميزون كذلك بعرباتهم التي رسمت عليها بقعة من الألوان فوق أذرعها، لطختها تماماً. - رأيت من هذه العربات أكثر من ثلاثين في المسيرة المسائية في غابة بولونيا - لكن في يوم 30 من شهر يوليه، أجبر الناس كل شخص على ارتداء شارة من القماش العادي دون أي تمييز في اللونين الأحمر والأزرق.

وذهبت مرة لقصر ڤرساي، ولم يكن يوجد به أي شيء سوى الحوائط

العارية، وقليل من المناظير والسجاد واللوحات الضخمة التي بقيت، لأنه بقي غير مسكون ما يقارب العامين، وقد عبرتُ القناة الكبرى على أقدامي ولم تكن فيها قطرة ماء واحدة، فذهبتُ عدة مرات للجمعية الوطنية، وعادت المعارض - التي يوجد منها ثلاثة - للدخول بحماس - تشجيعاً أو غمغمة أو همساً - في أنشطتها التي أوقفت عنها.

وقد أزالوا كل المعدات الحربية التي كانت تزين بوابات الفنادق سابقاً، وحتى الأختام تحفر الآن بحروف شفرية فقط، وما زال فرسان القديس لويس يحملون شارة الصليب أو الشريط في فتحة الزرار، بينما اختفت كل درجات الفروسية الأخرى، ولم تعد الأردية الخاصة بالخدم مسموح بارتدائها، إذ ألغيت شارة العبودية كذلك، وكل الشركات المساهمة وكل مؤسسة استغلالية، ولم يعد هناك محلات ملكية للتبغ أو الملح...

وطبعت كل أنواع الكتب دون أية تراخيص أو حقوق، وعُرض الكثير منها فوق طاولات العرض، رغم أنها كانت غير مريحة لأعين العامة، واحد منها كان عنوانه «الحياة الخاصة للملكة» في جزءين بطباعة رديئة، والكتاب نفسه وضيع ومقرف، وربما سُمِّي كذلك «امرأة المتعة» ورأيت كتباً من هذا النوع تربو على الثلاثين بأغلفة معدنية.

ويرتدي العامة ملابس أفضل مما كانوا عليه قبل الثورة بشكل عام، وذلك ربما يعود إلى أنهم لم يعودوا مطالبين بالضرائب مثلما كانوا قبلاً، وكل الحلي التي كانت منذ ثلاث سنوات تُلبس من الفضة أصبحت الآن من الذهب، وكل السيدات من الطبقات الدنيا حتى اللواتي يجلسن خلف طاولات الخضروات،.. إلخ يرتدين حلقاناً من الذهب «بدلايات كبيرة»، يساوي بعضها جنيهين أو ثلاثة من الذهب، ويرتدين عقوداً من الذهب أيضاً والعديد من الرجال كانوا يرتدون حلقاناً كذلك، أما التي كان يرتديها الضباط والسادة الآخرون فهي - عادة - ضخمة في حجم قطعة النصف كراون من النقود وحتى الأطفال ذوي العامين من عمرهم كان لديهم قطعاً صغيرة من الذهب في آذانهم.

إعدام لويس السادس عشر

«21 يناير/ أي النار 1793 افرنجي»

تقرير أعده قس من رجالات الملك

*** هنري اسيكس إيدجورث دوفيرمونت**

كان التعس «لويس السادس عشر» يشعر بمدى النوايا الشريرة التي كان أعداؤه يضمرونها له. وقرر أن يستعد لكل الاحتمالات، فركز عينيه عليَّ لمساعدته في لحظاته الأخيرة، لو حكم عليه بالموت، إذ ما كان ليدفع بأي التماس للجماعة الحاكمة، وما كان ليذكر اسمي دون رضاي، وكانت الرسالة التي بعثها لي تفوق أي تعبير، وكُتبت بأسلوب لن أنساه قط، فأي ملك - حتى لو كان في القيود - يملك حق الأمر، لكنه لم يفعل، فخدمتي طلبها على أنها وديعة لالتحاقي به فقط وأنها معروف أؤديه، يأمل ألا أرفضه. لكن طالما أن هذه الخدمة سيصحبها بعض الخطر لي فهو لا يجرؤ على الإصرار، لكنه يدعو اللّه - في حالة إذ ما رأيت أن الخطر أكبر مما أتحمله - أن أعين له رجل دين أهل لثقته لكن أقل شهرة مني، تاركاً لي تحديد الشخص كلية، ولاضطراري لتحديد موقفي في الحال، فقد قررت التجاوب مع ما ظهر في تلك اللحظة بأنه نداء ربي العظيم وأن أستسلم لعنايته الإلٰهية فيما يأتي، وقد أجبت أكثر الملوك تعاسة بأنني سواء عاش أم مات فسوف أبقى صديقه للنهاية.

وعندما وجد الملك نفسه جالساً في العربة. حيث لا يمكنه الحديث إليَّ ولا أن أتحدث إليه دونما رقيب، التزم الصمت العميق، فأهديته كتابي الخاص بالصلوات، وكان الكتاب الوحيد معي، ووضح أنه قبله بسعادة، وكان يتطلع إليّ أن أحدد له التراتيل التي تتلاءم مع موقفه، وأنشدها معي باهتمام، وقد دهش الجنود وارتبكوا - دون أن يتكلموا - أمام الإيمان الهادىء لمليكهم، الذي لم يقتربوا منه - بلا شك - بمثل هذا المدى.

واستمرت العملية ساعتين تقريباً، وكان المواطنون يصطفون طول الطريق،

مسلحين، بعضهم بالحراب والآخرين بالبنادق، وتحيط بالعربة جماعة من الحرس، مكونة من أقسى طغام باريس، وكاحتياط آخر، وضعوا أمام الجياد بعض الطبول بقصد إخفاء أي ضجيج أو همسات تصدر لتأييد الملك. لكن كيف يمكن سماع ذلك؟ وقد اختفى الجميع من النوافذ والأبواب. ولا نرى شيئاً في الشوارع سوى مواطنين مسلحين، مواطنين، جميعهم يندفعون نحو مشهد الجريمة، الذي يكرهونه ـ ربما ـ في قلوبهم.

وتقدمت العربة هكذا في صمت إلى ميدان لويس الخامس عشر، وتوقفت وسط فناء ضخم كان يحيط بالمقصلة، وكان حوله مدفع وراءه جماعة مسلحة تمتد حتى مرمى البصر، وما إن أدرك الملك أن العربة قد توقفت، حتى التفت إليّ وهمس: «لقد وصلنا، إذا لم أكن مخطئاً» وكان في صمتي إجابة على ذلك. وجاء جندي لفتح باب العربة وكاد الجنود يقفزون لولا أن الملك أوقفهم ووضع ذراعه فوق ركبتي وهو يقول في صوت مهيب: «أيها السادة، إني أوصيكم بهذا الرجل الطيب، وراعوا بعد موتي ألا يُهان، فإني أحملكم مسؤولية حمايته، وبمجرد خروج الملك من العربة، أحاط به ثلاثة من الحرس، وكادوا يخلعون ملابسه، لكنه دفعهم بإباء، وخلع ملابسه بنفسه، وفك ربطة عنقه وفتح أزرار قميصه، ورتب كل ذلك بنفسه، وبدا أن الحراس ـ الذين أفزعتهم رباطة جأش الملك للحظة ـ قد استردوا جرأتهم. فأحاطوا به ثانية، وكادوا يمسكون بيديه، فقال الملك: «ماذا تحاولون»؟ وهو يسحب يديه، فأجابه الأوغاد: «كي نقيدك» فقال الملك باستنكار: «لا، لن أوافق على هذا، إفعلوا ما أمرتم به، لكن لن تقيدوني». .

وكان الطريق المؤدي للمقصلة قاس ويصعب اجتيازه، واضطر الملك أن يستند على ذراعي، وبسبب البطء الذي كان يتقدم به، خشيت ـ لبرهة ـ أن تخونه شجاعته لكن لدهشتي، عندما وصلنا للخطوة الأخيرة، شعرت أنه ترك ذراعي فجأة، ورأيته يعبر اتساع المقصلة بقدم ثابتة.

وساد السكون عند رؤيته واقفاً بمفرده، خمسة عشر أو عشرين طبلاً كانت في

مواجهتي، وبصوت عال - لا بد وأنه سُمع عند قنطرة تورنانت - سمعته يعلن بوضوح هذه الكلمات الخالدة: «إنني أموت بريئاً من كل الجرائم التي اتهموني بها، وأصفح عن هؤلاء الذين تسببوا في موتي، وأتضرع إلى الله ألاّ تغرق الدماء التي سوف تهدرونها فرنسا».

وكاد يستمر، عندما أمر رجل - على ظهر حصان يرتدي الزي الوطني بصرخة حادة - الطبول أن تقرع، وارتفعت أصوات عديدة - في نفس الوقت - تشجع الجلادون، وظهر أنهم يحمسون أنفسهم، في الإمساك بعنف بأكثر الملوك طهارة، فسحبوه تحت نصل المقصلة، وبضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده.

تم كل هذا في لحظة، وأمسك أصغر الحراس - عمره يبدو في الثامنة عشرة - برأس الملك وعرضه أمام الجمهور وهو يدور حول المقصلة، وقد أرفق هذا الطقس الوحشي بحركات مموجة وإيماءات غير مهذبة. وانتشر سكون مرعب في البداية، ثم انطلقت في النهاية بعض صيحات تقول: «عاشت الجمهورية» وبالتدريج تضاعف الصوت، وخلال أقل من عشر دقائق تحولت هذه الصرخة - بتكرارها آلاف المرات - إلى الصيحة العامة لكل الجمهور وارتفعت القبعات في الهواء.

المحكمة الثورية، باريس

«أكتوبر/التمور 1793 افرنجي»

*** جـ. جـ ميلينجين**

في وسط الصالة تحت تمثال العدالة، التي تحمل ميزاناً بيد، وسيفاً باليد الأخرى، وكتاب القوانين بجوارها، جلس «دوماس» - رئيس الجلسة - مع باقي القضاة وإلى الأسفل منهم جلس المدعي العام «فوكوييه تينڤيل» ومساعدوه، وكانت ثلاث ريشات ملونة من النعام تتطاير من قبعاتهم المطوية لأعلى - موضة هنري الرابع - وقد ارتدوا مناديل عنق مثلثة الألوان، وعلى اليمين توجد مقاعد

طويلة يُجلسون عليها المتهمين في صفوف متعددة، مع الحراس بغداراتهم، ومثبت إلى جوانبهم السونكيات، أما على اليسار فتوجد هيئة المحلفين.

ولا يمكن أن أنسى أبداً المنظر المحزن للمسيرات الجنائزية نحو موقع تنفيذ الإعدام، إذ تبدأ المسيرة بفصيلة من حرس الخيالة تتبعها العربات ـ وهي نفس العربات التي كانت تستخدم في نقل الأخشاب في باريس ـ وموضوع بداخلها أربعة ألواح من الخشب كمقاعد، وعلى كل لوح يجلس اثنان، وأحياناً ثلاث ضحايا، وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم.

وكان الاهتزاز الدائم للعربة يجعلهم ينحنون برؤوسهم لأسفل ولأعلى، مما يعد تسلية للمشاهدين، ويقف في مقدمة العربة «سامسون» الجلاد أو واحد من أبنائه أو مساعديه بينما يسير الحرس المشاة على جوانب العربة، ثم تتبعهم عربة مؤجرة يجلس فيها «مشرف التنفيذ»[1] وكاتبه، الذي من واجبه حضور تنفيذ الحكم ثم يعود بعدها إلى المدعي العام فوكوييه تينفيل، ليقدم تقريراً حول تنفيذ ما يسمى «بحكم القانون».

أما عملية الإعدام نفسها فكانت محزنة ومؤثرة، ففي وسط ميدان الثورة نصبت مقصلة أمام تمثال ضخم للحرية، جالسة على صخرة وعلى رأسها «كاب فيرجي» ورمح بيدها وبالأخرى تستند إلى درع، وعلى أحد جوانب منصة المقصلة، يوجد عدد كاف من العربات بها سلال كبيرة ذات طلاء أحمر لتلقى أجسام ورؤوس الضحايا.

وأما العربات التي تحمل الضحايا المحكوم عليهم فتتحرك ببطء حتى مقدمة المقصلة، ثم يقتادون المسجونين منها بدورهم وفي حالة الضرورة يعاونهم اثنان من «مساعدي الجلاد»، كما كانوا يدعونهم، لكنهم يسمونهم الآن «طلاب منفذ الأعمال العليا للعدالة»، ولكن مساعدتهم نادراً ما تُطلب، إذ يصعد معظم أولئك التعساء المنصة بخطوة ثابتة، والكثير منهم نظر عالياً بثبات إلى آلة الموت

---

(1) في الأصل Reppoitews ناقل التقرير حول تنفيذ الحكم إلى المدعي العام. «المترجم».

المخيفة، يتطلع للمرة الأخيرة في أشعة الشمس العظيمة وهي تلتمع فوق النصل المصقول للمقصلة.

ورأيت بعض الشباب يرقصون قليلاً قبل أن يذهبوا كي يقيدوا فوق اللوح العمودي الذي يتحول فجأة إلى مستوى أفقي ويجري في منزلق حتى تصل العنق إلى لوح متحرك يؤمن عليها ويُغلق، حين تمر الرأس عبر ما يسمى، على سبيل التهكم، «نظارة الجمهوريين»، ثم تسقط السكين الثقيلة سقوطاً عنيفاً وبمهارة وسرعة لا تُصدقان. يكوم اثنان من الجلادين الجثة في سلة بينما يقذف جلاد آخر بالرأس خلفها.

نيلسون يفقد ذراعاً، سانتا كروز..
جزر التناريف

«يونيه/ الصيف 1797 افرنجي»

*** ويليام هوست**

. . . عند الساعة الواحدة صباحاً بدأ أعنف قصف مدفعي شهدته في حياتي من المدينة نحو سفننا إضافة إلى سيل كثيف من طلقات البنادق الخفيفة، استمر بلا انقطاع لمدة أربع ساعات، وعند الساعة 2,00 تماماً عاد قائد البحرية الأدميرال نيلسون إلى سطح السفينة، مصاباً إصابة مخيفة في ذارعه الأيمن بطلقة متناثرة، وأترك لك الحكم على حالتي عندما رأيت قاربنا قادماً به، وهو ما كنت أعتبره أباً ثانياً لي، وذراعه اليمنى مدلاة إلى جانبه، وبالأخرى ساعد نفسه على القفز فوق جانب السفينة، وبروح أدهشت كل إنسان أخبر الجراح لتجهيز أدواته، لأنه يعلم أنه لا بد وأن يفقد ذراعه، وكلما أسرعنا كلما كان ذلك أفضل، ومر بعملية البتر بنفس الثبات والشجاعة التي ميزت شخصيته دوماً، وأنا سعيد الآن أن أقول إنه في طريقه للشفاء.

معركة النيل[1]

«هانيبال 1798 افرنجي»

تقرير أعده واحد من طاقم مدفعية السفينة جوليات

*** جون نيكول**

«معركة النيل واحدة من أعظم انتصارات نيلسون، فقد هاجم وحطم الأسطول الفرنسي في خليج أبي قير، بالقرب من الإسكندرية، عازلاً نابليون في مصر، وأمّن لنفسه السيطرة على البحر الأبيض المتوسط».

. . كانت الشمس على وشك الغروب عند دخولنا إلى الخليج، وكانت شمساً حمراء نارية، وودت ـ لو كان لي الخيار ـ أن أكون على سطح السفينة، فهناك يمكنني مشاهدة ما يحدث ولا يصبح الوقت بطيئاً ثقيلاً، لكن كل فرد يؤدي عمله بروح عالية، سواء كان عمله في «السلخانة» أو في المخزن، يطلق البحارة على السطح الخلفي للسفينة بالقرب من الشراع الرئيسي اسم «السلخانة» لأنه وسط السفينة والعدو يوجه نيرانه أساساً نحو جسم السفينة ـ وكان موقعي في مخزن البارود مع «المدفعي».

وبينما كنا ندخل الخليج خلعنا ملابسنا عدا بنطلوناتنا «السراويل»، وقمنا بفتح الأبواب الجانبية للسفينة وطهرنا ممراتها. وكنا نولي جانبنا نحو أي سفينة نمر بها ونُحييها ثلاث مرات، وأية معلومة حصلنا عليها، كانت من خلال الصبية والنسوة الذين كانوا يحملون البارود، وقد تصرفوا جميعاً كالرجال وحصلوا على جائزة من القائد.

وعندما انفجرت سفينة القيادة الفرنسية، واجهت السفينة جوليات صدمة قوية لدرجة أننا اعتقدنا أن الجزء الخلفي قد انهار حتى جاء الصبية لإخبارنا بما يحدث، وكانوا يجلبون لنا ما بين آونة وأخرى أخباراً سارة حول استسلام إحدى السفن الفرنسية وكنا نتجاوب مع هذه الهتافات بسرور عميق.

---

(1) وردت في المصادر التاريخية باسم موقعة أبي قير البحرية فيما بعد. «المترجم».

ووسط معمعة القتال، ارتطمت قذيفة بالمخزن مباشرة لكنها لم تحدث إصابات، في حين قام النجار بسد ثقوبها ومنع الماء المتدفق منها، وأعتبر نفسي مديناً بالكثير لزوجة «المدفعي»، لأنها قدمت لزوجها و ـ لي ـ بعضاً من الخمر مرة بعد مرة، وقد كانت هناك بعض النساء الجريحات، وواحدة منهن تنتسب «لليز» ماتت بسبب جراحها، ودفنت بجزيرة صغيرة في الخليج، وأخرى وضعت طفلاً وسط وطيس القتال وهي تنتسب «لايدنبرج».

وعندما أوقفنا إطلاق النار، صعدت إلى سطح السفينة لاستطلاع حالة الأسطول، وكان مشهداً مرعباً، إذ تغطى الخليج كله بجثث الموتى، مشوهة، ودامية، ومحترقة، بلا ملابس فوقها عدا السراويل وكان يوجد بعض الفرنسيين من سفينة القيادة البحرية الفرنسية «الأوريون» كانوا قد سبحوا نحو السفينة «جوليات» واختبأوا تحت مقدمتها.

ويا للرفاق المساكين، فلقد أحضروهم فوق سطح السفينة وأمرهم الكابتن «فولي» بالنزول لحجرة الطاهي، للحصول على طعام وملابس وقد لاحظت شيئاً واحداً ـ في أولئك الفرنسيين ـ مختلفاً عن أي شيء آخر لاحظته من قبل.

ففي الحرب الأمريكية عندما أسرنا السفينة الفرنسية «دوك دوشارتر»، كان الأسرى سعداء كما لو كانوا هم المنتصرين وكانوا يقولون: «صدفة الحرب، تأسرني اليوم، آسرك غداً».

أما هؤلاء الذين أخذناهم الآن فوق سطح سفينتنا فهم يشكرون لنا حسن المعاملة ولكنهم حزانى وناكسي الرؤوس كما لو كان كل واحد منهم فقد سفينته الشخصية والأحداث الوحيدة التي علمت بها، اثنتان: إحداهما، أن شاباً موقعه بجوار صندوق ملح، جلس فوقه لإعداد أكياس التفجير، وكان يبقي الغطاء مغلقاً، ـ وهو مكان آمن ـ وعندما طلبوا منه كيساً، لم يمد يده بشيء، رغم أنه كان جالساً منتصباً، وعينيه مفتوحتين، فدفعه أحد الرجال، فسقط بطوله على الأرضية، ولم تبد أية آثار متغيرة على جسده، إلا أنه كان ميتاً تماماً. وقذف فوق سطح السفينة.

والحادثة الأخرى لشاب كان يحمل في يده كبريتاً لإشعال مدفعه، وعند قيامه بذلك بترت إحدى القذائف ذراعه، وتعلقت الذراع بجسده بقطعة جلد، وسقط الكبريت على السطح، ونظر إلى ذراعه ولما رأى ما حدث، أمسك الكبريت بيده اليسرى، وأطلق المدفع قبل أن يذهب إلى مستشفى السفينة لعلاج يده، وكانا من جماعتنا، وإلا ما كنت سمعت عن ذلك.

وقد مات اثنان من جماعتنا أيضاً ولم أسمع عنهما إلا في اليوم التالي، وهكذا انتهى اليوم الأول من أغسطس العظيم، أكثر الليالي عملاً في حياتي.

متسولون، وجامع الديدان، وزهور الليلك
عائلة «وردزورث» في جرازمير

«1800 ـ 1802 افرنجي»

*** دوروثي وردذورث**

يوم الثلاثاء الموافق 27 من مايو 1800 افرنجي، دقت امرأة طويلة جداً ـ أطول من كل مقاييس النساء الطويلات ـ بابنا، وكانت ترتدي عباءة طويلة جداً وبُنية اللون، مع حرملة بيضاء دون غطاء رأسي، وكان وجهها شديد السمرة لكنه يبدو عليه جمال سابق، وهي تقتاد طفلاً حافياً في الثانية من عمره في يدها وقالت: إن زوجها ـ الذي يعمل سمكرياً ـ قد غادرها من قبل مع بقية الأطفال، فأعطيتها قطعة خبز.

وفيما بعد، في طريقي إلى «أمبلسايد» بجوار كوبري «ريدال»، رأيت زوجها جالساً على حافة الطريق، وحماراه يأكلان بجواره، والطفلان الصغيران هناك يلعبان فوق الحشائش ولم يكن الرجل يتسول، فمررت به وبعد حوالى ربع الميل رأيت أمامي طفلين، واحد له من العمر 10 سنوات والآخر 8 سنوات، يطاردان فراشة، وكان شكلهما متوحشاً، ليسا مهلهلين تماماً، لكنهما دون جوارب ولا أحذية، وكانت قبعة أكبرهما ذات إطار من الزهور الصفراء، أما الأصغر الذي تبدو قبعته بلا حافة فقد ألصق حولها أوراق نبات «اللوريل».

واستمرا في اللعب حتى اقتربت منهما جداً، عندئذ خاطباني بلغة المتسولين وبالصوت الممتلىء حزناً فقلت لهما: «إنني ساعدت أمكما هذا الصباح» - وقد كان الصبيان يشبهان المرأة التي دقت بابنا لدرجة لا يمكن أن أخطأ فيها - فقال الأكبر: ياه.. إنك ما كنت لتساعدي أمي، لأنها ماتت، ووالدي في المدينة المجاورة ويعمل «فاخورياً»، وصممت على تأكيدي وأنني لن أمنحهم شيئاً، فقال الأكبر لأخيه، «هيا نذهب».. وانطلقا كالبرق.. وعلى أية حال فقد تسكعا طويلاً في الطريق لدرجة أنهما لم يصلا «أمبلسايد» قبلي.

ورأيتهما يذهبان إلى منزل ماتيو هاريسون ومعهما «مخلاتهما» فوق كتف الآخر الأكبر، وزحفا بأقدام شاكية كالشحاذين، وأثناء عودتي عبر أمبلسايد، قابلت الأم تقود حميرها في الشارع، وفي الخُرجين المُحملين على أحد الحمير، يوجد الطفلان الصغيران، وكانت تتوعدهما وتهددهما بالعصا التي كانت تسوق بها الحمير، في حين يتعلق الكائنان الصغيران في لامبالاة بحافة «الخُرج». وكانت المرأة قد أخبرتني في الصباح بأنها من سكوتلندا وكانت لهجتها تدل على ذلك، لكنها تسكن - على ما أعتقد - في ويجتون، وأنهم لا يملكون بيتاً وهكذا رحلوا.

يوم الجمعة، الثالث من أكتوبر، عندما عدت مع «ووم» من صحبتنا لـ«جونز»، قابلنا رجلاً عجوزاً منتفخاً، كان يرتدي معطفاً ملقى على أكتافه فوق جاكت ومعطف آخر، وتحت هذا كان يحمل ربطة من القماش «بقجة» وعليه مريلة وعباءة ليلية، وكان وجهه ملفتاً للنظر، وله عينان سوداوان وأنف طويل.

وقد رأى جون الذي قابله فيما بعد عند «ويثبرن» أنه يهودي، وهو من أبوين سكوتلانديين لكنه ولد في الجيش، وكان لديه زوجة [«وامرأة طيبة»، وقد أسعدت الله بأن يباركنا بعشرة أطفال «كلهم ماتوا إلا واحداً»] لم يسمع عنه شيئاً لسنوات طويلة، وهو بحار، وكانت حرفته جمع الديدان «الماصة»(1)، لكن الديدان الآن أضحت نادرة ولم تعد لديه قوة للمضي في ذلك، فعاش على التسول.

---

(1) Leech دودة خاصة كانت تجمع للقيام بأعمال «حجامة» الدم وفصدة في الطب ق - 18 «المترجم».

وكان ماضياً في طريقه نحو «كارليسل» حيث اعتزم شراء بعض الكتب الدينية ليعيد بيعها، وقد قال بأن الديدان قد أضحت قليلة جداً بسبب موسم الجفاف، إلا أن هذه الديدان ظلت نادرة لفترة طويلة. وهو يعتقد أن ذلك كان يعود إلى اصطياد الكثير لها وأن تكاثرها بطيء، وكان نموها سابقاً 2: 6 وأما الآن فيصل إلى 30: 100.

وقد أذاه كثيراً جر العربة، إذ انكسرت رجله وانقلب جسمه وحدث شرخ في جمجمته ولم يشعر بأي ألم إلا بعد أن أفاق من غيبوبته الأولى. «وكان الوقت متأخراً في المساء عندئذ، لحظة خفوت ضوء النهار».

يوم الثلاثاء الرابع والعشرون من نوفمبر عام 1801 افرنجي كان صباحه مطيراً، وكنا جميعاً بخير عدا صداع بسيط في رأسي، فتناولت فطوري في الفراش، ثم قرأت قليلاً من «تشوسر»، وأعددت الأوزة للعشاء، وعند ذاك خرجنا جميعاً، لكنني اضطررت للعودة لإحضار شالات الفرو الخاصة بي وبسبنسر، لأن الجو كان بارداً جداً.

وكنا اعتزمنا الذهاب إلى «إيزدال» لكننا حولنا وجهتنا نحو كوخ السيد «جيل»، وكانت الرياح شديدة وسمعنا صوتها في كل اتجاه حولنا أثناء مرورنا في «الحارة» الزقاق، لكن الحوائط كانت واقية لنا، وتبدى منزل «جون جرين» رائعاً تحت منطقة «سيلڤرهاو».

وبينما كنا نسير قدماً، توقفنا فجأة، على مسافة 50 ياردة تقريباً من شجرة الخيزران المفضلة لنا، كانت مستسلمة للرياح العاصفة بكل أفرعها الرقيقة، في حين تشرق الشمس فوقها فتلتمع وسط الرياح مثل «دُش» شمسي طائر، كانت شجرة لها شكل الجذع والدروع لكنها تشبه «شبح الماء»، وغابت الشمس وأبقت ضوءها الوردي، والأفرع ما تزال مستسلمة للرياح لكنها غير شديدة الوضوح لنا، وكانت أشجار الخيزران الأخرى القريبة منها قد بدت لامعة وتمتلىء بالحيوية، لكن شجرتنا كانت مخلوقاً له تميزه وسطهم.

الخميس ـ 15 من أبريل ـ 1802 افرنجي. كان صباحاً مضبباً مخيفاً، لكنه معتدل، وانطلقنا من «أيوزمير» بعد العشاء، وجاءت معنا السيدة «كلارك سون» لمسافة قليلة ثم رجعت، ولما كانت الرياح قوية فكرنا في العودة، وفي البداية استرحنا في مرفأ القوارب الكبير، وحينئذ، وتحت شجيرة «فيرز» مواجهة لمنزل السيد كلارك سون رأينا المحراث يمضي داخل الحقل، وحبست الرياح أنفاسنا، وكانت البحيرة مائجة وقارب يطفو وحيداً وسط الخليج أسفل «وترميلوك» واسترحنا مرة أخرى في حارة «وترميلوك»، وكانت شجيرات التوت سوداء وخضراء وأشجار الخيزران هنا وهناك خضراء لكن ما زال هناك الكثير من اللون القرمزي يمكن رؤيته فوق الأفرع.

وعبرنا حقلاً كي نتجنب بعض الأبقار والعمال، وقليلاً من ورود الربيع على جانبي الطريق وزهرة الحُميض، وورد الريح، والبنفسج عديم الرائحة، والفراولة، وتلك الزهور اللامعة الصفراء التي تسميها السيدة كلاركسون «حشائش الكوم».

وعندما كنا في الغابات فيما وراء منتزه «جاوبارو» شاهدنا قليلاً من أزهار الليلك قريبة من حافة الماء، وتخيلنا أن البحيرة قد جرفت البذور نحو الشاطىء وأن هذه المستعمرة الصغيرة قد نمت هكذا هناك، لكن كلما تقدمنا رأينا أكثر فأكثر وفي النهاية شاهدنا تحت أفرع الأشجار حزاماً طويلاً منها بمحاذاة الشاطىء بعرض بوابة طريق ريفي، ولم أر زهوراً بمثل هذا الجمال أبداً، فهي تنمو بين ـ وحول ـ الصخور الرطبة، وبعضها يستند على هذه الصخور كما لو كانت وسائد لرؤوسها.

بعد التعب، والبقية الأخرى تتقافز وتدور وترقص وتبدو ضاحكة في حيوية مع الرياح التي تهب عليها عبر البحيرة، وتظهر كما لو كانت شديدة المرح، دائمة البريق، دائمة التغير، وهذه الرياح هبت مباشرة عبر البحيرة نحوهم، وكانت هناك أعشاب قليلة وحشائش متناثرة ترتفع ياردات قليلة وهي لقلتها لا تفسد بساطة وتناسق الحياة وسط هذا الخضم الزاخر واسترحنا لعدة مرات، وكانت الخلجان هادرة، وسمعنا الأمواج على مسافات مختلفة وفي وسط المياه كما لو كانت بحراً. . .

نيلسون يُحوّلُ عيناً عمياء، كوبنهاجن

«2 أبريل/الطير 1801 افرنجي»

*** ويليام ستيوارت**

«في كوبنهاجن، كان نيسلون مساعداً للقائد البحري «الأدميرال» السير هايدباركر، وبعد ساعة واحدة من تجاهله لإشارة باركر، قهر نيلسون المقاومة الدانماركية وأكمل انتصاره».

كان اللورد نيلسون في ذلك الوقت ـ كما كان طوال القتال ـ يذرع الجانب الأيمن لسطح السفينة، شديد الانفعال أحياناً، وأخرى دقيقاً لدرجة البطولة في توجيهاته. أصابت طلقة الشراع الرئيسي، وأطلقت شظايا قليلة حولنا. فلاحظ ذلك قائلاً لي بابتسامة: «إنه عمل ساخن، وقد يكون هذا اليوم، اليوم الأخير لأي منا في لحظة». عند ذاك توقف قليلاً في الممشى، واستخدم تعبيراً لم ينمح من ذاكرتي، وقال بتأثر: «لكنني أُذكّرُك، أنني لن أكون في أي بقعة أخرى لآلاف السنين». وعندما جاءت الإشارة رقم 39، نقلها ضابط الإشارة إليه، فواصل سيره، وبدا عليه أنه لم يلحظها.

وعندما قابله الضابط مرة ثانية سأله إذا ما كان عليه أن يعيدها؟ فأجابه اللورد نيلسون: «لا، أعمل بها فقط». . وحال عودة الضابط إلى برج السفينة دعاه اللورد «هل الإشارة 16 ـ إشارة الاشتباك ـ ما زالت معلقة»؟ ومع رد الضابط بالإيجاب، قال اللورد نيلسون: «أيمكنك أن تبقيها هكذا؟».

ومضى فوق السطح ـ عندئذ ـ شديد الانفعال وهو ما كان يُعرف من تحريك بقايا ذراعه اليمنى ـ المبتورة ـ وبعد لفة أو اثنتين، قال لي بأسلوب سريع: «هل تعلم ما ظهر على سطح سفينة القيادة، الإشارة 39؟». . وعند سؤاله عن معنى ذلك، أجاب: «لماذا؟. لكي نترك القتال، إنه نهاية لي، لو فعلت ـ وأضاف موجهاً حديثه للكابتن فلوي ـ أنت تعلم يا فلوي أنني ذو عين واحدة، ولي الحق أن أكون أعمى أحياناً»، وعند ذلك تقوية غريبة بالنسبة لشخصيته، وضع المونوكل[1] على عينه العمياء، قائلاً: «إنني حقيقة لا أرى الإشارة».

---

(1) نظارة ذات عين واحدة.

لعبة الأطفال في مقاطعة ليك

«27 سبتمبر/ الفاتح 1802 افرنجي»

*** صامويل تايلور كولردج**

«كان الطفل هارتلي كولردج في عامه السادس وديروينت في عامه الثاني سنة 1802 افرنجي».

يمتلىء النهر، كما يمتلىء الشلال «لودور» وتنطلق شرائح فضية من السحب وتلمع فوق قمم كل الجبال، في حين يقبع البَرَد فوق قممها كالجليد والسيول المنهمرة من «بورودیل» تنزع الماء إلى أعلى وتستمر إلى قاع البحيرة وهي غير متمايزة عن الجليد الذي يميل أمام الرياح، وتحت هذا التيار شبه الجليدي، تلمع الشمس وفوق هذا كله ترى النصف الأسفل من البحيرة بارقاً ومبهراً كبوتقة من الفضة المنصهرة التي تغلي.

إنه في أعمق الحقيقة، يوم مشمس، ومضبب، ذو سحب، ومبهر، هو مذهل بكافة الأشكال، وكنت أنظر إليه كمنظر بديع يمكن أن تراه عين أب، بينما اندفع «هارتلي» والصغير «ديروينت» وسط الخضرة حيث تهب الرياح بجنون، وكلاهما يتطاير شعره ويتقافز، ولوحة مصغرة لأشجار متمايلة يلعب أسفلها الطفلان، تُشملهما الفرحة، «هارتلي» يدور حول نفسه من السرور، «وديروينت» يلف بنصف إرادته، والنصف الآخر بقوة الرياح، فتدفعه للخلف، ويقاوم للأمام، ويصرخ بترنيمة المتعة.

صباح الطرف الأغر

«10 صباحاً ـ 21 أكتوبر/ التمور 1805 افرنجي»

تقرير طالب بحري بالسفينة نبتون

*** الطالب البحري: بادكوك**

«موقعة الطرف الأغر، الاشتباك البحري الحاسم في الحروب النابوليونية،

جرت إلى الغرب من كاديز، وتحطمت فيها عشرون سفينة من السفن الثلاث والثلاثين ـ أسبانية وفرنسية ـ أو أسرت، في حين لم يفقد الأسطول البريطاني المكون من سبع وعشرين سفينة، واحدة منها».

. . كان العدو في هذه الفترة يشكل خطه المزدوج على هيئة هلال، وكان منظراً جميلاً بعد استكمال هذا الخط، إذ استدارت السفن بأجنابها نحونا مكشرة عن أنيابها الحديدية، وتجرب على فترات مدى قذائفها للتأكد من المسافات، حتى إذا ما دخلنا مرمى نيرانهم ـ وهي حوالى ستمائة ياردة ـ يفتحون نيرانهم على مقدمة أسطولنا، ـ آملة ـ بلا شك ـ إصابة بعض سفن المقدمة قبل أن تقترب وتخترق خطوطهم ـ.

وكانت بعض سفن العدو لها طلائنا نفسه، بجوانب ذات لون أصفر مزدوج، وبعضها له خط أحمر عريض أو أصفر، والبعض الآخر لونها كله أسود، أما السفينة الشهيرة «سانتيسيما ترينيدادا» ـ 138 مدفعاً ـ فلها أربعة خطوط حمراء مميزة، بشريط أبيض بينها، جعلها تبدو كمقاتل عظيم، وكانت فعلاً كذلك، وكان مظهرها مهيباً، ومقدمتها مزينة بصورة رائعة بأشكال ضخمة ومتعددة، لونها أبيض، وتمثل الثالوث المقدس الذي أخذت منه اسمها.

وكان قدر هذه السفينة العظيمة أن تكون خصمنا، وهي تحمل الأشرعة الرئيسية والأشرعة العليا، وأشرعة التوجيه والأشرعة المثلثة والأشرعة الأمامية والخلفية، وتغيرت اتجاهاتها، وظهرت أشرعتها المرتفعة القائمة شديدة الجمال، تبرز من خلال الدخان، بينما تنتظر الهجوم. وتصطف الأعلام الفرنسية والأسبانية فوق الخط ـ وكلاهما أنيق ـ معلنة التحدي لبريطانيا.

وفي أسطولنا، ركبنا بسرعة الأعلام البريطانية والإشارات فوق مقدمة وأشرعة السفن، بالإضافة إلى قماش الشراع الأصفر، وعلم عند «البوز» كي لا يخطىء أي منا الآخر وسط الدخان، ويعرف العدو تصميمنا على النصر، وعند حوالى الحادية عشرة، تشكلت سفننا في خطين جيدين، لكن بقيت فراغات طويلة بين مجموعة نائب القائد وهو كولينجوود، بينما كانت مقدمة اللورد نيلسون قوية

ثلاث منها ـ ثلاثية السطح ـ وهي «فيكتوري» و «تميرير» و «نبتون» وأربعة ذات أربع وسبعين مدفعاً وتصل صواري أشرعتها المثلثة إلى وسط السفن الأخرى.

وعزفت الفرقة الموسيقية لحن «فليحم الله الملك» و «لتسد بريطانيا» و«الإنجليز يعودون للوطن» ووقف البحارة متمركزين في أبراج سفنهم المختلفة يحمسون السفينة أمامهم، وعندما بدأ العدو إطلاق نيرانه، أرسلنا تمنياتنا من قلوبنا لتأكيد النصر، وعند حوالى الساعة الثانية عشرة إلاّ عشر دقائق، صب أعداؤنا نيرانهم على السفينة «رويال سوڤرني» ـ 110 مدفعاً ـ فقام كولينجوود نائب القائد العام ـ دونما تعزيز لمدة عشر دقائق على الأقل ـ بقيادة جناحه بشهامة نحو القتال، متوجهاً نحو السفينة «سانتا أنا» ـ 112 مدفعاً ـ السوداء اللون، حاملة لواء قائد البحرية «جراڤينا»، وخلال ذلك الوقت، كانت كل سفن خط العدو التي استطاعت أن تحمل مدفعاً تطلقه نحوها، لقد كانت محل إعجاب كل الأسطول.

ولاستعراض عظمة وسيطرة نيلسون ـ الذي كان يفكر في كل شيء ـ حتى في اللحظات الحرجة للقتال حين تستهلك معظم العقول في مسائل أخرى تماماً، فإنه لاحظ أن العدو قد طلى الشرائط المعدنية والصواري باللون الأسود، ومن ثم أمر، بالإشارة، أن يقوموا بطلاء أمثلتها في سفنه باللون الأبيض، حتى يمكن وسط أحداث كل الإشارات التي تطلق بعيداً، يمكن تمييز سفنه بلون صواريها ومعادنها البيضاء.

موقعة الطرف الأغر
نيلسون يرسل الإشارة «إنجلترا تنتظر من كل رجل أن يقوم بواجبه في هذا اليوم»

«عند ظهر يوم 21 أكتوبر/التمور 1805 افرنجي»

*** الضابط جورج براون**

كنت في مؤخرة السفينة وسطحها الخلفي، أثناء تنفيذ استعدادات القتال،

ورأيت القائد نيلسون وبلاك وود وبعض الضباط الآخرين للسفن التابعة، في حوار حاد، وقطعة ورق في يد الأخير ـ كان الكابتن بلاك وود ينظر إليها ـ رغم أني لا أذكر أني رأيتها تمر بين كل الأيدي حتى وصلت إلى «باسكو» الذي أوصلها بدوره لقائده بعدما راجعها مع كتاب الإشارات البرقية، وكان ذلك ـ فيما أعتقد ـ استبدالاً للكلمات التي وردت، وأعتقد ـ دون تأكيد ـ أن الاستبدال كان لكلمة «يتوقع» مع كلمة «يؤكد» والكلمة الأخيرة لم تكن واردة في الكتاب، وأعتقد أن كلمة «إنجلترا» قد سبق إردافها لكلمة «نيلسون» لنفس السبب بناءً على اقتراح الكابتن بلاك وود.

الطرف الأغر، استلام الإشارة

«21 أكتوبر/ التمور 1805 افرنجي»

تقرير من ضابط بحري على السفينة هـ. م. س أجاكس

*** الضابط إيليس**

أردت إعلام هؤلاء الموجودين على السطح الرئيسي بإشارة القائد، وفور استدعاء واحد من ضباط السطح المسؤولين، جمع الرجال بقوله: «أسرعوا، أيها الشباب، تعالوا واسمعوا كلمات القائد». وعندما اجتمع الرجال، قمت بإذاعة الأمر وأنا أظهر بعض الشمم، متوقعاً ـ إلى حد ما ـ أن تأثيره عليهم سوف يصدمهم لأسلوب الكرامة الذي يحتويه. وعلى أية حال لم يفهم جاك، إذ صدرت غمغمات من البعض، في حين كان الآخرون في همسات واضحة يقولون: «نقوم بواجبنا! بالطبع سنقوم بواجبنا، لقد قمت دائماً بواجبي، ألم تفعل أنت؟ دعنا نقترب منهم وسوف نريكم هل سنقوم بواجبنا أم لا». وظل الرجال يتصايحون في اهتياج متزايد بسبب حبهم لقائدهم ـ فيما أظن ـ أكثر منه بإدراكهم الكامل لهذه الإشارة المعروفة. . .

وفاة اللورد نيلسون

«21 أكتوبر/التمور 1805 افرنجي»

*** دكتور ويليام بيتي**

«السيدة هاميلتون التي ذكرها المحتضر نيلسون هنا، كانت امرأته «إيما هاميلتون» كانت قد أنجبت له ابنة عام 1800 افرنجي، في حين مات زوجها السير ويليام هاميلتون في بداية عام 1803 افرنجي».

. . كان هذا في تلك السفينة المسماة «ريداوتابل»، حين تلقى نيلسون جرحه المميت، عند حوالى الدقيقة الخمسين بعد الساعة الواحدة، ساعة ذروة القتال، إذ كان يسير وسط السطح الخلفي مع الكابتن هاردي وعند استدارته بالقرب من باب العنبر ووجهه نحو مؤخرة السفينة «ڤيكتوري» انطلقت القذيفة القاتلة من طرف السطح السفلي لسفينة العدو، التي ـ ومن خلال موقع السفينتين، إذ تقع علي سطحيهما ـ جاءت وسط المؤخرة تماماً وإلى أسفل قليلاً من فناء السفينة «ڤيكتوري» وبالطبع لا تبعد أكثر من خمس عشرة ياردة من حيث يقف القائد فوق السطح، فاصطدمت بكثافة على كتفه الأيسر واخترقت صدره، فسقط ووجهه فوق الأرضية.

أما الكابتن هاردي فكان على جانبه الأيمن ـ البعيد عن العدو ـ وقد تقدم عدة خطوات أمام قائده، وعند التفاته رأى الرقيب أول «سيكر» من البحرية مع اثنين من البحارة يرفعونه من السطح، حيث سقط فوق ذات البقعة التي تنفس عليها سكرتيره آخر أنفاسه منذ لحظات، والذي اختلطت ملابس القائد بدمائه كثيراً. وقد أمل الكابتن هاردي ألا يكون القائد قد جرح بشدة، فأجابه القائد العظيم على ذلك بقوله: «لقد فعلوها معي أخيراً، يا هاردي». . فرد الكابتن هاردي: «آمل ألا يكون كذلك». فرد القائد: «بلى. . لقد اخترق صدري».

وأمر الكابتن هاردي البحارة بحمل القائد إلى غرفة إسعاف السفينة، وحدثت واقعتان عندئذ تميزان شخصية هذا الرجل العظيم، وتوضحان بشدة تلك الطاقة

والحيوية التي تنطلق هائلة من عقله البطولي حتى مع اعتبارات حالته السيئة القائمة.

فبينما كان الرجال يحملونه أسفل السلم من السطح الأوسط، لاحظ أن حبال الدفة لم تُستبدل بعد، ورجا أحد الطلبة البحارة الموجودين هناك أن يذهب إلى السطح ويذكّر الكابتن هاردي بهذا الموضوع، وأن يطلب استبدالها بحبال جديدة في الحال، وبعدما أصدر هذا الأمر، تناول منديله من جيبه وغطى وجهه به، آملاً ألا يراه البحارة وهو محمول بهذه الحالة السيئة إلى حجرة الإسعاف.

كان طاقم السفينة «ڤيكتوري» يهتف كلما رأى سفينة من سفن الأعداء تستسلم وعند واحدة من هذه الهتافات، تساءل اللورد نيلسون عن سبب هذا في قلق، فرفع الملازم باسكو ـ الذي كان يرقد جريحاً على مقربة منه ـ نفسه ليخبره أن سفينة أخرى تستسلم، فبدا أن ذلك زاد من ارتياحه، وبدأ الآن يشعر بظمأ حارق، وكرر طلبه للماء، وأن يرّوحوا عليه بقطعة من الورق، مستخدماً هذه الكلمات: «مروحة، مروحة وشراب، شراب» واستمر يكررها عندما يرغب في الشراب أو الانتعاش بهواء بارد، ولفترة قليلة قبل أن ينتهي.

وطلب «سيادته» ـ الآن ـ من الجرّاح، الذي كان غائباً من قبل لفترة بسيطة لمراعاة المستر ريڤرز، أن يعود للجرحى وأن يقدم مساعدته لهؤلاء بقدر ما يستطيع أن يفيدهم، وقال: «لأنك لا تستطيع أن تفعل لي شيئاً». . فأكد له الجرّاح أن مساعديه يفعلون كل ما يمكنهم عمله ويكون له تأثير لهؤلاء السيئي الحظ، ولكن نظراً لإلحاحه المتكرر بهذا الشأن، تركه الجراح، محاطاً بالدكتور سكوت والسيد بيرك ورجلين من خدم «فخامته». وبعدما غاب الجراح دقائق قليلة لمداواة الملازم بيك والملازم ويڤز من البحرية، ـ إذ كانا من الجرحى ـ استدعاه الدكتورسكوت للعودة إلى القائد، الذي قال: «آه يا سيد «بيتي» لقد أرسلت لك لأقول ما نسيت إخبارك به من قبل، لأن كل طاقة الحركة والإحساس في صدري قد خمدت، وأنت ـ استمر قائلاً ـ تعرف جيداً أنني سأحيا لوقت قصير».

وكانت الطريقة التوكيدية التي نطق بها هذه الكلمات الأخيرة، لم تترك أي

شك في ذهن الجراح أعادت لذاكرته حالة رجل أصابه جرح قاتل في الحبل الشوكي على ظهر السفينة ڤيكتوري ومر بنفس أعراض الإحساس والحركة العضلية، وقد تركت هذه الحالة انطباعاً كبيراً في نفس اللورد نيلسون، وكان راغباً في معرفة سبب مثل هذه الأعراض، فشرحوها له بناءً على ذلك، ويبدو أنه الآن يطبق الموقف والمصير لهذا الرجل على نفسه، أجابه الجراح: «سيدي اللورد، لقد أخبرتني بذلك من قبل»، لكنه كان يفحص الآن أقصى السبل للتأكد من هذه الحقيقة، حين قال القائد: «يا «بيتي» إنني شديد التأكد من ذلك، لقد حاول سكوت وبيرك ذلك تماماً، وأنت تعلم أنني ميت». فأجابه الجراح: «سيدي اللورد، لسوء حظ وطننا، لا يمكننا أن نفعل شيئاً من أجلك».

وما إن أعلن ذلك حتى تأثر به كثيراً، لدرجة أنه استدار وانسحب ليخفي انفعالاته فقال القائد: «إني أعرف ذلك، إذ أشعر بشيء يتصاعد في صدري»، واضعاً يده على جانبه الأيسر - مضيفاً - يخبرني أني سأموت».

وكانوا قد سمحوا له بالشراب دون حدود، ويروّح عليه الدكتور سكوت والسيد بيرك بقطعة من الورق، وكان يصيح - غالباً -: «الحمد لله، لقد أديت واجبي»، وحول استفسار الجرّاح إذ ما كان الألم ما زال شديداً، أوضح القائد أنه مستمر وشديد الألم لدرجة أنه يتمنى الموت، وأضاف بصوت منخفض «إلا أن الإنسان يتمنى لو عاش أطول قليلاً، كذلك». وبعد برهة صمت سادت عدة دقائق، أضاف بنفس الصوت: «ماذا يمكن أن يحدث للمسكينة «السيدة هاميلتون»، إذا ما علمت بوضعي هذا»؟

وحضر الكابتن هاردي - الآن - إلى حجرة الإسعاف، ليرى سيادته مرة ثانية، وكانت بعد فسحة من الوقت تقدر بخمسين دقيقة بعد نهاية زيارته الأولى، وقبل مغادرته سطح السفينة، بعث بالملازم هيلز إلى الأدميرال كولينجوود لإخباره بالظروف المحزنة لإصابة اللورد نيلسون، وقد تصافح اللورد نيلسون والكابتن هاردي مرة أخرى، وأثناء استبقاء الكابتن ليد «سيادته» في يده هنأه، حتى في مجالدة الموت، لنصره المؤزر، وأضاف: «هذا النصر الكامل». رغم أنه لم يعلم

عدد أفراد العدو الذين وقعوا أسرى، إذ كان من المستحيل الإلمام بكل سفينة على حدة.

وعلى أية حال فقد كان متأكداً أن أربعة عشر أو خمسة عشر قد استسلموا، وأجاب القائد: «شيء جيد، لكنني ساومت من أجل عشرين». ثم صاح بتوكيد: «المرساة، يا هاردي، المرساة». فأجابه الكابتن: «أعتقد يا سيدي اللورد، أن الأدميرال كولينجوود سوف يأخذ على عاتقه مهام القيادة الآن». فصرخ القائد المحتضر: «ليس وأنا ما زلت حياً يا هاردي، كما آمل».

وعند هذه اللحظة جاهد بلا جدوى لرفع نفسه من الفراش وأضاف «لا، هل رسوت يا هاردي»، فقال الكابتن هاردي حينئذ: «هل سنقوم بإرسال الإشارة يا سيدي»؟ فأجابه القائد: «نعم، إذ لو حييت فسوف أرسو».. وقد صاحب الأسلوب الممتلىء حيوية الذي نطق به هذه الأوامر الأخيرة للكابتن هاردي، محاولته للنهوض، مثبتاً تصحيحه على ألا يتنحى عن القيادة طوال امتلاكه القدرة على ممارسة مهاراته الفائقة، وأنه يتوقع أن يظل الكابتن هاردي مسؤولاً عن تنفيذ توجيهات عقله الباهر، وقهر إحساسه بالواجب آلام الموت.

وعندئذ أخبر الكابتن هاردي أنه يشعر باقترابه من الموت خلال دقائق قليلة، مضيفاً في نغمة منخفضة: «لا تطرحني فوق السطح يا هاردي». فأجابه الكابتن: «ياه.. بالطبع لا»، حينذاك قال القائد: «إذن فأنت تعرف ما يجب عليك أن تفعله - واستمر - وأن ترعى سيدتي العزيزة «السيدة هاميلتون»، يا هاردي إرع هذه السيدة المسكينة «ليدي هاميلتون»، «قبلني يا هاردي»، فركع الكابتن - الآن - وقبل وجنتيه، حينما قال القائد: «لقد ارتحت الآن، الحمد لله، فقد أديت واجبي. ووقف الكابتن هاردي لدقيقة أو اثنتين في تأمل صامت، وركع ثانية وقبل جبهة «فخامته» فقال القائد: «من فعل هذا؟» أجاب هاردي: «أنا هاردي». فقال له: «فليباركك الله يا هاردي».

وكان عطشه الآن يزداد، وكان يطلب «الشراب، الشراب، روّحوا عليّ روّحوا عليّ روحوا عليّ» ويقول كذلك «دلكوني.. دلكوني» مخاطباً الدكتور

سكوت في الجملة الأخيرة - الذي كان يدلك صدر سيادته بيديه - وكان يجد في ذلك بعض الراحة، وقد نطق هذه الكلمات بشكل سريع، فبدأ نطقه صعباً، لكنه بذل جهداً هائلاً - ما بين لحظة وأخرى مع وضوح تزايد الألم - مع قوته الصوتية ونطق بوضوح هذه الكلمات الأخيرة: «شكراً لله، لقد أديت واجبي». واستمر يكرر هذا التعبير العظيم ما بقي قادراً على نطقه.

رؤية مجموعة إيلجين الأثرية الرخامية للمرة الأولى

«صيف 1808 افرنجي»

لحظة معايشة لفنان إنجليزي

*** ب. ر. هايدن**

«كانت مجموعة «إيلجين» الأثرية الرخامية - وهي من فنون الحفر الإغريقية القديمة أخذت أساساً من معبد الأكروبوليس في أثينا - قد شحنت بحراً إلى إنجلترا بواسطة «توماس بروس» لورد إيلجين السابع، وسط عاصفة من المعارضة الشعبية، ولم يسمح للجمهور بمشاهدة المجموعة حتى عام 1816 افرنجي».

. . . ذهبنا إلى «بارك لين» عندئذ، وبعد عبور الصالة ومنها إلى فناء مفتوح، دخلنا إلى حجرة ملحقة رطبة وقذرة، حيث صفت الآثار على اللمس والبصر، وكان أول شيء ركزت عليه نظري هو معصم شكل نحتي ضمن مجموعة تماثيل الإناث كان واضحاً فيها - بشكل أنثوي - عظمتا الساعد الأمامية والخلفية، وقد دهشت بشدة، إذ لم أر أية إشارة لذلك في معصم أي عمل أثري سابق.

صوبت بصري نحو «الكوع» فرأيت المفصل يؤثر - بوضوح - في الشكل العام تماماً كما في الطبيعة، ورأيت الذراع في وضع استناد، والأجزاء اللينة في حالة استرخاء، وهذه النخبة من الطبيعة والمُثل - التي شعرت بها وكانت رغبة جامحة - للفن الراقي، كانت معروضة هنا دليلاً لا يدحض، وقلبي يدق، حتى إنني لو لم أر المزيد بعد ذلك فقد رأيت ما يكفي لملامستي للطبيعة بقية حياتي.

ولكنني عندما التفت لتمثال تيسيوس ورأيت أن كل تشكيلة فيه متغايرة بالحركة أو السكون، وذلك عندما رأيت أن كلا جانبي ظهره مختلفين، فجانب يمتد من عظمة الكتف بارزاً للأمام، والجانب الآخر مضغوطاً من عظمة الكتف غائراً باتجاه العمود الفقري وهو يستند على كوعه، وبطنه مسطحة لأن أمعاءه سقطت في حوضه بسبب جلوسه.

وعند التفاتي لتمثال إليسوس رأيت بطنه بارزة، من خلال وضعه راقداً على جانبه، وثانية في الشكل الممثل لتنويعه القتال، رأيت العضلات واضحة تحت نتوءات أحد الذراعين مصورة في لحظة الفعل الآني للتصويب، وتركت في الذراع الأخرى لأنها غير مطلوبة، حين رأيت ـ في الواقع ـ أروع أساليب الفن عظمة مجتمعة مع كل التفاصيل الأساسية للحياة الواقعية، وهذا ما تم في لحظة وللأبد.

بعد معركة «روليسا»

«17 من أغسطس/ هانيبال 1808 افرنجي»

*** ريفلمان هاريس**

«عند «روليسا» في البرتغال، اشتبك القائد الفرنسي الجنرال دولا بورد في قتال خلفي ضد السير أرثر ويلزلي قائد الجيش الإنجليزي».

. . . لقد قاتلت البنادق جيداً في ذلك اليوم ـ حقاً ـ وفقدنا العديد من الرجال وظهروا في روح معنوية عالية، وفرحوا بدحر العدو أمامهم، وكان جوزيف كوشان بجواري، يحشو بندقيته ويطلقها بمهارة، وخلال هذه الفترة من النهار، ولشدة عطشه من الحرارة والقتال، رفع «زمزميته» إلى فمه، وقال وهو يأخذ جرعة من محتوياتها: «هاك أيها الولد الكبير».

وبينما يفعل ذلك انطلقت رصاصة عبر «الزمزمية» واخترقت دماغه فقتلته في الحال، وسقط رجل آخر بالقرب منه فوراً مضروباً في فخذه بقذيفة.

وكنا قد تمسكنا بموقعنا بشدة ـ بالفعل ـ وكان الحديد يقوم بدوره ـ أيضاً ـ

بين زملائنا المساكين بمرح شديد، فقد رأيت رجلاً يدعى سيموندرز مضروباً تماماً في وجهه بطلقة مستديرة، يسقط على الأرض جذعاً بلا رأس، في اللحظة التي تكومت فيها طلقات عديدة ضخمة بطول الأرض حولنا متساقطة ببطء لدرجة أننا تمكنا من تفاديها بدون صعوبة.

وأستطيع أن أروي العديد من الحوادث التي شاهدتها في ذلك اليوم، لكن فيما سبق روايته الكفاية، وحينما طلبوا بياناً بالموتى بعد المعركة، أتت النسوة اللاتي افتقدن أزواجهن على طول الجبهة لسؤال الأحياء إذ ما كانوا يعلمون شيئاً عن أزواجهن.

وبين هذه الأسماء سمعت اسم كوشان مطلوباً بصوت امرأة، دون أن يجيب على ذلك أحد، وقد هزّني سماع الاسم، ورأيت المرأة المسكينة التي نادت عليه وهي تقف باكية أمامنا، وواضح أنها تخشى القيام بالمزيد من الاستفسارات عن زوجها.

ولم يدل أي رجل بإجابة حول هذا الاسم أو تكون هناك أنباء حول مصيره، وأنا نفسي رأيته يسقط - كما رويت من قبل - أثناء شربه من «زمزميته»، لكن رؤيتي لهذه المخلوقة البائسة الباكية أمامي، جعلتني أشعر بعدم قدرتي إبلاغها نبأ موته، وفي النهاية لاحظها الكابتن ليش، فنادى على مجموعتنا: «هل يعرف أي رجل هنا ما حدث لكوشان؟ الذي يعلم فليتحدث على الفور».

وبناء على هذا الأمر، رويت ما رأيته في الحال وأخبرتهم بالطريقة التي مات بها، وبعد فترة رغبت السيدة كوشان في رؤية المكان الذي سقط فيه زوجها، وعلى أمل أن تجده ما زال حياً طلبت مني مرافقتها عبر الميدان، وقد وثقت أن تجده حياً - إذ لم تقنع بما أخبرته لها - فسألني الكابتن ليش: «هل تعتقد أنك قادر على معرفة مكانه؟» فأجبته بأنني متأكد من ذلك، لأني ميزت أماكن عديدة خلال بحثي عن ساتر أثناء المناوشات. فقال الكابتن «اذهب إذن وبيّن لتلك المرأة البائسة المكان طالما هي شديدة الرغبة في الوصول للجثة».

وعلى ذلك شققت طريقي عبر الميدان الذي حاربنا فوقه، وهي تتبعني باكية،

وبسرعة وصلنا للمكان الذي ترقد فيه جثة زوجها فأشرت إليه أمامها. واكتشفت أن كل آمالها قد ذهبت سدىً، فاحتضنت الجثة المتصلبة، وبعد نهوضها وتأملها لوجه زوجها المشوه عدة دقائق، وبأيدي متشابكة ودموع تسيل فوق وجنتيها، تناولت كتاب الصلاة من جيبها، وركعت مرتلة آيات الموت فوق الجثة، وعندما انتهت ظهرت عليها راحة كبيرة، وانتهزت فرصة استدعاء جندي تطهير رأيته بالقرب مني مع بعض الرجال، فحفرنا معاً حفرة ودفنا الجثة بسرعة، وعندئذ عادت معي السيدة كوشان إلى مجموعتنا وهي الفرقة التي التحق بها زوجها، ثم ألقت بنفسها فوق أرض عشبية بالقرب منا، وأصبحت هذه الفرقة ـ إذ فقدت كل آمالها ـ هي بيتها ووطنها، ومشت وكان لها نفس ما صادفنا في الطريق إلى «ڤيميرا»، وكانت تحوم حولنا أثناء القتال، ثم بعد ذلك ذهبت معنا إلى ليشبونة، حيث نجحت في شق طريقها إلى إنجلترا.

البريطانيون يتقهقرون إلى كورونا

«1 ـ 4 يناير/ أي النار 1809 افرنجي»

*** روبرت بلاكيني**

«خلال تقدمه ضد جيش نابليون في أسبانيا، اضطر السير جون مور إلى التراجع نحو كورونا بقوات منهكة خائرة العزيمة، وقد تتبعهم الفرنسيون بقيادة سول، . . وفي بنيڤينتي ـ المذكورة في هذا التقرير ـ نجح مور في الانسحاب عبر «إسلا» محطماً الكوبري المؤدي إليها».

بدا على مدينة «بيمبيبر» كل مظاهر المدينة المخربَة والمنهوبة، فكل نافذة أو باب تجده محطماً، وكل قفل أو رباط تراه مكسوراً، وسالت أنهار من الخمر عبر المنازل وخلال الشوارع، حيث ترقد أعداد ضخمة من الجنود ـ الكثير منهم ببنادق معطلة ـ والنساء، والأطفال، وأسبانيين هاربين وسائقي البغال بلا حيوية واضحة. إلاّ عندما ترى هنا أو هناك قدماً أو يداً تأخذ في الحركة، في حين «تنز» الخمر من أفواههم وأنوفهم وتبدو كآثار جرح لطلقة بندقية، كل مساحة من

الأرض تمتلئ بعابدي «باخوس»[1] في جمع خطوات عبادته، فالبعض يرقد فاقد الإحساس، والبعض يترنح.

وكان هناك أولئك الذين أعدوا شرابهم بعمل فتحات في قنينات الخمر الضخمة بواسطة «سونكي بنادقهم»، غير معنيين بكمية الخمر المهدرة عبر الأقبية وأدى ذلك لتحطيمها، وكانت الموسيقى متناغمة مع هذا الإطار، ومعلنة حالة المرح القائمة باختلاط الزئير المتوحش مع الأنين الصادر من الشفاه الملتهبة التي بدأت تقيء خمر الأمس، والفحش كان رياضة عامة، لكن هذه المشاهد كانت مقززة لمن يشاهدها.

وقد عملنا طوال الجزء الأغلب من النهار في تحويل وسحب السكارى الثملين خارج المنازل إلى الشوارع، وإرسال أكبر عدد منهم بعيداً بقدر إمكان تحركهم يوم 1 يناير 1809 افرنجي، وفي الصباح التالي كانت مهمتنا بنفس العمل، لكن التأثير كان قليلاً خاصة مع أناس غير قادرين على الوقوف بل السير للأمام.

وفي النهاية أفادنا الفرسان باقتراب العدو، وخشي السيد جون مور أن تتداخل الصفوف الأمامية لنابليون مع خط سيرنا بالاندفاع في طريق «فونسڤادون» الذي يتصل بطريقنا على بعد أميال قليلة أمامنا، فأمر القوات الاحتياطية بالتقدم متبوعين بالخيّالة، وتركنا المخمورين لمصيرهم، ويجب أن أقول هنا: إن فرقتنا بعدما تشربت الأمثلة الرديئة وامتلأت بالخمر التي تركوها خلف الطوابير المتقدمة لم تخرج من مدينة «بيمبيبر» قوية مثلما كانت قبل دخولها.

ولم نتقدم سوى مسافة ضئيلة حتى وصل فرسان العدو للمكان، وعندئذ بدأ أولئك السكارى المترنحون أشباه الموتى - والذين لم تُجدِ أي محاولة منا لإخراجهم من سباتهم - عند اقتراب الخطر يحاولون استخدام أطرافهم، وامتلأ الطريق فوراً بهم، يدورون ويترنحون ويصرخون ملقين بأسلحتهم أرضاً، وأمسكت النساء الهلعات بأطفالهن بقوة، مستجديات الرحمة بصرخات بريئة

(1) باخوس Bacchus إله الخمر والعربدة عند الإغريق. «المترجم».

مستسلمة، لكنها كلها كانت بلا طائل، إذ تقدمت وحوش الأمة المتحضرة المؤدبة، وقتلت يميناً ويساراً.

وبغض النظر عن الخمر، والعمر والجنس، فقد تساقط السكارى والنساء والأطفال أرضاً، وكان انتقاماً بشعاً لهزيمتهم في بنفنتي. وخلال مسيرة هذا اليوم ـ 4 يناير ـ ظهرت صور البؤس ومعاناة اختلالات الرغبة والانحلال المدمر بين الرجال بشكل مفزع، وكان البعض ملقى على طول الطريق ميتاً، ويقترب العديد من ذات المصير، وكان الفرسان يسقطون بطلقات الرصاص باستمرار أيضاً.

وسوف أذكر حالة تثير كل المشاعر الإنسانية والكرامة: فعلى بعد سبعة أو ثمانية أميال من «هيرريناس» بعدما رأينا مجموعة من الجنود راقدة وسط الجليد، أسرعت ـ حالاً ـ نحوهم لإيقاظهم وإرسالهم للحاق بجماعاتهم، وكانت المجموعة ترقد ثلاثة رجال وامرأة وطفل موتى مشكلين نوعاً من الدائرة، ورؤوسهم للداخل، وفي وسطهم بقعة بحيرة صغيرة من «الروم»[1] متكونة من كسر قنينة خمر، ويبدو أن سيئي الحظ هؤلاء قد عبوا من الخمر كثيراً، أكثر مما تحتمل قدرتهم، وتبع السُكر نومٌ، لم يستيقظوا منه أبداً، إذ تجمدوا حتى الموت.

أسير في كورونا

«16 يناير/ أي النار 1809 افرنجي»

*** سير تشارلز نابيير**

«مكن الانتصار البريطاني في كورونا، قوات السير جون مور من الإبحار ومغادرة أسبانيا، لكن جون مور نفسه جُرح جرحاً مميتاً، أما السير تشارلز نابيير كاتب هذا التقرير فظل على قيد الحياة حتى صار غازياً للسند».

. . . قلت للجنود الأربعة ـ وهم إيرلنديون من أفراد الفرقة الخمسين والثانية والأربعين: «اتبعوني وسوف نشق صفوفهم». وبصرخة عالية عندئذ اندفعت

(1) الروم Rum نوع من الخمر.

للأمام، فتوقف الجنود الفرنسيون، لكنهم عادوا للهجوم علينا، وفور قيامي بالقفز، عجزت رجلي المصابة عن ذلك، وشعرت بطعنة في ظهري، ولم تسبب لي أي ألم، سوى أنني شعرت ببرودة، وألقت بي فوق وجهي.

وبالتفاتي كي أنهض رأيت الرجل الذي طعنني يقوم بمحاولة ثانية، فألقيت سيفي وأمسكت سونكي بندقيته من طرف توصيله، ومغيراً اندفاعه، رافعاً نفسي بجهد شديد قبضت على البندقية بكلتا يدي، وهكذا في نضال مستميت وقفت على قدميَّ، ووصل رفاقه الآن، وسمعت الصرخات المحتضرة للرجال الأربعة والذين كانوا معي الذين طعنوا بالسونكيات على الفور، إذ هوجمنا من الخلف بواسطة بعض الرجال قبل أن نراهم، أثناء وقوفنا وظهورنا مواجهة لمدخل أحد الأبواب. الذي لا بد أن عدة رجال قد اندفعوا من خلاله لأننا طُعنا جميعاً في آن واحد.

وقبل أن تصل المجموعتان الآتيتان عبر الطريق عندنا، إلاّ أنهما وصلا ـ على أية حال ـ لحظة بداية صراعي مع الرجل الذي جرحني، لقد كان صراعاً من أجل الحياة ولكوني الأقوى فقد دفعته بيني وبين زملائه الذين بدا أنهم هم من أنقذت حياتهم عندما تظاهروا بالموت أثناء تقدمنا وسط القرية، إلاّ أنهم ضربوني ببنادقهم وبالهراوات وأصابوني إصابات بليغة.

وعلى هذا الأساس ولعدم وجود أية معاونة قريبة وبغلبة العدد مع الألم الشديد في قدمي الجريحة صحت فيهم: «إني أستسلم». متذكراً التعبير بدقة من قصة قديمة تدور حول ضابط سمين كان اسمه جيمس ويشتهر بـ «جيمي المستدير». ولأنني لاحظت أنهم لا يرغبون في الإبقاء على حياتي، بقيت محتفظاً بغدارتي، ومدافعاً عن نفسي بحزم بواسطة جسم ذلك الإيطالي الصغير الذي جرحني في البداية، لكن سرعان ما أصابني الإعياء، أو التعب.

وجاء في هذه اللحظة رجل طويل أسمر وأمسك طرف الغدارة بيده اليسرى ولوح بسيفه ذي المقبض النحاسي في دائرة، ولطمني بضربة قوية فوق رأسي وهي عارية إذ سقطت ـ من قبل ـ خوذتي، ولتوقعي أن الضربة قد تقضي عليَّ، أحنيت رأسي أملاً أن تسقط فوق ظهري أو على الأقل فوق الجزء السميك من

رأسي وليس على صدغي الأيسر، وقد نجحت إلى حد ما، إذ سقطت الضربة عند الطرف قاطعة اللحم حتى العظم لكنها لم تكسره، فانبعث الشرر من عيني وسقطت على ركبتي كالأعمى لكني لم أفقد وعيي كلية، متمسكاً بغدارتي.

وبعدما استرددت تماسكي في لحظة، رأيت قارع طبلة فرنسي صغير مُزيّن وأنيق ممسكاً بيد الإيطالي الأسمر الذي كان في سبيله لتكرار الضربة، وقمت بسداد الضربة لكنهم مزقوا سروالي أثناء انتزاع ساعتي وحافظة نقودي من جيبي وسلسلة صغيرة للشعر كانت معلقة حول رقبتي.

وخلال حدوث ذلك جُرح اثنان منهم، وكان قارع الطبل «جيبيرت» قد أمر الرجل الأسمر - الذي طعنني قبلاً - أن يأخذني لمؤخرة الجيش، وعندما بدأنا في التحرك استندت عليه إذ كنت أسير بصعوبة، فرأيته ينظر خلفه عبر كتفه ليرى إذا ما كان «جيبيرت» انصرف أم لا، وفعلت مثله لأن ملامحه الدنيئة جعلتني أشك فيه، وكان ظهر «جيبيرت» نحونا، وعلى وشك الذهاب، فسحب الإيطالي سيفه مرة أخرى الذي كان أغمده من قبل، فناديت قارع الطبل: «إن هذا الوغد سيقتلني والجنود الفرنسيون الشجعان لا يقتلون سجناءهم». فأسرع جيبيرت عائداً، وأقسم أمام الإيطالي بعنف دافعاً إياه بعيداً حتى كاد يقع، واضعاً يديه حول وسطي وهو يسندني بنفسه، وهكذا أنقذني هذا الفرنسي الكريم مرتين، إذ كان الإيطالي مصراً على القتل.

التهاب ثدي[1]

«30 سبتمبر/الفاتح 1811 افرنجي»

*** فاني بيرني**

«شعرت فاني بيرني - مدام داربلي - لأول مرة بالألم في صدرها في أغسطس

(1) عنوان هذا التقرير: A. Mastectomy تعني جراحة استئصال الثدي ولكني فضلت تغييره إلى التهاب ثدي. . «المترجم».

عام 1810 افرنجي وقد شخص مرضها على أنه «سرطان»، ووافق البارون لاري - جراح نابليون الخاص - على إجراء العملية، ولتجنيبها الشك، وفروا لها معلومة بسيطة بهذا الشأن، والمشار إليه هنا بال «م. داربلي» في هذا التقرير هو زوجها و «أليكساندر» هو ابنها».

في صباح اليوم الأخير من سبتمبر عام 1811 افرنجي، وبينما كنت في سريري وكان م. داربلي يرتب بعض الأوراق لمكتبه، تلقيت خطاباً كتبه «م. دولالي» لأحد الصحفيين، في مجال الرد لحماية الذكرى النبيلة لوالده ضد الادعاءات التي قامت بها «مدام دوديفاند»، فقرأتها بصوت عال «لأليكساندر» بدموع الإعجاب والتعاطف، ثم أرسلتها عن طريق أليكساندر، إلى فخامة المحرر كما سبق أن وعدت في الليلة السابقة، وبعدئذ ارتديت ملابسي بمساعدة خادمتي كما اعتدت طوال شهور، إذ تعرضت ذراعي اليمنى إلى سكون كُلي.

ولكن العمل الشاق لم يكد ينتهي حتى سلموني خطاباً آخر - آخر بالفعل! - إذ كان من السيد «لاري»، يخبرني فيه أنه سيكون معي عند الساعة العاشرة، وستكون رفقة كاملة، ويُحضني على الاعتماد بقدر ما يمكن على حساسيته وحكمته بالإضافة إلى مهارته وخبرته. وطلب تأمين غياب «م. داربلي»، وأخبرني أن الطبيب الصغير الذي سيسلمني إعلانه هو الذي سيقوم بالتجهيز للعملية، التي سنستعين فيها بمساعدته، وأن القرار الذي صدر بعد الاستشارة يسمح لي بساعتين مهلة فقط - ولتحكمي يا إستر[1] إذا ما كنت قرأت هذا الخطاب دون أن أهتز - إلاّ أنه يجب عليّ إخفاء مشاعري ونواياي عن «م. داربلي».

وتعمدت أن أطيل قراءة الملاحظة، لكسب وقت أضع فيه خطة ما، بالإضافة لخوفي من توريط «م. داربلي» في مشاهدة سيئة غير مجدية لما سأمر به، وهذا السبب أزال كل الأسباب الأخرى، ومنحني القوة كي أتصرف كما لو كنت أواجه شخصاً ثالثاً غيرنا، والتفاصيل ستكون شديدة الإسهاب، كما يقول جيمس.

(1) هذا النص مقتطع من رسالة وجهتها الكاتبة لصديقة اسمها إستر «المترجم».

لكن الموضوع بُرمته يستأهل، فاستدعيت أليكساندر عندي وأرسلته لإعلام السيد باربين نوڤيل، مدير مكتب «م. داربلي» بأن اللحظة قد حانت، وأنني أرجوه أن يكتب استدعاء لـ «م. داربلي» من أجل عمل عاجل وأن يحاول استبقاءه حتى ننتهي من كل شيء، فانطلق أليكساندر صامتاً مرتعباً، وكما سمعت منذ ذلك الحين، اضطر للجلوس والبكاء لتنفيذه تلك المهمة، فأرسلت حينئذ بواسطة الخادمة للدكتور «أومونت» بأنني لا أستطيع الاستعداد حتى الساعة الواحدة، وأنهيت فطوري - وبدون شهية واضحة - ولسوف تصدقينني! . . مبتلعة كسرة خبز بالقوة.

وتعجلت خروج «م. داربلي» تحت دعاوى مختلفة. فخرج بصعوبة لحظة وصول السيد «دوبوا»، وجددت طلبي بشأن موعد الساعة الواحدة، وجاء الباقون ولا خيار أمامهم سوى الاطمئنان على تأخير الموعد، إذ ما زال أمامي غرفة أعدها لرفيقي المبعد.

هذا الترتيب وترتيبات أخرى لنفسي شغلتني تماماً، وكانت هناك ممرضتان مشغولتان بعيداً عن موضوعنا هذا، وكان لديَّ سرير وستائر، والله يعلم ما يمكن تجهيزه بعد ذلك، لكن انشغالي كان في صالح أعصابي، إذ أرغمت على مغادرة غرفتي كي يرتبوها، وما كان الدكتور «أومونت» ليترك المنزل فبقي في الصالة يطوي بعض الفرش، وكان قد طلب أربعاً أو خمساً من قطع الملابس الداخلية النظيفة المتروكة.

وتسللت إلى مكتبتنا لأن أعمالاً ضرورية وتعليمات عديدة كانت تملأ وقتي كلية حتى الساعة الواحدة، ولحظة صار كل شيء جاهزاً وصل الدكتور «مورو» بأنباء تفيد أن السيد «دوبوا» قد لا يتمكن من الحضور حتى الساعة الثالثة، عندئذ خرج الدكتور «أومونت»، وأضحت الساحة خالية وهذه حقاً كانت استراحة مرعبة، إذ لم يعد لديّ ما أفعله، وكان أمامي أن أفكر فقط، فساعتان تمضيان هكذا تبدوان بلا نهاية، ووددت لو تمكنت من الكتابة إلى أبي العزيز وإليك يا عزيزتي إستر، وإلى تشارلوت جيمس وتشارلز وإميليا لوك، لكن يدي حالت دون

ذلك، ثم دلفت إلى الصالون لأجده مجهزاً بالاستعدادات فوُجمت لكنني عدت مسرعة متساءلة إلى أي مدى سأخفي عن نفسي ما يجب أن أعمله حالاً؟.

إلاّ أن منظر الكميات الهائلة من الأربطة والضواغط وقطع الإسفنج والشاش، أصابني بقليل من التعب، ومشيت جيئة وذهاباً حتى فقدت كل أحاسيسي وبالتدريج أصابني التبلد والفتور بلا مشاعر أو وعي، وبقيت هكذا حتى دقت الساعة الثالثة، ثم عادت الحياة تدب فجأة فجاهدتُ ذراعي البائس، الذي لم يعد يستحق الإبقاء عليه.

حملت قلمي المهجور لأكتب كلمات قليلة لـ «م. داربلي» وكلمات أكثر قليلاً لأليكساندر في حالة حدوث نتائج خطيرة، فهذه وصفات قصيرة يمكنني وضعها ببساطة، عندها تتابع وقوف العربات ـ واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع ـ بسرعة أمام الباب، ودخل الدكتور مورو ـ في الحال ـ حجرتي، ليرى إذ ما كنت لا أزال بخير، وأعطاني منشطاً للقلب، وذهب إلى الصالون.

واستدعيت خادمتي وممرضاتي ولكن قبل أن أتمكن من محادثتهم، اقتحم غرفتي ـ دون تمهيد ـ سبعة رجال يرتدون الأسود، الدكتور «لاري»، والمستر «دوبوا» والدكتور «مورو» والدكتور «أومونت» والدكتور «ريب» وتلميذ للدكتور «لاري» وآخر للسيد «دوبوا». وانتبهتُ الآن من غفلتي، وبدافع من الكرامة كدت أتساءل «لِمَ هذا العدد الكبير؟ وكيف تدخلون بلا إذن؟»، لكني لم أنبس بحرف.

تحرك السيد «دوبوا» كالقائد المسؤول بينما ابتعد الدكتور «لاري» عن النظر، وقد أمر السيد «دوبوا» بسرير يوضع وسط الغرفة، والتفت للدكتور «لاري» في دهشة، الذي سبق ووعد بأن مجرد مقعد ذي مسند يكفي لذلك، لكنه رفع رأسه ولم يحاول النظر إليَّ، وعندئذ طلب السيد «دوبوا» فراشين قديمين، وملاءة قديمة، فبدأت أرتعش الآن بشدة كراهية في الاستعدادات ورعباً منها أكثر من أن يكون ذلك بسبب الألم.

وبعد إتمام الترتيب وفقاً لما يريد، طلب مني ارتقاء السرير فوقفت مترددة للحظة، وحينذاك سيطر عقلي على مشاعري ومخاوفي التي قاومت ضده بلا

جدوى، فناديت خادمتي، وكانت تبكي والممرضتان واقفتان متمركزتان عند الباب، وصاح السيد «دوبوا»: «دعوا هاته النسوة يذهبن». وقد أعاد هذا الأمر صوتي لي فصحت بهم: «لا. . دعوهن يبقين»، وأثار ذلك جدلاً بسيطاً ـ وهو ما أنعشني ـ وعلى أية حال جرت الخادمة وواحدة من الممرضات، فأمرت الأخرى بالاقتراب وأطاعتني.

وحاول السيد «دوبوا» ـ هذه اللحظة ـ أن يصدر تعليماته بشكل عسكري، لكنني قاومت كل ما يمكن مقاومته، إلاّ أنني اضطررت في النهاية للاستسلام وخلع رداء النوم الذي كنت منتوية الاحتفاظ بارتدائه، ـ يا لها من لحظة تلك ـ وكيف فكرت في أخواتي، ولا واحدة في هذه اللحظة المرعبة بالقرب مني لتحميني في الحال أو تحرسني ـ أيهما أوفق ـ وأسفت إذ رفضتُ الآنسة ميزونوف، والآنسة «شاستل» ـ ولا يوجد أحد يمكنني الاعتماد عليه، يا ملاكي الراحل ـ كم فكرت فيها وكم أشتاق لك يا عزيزتي «إستر» وحبيبتي «شارلوت»، ففجيعتي واضحة ـ على ما أعتقد ـ بالرغم من أنها ليست أمنياتي، حتى السيد «دوبوا» نفسه تلطف الآن وبدأ يتحدث برقة، فصحت فيه: «أيمكنك الشعور بعملية جراحية تبدو في رأيك تافهة؟». فردد ورائي: «تافهة؟ ـ متناولاً قطعة من الورق مزقها إلى مليون قطعة دون وعي ـ نعم إنها مسألة بسيطة، ولكن. . .» وتردد ولم يستمر ولم يحاول أحد آخر الحديث.

لكنني أنا نفسي كنت قد هدأت بعدما رأيت أنه حتى السيد «دوبوا» قد انفعل، في حين بقي الدكتور «لاري» متباعداً، إلاّ أن نظرة واحدة أوضحت لي أنه كان شاحباً كالرماد، ولم أعرف ـ حينئذ ـ مدى خطورة الحال بصورة جدية، لكن كل شيء كان يقنعني بأن الخطر كان يحوم حولي، وأن هذه التجربة هي الوحيدة التي بإمكانها إنقاذي من بين براثنه، فصعدت ـ لذلك ـ بلا أوامر، فوق السرير القائم، وأرقدني السيد «دوبوا» فوق الفراش، وفرد منديلاً من القماش فوق وجهي، وكان شفافاً، وكنت أرى من خلاله على أية حال أن الرجال السبعة قد أحاطوا السرير في الحال ومعهم ممرضتي، ورفضت أن يمسكوني.

ولكن عندما مر اللمعان خلال القماش، ورأيت بريق الصلب اللامع أغمضت عيني خشية أن تلحقني قشعريرة الخوف لمرأى القطع المرعب، وساد سكون عميق، استمر لعدة دقائق، تخيلت أثناءها أنهم يتلقون أوامرهم بالإشارات، ويقومون بعمل فحوصاتهم، ويا له من ارتياب مخيف!.

لم أتنفس وحاول السيد «دوبوا» تلمس أي نبض بلا جدوى، غير أن الدكتور «لاري» كسر حدة هذا الصمت في النهاية، فقال في صوت جاد مكتئب: «من يمسك لي هذا الثدي؟» ولم يجبهُ أحد على الأقل بالكلام.

لكن ذلك أخرجني من حالة الاستسلام السلبي، إذ خشيت أن يكونوا معتقدين في إصابة الصدر كله - خشيت ذلك تماماً - لأنني رأيت من خلال القماش مرة أخرى يد السيد «دوبوا» في حين يشير إصبعه السبابة إلى خط مستقيم من أعلى إلى أسفل الصدر أولاً ثم متقاطعاً مع ذلك الخط ثانياً وثالثاً دائرة محدداً أن كل الثدي سوف يبتر، فنهضت منفعلة من هذه الفكرة مُنحية الحجاب، وللإجابة على السؤال «من يمسك هذا الثدي لي؟» صحت: «إنه أنا يا سيدي»! وأمسكت بيدي أسفله وشرحت طبيعة آلامي، التي تنبع كلها من نقطة واحدة رغم أنها تنتشر كالسهام نحو كل الأجزاء، فاستمعوا لي باهتمام لكن في سكون مطلق.

وأعادني السيد «دوبوا» إلى وضعي الأول، ومد الحجاب فوق وجهي كسابقه، وكم كان شرحي بلا جدوى مع الأسف!، وعلى الفور رأيت الإصبع المصيري يشير إلى التقاطع وإلى الدائرة وبلا أمل أغلقت عينيَّ مستسلمة لليأس مرة أخرى تاركة الملاحظة والمقاومة والتدخل كلها، وقررت بحزن أن أسكن تماماً. عزيزتي «إستر» وكل أحبائي الذين ستُنقل إليهم هذه الأنشودة الحزينة، سوف يسعدهم سماع أن هذا القرار ما إن اتخذته حتى التزمت به في تحد للرعب يفوق أي وصف وأي ألم للعذاب.

إلاّ أنه عندما غاصت آلات الصلب المرعبة في صدري مقطعة الشرايين والأوردة واللحم والأعصاب لم تكن هناك حاجة لإجراءات تمنع صرخاتي إذ

بدأت صرخة استمرت بلا انقطاع طوال وقت الجراحة ـ وأنا أتعجب تماماً أنها ما زالت ترن في أذني!

وكانت الملحمة شديدة العذاب عندما تم فتح الجرح وسحبت الأدوات وبدأ الألم بلا توقف، لأن الهواء الذي اندفع فجأة إلى تلك الأجزاء الرقيقة ككتلة من الذرات أشبه بالخناجر الحادة المسننة، كانت تمزق حواف الجرح لكنني عندما شعرت مرة أخرى بالأداة تسير في منحنى قاطعة بعكس اتجاه الخلايا ـ لو صدق التعبير ـ في حين قاوم اللحم بشدة كما لو كان يقاوم ويواجه يد الجراح، الذي أُجبر على التغيير من اليمين إلى اليسار.

عندئذ اعتقدت أنني يجب أن أموت حقاً، ولم أحاول أن أفتح عينيَّ وشعرت بهما مغلقتين لدرجة الالتحام وبإحكام شديد لدرجة أن الجفون بدت كما لو كانت قد غُرست في الخدود، وللمرة الثانية تم سحب الأداة فاستنتجت أن العملية انتهت.

يا الله، لم يحدث إذ تجدد القطع الرهيب في الحال، وأسوأ مما كان، وذلك لفصل الجذور، والأساس لتلك الغدة المرعبة عن الأجزاء التي التصقت بها، ومرة أخرى كل وسائل الوصف تبقى عاجزة، ومرة أخرى لم ينته أي شيء، فالدكتور لاري أراح يده فقط ويا للسماء، شعرت بالسكين تصطدم بعظام صدري وتنحت فيه، وكان ذلك يتم وأنا في عذاب لا يطاق بلا صوت.

وسمعت صوت السيد «لاري» ـ بينما يعم الجميع سكون مميت ـ في رنة مأساوية طالباً من كل الحاضرين الإفصاح إذا ما كان هنا شيء آخر يمكن فعله، وكانت الإجابة العامة أن نعم، إلاّ أن إصبع السيد «دوبوا» التي شعرت بها ترتفع ـ بالمعنى الحرفي ـ فوق الجرح، رغم أني لم أر شيئاً، ورغم أنه لم يلمس شيئاً، إلى هذه الدرجة ـ التي لا يمكن وصفها ـ وصلت درجة حساسية هذا المكان، وبالإشارة إلى متطلبات أخرى بدأ النحت من جديد.

وبعد هذا اعتقد الدكتور «مورو» أنه ميّز خلية خاملة، وظلوا هكذا، بقي السيد «دوبوا» يطلب جزءاً وراء الآخر. أيتها الغالية إستر، ليس لأيام ولا لأسابيع

ولكن لعدة شهور لم أستطع فيها التحدث عن هذا العمل الفظيع دون أن أعيشه تقريباً، أو التحدث عنه دون ألم، لقد كنت أمرض وأضطرب لمجرد سؤال واحد. وحتى الآن بعد انتهاء ذلك بتسعة أشهر، أشعر بصداع من الاستمرار في كتابة التقرير، وهذا التقرير البائس، الذي بدأته منذ ثلاثة أشهر، على الأقل، لم أجرؤ على مراجعته ولا قراءته، فالذكريات ما زالت مؤلمة.

ولكي نجمل ذلك، فالمرض كان عميقاً، والحالة شديدة الحساسية، والاحتياطات الضرورية لمنع عودته كانت متعددة، لدرجة أن العملية شاملة العلاج والإعداد استمرت 20 دقيقة من وقت المعاناة شديدة الحدة لدرجة يمكن احتمالها بصعوبة، وعلى أي حال، تحملتها بكل ما أملكه من شجاعة، ولم أتحرك أو أمنعهم، ولم أقاوم أو أثور بل ولم أتحدث عدا مرة أو مرتين، خلال الاستعدادات لكي أقول: «أيها السادة كم أشفق عليكم». . لأنني بالفعل كنت أحس بمشاعرهم المتعلقة برؤيتهم لمعاناتي رغم أن حديثي كان موجهاً أساساً - جداً - للدكتور لاري، وعدا ذلك لم ألفظ حرفاً سوى عندما كانوا يطلبون غالباً، إذ كنت أصيح: «نبهوني أيها السادة، نبهوني».

مرتين فيما أعتقد أغمي عليَّ فيهما، وعلى الأقل فقد خرجت بمفارقتين كُليتين في ذاكرتي من هذه العملية، تمنع ربط ما مر بي معاً، وعندما تم كل شيء ورفعوني حتى يضعوني في فراشي، كانت قواي قد أنهكت كلية لدرجة أنني اضطررت لأن يحملوني ولم أتمكن حتى من تثبيت يدي وذراعي فكانتا متدليتين كما لو كنت بلا حياة، في حين كان وجهي - كما أخبرتني الممرضة - شاحباً بشدة، وهذا النقل جعلني أفتح عينيَّ وحينئذ رأيت عزيزي الدكتور الطبيب «لاري» شاحباً مثلي تماماً وقد فرت الدماء من وجهه، وملامحه تعبر عن الحزن والانقباض والفزع تقريباً، وعندما أصبحت في سريري، استدعوا لي عزيزي المسكين «م. داربلي» الذي يجب عليه أن يكتب لك بنفسه قصته عن هذا الصباح، ثم بعد ذلك طلبوا ابننا أليكساندر.

نابليون يدخل موسكو

«14 سبتمبر/الفاتح 1812 افرنجي»

*** البارون كلود فرانسوا دو مينيڤال**

«تقهقر الروس بقيادة كوتوزوف أمام نابليون متبعاً سياسة «الأرض المحروقة» مغادراً موسكو ليدخلها نابليون بغير مقاومة، وقد أدى الحلول المبكر للشتاء إلى تحول انسحابه التالي من موسكو إلى آثار مدمرة بالنسبة لقواته».

كان المرأى المفاجئ لهذه المدينة العظيمة غريباً ومؤثراً، فهي آسيوية أكثر منها أوروبية تبرز ممتدة على نهاية صحراء وسهل منبسط، تعلوها قبابها ومآذنها الألف والمائتين السماوية الزرقة، تتناثر عليها نجوم ذهبية ويتصل بعضها بالبعض بواسطة سلاسل مفضضة، وقد تكلف هذا الغزو غالياً، لكن نابليون كان يمني نفسه - في ذلك الحين - آملاً أن يتمكن من إقرار السلام هناك.

وكان ملك نابلس - الذي دخل المدينة أولاً - قد أرسل كلمة للإمبراطور يخبره فيها أن المدينة تبدو مهجورة ولا توجد بها حركة مدنية ولا عسكرية ولا يوجد شخص واحد نبيل أو رجل دين قدم نفسه لهم، إذ جرف الجيش الروسي غالبية سكان موسكو في طريقه، وحضر بعض الروس والتجار الأجانب من الذين أفلتوا من هذا النظام لمقابلة الإمبراطور ورجوه أن يحميهم من النهب الذي يعتقدون أنهم يتعرضون له، وبقي في المدينة آلاف قليلة فقط من أدنى طبقات المجتمع الذين لا يملكون شيئاً يفقدونه إذا ما انتظروا ما تسفر عنه الأحداث.

وأمضى نابليون ليلة الرابع عشر من سبتمبر في ضاحية «دوروجوميلو» ودخل موسكو في صباح اليوم التالي فقط، ولم يصاحب هذا الدخول الهيجان المعتاد الذي يميز الاستيلاء على مدينة عظيمة، فلا ضجة تزعج وحدة شوارع المدينة سوى صوت جر المدافع وعربات الخيالة، وبدت موسكو تغط في سبات عميق، مثل مدينة مسحورة من المدن التي قرأنا عنها في الروايات العربية.

وكانت الشوارع التي مررنا عبرها مصفوفة بمنازل جميلة في أغلب أجزائها،

بأبواب ونوافذ مغلقة وقصور ذات أعمدة، وكنائس، ومباني جميلة تومض بالفخامة الأوروبية والآسيوية تنتصب جنباً إلى جنب مع الإيواءات المتواضعة، وكلها تفصح عن رفاهية وثروة مدينة أغنتها التجارة وسكنتها طبقة أرستقراطية غنية وعديدة.

وكانت بعض المنازل الرئيسية التي كنا نستطيع دخولها معدة ومؤثثة بشكل جيد، والعديد منها شديد الروعة ولا يبدو أن سكانها قد هجروها للأبد.

تقدم الإمبراطور مباشرة نحو الكرملين وهي قلعة كبيرة تمركزت وسط المدينة على قمة تل محاطة بسور قتالي مقسم على مسافات بأبراج مسلحة بمدافع، فالكرملين مدينة ثانية، وتحتوي القصر الإمبراطوري، والترسانة، ومجلس الشيوخ ودار الوثائق والمباني العامة الرئيسية وعدد كبير من الكنائس والمعابد الممتلئة بغرائب تاريخية، والأشياء المستخدمة في تتويج الحكام، وغنائم ورايات مأخوذة من الأتراك.

وتوجد مقابر القياصرة في واحد من المعابد الرئيسية وفي هذا المعبد القائم تسود عظمة نصفها بربري وبدائي الملامح، فالحوائط مغطاة بشرائح ذهبية سميكة وفضية كذلك، مسجل عليها نقش الأحداث الرئيسية للتاريخ المقدس، وتتدلى من أقواس المبنى مصابيح فضية ضخمة من الطراز البيزنطي، وتقوم ثريات متفرعة كبيرة من نفس المعدن على قواعد فوق الأرضية، وترى كذلك في هذا المعبد لوحة للعذراء المقدسة تعود للقديس لوقا، وقد زين إطار الصورة باللآلىء والأحجار الثمينة.

ويعلو برج الجرس الضخم ـ المعروف ببرج إيڤان ـ صليب عملاق أُلصق في وسطه صليب من الذهب الخالص يحوي قطعاً من الصليب الحقيقي، وكان هذا الصليب وعدد من الأشياء الغريبة مما يمكن حمله، سترسل إلى باريس من الكرملين.

وما إن دخل الإمبراطور الكرملين حتى انطلقت النيران في «كيتا يجورود» ـ أو ما يسمى بالمدينة الصينية ـ وهي سوق شاسع محاط بسقوف ذات أعمدة،

تجمعت فيها ـ في المحلات الضخمة والمخازن ذات المداخل التي تصب في وسط الشوارع ـ سلع ثمينة من كل نوع مثل الشالات والفراء والأقمشة الهندية والصينية.

وقد بذلت محاولات غير مجدية لإطفاء النيران وتحول احتراق السوق إلى علامة للحريق العام في المدينة، وقد امتد هذا الحريق بسرعة ملتهماً ثلاثة أرباع موسكو، في ثلاثة أيام، فكل لحظة يرى المرء الدخان متبوعاً بألسنة اللهب تندلع في البيوت التي ظلت قائمة، وفي النهاية اشتعلت النيران في كل منزل بالمدينة، وأضحت المدينة فرناً واحداً هائلاً تنهال منه حزم من النيران نحو السماء مضيئة الأفق بألسنة اللهب البارقة فتنتشر حارة لافحة.

وقد أمسكت رياح قوية بهذه الكتل اللهبية المتجمعة بسرعة فوزعتها في كل اتجاه، وصاحب ذلك ضجة صاخبة متتابعة وانفجارات سببها انهيار الحوائط وانفجار المواد الملتهبة التي كانت مخزنة في المحلات والمنازل.

وزاد على هذا الزئير الصاخب والانهيارات المفزعة، صرخات ونواح الناس البؤساء الذين حاصرتهم النيران في المنازل التي دخلوها بغرض نهبها، والتي هرب منها الكثيرون كي يموتوا في الشوارع التي أصبحت متاهات حارقة يستحيل الخروج منها، وتطلعنا بلا حراك وفي سكون سباتي لهذا المشهد الهائل تحفنا مشاعر يأس مطلق في تقديم أي عون.

موت صبي متسلق

«29 مارس/ الربيع 1813 افرنجي»

* شهادة مدلاة أمام اللجنة البرلمانية حول الصبية المسّاحين «المتسلقين»

«أوصت لجنة مجلس العموم عام 1817 افرنجي بمنع استخدام الصبية في عمليات مسح المداخن «الصبية المتسلقين» لكن التوصية لم تظهر لمجال التنفيذ».

صباح يوم الإثنين الموافق 29 مارس 1813 افرنجي، اتفق مسّاح مداخن اسمه

جريجز على مسح مدخنة صغيرة في مصنع بيرة السادة كالفيرت وشركاه، في شارع «أبرتيمس»، وصاحبه في عمله واحد من صبيته، وهو صبي في حوالى الثامنة من عمره، اسمه «توماس بيت»، وكانت النار موقدة مبكراً عند حوالى الساعة الثانية من نفس الصباح، وما زالت مشتعلة عند وصول جريجز وصبيه الساعة الثامنة. كان الموقد صغيراً والأنبوب الحديد بارزاً من الخزان لمسافة بسيطة نحو برج المدخنة، وكان «الأسطى»[1] معتاداً المكان - إذ ظل ينظف مداخن هذا المصنع لعدة سنوات - ولذلك كسر بلاطة أو اثنين من السقف كي يهبط الصبي المدخنة منها، وما إن أطفأ النار حتى سمح للصبي بالهبوط والنتيجة - كما يمكن أن نتوقع - موته في الحال بصورة مؤلمة لا يمكن التعبير عنها دون شك، فبرج المدخنة شديد الضيق ولا بد أنه احتفظ بحرارة تكفي لمنع الطفل من العودة للسطح.

وحتى لو افترضنا أنه لم يقترب من الأنبوب الخارج من الخزان التي كانت متوهجة تقريباً بالتأكيد، فإن ذلك - على أي حال - لم يتأكد خلال التحقيق، رغم أن مظهر الجثة يوحي بأنه ضُغط جَبْرا على الأنبوب وفور هبوطه، أدرك «الأسطى» - الذي بقي فوق السطح - أن شيئاً ما قد حدث ولذلك ألح عليه في الصعود، وكانت إجابة الصبي: «لا أستطيع - يا سيدي، ولا بد أني ميت هنا..» وارتفع جرس الإنذار في المصنع فوراً بأن الصبي قد التصق بالمدخنة وحضر أحد البنائين - كان يعمل قريباً - وبعد عمل فتحة في جدار المدخنة فوق الموقد تماماً تكفي لسحب الصبي خلالها حضر طبيب لكن كل المحاولات المبذولة لإعادة الحياة إليه كانت بلا جدوى، وعند فحص الجثة ظهرت حروق مختلفة عليها، فالجزء اللحمي من الساقين وجزء كبير من القدمين على وجه الأخص قد احترق، والأجزاء التي يصعدون ويهبطون بواسطتها بفاعلية - أيضاً - خلال المداخن مثل الكوعين والركبتين قد احترقت حتى العظم. ومن ذلك يتضح أن الضحية قد بذل عدة محاولات للعودة فور اتضاح موقفه المرعب.

---

(1) كلمة Madter هنا مقصود بها الصنايعي المعلم وأقرب كلمة لذلك هي «الأسطى» في العامية. «المترجم».

جريح في نيڤيل

«16 نوفمبر/ الحرث 1813 افرنجي»

*** روبرت بلاكني**

«أثناء عمليات طرد الفرنسيين خارج أسبانيا، دمر ويلينجتون مواقع القائد «سول» على نهر «نيڤيل»، وكانت خسارة التحالف حوالى 2,700، في حين كانت على الجانب الفرنسي 4,000».

وبعد وصولنا في الحال أسفل الحصن، أدركت أن العدو يستجمع قواه منتظماً خلف أشجار تم قطعها حتى ارتفاع خمسة أقدام تقريباً، وترتفع الأفرع للأمام مشكلة سوراً دفاعياً، وتلفت حولي فوراً، وبعدما قوبلت بتحية لائقة تابعت خطواتي بسرعة مضاعفة، ولمحت راية الملك يحملها رافع الراية «مونتجمري» فأوقفته على الفور، وطلبت حامل راية الفرقة «ماكفرسون» الذي أجابني «أنا هنا...» وبعد أن أوقفت كلا الرايتين في مقدمة طلائع الجنود، منعت الجميع من التقدم، وبهذه الوسيلة قدمنا بسرعة جبهة جيدة إلى حد ما، وأتحنا للجند دقائق قليلة لالتقاط الأنفاس.

ولم تستغرق العملية كلها أكثر من عشر دقائق، لكن الجنود كانوا يتوافدون كل لحظة، وكل دقيقة تمر تُقوي المقدمة، وفي هذا الوقت المثير أبدى رفيقاي الباسلان، الملازم «ڤينسنت» والملازم «ليسترانج» ـ الواقفان بجواري ـ ملاحظة بأنني إذا لم أسمح للفرقة بالتقدم فإن الفرقة 61 سوف تصل إلى ميدان المعركة في اللحظة التي يجب أن نكون فيها نحن هناك، فوضعت قبعتي بسرعة فوق طرف سيفي ومررت نحو رايات المقدمة مطلقاً صيحتي: «سريعاً جرى، قتال».

واندفعنا جميعاً للأمام تحمسنا الصيحة البريطانية الشهيرة، لكن تقدمي ـ أنا ـ كان مؤقتاً، إذ أصابتني طلقة قسمت عظمتي الساق اليسرى، فهبطت إلى الأرض، وسألني «ڤنسنت» في الحال عما أصابني، فأخبرته أن ساقي قد انكسرت وأن هذا كل ما في الأمر، وطلبت منه أن يثبت الطرف في وضع مستقيم ويسندني إلى

شجرة قريبة، وفي هذا الوضع طلبت سيفي وقبعتي، اللذان سقطا أثناء وقوعي، وعند ذاك شجعت فرقتي خلال قتالها الباسل في الميدان.

وبعد إزالة التحصين، طاردت الفرقة العدو حتى الجانب المقابل من التل، في حين بقيت أنظر حولي، بلا حراك، وكان المشهد رائعاً وخيالياً، والبطولة سامية، وتبدو مجموعات من الفرسان بوضوح، بالرغم من ظهورها بلا نظام، متناثرين بطول كل تل، يترقبون فرصة للانقضاض على العدو المهزوم. وحملت قواتنا بشجاعة على سلسلة من التحصينات المنيعة الممتلئة بكثافة بأسنة «السناكي» المحماة باستمرار بواسطة نار لا يتوقف، ومرت هذه الأحداث المرعبة أسفل ناظري، ولم يقطع ملاحظتي لها سوى بعض حركات جسمية لاإرادية مني أو آلام مفاجئة لطموحي المحبط، والطلقات والقنابل التي تتساقط قريبة، أو التي تشق الأرض تقريباً تحتي.

وفور احتلال الميدان الذي سقطتُ عليه، حولت مواقع أخرى على يميننا - لم نكن هاجمناها بعد - بعضاً من مدافعها نحو الأرض التي اقتحمناها تواً، وحرثت القذائف والرصاص الأرض حولي حتى كدت أختنق من التراب والنفايات، وشق أولئك الذين لم يجرحوا بشدة طريقهم إلى أسفل التل، لكن محاولتي لجر ساقي كانت كمحاولة جر حجر الرحى خلفي تماماً، ولذا بقيت بين الموتى والمحتضرين الذين لم يكونوا قلة، وكنت في موقف لا أحسد عليه.

وظهر بعد ساعات العريف «سيمبسون» من الفرقة، وحينئذ حصلت على ما يسمونه «ضمادة الميدان»، لكن لسوء الحظ لم يكن معه «جبائر للأقدام» وبالتالي استبدلت «بجبائر الأيدي»، وخلال هذا التحويل تألمت بشدة طوال هبوطي. حضر بعض الأفراد ووضعوني في ملاءة ثم حملوني إلى أسفل التل، ولكن أثناء تقدمنا عبر هذا المنحدر شبه العمودي، تكومت الملاءة بسبب ثقلي عند المنتصف ولعدم وجود الطول الصحيح للجبيرة، سقطت ساقي فيما وراء حافة الملاءة، ومن المستحيل تخيل العذاب الذي عانيته. وبعدما وصلنا أسفل التل عند الظلام، وجدوا لحسن الحظ كوخاً حملوني إليه.

وحتى ظهر ذلك اليوم، هنأت نفسي على حظي الحسن لأني خدمت في المعركة الأولى والمعركة الأخيرة التي خضناها في أسبانيا، وتأملت بفخر المسيرة المنتصرة عبر فرنسا وتذكرت كذلك ـ وبمتعة كبيرة ـ كما لو كان ذلك فألاً واعداً أنه في مثل ذلك اليوم منذ خمسة أعوام مضت عندما وطئت قدماي لأول مرة أرض أسبانيا في السادس عشر من نوفمبر عام 1808 افرنجي، تقدمنا نحو «فوينتيس دي أونورو» تحت قيادة السيد «جون مور».

حينذاك كنت قوي البنية شديد المرح، مع كل آمال المجد الحربي الماثلة أمام البصر، لكن مساء يومي هذا، والموافق الذكرى الخامسة، بدا الأمر حزيناً، ففي هذا اليوم، حملوني خارج أسبانيا موضوعاً في ملاءة، مكسور الجسد، محبط الفكر، وآمالي المشرقة قد سقطت مثلي على الأرض، هكذا هي الحرب المجيدة، وبعد الإسعاف الميداني، رحل سيمبسون بحثاً عن جرحى آخرين.

وبناءً على تقريره حول إصابتي، زارني ضابطان طبيبان آخران أو ثلاثة، ولحسن حظي ذهبت جهودهم لبتر ساقي هباءً، وفي اليوم الرابع نقلوني إلى حيث أقيم مكان لمستشفى، لكن التهاب الساق عندئذٍ كان هائلاً ـ لقد كانت ساقي في ضخامة جسمي حينها ـ لدرجة لا يمكن معها إجراء أي عملية بتر، وحل محل ذلك علاج كان طويلاً ومؤلماً، إذ نزفت بغزارة أثناء وجودي في الكوخ حتى تكونت مادة لاصقة شديدة كالحديد حول ساقي، وقبل رفعي كان من الضروري جداً انتزاعي من الفراش الذي أرقد فيه.

وبعد وقت غير يسير، انقضى في تذويب بقايا الفراش والغطاء التي حملتها معي من الكوخ بالماء الدافىء، تمت إزالتها، وبدأت الآن العملية المؤلمة لساقي، وكان القائمون بالعملية الجراح «ماثيوز» ومساعده «جراهام» من السرية 31. أمسك جراهام بركبتي وماثيوز بقدمي، وكان قد اقترحا أن يقوم أربعة من الجنود بإمساكي أثناء العملية، فاعترضت على ذلك، قائلاً بنوع من الكبرياء، إنني

كنت دائماً متحكماً في أعصابي، فأخذا يديران ويلفان ويمدان ساقي ويضبطانها مثل مقياس الاستواء[1]، وكان العذاب مخيفاً.

لكن رغم إطباقي على أسناني وتسابق قطرات العرق اللافحة بسرعة الواحدة وراء الأخرى بقيت ثابتاً، وامتصصت كل أنّة صاعدة، وبعدما انتهى كل شيء، شكرت «ماثيوز» بأدب، مبدياً ملاحظة عابرة بأنه من السرور أن يصاب المرء كي يعالج بمثل هذه الراحة، وتلك كانت بطولة ساخرة إذ في تلك اللحظة ارتعشت كما لو كنت خارجاً لتوّي من مَحرقة.

الإعدام بالخازوق

«اللاذقية 1815 افرنجي»

*** تشارلس لويس ماربون**

«كان كاتب هذا النص يعمل جراحاً، مصاحباً لرحلة السيدة (هيسترستانهوب)».

يوم التاسع عشر من يوليو، كنت أسير خارج واحدة من بوابات المدينة، عند الساعة الثامنة تقريباً، حين مررت فجأة برجل وضع على الخازوق منذ ساعة أو ساعتين، وقد مات الآن، لكنه ما زال مخترقاً بالعمود الذي نفذ ـ كما رأيته حال اقترابي منه ـ عبر عظمة الصدر السادسة على الجانب الأيمن، وقد صدمني هذا المنظر غير المتوقع لدرجة أنني لم أسترد حواسي بما يكفي للتقدم نحوه إلاّ بعد عدة دقائق.

وكان العمود منصوباً قائماً وبدا غير حاد بصورة كاملة، وأكثر سُمكاً إلى حدٍّ ما من العصا التي يستند إليها النبات المتسلق، وأُخبرت أنه دُفع عنوة إلى أعلى الجسم بضربات متتالية بواسطة مطرقة، وبعد أن ربطوا الفاعل على وجهه فوق سرج تحميل ثقيل، وأحدثوا به فتحة بواسطة مؤسَى لتسهيل دخول العمود.

---

(1) في الأصل الكلمة المستخدمة تعني زجاجة معدومة في ذلك الوقت كانت تملأ كحولاً وتغلق بأحكام وتستخدم كمقياس لتحديد أفقية المستوى. «المترجم».

ورغم أن الجسم كان ما زال حياً إلاّ أنهم وضعوه رأسياً بصورة قاسية، لأن الأتراك لا يتخذون إجراءات مخففة لمشاهد الإعدام، وبوازع من الشفقة على آلامه بعد بقائه على هذا الوضع وقتاً قصيراً، أطلق عليه الرصاص وصبغ قميصه ـ الذي أحرقوه بعد ذلك ـ كل جسمه باللون الأسود، وترك هكذا لمدة يومين، قيل أن جريمته هي سرقة ثور مخصيّ وقتل واحد من مطارديه، ويتعرض اليهود والمسيحيون والدروز والنصارى فقط لهذه العقوبة المفزعة، أما الأتراك فتقطع رؤوسهم.

الانسحاب قبل «واترلو»

«17 الصيف/ يونيه 1815 افرنجي»

* الملازم و. ب إنجلي من مدفعية الخيَّالة الملكية

«أوقف قائدا جيش نابليون المارشالان «ني» و«دوجروشي» القائد «ويلنجتون» عند «كاتر ـ برا» وهزما القوات الروسية عند «ليني» في معارك ثانوية جنوب «واترلو» يوم 16 يونيه».

. . . سرنا قبل بزوغ ضوء النهار، ومررنا عبر «نيڤيل»، ملتقين مع العديد من الجرحى على الطريق، حتى وصلنا إلى «كاتر ـ برا» حيث دارت أحداث الأمس. وكان الجيش بأكمله يصل تدريجياً ومتتابعاً. وظهر الفرنسيون في قوة ذات شأن أمام مقدمتنا، وعند حوالى ظُهْر اليوم ذكر اللورد أرثر هيل ـ مساعد الدوق لشؤون المعسكر ـ أن البروسيين قد انهزموا وأن قواتهم تتقهقر، وبعد الظهر بدت بين قوات العدو هناك حركة ملحوظة أمامنا، كما لو كانوا يعدون للتحرك، كانت كل فصيلتنا في ذلك الوقت تنتقل إلى موقع فهمنا أنه على بعد أميال قليلة من مؤخرتنا.

وتشكلت فرقة الفرسان في ثلاثة صفوف، فرسان «الهوسار» في الصف الأول والخيَّالة الخفيفة في الصف الثاني، أما في الثالث فتأتي الخيَّالة المسلحة الثقيلة. أصبح الموقف ساخناً ومتضاغطاً بصورة غير محتملة، وأظلمت الشمس تماماً بسحابة شديدة السواد، وفي ذات الوقت هبت عاصفة ترابية كثيفة دلت على تقدم

تشكيل كبير من الفرسان آت لإمداد العدو، وكانوا آتين من اتجاه على يمين العدو وقد سمعت اللورد آرثرهيل ـ مساعد المعسكر ـ يقول: إن اللورد أوكسبردج لديه تعليمات ثابتة بألاّ يتعامل مع الفرسان.

وتقدمت القوات الفرنسية ـ التي أشرت إليها من قبل ـ حتى الآن بجرأة في أعداد كبيرة ولبعض الوقت تحت غطاء من الأشجار جزئياً، حتى أطلقت طلائعهم النيران على خطنا الأمامي، فبدأنا إطلاق المدافع، ورُدَّ علينا بسرعة. في حين واصل العدو تقدمه وبدأ ـ فيما أعتقد ـ محاولة الانتشار، حيث بدا أن هناك قتالاً قريباً.

وكان الترقب والسكون حتى هذه اللحظة شاملاً، ـ إلى أن بدأت المناوشات والمدافع ـ إذ لم يكن معروفاً بشكل عام إذا ما كان على فرقة الفرسان تجنب الاشتباك أم لا، وفي اللحظة الأخيرة صدر الأمر، وأخذ الجميع في تقهقر سريع بثلاثة تشكيلات خلال ثلاثة طرق مختلفة، عند ذاك الوقت انقلبت السحابة السوداء إلى صاعقة رعدية وانهار المطر.

كنا نشكل الطابور الأيسر في التقهقر، وقد غرقت الأرض والطريق بسرعة في فيضان من الأمطار الغزيرة المتساقطة، لدرجة يتعذر معها عملياً أن يضغط الفرسان الفرنسيون على طابورنا بأي قوة. وحقيقة ففي خارج الطريق على ممر فرسان فرقتنا تحولت الأرض إلى بركة موحلة، وعند رؤيتي لذلك، وبعدما انخلعت حدوة أحد جياد المدافع، توقفت وجعلتهم يعيدون تركيب الحدوة، برغم وجود بعض المناوشين الذين بدأوا الضغط علينا، لكنهم ظلوا على مسافة كافية بواسطة مدافعينا المشكلين كما لو كانوا مجهزين للتعامل معهم، وهذا يوضح مدى عدم جدوى الضغط علينا في مثل هذا الموقف.

لكنني استطعت ـ آنئذٍ ـ رؤية الطابور المركزي على الطريق الرئيسي إلى يميني، وكانوا يشتبكون في وضوح، مصحوبين بهتافات كثيرة، وتلك كانت مهمة الفصيلة السابعة «هوسار» الذين لم يكونوا ناجحين، لكن جنود الخدمات أنقذوا الموقف.

أما في طابورنا فلم نفقد أحداً، وكان انسحاب المدافع طوال الطريق ـ عدا المدفع المذكور ـ بالخطوة السريعة لمسافة ستة أو سبعة أميال حتى وصلنا لفصيلتنا

واتخذنا مواقعنا، واستمر المطر يهطل بغزارة طوال الليل.

وتلقيت تعليمات في نفس الليلة بالخروج - عدة مرات - في الصباح لتحديد طريق ملائم ويجب أن يكون موازياً للطريق الرئيسي، وعبر غابة «سوانييه» وعلى يسار «بروكسل»، وذلك حتى يقوم السير «هوسي» بفرقته بتغطية الجناح الأيسر للجيش في حالة انسحاب آخر.

وقد غادرت المأوى عند الفجر، ووفقت في التعرف على طريق عملي بالنسبة لمدافعنا الخفيفة عيار 6 رطل وللخيّالة كذلك، وصادفت في إحدى القرى مجموعة من أربعة أو خمسة آلاف بروسي يتضح أنهم من تشكيلات مختلفة وهاربون على الأرجح، وعلى أية حال ظهر أنهم كما لو كانوا يتجمعون للسير في اتجاه القذف المدفعي الذي بدأ يتكاثف، واتخذ عدد غير محدد من الفلاحين مأوىً لهم في غابات «سوانييه» بنسائهم وأطفالهم، وأغنامهم وخنازيرهم وماشيتهم، وكل ما له قيمة ويستطيعون حمله.

توجهت إلى «بروزيل» وكانت الشوارع مهجورة تماماً، عدا وجود الجرحى الذين كانوا يترنحون من جراء اشتباكات الخيّالة أمس في «كاتر - برا»، وقد جلس العديدون أو رقدوا حول درجات سلالم المنازل كما لو كانوا غير قادرين على المضي قُدماً بحثاً عن مستشفى، ورتبت أموري لتناول إفطار سريع في «فندق إنجلترا» مع شاب مهذب متشوق لسماع الأنباء وثبت أنه الأدميرال مالكولم، وحملت معي لحم دجاج بارد لمجموعتي التي أعلم أن ليس لديها ما تأكله، والتي وصلت إليها حوالى العاشرة والنصف، وأعددت في الحال عمل تقريري للسيد «هوسي ڤيڤيان».

الفجر مع السرية السابعة ـ فرسان في واترلو

«18 الصيف/ يونيو 1815 افرنجي»

*** مساعد آمر / إدوارد كوتون**

يعد ميدان واترلو سهلاً ملتوياً مفتوحاً، وفي يوم المعركة كان مغطى بمحاصيل

رائعة من الشعير والقمح والذرة والفول والبازلاء والبطاطس والكرنب والبرسيم والحبوب الأخرى. وكان بعضها شديد الارتفاع، كما كان هناك قطع قليلة من الأرض المحروثة، يتقاطع معها طريقان كبيران يتفرعان عند جبل «سانت جين» وعند بزوغ النهار، بدأ كل القادرين استعداداتهم للتحرك، وكان هناك الكثيرون من غير القادرين - بسبب الإرهاق والبرد - على التحرك لبعض الوقت، والبعض كان ينظف السلاح، والآخرون يجلبون الخشب، والمياه، والقش.. إلخ.

ومن جبل «سانت جين» - المقر الذي أقيم فيه حالياً - حاول البعض إيقاد النار مستخدماً بعض جمرات المعسكر، لكن الكثير منها أطفأته الأمطار تماماً، وفي هذه الفترة كان هناك صوت طلقات مستمرة بغير انتظام على طول المواجهة، شبيهة بالمناوشات، وكان لمعسكرنا مظهر غير مرئي، وبدا على الجنود والضباط البرودة إذ تحول لونهم للزرقة، وكانت لحانا الطويلة مع ملابسنا المبتلة القذرة فوق أجسامنا غير مريحة على الإطلاق، وبينما يتقدم النهار والجميع في حركة، للمرء أن يتخيل السهل كله وهو يمتلىء بالحركة، فتخيل 70,000 مقاتل متكومين معاً!، وكانت أصوات الجموع تشبه هدير البحار على ساحل صخري.

قتال فصيلتي الـ «سكوتس جريز»[1] والـ «92 هايلاندرز»[2]

«واترلو 18 يونيه/ الصيف 1815 افرنجي»

*** الملازم ر. وينشستر «من الفصيلة 92 هايلاندرز»**

عند بداية القتال تم تشكيل فرقة من البلجيكيين يتراوح عددها من 8,000 إلى 10,000 جندي، لكنهم بمجرد أن هوجموا واكتسح مناوشوهم الخط الذي شكلوه أمام الفرقة الخامسة، اختفوا جميعهم وسط الفرقة الخامسة ولم نعد نراهم بعد ذلك أثناء القتال.

(1) الـ «سكوتس جريز» فصيلة من الجنود الاسكتلنديين من القبائل الغالية القاطنة اسكتولندا.

(2) الـ «هايلاندرز» جنود من سكان المناطق المرتفعة في اسكوتلندا. «المترجم.».

بعد ذلك قام العدو بعدة هجمات خطيرة على الفرقة الخامسة، وعند حوالى الساعة الثانية أو الثالثة من بعد الظهر تقدم طابور من 3000 إلى 4000 جندي نحو حافة الطريق الذي يخرج من الطريق الرئيسي بالقرب من «لاهاي سينت» فيما وراء يسار موقعنا.

وفيما قبل هذا، كانت الفصيلة 92 تكمن تحت غطاء هذا الموقع حين أمروا بالاستعداد للقتال في الحال، صاح القائد السير دينيس باك في نفس الوقت: «يا جنود الفصيلة 92، كل شيء ممهد على يمينكم ويساركم، وعليكم أن تشتبكوا مع هذا الطابور».

وفور ذلك أمر بتشكيل رباعي مغلق عند منتصفه، وقامت الفصيلة التي كانت على مدى 20 ياردة من الطابور حينئذ بإطلاق قذيفة نحوه، وما إن وصل العدو لحافة الطريق حتى أعد سلاحه، وكان في طريقه للتصويب في اللحظة التي تلقى فيها قذيفة الفصلية 92. وعندئذٍ اندفعت فصيلة الـ «سكوتس جريز» ودارت حول جناحينا وعبر منتصفنا حيث عملنا لهم عدة فتحات، وتقدمت للاشتباك الفصيلتان معاً، متصايحتين «عاشت اسكوتلندا للأبد» واجتاحت فصيلة الـ «سكوتس جريز» بالفعل هذا الطابور، وفي أقل من ثلاث دقائق تحطم تماماً وتم أسر 2000 منهم بخلاف القتلى والجرحى، كما تم الاستيلاء على رايتين من راياتهم، وأضحى الحقل الأخضر الذي كانت فيه تشكيلات العدو ـ وكان منذ لحظة مضت شديد النعومة والخضرة مثل منتزه فوينكس ذي الـ 15 فدان ـ في دقائق قليلة مغطئ بالقتلى والجرحى ومخالي الجنود ومحتوياتها، والأسلحة وآلاتهم. . إلخ، وبالمعنى الحرفي فكل شيء مبعثر، لدرجة يستحيل معها أن تتجنب الخطو فوق واحد أو آخر، وفي الحقيقة يصعب على المرء تصديق، ـ ما لم أكن عاينت ذلك بنفسي ـ. أن مثل هذا الدمار الشامل يمكن أن يتم في مثل هذا الوقت القصير.

وكان بعض الجنود الفرنسيين ـ الراقدين جرحى ـ يصيحون «عاش الإمبراطور». ويطلق الآخرون بنادقهم نحو رجالنا الذين تقدموا مارين بهم لمطاردة العدو الهارب.

مدفعية الخيّالة الملكية تصد فرسان العدو ـ واترلو

«مساء 18 يونيه/ الصيف 1815 افرنجي»

*** ضابط الميدان: أ. س. ميرسير من مدفعية الخيّالة الملكية**

صعد طابور كثيف مشكل من الفرسان قاذفي القنابل والفرسان المدرعين، الهضبة في تلك اللحظة، وكان يتقدم نحونا بسرعة كبيرة، لدرجة لا يبدو معها أن هناك وقتاً للاستعداد للاشتباك، ولو أننا وقعنا بين أيدي الطابور لضعنا بالطبع وعلى أية حال صدرت الأوامر بالتمركز، وفتح كل مدفع نيرانه حيثما كان في الحال، وبدأت السريتان في تشكيل رباعي إطلاق نيران ضعيفة متقطعة، إذ كانوا في حالة توقعت أن أجدهم خلالها وقد تفرقوا في لحظة، فصفوفهم متباعدة وغير مترابطة، تترك ثغرات في صفوف متعددة من عرض التشكيل، كان الضابط وضباط الصف مشغولين بسدها بدفع جنودهم معاً أو حتى بضربهم، في حين وقف أولئك «كأخشاب مُسنّدة» وأسلحتهم في غمرها، مذهولين ومنزعجين بوضوح.

وعليَّ أن أضيف أنهم جميعاً كانوا أطفالاً تماماً، فالنفر منهم ـ ربما ـ لا يعدو عمره الثامنة عشرة، وبالرغم من نيراننا، استمر الطابور في تقدمه ركضاً حتى أصبح ما يفصله عنا ـ بالكاد ـ عرض الطريق الصغير، ولكن في نفس اللحظة التي توقعنا فيها الهزيمة، تحول قادة هذه الفصائل فجأة وجاهدوا في شق طريق لهم نحو المؤخرة، فحلّت بهم الفوضى، وانقلب الجميع إلى هرجة متزاحمة.

يصعب وصف المنظر الناشىء، واستغرق ذلك عدة دقائق قبل نجاحهم في مغادرة الهضبة، لم تتوقف خلالها نيراننا، ونتجت عن ذلك مذبحة مروعة، لأن كل مدفع كان يحشوه تسعة أفراد بطلقة مستديرة وغلاف إطلاقها، كانت كلها ـ وبسبب قصر المسافة وحجم الهدف، وارتفاع الأرض التي يقفون عليها ـ تحدث أثرها كاملاً.

وبدلاً من أن ينشد العديد منهم الأمان في الانسحاب، اندفعوا بحكمة بين

ثغرات مدافعنا، وشقوا طريقهم كما شاهدنا البعض يفعل، لكن الجزء الأعظم عاد يائساً عندما وجدوا أنفسهم أمام بطاريات المدافع كما حدث، وحقيقة حاربوا في طريقهم عبر صفوفهم وأثناء القتال شاهدنا الضربات تتبادل في كل الاتجاهات. في النهاية تمكنت بقايا هذا الطابور الشجاع من الاحتماء تحت صخور التل، مخلفة الهضبة مثقلة بموتاهم وجرحاهم وعندئذٍ أوقفنا النيران، كي ينال رجالنا ـ الذين كانوا مرهقين بما تحملوه ـ راحة لأنفسهم، ويستردون نشاطهم أمام الهجوم التالي، الذي رأيناه يُعد، إذ إنهم لم ينأوا كثيراً بعيداً عن التل وإنما كانت القبعات الطويلة لقاذفي المتفجرات في الفصائل المتقدمة تبدو عبر الحافة.

أما المحاولة الثانية فقد مُهد لها بسحابة من المناوشين الذين تقدموا لمهاجمتنا على مسافة قريبة من جبهتنا فأوقعوا بنا إصابات ذات شأن ببنادقهم ومسدساتهم ولكن لأن نيتهم كانت واضحة في الانسحاب بعيداً عن مرمى نيراننا، فلم نعرهم أي اهتمام، وفي النهاية بعد إعادة تشكيل طابورهم، صعد الطابور الهضبة وتقدم لمهاجمتنا، لكن خطواتهم هذه المرة كانت لا تعدو السير البطيء إلاّ بالكاد، أو على أقصى تقدير ركض بسيط، فكثير من المعوقات تعترض طريقهم ولا تسمح لهم بسرعة أكبر دون إحداث فوضى.

وكان ذلك في صالحنا وقد أفادتنا الخبرة بمدى دقة وتدمير إطلاق النار القريب، فتركنا الفصائل المتقدمة لتصل إلى حوالى نصف المسافة بين حافة المنحدر والطريق المواجه لنا قبل أن نبدأ، وليس ضرورياً القول بأن النتيجة كانت بالتحديد مماثلة لما سبق وصفه بالفعل، ومرة أخرى وقعوا في الفوضى، ومرة أخرى تعرضوا لعدة دقائق لنيران حاصدة من أغلفة الإطلاق في مدى 20 ياردة لدرجة أن أكوام القتلى والجرحى الباقية على الأرض من قبل وكانت كبيرة أصبحت الآن هائلة.

وبالنسبة لمنظر الحقل بعد القتال، لم يعد هناك ما يقال بشأنه، لأن الليل هبط علينا بسرعة، وكنا سعداء أن نرقد بدلاً من التلفت حولنا، وكانت الأرض تمتلىء بالموتى والمحتضرين المبعثرين بصورة كثيفة، رجالاً وخيولاً، وبقايا

أسلحة وذخيرة، وعربات، ومدافع، وقبعات.. الخ، سوف تجدها كجزء مما جرى.

وعلى أية حال، يجب أن أضيف أن أكوام القتلى كانت أمام بطارية مدافعنا أكثر ارتفاعاً عنها أمام أي جزء آخر من الميدان، وكانت لكثرتها أن أخبرني الضابط السير أوجستوس فرازر ـ بعد ذلك بيومين ـ في نيڤيل أنه أثناء ركوبه حصانه فوق الموقع الفرنسي استطاع أن يميّز المكان الذي تمركزت فيه القوة ج ـ رمز فرقتنا ـ من الكوم الأسود الممتلىء بالجثث أمامه، كما لو كان علامة مميزة وسط الميدان.

اشتباك نابليون الأخير بالحرس الامبراطوري ـ واترلو

«الساعة 7 مساء يوم 18 يونيه/ الصيف 1815 افرنجي»

* الضابط هـ. بوويل «السرية الأولى مشاة»

كان يمر بهذا الموقع طريق لعربات الخيول على أحد جانبيه قناة صغيرة لها ضفة، فيها وأسفلها احتمت سريتنا أثناء القصف المدفعي الذي استمر حوالى ثلاثة أرباع الساعة ولولا حماية هذه الضفة لكان كل كائن قد انتهى.

ومن المحتمل أن الإمبراطور «نابليون» كان يعتمد في حساباته على هذا التأثير، وتوقف إطلاق النار فجأة، وما إن انقشع الدخان حتى ظهر أمامنا منظر مذهل: كان طابور من المقاتلين ـ ذا تشكيل سبعيني ـ من قوات الحرس الأوسط، عدده حوالى 6000 مقاتل يقوده ـ كما علمنا ـ المارشال «نيي» ـ يصعد المرتفع مستعداً للاشتباك وهو يصيح «عاش الإمبراطور» واستمروا في التقدم حتى مسافة خمسين أو ستين خطوة من مقدمتنا، حين أُمِرت السرية بالاستعداد.

وسواء كان ما حدث بعد ذلك من جراء ظهور مفاجىء وغير متوقع لقوة شديدة القرب هكذا منهم، والتي لا بد أنها ظهرت كما لو كانت تخرج من الأرض أو من جراء القصف الكثيف الهائل الذي نالوه منا، فقد توقف جنود الحرس الذي لم يعرف الفشل من قبل فجأة، حتى إن أولئك ـ الذين كانوا على

البُعد أو عند جناح القوات واستطاعوا مشاهدة الاشتباك ـ أخبرونا بأن تأثير نيراننا أجبر مقدمة الطابور على التراجع. وفي أقل من دقيقة سقط أكثر من 300 جندي.

وبدأوا يترددون، كما بدأ عديد من القوات الخلفية في التراجع كما لو كانت ستنتشر في حين أخذ بعض الجنود من المؤخرة في إطلاق النار على رؤوس أولئك الموجودين في المقدمة، وكان ذلك دليلاً على ارتباكهم لدرجة أن اللورد سالتون ـ الذي التحق بالسرية بعدما بعثر سرية خفيفة التسلح عند هوجومون ـ هلل عالياً: «حان الوقت، أيها الأبناء».

وفي الحال قفزت السرية للأمام، واستدار الحرس ومنحنا فرصة لاستخدام السيوف واشتبكنا معهم حتى أسفل التل إلى أن مررنا بنهاية حدائق «هوجومون»، حينما تعرض جناحنا الأيمن لطابور كثيف آخر ـ كما علمنا فيما بعد أنهم من فرقة قناصة الحرس ـ الذين كانوا يتقدمون بتدعيم من الطابور السابق، ولهذه الظروف بالإضافة إلى أن اشتباكنا قد انعزل، اضطرت السرية إلى العودة لمواقعها الأصلية.

النهاية في واترلو

«18 يونيو/الصيف 1815 افرنجي»

* الضابط جـ، كينكاير ـ سرية البنادق

لن أنسى أبداً المشهد الذي أبرزه ميدان المعركة حوالى الساعة السابعة مساء، لقد شعرت بالضيق والتمزق، بسبب الانفعال أكثر منه بسبب التعب.

إن فرقتنا التي كانت تصل لأكثر من 5000 جندي مع بداية المعركة هبطت حتى وصلت إلى مجرد خط وحيد من المقاتلين، فالفرقة السابعة والعشرين أضحت ـ حرفياً ـ من الموتى في مربع على بعد ياردات قليلة خلفنا، وقد تلقى جوادي إصابة أخرى في ساقه، وواحدة مرت من سرج الجواد لتستقر في جسمه، فحولته إلى قائمة المحالين على المعاش، وظل الدخان عالقاً بكثافة حولنا لدرجة أننا لم نتمكن من رؤية أي شيء، فتمشيت قليلاً باتجاه كل جناح مجتهداً في إلقاء

نظرة على ما يحدث، لكن عيني لم تر سوى بقايا الرجال والجياد المختلطة واضطررت للعودة لموقعي بقدر الحكمة التي ذهبت بها.

أنا لم أسمع حتى الآن بمعركة قُتل فيها كل إنسان، لكن هذه المعركة بدت استثناء، إذ إن الجميع كانوا يموتون بالدور.

وبدأت في الحال صيحات هتاف نعرف أنها بريطانية من أقصى اليمين جعلت كل إنسان يصغي بأذنيه، فهي أوامر اللورد ويلينجتون ـ التي طال انتظارها ـ للتقدم، واقتربت بالتدريج، لتتعالى أكثر كلما ازدادت اقتراباً، ففهمناها بالسليقة الانطلاق عبر الحافة هبوطاً نحو التبة (الربوة) القديمة دافعين أعداءنا إلى الفرار أمام أسنة السناكي.

وركض جواد اللورد ويلينجتون نحونا في هذه اللحظة وبدأ جنودنا في الهتاف له، لكنه صاح: «لا هتاف أيها الشباب وإنما تقدموا لاستكمال النصر». وخلصتنا هذه الحركة من الدخان، وبالنسبة لأناس ظلوا مغلفين بالظلمة مثل هذه الساعات الطوال ووسط الحطام، فمن الطبيعي أن يكونوا قلقين حول نتيجة اليوم، إذ إن المنظر الذي يتراءى للعين الآن، حمل شعوراً هائلاً بالمتعة أكثر مما يمكن إدراكه.

لقد كان مساء صيف جميلاً قبل الغروب تماماً، وكان الفرنسيون يهربون في كتلة مختلطة واحدة، وترى الصفوف البريطانية تطاردهم عن قرب، وفي نظام بديع، بقدر ما تستطيع العين الرؤية على الجناح الأيمن بينما يمتلىء السهل على اليسار بالقوات البروسية.

وقام العدو بمحاولة يتيمة أخيرة، عند نقطة فوق أرض مرتفعة على يمين «التحالف الرائع» لكن هجوم من سرية القائد «آدم» أعادهم للفوضى من جديد، وأصبحت الفوضى هذه المرة لا يمكن تجنبها، وكان دمارهم كاملاً، والمدفعية والمهمات وكل ما يخصهم وقع في أيدينا وبعد مطاردتهم حتى هبوط الليل، توقفنا على بعد ميلين وراء ميدان المعركة تاركين القوات البروسية لمتابعة النصر.

تحنيط أحد البطاركة

«نوفمبر/الحرث 1815 افرنجي»

مهمة غير عادية لطبيب بريطاني في لندن

*** تشارلس لويس ميريون**

في يوم السبت، كانت دهشتي ـ حال اقترابي من الدير ـ أن أجد جماعات من الناس يتزاحمون عند أبواب الكنيسة وفور دخولها، ترى البطريرك المتوفى جالساً في مقعد وبيده اليسرى عصا الصليب وبيده اليمنى كتاب العهد الجديد في حين يتصاعد البخور من موقده بجوار المقعد، ويركع أمامه وحوله رجال ونساء، اقترب بعضهم من جسده في طقس ديني، يأخذون شعرة من ذقنه أو يقبلون يده.

وأرسلوا مبعوثين إلى قساوسة صيدا وعكا وبيروت وبقية الأبرشيات في المنطقة، وتصادف وجود «تيودوسيوس» أسقف عكا في بيروت، فوصل حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً، قبل وصولي تماماً، وكان يعطي التعليمات الضرورية من أجل الجنازة، فذهب إلى الحجرة الموجود بها. ومن عادة الكنيسة اليونانية الكاثوليكية أن تحنط بطاركتها ويقوم بذلك الرهبان عموماً، ولكن الرائحة الكريهة التي استمرت في التصاعد من جثة البطريرك المتوفى، ـ التي وضعت تحت قاعدة السلم في كنيسة «مار إلياس» ـ أقنعتني بأن قليلاً من الاهتمام ـ أو عدم الاهتمام على الإطلاق ـ بقيام الرهبان لعمل ذلك، فتطوعت بخدماتي وقبلوها، وتوقعت أن يعترضوا على ذلك بحكم كوني من الهراطقة، ولكن ربما كان الرهبان سعداء لأن يتخلصوا من عملية غير مقبولة للأعين التي لم تعتد تشريح جثث الموتى.

وكانت هناك وصفة لإعداد العقاقير المستخدمة في التحنيط يحتفظون بها في الأبرشية، أرسلوها على عجل إلى صيدا لتجهيزها وحُمل الجثمان بسرعة إلى قبو بالقرب من باب الكنيسة، وكان يساعدني اثنان من الفلاحين الذين أظهروا ـ ومعهم الرهبان ـ الكثير من عدم التوقير في التعامل مع الجثة الفاقدة الحياة الآن، على عكس ما أبدوه من تبجيل وطاعة لها أثناء تمتعها بالحياة.

وطلبت مد طاولة مسطحة فوق مساند خشبية ـ هكذا كانت فراشات الرهبان أنفسهم ـ نضع فوقها الجثة، لكن إجابتهم كانت: «لماذا لا يتم ذلك فوق الأرض؟» وطلبت خيطاً حريرياً لرتق شق الجثة، لكنهم قدموا لي خيطاً قطنياً، وقالوا إنه يؤدي المطلوب، فطلبت إسفنجاً وماءً ساخناً، فلم يكلفوا أنفسهم عناء إحضار الماء الساخن، كما أن الإسفنج الذي قدموه كان أسود مثل الفحم، إذا كانت كل اهتماماتهم الآن هي، من سيكون البطريرك القادم؟ لا ما سيكون عليه البطريرك الميت.

شققت الجثة، وأزلت كل الأعضاء الداخلية، واحداً واحداً، مراعياً الشكل الخارجي فقط حتى لا أقطعها من الداخل خشية أن يتحدث بذلك أمام العامة، وأصابني ذهول إذ لم يقف معي أي راهب، فالكل يتعلل بأنه لا يتحمل المنظر، وجاء أحد الإخوة ليسأل ـ مرة ـ عن متى ستنتهي العملية، وبعدما سرق منديلاً اختفى، وما إن أزلت محتويات البطن والصدر حتى مسحت داخلها بمحتويات المسحوق فوق السطح الداخلي لهذه التجاويف مثلما يُملِّح الإنسان اللحم، ثم مسحت الكل بالنخالة ورتقت شق الجثة بالغرزة المعتادة، ولأن الخيط كان أزرق اللون، بدا الرتق نظيفاً، وكان ذلك أساساً ما أثار إعجاب الفلاحين، وقمت باستخراج المخ وملأت الجمجمة بمسحوق العقاقير، وسحبت بعدها جلد الرأس بحذر فوق الفتحة ثم رتقت ذلك، وغسلت الجثة منظفاً إياها بقدر استطاعتي، إذ كان الواقفون لا يأبهون مطلقاً بتلميحاتي نحو سلوكهم غير الموقر، وهم ما كانوا ليقدموا لي أية مساعدة.

وبعد ذلك ألبسوا الجثة ـ الآن ـ طبقتين من الثياب، رداء من الحرير الأبيض «كومبيز» تتخلله خيوط مذهبة، ثم رباط من الحرير على شكل حدوة حصان تتدلى من فوق الكتفين آتية من خلفه حتى تصل للأرض، وفوقه رداء آخر من نفس النوع أصغر منه، والاثنان الأخيران من الرموز الكنسية، وعلقوا على الجانب الأيمن من الأمام كيساً عريضاً مربعاً موشىً بخيوط حريرية تمثل صورة مقتل التنين، ثم وضعوا على رأسه غطاء الأسقفية، وحملوا الجثة ـ بعد ربطها إلى كرسي ذي مساند كي

تظل متماسكة ـ إلى داخل الكنيسة التي أضيئت من أجل قداس الميت، وكانت الساعة الثامنة مساء، وكنت قد بقيت في العمل خمس ساعات تماماً، واجتمع خليط كبير من الناس من القرى المجاورة. ولما لم أكن متأكداً من كيفية حكم بعضهم على تدخلي في طقوس عقيدتهم عزمت ألاّ أحضر القداس، وفي اليوم التالي ـ صباحاً ـ ركبت جوادي ويممت عائداً لكنيسة «مار إلياس».

أحوال المصانع

«1815 افرنجي»

شهادة امرأة عاملة أمام اللجنة البرلمانية»

*** أليزابيت بنيتلي**

■ كم عمرك؟

ـ ثلاث وعشرون.

■ أين تقيمين؟

ـ في ليدز.

■ متى بدأت العمل بالمصنع؟

ـ عندما كنت في السادسة من عمري.

■ بمصنع من تعملين؟

ـ بمصنع مستر بيركس.

■ ما نوع هذا المصنع؟

ـ مصنع للنسيج.

■ ماذا كان عملك هناك؟

ـ مُناولة بسيطة.

■ كم كان عدد ساعات عملك؟

ـ من الساعة 5 صباحاً حتى 9 ليلاً عند زحمة العمل.

■ وكم من الزمن بقيتم معاً تعملون هذا الوقت الزائد؟

- لحوالى سنة.
■ كم كانت ساعات العمل العادية في غير زحمة العمل؟
- من الساعة 6 صباحاً حتى الساعة 7 ليلاً.
■ ما الوقت المسموح به للوجبات؟
- أربعون دقيقة عند الظهر.
■ هل كان لديك وقت لتناول فطورك أو الشراب؟
- لا، كان علينا تناوله بقدر استطاعتنا.
■ هل تعتقدين أن المناولة عمل مرهق؟
- نعم.
■ اشرحي ما كان يجب عليك عمله؟
- عندما تمتلىء الإطارات يجب أن توقف، ونخلع الدوّارات ثم نخرج المكوكات الممتلئة منها، ونحملها للأسطوانات، عندئذ نضع مكوكات فارغة وندير الإطارات من جديد.
■ هل يبقيك هذا العمل دائماً على قدميك؟
- نعم فهناك إطارات عديدة وهي تدور بسرعة.
■ هل عملك زائد؟
- نعم، فأنت ليس أمامك أي وقت لأي شيء آخر.
■ فلنفترض أنكم تعوقتم قليلاً أو تأخرتم ماذا كانوا يفعلون بكم؟
- يربطوننا.
■ هل كانوا معتادين تقييد من يتأخر في المناولة؟
- نعم.
■ دائماً؟
- نعم.
■ بنات وأولاد كذلك؟
- نعم.
■ هل سبق لهم تقييدك؟

- نعم.

■ بشدة؟

- نعم.

■ هل الرباط المستخدم مُعد لإيذائكم بشدة؟

- نعم إنه كذلك. . لقد رأيت الملاحظ يمضي إلى نهاية الغرفة، ـ حيث الفتيات الصغيرات يحملن العُلبة للعمال الخلفيين ـ، ويأخذ رباطاً والصافرة في فمه، وأحياناً ما يأخذ سلسلة ويقيدهن بها، ويقوم بربطهن فوق أرضية الحجرة جميعهن.

■ ماذا كان مبرره لفعل ذلك؟

- لقد كان غاضباً جداً.

■ هل كنت تعيشين بعيداً عن المصنع؟

- نعم، على بعد ميلين.

■ هل كان لديك ساعة؟

- لا لم يكن لدينا ساعة.

■ أكنت تصلين هناك عموماً في الموعد المحدد؟

- نعم، فأمي تستيقظ الساعة 4 صباحاً، وكان الفحامة «عمال الفحم» يعتادون الذهاب إلى أعمالهم الساعة 3 أو الساعة 4 صباحاً، وعندما كانت تسمعهم يتحركون، تنهض من فراشها الدافىء لتسألهم عن الوقت، وأحياناً ما كنت أذهب لمحطة أتوبيس هانسيلت الساعة 2 صباحاً والسماء تفيض بالمطر ونضطر للانتظار حتى يفتح المصنع.

■ هل إصابتك الشخصية هي نتيجة لذلك العمل؟

- نعم، كذلك.

■ ومتى ظهر ذلك؟

- كنت في الثالثة عشرة من عمري، عندما بدأ يظهر المرض، وتطور إلى الأسوأ منذ ذلك الحين، وقد مضى على وفاة أمي خمس سنوات، ولم تكن لدى أمي إمكانيات لتحضر لي عكازين جيدين أستند عليهما، فعندما ماتت

اضطررت أن أعمل لنفسي وحصلت على اثنين.

- ■ أكنت في حالة صحية جيدة وسليمة قبل التحاقك بالعمل في المصنع؟
- نعم لقد كنت فتاة سليمة وسوية كأي فتاة صغيرة تجوب المدينة صعوداً وهبوطاً.
- ■ هل كنت سوّية حتى بلغت الثالثة عشرة؟
- نعم، كنت.
- ■ هل إصابتك جلبت عليك كثيراً من الألم والتعب؟
- نعم، ولا يمكنني وصف الألم إذ كان يأتي في كل الأوقات.
- ■ هل تعرفين أحداً أصيب بمثل إصابتك في صحته؟
- نعم في صحتهم، ولكن ليس بدرجة السوء التي أنا عليها.
- ■ هل من الشائع أن تكون الكعوب ضعيفة والرُكّب مهشمة؟
- نعم، شائع جداً بالفعل.
- ■ وهل يحدث هذا نتيجة إيقاف إبرة آلة النسيج؟
- نعم.
- ■ أين تقيمين الآن؟
- في الملجأ «دار الرعاية».
- ■ اذكري رأيك بالنسبة للظروف التي وجدت نفسك فيها خلال فترة العمل، واعتباراتك بشأن صعوبة ووحشية هذا العمل.
- [تأثرت الشاهدة بشدة لدرجة لم تستطع معها الإجابة على السؤال].

زيارة سجن

«4 مارس/ الربيع 1817 افرنجي»

* أليزابيت فري

«أليزابيت فري كانت عضواً في جماعة «الكويكرز» - أي المرتجفين - ومحبي الإنسانية ومن دعاة إصلاح السجون».

. . . لقد عدت توّاً من زيارة شديدة الأسى من سجن «نيوجيت» حيث كنت بناء على طلب أليزابيت فريكر ـ قبل تنفيذ حكم الإعدام فيها بسبب السرقة غداً صباحاً الساعة الثامنة ـ وقد وجدتها متعجلة، ومحبطة، وعقلها مشوّش، ويديها باردتين، ومغطاة بما يشبه العرق الذي يسبق الموت وترتعش تماماً.

قالت لي المرأة التي كانت معها: إنها كانت في حالة غضب كبيرة لدرجة أنهم اعتقدوا وجوب إرسال أحد الرجال لضبطها قبل ذهابنا، على أية حال بعد فترة طويلة معها، هدأت روحها القلقة، ولكن هل يحق للإنسان أن يأخذ الحق الإلهي ليقوم به بيديه نفسه؟ أليس مكانه أن يجاهد لإصلاح ذلك، أو حتى يمنعهم من ارتكاب شرور أكثر، أو على الأقل كي نمنع موت الرفاق الخطائين المساكين، مهما كانت تهمتهم، ونوفر لهم فرصة لإثبات توبتهم بتطهير حياتهم؟ وبخلاف هذه المرأة البائسة، هناك ستة رجال سيشنقون، واحد منهم له زوجة بالقرب من سجنها، هي أيضاً مدانة، وسبعة أطفال صغار، ومنذ أتى التقرير المروِّع تحول إلى مجنون كامل من الفزع العقلي، ولم تستطع أربطة قوية أن تبقيه داخل القيود حتى إنه قام بعضّ مقبض الباب، ورأيت الرجل يخرج ويديه داميتين أثناء مروري بالزنزانة.

بيترلو

«16 أغسطس/ هانيبال 1819 افرنجي»

*** ساموِيـل بامفـورد**

«كان الاجتماع الحاشد في ميدان كنيسة سانت بيتر ـ بمانشستر ـ والذي قاده هنري هنت بحثاً عن إصلاح برلماني، قد تم تشتيته بناء على أوامر مجلس القضاة، بواسطة فرقة الفرسان المتطوعين بمانشستر، وخيَّالة الفرقة 15 ومتطوعي شيشاير، جرح في هذه الأحداث حوالى 500 شخص وقُتل فيها 11 شخصاً».

. . . خلال نصف ساعة تقريباً من وصولنا أعلنت الموسيقى والصيحات المتعالية اقتراب وصول السيد هنت وجماعته، وفي دقيقة أو اثنتين رأيناهم قادمين من «دينزجيت» مسبوقين بفرقة موسيقية وعدة أعلام.

على مقعد السائق في العربة جلست امرأة نظيفة الهندام، تعلق علماً صغيراً عليه بعض الرسوم الرمزية وبعض الكتابة، كان داخل العربة السيد هنت واقفاً والسيد جونسون أوف سميدلي كوتاج والسيد مورهاوس أوف ستوك بورت والسيد كارلايل أوف لند والسيد جون نايت أوف مانشستر والسيد ساكستون وهو محرر مساعد لجريدة «مانشستر أوبزرڤر».

وترحيباً بمقدمهم انطلقت صيحة جماعية واحدة من حوالى 80,000 شخص، وشقوا طريقهم ببطء مارين بنا عبر الجماهير، التي لاحظها هنت - فيما أعتقد - بمزيد من الدهشة والارتياح، فهذا المشهد لا يمكن أن يكون شيئاً آخر في نظره إلا كونه شديد التأثير، فمثل هذه الجماهير من البشر لم يرها من قبل وحتى تلك اللحظة، ولا بد أنه يزن مسؤوليته بعقله، فقدراتهم على فعل الخير والشر لا يمكن مقاومتها، ومن ذا الذي يتوجب عليه توجيه هذه القوة؟ فهو نفسه الذي دعا إلى ذلك بقوة، وكانت المهمة صعبة ولها مخاطرها، وكان الاجتماع هائلاً حقاً. ثم صعد هنت المنصة فتوقفت الموسيقى، واقترح السيد جونسون أن يتقلد السيد هنت مكان القيادة، وتم تأييد الاقتراح متبوعاً بحماس كبير، فتقدم السيد هنت نحو مقدمة المنصة خالعاً قبعته البيضاء وخاطب الناس.

وبينما هو يقوم بذلك، اقترحت على أحد معارفي أنه طالما أن الخطب والقرارات لا نتوقع منها أن تحوي جديداً بالنسبة لنا ولأننا نستطيع الاطلاع عليها في الصحف، فعلينا أن نستريح قليلاً ونحصل على التنشيط الذي أنا في حاجة شديدة إليه بعد وقفتي هذه إذ لم أكن في حالة صحية جيدة، فوافقني وخرجنا حتى بداية الجمهرة تقريباً، حين علت فجأة غمغمات وضجة من اتجاه الكنيسة، وقال بعض الأفراد إن جماهير بلاكبورن هم القادمون، لذا وقفت على أطراف أصابعي ونظرت إلى الاتجاه الذي صدرت منه الضجة فرأيت جماعة من الفرسان بالزي الأبيض والأزرق قادمين ركضاً وسيوفهم بأيديهم حول ركن سور الحديقة وأمام صف من المنازل الجديدة حيث ألجموا جيادهم في صف واحد.

قلت: «الجنود هناك، علينا أن نعود ونرى ما يحدث» فأجاب شخص ما:

«إنهم أتوا استعداداً لأي شغب قد يحدث في اللقاء». فقلت: «حسناً. . هيا نعود». . وشققنا طريقنا نحو الجمع.

عند اصطفاف الفرسان بدأوا بصيحة ودية ـ كما فهمتها ـ ثم صاحوا ثانية، ملوحين بسيوفهم فوق رؤوسهم، وعندئذ أطلقوا لجم الخيل، ضاربين مهماز خيولهم، وانطلقوا قُدماً يشقّون البشر. فقلت: «تماسكوا، إنهم يقودون خيولهم نحونا». . وترددت جملة «تماسكوا» وسط جماعتنا، وكانت قوة الفرسان في فوضى، إذ لم يستطيعوا ـ بوضوح ـ اختراق الجماهير المتلاصقة من الكائنات البشرية رغم قوة الجياد والجنود، وهوت سيوفهم شقاً خلال الأيدي العارية والرؤوس العزلاء، ثم رأينا الأعضاء تتطاير والجماجم تنشق، واختلطت الصرخات والأنات مع ضجة الفوضى المفزعة، آه. . آه، يا للعار.

كانت صرخات تتردد، ثم أصوات «أفسحوا، أفسحوا، إنهم يقتلون الجمهور في المقدمة ولا يستطيعون الفرار»، وترددت صيحة «افسحوا» بين الجميع، فتوقف الجمع لحظة كما لو كان في سكون ثم كانت هناك اندفاعة كثيفة لا يمكن مقاومتها كمد البحر وصوت كرعد منخفض. مصحوب بالصرخات والتضرعات واللعنات من البشر المداسين تحت السنابك والذين كانت السيوف قَدرهم، ولم يتمكنوا من الهرب. في هذا الوقت اختفى «هَنْت» ورفاقه من المنصة، وقام بعض الفرسان ـ ربما كانوا أقل دموية من الآخرين ـ بشغل أنفسهم بقطع أعمدة الأعلام وتمزيق راياتها حول المنصة.

وعند تلاشي الجماهير، تقدم الفرسان وهاجموا حيثما وجدوا ثغرة تتبعوها ضاغطين ومحدثين إصابات، وظهرت العديد من النساء حين تبدد الزحام، كما وُجد شباب وصبية صغار، كانت صرخاتهم مثيرة للشفقة وتُفطر الأحاسيس الإنسانية، لكن تضرعاتهم في هذه اللحظة كانت بلا جدوى، نسوة، وعذراوات بثياب بيضاء، وشباب رقيق طعن بوحشية أو ديس بالأقدام.

ولدينا مبرر للاعتقاد أن لحظات قليلة تلك التي كان فيها التحمل أكيداً والذي كانوا يحرضون عليه بإلحاح. وخلال عشر دقائق من بداية الحملة أصبح الميدان

خلاءً ومكاناً مهجوراً تقريباً، فالشمس تطل وسط جو ساخن وساكن، وقد أسدلت الستائر والنوافذ على مرمى البصر، وأحياناً ترى واحداً أو اثنين من السادة ينظران من أحد المنازل الجديدة التي ذكرتها سالفاً، ويقف بجوار أبوابها مجموعة من الأشخاص (ضباط مخصوصين) متجمعين في حوار، في حين يساعد الآخرون الجرحى أو يحملون الموتى.

وبقيت المنصة بأعلام مكسورة تنصب بعض أعمدتها المحطمة القليلة، وتتدلى لافتة أو اثنتان ممزقتان، في الوقت الذي تتناثر فيه فوق الميدان قبعات، وأغطية رأس نسائية، وشالات وأحذية وملابس أخرى نسائية ورجالية، مداسة وممزقة ودامية، وهبط الفرسان من فوق جيادهم، ليرخي بعضهم أربطة سرج الجواد، أو يعيد ضبط معداته، وينظف البعض الآخر سيفه، وظلت أكوام متعددة من البشر حيثما سقطوا من قبل، محطمين ومختنقين، بعض منهم ما زال يئن والآخرون تجحظ عيونهم، مجاهدين من أجل تواصل أنفاسهم، والبعض الثالث لفظ أنفاسه الأخيرة. الجميع ساكنون عدا هذه الأصوات الخافتة، شخير أو وقع أقدام الجياد، وأحياناً ترى الناس يتلصصون النظر من أسطح وأسوار المنازل العالية لكنهم يختفون بسرعة كما لو كانوا يخشون أن يلاحظهم أحد، أو كما لو كانوا غير قادرين على تحمل منظر كريه وبشع كهذا بإمعان.

حرق جثمان الشاعر شيلي بالقرب من لجهورن

«15 أغسطس/ هانيبال 1822 افرنجي»

*** إدوارد جون تريلاوني**

«كان الشاعر شيلي[1] قد مات يوم 8 يوليه 1822 افرنجي عندما غرق يخته في إعصار عند ليڤورنو».

... كانت هناك ثلاث عصي غُرست في الرمال، لتكون علامة على قبر

(1) هو بيرسي شيلي الشاعر الرومانسي الإنجليزي. «المترجم».

الشاعر، ولكن لأنها كانت متباعدة نوعاً ما بعضها عن بعض، وجب علينا أن نحفر بطول ثلاثين ياردة على خط العصي، لتأكيد المكان بدقة وقد استغرق ذلك ساعة تقريباً قبل أن نهتدي للمقبرة، ووصل في هذه اللحظة الشاعر «بايرون» و «ليج هنت» محاطين بالجنود ومسؤول الصحة كما حدث في اليوم السابق عندما أحرقنا جثة الملازم إدوارد «ويليمز» الذي غرق مع شيلي. وكان المشهد الفريد والعظيم الذين يحيط بنا يتناسب تماماً مع عبقرية شيلي لدرجة أنني أتخيل أن روحه تحلق فوقنا.

كان أمامنا البحر وجزر «جورجونا» وكابراجي وإلبا، بأبراج الحراسة الحربية الممتدة بطول الساحل، وفيما وراءها تبرق سلسلة جبال الأبينين بقممها الرخامية تحت الشمس مشخصة من معالمها المتباينة، ولم يكن هناك إنسان من أهل المنطقة على مرمى البصر، وكما اعتقدت في المتعة التي كان يشعر بها شيلي في مثل مظاهر الوحدة وروعتها أثناء حياته، شعرت بأننا لم نكن أفضل من قطيع من الذئاب أو جماعة من الكلاب المتوحشة حين ننتزع جثته المهشمة العارية من الرمال الصفراء النقية التي تتناثر بخفة فوقها وأن نجره مرة أخرى لضوء النهار.

لكن الميت لا صوت له ولا أنا كان لدي القدرة على انتهاك حرمة الميت، واستمر العمل في صمت وسط الرمال العميقة والباقية، ولم يتفوه أحد بكلمة، إذ تهتز مشاعر الإيطاليين وتتحول المشاعر إلى تعاطف بسهولة، حتى بايرون بقي صامتاً ومغرقاً في التفكير.

وانتبهنا مشدودين بصوت غائر أجوف يتبع ضربات المطرقة، إذ اصطدم حديدها بالجمجمة وسرعان ما انكشفت الجثة، وكان قد تم رش الجثة بالجير، وهذا ـ أو التحلل ـ هو سبب تبقُع الجثة باللون الأزرق الشاحب، وطلب مني بايرون أن أحتفظ بالجمجمة له لكنني عندما تذكرت بأنه قد سبق واستخدم جمجمة أخرى ككأس للشراب قررت ألا تتعرض جمجمة شيلي لهذه المهانة.

وكانت الأعضاء لم تنفصل عن الجسم ـ كما كانت في جثة «ويليمز» حتى إن الجثة كلها قد وضعت في المحرقة، وقد اتخذت احتياطات للحصول على قطع

ضخمة من الخشب بناء على تجربتي في اليوم السابق حول صعوبة حرق الجثة في الهواء الطلق بمعداتنا الحالية، وبعدما تقدمت النيرن جيداً كررنا طقوس اليوم السابق، وسكبنا المزيد من الخمر فوق جثة شيلي أكثر مما استهلك هو في حياته وأدت هذه الخمر مع الزيت والملح إلى التماع وارتعاش ألسنة اللهب الصفراء.

كانت الحرارة المنبعثة عن الشمس والنيران شديدة الوهج لدرجة أن الجو كان يتموج ويهتز، وانفتحت الجثة وبرز منها القلب، كما تناثرت عظام الجبهة في الجمجمة حيث سبق اصطدام المطرقة بها في حين بقيت العظام الخلفية فوق قضبان قاع المحرقة الملتهبة. وانصهر المخ - بالمعنى الحرفي - وأصدر فقاعات وبدأ يغلي كما لو كان في غلاية لفترة طويلة ولم يستطع بايرون مواجهة المنظر فانسحب نحو الشاطىء عائداً للسفينة (بوليڤار) وبقي «ليج هنت» في العربة.

كانت النيران شديدة لدرجة أن الحرارة البيضاء كانت تنبعث من الحديد وتختزل محتوياته إلى رماد، أما الأجزاء الباقية التي لم تلتهمها النيران فهي بعض قطع العظام والفك والجمجمة ولكن ما أثار دهشتنا جميعاً، أن القلب قد بقي سليماً وعند نزع هذا الأثر الباقي من المحرقة الملتهبة احترقت يدي بشدة، ولو أن أحداً رآني أفعل ذلك، لكنت قد وضعت في الحجر الصحي.

وفاة الملك جورج الرابع

«1830 افرنجي»

*** السيـدة أربوثنوت**

[يوم 23 أبريل] استمر الملك فيما هو عليه، وقال الأطباء إنه تحسن قليلاً. لكنني أعتقد أن «هافورد» قد اقتنع بأنه سيموت، إذ اسود وجهه وتغير نبضه عندما هاجمته تلك الأزمات في صدره، التي يعتقدون أنها تشير لشيء ما غير سليم في قلبه، وكانوا قد أخذوه تغييراً للهواء منذ عشرة أيام مضت، وعندما وصل لمقر إقامته كانت حالته سيئة لدرجة أنهم خشوا معها وفاته، وظنوا أنه سيموت، فأعطوه كميات من البراندي فاستعاد صحته لدرجة أنه صعد إلى عربته وقادها عشرين ميلاً.

إن أسلوب حياته في الحقيقة أبعد مما نتخيل، فذات يوم من الأسبوع الماضي، ساعة عشاء الخدم، استدعى وصيفه وقال له: «إنك ذاهب الآن للعشاء، فاذهب للدور الأسفل واقطع لي جزءاً من لحم البقر كالذي تحبه لنفسك تماماً، اقطع من الجزء الذي تفضله لنفسك وأحضره لي هنا». وعلى ذلك ذهب الوصيف وجلب له كمية هائلة من لحم البقر المشوي، أكلها، ثم استغرق في النوم لمدة خمس ساعات.

وذات ليلة شرب خمس زجاجات من الإيل الساخن وشرائح الخبز وثلاث زجاجات من الكلاريت وبعض الفراولة. وزجاجة من البراندي، وفي الليلة الماضية أعطوه بعض العلاج، وبعده، شرب ثلاث زجاجات من البورت[1] وزجاجة من البراندي. فلا عجب أن نتوقع موته، لكنهم يقولون إنه سيحصل على كل هذه الأشياء ولا يستطيع أحد منعه، ويمكنني القول بأن الخمر قد لا تضره، لأنها - مع الشره الذي يتملك كل أفراد الأسرة المالكة - من الضروري في اعتقادي أن تتناول معها كمية كبيرة من الطعام الجيد، ولكن خليط خمر الإيل مع الفراولة وحده كافٍ لقتل حصان.

[يوم 16 يوليه]، ذهبت أمس إلى «ويندسور» لحضور جنازة الملك المرحوم وذهبت في الصباح مع السيدة «جورجينافين» إلى السير «أندرو برنارد» في حجرته بالقلعة، فجاء معنا هو واللورد «ڤيف» لرؤية «الراقد الساكن»، كانت جثته في غرفة من حجرات الدفن القديمة بالقلعة، وكان التابوت بديعاً وذا حجم هائل.

ويبدو أن صانعيه كادوا يقعون في خطأ مفزع، إذ حينما وضع الجسد داخل التابوت المحكم بالرصاص، لوحظ أن الرصاص بدأ ينتفخ وينثني بصورة واضحة وعلى وشك التداعي فعلاً، فاضطروا لثقب الرصاص والسماح للهواء بالخروج ومن ثم إعادة تغطيته بالرصاص، إنها عملية غير سارة فيما أعتقد، لكن التحنيط لا بد وأنه نفذ بطريقة خاطئة.

---

(1) «البراندي والإيل» والكلاريت والبورت خمور مختلفة من إنجلترا وفرنسا والبرتغال على التوالي. «المترجم».

افتتاح خط سكة حديد ليڤربول ـ مانشستر

«15 سبتمبر/الفاتح 1830 افرنجي»

*** فرانسس آن كيمبل**

«كان خط «سكة حديد» ليڤربول ـ مانشستر هو أول خط صمم لتعمل عليه قاطرات ذات سرعة عالية، و«ويليام هوسكينسون ـ 1770 ـ 1830 افرنجي الذي يوصف موته هنا كان سياسياً شهيراً».

بدأنا يوم الأربعاء الأخير، بعدد حوالى ثمانمائة شخص في العربات، وانتشر الفضول والتشوق إلى أقصى درجاته، ورغم أن الطقس كان متقلباً اصطفت كتل هائلة من مجموعات الناس الكثيفة على طول الطريق، يصيحون ويلوحون بقبعاتهم ومناديلهم أثناء مرورنا الخاطف بجوارهم، أما بخصوص مرأى وأصوات هذه الجموع الهاتفة والسرعة الهائلة التي كنا نمر عليهم بها، فإن معنوياتي قد ارتفعت معها إلى القمة، ولم استمتع أبداً بمثل الساعة الأولى من تقدمنا، وكنت لسوء الحظ قد افترقت عن أمي عند التوزيع الأول للمقاعد لكنها تمكنت بتبديل المقاعد أن تلحق بي حين كنت في قمة النشوة التي سرعان ما غاضت إذ أجد أمي وقد انتابها خوف يقارب الموت وأصرت على ألا تفكر بشيء سوى البحث عن وسيلة للهروب من موقف بدا أنه يهددها بالموت هي ورفقتها من المسافرين.

وبينما كنت أجتر خيبة الأمل ـ التي كانت مُرة إلى حد ما، إذ كنت قد توقعت أن تكون سعيدة مثلي بنزهتنا هذه ـ اندفع رجل بجوارنا وهو ينادي خلال مكبر للصوت بإيقاف القطار، إذ يوجد شخص ما في عربة الإدارة قد أُصيب، فتوقفنا جميعاً بناء على ذلك، ثم سمعنا مئات الأصوات في الحال تعلن أن السيد «هوسكينسون» قد قتل، ولا يمكن وصف الفوضى التي نجمت عن ذلك، فالنداء من عربة لعربة لتأكيد ما حدث، والتقارير المرتدة التي أرسلت لنا، ومئات الأسئلة التي طرأت دفعة واحدة، والحاجة الملحة والمتكررة لطبيب جراح للمساعدة، كل ذلك خلق «فوراناً» يدفع الإنسان للتعب.

وفي النهاية أكدوا لنا أن هذا الرجل سيء الحظ قد كُسر فخذه، ومن السيدة «ويلتون» التي كانت في عربة الدوق وعلى مدى ثلاث ياردات من مكان وقوع الحادثة، حصلت على المعلومات التالية، حول الرعب الذي منعنا مكاننا خلف العربة الكبرى من مشاهدته.

كانت القاطرة قد توقفت للتزود بالماء، وقفز بعض السادة الموجودين في عربة الإدارة لاستطلاع المكان، اللورد ويلتون، والكونت باثياني والكونت ماتوسينيتز، والسيد هوسكينسون بين الآخرين كان يقف متحدثاً وسط الطريق عندما شوهدت قاطرة أخرى على الخط الثاني ـ كانت تقوم بمناورة لاختبار سرعتها فقط ـ آتية نحوهم بسرعة البرق، فقفز أكثر هذه المجموعة المداهمة نشاطاً عائدين إلى مقاعدهم.

وأنقذ اللورد ويلتون حياته بالاندفاع خلف عربة الدوق، بينما قفز الكونت ماتوسينيتز داخلها، لكن القاطرة لمست كعبيه وهو يفعل ذلك، في حين كان المسكين «هوسكينسون» أقل حيوية بفعل السن والصحة المعتلة، بالإضافة لفزعه من الصيحات المنفعلة «أوقفوا القاطرة» و«أخلوا الطريق» والتي ترددت من جميع الاتجاهات، ففقد رشده تماماً، وبدا متخاذلاً يمنةً ويسرة، وطرحته الآلة القاتلة أرضاً، واندفعت فوقه كطلقة رصاص، ومرت فوق ساقه، فحطمتها واعتصرتها، بصورة مخيفة ـ قالت السيدة ويلتون إنها سمعت صوت تكسير العظام بوضوح ـ وكان تأثير هذا الحادث المخيف مفزعاً لدرجة أنه عدا صوت التحطيم الخافت ونحيب السيدة «هوسكينسون» الحاد فإنك لا تسمع صوتاً أو كلمة بين حاضري الكارثة.

كان اللورد ويلتون أول من رفع المصاب المسكين، واعتماداً على مهارته في الجراحة ـ وكانت لها اعتبارها ـ ربط الشريان النازف، وعطل ذلك على الأقل الموت نزفاً لمدة طويلة، ثم وضعوا السير هوسكينسون في عربة مع زوجته واللورد ويلتون، وبعد فصل القاطرة عن عربة المديرين حملتهم إلى مانشستر.

وكانت الصدمة الناجمة عن هذا الحادث على الجميع شديدة الأثر حتى إن الدوق ويلنجتون عبَّر عن رغبته في ألاّ يستمر وأن يعود حالاً إلى ليڤربول، وعلى

أية حال، ففور إعلامه بأن جميع سكان مانشستر قد خرجوا لمشاهدة المشروع وأن خيبة أملهم قد تؤدي إلى اضطرابات وتمردات، وافق على الاستمرار، وتمت الرحلة في جو كئيب للمسافة الباقية.

وبعد هذا الحادث المروع تحول النهار إلى غيم، وبينما نقترب من مانشستر ازدادت السماء سُحباً وظلاماً، وبدأت تمطر، وكان أغلب الناس المجتمعين الذين حضروا لمشاهدة الوصول الظافر ـ للرحالة الناجحين ـ من الصناع والحرفيين، والذين عَمَّ بينهم مقت كبير وروح من عدم الرضى على الحكومة في ذلك الوقت. وصدرت همهمات وهمسات لتحية العربة التي تحمل الشخصيات المؤثرة والتي يجلس فيها دوق ويلينجتون.

وفوق الجماهير المتجهمة والوجوه الغاضبة، نُصبت آلة نسيج «نَوْل» جلس عليها عامل نسيج «نسّاج» رث الثياب يبدو عليه الموت جوعاً، ومن الواضح أنه أجلس هناك كتعبير عن معارضته لانتصار الآلة والمكاسب والمجد اللذين يتوقع رجال ليڤربول ومانشستر الأثرياء الحصول عليها من الآلة، وكان التناقض بين رحيلنا من ليڤربول ووصولنا لمانشستر من أقصى الهزّات المؤلمة التي شاهدتها، وانتشرت أنباء حادثة السيد هوسكينسون القاتلة بسرعة، ووفاته التي شاركت في نسجها الأقاويل، لم تحدث إلاّ في المساء.

كوليرا في مانشستر

«1832 افرنجي»

*** السير جيمس كاي شاتل ورث**

طلبت من أعضاء الهيئة الأصغر سناً ـ المسؤولين عن زيارة المرضى الخارجيين في العيادات ـ أن يمدوني بمعلومات مبكرة حول حدوث أية حالات تشير إلى اقتراب الكوليرا، فقد كانت لدي رغبة علمية في تتبع أسلوب تكاثرها وللتأكد ـ إذا ما كان ممكناً ـ من الوسيلة التي سوف يصل بها للمدينة، وكان هدفي كذلك أن أكتشف هل هناك أية حالات، وإذا وجدت هذه الحالات فما

حلقة الوصل أو العلاقة بين الأمراض الاجتماعية والجسمية وهي التي وجهت إليها عنايتي منذ أمد طويل؟.

التفّت انحناءة نهر ميدلوك حول مجموعة من المنازل تقع مباشرة أسفل طريق أوكسفورد وتكاد تكون على مستوى سطح النهر الأسود الملوث. وكانت هذه المنازل مستعمرة للعمال الإيرلنديين وعرفت لذلك «بمدينة الإيرلنديين» وطلبني واحد من هيئة الأطباء المسؤولين عن المرضى الخارجيين بالعيادات، كي أزور حالة خاصة في أحد هذه الأكواخ، ولم يعطني وصفاً لها أثناء سيرنا إلى هناك. عند وصولي لمنزل مكون من غرفتين، وجدت رجلاً إيرلندياً يرقد على سرير قريب من النافذة وكانت درجة حرارة بشرته أقل من المعتاد إلى حد ما، وكان النبض ضعيفاً وسريعاً، ولم يكن يشكو من أي ألم، في حين كان وجهه شاحباً تقريباً، وكان الرجل شديد الإحباط، ولم تطرأ عليه أية أعراض من أعراض الكوليرا، لكن تابعه أفادني أن قواه تخمد تدريجياً خلال اليوم.

وأنه ـ حيث لم ير سبباً لذلك ـ شك في أنها عدوى، فجلست بجوار فراش الرجل لمدة ساعة، أصبح النبض خلالها ضعيفاً بالتدريج، وفي ساعة ثانية كان يخمد.

كان واضحاً أن الرجل سوف يموت وكانت زوجته في الغرفة مع أطفالها الثلاثة، فأعددناها كي تحتمل ما قد يحدث. وهكذا مضى بعد ظهر ذلك اليوم ببطء. ومع اقتراب المساء، أرسلت الجراح الشاب لتجهيز العربة المخصصة لحالات الكوليرا ووضعها غير بعيد، وأحاط بنا عدد كبير من الإيرلنديين القلقين.

كان واضحاً أنه من الأفضل نقل الجثة بأسرع ما يمكن ثم العائلة بعد ذلك وأن نغلق المنزل قبل إعطاء أي تحذير، وعند الغسق مات المريض دون أية أعراض بادية، وهدأت الزوجة وأبدت موافقتها على الانتقال برفقة أطفالها إلى المستشفى، عندئذ اقتربت العربة فجأة من الباب وفي دقيقة، قبل أن يعي الإيرلنديون الموقف، انطلقت بحملها الحزين.

ولم تكن أية حالة إصابة بالكوليرا الآسيوية قد ظهرت بعد في مانشستر، وإذ لم أحتمل غياب الأعراض التشخيصية كلية في هذه الحالة، اقتنعت بأن العدوى قد وصلت وأن المريض كان ضحيتها، وكانت مستشفى «نوت هيل» قبلاً مصنعاً

للقطن أُخلي من آلاته، وفُرش بأسرة وأفرشة فوق كل طابق، وعند وصولي هناك، وجدت الأرملة وأطفالها الثلاثة مع ممرضة مجتمعين حول النار في أحد أطراف العزل الكئيب، فتأكدت من أن كل الترتيبات الضرورية قد أُعدت من أجل راحتهم، وتناولوا وجبة المساء، كما وضعوا الأطفال على سرير بجوار النار عدا الطفل الذي تركته راقداً في حجر أمه، ولا يبدو على أحد أية علامات للمرض، ثم غادرت العزل كي أستعيد نشاطي.

وعند عودتي أو في الزيارة الأخيرة قبل منتصف الليل، كان الطفل مريضاً في حجر أمه وأصدر صرخة خافتة ومات، وكان من الطبيعي أن تمتلىء أمه رعباً وإحباطاً، لأن الطفل لم يتناول أي علاج وإنما تغذى فقط من صدرها، وعلى ذلك فلم يعد لديها شك أنه مات من نفس الأسباب التي مات بها والده، فجلست معها ومع الممرضة بجوار النار إلى وقت متأخر من الليل وعندما كنت هناك لم يستيقظ الأطفال ولم يبد عليهم أنهم انزعجوا.

وفي النهاية رأيت أنه يجب عليَّ أن أنشد بعض الراحة، وحينما عدت حوالى الساعة السادسة صباحاً أصيب طفل آخر بتقلصات حادة مع بعض الإعياء وبينما كنت واقفاً بجواره، مات. ثم فيما بعد ظهر على الطفل الثالث ـ وهو الأكبر ـ كل الأعراض المشخصة للكوليرا ومات في ساعة أو اثنتين، وفي مجريات النهار عانت الأم كذلك من تتابع سريع لأعراض المرض ثم ماتت، وهكذا ماتت الأسرة كلها خلال أربع وعشرين ساعة، ولم يعرف أن هناك حالات أخرى للكوليرا قد ظهرت في مانشستر أو ضواحيها.

طيور في أرخبيل جالا باجوس

«سبتمبر/ الفاتح1835 افرنجي»

*** تشارلس دارون**

. . . سوف أُخلص مستنتجاً من وصفي للتاريخ الطبيعي لهذه الجزر، بإعطاء تقرير عن الألفة القصوى للطيور.

فهذا الترتيب شائع بين كل الأنواع الأرضية، وبالتحديد، الببغاوات المقلدة وعصفور الفنش، والعصافير المغردة الأوروبية وعصفور الدوري الأمريكي الملقب بالصياد، وللحمام والجوارح آكلة الجيف، وكلها ـ غالباً ـ تُقتل إذا ما اقتربت منها بشكل كاف بواسطة فرع شجرة أو أحياناً ـ كما جرّبت بنفسي ـ بواسطة قبعة أو غطاء رأس.

والبندقية هنا تقريباً شيء زائد عن الحاجة، إذ إنني أوقعت صقراً من فوق فرع شجرة بضربة على رأسه، وذات يوم بينما أنا جالس، حطّ ببغاء مقلّد على حافة آنية مصنوعة من صدفة سلحفاة كنت أحملها بيدي، وبدأ يرتشف الماء بهدوء شديد، وتركني أرفعه من فوق الأرض أثناء بقائه فوق الإناء، وكثيراً ما حاولت ونجحت تقريباً في إمساك هذه الطيور بواسطة أرجلها، وسابقاً كانت الطيور تبدو أكثر إلفة عما هي عليه في الوقت الحاضر، وقد قال «كاولي» ـ عام 1684 افرنجي ـ: إن «حمام الترسة»[1] كان شديد الإلفة لدرجة أنه يحط فوق قبعاتنا وأيدينا حتى إننا كنا نستطيع إمساكه حياً، وما كانوا ليخشون إنساناً، حتى جاء وقت أطلق فيه بعض من أصحابنا النار على ذلك الحمام، مما جعله أكثر وجلاً، وقال «دامبير» في نفس العام كذلك: إن الإنسان في نزهته الصباحية قد يقتل ست أو سبع من هذه الحمامات، وفي الوقت الحالي، رغم أنها بالتأكيد شديدة الاستئناس إلا أنها لا تحط على أذرع البشر، ولا تترك هذه الحمامات نفسها تقتل بمثل هذه الأعداد الكبيرة.

ومن المثير للدهشة أنها لم تصبح أكثر وحشية لأن هذه الجزر ظلت طوال المائة والخمسين عاماً الأخيرة مزاراً متكرراً للعديد من المغامرين وصيادي الحيتان والبحارة الذين كانوا يتجولون عبر الغابات بحثاً عن السلاحف، وكانوا يجدون متعة أيضاً في صيد الطيور الصغيرة.

وهذه الطيور رغم أنها حتى الآن ما زالت مطاردة، لم تصبح بعد وحشية،

---

(1) Twrtle dove نوع من الحمام البري له هديل رقيق ويميل للعيش مع رفيق نُسميه «اليمامة» «المترجم».

ففي جزر تشارلز التي استعمرت منذ ست سنوات، شاهدت صبياً يجلس بجوار بئر وبيده فرع شجرة يقتل به الحمام والعصافير حين اقترابها لتشرب وقد قتل منها كوماً صغيراً لعشائه، وأخبرني أنه اعتاد الانتظار بجوار البئر لهذا الغرض دائماً، وقد يبدو أن الطيور في هذا الأرخبيل لم تتعلم بعد أن الإنسان أكثر خطورة من السلاحف أو لم تعره اهتماماً، بنفس السلوك الذي تتبعه الطيور الأليفة في إنجلترا مثل طائر الماجبي حين يقف مهملاً الأبقار والجياد التي ترعى في حقولنا.

تتويج الملكة ڤيكتوريا

«29 يونيه/ 1838 افرنجي»

*** تشارلس جريڤيل**

استمرت خطوات التتويج لنهايتها بصورة حسنة ـ وأحمد الله أنها انتهت ـ فاليوم كان صافياً دون حرارة أو مطر، كما ملأت الجموع التي لا حصر لها الشوارع بانتظام وارتياح، وبدت الأسقفية جميلة خاصة صفوف سيدات المجتمع اللائي كن يشعن بأضواء الماس، وكان دخول «سول» ـ الذي كان واحداً من قيادات نابليون ـ مفاجئاً وحيته الغمغمات الفضولية والهتافات، أثناء مروره عبر الردهة، وحدث نفس الشيء عند تقدمه أمام الكورال «فرقة الإنشاد الكنسي».

كان ظهوره كالمقاتل المتطوع، ومشى بمفرده مع مقدميه ومعلني وصوله، الذين استقبلوه باهتمام ملحوظ، أكثر من أي سفير آخر بالتأكيد، وبدت الملكة شديدة الرقة، وقد أفسد الزحام الكثير العملية نفسها، حيث لم تعد توجد فراغات كافية بين الملكة واللوردات والآخرين السائرين أمامها، وألقى بلوم فيلد كبير أساقفة لندن موعظة جيدة، أما المؤدون الآخرون في المراسم فقد كانت أدوارهم غير مكتملة، وأهملوا أداءها.

وأخبرني اللورد جون ثين المسؤول عن أبرشية ويستمنستر أنه لم يوجد أحد يعرف ما يجب فعله سوى الأسقف وهو نفسه ـ الذي قام بأداء المطلوب وتسميعه ـ واللورد ويلووبي ـ الخبير بمثل هذه الأمور ـ وكذلك دوق ويلينجتون،

وعلى ذلك كانت هناك صعوبات وضغوطات متواصلة، ولم تعرف الملكة أبداً أي خطوة تالية، وكانوا قد جعلوها تغادر مقعدها وتدخل كنيسة القديس إدوارد قبل استكمال الصلوات مما أثار استياء الأسقف كثيراً.

وقالت الملكة لجون ثين: «أرجوك، أخبرني عما يجب أن أفعله، لأنهم لا يعرفون». وفي النهاية عندما وضعوا عصا الملك بين يديها، قالت له: «ماذا سأفعل بها»؟ فقال: «إن على جلالتك أن تحمليها - لو سمحت - في يدك». فقالت: «أنا، إنها ثقيلة جداً»، وكان الخاتم الياقوتي قد صنع لإصبعها الأصغر بدلاً من الإصبع الرابع، الذي تشير نصوص الترسيم إلى وجوب وضعه فيه، وعندما أوشك الأسقف على وضع الخاتم، مدت الملكة إليه إصبعها الأصغر، لكنه قال لها: إنه يجب أن يوضع في الإصبع الرابع، فأجابته بأن الخاتم صغير جداً عليه، ولم تستطع أن ترتديه، فقال: إنه من الصحيح وضعه هناك وحيث إنه أصر، استسلمت الملكة لذلك، لكن كان عليها أولاً أن تخلع الخواتم الأخرى، ثم دفعوا هذا الخاتم عنوة لإصبعها فآلمها ذلك بشدة، وحالما انتهى الاحتفال، اضطرت لوضع إصبعها في حمام ماء ثلجي، لخلع هذا الخاتم.

عاهرات لندن

«1839 افرنجي»

*** فلورا تريستان**

«فلورا تريستان، سيدة فرنسية من دعاة الإصلاح الاجتماعي والحركات النسائية الأُول، وكانت - في هذا التقرير - في مهمة استقصاء للحقائق في إنجلترا».

ذات مساء فيما بين السابعة والثامنة، ذهبت - يصحبني اثنان من الأصدقاء المسلحين بالعصي - لاستطلاع ضاحية جديدة تقع على امتداد طريق متسع يسمى «طريق واترلو» عند نهاية كوبري واترلو، وتسكن هذه الضاحية غالباً العاهرات اللائي يعشن من امتهان الدعارة، «وإنه لخطر مؤكد أن يذهب الإنسان وحيداً إلى

هذه المنطقة ليلاً» وفي مساء صيف حار، تجد عند كل نافذة وباب نسوة يتضاحكن ويمزحن مع قواديهن، شبه مرتديات الملابس وبعضهن عاريات لمنتصفهن وكن يمثلن منظراً مثيراً. ملأتني ملامح رفاقهن الإجرامية الحقيرة بالخوف، فهؤلاء الرجال وإن كانوا شباباً حسني المظهر والأناقة والحيوية وأقوياء، إلاّ أن سلوكهم وملامحهم تجعلهم يبدون كحيوانات غريزتها الوحيدة إشباع شهواتها.

وقد بادرنا العديد منهم بالسؤال عما إذا كنا نريد غرفة، وحينما أجبناهم بالنفي سألنا أكثرهم جرأة بلهجة تهديدية: «إذن، ماذا تفعلون هنا طالما لا تريدون غرفة لكم ولصديقتكم؟» وهنا عليّ أن أعترف أنني ما كنت لأتمنى أن أجد نفسي منفردة مع هذا الرجل في أي لحظة.

مضينا في طريقنا واستكشفنا كل الشوارع في ضاحية «واترلو رورد» ثم جلسنا فوق الكوبري، لمراقبة نسوة الحي المجاور يعبرن كما يفعلن كل مساء بين الساعة الثامنة والتاسعة في طريقهن إلى الـ «وست إند» حيث يمارسن تجارتهن طوال الليل ويعدن لمنازلهن بين الثامنة والتاسعة صباحاً، ويرتدن المنتزهات والأماكن التي يتجمع بها الناس، مثل صالات البورصات والمباني العامة المتعددة والمسارح التي يغزونها حالما تنخفض أسعار الدخول إلى النصف، محولات أبهاء وصالات هذه الأماكن إلى صالات استقبال خاصة بهن، وبعد انتهاء المسرحية ينتقل الجميع إلى «الكباريهات» ـ ملاهي الليل[1] ـ وهي إما حانات قذرة أو بارات واسعة زاهية، حيث يذهب الناس لقضاء ما تبقى من الليل.

والملهى جزء مهم في الحياة الإنجليزية مثله مثل حانة البيرة في ألمانيا أو المقاهي الأنيقة في فرنسا، وفي البار يشرب الموظف وعامل المحل مشروب الأيل ويدخنون التبغ الرخيص ويثملون مع نسوة في أردية مهلهلة، أما في البارات الراقية «قصور الجن ـ والجن نوع راق من الخمر ـ»، فيشرب السادة الكونياك

(1) كان يطلق على علب الليل في ق 19 مصطلح الـ Finish حيث يقضي اللاهون لياليهم في مجون وشراب، ويعادل هذا المصطلح الآن «الملهى الليلي». «المترجم».

والبنش والشيري والبورت والخمور الفرنسية والرينية «نسبة لمقاطعات نهر الراين» كما يدخنون سيجار هاڤانا، ويتمازحون مع فتيات بديعات في أردية رائعة، ولكن في كلا المكانين تمارس صور الفجور بكل مظاهرها المخيفة والوحشية.

وكنت قد سمعت روايات كثيرة عن مشاهد الدعارة التي كانت تدور في هذه الملاهي، لكنني لم أسمح لنفسي بتصديقها، وأنا الآن في لندن للمرة الرابعة بقرار حاسم لاكتشاف كل شيء بنفسي، وصممت أن أقهر اشمئزازي وأذهب لواحد من هذه الدور كي أحكم بشخصي إلى أي مدى يمكنني الوثوق بالتقارير التي تصلني، وتطوع نفس الصديقين، اللذين اصطحباني إلى طريق واترلو، بأن يكونا دليليّ.

إن ما يحدث في هذه الأماكن يجب أن يُشاهد، لأنه يكشف عن الوضع الأخلاقي لإنجلترا، أفضل من أي تعبير بالكلمات، فبيوت المتعة المتألقة هذه لها مظاهرها الخاصة، وأولئك الذين اعتادوا التردد عليها يبدو عليهم أنهم مكرسون لحياة الليل، إذ يذهبون للفراش عندما تبدأ الشمس تضيء الأفق ويستيقظون بعد غروبها. ومن الخارج، تبدو قصور الخمور هذه بنوافذها محكمة الإغلاق نائمة في هدوء، ولكن ما إن يسمح لك حارس الباب بالدخول من الباب الصغير المخصص للدخول، حتى تبهرك آلاف من مصابيح الغاز بأضوائها.

وفي الطابق الثاني، توجد صالة واسعة مقسمة إلى نصفين، في أحد النصفين صف من الموائد منفصلة بعضها عن بعض بواسطة ستائر خشبية «باراڤان» ـ كما في جميع مطاعم إنجلترا ـ بمقاعد مفروشة كالأرائك على جانبي الموائد، وفي النصف الآخر منصة تتوافد عليها العاهرات بكل زيناتهن، يسعين لإثارة الرجال بالنظرة والإشارة، وعندما يستجيب شاب متأنق فإنهن يقدنه إلى إحدى الموائد العامرة باللحم البارد، ولحم الفخذ المدخن والمملح، والدجاج، والفطائر، وكل أشكال الخمور والشراب.

وتعد دور المجون هذه، المعابد التي يتقرب فيها المجتمع الإنجليزي المادي لآلهته، فالخدم الذين يعملون داخلها يرتدون أبهى الحلل، ويقوم مُلاكها الرأسماليون بتحية الضيوف من الرجال الذي أتوا لاستبدال ذهبهم مقابل الدعارة

باحترام شديد، وعند حوالى منتصف الليل يبدأ توافد الزبائن المنتظمين. وعديد من الملاهي هذه يرتادها رجال من كبار المجتمع، وهي المكان الذي تجتمع فيه زبدة الأرستقراطية.

في البداية يضطجع شباب النبلاء فوق الأرائك، يدخنون ويتبادلون المزاح مع النسوة، ثم حينما يثملون بما يكفي لوصول تأثير الشمبانيا والماديرا لرؤوسهم، تأخذ الصفوة المميزة من الطبقة الإنجليزية النبيلة وأعضاء البرلمان المحترمين في خلع معاطفهم وفك أربطة العنق ورفع ستراتهم وأساور قمصانهم ويبدأون في نصب مجالسهم شديدة الخصوصية في مكان عام، ولماذا لا يعتبرون المكان منزلهم وهم يدفعون مثل هذه المبالغ الكبيرة من أجل حقهم في إظهار الاحتقار؟

وبالنسبة لنوع الاحتقار الذي يستلهمونه فذلك لا يهمهم على الأقل، فالفسوق يرتقي لأعلى صورة، وفيما بين الساعة الرابعة والخامسة صباحاً يصل إلى قمته. وعند هذه النقطة يتطلب بقاء الإنسان في مقعده شجاعة كبيرة كمشاهد ساكن أمام كل ما يجري في المكان.

ويا للاستخدام المفيد الذي يقوم اللوردات الإنجليز بعمله من ثرواتهم الهائلة، أو كم هو جميل وكريم عندما يفقدون عقولهم ويدفعون خمسين أو حتى مائة جنيه لعاهرة إذا ما أسلمت نفسها لكل المساخر الناجمة عن السُكر. لأن الملهى لا تنقصه وسائل التسلية، تجد من أهم الألعاب أن تُقسر امرأة على الشرب حتى تسقط شبه ميتة من الخمر فوق الأرض ثم يجعلونها تبتلع رشفات من خليط النبيذ والمسطردة والفلفل، ويدفع هذا الخليط بالمخلوقة البائسة إلى تشنجات مخيفة، فتثير تقلصاتها والتواءاتها ضحكات هذه الصحبة النبيلة وتمنحهم تسلية لا حدود لها.

وهناك تسلية أخرى لها احترامها بين هذه الطغمة هي إفراغ محتويات أقرب زجاجة فوق النساء أثناء رقادهن فاقدات الشعور على الأرض، ولقد رأيت أثواباً من الساتان ليس لها لون يمكن التعرف عليه، فهي عبارة عن كتلة مختلطة من البقع: خمر وبراندي وبيرة وشاي وقهوة وقشدة... إلخ ملطخة كلها في آلاف من الأشكال الخيالية، نتاج فني للدعارة.

الإعدام بالمقصلة..

«روما 8 مارس/ الربيع 1845 افرنجي»

*** تشارلز ديكنز**

«أُدين المجرم الذي لم يذكر ديكنز اسمه هنا، بتهمة سرقة واغتيال كونتيسة باڤارية كانت تحج إلى روما».

كان موعد تنفيذ حكم الإعدام عند الساعة الرابعة عشرة والنصف بالتوقيت الروماني ـ أو الساعة التاسعة إلاّ ربعاً مساءً ـ وكان يرافقني صديقان. ولأننا كنا نعلم أن الازدحام سوف يكون شديداً، لذا حضرنا مكان التنفيذ في تمام الساعة السابعة والنصف، وهو قريب من كنيسة سان جيوفاني ديكولاتو «أي القديس يوحنا المقطوع الرأس»[1]، ـ وذلك ثناء مشكوك فيه للقديس يوحنا المعمدان ـ في واحد من الشوارع الخلفية المهجورة التي لا يوجد بها ممرات للمشاة والتي تتشكل روما من جزء منها، وهو طريق من المنازل العفنة تبدو أنها لا تخص أحداً، ولا تبدو أنها سُكنت أبداً من قبل، ولم تُبن بالتأكيد على أساس أية تخطيطات، ولا لأي غرض محدد، وليس لها «شيش نوافذ»، وتشبه معامل البيرة المهجورة إلى حد ما، وربما تكون قبلاً ورشاً لكن لا شيء فيها.

في مقابل منزل من هذه المنازل ـ وهو منزل أبيض ـ شُيدت منصة الإعدام، غير منتظمة وغير مقبولة وبلا طلاء وذات شكل منفر بالطبع، وربما يصل ارتفاعها لسبعة أقدام مع إطار طويل أشبه بالمشنقة يعلوها، به سكين معلق بكتلة ثقيلة من الحديد جاهزة كلها للسقوط، وتبرق لامعة في شمس الصباح بين الحين والحين كلما برزت من خلف السحب.

لم يكن هناك كثير من الناس ملتفين، وكان هؤلاء مبعدون لمسافة كافية عن المنصة بواسطة جماعات من فرسان البابا، كما يقف مائتان أو ثلاثمائة جندي

---

(1) ذكرت معنى اسم الكنيسة الإيطالية للعربية هنا حتى يتضح معنى العبارة التالية لها. «المترجم».

مسلح باسترخاء في مجموعات هنا وهناك، بينما يتنقل الضباط جيئة وذهاباً مثنى وثلاث، يثرثرون ويدخنون السيجار.

عند نهاية الشارع كانت توجد قطعة أرض فضاء حيث ترى كوماً من الرمال وأكواماً من الفخاريات المكسورة وخليط من نفايات الخضروات. ولأن مثل هذه الأشياء تلقى في أي مكان، وكل مكان بروما، ونحن لا نفضل مكاناً بعينه، دخلنا ما يشبه مغسلة تخص أحد المنازل الموجودة بالمكان، ووقفنا هناك في عربة قديمة فوق كومة من عجلات العربات الملقاة على الجدار، متطلعين عبر نافذة متآكلة ضخمة نحو المنصة ثم إلى نهاية الشارع فيما ورائها حتى وصلت أنظارنا - نتيجة لتحولها فجأة لليسار - لنهاية مفاجئة إذ رأينا ضابطاً سميناً ذا قبعة منحنية وملامح ملكية.

دقت الساعة التاسعة ثم دقت العاشرة، ولم يحدث شيء، ودقت أجراس كل الكنائس كالعادة، وتجمعت ثُلة من الكلاب في الأرض الفضاء وطاردت بعضها البعض فيما بين الجنود، بينما يروح ويغدو رومانيون ذوو مظهر حاد من الطبقة الدنيا بعباءات زرقاء أو عباءات فلاحية أو أسمال بلا عباءة، يتحادثون معاً، وتحوم النساء والأطفال على أطراف هذا النزر اليسير من الجمهور، وقد تركوا بقعة طينية كبيرة عارية مثل رأس صليع.

ويروح ويجيء بائع السيجار يحمل جمرات الفحم في آنية فخارية بأحدى يديه منادياً على بضاعته، في حين يوزع بائع الفطائر انتباهه فيما بين المنصة والزبائن، ويحاول الأطفال تسلق بعض الأسوار ثم يقعون من فوقها ثانية، وترى الرهبان والقساوسة يفسحون لأنفسهم ممراً بين الناس، ويقفون على أطراف أصابعهم لرؤية سكين المقصلة، ثم يختفون. وأما الفنانون في قبعاتهم الخيالية المنتمية للعصور الوسطى، ولحاهم التي لا تنتمي لعصر على الإطلاق - شكراً لله على ذلك - فتنم سحناتهم عن جهامة مجسدة فيما حولهم من مواقفهم بين الجمع. وكان واحد من السادة المحترمين - أؤكد أن له صلة بالفنون الجميلة -

يتمشى بزوج من الأحذية الهيسية[1] وله لحية حمراء تتدلى حتى صدره، ويلف شعره الطويل الأحمر اللامع في ضفيرتين، واحدة على كل جانب من رأسه، مسدلة على كتفيه من الأمام تقريباً حتى وسطه، مضفرة ومصفوفة بعناية.

دقت الساعة الحادية عشرة ولم يحدث شيء، ثم سرت غمغمات بين الجماهير بأن المجرم لم يعترف، وفي تلك الحالة، سيبقيه الرهبان حتى غروب الشمس، إذ من عادتهم الرحيمة ألاّ يبعدوا الصليب عن رجل في هذا الوضع، إذا رفض أن يقدم اعترافه، وبالتالي يكون خاطئاً هجره المسيح «المخلص». حتى ذلك الحين أخذ الناس يتسربون، وهز الضباط أكتافهم ونظروا في ارتياب، وأضحى الفرسان ـ الذين كانوا قد جاؤوا فوق خيولهم أسفل نافذتنا، وكانوا ـ بين فترة وأخرى ـ يأمرون العربات سيئة الحظ بمجرد استقرارها بالتحرك بعيداً ـ شديدي الانفعال ونافدي الصبر. والمكان الأصلع لا تجد فوقه شعرة واحدة متحركة[2]، بينما الضابط السمين الذي يتوج المنظر يتناول شمة هائلة من السعوط «النشوق».

وفجأة، صدرت ضجة الطبول، ووقف الجنود بانتباه على الفور، وساروا نحو المنصة وشكلوا دائرة حولها، وهُرع الفرسان لأقرب مراكزهم أيضاً وأصبحت المقصلة مركزاً لحشد من الرماح والحراب اللامعة، واقترب الناس أكثر ناحية جناح الجنود، وانصب نهر طويل مترنح من الرجال والصبية ـ الذين رافقوا الركب من السجن ـ في الأرض الفضاء، ولا تستطيع تمييز البقعة الصلعاء عن غيرها، وهجر بائع السجائر وزميله بائع الفطائر كل أفكار العمل ـ وقتياً ـ وأسلما نفسيهما كلية للاستمتاع، فأخذا موقعاً جيداً وسط الزحام. وانتهى الموقف الآن بقوة من الفرسان والضابط السمين مشرعاً سيفه، ناظراً بإمعان لكنيسة قريبة منه يستطيع هو رؤيتها في حين لا نراها نحن.

وبعد تأخير بسيط، رأينا بعض الرهبان يقتربون من المقصلة قادمين من

(1) نسبة لمنطقة هيس بألمانيا وهي أحذية مرتفعة وذات نمط حربي. «المترجم».
(2) يقصد «خالٍ تماماً من البشر». «المترجم».

الكنيسة تعلو رؤوسهم ـ وهم قادمين ببطء وكآبة ـ صورة المسيح فوق الصليب، مسربلة بالسواد، وحُملت هذه إلى قاعدة المقصلة حول قوائمها إلى الأمام، ثم تعود في اتجاه المجرم، كي يراها في نظراته الأخيرة، ووضعت بصعوبة في مكانها. عندها ظهر المجرم فوق سطح المنصة، عاري القدمين، مقيد اليدين وياقة ورقبة قميصه مقطوعتان حتى كتفيه تقريباً، وهو شاب في السادسة والعشرين من عمره، قوي البنية، حسن الشكل، ووجهه شاحب بشارب صغير أسود، وشعر بُني قاتم.

رفض الشاب أن يعترف ـ على ما يبدو ـ قبل أن يحضروا له زوجته كي يراها أولاً، وقد أرسلوا مبعوثاً لها وهذا ما سبب التأخير.

ركع في الحال أمام السكين، وثبتوا رقبته في فتحة خصصت لهذا الغرض، في خشبة متعارضة وأغلق عليها بلوح خشبي آخر فوقها، تشبه النِّير تماماً، وأسفله بالضبط وُضع كيس جلدي، وتدحرج رأسه في الكيس فوراً. وأمسك الجلاّد الرأس من شعره سائراً به حول المنصة ليراه الناس حتى قبل أن يدرك المرء أن المقصلة سقطت بقوة محدثة صوتاً مجلجلاً.

وبعدما دار الرأس بأركان المنصة الأربعة، ركزوه فوق عمود في المقدمة ولافتة بالأبيض والأسود أمام الشارع الطويل ليحدق فيه الناس، وللذباب كي يستقر عليه، وكانت عيناه قد تحولتا لأعلى كما لو كان يتجنب النظر للكيس الجلدي، ونظر إلى الصليب.

كانت كل مظاهر الحياة قد فارقته في تلك اللحظة، وكان الرأس متجهماً وبارداً، بلا لون يابساً، كذلك كان الجسد، وكانت هناك كمية كبيرة من الدماء، وعندما غادرنا النافذة واقتربنا من المنصة، كانت شديدة القذارة، وتحول أحد الرجلين اللذين كانا يلقيان المياه فوقها، ليساعد زميله في رفع الجثة ووضعها في كيس، مفسحاً طريقه عبر الوحل، وكان القطع الواضح للرقبة غريباً، إذ قطعت الرأس عن قُرب حتى بدا أن نصل المقصلة أفلت تحطيم الفك وقطع الأذن بالكاد، في حين أن الجثة بدت كما لو أن شيئاً لم يُترك فوق الكتفين.

ولم يهتم أحد أو حتى يتأثر، ولم يظهر أحد أي علامة للامتعاض أو الشفقة أو الإباء أو حتى الأسف.

العبودية في أمريكا.. بيع العبيد في ڤيرجينيا

«ديسمبر/ الكانون 1846 افرنجي»

*** دكتور. إيلوود هارڤي**

. . . حضرنا جلسة بيع قطعة أرض وبعض الممتلكات بالقرب من بيترسبورج بولاية ڤرجينيا، ورأينا ـ دون توقع ـ بعضاً من العبيد يباعون في المزاد، وكان أولئك العبيد قد تم إخبارهم بأنهم لن يباعوا، وجمعوا في مقدمة المكان وهم يحملقون في الجماهير المتجمعة، وما إن بيعت الأرض، حتى سُمع صوت الدلال المرتفع يقول: «احضروا الزنوج»! وعلت وجوههم ظلال من الدهشة والخوف بينما يحدق كل منهم في الآخر، ثم في جموع المشترين الذين تحول انتباههم نحو أولئك، وعندما تكشفت الحقيقة المفزعة أمام عقولهم وأنهم سوف يباعون ويفترق الأقارب والأصدقاء للأبد، كان الأمر محزناً بدرجة لا توصف، إذ انتزعت النساء أطفالهن وعدون نحو الأكواخ مولولات، واختبأ الأطفال خلف الأشجار والأكواخ، في حين وقف الرجال في سكون يائس.

وقف الدلال على شرفة المنزل، واصطف الرجال والصبية في الساحة لاستعراضهم، وتم الإعلان بأنه لا توجد ضمانات على سلامتهم، وأن على المشترين أن يفحصوا ذلك بأنفسهم، وقد بيع قليل من الرجال العجائز نظير أسعار فيما بين ثلاثين إلى خمس وعشرين دولاراً، وكان من المؤلم رؤية أولئك العجائز ـ الذين أحنت ظهورهم السنون والعمل الشاق ـ وقد أضحوا سخرية للطغاة المتوحشين وأن نسمعهم يصفون أمراضهم وعدم نفعهم خشية أن يقوم التجار ببيعهم في السوق الجنوبي.

ثم وضعوا صبياً أبيض فوق المنصة، وكان شعره بنياً ومستقيماً ولبشرته نفس طبيعة الأشخاص البيض، ولا توجد آثار مميزة للملامح الزنجية في سحنته،

وتبودلت بعض التعليقات الساخرة حول لونه، وطلبوا فيه مبلغ مائتي دولار، لكن المشاهدين قالوا: «هذا ليس بكاف كبداية لمثل هذا الزنجي الصغير» وقد أبدى بعضهم ملاحظات قائلين: «إنهم لن يحصلوا عليه كهبة». وقال البعض الآخر: «إن زنجي أبيض أكثر إزعاجاً مما يستحق». وقال رجل: «إنه من الخطأ أن نبيع الناس البيض». فسألته إذا ما كان ذلك أكثر خطأ من بيع الناس السود، فلم يجب بشيء.

وقبل بيع ذلك الصبي اندفعت أمه من المنزل نحو الشرفة صارخة في حزن هائل: «ابني طفلي... إنهم سيأخذونك بعيداً أيها الحبيب»... وهنا ضاع صوتها حين دفعوها بجفاء للخلف وأُغلق الباب، ولم يتوقف البيع للحظة بل ولم يبد على أحد من الجمع بادرة تأثر لهذا المنظر.

ولخشية الصبي المسكين من البكاء أمام مثل هذا العدد الكبير من الغرباء الذين لم يظهروا تعاطفاً ولا شفقة، ارتعش ومسح دموعه من فوق وجنتيه بأكمامه، وبيع بحوالى مائتين وخمسين دولاراً، وخلال البيع، امتلأت الأنحاء بالصرخات والعويل الذي آلم قلبي، ثم نودي على امرأة بالاسم بعد ذلك، فاعتنقت طفلها بشدة قبل أن تتركه مع امرأة عجوز، وأسرعت بصورة آلية لتلبية النداء، لكنها توقفت وألقت ذراعيها عالياً صارخة، ثم شلت عن الحركة.

لمس أحد رفاقي كتفي قائلاً: «هيا لنترك هذا المكان، فإني لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك». فغادرنا المكان، وكان للسائق الذي قاد عربتنا من بيترسبورج ولدان لهما نفس الحالة ـ وهما ولدان صغيران ـ وقد حصل على وعد بعدم بيعهما، وسألناه عما إذا كانا هم أطفاله الوحيدون، أجاب: «هما كل ما بقي من ثمانية، وثلاثة آخرون بيعوا للجنوب، ولم يسمع شيئاً عنهم أو يراهم بعد ذلك ثانية.

العبودية في أمريكا.. عقاب امرأة من العبيد

«نيو أورليانز 1846 افرنجي»

*** ساموِيل جريدلي هاو**

«كان الكاتب ساموِيل جريدلي هاو معلماً أمريكياً رائداً، ومن القيادات الأولى في تعليم العميان والمعاقين من الأطفال».

قضيت عشرة أيام في نيو أورليانز، ليس بدون فائدة، أعتقد، في فحص المؤسسات العامة، والمدارس، والمصحات، والمستشفيات، والسجون. . . الخ.

ومع استثناء الأولى منها يوجد أمل ضئيل في تحسينها، ولا أعرف كم مما له قيمة ما زال في نظمها، لكن ما أعرفه بالتأكيد أنه ـ في سلطة النظام العقابي ـ توجد انحرافات تستوجب أن تواجه هذه المدينة المصير الذي واجهته مدينة سدوم[1] ولو أن السيد «هوارد» أو السيدة «فري» اكتشفا لحظة مثل هذا الوكر اللصوصي الذي تساء إدارته في نيو أورليانز كسجن المدينة، ما كان ليسجلاه. ففي قسم الزنوج رأيت الكثير مما أخجلني أن أكون رجلاً أبيض، وحركت بداخلي للحظة روح الشر في طبيعتي الحيوانية، إذا ما إن دخلت فناء ضخماً مرصوفاً تتفرع منه صالات تمتلىء بالعبيد من جميع الأعمار والألوان ومن الجنسين، حتى سمعت لسعات سوط، وكل ضربة منه أحدثت صوتاً كقرقعة السلاح، فأدرت رأسي ورأيت منظراً جمدني حتى النخاع، أحسست معه ـ لأول مرة في حياتي ـ بتصلب شعرات رأسي حتى الجذور.

كانوا يرقدون فتاة سوداء على وجهها فوق لوح من الخشب، وربطوا إصبعيها الكبيرين في طرف من اللوح، وربطوا قدميها وشدوهما للطرف الآخر، في حين يمر شريط فوق ظهرها يربطها باللوح، ضاغطاً إياها فيه، وفيما أسفل الشريط كانت عارية تماماً، وبجوارها على بعد ستة أقدام، وقف زنجي ضخم بيده سوط طويل، يهوي به بقوة مخيفة ودقة متناهية، وتخرج كل ضربة بشريحة من الجلد تعلق بالسوط أو تسقط مرتعشة على الأرض، وتندفع الدماء خلفها.

كانت المخلوقة المسكينة تتلوى وتصرخ في صوت يعبر عن فزعها من الموت وألمها المخيف، صارخة في سيدها الذي وقف بجوار رأسها: «أنقذ حياتي لا تقطعني أشلاء» ويظل السوط المفزع يهوي، وتظل شريحة وراء الأخرى تنسل من الجلد، وجرح وراء جرح يقطع اللحم الحي، حتى تحولت إلى كتلة هامدة دامية من اللحم المرتعش غير المطهو.

---

(1) سدوم واحدة من مدينتين بفلسطين ـ الأخرى عامورة ـ أنزل الله بأهلها عقابه لانتشار الفجور والفسق بين أهلها فأبادها. «المترجم».

وبصعوبة شديدة منعت نفسي من الوثوب فوق هذا الجلاد والقبض على سوطه، ويا للحسرة ماذا يمكنني أن أفعل سوى أن أنتحي جانباً لأخفي دموعي من أجل المسكينة المعذبة ومن خجلي من الإنسانية؟

كان هذا في سجن عام منظم، والعقوبة نظمها واعترف بها القانون، ولكن أتتصور أن هذه البائسة قد ارتكبت جرماً فادحاً وأدينت بسببه وحكم عليها بالجلد؟ لا. إطلاقاً، لقد أحضرها سيدها لتجلد بواسطة الجلاد الرسمي دون محاكمة ولا قاض ولا محلفين أمام عينيه، لجرم حقيقي أو مفترض إرضاء لخياله ورغباته الشريرة، وربما كان يحضرها يوماً بعد يوم دون سبب محدد ويوقع بها أي عدد من الجلدات التي يرضاها، أقلها خمس وعشرون جلدة، طالما يسدد الرسوم، أو إذا شاء يمكنه اختيار «لوحة جلد» خاصة وفقاً لشروطه ويمارس شروره هناك.

والجزء المذهل في هذه العقوبة المخيفة، هو علنيتها كما سبق لي أن قلت، فقد كانت في فناء محاط بصالات مملوءة بالناس الملونين من جميع الأجناس: عبيد هاربون، أو مدانون بجريمة ما، أو جاهزون للبيع.

ومن الطبيعي أن تفترض تزاحمهم وتحديقهم - مذهولين - في المنظر الوحشي أمامهم، لكنهم لم يفعلوا ذلك، فالعديد منهم لاحظ ما يحدث بالكاد، والعديد الآخرون لم يهتموا به، إذا استمروا في مطارداتهم الطفولية، والبعض كان يضحك في أنحاء الصالات، إلى هذه الدرجة السفلى يصل الإنسان، المخلوق بيد الله، إلى الغرق وسط لجة الوحشية.

مجاعة البطاطس في إيرلندا.. ضحايا الجوع الكبير

«كاسلهافن 22 فبراير/ النوار1847 افرنجي»

*** إيليو بوريت**

«كانت المجاعة الإيرلندية نتيجة للانتشار المتزايد لوباء محصول البطاطس الذي بدأ في أوروبا عام 1845 افرنجي، ومات من إجمالي عدد الإيرلنديين الذي

كان 8 ملايين نسمة حوالى المليون بسبب الجوع، كما هاجر 1,5 مليون آخرين أغلبهم إلى الولايات المتحدة».

. . . دخلنا مأوى حقيراً من خلال فتحة مدخل ارتفاعها حوالى ثلاثة أقدام، فوجدنا طفلاً أو اثنين نائمين بأعين مفتوحة وسط القش، وكان ذلك مظهرهم على الأقل، إذ نادراً ما كانوا يرمشون حين كنا نمر أمامهم. جاء والدهم وأخبرنا بقصة عوزه المؤلمة قائلاً إنهم لم يذوقوا حتى كسرة خبز لمدة 24 ساعة، وأشعل ربطة من القش وأرانا طفلاً أو اثنين آخرين راقدين في ركن آخر من الكهف، ماتت أمهم فكان يضطر لتركهم معظم النهار لالتقاط ما يقيم أودهم.

سرنا الآن بين أكثر المنازل التي رأيتها حتى الآن بؤساً، بل هي أكثر بؤساً من إيواءات «سكيبر»، فكثير منها أكواخ مسطحة السقف، نصفها مطمور في الأرض، أو مبنية على جُدُر صخرية، ومغطاة بالقش العفن، والطحالب أو الجذور، وفي أحدها ـ وهو لا يزيد على سبعة أقدام مربعة ـ وجدنا خمسة أشخاص راقدين بالحمى، وواضح عليهم اقترابهم من الموت، والوحيدة التي بقيت قادرة على توفير بعض من المواساة، كانت فتاة في السادسة عشرة تقريباً، وكان كل ما تستطيع فعله أن تحضر ماءً في وعاء مكسور تبلل به شفاههم الملتهبة.

وبينما كنّا نصعد تلاً يطل على البحر، قابلنا مشاهد جديدة من البؤس، فبعدما رأينا كوخاً ـ نائياً إلى حد ما في بقعة غائرة ـ محاطاً بقناة تمتلىء بالفضلات الخضراء، دخلناه بصعوبة لنجد طفلة وحيدة في الثالثة من عمرها تقريباً ترقد فوق ما يشبه الرف، وجهها الصغير مستقر على حافة لوح الخشب، وناظرة بثبات نحو الباب كما لو كانت بانتظار أمها، ولم تحرك عينيها أبداً أثناء دخولنا وإنما أبقتهما مثبتتين على المدخل، وشككنا إذا ما كانت المسكينة قد بقي لها أب أو أم، والأكثر شكاً هو هل تستطيع هاتان العينان أن تستريح نظراتهما الفارغة لو أن كلاهما دخلا في الحال يحملان بأيديهما ما يسد رمق هذه المسكينة؟ ولا تستطيع الكلمات أن تعبر عن أشكال أطفال المجاعة، إذ لم أر أبداً مثل هذه الأعين اللامعة الزرقاء تنظر بمثل هذا الثبات نحو اللاشيء.

داخل القصر البللوري، المعرض العظيم

«1851 افرنجي»

*** شارلوت برونتي**

«احتوى القصر البللوري للسير جوزيف باكستونز على مساحة من الأرض أكثر من 800,000 قدم مربع وما يربو على 8 أميال من طاولات العرض».

أمس، ذهبت للمرة الثانية للقصر البللوري ومكثت فيه حوالى ثلاث ساعات، وأجد لزاماً عليّ أن أقول: إنه أذهلني هذه المرة أكثر من زيارتي الأولى، إنه مكان رائع شاسع عجيب، جديد ويستحيل وصفه. وعظمته لا تكمن في شيء واحد ولكن في تمثيله الفريد لكل الأشياء، فكل ما أنتجته البشرية وأبدعته صناعتها تجده هناك، من المقصورات الكبيرة الممتلئة بقاطرات السكك الحديدية والغلايات، إلى آلات الطواحين في كامل عملها، وعربات رائعة من جميع الأنواع، ومعدات من كل وصف، حتى الأرفف الزجاجية المغطاة أو المفروشة بالمخمل والمحملة بأبهى المشغولات الذهبية والفضية، وعلب المجوهرات ذات الحراسة الجيدة والممتلئة بماسات ولآلىء حقيقية تقدر بمئات الألوف من الجنيهات.

ربما يطلقون عليه سوقاً أو معرضاً، لكنه سوق ومعرض من تلك الأسواق التي ربما صنعتها الجان كما في الأساطير الشرقية، إذ بدا أن السحر فقط هو الذي يستطيع تجميع كل هذه الثروات من كل أنحاء المعمورة، كما لو كانت الأيدي الخارقة فقط هي التي نظمته هكذا بمثل هذا البريق والتقابل اللوني والطاقة التأثيرية البديعة، وبدا كما لو أن الجماهير التي ملأت الممرات الضخمة قد سيطر عليها وسيّرها تأثير خفي، فبين ثلاثين ألف نفس بشرية حضرته ذلك اليوم الذي وُجدت فيه، لا تسمع حتى مجرد ضجة مرتفعة أو ترى حركة غير منتظمة، فالمد البشري يتقدم بهدوء بغمغمة عميقة مثل بحر تسمعه من بعيد...

سوق الخضار في فارينجدون

«1851 افرنجي»

*** هنري ماي هيو**

المحلات في السوق مغلقة، وتلمع مصابيح الغاز فوق البوابات الحديدية بشدة، وبين الحين والحين تسمع الصياح نصف المكتوم لأحد الديكة، المحبوس في حظيرة ما أو في أحد محلات بيع الطيور، ثم يأتي في الحال أحد الرجال مسرعاً حاملاً علبة من القهوة الساخنة بكل يد، وخيمته فوق رأسه، وعندما يعد «نصبته» بجوار البوابة، ويرتب الأكواب البيضاء بين صفوف حجارة الحائط، وينفخ في نيران الفحم جاعلاً شرارات النار تتطاير مع كل نفخة يقوم بها، يزحف الزبائن بالتدريج مرتدين أسمالاً من كل شكل، ويتلكأون جيئة وذهاباً أمام البوابات يضربون الأرض بأقدامهم جلباً للدفء، ويفركون أياديهم ببعضها البعض حتى تنفرط مثل ورقة «الصنفرة».

وقد يحضر بعض الصبية سلالاً يدوية ضخمة، يحملونها من مقابضها حول رقبتهم فتتغطى رؤوسهم تماماً بجريد هذه السلال مثل غطاء الرأس، بينما يربط الآخرون متاعهم فوق ظهورهم بأشرطة. وتقف فتاة صغيرة - وذيل تنورتها قد تهلهل وتدلت خيوطه مثل مريلة الحدادين - ترتعش مرتدية حذاء ممزقاً، حاملة بين يديها الزرقاوين صينية شاي مقوسة صدئة.

عقد قليل من هذه المخلوقات البائسة صداقة مع عامل المقهى - القهوجي - فسمح لهم بتدفئة أصابعهم حول النار المتقدة تحت عُلب القهوة، وكلما داخلهم الدفء مالوا إلى النوم والتثاؤب. وكان السوق في اللحظة التي وصلناه فيها قد بدأ لتوه، فأخذ أحد التجار مقعده وجلس بلا حراك بسبب البرد، - إذ ما زال هناك شهر كامل على أعياد الميلاد - ويداه مدسوستان في جيوب معطفه الرمادي، وأمامه طاولة بيع مفتوحة، في منتصفها شمعة مثبتة وسط الخضروات اللامعة الخضراء[1]،

---

(1) الكاتب هنا يذكر نوعاً معيناً من الجرجير المستخدم في عمل السلطة يسمى Giresses «المترجم».

وبينما تلمع عبر جريد السلال تلقي بظلال غريبة على الأرض كما لو كانت ظلال الليل. وينحني اثنان ـ أو ثلاثة من الزبائن ـ معلقة أكياسهم فوق ظهورهم، وأياديهم تغوص في فتحات أرديتهم ـ فوق طاولة البيع ويصبغ ضوء الشمس ملامحهم القاتمة بحمرة خفيفة، في حين يرنُّون عملتهم ذات نصف البنس بحديث مغر للبائع لدفعه إلى إنهاء المساومة.

وحالما دقت الساعة الخامسة، دخلت بائعة سمينة من البوابة، وتلاها أحد الرفاق الريفيين مرتدياً قبعة سائق وعباءة بحارة، ليقوم بترتيب السلال التي أحضرها إلى لندن.

وتتمركز بقية النسوة في مواقعهن، ملتفات جيداً في ملاءات دافئة فوق «شالاتهن» السميكة، جالسات وأيديهن تحت «مرايلهن» ويتحدثن مع المتسكعين الذين ينادوهم بأسمائهن، والآن يبدأ العمل، الزبائن يحضرون أزواجاً وجماعات ويتجولون متطلعين إلى الجرجير والخضروات ويصغون للأسعار المطلوبة، ويتجمع حول كل طاولة عدد من المتزاحمين منحنين فوقها حتى تكاد رؤوسهم تتلاقى، وتضيء جباههم وخدودهم الشمعة المثبتة في الوسط، وتسمع أصوات البائعات أعلى من صخب الجمهور، يجبن في حدة على كل الاعتراضات التي قد توجه لجودة سلعتهن، فيقول رجل إيرلندي «إنها مبقعة قليلاً. . . سيدتي» أثناء فحصه لإحدى الأوراق الخضراء، فتجيبه السيدة بصوت قاطع «ليس أكثر من طفل ولد حديثاً ـ طازجاً ـ يا دينيس» ثم تلتفت إلى زبائن جدد. وعند إحدى السلال، مدت بائعة متجولة ـ ترتدي عباءة خضراء قديمة ـ شالها القذر لتضع فيه حزم الخضار، وتقف بجوارها ابنتها ترتدي فستاناً قطنياً رقيقاً مرقعاً بغرز كغطاء الفراش، فصاحت البائعة في نغمة رقيقة:

«أيتها السيدة دونالد، أيمكنك المحافظة على بقائك دافئة، فالبرد يقرض الأصابع مثلما يحرقها الماء المغلي، إنه كذلك». . وعند سلة أخرى وقف رجل ذو شعر رمادي ينسدل فوق عباءة مثل عباءات رجال الشرطة، يشكو بمرارة الطريقة التي عاملته بها بائعة أخرى فهو «اشترى منها كمية كبيرة في الصباح السابق، وعند

بزوغ النهار وجدها كلها بيضاء تماماً وبسببها عمل ثلاثة بنسات في أفضل يومه» فردت المرأة عليه: «حسناً يا جو. كان عليك أن تحضر لهم - كما تعرف - وتعلمهم كيفية معاملتك جيداً».

وبينما يزحف نور الصباح، امتلأ رصيف الفناء بالمشترين، وأضحت المحلات «والنصبات» في نهاية السوق - مع كل لحظة تمر - شديدة الوضوح، وقدمت عربة سكة حديدية ممتلئة بالجزر تدب بأرض الفناء، وبدأت الحمامات تطير - هي أيضاً - فوق المظلات، أو تسير بين أحجار الرصيف، وحضر رجل الإنارة ومعه سلمه كي يطفىء الأنوار، وعند ذاك كان الجميع يتدافعون، والأطفال يصرخون إذ تداس أقدامهم، وتسرع النسوة وسلالهن أو «شالاتهن» تمتلىء بالخضروات وحزم من القش في أيديهن، وفي أحد أركان السوق جلست ثلاث أو أربع فتيات على الأحجار مشغولات بربط حزم الخضروات وأرجلهن مطويات أسفلهن، وقد اخضرت الأرضية حولهن بالأوراق الخضراء التي يقذفنها.

وعندما رأتني إحدى البائعات أرمق هاته المجموعة، قالت لي: «هه... كان يجب أن تأتي في صباح يوم من أيام الصيف، عندئذٍ لأمكنك مشاهدتهن جالسات يحزمن الخضرة صغاراً وكباراً، أكثر من مائة مخلوقة مسكينة وأشد كثافة من غربان تحط على حقل محروث».

وبينما يتقدم النهار، كانت الجموع تقل ولم يبق إلا أفقر بائعي «الخس».

عاد الكثيرون منهم بلا نقود، وبعض الأخريات ربطن «أنصاف البنس» بعناية في أطراف «شالاتهن» كما لو كن يخشين فقدانها، وزحف - هذه اللحظة - صبي في الخامسة من عمره بادي الإعياء، يكاد رأسه يصل لأطراف الطاولات تماماً، يدوس بأقدامه العارية الزرقاء الأحجار الباردة كالقطة فوق أرض مبللة، ويظهر جسمه عند المرفقين والركبتين من خلال مُزَقٍ في ملابسه وبدا كالمتجمد، لدرجة أن بائعة ضخمة نادت عليه سائلة إياه عما إذا كانت أمه قد عادت للمنزل، وكان الصبي يعرفها جيداً لأنه توجه نحوها دون إجابة وبينما كان يقف مرتعشاً على قدم واحدة قال: «اعطنا بعض الجرجير القديم يا جيني».

وفي دقائق قليلة كان يجري ومعه حزمة خضراء تحت إبطه. . . وبينما تعود أنت لمنزلك ـ بالرغم من أن الصبية يدقون أبواب معلميهم ـ كانت الفتيات الصغيرات بائعات الجرجير ينادين على سلعتهن في كل شارع، وتجمعت بعضهن حول مضخات المياه يغسلن الأوراق، ويكومن الحزم في سلالهن الممزقة والمهلهلة مثل ملابسهن تماماً، وفي بعض هذه الأوعية، رُبطت ثقوبها أو ضُمت لبعضها بحبال أو خيوط أو جريد وثبتت عليها رقائق من الخشب، بينما بعضها الآخر تربطه قصاصات من القماش المقاوم للماء أو شرائح الصفيح القديمة.

وحتى بعد انتهاء سوق الخضار، فما زال الوقت مبكراً أمام الفتيات اللائي يماحكن الشباب في الطرقات، ومصلحي الآلات بصناديق الأدوات المعلقة على أكتافهم يهرعون قدماً لأعمالهم.

قوات لويس نابليون تخضع باريس

«4 ديسمبر/ الكانون 1851 افرنجي»

*** ڤيكتور هوجو**

«نصب لويس نابليون ـ رئيس الجمهورية الثانية ـ من نفسه الإمبراطور نابليون الثالث بواسطة انقلاب سياسي في 2 ديسمبر 1851 افرنجي، وقد هزم الجمهوريين في قتال متتابع خلال الشوارع في باريس». .

. . . من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة الثانية، كان هناك في هذه المدينة ـ المستسلمة للمجهول ـ توقع قاس لا يمكن وصفه، فكل شيء كان هادئاً وذاهلاً، وقد غادرت فرق وبطاريات المدفعية ضاحية باريس وتمركزت بلا ضجيج حول الميادين، ولم يكن هناك أدنى صوت بين صفوف الجند، وقال شاهد عيان: «إن العسكر يسيرون بروح النزهة تماماً».

وعلى رصيف «لافيرونيري» الذي تجمعت فيه فرق الجنود منذ صباح الثاني من ديسمبر، بقي الآن منهم موقع للحرس البلدي فقط، فكل شيء آب للمركز، الناس والجيش كذلك، وامتد سكون الجيش فشمل الناس كلهم، فالكل يراقب

بعضه، وكان لدى كل جندي مؤونة ثلاثة أيام وست عبوات من الذخيرة.

وقد شاع حينئذٍ أن ما ينفق على شراء البراندي لكل فصيلة يصل إلى 10,000 فرنك يومياً، وعند حوالى الساعة الواحدة ذهب «ماجنان» إلى فندق «دوڤيل» ليتابع احتياطي المدفعية بنفسه ولم يغادره حتى كانت كل البطاريات على استعداد للتحرك، ثم تكاثرت استعدادات معينة مريبة، فعند الظهر أقام عمال الحكومة وهيئة المستشفى نوعاً من الإسعاف الضخم عند رقم 2 بضاحية مونمارتر، وارتفعت أكوام كبيرة من النقالات هناك، فيما تساءلت الجماهير «لِمَ كل هذا؟».

عند الساعة الثانية، اصطفت خمس فصائل «كوت، وبورجون، وكانروبير ودواك، وريبيل، وخمس بطاريات مدفعية مع 16,400 رجل من المشاة والفرسان والرماة وقاذفي القنابل والمدفعيين والمدرعين» دون سبب ظاهر بين شارع «لابيه» وضاحية «بواسونيير» ووجهت المدافع نحو مداخل كل شارع، وكان هناك أحد عشر مدفعاً في مواقعها على ميدان «بواسونيير» وحده، كما رفع المشاة بنادقهم على أكتفهم وشهر الضباط سيوفهم، فماذا يعني كل ذلك؟ لقد كان منظراً عجيباً يستحق متاعب المشاهدة. وعلى جانبي الرصيف، وعند عتبات جميع المحلات ومن كل طوابق المنازل، أطلت جماهير ساخرة، مندهشة، في حالة ترقب.

وشيئاً فشيئاً اختفى الترقب والسخرية وأفسح مكاناً للدهشة، ومع ذلك انقلبت الدهشة إلى ذهول، ولن ينسى أولئك الذين مروا بهذه اللحظة غير العادية ذكراها أبداً، فلقد كان واضحاً أن هناك شيئاً ما يؤطر كل ما يحدث، لكن ما هو؟ غموض عميق. أيمكن للمرء أن يتخيل باريس في قبو «محاصر»؟ إذ شعر الناس أنهم كما لو كانوا تحت سقف واطىء!

وبدا أنهم قد أُطبق عليهم داخل جدران المجهول والمفاجأة. إن هناك شيئاً ما غامض فيما وراء الأحداث، لكن فوق هذا، هم ما زالوا أقوياء، لأنهم هم الجمهورية، وهم باريس، فما الذي يخشونه؟ لا شيء، ثم صاحوا «فليسقط بونابرت» واستمرت القوات صامتة، لكن السيوف ظلت خارج أغمادها، واتقدت مشاعل المدافع عند أركان الشوارع، وازدادت السحابة ظلمة وكثافة وصمتاً مع

كل لحظة تمر، وكان تكاثف هذا الدجى مأسوياً، ويكاد يشعر المرء بالدمار القادم للكارثة، وبقدوم شرير خائن كالأفعى يتلوى خلال هذه الليلة، ولا يمكن لأحد أن يتنبأ أين ستقف بوابة هذا الشكل المرعب عندما تجري الأحداث فوق منزلق منحدر، وماذا سيخرج من رحم هذا الغمام الكثيف؟.

فجأة عند إشارة معينة، أطلقت رصاصة غدارة، ولا يهم أين أو من أطلقها، فسيل الطلقات انهمر فوق الجمهور، وهو سيل ضخم كالجماهير، إنه الموت المرسل متناثراً، لا يعلم إلى أين وما يفعل؟ إنه يقتل ويمضي.

وفي غمضة عين، كانت هناك مجزرة فوق الميدان تمتد ربع ليج[1] وحطمت إحدى عشرة قطعة مدفعية ورشة «سالاندروز» للسجاد، واخترقت الطلقات ثمانية وعشرين منزلاً تماماً، وأصبحت حمامات «جوڤينس» مثقوبة كالغربال، كما كانت هناك مذبحة في حي «تورتوني». وامتلأت كل باريس بكتلة بشرية هائلة تحاول الهرب في صرخات مفزعة، ولم يكن عيد رأس السنة الجديدة بعيداً، فكانت بعض المحلات تمتلىء بالهدايا للعام الجديد، ففي ممر «دوسومون» هرب طفل في الثالثة عشرة من عمره أمام نيران الجنود واختبأ في أحد هذه المحلات أسفل كومة من اللعب، فأسروه وقتلوه، وكان أولئك الذين قتلوه ضاحكين يوسعون جراحه بسيوفهم. وأخبرتني امرأة أن «صرخات هذا المسكين الصغير كانت تسمع عبر الممر كله»، وقد قُتل أربعة رجال أمام نفس المحل، قال لهم الضابط: «سوف نعلمكم كيف تتسكعون» والخامس واسمه ميريه، تركوه للموت، نُقل في اليوم التالي مصاباً بأحد عشر جرحاً إلى «دار الرعاية» حيث مات هناك.

وأطلقوا النار نحو أقبية النبيذ من خلال فتحات التهوية، ورأى أحد العمال واسمه مولان ـ يعمل دباغاً ـ وكان قد احتمى بواحد من هذه الأقبية التي ملأتها الطلقات بالثقوب ـ رجلاً يمر بالقرب أصيب في فخذه بطلقة وجلس فوق الرصيف وحشرجة الموت تنبعث من زوره، ومال نحو أحد المحلات، فهرع إليه

(1) ثلاثة أميال تقريباً = ليجاً واحداً. «المترجم».

بعض الجنود الذين سمعوا حشرجته وأنهوا حياة الجريح بطعنات السونكي، كما قامت إحدى الفصائل بقتل المارة من «الماديلين» حتى «الأوبرا»، وفصيلة أخرى من «الأوبرا» حتى «الجيمناز»، وثالثة من ميدان «بون نوڤيل» حتى «بورت سان دينيس»، وحين حملت الفرقة الخامسة والسبعون المتاريس لم تعد الأمور قتالاً وإنما مذبحة، وانتشرت المذبحة كالشعاع ـ وهي كلمة جد مفزعة ـ من الميدان حتى جميع الشوارع، كانت كسمكة الشيطان تمد لوامسها حتى منتهاها، طيراناً؟ لماذا؟ إخفاءً لأي غرض؟ الموت يعدو وراءك بأسرع مما تستطيع الهرب منه.

وفي شارع «باجيڤان» قال جندي لأحد المارة: «ماذا تفعل هنا»؟ رد الرجل: «إني عائد لمنزلي» فيقتل الجندي الرجل. وفي شارع «ديه ماريه» يقتلون أربعة رجال في فناء منزلهم، وقد صاح الضابط «إسبيناس» «بعد السونكي عليكم بالمدفع» كما صاح روشفور: «اطعن، اجرح، شرّح». ثم أضاف: «إنه اقتصاد في البارود وفي الضجيج». وأمام مبنى «باربيديين» وقف ضابط يستعرض سلاحه، وهو سلاح دقيق، بإعجاب أمام رفاقه، قائلاً: «بهذا السلاح أستطيع أن أصيب أهدافاً عظيمة بين الأعين»، وبعد أن قال ذلك صوب نحو أحد الأشخاص بلا مبالاة ونجح في إصابته، وكانت المذبحة مجنونة.

وعند ناصية شارع «دي سونتيه» صاح ضابط من خيالة «سباهي» وسيفه مشهر: «ليس هذا هو المطلوب، إنكم لا تفهمون مطلقاً، أطلقوا النيران على النساء»، وكانت امرأة تجري ومعها طفل قد سقطت، فقتلوها بمؤخرات بنادقهم، وامرأة أخرى ـ مشتتة تماماً ـ كانت تدور حول ناصية الطريق وهي تحمل طفلها، فصوب جنديان بندقيتهما نحوها، قال أحدهما: «نحو المرأة» فأسقطها أرضاً وتدحرج الطفل فوق الرصيف، فقال الجندي الآخر: «نحو الطفل» فقتله كذلك. وفي شارع «ماندرا» كان، ـ كما ذكر شاهد عيان ـ أشبه بحديقة زهورها الجنود تمتد حتى شارع «نيف سان أوستاش»، فأمام منزل «أودبير» توجد ست وعشرون مجموعة، وثلاثون أمام فندق «مونتمورنيس»، واثنان وخمسون أمام «ڤاريتي» من الأخيرة توجد إحدى عشرة امرأة، وفي شارع جرانج ـ باتيلير، كانت توجد ثلاث

فرق بلا سلاح، ورقم 19 بضاحية «مونمارتر» كان قد امتلأ بالموتى والجرحى.

وقد جرت امرأة ـ ذاهلة وبلا وعي ـ مهوشة الشعر رافعة ذراعيها لأعلى، عبر شارع «بواسونيير» وهي تصرخ: «إنهم يقتلون إنهم يقتلون»...

كنت متلهفاً لمعرفة ما يجب أن أفعله، فمؤامرة ما كي تثبتها، يحتاج ذلك إلى بحث واستقصاء، فذهبت إلى ميدان المذبحة.

وصلت الميدان، وكان المشهد لا يمكن وصفه، وشاهدت هذه الجريمة المذبحة والمأساة، ورأيت أمطاراً من الموت الأعمى، ورأيت الضحايا المتناثرين يتساقطون حولي جماعات، ولهذا وقعت لنفسي في هذا الكتاب بـ «شاهد عيان».

ڤيكتوريا وألبيرت في شمال سكوتلندا

«11 أكتوبر/التمور 1852 افرنجي»

* الملكة ڤيكتوريا

بعد الغداء، قرر ألبيرت أن يتنزه عبر الغابة للمرة الأخيرة منتهزاً هذه الفرصة وسمح لـ «ڤيكي» ـ الأميرة ـ ولي أن نرافقه، وعند الساعة الثالثة والنصف بدأنا المسير من عند «جرانت» وقطعنا شوطاً من «كاروب» منتوين المضي عبر الممر العلوي، حينئذٍ سمعنا صوت ظبي، فتحولنا جميعاً نحو الغابة وزحفنا للأمام حتى وصلنا للطريق الأوسط، وغادرنا ألبيرت ـ في الحال ـ كي يهبط أكثر فجلسنا بانتظاره، ثم سمعنا ـ فوراً ـ صوت طلقة نارية ثم صمت تام، وبعد فترة صمت أخرى استمرت وقتاً طويلاً، سمعنا صوت ثلاث طلقات أخرى، وتبع ذلك مرة أخرى سكون مطبق، فأرسلنا شخصاً للاستطلاع، عاد بعدها سريعاً ليقول: إن الظبي قد أصيب مرتين وهم يتبعونه، بعد ذلك ذهب ماكدونالد، وخلال خمس دقائق تقريباً سمعنا «سولومون» يصدر صيحة، وعلمنا أنه لحق بالظبي عند الخليج، فأنصتنا هنيهة ثم بدأنا نتحرك إلى أسفل آملين الوصول في الوقت المناسب لكن النباح توقف، وكان ألبيرت قد قتل الظبي تماماً ورقد على الطريق، أبعد قليلاً فيما وراء مدينة «إنڤر جليدر» المنطقة الجميلة التي حازت إعجابنا مساء

أمس، لقد كان حيواناً رائعاً، فجلست وخططت «اسكتشاً بسيطاً له على ورقة مما يحمله ماكدونالد في جيبه، وضعتها على حجر، وفي حين قام ألبيرت وفيكي مع الآخرين ببناء هرم من الأحجار لتمييز المكان».

سمعنا ـ بعد ما أنهيت رسمي ولحقت بنا العربة ـ أن ظبياً آخر قد شوهد بالقرب من الطريق، ولم نكد نمضي مسافة قليلة حتى رأينا واحداً أسفل الطريق شديد الرشاقة، فقفز ألبيرت وأطلق النار، وسقط الحيوان لكنه نهض من جديد وجرى بعضاً من الطريق فتبعه ألبيرت، وبعدها على الفور سمعنا صرخة، وعلى أية حال ـ جرينا لنجد جرانت ودونالد ستيوارت يسحبان ظبياً له رأس جميل، بينما كان ألبيرت قد ذهب، فمضى جرانت خلفه، في حين بقيت أنا وفيكي مع دونالد ستيوارت والظبي وكلاب الصيد، وجلست لأرسم «اسكتشاً» أما فيكي المسكينة فقد جلست فوق عش للزنابير فلدغتها، وسارع دونالد لإنقاذها لأنني لم أستطع ذلك إذ كنت شديدة الانزعاج، ولحق بنا ألبيرت خلال عشرين دقيقة غير مدرك أنه قتل الظبي، ويا له من يوم ممتع!.

اليابانيون يتعرفون على تكنولوجيا الغرب

«مارس/ الربيع 1854 افرنجي»

*** قائد بحري: ماثيو. س. بيري**

«الكاتب هو القائد البحري «بيري» قاد القوة البحرية الأمريكية التي فتحت أبواب اليابان للتأثير الغربي».

خلال إقامتنا في خليج «أيدو» كان أمام كل الضباط وأعضاء الطاقم فرصاً متعددة للاختلاط بالناس سواء على الشاطىء أو فوق ظهر السفينة، إذ زار الكثير من الوطنيين سفننا في أعمال التموين وجلب المياه وفي أمور رسمية أخرى.

وللأيام القليلة الأولى منذ وصولنا إلى يوكوهاما، كان السيد «جاي» كبير المهندسين في السفينة «مسيسبي» يساعده المهندس الأول «دانبي» مع العدد المناسب من الميكانيكيين يعملون في فك وتجهيز ماكينات الجر للعمل. بينما

السيدان درابر وويليامز مشغولان بالمثل في إعداد ونصب أعمدة الإرسال البرقي من أجل مد الخطوط المغناطيسية، وكان الدكتور «مورو» - أيضاً - مرتبطاً بفك وترتيب المعدات الزراعية التي نعتزم تقديمها كلها للإمبراطور، بعد أن تُعرض - أولاً - ويتم شرح خصائصها.

وقد قدمت السلطات اليابانية كافة التسهيلات، فأقيمت المظلات لحماية المعروضات المختلفة من عوامل الطقس، وتم تحديد قطعة أرض مسطحة لمد خط السكة الحديدية للقاطرة، وأحضرت الأعمدة ونصبت كما أشار السيدان «درابر» و«ويليامز» وتم مد أسلاك الاتصال البرقي لمسافة ميل تقريباً في خط مباشر في الحال وبصورة كاملة كما لو كان ذلك يتم في الولايات المتحدة، وكان أحد طرفي الخط في «قصر الاتفاقية» والطرف الآخر في بناء خُصص لهذا الغرض، وعلى الفور بدأت الاتصالات بين عاملي الاتصال باللغة الإنجليزية والألمانية واليابانية مثيرة للدهشة الشديدة لدى المشاهدين.

في ذات الوقت وضعت الآلات الزراعية للعرض، وتم مد خط السكة الحديدية، وبدأت الآلة الصغيرة الجميلة بعربتها الرقيقة في العمل، وكان من الممكن رؤيتها من السفينة تطير حول خطها الحديدي الدائري مبرزة أقصى درجات التعجب في عقول اليابانيين، ومع أن هذه الآلة المتكاملة كانت - والعربة الملحقة بها - مصنعة بصورة مبهرة، إلا أنها كانت صغيرة الحجم أكثر مما توقعت أن تكون، فالعربة - وبسبب كونها لا تسمح بدخول حتى طفل في السادسة من عمره بيسر - جلس اليابانيون الذين ركبوها فوق سطحها، في حين جلس المهندس «السائق» فوق صهريج الوقود...

معركة بالاكلافا، وقتال الفصلية الخفيفة

«25 أكتوبر/التمور 1854 افرنجي»

*** ويليام هوارد روسل**

لو استعرضنا أروع مظاهر القوة وأقصى صور الشجاعة والجرأة، التي يمكن

لها أن تعكس المجد في أروع أيام الفرسان ويمكن أن تمنح عزاءً كاملاً لكارثة اليوم، فليس لدينا سبب للندم على خسارتنا الكبيرة التي تجشمناها في صراعنا مع عدو بربري متوحش.

ولسوف أستمر في وصف ـ بأفضل ما يمكنني ـ ما حدث أمام ناظري، وسرد الحقائق التي سمعتها من رجال لا يرقى الشك لصدقهم، محتفظاً لنفسي بممارسة حق الحكم الشخصي بجعلها علانية، ونشر تفاصيلها حول ما حدث في ذلك اليوم الذي لا ينسى.

فلسوف يُذكر أنه في خطاب أُرسل بواسطة آخر بريد من ذلك اليوم حُدد فيه أن إحدى عشرة فرقة من المشاة الروس قد عبرت «تشيرنيا» وأنها تهدد مؤخرة مواقعنا واتصالاتنا مع «بالاكلافا»، ويمكن لمن يرحل على طولي طريق بالاكلافا أن يسمع صوت موسيقى فرقهم ليلاً لكنهم لا يظهرون إلا قليلاً أثناء النهار، ويقبعون بين الممرات وأودية الجبال التي تدور لداخلها طرق «انكرمان» و«سيمفربول» وجنوب شرق «كريميا»، وسيذكر أيضاً أن الموقع الذي قمنا باحتلاله بالنسبة «لبالاكلافا» يعد في رأي الكثيرين حصناً منيعاً، فخطوطنا شكلتها منحدرات جبلية طبيعية في المؤخرة أقام الفرنسيون على طولها تحصينات محكمة، وأسفل هذه التحصينات وقريباً جداً من الخط الأيمن عبر الوادي أسفلنا تجد أربع تلال مخروطية، يعلو الواحد منها الآخر، كما لو كانت منحدرة من خطوطنا، وعلى قمة كل واحد من هذه التلال، نشر الأتراك خنادق أرضية يحميها 250 مقاتلاً لكل منها، مسلحين بمدفعين أو ثلاثة، بعضها مدافع بحرية ثقيلة ـ كنا أعرناها لهم ـ مع رجل مدفعية واحد لكل خندق لصيانتها.

وتعبر هذه التلال وادي بالاكلافا عند مسافة ميلين ونصف تقريباً من المدينة، ولنفرض أن المشاهد سيتخذ موقعه على واحد من المرتفعات التي تتكون منها مؤخرة معسكرنا أمام «سيباستوبول»، عندئذٍ سيشاهد مدينة بالاكلافا بحركة سفنها النادرة، ومجرى مائها الضيق، وحصونها القديمة على اليد اليمنى، ومن ثم سيرى أدناه، الوادي وسهلاً من المراعي المهملة تشغلها خيام فرساننا وتمتد من

مركز الحافة التي يقف فوقها حتى أقدام المرتفعات الشامخة على الجانب الآخر، ولسوف يرى التحصينات الفرنسية وقد شغلها جنود «الزواف»[1] تحتها بأقدام قليلة، وعلى مسافة منه فوق منحدر التل معسكر تركي إلى أسفل، ثم واحد آخر في الوادي، وبعدها في خط يحوي منشآت عسكرية ذات زوايا، ثم يتلوها المخيمان التاليان فوق تل «كانروبرت».

وعلى مسافة ميلين أو ميلين ونصف عبر الوادي، يوجد جبل صخري منحدر، يمتد في تشكيل غير منتظم ومميز لأقصى حد، مغطى بشجيرات قليلة متناثرة هنا وهناك، أو يرتفع إلى قمم جرداء وهضاب صخرية، في شكله العام، يشبه هذا الموقع من الأرض منطقة «تروساش» تماماً. ويُلاحظ جزء من البحر الأزرق فيما بين الصخور المعلقة لمدينة «بالاكلافا» لأنها قريبة من مدخل الميناء على اليمين، وقد تمركز معسكر القوات البحرية على جانب التل بارتفاع أكثر من ألف قدم فوق سطح البحر، وهو في المقابل لك حين تدير ظهرك لـ «سيباستوبول» ويمينك لـ «بلاكلافا»، في حين يوجد مخيم الفرقة الـ 93 للهايلاندرز[2] على الطريق المؤدي إلى الوادي بالقرب من مدخل المدينة وتحت هذه التلال.

وتوجد خطوط الفرسان بالقرب منك متقدمين قليلاً عن الهايلاندرز، وأقرب للمدينة من الأتراك، وتشق الوادي هنا وهناك أمواج صغيرة من الرمال، وعلى يسارك تمتد التلال والجبال الصخرية بالتدريج مقتربة من طريق «تشيرنايا» حتى يختفي الوادي عند ثلاثة أو أربعة أميال أبعد من «بالاكلافا» لدى سفح الجبل والسهول الواطئة، تبرز منه صفوف متتالية من الصخر القاحل الأبيض، تبرز فيه هنا وهناك كميات قليلة من العشب، ثم تنتشر بعيداً نحو الشرق والجنوب حيث تصل لأطراف جبال الألب عند «تشايترداج»، ويسهل لأي عدو في «بيلبك» أو مسيطر على طريق مزرعة «ماكينزي» و«انكرمان»، و«سيباستوبول» أو

(1) الزواف: جنود من المشاة الخفيفة شكلتها فرنسا من المواطنين الجزائرين لذا كانوا يرتدون الزي الشرقي ويعود ذلك الاسم إلى قبيلة جزائرية أصلاً. «المترجم».
(2) الهايلاندرز سكان اسكوتلندا.

«باخشيسارية» أن ينطلق عبر هذه الممرات في أي وقت نحو هذا السهل من مدخل الوادي، أو أن يسير من سيباستوبول عن طريق «تشيرنايا» ويتقدم خلاله نحو بالاكلافا حتى يتم رصده بواسطة المواقع التركية على الجانب الجنوبي أو بواسطة النيران الصادرة عن الفرنسيين من الجانب الشمالي، أي الجانب الذي يشكل بالنسبة لوادي بالاكلافا مؤخرة مواقعنا.

عند الساعة السابعة والنصف من صباح هذا اليوم، حضر جندي مراسلة راكضاً إلى مركز القيادة من بالاكلافا، حاملاً أنباء بأنه عند الفجر قامت قوة من الخيّالة الروسية مدعمة بالمدافع وسرايا المشاة بالتقدم داخل الوادي، وأخلت القوات التركية تقريباً من الموقع رقم 1 ـ الموجود فوق تل «كانروبيرت» وهو الأبعد من مواقعنا ـ وأنهم يفتحون نيرانهم على المواقع 2، 3، 4 التي قد تقع بسرعة بين أيديهم ما لم يبد الأتراك مقاومة أشد مما أبدوه قبلاً.

صدرت الأوامر للسير جورج كاثكارت وللدوق هـ. ر. هـ. دوق كامبردج بوضع فرقتيهما الرابعة والأولى، على أهبة الاستعداد للاشتباك، كما تم إمداد الجنرال كانروبيرت بالمعلومات الاستخبارية حول تقدم القوات الروسية.

وفور استلام الأنباء أمر الجنرال كانروبيرت، الجنرال بوسكيه، باستعداد الفرقة الثالثة التي يقودها، وليرسل قوة شديدة من المدفعية وحوالى 200 قناص إفريقي لمساعدتنا في الاحتفاظ بالوادي، وقام السير كولين كامبل، المسؤول عن «بالاكلافا» بسحب الفرقة 93 هايلاندرز قليلاً نحو مقدمة الطريق إلى المدينة مع أول أنباء عن تقدم العدو، وأعدت القوات البحرية فوق المرتفعات أسلحتها، وتهيأت بطاريات البحرية المدفعية هناك القريبة من المدينة، واستعد رجال المدفعية الفرنسية وفرقة الزواف للاشتباك عبر خطوطهم. كان منظر معسكر اللورد «لوكان» الصغير مشهداً مثيراً، فلم يكن لدى الرجال وقت لسقاية جيادهم، ولم يكونوا قد خالفوا صيامهم منذ مساء اليوم السابق، وأسرجوا خيولهم بصعوبة عند أول دق لطبول المعركة، حيث اقتيدوا فوق المنحدر خلف المواقع وأمام المعسكر للتعامل مع فصائل العدو.

ووضح بسرعة أنه لا يمكن الاعتماد على المشاة الأتراك ولا على مدفعيتهم، فكل القصص التي سمعناها عن شجاعتهم خلف الأسوار والخنادق ثبت اختلافها أو تشابهها مع أناس يقاتلون في ظروف مختلفة، وعندما تقدم الروس أطلق الأتراك عدة دفعات قليلة من النيران عليهم، ثم أصابهم الذعر لبعد مسافة إمداداتهم في المؤخرة، فاستطلعوا الموقف، وعندما تلقوا طلقات وقنابل قليلة أسقط في أيديهم ولاذوا بالفرار بحمية تختلف تماماً عن المبادىء الشائعة حول السلوك الشرقي في ميدان المعركة، ولكن الأتراك على ضفة «الدانوب» كائنات مختلفة عن الأتراك في الـ «كريميا» كما أن الروس في سيباستوبول ليسوا جميعهم مثل الروس في «سيلستريا». . .

وعقب الساعة الثامنة فوراً، التف اللورد «راجلان» وهيئة أركانه وعجلوا نحو مؤخرة مواقعنا.

كانت أصوات طلقات المدفعية ودفعات رصاص الغدارات المتناثرة، تسمع متصاعدة من الوادي، مغرقة زئير مدافع الأسوار أمام مقدمة «سيباستوبول» وبينما كنت أقود حصاني ـ باتجاه إطلاق النيران ـ فوق النباتات والصخور الكبيرة التي تغطي السهل الفسيح الممتد بعيداً حتى بالاكلافا، على مستوى تعلوه قمم المرتفعات لاحظت فرقة مشاة فرنسية ـ وهي الفرقة السابعة والعشرون على ما أظن ـ تتقدم بعناية مذهلة وسرعة من ناحية يميننا نحو التل القريب من مبنى البرقيات، الذي اصطفت فيه بالفعل مجموعات من الفرق الفرنسية في حين كان ضباطهم الفرسان يركضون على طول الخط المقطوع في كل اتجاه.

أما الجنرال «بوسكيه» وهو رجل سمين له مظهر عسكري، يُذكر المرء بالأصل القديم للجنرالات الفرنسيين كما يبدون في ڤرساي، فكان متبوعاً بهيئة أركانه وحراسة قليلة من فرسان الهوسار وهم يخبون بخيولهم، وتصاعدت سُحُب بيضاء خافتة تتناثر فوق التل بسبب الضرب المدفعي أسفله، ولم تر عين فنان مشهداً رائعاً أبدع مما رأيت من مكاني فوق الحافة، وظلت الأبخرة الندفية عالقة حول قمم الجبل وقد اختلطت بها حلقات الدخان المتصاعدة، وتلألأت بقعة

البحر بحيوية وسط أشعة شمس الصباح، لكن ضوءها خبا ببروق كانت تسطع من كتل الجنود المسلحين تحت الجبل.

وعندما نظرنا إلى اليسار، نحو المنخفض، لمحنا ست مجموعات كثيفة من الجنود الروس قد عبرت في تلك اللحظة ممرات الجبل بالقرب من تشيرنايا ويتقدمون ببطء في ضخامة مهيبة، نحو الوادي، وعند مقدمتهم طابور منتظم من المدفعية مكون من 20 قطعة ثقيلة على الأقل، تتقدمهم بطاريتان من المدافع الخفيفة على بعد ميل واحد تماماً منهم، وكانوا يتلاعبون بقوة بالمواقع التي كانت تصدر منها نفثات قليلة من الدخان على فترات متباعدة.

وخلف المدافع وأمام المشاة، استقرت قوات هائلة من الفرسان، وتشكلوا في ست مجموعات مستطيلة، ثلاث على كل جناح، يتحركون نحونا في تشكيل السلَّم[1] وقد توهج الوادي ببريق سيوفهم وأطراف حرابهم وعتادهم الحربي، وكان يوجد، فيما بين كل بطارية مدفعية وعلى طول فراغات التشكيل في المقدمة، أعداد كبيرة من المناوشين، يدورون ويلفون، في مقدمة المسيرة مثل أوراق الخريف التي نفختها الرياح، وكانت فرقة الزواف بالقرب منا راقدة كالنمور لحظة التحفز، وبنادقهم مشرعة في أيديهم، وذقونهم مختفية في العمق بالخنادق التي تمر بطول هذه المرتفعات على مؤخرة قواتنا.

لكن الروسيين ذوي الأبصار الحادة كانوا يقومون بالمناورة على الجانب الآخر للوادي ولم يعرضوا طوابيرهم للهجوم، وأسفل مواقع الزواف تمكن رؤية «المدفعيين» الأتراك في المواقع، في حالة فوضى والقنابل تنهال عليهم، وكان الروس قد استولوا على الموقع رقم 1 لحظة وصولي، وهو أبعد وأعلى هذه المواقع، وكان فرسانهم يطاردون الأتراك خلال الثغرة فيما بين هذا الموقع والموقع رقم 2.

---

(1) تشكيل حربي تسير فيه القوات في طوابير متوازية تخلو مقدمتها من ذلك التوازي عند التقدم. «المترجم»

في هذه اللحظة، كانت الخيّالة بقيادة اللورد «لوكان» - مشكلة في مجموعات رائعة - والكتيبة الخفيفة بقيادة اللورد كارديجان في مقدمة الكتيبة ثقيلة التسليح التي كان يقودها البريجادير جنرال سكارليت في الاحتياط، وقد اصطفوا تماماً أمام مراكزهم، واختفوا من أمام أنظار العدو بواسطة ثنيّة بسيطة وسط السهل، مأخوذ في الاعتبار مقابل مؤخرة جناحهم الأيمن اصطفاف الفرقة 93 هايلاندرز في طابور أمام طريق بالاكلافا وفوقهم وخلفهم المرتفعات، يمكن رؤية القوات البحرية بالنظارات المكبرة وقد اصطفوا تحت السلاح، والمدفعيين في حالة استعداد في «دشمهم» التي أقاموا فيها المدافع البحرية الثقيلة.

وقد تقدمت الفرقة 93 قليلاً نحو السهل. لكنهم في اللحظة التي وضع الروس فيها أيديهم على الموقع الأول، أطلق رجال الفرقة النيران عليهم من مدافعنا، فتسببت في بعض الإصابات، وانتحى السير كولين كامبل برجاله لموضع أفضل، في الوقت الذي تقدم فيه فرسان العدو بسرعة، ورأينا - باستياء لا يمكن وصفه - الأتراك في الموقع رقم 2 يهربون حال اقترابهم، وقد ركضوا في مجموعات متناثرة نحو الموقع رقم 3 ونحو بالاكلافا، لكن حوافر الخيل القوقازية[1] كانت أسرع منهم، ولعبت الرماح والسيوف بين الجماعات المنسحبة، وتعالت صيحات التابعين والمتبوعين، حتى سمعت بوضوح.

وبينما تقدم الرماة والخيّالة الخفيفة الروسية، قاموا بتجميع طلائعهم بسرعة كبيرة ونظام رائع، وقامت خطوط الرجال المتلاحقة التي تتماوج فوق أرض الوادي مثل أضواء القمر فوق صفحة الماء، وتشابكت وتجمعت الكرات الصغيرة وأضحت في لحظات طابوراً منيعاً، ثم تلاهم مجيء مدافعهم، واندفع المدفعيون نحو الموقع المهجور، وفي الحال لعبت مدافع الموقع رقم 2 دوراً مؤثراً ومميتاً في نفوس المدافعين المتخاذلين بالموقع 3، بعدها صدرت طلقتان أو ثلاث على سبيل الرد من الموقع ثم ساد السكون، فتسلق الأتراك الخنادق واندفعوا في

(1) يقصد خيل الروس. «المترجم».

فوضى نحو المدينة، وهم يطلقون النار من غداراتهم ـ أثناء الهرب ـ نحو العدو.

ومرة أخرى انفتح الطابور المنيع من الفرسان مثل المروحة وتحول إلى خطوط طويلة من المقاتلين، وأحاطوا بالأتراك الهاربين، والتمعت الأسلحة في الهواء وسقط الأتراك المساكين يرتعشون فوق السهول، وقد انشطر الواحد منهم من غطاء رأسه ومن حمالة البندقية حتى ذقنه وحزام الصدر، دون أي تعضيدات لهم، وقد وضح أن الروس كانوا شديدي السرعة أمامنا، وكان الأتراك شديدي السرعة كذلك إذ لم يتمسكوا بمواقعهم لفترة أطول تكفي لجعلنا قادرين على تقديم المساعدة لهم.

وكان إطلاق المدفعية البحرية من المرتفعات فوق الروس بلا جدوى إذ كانت المسافة بعيدة جداً بالنسبة لطلقة أو قذيفة كي تصل هناك، كما ذهبت بلا طائل جهود المدفعيين الأتراك في البطاريات الأرضية التي وضعت بطول خنادق الفرنسيين التي بذلوها لحماية مواطنيهم الفارين، إذ تطايرت قذائفهم إما أبعد أو أدنى من جحافل الجنود، واتخذ الأتراك وجهتهم نحو فرقة الهايلاندرز، حيث راجعوا نتائج انسحابهم ثم تشكلوا في جماعات على جناحي فرقة الهايلاندرز.

وبينما يتوج فرسان القوات الروسية قمة التل على يسار خطوطهم، وعبر الوادي، رأوا الهايلاندرز مصطفين على مسافة حوالى نصف الميل، ينتظرون اقترابهم في هدوء، فتوقفوا، وانسلت فصيلة وراء الأخرى من المؤخرة حتى وصلت قوتهم لما مجموعه 1500 جندي بطول الحافة، من رماة، وخيَّالة ضاربة وخيَّالة خفيفة، ثم تحركوا في تشكيل السُلَّم على مجموعتين وأخرى احتياطية، وكان الفرسان ـ الذين يطاردون الأتراك ـ يصعدون الحافة تحتنا ـ وهي التي كانت تخفي خيَّالتنا عن الرؤية ـ فاصطفت السرية ثقيلة التسليح في طابورين، الأول يتكون من جماعة «الإسكوتس جريز» ورفاقهم في المجد جماعة «الإنيسكيلنز» والثاني من الفرقة الإيرلندية الملكية الرابعة، ومن فرقة «الدراجونز جاردز» الخامسة ومن الفرقة الملكية الأولى، وكانت سرية الخيَّالة الخفيفة على يسارهم في صفين كذلك، وكان السكون مطبقاً.

وفيما بين انفجارات المدافع، يمكن للمرء سماع قرقعة السلاح وصليل السيوف في الوادي، والتقط الروس أنفاسهم للحظة ثم في خط واحد هائل اندفعوا نحو «الهايلاندرز»، وكانت الأرض تطير تحت أقدام خيولهم، وتزداد سرعتهم مع كل خطوة، اندفعوا نحو ذلك الخط الرقيق الأحمر الذي تعلوه أسنة السلاح، فأطلق الأتراك قذائفهم عند 800 ياردة ثم هربوا، في حين كان الروس يتقدمون على بعد 600 ياردة واستمر ذلك الخط الحربي متقدماً في الأمام.

وفي الخارج كانت تدوي القذائف المنهالة من البنادق الفرنسية، إلا أن المسافة ما زالت بعيدة جداً، ولم يتوقف الروس إذ ظلوا يزحفون للأمام بكل قواتهم رجالاً وخيولاً، عبر الدخان، وقد سقط بعضهم هنا وهناك بفعل نيران بطارياتنا أعلى الوادي، وسكنت الأنفاس المستثارة، وانتظر كل فرد موجة الهجوم على خطوط الصخرة الغيلية[1] ولكن قبل وصولهم لمدى 150 ياردة، لمعت دفعة قذائف مميتة من البنادق المصوبة، حاملة الموت والرعب بين الروسيين، فداروا حول أنفسهم، فاتحين أجنحتهم يميناً ويساراً، ثم هربوا بأسرع مما جاؤوا.

فصاح المشاهدون: «رائع أيها الهايلاندرز، إنجاز طيب»، لكن الأحداث تسارعت، وفوراً تم نسيان الهايلاندرز ومواجهتهم الرائعة، فلم يعد أمام الجنود لحظة للتفكير في ذلك لدرجة أن الفرقة 93 لم تغير تشكيلها لمواجهة هذا المد من الفرسان، إذ قال السير كولين كامبل: «لا. . . إنني لا أعتقد أن الأمر يستحق لحظة لتشكيلهم حتى أربعة تشكيلات في العمق».

كان الخط البريطاني العادي ـ اثنان منه في العمق ـ كاف تماماً لصد هجوم أولئك الفرسان الموسكوويين[2] واتجهت عيوننا ـ على أية حال ـ نحو فرساننا في الحال، فرأينا البريجادير ـ جنرال «سكارليت» يقود حصانه أمام فصائله المتعددة.

أما الروس فكانوا ـ من الواضح أنهم القوة المنتقاة ببزاتهم الخفيفة الزرقة

(1) Gaelic: الإيرلنديون والاسكوتلانديون.. إلخ من أصل التشكيلات الإنجليزية الموجودة «المترجم».

(2) نسبة إلى «موسكو».

والموشاة بشرائط فضية ـ يتقدمون بركض بسيط إلى اليسار، نحو حافة التل، تبرق خلفهم غابة من الرماح، وفصائل الأسلحة النارية القصيرة المغطاة بطبقة رمادية تحركت بسرعة لتدعيمهم حال وصولهم للقمة، وفور وصولهم لمدى الرؤية دقت طبول فرساننا محذرة تخبرنا أنه في لحظة تالية قد نشاهد فورة القتال تحت أبصارنا. وكان اللورد «راجلان» وهيئة أركانه وحرسه ومجموعة من الضباط لفرقة الزواف، وقادة وضباط القوات الفرنسية، وفرق من المشاة الفرنسيين فوق المرتفعات، جميعهم شهوداً للمنظر كما لو كانوا ينظرون لخشبة المسرح من مقصورات دار العرض المسرحي.

وقد هبط كل واحد من فوق حصانه ـ تقريباً ـ وجلس أرضاً، ودون أن ينبس ببنت شفة.

تقدم الروس هابطين التل في ركض متئد، حولوه إلى خبب بسيط إلى أن توقفوا تقريباً، وكان الصف الأول ضعف طول صفنا على الأقل، وبعمق يشكل ثلاثة أضعاف عمقنا، وخلفهم خط آخر مشابه ومساو للسابق قوة وكثافة، ومن الواضح أنهم استهزأوا بمظهر عدوهم غير المتميز، لكن وقتهم كان قد حان.

وترددت أصداء الطبول عبر الوادي، ومضى «الجريز» و«الإنيسكيلنز» رأساً نحو منتصف فرسان القوات الروسية، وكانت المسافة فيما بينهم لا تعدو مئات قليلة من الياردات، وكان من الصعب أن تجد ما يكفي لسير الجياد في طريق جماعي، ولا للجنود ما يكفي لإعمال سيوفهم، وقام طابور الروس بتقديم جناحيه أثناء تقدم فرساننا، وهدد ذلك بتحطيم قوتنا أثناء عبورهم، فاندفع الجريز ـ ملتفين قليلاً نحو اليسار ـ كي يواجهوا يمين الروس، بصيحة تخترق كل القلوب، وارتفعت الصرخة الوحشية «للإنيسكيلنز» في الهواء في نفس الوقت، ومثل وميض البرق عبر السحاب اخترق «الجريز» والإنيسكيلنز» الكتلة الروسية الكثيفة، ولبثت الصدمة برهة، ثم قرقع السلاح ولعب ضوء نصال السيوف في الهواء وبعدها اختفى «الجريز» وأصحاب الأردية الحمراء وسط الطوابير المتصادمة المرتعشة، وفي لحظة أخرى شاهدناهم يبرزون ثم يهجمون بأعداد متضائلة، وفي

نظام مُختَرَق، ضد الخط الثاني الذي يتقدم نحوهم لاستعادة موازين القتال لصالحهم.

لقد كانت لحظة مخيفة، وكانت صيحات كل واحد من الرجال: «فليعاونهم الله إنهم يضيعون». وكان ذلك تفكير الكثيرين، وبنيران متأججة اندفعت القلوب النبيلة نحو عدوها لقد كان قتال أبطال، وكان الخط الأول من الروس ـ الذي تحطم تماماً باشتباكنا معه، قد انحسر في جناح واحد ونحو منتصفه ـ في طريقه لابتلاع قوة رجالنا، وراح «الإسكوتس جريز» والإنيسكيلنز» بالسلاح الأبيض فقط وبشجاعتهم المجردة يشقون طريقهم مباشرة خلال فصائل العدو، وظهرت خيول «الجريز» وذوي «الأردية الحمراء» بالفعل عند مؤخرة الخط الثاني، عندما اندفعت مثل رمية واحدة من قوس، الفرقة الملكية الأولى، وحراس «الدراجون» الرابعة، والخامسة، نحو بقايا خط العدو الأول ـ بقوة لا تقهر ـ واخترقوه كما لو كان مصنوعاً من عجين الورق، ثم هاجموا الخط الثاني للروس، أثناء الفوضى التي عمتهم بالهجوم المرعب الذي شنه «الجريز» وصحبهم، ملقينهم في اضطراب تام، وفي أقل من خمس دقائق كان ذلك الجواد الروسي بعدما واجه فرساننا قد هرب بكل سرعته أمام قوة لا تصل لنصف قوته.

تعالت الهتافات من كل فم، وخلع الضباط والجنود وسط موجة الحماس قبعاتهم وصرخوا من الفرحة، وهكذا محتفظين بخصائص موقعهم كمسرح للأحداث، صفقوا بأيديهم مرات ومرات... إلى أن وقعت الكارثة الجنونية التي ملأت نفوسنا بالألم، إذ كان قائد المعسكر الجنرال بريجادير «إيري» يعتقد أن الخيَّالة الخفيفة لم تتقدم بما فيه الكفاية للأمام حينما هرب العدو، فأصدر أمراً مكتوباً للكابتن نولان ـ في الفرقة 15 هوسار ـ ليحمله لـ «لوكان» مشيراً لفخامة اللورد كي يتقدم بفرسانه أكثر اقتراباً من العدو، ولم يكن الجيش يملك من هو أشجع من الكابتن نولان، وكان معروفاً لكل رفاق خدمته بإخلاصه المطلق لمهمته.

ولا بد أن اسمه كان مشهوراً لدى الجميع من الذين يهتمون بفرساننا لعمله

الممتاز الذي نُشر منذ عام مضى حول خططنا ونظمنا لسلاح الفرسان، وكان لي شرف التعرف إليه، وأعلم أنه أثار أكثر الآراء ترفعاً بالنظر لقدرات الفارس الإنجليزي، ففي رأيه أن فرسان «الدراجونز والهوسار» البريطانيين - إذا ما اقتيدوا جيداً - يستطيعون الاستيلاء على بطاريات المدافع، ويكتسحون طوابير المشاة، ويخترقون أي مجموعة فرسان في العالم، كما لو كانت من القش، ويعتقد أنهم لم ينالوا فرصة لإبراز كل ما في قوتهم. وأنهم أخطأوا حتى مثل تلك الفرص التي أُتيحت لهم، بسبب أنهم - حقيقة - كانوا في معايير غير مقبولة. كما كان نولان خيّالاً لا يبارى ورجل حرب لا يجارى، يساق في مسألة تافهة - حتى ولو كانت حمل «الصندوق والذخيرة» وهذا ما أخشاه وقد مضى ومعه الأوامر لتوصيلها للورد «لوكان» لكنه مات الآن ولم يعد. وينهاني الله عن أن ألقي ظلالاً قاتمة على بريق شرفه، لكنني ارتبطت بذكر ما أخبروني به وما حدث حينما وصل لفخامة اللورد، ويجب أن أمهد لذلك بأن الفرسان الروس قد انتحوا جانباً، وارتدت المشاة نحو رأس الوادي، تاركين بعض الجنود في ثلاثة مواقع - سيطروا عليها - وهجروا الموقع الرابع، ونصبوا بعض المدافع فوق المرتفعات التي تعلو مواقعهم كذلك، على يسار الممر، وانضمت الفرسان لقواتهم الاحتياطية، واصطفوا في ست فرق متماسكة وفي خط مائل وعبر المدخل باتجاه الممر، وتمركزت خلفهم ست فصائل من المشاة، واصطفت بطول الخط ثلاثون قطعة مدفع تقريباً، في حين تجمعت كتل من المشاة - كذلك - على التلال خلف المواقع التي على يميننا، وتحركت فرساننا نحو الحافة وعبر الوادي على يسارنا، إذ إن الأرض كانت غير سليمة أمامنا وقد وقفوا بالنظام الذي ذكرته آنفاً.

وعندما تسلم اللورد «لوكان» الأمر من الكابتن نولان وقرأه، سأله - كما أخبرونا فيما بعد - إلى أين سنتقدم؟ ثم قال: «هناك العدو، وهناك المدافع - سيدي - أمامهم، وهو واجبك أن تستولي عليهم أو بكلام من هذا القبيل - وفقاً للشهادات التي جمعت منذ وفاته - وأعطى اللورد «لوكان» - بتردد - ذلك الأمر للورد «كارديجان» كي يتقدم نحو المدافع، مدركاً أن التعليمات أجبرته على ذلك،

وقام الإيرل النبيل، رغم أنه لم يرتعد ورغم أنه رأى الغرائب المخيفة أمامه، ولميوله «الدون كيشوتية» ضد كل مراوح الهواء غير القريبة، اندفع بلا حساب مثل رفاقه العظام الذين أعدهم دونما تفكير في أنهم يندفعون لموت مؤكد.

إن أقصى المبادىء العسكرية أهمية هو أن لا تشتبك الخيّالة دون دعم، وأن يكون المشاة قريبين جداً عندما تلتحم الخيّالة بالمدافع إذ إن تأثير هجومهم مسألة لحظية «فقط» وإنه من الغرور، وجود بعض طوابير الفصائل الأخرى على جناح الفرسان، فالهجوم على الجناح شديد الخطورة، والدعم الوحيد الذي كان لفرساننا كان احتياطي الفرسان من الفرقة المسلحة وهي على مسافة بعيدة خلفهم والمشاة والمدافع بعيدة كذلك عند المؤخرة، ولم تكن هناك فصائل في طابور على الإطلاق، كما كان هناك سهل يتم الاشتباك فيه قبل الوصول لمدافع العدو مسافته حوالى ميل ونصف.

وعند الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق اندفعت فصيلة الخيّالة الخفيفة نحو المقدمة وكان تعدادها كما يلي ـ بقدر ما يمكنني من تأكيد ـ

ـ جماعة الدرجوانز الخفيفة الرابعة:	118 مقاتلاً
ـ جماعة الهوسار الإيرلندية الثامنة:	104 مقاتلين
ـ جماعة الأمير ألبيرت «هوسار» الحادية عشرة:	110 مقاتلين
ـ جماعة الدراجونز الخفيفة الثالثة عشرة:	130 مقاتلاً
ـ الفرقة السابعة عشرة رماة:	145 مقاتلاً
ـ المجموع	607 مقاتلين

وتكاد تصل القوة كلها إلى مستوى تشكيل فرقة مؤثرة بصعوبة، طبقاً لعدد الأسلحة المختلفة، ورغم ذلك فهي أكثر ما كنا نستطيع توفيره، وبينما هم يتقدمون نحو المقدمة أطلق الروس عليهم نيران المدافع الموجودة في المواقع اليمنى مع سيل من طلقات البنادق والغدارات فزحفوا للأمام بشهامة، يتلألأون تحت أشعة شمس الصباح بكل حماسة وعظمة الحرب، وما كنا لنصدق دليل

أحاسيسنا. . . ! أهذه الحفنة من الرجال ذاهبة - حقاً - لقتال جيش في مواقعه؟ ويا لشدة الأسف فهي ليست إلا حقيقة مؤكدة - فشجاعتهم اللامبالية لم تعرف حدوداً - وقد فاقت بالفعل ما يمكن تسميته - في جانبه الأفضل - قدراتهم.

تقدموا في طابورين، مسرعين خطوهم كلما اقتربوا من العدو، ولم يشهد أحد منظراً شديد الرعب أبداً مثل ما شاهده أولئك الذين - بلا حول ولا قوة - يرون أبناء وطنهم العظام يندفعون نحو فكي الموت، وعلى بعد 1200 ياردة أطلق خط العدو بعنف فيضاناً من الدخان واللهب من فوهات ثلاثين مدفعاً، عبرت خلاله الطلقات المميتة وهي تفح، وترك طيرانها علامات بارزة على شكل ثغرات فورية وسط رجالنا، برجال وجياد موتى، وجياد جريحة هاربة أو بلا فرسانها تعبر السهل، وتحطم الخط الأول، فانضم إليه الثاني ولم يتوقفوا أبداً أو يراجعوا سرعة تقدمهم للخطة.

وبصفوف تتقلص وتقل بفعل هذه المدافع الثلاثين، التي وضعها الروس بدقة قاتلة، وهالة من الصلب البارق فوق رؤوسهم، وبصيحات كانت أغلبها صيحات موت رفاقنا النبلاء، طاروا نحو دخان المدافع، لكن قبل أن يختفوا عن البصر، امتلأ السهل بجثثهم، وأجسام الخيل المميتة، إذ تعرضوا لنيران كثيفة من بطاريات المدفعية فوق التلال على كلا الجانبين بالإضافة للنيران المباشرة التي أطلقت من الغدارات.

ومن خلال سحب الدخان تمكنا من رؤية سيوفهم تلمع أثناء تقدمهم نحو المدافع ثم يتحطمون بينها، ويمزقون «المدفعيين» حال وقوفهم، وكان بريق سيوفهم - كما أخبرني ضابط وقف بجانبي - يشبه التفاف سرب من أسماك الماكريل، ورأيناهم يقودون خيولهم عبر المدافع - كما سبق وقلت - ولفرحتنا رأيناهم يعودون بعدما اقتحموا طابوراً من المشاة الروس وينثرونهم كالهباء، عندما جرفتهم نيران جناح المدفعية على التل وقد تطايروا وتحطموا، وأسرع إلينا الجرحى والمتساقطون يخبروننا بالرواية المحزنة.

إن أنصاف الآلهة لا يستطيعون إنجاز ما فشلوا هم في إتمامه وفي نفس

اللحظة التي كانوا فيها على وشك الانسحاب، هجمت كتلة ضخمة من الرماة على جناحهم، ورأى الكولونيل «شيويل» من المجوعة «8 هوسار» الخطر القادم، فقاد رجاله القلائل مباشرة نحوهم، وقد شق طريقه عبرهم بخسارة فادحة، فاستدارت الجماعات الأخرى والتحمت في مواجهة يائسة وبشجاعة أكبر مما يمكن الإيمان به.

كانوا يشقون طريقهم خلال الطوابير التي أحاطت بهم، في اللحظة التي حدث فيها عمل شائن لا نظير له في الأعمال الحربية وسط الأمم المتمدنة، إذ عندما مرت جحافل الفرسان، عاد «المدفعيون» الروس إلى مدافعهم، فرأوا فرسانهم يختلطون مع المشاة الذين كانوا قد اشتبكوا معهم آنئذٍ، وللعار الأبدي الذي لحق بالاسم الروسي، صب الشياطين سيلاً قاتلاً من القنابل والقذائف على القوات المتقاتلة، رجالاً وجياداً، عدوا وصديقاً في دمار واحد، وهنا تمكنت كتيبة الفرسان المسلحة «الثقيلة» الخاصة بنا من تغطية انسحاب البقايا البائسة من تلك العصبة الخارقة أثناء عودتهم للمكان الذي تركوه مؤخراً، وهم يحملون أزهى مفاخر الحياة.

وعند الساعة الخامسة والعشرين إلا اثنتي عشرة دقيقة، لم يبق جندي بريطاني واحد، عدا الموتى والجرحى، أمام المدافع الروسية الدموية، وكانت خسائرنا ـ بقدر ما يمكن تأكيدها ـ من قتلى وجرحى ومفقودين عند الساعة الثانية اليوم، كالآتي:

- جماعة الدراجونز الرابعة: 118 ذهبوا للقتال، 39 عائدون، 79 خسائر.
- الجماعة الثامنة هوسار: 104 ذهبوا للقتال، 38 عائدون، 66 خسائر.
- الجماعة الحادية عشرة هوسار: 110 ذهبوا للقتال، 25 عائدون، 85 خسائر.
- الجماعة الثالثة عشرة دراجونز: 130 ذهبوا للقتال، 61 عائدون، 69 خسائر.
- الفرقة السابعة عشرة رماة: 145 ذهبوا للقتال، 35 عائدون، 110 خسائر.
- الجملة 607 ذهبوا للقتال، 198 عائدون، 409 خسائر.

ثورة الهنود

مشهد مذبحة النساء والأطفال الإنجليز في كاونبور

«21 يوليو/ ناصر1857 افرنجي»

* تقرير ضابط من قوات الجنرال هاڤيلوك المعاونة

بدأ التمرد في «ميروت» لكنه انتشر إلى مدن أخرى ومنها «كاونبور» حيث قام حاكمها الوطني «نانا صاحب» بمذبحة لكل أفراد الحامية التي تضم 200 امرأة وطفل، وكانوا قد ضربوا حتى الموت في منزل يعرف باسم «بيبي جاره».

. . . قاموا بإرشادي للمنزل الذي اغتيلت فيه السيدات البائسات، وكان بجوار فندق كاونبور، حيث كان يعيش الحاكم «نانا صاحب»، ولم أرتعب في حياتي مطلقاً من مشهد كهذا! فقد كان المنزل كتلة واحدة من الدماء، ولا أبالغ إذا أخبرتكم أن كعبي حذائي كانت أكثر من مغطاة بدماء هذه المخلوقات التعسة إذ تناثرت أجزاء من ملابسهن وياقاتهن وجوارب الأطفال والسيدات وقبعاتهن المستديرة منقوعة بالدماء، ومن آثار السيوف على الأعمدة الخشبية داخل الغرفة، حملت نصال السلاح شعراً طويلاً أسود وعلقت هناك ضفائرهن، وياله من منظر شديد الإيلام، ولكم تمنيت ألا أكون هناك أبداً حينئذٍ، كما تمنيت أحياناً أن يؤخذ كل جندي إلى هناك حتى يرى البربرية التي عانى منها مواطنينا المساكين. ثم سحبت جثثهم فيما بعد للخارج وألقي بها في بئر خارج المبنى حيث ترى أطرافهم تختلط ببعضها في فوضى كئيبة.

كانت هاته السيدات قد قتلن يوم الخامس عشر بعدما هزمنا الحرس الأسود عند الكوبري، أما رئيس الحرس ـ الذي أصدر الأمر بقتلهن، فقد أخذ أسيراً أول أمس، وهو الآن مشنوق على فرع شجرة على بعد 200 ياردة من جانب الطريق، وكان موته بالصدفة موتاً شنيعاً، إذ إن الحبل كان قد تم تثبيته بصورة سيئة وعندما سقطت أحكمت العقدة رباطها حول فكه، فتحررت يداه عندئذٍ، وأمسك بالحبل، وجاهد كي يحرر نفسه، لكن قام رجلان بإمساكه من قدميه، وجذبا جسمه حتى تحطم عنقه، وبدا لي هذا جزاءً عادلاً كان يجب أن يناله على الأرض من أجل وحشيته.

عقوبة المذبحة

«يوليو/ناصر 1857 افرنجي»

*** الجنرال هافيلوك**

. . . حيثما نأسر متمرداً نحاكمه على الفور، وما لم يستطع تقديم دليل لدفاعه، نحكم عليه بالشنق حالاً، لكن بالنسبة لزعماء التمرد أو الحلقة الرئيسية فيها فقد قررت أن ينظفوا أولاً جزءاً معيناً من بركة الدماء كان عمقه لا يزال بوصتين، في المكان الذي دارت فيه المذبحة المرعبة حيث بُترت أعضاء الأطفال والنساء، فلمس الدماء بالنسبة للطبقات العليا الهندية شيء ممقوت، إذ يعتقدون حال فعلهم ذلك أنهم يكتبون اللعنة على أرواحهن فلندعهم يعتقدون هذا، حيث إن هدفي هو تطبيق عقوبة رادعة على أعمال تمرد جبانة ووحشية، ولإثارة الفزع داخل نفوس أولئك المتمردين.

وأول من أمسكت به كان أحد الضباط الوطنيين من طبقة البراهماتية العالية، فحاول مقاومة أوامري لكنني جعلت قائد قوة الشرطة يقوم بواجبه، وبجلدات قليلة أدى الفاسق مهمته، وما إن أتم ذلك حتى أخذوه في الحال ليشنق، وبعد موته دُفن في حفرة بجوار الطريق، إذ لا يستطيع أحد ممن شاهدوا الاغتيال والبتر والمذبحة أن ينصت لكلمات الرحمة التي يطلبها أولئك الأشرار، إنها وصية الجثث المشوهة ـ يا للحسرة ـ التي يصل عددها إلى «200» امرأة وطفل، كنت قد غطيتهم بإشفاق وبنيت عليهم مقبرة واحدة كبيرة.

ترتيبات منزلية في مدينة محاصرة

لوكنو «عام 1857 افرنجي»

استمر حصار «لوكنو» من 1 يوليه حتى 17 نوڤمبر 1857 افرنجي، حين دخلت قوات السير كولين كامبل المحررة المدينة».

الخميس 20 أغسطس:

كان هناك قصف كثير هذا الصباح، لكن غالبيته كانت من قواتنا، وأمطرت

السماء في المساء بكثافة، وقد مات طفل بائس يسكن في جوارنا من جراء الكوليرا، كان المرض قد أصابه حوالى الساعة الواحدة فقط ومات قبل السابعة، وكانت أمه المسكينة في حالة رعب قبل وفاته تماماً، ثم هدأت بعد ذلك كلية. وبينما كنا نغير ملابسنا، حضرت إلينا وسألتنا عما إذا كان لدينا صندوق فارغ نعطيها إياه كي تدفن فيه الكائن الصغير المسكين، ولكن لم يكن لدينا صندوق في طوله.

الخميس 27 أغسطس:

نجا الكولونيل «إنجليس» ـ يرحمه الله ـ الليلة الماضية، إذ كان واقفاً فوق الشرفة بمنزل السيد «جوبنز» وقريباً من السيد «ويب» ساعة قتله، كان قد رأيا الطلقة المستديرة قادمة فانبطحا أرضاً لتجنبها، لكنها أصابت السيد «ويب» كما أصابت أحد الوطنيين الموجود معه قاتلة إياهما معاً في الحال، إن المرء ليرتجف حين يفكر كيف يحوم الموت هنا وهناك حولنا جميعاً، فهو مشغول ـ حقيقة ـ بين أفراد هذه الحامية الصغيرة. ووضعت السيدة «ثورنيل» فتاة صغيرة الليلة الماضية، كما بدأت منقولات السير «هنري لورنس» تُباع اليوم ـ لأنه قتل حديثاً ـ وسمعت عن لحم فخذ الخنزير يباع بسبعة جنيهات وعلبة من الحساء كافية لعشاء يوم واحد مقابل جنيه واحد وخمسة سنتات!! لقد فقدت النقود قيمتها، والناس يقدمون أسعاراً خيالية لأي نوع من السلع، فدستة البراندي ثمنها 20 جنيهاً، وصندوق صغير من الڤيرميسيلي يساوي 5 جنيهات[1] وأربع قطع من كعك الشوكولاتة مقابل جنيهين وعشرة سنتات!!!..

الإثنين 5 أكتوبر:

اليوم بدأنا نلزم أنفسنا بتناول قطعتين من الخبز الجاف لكل واحد يومياً، وقريباً ـ وهذا ما أخشاه ـ قد نضطر لأكل لحم الخيل، لكننا حتى الآن لدينا لحم البقر

(1) الڤيرميسيلي معجون للمكرونة الطويلة المسماة «مكرونة شعر» «المترجم».

والأرز. لقد كنت جائعة اليوم وكان بإمكاني تناول المزيد إذا وُجِدَ لدي، كما جاء اليوم سبعة جنود وثلاثة ضباط من «فورييد بوكس» مصابين إصابات بالغة. وقَدِمَتْ السيدة «روبرتس» لزيارتنا هذا الصباح فأخبرتنا أن الكلوروفورم قد نفد كله من المستشفى، وأن طفلي السيدة «أوميلي» ماتا في ساعة واحدة منذ يوم أو يومين.

الأحد 18 أكتوبر:

بقينا بلا حساء لعدة أيام، ونحن الآن مضطرون للغسيل بما يسمى «الباسون» وهو حبيبات من الرمل المخلوطة بالماء، شيء جميل رائع، وأفضل بديل للصابون.

قتال فردي بين القوقازيين

«1858 افرنجي»

*** أليكسندر دوماس**

بعد ساعة ونصف، وصلنا حصن «شيدر نسكايا» حيث توقفنا لإراحة جيادنا وتغيير الحراس، وهذه المرة، أمدونا باثني عشر حارساً. وبينما تحرك ركبنا مرة أخرى متتبعين ضفة نهر «التيريك» الذي يتصل بالطريق عند هذه البقعة، تقدم أمامنا حارسان من القوقاز، كما قام اثنان منهم بحراسة المؤخرة، في حين ركض الآخرون بجوارنا، أربعة على كل جانب، وعلى مدى رؤيتي من ناحية اليمين، امتدت آجام كثيفة ترتفع لحوالى ثلاثة أقدام، تطل عليها بعض الأشجار الطويلة من مختلف الأنواع، وعلى يساري تمتد الشجيرات الكثيفة من حافة الطريق وحتى ضفة النهر.

فجأة اندفع سرب من الطيور من بين شجيرات الضفة، ولم أستطع مقاومة إغراء إطلاق النار على دفعة أو دفعتين، وبسرعة استخرجت الطلقات من سلاحي ووضعت زوجاً من ظروف البارود الخفيف رغم أن رئيس الحرس القوقازي اعترض بشدة، إذ إن الخروج عن الطريق يعد مجازفة خطيرة، فهبطت من فوق

حصاني، وتوغلت حوالى اثنتي عشرة ياردة وسط الشجيرات ثم أطلقت النار، فسقط طائر واحد، فصحت: «هل رأيت أين سقط الطائر يا «مونييت»؟... فالشمس في عيني، وأنا أعرف أنني أصبت واحداً، لكن هذا ما أعرفه. «فأجابني «مونييت»: انتظرني لحظة، سآتي وأساعدك في البحث»، لكنه قبل أن يصلني سمعت طلقة أخرى على بعد مائة ياردة، ورأيت حلقة من الدخان.

في نفس اللحظة سمعت طلقة تصفر عبر الفروع العليا للشجيرات التي تغمرنا حتى وسطنا وعلى بعد قدمين فقط، فهرولنا عائدين، ووجدنا أن الرصاصة قد أصابت أحد الجياد، وكسرت قدمه الأمامية عند ارتفاع يصل بالقرب من جسمه، وكنت قد حشوت بندقيتي بالفعل برصاصات جديدة أثناء الهرب، وكان أحد الحراس القوقازيين يمسك بلجام حصاني، فارتقيت السرج ووقفت على قدمي مستنداً إلى الركابين[1] من أجل مشاهدة أفضل، وما أدهشني، مما سمعته عن عادات عصابات «الشيشين» هو تأخرهم في الهجوم علينا، فمن المعتاد انقضاضهم على عدوهم حال إطلاقهم الرصاصة الأولى.

عند تلك اللحظة، رأينا سبعة أو ثمانية رجال يصطفون من ضفة نهر «اليتريك»، فهلل حراسنا من القوقازيين وتسابقوا نحوهم لكن رجلاً آخر برز فجأة من وسط الأكمة التي أطلق من عندها النار علينا، ولم يقم بأي محاولة للهرب، بل ظل ثابتاً فوق أرضه، يلوح ببندقيته فوق رأسه صائحاً: «إبريك».

فأجابه حراسنا صارخين: «إبريك»، وألجموا جيادهم بوقفة ثابتة، فسألت «كالينو»: «ماذا يعني ذلك؟» فأجاب كالينو «إنه يعني أنه أقسم ليبحثن عن المخاطر وألا يدير ظهره أبداً لأي عدو، وأنه يتحدى واحداً من قوقازيينا لمقاتلة فردية».

فصحت: «أخبرهم بأنني سأمنح الرجل الذي يقبل هذا التحدي عشرين

(1) الركاب: حلقة حديدية تتدلى على جانبي الجواد ليضع فيها الفارس قدمه. «المترجم».

روبلاً»، فحمل «كالينو» رسالتي لرجالنا، وساد بينهم صمت قصير في حين نظر بعضهم بعضاً كما لو كانوا يختارون أشجع واحد بينهم، في الوقت الذي جعل صاحب التحدي جواده يقوم بسلسلة حركات معقدة على بعد مائتي ياردة منا. وهو ما زال يصيح «إبريك».. ! فصرخت: «يا للوغد، ناولني بندقيتي يا كالينو، أود لو أسقطته أرضاً هذا الزنيم المغرور».

نصحني «كالينو» بقوله: «لا تفعل شيئاً من ذلك، ولسوف ترى شيئاً يستحق المشاهدة، فقوقازيونا يتباحثون فيمن سيتعامل معه منهم، فهم يعرفونه كبطل شهير في هذه الجبال، انتظر، هاك واحد من رجالنا قادم الآن...».

كان القوقازي الذي أصيب جواده قد حاول مساعدة حصانه على النهوض ثانية بلا جدوى، والآن سار قادماً نحوي ليضع مشكلته أمامي كقائد لهذه الحملة، ووفقاً للتقاليد يحق له بنفسه أن يفعل ذلك نظراً لخسارته، فأولئك القوقازيون يزودون بجيادهم وأسلحتهم مستخلصة من أجورهم العسكرية، وحينما يقتل جواد في اشتباك، يعطي القائد صاحب الجواد منحة تعادل اثنين وعشرين روبلاً، وطالما أن الجواد الجيد ـ بصورة معقولة ـ يساوي ثلاثين روبلاً على الأقل، فسوف يتحمل الجندي ثمانية روبلات أو أكثر من جيبه الخاص.

وقد بين القوقازي أنه صاحب أكبر حق لمحاولة الفوز بالعشرين روبلاً التي عرضتها، ومع الحظ، فسوف يبقي له ذلك عشرة روبلات في يده إذا ما حصل على تصريحي له بمقاتلة الرجل الذي أصاب له جواده، وكان الاقتراح يبدو لي عادلاً ومتكافئاً لذا عبرت عن موافقتي، وفي تلك الأثناء كان رجل القبيلة الجبلي يقود جواده حولنا في حلقات تضيق شيئاً فشيئاً حتى أصبح الآن قريباً منا تماماً، فالتمعت أعين قوقازيينا، ولكن لم يخرق واحد منهم الاتفاق الشرفي الذي يمنع أياً منهم من الغدر فور قبول التحدي.

ثم تحدث قائدهم بكلمة أو كلمتين للرجل الذي غادرنا في التو وقال عند ذاك، «حسناً، إذن فاذهب يا بني». فأجابه القوقازي: «ولكنني لا أملك جواداً، فمن ذا الذي سيعيرني واحداً»؟.

ووقف رفاقه صامتين، لأن الجواد المعار لو قُتل فمن المشكوك فيه أن تمنح الحكومة هبة بديلة لصاحبه، ولتقديري لمشكلتهم التي أوضحها لي كالينو قفزت عن جوادي ـ وهو واحد من أفضل ما في اسطبلات الخيَّالة ـ وصحت به: «هاك هو، خذ جوادي»! وفي الحال قفز القوقازي إلى السرج ومضى. .

وجاءني قوقازي آخر، فسألت كالينو عما يقوله، أجاب: «إنه يريد أن يعرف هل يستطيع أن يحل محل رفيقه إذا ما أصيب بسوء؟» فقلت: «إنه متعجل إلى حد ما، كما يبدو لي، ومع ذلك فما زلت أوافق أيضاً». . فعاد القوقازي إلى مكانه وبدأ يفحص أسلحته كما لو كان يتوقع حلول دوره في أية لحظة، وعند هذه الفترة، أصبح الرجل الأول قريباً بما فيه الكفاية لإطلاق النار فعلاً، لكن خصمه جعل جواده يتأخر حتى لا تصيبه الرصاصة في كتفه.

وأطاحت رصاصته المضادة بقبعة القوقازي ذات الفراء، وعلق الآن كل منهما بندقيته فوق كتفه وأمسكا بسيفيهما، وقاد رجل الجبل جواده بمهارة حتى إنه ـ رغم الدماء النازفة فوق صدره ـ لم يبد أي ضعف واستجاب الجواد في الحال للجامه ولضغط ركبتي قائده وصوته، وأضحى الرجلان ـ الآن ـ يتقاتلان يداً بيد، واعتقدت للحظة أن رجلنا قد طعن عدوه، لأنني رأيت طرف السيف يلمع خلف ظهره، لكنه كان قد اخترقه خلال صدريته فقط، وفي الدقائق القليلة التالية كان من الصعب رؤية ما يحدث، وعندئذٍ سادت فترة صمت وانزلق رجلنا القوقازي ببطء من فوق سرجه، بمعنى، أنه هوى بجسده نحو الأرض، ورأسه الذي يقطر دماً كان يلوحه الآخر مع صرخة وحشية منتصرة، ثم علقه فوق سرجه، وعاد الحصان بلا قائد وهو يدور لينضم إلى رفاقه.

والتفت للقوقازي الذي طلب أن يكون التالي وكان يدخن غليونه في هدوء، فانحنى وقال: «حسناً، إني ذاهب». عندئذٍ قام بإطلاق صرخة تحدي ـ بدوره ـ ليوضح أنه الآن يتحدى ذلك المنتصر.

وتوقف صاحب «الإبريك» عن رقصته المنتصرة، ليواجه خصمه الجديد، فصحت بالقوقازي: «حسناً، سوف أجعل المكافأة الآن ثلاثين روبلاً»، فغمز لي

ببساطة وانطلق يعدو، وهو ما زال يدخن غليونه، لكني لاحظت عدم خروج الدخان من فمه وظننت أنه لا بد يبتلعه، وعند ذلك كان قد بعُد.

ولم يكن أمام «الإبريك» فرصة لإعادة تعمير بندقيته، وصوب رجلنا القوقازي بندقيته على مدى أربعين ياردة، ورأينا حلقة من الدخان لكنا لم نسمع صوت الرصاصة، فاستنتجنا أن بندقيته قد انفجرت خطأ، عند هذه اللمحة كان رجل الجبل قد أعاد تعمير سلاحه، ورأيناه يطلق النار، لكن القوقازي جعل جواده يجنح وهكذا تجنب الرصاصة، رغم أن المسافة الآن أصبحت ياردات قليلة، حينئذٍ رأينا القوقازي يطلق النار مرة أخرى، وبالحركة المفاجئة العنيفة الصادرة عن جسد رجل الجبل عرفنا أنه قد أصيب، فأسقط لجامه وأنقذ نفسه من السقوط بالقبض على عنق جواده بكلتا يديه، فانطلق الجواد المسكين نحو النهر بلا توجيه من راكبه وقد أثار جموحه الجرح الذي تلقاه، وكنا على وشك الانطلاق لمطاردته حين رأينا جسد رجل الجبل ينزلق ببطء نحو الأرض.

وقام رجلنا القوقازي ـ وهو يخشى أن تكون هذه خدعة وأن خصمه لم يمت فعلاً ـ الالتفاف حول الرجل الممدد محاولاً رؤية وجهه لكنه كان قد سقط ووجهه نحو الأرض، وبناء على ذلك أطلق رصاصة أخرى على بعد عشر خطوات نحو عدوه، لكن ذلك كان إطلاقاً زائداً، فبطل الجبل كان ميتاً بالفعل، وهبط القوقازي، واستل سيفه، وانحنى فوق الجثة، وبعد دقيقة وقف ملوحاً بالرأس المقطوع، في حين هلل القوقازيون الآخرون بوحشية، فهو لم يفز فقط بالثلاثين روبلاً، وإنما أنقذ شرف مجموعته وانتقم لرفيقه، وبعد دقيقة أخرى أصبح رجل الجبل عارياً تماماً، وربط القوقازي ملابسه في ربطة وعلقها فوق ظهر الحصان الجريح الذي لم يبد أي محاولة للهرب، ثم ارتقى جواده وعاد إلينا، وكان هناك سؤال واحد تشوقت لطرحه عليه، فقلت: «رأينا جميعاً بندقيتك تنطلق خطأ، وبالتالي فأنت لم تُعد تعميرها، فكيف تمكنت من إطلاق رصاصة أخرى» فضحك القوقازي قائلاً: «ولكن بندقيتي لم تخطىء»، فأصر زملاؤه بقولهم: «لا... لقد أخطأت ورأينا دخانها جميعاً».

فأجاب: «هذا ما أردتكم أن تعتقدونه، أنتم وذلك «الإبريك» ولكن الحقيقة أنه كان ذلك الدخان من غليوني، وقد احتفظت به في فمي لهذا الغرض». .

قلت: «هاك الثلاثين روبلاً مكافأتك». وأنا أعدها بيده، واستطردت: «ولكن يبدو لي أنك زبون محتال رائع».

انفجار على ظهر السفينة «برونيلز جريت ايستيرن»

«12 سبتمبر/ الفاتح 1859 افرنجي»

* جورج أوجسطوس سالا

«السفينة «برونيلز جريت ايستيرن» - النسخة الأصلية للسفن عابرة المحيطات - وحمولتها 18,914 طن، كانت أضخم سفينة في العالم وقت تم تدشينها عام 1859 افرنجي».

. . . تعشينا، وكانت الساعة السادسة، وكنا بالقرب من «هوستنجز» على بعد سبعة أميال من الشاطىء تقريباً، وقد أنهى أغلب المسافرين تناول وجباتهم وذهبوا لسطح السفينة، أما السيدات فقد لجأن، كما نفترض، وبناءً على عادتهن المعروفة إلى حجرة زينتهن، وهجر الجميع صالة الطعام عدا حفنة قليلة من الضيوف المرحين، كل منهم يعرف الآخر تجمعوا حول أشهر شخصية شعبية وهو السيد «انجرام»، هذا الرجل المهذب كان ينصت لثرثرة صديق - ويده فوق كتف ابنه الأصغر - ولا يبدو عليه عدم الترحيب، حول مهاراته البالغة أثناء اقتراح بأن يشرب الجميع نخبه.

تبودلت الأنخاب، ووصلت استنتاجات الراوي لمنتهاها، ووقف المتسامرون، وعندها سمعوا صوت سلسلة انفجارات هائلة - كما لو أن أصابع يد إنسان قد برزت مقابل حائط القمرة وكتبت - كأنها فوق رمال - أن الميديين والفرس على الأبواب، ثم تبعتها انفجارات أخرى، عندئذٍ تناهى لأسماعنا نحن الموجودين بغرفة الطعام صوت تحطيم ضخم، ولم يكن مفزعاً كصوت العاصفة، لكنه كان جامداً كصوت أشياء تقاوم ضغطاً عليها، ثم مرق صوت راعد ساحق ماحق كقذائف المدفع، فوق السطح.

تذكّر، أنني أصف الآن فقط خبرتي الذاتية وأحاسيسي الشخصية، وتبع الضجة الراعدة تحطيم ثريات الضوء بصالة الطعام، وانهيار كتل من الحديد والخشب، متبوعة بسحابة كثيفة من الزجاج المسحوق، وبعدها بغبار الفحم. وامتلأت ملابسي بالأول وشعري وحواجبي بالثاني، ولم يبق إلا دافع واحد، سؤال واحد، لنذهب إلى سطح السفينة، ونسأل: «ماذا يمكن أن يكون ذلك؟» وبالنسبة لي فقد كان صوت الحطام أكبر من صوت الانفجار، وظننت أكثر أن صداماً قد وقع أو أنه انهيار أحد الأفنية الضخمة وليس انفجاراً، لكن جاري القريب مني صاح: «الغلاية انفجرت!»..

وعند وصولي للسطح لم أستطع رؤية شيء سوى أمواج من البخار تنساب نحونا، وبطول السطح رأيت خرطوم الإطفاء مسحوباً، وفي لحظة يمسكه دستة من الرجال ويحملونه للأمام. كانت الرياح تهب بقوة إلى حد ما، وعندما انقشع البخار قليلاً فيما حولي، سقطت دوامات من رشاش الشظايا، وأشكال الزينة، ومُزق من أوراق الحائط، وقصاصات من الستائر «كريمية» اللون. وقد تبدى العديد من السادة المهذبين في سلوك ممدوح فقدموا المسافرين نحو مؤخرة السفينة، حيث وضح أن الخطر في المقدمة إذ غطت سحابة كثيفة من البخار الأشياء هناك، لكن كان هناك أيضاً دخان بالإضافة للبخار واعتقدت أن السفينة تحترق، فبينما كان الرجال والمسافرون يمرون بجواري، سمعت لفظات «حريق» و«غلايات» و«الآلة الحمقاء قد انفجرت»، لكن هذه الكلمات كانت مجرد أسئلة وإجابات أكثر منها شواهد رعب، إذ لم تكن هناك أدنى بادرة فزع - بين المسافرين على الأقل - بصورة تدعو للدهشة والغرابة.

وأضحت تأثيرات الكارثة بادية بشكل مؤلم في الحال، فواحد وراء الآخر - محمولاً على الأكتاف أو على أيدي الرفاق، أو في صندوق أو اثنين - وصل الرجال سيئو الحظ الذين «سُلِقوا» في غرفة الوقود، كان وجه واحد منهم لا يشبه وجه الإنسان على الإطلاق، وبدا كقطعة من لحم البقر النيء، وآخر احترق حول حوضه بصورة مفزعة لدرجة أن المرء يستطيع وضع يديه معاً داخل ذلك التجويف

اللحمي، وتختلط شرائح من ملابسه الداخلية الصوفية مع قطع اللحم المسلوق، ورأيت ثالثاً كان سرواله قد احترق بعيداً عن منتصف فخذه، كانت رجلاه عاريتان من الفخذ حتى المؤخرة وتمتلىء بحروق متصلة، وتتدلى قطع اللحم والجلد هنا وهناك.

وبينما هم يرفعون رجلاً آخر، خرج لحم يديه في قبضات من كانوا يمسكونه، ورغم ذلك بدا كما لو كان يرتدي قفازين من الدم، كما كانت هناك بعض حالات السحجات الخطيرة، والجروح من جراء انكسار الزجاج، ومما يدعو للغرابة أنه لم توجد حالة واحدة بها كسر في أي عضو من الجسم، وبعض المصابين كانوا في حالة هستيريا، يبكون ويضحكون بشكل مؤسف، في حين كان ألم البعض في المستشفى ـ أو عيادة السفينة ـ قاسياً لدرجة أنهم احتاجوا لمن يمسك بهم، بلطف ورقة كما حدث، وكان العلاج المقدم زيت بذر الكتان وصوف القطن مع تغييره باستمرار.

وعند الهبوط للسطح الأسفل، يدفع المشهد المرء ليتذكر واحداً من دواخل منطقة مسرح «كوفْنت جاردن» بعد حريق عام 1856 افرنجي، فالمسافة الشاسعة بين أرجاء السفينة تحولت لكوم واحد من الحطام، فأنت تخطو فوق كتلة هائلة مختلطة من الدمار والبقايا، أسرة النوم والممرات والسلالم كلها قد تطايرت ـ عدا السلم الرئيسي ـ كما انفجرت القمرة التي مكثت بها فترة غير طويلة مع صديقين، كل ما في المكان تطاير معها، وقد تم استرداد حقيبة تخص مراسلكم من وسط الفوضى، لكن رفيقاي فقدا كل ما يملكانه فوق سطح السفينة.

أماماً في هذا السطح السفلي، ترى الشق المهول الخاوي الذي قاء ثمار الانهيار بقوة، كانت منطقة جهنمية، وتلك الفتحة المرعبة مهد الغطاء الملعون، بأطرافها الممزقة المدببة كانت ما تزال واضحة للعيان، ففيها توجد كمرات وأعمدة وألواح وقضبان، وأنابيب البخار العملاقة كلها ملتوية كأبواق النفير الفاسدة.

كما تمزقت الشرائح الحديدية العملاقة عند قاعدة المدخنة أو «تكرمشت»

كأوراق الكتابة، والتوت كمرات الحديد المطاوع الكبيرة التي تدعم السطح الأسفل وانحنت، وأرضية السطح نفسها كانت في جزء منها قد انبعجت وانشقت عن هُوَّات منذرة، ولم تتحمل الغلايات أي إصابات، وأضحت المسألة مسألة أسابيع وعدة آلاف من الجنيهات يجب إنفاقها قبل أن يصبح مالكو السفينة «جريت ايستيرن» قادرين على إصلاح الخسائر التي لحقت بغرفة آلاتها الرئيسية.

فلا السفينة - كسفينة - ولا مجاديفها ولا الرفاص[1] تعطلت، وفي البداية كانت هناك نية واضحة للرسو في أقرب ميناء، لكن هذه الفكرة أُهملت، وواصلت الـ جريت ايستيرن رحلتها إلى بوتلند.

مراسل «التايمز» يساعد غاريبالدي

«باليرمو 27 - 31 مايو/ الماء 1860 افرنجي»

*** ناندور إيبر**

«أدى غزو «غاريبالدي» وفدائييه الألف المسمين «ذوي القمصان الحمراء» لجزيرة صقلية إلى تحرير إيطاليا، وعزل «فرانسيس الثاني» آخر ملوك نابولي من البوربون، وقد توقف قصف باليرمو - الموصوف في نهاية هذا التقرير - بواسطة «النابوليين»[2] يوم 6 يونيه حين استسلم 20,000 من قوات النابوليين الذين كانت تدعمهم تسع من المدمرات الصغيرة».

4 باليرمو في 27 من مايو 1860 افرنجي

الساعة 2 مساء، وأنا أكتب إليك وقذائف القصف تطير فوق رأسي عبر الهواء، وفي خطابي الأخير من هذا المكان المؤرخ في 25 من الشهر الماضي، حاولت أن أقدم لك صورة عن الموقف هنا، ولكني استطعت إخبارك بما يبعد قليلاً عن الافتراضات حول ما يجري في الخارج وأستطيع الآن سد هذا النقص،

(1) المروحة المعدنية التي تحرك السفينة. «المترجم».

(2) Néaplitans. نسبة إلى مدينة نابولي. بإيطاليا. «المترجم».

وأن أعلمك بكل ما حدث منذ وصول غاريبالدي حتى الأمس، بثقة أفضل. وعن الأحداث منذ أمس، أستطيع الكلام كشاهد عيان، وسوف تبرهن لك أن نجم غاريبالدي - وهو بعيد عن الأفول - يبدو أكثر سطوعاً كل يوم، وأن صقلية لو أضحت حرة فسيكون بفضله.

فقد وصل أمس صباحاً عند «ميسيلميري» على الطريق العام المؤدي إلى «كاتانيا» حيث أعطى عدة مواعيد لكل قادة الوحدات عند سلسلة الجبال، وكنت أعاني من عدة إشاعات لا تجدها إلا في المدينة ومن النوع الذي يترك القارىء في إبهام تام حول حقيقة الأمور، بالإضافة للإلمام القليل بالخطط التكتيكية لذلك الجنرال اللامع، وكان لدي شك أن هناك أمراً جللاً يمكن رؤيته بوضوح أكثر من خارج المدينة عن داخلها، لذا قررت البحث عما إذا كنت أستطيع الوصول إلى هناك. . .

وفي رحلة لمدة نصف الساعة أو تزيد، في رفق ودعة، وواد بديع يمتد إلى أسفل، ومنظر جبلي جميل أمامي، وصلت لمدينة «ميسيلميري» مكان صغير حقير، يفتقر في مجمله للمعالم المحددة، وفي الميدان الصغير أقامت اللجنة التي تشكل نوعاً من الحكومة الإقليمية على جانب، وعلى الجانب الآخر، تمركز - أعلى بعض الدرجات الخشبية المثبتة خارجاً - رئيس أركان حملة غاريبالدي، النقيب «سيرتوري» في بساطة بدائية، وكان يعطي - هذه اللحظة - تصريح مرور لضابطين أمريكيين شابين من السفينة الأمريكية «ايروكوا» وبدونه لا يستطيع أحد المرور إلى المعسكر، بالإضافة إلى أنه أمدهم بأحد الضباط كمرشد، فانضممت إليهم.

تجولنا أعلى المرتفعات التي تقود إلى جبل «روسو» وممر «ميزانجا» وقد تركنا بسرعة البيوت القليلة الباقية خلفنا، مع بقايا القلعة الإقطاعية على يسارنا، والحوائط الجيرية البيضاء التي يذكرك شيء ما فيها بالهيكل العظمي، وكانت الأرض حولنا مزروعة كلها بأشجار الزيتون، والكروم، وأنواع الحبوب المختلفة التي تنمو كلها بوفرة على الرغم من الطبيعة الصخرية للمكان.

وقد خندق الجنرال معسكره فوق هضبة ممتدة باتساع فوق الآثار تماماً، ويطل على السهل والمدى الذي ينتهي عنده رأس «زعفرانة» من جانب، ومن الجانب الآخر على قمم «جبل روسو» وعلى ممر «ميزانجا» التي كانت تُرى من خلال انحدار داخل الأرض، يشبه تماماً فوهة بركان متميزة، وقد امتلأت الآن جزئياً بالماء بسبب الأمطار الكثيفة التي سقطت خلال الأيام القلائل الماضية، وهو مشهد يوحي إليك بنصب خيمتك هناك، هذا إذا كان لديك واحدة، فكلمة «خيمة» قد حُذفت من قاموس «غاريبالدي» العسكري.

وعلى أية حال فالقائد الشعبي عليه أن يستسلم أحياناً لجنوده، ولذا لم يستطع منعهم من غرس أربعة رماح من التي تتسلح بها الفصائل - غير ذات البنادق - في الأرض ومدوا فوقها «بطانية»، وتحت هذه الخيمة تستطيع رؤية سروج الخيل وقد رتبت كوسائد، وفراء الغنم الأسود يستخدم كفراش، وبالنسبة لأي فرد آخر، فهناك أشجار الزيتون التي توفر الظل له، والكثير من الأحجار لاستخدامها كوسائد وربما يكون هناك لكل عاشر رجل عباءة أو بطانية، كما ربط الجميع جيادهم في كل مكان، واستراح أغلبهم وتصرفوا وفقاً لذلك. ولم يكن الجنرال نفسه موجوداً عند وصولنا، إذ كان قد قام بإحدى جولاته الصباحية، لكن كل تابعيه المخلصين كانوا أمام خيمته.

. . . ازداد هذا الخليط العجيب الآن بوصول البحارَيْن الأمريكيين الشابين، وبعد انضمام ثلاثة ضباط من البحارة البريطانيين تجمعوا في الحال حول حلقة شائعة، وعاء يطلق بخاره وبه أكبر جزء من لحم عجل وكمية وافرة من البصل، وسلة تمتلىء بأكوام الخبز الطازج وبرميل لشراب «المارسالا»، وقد شارك كل امرىء في الطعام بأفضل مما يدعو إليه السلوك الشيوعي، مستخدماً الأصابع مع سكين، وشارباً من العلبة الصفيح الفريدة.

إنك ترى هذه المشاهد بأعظم صورها في أعمال الحرب غير المنتظمة هذه: المسيرات الطويلة، والمسيرات المضادة، والأمطار، والقتال، والنوم فوق الأرض، جعلت من كل فرد صورة تستحق أن تُجسدها ريشة «موريللو» مع كل

تلك الجبال الصقلية العظيمة والتي لا تختلف عن جبال اليونان، مشكلة خلفية لا يمكن أن تجدها بصورة أخرى، وحال وصولي، ظهر غاريبالدي واستقبل زواره الأجانب بشخصيته الجذابة المتواضعة التي تميزه، مستسلماً برضى تام لطلبات التوقيع على «الأتوجراف» المتكررة والمتباينة، ومجيباً عن كل الأسئلة التي كان من الطبيعي أن توجه إليه، وقد استأنف أعماله بعد رحيل ضيوفه فقط، وكان السؤال محل الجدل لا يعدو ولا يدنو من المخاطرة حول هجمة مفاجئة ضد «باليرمو» نفس الليلة.

كانت الفكرة الأولى هي القيام بالهجوم عند منتصف الليل، و «النابوليون» لا يحبون الحركة أثناء الليل، وكانت هناك فرص. لإحداث اضطراب بينهم، لكن كان هناك خطر آخر إذ يحدث نفس الشيء كذلك للمتمردين الصقليين، ففضلوا القيام بمثل تلك الترتيبات ـ كإحضار القوات أمام البوابات الخاصة بالمدينة وغيرها ـ عند الفجر، ووفقاً للخطة الأصلية التي وضعها الجنرال نفسه ومساعد الجنرال الضابط «تور» فالتحرك كان يجب أن يتم بطول الطريق الرئيسي من مدينة «ميسيلميري» وهو طريق واسع بما يكفي لتقوم الطوابير بتقدم له قيمته كما أنه مريح من جميع الوجوه.

وعلى أية حال، فقد اقترح الضباط الوطنيون ممر «ميزانجا» الذي يهبط من المرتفعات خلف جبل «روسو» نحو سهول «باليرمو». ووفقاً لتصريحاتهم فهو أقصر وإلى حد ما صعب، فصدق الجميع تصريحاتهم، وتلقت القوات كلها أوامر بالتمركز مع سدول الليل فوق قمة الممر الذي تعلوه كنيسة. وبناء على المواقع الأولى، فإن القوات التي أحضرها الجنرال بنفسه كان عليها أن تقود الطريق، وتتبعها القوات الأخرى، لكن بعض القادة سألوه جميلاً أن يترك لقواتهم شرف دخول المدينة أولاً، وهو مطلب يصعب رفضه، وتم تعديل الخطة على هذا الأساس، وتشكلت مقدمة الاستطلاع من الأدلة وثلاثة رجال من كل فرقة من جيش حملة الألب، وأوكلت للميجور «توركوي» وهو ضابط مجري، وضع نفسه تحت إمرة الجنرال «كميت».

يوم 29 سبتمبر في «كارس» وخلف هذه المقدمة يأتي الصقليون يقودهم «لاماجا» وهو أحد المهاجرين الذين حضروا مع «غاريبالدي» وقاد الطابور الثاني حملة البنادق من «جنوا» وكلهم رماة مهرة مسلحين بالبنادق السويسرية، ويأتي خلفهم فرقتا «حملة الألب» وفي المؤخرة يسير بقية الصقليين.

وبعد توزيع التعليمات، شقت الجماعات المختلفة طريقها بالتدريج نحو قمة الممر، ولم يستغرق الحشد عند مراكز القيادة وقتاً طويلاً، إذ تم بعد رفع المعسكر أن تبعوا قواتهم في الحال، وأركبوني جواداً متهالكاً له لجام يلف حول فكه، ومزوداً بسرج يبدو كأنه صُمِّم ليتلاءم مع العمود الفقري لجوادي الأسود الهزيل، وعلى كل فقد وجدوا لي بطانية - في الوقت المناسب - وبشكل عام لا يمكنني الشكوى، كان الطريق يتلوى صاعداً نحو الممر بين صفوف من أسوار نباتية عملاقة تعطي صبغة شرقية حقيقية للبلد.

كان الوقت ساعة الغروب حين وصلنا للقمة عندما رأينا من خلال هوة، الخليج ومدينة باليرمو والبحر وراءها، بادية كصورة خيالية أكثر منها متحققة في الواقع، فكل الجبال بأطرافها غير منتظمة متخالطة بشكل طبيعي مع اللون الأحمر، تظهر مشربة بأشعة الشمس الغاربة، وتستعرض ذلك اللون الوردي الذي - ظننت حينها - أنه هبة خاصة بسهول «أتيكا»، وبينما تجد هذا المشهد الأخاذ أمامك، تنظر للخلف، كما كنت وسط أعماق الجبال كانت واحدة من أروع البقاع التي رأيتها، فالمكان بأكمله يعبق بزهور الربيع، وبالعبير الذي فاح بضوع مضاعف حالما غربت الشمس، لقد وضح أن ذلك الممر الجبلي كان طريقاً سيئاً للحملة، لكنه كان رائعاً في مشاهده.

ومن أجل شد انتباه «النابوليين» لفكرة أن ذلك الجانب مأمون، أطلقت النيران الضخمة المعتادة فوق قمم الجبال، وظلت باقية لفترة طويلة بعد رحيلنا بواسطة رجال تركناهم خلفنا للغرض نفسه. ذهب غاريبالدي لاستطلاع الموقع أسفلنا، أو - ربما - ليغرق في أحلامه التي يتعرض لها في مثل هذه اللحظات الحاسمة، والتي تنتهي في تجميع كل مهاراته على الهدف الوحيد المطروح أمامه، وتردد

صدى صوت مدفع المساء طويلاً بين الجبال، وارتفع القمر واضحاً ولامعاً فوق رؤوسنا واهباً سحراً جديداً للمشهد البديع قبل أن نتحرك، وتم ترتيب «الأشقياء» كما كانوا يطلقون على المدافعين من الوطنيين بنظام يتعسر معه ـ وقد تصدقني ـ أن يتعرف قائد على جنوده، أو جنود على قائدهم، وسط الظلام النسبي الذي انتشر، فكل امرىء يعمل من أجل الآخر ولا أحد يقدر على إعطاء إجابة محددة.

وباستثناء القوات التي حضرت مع غاريبالدي، بدت البقية كتلة متخالطة يصعب فصلها، وعلى أية حال، وجد أولئك الذين ينتمون لقائد معين ـ بالتدريج ـ أنفسهم يلتقون معاً، وبدأ الهجوم الساعة 10 مساءً، وإما أن القادة الصقليين لم يروا أبداً ممر «ميزانجا» أو أنهم لديهم فكرة غريبة عن «الطريق» فهو لا يعدو أن يكون ممراً بسيطاً بين أحجار ضخمة يعبر ثم يعاود العبور فوق نهر جبلي، لا يتبع باستمرار مجرى النهر، ماراً فوق كتل ناعمة من الصخر وعبر هوات خطرة، وكل ذلك في أرض تنحدر بمقدار 25 درجة، ويجب عبورها فوق ظهر الخيل ليلاً، فالرجال استطاعوا أن يتقدموا بمفردهم فقط، مما جعل طابورنا يطول لدرجة مخيفة، وتسبب في تأخير وتوقف مستمرين.

وقد أقسم الجنرال ألا يصدق أي تقرير صقلي آخر بشأن الطرق الجبلية، وعلى كل ففي النهاية وصلنا للسهل، وتوسطنا أشجار الزيتون أسفلنا، مع حدوث بعض السقطات بين جيادنا الثابتة الأقدام، وصدر الأمر بالتوقف حتى تهبط الطوابير كلها.

وخلال ذلك التوقف، وقعت حادثة لم تبشر بالخير في سلوك «الأشقياء» المستقبلي، إذ إن الجياد في صقلية تُترك في معظم الأحيان طليقة ومن هنا يبدأ عراك وصهيل غير قليل، كان غير مريح في ليلة حملة من هذا النوع. لدرجة أن عديداً من أغلب هذه الجياد الشرسة وجب إعادتها، لكن واحداً منها بقي وبدأ ألعابه، ففقد صاحبه صبره مما زاد الأمور تعقيداً، وأدى بالقريبين منه إلى التدافع للخلف بسرعة، وتداخلوا في حركة أولئك الذين خلفهم، وهؤلاء بدورهم جلسوا أرضاً وبدأوا في النعاس، ومن المحتمل أنه قد التبس عليهم في أحلامهم أن

الأشجار هم النابوليون، وأن النجوم بديلاً للقذائف المتناثرة، والقمر على أنه كرة نار عملاقة.

بهذا المعيار، قفز العديد منهم دفعة واحدة وسط الآجام على جانبي الطريق، وأطلق العديد منهم النار خوفاً، في حين كان القليل في حاجة لإحداث فزع عام، وبذل كل فرد ما يستطيعه لاسترداد الثقة، لكن الأثر تكون وبدأ يتفاعل، كما سترى شيئاً فشيئاً، ثم وقعت حادثة أخرى ربما كادت تؤدي لفشل الحملة كلها، إذ ضل الأدلة الصقليون - الذين كانوا مع مقدمة الاستطلاع - الطريق، وبدلاً من التزام طريق فرعي يقود للطريق الرئيسي الذي كان يجب اتباعه، استمروا في الطريق بجوار جانب التل.

وكان من الممكن أن يؤدي بنا إلى حيث توجد أكبر قوة للنابوليين تماماً، وتم إدراك الخطأ في وقته وتعديله، لكن مع خسارة في الوقت لها قيمتها، وفي النهاية تبدى الطابور على الطريق الرئيسي، وهو متسع ومحاط بأسوار نباتية عالية، وحيث فقدنا وقتاً ثميناً مع كل هذه الصدف السيئة، ولأن الفجر أخذ في الاقتراب، كان علينا أن نسرع، ولكن إما بسبب الإرهاق أو بتأثير الفزع الليلي لم نستطع دفع «الأشقياء» للحركة السريعة.

وقد بدأ أول ضوء للفجر تماماً حين مررنا بأول البيوت، التي تمتد بهذا الاتجاه مسافة طويلة خارج مدينة «باليرمو» ثم بدأ الأدلة - الذين كان يفترض فيهم معرفة موقع المكان بشكل جيد - في الصياح والهتاف كما لو كنا قريبين من البوابات، ولو لم تحدث هذه الفوضى لربما استطاعت مقدمة القوات مفاجأة موقع العدو فوق كوبري «أميراجالياتو» ولكان من المحتمل التوغل في المدينة دون أن نفقد رجلاً واحداً، فكما حدث لم يوقظ الصياح أولئك الموجودين في الحراسة فوق الكوبري فقط، لكنه أتاح فرصة للنابوليين لتقوية الحراسة على بوابات «تيرمين» ولإعداد كل تمركزهم للدفاع عن هذا الجناح...

ولهذا فبدلاً من مفاجأة الموقع الموجود على الكوبري، تلقت مقدمة القوات كمية كبيرة من النيران ليس فقط من المقدمة، ولكن من البيوت التي على

جناحيها، ولدى أول صوت في إطلاق البنادق، كان أغلب «الأشقياء» قد عبر أسوار النباتات، لكن دون رؤية الإطلاق القادم من خلفهم، تاركين ـ هكذا ـ حوالى ثلاثين أو أربعين جندياً من المقدمة مكشوفين تماماً وسط الشارع المتعرض للنيران، المؤدي للكوبري.

وتم إرسال الفرقة الأولى من قوات الحملة، ولما لم تأخذ مواقعها بالسرعة الكافية، تم دفع الفرقة الثانية بعدها تماماً، وبينما أولئك يتقدمون خلف النابوليين، بذل كل واحد ما في وسعه لدفع «الأشقياء» للأمام، ولم يكن الأمر بهذه السهولة في البداية، خاصة عندما سمعوا أصوات المدافع في المقدمة، رغم أن تأثيرها لم يكن بادياً، وعلى كل «فالأشقياء» الذين ذكروني كثيراً بجنود الأرناؤوط باشبازوق[1] كان يمكن قيادتهم بعد أن يمر الإحساس السيء الأول للقتال، خاصة بعدما رأوا أن القذائف لا تقتل أو تجرح، ولا حتى قنابل المدفع التي تدوي بمثل هذه الضجة الهائلة.

وقد استطاعوا فهم ذلك تماماً هذا الصباح، إذ بالرغم من أن بنادق النابوليين ليست أقل جودة من أفضل البنادق، إلا أنني لم أر خسائر قليلة حدثت بمثل هذه الكثافة النيرانية من قبل، فأعد كل واحد نفسه للعمل ـ أمام ذلك ـ لقيادة وتحريض «الأشقياء» دافعينهم خارج السواتر بكل وسائل التحايل، غالباً بالضرب والقوة، وبعد قليل من الصعوبات تم وضع أغلبهم بأمان أمام الفضاء المفتوح مقابل الكوبري.

لكن الاتجاه العام كان الميل للتقدم أسفل الكوبري لا فوقه، الذي كان ـ ككل الكباري المقامة فوق الجداول المائية ـ مرتفعاً، ويتعرض في هذه الآونة لتقاطع نيران كثيفة من موقع «بيانا دي بورازو» حيث توجد به سور به مزاغل[2] وبعض المدافع المقامة عليه لدى النابوليين، وتأتي منه بعض القذائف الطائشة،

---

(1) الباشبازوق، جنود مرتزقة من الأتراك اشتهروا بالعنف والسلب. «المترجم».

(2) المزغل: فتحة أو ثقب في سور وحائط الدشمة العسكرية أو الموقع لإطلاق النار والاستطلاع. «المترجم».

وفي حين بذل الجنرال نفسه مع العديد من هيئة الأركان جهدهم للضغط عليهم لمغادرة ملجأهم هذا مرة أخرى ومواصلة التقدم، قام جنود المقدمة بمطاردة النابوليين للخلف حتى نهر «سترادون» الذي ينساب نحو البحر أمام ميناء «دي تيرمين» مباشرة.

وصب حصن النابوليين عند البوابة ـ نظراً لإعادة تدعيمه بصورة لها قيمتها ـ ناراً حامية اثالت بطول الطريق السكني المؤدي للكوبري، في الوقت الذي قامت فيه القوات المتمركزة مع المدفعيين عند ميناء «سانت أنطونيو» بإطلاق ستارة نيران فوق المهاجمين، لكنها لم تكن عقبة أمام الرفاق الشجعان الذين شقوا الطريق، ولم يضيعوا الوقت بإطلاق النار، وإنما تقدموا بالحراب.

وكان قائد المقدمة الميجور «توكوري» وثلاثة من أدلته أول من عبروا متاريس أكياس الرمل في المدينة، لكن القائد أصيب بطلقة هشمت ركبته اليسرى، إلا أن الخسارة كانت تافهة، وأثناء مطاردة الجنود للنابوليين من مكان لآخر، بدأ الباليرمويون[1] في التحرك كذلك، لكن العدالة تحضني على قول أن ذلك حدث في الأماكن التي هجرها الجنود فقط.

وتكرر نفس المشهد الذي حدث عند الكوبري، أثناء عبور نهر «سترادون» بواسطة «الأشقياء» الذين تابعوا في خطوات متعثرة، وما زال دخول المدينة مسألة هامة كي لا يخترق أحد أجنحتنا أو نُضرب عند المؤخرة بواسطة النابوليين المسيطرين على «بيانادي بورازو» ولتجنب ذلك الخطر، صدرت الأوامر لبعض المجموعات للوصول خلف الأسوار النباتية التي تُصف على الطريق الذي يتسلل منه النابوليون من يسارنا.

وكانت هذه الاحتياطات، ومعها ـ احتمالاً ـ النفور من القتال في العراء، كافية لتحويل هذا الخطر حتى يمر الجزء الأعظم من المشاة، وتم إلقاء ساتر في نفس الوقت عند المؤخرة بأي شيء يمكن وضعه وإمساكه، وأسعد هذا العمل

---

(1) نسبة إلى مدينة باليرمو الإيطالية. «المترجم».

«الأشقياء» لدرجة أنهم بدأوا في عمل ساتر في المقدمة كذلك، وبهذا المعيار سدوا جزءاً من الطريق قبل التمكن من منعهم.

لكن الشيء الأكثر خطورة كان ـ وبالتأكيد ـ عبور نهر «سترادون» حيث ظلت ستارة النيران متواصلة، ولجأنا لكل أنواع الاحتيال لدفعهم لكي يقوموا بهذه النقلة التي ظنوها مميتة، فأمسكت أنا وواحد من رجال غاريبالدي جندياً منهم بالقوة وعرضناه للنيران مما جعله يجري عابراً النهر، لقد كان هنا ـ عن أي مكان آخر ـ الإطلاق العشوائي للنابوليين الذي أخبرتكم عنه، إذ تطلعت ـ فترة ـ ولم أر حتى رجلاً واحداً مصاباً، ولتشجيع أولئك «الأشقياء» أخذ أحد الجنود «الجنويين» من حملة البنادق خمسة أو أربعة من المقاعد وغرس العلم ثلاثي الألوان على واحد منهم وجلس فوقه لفترة من الوقت، وأخيراً حسموا أمرهم، وبدأنا نرى «الأشقياء» يقفون وسط الطريق ليطلقوا النيران من بنادقهم.

وبالقرب من ميناء «دي ترميني» يوجد سوق «فيشيافييرا» القديم، وهو أول نقطة يتوقف بها غاريبالدي، وكان على المرء أن يعرف أولئك الصقليين، ليعرف معنى الجنون، والصراخ، والصياح، والبكاء، والعناق، فالجميع يقبلون يده ويعانقون ركبتيه، وتأتي كل لحظة بجماهير جديدة انطلقت في طوابير من أحد الشوارع متشوقة لنيل دورها.

وبينما طهرت القوات الجزء الأدنى من المدينة تدريجياً، أتى غالبية السكان لإلقاء نظرة، وتقديم التحية لمحرر «باليرمو» و «صقلية» وتمت السيطرة على المدخل حوالى الساعة الخامسة والنصف صباحاً، وبحلول الظهر كان أكثر من نصف المدينة قد أُخلي من الجنود، لكن قبل ساعتين من تلك السيطرة صبت القلعة نيرانها على المدينة بشكل نسبي معتدل في البداية، لكن فور ذلك أطلقت بكثافة شديدة قذائف الـ 13 بوصة والقذائف الملتهبة، وكل القنابل التي تستهدف إحداث أكبر قدر ممكن من الخسائر.

وعند الظهر تقريباً أو ما إلى ذلك، فتحت السفن الموجودة في الميناء نيرانها، وفيما بين الاثنين نجحا في تدمير عدد كبير من المنازل في الجزء الأدنى

من المدينة، قاتلين وجارحين عدداً كبيراً من الناس من كل الأعمار من الجنسين، وقد صوبوا اثنتين من القذائف الضخمة نحو المستشفى فانفجرتا في أحد أجنحتها.

كنت تشاهد الدمار والحطام في كل مكان، وموتى وجرحى، ولا بد أن عدداً غير قليل منهم قد دفن تحت أنقاض منازلهم، خاصة ذلك الجزء من المدينة القريب من ميدان «بيتزا بولوني» وبعض الشوارع المجاورة، التي أصيبت إصابات فادحة، ولو كان هدف النابوليين إشاعة الرعب، فقد نجحوا بالتأكيد، فكل من استطاع أن يجد ملجأ، ظن أنه أكثر الأماكن وقاية من القصف، ومن لم يجد، تراهم يبكون ويتضرعون «ويضربون أكفهم حسرة»[1] في الشوارع، وكان منظراً مؤسفاً حقاً، وسبب فواجع كثيرة لأولئك الناس المسالمين، أكثر مما سببه لمن كان عليه أن يثأر منهم.

في المساء، ظل القصف متواصلاً مع فترات توقف قصيرة فقط خاصة من القلعة، وكان كل الذين قدموا مع غاريبالدي هذا الصباح قد أنهكتهم الضربات، ولم ينالوا أي قسط من النوم الليلة الماضية وما بذلوه من عمل كثير منذئذ، وكان الجنرال نفسه يستريح فوق الرصيف الذي يحيط بالنافورة الضخمة في ميدان «ديل برويتوريو» حيث تجلس اللجنة في حالة انعقاد، وقد شكلت هذه اللجنة ـ وهي نفس اللجنة التي نفذت الحركة منذ بدايتها ـ من أعضائها «حكومية إقليمية» تحت قيادة غاريبالدي.

كانت المدينة مضاءة، وتبدي ـ خلال توقف القصف ـ مظهراً شديد الحيوية، لكن المحلات كلها لم تزل مغلقة، وينشر الضوء بالمصابيح الزجاجية ذات الأشكال الفنية المدلاة من الشرفات تأثيراً شديد الروعة يرتفع إلى حد ما بالقذائف الطائرة عبر السماء الصافية.

---

(1) في الأصل يعتصرون أياديهم. «المترجم».

سباق الدربي من وجهة نظر زائرة فرنسية

«28 مايو/ الماء 1861 افرنجي»

*** هيبوليت تين**

«كسب «كيتلدروم» سباق الدربي لعام 1861 افرنجي بنسبة 16 إلى 1 من الجواد المفضل دوندي».

السباق في إبسوم، هو يوم سباق الدربي، يوم المرح، لا ينعقد فيه البرلمان، وتتركز الأحاديث كلها حول الجياد ومدربيها طوال ثلاثة أيام. . .

نبدأ من محطة «واترلو»، السماء صافية، بلا ضباب، ولاحظ جيراني الإنجليز ذلك بالقول: «إنهم لم يروا مثل هذا اليوم في لندن»، فكل ما يمكنك مشاهدته زراعات خضراء، ومراع مسيجة بأسوار نباتية، وغالباً ما تتخلله أشجار متناثرة، وروعة هذه الخضرة وتكاثف وحيوية الزهور اليانعة المشرقة الذهبية، كلها أمور غير عادية، فالمخمليات المتناغمة مع الماسات والحرائر المروية بالماء، لا تستطيع أروع أشغال التطريز مجاراة عمق تمازج ألوانها، فاللون سخي وأبعد مما تصل إليه الألوان، لكن تبرعم وإزهار هذه النباتات وزخم وبهجة الأرض المزدانة لم تدهشني من قبل بمثل هذه المتعة الرائعة.

ومضمار إبسوم هو سهل واسع أخضر بسيط التعرج، وعلى أحد الأجناب وُضعت ثلاث منصات عامة في الخلف وعدد آخر أصغر، وفي المقدمة خيام ومئات المحلات، واسطبلات مؤقتة تحت المِشمّع، وفوضى لا تُصدق من العربات والجياد والفرسان والسيارات الخاصة، ومن المحتمل أن هناك20,000 شخص. لا شيء متميز أو يلفت النظر، فالعربات من المركبات العادية، والتزّين أمر نادر، والمرء لا يأتي إلى هنا من أجل استعراض ذلك، وإنما لأجل مشاهدة منظر عام، هذا المنظر يكون شيئاً فقط باعتبار حجمه.

ففي قمة المنصة تتكاثف كوم النمل، ويتصاعد دويّه، لكن فيما وراء ذلك، على اليمين، يوجد صف من الأشجار الضخمة تبدو خلف التعاريج الزرقاء

الخابية للريف الأخضر، صانعة إطاراً رائعاً لصورة متواضعة، وتبدو بعض السحب كبجع يطير في السماء ينزلق ظلها فوق العشب، وضباب خفاق تطارده أشعة الشمس فيرحل بعيداً، والجو المضاء كالمجد، يغلف السهول والمرتفعات والمنطقة الشاسعة وكل فوضى المرجان البشري.

إنه مهرجان، فهم قد جاؤوا - في الحقيقة - للترفيه عن أنفسهم في أزياء صاخبة، ففي كل مكان تجد غجراً، ومطربين فكاهيين وراقصين متنكرين كالزنوج، وألعاب الرماية حيث تستخدم الأقواس والسهام والبنادق، مع الحواة الذين بحيلة بارعة يخفون سلاسل الساعات براحات أيديهم، وألعاب الدبابيس والعصي، وموسيقيين من جميع الأنواع، والأكثر إدهاشاً تلك العربات من جميع الأنواع - الأجرة والرباعية العجلات والرسمية وغيرها. . . - مع الفطائر واللحم البارد والشمام والفاكهة والخمور، خاصة الشمبانيا، يفرغونها ويبدأون الشراب والطعام، وهذا ما ينبه المرء ويثيره فنتيجة المعدة الممتلئة مرح مبتذل وضحكة ممتدة.

في حضور هذا العيد المُعد سلفاً، يكون من المؤسف مشاهدة مظاهر الفقر، فالفقراء يجتهدون في بيعك دمية سعرها بنس واحد كتذكار لسباق الدربي، أو لإغرائك باللعب مع العمة «سالي» أو لطلاء حذائك، وكلهم كما لو كانوا كلاباً بائسة جائعة مضروبة وجربانة، تنتظر عظمة دون أمل في أن تجد الكثير من اللحم عليها، وهم يصلون سيراً على أقدامهم خلال الليل، ويعتمدون على العشاء من فضلات المهرجان الكبير.

ويرقد الكثيرون منهم على الأرض بين أقدام المارة، وينامون بأفواه مفتوحة ووجوههم لأعلى، وملامحهم يبدو عليها تعبيرات الغباء والقساوة المؤلمة، وأغلبيتهم حفاة وجميعهم في منتهى القذارة، وذوو ملامح غريبة، والسبب أنهم يرتدون ملابس السادة القديمة والأزياء الماضية المهلهلة وأغطية رأس صغيرة، ارتدتها السيدات الصغيرات من قبل، ويصبح مرأى هذه الأشياء المُهملة التي تغطي أبداناً عديدة أكثر وضاعة بالمرور من واحد لآخر، ويجعلني دائماً غير

مستريحة لذلك، فارتداء مثل هذه الملابس القديمة نوع من التحقير، وبهذا العمل يبدي الإنسان أو يؤكد أنه ليس هدف هذا المجتمع، وفيما بيننا ـ نحن الفرنسيين ـ يعد الفلاح والعامل والصانع شخصاً مختلفاً، وليس إنساناً مهاناً، فقميصه يخصه تماماً كما يخصني معطفي، لم يستر قميصه أحداً سواه، واستخدام الملابس البالية شيء أكثر من شاذ، فالفقراء يكلون أنفسهم ليصبحوا نفاية أقدام الآخرين.

وواحدة من أولئك النسوة، ترتدي شالاً قديماً يبدو أنه قد سُحب من بالوعة، وغطاء رأس مهشم كان يوماً ما جميلاً، وقد عاقها المطر ومعها طفلة شاحبة قذرة وبائسة بين يديها، أتت تنقب فيما حول عربتنا، فالتقطت زجاجة ملقاة وامتصت الثُمالة، والتقطت طفلتها الثانية التي كانت تستطيع المشي قشرة بطيخ ونحتتها، فأعطيناهم شلناً وبعض الفطائر، ويستحيل عليّ وصف الابتسامة المتواضعة التي ردوها لنا عرفاناً وشكراً، وبدوا كمن يريد القول ـ كما قال حمار «ستيرن» المسكين: «لا تضربني. . أتوسل إليك. . وبالرغم من ذلك فإنك قد تضربني إذا ما أردت ذلك». وكانت ملامحهم محترقة قد صبغتها الشمس، وكانت فوق وجنة الأم اليمنى ندبة غائرة، كما لو كانت قد ضربت بحذاء، وكلاهما، والطفلة على الأخص، نمتا بصورة وحشية وقميئة، فالطاحونة الاجتماعية هنا تسحق وتطحن تحت تُرسها الصلب الطبقة البشرية الدنيا.

وعلى أية حال، فالأجراس تدق، وأوشك السباق أن يبدأ وأخلى رجال الشرطة الأربعمائة أو الثلاثمائة مضمار السباق، وامتلأت المنصات وأضحى الحقل أمامهم مجرد بقعة سوداء ضخمة فصعدنا إلى أماكننا. لا شيء يبدو مرتباً على الإطلاق، ومن هذا البُعد يظهر الجمهور ككوم من النمل، ويمثل الفرسان والعربات ـ التي تتحرك قدماً وتتقاطع مع بعضها ـ الخنافس، أو حشرات الربيع، أو ذكور نحل قاتمة على قماش أخضر، والجوكيات[1] في لباسهم الأحمر والأزرق والأصفر والبنفجسي يشكلون مجموعة صغيرة جانبية كسرب من الفراشات

(1) الجوكي: سائق خيل ضامر الجسم قليل الوزن يختاره صاحب الجواد المتسابق ليقود له جواده نظير أجر لا يعيق الثقل الجواد في سباقه. «المترجم».

المضيئة، ومن المحتمل أن يعوزني الحماس لكن يبدو لي أنني أشاهد مباراة للحشرات.

بعد ثلاث بدايات خاطئة انطلق أربعة وثلاثون، وبقي خمسة عشر أو عشرون متجاورين والآخرون في مجموعات صغيرة، ويراهم المرء يتحركون لنهايات الجانب البعيد من الدائرة، وبالنسبة للعين لا تبدو السرعة عظيمة، إنها كسرعة قطار يُرى على مسافة نصف ليج، حين تبدو العربات مثل المركبات التي يشدها طفل من خلال خيط كاللعبة.

ولعدة دقائق تحركت البقعة ـ البنية اللون المنقطة باللون الأحمر والدوائر اللامعة ـ بثبات فوق المساحة الخضراء، ثم تدور، ويدرك الإنسان أن المجموعة الأولى تقترب، «فترتفع القبعات»! وتصير الرؤوس عارية، وينهض كل فرد واقفاً، وتنطلق صيحة فرح مدوية ومكبوتة من المنصات، وتبقى الوجوه الباردة على نار، وتحرك الملامح العصبية فجأة تلك الأجسام المتوترة، وفي الأسفل، في حلقة الرهان، فالحلقة تمور فوق العادة، مثل رقصة «سانت ڤينوس» المفتوحة، تجسد كتلة من العرائس تتلقى صدمة كهربائية، فتلّوح بكل أعضائها مثل أعمدة الإشارات المجنونة.

لكن أكثر المشاهد غرابة هو المد البشري الذي ينصب باندفاع في لحظة ويتدحرج فوق المضمار خلف المتسابقين مثل موجة من الحبر، وتصبح الجماهير السوداء الساكنة فجأة عجينة تمد نفسها في دقيقة عبر مساحات شاسعة، ويضع رجال الشرطة سوراً من ثلاثة صفوف أو صفين مستخدمين القوة عند الضرورة لحماية الميدان الذي تجري فيه الجياد بجوكييها، وتؤخذ المقاييس للمقارنة وللاطمئنان أن كل شيء على ما يرام.

وهبطنا، كان هناك تدافع وتكسير عند السلالم وعند أماكن تناول المرطبات، ولكن معظم العربات كانت ممونة من أجل اليوم، ويحتفل الناس في الهواء الطلق في مجموعات صغيرة. وفوق كل السهول ظلت الأفواه تعمل، وتُفتح الزجاجات وتفرغ، وعند حلول المساء يصبح كل المهرجان في أرجوحة ممتلئة، ويقوم أربعة

وعشرون من السادة بتوزيع خمس وسبعين زجاجة أفرغوها داخل سياراتهم احتفالاً بالنصر، وتتقاذف مجموعات بعظام الدجاج وقشور الجمبري وقطع الفضلات بعضها البعض، وهبطت مجموعتان من السادة من سياراتهم واشتبكوا في مصارعة، عشرة ضد عشرة، وكُسرت لأحدهم سنتان.

وعند عودتنا، اختفى الطريق تحت التراب، واحمرت الحقول المجاورة للطريق بفعل السير عليها، وعاد كل امرىء متسخاً بصورة مفزعة ومغطى باللون الأبيض، وتطاوح أناس مخمورون على طول الطريق، وحتى الساعة الثامنة مساء يمكن رؤيتهم يتعثرون ويتهالكون في أركان حديقة «هايدبارك» يسندهم أصدقاؤهم وهم يضحكون، ولا تبدو على وجوه المشاهدين علامات الامتعاض، فاليوم كل شيء مسموح به، إنه منفذ لسنة من الكبت.

الحرب الأهلية الأمريكية

الجنرال «جرانت» يحاصر القوات الكونفدرالية في ڤيكسبورج

«مايو/ الماء 1863 افرنجي»

*** المراسل الخاص لـ «كليڤلاند هيرالد» أوهيو**

«كان الاستيلاء على ڤيكسبورج، بالمسيسبي، يوم 4 يوليه بواسطة الجنرال «أوليسيس. س. جرانت» ضربة حاسمة للولايات المتحدة الجنوبية وأخضعت منطقة المسيسبي لسيطرة الاتحاد».

فلنرتق الممشى، ونرى الحصار تحت ضوء القمر، أمامنا فيما وراء استحكامات العدو، تقع مدينة ڤيكسبورج مختفية عن أعيننا ثم انظر بدقة فتستطيع أن تميز قباب المحكمة وكنيستين أو ثلاث، وكان للمتمردين محطات إشارة فوق الأخيرة عندما وصلنا، لكن قذائفنا سخنت المسألة بالنسبة لهم فانسحبوا. مدافع المورتر تلعب الليلة، وهي تستحق المشاهدة فعلاً، فراقبناها لحظة، وباتجاه مركز «يونج» فيما وراء المدينة ينطلق فجأة التماعة ضوء، ثم في لحظة أخرى ترتفع

القذائف الثقيلة ببطء مع عوادمها البارقة الخاطفة من خلف التلال وتمضي عالياً كما لو كانت سترتفع لقبة السماء ثم تأتي قُدماً نحونا، حيث تهبط عبر مسارها الطائر نحو المدينة وتنفجر بعنف يهز الأرض لمسافة أميال، ولا بد أن هناك نساء وأطفالاً ودُعَاء حيث تسقط هذه القذائف، لكن الحرب هي الحرب.

وتزحف قنابل الثماني بوصات المتوحشة من «الشيرمان» بعيداً على اليمين وأقرب منها «تعزف» مدافع «ماكفرسون» كذلك، حتى إننا نرى «المدفعيين» يقفون بجوارها عند كل وميض، ومدافعنا سوف تعمل عند منتصف الليل وعند ذاك سوف تكون هناك «موسيقى» يطيب لها قلبك. في نفس الوقت، هيا نذهب للجبهة، فبعد مائة ياردة إلى اليمين من حيث نحن الآن، ندخل خندقاً عميقاً، وبعد أن نتتبعه وهو يلتوي ملتفاً حول التل، نصل إلى فتحة منجم أو كهف، الهواء بداخله رطب وخانق أشبه بهواء قبو، وتشتعل الشموع في خفوت على مسافات، ونسمع همهمات أصوات بعيدة على مدى البصر وأبعد منه، ونتقدم لنلتقي في الحال برجلين يحملان نقالة من الطين لأن رجالنا يعملون ليلاً ونهاراً، وأخيراً نصل لضوء القمر مرة أخرى.

ونخرج لخندق واسع عميق محفور عبر خط من طريق مغطى وهو مفتوح ويمتلىء بالجنود الذين يقومون بحماية مجموعة العمل، وقد بُني ممشى كثيف من بالات القطن والطين على الجانب المواجه للعدو وعلينا أن نتسلقها كي نتطلع خارجه.

نحن الآن على مسافة دانية من الفرسان، وهم يرقدون على الأرض على بعد من عشر إلى ثلاثين ياردة منا، إنهم رجالنا وقوة استطلاعنا المتقدمة. لكن هذا الرفيق الأسمر صاحب البندقية اللامعة التي تبرق على بعد خطوات قليلة فيما وراءهم، هو من المتمردين، ذو شعر طويل ودماء ساخنة، واحد من منطقة «وال» الشهيرة «بتكساس» إنه كلب ضار في قتاله إذا أردت أن تتأكد.

والآن فلنقفز لأسفل وندخل فتحة منجم آخر يقود إلى نقطة تمركز تحركات العدو، ونتعثر في الطريق ونصل للنهاية حيث يحفر الرجال والشمعة تحترق

بخفوت شديد والجو يزهق الأنفاس تقريباً، لا يهم، فهيا نشاهدهم.

هل ترى ذلك الزميل الرقيق ذا المظهر اللامع وهو يهز فأسه، بينما تنساب على وجهه قطرات عرق محببة عظيمة؟ وليس هناك خيط واحد جاف في قميصه الرمادي المهلهل، لكن ذلك لا يهم، فالفأس تتأرجح وتشق كل ضربة حوالي ست بوصات من تربة نهر المسيسبي الجامدة، إنه الرفيق «جيم» كان ذات مرة رقيق اليدين، ناعم الوجه، شاب لطيف، كانت فواتير إقامة خيوله وألعاب البلياردو وسجائره تُعد اختباراً مزعجاً لحاكم مقاطعته الكفء، وقال «جيم» إنه اعتاد أن يرتدي القفازات والملابس الجاهزة، وأن الفتيات كن يدعونه «الوجيه» لكن ذلك انتهى الآن وهو ذاهب من أجل «العم سام». . .

لكننا عدنا إلى الهواء الطلق، وتطلعنا عبر الممشى مرة أخرى باتجاه الطابية حيث شاهدنا مقدمة المتمردين، هل ترى تلك الأكوام الرمادية الصغيرة التي تغطي جانب التل بكثافة؟ عشرة، عشرون، ثلاثون، تستطيع أن تحصي عليها قليلاً من الأعمدة المربعة، آه، أيها الصديق، إنها لأرض مقدسة تلك التي تنظر إليها، فهناك تقاتل رجالنا، وهناك ذبحوا في أكوام، لكنهم ظلوا يقاومون ويقفزون داخل الخندق، وتسلقوا الساتر ثم تدحرجوا عائدين للأبدية وتبعهم آخرون، غرسوا عَلَمهم وقفزوا بعيداً للقاء حتفهم المؤكد، مرت ساعة وعاد واحد، بينما مات الباقون.

جيتسبرج، قصف القوات الاتحادية «1863 افرنجي»

«صامويل ويلكسون يكتب عُجالة بجوار جثة ابنه، الملازم «بايارد ويلكسون» الذي قتل في أول أيام القتال. في 3 يوليه/ ناصر 1863 افرنجي».

*** صامويل ويلكسون**

«كانت معركة «جيتسبرج» التي دارت على بعد 35 ميلاً جنوب غرب «هاريسبورج» بولاية بنسلڤانيا، نقطة التحول في الحرب الأهلية، فبعد معركة دامت ثلاثة أيام، أرغم الجيش الاتحادي ـ الذي غزا الشمال بقيادة الجنرال

«روبرت، إي، لي» ـ على الانسحاب، وسقط فيها «23,000 جندي شمالي مقابل 20,000 جندي جنوبي».

من يستطيع كتابة تاريخ معركة وعينيه مثبتتين بلا حراك على صورة متمركزة ذات شأن لا يمكن تخيله، إنها جثة ميتة لابن بكر، حطمتها قذيفة في مكان لم يكن من الواجب أن تُرسل إليه بطارية مدافع أبداً، ثم تُرك للموت في بناء لا يجرؤ الجراحون على البقاء فيه. . ولمثل هذه التفاصيل التي يتحملها قلبي، بدأت المعركة عند ضوء النهار عند موقع الخيَّالة، بالضبط من المكان الذي أقسم «إيويل» أن يخترقه، وسبقه حملة البنادق عند شروق الشمس، وأخفت الغابة الكثيفة ذلك القتال، لكن ارتفع وسط تلك الظلمة المورقة، الدخان مع تمدد وتماوج النيران، وفجأة عند حوالى العاشرة قبل الظهر توقفت النيران من الجانب الشرقي وجميع ما حول خطوطنا، وساد سكون من السُبات العميق فوق ميدان المعركة، وقامت قواتنا بالطهي والأكل ونالت بعضاً من الإغفاء، كما حركت قوات المتمردين 120 مدفعاً نحو الغرب وركزت هناك فرقتي «اللونجستريتس» و «الهيلز» لدفعها نحو أضعف نقطة بالفعل من بين مواقعنا على الإطلاق.

ومرت الساعات. الحادية عشرة. . الثانية عشرة. . الواحدة. . ورقد في الظل ـ الذي يلقيه منزل ريفي ضئيل، اتخذه الجنرال «مير» مقراً لقيادته ـ ضباط الأركان المبعوثون والمراسلون المرهقون، ولم ينقص المشهد السلمي غناء عصفور اتخذ عشه في شجرة خوخ وسط الفناء الصغير للكوخ ذي الطلاء الأبيض، ووسط شدوه الرخيم، زأرت قذيفة فوق المنزل تبعتها أخرى وأخرى في الحال، وفي لحظة امتلأ الجو بالتمهيد المدفعي الكامل لمعركة مشاة بصورة غير مسبوقة.

فكل الأحجام والأشكال من القنابل المعروفة بالمدفعية الإنجليزية أو الأمريكية، أزّت وناحت ودارت وصفرت وارتطمت في غضب فوق أرضنا. . . وخلال عاصفة القنابل المدوية المنفجرة، ظهرت عربة إسعاف يقودها سائقها المهتاج بأقصى سرعة، وتمثل أمامنا أروع مشهد لحصان يعدو على أقدام ثلاثة، فالقدم الخلفية قد أُصيبت فوق مفصل الركبة. وأثناء هذا القصف، كانت المنازل

تتلقى فناءها على بعد عشرين وثلاثين قدماً، وتناثر الجنود بزيهم الفيدرالي الأزرق أشلاء في الطريق، وماتوا مع تلك الصرخات الغريبة التي تخلط صيحات الألم المنتزعة بفزع اليأس، فلا جندي ولا إسعاف أو حتى إنسان مترنح تراه فوق السهل الذي مسحته تلك العاصفة من «موسيقى الموت» بعد ثلاثين دقيقة من بدئها.

المسيرة الكبرى.. الجنرال شيرمان يدمر الجنوب

«أكتوبر/التمور 1864 ـ فبراير/النوار 1865 افرنجي»

*** جورج نيكولز**

«قاد الجنرال شيرمان ـ صاحب مقولة «الحرب هي الجحيم» قوات الاتحاد في حملتها المدمرة عبر الجنوب عام 1864ـ 1865 افرنجي».

حينما كان الجنرال شيرمان يطارد «هود»، وقف ذات مساء ـ موافق 5 أكتوبر 1864 افرنجي فوق قمة «باين نوب» يراقب باهتمام الأفق الغربي آملاً رؤية مؤشرات لوجود أي جيش، وكان «كوكس» قد وصل لتوه عند الأرض على رأس طابوره، بطريق جانبي حول القاعدة الشرقية لـ «كنيسو»، وبعد الترحيب به، أشار الجنرال شيرمان باتجاه «ألاتونا» وطريق «دالاس» قائلاً: «جنرال كوكس، أريد منك التقدم عبر ذلك الطريق حتى تصطدم بطريق دالاس، وأعلمني بموقع رأس طابورك بواسطة لهب ودخان، احرق الأجران أو البيوت أو أي شيء، لكن المهم أن تدعني أرى أين تكون من موقعي هذا».

ورحل الجنرال كوكس في الحال، وخلال دقائق قليلة، ارتفع عمود من الدخان الأزرق وسط الجو الساكن ثم عمود آخر، ومرة أخرى ثالث يمتد ويلتوي بين التلال والأودية زاحفاً من الغابة، وينقشع تدريجياً في الغسق الرمادي والقرمزي، ولا صوت مدفع يكدر الجمال الرائق لهذا المشهد، وهذه الشهادات العيانية الساكنة لخطوات جنودنا المتقدمين تفيدنا بألا وجود للعدو على المدى القريب...

12 فبراير 1865 افرنجي.. عسكرنا الليلة فوق مكان لأحد فرسان جنوب

كارولينا من ذوي العراقة العالية، وهو واحد من أولئك الذين يظنون أنهم جاؤوا للعالم ليتحكموا في رقاب إخوانهم من بني جنسهم، إنه نوع من الباشوات الكبار، وكلهم من نفس النوع. . كيف يتخلص أولئك الرواد الزنوج من النباتات الخضراء وشجيرات الورود في ممراته المرتبة بشكل فني، ومن أحواض زهوره وطُرُقاته، إنهم يضعون مكانس من نباتاته المتسلقة، ينظفون بها الأرض أمام الخيام.

19 فبراير، في كولومبيا، أعطى الجنرال شيرمان أوامره لتدمير المزيد من الأملاك العامة داخل المدينة عدا مبنى الكابيتول[1] الجديد الذي لن يُمس، وأعتقد أن الجنرال ينقذ ذلك المبنى لأنه عمل فني رائع وليس لأي سبب آخر، مبنى الإرسالية والسكك الحديدية، والمقار العسكرية والمخازن والمحلات والملكيات العامة وقطن يصل إلى 20,000 بالة قطن كلها مصيرها الدمار اليوم، فلن يكون هناك خط سكة حديد على الطرقات إلى مسافة عشرين ميلاً من كولومبيا، لكن ستكون هناك قطع من الحديد الملتوي كفتاحة الزجاجات قبل غروب الشمس.

المسيرة الكبرى

«تنابلة» الجنرال شيرمان.

*** إلياس سميث**

في مؤخرة كل فرقة تأتي جماعة ـ إمداد وتموين الجياد، أو «التنابلة» كما يطلق عليهم رفاقهم الجنود الآخرون ـ تمثل مجموعة متخالطة تستدعي للذاكرة بقوة صورة جيش «فولستاف» المهلهل، رغم أنهم بأية صورة مجرد خيال، فبعدما ارتدى الرجال كل ملابسهم وأحذيتهم واستهلكوها خلال المسيرة، اضطروا لتوفير ما يلزمهم بأفضل ما يستطيعون من وسائل أثناء تقدمهم. . .

فهنا يتبختر رجال في خيلاء تمثيلي بمعطف قديم ذي ذيل طويل، وبقبعات طويلة قمتها منكسرة للداخل، وهناك مجموعة ذات معاطف جرباء وسراويل

---

(1) مبنى البرلمان. «المترجم».

رمادية من متاع المتمردين بأكمام وأرجل تخترق كل قواعد الملاءمة والموضة، وسترات قصيرة وأغطية معاطف طويلة الذيل، ومعاطف من نوع الذيول العريضة أو الضيقة أو بلا ذيول على الإطلاق معظمها من موضات قديمة، وبعضهم ارتدى قبعات السيدات أو الفتيات الصغيرات بشرائط باهتة تتطاير بخفة في الهواء.

ووصف عملية سير المركبات والحيوانات أمر شديد الهول، فهناك حمير كبيرة وصغيرة، تكاد تهلك تحت حمولاتها من الديوك الرومية والأوز وأنواع الدجاج الأخرى، وعربات تجرها الثيران، وخيول هزيلة تسحب ملفات أطباء الكنيسة، وعربات ثنائية وفردية قديمة وعربات مزارع، وخيول عجفاء مع نقالات وهزازات، وعربات عائلية وأرستقراطية كلها محملة بالغنائم والتموين...

فهناك لحوم من الظهر والفخذ والبطاطس والدقيق والخنزير والحبوب وخنازير مذبوحة حديثاً ودواجن تتأرجح من فوق السروج والعربات كافية ـ على ما يعتقد المرء ـ لإطعام الجيش لمدة أسبوعين.

اغتيال الرئيس لنكولن

«14 أبريل/ الطير 1865 افرنجي»

*** ولت وايتمان**

«القاتل «جون ويلكس بوث» كان ممثلاً محترفاً، ومؤيداً متعصباً للجنوب ومن دعاة الرق، وقد هرب بعد الاغتيال لكنه أُسر وقتل في جرن للتبغ الڤرجيني بعد اثنى عشر يوماً من الجريمة».

اليوم، 14 من أبريل لعام 1865 افرنجي، يبدو أنه ممتع على الأرض كلها، والجو النفسي كذلك يبدو ممتعاً. والعاصفة الطويلة بقدر شدة ظلامها وتقاتل الأخوة فيها، وامتلائها بالدم والشكوك والكآبة، إلا أنها انتهت وخلصت في النهاية بشروق نصر قومي مطلق وانهيار تام لحركة الانشقاق، وقد شككنا ـ تقريباً ـ في حواسنا!...

فالجنرال «لي» قد استسلم تحت شجرة التفاح في «أبوماتوكس»، وتبعته بقية الجيوش من دعامات التمرد في الحال، وهل يمكن أن يكون ذلك حقيقة إذن؟ فمن بين كل أمور الألم والمعاناة لهذا العالم، والفشل والفوضى واليأس، برزت ـ حقيقة ـ علامة مؤكدة لا تخطىء كعمود من الضياء النقي من الحكم المنزه، من الله؟ . . .

وهكذا، فاليوم ـ كما قلت ـ كان مناسباً، عشب مبكر، وزهور سابقة، كلها تفتحت. وأنا أذكر ـ حيث كنت أقف ذلك الوقت، ولأن الفصل تقدم ـ أنه كانت هناك أزهار «ليلك» متفتحة تماماً، وبفعل واحد من التحولات الذهنية التي تطرأ لتعطي نكهة للأحداث دون أن تكون جزءاً منها، وجدت نفسي أتذكر دائماً المأساة الهائلة لذلك اليوم لمجرد رؤية وعبق هذه الأزهار، فهي لا تخطىء لكني لا يجب أن أعتمد على تلك المعاونات، فالفعل يتسارع.

ها هي جريدة المساء الشعبية من واشنطن «ايفننج ستار» الصغيرة، وقد نشرت على مساحة صفحتها الثالثة، وموزعة بين الإعلانات بأسلوب حسي في مئات الأماكن أن «الرئيس وزوجته سيكونان بالمسرح هذا المساء». . كان لنكولن مغرماً بالمسارح، فلقد رأيته بنفسي عدة مرات هناك، وأتذكر تفكيري حول كم هو شيء ساخر أنه ـ وباعتبار ما ـ الممثل البطل في أكثر مسرحيات الدراما عنفاً وضخامة مما عرف على مسرح التاريخ الحديث عبر القرون، قد يجلس هناك ويصبح مهتماً ومتفاعلاً مع أولئك الرجال الخائرين الذين يتحركون بملامح سخيفة وروح غريبة ونص مسطح.

ولهذا السبب ازدحم المسرح: عديد من السيدات في ملابس زاهية ملونة، وضباط بأزيائهم الرسمية، وكثير من المواطنين المعروفين وجماعات من الشباب، مع حزم الأضواء الغازية المعتادة، وجاذبية الناس العديدة كما هي العادة، مرحين ومعطرين، وموسيقى الكمان والناي، ـ وفوق كل ذلك ـ تغمرهم، هذه الأعجوبة الغامضة النصر، نصر الأمة، وانتصار الاتحاد، الذي يملأ الجو والتفكير والإحساس مع عبق أكثر من كل العطور.

وحضر الرئيس في الوقت، وشاهد المسرحية مع زوجته من مقصورة المسرح

الكبرى بالطابق الثاني، مقصورتان تحولتا إلى واحدة لفت بالعلم الأهلي، وكانت الفصول والمشاهد في نص من تلك النصوص ذات الكتابة الإنشائية المفردة التي توفر على الأقل راحة مطلقة لجمهور مرتبط بالعمل الذهني أو بالأعمال والاهتمامات التجارية المثيرة خلال اليوم، في حين لا يحوي أدنى بادرة دعوة للجانب الأخلاقي أو العاطفي أو الجمالي أو حتى الروحي. وهذا النص «ابن عمنا الأمريكي» ـ به ضمن الشخصيات الأخرى ـ ما يمكن أن ندعوه «الجندي الأمريكي»، كشخص لم تر مثله من قبل بالتأكيد أو على الأقل كما تراه دائماً في شمال أمريكا وكما يظهر في إنجلترا، مع لهجة غريبة من الحديث والحبكة، والمناظر، ومثل الحيل البصرية التي تجري لتنفيذ دراما مسرحية شعبية حديثة تطورت ربما خلال فصلين من فصولها، في حين أنه وسط هذه الملهاة أو المأساة أو اللا هذه ولا تلك، أو مهما تكن تسميتها ـ ومن أجل إيقافها أو إنهائها مثلما يحدث في هزلية «ناتشر» و «جريت ميوز» من تلك التمثيليات الصامتة السيئة ـ يأتي هذا المشهد المتعسف، وليس لوصفه حقيقة أو تماماً على الإطلاق، لأنه بالنسبة للمئات العديدة من الموجودين هناك، يبدو أنه حتى تلك الساعة لم يترك سوى تشويه عابر، وحلم وخلْط، ويمكن وصفه جزئياً كما سأقوم به الآن.

فهناك مشهد في المسرحية يمثل حجرة جلوس حديثة، يقوم فيها ذلك «الجندي الأمريكي» ـ الذي لا شبيه والمستحيل ـ بإعلام سيدتين إنجليزيتين لا مثال لهما ـ كذلك ـ بأنه ليس «ثرياً» ولذلك فهو لا يُعد صيداً مرغوباً للزواج، بعدها وبانتهاء التعليقات تخرج الشخصيات المسرحية الثلاث، وتبقى خشبة المسرح خالية للحظة، وتظل فترة صمت، وسكون مطبق.

في هذه الفترة حضر قاتل «ابراهام لنكولن»، وهائلة كانت تلك اللحظة بسلسلتها المتعددة الحلقات تدور حول نفسها ممتدة في المستقبل لقرن طويل، لتؤثر في السياسة والتاريخ والأدب للعالم الجديد، ومن زاوية الحقيقة، فإن الأمر الرئيسي وهو الاغتيال الواقع، قد نُفذ بهدوء وبساطة الحدث العادي، كسقوط برعم صغير لنبات ينمو، على سبيل المثال.

ومن بين الغمغمة العامة التي تبعث سكون المسرح ومع تغيير المواقع، صدر الصوت المكتوم لطلقة مسدس، لم يسمعها واحد على مائة من الجمهور حينها، ثم أعقبتها برهة صمت، وعلى كل فالغموض كان ينذر بعاصفة، عندئذ وعبر ردهة مقصورة الرئيس ذات الستائر والشرائط، وقف وجهٌ مفاجيءٌ لرجلٍ يُنهض نفسه على يديه ورجليه فوق سور المقصورة ويقفز أسفل خشبة المسرح، - مسافة قد تصل لأربعة عشر أو خمسة عشر قدماً - ولأنه يسقط بعيداً عن المكان، يتعلق كعب حذائه بالستارة الكثيفة - العلم الأمريكي - ويقع على ركبة واحدة، ويتمالك نفسه بسرعة، واقفاً كأن شيئاً لم يحدث - لكن كاحله التوى حقيقة ولم يشعر به حينئذ.

وهكذا، كان - أي بوث القاتل - مرتدياً زياً أسوداً فضفاضاً، عاري الرأس، وشعره أسود كثيف فاحم، وتلمع عيناه كالحيوان المجنون ببريق وإصرار، وفي هدوء راسخ غريب مع ذلك، ممسكاً سكيناً بإحدى يديه عالياً، وهو يمشي قدماً غير بعيد عن الأضواء السفلية، أدار وجهه كاملاً نحو الجمهور، وهو ذو جمال ثابت، مضاء بتلك العينين الناريتين، تلمعان بيأس وربما بجنون، وأطلق بصوت ثابت وحاسم تلك الكلمات «هكذا، دائماً الطغاة»، ثم مشى بخطوة لا هي سريعة ولا بطيئة مباشرة عبر خلفية المسرح واختفى. . . [أليس هذا المشهد المرعب الذي تبدو المشاهد المماثلة له غير منطقية، قد تم أداؤه - بوضوح - أمامي بواسطة بوث نفسه؟].

ولحظة صمت رهيبة، وصرخة. . صرخة «القاتل» - والسيدة لنكولن تميل من المقصورة بوجنات وشفاه محترقة وصرخة لاإرادية وهي تشير للشبح المتراجع «لقد قتل الرئيس»، وتظل لحظة التردد الغريبة واللامعقولة، ثم أتى الطوفان، وبعده خليط الرعب والصخب والريبة. . وصوت - في مكان ما بالخلف - لحوافر جواد يعدو بسرعة. واندفع الناس من بين المقاعد والحواجز فكسروها، وأضافت تلك الضجة المزيد لغرابة الموقف فهناك فوضى ورعب لا يمكن اختراقهما، نساء يغمى عليهن، ويسقط بعض الأشخاص ضعفاً، ويداس عليهم، وتُسمع العديد

من صرخات الألم، وتمتلىء خشبة المسرح العريضة بجماهير كثيفة ومتنوعة لدرجة الاختناق، كمهرجان مرعب يندفع الجمهور نحوه كلية، على الأقل يفعل ذلك الأقوياء منهم، وهناك كل الممثلين والممثلات في ملابس المسرحية ووجوههم بطلائها، ويبدو خوف مميت من بين الألوان، وبعضهم يرتعش والبعض في دموعه، وصرخات ونداءات وأحاديث مضطربة، تُعاد وَتُعاد. . ويتمكن اثنان أو ثلاثة من تمرير الماء من خشبة المسرح حتى مقصورة الرئيس وآخرون يحاولون التسلق. . إلخ. . إلخ. . .

ووسط ذلك كله، جذب جنود حرس الرئيس مع الآخرين المنظر واندفعوا للداخل ـ حوالى مائتين معاً ـ وحطموا المكان من كل الأدوار خاصة الطبقات العليا يتوهجون غضباً، ويشتبكون مع الجمهور بالحراب المثبتة ـ بالمعنى الحرفي لكلمة يشتبكون ـ وبالغدارات والمسدسات صائحين، أفسحوا الطريق، أفسحوا. . يا أبناء الـ. . . .

هكذا كان المشهد الوحشي أو ما يشبهه داخل جدران المسرح تلك الليلة، وفي الخارج ـ أيضاً ـ وفي جو الصدمة والهوس، كادت جماهير الناس الممتلئة اهتياجاً، والمستعدة لالتقاط أي مخرج للأمر، أن ترتكب جريمة قتل عدة مرات مع أناس أبرياء، وحالة منها كانت شديدة الإثارة، إذا هجمت الجماهير الغاضبة في لحظة ما على رجل إما بسبب كلمات قالها، أو ربما بلا سبب على الإطلاق، وبدأوا يقدمون فعلاً على شنقه على عمود نور قريب، حين أنقذته مجموعة قليلة من رجال الشرطة الأبطال وضعوه وسطهم وشقوا طريقهم ببطء وأمام مخاطرة كبيرة نحو مقر قيادتهم.

كانت اللحظة متناسبة مع الأمر كله، فالجماهير تندفع وتدور أماماً وخلفاً، والليل والصرخات والوجوه الشاحبة، ويحاول العديد من الناس تخليص أنفسهم بلا جدوى، والرجل المضروب لم يتحرر بعد من فك الموت، يبدو أشبه بالجثة، وقامت نصف الدستة الصامتة من رجال الشرطة بلا أسلحة عدا هراواتهم الصغيرة، بأداء مشهد جانبي حاسم مع تلك المأساة الكبرى للجريمة، إذ وصلوا

مقر قيادتهم مع رجلهم الذي يحمونه، ووضعوه في أمان طوال الليلة وأطلقوه في الصباح. . .

ووسط تلك الليلة الرعناء الممتلئة كراهية وجنوداً غاضبين، ومشاهدين، وجماهير، وخشبة المسرح وممثليها وممثلاتها وأوانيها الملونة، وزخارفها وأضواءها الغازية، ودماء الحياة من تلك الشرايين أفضل وأحلى مكان تسيل ببطء، ويتسلل الموت ـ تماماً ـ ويبدأ فقاعاته الصغيرة فوق الشفاه، هذه العجالة المصورة، هي ملابسات موت الرئيس لنكولن، وهكذا فجأة وباغتيال وفزع غير محسوبين يُختطف من بيننا، لكن موته كان بلا ألم.

الأمريكيون في الخارج

«1867 افرنجي»

*** مارك توين**

«كان المؤلف يبحر على ظهر سفينة الرحلات «كويكر سيتي» كمراسل مرتحل لجريدة «آلتا كاليفورنيا» أكبر جرائد الولاية».

وصلت أنباء سيئة، إذ أتى المسؤول عن ميناء «بيريه» في قاربه ليقول: إننا لا بد، إما أن نرحل أو نخرج من الميناء ونبقى سجناء سفينتنا تحت حجر صحي مشدد، لمدة أحد عشر يوماً، لذا رفعنا المرساة وتحركنا خارجين، لنبقى اثنتي عشرة ساعة أو ما يقاربها نأخذ تموينا ثم نبحر إلى القسطنطينية، لقد كانت خيبة أمل مريرة تلك التي مررنا بها، إذ نمكث يوماً كاملاً على مرأى من «الأكروبوليس» ثم نُرغم على الرحيل دون زيارة أثينا، وكلمة «خيبة أمل» لا تكفي قوتها للتعبير عن معنى تلك الظروف.

وكان كل الأفراد فوق سطح السفينة طوال ما بعد الظهر، ومعهم الكتب والخرائط والنظارات، يحاولون تحديد أي «حافة صخرية ضيقة» هي «آريوباجوس»[1] وأي تل منحدر هو «النيقس» وأي مرتفع هو «تل المتحف» وإلى

(1) تل بأثينا كانت تجتمع فيه المحكمة المقدسة العليا ويسمى تل الإله «مارس». المترجم».

آخره.. ثم اختلطت الأشياء: سخنت المناقشة وارتفعت روح الجماعة، فأعضاء الكنيسة يحملقون بحب في تل يقولون: إنه الجبل الذي ألقى منه القديس «بولس» موعظته، وجماعة أخرى زعمت أن ذلك التل هو «هيميتوس» وثالثة أنه «بنتيلكون».

وبعد كل هذا التعب، كنا متأكدين من شيء واحد، أن ذلك التل ذو القمة المربعة هو «الأكروبوليس» وأن الأثر الكبير الذي يعلوه هو معبد «البارثينون» الذي كنا نعرف صورته منذ الطفولة في كتب المدارس.

واستفسرنا من كل من اقترب من السفينة عما إذا كان هناك حرس في «بيريه» وعما إذا كانوا متشددين، وما هي فرص القبض علينا إذا ما تسلل أحدنا للشاطىء، وفي حالة إذا ما غامر أي منا وقُبض عليه ماذا يمكن أن يحدث لنا؟ وكانت الإجابات محبطة، كانت هناك قوة بوليس وحراسة قوية، و«بيريه» مدينة صغيرة، وأي غريب يشاهد فيها سيلفت الانتباه بالتأكيد، وسيكون القبض على المرء أمراً مؤكداً، وقال مسؤول الميناء: إن العقوبة ستكون «ثقيلة»، وعندما سُئل «كيف؟» قال: «إنها ستكون خطيرة»، وذلك كل ما حصلنا عليه منه.

عند الحادية عشرة ليلاً، عندما أضحى معظم ركاب السفينة في فراشهم تسلل أربعة منا بهدوء في قارب صغير، وسهّل المخاطرة قمر تمر أمامه السحب، وبدأنا اثنان فاثنان، ومتباعدين فوق تل منخفض منتوين الذهاب التفافاً حول «بيريه» بعيداً عن مدى شُرطتها، والتقطنا طريقنا في سرية تامة فوق ذلك المرتفع النابت عشباً جعلنا نشعر كثيراً كما لو أننا في طريقنا لمكان ما لسرقة شيء ما، وتحدثت مع رفيقي القريب بصوت هامس حول الحجر الصحي وقوانينه وعقوباته، ولم نجد في الأمر شيئاً مشجعاً. ولمّا لم نر أي طريق، أخذنا تلاً طويلاً على يسار «الأكروبوليس» الذي يتراءى لنا على البعد كعلامة محددة، وتحركنا نحوه متخطين كل المعوقات فوق منطقة وعرة أكثر قليلاً مما في المناطق التي ـ ربما ـ تكون حول ولاية نيڤادا.

وكان جزء من الطريق مغطى بحصى صغيرة كثيرة، ومع كل خطوة كنا ندوس

فوق ست حصى، فتتدحرج جميعها، وجزء آخر جاف وممهد ومحروث حديثاً، ويبقى جزء آخر من مزارع الكروم الممتدة الطويلة والمنخفضة، كانت متعبة ومتشابكة اعتقدنا أنها «توت أسود» والسهل الأثيني، فيما خلا مزارع الكروم، كان خراباً يباباً منعزلاً لا يوحي بالإلهام الشعري، وإني لأتساءل عما كانت عليه زمن المجد الإغريقي لخمسمائة سنة قبل ميلاد المسيح.

ومع اقتراب الواحدة صباحاً، حين سخنت أجسامنا بالمشي السريع وأحرقنا العطش، صاح «ديني»: «ياه، إن ذلك البوص أعناب» وفي خمس دقائق كان لدينا عشرون عنقوداً من العنب الأبيض الكبير اللذيذ، وكنا بسبيلنا للمزيد حين انتصب شبح أسود غامض من بين الظلال بجوارنا قائلاً: هُوْ، فغادرنا المكان.

بعد عشر دقائق أخرى دخلنا طريقاً جميلاً، وبعكس بعض الآخرين تعثرنا لعدة مرات، وكان الطريق يمضي يميناً فتبعناه، كان عريضاً أملساً وأبيض، مرتباً وفي حالة جيدة، ومظللاً على كلا الجانبين بطول فيلٍ أو ما أشبه بأشجار مفردة، وبكرمات العنب كذلك، ودخلناها مرتين لنسرق العنب وفي المرة الثانية صرخ فينا شخص ما من مكان غير مرئي، لذا غادرنا المكان ولم نعد للتفكير في العنب مرة أخرى في ذلك الجانب من أثينا.

ثم وصلنا في لحظات لقناة مائية حجرية مبنية فوق أقواس، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، كانت الآثار تحيط بنا من كل جانب، إذ كنا نقترب من نهاية رحلتنا، ولم نستطع رؤية «الأكروبوليس» عندئذ ولا التل المرتفع، وأردت أن نتبع الطريق حتى نصل قبالتهما لكن الآخرين خذلوني، فبذلنا جهداً شاقاً صاعدين التل الحجري أمامنا مباشرة، ومن قمته رأينا آخر فتسلقناه لنرى ثالثاً. لقد كانت ساعة جهد مرهق.

بعدها وصلنا صفاً من المقابر المفتوحة المحفورة في الصخور الصلدة، - واحدة منها استخدمت كسجن لسقراط لفترة - ثم مررنا حول حافة التل، فانهارت القلعة بكل عظمة آثارها نحونا، فأسرعنا عابرين المنحدر ثم صاعدين طريقاً ملتوياً وتوقفنا عند «الأكروبوليس» العتيق، وأسوار القلعة المذهلة تعلو

رؤوسنا، ولم نتوقف لفحص كتلها الرخامية الضخمة أو لقياس ارتفاعها أو تخمين سُمكها غير العادي، وإنما مررنا في الحال عبر ممر ذي أقواس كنفق السكة الحديدية ومضينا قُدماً إلى البوابة التي تؤدي للمعابد القديمة، لقد كانت مغلقة!.

وهكذا بعد كل ذلك، بدا أننا لن نرى «البارثينون» العظيم وجهاً لوجه. فجلسنا وعقدنا «مجلس حرب»، والنتيجة، «أن البوابة كانت مجرد بناء من الخشب البالي ويمكننا تحطيمه»، وبدا الأمر انتهاكاً للمقدسات، عند ذاك كنا قد رحلنا بعيداً وحاجاتنا ملحة ولا نستطيع إيجاد مرشدين أو خفراء ويجب أن نكون فوق ظهر السفينة قبل مجيء النهار.

وهكذا تبادلنا الجدال، فكل هذا جميل، لكن حين وصلنا لمسألة كسر البوابة، لم نستطع فعلها، فتحركنا حول زاوية من السور ووجدنا شُرفة منخفضة، ارتفاعها ثمانية أقدام بغير حساب عشرة أو اثني عشر قدماً داخلها، واستعد «ديني» لصعودها ونحن وراءه، وبواسطة تسلق شاق وطأ قمتها في النهاية، لكن بعض الأحجار الملقاة تدحرجت وسقطت محدثة صوتاً داخل الفناء، وعلى الفور كانت هناك خبطات فتح أبواب وصياح، فانسل «ديني» من السور في لمحة، وتراجعنا في فوضى إلى البوابة.

كان «إجزرساس» قد استولى على تلك القلعة العظيمة من أربعمائة وثمانية أعوام خلت قبل المسيح، حين تبعه خمسة ملايين من جنوده وتابعيه إلى اليونان، ولو أننا ـ الأمريكيون الأربعة ـ تمكنا من البقاء بلا خلط خمس دقائق أخرى، لكنا أخذناها أيضاً.. وظهرت قوة الحراسة، أربعة من اليونانيين، وتجمعنا عند البوابة، فسمحوا لنا بالدخول، رشوة وفساداً.

عبرنا فناءً متسعاً ودخلنا باباً ضخماً، ثم وقفنا فوق رصيف من أنقى أنواع الرخام الأبيض، تأثر بعمق بفعل آثار الأقدام، وارتفعت أمامنا وسط طوفان ضوء القمر أنبل الآثار التي رأيناها «البروبيلايا» ـ المعبد الصغير للإلهة «منيرڤا» ومعبد «هرقل» و «البارثينون» العظيم ـ واستطعنا معرفة هذه الأسماء من المرشد اليوناني الذي لم يبد عليه أنه يعلم أكثر مما يجب أن يعلمه سبعة رجال منا، وكل هذه

المعابد بُنيت من أشد أنواع رخام «البنتليك» بياضاً، لكن عليها بقع وردية اللون الآن، وعلى كل فإنه حين ينكسر أي جزء منه، فهو يبدو كقطعة من السكر النقي.

ويستند سقف البهو على ستة من تماثيل «الكارياتيدس» - وهي من الرخام لنسوة يرتدين ثياباً سابغة في معبد هرقل، ولكن الأسقف وأبهاء الأعمدة في الأبنية الأخرى مكونة من أعمدة على الطراز «الدوري» و «الأيوني»[1] ما زالت أشكالها والحفر عليها سيئة من حيث سلامتها، لم تحتمل القرون التي مضت عليها ولا فترات الحصار التي عانتها.

وكان طول «البارثينون» - أساساً - مائتين وستة وعشرين قدماً، وعرضه مائة قدم، وارتفاعه سبعين قدماً. وبه صفان من الأعمدة العظيمة، بكل صف ثمانية أعمدة عند كل طرف، وصفوف منفردة بكل منها، سبعة عشر عموداً على الجوانب، وكان واحداً من أجمل المعابد التي أقيمت على الإطلاق. وأغلب أعمدة «البارثينون» ما زالت باقية لكن السقف سقط، لقد كان مبني كاملاً منذ مائتين وخمسين سنة مضت، حين سقطت قذيفة في مخزن لتجار مدينة البندقية كان موجوداً هنا، ودمر الانفجار الناتج بعضاً منه وأزال سقفه.

وإنني لأتذكر بعضاً قليلاً عن البارثينون، وقد وضعت حقيقة أو اثنتين وبعض الأشكال لاستخدام الآخرين مصحوبة بمذكرات مختصرة، فأحصل عليها من «كتاب الدليل».

وبينما كنا نتجول بطول الممر المرصوف رخاماً وسط هذا المعبد الرائع، كان المنظر حولنا ذا انطباعات غريبة، فهنا وهناك تلمع في حشد زاخم تماثيل بيضاء لنسوة ورجال تستند إلى كتل رخامية، بعضها بلا أذرع، والأخرى بلا سيقان، وثالثة بلا رؤوس كلها تبدو حزينة تحت ضوء القمر، وإنسانية بشكل مدهش، انتصبت وواجهت الدجى الداهم من كل اتجاه، حملقت فيه بأعين حجرية من أركان وأبعاد متنائية، وقد تطلعت إليه عبر أكوام متناثرة، بعيداً في نهاية البهو

---

(1) Ionian, Doris مقاطعتان في اليونان القديمة لهما طرزهما الخاصة في العمارة والفن. «المترجم».

المنعزل، واعترضت طريقه وسط القاعة العريضة وأشارت في جد بأذرع لا كفوف لها للطريق من المعبد المقدس.

ومن خلال المعبد غير المسقوف أطل القمر وحزّم الأرض بضوئه، وشدد من ظلمة القطع والتماثيل المتناثرة والمكسورة بالظلال النحيلة للأعمدة. وكان القمر بدراً يصعد السماء الصافية الآن، فتسكعنا دون اهتمام ولا تفكير حتى حافة التحصينات المرتفعة في القلعة.. ونظرنا إلى الأسفل. منظر! ويا له من منظر! أثينا تحت ضوء القمر، إن النبي الذي حلم أن مفاتيح القدس قد كُشفت له، بالتأكيد رأى هذا المشهد بديلاً له[1]، إنه يمتد في السهل المنخفض تحت أقدامنا مباشرة، ينتشر كله إلى الخارج كاللوحة الفنية، وقد طللنا عليه كما لو كنا ننظر من منطاد.

ولم نر أية علامة للشوارع، لكن كل بيت وكل نافذة وكل كرمة متشابكة، وكل بناء، كان واضحاً ومحدداً في تمايز كما لو أن الوقت كان ظهراً.. رغم أنه لم يكن هناك وهج ولا بريق ولا شيء يلفت الحواس أو يردها، وكانت المدينة الهادئة غارقة في أجمل ضوء ينسال من القمر، وتبدو كمخلوق حي غلفه سبات آمن. وعلى جانبها الآخر يوجد معبد صغير تلمع أعمدته الرشيقة وواجهته المزينة ببريق زاخم يأسر العين كالسحر، وبالقرب منه، قصر الملك يؤطر أسواره كريمية اللون في وسط حديقة ضخمة من الشجيرات تناثرت فوقها بقع من ظلال الضوء بصورة عشوائية، ورَشّاش من الشرارات الذهبية فقدت بريقها تحت بهاء القمر وانعكست برقة على بحر من الأوراق المظلمة كالنجوم الخافتة لمجموعة درب التبانة، وفوق الرؤوس، تطل الأعمدة الضخمة - عظيمة كما هي بين الحطام، وتحت الأقدام، تقبع المدينة الحالمة وعلى البعد البحر الفضي، ولا توجد فوق الأرض الواسعة صورة تصل لنصف جمالها..

(1) في مثل هذه التعليقات تعريض لا يليق بالأنبياء ونحن كسائر من يحترمون أنبياءهم - ننزههم عن ذلك. «المترجم».

سقوط «كميونة»[1] باريس

23 ـ 24 مايو/ الماء1871 افرنجي»

*** أرشيبالد فوربس**

«عندما أفرزت انتخابات شهر فبراير 1871 افرنجي جمعية وطنية ذات أغلبية ملكية، أقام الجمهوريون الباريسيون «كميونة» لمقاومة حكومة ڤرساي، فدخلت قوات ڤرساي باريس يوم 21 مايو، وخلال الأسبوع الدامي الذي تبع ذلك، قُتل 20,000 «كوميوني» أو اتحادي كما كان يطلق عليهم ـ كذلك ـ إما في قتال الشوارع أو في أحكام الإعدام السريعة».

باريس. الثلاثاء 23 مايو، الساعة الخامسة: إطلاق النار يتزايد في جنون والفوضى في كل مكان، وعند دار الأوبرا كانت قوية بصورة خاصة، وأرى القوات، رجلاً وراء رجل ينسلون بطول حاجز السقف، ويحملون عبوات معهم لذا أظنهم من «الڤرساويين» ـ الحكوميين ـ ولكن لا أستطيع رؤية علاماتهم فلا يمكنني التأكد، فالعلم الأحمر لا يزال يرفرف فوق التمثال على قمة دار الأوبرا الجديدة، والاتحاديون يتجمعون الآن عند بداية شارع «لافيت» ويطلقون النيران نحو الميادين، وبحساب نيران الڤرساويين لا يستطيع الاتحاديون الخروج إلى شارع «دوبروڤنس»، ويبدون في كل مكان محاصرين بين الشيطان والبحر العميق، ويهتف أهالي «بورت كوشير» لاعتقادهم أن الڤرساويين هم الفائزون.

الساعة الخامسة وعشرون دقيقة.. إن من رأيتهم فوق حاجز دار الأوبرا الجديدة كانوا من الڤرساويين، وهناك هتاف حيث يندفع الناس نحو النيران مصفقين بأيديهم والعلم المثلث الألوان يرفرف عند الطرف القريب من دار الأوبرا..

كنت رأيت الرجل يثبته، وبقي العلم الأحمر يرفرق عند الطرف الآخر،

---

(1) الكميونة نظام للحكم المحلي نتج عن ثورة الجمهوريين ضد الملكيين ولخوفهم من الارتداد بالثورة الفرنسية للعهد الملكي أقاموا ما يشبه النظام الشيوعي داخل مدينة باريس... من فبراير حتى مايو 1871 افرنجي. ثم سقطت. «المترجم».

واحتاجوا لسلم لإزالته، «ياه إنك رجل شجاع طيب، لو أن كل الباقين جبناء، فإنك تمنح للجيش اسماً مشرفاً. .» رفيق نحيف ضئيل بشارات حمراء، وهو واحد من فصيلة جنود الدفاع الفرنسيين القدامى، يهرع أماماً لناصية شارع هاليڤي في ميدان «بوليڤار هوسمان» في اتجاه شارع «تيبتو» إذ متى لا يكون الرجل الفرنسي إنساناً دراميأ؟ فهو يطلق نيران بندقيته بمزاج، ويعيد تعميرها بمزاج ثم يطلقها ثانية بانتعاش، وينال تحيته الهتاف والتصفيق، ثم يومىء إلينا بالعودة بصورة درامية، لأنه خطط لإطلاق نيران بشارع «دولافاييت» لكنه يغير رأيه ويهرع مرة أخرى إلى «هوسان» ثم يلتفت ويلوح لرفاقه كما لو كان على خشبة المسرح، ورصاصات الاتحاديين تمزق لحاء الأشجار وأوراقها من حوله، ويسقط، وهرعت أنا وامرأة من ركننا وحملناه للداخل، إنه ميت برصاصة اخترقت جبهته.

الساعة الخامسة وخمس وثلاثون دقيقة: «إن المشهد شديد الدرامية، إذ حصل أحد الڤرساويين على سلم وصعد تمثال أبوللو على واجهة دار الأوبرا الجديدة، ليمزق العلم الأحمر في حين انهمر الجنود الڤرساويين كالطوفان من «شوسين دانتين» عبر ميدان «هوسمان» وهبطوا شارع «مييربير» وبقية شارع «شوسين دانتين»، واندفع الناس من منازلهم بزجاجات الخمر، ونثرت النقود في الشوارع وارتمت النسوة على رقاب الجنود المُتربة العرقانة بشاراتهم الحمراء، وقمن باحتضانهم وسط صيحات «عاش النظام».

وتآخى الجنود بدفء وشربوا وتدافعوا للأمام، وكان نظامهم مدهشاً إذ تشكلوا في جماعات خلف المتراس التالي لنا وأطاعوا الضابط حال استدعائه لهم من احتفالهم، والآن فموجة الڤرساويين عليا من أجل الصالح، ويعبر ذوو الشارات الحمراء الميدان الكبير ويذهبون إلى ميدان «ڤندوم»، ويبدو كل إنسان مشدوهاً بالفرحة، وبطاقات الشيوعيين التي تعطي حق «المواطنة» تُمزَّق بالجملة، فليس هناك «مواطن» الآن تحت قهر الشكوك، وبإمكانك أن تقول «أيها السيد» إن شئت.

الساعة العاشرة مساء، تمت أشياء كثيرة منذ الساعة التي ذكرتها مؤخراً،

فالجنود الڤرساويون ينصبون في مجرى واحد مستمر في شارع «شوسين دانتين»: خيّالة، مشاة، مدفعية عابرين الميدان الكبير لمفاجأة جناح المتمردين ليس بدون قتال له قيمة، وكمية غير قليلة من الخسائر، لأن الاتحاديين حاربوا كالقطط المتوحشة أينما تمكنوا من الحصول على أي ساتر.

ومَشُوقاً للتأكد إذا ما كان هناك احتمال لمجيء رسالة دبلوماسية لڤرساي، بدأت أقطع ميدان «هوسمان» الهادىء الآن، وبواسطة التحايل والخداع وصلت لشارع «ميرومسنيل» الذي ينتهي في الضاحية مقابل قصر الإليزيه، وكانت القذائف تنهال بكثرة في المناطق المجاورة، لكن الأمر كان مُلحاً، فقررت السير حتى شارع ضاحية «سان أونوريه» وتطلعت حول الناصية لمدة ثانية واحدة.

ولو انتظرت لثانية أخرى، ما كنت كتبت هذه السطور فشظية قنبلة أزّت وهي تمر بي وأنا أتراجع للخلف، قريبة بما يكفي لنسف لحيتي جانباً، والشارع أشبه بأنبوب مفرغ من أجل نيران القذائف، فلا شيء يستطيع الحياة فيه، فعدت أدراجي معتقداً أن بإمكاني الوصول للسفارة بمجرد وقف النيران، وانتظرت بمدخل إسعاف لمدة ساعة، لم تكن هناك قلة من هذا الإسعاف حول المكان، إذ رأيت خلال ربع الساعة أن رجلاً جريحاً يُحمل إلى الإسعاف الذي أقف قريباً منه بمعدل كل دقيقة، لأنني ضبطت عدد النقالات بتوقيت ساعة، ولما نظرت لآخرين، استطعت رؤية الفناء مفروشاً بالوسائد وبالرجال المتوجعين، وقلة من الجثث ليست كثيرة، معظمها من الحرس الأهلي، ترقد في الشوارع خلف المتاريس ووسط البالوعات...

وبينما أعود لفندق «لاشوسين دانتين» كان عليَّ عبور خط المدفعية المنصبة باتجاه الجنوب من كنيسة «تريني» ومن ثم إلى شارع «هاليڤي» نحو المكان الذي تشير الأصوات فيه إلى أن قتالاً دامياً يجري هناك، وتلقّى رجال المدفعية استقبالاً حماسياً من سكان «شوسين دانتين». وأعطاهم الرجال نقوداً وقدمت النسوة لهم زجاجات الخمر، والكل يغمره الفرح، وإنني لأعجب، أين كان الناس يخفون العلم مثلث الألوان طوال أيام «الكميونة» هذي؟ فها هي الآن تلوح من كل نافذة،

وترفرف وسط هواء الليل الساكن، في حين تمنحه صيحات «عاش النظام» خفقاناً كسولاً.

الأربعاء: وهكذا انقلب المساء ليلاً والليل صباحاً، يا لهذا الصباح إن إطلالة شفقه الشاحبة شديدة الظلمة، وأكثر لياليها ظلمة جاءت مع أكثرها فخراً، في مدينة مرهقة مُهانة، وعندما أشرقت الشمس، ماذا رأت؟ لم تر قتالاً عادلاً خلال السنة الماضية ـ تلك الشمس ـ مثل هذا القتال، لكن السحب القاتمة غطت أشعتها، سحب تتصاعد من أيدي «حماة فرنسا»، «الله أكبر»: أيجب أن يصل الجنون بأولئك الرجال ليجهدوا في إحداث دمار شامل بسبب زوال وهمهم الضعيف، فألسنة اللهب المتصاعدة من قصر «التويليري»، المتزايدة بالبترول اللعين، أفسدت ضوء الصباح الرقيق ونثرت أشعة مفزعة على وجوه الفرنسيين المرتدين المتجهمة الذين تسللوا من بعد جريمة الإحراق الجبانة كي يضعوا أمام رجال الوطن من الخلف متراساً كبيراً، وإلى أي مدى وصل حريق المكان؟.

لقد تراقصت ألسنة اللهب في القصر التاريخي، فأتت على أثاثه الفاخر، وحطمت نوافذه الزجاجية المسطحة، ودمرت سقفه الرائع، وكانت بداية جولات شيطان النار في جناح الأمير الإمبراطوري المواجه لحدائق التويليري، وباقتراب الساعة الثامنة، كانت النيران قد التهمت الجناح كله تقريباً. وبينما كنت أقترب من نهاية شارع «دوفين»، كانت ألسنة اللهب الحمراء تتصاعد من ركن «التويليري» المواجه للحدائق الخاصة ولشارع «ريفولي»، إنه الجناح والحجرات التي شغلها ملك بروسيا عند زيارته لفرنسا في عام «المعرض» وهناك حمم غاضبة من اللهب تنصب من النافذة التي اعتاد «بسمارك» أن يجلس عندها ويدخن، ثم صوت تحطيم! فهل هو انفجار أم انهيار الطوابق؟ ذلك الذي يثير هذه الزوبعة من الدخان الأسود والشرارات الحمراء أمام وجوهنا.

إن الله وحده يعلم ما بداخل هذا الكون الملتهب من معدات، وكان ينبغي أن يُجنِّب القصر ما يحدث.

وهكذا باتجاه الشرق من مكان القصر الملكي الذي لا زال معرضاً للخطر،

بسبب الرصاصات والقذائف من المناطق المجاورة لفندق «دوڤيل»، وهناك طريق النصر العظيم الذي اعتاده الجنود لدخول ميدان «كاروزيل»، أما زالت النيران فيه بعد؟ هناك فقط، لا أكثر، هل يمكن قطع طريق قوس النصر؟ أما متحف اللوڤر بتحفه الفنية، فربما يمكن إنقاذه، ولكن لا مساعدة، فالجنود يتسكعون في الطرقات لا مبالين، ومن سوف يلوم رجالاً متعبين، أرهقهم البارود وهم يهدفون لنيل الخبز والخمر. . .

وهكذا يقفز الخراب من مدخنة لأخرى ومن نافذة لأخرى، وها هو يعلو قوس النصر الآن وما كنت لأتأخر أكثر من ذلك مقابل كل كنوز «اللوڤر»، فباسم الهمجية الحديثة، ماذا تعني تلك الانفجارات وهذه القذائف النارية؟ فيا لضياع الفن، متحف اللوڤر تأكله النيران بعيداً، وكذلك القصر الملكي وفندق «دوڤيل»، تتراجع حثالة «الكميونة» وسط دمارها المشتعل، وأيضاً وزارة المالية والعديد من المباني العامة والخاصة المجاورة.

استدرت عن المشهد حزيناً مهموماً، لأزداد هماً بمنظر آخر، إذ تجمع الجنود الڤرساويون عند طرف شارع «سان أونوريه» يستمتعون بلعبة «اصطياد الشيوعيين»، أولئك الباريسيون أصحاب الحياة المتمدنة، أشرار لآخر قطرة من دمهم الأبيض المر الرقيق، ولكنهم في الأمس هتفوا «عاشت الكميونة» ورضوا بأن تحكمهم تلك المسماة «كميونة»، واليوم يفركون أياديهم في فرح وضيع مهترىء، ليصبح بإمكانهم رفض الشيوعي وكشف مخبئه، ومن المتلهفين بشدة لهذا العمل، النساء العزيزات، فهن يعلمن الجحور التي اختبأ فيها أولئك المساكين ويقمن بإرشاد الجنود إليهم بتعبيرات حاقدة تعد شكلاً للجنس المتعدد الأوجه. . .

هاكم هو! . . ويستدير شجعان فرنسا نحو نصر بعد أسر مذل، لقد وجدوه، ذلك البائس! نعم. . ويسحبونه من مكان قذر من الأماكن التي لم يكن أمام شارع «هوسمان» وقت لإزالتها، ويحيط به حرس من ستة رجال يسيرون به إلى شارع «سان أونوريه».

رجل طويل شاحب بلا قبعة، بشيء غير وضيع في ملامحه، ترتعش شفته

السفلى في حين أن حاجبه ثابت، وبعينيه زهو ما وتحد، وهم يصرخون: الجبان، اقتلوه.. اقتلوه!.. وبالطبع كانت النسوة الملعونات أكثر ابتهاجاً.

وارتفعت يد في الهواء، عليها شرائط ضباط الصف وبقبضتها عصا، وهوت العصا على رأس الرجل الشاحب في عنف، واستشرت العدوى إذ شرع الجنود بنادقهم وأنزلوها فوق ذات الرأس، وقد يحطمونها شظايا وسط شهوتهم للقتل، ويسقط الرجل، وينهض من جديد ثم يسقط، وبدت الأصوات المكتومة «لمؤخرات» البنادق فوق رأسه كأصوات تصدر عن رجل يضرب الوسائد بالعصا، ودفعني نبض بريطاني أقوى من اعتباري لنفسي لأن أعدو للأمام، لكن الأمر كان بلا جدوى، فقد أطلقوا النار على الجثة المتهالكة الآن، وتكوموا حولها كسرب من الذباب حول قطعة من اللحم، وتناثر مخه على حذائي وتساقط بعضه في البالوعة، وسواء كانت الرمة قد أهملوها كجسد أم لا، فلسوف تطأها أقدام الجماهير وتتدحرج تحت عجلات عربات المدافع حالاً...

وأنوثة المرأة لم تمت تماماً وسط تلك العصبة من المجانين، الذين هتفوا: «اقتلوه.. اقتلوه»، فها هي واحدة تصاب بهستيريا، وأخرى شحب وجهها وارتعب، تسحب من وسط الفوضى جنيناً مفزوعاً، إنه قطعة منها!!! ودعنا نأمل أن تذهب لمنزلها.. لكن الإنسانية كلها ماتت - بالتأكيد - في روح الجنود الفرنسيين لقيامهم بأفعال كهذه، فها هو ضابط له رقبة الثور وأعين جنود الفرقة الجزائرية، يقف بجوارهم متطلعاً لهذه اللعبة يمتص سيجاراً في الوقت نفسه. واستمرت اللعبة المرحة، وأصبح أسلوب الإدانة موضة، وتتابع في التفكير الفرنسي الطبيعي المتتالي:

يا للقرف، فلنبتعد عن الجبناء المتوحشين والمجاري الدموية، والنساء المولولات، والضباط ذوي العيون الجزائرية... هنا ميدان ڤندوم، احتله - بمعلومات موثوق بها - خمسة وعشرون شيوعياً وامرأة مقابل كل أولئك الڤرساويين الذين وجدوهم بداخله يقومون بذلك لعدة ساعات، وتتحرك دوريات الڤرساويين في الميدان المركزي المحطم حول بقايا المكان، وكذلك قاموا بتجميع

بعض القوات في مصيدة الفئران تلك وهناك جثة واحدة ملقاة في المجاري مضروبة وحائلة اللون، والجثة لضابط شيوعي تمسك بمتراسه لمدة نصف ساعة بمفرده ضد شجعان فرنسا ثم قتل نفسه، ويبدو أن الأبطال حاولوا التأكد من موته بإطلاق النار عليه وعلى جثته ـ التي كانت يوماً ما إنساناً ـ مرات عديدة. . .

وماذا عن القطط المتوحشة المحبوسة في فندق «دوڤيل»؟ إن ظهورهم الآن للحائط وهم يحاربون لا من أجل الحياة، ولكن من أجل إحداث المزيد من الشر بقدر ما يستطيعون قبل أن تحين ساعتهم التي ستأتي قبل أن يتحرك العقرب الصغير لساعة متمرداً على رقمه، ولا يجرؤ الڤرساويون على الاندفاع نحو المتاريس المقامة حول فندق «دوڤيل»، فهم يخشون على أنفسهم من الانفجارات، لكنهم ينقبون ويضيقون الحصار ويتلمسون المنافذ وسيكونون داخل خطوطهم حالاً، في الوقت الذي يصب فيه المسيطرون على الفندق موتاً ودماراً بأرجاء باريس في وحشية متعددة، فالآن قذيفة تسقط في «الشانزليزيه»، ثم قذيفة أخرى فوق ميدان «هوسمان» المُحطم فعلاً، وثالثة في مكان ما بميدان «ربين هورتينز»، وليذهب الناس في فندق «دوڤيل» إلى الجحيم أو أعماق البحر، ويقف أحد الأعداء بسلاحه خارجاً والآخر ـ نار والنار تشتعل بنفسها ـ بالداخل، هل سيشوون أم يبحثون عن الموت فوق أسنة الحراب؟

ويصعب أن يتنفس المرء في جو يمتلىء بدخان البترول أساساً، فهناك شمس، لكن حرارتها تسودها حرارة الحرائق، وتجد أشعتها وقد أظلمت بفعل الدخان الأسود القاتم المائل للزرقة والمتصاعد بزيوت شحمية في كل مكان في الجو، فلنخرج منه لأجل الله. . . وأخذت جواداً ومضيت بجوار ضفة النهر في اتجاه «بوان ـ دو ـ جور»، تاركاً خلف ظهري فحيح النيران العالي الباقي ونفاث الدخان ومضيت قدماً لـ «بوان ـ دو ـ جور» عبر خط دفاع «دومبروفسكي» الثاني بجوار قنطرة السكة الحديدية، يا لدومبروفسكي المسكين، إنه مرؤوس رائع لسادة أشرار، وكان عليّ أن أعرف مصيره على وجه التأكيد، فأخبرني بعض الڤرساويين أنهم رأوه يؤخذ أسيراً صباح أمس وسحبوه إلى «تروكاديرو» وأُطلق عليه النار

هناك ببرود شديد في صبيحة النهار وهو ينظر بلا اهتمام لأفواه البنادق، وآخرون يقولون إنه جريح وأسير. . و.

وبينما أصعد المنحدر الواسع للطريق بين «ڤيروفلاي» و «ڤرساي» مررت بجماعة محزونة ومهانة حيث يسير الأسرى من «الكميونة» طابوراً وراء طابور بكل واحد ستة أفراد، وكان هناك أكثر من ألفين منهم معاً، في صبر، يبدو لي أنهم يسيرون شاعرين ببعض من الفخر، متشابكي الأيدي عن قرب، وبينهم عديد من النساء بعضهن كن حارسات المتاريس الشرسات والأخريات مجرد فتيات رقيقات خجولات، ومن يوجد هناك بسبب أبوته ـ على ما يبدو ـ تراه كذلك هنا، والكل بلا أغطية رؤوس، ومعفرين بالتراب، والكثير من بقع البارود، وتلفح الشمس الملتهبة الجباه الشامخة.

ولم تكن الشمس فقط هي التي تضرب وإنما صفحات الحراب التي يحملها جنود الفرقة الإفريقية المتحمسون حراس أولئك البؤساء. وقد تكون خبراتهم علمتهم الوداعة مع الأسرى، إذ لم يهبط نصل حربة فوق رؤوسهم خلال المسيرة الطويلة المرعبة من «سيدان» حتى مكان أسرهم «الألماني» من قبل، وكانوا أسرى للجنود ولم يعودوا كذلك الآن، وهم يرمحون على صهوات جيادهم العربية الفتية، ووسط زهوهم بالنصر الرخيص، يعاملون الشيوعيين المساكين دون شفقة، ففي المقدمة يوجد ثلاثمائة أو أربعمائة أسير مقيدين معاً بالحبال، وفيما بين هؤلاء عدد غير قليل من ذوي الشارات الحمراء وقد تركوا بأذرعهم الحمراء، وإنني لأتعجب أن يوجدوا هنا أصلاً، ولم يقتلوا في شوارع باريس.

وبينما أمضي بجوادي بطول البقعة الخضراء على ضفة «السين» نحو «سان دينيس». أضحى المشهد الذي تتيحه العاصمة مما لا يمكن أن ينسى، إذ ما زالت الشمس تبتسم فوق منازلها البيضاء، ولكن من خلال أشعتها تجاهد أمواج وطيات وأعمدة من الدخان الكثيف لتمرق منها في قتامة، ليست واحدة أو اثنتين، وإنما عددتها على أصابعي حتى تاه العدد مني، ياه. . هناك صوت تحطيم حاد ثم صوت مكتوم كئيب في الجو، ولم يكن صوت مدفعية، إنه صوت انفجار هائل

بالتأكيد، ولا بد أنه حطم باريس من أساسها، وارتفع هناك عمود متشابك كالنبات المتسلق من دخان شديد البياض، مع اندفاعة قاذفة، كالتي يصفها الناس حين يثور بركان «ڤيزوف» ثم انفلتت إلى موجات ندفية ودارت بعيداً نحو الأفق وهي تلف، كالحصاة تلقى في بحيرة لتنتشر موجاتها حتى حافة الماء، والألمان ـ الذين جلسوا بجوار نهر «السين» يراقبون بلا حراك ـ غرقوا في نوبة من الإثارة، التي قد تزداد اتساعاً، فباريس «الجميلة» هي باريس «القبيحة» باريس المدمرة باريس المحترقة والمتناثرة الدماء الآن. . وهذا هو القرن التاسع عشر، وتَدَّعي أوروبا التمدن، وفرنسا تزهو بالثقافة، ويجادل الفرنسي زميله بأطراف البنادق، وباريس تلتهب، ونحن لا نحتاج إلا إلى «نيرون» كي يخدعنا.

«كميونة» باريس، النهاية

«29 مايو/ الماء 1871 افرنجي»

*** أرشيبالد فوربس**

«سور الاتحاديين» الذي قُتل بجواره أعضاء الكميونة، ما زال يعد مكاناً للحج بالنسبة لتيار اليسار الفرنسي».

. . . وبسفري لإنجلترا والكتابة الصعبة طول الطريق بالقطار والقارب، وصلت لندن في الصباح المبكر من يوم الخميس، الخامس والعشرين من مايو، وعدت لباريس في اليوم التالي، وكان كل شيء عندئذ قد انتهى تقريباً، فالرهائن في «لاروكيت» تم إطلاق النار عليهم، وسقط فندق «دوڤيل» بعد ظهر اليوم الذي سافرت فيه، وحينما عدت كان الشيوعيون يلفظون أنفاسهم الأخيرة في «الشاتودو» أو «البيت دوشومو» و «بيرلاشيز».

وبعد ظهر يوم 28 بعد أسبوع فقط من القتال، أعلن المارشال ماكماهون: «إنني سيد باريس المطلق». وفي الصباح التالي قمت بزيارة «بيرلاشيز» حيث أطلقت الرصاصات الأخيرة، كانت النيران الهاجعة قد تغذت بتذكارات الندم الجليل، وتمزقت لُجمُ الحقد لتصبح أغطية للفراش، لكن لم يكن هناك قتال كبير

في الجبانة نفسها، وتقول حكمة صائبة: إن النيران القريبة هي ثلمات لرصاص كثير، ومن هذه الأنواع كان هناك القليل نسبياً في «بيرلاشيز». وعلى أية حال فالقذائف تساقطت بكثرة وكانت النتائج بالتبعية شديدة البشاعة.

ولكن أبشع منظر في «بيرلاشيز» كان في الركن الجنوبي الشرقي، بالقرب من سور الحدود، حيث وجدت حفرة طبيعية، وهي الآن ممتلئة بالموتى، ويستطيع المرء أن يقيس الموتى بواسطة عمود، إذ ترقد هناك طبقة فوق أخرى وكل طبقة تالية نثر عليها مسحوق الجير، ويبدو ظاهراً للعين مائتان منهم بالإضافة لأولئك المختفين أسفل التراب تغطي الطبقة الأخرى، وكان بين الموتى الكثير من النسوة، وهناك تحت الشمس توجد ذراع مستديرة بأحد أصابعها خاتم، وهناك - أيضاً - صدر شَكَّلَه الموت، وفيما بعده وجوه إذا تأملتها تجعلك ترتعد، وقد زالت عنها ملامح الإنسانية بالرعب والألم المركب، والتأثير المخيف للمسحوق الترابي الأبيض فوق الأعين الكئيبة، والأسنان المكزوزة واللحى الممزقة، أمور لا يمكن وصفها، كيف مات أولئك الرجال والنساء؟ هل حملوا إلى هنا ووضعوا في حفرة الموت تلك في «بيرلاشيز»؟ ليس الأمر كذلك، فالحفرة قد ملئت من مكان قريب، فهناك فقط أوقفوهم أمام ذلك الجزء من الحائط الصغير، وليست هناك صعوبة في قراءة الكتاب المفتوح - ثم أطلقت النيران عليهم حتى الموت أثناء وقوفهم أو زحفهم.

ستانلي يعثر على ليفنجستون

«10 نوفمبر/ الحرث 1871 افرنجي»

هنري. م. ستانلي

«دافيد ستانلي، مبعوث اسكوتلندي ومستكشف، قاد بعثة لإفريقيا الوسطى عام 1866 افرنجي فقده بعض من رفاقه فاختلقوا قصة قتله بواسطة قبائل «النجوني» وقامت صحيفة «النيويورك هيرالد» بإيفاد مراسلها هنري. م. ستانلي إلى إفريقيا بحثاً عنه».

ساعتان أوصلتانا لقاعدة التل، الذي قال لنا رجل «الكيرانجوزي» إننا نستطيع رؤية بحيرة تنجانيقا العظيمة من فوق قمته. ودون اهتمام بالممر الصعب أو بالمنحدر المرهق، اندفعنا للأمام مُحفزين بالوعد البهيج، فأتممنا الصعود في وقت قصير واستمتعت بالمشهد، وبينما نهبط تجلى أكثر فأكثر للرؤية حتى انكشف في النهاية كبحر داخلي عظيم، محاط في اتجاه الغرب بسلسلة من الجبال زرقاوية السواد والمفزعة، وتمتد شمالاً وجنوباً بلا حدود، مساحة شاسعة من المياه الرمادية.

ومن القاعدة الغربية للتل على مسيرة ثلاث ساعات، وبرغم أن أية مسيرة لم تنته بمثل هذه السرعة، بدت الساعات كأنها أرباع الساعة، ورأينا الكثير مما هو جديد ونادر بالنسبة لنا، نحن الذين كنا نرتحل طويلاً في البلاد البعيدة، فالجبال التي تحيط بالبحيرة شرقاً تتراجع، في حين تقدمت البحيرة، ثم عبرنا ذلك الشريط بحزامه السميك من العشب الطويل الداكن. فَغُصنا وسط غابة منه ودخلنا في الحقول المزروعة التي تمد ميناء «يوجيجي» بالخضروات و. . إلخ.

وقفنا في النهاية على قمة التل الأخير من آلاف التلال التي عبرناها، وكان ميناء «يوجيجي» - المحاط بالنخيل والأمواج الرقيقة للمياه الفضية لبحيرة تنجانيقا التي تتدحرج عند أقدامها - أسفلنا مباشرة. . نحن الآن على وشك الهبوط، وفي دقائق قليلة سنصل للمكان الذي نظن أنه هدفنا، وسيتقرر مصيرنا حالاً. . . لا أحد في تلك المدينة يعرف أننا قادمون، على الأقل فهم يعرفون أننا قريبون منهم ولو أن أحداً منهم سمع في حياته شيئاً عن الرجل الأبيض في «يونيانيمبي» فلا بد أنهم يعتقدون أننا هناك حتى الآن.

حسناً، نحن الآن على بعد ميل واحد من «يوجيجي»، وهو وقت مناسب لإعلامهم أن قافلة على وشك الوصول، وهكذا مرت كلمة «أطلقوا النار» بطول الطابور، وبدأوا ذلك بسرور، فَعمّروا بنادقهم بنصف ذخيرة، وزأروا كسفينة قتال، وتغلغلت أسياخ التعمير في البنادق لتحشو عبوات كبيرة نحو خزنة البندقية،

وتم إطلاقها دفعة وراء الأخرى، ورفرفت الأعلام وعلم أمريكا في المقدمة يلوح في سعادة، والدليل في قمة زهوه، وأهالي «زانزيتا» السابقون سيدركون ذلك مباشرة وسيتعجبون ـ ربما لما يعنيه هذا، ولم تكن النجوم ولا الشرائط في العلم الأمريكي ـ جميلة في رأيي كمثل هذه اللحظة من قبل، فنسيم بحيرة تنجانيقا له تأثيره عليهم.

ونفخ الدليل في بوقه، وتردد صوته الصارخ الوحشي في القريب والبعيد، وما زالت طلقات السلاح تعلن عن الثواني الصاخبة، وعند هذه اللحظة، انتبه العرب تماما مواطنو «يوجيجي» و«واجوها» و«واروندي» و«دانجونا» ولا أعرف أحداً إلا المئات ممن أسرعوا ليسألوا عما يحدث، هذه النيران الكثيفة وأصوات النفير والعلم المرفرف، وهناك الكثيرون هتفوا لي بالعشرات، وهرع العرب الفرحين لمصافحتي ـ مقطوعي الأنفاس ـ، وليسألوا في لهفة «من أين جئت؟» ولم يكن لدي صبر عليهم، فالبعثة قد أبطأت كثيراً، إذ يجب عليّ أن أضع السؤال المثير بمقابلة شخصية، أين هو؟ وهل مات؟ . . وفجأة صاح رجل ـ أسود ـ بالإنجليزية: «كيف حالك سيدي؟» . . . فرددت «مرحباً، ومن تكون بحق «الشيطان»؟ قال: «أنا خادم الدكتور ليڤنجستون» وقبل أن أتمكن من إلقاء المزيد من الأسئلة عليه، جرى كالمجنون باتجاه المدينة، ودخلنا المدينة في النهاية، ومئات من الناس حولي.

إنها لحظة انتصار عظيم، فبينما نتحرك يتحركون، وكل الأعين مشدودة نحونا، ووصلت البعثة أخيراً إلى منتهى، فها هي الرحلة تقف مؤقتاً، لكني الوحيد الذي أمامه بعض خطوات قليلة عليه أن يؤديها.

هناك مجموعة من العرب المحترمين، وبينما اقترب منهم أرى وجه رجل أبيض عجوز بينهم يرتدي قبعة حولها شريط ذهبي، ولباسه سترة قصيرة من القماش السميك الأحمر، وسرواله . . حسناً لم ألاحظه . . وها أنا أصافحه ورفعنا قبعتينا، وقلت: «دكتور ليڤنجستون، تشرفنا» فقال: نعم!!.

فظائع الأتراك في بلغاريا

«2 أغسطس/ هانيبال 1876 افرنجي»

مراسل «الديلي نيوز» يصل قرية «باتاك»

*** جـ ـ أ ـ ماكجاهان**

«قامت القوات التركية بقمع الثورة البلغارية عام 1876 افرنجي بوحشية، وبخاصة القوات غير النظامية المسماة «الباشبازوقات». وساعد الرعب الذي أثارته تقارير ماكجاهان على تقرير الحكم الذاتي لبلغاريا عام 1878 افرنجي في مؤتمر برلين».

. . . وأسفل قاع واحد من تلك الأغوار، استطعنا تمييز قرية، أفادنا دليلنا أن المسافة ستستغرق ساعة ونصف كي نصلها، برغم أنها تبدو ـ حقيقة ـ شديدة القرب، إنها قرية «باتاك» التي كنا نبحث عنها، وكانت جوانب التل مغطاة بحقول صغيرة من القمح والشعير، الذهبيين بسبب نضجهما، ورغم أن الحصاد أزف وازدادت نضجاً، ورغم أن الحبوب الممتلئة في أماكن كثيرة قد تحطمت سوقها السريعة الذبول والتي لم تعد تستطيع رفعها عالياً، فارتمت ساقطة على الأرض، إلا أنه لا توجد مجرد إشارة لرجال حصاد يحاولون إنقاذ المحصول، فالحقول هُجرت كالوادي الصغير، والثمار تتعفن في التربة.

وخلال ساعة اقتربنا من القرية. . . وبينما نحن نقترب لفت انتباهنا بعض الكلاب فوق منحدر يطل على المدينة، فتحولنا جانباً عن الطريق، وعبرنا حطام حائطين أو ثلاثة خلال عدة حدائق، حاثين جيادنا لصعود المرتفع نحو الكلاب، فنبحت علينا بصورة غاضبة وهربت إلى الحقول المجاورة، ولم ألحظ شيئاً غريباً. . أثناء صعودنا، حتى تعثر جوادي وحين نظرت لأسفل وجدت أنه قد خطا فوق جمجمة بشرية تكاد تكون مخبوءة بين العشب، وكانت شديدة الجفاف والصلابة وربما ـ من الملامح الظاهرة ـ كانت هناك لسنة أو سنتين، وعلى هذا تكون الكلاب قد أجادت عملها، وبعد خطوات قليلة كانت هناك واحدة أخرى

وبجوارها جزء من هيكل عظمي، هو أيضاً أبيض وجاف، وبينما نهبط أصبحت العظام والهياكل والجماجم أكثر تكراراً، لكنها هنا ليست مثل سابقاتها من النظافة، إذ توجد قطع من اللحم نصف المتعفن والجاف عالقة عليها.

وفي النهاية وصلنا إلى ما يشبه الهضبة أو النتوء على جانب التل، حيث تستوي الأرض تقريباً، عدا تعريج ضئيل تبرز منه فتحة، فمضينا نحوها بغرض عبورها، لكن الجميع شدوا لُجم الخيول فجأة مع صيحة فزع، فأمامنا مباشرة، ـ ويكاد يكون تحت أقدام خيولنا ـ منظر جعلنا نرتعد، إنه كوم من الجماجم مختلطة بكل أنواع عظام الجسم البشري، وهياكل عظمية كاملة تقريباً، وملابس متعفنة، وشعر آدمي ولحم متورم، كلها ترقد هناك في كوم واحد قميء، نبتت حوله الحشائش بوفرة، وكان يفرز رائحة كريهة، كجواد ميت.

وهنا كان الكلاب يبحثون عن وجبة سريعة، حين فاجأهم وصولنا غير المتوقع.. ووسط هذا الكوم، استطعت تمييز هيكل نحيف لا زال مغطى بقميص والجمجمة ملفوفة بمنديل ملون، والكاحلان العظميان مغلفان بجوارب من التي لا كعب لها ـ مما ترتديه الفتيات البلغاريات، وتطلعنا حولنا، كانت الأرض تتناثر عليها العظام في كل اتجاه، حيث حملتها الكلاب لتنهش فيها وقت فراغها، وعلى بعد مائة ياردة أسفلنا تقع المدينة، وكمشهد نراه من موقعنا، ذكرتني بشيء أشبه بحطام مدينة «هيركلانيوم» أو «بومبي».

لم يكن هناك سقف واحد سليم، ولا حائط ينتصب، كله كتلة من الحطام، يتصاعد من بينه ـ كما سمعنا ـ نحيب ملتاع خافت، يشبه ولولة الإيرلنديين على موتاهم، ملأ الوادي الصغير وأنطقه، وعلى الجانب الآخر من الطريق، يوجد هيكلان لطفلين يرقدان بجوار بعضهما مغطيان ـ إلى حد ما ـ بالأحجار، بقطع حادة مرعبة في جمجمتيهما الصغيرتين وعدد الأطفال الذين قتلوا في هذه المذابح شيء هائل، وغالباً ما كانوا يعلقون على أسنة الحراب، ولدينا روايات عديدة من شهود عيان رأوا أطفالاً صغاراً، يُحملون في الشوارع ـ هنا وفي «أوتلوك ـ

كوي» ـ فوق أطراف هذه الحراب، والسبب بسيط، فحين يقتل «المسلم»[1] عدداً معيناً من الكفرة يضمن الجنة، مهما تكن خطاياه، وربما قصد محمد (ﷺ) أن المسلحين من الكفار فقط هم الداخلون في الاعتبار، لكن المسلم العادي يأخذ المفهوم بمعناه الواسع، ويطبق ذلك على النساء والأطفال أيضاً.

وهنا في «باتاك» ولكي يفي الباشبازوقات بالعدد، قاموا بشق بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة قبل ميلادها.. وبينما نقترب من وسط المدينة أصبحت العظام والهياكل العظمية والجماجم أكثر عدداً، ولم يكن هناك منزل لم نر بين حطامه بقايا آدمية، في حين امتلأت الشوارع في الجوار بهذه البقايا، وأمام العديد من مداخل البيوت تمشي النسوة جيئة وذهاباً ينتحبن بمراثي الموت، وقامت واحدة منهن بإمساكي من ذراعي وقادتني داخل هذه الحوائط وهناك في ركن منها، وجدت بقايا فتاة صغيرة أخرى، نصفها مغطى بالأحجار «والمونة»، بشعرها المتطاير في عنف بين الأحجار والتراب، والمرأة تصرخ بشدة من الحزن، وتخبط برأسها الحائط في جنون، ولم أستطع سوى الالتفاف والخروج مُثقل القلب، تاركاً إياها وحيدة مع جثتها.

وبعد خطوات قليلة أخرى، جلست امرأة فوق سلم الباب تهز نفسها أماماً وخلفاً تنوح بحزن لا يمكن تخيله، دافنة رأسها بين ذراعيها وأصابعها تلتوي دون وعي وتمزق شعرها وهي تنظر «لحجرها» حيث ترقد ثلاث جماجم صغيرة والشعر ما زال عالقاً بها... كيف نجت تلك المرأة؟ في حين ذُبح أطفالها؟ من يدري؟ فربما كانت خارج القرية حين وقعت المذبحة، وربما هربت بطفلة أخرى بين ذراعيها، تاركة أولئك لينقذهم أبوهم، أو ربما والأكثر رعباً والأكثر أسى من أي شيء آخر، أن الرعب قد صعقها لدرجة أن تهجر الأطفال الثلاثة المساكين لمصيرهم وتنقذ حياتها بالهرب، لو أن الأمر كان كذلك، فلا عجب أن تمزق شعرها بتلك الصورة اللاواعية المخيفة وهي تنظر للرؤوس الصغيرة الثلاثة الراقدة في حجرها.

(1) لا يفوت القارىء جهل الكاتب هنا إما عن عمد لتشويه الإسلام أو عن غير جهل، لكنه باستدراكه في الجملة التالية يثبت عمد التشويه حتى يرسخ من الجملة الأولى «المترجم».

لم تكن الكنيسة مبنى ضخماً، وكانت محاطة بسور حجري منخفض يلف فناءً صغيراً، اتساعه خمسون ياردة وطوله خمس وسبعون ياردة، ولم نلاحظ شيئاً في البداية، فرائحة العفونة كانت شديدة لدرجة أننا لم نهتم بالنظر فيما حولنا إلاّ لماماً، لكننا رأينا أن المكان يمتلىء بأكوام الأحجار والنفايات لارتفاع خمسة أو ستة أقدام فوق مستوى سطح الشارع، ومع الفحص اكتشفنا أن ما بدا أنه كتلة من الحجر والنفايات هو في الحقيقة كوم ضخم من الجثث البشرية تمت تغطيتها بطبقة رقيقة من الأحجار، وتكوم كل الفناء بهذه الجثث لعمق ثلاثة أو أربعة أقدام، ومن هنا كانت تأتي الرائحة البشعة.

بعد بضعة أسابيع من المذبحة أُرسلتْ الأوامر بدفن الموتى، لكن الجيف حينذاك أصبحت مميتة لدرجة أن تنفيذ الأوامر أصبح مستحيلاً، أو حتى البقاء بالقرب من القرية، وقام الرجال الذين أرسلوا لتنفيذ العمل بإرضاء أنفسهم بدفن عدد قليل من الجثث، وألقوا قليلاً من التراب فوق آخرين حيث يرقدون، وهنا في فناء الكنيسة حاولوا تغطية هذا الكوم الضخم من الجيف البشري بإلقاء الأحجار والقمامة عبر الأسوار دون أن يجرؤوا على الدخول، ونجحوا في ذلك جزئياً فقط، وكانت الكلاب تعمل عملها منذ ذلك الوقت، والآن نستطيع رؤية رؤوس وأذرع وأرجل وأقدام وأيد تبرز منه في فوضى مرعبة.

وأخبرونا أن ثلاثة آلاف من الناس يرقدون هنا في فناء الكنيسة هذا فقط، ونحن نصدق ذلك تماماً، لقد كان منظراً مخيفاً يمتلك الإنسان طوال حياته، فهناك رؤوس صغيرة ذات خصلات حلقية وسط تلك الكتلة الرملية حطمتها الصخور الثقيلة، وأقدام صغيرة تصل لطول أصابعك جف اللحم فوقها بشدة بفعل الحرارة اللافحة قبل الوقت الكافي لتحلله، وأيدي أطفال صغيرة امتدت كما لو كانت تطلب الغوث، وأطفال ماتوا يتعجبون من التماعات الضوء على السيوف والأيدي الحمراء لرجال وحشيي العيون قاموا بحصدهم، وأطفال ماتوا يصرخون من الخوف والرعب، وفتيات متن يبكين ويتأوهن ويستجدين الرحمة، وأمهات متن وهن يحاولن حماية صغارهن بأجسادهن الضعيفة، الكل يرقد هناك معاً،

يجيفُ في كتلة واحدة مرعبة، وأصبحوا صامتين الآن، فلا دموع ولا صراخ ولا بكاء ولا صرخات رعب ولا توسلات من أجل الرحمة، فالثمار تتعفن في الحقول، والحاصدون يتعفنون هنا في فناء الكنيسة.

مهاجر يعبر القارة الأمريكية

«23 أغسطس/ هانيبال 1879 افرنجي»

*** روبرت لويس ستيفنسون**

«بعدما سافر ستيفنسون مُسطَّحاً[1] على ظهر الباخرة «ديفونيا» إلى نيويورك، قام بعبور القارة الأمريكية حتى كاليفورنيا في قطار للمهاجرين».

. . . عصفت السماء ليلة الجمعة، لكن الشمس أشرقت يوم السبت دون سحب. كنا في بحر من سهول نبراسكا ـ وليس من وصف آخر يعبر عن ذلك سوى «بحر» ـ وجعلت مركز استطلاعي فوق قمة عربة فاكهة فجلست ساعتئذٍ فوق ذلك الفراش أرقب ما حولي بلا جدوى، فلا شيء جديد، لقد كان عالماً بلا ملامح أو يكاد: سماء فارغة، وأرض خلاء، أماماً وخلفاً، يمتد من الأفق حتى الأفق، مثل عصا فوق طاولة البلياردو، وعلى الجانبين سهل أخضر يمتد حتى يلمس أطراف السماء، وعلى طول الطريق، تينع أزهار عباد الشمس البرية بلا حصر، ولا يزيد حجم الواحدة على قطعة النقود المعدنية في حوض لا ينقطع من الزهور، وتظهر حيوانات الرعي فوق سهول البراري على كل أبعاد المسافات ثم تتضاءل، وقد نلاحظ على فترات نقاطاً قليلة بجوار خط السكة الحديدية، تكبر وتكبر حتى تتميز معالمها كلما اقتربنا وتتحول إلى كبائن خشبية، ثم تتضاءل وتتضاءل أمامنا حتى تذوب فيما جاورها، وأضحينا مرة أخرى فوق طاولة البلياردو ويزحف القطار فوق هذه اللانهائية كحلزون بطيء، ولأنه الشيء المتحرك الوحيد، كان رائعاً أن نؤكد على النسبية الهائلة من ناحيتنا إذ بدا أميالاً في طوله،

(1) Steerage «مسافراً» فوق سطح الباخرة إما بأرخص أجر أو مجاناً، ولا أجد أقرب معنى لذلك سوى كلمة «مسطح» أي مسافر بلا درجة على ظهر السفينة «المترجم».

وكل طرف منه على مدى خطوة واحدة فقط من الأفق، وحتى جسمي أو رأسي بديا شيئاً ضخماً وسط ذلك الفراغ، ولاحظت الشعور الأكثر تهيؤاً بعكس ما قرأته في خبرات الآخرين. . . وليلاً ونهاراً- على زئير القطار - انشغلت آذاننا بالصفير المتواصل لحشرات العشب في صخب أشبه بدقات ساعات ومنبهات لا نهائية، بدأت تظهر - بعد فترة - ملائمة لتلك الأرض.

زواج الفنان بول جوجان

«تاهيتي 1892 افرنجي»

*** بول جوجان**

في رحلة حول الجزيرة، تاركين الطريق الساحلي، غصت في غابة تؤدي بنا بعيداً حتى الجبال، ووصلنا عند وادٍ صغير، حيث يعيش أناس كثيرون هناك ويرغبون في الحياة على الطريقة القديمة. . وتحركت، ووصلت «تارافو» - عند الطرف البعيد من الجزيرة - وأعارني رجل الشرطة جواده، فقدته على طول الساحل الشرقي الذي لا يرتاده - كثيراً - الأوروبيون، ووصلت «فاون» المقاطعة الصغيرة التي تقع قبل مقاطعة «إتيا» وصاح أحد الوطنيين فيَّ: «أنت أيها الرجل الذي يصنع صور الرجال» - كان يعلم أنني رسام - «تعال كُلْ معنا» ثم نطق بعبارات الترحيب، وأنا لا أحتاج أن يطلب مني ذلك مرتين فوجهه شديد اللطف، فهبطت من فوق جوادي، وأخذه ليربطه في فرع شجرة دون أي خنوع، ببساطة وبراعة، ودخلت منزلاً يتجمع فيه العديد من الرجال والنساء والأطفال، يجلسون أرضاً يثرثرون ويدخنون، وقالت لي امرأة رائعة من «الماوري» في حوالى الأربعين من عمرها: «إلى أين أنت ذاهب؟» قلت: «إلى إيتيا» فسألت: «لماذا؟» طرأت بذهني فكرة فقلت: «لأبحث عن زوجة، إيتيا تمتلئ بفتيات كثيرات رائعات». فقالت: «هل تريد واحدة؟». نعم، إذا شئت، فسأمنحك واحدة، هي ابنتي»

- هل هي صغيرة؟

- «نعم». . .

ـ هل هي جميلة؟

ـ «نعم». . .

ـ هل هي بصحة جيدة؟

ـ «نعم». . .

ـ «حسناً» اذهبي فأحضريها لي.

ذهبت المرأة وغابت ربع الساعة، وبينما أحضروا وجبة «الماوري» المكونة من الموز البري والجمبري، عادت المرأة الكبيرة تتبعها فتاة طويلة صغيرة تحمل طرداً صغيراً، يمكن أن ترى البشرة الذهبية لكتفيها وذراعيها من خلال ردائها الشديد الشفافية من الحرير الوردي، ثديان ينفران بثبات عن صدرها، وبدا لي وجهها الساحر مختلفاً عن الأخريات اللائي رأيتهن فوق الجزيرة حتى هذه اللحظة، وشعرها الكثيف كان ملفوفاً بخفة تحت أشعة الشمس باقة من الصبغة الصفراء، وقد اكتشفت أنها من أصل قبائل «التونجا» وعندما جلست بجواري سألتها:

ـ «ألا تخافين مني»؟ قالت: «لا».

ـ «أتحبين الحياة دائماً في كوخي»

ـ «نعم».

ـ «ألم تمرضي من قبل»؟.

ـ «لا».

كان هذا كل شيء، وانتفض قلبي وهي تضع ـ بحيوية ـ الطعام الذي أهدته لي على الأرض فوق ورقة موز ضخمة أمامي.. ورغم جوعي أكلت في حياء، إن تلك الفتاة، طفلة في حوالي الثالثة عشرة من عمرها أسعدتني وأخافتني، فماذا يدور في نفسها؟ وعند ذلك ما إن كُتب العقد ووقع حتى شعرت بتردد مخجل حول التوقيع، فأنا رجل عجوز تقريباً، وربما أمرتْ بذلك أم الفتاة وعقلها مُركز على المال، وبرغم ذلك فإن العزة بالاستقلالية لكل هذا الجنس الآدمي موجودة في تلك الطفلة الطويلة.. نقاء شيء يستحق الثناء وأبدت الشفاه الساخرة ـ مع رقتها ـ أن الخوف من أجلي لا من أجلها بوضوح.

غادرت الكوخ، ولا أقول دون خوف، وأخذت جوادي وأمتطيته، وتبعتني الفتاة، والأم، ورجل، وامرأتان صغيرتان ـ قالت إنهما عمتاها ـ تبعوني كذلك، واتخذنا طريق العودة إلى «ترافُو» على بعد تسعة كيلومترات من «فاون» وبعد كيلو متر واحد أخبروني بالتوقف: «قف هنا»، فهبطت من فوق جوادي ودخلت كوخاً كبيراً، جيد الترتيب، وتكاد تشتم فيه زخماً من رائحة الأرض السخية: وسائد رائعة فوق الأرض، على قمة قش، وأسرة صغيرة وكريمة لأقصى حد عاشت هناك. وجلست الفتاة بعد أمها، فقدمتها إليّ، وصمت، ثم شربنا ماءً بارداً كل بدوره كما نشرب النخب، وقالت الأم الصغيرة لي، والدموع تطفر من عينيها: «هل أنت طيب؟».. وعندما تيقنت من وعيي أجبت بصعوبة «نعم».. «هل ستجعل ابنتي سعيدة؟» «نعم».. «خلال ثمانية أيام دعها تعود لي، إذا لم تكن سعيدة، ستتركك».

ثم صمت طويل، وخرجنا، وصعدت ظهر جوادي، وتتبعوني، وقابلنا العديد من الناس على الطريق، «حسناً.. حسناً، أنت عروس رجل فرنسي الآن، أليس كذلك؟.. نتمنى لك السعادة، وحظاً طيباً». وقد أقلقتني مسألة وجود أُمّين لها، فسألت المرأة الكبيرة، ـ التي أعطتني بنتها ـ «لماذا كذبت عليّ؟». فأجابت أم «تارهورانتا». ـ وهذا هو اسم زوجتي ـ «الأخرى هي أيضاً أمها، أمها بالرضاعة» ووصلنا «ترافُو»، فأعدت الجواد للشرطي، وقالت لي زوجته وهي امرأة فرنسية ـ ليس عن نية سيئة بالفعل وإنما بدون لياقة ـ: «ما هذا هل أحضرت داعرة معك؟» وعَرّت نظراتها الفتاة الهادئة، وتعالت في تيه،... فالعجز ينظر محملقاً في الإزهار الجديد، وحامية القانون تنفخ في كدر على المواطنة الصغيرة، لكنها الوقاحة الخالصة للصدق والإيمان، وعلى صفحة تلك السماء الشديدة الزرقة، رأيت بحزن تلك السحابة القذرة من الدخان، فشعرت بالخجل من جنسي وتحولت عيناي بعيداً عن ذلك الوحل ونسيته بسرعة، كي أحملق في هذا الذهب الذي عشقته بالفعل، إني أتذكر هذا، وكان وداعنا مع أسرتها في «ترافُو» عند محل «الصيني» الذي يبيع كل شيء، بشراً وحيوانات، وأخذت أنا وخطيبتي عربة

عامة أوصلتنا إلى «ماتايا» على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً من هناك يوجد منزلي.

الحرب التركية اليونانية: حصار «بريڤيزا»

«18 أبريل/الطير 1897 افرنجي»

*** ريتشارد هاردنج ديڤيز**

«انتهت الحرب التركية ـ اليونانية «التي تبعت محاولة اليونان لضم كريت» بهزيمة اليونانيين في مايو 1897 افرنجي، و«بريڤيزا» في غرب اليونان، احتلها الأتراك عام 1798 افرنجي، ولم يستردها اليونانيون حتى عام 1913 افرنجي، بدأ حصار «بريڤيزا» يوم 18 أبريل وواصل الضباط اليونانيون حصارهم بسفن القتال حتى عقد الهدنة».

كان من الصعب التصديق بأن هناك حرباً فوق ذلك الجزء من بلاد اليونان، وكان صعباً ـ كذلك ـ أن تدرك مدى تمكن الجنود ـ مع مثل هذه الخلفية ـ من لعب دور مأساوي لهذه الدرجة، لأن المشهد كان معداً لمسرحية شاعرية، وربما لأوبرا كوميدية، لو أن إيرلنده تشبه الزمردة، فهذا الجزء من أرض اليونان يشبه الياقوت، لأن ألوانه شديدة الحدة واللمعان كتلك في أحجار الياقوتة الكريمة، ومخبوءة ـ مثلها أيضاً ـ بسحب ضبابية بيضاء تُنعّمها وتُجمّلها.

في مقابل السماء اللامعة الزرقاء تجد الجبال الثلجية القمم، وأسفل الجليد تختط مراعٍ خضراء تنساب بكتل ضخمة من النباتات القرمزية والصفراء والقمح المتماوج، الذي يتغير حين تهب الريح ويتأرجح كموجات من الدخان. وفي العشب المرتفع تجد أزهار نبات الكتان خفيفة الزرقة فوق سيقان طويلة مثنية، وأزهار بيضاء بقلب أصفر، وأميال من الخشخاش برتقالي اللون، وفوقهم أشجار الحور الطويلة القاتمة، وأشجار الزيتون رمادية الخضرة، وتنزلق الرياح القادمة من البحر الإدرياتي وخليج آرتا فوق هذا المدى الملتهب في أمواج هائلة سخية، تُبرد الهواء الساخن وتحرك الأوراق الخضراء والأعشاب المرتفعة والأزهار المتثنية بنسيم البحر المنعش القوي.

وترمي السحب البيضاء بظلالها فوق الجميع وهي تمضي سريعاً أو تستريح فوق التلال رمادية الصخور، حيث تتطلع الأغنام الصفراء من الممر أسفلنا، كحبات سمينة من القمح نُثرت فوق صفحة طاولة البلياردو الخضراء، وقد تركب لعدة أميال عبر ذلك الريف الجميل ولا ترى شيئاً يتحرك سوى قطعان الماعز حريرية الشعر، والأغنام الصفراء، والرعاة ينحنون فوق بنادقهم الطويلة، وهم في عباءاتهم المحكمة التي بلا أكمام وسُتراتها المطرزة يشبهون أمراء الأرض. ويصعب أن تتخيل جنوداً يقاتلون بوحشية وبأعين دامية في مكان كهذا.

وعلى سبيل الحقيقة، لم يكن هناك جنود يتقاتلون، عدا مكان محدود وبطريقة معدة جيداً، فهناك في «ثيسالي»، لأننا جميعاً هنا نعلم، أن هناك حرباً، وهذا هو كل ما تستلزمه الحرب. لكن عند آرتا العالم يمضي كالمعتاد، ترن أجراس الأغنام من كل جوانب التل، ويتنزه الجنود تحت ظلال الأشجار. واستمر قصف «بريڤيزا» مع توقف نهاراً كل فترة، وتعيد إجابات مدافع الأتراك التهنئة بأسلوب اعتذاري ومُتقطع، وأحياناً يبدو ـ تقريباً ـ أنهم غير متأكدين بشأن تعمير أسلحتهم من عدمه ـ إلى هذا الحد كان هدف الأتراك سيئاً ـ فيشدون حبال الضرب ليروا النتيجة، لأنهم كسالى لدرجة عدم الرغبة في فتح خزنة السلاح لإلقاء نظرة.

إجازة على شاطىء البحر..

«ساحل نورفولك أغسطس/ هانيبال 1897 افرنجي»

*** و.هـ. هدسون**

ازدحمت المدينة الصغيرة كثيراً بزوار الصيف المتأخرين، الكل يشتاق للبحر إلا أنه اضطر لتضييع وقت ثمين محبوساً في شقته، وعند كل ملمح لبادرة تحسن في الطقس ينصبّون من بيوتهم، ويتغطى المنحدر الأخضر بجماهير من مئات الناس يُهرعون نحو الشاطئ، متكونة ـ في أغلبها ـ من النساء، بمعدل ثلاث نساء لكل رجل واحد، إذا كان لي أن أقول، وأطفالهم، وكانت واحدة من أكثر التجمعات إثارة مهما مررت به في حياتي، باعتبار العدد الكبير من الأشخاص وما

فيه من النماذج الغريبة الرقيقة، جمعتهم الصدفة في ذلك المكان، إنه تجمع الشقراوات الإنجليزيات الكبيرات.

وكان هناك العديد من الأشخاص من ذلك النوع، أعطين طابعاً خاصاً لهذا التجمع، لدرجة أن أولئك اللائي كن من طبيعة ولون مختلف ظهرن أقل مما هم، وكن بارزات في الغالب، فقد أتين من أماكن مختلفة فيما حول البلاد، من الشمال والوسط، وبدا عليهن أنهن من الطبقات المرفهة، وهن - أو كثيرات منهن - جئن مع عائلاتهن ولكن دون رب الأسرة، وكن - غالباً - طويلات وكبيرات الجسم بكل المقاييس، ببشرات شديدة البياض، وشعر ذهبي أو خفيف وأعين واسعة زرقاء، ومن خصائصهن العامة، طريقتهن الاسترخائية التامة، فهن يمشين ويتحدثن ويقمن ويجلسن ويفعلن كل شيء في جو من التؤدة - حقيقة - وينظرن إليك بنظرة ثابتة بطيئة ومعتزات بأنفسهن أو حتى بعضهن عظيمات.

كن كقطيع ضخم من البقر الأبيض الجميل، والأطفال أيضاً - خاصة البنات - بعضهم كانوا طوالاً كأمهاتهم الضخمات، رغم أنهم ما زالوا في أرديتهم القصيرة إلا أنهم كانوا في منتهى الروعة، وكان بعض أوقات فراغهم يقضونه في التجديف، ومن الممتع رؤية أقدامهم وأرجلهم العارية، فأرجل هؤلاء الذين مكثوا طويلاً في المكان، - ربما عدة أسابيع في بعض الأحيان - كانت ذات مسحة بنية غامقة كالبندق المخلوط بالوردي، وبعد أولئك تدريجات لونية، بني فاتح متخالط مع لون البشرة، ولون وردي مع لون الكريم، مثل وردة «جلوار دو ديجون»، وهكذا حتى لون أزهار البرسيم الوردية الرقيقة الناعمة. وأخيراً اللون الأبيض العاجي النقي لآخر القادمين الذين لم تتأثر بشرتهم ولم تلونها الشمس والريح بعد.

هجوم على عطبرة

«10 أبريل/الطير 1898 افرنجي»

*** جورج.و. ستيفنس..**

«تم تعيين كيتشنر سرداراً «قائداً عاماً» للجيش في مصر عام 1892 افرنجي،

وكان تقدمه نحو نهر عطبرة جزءاً من حملته على الانفصاليين السودانيين من قوات المهدي».

بينما أول أشعة شروق الشمس تنساب فوق رمال الصحراء، نهض الجيش ووجد نفسه في مواجهة العدو، فطوال الليل كان قد تحرك على غير هدى ـ وهو على يقين ـ وعند الساعة السادسة مساء أضحت الفرق الأربع مربعات سوداء فوق الصحراء المرتفعة خارج شجيرات معسكر «أم ظبية»، واستعدوا للمسير، وحصى قاس تحت أقدامهم، وقمر مكتمل فوق الرؤوس، وحولهم أفق نائى يبدو لا نهائياً إلاّ أنه لا يكشف شيئاً، وتقدمت الفرق بثبات لمدة ساعة، ثم رقد الجميع، حتى إن الفرق الأخرى اختفت وسط الصحراء.

وأصبحت واجهات المربع البريطاني لا تعدو ظلالاً تحت أشعة القمر، وكان المربع غير مُقفل، وأخذوا الجياد أولاً حتى النهر ثم الجنود بأنصاف كتائب، ونحن الذين كان معنا ماءً أكلنا بعض البسكويت، ووضعنا رؤوسنا في أكياس رمل فارغة، ولففنا أجسامنا في بطانيات ونمنا قليلاً. وكان الأمر التالي، حفيفاً طويلاً فوق رؤوسنا يمرق علينا في همس، تحريض لنا على النهوض والركوب والتحرك.

كان القمر قد تحرك من فوق الرؤوس وكانت الساعة الواحدة، وامتلأ الطابور بالحياة والحركة، وانحنى للأمام بادئاً المسير نصف نائم. لم يتكلم أحد ولا إشعالة ضوء ظهرت، سوى وقع الأقدام المكتومة فوق الرمل، والأشباح القمرية المخبوءة التي تنهي المخيلة عن اعتبار ذلك كله حلماً، وكان شكل طوابير الجنود يتقارب مرة ويتباعد أخرى، ثم يتقارب مرة ثالثة حين توعر الأرض أو يتغير الاتجاه، والضباط الفرسان مع الأمر الهامس: «الكتف الأيسر: للأمام»، ومثابرة بغال مدافع «ماكسيم» على التقدم، وطوابير الجمال المتأرجحة ورائحتهم النفاذة، والصهيل النادر لجواد ما، وكانت الفرق الثلاث الأخرى مثل ذلك، كنا نعلم بها دون أن نراها أنها كانت نفس حرب الآليات تماماً، كما رأينا طوال أيام تلك الحملة فقط هذه المرة، في إصرار مميت وتحرك سري، ولكنه حاشد للأمام باتجاه حدث لا يستطيع أحد أن يتنبأ به بالتأكيد.

سرنا حتى ما بعد الرابعة ثم توقفنا، ورقد الجنود مجدداً وناموا، وتمشى الباقون ذهاباً وجيئة يتحدثون لبعضهم البعض متسائلين في أصوات خفيضة «أين سيكونون؟»، هل سيحاربوننا أم سنجد خطوطهم خالية، وكيف سيكون القتال، وفوق ذلك كله، كيف سيتخطون زريبتهم «حصنهم»[1]، فمن المتصور أنه عال جداً وسميك ويمتلئ بالأسنان المدببة، وبدا مخيفاً لمقاتلي الكاميرون الذين كان عليهم مهاجمته، فاقترح أحدهم إحراقه إما بصواريخ القتال أو بزيت البارافين وأعواد الثقاب، وآخر اقترح إلقاء البطاطين عليه، رغم التساؤل عن كيف ترمي بطاطين فوق سور من خشب أشجار الشوك أبعاده عشرة في عشرين قدماً، وماذا سنفعل بعد إلقاء البطاطين؟ ولم يفسر مقترح تلك الخطة هذا أبداً. وفضل الآخرون صعود السلالم - وكان ذلك واضحاً بأنه سيؤدي للقفز من قمة السور على الأسنان المدببة ورماح العدو -، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا وهم قلة، وكانت الأغلبية بجانب خطة أكثر بساطة بالوصول إليه وفصم أجزائه، ولكن كم من الرجال الذين سيشدوه، يمكنهم المرور من الفتحة؟.

وأصبح بمقدورنا رؤية موقعهم الآن، ذلك الشريط النهري من أشجار النخيل رمادية الخضرة تتلاقى بالشريط الصحراوي المعتاد من النبات رمادي الصفرة، وذلك الخط الأسود القاتم أمامه لا بد أنه زريبتهم المشهورة، وأمام منتصفها تماماً ترفرف نصف دستة من الأعلام، أبيض مع الأزرق الباهت، وأصفر مع البني الفاتح، ويمتد السور حتى أقل من نصف ميل من موقع الأعلام، ثم يتوقف.

ثم صوت طلقة، خرجت من المدفع الأول، وعاد صداها خافتاً وقذيفتها تنفجر فوق الزريبة في سحابة إكليلية مستديرة تشبه دخان الزريبة الرمادي، فنظرت إلى ساعتي وكانت تشير إلى 6,20، فالمعركة التي تنذر الآن تجنبتنا شهراً، وبدأت المعركة.

وأطلق النفير أمر التقدم، وصرخت الأفواه بالحرب، وتقدم الطابور للأمام،

(1) يقصد بالحصن، سور من أخشاب الشجر أُستخدم كثيراً في السودان. «المترجم».

كمسطرة تسحب فوق كوم من الرمال المتكسرة، وفوق حافة واطئة تحركوا للأمام، فمتى يطلق الدراويش النيران؟.

كان على جنود الكاميرون فتح الطريق من قمة الحافة، على مسافة 300 ياردة من الزريبة، ثم صاعداً فصاعداً وللأمام فالأمام، متى سيطلقون النار؟ الآن ارتقى الطابور الحافة، وارتكز الجنود أرضاً: ـ «دفعات النيران بواسطة القطاعات» ـ ودوي صوت الصدام جاء من الجانبين، وكلاهما في نفس اللحظة، وصفرت الطلقات فوق رؤوسنا.. ڤيتت.. ڤ ي ي ت.

وارتكز الخط في ثبات وصوب بدقة وتعالت أصوات الحطام.. وجاءت الإجابة ياه.. صرخة للدهشة الخائبة أكثر منها صرخة ألم، ورجل فوق قدميه، وآخر على ظهره، ويمرق الحمالون من المؤخرة، لقد مات قبل أن يلمسوه، ولكنهم وجدوا آخر ـ بالفعل ـ لنقالتهم، ونفير آخر، وللأمام قدماً، وأصبحت الطلقات الآن تصفر وتدوي كالمطر فوق النهر.

لكن طابور الكاكي والشرائط الحمراء لم ينحن أو يتفرق، وإنما تقدم ببطء كالمسطرة تماماً، والضباط عند مقدمته يخطون في ثقة، وربما كانوا فوق التل وراء صيدهم، ومن وجوههم المُقفلة والمتحولة بلا خوف تجاه الطلقات، تستطيع أن تدرك أنهم عرفوا الخطر واستهانوا به، وأولئك «التامي» ذوو القبعات العالية غير مهندمين وغير حليقي الذقون، الذين يظهرون في المعسكر فيما يشبه فرسان الدير أو جنود كرومويل تغيروا الآن تماماً، ولم يكن صعباً أن تتقدم لأن التدفق يلتقطك ويحملك معه، وما كان صعباً هو عدم الإسراع. وسواء صوبوا لأهدافهم أو تقدموا، فهم فعلوا ذلك بنظام وثبات دون كلام، وهمست الطلقات للشباب الجديد في نسمة واحدة بسر كل أمجاد الجيش البريطاني[1].

وللأمام باستمرار، تمرق حولهم أصوات كالسياط أكثر، ويصدر منهم تحطيم

---

(1) هذا مثل صارخ على عنصرية الفكر الغربي، فها هو يمجد جيشاً يحارب ويقتل أناساً تبعد أرضهم آلاف الأميال عن أرض هذا الجيش، وحين يُقتل منهم بعض يصرخون منددين بوحشية الحرب وهمجية الإسلام في فكرهم المتناقض. «المترجم».

أكثر، وهم يتحركون الآن دائماً بلا عجلة إلى أسفل منحدر عسير، وسقط ثلاثة رجال دون صراخ تحت قدم العلم الإنجليزي، ووقف واحد منهم فقط على قدميه مرة أخرى وهز العلم نفسه وبقي يتوهج في روعة، وبعد ذلك دفعة غاضبة من النيران الكثيفة، ووقف الطابور فجأة بسرعة، وأمامه سور طويل قصير من أخشاب شجر الشوك إنه الزريبة، ذلك الحصن المنيع، أهذه هي؟، ووقفوا في دهشة لبرهة، ثم: ـ «مزقوها» ـ اقترح أحد الجنود ـ نصف دستة من الضربات فقط، أصبحت بعدها الزريبة المستحيلة فراغاً وكوماً متناثراً من خشب الشجر، وفيما وراءها تحصين منخفض وخنادق.

ولكن ما هذا؟ هنا وهناك، تنطلق صيحات الفرح هوراه.. هوراه..! تعال الآن ثم عُدْ للصحراء في الخارج، وإذا لم تكن شغوفاً بطبيعتك بمشاهدة الرعب فلا تنظر كثيراً حولك، فها هي أرجل سوداء رفيعة انثنت لأعلى لتقابل وجوهاً سوداء دامية، وحميراً بلا رؤوس أو أرجل، ورشاشاً من الشظايا، وجمالاً التوت أعناقها خلفاً فوق سنامها تقع تماماً في برك من الدماء والمياه الصفراء، ورؤوساً بلا وجوه. ووجوهاً بلا شيء أسفلها، وأيد وأرجل متشابكة وجلوداً سوداء شويت حتى النضج فوق ورق النخيل اللافح، فلا تنظر إليها.. هنا النجمة والهلال الأبيضان فوق الأرضية الحمراء للحاكم العسكري، هنا الحاكم العسكري الذي أبدع هذه المعركة، إنها معركة رائعة نظيفة، ميسرة، سهلة، دقيقة التنفيذ، لا نقص ولا ارتداد ولا اهتزاز، ولا خدش في نجاحها المبهر، ومرة أخرى هوراه هو... راه.

معركة أم درمان

«2 سبتمبر/ الفاتح 1898 افرنجي»

*** وينستون تشرشل**

«عند أم درمان، حطم كتشنر حركة السودانيين الانفصاليين، مستخدماً الأسلحة الآلية، والمدفعية ومدافع الأسطول ضد قوات المهدي بسيطة التسليح،

قُتل فيها وجُرح حوالي 20,000 سوداني[1] في حين كانت خسائر البريطانيين 500 فقط».

أخذت ستة جنود وعريفاً، وَرَمَحْنَا بسرعة فوق السهل وفي الحال أشرفنا على المنحدرات المجهولة للحافة. ليس هناك مثل الفجر، فربع الساعة قبل أن ترتفع غلالة الظلام عن مكان غير معروف، مجال لتجربة جادة في الحرب، هل يحتل العدو الحافة أم لا؟، هل كنا نمضي عبر القتامة نحو آلاف المتوحشين الهائجين؟، فكل خطوة يمكن أن تكون مميتة، إلا أنه ليس هناك وقت للحذر الزائد عن الحد، فالفرقة قادمة خلفنا، والفجر ينبلج، لقد بزغ نصف الضوء حين تسلقنا المنحدر، ماذا يمكن أن نجد عند القمة؟ إنني أستأمن هذه اللحظات من أجل الإثارة العميقة المنعشة.

نحن الآن قرب قمة الحافة، فخصصت جندياً لمتابعتنا على بعد مائة ياردة خلفنا، تحسباً لأي شيء يحدث، فعليه نقل ما يحدث، ليس هناك صوت عدا صوت حركتنا، ووصلنا لخط القمة فألجمنا جيادنا، وفي كل دقيقة كان الأفق يتمدد ونستطيع أن نرى على مدى 200 ياردة، والآن يمكننا رؤية ربع ميل تقريباً، كل شيء ساكن لا حياة إلا في تردد أنفاسنا وسط الصخور ووسائد الرمال فوق الحافة، فلا كمائن ولا تمركز للقوات، والسهل المترامي عار أمامنا، ونستطيع الآن أن نرى أكثر من نصف ميل.

هكذا رحلوا جميعاً.! هذا ما قلناه، انطلق الجميع إلى كردفان، لا قتال! ولكن انتظر! فالفجر يأتي مسرعاً، ويرتفع حجاب وراء حجاب عن المدى، ما هذه اللمعة الخافتة في السهل البعيد؟.. بلى.. إنها أكثر التماعاً الآن، وما هذه العلامات القاتمة تحتها؟ إنهم هناك!. فتلك البقع السوداء الضخمة آلاف من الجنود واللمعة هي ومض أسلحتهم، لقد أصبح الوقت الآن نهاراً، فانزلقت من فوق جوادي وكتبت في دفتر مهام القتال الخاص بي «أن جيش الدراويش ما زال

(1) من الأهمية لفت انتباه القارىء إلى أن الكاتب ـ وهو رئيس وزراء بريطانيا الشهير فيما بعد الحرب العالمية، يستخدم مصطلح الدراويش ليقصد به أتباع المهدي. «المترجم».

في موقع على ميل ونصف جنوب غرب جبل سورغام» وأرسلت تلك الرسالة مع العريف مباشرة ـ كما أمرت ـ إلى القائد، وعلمتها به «عاجل جداً» والتي تعني شدة أهميتها أو كما نقول «بسرعة البرق».

ويتبدى شروق رائع خلفنا الآن، لكننا نعجب بأمر آخر، إن الضوء الآن يكفي لاستخدام النظارات الميدانية المكبرة، وتغير الكتل السوداء من تقديراتها، وأصبحوا أكثر ضوءاً من السهل بلون بني فاتح، ولهم ضوء أبيض في حين أن لون السهل رمادي يميل إلى البني، وأمامنا تشكيلات ضخمة طولها أربعة أو خمسة أميال، تملأ الأفق حتى تسدها الحدود المدببة لهضبة جبل سورغام، إنها ساعة للحياة وصعدنا من جديد. وفجأة صدم انطباع جديد العين والعقل، فهذه الكتل ليست متمركزة إنهم يتقدمون، بل يتقدمون بسرعة والمد يأتي، لكن ما هذا الصوت الذي نسمعه؟ أهو زئير مميت يتصاعد إلينا في موجات؟ إنهم يهتفون «لله» و «للنبي (ﷺ)» ولخليفتهم المقدس فهم يظنون أنهم منتصرون، لسوف نرى ذلك حالاً، وعليّ أن أقر بأننا فحصنا جيادنا وربطناها فوق القمة لدقائق قليلة، قبل أن نهبط منحدرها.

اكتمل النهار الآن وتضيف الشمس المائلة لوناً باهراً على المنظر، وتحولت الكتل إلى جحافل من الجنود في طوابير مرتبة تبرق بأسلحة لامعة وترفرف فوقهم أعلام ضخمة كثيرة، وأدركنا ما أدركه الصليبيون قبلاً[1]. ومن مكاننا حيث جلسنا فوق جيادنا استطعنا رؤية الجانبين، كان هناك جيشنا مرتب ومتجمع بجوار النهر، وترقد سفن القتال منتظرة في النهر، وبطاريات المدفعية كلها جاهزة للتعامل. وفي نفس الوقت على الجانب المقابل، قامت تلك الجمهرة الممتدة ذات الألوان المرحة بصعود قمة المكان بسرعة في نظام جيد كامل، كنا على بعد 2,500 ياردة من مدافعنا، ولكن بمسافة أكثر قليلاً من 200 ياردة عن أهدافها القريبة. وكنت أسمي أولئك الدراويش بـ «الأعلام البيضاء» فهم ذكروني بالجنود في أزياء من

(1) هنا اقتطع جون كاري «محرر الكتاب» جزءاً يبدو أنه يظهر النوايا الصليبية القديمة تجاه كل ما هو مسلم ويبدو أنه كان فاضحاً أكثر من اللازم فاقتطعه. «المترجم».

القماش المزخرف[1] بسبب صفوف الأعلام الصفراء والبيضاء المرفوعة لأعلى، في حين أن مركز وسط قوات الدراويش البعيد في السهل كان قد اقترب داخل المدى المؤثر.

وصبت المدفعية البريطانية والمصرية نيرانها على صفوفهم واحداً وراء الآخر، وتسمرت عيناي على منظر قريب، فعند قمة التل، توقف جنود «الأعلام البيضاء» لإعادة تنظيم صفوفهم وشن هجمة شاملة وثابتة بطول القمة، عند ذاك انصب القصف المدفعي عليهم، بطاريتان أو ثلاث من المدفعية وكل سفن القتال صبت نيرانها المركزة، ودوت قذائفها نحونا وانهالت بالعشرات فوق الرؤوس وبين كتل جنود «الأعلام البيضاء»، كنا قريبين جداً، جالسين ومشدودين لجيادنا لأننا نكاد نشاركهم أخطارهم تقريباً، ورأيت جحيم الموت الشامل يعصف بذلك السور البشري وقد هبطت أعلامهم بالعشرات ورجالهم بالمئات، وظهرت الثغرات الواسعة والأكوام المهترئة وسط صفوفهم، ويراهم المرء وهم يتقافزون ويتعثرون تحت وطأة سيول الشظايا، لكن لا أحد يُدْبر، كانوا يتدفقون طابوراً وراء آخر من ناحية الجانب ويتقدمون نحو زريبتنا «حصننا»، فاتحين نيراناً كثيفة من البنادق لفّتهم وسط حلقة من الدخان، وحتى ذلك الحين لم ينتبه لنا أحد، ولكني رأيت الآن فرسان قبيلة البقارة أزواجاً وثلاثات، يقودون جيادهم عبر السهل على جناحنا الأيسر نحو الحافة، ووصلت واحدة من هذه الدوريات مكونة من ثلاثة أفراد لمدى مسدس، وكانوا أشباحاً سوداء مسربلين كالرهبان فوق ظهور الجياد، وأشراراً ذوي كآبة برماح طويلة، فأطلقت رصاصات قليلة نحوهم من فوق السرج فحادوا عنها، ولم أفهم لماذا لم نبرز فوق هذه الحافة أثناء الهجوم، وأعتقدت أننا نستطيع التراجع نحو النيل، وهكذا نتابع كلا الجانبين، في حين نبتعد عن طريق الإصابة، ولكن وصل الآن أمر نافذ من الميجور «فين» يقول: «عُد في الحال للحصن حيث سيقوم المشاة بإطلاق النار» كنا سنصبح أكثر أمناً

(1) في الأصل Bayeux Tapestery لفّات من القماش عليها مناظر تبين مظاهر الحياة زمن «ويليام الأول» موجودة في Beyeux، «المترجم».

فوق الحافة، لأننا ـ بالكاد ـ وصلنا لخط المشاة قبل أن تبدأ عاصفة البنادق.

وحالماً بدأ الإطلاق يخفت، وقيل أن الهجوم قد ارتد على كل الجبهات، وصل أحد الجنرالات مع ضباطه عَدْواً بالجياد ومعهم أوامر فورية بامتطاء الجياد والتقدم، وخلال دقيقتين امتطت الكتائب الأربع صهواتها، وخبت بالجياد خارج الحصن باتجاه الجنوب، وصعدنا من جديد منحدرات جبل سورغام الذي قام بدوره في المراحل الأولى للقتال. ومن حافته ـ في الحال ـ رأينا أمامنا كل سهل «أم درمان» وطمى هذه المدينة الشاسعة مآذنها وقبابها، تمتد أمامنا لستة أو سبعة أميال، وبعد عدة توقفات واستطلاعات وجدنا أنفسنا نتقدم فيما يسمى «طابور الجنود»، فهناك أربع كتائب في اللواء وأربعة ألوية في الفرقة وكل كتيبة من هذه القوات تتبع الأخرى، وقدت الكتيبة الثانية من المؤخرة، وتشمل من عشرين إلى خمسة وعشرين من الرماة.

وتوقع كل فرد منا أننا سندخل اشتباكاً، كانت تلك هي الفكرة الوحيدة التي استقرت في الأذهان منذ بدأنا تحركنا من القاهرة، وبالطبع كان يمكن أن يوجد قتال. في تلك الأيام قبل حرب البوير، تَعَلم سلاح الفرسان البريطاني شيئاً آخر قليلاً، وهنا كانت الفرصة للقتال واضحة، ولكن ضد أي شكل من العدو وعلى أي أرض وفي أي اتجاه، ولأي هدف؟ هذه كلها كانت أموراً مخفاة عن الضباط والجنود. وواصلنا الخطى قُدماً فوق الرمال الخشبية، محملقين في السهل المتموج بفعل السراب في حالة عالية من الانفعال المكبوت.

لاحظت الآن على بعد 300 ياردة من جناحنا وفي خط موازٍ لما نسير عليه، صفاً طويلاً من أشياء قاتمة تتباعد فيما بينها ياردتين أو ثلاث، وظننت أن هناك منها حوالى مائة وخمسين، عندئذ أيقنت أن هؤلاء رجال ـ من الأعداء ـ يزحفون على الأرض. وفي نفس الوقت تقريباً، أطلق النفير نغمته «ترووت» فبدأ كل طابور الفرسان الطويل يقرقع ويصلصل عبر مقدمة هذه الأشباح الزاحفة، كنا في الهدوء الذي يسبق العاصفة وساد صمت مطبق، وفي الحال صدرت من كل بقعة قاتمة سحابة بيضاء من الدخان، وكسر سيل صارخ من الطلقات ذلك السكون

الفريد، وهدف كهذا على مثل ذلك المدى يصعب أن يُخطأ، وعلى طول الطابور ـ هنا وهناك ـ تقدمت الجياد وسقط رجال قلائل.

كانت نوايا قائدنا بلا شك، هي التحرك حول جناح قوات الدراويش التي حدد موقعها الآن ـ والتي أخفتها طية من الأرض خلف حملة بنادقهم فكنا لا نراهم ـ ثم مهاجمتهم من اتجاه أكثر ملاءمة، ولكن ما إن انفتحت النيران وبدأت الخسائر تزداد، حتى رأى عدم جدوى المضي في تقدمه عبر السهل المكشوف، وأطلق النفير نغمة «دوران يمين نحو الطابور» فمالت كل الكتائب الست عشرة، ملتفتة نحو حملة البنادق السُمر، وفي الحال اندفعت الفرقة مسرعة تقريباً، واشتبكت الجماعة «21» من حملة الرماح في أول قتال لها في المعركة.

إنني أهدف لوصف ما حدث لي بالضبط وما رأيت وشعرت. كانت الكتيبة التي قُدْتُهَا ـ حين تشكلنا في طابور ـ الثانية على يمين الفرقة، وكنت أركب مُهراً ـ عربياً ـ رمادياً رشيقاً، وقبل أن نستدير لنبدأ الانقضاض، كان الضباط يمشون شاهري السيوف، أما من ناحيتي، فقد قررت دائماً أنني لو تورطت في اشتباك متلاحم، فيجب أن أستخدم مسدساً لا سيفاً، وكنت قد اشتريت مسدساً أتوماتيكياً من نوع «الماوزر» في لندن من أحدث طراز، وتدربت عليه بعناية خلال مسيرتنا ورحلتنا لأعالي النهر، وذلك هو السلاح الذي صممت على القتال به.

كان عليَّ قبل كل شيء إعادة السيف لغمده، وهو شيء ليس سهلاً أداؤه وأنت تعدو بالجواد، ثم كان عليّ أن أسحب مسدسي من جرابه الخشبي وتجهيزه للعمل الكامل، واستغرقت تلك العملية اليدوية وقتاً ثميناً، وحتى انتهت ـ وبخلاف نظرات سريعة إلى يساري ليست ذات شأن لمعرفة تأثير النيران الدائرة ـ لم أتطلع إلى المنظر العام، عندئذ رأيت أمامي مباشرة صف الأشباح السمراء الزاحفة تطلق نيرانها بجنون على مسافة نصف طول ملعب «كرة الخيل» الآن، وهو مغطى بسحابة من الدخان، وعلى يميني ويساري قام قادة القوات المجاورة لي بعمل خط مستحكم، وخلفه مباشرة خط من الرماح المتراقصة قابعة للاشتباك، كنا نتقدم في ركض سريع لكنه ثابت، وكانت هناك أصوات تحطيم

ونيران بنادق مدوية لا تسمع معها صوت أي طلقة، وبعد تلك النظرة ليساري وليميني وعلى جنودي نظرت مرة أخرى باتجاه العدو.

بدا المنظر وكأنه تحول فجأة، كان الرجال السمر ما زالوا يطلقون النار، ولكن وضح للرؤية الآن أن خلفهم منخفض أشبه بطريق هابط غائر، وهو ممتلئ ومزدحم بالجنود هبوا فجأة من حيث يختفون، وظهرت أعلام بارقة كفعل السحر، ورأيت بعض الأمراء فوق ظهور الخيل آتين من مكان ما، بين وحول جنود العدو، وبدا الدراويش لعمق عشرة أو اثني عشر باعاً، ككتلة رمادية ضخمة تلمع بالسلاح تملأ مجرى النهر الجاف، وفي نفس لمح البصر، رأيت أن يميننا قد احتوى يسارهم، وأن جنودي على وشك أن تضرب حافة تنظيمهم، وأن الجنود الذين على يميني سوف يشتبكون في فراغ، واستطاع زميلي الأدنى رتبة على اليمين المدعو «ورمالد» من المجموعة «7 هوسار» ملاحظة الموقف كذلك، فزاد كلانا من سرعته لأقصى سرعة ركض بالجواد وقد انحنينا للداخل كقرني القمر، ولم يكن أمام المرء ـ حقيقة ـ وقتاً كي يخاف، أو للتفكير في أي شيء آخر عدا هذه الاشتباكات الضرورية الخاصة التي وصفتها، فقد استغرقت تفكيري وحواسي تماماً.

أصبح الصدام الآن قريباً جداً، ورأيت أمامي مباشرة، ولا يبعد أكثر من عشرة ياردات، الرجلين الأسمرين اللذين يرقدان في طريقي، وكانا متفرقين ـ ربما ـ بمسافة ياردتين، فَقِذْتُ جوادي في الفاصل بينهما، وأطلق كلاهما النار، ومررت عبر الدخان مدركاً أنني لم أصب، أما الجندي الذي كان خلفي مباشرة فقد قتل في نفس المكان واللحظة، سواء بنفس تلك الطلقات أو غيرها لا أدري، وفحصت مُهري إذ بدأت الأرض تنهال تحت قدميه، وانسل الحيوان الماهر كالقط أربعة أو خمسة أقدام لأسفل فوق المهاد الرملي للمجرى المائي الجاف، وفي هذا المجرى الرملي وجدت نفسي محاطاً بما يبدو أنهم عشرات الرجال، ولم يكونوا متجمعين في كثافة كافية عند هذه النقطة بالنسبة لي حتى اختبر صداماً حقيقياً معهم، وبينما وصلت قوات جرينفيل التالية لي على اليسار إلا جماعة منها

لحالة من الجمود الكامل وعانت خسائر قاسية، بدأنا نشق طريقنا عبرهم تماماً كما كنا نرى أحياناً رجال الشرطة راكبي الخيول يفضون مظاهرة، وفي وقت أقل مما يكفي لروايته، تسلق مهري الجانب الآخر للخندق، فنظرت حولي.

ومرة أخرى أضحيت فوق الصحراء القاسية المتماوجة، وجوادي في حالة ركضه، تمثل لدي انطباع لدراويش متناثرين يجرون أماماً وخلفاً في جميع الاتجاهات، وأمامي تماماً ألقى رجل بنفسه فوق الأرض. ولا بد أن القارئ يتذكر أنني قد تدربت كفارس خيّالة على الإيمان بأن أي خيّالة تخترق جماعة من المشاة فإن الأخيرة تكون تحت رحمتهم، ولذا كانت فكرتي الأولى أن ذلك الرجل كان مرعوباً، ولكني رأيت في المقابل التماع سيفه المقوس وهو يسحبه ليقوم بضربة فخذ قاطعة، وكان لدي وقت ومساحة كافيان لأحيد بمهري بعيداً عن مدى ما يصل إليه، ثم انحنيت فوق الجانب وأطلقت رصاصتين نحوه على بعد ثلاث ياردات تقريباً.

وبينما أعدل نفسي فوق السرج، رأيت شخصاً آخر شاهراً سيفه فرفعت مسدسي وأطلقته، وكنا متقاربين لدرجة أن المسدس نفسه اصطدم به، واختفى الإنسان والسيف أسفل وخلف الجواد، وكان على يساري - بمسافة عشرة أقدام - فارس عربي يرتدي خوذة لامعة الألوان من الجلد والصلب مع سلاسل مدلاة، فأطلقت النار عليه فتحول جانباً، وشددت جوادي للمضي بعيداً وتطلعت حولي مرة أخرى، كانت هناك جماعة من الدراويش، حوالى الأربعين أو الخمسين ياردة على شمالي، تتجمع وتتدافع معاً يتسابقون للحماية المتبادلة، وبدوا شديدي الانفعال يتراقصون فيها حولهم فوق الأقدام ويهزون رماحهم لأعلى وأسفل، وكان المنظر كله يهتز، وبرز لدي انطباع، لكنه سريع حتى ليصعب تحديده.

فمن بين الرماة السُمر الموزعين هنا وهناك مع هذه الجماهير الزاخمة، لم يحاول الأفراد المتناثرين بالقرب مني إيذائي، أين كتيبتي؟ وأين بقية كتائب اللواء؟ فعلى مسافة مائة ياردة من مكاني لا أرى ضابطاً ولا جندياً، فنظرت مجدداً لجماعة الدراويش رأيت اثنين أو ثلاثة من حملة البنادق يزحفون ويصوبون بنادقهم

نحوي من أطراف الجماعة، عندئذ، ولأول مرة منذ الصباح مررت بتجربة الشعور المفاجئ بالخوف، لقد شعرت بنفسي منفرداً كلية، وظننت أن أولئك الرماة سيصيبونني ويلتهمني الآخرون كالذئاب. ويا لي من أحمق أن أتجول هكذا فيما بين صفوف العدو! فانحنيت فوق السرج ودفعت بجوادي للركض وخرجت بعيداً عن المعمعة، وعلى بعد مائتين أو ثلاثمائة ياردة وجدت كتيبتي كلها جاهزة للمواجهة، وذات تشكيل جزئي.

الحرب الأسبانية ـ الأمريكية

«معركة الكاني، كوبا ـ 1 يوليو/ناصر 1898 افرنجي»

*** جيمس كريلمان**

«أنهت الحرب الأمريكية ـ الأسبانية ـ الحكم الاستعماري الأسباني في الأمريكيتين، وبينما استولت القوات الأمريكية بما فيها قوات «ثيودور روزفلت» المسماة «راف رايدرز» على القرية الحصينة «الكاني»، كان الأسطول الأسباني الكاريبي قد تحطم تماماً بواسطة أسطول البحرية الأمريكية خارج ميناء سانتياجو».

... من السرير الخالي الممزق الذي أرقد عليه بين رفاقي، تحت شريط من المشمع الواقي من المطر، يمكن رؤية شبح الجنرال «لاوتون» الطويل يتحرك في ضوء الفجر الرمادي، نحو الطريق الموحل الذي سارت عليه القوات الأمريكية طوال الليل باتجاه «سانتياجو دي كوبا» حيث كمن الأسبان في الخنادق والتحصينات بانتظار الهجوم، وكانت المعركة التي أنهت حكم الأسبان في العالم الغربي بعد أربعة قرون من المجد المقرون بالعار، على وشك أن تبدأ.

وشق فنان حرب نيويوركي قوي البنية طريقه مرتدياً عباءة حمراء ـ هي الشيء الوحيد الجاف في معسكرنا ـ عبر الشجيرات إلى نهر قريب ثم عاد بأوعيتنا مليئة ـ وقال: «لا وقت أمامنا نُضيعه، فسوف يصب «لاوتون» نيرانه على «الكاني» عند شروق الشمس، وبطاريات مدافعه تمركزت بمواقعها الآن، ومن الأفضل عدم الانتظار حتى الإفطار، وعموماً ليست لدينا نيران لإعداده، تحولوا أيها

الرفاق فقد نمتم ثلاث ساعات كاملة». ونهض المراسلون المبتلون في نعاس لمواجهة عمل يوم جديد. وفي الحال كنا نحث الخطى وسط المستنقع، تؤلمنا الرائحة الحادة للنباتات المهترئة التي عجنتها الشمس اللافحة والحرارة المدارية ليوم أمس، ولم يفر منها سوى القليل.

وتلوّنت سراطين أرضية ضخمة عبر طريقنا بألوان خضراء وبرتقالية مبقعة بالأبيض، وشدت طيور فوق أشجار البلوط القصيرة المتشابكة والحشائش الطويلة برقة، والتمعت براعم صفراء وكريمية اللون وسط كثافة تلك الخضرة المتنامية، وحلقت أسراب من النسور بكسل مقابل سحب الفجر الباهتة، أو وقفت على نخيل جوز الهند السامق، وبينما تشرق الشمس أسقطت التماعات من بين الأوراق الخضراء المتناثرة، لكن الصحافة الجائعة والمحمومة والمتشوقة للأخبار تعمى عن هذه الأمور، فأمامنا آلاف من الجنود يتجهزون للموت، وعلى بعد تسعة أميال خلفنا تنتظر قوارب النهر مستعدة لحمل برقياتنا لمحطة البرق في جامايكا. وفي نيويورك تنتظر جماهير غفيرة نتيجة المعركة.

معركة «الكاني»، بعد الأسطورة

«2 يوليو/ناصر 1898 افرنجي»

*** ستيفن كرين**

شاقين طريقنا عبر الجموع في الميدان وصلنا لمرأى باب الكنيسة، وهنا كان يوجد منظر غريب، إذ تحولت الكنيسة إلى مستشفى للجرحى من الأسبان الذين وقعوا في أسر الأمريكيين، وكان داخل الكنيسة شديد الشبه بالكهف في عتمته أمام أعين الجراحين، ولذا أمروا بنقل سرير العمليات ـ وكان منضدة للابتهال ـ لمدخل الباب حيث يوجد الضوء الباهر، وكانت منضدة الابتهال ـ عند ذاك ـ مؤطرة بالممر ذي الأقواس تبدو وفوقها شبح رجل ممدد عارياً إلا من «سروال قصير»، وكان الإيحاء الكنسي شديد الوضوح قريب المدى، لدرجة أن عقل المرء يقفز ليتخيل أن ذلك الشبح الرقيق الشاحب قد انتزع تواً من فوق صليب.

كانت خاطرة الانطباع كالضوء، وحتى هذه اللحظة، أضاءت كل الأركان المظلمة لأبعد أفكار الحرام لدى المرء وحشية ودناءة. وأنا أذكر لك ذلك كمجرد تأثير، تأثير لضوء العقل وظلاله، ولو شئت، فهو شيء يتم في الفكر مشابه لذلك الذي يفعله الفنانون الفرنسيون التأثيريون في عالم الألوان، شيء لا معنى له وفي نفس الوقت يسيطر عليك، ساحقاً، هائلاً.

قال «ليتون»: «ذلك الشقي المسكين، إني لأعجب هل سيقوم منها؟».. وكان أحد الجراحين الأمريكيين منهمكاً مع مساعديه فوق الشبح المقلوب، وكانوا يرتدون مرايل بيضاء وشيء صغير فضي يبرق في يد الجراح، ورفع أحد المساعدين قطعة الإسفنج «الرحيمة» قريباً من أنف الرجل، لكنه كان يتلوى ويئن في حلم مفزع لا من نومه الصناعي، وبينما يجول مشرط الجراح تخيلت أن الرجل حلم بأن ثوراً قد سحقه، وأثناء توسلاته صدرت منه غمغمات غير مترابطة تحوي «العذراء» و «الأم المقدسة». قال الطبيب الجراح: «صباح الخير» وحوّل مشرطه لليد اليسرى، ومدّ لي كفاً مبتلاً، كانت أطراف أصابعه مكرمشة ومنبعجة مثل أنامل فتى ظل يسبح في الماء طويلاً.

القفز في قطار..

«20 مارس/ الربيع 1899 افرنجي»

*** و.هـ. داڤيس**

كان الجليد لا يزال عميقاً والصباح والمساء بارداً حين وصلنا «أوتاوا» بعد أسبوع من ذلك، ولم يكن ذلك الترحال البطيء على هواي مطلقاً.. وغالباً، أقنعت رفيقي بالإسراع أكثر في اتجاه «وينيج» فوافق على فعل هذا، لذا ركبنا قطار شحن وقد عزمنا على البقاء فيه اليوم بأكمله، ولسوء الحظ كان قطاراً محلياً، ولأنه كان بطيئاً جداً، بعدما توقف عند كل محطة صغيرة مميزة، غادرناه في مدينة تسمى «رينفرو»، منتوين اللحاق بقطار سريع للمسافرين يمكنه نقلنا

أربعمائة أو خمسمائة ميل قبل طلوع النهار، وبهذا الهدف جلسنا في حجرة الانتظار بالمحطة حتى المساء.

عندئذ، وقبل حلول القطار بعشرين دقيقة تقريباً، تسللنا دون أن يلاحظنا أحد واستولينا على عربة خالية تتمركز على مسافة بعيدة بعض الشيء، وفي مكان نرى منه القطار القادم دون أن يرانا أحد من رصيف المحطة، ولسوف يصل هذا القطار حالاً، لأن المسافرين بدأوا فعلاً يذرعون رصيف المحطة، ووضعت الأمتعة على أهبة الاستعداد، وعدد من الناس الفضوليين ليس لديهم ما يفعلونه، تجمعوا هنا لمشاهدة وصول ورحيل القطار. وأخيراً سمعنا صفيره، وحين تطلعنا خارجاً رأينا نوره الأمامي على البُعد يقترب شيئاً فشيئاً، وانزلق إلى المحطة دون صخب كثير لأن القضبان كانت زلقة، وما زال هناك الكثير من الجليد والثلج على ممره، فقلت لجاك: «تعال، ليس هناك وقت نضيعه». وبسرعة قفزنا من العربة الخالية.

يجر هذا القطار السريع عربة مغلقة للأمتعة، وهذا يعني أن طرفها المقابل للقاطرة مسدود بلا أبواب، وكان هدفنا أن نظهر فجأة من مخبأنا ـ والظلام شيء مفضل ـ ونقفز فوق سلم هذه العربة ومنه إلى الرصيف، ويتم ذلك أثناء تحرك القطار، ونحن نعرف أن ناظر المحطة نادراً ما يوقف القطار ـ وهو الذي يراقب دائماً هذه الأقفال ـ لإنزال الرجال، حتى وهو متأكد من وجودهم، ولو رآنا قبل تحرك القطار لقام بالتأكيد بعمل وسائله لمنعنا من الركوب، وحينما نتمكن من هذه العربة، لن يصل إلينا إنسان حتى نصل نقطة الوصول التالية التي قد تكون بعد خمسين ميلاً أو أكثر قليلاً، وعند هذا المكان ربما نهبط ونخفي أنفسنا، وعندما يعود للتحرك من جديد نقفز ثانية لمكاننا السابق، وبالطبع يمكن للمهندس ولرجال الوقود الوصول إلينا، لكن أولئك الرجال دائماً لامبالون ولا يتدخلون أبداً، فعملهم في مقدمة القطار لا خلفه.

وأطلق القطار صفيره قبل أن نستعد تقريباً، وخرج ببطء من المحطة وسمحت لرفيقي بالتمتع بميزة القفز أولاً، بسبب يده المعاقة، وأصبح القطار يسير الآن أسرع فأسرع، فاضطررنا للمحافظة على سرعة خطواتنا معه، وبعد أن قفز أمسك

عمود المقبض ووثب فوق السلم بخفة، بعدها تمكنت يدي بسرعة من هذا المقبض وجريت مع القطار مُتهيئاً لأفعل مثله.

ولدهشتي بدلاً من يأخذ رفيقي مكانه على أرضية القطار، وقف بلا تفكير متردداً فوق السلم ولم يترك لي مساحة للقيام بالمحاولة ولكني ما زلت متعلقاً بالقطار، رغم أن القطار يتحرك الآن بسرعة شديدة لدرجة أنني وجدت صعوبة هائلة في تحرك خطواتي معه، فصحت فيه لإخلاء السلم، فبدأ يقوم بذلك بتأنٍ شديد، على ما أعتقد، وبعدما أحكمت قبضتي فوق العمود قمت بالقفز، لكن ذلك جاء متأخراً، إذ كان القطار يعدو مسرعاً بمعدل كبير، فجاءت خطوتي قصيرة عن السلم فسقطت وما زلت معلقاً بعمود المقبض، فسحبني ذلك عدة ياردات قبل أن أفك قبضتي، وهناك رقدت لعدة دقائق شاعراً بصدمة خفيفة، في حين مر القطار مسرعاً نحو الظلام.

حتى ذلك الحين لم أكن أعرف ماذا حدث، إذ حاولت النهوض، لكنني وجدت أن هناك ما يمنعني من ذلك، فجلست في وضع عمودي وبدأت أفحص نفسي، فاكتشفت أن القدم اليمنى قد جُرحت بشدة عند الكاحل، ولم يصدمني ذلك بمثلما صدمتني الأفكار التي تلت هذا، إذ حيث لا أشعر بشيء مؤلم، فلم أعرف سوى ما عليه أجزاء متعددة من جسدي، ولم أسترح حتى فحصت كل جزء منه، وعندما رأيت رجلاً يعبر الممر صحت فيه طالباً المساعدة، فنظر لأحد الاتجاهات ثم لآخر، ولما لم يرني وسط الظلام تابع طريقه للمضي حين صحت ثانية، عند هذه المرة نظر باتجاهي تماماً، ولكن بدلاً من اقترابه قفز في الهواء فتعثرت أقدامه وكاد يسقط، ثم اختفى كرصاصة خرجت من سلاحها، وقد بحثوا عن هذا الرجل فيما بعد لعدة أسابيع بواسطة أناس شغفهم الفضول لمعرفة من يكون لكنه لم يظهر أبداً، ولم يأتِ إنسان ليقول: «أنا هو» وبعدما فشلوا في إيجاد ذلك الرجل، فكر الناس في النهاية أنني كنت تحت انطباع وهمي، وربما كان ذلك هو انطباع هذا الرجل الآخر لأنني أتساءل: «من رأى الشفقة تعدو بنفس سرعة الخوف؟». واقترب رجل آخر ـ بعدئذ ـ كان عاملاً على الخط، وعند

سماع صوتي بدا أنه أدرك ما حدث، فأتى مسرعاً وتطلّع فيّ ثم مضى بعيداً، وبعد دقيقة أو اثنتين، عاد ومعه العديد من الناس للمساعدة ولحملي إلى المحطة، وكان هناك عدد من الناس باق بكثرة حتى إنني، ـ حين وضعوني في حجرة الانتظار اغتناماً لفرصة مجيء أي طبيب ـ، لم أجد أي وسيلة أحتفظ فيها بهدوء وجهي أمام مثل هذا العدد من الأعين الفاحصة إلا بإخراج غليوني وتدخينه، وهو عمل ـ كما أُخبرت ـ سبَّب كثيراً من المشاعر في الصحافة المحلية.

حرب البوير ـ آلام المدنيين

«مافكنج، أبريل/الطير ـ مايو/الماء 1900 افرنجي»

*** ج.إ. نيبلي..**

«كانت الحامية الموجودة بمدينة «مافكنج» والتي حوصرت من 12 أكتوبر 1899 حتى مايو 1900 افرنجي تحت قيادة النقيب روبرت[1] الذي أصبح فيما بعد اللورد «بادن باول».

لم يكن شيئاً ساراً الاختلاط مع قبائل «الكارال» لأن الجوع قد حاق بهم، وأضحى العديد منهم أشباحاً سوداء وهياكل عظمية حية، ورأيتهم يزحفون فوق أرجل تشبه جذوع أقزام شديدة السواد وتبرز عظام صدورهم ـ بالمعنى الحرفي ـ خلال جلدهم المتجعد ـ رجالاً، ونساءً وأطفالاً ـ ورأيتهم يتساقطون فوق الأرض النابتة، ويرقدون حيثما سقطوا كذلك شديدي الضعف لدرجة أنهم لا يقوون معها على المسير، وكان أغلب المتألمين من الأطفال، مجرد أطفال يتراوح عمرهم بين أربع أو خمس سنوات فأكثر، وعندما حاقت المجاعة بالمكان طُردوا من الأكواخ بأيدي والديهم ليعيشوا أو يموتوا، ليسبحوا أو يغرقوا.

---

(1) روبرت هو النقيب روبرت ستيفنسون ڤانسنج مؤسس حركة الكشف المعروفة بـ «الكشافة والمرشدات». وحصل على لقب لورد فيما بعد، وقد حاصرته قبائل البوير هنا دفاعاً عن أرضها، لكن الفكر الاستعماري هكذا دائماً «المترجم».

عندما علم النقيب بوضع هذه الأمور، أنشأ مطابخ لطهي المرق، حيث كانت الجياد تُسلق في أوان ضخمة، وتوزع الخلطة الشهية أنصافاً وأرباعاً لكل القادمين، وكان بعض الناس ـ ممن يعملون ـ يدفعون ثمن طعامهم، أما الباقون ـ وهم الأغلبية ـ فيحصلون على طعامهم مجاناً. . وقد أُقيم واحد من هذه المطابخ في مقر القيادة، وكنت أذهب ـ عدة مرات ـ لأرى أولئك المغتذين البؤساء.

ويصعب على الكلمات أن تشخص مشهد البؤس ذاك، وأفضل ما يمكنني عمله أن أطلب منك تخيّل خمسمائة أو ستمائة شبح إنساني من كلا الجنسين ومن كل الأعمار، من الطفل الغرير فأكبر، وهم يرتدون بقايا الأسمال البالية واقفين في طوابير، ويحمل كل واحد علبة من الصفيح الصدئ القديم أو العلبة الفارغة من اللحم المحفوظ، منتظراً دوره ليزحف بألم حتى المطبخ حيث يتم توزيع الطعام، وبعد حصولهم على مرق الجياد، تخيلهم يترنحون ياردات قليلة ثم يجلسون ليلتهموا تلك الخلطة الحافظة للحياة، ثم يلعقون العلب حين تفرغ، لقد كان ذلك من أشد المشاهد المؤثرة التي رأيتها في حياتي، وكنت رأيت الكثير.

عندما أتى سرب من الجراد، رأوا فيه هبة إلهية، ذلك الحضور الذي ينظر إليه الفلاحون على أنه لعنة لا تقل عن الوباء أو الجفاف. فقام الجوعى بجمع هذه الحشرات بالآلاف، ونزعوا عنها رؤوسها وأرجلها وأجنحتها ثم أكلوا أجسامها، والتقطوا علب اللحم ولعقوها، كانوا يأكلون كالكلاب الضالة، بل ذهبوا لأبعد من ذلك، فعندما يحصل الكلب على عظمة يقوم بتنظيفها من اللحم ثم يتركها. لكن يوماً بعد يوم سمعت أصواتاً مستمرة دقاقة خارج منزلي، كانت تحدثها تلك الهياكل العظمية الحية التي، بعدما التهمت كل ما يعلق بالعظام، قامت بتحطيمها مستخدمة الحجارة لالتهام أي نخاع قد تجده داخلها، وبحثت عن العظام فوق أكوام التراب وفي الطرقات بأي مكان. وإني أعطي كلمتي بأنني رأيت رفيقاً بائساً تتبع في وهن كلباً وبيده حجر، وبضربة لا تخطئ قذفه في صدره أدت بالكلب النحيل الجائع لإلقاء عظمته، فحملها الوطني منتصراً إلى الرصيف حيث حطمها وحصل على ما يمكنه منها.

الرحلة الأخيرة للملكة ڤيكتوريا

«1 فبراير/النوار1901 افرنجي»

*** سيس «كونتيه دينبيف»**

«ماتت الملكة ڤيكتوريا في أوسبورن. جزيرة ويت، يوم 22 يناير 1901 افرنجي».

أعتقد أنكم تحبون سماع حكاية ذهابي إلى «ساوثهامبتون» لمشاهدة مرور مليكتنا العزيزة من «أوسبورن» إلى «بورتسماوث».

ذهبت على ظهر المركب «سكوت»، حيث ركب كل أعضاء المجلسين وأبحرنا لنأخذ مكاننا بين آخر سفينة بريطانية وأول سفينة حربية أجنبية على الجانب الجنوبي من الخط المزدوج الذي ستمر عليه وكان اليوم من الأيام المبهرة الإشراق، والبحر أكثر نعومة وزرقة، وبعد فترة، وصلت مدمرة قاطعة الخط وهي ترسل إشارات بأن المركب «ألبرتا» تغادر «أوسبورن»، وانطلقت مدافع المناوبة من كل السفن، بريطانية وأجنبية، لمدة ساعة تقريباً قبل أن يصلنا العرض.

بدأت الشمس الآن تغرب «الساعة 3 مساء» وظهر لون وردي ذهبي رائع في السماء، وبينما يرتفع الدخان من المدفع ببطء يقبع خلفه ذلك القوس الوردي الطويل، وفوق المركب «هاسلر»، قوس قرمزي يشبه الستائر القرمزية التي أمر بها الملك عندئذ. مرت ثماني مدمرات على طول خط السفن الحربية ببطء بأشكال منزلقة قاتمة، ووراءهم بدت المركب «ألبرتا» شديدة الضآلة والرقة، بعد السفن الحربية السامقة.

واستطعنا رؤية الأشباح الساكنة الواقفة حول قطيفة الكفن البيضاء ومعها التاج والجثمان الملكي والصولجان فوق التابوت، وفي مهابة وبطء انزلق على صفحة الماء الأزرق الهادئ متبوعاً بالقوارب الثلاثة الأخرى، فتهيء للمرء إحساساً غريباً بالاختناق وتوقف قلبه بينما تطير الذاكرة عائدة ليوم استعراضها المنتصر وسط

أسطولها في الذكرى الستين لحكمها[1] وكما جاءت الجنازة في هدوء وصمت ذهبت لتختفي وسط المعمعة، مصحوبة بالدوي العميق للمدافع الذي يتواصل كل دقيقة حتى وصلوا ميناء «بورتسماوث». منظر رائع وانطباع مذهل مخلفاً وراءه ذكرى عن السلام والجمال والحزن محال أن تُنسى.

أول إرسال لاسلكي «راديو» عبر الأطلنطي

«12 ديسمبر/ الكانون 1901 افرنجي»

*** جوجليلمو ماركوني**

«انتظر ماركوني الإرسال من بولدو كورنوال، في كوخ فوق صخور سانت جون، في نيوفوندلاند».

وقبل انتصاف النهار، وضعت السماعة الفردية على أذني وبدأت الاستماع كان جهاز الاستقبال أمامي شديد البدائية، ففيه ملفات قليلة ومكثفات ومؤازر واحد، ولا توجد صمامات أو مكبرات صوت ولا حتى بللورة، ولكنني في النهاية عند نقطة وضع تصحيح كل آرائي على محك الاختبار، وجاء الرد 12,30 حين سمعت صوت بيب، بيب، خافتاً ولكنه واضح، فناولت السماعة إلى «كيمب» وسألته: «هل تستطيع سماع أي شيء؟» أجاب «نعم» إذ استطاع أن يسمع الحرف «س».

عندئذ أدركت أن كل توقعاتي قد تحققت، ها هي الموجات الكهربائية المرسلة للفضاء تعبر المحيط الأطلنطي من بولدو، والمسافة على بعدها الهائل - عندئذ - وهي 1,700 ميل، لم تمنعها انحرافية الكرة الأرضية، والنتيجة كانت بالنسبة لي شيئاً أكثر من مجرد تحقيق تجربة ناجحة، إذ كما أوضح السير أوليفرلودج، إنها مرحلة تاريخية جديدة. وشعرت الآن لأول مرة، بثقة مطلقة أن

(1) كانت الملكة فيكتوريا قد احتفلت بالذكرى الستين لحكمها Diamond Jubilee عام 1897 افرنجي أي قبل كتابة هذا التقرير بثلاثة أعوام. «المترجم».

اليوم الذي سيتمكن فيه الإنسان من إرسال رسائله دون أسلاك آت، ليس فقط عبر المحيط الأطلنطي، وإنما بين أطراف الأرض النائية.

جولة في حي مونمارتر

«4 نوفمبر/الحرث 1903 افرنجي»

*** أرنولد بينيه**

في معرض مونمارتر، الآن، أدهشني التأثير المذهل للجولة حول «الطاحونة الحمراء»، فالآلة تتأرجح كلها بالكامل، فالريشات تركض في طريق ويمضي سقف الآلة من طريق آخر، مضاءة بواسطة أنوار كهربائية ومصابيح في قوس واحد بصورة مبهرة، وفتاتان شقراوان خليعتان، بشفاه حمراء وأسنان بيضاء وفي أزياء صاخبة، تجلسان دون حياء في واحدة من العربات وسط الضوء الكامل، وهما تبدوان بصورة حسنة مع حشيات العربة القرمزية اللون كخلفية، وترميان تلك الشرائط الفرنسية الملونة الغريبة المصنوعة من الورق على الجماهير، ولهذه الشرائط تأثير الألعاب النارية والصواريخ في السماء، فهي تصنع خطاً من النار وتغطت الآلة كلها بهذه الشرائط تدريجياً، وأصبحت أشبه بالشرنقة وانسالت حولها بالآلاف، ثم تكومت فوق الطريق.

يوم الأحد الدامي..

«سانت بيترسبورج 22 يناير/أي النار 1905 افرنجي»

«قس شاب ـ هو الأب جابون ـ يقود مسيرة سلمية إلى قصر الشتاء»

*** الأب جابون**

«هذه المذبحة التي جرت لمتظاهرين مسالمين أشعلت الإضرابات والاعتراضات في أنحاء روسيا، واضطر القيصر لإصدار بيان يَعِدُ فيه بتشكيل برلمان قومي».

. . . هل سنمضي قدماً نحو البوابة، أو بطريق ملفوف لنتجنب الجنود؟ . . كان ذلك السؤال موجهاً لي، فصحت بجفاء: «لا . . مباشرة ومِنْ وسطهم، تشجعوا: الموت أو الحرية!» وصاحت الجماهير بدورها «هوراه» عندئذ بدأنا التقدم، منشدين في صوت واحد جاد عظيم ترنيمة القيصر «فلينقذ الله شعبك» وعندما وصلنا لمقطع «وأنقذ نيقولاس أليكساندوفيتش»، كان بعض الرجال المنتمين للحزب الاشتراكي أشراراً لدرجة استبداله بكلمات «أنقذ جورج أبولو نوفيتش» ـ وهو جابون ـ في حين كرر الآخرون الكلمات ببساطة: «الموت أو الحرية».

حطمت المسيرة في كتلة متلاحمة، وأمامي حارساي، ورفيق شاب بعينين داكنتين لم تمح الحياة القاسية ضوء الشباب المرح من وجهه بعد، وعلى أجناب الجماهير كانت الأطفال تعدو، وقد أصرت بعض النساء على السير في الصفوف الأولى، لكي يحمينني بأجسادهن ـ كما قلن ـ وأن القوة يجب أن تستخدم لإبعادهن.

وقد أذكر ـ كذلك كحقيقة بارزة ـ أنه في البداية لم تكتف الشرطة بعدم التدخل في شؤون المسيرة، وإنما تحركت معنا وقد خلع رجالها قبعاتهم احتراماً للرمز الديني، وقد مشى ضابطان من الشرطة المحلية عاريي الرأس أمامنا مانعين أية عوائق أمام تقدمنا وأرغموا بعض العربات القليلة التي صادفتنا على التحول جانباً من أجلنا، وبهذه الطريقة وصلنا إلى بوابة «النارفا». وازدادت كثافة الجماهير كلما تقدمنا، وأصبح الغناء أكثر تأثيراً، والمنظر كله أكثر درامية.

أخيراً وصلنا لمدى مائتي ياردة من حيث يقف الجنود، وسدت عدة طوابير من المشاة الطريق، وأمامهم كوكبة من الفرسان مصطفين بسيوف مشهرة تلمع تحت الشمس، هل سيجرؤون على لمسنا؟ . . ارتعشت أجسامنا للحظة ثم عاودنا التقدم من جديد وفجأة قامت جماعة الفرسان القوقازيين بالركض مسرعين نحونا وسيوفهم مشرعة. إذن في هذه اللحظة سيتحول الأمر إلى مذبحة رغم أي شي! . . لم يكن هناك وقت لوزن الأمور أو عمل خطة أو إصدار تعليمات،

وانطلقت صيحة تحذير والقوقازيون يهبطون نحونا، وانشقت صفوفنا الأمامية لهم يميناً ويساراً، وقاد الجنود خيولهم عبر هذه الحارة المفتوحة وهم يضربون الناس على كلا الجانبين، ورأيت السيوف تعلو وتهبط والرجال والنساء والأطفال يسقطون على الأرض ككتل من الخشب، بينما تملأ الأنات والصرخات واللعنات السماء.

كان مستحيلاً أن تفكر بعقل وسط حمى هذه الكارثة، وبناء على تعليماتي تشكلت الصفوف الأمامية من جديد عقب دخول القوقازيين الذين توغلوا أكثر فأكثر حتى برزوا في النهاية من آخر المسيرة، وتقدمنا من جديد بإصرار حاسم وغضب متنام في قلوبنا، فاستدار القوقازيون بخيولهم وبدأوا يشقون طريقهم عبر الجماهير من المؤخرة ومروا عبر الطابور كله، وركضوا عائدين نحو بوابة «النارڤا» حيث شكلوا صفاً ـ مرة ثانية ـ بعدما فتحت لهم المشاة وتركتهم يمرون. . كنا لا نزال نتقدم، رغم الحراب المرفوعة في صفوفها المنذرة والتي بدت تكون رمزاً لمصيرنا، لكنني لم أشعر بأي خوف، وقبل أن نبدأ قال لي صديقي العزيز العامل «ك»: «إننا على وشك التضحية بحياتك». . إذن فلتكن المشيئة.

لم نكن نبعد أكثر من ثلاثين ياردة عن الجنود، مفصولين عنهم بالكوبري الذي يعبر قناة «تاراكانوفسكي» فقط، التي تُعلم حدود المدينة هنا، حين فجأة ـ وبلا أي إنذار أو لحظة تأخير ـ سمعنا الصوت الحاد لطلقات بنادق عديدة، وقد أعلموني فيما بعد بشأن هذا، أن هناك نفيراً قد أطلق لكننا لم نستطع سماع صوته وسط إنشاد الجماهير، ولو كنا ـ حتى ـ سمعناه، ما عرفنا ما يعنيه ذلك.

وترك ڤاسيلييف ـ الذي كنت أسير معه يداً في يد ـ يدي فجأة وغرق في الجليد كذلك سقط أحد العمال الذين كانوا يحملون اللافتات، وفي الحال صرخ واحد من ضابطي الشرطة اللذين أشرت إليهما قبلاً، «ماذا تفعلون؟، كيف تجرؤون على إطلاق النار على صورة القيصر؟» وبالطبع لم يكن لذلك أدنى تأثير، وأُطلق عليه وعلى زميله ـ الضابط الآخر ـ الرصاص وكما علمت فيما بعد، فإن واحداً منهما قُتل والآخر كانت جراحه خطيرة.

استدرت بسرعة للجماهير وصحت فيهم أن ينبطحوا أرضاً، ومددت نفسي ـ أيضاً ـ فوق الأرض، وبينما نرقد هكذا، أطلقوا دفعة تالية من النيران، وثالثة ورابعة حتى بدا الضرب مستمراً، وفي البداية ركع الناس ثم بعدئذ استلقوا أرضاً وقد أخفوا رؤوسهم من سيل الرصاص، في حين بدأت صفوف المسيرة في المؤخرة بالهروب، وقبع دخان النيران أمامنا كسحابة رقيقة، شعرت بها تتحجر في زوري.

كان رجلٌ عجوزٌ يدعى «لاڤرينتيف» ـ وهو الذي يحمل صورة القيصر ـ أول الضحايا، فأمسك رجل عجوز آخر بالصورة وهي تسقط من بين يدي الأول، وحملها حتى قتل هو الآخر في دفعة النيران التالية، ومع آخر أنفاسه قال: «قد أموت، ولكني سوف أرى القيصر»، كما كسرت إحدى الرصاصات ذراع واحد من حملة اللافتات، واخترقت رصاصة أخرى طفلاً صغيراً في العاشرة كان يحمل فانوس الكنيسة فسقط أرضاً وهو لا يزال ممسكاً بالفانوس محاولاً النهوض من جديد، حين أصابته رصاصة أخرى فأوقعته، وكلا العاملين ـ الحدادين ـ اللذين كانا يحرساني قتلا، بالإضافة لأولئك الذين كانوا يحملون الأيقونات واللافتات، وتناثرت كل تلك الرموز والمقدسات الآن فوق الجليد وكان الجنود يطلقون نيرانهم في أفنية البيوت المجاورة ـ بالفعل ـ حيث حاولت الجماهير أن تجد ملجأ ـ وكما علمت فيما بعد أيضاً ـ فإن هذه الطلقات أصابت أشخاصاً بالداخل من خلال النوافذ.

وأخيراً توقف إطلاق النار، ووقفت مع بعض الآخرين القلائل الذين بقوا بلا جراح وتطلعت للجثث التي رقدت ممددة حولي، وصحت فيهم: «انهضوا!» لكنهم ظلوا راقدين، ولم أفهم الأمر بداية، «لماذا يرقدون؟» فنظرت من جديد ورأيت أياديهم ممدودة بلا حياة، ورأيت البقعة الدموية الوردية فوق الجليد، ففهمت عند ذاك، كان أمراً مخيفاً، وعزيزي ڤاسيلييڤ يرقد ميتاً عند أقدامي.

زحف الرعب إلى قلبي، والتمعت الفكرة برأسي: «هذا هو عمل أبينا الصغير، القيصر» وربما أنقذني هذا الغضب، لأنني علمت الآن بعين الحقيقة أن

صفحة جديدة قد فتحت في كتاب تاريخ شعبنا، فنهضت والتفت جماعة صغيرة من العمال حولي ثانية، وحين نظرت للخلف، رأيت مسيرتنا ـ رغم بقايا استمرارها ممتدة إلى الوراء ـ قد انشطرت، وأن كثيراً من الناس كانوا يفرون، وكان ندائي لهم عبثاً، وفي لحظة وقفت هناك في مركز ثلة قليلة من الرجال، نرتعد بالكرامة وسط الحطام المتكسرة لحركتنا.

زلزال سان فرانسيسكو

«17 أبريل/الطير 1906 افرنجي»

*** جاك لندن**

«شرد الزلزال والنيران الناتجة عنه 225,000 إنسان».

. . . ضاعت سان فرانسيسكو!، لم يبق منها شيء سوى الذكرى، وشريط من البيوت السكنية في الضواحي، وقد مُحي قسمها الصناعي من الوجود، وقسمها السكاني مُحي كذلك مع قسمها الاجتماعي، المصانع والمخازن والمحلات الكبرى ومباني الصحف، والفنادق وقصور الأثرياء كل ذلك اختفى، وتبقى فقط البيوت السكنية في شريط على ضواحي ما كانت يوماً سان فرانسيسكو. وعلى مدى ساعة بعد هزة الزلزال كان دخان حريق سان فرانسيسكو برجاً متألقاً يُرى على بُعد مائة ميل، وطوال ثلاثة أيام بلياليها ظل هذا البرج اللامع يتناثر في الفضاء، يُزيد الشمس حمرة والسماء قتامة ويملأ الأرض بالدخان.

. . . في صباح الأربعاء عند الساعة الخامسة والربع، بدأ الزلزال، وبعد دقيقة أخرى، كانت ألسنة اللهب تتقافز لأعلى، وفي عشرات الاتجاهات في جنوب «شارع ڤاركيت ستريت». وفي حي الطبقة العاملة وفي المصانع، بدأت النيران ولا شيء يعترضها، لا تنظيم ولا اتصالات، فكل وسائل القرن العشرين البارعة بالمدينة حطمها الزلزال، واحدودبت الشوارع فأصبحت تمتلئ بالحواف والمطبات، وتكوم حطام الحوائط الساقطة فيها، والتوت قضبان السكك الحديدية المصنوعة من الصلب في زوايا قائمة وأفقية، وتقطعت خطوط البرق والهاتف

وانهارت الخزانات المائية الكبيرة، فكل أجهزة ومعدات أمان بني البشر الحساسة توقفت عن الحركة بفعل تقلص قشرة الأرض ثلاثين ثانية فقط. !

وبحلول ما بعد ظهر الأربعاء، في إطار الاثنتي عشرة ساعة، كان نصف قلب المدينة قد ضاع. في ذلك الوقت، شاهدت الحريق الشاسع من الخارج فوق الخليج، وكان سكوناً مميتاً لم تتحرك فيه هزة ريح برغم أن الرياح انصبت من جميع الاتجاهات نحو المدينة، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، كانت رياحاً قوية تلك التي تهب على المدينة المقبورة، وصنع الهواء الساخن المتصاعد دوامة هائلة، وهكذا ابتنت النار لنفسها مدخنتها الضخمة عبر الفضاء، واستمر ذلك الهدوء المميت ليلاً ونهاراً، إلا أن الرياح بالقرب من اللهب كانت أقرب إلى العاصفة في الغالب. هكذا كانت روعة الدوامة.

كان الأمر الذي منع الفوضى هو التصريح التالي الذي أصدره العمدة إ.إ. شميتز «يصرح للقوات الاتحادية وأعضاء قوة الشرطة النظامية وكل ضباط البوليس الخاص، بقتل أي - وكل - شخص يوجد متلبساً بأعمال النهب أو بارتكاب أية جرائم أخرى».

«ولقد أصدرت تعليماتي لكل شركات الغاز والإضاءة بعدم تشغيل الغاز والكهرباء حتى آمرهم بذلك، ولذا عليكم أن تتوقعوا بقاء المدينة في الظلام لمدة غير محددة».

«وأطلب من كل المواطنين البقاء في منازلهم من وقت الغروب حتى النهار كل ليلة، وحتى إلغاء هذا الأمر».

«وأحذر كل المواطنين من خطر النيران الصادر من المداخن المكسورة أو المحطمة أو مواسير الغاز المكسورة أو المثقوبة أو الوصلات أو أية أسباب شبيهة».

وشهدت ليلة الأربعاء دمار قلب المدينة ذاته، وقد استخدم الديناميت بصورة مكثفة، حيث انهار الكثير من أفخر مباني سان فرانسيسكو بيد الإنسان نفسه

لتتحول إلى حطام، لكن لم يكن هناك تحمّلٌ لصد اندفاع ألسنة اللهب، ومرة ثانية يقوم رجال الإطفاء بوقفات ناجحة، وكل مرة تلتف النيران من الجوانب أو تأتي من الخلف، ويتحول لهزيمة ذلك الانتصار الشخصي الشاق.

عند الساعة التاسعة من مساء الأربعاء، مررت عبر أميال وأميال من المباني الرائعة وناطحات السحاب السامقة. هنا لا توجد حرائق وكل شيء في نظام تام، فالشرطة تجوب الشوارع، ولكل مبنى مراقب يقف على الأبواب، ورغم ذلك فالمدينة قُبرت كلها، لم يكن هناك ماء، والديناميت يتفجر، وعلى زوايا متعامدة يتداعى حريقان كبيران فوقه.

عند الساعة الواحدة صباحاً، سرت عبر نفس القطاع، كل شيء ما زال ينتصب قائماً ولم تكن هناك نيران، ومع ذلك كان هناك تغيير، إنه سيل من الرماد يتساقط، واختفى المراقبون من أمام الأبواب وانسحبت قوات الشرطة، ولم يكن هناك رجال إطفاء ولا سياراتهم، ولا حتى الرجال الذين يقاومون بالديناميت، فالمقاطعة قد هُجرت كلية.

وقفت على ناصية «كيرني» و «ماركت»، في وسط قلب سان فرانسيسكو تماماً، كان شارع «كيرني» مهجوراً، وعلى بعد ستة مبان كان الحريق على كلا الجانبين، كان الشارع سوراً من اللهب، وفي مقابل ذلك السور الملتهب تلاعبت ظلال اثنين من خيَّالة الولايات المتحدة بحدة وهما جالسان فوق جواديهما يتابعان ما يحدث في هدوء، كان هذا كل شيء، فلا وجود لأي شخص آخر على مدى البصر في قلب المدينة، جلس اثنان من الجنود فوق جواديهما وراقبا الأحداث.

كان الإخلاء كاملاً، لا مياه، والصرف الصحي لم يُضخ منذ فترة طويلة ولم يعد هناك ديناميت، وشب حريق آخر في نهاية المدينة، والآن تأتي الحرائق مكتسحة ثلاثة اتجاهات، أما الرابع لقد احترق مبكراً أثناء النهار، وفي هذا الاتجاه، تنتصب الحوائط المتأرجحة لمبنى المراقب العام ومبنى الاتصالات المحترق تماماً، والحطام الملتهب لفندق «جراند أوتيل» وفندق «بالاس أوتيل» المُدمر البارز الأحشاء والمضروب بالديناميت.

وما سيأتي، سيلقي الضوء على انتشار النيران وعدم مقدرة الرجال على حساب سرعتها، ففي الساعة الثامنة من مساء الأربعاء مررت عبر ميدان «يونيون سكوير»، كان ممتلئاً باللاجئين، وذهب آلاف منهم لتوسد الحشائش كما أقيمت خيام الحكومة، وتم إعداد العشاء واصطف اللاجئون للحصول على الوجبات المجانية.

عند الساعة الواحدة والنصف صباحاً كانت ثلاثة أركان من ميدان «يونيون سكوير» تأكلها ألسنة اللهب، أما الركن الرابع حيث ينتصب فندق «سانت فرانسيس هوتيل» فما زال راسخاً، وبعد ساعة من ذلك - مشتعلاً من قمته وجوانبه - كانت ألسنة اللهب فيه تتجه إلى عنان السماء. وأصبح ميدان «يونيون سكوير» - الذي تكومت فيه جبال الحطام عالية - مكاناً مهجوراً. فالجنود واللاجئون والجميع قد تراجعوا.

كان ذلك في ميدان «يونيون سكوير» حين رأيت رجلاً يدفع ألف دولار مقابل مجموعة من الخيل، وكان مسؤولاً عن عربة ضخمة محملة بصناديق الأمتعة من أحد الفنادق، وقد تم جرها إلى هنا حيث الأمان النسبي وأُخذت الجياد، فالحريق يشب في ثلاثة أركان من الميدان، ولم تكن هناك أية خيول.

وبجانب هذه العربة في ذلك الوقت، وأنا واقف بجوارها - كذلك - قمت بحث رجل على إنقاذ نفسه بالهرب، كان بنفسه كل شيء إلا أنه كان ينطوي في داخله على مشاعر تحترق، كان عجوزاً ويمشي على عكازين، قال لي: «اليوم هو عيد ميلادي، كنت ليلة أمس أُساوي ثلاثين ألف دولاراً، اشتريت خمس زجاجات من الخمر وبعضاً من السمك الرقيق وأشياءَ أخرى لعشاء عيد ميلادي، ولم يتم العشاء، وأصبح كل ما أملكه هو هذين العكازين». فأقنعته بالخطر ودفعته ليبدأ التوكؤ في طريقه، وبعد ساعة أخرى، ومن بعيد، رأيت عربة الأمتعة تشتعل متراقصة وسط الشارع.

في صباح الخميس عند الساعة الخامسة والربع بعد أربع وعشرين ساعة تماماً من الزلزال، جلست على سلم منزل صغير في «نوب هيل»، وجلس معي يابانيون

وإيطاليون وصينيون وزنوج، ثلة عالمية من البقايا العائمة في طوفان حطام المدينة، وكان كل ما حولنا قصور الأثرياء من رواد الـ «49»، وإلى الشرق والجنوب، تتقدم ستارتان من اللهب الهائل في زوايا متعامدة.

ودخلت مع صاحب المنزل الذي جلست على سُلمه، كان هادئاً مرحاً وكريماً، قال لي: «صباح أمس، كان ما أملكه ستمائة ألف دولار، أما هذا الصباح فكل ما أملكه هو ذلك المنزل، ولسوف يضيع خلال خمس عشرة دقيقة»، وأشار إلى دولاب ضخم: «هنا مجموعة زوجتي من المصنوعات الصينية، وتلك السجادة التي نقف فوقها هدية، إنها تساوي خمسمائة دولار فوق الألف، وجرب هذا البيانو وأنصت لأنغامه، هناك قليل جداً من نوعه، ولا توجد خيول لنقل ذلك، في حين ستكون النيران هنا خلال ربع الساعة».

وفي الخارج كان محل إقامة مارك هوبكنز العجوز ـ وهو قصر ـ قد بدأ يشتعل لتوه، والجنود يتراجعون ويسوقون اللاجئين أمامهم، وجاء زئير اللهب من كل الاتجاهات وصوت انهيار الحوائط ودوي انفجارات الديناميت.

خرجت من المنزل، وكان النهار يحاول البزوغ من خلال ستارة الدخان، وضوء واهن يزحف فوق وجوه الأشياء، وتخللت الشمس مرة واحدة فقط عبر ستارة الدخان دموية الحُمرة، وتبدو في ربع حجمها المعتاد، وستارة الدخان نفسها، تراءت من أسفل وردية اللون نبضت وخفقت بظلال شاحبة الزرقة ثم تحولت لألوان بنفسجية وصفراء ورمادية كئيبة، لم تكن هناك شمس، هكذا أشرق اليوم الثاني على سان فرانسيسكو المصابة.

عبور القنال الإنجليزي جواً..

«الطيران الأول 25 يوليو/ ناصر 1909 افرنجي»

*** لوي بليريو**

«طائرة بليريو 28 هـ.ب، والتي متوسط سرعتها 46 ميل في الساعة، أتمت العبور في 40 دقيقة، وقد عرضت فيما بعد في «سيلفريدج». ومر بها 120,000 شخص».

في الصباح الباكر من يوم الأحد 25 يوليو 1909 افرنجي، غادرت فندقي في «كاليه» وقدت سيارتي نحو المطار حيث أوقفت طائرتي، وفي الطريق لاحظت أن الطقس كان ملائماً لمحاولتي، ولذا أمرت المدمرة «أسكوبيت» الموضوعة تحت تصرفي من الحكومة الفرنسية بالذهاب لعرض البحر. فحصت طائرتي، وشغّلت المحرك فوجدته يعمل جيداً، وعند الساعة الرابعة والنصف، كنا نستطيع رؤية ما حولنا بوضوح إذ انتشر ضوء النهار، وكان تفكيري مركزاً على الطيران فقط وإصراري على تحقيقه هذا الصباح.

الساعة الرابعة وخمس وثلاثون دقيقة: كل شيء جاهز تماماً! وفي لحظة أصبحت في الجو، ويقوم محركي بعمل 1,200 دورة - وهي تقريباً أعلى سرعة - كي أصل بسرعة فوق أسلاك البرق «التلغراف» بطول الصخرة، وحالما وصلتها خفضت السرعة إذ ليس لي حاجة لإرهاق آلتي، وبدأت طيراني بثبات وثقة نحو ساحل إنجلترا، لا خوف ولا انفعال، لا شيء على الإطلاق، ورأتني المدمرة «أسكوبيت»، كانت تشق طريقها عبر القنال بكل سرعتها، ربما بسرعة 26 ميلاً في ساعة، ما الأمر؟ إنني أتحرك بأكثر من 40 ميلًا/ ساعة، وبسرعة مررت بها مرتحلاً على ارتفاع 250 قدماً، إن هذه اللحظة عظيمة، لكنني دُهشت من نفسي إذ لا أشعر بأي زهو، وأسفل مني يوجد البحر، وحركة أمواجه غير سارة، واستمررت في القيادة، ومضت عشر دقائق، وأدرت رأسي لأرى إذا ما كنت أتقدم في الاتجاه الصحيح أم لا، إنني مندهش، فلا شيء يمكن أن يُرى، لا المدمرة ولا فرنسا، إنني وحدي لقد ضعت.

عندئذ رأيت صخور شاطئ دوڤر، وهناك إلى الغرب كان الموقع الذي انتويت الهبوط فيه، فالريح أخرجتني عن خط سيري فاستدرت، والآن تعترضني صعوبات لأن الريح هنا عند الصخور أكثر شدة، وسرعتي انخفضت بينما أقاومها، واستجابت طائرتي الجميلة، فرأيت فسحة ووجدت نفسي فوق أرض جافة. قمت بمحاولة هبوط، لكن الريح شدتني ودارت بي دورتين أو ثلاث، فأوقفت محركي في الحال، وهبطت آلتي على الفور مباشرة فوق الأرض، لقد

أصبحت آمناً على شاطئكم، فجرى الجنود بأرديتهم الكاكية ومعهم شرطي وكان اثنان من مواطني هناك فقبّلوا وجنتي، وغمرني تأثر شديد.

امرأة تتغذى بالقوة في سجن والتون

«ليفربول 18 يناير/أي النار 1910 افرنجي»

*** كونستانس ليتون**

«كانت السيدة «الليدي» كونستانس ليتون، إحدى المدافعات عن حقوق المرأة وقد تنكرت كامرأة من طبقة دنيا لتدخل السجن كي تتأكد مما روته لها سجينة سابقة اسمها جين وارتون».

.. زارني - مرة ثانية - رئيس القسم الطبي الذي سألني كم مكثت بلا طعام فقلت له لقد أكلت شريحة خبز بالزبد مع إصبع موز أرسلها الأصدقاء لمركز الشرطة يوم الجمعة عند منتصف الليل تقريباً، فقال: «ياه.. إذن هذا هو اليوم الرابع، إنها لفترة طويلة، سوف أقوم بتغذيتك، يجب أن أطعمك في الحال».

لكنه خرج، ولم يحدث شيء حتى السادسة - تقريباً - في المساء، عاد ومعه - فيما أظن - خمس سجّانات وجهاز للتغذية، وحثني على تناول الطعام باختياري، فأخبرته أن رفضي ليس مجالاً للنقاش، فإذا ما توقف مشروعنا عن مقاومة حقوق المرأة عند ذاك سأتوقف عن مقاومة تناول الطعام في السجن، فلم يفحص قلبي ولا جسّ نبضي، ولا طلب مني أن يفعل ذلك ولم أقل شيئاً يدفعه للاعتقاد بأنني سأرفض الفحص، ولم أبذل أية مقاومة لوضعي في المكان الذي يريدونه لكنني تمددت بنفسي فوق السرير الخشبي، وأمسكت سجانتان بذراعي وواحدة برأسي والأخرى بقدميّ، أما الأخيرة فقد ساعدت في صب الطعام، وانحنى الطبيب على ركبتيّ وهو يميل على صدري ليصل لفمي، فأغلقت فمي وكززت أسناني.

لقد انتظرت هذه اللحظة بكثير من القلق حتى لا تنكشف شخصيتي أمامهم، لدرجة أنني شعرت بالسعادة حين أزف الوقت، وشعوري بأنني مقهورة بقوة أكثر

مما تحتمل مقاومتي كان مكتملاً. ولكنني لم أقاوم بشيء سوى بفمي، ومنحني الطبيب حق الاختيار بين مقبض لفتح الفم من الخشب أو من الصلب، وشرح ذلك بدقة، لم يفعلها في مناسبات تالية، بأن الآلة الصلب تؤذي والخشبية لا تؤذي ورجاني ألا أرغمه على استخدام الآلة الصلب.

لكنني لم أتكلم أو أفتح فمي، حتى إنه بعد محاولته بالآلة الخشبية للحظة أو اثنتين عاد للآلة الصلب، وبدا متضايقاً لمقاومتي، وتعكر مزاجه، وهو يهاجم أسناني بتلك الأداة الصلبة، واكتشف أن على كلا الجانبين من الخلف توجد لدي أسنان صناعية مثبتة على كوبري لم أنزعها، وسألتني السجّانة المُهتمة إذا ما كان لدي أسنان صناعية أخرى، ولو وُجدْت فلا بد من إخراجها، لكنني لم أجب بشيء واستمرت العملية، وغرس آلته في السنّة المُقلدة فضغطت بوحشية على اللثة، وقال إذا قاومت بأسناني أكثر من ذلك فسوف يقوم بتغذيتي عبر الأنف، وكان الألم حاداً وفي النهاية كان عليّ أن أستسلم لأنه تمكن من وضع المقبض بين أسناني، وحين بدأ يلفه أكثر مما يجب حتى تباعد فكّاي كثيراً، أكثر مما يستطيعان بصورة طبيعية، ثم وضع في زوري أنبوباً بدا لي أكثر اتساعاً وطوله حوالى أربعة أقدام، وكانت حركة الأنبوبة شديدة، فاختنقت لحظة أن مس زوري حتى هبط إلى أسفل، عندئذ صبوا الطعام بسرعة، فجلعني ذلك أشعر بالغثيان لمدة ثوان بعد أن استقر، وأدى شعوري بالغثيان إلى النهوض بقوة بجسمي وقدمي لكن السجانات ضغطن في الحال على رأسي، وانحنى الطبيب على ركبتي، وكان الرعب أكثر مما يمكنني وصفه، وتقيأت على الطبيب والسجانات، وأحسست بالوقت طويلاً قبل أن يستخرجوا الأنبوب من جوفي.

وبينما يغادر الطبيب الحجرة صفعني على خدي، ليس بعنف ولكن كما بدت للتعبير عن رفضه المستهجن، ويظهر أنه وثق أن احتقاري مؤكد. في البداية خيل للمرء أن ذلك شيء مهين يفعله لدرجة أنني لم أملك سوى الضحك في ذهني، ثم فجأة، رأيت جين وارتون مستلقية أمامي كما لو أنني خارجة منها، كانت أكثر السجينات جهلاً ومهانة وقلة حيلة، وعندما أنهت فترة حكمها وخرجت من

السجن، لم يصدق أحد شيئاً مما قالته، وأن الطبيب عندما قام بتغذيتها بالقوة وعذب جسمها، صفعها على خدها ليبين مدى احتقاره لها، تلك كانت جين وارتون، وقد أتيت لمساعدتها.

حين غادر الطبيب الزنزانة تمددت بلا حيلة، وكانت السجانات عطوفات فركعن حولي للتخفيف عني، لكن ليس هناك شيء يفيد، لم أستطع الحراك، وبقيت هناك فيما يمكن أن يكون فوضى لا يمكن التغاضي عنها تحت ظروف مختلفة، فقد تقيأت على شعري الذي ـ رغم قِصره ـ تعلق على جانبي وجهي، وفوق الحائط بالقرب من سريري، وملابسي بدت غارقة في القيء، ولكن السجانات أخبرنني أنهن لا يستطعن توفير غيار لملابسي هذه الليلة، فالوقت متأخر جداً والمكتب مغلق، فاستلقيت ساكنة تماماً، إنها الجنة أن أكون بلا أنبوب يخنقني، وبلا طعام سائل يدخل ويخرج من جسمي، ودون مقبض يفتح أسناني.

غادرتني السجانات حالاً، إذ لديهن تعليمات بالذهاب، تم تنفيذها بالسرعة المعتادة، وقبل أن تمضي فترة طويلة سمعت أصوات التغذية الإجبارية في الزنزانة المجاورة لي، كان ذلك أكثر مما أحتمل بالكاد، إنها «إلزي هوي» إنني متأكدة، وعندما انتهت العملية البشعة وهدأ كل شيء، دققت على الحائط، وناديت بأعلى صوتي ـ الذي لم يكن من قبل مثل ذلك: «لا استسلام». وهناك أتت الإجابة عابرة أي شك في صوت «إلزي» «لا استسلام».

القبض على الدكتور «كريبن»

«31 يوليو/ناصر 1910 افرنجي»

*** كابتن هـ.ج. كيندال**

«كان الدكتور «كريبن» ـ قاتل زوجته ـ أول مجرم يتم تعقبه بواسطة اللاسلكي وتم تنفيذ حكم الإعدام فيه، لكن «ايثيل لونيف» التي أُتهمت كمساعدة تمت تبرئتها، أما القاص هنا فهو الكابتن كيندال، قبطان السفينة الكندية عابرة الباسفيك «مونتروز».

كانت «مونتروز» في الميناء بمدينة «انتويرب» حين قرأت في جريدة «كونتيننتال ديلي ميل» أن أمراً بالقبض على «كريبن» و«لونيف» قد صدر، وأرسلت تقارير حول تقفي آثارهما حتى أحد الفنادق في «بروكسل» لكنهما حينئذ اختفيا ثانية.

فور إقلاعنا نحو «كويبك»، تصادف أن كنت أنظر خلال قمرتي فرأيت رجلين خلف قارب إنقاذ، كان أحدهما يعتصر يد الآخر، فمشيت بطول سطح القارب ودخلت في حديث مع الرجل الأكبر، ولاحظت أن هناك علامة على قصبة أنفه بسبب ارتداء نظارات، وأنه قد حلق شاربه حديثاً، وأنه يطيل لحيته، وكان رفيقه الصغير متحفظاً جداً وتنبهت لكحته فعلَّقتُ عليها، قال الرجل الكبير: «نعم، ابني صدره ضعيف، وسآخذه إلى كاليفورنيا لتحسين صحته».. وعدت لكابينتي وألقيت نظرة ثانية على الجريدة، ودرست الأوصاف والصور التي أصدرتها «سكوتلانديارد».

كان عمر كريبن 50 سنة وطوله 5 أقدام و4 بوصات، يرتدي نظارات وله شارب، أما الآنسة «لونيف» فعمرها 27 سنة وطولها 5 أقدام و5 بوصات، نحيفة ذات سحنة شاحبة، عندئذ فحصت قائمة المسافرين وتأكدت أن هذين المسافرين يرتحلان باسم «روبنسون وولده»، فرتبت مسألة تناولهم الطعام على مائدتي.

عندما دق الجرس للغداء، تأخرت حتى أصبح المكان خالياً، ثم تسللت إلى كابينة «روبنسون» دون أن يلحظ أحد حيث تنبهت لشيئين: أن قماش قبعة الصبي قد طُوي حول الحافة حتى يلائمه، وأنه يستخدم قطعة من ملابس داخلية نسائية كمنشفة وجه، وقد أراحني ذلك، فذهبت لصالة الطعام وتابعت كل شيء بيقظة. كانت تصرفات الفتى على المائدة أشبه بسلوك امرأة، وفيما بعد أثناء تجوالهم في صالة السطح، خرجت ومشيت خلفهم وصحت «سيد روبنسون» وكان عليّ أن أنادي عدة مرات قبل أن يستدير الرجل ويقول لي: «آسف، يا كابتن، لم أسمعك، فتلك الريح الباردة تجعلني أصماً».

وخلال اليومين التاليين نمينا علاقتنا، كان السيد روبنسون قمة في الأدب، هادئ الطباع غير مدخن، وفي الليل يصعد السطح ويتجول بمفرده. ذات مرة رفعت الريح ذيل معطفه، وفي جيبه الخلفي رأيت مسدساً، بعد ذلك حملت أنا أيضاً مسدساً، وغالباً ما كنا نقوم بحفلات شاي صغيرة في كابينتي معاً، لنتناقش في الكتاب الذي كان يقرأه ـ وكان ـ «رجال العدل الأربعة» وهو من ألغاز الجريمة كتبه «إدجار والاس» ـ وحينما أبرقت بتلك الحقيقة عبر اللاسلكي للندن ونشرت جعلت اسم «والاس» يدوي ـ لهذه الدرجة كان كل شخص في انجلترا شغوفاً بحالة كريبن.

وذلك ما ربطني باللاسلكي، ففي اليوم الثالث من الرحيل، أسلمت عامل اللاسلكي رسالة «لليڤيربول»: ـ مائة وثلاثون ميلاً غرب ليزارد ـ. «لدي شكوك قوية أن كريبن لندن ـ القاتل المختفي ـ ورفيقته بين مسافري الصالون، الرفيقة ترتدي زي الصبيان، . . الصوت والسلوك والبُنية فتاة دون شك».

وأذكر أن السيد روبنسون وهو جالس على مقعد فوق سطح السفينة ناظراً لهوائيات اللاسلكي ومنصتاً لقرقعة المحول، كان يعلق على ذلك بقوله: «يا له من اختراع بديع».

أرسلت عدة تقارير أخرى. لكن جهاز البث الضعيف لدينا أصبح بعيداً عن مدى الاتصال بالأرض، وعلى أية حال فقد استطعنا سماع سفن أخرى على مسافات بعيدة، وقد تتخيل دهشتي حين أحضر لي عامل اللاسلكي رسالة اعترضها من صحيفة لندنية مرسلة لمندوبها على ظهر السفينة الملاحية النجمة البيضاء «لورينتيك» التي كانت تتجه غرباً عبر الأطلنطي، وتقول «ماذا يفعل المفتش «ديو»؟ هل يرسل ويستقبل رسائل لاسلكية؟ هل يلعب «لعبته» مع المسافرين؟ هل المسافرون منبهرين بالمطاردة؟ الرد سريع. .».

وكانت تلك هي المرة الأولى التي علمت فيها أن رسالتي إلى «ليڤربول» قد أدت بمفتش المباحث «ديو» لركوب أول سفينة مبحرة «لورينتيك» ومع سرعتها المتميزة عرفت أنها يمكن أن تصل ساحل نيوفوندلاند قبلي. . وأملت أنها لو كانت

تحمل لي أية أخبار فسوف تتركها عند جزيرة «بيل» لتُرسل إليّ بمجرد أن أعبر تلك النقطة عند اقترابي من كندا، وكان لديها أخبار بالفعل: [سوف نركب معك عند نقطة «فاذربوينت» سري جداً، من المفتش «ديو» سكوتلانديارد ـ على ظهر السفينة لورينتيك]. فأرسلت إجابتي: [سنصل فاذربوينت الساعة 6 صباحاً غداً، أنصحك بالحضور في قارب صغير مع مرشد، متنكراً كمرشد] وتم تأكيد ذلك.

كانت الليلة الأخيرة مخيفة وقلقة، وأضاف صوت بوق ـ الضباب الذي يدوي كل دقائق قليلة ـ المزيد للتوتر المقلق، وزحفت الساعات وأنا أذرع كوبري السفينة، وبين الفينة والفينة أرى السيد روبنسون يتمشى فوق السطح، وقد دعوته ليستيقظ مبكراً لمشاهدة «المرشدين» الصاعدين لسطح السفينة عند «فاذربوينت» في نهر «سانت لورينس».

عندما فعلوا ذلك أتوا مباشرة لكابينتي، فأرسلت لاستدعاء السيد روبنسون، وحال دخوله، وقفت مع المخبر مواجهين الباب وممسكاً بمسدسي داخل جيب معطفي، وبينما يدخل قلت له: «دعني أقدم لك..». «مد السيد روبنسون يده وأمسك بها المفتش وهو يزيح «كاب المرشد» من فوق رأسه في نفس الوقت قائلاً: «صباح الخير، دكتور كريبن، هل تعرفني؟. أنا المفتش «ديو» من سكوتلانديارد».

ارتعش كريبن، وأخرسته المفاجأة، عند ذاك قال: «الحمد لله، انتهى كل شيء». كان التوتر شديداً جداً لدرجة لم أتحمله أكثر من ذلك.

حصار شارع سيدني

«3 يناير/ آي النار 1911 افرنجي»

*** فيب جيبس**

«أثناء مطاردة عصابة من لصوص المجوهرات ـ الذين قتلوا شرطياً ـ حاصرت الشرطة بعض المشكوك فيهم، ويشملون ـ كما كان يُظن ـ مجرماً يدعى «بيتر» الرسام في رقم 155 شارع سيدني، طريق «مايل إند»، وقد أثارت المسألة صرخة

غضب ضد المهاجرين الأجانب واللاجئين السياسيين والعالم السفلي بالطرف الشرقي لليهود الألمان والروس، الذين يُعتقد أن عصابات شارع سيدني تنتمي إليهم».

لسبب - نسيته - ذهبت مبكراً جداً في ذلك الصباح لمكتبة جريدة «الكرونيكل» وحيّاني محرر الأخبار ذاكراً أن معركة كالجحيم تدور رحاها في شارع سيدني، ونصحني بالذهاب واستطلاع الأمر.

أخذت سيارة أجرة ومضيت حتى ناصية الشارع، حيث وجدت جمهوراً غفيراً يشاهد الأمر على بعد بأقصى ما يجرؤون منه على التلصص من وراء زوايا الحوائط من الشوارع الجانبية، وبلا هدف في لحظات الخطر - الذي بدا لي غريباً - وقفت بجرأة مقابل شارع سيدني وتطلعت عبر صفوف منازله الطويلة، وأمامي مباشرة أربعة جنود من إحدى فرق الحرس راقدين على بطونهم، ويحمون أنفسهم من قذارة الطريق بواسطة لوحات حمل الجرائد، ويطلقون رصاص بنادقهم نحو منزل عند منتصف الطريق، وحارس شاب آخر يميل فوق حائط يوجه طلقات عشوائية على فترات أثناء تدخينه بعض الأعشاب، وبينما أقف بجانبه غمز بعينه قائلاً «يا لها من لعبة»!.

كان الأمر شيئاً أكثر من مجرد اللعب، فالرصاص يرف من الحائط كحبوب البازلاء فاتحاً ثقوباً في الطوب الأصفر القذر، ويتقافز بصورة خيالية، وأخذ واحد منها شريحة نظيفة من خوذة شرطي الذي قال: «حسناً لسوف أقتل» وضحك في حمق.

كان ذلك قبل الحرب حين تعلمنا معرفة الكثير عن معنى الرصاص، ورصاصة أخرى اصطدمت بعصا كان ينحني عليها صديق صحفي بطريقة رشيقة سهلة، فتخلى عنه زهوه وثباته فجأة، وقال جاداً: «شيء ممتع» وهو يرى عصاه قد انشطرت نصفين عند قدميه، وكان عامل لآلة الخيالة «السينما» - وهو واقف في شارع سيدني تماماً - يحرك مقبضها بحدة، غير مبال كلية بأزيز الرصاص الذي كان يطلق بزاوية مائلة من المنزل الذي كان يبدو هدفاً للحراس الراقدين، وصاح

مفتش بوليس ضخم - ذو حيثية عالية - مصدراً أمراً لرجاله: «ما هذا الهراء؟ أبعدوا الناس للوراء، أبعدوهم للخلف تماماً، فنحن لا نريد الكثير من الجثث السخيفة لترقد حولنا».

ودفع حزام من رجال الشرطة الجمهور الغفير للخلف واطئاً أصابع أقدام أولئك الذين لا يتحركون بالسرعة الكافية. ووجدت نفسي بين مجموعة من الصحفيين، وصاح الشرطي: «ارجعوا هناك». لكننا عقدنا العزم على مشاهدة الدراما في الهواء الطلق، إنها أكثر إثارة من أي عرض سينمائي، وكان في مقابلنا مباشرة قصر طويل من قصور الترفيه.

صاح أحد المخططين منا: «قصر الشمس المشرقة، إنه المكان المناسب تماماً لنا». فتسابقنا قبل أن تتمكن الشرطة من منعنا، ووقف جامع تذاكر يهودي أمام ممر الباب بجفاء وسألنا: «ماذا تريدون؟» فقال واحد من الصحفيين «سطح قصرك»، فقال اليهودي: «جنيه لكل فرد والأمر يستحق»!. وفي ذلك الوقت قبل عصر النقود الورقية، كان بعضنا يحمل الجنيهات الذهبية في الجيوب، واحد لكل جنيه، معظم الآخرين دفعوا، ولكن كالمعتاد لم يكن معي أكثر من ثمانية عشر بنساً، فأقرضني زميل المبلغ المطلوب، وزحلق اليهودي النقود في جيبه وهو يتركني أمر، حصل عشرون منا على الأقل ميزة الوجود على سطح قصر «الشمس المشرقة».

كانت نقطة متميزة جيدة، أو نقطة الملاحظة O.P، كما سندعوها فيما بعد تاريخياً، فهي تطل مباشرة على شارع سيدني حيث يقوم «بيتر الرسام» وأصدقاؤه بالدفاع عن أنفسهم حتى الموت، مبنى طويل رقيق من ثلاثة طوابق ذو ستائر نوافذ قذرة، وفي المنزل المواجه مباشرة يوجد مزيد من بعض رجال الحرس، وقد كوموا الوسائد والمراتب في النوافذ كأكياس الرمل التي تستخدم في خنادق الحرب، ولم نستطع رؤية الجنود، لكن استطعنا رؤية تأثير نيرانهم المتقطعة التي حطمت كل لوح زجاجي، واستمرت تقطع شرائح من قطع الطوب الأحمر في مقر الفوضويين.

كان الشارع قد أُخلي من المشاهدين، لكن مجموعة من المخبرين تسللت بطول الحوائط على جانب الفوضويين من الطريق على زاوية تجعلهم في مأمن من النيران المائلة للعدو، وكان عليهم الالتصاق بالحائط بشدة، لأن بيتر ورفاقه كانوا يطلقون طلقات مميتة وقد شكلوا ما يشبه سداً من النيران بأسلحتهم الآلية، وأي مخبر أو رجل شرطة يظهر نفسه يُقتل في ثانية، وأولئك الرجال خرجوا للقتل.

أصبح الأمر مملاً إذ تابعته لمدة ساعة أو يزيد، جاء خلالها السيد وينستون تشرشل ـ الذي كان سكرتيراً لمجلس الوزراء آنذاك ـ ليقود العمليات النشطة بنفسه، بذلك أثار كمية هائلة من السخرية في صحف اليوم التالي، وبقبعته الشهيرة من طراز «بولر» والمشدودة بإحكام حول حاجبه البارز، وإحدى يديه في جيب صديريته مثل نابليون في ميدان القتال، تطلع حول ناصية الشارع، وبعد لحظات كما علمنا، أمر بعض مدافع الميدان بتدمير المنزل.

وفي حجرة بالطابق العلوي بالمنزل الذي يوجد به الفوضويون، لاحظنا اندفاع غاز مشتعل، وانتبه بعضنا في الحال لرماد أبيض من ورق محترق يتطاير خارجاً من فوهة المدخنة، فقال أحد أصدقائي: «إنهم يحرقون المستندات» لكنهم كانوا يحرقون ما هو أكثر من ذلك، كانوا يشعلون النار بكل المنزل، أسفل وأعلى، وكانت ستائر النوافذ أول شيء أمسكت به النيران ثم انسالت كتل من الدخان الأسود ـ تتصاعد بينها ألسنة صغيرة من اللهب ـ عبر أُطر النوافذ الخالية، ولا بد أنهم استخدموا «البارافين» لزيادة اشتعال النيران، فالمنزل كله يحترق بسرعة مذهلة.

وصاح الرجل الواقف بجواري على سطح ذلك القصر العمومي: «هل شاهدت في حياتك مثل هذه اللعبة في لندن».

وظننت لوهلة، أنني رأيت واحداً من القتلة يقف على إفريز النافذة لكن ذلك كان ستارة سوداء طارت فجأة خارج النافذة وتدلت فوق حافتها، وبعد دقيقة أخرى ألقيت نظرة خاطفة على ذراع رجل بيده مسدس، وأطلق النار، بدت بعدها التماعة سريعة، في ذات الوقت دوت دفعة من الطلقات أطلقها رجال الحرس

المقابلون، ومن المؤكد أنهم قتلوا الرجل الذي أظهر نفسه، لأنهم فيما بعد وجدوا جثته ـ أو قطعة منها ـ وقد اخترقت جمجمته رصاصة، ولم يمض وقت طويل حتى سقط السقف تصحبه اندفاعة من اللهب والشرارات إلى أعلى وكان ـ من قمته لأسفله ـ أتوناً من النيران.

تقدم المخبرون الآن ـ ومسدساتهم جاهزة ـ في تشكيل «صف هندي»، ثم جرى واحد منهم وركل الباب الأمامي فانهار، وقفزت منه لفة من اللهب، ولم تطلق رصاصة أخرى من الداخل. وأضحى «بيتر الرسام» ورفاقه المجرمون رماداً متفحماً وسط نار السمر التي أوقدوها..

بعثة القطب الجنوبي

«من يوميات الكابتن سكوت ـ مارس/ الربيع 1912 افرنجي»

*** كابتن سكوت**

«وصل سكوت ورفاقه الأربعة الباقون لمنطقة القطب الجنوبي يوم 18 يناير، ليجدوا أن «رولد أموندسين» قد سبقهم بحوالى شهر، وقد اكتشف الباحثون خيمتهم وبها الجثث المتجمدة يوم 12 نوفمبر...»

انطباعات

* الطيات الجذابة لكيس النوم.
* فحيح موقد «البريموس» ورائحة بخار آنية الطهي المتصاعد من فتحة تهوية الخيمة.
* الخيمة الخضراء الصغيرة والطريق الكبير الأبيض.
* نباح كلب وصهيل خيولنا.
* السحابة الصادرة عن تحركنا من جليد ناعم.
* وقع خطواتنا التي تسحق قشرة سطح الأرض.
* أخاديد هبوب الريح.
* القوس الأزرق أسفل السحابة الدخانية.

* الحلقة الهشة لحوافر مُهُرِنا وحفيف الزلاجة التالية.
* المحادثة الرتيبة في المسير، في حين يحث السائق حصانه أو يعنفه.
* رتابة وقع أقدام الكلاب.
* الرفرفة اللطيفة لنسيج خيمتنا المشمع، وصوتها العميق الهادر، تحت وطأة عاصفة ثلجية كاملة.
* رشاش من الجليد كذرات الدقيق يخترق كل ثقب وركن، متسللة تحت غطاء رأس المرء، تؤخذ في حدة كانفجار رملي.
* الشمس تتلصص ـ في صورة معتمة ـ بحياء من خلال ذلك الهيل المتموج لتلقي ضوءاً شاحباً لا ظلال له.
* السكوت الأبدي للصحراء البيضاء الشاسعة، وأعمدة سحابية من تيار جليدي تتقدم من الجنوب، أشباح صفراء شاحبة تنبىء بالعاصفة القادمة وتمحي خطوط الأرض المحفورة بحدة واحداً وراء الآخر.

الجمعة 16 مارس أو السبت 17 مارس:

فقدنا تحديد الأيام، لكنني أعتقد أن الأخير هو الأصح، المأساة على طول الخط. عند الغداء ـ أول أمس ـ قال «تيتوس أوتس» المسكين: إنه لا يستطيع الاستمرار، واقترح أن نتركه في كيس نومه، وهذا ما لم نستطع فعله، فأغريناه بمواصلة السير في تحركنا بعد الظهر، وبرغم طبيعة المكان الوحشية جاهد كي يستمر، فاجتزنا أميالاً قليلة، وعند الليل ازداد سوءاً وعلمنا أن نهايته قد حانت.

وطالما وجدت هذه الأمور، فإنني أريد تسجيل الحقائق: كانت أفكار «أوتس» الأخيرة حول أمه، ولكن قبلها مباشرة، كان يتفاخر معتقداً أن فرقته سوف تسعد بالطريقة الشجاعة التي واجه بها الموت، ويمكننا أن ندلك على شجاعته فقد تحمل آلاماً حادة طوال أسابيع دون شكوى، ولآخر لحظة كان يستطيع ـ ويريد ـ مناقشة المسائل الخارجية، ولم ـ وما كان له أن ـ يفقد الأمل حتى النهاية، لقد كانت روحه شجاعة، تلك كانت النهاية، لقد نام طوال الليل قبل الأخير آملاً ألا يستيقظ، لكنه صحا في الصباح ـ أمس ـ وكانت السماء تهب

بعاصفة ثلجية، وقال: «إنني خارج، وربما أتأخر قليلاً». وخرج إلى العاصفة ولم نره منذئذ.

وأنتهز فرصة قولي أننا التزمنا برفاقنا المرضى حتى لحظاتهم الأخيرة، لأذكر أنه في حالة «إدجار إيڤانز» حين أصبحنا بلا طعام تماماً، ورقد هو فاقد الوعي، وبدت سلامة الباقين تتطلب تركه في مكانه. أخذته العناية الإلهية برحمتها في اللحظة الحرجة فمات موتاً طبيعياً، ولم نتركه إلا بعد ساعتين من وفاته، وقد علمنا أن «أوتس» المسكين كان يمضي لموته، ورغم أننا حاولنا منعه، كنا نعلم أن ذلك سلوك رجل شجاع، و«سيد إنجليزي مهذب»، وكلنا نتمنى أن نقابل نهايتنا بنفس هذه الروح، والنهاية ليست بعيدة، بالتأكيد.

أستطيع الكتابة عند الغداء فقط، ثم بعد ذلك بالصدفة، البرد حاد جداً 40 درجة مئوية تحت الصفر عند منتصف النهار، وكان رفاقي مرحين بلا حدود كلنا جميعاً كنا على شفا «قرصات برد» خطيرة، ورغم أننا تحدثنا باستمرار عن البحث عنا، إلا أنني أشك أن أحداً منا صدق ذلك في أعماقه.

نحن «بردانين» أثناء المسير الآن، وفي كل الأوقات عدا أوقات الوجبات، كان علينا أن نرقد. أمس بسبب عاصفة ثلجية، واليوم نتحرك ببطء شنيع، نحن عند معسكر «بوني» رقم 14، على مسيرة معسكرين فقط من المخزن الرئيسي «ون تون ريبوت» وسنترك هنا جهاز القياس المساحي، وآلة تصوير، وأكياس نوم «أوتس» أما المذكرات وغيرها، والعينات الجيولوجية التي حملناها بطلب خاص من ويلسون، فسوف توجد معنا أو على زلاجتنا.

الأحد 18 مارس..

اليوم، عند الغداء، نحن على بعد 21 ميلاً من المخزن يهاجمنا سوء الحظ، لكن التحسن قد يأتي، ونواجه رياحاً وتيارات أكثر من أمس علينا أن نوقف المسير، الرياح شمالية غربية، بقوة 4، درجة الحرارة ـ 35° «ناقص خمس وثلاثين درجة مئوية (تحت الصفر)»، لا يستطيع كائن بشري تحملها، ونحن قد تمزقنا تماماً».

ضاعت قدمي اليمنى تقريباً، كل أصابعها، وليومين مضيا كنت أكثر من يفخر بامتلاكه أحسن قدمين، إنها خطوات سقوطي، إذ قمت ـ كالحمار ـ بخلط ملء ملعقة صغيرة من مسحوق البهارات «كاري» بفطيرة اللحم الذائبة في طعامي، فأصابتني بعسر هضم عنيف، فرقدت صاحياً طوال الليل في ألم، بالاستيقاظ والجهد المبذول في السير ضاعت قدمي ولم أدرك ذلك، درجة بسيطة جداً من الإهمال وتجد لديك قدماً لا يسرك تأملها، احتل «بورو» المكان الأول في الحالة تلك، ولكن لم يعد هناك مجال للخيار، في حين ظل الآخرون مؤملين في الخروج من المأزق ـ أو تظاهروا بذلك ـ أنا لا أدري!، . . معنا آخر نصف من الوقود في موقدنا «البريموس» وكمية ضئيلة من الخمر، ـ هي كل ما بيننا وبين العطش ـ، والرياح معتدلة هذه اللحظة، وتلك حقيقة قد تساعدنا، إن رحلة العمر قد تبدو عجيبة الصغر في رحلتنا المفتوحة هذه.

الإثنين 19 مارس. . ساعة الغداء:

أقمنا مخيمنا بصعوبة ليلة أمس، وشعرنا ببرد مخيف حتى بعد عشائنا المكون من فطيرة اللحم الباردة والبسكويت ونصف قدح من الكاكاو المسخن فوق الكحول، عندئذ وبعكس كل التوقعات، امتلأنا دفئاً ونمنا جميعاً بصورة جيدة، واليوم بدأنا بأسلوب الزحف المعتاد، والزلاجة ثقيلة جداً ونحن على بُعد 15 1/2 من المخزن وعلينا أن نصل هناك خلال ثلاثة أيام، ياله من تقدم!، لدينا طعام يومين ووقود يوم واحد بالكاد، وساءت حالة أقدامنا جميعاً، أما ويلسون فهو أفضل، وقدمي اليمنى شديدة السوء، واليسرى جيدة، ولا توجد فرصة لعلاج قدم المرء إلا إذا حصلنا على طعام ساخن يدخل جوفنا، والبتر هو أدنى شيء آمل فيه حتى الآن، لكن هل سينتشر الألم؟ هذا هو السؤال الخطير فالطقس لا يمنحنا فرصة، والرياح من شمالية إلى شمالية غربية ودرجة الحرارة 40° تحت الصفر.

الأربعاء 21 مارس:

وصلنا لمدى 11 ميلاً من المخزن ليلة الإثنين، واضطررنا للبقاء طوال أمس

في عاصفة ثلجية حادة، اليوم.. أمل يائس، «ويلسون» و «بودرز» سيذهبان للمخزن من أجل الوقود.

الخميس 22 و 23 مارس:

العاصفة سيئة كديمومتها، و«ويلسون» و«بودرز» غير قادرين على البداية، وغداً الفرصة الأخيرة، لا وقود، طعام واحد أو اثنان بقيا فقط، لا بد أننا نقترب من النهاية، وقد قررنا أنه من الطبيعي أن نسير نحو المخزن بقوتنا أو بدونها ونموت في المضمار.

الخميس 29 مارس:

منذ يوم 21 ونحن نواجه عاصفة مستمرة من اتجاه غرب الجنوب الغربي، والجنوب الغربي، وكان لدينا وقود لعمل قدحين من الشاي لكل قطعة، وطعام قح لمدة يومين في 20 من هذا الشهر، وكل يوم كنا نتجهز للبدء في تحركنا نحو المخزن على بعد 11 ميل، ولكن خارج باب الخيمة ظل المنظر.. إعصار عاصف، لا أعتقد أننا يمكن أن نأمل في أي تحسن الآن، وسوف نلزم الأمر للنهاية، لكننا نضعف أكثر بالطبع، والنهاية لا يمكن أن تبعد، يبدو ذلك مؤسفاً، ولكنني لا أعتقد أنني أستطيع كتابة المزيد.

سكوت

* اعتنوا بأهلنا لأجل الله.

كارثة الباخرة «تيتانيك»

«رواية رجل وقّاد، 15 أبريل/الطير 1912 افرنجي»

*** هاري سنيور**

«الباخرة التي لا تغرق «تيتانيك» كان بها 1,178 قارب إنقاذ، مخصص

لـ 2,224 شخص فوق متنها، فقد ما جملته 1,513 حياتهم، نسبة كبيرة منهم كانوا من ركاب السطح»[1].

. . . كنت في سريري حينما شعرت بهزة شديدة، قال رجل: «مرحباً، لقد صُدمت السفينة» فذهبت للسطح، ورأيت كوماً ضخماً من الجليد عند السطح الرئيسي قبل البرج، لكننا اعتقدنا جميعاً أن السفينة ستبقى لبعض الوقت، فعدنا لمخادعنا من جديد، عندئذ جاء أحد الوقّادين - أي الذين يغذون الغلايات بالوقود - يجري هابطاً وهو يصرخ: «كل البحارة إلى قوارب الإنقاذ». فجريت إلى السطح، وقال القبطان: «على كل الوقادين أن يظلوا على السطح الرئيسي، لو تقدم رجل فسوف أطلق عليه النار».

عندئذ رأيت قارب النجاة الأول يُدلّى، كان على ظهره ثلاثة عشر شخصاً أحد عشر رجلاً وامرأتان، ثلاثة منهم كانوا مليونيرات وواحد كان هو «إسماي» - ج، بروس إسماي مدير خط ملاحة هوايت ستار وأحد الناجين -، حينئذ عدوت للسطح العلوي الصغير وساعدت على إنزال أحدى قوارب التجهيز الخفيفة إلى السطح الأسفل، ورأيت امرأة إيطالية تحمل طفلين فأخذت واحداً منهما، وجعلت المرأة تقفز فوق القارب بالطفل وقمت بذلك مع الطفل الآخر، وحين وصلت للسطح كان الطفل قد مات، ورأيت المرأة تجدف بأسلوب صحيح، ولكن إحدى الغلايات فوق «تيتانيك» انفجرت، وصنعت موجة ضخمة حين رأتها المرأة استسلمت على الفور، عند ذاك وطالما أن الطفل كان ميتاً تركته يغرق أيضاً، وبقيت أسبح لحوالى نصف الساعة، وكنت أعوم على ظهري حين غاصت الـ «تيتانيك» وحاولت أن أصعد سطح أحد القوارب لكن شخصاً ما ضربني فوق رأسي بمجداف، كان بداخل القارب عدد كبير، فذهبت للجانب الآخر، وتسلقت القارب.

---

(1) سبق التعرض لهذا المعنى «المسطحين» هم الركاب الذين يسافرون بأرخص الأسعار ودون حجز حجرات أو مجاناً على سطح السفينة Steerage «المترجم».

كارثة الباخرة «تيتانيك»

«رواية عاملة اللاسلكي 15 أبريل/الطير 1912 افرنجي»

*** هارولد برايد**

. . . من مؤخرة السفينة تناهت لسمعي نغمات الموسيقى، كانت أغنية شعبية شائعة لم أدرك ما هي، حتى سمعت نغمة «الخريف». . ذهبت للمكان فرأيت قارب الإنقاذ على سطح السفينة، ولدهشتي رأيت القارب والرجال ما زالوا يحاولون دفعه، فخمنت عدم وجود بحار وسطهم فهم لم يستطيعوا إعداده، ذهبت إليهم، وكنت على وشك معاونتهم حين جاءت موجة هائلة لتغسل السطح كله، وحملت الموجة الضخمة القارب معها، وكنت أمسكت بُمثّبت المجداف فجرفني معه، وعلمت بعد ذلك أني في القارب، لكن لم يكن ذلك كل شيء إذ كنت في القارب وهو مقلوب، وكنت تحته وأنا أذكر - مدركاً انغماسي في الماء - أنه مهما حدث يجب ألا أتنفس، لأنني تحت الماء تماماً، وعرفت أن عليّ أن أجاهد للخروج وفعلت، كيف خرجت من تحت القارب؟ لا أدري. . لكنني شعرت بنسمة هواء أخيراً، كان هناك بشر من حولي في كل مكان، مئات منهم، كأن البحر مُنقط بهم، كلهم يعتمدون على أطواق النجاة، وشعرت أنني يجب أن أبتعد ببساطة عن السفينة، كان منظرها رائعاً حينئذ فالدخان والشرارات تندفع من مدخنتها، يجب أن يحدث انفجار، لكننا لم نسمع شيئاً، رأينا سيلاً ضخماً من الشرارات فقط، وكانت السفينة ترتفع تدريجياً نحو مقدمتها تماماً مثل بطة في طريقها للغطس، كان بذهني شيء واحد فقط، أن أبتعد تماماً عن الدوامة، وكانت الموسيقى لا تزال تُعزف وأعتقد أنهم جميعاً قد غرقوا، كانوا يعزفون «الخريف» عند ذاك، سبحت بكل قوتي، وأعتقد أنني كنت على بعد 150 قدماً من الـ «تيتانيك» وهي على مقدمتها، ومؤخرتها ترتفع عالية في الهواء لتبدأ في الغوص، ببطء.

عندما غطت الأمواج دفتها في النهاية، لم يكن هناك أدنى مظهر لدوامة أشعر به، ولا بد أنها استمرت في الغوص ببطء شديد كما كانت وشعرت بعد

فترة بسيطة كما لو كنت سأغرق، كنت بردانا جداً، فرأيت قارباً من نوع ما بالقرب مني، فجمعت كل قوتي في محاولة للسباحة نحوه، كان ذلك عملاً شاقاً، وكنت مرهقاً حين امتدت يد من القارب وجذبتني فوق سطحه، كان نفس قاربنا السابق، ونفس الصحبة كانت فوقه، وكان هناك مكان واحد فقط أنطوي عليه عند الحافة، فرقدت هناك لا أعبأ بما حدث، وجلس شخص ما فوق قدميّ، فانحشرتا بين ألواح الخشب وأخذتا تلويان، ولم يتبق لديّ قوة أطلب بها من هذا الرجل أن يتحرك، لقد كان منظراً مروعاً فيما حولنا، أناس يسبحون ويغرقون.

رقدت حيثما كنت، تاركاً الرجل يلوي قدميّ فيغير شكلهما، بينما يقترب الآخرون، لم يمد أحد يده لهم، فالقارب المقلوب به من الناس ما هو أكثر مما يحتمل فعلاً، وقد بدأ في الغرق، في البداية كانت الأمواج الكبرى تغرق ملابسي ثم أخذت تغرق وجهي، وكان عليّ أن أتنفس حين أستطيع ذلك، وبينما نطفو جاثلين فوق قاربنا المقلوب وأنا أجهد عيني بحثاً عن أنوار سفينة، قال واحد: «ألا يعتقد بقيتكم أن علينا أن نصلي»؟ وسأل ذلك الرجل صاحب الاقتراح عن عقيدة الآخرين، فذكر كل واحد عقيدته، فواحد كاثوليكي، والآخر إنجليكي، وثالث من البرسبتارية.. وتقرر أن أفضل صلاة للجميع هي «صلاة الله المالك»، فأنشدناها في ترديد جماعي وصاحب الاقتراح كقائد للصلاة، وأنقذنا أناس رائعون، كانوا في قارب «معدول» رغم امتلائه حتى سعته، ألا أنهم اتجهوا نحونا وحملونا جميعاً لقاربهم، ورأيت بعض الأنوار بعيداً على المدى، فعلمت أن سفينة تقترب لمساعدتنا.

كارثة الباخرة «تيتانيك»

«من قارب إنقاذ، 15 أبريل/الطير 1912 افرنجي»

*** السيدة: د. هـ. بيشوب**

لم نبدأ في فهم الموقف حتى أصبحنا ـ ربما ـ على بعد ميل أو أكثر من

الـ «تيتانيك» عندئذ استطعنا رؤية الأضواء على طول السطح تبدأ في الميل بالتدريج إلى أعلى من ناحية وسط السفينة، وببطء شديد أخذت خطوط الضوء تتجه إلى أسفل بزاوية تتسع أكثر فأكثر، وكان غرقها بطيئاً لدرجة أنك لا تستطيع ملاحظة أنوار السطح وهي تغير مواقعها والميل بدا أكثر بعد كل ربع ساعة، هذا هو الاختلاف الوحيد.

وخلال ساعتين ـ رغم ذلك ـ بدأت تغوص بسرعة أكثر، حينذاك بدأ المشهد المروع، فالناس في السفينة أدركوا ـ هذه اللحظة فقط ـ حجم الخطر الذي يتهددهم، عندما هبطت مقدمة السفينة فجأة بمعدل أسرع لدرجة أصبح الميل لأعلى ملحوظاً، وكان هناك اندفاع مفاجىء للمسافرين فوق كل سطوح السفينة نحو المؤخرة كانوا أشبه بالموجة، واستطعنا رؤية الكتلة القاتمة الضخمة من الناس ـ ركاب السطح ـ تنزاح نحو مؤخرة السفينة وتخترق السطوح العلوية وعلى بعد ميل تقريباً كنا نستطيع تمييز كل شيء خلال الليل، الذي كان صافياً، وتبينا القلق المتزايد على ظهر السفينة حين تسبب الناس باندفاعهم جيئة وذهاباً، في اختفاء أنوار السطح ثم عودتها وهم يمرون أمامها.

واستمر الاضطراب ـ على ما يبدو ـ لمدة ساعة، ثم فجأة بدت السفينة كأنها تنطلق من الماء وتقف عمودية في مكانها، وبدا لنا أنها وقفت منتصبة في الماء طوال أربع دقائق كاملة، ثم بدأت تنزلق برقة إلى أسفل، وتزايدت سرعتها وهي تهبط برأسها في البداية حتى إن المؤخرة اندفعت لأسفل بقوة، واستمرت الأضواء منيرة حتى غرقت، واستطعنا رؤية الناس وهم يتجمعون بكثافة في المؤخرة إلى أن اختفت. وبينما السفينة تغرق، سمعنا الصراخ على بعد ميل، وأخذ يخفت بالتدريج شيئاً فشيئاً ثم تلاشى، بعض قوارب الإنقاذ لاقت مصيرها لأنها امتلأت بأكثر من سعتها، إلا أن ذلك قد يعني أن أولئك السابحين في الماء لا بد أنهم تجمعوا فوق سطوحها وأغرقوها.

حدائق الليمون تحت الغطاء شتاء

«جارنانو، لاجودي جاردا ـ فبراير/النوار 1913 افرنجي»

* د. هـ. لورانس

في الصباح، غالباً ما أرقد في فراشي وأتابع شروق الشمس، وتقع البحيرة قاتمة بلون حليبي، والجبال زرقاء داكنة من الخلف، وفوقها تمور السماء وتلمع بالضوء، وفي مكان معين على حافة الجبل يتوهج الضوء بلون ذهبي، يبدو وكأنه صهر أخدوداً صغيراً على إطار التل، فهو ينصهر وينصهر حتى يصل ـ فجأة ـ ضوءاً حياً شديد التمازج. وتذوب الجبال فجأة، ويخطو الضوء. هناك بريق ولمعان، صفان من النقاط اللامعة، وشعاع شمسي هائل يومض ـ فوق الاحتمال ـ عبر البحيرة الحليبية اللون، ويسقط الضوء على وجهي، فأنظر ـ من ثم ـ جانباً، وأسمع ضوضاء انزلاق قليلة تُفهمني أنهم يفتحون حدائق الليمون.

رقاع طويلة هنا وهناك، وأخدود طويل من الظلمة على مسافات غير منتظمة، بين الخشب البني وشرائح الزجاج، وانحنى لي السيد ويده ممتدة قائلاً: «أترغب في الدخول ـ سيدي»؟ ودخلت إلى صوبة الليمون، حيث تبدو الأشجار البائسة مستسملة للظلمة، إنه مكان بارد مظلم وشاسع، أشجار ليمون طويلة مثقلة بثمار نصف نامية تتزاحم معاً، وتنصب في العتمة كأشباح في ظلام العالم السفلي بالتحديد، أما في الحياة فهي كظلال ضخمة لأنفسها فقط.

ومتسللاً هنا وهناك، رأيت أحد الأعمدة لكنه بدا ـ أيضاً ـ مجرد ظل، وليس واحداً من رفاقه البيض المبهرين الذين عرفتهم، فنحن هنا ـ أشجاراً وبشراً، أعمدة وأرضاً داكنة والممرات السوداء الحزينة ـ محبوسون داخل هذا الصندوق الضخم، وحقيقة، هناك شريط طويل كنافذة، وفتحات مفرغة، حتى إن الواجهة تراها مخططة، وتشير حزمة ضوء ـ أحياناً ـ لأوراق شجرة مسورة، ولثمرات الليمون المستديرة المريضة، لكنها مع ذلك شديدة الكآبة.

قلت: «لكن الدنيا برد هنا أكثر من الخارج»؟ قال السيد: «نعم الآن، ولكن أثناء الليل أعتقد. .» وتمنيت ـ تقريباً ـ أن نكون في الليل لنرى. وشئت أن أتخيل

استراحة الشجر، لقد بدت الآن في العالم السفلي، وبين أشجار الليمون بجوار الممر، توجد أشجار برتقال قليلة، وعشرات من ثمار البرتقال تتدلى كالفحم المتقد ساعة الغسق، وحينما أدفأت يدي عندها، كسر لي السيد فرعاً منها بعد الآخر، حتى صار معي حزمة من البرتقال المتقد بين الأوراق المعتمة، باقة ثقيلة، وحين نظرت لجحيم بيت الليمون، ذكرتني أكوام البرتقال الوردية ـ بجوار الممر ـ بأضواء القرية على طول البحيرة في الليل، في حين يشبه الليمون فوقها النجوم، وهناك أريج فائح رائع ينبعث من أزهار الليمون، عندئذ لمحت ليمونة حامضة تتدلى ثقيلة وتضغط على شجرة شديدة الصِّغر، حتى بدت شيئاً ضخماً ذا لون أخضر داكن، وهناك عدد كبير من الليمون أعلاها نصف مرئي، وجحافل من البرتقال الوردي بجوار الممر، وهنا وهناك ليمونة سمينة من نوع الحامض، وذلك كما لو كنا تحت البحر تقريباً.

«كاري» في كولومبو

«11 نوفمبر/الحرث 1913 افرنجي»

*** أنّا بوكان**

«الكاتبة هي أنّا بوكان أخت جون بوكان، وكانت مبحرة إلى الهند على ظهر السفينة سكوتيا».

في كولومبو استأجرنا عربات «الريكشو» ومضينا إلى فندق «جال فيس» وهو مكان جميل يرعد زبد الموج على الشاطىء خارجه، ولو أنني كنت ثرية لركبت دوماً «الريكشو» إنها طريقة ممتعة للتجوال، وبينما يركضون بنا في شارع واسع لطيف، جرى أطفالٌ سُمرٌ بجوارنا وأغرقونا بأزهار شمعية طيبة الرائحة، فاستمتعنا بذلك أيضاً، وفي فندق «جال فيس» بصالة طعام باردة مرتفعة، تناولنا إفطاراً متنوعاً رائعاً، وأكلنا الكاري[1] الشرقي الصحيح لأول مرة، وهي تجربة جديدة

(1) Curry: الكاري من المشهيات التي مصدرها جنوب شرق آسيا ومكونة من خليط متناسب من الفلفل الحار وعصير الطماطم والبهارات.. إلخ. «المترجم».

أخرى، فأنا لا أحب الكاري في وطني، الكاري كما يعرفه الطهاة الإنجليز، خليط شحمي من مفاصل العظام الباردة تقدم مع الأرز المسلوق، لكن ذلك كان مختلفاً.

أولاً ناولونا الأرز كل حبة فيه متماسكة ومنفصلة وبيضاء، ثم خليط بني فاتح مع الجمبري والمكونات المثيرة الأخرى، وتلك كانت «الكاري» وتقوم بخلط الكاري مع الأرز حين تقدم لك صينية مملوءة بالمشهيات لتأكل معها، مثل بسكويت الماء الرقيق، وسمك بومباي الصغير، وكل أنواع المقبلات الحريفة، وعندما تخلط كل شيء معاً، فالنتيجة طبق من أروع الأطباق التي ذقتها في حياتي، ولاحظ أيضاً، أنك تأكل ذلك بالشوكة والملعقة، وليس بشوكة فقط كما يفعل الريفيون الأقحاح..

«شو» في جنازة أمه

«22 فبراير/النوار 1914 افرنجي»

*** جورج برنـارد شو**

لماذا تؤدي أية جنازة إلى رهافة حس الدعابة ورفع المعنويات لدى المرء ـ دائماً؟ ـ إن هذه الجنازة كانت نجاحاً مكتملاً، فلا رعب دفن، ولا نائحات في ثياب السواد يشهقن ويندبن في حزن مُفتعل، لا أحد يعلم سواي و «باركر» و «الحانوتي»، وطالما لم أستطع الحصول على جنازة رائعة وألوان جميلة وأشياء لامعة وموسيقى صاخبة، فهي أفضل بنا نحن الثلاثة، وأنا أذكر ـ على وجه الخصوص ـ الحانوتي لأن مزاج المناسبة بدأ به، إذ ذهبت لنهاية الحارة عند مكتب «جولدرز جرين» مع «باركر» وسرنا إلى المحرقة وهناك جاء «الحانوتي» كذلك ومعه عربة الدفن التي سارت ـ أقصد الحصان ـ بمنتهى الضمير في خطوة جنائزية عبر البرد، رغم أن أمي قد تفضل هرولة حيوية.

واقترب مني «الحانوتي» بصورة رجل مزقه الحزن، وأنا صلب كالمسامير وفي حالة معنوية مخلصة عالية مستمتعاً باستسلام لذكرى أمي، حاولت أن أنقل له

فكري بأن هذا الاحتيال المهني - كما أنظر له - لا ضرورة له تماماً، وهو قد أدى لها جميع أنواع الخدمات طوال سنوات، وكان فعلاً وفي الواقع في حالة من على وشك أن يفقدها ليس كعملية فقط، وإنما كشخص مال إليها وتعود على ذلك. . وكان التابوت مغطى بقماش «بنفسجي» لا أسود. ولا بد أن أعيد كتابة إجراءات الدفن، لأن هناك أشياء أكثر مواتاً مما قرأه أي إنسان بشأنها في حياته، ولكنني تركتها للقراءة، ليس فقط لأن رجل الدين يجب أن يعيش على رسومها، وإنما لأنها مع كل نواقصها، هي أجمل شيء يمكن أن تقرأه بعد، ورجل الدين لا يتعجل الكلام ولا يندفع بالأسلوب الفظيع السائد في مثل هذه المناسبات.

ومن أجل إلقاء موعظة مع باركر ومعي - وأمي أيضاً - قام بأدائها بأقصى المشاعر والأخلاص، واستطعنا أن نجعله مكتملاً من الناحية الفنية في موعظتين، لكنه كان ماهراً كما كان الإلقاء، فقمت بمصافحته عرفاناً في غير تصنع بأفضل سلوك عندي، وعند إنشاد نص «الأرض، للأرض، والرماد للرماد والتراب للتراب» كان هناك تغيير طفيف في الكلمات لتلائم الإجراءات.

وفُتح باب في الحائط وعبر التابوت البنفسجي خلاله في غموض واختفى وهو يُغلق، ويظن الناس أن ذلك الباب هو باب الفرن، لكنه ليس كذلك، إذ ذهبت خلف هذه المشاهد عند نهاية العمل، ورأيت الحقيقة، والناس يخشون رؤيتها، لكنها رائعة، إذ وجدت هناك التابوت البنفسجي مقابل باب آخر، باب فرن حقيقي لا يمكن أن تخطئه العين، وعندما ارتفع كانت هناك غرفة مستوية صغيرة من الإسمنت والطوب الحراري، لا حرارة ولا ضوضاء، ولا أشياء تُجر فتزأر، ولا لهب، ولا وقود، لقد بدت باردة، نظيفة، مُشمسة، رغم أن الشمس لا تستطيع الوصول إليها، وربما تمشي فيها أو تضع يدك دون أن تتسخ، عندئذ تحرك التابوت البنفسجي ثانية ودخل الغرفة، الأقدام أولاً، والآن انتبه! تحولت الأقدام بأعجوبة لشرائط فياضة من اللهب الأحمر الجميل بلا دخان، وشرةٌ مثل ألسنة الحصاد.

وما إن مر التابوت كله حتى شب اللهب فيه وأضحت أمي هي تلك النيران

الجميلة، وأطبق الباب، وقالوا لنا إذا ما أردنا رؤية كل شيء بعد ذلك، علينا أن نعود خلال ساعة ونصف، فتذكرت الشبح الصغير الضائع بوجهه الجميل، وقلت لنفسي، «مدة طويلة» لكننا خرجنا وتطلعنا في ضاحية «هامبشتير جاردن» - التي لي أسهم فيها - وأبرقنا رسائل للمسرح واشترينا كتباً، واستمتعنا بوجه عام.

وكانت النهاية مغرقة في الإضحاك، وكان يمكن - لأمي - أن تستمتع بها بشدة، فحينما عدنا، أطللنا من فتحة في الأرضية على أرضية أسفلها ومجاورة لها، رأينا هناك مطبخاً فسيحاً به منضدة كبيرة من الإسمنت، واثنان من الطهاة مشغولان عليها، وبأيديهما مقابض يلتقطون بها ببراعة ودقة مسامير وشرائح التابوت الحديدية بعيداً عن كوم رماد أمي الصغير الرقيق ورقائق عظامها، وأمي نفسها منحنية - في هذه اللحظة - بجواري، يهزها الضحك، عند ذاك أزاحوها داخل منخل، وهزوها، فكان هناك كوم من التراب وكوم من كسور العظام المتكلسة، وهمست أمي في أذني: «أي الكومين هو أنا إنني أعجب». وكانت تلك الحلقة المرحة هي النهاية عدا عمل التراب من بقايا العظام ونثرها فوق أحواض الزهور.

ويا أيها القبر.. أين انتصارك؟...

اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند في سراييڤو

«28 يونيه/ الصيف 1914 افرنجي»

* بوريوف جيڤتيك (أحد المتآمرين)

«وفر ذلك الاغتيال للمجر والنمسا المبرر الذي سعتا من أجله لمهاجمة إقليم الصرب، وهكذا نشبت الحرب العالمية الأولى، أمّا «برنسيب» البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، فقد حُكم عليه بعشرين عاماً في السجن، وهي العقوبة القصوى بالنسبة لمجرم حدث «قاصر»، ومات من جراء آلام سل العظام في المستشفى عام 1918 افرنجي».

قصاصة صغيرة من جريدة أرسلت بالبريد دون تعليق عليها من مجموعة سرية

من الإرهابيين في «زغرب» عاصمة كرواتيا، إلى رفاقهم في «بلغراد» كانت الشعلة التي أحرقت العالم بنار الحرب عام 1914 افرنجي وتلك القطعة الضئيلة من الورق حطمت الإمبراطوريات المزهوة القديمة ومنحت الميلاد لأمم جديدة حرة.

كنت واحداً من أعضاء الجماعة الإرهابية في «بلغراد» التي تلقتها، وفي تلك الأيام كنت ورفاقي نُعد من المجرمين اليائسين، وخُصصت مكافآت لرؤوسنا، أما اليوم فجماعتي الصغيرة يُنظر إليها في ضوء مختلف، كوطنيين رواد، من المعروف أن خططنا السرية قد وُلدت في مقهى ناء في عاصمة الصرب القديمة، وأنها أدت إلى استقلال يوغوسلافيا الجديدة، أمة متحدة تخلصت من السيطرة النمساوية.

كانت القصاصة من جريدة كرواتية محلية محدودة التوزيع تسمى «سروبوبران» وتحوي برقية قصيرة من ڤيينا، وتعلن البرقية أن الأرشيدوق النمساوي «فرانز فرديناند» سوف يزور «سراييڤو» عاصمة إقليم «البوسنا» في 28 يونيو، لإدارة مناورات عسكرية في الجبال المجاورة.

وصلت البرقية مكان لقائنا، مقهى «زيتنا موروانا» ذات ليلة من الجزء الأخير من أبريل عام 1914 افرنجي، عند منضدة صغيرة في قهوة شديدة البساطة، وتحت الضوء المتأرجح لقنديل غاز جلسنا وقرأناها، ولم ترسل مع البرقية أية نصائح ولا توجيهات، فقط أربع كلمات ورقمان كانوا كافيين لاتفاقنا بلا مناقشة على ما يجب فعله بهذا الشأن، كانوا يحتوون على التاريخ المصيري 28 يونيه. كيف جرؤ «فرانز فرديناند» - وهو ليس فقط ممثل الطاغية، ولكنه هو بشخصه يُعد طاغية متكبراً - على قرار دخول سراييڤو في هذا اليوم؟ إن ذلك الدخول إهانة مدروسة.

في 28 يونيه تاريخ حُفر بعمق في قلب كل صربي، حتى إنه يوم له اسمه الخاص، إنه يدعي «ڤيدوڤنان» وهو اليوم الذي هزم الأتراك فيه مملكة الصرب القديمة في معركة «أمسلفيلد» عام 1389 افرنجي وهو كذلك يوم ثأر الصربيين لأنفسهم من الأتراك في حرب البلقان الثانية ثأراً مؤزراً من النصر التركي القديم ومن سنوات الاستعباد.

إن ذلك لا يجب أن يكون يوماً لفرانز فرديناند، الطاغية الجديد، فلا يغامر

حتى أبواب «صربيا» لاستعراض قوة السلاح التي تبقينا تحت حذائه. . واتخذنا قرارنا على الفور، الموت للطاغية.

ثم جاءت مسألة الإعداد للتأكد من موته، تم اختيار اثنين وعشرين عضواً من المنظمة لتنفيذ الحكم، في البداية ظننا أننا سنختار الرجال بكثرة، لكن «جاڤريللو برنسيب» تدخل هنا، لقد كتب القدر «لبرنسيب» أن يمضيَ في تاريخ الصَرب واحداً من أبطالها العظام، فمن اللحظة التي اتخذ فيها قرار موت فرديناند، قام بدور قيادي نشط في التخطيط لهذا وبناء على نصيحته، تركنا العمل لأعضاء جماعتنا الموجودين في سراييڤو وحولها، تحت قيادته ومعه «جابرينو ڤيك» - عامل مطبعة في جريدة صربيا - وكنا ننظر لكليهما على أنهما قادران على فعل كل شيء للقضية.

وأشرق فجر الصباح الحاسم، وقبل ساعتين من وصول «فرانز فرديناند» إلى «سراييڤو» كان كل المشتركين في المؤامرة - 22 عضواً - في أماكنهم المحددة مسلحين وجاهزين، كانوا موزعين على مسافات كل منها 500 ياردة بطول الطريق الذي سيمر فيه الأرشيدوق من محطة السكة الحديدية حتى صالة المدينة.

وحين تحرك فرانز فرديناند ورفقته من المحطة، سمح لأول اثنين من المتآمرين بتركهم يمرون، لأن السيارات كانت تمر مسرعة جداً مما يصعب معه إمكان المحاولة، كما أن وسط الجمهور كان يوجد صربيون كثر، وقذف قنبلة يدوية قد يتسبب في قتل الكثير من الأبرياء.

وحين مرت السيارة بـ «جابرينو ڤيك» - المطبعجي - ألقى قنبلة، فأصابت جانب السيارة، لكن فرانز فرديناند - بحضور بديهته - ألقى بنفسه للوراء ولم يُصب، وإنما أُصيب عديد من الضباط برفقته، فأسرعت السيارات إلى صالة المدينة ولم يتدخل في مسيرتهم بقية المتآمرين، وبعد استقباله في صالة المدينة، رجا الجنرال «بوتيوريك» - وهو القائد النمساوي - فرانز فرديناند أن يغادر المدينة لأنها تغلي بحالة تمرد، واقنعوا الأرشيدوق باتخاذ أقصر طريق ليخرج من المدينة والذهاب مسرعاً.

كان الطريق للمناورات على شكل حرف 7، وبه دورة حادة عند الكوبري المار بنهر «نيلجاكا»، واستطاعت سيارة فرانز أن تمضي مسرعة بصورةٍ كافية، حتى وصلت هذه البقعة، لكنها هنا أُرغمت على الإبطاء من أجل دورة الطريق، وهنا كان «برنسيب» قد احتل موقعه، وبينما تتصدر السيارة الطريق، خطا برنسيب خارجاً مِنَ المنحنى للأمام وسحب مسدسه الأتوماتيكي من معطفه وأطلق رصاصتين، أصابت الأولى زوجة الأرشيدوق ـ الأرشيدوقة صوفيا ـ في بطنها، وكانت حاملاً، فماتت في الحال، وأصابت الثانية الأرشيدوق بالقرب من قلبه، فتلفظ بكلمة واحدة فقط: «صوفيا. .» منادياً زوجته المصابة، ثم سقط رأسه خلفاً وانهار، ومات تقريباً لوقته.

وقبض الضباط على «برنسيب»، وضربوه على رأسه بصفحات سيوفهم، وأوقعوه أرضاً، وركلوه، ونزعوا جلده من رقبته بحواف السيوف، وعذبوه، فعلوا كل شيء إلاّ قتله. .

ثم أخذوه إلى سجن سراييڤو، ثم نُقل في اليوم التالي للسجن العسكري، وتبعه حلقة رفاقه المتآمرين، رغم أنه أنكر أنه عمل مع أي إنسان، وقد واجهوه بـ «جابرينو ڤيك» الذي ألقى القنبلة، فأنكر «برنسيب» معرفته به، وأحضروا له آخرين فأنكر كل شيء، وفي اليوم التالي وضعوا السلاسل في أقدام «برنسيب» وظلّ فيها حتى مات، وكانت علامة أسفه الوحيدة تصريحه بالأسف لقتل زوجة الأرشيدوق، فهو قد صوب فقط نحو زوجها، وأنه كان يود أن أي رصاصة أخرى تصيب الجنرال «بوتيوريك».

وقام النمساويون بالقبض على كل عنصر ثوري معروف في سراييڤو، وكنت ـ بالطبع ـ واحداً منهم، ولكن لم يكن لديهم دليل على علاقتي بالجريمة، ووضعوني بالزنزانة المجاورة لـ «برنسيب» وحين كانوا يأخذونه «للتمشية» داخل فناء السجن، كانوا يأخذونني لمرافقته.

تاجر الحروب[1]

«يوليه/ ناصر 1914 افرنجي»

* أوسبيرت سيتول

«السير «بازيل زخاروف»، واسمه الأصلي «ياسيليوس زاكرياس» مليونير وتاجر أسلحة، نُصب فارساً بوسام «جراند كروس» من درجة «باث» بعد الحرب. . .».

كنت أتناول طعامي على مائدة بمفردي، حين سألني أحد معارفي عما إذا كان يمكنه الجلوس معي طالما أن الصالة مليئة. كان حديثنا كئيباً وحيادياً بلا حيوية، ولكن بالقرب من نهاية الوجبة، التفت إليّ قائلاً بهدوء: «هل ترى ذلك الرجل الموجود هناك بجوار النافذة، ذا الأنف المعقوف وشارب أبيض ولحية صغيرة «سكسوكة» ويرتدي زياً وردياً؟ حسناً، إنه رجل مهم جداً، أُنظر إليه بعناية وسوف أقص عليك خبره.

وحين ألقيت نظرة في الاتجاه الذي أشار إليه، رأيت رجلاً طويلاً إلى حدّ ما عريض البنية، بوجهٍ أصفر غريب وملامح محددة قوية وعينين غائرتين شاحبتين، كان يرتدي بذلة إنجليزية حسنة التفصيل، وهو مهتم - كما هو واضح - بملابسه بشكل عام، ولكن من الصعب تصنيفه من ناحية السلالة، إذ لا يبدو عليه أنه يهودي، فهو أطول من اللازم وقوي الجسم، ولكن بغض النظر عن هيكله، فإن له سحنة شرقية وربما يكون تركياً أو قبرصياً، فقد رأيت الصرافين في قبرص وهم يشبهونه قليلاً. وواصل محدثي كلامه: «لا بد أن هناك شيئاً يجري وإلا ما كان هنا، فوصوله علامة للمتاعب دائماً، وكل السفارات الأوروبية تحقق هدفاً إذا ما عرفت أين يوجد.

إن اسمه «بازيل زخاروف» وبالتأكيد هناك شيء شرير ومريب يخالط

(1) عنوان هذا النص The Vulture: وهو العُقاب أو النسر الأصلع وهو من الجوارح التي تعيش على الجيفة. «المترجم».

ملامحه، وحيث إنه تقدم في العمر، فهيكله تصلب وأصبح أكثر دلالة على هذا الطراز، ومظهره الشخصي له كل خصائص من جاء ليتعامل معهم على أرضهم، إنه في الحقيقة شيء متفرد أن الإنسان الغربي بينما يرفض منح ثقته لشيء لا يتمكن من رؤيته، وينكر مطلقاً الإرهاصات والتنبؤات والرؤى، عليه في نفس الوقت ـ كما يفعل غالباً ـ أن ينكر برهان عينه.

وتاجر الأسلحة هذا يشبه تماماً العُقاب، وليس الادعاء سليماً ـ تجنباً للمعنى الموازي لذلك ـ أنه لا يشبهه. فبالنسبة للبعض قد يسبب لهم الدهشة أن الرجل الذي تاجر في أسلحة الموت وآلات الحرب وتضخمت جثته على حسابها، يجب أن يُمثل بذلك الطائر الذي تخلو رقبته من الريش، وسواء أكان يبدو ذلك التشبيه غريباً أم لا، فهذا يعتمد على وجهة نظر المرء في العالم، وعلى سعة وحدَّة مدى الاستدلال في التشبيه والصورة التي توحي به، وعلى أية حال ـ وحيث إن كل شيء يمكن ملاحظته ـ فالتماثل كان في الوجه ذي المنقار، والعين المغطاة، والرقبة المجعدة، والجسم كله يعطي انطباعاً بالقوة الجسمانية والمقدرة على انتظار لحظة أن يتعكر الماء.

الجيش الألماني يمر عبر بروكسل

«21 أغسطس/ هانيبال 1914 افرنجي»

*** ريتشارد هاردنج ديفيس**

«كانت القوى الأوروبية تضمن حياد بلجيكا، لكن الألمان أهملوا ذلك وهم منتوين الوصول لموانىء القنال الإنجليزي ومدينة باريس».

فَقَدَ دخول الجيش الألماني لبروكسل صفة الإنسانية، إذ ضاعت بمجرد أن دخل ثلاثة جنود ممن يقودون الجيش بدراجاتهم ميدان «دو ريجنيت» وسألوا عن الطريق لمحطة الشمال، وحين مروا مرت معهم اللمحة الإنسانية.

وما حدث بعدهم وطوال أربع وعشرين ساعة بعدها ما زال يحدث، وهو أن أولئك لم يكونوا بشراً يسيرون، وإنما قوة من قوى الطبيعة كموجة مدّ أو انهيار

جليدي أو نهر يفيض على ضفافه، ففي هذه اللحظة كان الزحف الألماني عبر بروكسل يشبه المياه الهادرة لوادي «كونماو» رؤية تنحدر عبر «جونستاون».

وعند رؤية الفرق الأولى القليلة من جنود العدو أثارتنا شدة الاهتمام، وبعد طوال ثلاث ساعات، كانوا يمرون في طابور مسلح بصلب رمادي لا ينقطع، أصابنا الملل، ولكن بعد أن مرت ساعة وراء أخرى بلا توقف ولا استراحة لالتقاط الأنفاس، ولا توجد ـ حتى ـ فراغات بين الوحدات، أصبح الأمر غامضاً وغير طبيعي، فأنت تعود لمراقبته مشدوداً، فهو يحمل أسرار وإنذار الضباب الذي ينساب إلى اتجاهك عبر البحر. وزاد في غموض الأمر رمادية الزي الذي يرتديه الضباط والجنود معاً، وتستطيع العين الحادة فقط أن تلمس بين الآلاف الذين يمرون أدنى بادرة اختلاف، فالكل يتحرك تحت عباءة غير مرئية. فقط بعد أكثر الاختبارات عدداً ودقة وعلى كل الأبعاد، وبكل الخامات ومجموعات الألوان التي لا تنتج لوناً محدداً، يمكن اكتشاف هذا اللون الرمادي، إذا اختير هذا اللون «للتلبيس» و «تخفية» الجندي الألماني حين يقاتل وذاك مثال نموذجي لقادة الألمان في دأبهم سعياً للكمال حتى لا يترك شيئاً للصدفة، ولا يهمل أدق التفصيلات.

بعدما رأيت الزي العسكري هذا تحت ظروف مقابلة تماماً، فإنك تقتنع أنه بالنسبة للجندي الألماني، أقوى أسلحته، فحتى أكثر القناصين خبرة لا يستطيع ضرب هدف لا يراه، إنه رمادي مائل للخضرة وليس كالرمادي الأزرق في عَلَمِنا الكونفيدرالي، إنه اللون الرمادي لساعة ما قبل انبلاج النهار، رمادي الصلب غير المصقول، والضباب بين الأشجار الخضراء.

رأيت ذلك أول مرة في الميدان الكبير أمام فندق «دوڤيل» وكان من المستحيل أن يحدد المرء إذا ما كان يوجد في ذلك الميدان الشريف فرقة كاملة أو سرية فقط، فأنت ترى فقط ضباباً ذاب في الصخور واختلط بواجهات المنازل القديمة، وصال وجال، لكنه لا يترك لك شيئاً محدداً تشير إليه.

وفيما بعد، بينما يمر الجيش أسفل نافذتي تحت ظلال أشجار حديقة النباتات

رأيته يبرز ثم يتلاشى وسط الأوراق الخضراء. وليس من المبالغة أن أقول إنه على بُعد مائة ياردة تستطيع أن ترى الخيول التي يركبها الفرسان، في حين لا تستطيع رؤية الرجال الذي يركبونها.

ولو بدوت مغالياً في تأكيد فعالية هذا الزي الإخفائية، فهذا بسبب تفاصيل الكمال الألماني الذي تراءى لي كسمة جديرة بالملاحظة. في اليوم التالي، حينما كنت مع جنود المؤخرة من فصائل «فرنش دراجونز» و «كويرآسييه»، فأرسلوا طلائعهم، واستطعنا تمييزهم وسط القمح الأصفر أو نبات «الجوز» الأخضر على بعد نصف ميل، في حين أن أولئك الجنود وهم يمرون بالشارع، ما إن يصلوا تقاطع الطرق التالي حتى يتداخلون مع اللون الرمادي لأحجار الرصف ثم تبتلعهم الأرض، وبالمقارنة، فاللون الأصفر «الكاكي» لجيشنا الأمريكي يكاد أن يكون واضحاً للعين وضوح العلم الأسباني.

وأكد ـ أمس ـ الميجور جنرال «ڤون جاروتسكي» ـ الحاكم العسكري الألماني لمدينة بروكسل ـ للسيد «ماكس» عمدة المدينة، بأن الألمان لن يقوموا باحتلال المدينة ولكنهم سوف يمرون من خلالها، وما زالوا يمرون. ولقد تتبعت منهم ستة جيوش على حملات، ولكن، بدون استثناء حتى جيشنا واليابانيين والبريطانيين، لم أشاهد جيشاً مجهزاً بمثل هذه الدقة، وأنا هنا لا أتحدث عن خصائص القتال لأي جيش وإنما عن المعدات والتنظيم فقط، فالجيش الألماني دخل تلك المدينة بسلاسة وتوحُد كقطار «الإمبايرستيت» السريع، لا وقفات، لا مساحات خالية، ولا متخلفين.

وظل هذا الجيش في الخدمة الفعّالة ثلاثة أسابيع، وحتى ذلك الوقت لا تجد رباط خوذة ولا حدوة حصان مفقودين بصورة واضحة، وحدث ـ مع الدخان المتصبب من مواقد الطهي فوق العربات، أن أقاموا عربات مكاتب البريد في ساعة واحدة، ركض من عندها مبعوثون على جيادهم بطول خط الطابور، ليوزعوا الخطابات وعندها أرسل الجنود صوراً بريدية عن طريقهم.. وجاءت المشاة في صفوف من خمسة أفراد، بكل جماعة مائتا جندي، أما الرماة فكانوا

في طابور مكون من أربعة لا تفتقد فيها راية واحدة، والمدافع السريعة وأسلحة الميدان كانت تمر كل ساعة، كل مدفع بطاقمه وعربة ذخيرته يستغرق عشرين ثانية يمر خلالها. . .

وكان جنود المشاة يغنون «وطني، وطني» وبين كل شطر من النشيد يؤدون ثلاث خطوات، وفي توقيتات يقوم ألفان من الجنود بالإنشاد معاً في نغمة موحدة ودقة ثابتة، وحين يتبدد اللحن ينكسر الصمت فقط بدقات الأحذية ذات النعال الحديدية ثم يرتفع النشيد من جديد، وحين يتوقف الغناء، تعزف الجماعات نغمة المسير، إذ يتبعهم هدير مدافع الحصار وأزيز عجلات العربات وصليل السلاسل فوق أحجار الطريق وأصوات النفير الحادة الشبيهة بالجرس.

ولمدة سبع ساعات ظل الجيش يمر في طوابير ثابتة لم تقم بمثلها سيارات الأجرة أو الحافلات العامة الكهربائية أثناء مرورها بالمدينة. وواصل الجيش فيضانه كنهر من الصلب رمادي اللون وأشبه بالشبح، عندئذ ومع قدوم الغسق، واستمرار الآف من حوافر الخيل وآلاف من الأحذية ذات النعال الحديدية في وطء الأرض قُدماً، أطلقوا شرارات رقيقة من اصطدامها بالأحجار. ولكن الجياد والرجال الذين يطلقون هذه الشرارات كانوا في الخفاء.

وعند منتصف الليل كانت عربات الأمتعة والمدافع الثقيلة ما زالت تمر. وعند السابعة من هذا الصباح أيقظني وقع أقدام جنود وجماعات تعزف في استرخاء، وسواء مشوا طوال الليل أم لا فأنا لا أدري، ولكن الآن، ولمدة ست وعشرين ساعة، مر الجيش الرمادي بغموض الضباب، وديمومة مروحة بخارية.

جنون الحرب في سانت بيترسبورج

«أغسطس/ هانيبال 1914 افرنجي»

*** سيرجي - ن - كورناكوف**

كان هناك ازدحام أمام مكتب الجريدة، وكل عدة دقائق تبدو جملة وقتية مكتوبة بالفحم عند النافذة: إنجلترا تطرح مفاوضات للسلام، ألمانيا تغزو

بلجيكا، التحرك يتطور بحماس عظيم، وعند الساعة 7،50 مساء: ألمانيا تعلن الحرب على روسيا. وعلى الفور تبدأ الجماهير غناء النشيد القومي. وما زال الموظف القصير ذو البثور الذي رفع اللافتة المدوية، واقفاً في النافذة مستمتعاً بأهميته النيابية، وكان الناس يحملقون في الكلمات المتمايلة كما لو كانوا يحاولون فهم ما تعنيه حقيقة بقدر ما تعيه اهتمامات كل شخص.

عندئذ بدأت أطراف الجماهير تنطلق وتنهمر في اتجاه واحد، منطقة «نيفسكي»، وسمعت جملة «السفارة الألمانية» تتكرر عدة مرات، فسرتُ ببطء في ذلك الاتجاه، وجذبت الجماهير أحد الضباط من عربته وحملته كعلامة انتصار.

ذهبت إلى كابينة هاتف واتصلت بـ «ستانا»: «نعم، لقد أعلنت، . . أنا لا أعرف ما سأفعله حتى الآن. . حسناً. . سأكون هناك عند منتصف الليل». ولم أرتح للطريقة التي أغلقت بها سماعة هاتفها إذ بدا فيها نوع من الاحتقار، وحين وصلت لميدان سانت إيزاك «القديس إسحاق»، كان يمور بالبشر، ولا بد أن الساعة كانت حوالى التاسعة لأن الضوء ما زال رائعاً بعد، . . ضوء الغروب الشاحب المثير في ليالي الشمال.

كانت السفارة الألمانية ذات الأحجار الرمادية هائلة الضخامة، تواجه أحجار الجرانيت الحمراء لكاتدرائية «سانت إيزاك»، وكانت الجماهير تتزاحم حولي بانتظار شيء يحدث. وكنت أتابع ضابطاً بحرياً شاباً تحلق حوله جماعة من غلاة الوطنيين، عندما جعلني دق الفؤوس المستمر على المعدن أتطلع إلى سقف السفارة، الذي كان مزيناً بأشكال ضخمة للمقاتلين الألمان ـ زائدي التغذية ـ وهم يمسكون جياد العربات السمينة، ومثبت بعمود أحد الأعلام نسر برونزي ناشراً جناحيه.

كان العديد من الرجال منهمكين في الطَرْق على أقدام هذه الأشكال التيوتونية[1]، وأغرقت أول هذه الضربات الجماهير في الذهول، فالأشكال ذات

---

(1) Teutons: إحدى القبائل التي سكنت شمال جبال الألب في القرن الرابع قبل الميلاد وينحدر منها العنصر الجرماني ـ الألماني. . «المترجم».

البطولة هذي كانت مفرغة، «إنها فارغة!.. يا للفأل الحسن.. فقاعة ألمانية أخرى! سوف نريهم!.. أسقطوهم جميعاً أرضاً.. لا، اتركوا الجياد واقفة!.. إلى النشيد القومي.. فلينقذ اللّه شعبك»! وتتالت دقات الفؤوس أسرع فأسرع، وفي النهاية ترنح واحد من أشكال المقاتلين ومال للأمام ثم تحطم فوق الرصيف أسفل مكانه بمائة قدم، وارتفع صياح هائل أفزع سرباً من الغربان من قبة كاتدرائية «سانت إيزاك» المذهبة، وحان دور النسر، فانهار تمثاله مدوياً وغرقت بقاياه المحطمة في نهر «مويكا» القريب في الحال.

ولكن كان من الواضح أن تحطيم هذه الرموز لم يكن كافياً، فقامت جماعة تم تنظيمها بسرعة بتحطيم باب جانبي من السفارة، واستطعت رؤية أضواء ومشاعل تتحرك داخلها وتنسل للأدوار العليا، ثم فتحت نافذة ضخمة وقُذفت منها لوحة كبيرة للقيصر نحو الجماهير إلى أسفل، وحين وصلت لأحجار الشارع كان لا يزال هناك وقت كاف لإيقاد النار، وتبعها آلة بيانو من خشب الورد الضخم الذي انفجر كالقنبلة، وتذبذبت أنات أوتاره المقطوعة برهة ثم غرق.

كان كثير من الناس يحاولون الإفصاح عن فزعهم من المستقبل «انتشروا.. سريعاً سر»، كانت قوة من رجال الشرطة الراكبة تقترب من الطرف الآخر للميدان، فانشقت الجماهير كما انشق البحر الأحمر لبني يهود، في حين كانت مسيرة جديدة تتقدم حاملة صورة للإمبراطور وتنشد لحناً زاحفة في بطء باتجاه رجال الشرطة، أوقف ضابطهم الرجال وتصلب عند التحية، وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي قام به لاسترداد النظام، وقد تغذّت النيران بالأثاث والكتب واللوحات والأوراق التي هبطت مسرعة من نوافذ السفارة.

وحضر هشيم الدولة المُفخم مُرعداً[1] وألهب صوته المدوي الجماهير لتغرق في موجة جديدة من الهستيريا. فمزقت امرأة رداءها عند ياقتها وسقطت على ركبتيها وهي تصرخ وتضغط ثدييها العاريين على حذاء مُترب لضابطٍ شاب يرتدي

(1) يقصد الجنود..

زي الحملة قائلة: «خذني، هنا والآن، وأمام أولئك الناس!، يا ولدي المسكين فإنك سوف تدفع حياتك من أجل الله.. والقيصر.. ومن أجل روسيا» وصرخة أخرى ويغمى عليها. وكان الرجال والنساء يجرون بلا هدف حول نار السمر. هل كان ما أرى تأثير الضوء والظل أو أنني فعلاً أرى عظام الخدود المرتفعة والأعين المشروطة المائلة والقبعات المخروطية ذات الفراء لجنود علاء الدين ميرزا، التتارية. هو.. هو.. تنفست الصعداء، الذي ظللت أحبسه دون وعي طوال الطقس الجنوني كله.

درس في الأخلاق

«12 سبتمبر/ الفاتح 1914 افرنجي»

*** بريجادير جنرال إ ـ ل سبيرز**

كان الجنرال «دو مودوي» قد استيقظ لتوه من نومه على قش المظلة، ووقف في الطريق حين أطلت مجموعة صغيرة لا تخطىء العين مظهرها عند ناصية الطريق، اثنا عشر جندياً مع أحد ضباط الصف، إنها مجموعة إعدام، وزوج من الحرس بينهما جندي غير مسلح، وغرق قلبي وتملكني شعور بالفزع. فهناك إعدام في طريقه للتنفيذ، ألقى الجنرال «دو مودوي» نظرة ثم رفع يده لتتوقف المجموعة، وبخطوته السريعة المتميزة توجه نحو المحكوم عليه فسأله لماذا حُكم عليه، وكان ذلك بسبب ترك موقعه أثناء الخدمة، فبدأ الجنرال يتحدث للرجل وبمنتهى البساطة شرح له النظام، وأن «مغادرتك لموقعك هي بمثابة هجرك لزملائك، والأكثر من ذلك، إنه إهمال لوطنك الذي يتطلع إليك للدفاع عنه».

وتحدث عن ضرورة وجود القدوة، وكيف يقوم البعض بواجبهم دون ضغط من الآخرين، بينما يكون على البعض الآخر ـ الأقل شكيمة ـ أن يعرفوا ويفهموا ثمن الفشل الغالي. وأخبر الرجل ـ الذاهب للإعدام ـ أن جريمته لم تكن هينة ولا بسيطة وأنه لا بد أن يموت عِبْرةً كيلا يتردد الآخرون، ولشدة دهشتي وافقه البائس

وأحنى رأسه وزالت عن كواهله أثقال الشعور بالانحطاط، ورأى التماعة شيء، إنه الخلاص في عيينه، أمل حقيقي، رغم أنه يعلم أنه سيموت، واستمر «مودوي» متنقلاً بالجندي معه إلى فهم أن أي تضحية تستحق وقتاً لو أنها ساعدت فرنسا حتى لو قليلاً، وماذا يهم أي شيء لو علم هو ذلك؟.

وأخيراً رفع «دو مودوي» يده قائلاً: «إن حالتك أيضاً هي موت من أجل فرنسا».

وبدأت العملية من جديد، ولكن الضحية الآن، أصبح إنساناً راغباً في ذلك.

وأعلن صوت دفعة النيران عن بُعد أن كل شيء قد انتهى، ومسح الجنرال «دو مودوي» حبات العرق من فوق حاجبه، ولأول مرة - ربما - تكون يده قد ارتعدت وهو يشعل غليونه..

عامل مزرعة من «سافولك» في جاليبولي..

«يونيه/الصيف 1915 افرنجي»

*** ليونارد تومسون**

«كان هجوم الحلفاء على «جاليبولي» و«الدردنيل» مقصود به - أساساً - تخفيف الضغط على الجبهة الروسية بلفت انتباه الجيش التركي، وقد شاركت في هذا الهجوم فرق أسترالية ونيوزيلاندية وهندية بالإضافة للفرق البريطانية، وكانت خسائر البريطانيين ودول الكومنولث 213,980 ضحية».

وصلنا لمضيق «الدردنيل» ورأينا المدافع تومض وسمعنا نيران البنادق، ودفعوا بمركبنا «ريڤركلايد» نحو الشاطىء مباشرة، وكانوا قد شقوا ثغرة فيه وأقاموا رصيفاً بحرياً صغيراً حتى أصبحنا قادرين على المرور من وإلى الشاطىء مباشرة، وجلسنا جميعاً عند نقطة «هيلزبونت» - بانتظار النهار - وكان أول شيء رأيناه المدافع التركية الضخمة المحطمة ثم خيمة ضخمة ثانياً، ولم تدفعني هذه للتفكير في الأمور العسكرية، وإنما في مناسبات القرية.

ولا بد أن هناك أناساً آخرين فكروا بمثل ذلك لأنني أذكر كيف أننا جميعاً هرولنا إليها كالأطفال حين يدخلون سيركاً، وعندئذ وجدناها مغلقة بالأربطة ففككناها واندفعنا داخلها، كانت ملأى بالجثث، جنود موتى من الإنجليز، صفوف وصفوف وأعينهم مفتوحة على اتساعها فتوقفنا جميعاً عن الكلام، ولم أك قد شاهدت ميتاً من قبل، وهنا أنظر لمائة أو مائتين منهم، وكان ذلك أول فزع لنا ولم يذكر أحد ذلك، لقد صدمت بشدة ففكرت بمقاطعتي «سافولك» وبدت لي مكاناً هانئاً للمرة الأولى.

فيما بعد من ذلك اليوم، سرنا عبر ريف سهل، ووصلنا لمدى ميل ونصف من خطوط الجبهة، وكان شيئاً لا يصدق فنحن هناك عند الحرب! . . وكان المكان الذي وصلناه يسمى «الأرض الميتة» لأنها حيث لا يستطيع العدو أن يراك، فرقدنا في حُفَر مربعة صغيرة، وكنت التالي لـ «جيمس سيرز» من قريتنا الذي كان متزوجاً وله من العمر حوالى ثلاثين عاماً.

في ذلك المساء تجولنا فوق الأرض الميتة وسألنا عن أصدقاء لنا وصلوا منذ شهر أو حوالى ذلك: «كيف حال إيرني تايلور؟ : - «إيرني . . لقد مات». «هل رأيت ألبرت باترنوستر»؟ ألبيرت . . لقد مات». ثم علمنا أنه لو مات 300 وبقي 700 فذلك ليس أمراً سيئاً، عندئذ أدركنا مدى عدم أهمية أسماءنا. كنت في خدمة دورية تلك الليلة، فأخبرني شاب اسمه سكوت أنني يجب أن أرفع رأسي لمدة ثانية فقط أما في هذا الوقت فلا بد أن أرى أكثر ما يمكن، وكانت الخدمة لكل ثالث رجل بطول الخندق، وفي الليلة التالية كان علينا أن ننتقل للخط الثالث من الخنادق، وسمعنا أن جنود الجوركا[1] سيتقدمون وأن علينا أن نغطي مؤخرتهم.

ولكننا حين وصلنا لخندق الاتصال وجدناه مملوءاً بالموتى مما أعاق تحركنا، كانت وجوههم تامة السواد ولا تستطيع أن تميز التركي من الإنجليزي، وكانت هناك رائحة كريهة جداً، ولفترة بسيطة لم يكن هناك سوى الأحياء راقدين

(1) Gurkhas: جنود الفرقة الهندية - من نيبال - في الجيش البريطاني. «المترجم».

في إغماء فوق الموتى، وقمت بخدمة ثانية تلك الليلة، كانت كسابقتها، واحد خدمة وردية، اثنان لا . . واحد . . وهكذا . . بطول الخندق، وعرفت جندي الخدمة التالية جيداً وتذكرته وهو يغني في «سافولك» لجياده وهو يحرث الأرض، أما الآن فقد سقط أرضاً ـ في صرخة مدوية ونظرة دهشة ـ ميتاً، وكانت المسألة سريعة في اعتقادي ـ على أية حال.

في الرابع من يونيه صعدنا فوق القمة، واستولينا على موقع الأتراك وحافظنا عليه، وكان اسمه «التل 13» وفي اليوم التالي استبدلونا وطلبوا منا الاستراحة لمدة ثلاث ساعات، ولكن الأمر لم يعدُ نصف الساعة قبل أن تعود فرق الاستبدال مسرعة، إذ عاد الأتراك واستردوا موقعهم، وفي السادس من يونيه قُتل ضابطي المفضل وذُبح منا عدد لا حصر له، ولكننا نجحنا في استعادة سيطرتنا على «التل 13» مرة ثانية، فوجدنا فوضى عظيمة ومذبحة ورجال بلا بنادق يصيحون «اللّه . . اللّه». ومن الستين جندياً الذين بدأت القتال معهم من «هارويتش» بقي ثلاثة فقط.

بدأنا العمل على دفن الناس، فدفعناهم إلى جوانب الخندق، ولكن بقيت أجزاء منهم غير مغطاة وهي بارزة كأناس في سرير سيء الصنعة، وكانت الأيدي أسوأ ما فيهم فهي تتسلل من الرمال، مشيرة، متوسلة، وحتى محيية، وكانت هناك واحدة أرجفتنا حين مررنا بها وهي تقول «صباح الخير» في صوت رقيق وكل شخص فعلها، وكان قاع الخندق مرناً كالوسادة بسبب الجثث الموجودة أسفله. وفي الليل حين تسوء رائحة الجيف، نقوم بربط قطعة قماش حول أفواهنا وأنوفنا، وكانوا أعطونا هذا النسيج محتملين تعرضنا لهجوم بالغازات، ودخلت أسراب الذباب الخندق ليلاً واصطفت عليهم كلية بكثافة تشبه قطعة القماش المتحركة وقتلنا ملايين منه بحفر الخندق على طوله بواسطة جواريفنا، لكن الليلة التالية كان الأمر سيئاً كذلك، إذ كنا جميعاً «مقملين»، كما لم نستطع إيقاف التبرز، لأننا أصبنا «بالدوسنتاريا»، فبكينا، لا لأننا خائفون، وإنما لأننا أصبحنا شديدي القذارة.

وحدة مستشفى متنقلة مع الجيش الروسي

«جاليشا، 2 يونيه/ الصيف 1915 افرنجي»

*** هـوف والبـول**

كان الفجر جميلاً فور خروجنا لاستطلاع المعركة، وكانت المدافع تدوي الآن في الغابة، وكنا خارجين للاستطلاع في عربات القش، فدخلنا وسط الغابات التي كانت رائعة في الصباح الباكر والسماء حمراء بلون ذهبي والطيور تشدو.

ورغم أن المدفعية بدت قريبة ألاّ أننا لم نجد شيئاً هناك، وتحركنا لموقع آخر وهنا وجدنا الكثير. وبسرعة تمركزنا خلف «دشُمة» وبطارية مدافع تدوي في آذاننا، وتمركز الجنود في «الدشمة» كما لو كانوا ولدوا فيها. ونظروا إلينا بنوع من اللامبالاة المحببة ثم دخلنا في انتظار طويل، وأصابني صداع شديد من صخب المدافع وشعرت بالبؤس والوحدة، ولم أك خائفاً رغم مرور الشظايا فوق رؤوسنا. وبعد الساعة الخامسة هبطنا نحو موقع آخر حيث بقيت حتى الظلام، وهنا ضابط قديم لطيف، ومزرعة قديمة جميلة بها شجرة عجوز رائعة وعشاء ساخن شهي، كل شيء هنا مرح، فالجنود يحكون ويضحكون وينتظرون، ويحكي الضابط العجوز روايات عن نسوة جميلات حين يصمت الصخب.

عند الظلام انطلقنا بحثاً عن الموتى، وتلك المهمة مزعجة ـ حقاً ـ إلى حد ما، فالأسوار مملوءة بالجنود الصامتين. وكان ضوء القمر يجعل كل شيء غير حقيقي ولا مأمون، وجدنا رجالنا ـ عندئذ ـ وقد تقابلوا مع ضابط تسير خلفه جماعة صامتة كبيرة، فأخبرونا أن علينا أن نسرع لأنهم سيبدأون هجوماً، فأسرعنا بالفعل، وما إن أخرجنا عرباتنا من الموقع وبدأنا تسلق التل حتى دوى المدى الذي كان صامتاً خلفنا بانفجارات القتال، وكانت المدفعية تضرب في كل اتجاه حولنا، نيران ووميض، وأضواء ملونة وضوضاء، كما لو كانت السماء مصنوعة من الخزف الصيني الذي تكسر إلى ملايين القطع وتساقط.. إنه مشهد رائع لا ينسى.

مع الفرسان النمساويين على الجبهة الشرقية

«أغسطس/ هانيبال 1915 افرنجي»

* أوسكا كوكوشكا

كان هناك شيء يتحرك عند حافة الغابة، فنهبط من على الخيول ونَقُودها، وكان طابورنا قد التحق به متطوعون، وحثثنا جيادنا قُدماً نحو الشجيرات كما لو كنا خارجين لصيد العصافير، وكان العدو ينسحب أكثر إلى داخل الغابة ويطلق نيراناً متقطعة فقط، لذا كان علينا أن نمتطي الخيول من جديد وذلك كان أسوأ جزء، لأنه منذ قدم أولئك المجندون، والخيول كانت - وهي ضمن الطلبية - تذعر من صوت المدافع تماماً كهؤلاء الاحتياطيين - كما كانوا يسمون - الذين هم فرسان بؤساء، وبعد كل هذا فإن معظمهم كان قد تعود على الجلوس وراء المكاتب فقط.

وفي الغابة، واجهنا سيلاً من الطلقات شديدة القرب والكثافة حتى ليخيل للمرء أنه يرى كل طلقة وهي تمرق بجواره، كانت أشبه بسرب مُنقض من الزنابير، القتال! . . الآن بدأ اليوم الكبير الذي انتظرته طويلاً، وكنت أحتفظ ببقية كافية من سرعة بديهة لأستمر ممتطياً جوادي للأمام وفي أحد الأجناب، بعيداً عن فوضى الخيول الأخرى التي أصبحت أكثر اضطراباً الآن كما لو كانت الأشباح تطاردها، وزاد الخضم سوءاً بمجيء المزيد من المؤخرة وركضهم فوق الجنود والحيوانات المتساقطة، وأردت أن يحسم ذلك الموقف من جانبي ومواجهة العدو مباشرة، فموت بطل فيه الكفاية! وليست بي رغبة في الموت تحت الأقدام كالدودة.

كان الروس قد جرونا إلى مصيدة، وكنت ركزت عيني - بالفعل - على بندقية آلية روسية قبل أن أتلقى ضربة حادة على صدغي، كانت الشمس والقمر يلمعان كلاهما معاً، مع ألم برأسي لدرجة الجنون، فماذا بحق السماء عليّ أن أفعل برائحة الزهور هذي؟ زهور ما - لم أستطع تذكر اسمها مهما ألهبت - عقلي، وكل ذلك الصراخ حولي، وأنين الجرحى الذي بدا كأنه يملأ الغابة كلها، لا بد أنه هو

الذي أعاد لي صوابي. . . ، يا ربي الرحيم، لا بد أنهم في حالة ألم رهيب، ثم أدركت حقيقة أنني لا أستطيع التحكم في حذاء الفروسية والقدم بداخله، الذي كان يتحرك بعيداً جداً رغم أنه يخصني، وتعرفت على الحذاء بمهمازيه، إذ كان «مهمازاي» بلا قرص حاد مخالفاً التعليمات.

وهناك فوق العشب، كان هناك ضابطان بالزي الروسي يرقصان «باليه» ويعدوان فيقبلان بعضهما على الخدود، كالفتيات الصغيرات وهذا ضد التعليمات في جيشنا، وكان برأسي ثقب صغير مستدير، وحصاني راقداً فوقي قد انتفض للمرة الأخيرة قبل موته، وقد أعادني ذلك لوعيي فحاولت أن أقول شيئاً، لكن فمي تجمد بالدماء التي بدأت تتجلط، وبدأت الظلال حولي تكبر وتكبر، وأردت أن أسأل كيف تضيء الشمس والقمر معاً في وقت واحد، وأشير للسماء لكن ما كانت لتتحرك، وربما رقدت فاقد الوعي لعدة أيام.

عريف الرماة «باكستر» يحرز وسام السلوك المميز

«الجبهة الغربية - سبتمبر/الفاتح 1915 افرنجي»

*** روبيرت جريفز**

من صباح الرابع والعشرين من سبتمبر حتى ليلة الثالث من أكتوبر، نلت خلال ذلك كله ثماني ساعات من النوم، إذ أبقيت نفسي يقظاً ومنتعشاً بتناول زجاجة ويسكي تقريباً كل يوم مع أني لم أتناوله في حياتي من قبل، وأيضاً نادراً ما شربته منذئذ، وقد ساعدني في الحقيقة ذلك الوقت، فلم يكن معنا بطاطين ولا معاطف ولا ملاءات واقية من الماء، ولا وقت أو مادة نقيم بها مأوى. وانصب المطر، وكل ليلة كنا نخرج للبحث وسط موتى الفصائل الأخرى، وواصل الألمان استمتاعهم، وكانت خسائرنا قليلة، وبعد اليوم الأول أو الثاني تورمت الجثث وتعفنت، وقد تقيأت أكثر من مرة أثناء إشرافي على حملهم، أما أولئك الذين لم نستطع نقلهم من السلك الألماني فقد استمروا في تورمهم حتى تمزق جدار معدتهم، سواءً بصورة طبيعية أو بواسطة رصاصة، عندئذ تطايرت رائحة

كريهة إلينا، كما تغير لون وجوه الموتى من الأبيض إلى الأصفر الرمادي فإلى الأحمر فالقرمزي فالأخضر ثم إلى الأسود فإلى اللون الطيني.

وفي صباح اليوم السابع والعشرين صدرت صرخة غير بشرية، فقد استرد جندي مجروح من «ميدل إيسيكس» وعيه بعد يومين. وكان راقداً قريباً من السلك الألماني، سمعه جنودنا ونظروا لبعضهم البعض، وكان معنا عريف طيب القلب اسمه «باكستر»، كان هو الرجل الذي يغلي شاياً خاصاً لدوريات مجموعته العائدة من الخدمة، وما إن سمع جندي «ميدل إيسيكس» الجريح يئن حتى جرى بطول الخندق يطلب متطوعاً يساعده في إحضاره، وبالطبع ما كان أحد ليذهب معه، فالموت لمن يرفع رأسه فوق حافة الخندق.

وحين وصل مسرعاً ليطلب مني ذلك تأسفت باعتباري الضابط الوحيد في المجموعة، وإنني سوف أخرج معه عند الغسق وليس الآن، وهكذا ذهب وحيداً، فقفز بسرعة فوق عِلّية الخندق ثم زحف عبر أرض ميدان القتال ملوحاً بمنديل، فأطلق الألمان النار لإخافته، وطالما أصر على التقدم، فقد تركوه ليقترب، وواصل باكستر زحفه نحوهم، وحين وصل لجندي الـ «ميدل إيسيكس»، توقف ليوضح للألمان ما هو أمامه، عندئذ ربط جراح الرجل وأعطاه جرعة خمر وبعضاً من البسكويت كانت معه، ووعده بالعودة ثانية عند هبوط الليل، وبالفعل عاد مع جماعة بالنقالة وشفي الجندي فيما بعد، وقد رشحت باكستر لوسام «ڤيكتوريا كروس» لأنني كنت الضابط الوحيد الذي شهد هذا العمل، ولكن السلطات رأت أنه لا يستحق أكثر من وسام السلوك المميّز.

جلاء الحلفاء

«19 ديسمبر/الكانون 1915 افرنجي»

*** نورمان كينج ويلسون**

«تسبب خروج «حملة جاليبولي» في استقالة تشرشل، المؤيد الرئيسي لهذه المخاطرة»..

في صباح اليوم التاسع عشر وصلتني الأوامر النهائية، ومع حلول الساعة 8 مساءً، لم يبق من «إسعاف الميدان» سواي مع أحد عشر جندياً، وقضى الجنود في المواقع اليوم الأخير وهم يحولون كل حفرة إلى شرك مميت، وأكثر الأشياء براءة في مظهرها إلى آلة متفجرة كالجحيم، فبعض المواقع تنفجر بمجرد فتح أبوابها، وطاولة كتابة عليها كتب اليوميات المتعددة بكل منها وصلات كهربائية مع شحنة متفجرة كافية لتدمير سرية جنود، وحاكي ملفوف وعليه إسطوانة جاهزة للغناء تُرك بأحد المواقع، ومُعد بحيث إن نهاية اللحن تعني الموت للمستمعين، وأكوام من علب اللحم المحفوظ تحولت إلى آلات دمار شيطانية وتناثرت في كل مكان.

تمددت أمام المواقع أميال من الألغام الخداعية، ورقدت مئات من البنادق على قمة فتحة الخندق بخيط مربوط في زنادها، تطلقه علبة من الصفيح يتساقط فيها الماء من علبة أخرى، وألعاب نارية أخرى تم إعدادها بذات الأسلوب، وحقيقة لم أظن أبداً أن الجندي البريطاني يمتلك هذه العبقرية الجهنمية، وفي ذلك المساء، تعشيت مع ضباط ـ محطة سحب الخسائر ـ جيداً على مواد تموينية تركت لنا، وكنا نسمع نيراناً راعدة في أحد المواقع وهي تحرق منزل شخص آخر، فضحكنا وتسامرنا ولهونا ونحن في الانتظار، ننتظر ما يعلمه اللّه فقط، ننتظر شيئاً يكسر الصمت الذي يطغى على هذه المقبرة الشاسعة الفارغة، ليس فقط مقبرة آلاف الرجال الطيبين، ولكن مقبرة أمل انجلترا في مضايق الدردنيل.

وبدت التلال تتعالى في عظمة صامتة تحت ضوء القمر الشاحب المضبب، وتمايلت الأضواء القليلة عليها كأشباح الجيش الذي ذهب..

الغواصة U 202 تهاجم

«أبريل 1916 افرنجي»

*** أدولف ك. جـ. إ. ڤون شبيجل**

ظهرت السفينة البخارية قريبة منا وبدت ضخمة، ورأيت ربانها يسير على

قنطرتها وصفارة صغيرة في فمه والبحارة ينظفون السطح، وبدهشة مصحوبة برعشة خفيفة رأيت صفوفاً طويلة من حواجز خشبية على طول أسطح السفينة، حيث برقت من بينها ظهور الخيل البنية والسوداء اللامعة.

«ياللسماء! جياد، واأسفاه على تلك الحيوانات البديعة، ولكن الأمر لا يمكن تجنبه»، فالحرب هي الحرب»، «وكل جواد يقل على الجبهة الغربية هو نقص في القدرة القتالية الإنجليزية». كان ذلك تفكيري ولا بد من التنويه أن التفكير فيما يجب أن يحدث كان تفكيراً غير محبب، وسأصف ما حدث بكل ما يمكن من اختصار.

ما زالت هناك درجات قليلة نقطعها قبل أن تكون السفينة في المدى الصحيح، وستكون فيه حالاً تقريباً، فهي تمر بنا على البُعد المضبوط، مئات قليلة فقط من الأمتار، فناديت حجرة السيطرة «استعدوا لإطلاق طوربيد». وكان ذلك أمر تنبيه لكل الرجال فوق ظهر الغواصة، وحبس كل فرد أنفاسه.

مرت مقدمة السفينة عبر خط الصفر على مرقاب الغواصة الآن. ، ثم برجها، فالقنطرة، فالشراع الأمامي ثم المدخنة، «أطلقوا النار». . وسرت رعشة خفيفة عبر الغواصة، فالطوربيد قد انطلق، «احترسوا عند انفجاره» فقذيفة الموت هذه كانت حقيقية، وطار الطوربيد نحو السفينة المقبورة بسرعة كبيرة وتمكنت من متابعة خط سيره بدقة، بسيل الفقاعات الخفيفة التي تركها في أعقابه، وبدأ قائد الدفة يحسب: «عشرون ثانية» وهو الذي يجب أن يقيس ـ وساعة في يده ـ مدى الوقت الحقيقي بين إطلاق الطوربيد ووصوله لهدفه، بصورة دقيقة. . . ثم: «ثلاث وعشرون ثانية» وحالاً سوف يحدث ذلك الأمر المرعب العنيف حالاً.

ورأيت أن ممر الفقاعات التي أحدثها الطوربيد قد اكتشفه الموجودون فوق ظهر السفينة حيث تشير الأيدي الفزعة باتجاه الماء، ويضع ربان السفينة يديه فوق عينيه وينتظر في استسلام، وتبع ذلك انفجار مروع، وارتمينا جميعاً كل واحد على الآخر بفعل الارتجاج، ثم اندفع عمود من الماء بارتفاع مائتي متر وعرض خمسين متراً كالبركان، ضخم وعظيم نحو السماء، ومرعب في قوته وجماله ثم

صحت في حجرة السيطرة، «اضربوا، منتصف مؤخرة المدخنة الثانية». عند ذاك تركوا أنفسهم يهبطون بسرعة كان هناك شعور حقيقي بالحماس نابع من قلوب تحررت من التردد، شعور اندفع عبر المركب كله ووصلني صداه المرح في برج المراقبة، وماذا يجري هناك؟، إن الحرب سيدة المهام الصعبة إذ تدور أحداث مرعبة فوق ظهر السفينة التي ضربت بشدة وفي حالة غرق، وكانت في وضع جنوح سريع ومتزايد باتجاهنا، وأصبحت كل أسطحها بميل واضح أمامي.

ومن كل الممرات كانت كتل من الرجال تشق طريقها فوق السطح، وقّادون متجهمون، وضباط، وجنود سُيّاس، وطهاة، الكل يندفع، يجري، يصرخ طلباً لقوارب النجاة، يفكون ويلقون بالواحد تلو الآخر من السلالم التي تقود إليها، ويتقاتلون للحصول على أحزمة النجاة، ويدفع الواحد منهم الآخر على السطح المائل، وفيما بينهم جميعاً انحشرت الجياد المنزلقة والمتأخرة، ولم يمكن إنزال قوارب النجاة من الجانب الأيمن بسبب ميله، ولذا جرى كل فرد نحو قوارب السطح الأيسر التي أنزلت بغباء شديد ـ وسط الاضطراب والعجلة ـ إما نصف ممتلئة أو فوق طاقتها من التحميل، وكان الرجال الذين تُركوا في الخلف يضربون أكفهم في يأس ويجرون جيئة وذهاباً فوق السطح، وفي النهاية ألقوا بأنفسهم في الماء بهدف السباحة حتى القوارب، عند ذاك حدث انفجار ثان متبوعاً بانطلاق بخار أبيض ملتو من كل الممرات والفتحات، ودفع البخار الأبيض الجياد لحالة جنون، فرأيت جواداً جميلاً طويل الذيل رمادي اللون ذا بقع لونية قاتمة يقوم بقفزة عظيمة متخطياً حواجزه، ويهبط فوق قارب مُحمل لغايته، وعندئذ لم أعد أتحمل المنظر أكثر من ذلك، فأنزلت مرقابي، وغُصنا نحو الأعماق.

معركة «جوتلاند»

«برج المدفعية «X» في الطراد «كوين ماري» 31 مايو/الطير 1916 افرنجي»

*** إيرنست فرانسيس**

«موقعة جوتلاند، وهي المواجهة الرئيسية بين الأسطولين البريطاني والألماني في

الحرب العالمية الأولى، ادعى النصر فيها كلا الجانبين، الألمان بسبب أنهم حطموا كثيراً من السفن والجنود، والبريطانيون لأنم استردوا السيطرة على بحر الشمال».

كان طاقم المدفع مضبوطاً تماماً، وإن مال للإبطاء قليلاً في إعادة تعميره، لكنني صحت فيهم موضحاً أنني أريد ضرباً ثابتاً، بعد هذا، سار كل شيء بدقة الساعة.

قال لي الجندي رقم 3: «يا ضابط الصف فرانسيس، هل يمكنك تحديد ما نواجهه»؟. وبالفعل كنت تواقاً للاستطلاع فيما حولنا ولكني لم أجد وقتاً، وما إن تم إطلاق مدفعي، وأثناء تعمير الشحنة قمت بإلقاء نظرة خلال المرقاب، وبدا لي أن هناك مئات من الأشرعة والمداخن، فهبطت على الفور إلى مقعدي وقمت بتثبيت مدفعي بالمؤشر، وما إن أضحى في الاتجاه المضبوط أطلقت النار، وخلال إعادة تعمير المدفع ثانية، أخبرتهم أن هناك طرادات قليلة أمامنا، غير راغب في إحباطهم بأي حال، وليس الخبر هو - على ما أظن - ما سيفعل بهم هذا، لأنهم كانوا رفاقاً رائعين، وقد أروني بصورة عظيمة، وكنت حتى تلك اللحظة لم ألمس أية ضجة، كأن تصيبنا قذيفة مثلاً، ولكن فيما بعد، أصابتنا ضربة ثقيلة، قذيفة - أظنها - من عيار ما بعد الـ «4 بوصات» فتطاير الكثير من التراب والقطع المتكسرة حول قمة البرج «X».

ولفت انتباهي مرشد البرج، البحار «لونج» الذي أفاد بأن زجاج مرقابه الأمامي قد انسد، ولم تكن تلك المسألة شديدة الأهمية لأننا كنا في الاتجاه المطلوب، ولكن واحداً من المؤخرة سمعه وهو يُخبر عن عطب زجاجه، فانطلق على القمة ونظفه دون أوامر، ولا بد أنه تحطم وهو يفعل ذلك لأنه سقط أمام المرقاب، ثم سقط فوق قاعدة البرج بصورة واضحة، وتمنيت لو عرفت اسم ذلك الفتى المسكين ولكن التخمين لا يفيد، ثم شعرنا بهزة أخرى عقب هذي، لكنها لم تؤثر في البرج، لذا لم نعرها اهتماماً.

عندئذ أبلغت المراقبة تقريراً للملازم «ايويرت» أن السفينة الثالثة من خط المواجهة تتساقط وكان أول ثأر للسفينة «كوين ماري». كانت الأصوات الصادرة

من السفينة المصابة واضحة للسمع، ولم استطع مقاومة إغراء إلقاء نظرة سريعة عليها بناءً على طلب جنودي، فوجدت أن السفينة ـ الثالثة ـ من الخط آخذة في الغرق من مقدمتها، وشعرت أن البرج يتحرك أسرع قليلاً من حركتها، وخمّنت أننا لا بد تحولنا للسفينة الرابعة من الخط، ولأننا كنا في اتجاه الإطلاق، فلا داعي لأوامر توجيه جديدة.

وتطلعت ثانية لأجد أن السفينة الثالثة قد اختفت، لذا التفت إلى احتياطي المدفع ضابط الصف «كيليك» الذي كان يحصي عدد مرات الإطلاق، فقال «ثلاثون».. وبعض الأرقام الغريبة، ولم ألتقط الرقم الصحيح، ومرت دفعات إطلاق قليلة حين تطلعت ثانية عبر منظاري، وكان هناك بعد كبير تماماً بين السفينة الثانية وما ظننت أنه السفينة الرابعة، وذلك يرجع فيما أعتقد لغرق السفينة الثالثة، وكانت النار تتوهج من السفينة التي اعتبرتها الرابعة في الخط، ثم حدث الانفجار الضخم الذي هزنا قليلاً.

عند تطلعي لمقياس الضغط رأيت الضغط يهبط، وبعد ذلك مباشرة حدث ـ ما أسميه ـ التحطيم المروع، ووجدتني أتأرجح في الهواء على حبل الشراع، الذي أنقذني من السقوط على أرضية البرج، وتلك الحبال الشراعية فكرة طبقتها على برج مدفعيتي، وتم تزويد كل واحد منا بحبل، وبقدر ما لاحظت، فإن الجنود الذين ارتدوه لم يصابوا بأذى أثناء الدمار الكبير الذي حدث، أما الجنديان رقما 2 و 3 من المدفع الأيسر فقد انزلقا تحت المدفع، وبدا لي المدفع كما لو كان قد سقط من بين محاوره وحطم ذينك «الرقمين».

أضحى كل شيء فوق السفينة هادئاً ككنيسة، والتوت أرضية برج المدفعية لأعلى وأصبحت المدافع بلا فائدة، ولا بد لي أن أذكر هنا أن أي علامة انفعال لم توجد.

استدار رجل نحوي قائلاً: «ماذا تظنه قد حدث»؟ فقلت: «ثابت كل فرد، سوف أسأل السيد «إيويرت»». وعدت للقمرة وقلت: «ماذا تظنه قد حدث يا سيدي»؟ فقال: «يعلم الله». فقلت: «حسناً سيدي، فليس من الفائدة إبقاؤهم

جميعاً هنا». «لماذا لا نرسلهم إلى أعلى لمدافع الـ «4 بوصات» ونمنحهم فرصة لقتال معركتهم، إذ حالما يكتشف الألمان أننا خارج القتال، فسوف يركزون علينا وننتقل جميعاً إلى السماء». قال: «نعم، إنها فكرة جيدة، إبحث فقط إذا ما كانت مدافع الـ «4 بوصة» بالمؤخرة ما زالت تعمل».

وضعت رأسي داخل فتحة في سقف البرج، وسقطت منها تقريباً مرة ثانية، كانت مدافع الـ «4 بوصة» بالمؤخرة قد تغيرت كل معالمها، ثم لاحظت أن السفينة قد مالت بصورة مخيفة على جانبها الأيسر، ونفذت مرة أخرى ثم أخبرت الملازم «إيويرت» بالوضع القائم، فقال «فرانسيس»: «ليس أمامنا سوى منحهم فرصة، «أخل البرج». قلت: «أخلوا البرج». فخرج الجميع، وكان العريف «ستارز» آخر من رأيته يخرج من حجرة التشغيل، فسألته إذا ما كان قد مرر «الأمر» للمخزن ولحجرة القذائف، فأخبرني أن ذلك غير مجدٍ لأن الماء هناك يصل لجذع الإنسان وفي طريقه لحجرة القذائف، وهكذا لا بد أن قاع السفينة قد انفصل عنها، عندئذ قلت: «فلم لم تأت»؟ قال ببساطة. «لم تكن هناك أوامر بمغادرة البرج».

فمررت عبر القمرة ثم إلى أعلاها وكان الملازم «ايويرت» يتبعني، ثم فجأة توقف وعاد ثانية للبرج، واعتقد أنه عاد لظنه أن هناك أحداً بداخله.

كنت في منتصف الطريق هابطاً السلم خلف البرج حين عاد الملازم، وكان ميل السفينة لجانبها الأيسر مخيفاً هذه اللحظة، لدرجة أن الرجال أول ما يهبطون من السلم ينزلقون بسرعة نحو هذا الجانب، ووصلت لآخر عارضة بالسلم ولم استطع بمجهودي الشخصي أن أصل للأعمدة القائمة على السطح من الجانب الأيمن، وأدركت أنني لو تركت السلم لهبطت متزحلقاً للجانب الأيسر مثل الكثيرين، ومن المحتمل أن تنكسر ضلوعي مع الانزلاق، فهب اثنان من طاقمي حين رأيا معاناتي لمساعدتي، وكانا البحار «لونج» موجه البرج، والبحار «لين» من المدفع الأيسر رقم «4» إذ حمل «لين» زميله «لونج» بكامل طوله من جانب السفينة، وسقطت من السلم وأمسكت بقدمي «لونج» وهكذا وصلت لجانب السفينة الأيمن.

هذان الرجلان لم يفكرا في سلامتهما الخاصة، وكانا يعلمان أني بحاجة لمساعدتهما، وتلك طيبة كافية فيهما، وكلاهما يستحق وسام «ڤكتوريا كروس» مرتين.

حين وصلت لجانب السفينة، بدا لي أن هناك زحام كافٍ ولم يبد عليهم القلق الشديد الذي يدفع بهم للماء، فصحت بهم: «هيا أيها الفتيان، مَنْ يأتي معي لنستحم»؟. أجاب بعضهم: «إنها ستطفو لفترة طويلة بعد» لكن شيئاً ـ لا أدعي معرفته ـ كان يحرضني على الذهاب بعيداً، وهكذا تسلقت فوق الحافة الرقيقة للهيكل، وارتميت في الماء متبوعاً فيما أعتقد بخمسة رجال آخرين، وعمتُ بعيداً عن السفينة بقدر ما أستطيع، ولا بد أنني قطعت حوالى خمسين ياردة حين سمعت صوت انهيار ضخم، فتوقفت وتطلعت حولي، وبدا الجو مملوءاً بالأشلاء والقطع المتطايرة.

وشعرت بقطعة ضخمة فوق رأسي تماماً وكانت تتحرك مع الموج، فغطست لأسفل لأتجنب الاصطدام بها، وبقيت تحت الماء بقدر ما أستطيع ثم طلعت السطح ثانية، وسمعت صوت اندفاعة ماء آتية خلفي شبيه بانكسار الموج على الشاطىء، فأدركت أنها دوامة من السفينة الغارقة تواً، ولم أكد أجد وقتاً لملء رئتي بالهواء حتى كانت تعلوني، وشعرت بعدم جدوى المقاومة معها، لذا تركت نفسي معها لحظة أو اثنتين، بعد ذلك حاولت العوم من جديد، لكنني أحسست أنها لعبة خاسرة وقلت لنفسي: «ما جدوى ما تبذله من جهدٍ»؟. فأوقفت محاولتي للصعود إلى سطح الماء حين سمعت صوتاً صغيراً كأنه يقول: «شق الماء» فبدأت منتعشاً وخبطني شيء فأمسكته، وبعدئذ اكتشفت أنه سرير مغزول مما يستخدمه البحارة، وشعرت أنني أضعف أكثر، ورفعت نفسي بما يكفي للتطلع حولي بحثاً عن شيء أكثر صلاحية لأعتمد عليه.

كان يطفو أمامي مباشرة ما أظن أنه الحاجز المركزي لهدفنا رقم 4، فتمكنت من دفع نفسي على السرير قريباً من ذلك الخشب وأمسكت بقطعة من حبل معلقة بجانبه، وكانت الصعوبة التالية أمامي هي الصعود لسطحه، وبقليل من الجهد

ظللت معه، ثم تمكنت من إدخال يدي عبر خشبة في الحبل، ولا بد أنني بعدها غبت عن الوعي.

حين أفقت ثانية، كنت على مسافة من تلك الكتلة الخشبية ولكني استطعت العودة لها، كنت مرهقاً جداً ويملؤني زيت الوقود، وانسدت عيناي تماماً به ولم استطع الرؤية وأعتقد أن ذلك الوقود قد جف ونشف نوعاً ما، فحاولت بقلب أكمام قميصي الذي كان مغطى بالوقود أن أمسح بجزء من أكمام القماش القطني، «لفانلتي الداخلية»، وهكذا استطعت أن أزيل طبقة الزيت الكثيفة من فوق وجهي وعيني، اللذين كانا يؤلمانني بصورة فظيعة.

عند ذاك أبصرت، واعتقدت أنني الوحيد الباقي من الرفاق الطيبين بالسفينة، وما حدث بالفعل أن المركب «لوريل» جاء والتقط الباقين ولما لم يشاهدني انطلق بعيداً عن منطقة الضرب، وهكذا.. كم بقيت وسط الماء.. أنا لا أعرف، كنت بردانا بصورة سيئة ولكن ليس بدون أمل في التقاطي حيث بدا لي أن عليّ البقاء هادئاً وستأتي سفينة ما من أجلي.. وبعد ما شعرت أنه دهور أمامي، أتت بعض المدمرات متسابقة، فتسلقت الحاجز الخشبي وثَبّتُّ نفسي للحظة ولوحت بذراعي، فرأتني «بيتارد» - واحدة من أكبر مدمراتنا - وحضرت نحوي ولكن حين صعدت للحاجز لألوح لهم، تدحرج الخشب فانقلب مَنْ عليه، كنت مستنفد القوى مرة أخرى، ووصلت المدمرة، وألقوا لي بحبل، الذي - دون حاجة للتأكيد - أمسكت به بكل ما لدي من طاقة، ورفعوني بسرعة فوق سطح المدمرة.

المركز 21 لإخلاء الخسائر

«1 - 3 يوليو/ناصر 1916 افرنجي»

*** الأب المحترم جون م. س. واكر**

«عند «السوم» من 1 يوليو حتى 13 نوفمبر 1916 افرنجي، تحمل البريطانيون

60,000 من الخسائر في اليوم الأول، وفي أكتوبر حولت **الأمطار** المدرارة أرض المعركة إلى مستنقع، ومع حلول منتصف نوفمبر تقدم **الحلفاء 5** أميال بخسائر تقدر بـ «450,000 ألماني، 200,000 فرنسي، 420,000 بريطاني».

السبت 1 يوليو الساعة 7,30:

كانت السماء والأرض تدوران، فالساعة الحمقاء قد أزفت، وكل سلاح نملكه انطلق بأقصى ما يحتمل لأكثر من ساعة، ومن تل قريب من «فيلز» يعلونا يميناً ويساراً تعلقت مناطيد ملاحظة ضخمة، ترى منها ثمانية عشر، ومرقت الطائرات حولنا، وغمّم المنظر ضباب الصباح ودخان البنادق فعدنا لإفطار متأخر، وفي الحال وصل الجرحى بالقذائف الألمانية ثم طوال اليوم سيارات الموتى والجرحى، ولكن الجميع كانوا في حالة ابتهاج، إذ يخبروننا عن يوم باهر النجاح، وتكوموا ـ بالمعنى الحرفي ـ بلا وسائد، والسعيد من يحصل على مساحة من الأرض تحت الخيمة، أو الكوخ، أو الحجز.

ورغم **أن الجراحين يعملون كأبطال طروادة، إلا أن** الكثير مات بسبب النقص في **إجراء العمليات، فجميع العاملين بالمركز مشغولين فوق الطاقة**. ومؤخراً كان لدينا **1,500 حالة وما زال الباقي يأتي، من 300 إلى 400** ضابط ويا للمنظر.. **فتيان بجراح مخيفة يرقدون في ألم مبرح، والعديد من** المصابين، البعض **يصخب، وواحد يذهب نحو نقالة، ويمد يده على الجبهة، إنها** باردة، يشعل **عوداً من الكبريت، ياه.. لقد مات، هنا اجتماع الرب، وهناك** على الإطلاق. **هناك شراب، وهناك رجل مجنون، وهناك زجاجة ماء ساخن وهكذا.**

كان أحد الرجال فاقدي العقل يقسم ويركل بقدمه فأعطيته شراباً، فحاول أن **يعضني في يدي، وبصق الماء من فمه إلى وجهي، حسناً، إنها تجربة**، بالإضافة **لكل الخبرات** المؤلمة السابقة، يا الله.. **إنني متعب، فأستسمحكم** التوقف عن **الكتابة.**

2 يوليو.. يا له من يوم! لا أجد مكاناً بالمستشفى حتى لعقد لقاء للعشاء

المقدس، وقال النقيب: إن أي صلاة يحتمل ألاّ تتم، ولحُسن الحظ، كان جميلاً أن أرتب المكان فوق حقيبتي ليصبح مذبحاً فوق الخشب خلف معسكر «الراهبات»، ثم أقضي اليوم متجولاً أو راكعاً بجوار النقالات مؤدياً صلوات القداس،.. الخ، ومرتين ذهبت لعمليات دفن، وبالطبع استخدمنا الخندق الذي أعددناه في حقل مجاور، وفي البداية عقدت صلاة للقداس، وحين التفت وجدت الرجل العجوز الذي يعمل بالحقل راكعاً على ركبتيه يصلي في الطين ودفنت سبعة وثلاثين، ولكن بقي البعض لليوم التالي، وكان أكثر الأماكن حزناً هو «عَزْل المحتضرين» في خيمتين كبيرتين مربوطتين معاً، معبأتين بالضباط والرجال على شفا الموت تُركوا هنا كحالات ميئوس منها، لكنهم لا يعلمون ذلك. تعبت الآن، سأتوقف عن الكتابة، فأنا مجهد جداً وأمامي خطابات بعض المرضى.

3 يوليو.. الآن أنا أعرف شيئاً عن رعب الحرب، وقد تضاعف عدد أعضاء المركز، ولكن ماذا يجدي.. تخيل 1,000 جريح بحالة خطرة يومياً. وبدأ الجراحون يحصلون على قسط من النوم بعد أن عملوا ليلاً ونهاراً ثم أدركوا أننا قد نستمر بهذا الوضع لبضعة أشهر، كما حدث في «ڤيردون» وسمعنا بانتصارات عظيمة، وكان هناك بالطبع هزائم، ويسمع المرء عن أعداد هائلة من الموتى الإنجليز والألمان.

آه.. لو أمكنك رؤية خيامنا وأكواخنا وأماكن عزلنا تمتلىء بخليط من الجراح المفزعة، وترى حالات اختراق البطن والرئة وهي تحتضر، أو تقابل حالة كسر مضاعف بالفخذ تتجول، وبصدق شديد لو سمحتم لي، فإنني قد حصلت على بعض «المورفين» وسأذهب لمكان المحتضرين واستخدمه هناك، أو أزحف داخل الخيام الطويلة حيث يرقد مائتان أو ثلاثمائة جندي ألماني. يمكنك أن تتخيل نوع الرعاية التي يجدونها بالنسبة لرجالنا المُهمَلين، فالصرخات والأنين أكثر مما يمكن أن يحتمله المرء، ولا أستطيع أن أشعر بشفقة أقل مما أشعر به نحو آلام رجالنا.

أول معارك الدبابات

«15 سبتمبر/ الفاتح 1916 افرنجي»

*** بيرت تشاني . .**

«كانت الدبابات البريطانية «مارك» جرارات أمريكية تم تعديلها للأغراض الحربية، وتزن 30 طناً، وقادرة على التحرك بسرعة 4 أميال في الساعة، وقد قامت ست وثلاثون دبابة منها بعمل رأس حربة للمناورة البريطانية لاختراق خط «سوم» يوم 15 سبتمبر».

سمعنا ضجة هادرة، وتهادت نحونا ببطء ثلاثة وحوش ميكانيكية ضخمة لم نشاهد مثلها من قبل. كان انطباعي الأول أنها على وشك الانقلاب على أنوفها، ولكن ذيولها والعجلتين الصغيرتين عند مؤخراتها تشدها لأسفل وتبقيها مستوية، كانت أشياء معدنية ضخمة بمجموعتين من العجلات الشرنقية تلتف تماماً حول الجسم، وكان هناك انتفاخ عند كل جانب، وباب في الجزء المنتفخ، ومدافع آلية فوق إسطوانات مفصلية تبرز من الجانبين، والآلة، وهي تتحرك بالبترول وذات أبعاد كبيرة، تشغل عملياً كل المساحة الداخلية، ومُركب خلف كل باب مقعد جلدي من طراز مقاعد الدراجات، وبقي من الفراغ ما يكفي ـ بالكاد ـ لأحزمة الذخيرة والسائقين.

وبدلاً من الذهاب نحو الخطوط الألمانية، توجهت الثلاث دبابات نحونا وعبرت خط جبهتنا، وتوقفت ثم صبت نيران المدفع الآلي القاتلة لترشنا يميناً ويساراً، وقبعوا هناك أشياءً وحشية متجولة، أنوفها ترتفع في الهواء محطمة جوانب خنادقنا، فتغير من شكلها بمدافعها الآلية التي تدور وتطلق نيرانها بجنون، وغاص كل واحد طلباً للساتر عدا النقيب، إذ قفز فوق قمة التبة صائحاً بأعلى صوته: «يا جندي المراسلة، . . إذهب وأخبر هذه الدبابات بإيقاف النار فوراً . . في الحال إنني أقول ذلك». وحتى الآن ارتفعت أصوات نيران العدو لأعلى طبقاتها، ولكنه لم يُعر أدنى اهتمام لسلامته الشخصية وهو يرى الدبابات تصوب

على رجاله، وجرى للأمام وانهال ضرباً بعصاته على جانب دبابة منها آملاً في جذب انتباهها.

ورغم أن لا أحد داخل الدبابة سمعه - مع أصوات الآلات وإطلاق النار في مكان مغلق كهذا - إلا أنهم أدركوا في النهاية أنهم في الخندق الخطأ، فتحركوا ليصيبوا الجنود الألمان بذعر يخرجهم عن عقولهم ويفرون كالأرانب الخائفة.

نهاية المنطاد «زبلين» ل - 31

«1 أكتوبر/التمور - 1916 افرنجي»

*** ميشيل ماكدوناف**

رأيت ليلة أمس ما يمكن أن يكون أكثر مشاهد الحرب رعباً، التي نتوقع من لندن مدنا لها، إنه إسقاط منطاد الإغارة «زبلين» محترقاً وسط اللهب.

كنت قد تأخرت بمكتبي، وغادرته قبيل منتصف الليل تماماً، وفي طريقي لعبور كوبري «بلاك فريارز» لأركب عربة الترام عودة لمنزلي، إذ لفت انتباهي صرخات محمومة: «ياه لقد أصيب»!.. صادرة من بعض المارة الذين كانوا واقفين وسط الطريق، محلقين في السماء باتجاه الشمال.

وحين تطلعت أعلى طريق شارعي «نيوبريدج و «فارينجدون»، رأيت شعلة مركزة من الأضواء الكاشفة في كبد السماء وبمركزها وهج أحمر انتشر في الحال محدداً هيكل مركب فضائي يحترق، حينئذ اختفت الأضواء الكاشفة ومال المنطاد عمودياً في السماء المعتمة، وأضحى هرماً عملاقاً من اللهب الأحمر والبرتقالي، أشبه بنجمة هاوية تسقط ببطء نحو الأرض، وأضاء وهجه الشوارع، ناشراً خيمة حمراء تمتد حتى مياه نهر «التايمز».

وظل المشهد قائماً دقيقتين أو ثلاث. كان منظراً أخاذاً بصورة رهيبة، وتسمرت كأنني مسحور تكاد الانفعالات تخنقني، مُهيأً لأن أضحك وأبي بشكل هستيري، وحين اختفى المركب الفضائي المقبور عن الأنظار، ارتفع صياح لم

أسمع بمثله في لندن من قبل، صياح جاف مختلط التعبيرات، انتصاراً أو فرحاً، صياح متضخم بدا متصاعداً من كل أرجاء المدينة يزداد ـ قوة وتركيزاً، لقد كانت لندن تترنم بترتيل: «نحمدك اللهم»، على خلاص متوّج آخر، فأربعة مناطيد دُمرت في شهر.

وحال وصولي للمكتب هذا الصباح، أمرت بالذهاب إلى «بوترزبار» في منطقة «ميدل إيسيكس» حيث أسقط المنطاد، وهي على بعد ثلاثة عشر ميلاً من لندن، وكانت القطارات قليلة هذه الأيام، والسفر بطيء كاقتصاد حرب، والرحلة من «كينجز كروس» خاصة شديدة الإرهاق، وكان القطار الذي لحقته ممتلئاً، فمقصورتي انشغلت مقاعدها العشرون كما وجد عشرة مسافرين آخرون مكاناً للوقوف فيها، وكان الطقس ـ كذلك ـ كريهاً والمطر يتساقط باستمرار، وكان علينا أن نسير الميلين المتبقيين للمكان الذي سقط فيه المنطاد.

وعبر طرق موحلة وحقول مغمورة، تعالى ضباب كثيف لزج. . وحصلت من جندي ببطارية المدفعية المضادة للطائرات في «بوترزبار» على تقرير عن إسقاط المنطاد، وقال: إن هذا المنطاد قد أظهرته أشعة ثلاثة أضواء كاشفة من محطات تتباعد أميالاً، وأطلقت عليه النيران ثلاث بطاريات من المدفعية من مسافات متباعدة هي الأخرى، فدار وتمايل وارتفع وهبط، في محاولات غير مجدية للهروب إلى ملجأ في الظلمة البعيدة، ولم تصل إليه أي من القذائف، عند ذاك ظهرت طائرة وأطلقت ثلاث ومضات، وهي إشارة للمدفعية الأرضية لإيقاف النيران ـ إذ هو على وشك الهجوم.

وقام قائد الطائرة وهو يحوم حول المنطاد بإطلاق دفعات من سلاحه الآلي نحوه دون تأثير، حتى أصابت المنطاد دفعة نيران من أسفل، فأشعلت فيه النار وسقط كتلة ملتهبة تزأر كالأتون، وانشطر وهو يسقط إلى جزءين ارتبطا معاً «بكوابل» داخلية حتى هبطا إلى الأرض. كان هيكل المنطاد يرقد في الحقل في كومين ضخمين منفصلين عن بعضهما بحوالى مائة ياردة ومعظم الجزء الأمامي يتدلى معلقاً من شجرة. . كان عدد الطاقم تسعة عشر فرداً، ووجدت جثة واحدة

في الحقل على مسافة من الحطام، ولا بد أن صاحبها قفز من المركب الفضائي المضروب من ارتفاع غير بسيط، وكانت قوة ارتطامه بالأرض شديدة لدرجة أنني رأيت انطباع جسده محدداً بوضوح فوق العشب النابت، وكانت هناك فتحة صغيرة في الرأس، ثم غور عميق لجذع بأيد ممدودة، وفي النهاية الساقان المتباعدان تماماً، وكان به رمق من الحياة ساعة أن وجدوه ولكن ذؤابة روحه انطفأت بسرعة، وكان ـ في الحقيقة ـ هو قائد المنطاد الذي ركب واحداً من «قمرات» القيادة المعلقة بهذا المركب الفضائي.

ذهبت مع صحفي آخر إلى الجرن الذي ترقد فيه الجثث، وبينما نقترب سمعنا امرأة تقول للرقيب المسؤول عن جنود الحراسة: «هل يمكنني الدخول؟ أتمنى لو أرى ألمانياً ميتاً». فكانت إجابته: «لا يا سيدتي، نحن لا نسمح بدخول السيدات». وبعد تقديم نفسي كمراسل صحفي سألته نفس الطلب، قال الرقيب لي: «إذا كنت ترغب ـ خاصة ـ أن تدخل، فيمكنك هذا، وعلى كل حال، أود أن أنصحك بألاّ تفعل، إذ لو دخلت لندمت على فضولك». فأصررت على طلبي، وبعد أن شرحت للرقيب أنني على وجه الخصوص أريد رؤية جثة القائد، سمح لي بالدخول.

وأزاح الرقيب الغطاء عن إحدى الجثث كانت موضوعة منفصلة عنهم، وكان التشويه الوحيد هو تغيير طفيف في الوجه، كانت جثة شاب ذا حلاقة نظيفة، كثيف الملبس في زي عسكري قاتم ومعطف مع كوفية حول عنقه، وعرفت من يكون، إذ كان لدينا بالمكتب معلومات رسمية عن شخصية القائد وعن المنطاد ـ رغم أن المعلومات الخاصة بهما كان محظور نشرها ـ وتلك المعلومات هي التي جعلتني أصر على رؤية الجثة.

كان الرجل الميت هو «هنريخ ماثي» أشهر قائد منطاد ألماني، وكان المنطاد المحترق هو المنطاد المنيع «ل ـ 31» نعم، كان يرقد هناك ميتاً عند أقدامي، «غول» غارات المناطيد، أول وأقصى من لا يستحق الشفقة من قراصنة الجو هؤلاء الذين انتووا تحطيمنا.

طيور على الجبهة الغربية

«1916 افرنجي»

* هـ. هـ. مونرو «ساكي»

«مونرو - كاتب هذا النص - قتل عند «بومون - هاميل» يوم 14 من شهر نوفمبر 1916 افرنجي».

نظراً لعدم الاستقرار الاقتصادي الهائل الذي سببته العمليات الحربية في الأقاليم التي ترواحت فيها الحملات العسكرية، يبدو أن هناك اضطراباً قليلاً في المقابل بحياة الطيور من نفس المناطق، فالفئران والجرذان انتقلت وتكاثفت على خط القتال، وهناك انتقال جزئي لطيور البوم، خاصة بومة الحقل، في أعقاب الفئران، باذلة جهوداً مشكورة في خفض أعداد الأخيرة هذي، وأما النجاح الذي رافق صيدهم فالمرء لا يستطيع تقديره، فهناك دائماً فئران كافية باقية لتملأ خنادق الجنود وتقوم بمسيرات أرضية وميادين سباق أمام أعين المرء ليلاً، وبالنسبة لمسألة تجهيز المأوى فأمام بومة الحقل يتوافر الكثير.

ومع أن معظم الأجران القائمة في منطقة القتال مطلوبة لأغراض المجهود الحربي، إلا أن هناك وفرة من المنازل المحطمة والشوارع الضخمة، ومجموعات متعددة منها لم تتوافر أمثلة لها بأي أوقات سابقة في التاريخ العالمي منذ أن هجر «بابل» و «نينوى» سكانها. . . فبدون العمران البشري والزراعة ما كان هناك قمح ولا فضلات، وبالتالي فئران نادرة. . . وما استطاعت بومات «نينوى» التمتع بصيد طيب، وهنا في شمال فرنسا يجد البوم الخراب والفئران تحت إمرته وبلا حدود، وبما أن تلك الطيور تتكاثر في الشتاء كما تتكاثر في الصيف، لذا وجب أن يكون هناك نتاج جيد من صغار بوم الحرب لتغطي الأجيال المتكاثفة لفئران الحرب.

وبعيداً عن البوم، فالمرء لا يستطيع أن يلحظ أي تأثير واضح للحملات الحربية على حياة طيور الريف.

إن أسراب طائر الغراب الممتدة، والتي توقع المرء أن يجدها في المناطق القريبة من خط القتال غير موجودة، وربما يكون ذلك مؤسفاً إلى حد ما، والتفسير الواضح لذلك أن زئير وأصوات ودخان الانفجارات الضخمة قد طرد فصيلة الغربان من منطقة القتال فزعة، ولكنه مثل الكثير من التفسيرات الواضحة، ليس صحيحاً، فالغربان المحلية لا تنجذب لميدان القتال، ولكنها بالتأكيد لا تهرب فزعاً منها، لأن الغراب يصبح عصبياً ويتأذى من صوت البنادق حيث تحدث الضجة لدرجة أن صفقة باب جرن شديدة أو صوت «مسدس لُعبة»، أحياناً ما يدفع سرب الغربان كله إلى حالة اضطراب. أما هنا فقد رأيته مشغولاً في هدوء بين أكوام الفضلات في قرية محطمة والقذائف تنفجر على مسافة غير بعيدة منه، ولَغْلَعة صوت المدافع الآلية تتردد في كل مكان ـ حوله ـ، وكل ما نلاحظه أنه أخذ الأمر كأنه في أحد مراعي إنجلترا الآمنة ذات مساء يوم أحد ناعس.

ومهما فعلت مزعجات الألمان، فإنها لم تُخف غراب شمال شرق فرنسا. كل ما فعلته أنها جعلت أعصابه أشد ثباتاً عن ذي قبل، وعلى الأجيال المقبلة من الصبية الصغار الذين يعملون في مجال إفزاع الغربان وإبعادهم عن المحاصيل المبذورة حديثاً بالمنطقة، أن يبتكروا وسيلة أخرى أكثر ربما لتحقيق هدفهم.

تقيم طيور الغراب والماجبي أعشاشها بشكل جيد في المنطقة التي مسحتها القذائف. وذات مرة رأيت زوجاً من الغربان مشتبكين في قتال ساخن مع زوج من صقور العصافير فوق شجيرة صغيرة، في حين تعلوهما ـ تقريباً ـ في السماء وبصورة نسبية طائرتان مقاتلتان للحلفاء مشتبكتان مع عدد مماثل من طائرات العدو. وبعكس بوم الحقل، فإن لطيور الماجبي اختيارها الخاص لموقع المباني في إطار خرائب الحرب، وكل ميادين أشجار الحور الرجراج التي تعودت تلك الطيور على بناء أعشاشها بها قد تناثرت أشلاءً، غير مخلفة سوى صفوف مرعبة من الجذوع المشطورة والمحطمة تدل فقط على ما كانت توجد فيه ذات مرة.

ولكن إيثار شجرة خاصة ـ في حالة بعينها ـ دفع زوجاً من «الماجبي» إلى بناء عشهما الضخم المقبب في بقايا متكسرة لإحدى هذه الأشجار، وكان ما بقي منها

ضئيلاً لدرجة أن العش بدا أكبر من الشجرة، وهو مشهد يوحي بكرسي الجلوس البابوي الموجود في البقايا الأثرية لكنيسة «ميلروز إبي».

والماجبي، قلق ومرتاب في حياته البرية، ولا بد أن فضوله قد استثير أمام التغيير الذي اعترى ذلك الإنسان المخيف والمحتم لقاءه في السابق، وهو يخطو فوق الأرض كما لو كان مالكها والذي يزحف الآن خفية واحتماءً، حذراً من إظهار نفسه في العراء مثل أشد المخلوقات البرية خجلاً.

والحدأة، وهي الباحثة الملحاحة وراء الفئران، لا يبدو أنها تحتمل مخاطر الحرب، وأنا لم أر واحدة منها على الأقل هنا، ولكن الصقور تحوم طوال اليوم في أكثر مناطق الجبهة سخونة دون أدنى اضطراب. وبشكل واضح حين تتطاير منطقة فئران واعدة كشلال من الطين الأصفر أو الأسود.

وصقور العصافير توجد بصورة وفيرة، وعلى بعد ميل أو اثنين خلف خط النار شاهدت زوجاً من الصقور ـ رأيت أنها من نوع الصقور حمراء الأرجل تدور فوق قمة جذع شجرة بلوط، وطبقاً لأبحاث أجراها علماء الطبيعة الروس، فإن أثر الحر على حياة الطيور في الجبهة الشرقية أكثر وضوحاً من هنا. . . «خلال العام الأول من الحرب، اختفت الغربان، ولم يعد الكروان يغني في الحقول، واختفت الحمامة البرية كذلك». والكروان في هذه المنطقة ارتبط بشدة بالمراعي والحقول التي تشققت وتقسمت بواسطة الخنادق، ومشطتها ثغرات القنابل، وفي ساعة البرد والضباب القاتمة التي تسبق فجراً ممطراً، وحين يختفي أثر الحياة إلا من دوريات حراسة قليلة متيقظة وقد أغرقتها المياه، مع عديد من الفئران الهاربة، قد ترى الكروان مخترقاً السماء فجأة يطلق عنوة ترنيمة فرح حماسية، تبدو مُرْغَمة بشكل مفزع، وغير صادقة.

ويبدو أنه يصعب على الطائر عدم اكتراثه بالمحاولات الطويلة لإرجاع صغاره في ذلك الحطام المهجور من الكتل الطينية المتناثرة وثغرات القذائف الواسعة. ولكني ذات مرة حين تصادف أن ألقيت بنفسي أرضاً في نوع من التعجل كاد أن يكون فوق بعض من صغار العندليب، كان اثنان منهم مصابين تقريباً بشيء ما،

وكانا في حالة محطمة، ولكن الباقين بدوا في حالة من الهدوء والراحة وكأنهم في مأوى معتاد.

وعند ركن من غابة مضروبة ـ أُطلق عليها اسم للتاريخ، لكنها هنا بلا اسم ـ عند اللحظة التي اكتسحتها نيران المدافع الآلية والمتفجرات والقذائف، ومسحتها ناثرة إياها مُزقاً كما لو أن مدفعية فرقة بأكملها قد ركزت نيرانها عليها فجأة، تنسل دجاجة من طيور الصفنج الصغيرة جائرة هنا وهناك بين فروع الشجر المتساقطة والمنشطرة والتي لا تحمل أية أوراق خضراء عليها، ولو أن واحداً من الجرحى الراقدين هناك لاحظ ذلك الطائر الصغير لربما تعجب، لماذا يضطر أي شيء له أجنحة، وليس عليه إجبار في الإقامة، إلى اختيار البقاء بمكان كهذا؟.

وكانت هناك حديقة ثمار محطمة بجوار الغابة المقصوفة، والتفسير المحتمل لوجود هذا الطائر أنه أقام عشاً لصغاره الذين يخشى عليهم الجوع فهو مضطر لإطعامهم، وشديد الإخلاص لهم فلا يقدر على هجرهم. وهامت مجموعة من هذه الطيور داخل الغابة ولا بد أنها كانت تستخدمها عادة كطريق لموارد طعامها، على العكس من الدجاجة الوحيدة، فهذه الطيور لا تخفي رغبتها في الابتعاد حالما تسمح لها «عقولها» المشوشة بذلك.

وكان الطير الآخر الوحيد الذي رأيته هناك هو الماجبي، يطير منخفضاً فوق حطام شجرة منهارة، وتقول الغيبيات القديمة: «المرء للحزن»، وهناك حزن كاف جداً في تلك الغابة.

إن حارس الألعاب الإنجليزي الذي تعتمد معلوماته عن الحياة البرية على أسس محدودة أو مقلوبة عادة، قد اعتنق نوعاً من العقيدة بالنسبة لضعف الأعصاب حتى في أصعب ألعاب الطيور، وطبقاً لمعتقداتي تلك فإن كلب صيد يركض عبر حقل تعشش فيه طيور الصيد، أو صقراً مطارداً للفئران يحوم فوق السور، كفيلان بطرد الطائر المنزعج من فوق بيضه ودفعه للمقاطعة المجاورة بلا توان. ولكن طير «الحجل» في منطقة الحرب لا يبدي أية علامات لمثل هذه التوترات الحساسة، فصليل وقعقعة النقل والذهاب والعودة المستمران لقوات

الجيش، و«اللعلعة» التي لا تتوقف لطلقات البنادق، والانفجارات التي تصم الآذان من المدفعية، والوميض الليلي الطويل والمتأجج للطلقات الكاشفة، كلها لم تكن كافية لإفزاع الطيور المحلية وطردها بعيداً عن موطن طعامها المختار، ومع كل المظاهر لم تتخلف عن تربية صغارها، وربما يكون على حراس الألعاب الذين يخدمون بالألوان، أن ينتهزوا الفرصة للانهماك في دراسة مفيدة صغيرة.

حالة تسمم بالغاز

«"ميسينز ريدج" 7 يونيه/ الصيف 1917 افرنجي»

*** ويليام بريس**

«ظل الألمان من 1915 حتى 1918 افرنجي يستخدمون سلسلة من الغازات السامة: الكلوراين، والفوسجين وغاز الخردل، كل منها ضوعف على عجل فوق خط الحلفاء».

. . . بقينا نطلق النار معظم الليل، وكان الألمان يردون بالقذائف والمتفجرات الشديدة وقنابل الغاز، ومع الصخب المرعب والوميض المختلط لنيران الأسلحة، أو تصادف أن حدث سكون لدقائق قليلة فقط وأنت تستند على شيء ما لاضطررت لإغلاق عينيك وغرقت في النوم، وقرب قدوم النهار أخبرونا بأن نرتاح، فغُصنا في الخنادق.

خلعت سترتي وحذائي، ثم أخذني نوم عميق فوراً وأيقظني صوت حطام مرعب، ووجدت السقف ساقطاً فوق صدري وساقي، ولم أتمكن من تحريك شيء إلا رأسي، ففكرت بنفسي، «إذن هكذا الأمر»، ووجدتني لا أستطيع التنفس ثم سمعت أصواتاً. كان هناك رفاق آخرون يرتدون القناع الواقي من الغازات ويبدو عليهم الخوف تحت نصف الضوء القادم من النهار، وكانوا يرفعون الخشب من فوقي وواحد يدفع قناعاً واقياً فوق وجهي، حتى وأنت سليم تماماً فإن ارتداء قناع واق لا يُعد شيئاً مريحاً، فأنفك مضغوط وتمتص الهواء عبر عبوة من الكيماويات، وبينما أنا أختنق بالفعل أذكر محاولتي مقاومة ارتداء هذا القناع.

وثاني شيء عرفته، أنني كنت أحمل فوق نقالة ونمر بضباطنا على مسافة ما من المدافع، فسمعت واحداً يسأل: «من هذا؟ فأجابه شخص: «المدفعي بريس، يا سيدي». ثم «يا للجحيم» ووضعوني في إسعاف وأخذوني للقاعدة، حيث تركونا فوق النقالات جنباً بجنب على أرضية الخيمة الكبيرة، وفيما بين كل منا اثنتا عشرة بوصة، وأعتقد أنني كنت شبيهاً بنوع من الأسماك خاصة بفمي المفتوح طلباً للهواء، وبدا كأن رئتي تنغلقان وقلبي يدق بعيداً في أذني مثل دق الطبول، وعند رؤيتي للفتى المجاور لي شعرت بالغثيان، إذ كانت تنسل من فمه مادة خضراء على الجانب.

ولكي أُدخل الهواء لرئتي، كنت أشعر بألم هائل، وكلما قل حصولي على الهواء كلما قل الألم، فتجرعت منه على فترات قصيرة، لكن بدأ الأمر يحدث اضطراباً ما، ولتخفيف الألم بصدري، ربما أكون قد أوقفت تنفسي بصورة لا واعية حتى أيقظتني دقات قلبي، وكنت - دائماً - أعجب حين أجد نفسي مستيقظاً، إذ كنت متأكداً بأنني سأموت أثناء نومي، وكان ما يُعرف لعلاج الغازات المختلفة شيء قليل، حتى إنني لم أتناول أبداً علاجاً لغاز الفوسجين وهو نوع الغاز الذي اعتقدت أنني تعرضت له، وأنا أعتقد أن الغاز الذي تعرض له الرفاق الآخرون كان أسوأ من غاز الفوسجين، وفيما بين فترة وأخرى كان جنود الخدمات يقومون بإخراج نقالة.

موقعة لانجمارك

«27 أغسطس/ هانيبال 1917 افرنجي»

*** إدوين كامبيون فوجان**

كنا نترنح صاعدين الطريق والقنابل تنفجر حولنا، وتوقف رجل أمامي متجمداً، ومع تعبي لَعَنتُه ودفعته بركبتي، فقال بأدب شديد: «إنني أعمى يا سيدي». واستدار إليّ ليريني عينيه وأنفه وقد تمزقا بفعل شظية فقلت: «يا إلهي،

إنني شديد الأسف يا بني، واصل السير على الطريق الصلب». وخلفته يترنح ورائي وسط ظلمته.

عند مفترق الطرق كان القصف أخف، وطلقات البنادق بعيدة فوق رؤوسنا وفيما حولنا موتى كثيرون، وفي حُفَر القنابل كان هناك الكثير من الجرحى حيث تكوموا طلباً للأمان، في حين كان كثير من الآخرين لشدة ضعفهم عن الحركة، يرقدون حيث يسقطون، ويشجعوننا في وهن ونحن نمر بهم: «استمروا أيها الفتيان، ! أحرقوهم»، وقفز بعض من الجنود الجرحى التابعين للفرقة الثامنة «ورشستر» والسابعة «وارويكس» من حفر القنابل ليلحقوا بنا.

وهزت إحدى الدبابات طريقها ببطء مستديرة خلف «سبرنجفيلد» وفتحت نيرانها، وبعد لحظة نظرت فلم أجد باقياً منها شيء سوى كوم مجعد من الحديد، فقد قصفت بقنبلة ضخمة. أضحت الدنيا ظلاماً تقريباً، ولم يعد هناك ضرب من العدو، وخائضاً عبر آخر مرحلة من الطين رأيت قنابل يدوية تنفجر حول أحد المخابىء،وتندفع داخله مجموعة من الجنود البريطانيين.

وبينما نحن جميعاً محاصرون، اندفعت الدورية الألمانية وأيديهم مرفوعة، ووسط فوضى الجماعة تعرفت على «رينولدز» من السرية السابعة، الذي كان متقدماً طوال ما بعد الظهر، وأرسلنا الستة عشر أسيراً للخلف عبر منطقة مكشوفة، لكنهم ما إن ساروا مائة ياردة فقط حتى حصدهم مدفع آلي ألماني. قمت أنا ورينولدز بعقد اجتماع سريع، وقررنا أن المقبرة ومزرعة المنطقة بعيدة وقوية التحصين بالنسبة إلينا حين مهاجمتها، خاصة وأن الظلام قد هبط تماماً عندئذ، لذا شكلت طابوراً بجماعتي على اليسار متصلاً بجنود الـ «ورشستر» الذين تقدموا حوالى 300 ياردة أبعد منا.

وشكل رينولدز جناحاً للحماية خلف الطابور حيث نفذ هجومنا، ودخلت حصناً قوي البناء، غير مُدمَر تقريباً، وأسوار دفاعه الثلاثة بسمك عشرة أقدام، على كل منها موقع لمدفع آلي، في حين يوجد بالسور الرابع الذي واجه خطنا الجديد، ممر باب صغير مربعه حوالى ثلاثة أقدام، وبعدما زحفت عبره وجدت

داخله في فوضى مذهلة، ماء تطفو فوقه نفايات لا يمكن وصفها ويصل حتى ركبنا، وجثتان لاثنين من الألمان ممددتان ووجههما لأسفل، وأخرى راقدة فوق سرير من السلك، وقذارة في كل مكان وفضلات حتى إن العفونة كانت منفرة.

وعلى مربض واحد من المدافع الآلية، رقد ضابط ألماني مغمى عليه مرتدياً وسامين شرائطهما باللونين الأبيض والأسود، ورجله اليسرى ممزقة والعظام متطايرة، ويربطها بجسمه قليل من أنسجة اللحم والعضلات، وكان على الساق رباط ضاغط لكنه انزلق وتصبب منها الدم، فبدأت ـ على الفور ـ إعادة الرباط مكانه وفور إيقاف الدم، أفاق وحملق في الزي العسكري البريطاني الذي أرتديه بانزعاج، وحاول المقاومة لكنه كان غير قادر على ذلك، وبعد طمأنته، أرحته ووفرت له مسنداً من «مخلاة» جندي ألماني، وسألني في إعياء عما حدث، فأخبرته مستخدماً المصطلح العسكري الألماني: «لقد مات رفاقك»، عندها ألقى برأسه خلفاً في استسلام مثير للشفقة، فقدمت إليه «زمزمية» مائي، لكنه حين اشتم فيها رائحة خمر لم يلمسها، ولا أخذ ويسكي من قنينتي، وحينما قدم إليه أحد جنودي ماءً تجرعه بنهم، ثم بدأ ينتفض ويتلوى ويدور حتى إن رجله كانت تتدحرج فوق الأرضية مجرورة من فخذه، فرفعتها فوق ركبتي وحركتها بلطف معه حتى رقد هادئاً في النهاية.

وكان فوق أحد الأسرة مصباح كشاف ألماني فأرسلت زميلاً للخارج كي يعطي إشارة لخطوطنا ـ الجماعة الثامنة «وأرويك» في «سبرنجفيلد» ـ، وأرسلها عدة مرات بلا مجيب، وأصبح كل شيء حولنا هادئاً الآن، لكن الألمان ما زالوا يقصفون طريق «سانت جوليان»، وفجأة سمعت حركة عند ردهة الباب، وزحف زميلان إلى الداخل يجران نقالة ثم رفعاها فوق السرير السلكي أمامي، كان ضابطاً من المجموعة الثامنة «ورشستر» حياني بمرح، فسألته «أين أصبت»؟، قال: «في الظهر قرب العمود الفقري، أتستطيع تحريك قناع الغاز من تحتي؟» فقطعت حقيبته وسحبتها، عند ذاك طلب سيجارة فقدم «دنهام» واحدة له وضعها بين شفتيه، وأشعلت عوداً ورفعته أمامه، لكن السيجارة سقطت على صدره ومات.

التقطت بندقية ألمانية آلية من السرير وحين فحصتها انطلقت منها رصاصة أصابت الإسمنت بالقرب من رأس الألماني، فبدرت منه حركة مفاجئة والتفت إليَّ، وابتسم بوهن حين أدرك أنها مصادفة، ثم حاول أن يصل لجيب سُترته، فمددت يدي إليه بدلاً منه وأخرجت ثلاث قطع من السكر، وبعدما أخذها بيده المرتعدة، سقطت منه واحدة في الماء، فنظر إليها بحسرة ومد لي واحدة كانت متكسرة ومشبعة بالدماء، لذا زحلقتها إلى جيبي وأنا أتظاهر بأكلها، وقدمت له بعضاً من الخبز واللحم فلم يأكل منه شيئاً، لكنني أكلت بنهم وأنا جالس فوق السرير السلكي، وقدماي في الماء ويداي مغطيان بالوحل والدماء.

بدأت القذائف الآن، تنهال علينا مزمجرة محطمة من مدافعنا نحن، في حين أخذت مدافع الألمان ـ بدورها ـ تقصف خطوطهم هم، وكنت أحتفظ في «مخلاتي» طوال ذلك الوقت بكنز ثمين ـ أخرجته الآن علبة سجائر «100 عبد الله» المصرية الصنع، وكنت فتحت العلبة حين سمعت صوت بنادق تنطلق في الخارج وصوتاً يصرخ: ـ «ألمان قادمون يا سيدي». وتطايرت السجائر في الماء وأنا أهرول بنفسي عبر ردهة الباب، وعدوت قدماً نحو الظلام حيث كان جنودي يطلقون النار، وجريت وسط مجموعة من الألمان تقريباً فصحت في الحال «أوقفوا النيران» إذ كانوا غير مسلحين ويقدمون علامة الاستسلام.

كان المساكين خائفين، ولشكي في خدعة ما، حملقت في العتمة أثناء توقيفي لهم أمام الحائط بمسدسي، فظنوا أنني سأقتلهم، فركع جندي صغير على ركبتيه مغمغماً بكلمات عن زوجته وعن «طفله» ولما تقدمت قليلاً، وجدت أن العديد من الجماعة قد ماتوا، كما مات آخر وأنا أسحبه للداخل، وتحلق الأسرى حولي مبللين مكسوري الخاطر، وأخبروني بالوقت الرهيب الذي قضوه، دائماً قذائف وقنابل لا تتوقف، وقالوا: إن جميع رفاقهم يودون لو حضروا معهم، ولم أتمكن من توفير رجل يعود بهم للمؤخرة، لذا وضعتهم في حفرات القنابل مع رجالي فجعلوا منهم تسلية كبيرة وشاركوهم النزر اليسير من مؤونتهم.

وعند عودتي للحصن وجدت الضابط الألماني ثرثاراً تماماً، إذ أخبرني كيف

أبقى فصيلته مستمرة في القتال ولم يسمح لهم أبداً بالاستسلام، ورآنا نتقدم، وكان يصوب مدافعه نحونا حين اخترقت قذيفة من دبابة خلفه باب الموقع، فقتلت اثنين ونسفت ساقه، ثم خفت صوته وراح في غيبوبة، وهكذا خرجت ثانية إلى العراء وسرت بطول مواقعنا.

ما زالت بعض القنابل الثقيلة تنطلق من حولنا، ولكن صوتاً أكثر رعباً بدأ الآن يصل أذني، فمن وسط العتمة في كل الاتجاهات نحيب وأنين الجنود الجرحى، خافتاً، طويلاً، أنات تشهق ألماً، وصرخات يائسة، وكان واضحاً لدرجة الفزع أن عشرات الرجال بجراح خطيرة قد زحفوا داخل حفرات قنابل جديدة التماساً للأمن ويرتفع الماء الآن حولهم، ولكونهم لا يملكون قدرة على الحركة يغرقون ببطء شديد، وتراءت لي صور مخيفة مصحوبة بتلك الصرخات لرفاقي «وودز» و «كنت» و«ايدج» و «تايلور» معاقين هناك ـ آملين أن يجدهم رفاقهم ـ يموتون الآن بشكل مفزع بمفردهم بين الموتى وسط الظلمة القاتمة، ولا نملك شيئاً لمساعدتهم، وكان «دونهام» يبكي في صمت بجواري، وتأثر كل الجنود بتلك الصرخات المثيرة للأسى.

إعدام «ماتاهاري»

«18 أكتوبر/التمور 1917 افرنجي»

*** هنري جـ. ويلز**

«كانت «ماتاهاري» ـ المولودة عام 1876 افرنجي ـ جاسوسة مزدوجة بشكل واضح، ولكن مدة نشاطها الجاسوسي ظلت غير مؤكدة».

. . إن اسم «ماتاهاري» يعني في اللهجة الجاوية «عين الصباح» وهي قد ماتت رمياً بالرصاص كجاسوسة بواسطة فصيلة إعدام من الزواف في معكسر «ڤينسن باراكس»، ماتت وهي تواجه الموت بالمعنى الحرفي للمواجهة، لأنها رفضت تغطية عينيها. جيرترود مارجريت زيلي، ذلك كان الاسم الحقيقي للراقصة

الهولاندية ـ الجاوية الجملية، قامت بتقديم التماس للرئيس بوانكاريه لتخفيف الحكم، لكنه رفض التدخل.

كانت أول بادرة تلقتها لتنبئها بأن التماسها رفض حين اقتيدت عند مطلع النهار من زنزانتها في سجن «سانت لازار» إلى سيارة كانت في انتظارها لتنطلق بها نحو المعكسر حيث كانت فصيلة الإعدام في استقبالها.

لم تخن الإرادة الحديدية تلك المرأة الجميلة مرة واحدة أبداً، دخل الأب «آربو» مصحوباً براهبتين متطوعتين والكابتن بوشاردون، والسيد كلونيه «محاميها» إلى الزنزانة، حيث ما زالت نائمة نوماً هادئاً غير مضطرب، وقد لاحظ ذلك حراس السجن وأمناؤه، وقامت الأختان بهزها برفق فنهضت، وأخبروها بأن ساعتها قد حانت. وكان كل ما طلبته «هل يمكنني كتابة خطابين؟» ومُنحت الموافقة على الفور بواسطة الكابتن «بوشاردون» وأعطوها قلماً وحبراً، وأغلفة وورقاً.

جلست على حافة الفراش وكتبت الخطابين بسرعة محمومة، وسلمتهما أمانة لدى محاميها، ثم ارتدت جواربها من الحرير الأسود الشفاف، أمر غريب في تلك الظروف، ولبست حذاءها ذا الكعب العالي في قدميها، وربطت الشرائط الحريرية فوق صفحة القدم، ونهضت آخذه العباءة الطويلة السوداء ـ من القماش المخملي وعلى أطرافها من أسفل ذُيلت بالفراء، وياقة ضخمة مربعة من الفراء مدلاة أسفل الظهر ـ، من فوق مشبك أعلى سريرها، وارتدت تلك العباءة فوق «الكيمونو» الحريري الثقيل الذي كانت ترتديه فوق ملابس النوم.

كان شعرها الكث الأسود ما زال ملفوفاً حول رأسها في ضفائر، فوضعت قبعة سوداء صوفية ذات حافة بها شريط حريري أسود وقوس، وببطء ولا مبالاة ـ كما بدا ـ ارتدت زوجاً من القفازات السوداء الصغيرة ثم قالت بهدوء: «أنا مستعدة»، وشكلت المجموعة طابوراً خارجاً من زنزانتها إلى السيارة المنتظرة، وأسرعت السيارة مخترقة قلب المدينة النائمة، وكانت الساعة بالكاد الخامسة والنصف صباحاً والشمس لم تكتمل في صعودها بعد، ودارت السيارة مباشرة عبر

باريس إلى «كاسيرن دوفنسن» وهي عنابر القلعة القديمة التي حطمها الألمان عام 1870 افرنجي.

كان الجنود قد اصطفوا مستعدين تماماً للتنفيذ، الاثنا عشر جندياً من الزواف ـ وهم تشكيل فصيلة الإعدام ـ وقفوا صفاً، وبنادقهم في الوضع استرح، ووقف خلفهم صف ضابط شاهراً سيفه. توقفت السيارة وهبطت المجموعة، كانت آخرهم «ماتاهاري» وسارت المجموعة مباشرة نحو المكان، حيث ترتفع قطعة من الأرض سبعة أو ثمانية أقدام وتوفر خلفية صد للطلقات التي قد تخطىء الهدف البشري، وبينما يتحدث الأب «آربو» مع المرأة المدانة اقترب ضابط فرنسي يحمل قطعة قماش بيضاء، وقال هامساً للراهبتين اللتين وقفتا هناك: «الغمامة». وسلمها لهما، فسألت «ماتاهاري»: «أيجب أن أرتدي هذي؟» وهي تستدير لمحاميها وعينها تلمح الغمامة، فالتفت السيد «كلونيه» للضابط الفرنسي مستفسراً، وأجاب الضابط: «إذا لم تفضل السيدة ذلك، فالأمر لا يهم». وهو يعود مسرعاً.

لم تُقيد «ماتاهاري» ولم توضع الغُمامة على عينيها، بل وقفت تحدق في ثبات في قاتليها، حين ابتعد عنها الراهب والأختان مع محاميها، . . . أما الضابط المسؤول عن فصيلة الإعدام والذي كان يراقب رجاله كالصقر لئلا يقوم أحد بفحص بندقيته محاولاً كشف إذا ما كان هو الشخص المكتوب له إطلاق الرصاص الكاذب الذي يوجد في خزنة بندقية واحدة، فقد بدا عليه الارتياح لاقتراب نهاية مهمته.

وبصدور أمر حاد مدوٍ، اتخذ صف الجنود وضع الانتباه الثابت، وبأمر آخر ارتفعت معه البنادق إلى أكتافهم، وحملق كل جندي عند طرف ماسورة بندقيته باتجاه صدر المرأة الهدف، فلم تهتز لها عضلة، وتحرك صف الضابط المسؤول إلى موقع بحيث يتمكن الجنود من رؤيته فيه بركن أعينهم، وامتد سيفه في الهواء ثم سقط، والشمس ـ كانت حينذاك قد عَلَتْ ـ تومض فوق نصله المصقول كما لو كانت ترسم قوساً أثناء هبوطه، وتلقائياً دوى صوت دفعة النيران، وخرج لهب

وحلقة رقيقة من الدخان الرمادي أمام فوهة كل بندقية، وتلقائياً أنزل كل جندي سلاحه كذلك.

وفي التقرير، سقطت ماتاهاري، ولم تمت كما يحاول الممثلون ونجوم السينما إقناعنا بأن الناس يموتون حين يُضربون بالرصاص، ولم تقذف ذراعيها ولم تتمدد أرضاً للأمام أو الخلف، فبدلاً من ذلك بدا عليها الانهيار ببطء وداخلياً، ثم وقعت على ركبتيها ورأسها عالياً دائماً، ودون أدنى تغيير في ملامح وجهها، ولجزء من الثانية بدت كما لو كانت تتأرجح هناك على ركبتيها، محملقة في أولئك الذين أخذوا حياتها، وعندئذ سقطت للخلف محنية عند وسطها وساقاها ملتويتان أسفلها، ورقدت منكفئة بلا حراك، ووجهها ملتفت نحو السماء.

وسحب ضابط صف ـ كان يصطحب الملازم ـ مسدسه من حمالته السوداء الملفوفة حول وسطه، وانحنى فوقها، وصوب فوهة المسدس تقريباً ـ وليس تماماً ـ فوق الصدغ الأيسر للجاسوسة وجذب الزناد، وشقت الرصاصة طريقها إلى مخ المرأة.. وماتت ماتاهاري.. فعلاً..

صحفي أمريكي يحضر اجتياح قصر الشتاء

«سانت بطرسبورج 7 نوفمبر 1917 افرنجي»

*** جون ريد**

«بعد خلع القيصر نيقولا الثاني، حاولت الحكومة المؤقتة إبقاء روسيا في الحرب، ولكن برنامج الإصلاح البلشفي عن «السلام والأرض والخبز» حاز تعضيداً شعبياً، ويوم 7 نوفمبر، استولت انتفاضة بلشفية شبه بيضاء على مباني الحكومة ومراكز البرق، والأماكن الاستراتيجية الأخرى».

أنصببنا سيلاً كنهر أسود نملأ الشوارع بلا نشيد أو هتاف عبر «ريد آرك»، حين قال الرجل الذي أمامي مباشرة بصوت خفيض: «انتبهوا، أيها الرفاق لا تثقوا

بهم، فلسوف يطلقون النار بالتأكيد». فبدأنا نجري في العراء وننحدر لأسفل ثم نتجمع معاً، ثم نتجمهر فجأة خلف قاعدة عمود «أليكساندر»، بعد دقائق قليلة ونحن نتكوم هناك بضع مئات من الرجال، بدا أن الجيش لن يطلق نيرانه، وبدون أية تعليمات بدأنا التتابع للأمام، وبحلول ذلك الوقت، استطعت أن أرى - في الضوء المنهمر من جميع نوافذ قصر الشتاء - أن أول مائتين أو ثلاثمائة من الجنود كانوا من «الحرس الأحمر» مع قليل من الجنود المتناثرين، وصعدنا حاجزاً من خشب النار، وأطلقنا صيحة انتصار ونحن نقفز لأسفل من الداخل ونتعثر بكوم من البنادق ألقاها الجنود الصغار الواقفون هناك، وعلى كلا جانبي ممر البوابة الرئيسية انتصبت الأبواب مفتوحة على اتساعها، وغمر الضوء خارجها، ومن الكوم الهائل لا تجد أدنى بادرة صوت.

دفعتنا موجة الرجال المتلهفين فانزلقنا ناحية المدخل الأيمن، الذي يؤدي إلى حجرة مقببة ضخمة عارية، إنها قبو الجناح الشرقي تتفرع منها متاهة من الممرات والسلالم. ويمتد عدد من صناديق المتاع حولنا، وانقض على تلك الصناديق رجال الحرس الأحمر والجنود بوحشية يهشمونها «بدباشك» البنادق، ويخرجون السجاجيد والستائر والقماش والخزف والأطباق ومشغولات الزجاج. ومضى رجل متبختراً يحمل ساعة حائط برونزية ممددة فوق كتفه، ووجد آخر ريشة نعام فألصقها بقبعته، وكان النهب قد بدأ لتوه حين صاح شخص ما: «أيها الرفاق، لا تأخذوا أي شيء، فتلك ملكية الشعب». وعلى الفور كان عشرون صوتاً يتصايحون «توقفوا! أعيدوا كل شيء لموضعه، لا تأخذوا أي شيء! فالملكية للشعب». وامتدت أيد كثيرة لتسحب المفسدين، فانتزعت الفُرش والحرائر الدمشقية من أيدي سارقيها، وأخذ رجلان الساعة البرونزية من حاملها، وبعنف وسرعة رُدت الأشياء مكومة في صناديقها، ووقفت حراسات متطوعة من ذاتها، وتم كل ذلك إرادياً.

وعبر الأبهاء والسلالم، يمكنك أن تسمع صيحة تخبو شيئاً فشيئاً على المدى: «الالتزام الثوري! ملكية الشعب» وعدنا مارين بالمدخل الأيسر في الجناح

الغربي، وكان النظام قد ساد هناك أيضاً، وصاح أحد الرجال من الحرس الأحمر مزمجراً: «أخلوا القصر، هيا يا رفاق، ولنُبين أننا لسنا لصوصاً ولا نهّابين، على كل شخص مغادرة القصر عدا المفوضين، حتى يتم تعيين الدوريات». قالها وهو يلصق رأسه خلال باب جانبي.

ووقف اثنان من الحرس الأحمر - جندي وضابط - شاهرين مسدسيهما، وجلس جندي آخر خلف منضدة وراءهما ومعه قلم وورقة، وكانت صيحات من قبيل «الجميع خارجاً، الجميع خارجاً» تسمع بعيداً وقريباً داخل القصر، وبدأ الجيش ينهمر من الباب طارداً ومناقشاً ومُقنعاً، وكلما ظهر شخص تمسكه اللجنة ذاتية التشكيل، وتقوم بتفتيش جيوبه وتحت معطفه، وأي شيء يبدو غير خاص به - بصورة واضحة - يؤخذ منه، ويسجله الرجل الجالس إلى المنضدة في ورقته ثم يُنقل إلى حجرة صغيرة.

وأكثر الأشياء المصنفة مدعاة للدهشة والتي استولي عليها بهذه الطريقة هي: تماثيل صغيرة، زجاجات حبر، ملاءات سرير مشغولة بالأحرف الإمبراطورية الأولى، شموع، لوحة زيتية صغيرة، نشافات الحبر، سيوف بأيدٍ ذهبية، قطع الصابون، وملابس من كل صنف، وبطاطين.

وحمل أحد رجال الحرس الأحمر ثلاث بنادق، استولى على اثنين منهم من جنود الحراسة الصغار، وكان مع واحد آخر أربع من حافظات الأوراق منتفخة بالوثائق، وكان المتهمون إما يستسلمون بتجهم أو يتوسلون كالأطفال رغم كل الحديث الذي كانت اللجنة تشرحه أن السرقة ليست حقاً لأبطال الشعب، وغالباً ما استدار أولئك - الممسكون - وبدأوا محاولة الخروج مع بقية الرفاق.

وبرز جنود الحراسة في مجموعات، ثلاث أو أربع بكل مجموعة، فشددت عليهم اللجنة التفتيش بمزيد من الحماس، وصاحب البحث عبارات مثل: «ها أنتم يا أعداء الثورة، يا قتلة الشعب». ولكن لم يحدث أي عنف، ورغم أن جنود الحراسة كانوا مرعوبين إلا أن جيوبهم كانت ممتلئة بأسلاب صغيرة، تم حصرها وتدوينها جيداً في السجل وتكومت في الغرفة الصغيرة، وكانوا غير مسلحين،

فسألهم أشخاص عديدون: «هل سترفعون السلاح بوجه الشعب بعد ذلك؟». وأجابوا واحداً وراء الآخر: «لا . .» وعلى ذلك أطلقوهم أحراراً.

واستفسرنا عن إمكانية دخولنا، وكانت اللجنة مترددة، لكن واحداً ضخماً من الحرس الأحمر أجاب بحزم أن ذلك ممنوع. ثم سأل: «وعلى كل، من أنتم؟». وكيف لي أن أعلم أنكم جميعاً لستم من مجموعة «كيرنسكي؟». «كنا خمسة رجال وامرأتين». عندئذ ظهر جندي مع واحد من الحرس الأحمر: «أفسحوا الطريق يا رفاق» وهو يزيح الجمهور جانباً، ثم جنود آخرون بحراب مشرعة، وتبعهم طابور مُفرد من ستة رجال بالزي المدني، إنهم أعضاء الحكومة المؤقتة، أولاً أتى «كيشكين» بوجه مأخوذ وشاحب ثم «روتنبرج» وهو ينظر بجهامة نحو الأرض، تلاه «تيريستشنكو» ناظراً بحدة فيما حوله وحملق فينا ببرود ثابت، ومروا في سكون، في حين تجمع المتمردون المنتصرون للمشاهدة، ولكن تردد قليل من الغمغمات الغاضبة، فقط، علمنا فيما بعد أن الشعب أراد محاكمتهم في الشارع، وأن هناك نيراناً أطلقت، ولكن البحارة يحضروهم سالمين إلى «بيتربول».

في نفس الوقت سرنا ـ بلا حظر ـ إلى داخل القصر، فما زال هناك عدد كبير يأتي ويذهب، واكتشاف حجرات مستحدثة في ذلك الصرح الشامخ، والبحث عن دوريات الحرس المختفية وهي لم توجد، وصعدنا السلالم لنتجول حجرة بعد الأخرى، وقد دخلت هذا الجزء من القصر فصائل أخرى من مجموعة «نيڤا»، وظلت اللوحات والتماثيل والسجاجيد والفُرش بالحجرات الرسمية الضخمة سليمة لم تُمس، أما في المكاتب، فكل طاولة ودرج قد تم تفتيشها جيداً، وتناثرت الأوراق فوق الأرضيات، وفي حجرات المعيشة نزعت الأغطية من الأسرة وفتحت أبواب الدواليب عنوة، وكانت أغلى الأسلاب قيمة الملابس التي احتاجها العمال، وفي حجرة كان فيها أثاث مخزون، شاهدنا جنديين يقومان بنزع الغطاء الجلدي الأسباني الدقيق الصنع من المقاعد، وشرحوا لنا أن ذلك لعمل أحذية لهم.

وتوزع خدم القصر بأزيائهم الزرقاء والحمراء والذهبية واقفين في عصبية وهم يكررون بحكم العادة: «لا يمكنك أن تدخل، ممنوع! غير مسموح». وفي النهاية اخترقنا الطريق للحجرة الذهبية ذات الطلاء المعدني الأخضر، مع ستائر حريرية «كريمية» اللون حيث كان يعقد الوزراء اجتماعاتهم طوال ذلك اليوم وليله، حين خانتهم جماعة «شفيتساري» للحرس الأحمر.

وكانت المنضدة الطويلة المغطاة بمفرش خشن أخضر ما زالت على حالها التي غادروها عليه وهم رهن الاعتقال، وأمام كل مقعد خال يوجد قلم وحبر وورق، وقد خُط فوق الورق بدايات تخطيطات العمل، ومسودات لإعلانات وتصريحات مختلفة، .وقد نُزع معظم تلك الأوراق، إذ أصبح عدم جدواها واضحاً، وتغطت بقية الصفحات بتصميمات هندسية مشوشة، كما لو كان كُتَّابُها قد جلسوا بانكسار ينصتون، والوزراء واحد وراء الآخر يقترحون خططاً خرافية، وتناولت واحدة من تلك الصفحات المخطوطة، بخط يد «كونوڤالوڤ» وكانت تُقرأ: «إن الحكومة المؤقتة تناشد كل الطبقات مساندة الحكومة المؤقتة».

في سجن بريسلاو

«ديسمبر/ الكانون 1917 افرنجي»

*** روزا لوكسمبرج**

«كانت روزا لوكسمبرج «داعية السلام والثورة الاجتماعية» قد سجنت عدة مرات، ثم اغتيلت ـ فيما تلا ذلك ـ بواسطة عناصر من اليمين الألماني يوم 15 يناير 1919 افرنجي». .

. . . ها أنذا راقدة في زنزانة مظلمة فوق فراش صلب كالصخر، ويسود المبنى الهدوء ـ الأشبه بالكنسي ـ المعتاد، وكأن المرء قد قُبر فعلاً، وعبر النافذة هناك تسقط التماعة ضوء من المصباح المضاء طوال الليل أمام السجن، وأستطيع أن أسمع صخب قطار مار في خفوت على المدى، أو الكحة الجافة لحارس السجن بالقرب مني، وهو يخطو خطوات بطيئة قليلة في حذائه الثقيل ليفرد أطرافه، وكان

لقرقعة الحصى تحت أقدامه صوت شديد اليأس حتى لتشعر أن همّ وعبث الوجود يبدو وقد شعّ منه نحو كآبة الليل ولزوجته، وأنا أرقد هنا وحيدة، وفي صمت تغلفني غلالات العتمة السوداء المتكاثرة، والإرهاق والقيد والشتاء.

ورغم ذلك ينبض قلبي بفرح غير مفهوم ولا يقاس، فرح داخلي، تماماً كما لو كنت أسير تحت أشعة الشمس الباهرة عبر مراع مزهرة ووسط الدجى أبتسم للحياة، كما لو كنت أملك سحراً يمكنني من تحويل كل ذلك الشر والألم إلى صفاء وسعادة، ولكنني حين أبحث في ذهني عن سبب هذا الحبور، لا أجد سبباً، وأضحك على نفسي فقط، وأعتقد أن مفتاح ذلك اللغز ببساطة هو الحياة نفسها، فذلك الدجى البهيم من الليل رقيق وجميل كالمخمل، لو أن المرء ينظر إليه بصورة سليمة فقط، وقرقعة الحصى الرطب تحت خطوات السجان البطيئة الثقيلة تشبه أنشودة صغيرة محببة للحياة.. وذلك لمن له آذان فيسمع.

اشتباك للفرسان الفرنسيين

«26 مارس/ الربيع 1918 افرنجي»

*** ويليا بريس**

في صباح اليوم الخامس، رأينا فرساناً على كلا جانبينا أسرعوا في عجلة لاهبة، بينما القذائف تتبعنا ونحن نسرع حثيثاً عبر قرية ثم هبطنا نحو ممر يصعد تلاً، وبعيداً عن مرأى الألمان فوق هذا التل، كنا نسير بمحاذاته حين رأينا مشهداً لا يُنسى. كانت فرقة من الخيالة الفرنسية قادمة نحونا، قد أقول مائة وخمسون أو مائتان من الأشداء، يالله، إنهم يبدون رائعين، وأعتقد أن خبراً عن الفرسان الألمان ـ الذين يطاردوننا وهم قادمون لوضع حد لذلك ـ لا بد وصلهم، ولا يمكن أن يكون هناك من أخبرهم عن المدافع الآلية، ضحكوا ولوّحوا برماحهم لنا، وهم يتصايحون: «الألمان انتهوا». ويا للوحة التي شكلوها بضوء الشمس البارق فوق رماحهم. وخففنا السير وهم يركضون بجد، وكان كل واحد ينظر للخلف نحوهم.

وقبل أن يصلوا قمة التل تباعدوا، لتبقى مسافة ستة أقدام بين كل جواد، وفي خط مستقيم، وتعلقت أنفاسنا: ففوق التل اتخذوا وضع الاشتباك، والرماح مُشرعة. . ولم يصدر منا صوت البتة، وبعد ثوان قليلة فقط من اختفائهم، دوت الرعود الجحيمية للمدافع الآلية، فنظرنا بعضنا للبعض، وكانت الكلمات الوحيدة التي قيلت: «يا للجحيم. .» وذلك ما كان لا بد قائم فوق ذلك التل، إذ لم يعد ولا رجل واحد، وإن فعلت بعض جيادهم، وركضت بجوارنا، وجمعناها عند نقطة توقفنا التالية.

موت شقيق

«15 يونيه/ الصيف 1918 افرنجي»

*** ڤيرا بريتين**

كنت أعلنت لوالدي ـ تواً ـ ونحن نجلس للشاي في حجرة الطعام، أنني يجب أن أنهي أوراق إدوارد فعلاً، وآخذها لمكتب البريد قبل أن يغلق لعطلة نهاية الأسبوع، حين صدر دق عال مفاجىء من «دقاقة» الباب الأمامي التي تعني دائماً أن هناك برقية.

ولوهلة ظننت أن ساقاي لن تحملاني، لكنهما تحركتا طبيعياً وأنا أقوم ذاهبة للباب، لقد كنت أعلم ما في البرقية ـ علمت طوال أسبوع ـ ولكن لأن الأمل الناشب بقلب الإنسان يرفض السماح لتأكيد حدسي بإقناع العقل حول ما يعلمه، قمت بفتح البرقية وقرأتها في قلق ممزق حاد: «نأسف أن نعلمكم بأن النقيب إ.هـ. بريتين «الحائز على وسام الصليب العسكري» قد قتل في اشتباك بإيطاليا، 15 يونيه».

وقلت لساعي البريد: «ليس هناك رد»، ثم سلمت البرقية لوالدي، الذي تبعني إلى الصالة، وأثناء رجوعنا لحجرة الطعام، رأيت كما لو أنني لم أشاهد كل ذلك قبلاً، وحوض زهور «الديلفنيوم» على الطاولة وألوانها صارخة، حيوية، متطايرة، وبدت أكثر إشعاعاً من أية زهور أرضية.

عندئذ تذكرت أننا يجب أن نهبط لـ «بورللي» ونخبر أمي، وفي ساعة متأخرة من ذلك المساء، أعادنا عمي جميعاً إلى شقة خاوية، فقد أتاح موت إدوارد ورحيلنا المفاجىء للخادمة ـ وكانت عاهرة هاوية في ذلك الوقت ـ فرصة ملائمة لعدة ساعات قلائل من الحرية انتهزتها بسرعة، حتى إنها لم تنته من مناشف المنزل التي كنت غسلتها ذلك الصباح وانتويت كيها بعد تناول الشاي. وحين ذهبت للمطبخ، وجدتها ما زالت معلقة صلبة كلوح الخشب، فوق حامل الملابس بالقرب من النار حيث كنت تركتها تجف، وبعد ذهاب الأسرة للنوم بوقت طويل، وساد الكون سكون تام، تسللت إلى حجرة الطعام لأنفرد بصورة «إدوارد»، وبالقرب من الباب أضأت النور بحذر، وتطلعت لوجه الصورة الشاحب شديد الإباء، شديد الإصرار، يمتلىء بالمأساوية، لقد مر بالكثير أبعد كثيراً مما مر به أولئك الأصدقاء المحببون الذين ماتوا في مرحلة مبكرة تاركينه وحيداً ليعاني ألم فقدهم في تلك الحرب التي لا تنتهي، وربما منحه القدر قليلاً ـ عزاءً موجعاً للأحياء ـ فرصة ليؤلف موسيقاه البديعة إحياءً لذكراهم، وبدا ذلك سخرية أخيرة ـ حقاً ـ أن يموت بيد رجال وطن الموسيقار «فريتز كريسلر» عازف الكمان الوحيد الذي أعجب به من بين كل عازفي هذه الآلة.

وفجأة وأنا أتذكر كل الأمسيات والسهرات حين كنت أتابعه على البيانو وهو يعزف على آلة الكمان، أضحت عينا الصورة الحزينتان القلقتان مفعمتين بأكثر مما أحتمل، فسقطت على ركبتي أمامها وبدأت بالبكاء: «إدوارد، أخي إدوارد». في تكرار ذاهل، كما لو أن بكائي المتواصل وندائي له سيعيده للحياة.

مقتل القيصر نيقولا الثاني وعائلته

«ايكاترين بورج 16 يوليه/ ناصر 1918 افرنجي»

*** بافيل ميدفيديف**

«انتوت الحكومة المؤقتة إرسال العائلة المالكة إلى إنجلترا، ولكن مجلس سوفييت مدينة بتروجراد عارض ذلك، وبدلاً منه أُخذوا إلى مدينة ايكاترين بورج

ـ مدينة سفيردلوفسك الآن ـ في منطقة جبال الأورال، وحين اقتربت قوات الجيش الأبيض الروسية من المنطقة صدر الأمر للسلطات المحلية بمنع أي محاولة إنقاذ».

في مساء يوم 16 يوليه بين الساعة السابعة والثامنة، حين بدأت نوبة «ورديتي»، أمرني القائد يوروفسكي ـ قائد الحرس ـ أن أجمع كل مسدسات «الناجان» من الحرس وإحضارها له، فأخذت اثني عشر مسدساً من الحراسات إضافة لبعض الحراس الآخرين وجلبتها لمكتب القائد، فقال لي يوروفسكي: «يجب أن نطلق عليهم الرصاص الليلة، كلهم، فتابع ألا ينزعج الحرس إذا ما سمعوا صوت الرصاص»، لذا فهمت أن يوروفسكي قد قرر إطلاق الرصاص على كل عائلة القيصر وكذلك الطبيب والخدم الذين يعيشون معهم، ولكنني لم أسأله أين ولا من اتخذ القرار، ولا بد أن أخبرك بأنه وفقاً لأوامر يوروفسكي، تم نقل الصبي الذي كان يساعد الطباخ إلى حجرة الحراسة في الصباح ـ وهي في منزل بوبوف ـ، وكان الدور الأسفل من منزل «إيباتييف» مشغولاً بجنود «ليتيين[1] من تعاونية «الليتس»، كانوا قد اتخذوا المكان مقراً لهم بعد تعيين يوروفسكي قائداً، وكان عددهم عشرة، وعند حوالى الساعة العاشرة مساءً قمت بإبلاغ الحرس أن عليهم ألا يقلقوا إذا ما سمعوا صوت رصاص بناءً على أوامر يوروفسكي الذي قام حوالى منتصف الليل بإيقاظ عائلة القيصر، ولم أدر إذا كان أخبرهم بالسبب لإيقاظهم أو إلى أين سيؤخذون، ولكنني أؤكد بثقة أن يوروفسكي هو الذي دخل الحجرات التي تشغلها أسرة القيصر، لأنه لم يأمرني أو يأمر دوبرينين بإيقاظهم، وخلال ساعة تقريباً استيقظ الجميع: العائلة كلها والطبيب والخادمة والسقاة، واغتسلوا وارتدوا ملابسهم.

وقبل أن يذهب يوروفسكي مباشرة لإيقاظ العائلة، وصل اثنان من أعضاء اللجنة غير العادية ـ من مجلس سوفييت ايكاترين بورج ـ لمنزل إيباتييف، وفور تمام

(1) Letts: قوم يسكنون حول بحر البلطيق، ليتوانيا وما حولها الآن. «المترجم».

الساعة الواحدة صباحاً غادر القيصر والقيصرة وبناتهما الأربع والخادمة والطبيب والطباخ والساقي حجراتهم وحمل القيصر ولي عهده بين ذراعيه، وهما يرتديان «الجيمناستركاس» ـ قميص الجنود ـ، وعلى رأسهما كابين ـ غطاء رأس للجنود ـ، وكانت الإمبراطورة وبناتها مرتديات ملابسهن بلا غطاء رأس.

وتقدمهم الإمبراطور وهو يحمل وريثه، وتبعته الإمبراطورة وبناتها والآخرون، واصطحبهم يوروفسكي ومساعده وعضوا اللجنة غير العادية المذكوران آنفاً، وكنت حاضراً كذلك، وخلال وجودي لم يقم أي من عائلة القيصر بإلقاء أي سؤال، ولم أسمع صراخاً أو بكاءً، وبعدما هبطنا السلم إلى الطابق الأول ذهبنا إلى الفناء، ومن هناك وعن طريق الباب الثاني ـ المار من البوابة الرئيسية ـ دخلنا الدور الأرضي من المنزل.

وحين وصلنا للغرفة ـ وكانت تتصل بغرفة المخزن بواسطة باب مغلق ـ أمر يوروفسكي بإحضار مقاعد، فأحضر معاونه ثلاثة مقاعد، فأعطي مقعداً للإمبراطور وآخر للإمبراطورة والثالث لوريث العرش، وجلست الإمبراطورة عند الحائط بجوار النافذة بالقرب من العمود الأسود لقوس السقف، وجلس خلفها ثلاث من بناتها، وكنت أعرف وجوههن جيداً إذ كنت أراهن كل يوم حين كن يتمشين في الحديقة، ولكني لا أعرف أسماءهن.

وجلس الإمبراطور وولي العهد جنباً بجنب في وسط الغرفة تقريباً، ووقف الطبيب بوتكين خلف ولي العهد، ووقفت الخادمة ـ وهي امرأة طويلة ـ على يسار الباب المؤدي للمخزن، ووقفت بجانبها واحدة من بنات القيصر ـ وهي الرابعة ـ ووقف خادمان مقابل الحائط على يسار مدخل الغرفة، كانت الخادمة تحمل وسادة كما أحضرت بنات القيصر وسائد صغيرة معهن، فُوضعت وسادة منها على مقعد الإمبراطورة، وأخرى على مقعد وريث العرش.

وبدا الأمر كما لو كان الجميع يخمنون مصيرهم، ولكن لم يتفوه أي منهم بكلمة، عند تلك اللحظة كان بالغرفة أحد عشر رجلاً: يوروفسكي، ومعاونه، وعضوا اللجنة، وسبعة من جنود «الليتس».

وأمرني يوروفسكي بمغادرة الغرفة قائلاً: «إذهب إلى الشارع، وانظر إذا ما كان هناك أي شخص، وانتظر لترى هل يُسمع صوت الرصاص فخرجت للفناء ـ وكان محاطاً بسور ـ، ولكن قبل أن أصل للطريق سمعت الرصاص، فعدت للمنزل في الحال ـ.

كانت قد مرت دقيقتان أو ثلاث فقط ـ وحال دخولي الحجرة حيث تم تنفيذ الإعدام، رأيت كل أفراد أسرة القيصر راقدين فوق الأرض مصابين بجراح عديدة في أجسامهم والدماء تسيل أنهاراً، وقد أطلقوا الرصاص أيضاً على الطبيب والخادمة والساقيين، وحين دخلت كان ولي العهد ما زال حياً ويئن قليلاً، فذهب إليه يوروفسكي وأطلق رصاصه مرتين أو ثلاث نحوه. حينئذ استكان الأمير.

حادث في التقدم إلى دمشق
لورانس العرب يحطم طابوراً تركياً

«24 سبتمبر/ الفاتح 1918 افرنجي»

*** ت. إ. لورانس**

قام العرب بإخطارنا أن الطابور التركي ـ فرقة رماة جمال باشا ـ تدخل الآن بلدة تافاس بالفعل، وحين وصلنا لمدى رؤيتهم وجدنا أنهم قد استولوا على القرية ـ التي كانت يتردد فيها أصوات طلقات متقطعة ـ وتوقفوا حولها، وأعمدة، من الدخان صغيرة تتصاعد من بين البيوت، وعلى الأرض المرتفعة من هذا الجانب الذي يقع مطموساً وسط الورود، وقفت بقايا من الشيوخ والنساء والأطفال يروون قصصاً مرعبة حول ما حدث حين هجم الأتراك منذ ساعة.

بقينا لمراقبتهم، ورأينا قوات العدو تسير مبتعدة عن منطقة تجمعهم خلف المنازل، وتوجهوا بنظام جيد نحو بلدة ميسكين، ورماة الرماح في المقدمة والمؤخرة مكونين تشكيلات من المشاة مصطفة في طابور مع تدعيمه بمدفع آلي لحراسة جناحهم، أما المدافع وأحمال النقل ففي الوسط. وفتحنا النيران على

رأس خطوطهم لحظة ظهوره فيما وراء البيوت، فحولوا مدفعيّ ميدان نحونا للرد علينا، وكانت القذائف كالعاة زائدة الشحنة فمرت فوق رؤوسنا دون أذى.

وتقدم «نوري» و«بيساني»، وأمام صفوفهم كان «عودة أبو طائي» يقود جواده متحفزاً، و«طلال» يكاد يُجن من الحكايات التي رواها أهله عن معاناة القرية، ويغادر الآن آخر الأتراك القرية فتسللنا خلفهم لكي ننهي توتر «طلال»، وبينما يتمركز مشاتنا في مواقعهم ويطلقون نيرانهم بقوة، مستخدمين بنادق «هوتش كيس»، قدم «بيساني» مدفعيته «النصف بطارية» بينهم، لدرجة أن القذائف الفرنسية الشديدة الانفجار أوقعت جنود المؤخرة في الفوضى.

قبعت القرية ساكنة تحت أكاليل الدخان البيضاء البطيئة، فتعلو جنودنا ونحن نقترب، وبدت بعض الأكوام الرمادية مختفية بين الأعشاب الطويلة محتضنة الأرض وهي أشبه بالجثث، فنظرنا بعيداً ونحن نعلم أنهم موتى، ولكن شبحاً صغيراً تحرك كما لو كان يهرب منا، كانت طفلة في حوالى الثالثة أو الرابعة من عمرها، وقميصها المتسخ ملطخ بالأحمر من ناحية كتف وجانب واحد، كان دماً من جرح ضخم نصف متجلط ربما بسبب طعنة رمح عند التقاء الرقبة بالجسم تماماً، وجرت الطفلة خطوات قليلة ثم توقفت لتصيح فينا بنبرة قوية أدهشتنا وكل ما عداها بقي ساكناً: «لا تضربني.. يا بابا..»، كاد عبد العزيز يختنق بشيء ما، فتلك كانت قريته، وربما كانت هذه الطفلة من عائلته، فألقى بنفسه من فوق الجمل وتعثر وهو يركع بجوار الطفلة فوق العشب، فأخافتها مفاجأته، إذ رفعت يديها وحاولت الصراخ، وبدلاً من ذلك سقطت مكتومة في ضآلة، في حين اندفع الدم من جديد فوق ملابسها عندئذ ـ فيما أعتقد ـ ماتت.

مضينا عبر جثث رجال ونساء آخرين مع أربعة أطفال كلهم موتى، وبدونا مُتربين في ضوء النهار متجهين للقرية التي نعلم أن عُزلتها تعني الموت والرعب، وفي ضواحيها تجد حوائط منخفضة طينية مع حظائر الغنم، وفوق حائط منها رأيت شيئاً لونه أحمر وأبيض، تمعنت مقترباً، فرأيت جثة امرأة مطوية على الحائط ومثبتة إليه بحربة امتد ذراعها بوحشية من بين ساقي المرأة العاريتين، ورقد

فيما حولها آخرون ـ ربما يصل عددهم لعشرين ـ في ميتات مختلفة. أغرق «الزاجي» في نوبة من الضحك المجنون، مبتئساً بشدة من أجل مساء تلك الأرض المشرقة الشمس بدفء والنقي هواؤها فقلت: «من الأفضل لك أن تأتيني بأغلب الأتراك موتى».

واستدرنا وراء العدو الذي يتباعد، وفي طريقنا نطلق الرصاص على أولئك المتساقطين بجوار الطريق وأتوا يستجدون رحمتنا، وجلس رجل تركي جريح نصف عار غير قادر على الوقوف وبكى لنا، فأشاح عنه عبد اللّه بوجه جَمَله، ولكن «الزاجي» مر بطريقه وأطلق ثلاث رصاصات من سلاحه الأتوماتيكي مخترقاً صدر الرجل العاري وهو يصب لعناته، وخرج دمه مصحوباً بقطع صغيرة من قلبه، نبضة فنبضة، وببطء شديد.

ورأى «طلال» ما رأيناه، فأطلق أنة كالحيوان الجريح، ثم قاد مُهرته نحو تبة عالية وجلس هناك لحظة، وهو ينظر منتفضاً نحو الأتراك، واقتربت منه لأحادثه، لكن «عوده» أمسك بلجام حصاني وأوقفني، وببطء شديد سحب «طلال» عمامته فوق وجهه، وبدا فجأة متماسكاً لأنه دفع مهمازية لجانبي المهرة وركض للإمام، منحنياً وهو يتأرجح فوق السرج متجهاً نحو قوة العدو الرئيسية تماماً. . .

كانت مسافة طويلة هبط فيها منحدراً سهلاً وعَبَر بعده منخفضاً، وجلسنا هناك جامدين كالحجر وهو يندفع قدماً، ودوي حوافر جواده يبدو صاخباً بصورة غير طبيعية في آذاننا، إذ أوقفنا النيران وأوقف الأتراك نيرانهم، وانتظره كلا الجيشين، واستمر يتمايل وسط الماء الساكن حتى مسافة قريبة من العدو، ثم اعتدل فوق سرجه وأطلق صيحة الحرب: «طلال، طلال» مرتين، بصوت عظيم.

وتدافعت بنادقهم ومدافعهم الآلية على الفور، واخترقته رصاصاتهم مع مُهرته مرات عديدة وسقط ميتاً وسط أسنة الرماح وقال عودة ـ ناظراً في هدوء وعبوس ـ: «فليرحمه الله، سنأخذ بثأره»، وهز لجام جواده وانطلق ببطء خلف العدو. واستدعينا الفلاحين ـ المُشربين بالخوف والدماء عندئذ ـ وأرسلناهم من ذلك الجانب أو هذا لمواجهة الطابور المنسحب، واستيقظ أسد الحرب القديم في

قلب «عودة» وأعاده مرة ثانية قائدنا الطبيعي المحبب وبلغة ماهرة دفع بالأتراك إلى أرض وعرة، وقسّم تشكيلهم إلى ثلاثة أجزاء، وكان الجزء الثالث - وهو أصغرهم - مكوناً في أغلبه من «مدفعيين» ألمان ونمساويين متجمعين حول ثلاث سيارات وحفنة ضباط من الفرسان، وقد حاربوا بشجاعة، وردُّونا مرة واثنتين، رغم صلابتنا.

كان العرب يحاربون كالشياطين، والعرق يُغمم أعينهم ويحرق التراب حلوقهم، ولهب القسوة والانتقام يمور بأجسادهم فيميلون حتى إن أياديهم لا تكاد تقوى على إطلاق الرصاص، وبناءً على تعليماته لم نأخذ أحداً أسيراً لأول مرة في حربنا. وفي النهاية تركنا ذلك الجزء المتماسك خلفنا، وتبعنا الجزءين المتسارعين، كانا في حالة اضطراب، وبحلول الغروب دمرناهما معاً عدا أجزاء صغيرة منهما، فائزين بما فقدوه وبمثله.

وتتالت جماعات من الفلاحين في تقدمنا، في البداية وجد لكل خمسة أو ستة منهم سلاح واحد، ثم يصل المرء منهم لحربة وآخر لسيف وثالث لمسدس وخلال ساعة بعدها تجد أولئك الذين كانوا على أقدامهم قد أضحوا يمتطون حميراً وفيما بعد صار لكل رجل بندقية وحصاناً مأسوراً. ومع هبوط الليل كانت الجياد كاملة المتاع، وتناثر في السهل الخصب رجال وحيوانات موتى، فوسط الجنون الذي بعثه رعب قرية نافاس، أعملنا سلاحنا ليقتل ويقتل ويقتل، حتى في رؤوس المتساقطين والحيوانات كما لو كان موتهم وانهمار دمائهم سيروي آلامنا.

توقيع معاهدة ڤرساي

«28 يونية/ الصيف 1919 افرنجي»

*** هارولد نيكلسون**

نهار ڤرساي، تغدينا مبكراً وغادرنا مقرنا في «الماجستيك» بسيارة مع «هيدلام مورلي»، ورغم أن «هيدلام» مؤرخ، إلا أنه يكره اللحظات التاريخية. وبعيداً عن

ذلك هو شخص حساس، ولا يجد متعة في مشاهدة الأمم العظيمة تُذل، أما أنا فطالما ليست لدي تلك الميول والاتجاهات، فإني مجرد متشوق.

لا يوجد ازدحام على الإطلاق حتى نصل إلى «ڤيل دافراي»، لكن هناك شرطي عند كل تقاطع يلوح بأعلام حمراء ويوقف كل حركة المرور الأخرى. وحين وصلنا قصر «فرساي» تكاثف الازدحام، والطريق حتى القصر مصفوف بالفرسان بخوذات من الصلب الأزرق وترفرف رايات رماحهم بالأحمر والأبيض تحت الشمس، وفي فناء «كور دونور» الذي رُفعت منه المدفعية الألمانية الأسيرة بلباقة توجد قوات أخرى، فهناك الجنرالات: «بيتان» و«جورو»، و«مانجان»، ويوجد بعض رجال «السان سيريان»، شديدي العسكرية والنظام.

وتسللت أنا و «هيدلام» من السيارة بسرعة، ونحن نشعر بغرابة هيئتنا المدنية وشعثها، ولأننا غير مهمين كلية هرولنا عبر الباب، ويقف فوق قاعدة السلالم جنود «الحرس الجمهوري» بعظمة، وعند كل درجة سلم ينتصب تمثال عمودي، ويقف الجنود شاهري سيوفهم في وضع «سلام سلاح»، إنها تجربة هائلة، ولكن هناك أناس آخرون يتسلقون السلالم معنا، وكان معي ومع «هيدلام» تصريحا مشاهرة، في حين تعطي أصابعه الرقيقة وأثر السجائر عليها انطباعاً بالتفرق، فهو ليس عسكرياً. . .

نحن ندخل حجرتي الاستقبال وتنزلق أقدامنا فوق وبر سجاد ناعم، لقد حرموا مخزن الأثاث من أجمل قطعه، لم يكن أبداً قصر ڤرساي - منذ الحقبة العظيمة - أكثر مجداً وفخامة عن الآن. ها نحن ندخل القاعة الزجاجية، وهي منقسمة إلى ثلاثة أقسام، في الركن الأقصى توجد الصحافة وقد امتلأ «بالكامل» وفي الوسط توجد طاولة تأخذ شكل «حدوة الحصان» معدة لرجالات الدولة، وأمامها - تنتصب كالمقصلة - طاولة أخرى للتوقيعات، التي كان يفترض أن توضع على مصطبة صغيرة، ولو حدث ذلك لكانت أعلى ببوصات قليلة. وعلى المسافة الأقرب، تجد صفوفاً وصفوفاً من المقاعد الفردية للضيوف المتميزين: المندوبون وأعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء الوفود، ولا بد أن هناك مقاعد لأكثر من ألف

شخص، ولذلك يسلب المناسبة كل تميزها ورفعتها، أنها أشبه بالصالة الأيولية[1]. جلس كليمنصو ـ بالفعل ـ أسفل ذلك السقف الثقيل، حين وصلنا، ولافتة تمتد فوقه: «الملك يحكم بنفسه». فبدا صغيراً ممتقعاً، إنه قزم مضعضع.

وتعالت المحادثات بين المجموعات المختلطة حولنا، أشبه ـ كعادتها في مثل هذه المناسبات ـ بالماء الذي يجري بحمام من الصفيح، ولم أستطع أبداً حمل الناس على لمس هذا التشابه، كان هناك حمام من الصفيح في منزل «بولينجتون»، يقوم المرء بفتحه بعدما يفرغ ويجري للطابق العلوي منادياً «الحمام جاهز للتالي». فيرد «سأنزل حالاً». عندئذ يأتي صوت الماء منصباً فوق صفيح الحمام من أسفل، وهو يغرق نفسه في ثياب المنزل، إنه بالضبط صوت الناس الذين يتحدثون بأصوات خفيضة في حجرة مغلقة. ولكن ذلك ليس تحليلاً أستطيع أن أجعل الناس يتقبلونه..

وترى الناس يخطون فوق مقاعد «الأوبيسون» الطويلة والمقاعد الفردية للحديث مع الأصدقاء أثناء وصول الوفود في جماعات صغيرة ويدفعون الحاجز الرئيسي ببطء. وبين أولئك الآخرين تجد ويلسون ولويد جورج اتخذا مقعديهما على الطاولة الرئيسية، وامتلأت الطاولة في النهاية، فنظر «كليمنصو» لليمين واليسار، جلس الناس على مقاعدهم لكن الثرثرة مستمرة، ويشير لمُنظمي الصالة، فيقولون: «هس... هس...!» ويتوقف الناس عن الثرثرة، ويبقى فقط صوت كحة مصادفة وحفيف أوراق البرامج، ويتحرك مسؤولو البروتوكول بوزارة الخارجية نحو الحاجز ليقولوا. «هس.. هس» مرة ثانية، وعندئذ يسود صمت مطبق، متبوع بأمر عسكري حاد، فيضع الحرس الجمهوري لدى الباب سيوفهم داخل غمدها محدثة قعقعة عالية... يقول كليمنصو: «دعوا الألمان يدخلون» وسط الصمت الناتج عن ذلك وصوته متناء وإن كان نفاذاً بخشونة، وتبع ذلك سكون.

---

(1) Acolian نسبة إلى Acolis مقاطعة في آسيا الصغرى استعمرها الإغريق وبدورها تنسب إلى Aclus إله الريح عندهم. «المترجم».

وعبر الباب عند نهاية مدخله يظهر اثنان من الحُجاب لهما سلاسل فضية يمشون في طابور منفرد، ويأتي وراءهم أربعة ضباط من: فرنسا وبريطانيا «العظمى» وأمريكا وإيطاليا، ثم ببؤس وأسى يأتي المفاوضان الألمانيان، الدكتور «موللر» والدكتور «بيل». الصمت الآن مرعب، ويتردد صدى وقع أقدامهما على الأرضية الخشبية فيما بين السجاد المنزلق مجوفاً ومكرراً، ويبعدان أنظارهما عن الأعين الألفين المحملقة فيهما فيثبتونها على السقف، شاحبين حتى الموت ولا يبدو عليهما أنهما يمثلان العسكرية الوحشية، فواحد رقيق وجفونه وردية وصاحب ثاني «آلة كمان» في أوركسترا «برنشڤيج»، أما الآخر فمستدير الوجه ويحمل معاناة «المدرِّس الخصوصي»[1] وكان الأمر كله مؤلماً.

اقتيدا لمقاعدهما، ويكسر كليمنصو الصمت في الحال قائلاً في صوت مؤنب: «أيها السادة، فُتحت الجلسة»، وأضاف قليلاً من الكلمات السيئة المنتقاة، مكملاً: «نحن هنا لتوقيع اتفاقية سلام» ويقفز الألمانيان ـ فزعاً ـ حال انتهاء كلامه، إذ يعلمان أنهما أول من سيوقع، ويدفعهما و«يليام مارتن» ـ كأنه مدير مسرح ـ نافد الصبر ليجلسا من جديد، ويقوم «مانتو» بترجمة كلمات كليمنصو إلى الإنجليزية، وعندئذ يتقدم «سانت كينتان» نحو الألمانيين وبأقصى ما يمكن من عزة يقودهما للطاولة الصغيرة التي تمتد عليها صفحات المعاهدة.

ساد توتر شديد، ها هما يوقعان، فيسود ارتياح، وتتعالى الأحاديث من جديد بهمس خفيض، وينهض المفاوضون، واحداً وراء الآخر، كي ينضموا لطابور الانتظار المجاور لمنضدة التوقيع، وفي اللحظات نفسها يتدافع الناس حول المائدة الرئيسية ليحصلوا على التوقيعات التذكارية، وينتظر الطابور المنفرد من السياسيين الوصول للطاولة فيزداد شيئاً فشيئاً، كان يمضي بسرعة، ويقف مسؤولو وزارة الخارجية حولها، يُبينون أماكن التوقيع ويوضحون الإجراءات ثم ينشفون الحبر بنشافات صغيرة.

(1) يقصد أستاذ جامعي بالأجر من غير أعضاء هيئة التدريس الثابتين. «المترجم».

وينبعث من الخارج فجأة دوي البنادق تطلق التحية، تعلن لـ «باريس» أن اتفاقية ڤرساي الثانية قد وقعت بيد الدكتور «موللر» والدكتور «بيل» وعبر النوافذ القليلة المفتوحة، وصلتنا أصوات الجماهير المتباعدة وهي تهتف بخشونة، وتستمر مسيرة التوقيع، وقد نبهونا أن ذلك قد يستمر ثلاث ساعات، وفجأة بدا أن الطابور بدأ يقل تقريباً، فقط ثلاثة منهم، ثم اثنان، وبعدئذ واحد من المفاوضين بقي للتوقيع، وما كاد اسمه يجفف بالنشافة حتى بدأ الحُجاب في قولتهم: «هس. . . هس» قاطعين فجأة الغمغمة المتزايدة التي بدأت وكان هناك صمت نهائي، صاح كليمنصو: «رفعت الجلسة» ولا كلمة أكثر ولا أخرى أقل.

بقينا في مقاعدنا، أثناء اقتياد الألمانيين كالأسرى من الحاجز وما زالت أعينهما مثبتة فوق نقطة ما من الأفق.

المجاعة في روسيا

«أكتوبر/التمور 1921 افرنجي»

*** فيليب جيبس**

«أدى الجفاف عام 1921 افرنجي ـ وفوضى إنتاج الغذاء ـ الناجمة عن تطبيق المنهج الشيوعي على الاقتصاد الحكومي ـ إلى مجاعة في إقليم الڤولجا عامي 1921ـ 1922 افرنجي، فكان مناسبة لحملة إغاثة دولية يرأسها هربرت هوڤر».

بعد أربعة أيام في ذلك القطار وصلنا «كازان» التي كانت ترقد تحت غطاء سميك من الجليد، إنها الآن عاصمة جمهورية التتار. . وهي مقاطعة في روسيا السوڤيتة ـ وعلى رأس أغنى الأراضي المنتجة للحبوب بوادي نهر الڤولجا، أما الآن فلا توجد حبوب لأنها احترقت في موسم «البذار» بسبب جفاف مخيف، تاركاً الفلاحين بلا غذاء، إذ أخذوا المخزون منها لإطعام الجيش الأحمر.

بدت المدينة، والجليد السميك فوق سطوح منازلها ممتداً كثيفاً على الأرض حتى إنك لا تجد آثار الأقدام عليه، كمدينة في قصص الجنيّات الروسية القديمة منها ـ زمن القياصرة القديمة ـ بنى النبلاء منازل خاصة، ورتبوا حدائق بديعة

لمتعتهم خلال شهور الصيف، امتلأت تلك المنازل الآن باللاجئين من المجاعة يموتون من الجوع والمرض، وعبر الجليد أتى بعض الأطفال الصغار متماسكي الأيدي، مشوا مسافة طويلة من قرى تموت جوعاً وحيث مات أباؤهم بالفعل وكالطيور المجُمدة مات الكثيرون منهم وسط الجليد، وهنا يوجد أربعون منزلاً لإيواء الأطفال المهجورين أو المشردين، فذهبت لعدد منهم كانوا جميعاً متشابهين في الشكل العام، وفي حجرات كبيرة عارية كان الأطفال مكدسين عراة كالقردة الصغار استجلاباً للدفء، فلا سبيل آخر له حيث لا يوجد وقود، وقد أُحرقت ملابسهم بسبب القمل الذي ينشر مرض «التيفوس» بينهم، كما لم توجد ملابس أخرى بدلاً من ملابسهم الصوفية أو المصنوعة من فرو الأغنام السابقة، وغالباً ما يكون متأخراً جداً فحص انتشار التيفوس، فمات آلاف والآن يموت مثلهم.

ذهبنا للمستشفيات وكانت شديدة السوء، وبسبب اختفاء الوقود، رقد المرضى، المصابين بالتيفوس، والدوسنتاريا وكل أنواع الأمراض معاً في حجرة عزل بلا تهوية. وقد أحرقوا العديد من الأسرة من أجل الحصول على الوقود وأغلب النزلاء رقدوا على ألواح خشب مجردة، أما أولئك الذين لديهم أسرة، فقد رقدوا معاً اثنان في اتجاه، واثنان في الاتجاه الآخر بلا أدوية ولا مواد تخدير ولا صابون ولا ملابس.

كان هناك ثلج على نهر الڤولجا، وكان مركبنا آخر ما عبره بعدما اضطررنا لشق طريقنا، لسوف لا أنسى تلك الرحلة والضفاف الطينية المستوية لذلك النهر العظيم تقبع بيضاء أسفل الجليد والقرى الروسية غائرة في الجليد داخل أسوارها، كلها ذات كنائس سادها اللون الأبيض بقباب كمثرية الشكل، وبدأ الهبوط حيث وقف رجال ونسوة عضهم الجوع بانتظارنا، يسردون حكاياتهم ويتوسلون المساعدة.

وفيما بين فترة وأخرى يصعد رجل سطح المركب ويلقي عليه مترجمنا بعض الأسئلة، ودائماً يفيد بأن هناك مجاعة تهدد 25 مليون إنسان بالموت في وادي الڤولجا المتسع. وذهبنا لبعض تلك القرى لنرى أشياء مأساوية: فلا طعام

بالأسواق والنقود بلا قيمة حتى ولو كانت هناك أية نقود، وفي مرحلة من مراحل الرحلة وجدنا زلاجة ذات ثلاثة جياد - ترويكا - بانتظارنا، أمر بإعدادها «تعاونية» المقاطعة التي أخطرتها موسكو بوصولنا.

وانفعل السائق بوجودنا فقاد «الترويكا» كبطل روماني مسرع، وسوطه الطويل يتلوى فوق رؤوس الجياد وبدت كأنها الجياد الوحيدة هنا، فالجياد الأخرى كانت ميتة وهياكلها العظمية ملقاة على الطريق بعد أكل لحمها، كما كانت القرى ساكنة كالموت، فلا أحد يتحرك من البيوت الخشبية الصغيرة، رغم أننا كنا نرى أحياناً وجوهاً في النوافذ، تحملق فينا وهي شاحبة.

وفي إحدى القرى - أذكر هذا - كان معنا فلاح طويل متوسط العمر - أخذناه كدليل - ذو عينين زرقاويتين ولحية بلون القش، حين تحدث عن المجاعة في كل القرى المحيطة، كان يضرب صدره وتسيل الدموع من عينيه، وقادنا إلى منازل خشبية حيث تخلد بعض الأسر الروسية لبيات شتوي منتظرة الموت، ولا يوجد في بعضها طعام من أي نوع، وكانت هناك أسرة واحدة رأيتها تركت أثراً لا يمحى من ذهني. كان الأب والأم راقدين على الأرض حين دخلنا وكانا شديدي الضعف لدرجة عدم قدرتهما على النهوض وبعض الأطفال الصغار فوق سرير أعلى الموقد وهم يتضورون جوعاً، وصبي في الثامنة عشرة يرقد خلفاً في مرقد خشبي مقابل إطار النافذة مستغرقاً فيما يشبه الإغماء، أولئك الناس لم يكن لديهم ما يأكلون، لا شيء على الإطلاق.

في بعض المنازل الأخرى كانوا لا يزالون يحتفظون ببقائهم أحياءً بواسطة نوع من المسحوق البني مصنوع من أوراق الشجر المطحونة والمخلوطة بقشور الحبوب، والبعض الآخر كان يأكل مادة تشبه الرصاص، كانت نوعاً من طين ما مستخرج من جانب تل يسمى «بيتارجيك» وله بعض الخواص الغذائية، رغم أنه مضر جداً للأطفال، ويجعل معداتهم تنتفخ.

وكل مكان دخلناه بتلك القرى، أرتنا النسوة الفلاحات - وهن يبكين بصمت - أطفالهن العراة بمعداتهم المتورمة، علامة على احتضار الجوع في آخر

مراحله وجثن من أكواخ أخرى إلى حيث نقف، مقرفصات عند ممرات الأبواب بالطريقة الروسية القديمة وبدأن النواح. ومرة واحدة فقط واجهنا اليأس الوحشي، الذي دفع بالنسوة لحالة من الشراسة والفزع، إذ بدا أنهن يعتقدن أننا أحضرنا لهن طعاماً وأتين يصرخن ويخمشن نحونا كالحيوانات الجائعة، كن كذلك بالفعل! وأما الأغلب فكن هادئات حتى في بكائهن، ودخلنا بيوتاً ظهر فيها الأطفال كأطفال روايات الخيال ولكن مع الذئب الذي يقبع في الخارج بانتظارهم.

إعدام سفاح النساء «لاندرو»

«25 فبراير/ النوار 1922 افرنجي»

*** ويب ميللر**

في ليلة الرابع والعشرين من فبراير، لحقنا - أنا وستة من المراسلين الفرنسيين - القطار الكهربائي المتجه لفرساي، وذهبنا للمحكمة فحصلنا على تصريح صغير أخضر منسوخ بلا تنسيق لحضور ساعة تنفيذ الحكم، ثم لجأنا لاستراحة «فندق ديد ريزيرفوار» مع خمس زجاجات من الكونياك - الخمر - انتظاراً للفجر...

عند الساعة الرابعة صباحاً، وصلنا خبر أن السيد «ديبلر» منفذ الإعدام الشهير «عشماوي» - الذي يقوم بكل أحكام الإعدام بفرنسا - قد وصل ومعه جهازه، و«أناتول ديبلر» - هذا اسمه - رجل خجول حكيم، ذو لحية صغيرة، قام بأكثر من 300 حكم بالإعدام، وكان راتبه السنوي 18,000 فرنك، أي أكثر قليلاً من 1000 دولار بمعدل تحويلات عام 1936 افرنجي، وكان يعاني من ضعف بالقلب فلم يستطع صعود السلم، لكن ذلك لم يبد مؤثراً على مهمته، ويعيش بمنزل صغير بالقرب من فرساي باسم «م. أناتول»، يختلط قليلاً جداً مع جيرانه، ويحيا في عزلة، ويحتفظ بالمقصلة في مخزن خارج المنزل، وحين يقوم بتنفيذ أحد الأحكام، يرتدي قفازات بيضاء ومعطفاً واقياً طويلاً أبيض اللون.

هرولنا إلى السجن وكان أربعمائة جندي يصطفون لعمل حاجز عند كل طرف من الطريق، ويسمحون بالمرور لحاملي تلك التصاريح الخضراء فقط، ووفقاً

للقانون الفرنسي فأحكام الإعدام لا بد من تنفيذها في طريق مكشوف أمام باب السجن، وعلى أحجار الشارع الزلقة الرطبة وبجوار حارات السير للسيارات.

كان العمال ينصبون المقصلة بسرعة على بعد اثني عشر قدماً خارج البوابة العملاقة لسجن ڤرساي. كان الظلام لا يزال سائداً، والضوء الوحيد يأتينا من فوانيس العمال ذات الطُرز القديمة بذؤاباتها المرتعشة مع أضواء الطريق القليلة من أعمدة الكهرباء. وربط العمال الآلة المخيفة ببعضها وثبتوا توازنها بمنصة من الخشب، وعلق «ديبلر» النصل الثقيل عند قمة القائمين. اجتمع مائة موظف ومراسل صحفي تقريباً حولها في دائرة، ووقفْتُ على بعد خمسة عشر قدماً منها، ووصلتنا أنباء من داخل السجن بأن «لاندرو» ـ الذي حُلقت لحيته السوداء الطويلة سابقاً ـ قد طلب حلاقتها، قائلاً لحراسه: «لسوف يسر ذلك السيدات». ودخل زنزانته أحد القساوسة يصحبه محاميه، ورفض السيجارة وكأس الخمر المعتادين قبل تنفيذ أي حكم بالإعدام.

وارتدى «لاندرو» قميصاً نُزعت منه ياقته وسروالاً رخيصاً قاتماً. كان هذا كل شيء، فلا حذاء ولا جوارب، وكان سيمضي للمقصلة عاري القدمين، وبينما كانوا يقيدون يديه خلف ظهره، همس له محاميه: «تشجع، يالاندرو» فأجاب بهدوء: «شكراً، سيدي كانت الشجاعة، لديّ دائماً...».

وأول ما ظهرت الخيوط الأولى من فجر فبراير البارد وصلت عربة مقفلة ضخمة تجرها الخيول، وقفت على بعد أقدام قليلة من الجانب الأيمن من المقصلة، وقام مساعدو «ديبلر» ـ بقمصانهم الطويلة ـ بسحب سلتين من البوص من العربة، فوضعوا السلة الصغيرة المستديرة بعناية أمام الآلة حيث سيسقط الرأس، ووضع مساعدان آخران سلة ثانية بحجم تابوت تقريباً بجانب المقصلة. وفيها سيدحرجون الجثة المقطوعة الرأس، وأوقف طابور الجنود حافلة مارة ممتلئة بالعمال في طريقها لعملهم، وقرروا فتح الطريق للسماح للسيارة بالدخول وتقدمت ببطء مارة بهم لتقف عند أقدام قليلة من الآلة الكئيبة. وملأت نوافذها الوجوه المتطلعة.

ومرت المقصلة بالتجربة الأخيرة، فرفع «ديبلر» الإطار، وهو الكتلة الخشبية هلالية الشكل التي ستسقط فوق رقبة «لاندرو» ثم أنزلها، فهوت السكين الثقيلة من قمة القائمين بصدمة هزت الآلة وتم رفع الإطار والنصل عالياً من جديد، وأضحى كل شيء جاهزاً، وفجأة انفتحت أبواب السجن الضخمة، وساد المشاهدين صمت وتوتر، ثم ظهرت ثلاثة أشباح تسير بسرعة، كان على كلا الجانبين حارس يمسك «لاندرو» من ذراعه، وكانت ذراعاه مقيدتين خلفه. كان الحارسان يسندانه ويدفعانه قدماً بأسرع مما يستطيعان من مشي، وصكت أقدامه العارية حجر الشارع البارد، وبدت ركبتاه لا تعملان، ووجهه شاحب، وشمعي، وحالما أبصر الآلة البشعة استحال لونه.

قام الحارسان بدفع وجه «لاندرو» أماماً فوق لوح الحامل تحت الآلة، فمال اللوح وتمدد جسده مع ذلك الحامل وهما يلصقانه دفعاً تحت الكتلة الخشبية التي سقطت لتثبت رقبته أسفل النصل المعلق، وفي شطر الثانية، هوى النصل وسقط الرأس بصوت مكتوم داخل السلة الصغيرة، وبينما رفع أحد المساعدين الحامل المفصلي ثم دحرج الجثة المقطوعة الرأس في السلة الكبيرة، اندفع سيل مخيف من الدم منها، أمسك أحد الواقفين أمام المقصلة بالسلة الصغيرة وألقى بالرأس كباذنجانة في السلة الأكبر وساعد في دفعها بسرعة إلى العربة المنتظرة. وانصفقت أبواب العربة وسيطت الجياد لتعدو، حين ظهر «لاندرو» لأول مرة في فناء السجن. نظرت لساعتي، ونظرت الآن ثانية، لقد مرت ست وعشرون ثانية فقط.

تضخم اقتصادي في ألمانيا

«19 سبتمبر/ الفاتح 1922 افرنجي»

*** ايرنست هيمنجواي**

«خلال سنوات ما بعد الحرب مباشرة، هبطت قيمة المارك الألماني، أساساً بسبب الالتزامات الألمانية للإصلاح. ففي عام 1922 افرنجي كان معدل التحويل

قد هبط من 162 ماركاً ألمانياً للدولار الأمريكي الواحد إلى 7000 مارك، ومع حلول نوفمبر 1923 افرنجي هبط إلى أربع مليارات ومائتي مليون مارك للدولار».

مدينة كيل ـ ألمانيا: قال الصبي الذي يعمل في وكالة سفر بمدينة ستراسبورج رداً على استفساراتنا حول عبور الحدود، : «ياه.. نعم، من السهل المرور إلى ألمانيا، فكل ما عليكم، هو عبور الكوبري» فقلت: «ألا نحتاج لتأشيرة»؟. قال: «لا، مجرد ختم مرور لتذهب من الجانب الفرنسي». وأخرج جواز سفره من جيبه، وأرانا ظهره المغطى بالأختام المطاطية، مستطرداً: «أرأيت؟ إنني أعيش هناك الآن لأنها أكثر رخصاً، إنها طريقة لتوفير النقود». حسناً جداً.. فالأمر لا يستغرق أكثر من مسافة ثلاثة أميال بسيارة الأجرة من وسط ستراسبورج حتى نهر «الراين»، وحين تصل لنهاية الخط تتوقف السيارة ويتكدس كل الأشخاص ليصطفوا وسط ممشى طويل مسور يؤدي بك للكوبري، ويتمشى جندي فرنسي شاهراً حربته أماماً وخلفاً عبر الطريق، وهو يراقب الفتيات عند قلم الجوازات من تحت حافة خوذته الصلبة الزرقاء.

وهناك مبنى كئيب للجمارك على يسار الكوبري، ومأوى خشبي على اليمين، حيث يجلس الموظف الفرنسي خلف طاولة ويختم الجوازات، ونهر «الراين» نهر سريع طيني ذو لون يميل للصفرة، يجري بين ضفتين منخفضتين خضراوتين، ويدور مكوناً دوامات عند القواعد الإسمنتية للكوبري الحديدي الطويل، ولدى الطرف الآخر من الكوبري، تشاهد المدينة الصغيرة الكئيبة «كيل» تبدو كبعض المناطق الموحشة في «الدونداس» بإقليم تورنتو.

ولو أنك مواطن فرنسي بجواز سفر فرنسي فالرجل الجالس خلف الطاولة يختم لك جوازك ببساطة «خروج نقطة كوبري كيل» وتعبر الكوبري لتدخل ألمانيا المحتلة، ولو أنك مواطن من دول حليفة أخرى، فسينظر إليك الموظف مستريباً سائلاً إياك من أين جئت؟ ولماذا تذهب إلى «كيل» وكم ستمكث هناك؟ عندئذ يختم لك جوازك بنفس ختم الخروج، ولو تصادف أنك كنت من مواطني «كيل» الذين كانوا في ستراسبورج لبعض شؤونهم، وعائد للعشاء ولأن كل شؤون «كيل»

مرتبطة بستراسبورج، ككل الضواحي التي ترتبط بأقرب مدينة لها، وأنت مضطر للذهاب إليها لو أن أمامك أي عمل بها، فإنك توقف في طابور لمدة ربع الساعة أو العشرين دقيقة، وينقبون عن اسمك في فهرس للأسماء ليروا إذا ما كنت قد عارضت الحكم الفرنسي أم لا، وتسأل عن شجرة عائلتك، وتوضع أمامك الأسئلة، وفي النهاية تنال نفس ختم المغادرة الآنف ذكره، فكل شخص يمكنه عبور الكوبري إلا أن الفرنسيين يعقدونها أمام الألمان.

ما إن تعبر «الراين» حتى تكون في ألمانيا ويقوم زوج من الجنود الألمان مظهرهما شديد السخرية والرثاثة بحراسة الطرف الألماني من الكوبري، ويجول زوج من الجنود الفرنسيين مشرعي الحراب، في حين ينحني الجنديان الألمانيان غير مسلحين على سور ويتطلعان. فالجنديان الفرنسيان في كامل عتادهما وخوذتيهما الصلبتين أما الألمانيان فيرتديان معطفين واسعين قديمين وقبعة «إجازات» مرتفعة الحافة «كاباً». سألت فرنسياً عن مهام وواجبات الحرس الألماني، فأجاب: «إنهم يقفون هناك»!!

لم يكن هناك «ماركات» من العملة الألمانية يمكنك الحصول عليها في «ستراسبورج» فسعر الصرف المتصاعد «أفزع» المصارف منذ أيام، وهكذا قمنا بتغيير بعض النقود الفرنسية عند محطة قطار «كيل»، وفي مقابل 10 فرنكات تسلمت 670 ماركاً، والـ «10» فرنكات يصل سعرها لـ «90» بنساً كندياً، هذه الـ «90» بنساً، كفت السيدة هيمنجواي وأنا يوماً كاملاً في إنفاق سخي وفي نهاية اليوم بقي لنا 120 ماركاً.

كانت أولى مشترياتنا من طاولة فاكهة تنصب بجوار الشارع الرئيسي في «كيل» حيث امرأة عجوز تبيع التفاح والخوخ والبرقوق، فانتقينا خمساً من أجود التفاحات، وأعطينا المرأة المسنة ورقة من فئة الـ «50» ماركاً، فردت لنا 38 ماركاً «فكة»، ورآنا رجل شديد اللطف وذو لحية بيضاء ونحن نشتري التفاحات، فرفع قبعته محيياً وقال في خجل بالألمانية: «اعذرني سيدي، كم ثمن التفاحات؟» فحسبت «الفكة» ثم قلت له: «إن ثمنها كلها 12»، فابتسم وهز رأسه بقوله: «لا

أقدر عليها إنها غالية». واستمر في الطريق مسرعاً كرجل مسن أبيض اللحية من رجال العهد القديم يجول بكل البلاد، لكنه كان قد تطلع في شوق للتفاح وتمنيت لو قدمت له بعضه، وكانت الاثنا عشر ماركاً في ذلك اليوم تصل لأقل من «2» سنتين؛ ذلك العجوز ـ بمدخرات حياته التي يُحتمل أنها استثمرت فيما قبل الحرب وأعمال الحرب، وكمعظم من لا ينتمون لطبقة تجار السوق السوداء، لم يتوافر له 12 ماركاً ينفقها. . . إنه طراز من الناس لا تزداد دُخولهم مع هبوط القيمة الشرائية «للمارك والكرونة».

وبماركات سعرها 800 لكل دولار، أو 8 لكل سنت، قمنا بتسعير ثمن عدد من السلع في واجهات محلات «كيل» التجارية المختلطة: فالبازلاء 18 ماركاً للرطل، والفول 16 ماركاً، ويمكنك الحصول على رطل من «بُن القيصر» مقابل 34 ماركاً، إذ لا يزال هناك الكثير من علامات «قيصر» على السلع في الجمهورية الألمانية، ويباع «بُن جيرشتن» وهو ليس «بُنّاً» على الإطلاق، بل هو حبوب محمصة لقاء 14 ماركاً للرطل، وعبوة واحدة من ورق مكافحة الذباب تساوي 150 ماركاً. ونصل المنجل يساوي 150 ماركاً أيضاً أو ما يعادل 18 3/4 سنتاً، وعلبة البيرة مقابل 15 ماركاً أو 1 1/4 سنت، وأرقى فنادق «كيل» وهو مكان معروف جداً، يقدم وجبة من خمس مراحل مقابل 120 ماركاً تصل إلى 15 سنتاً بعملتنا، ولا يمكنك الحصول على تلك الوجبة نفسها مقابل دولار على بعد ثلاثة أميال من هنا، أي في ستراسبورج، وبسبب لوائح الجمرك الصعبة المتشددة أمام العائدين من ألمانيا، فإن الفرنسيين لا يستطيعون الحضور إلى كيل وشراء كل السلع الرخيصة التي يريدونها، لكنهم يستطيعون المجيء والأكل، وإنه لمنظر شائع أن ترى كل بعد ظهر الجحافل التي تغزو المحلات والمقاهي، فالألمان يصنعون أفضل أنواع الفطائر وهي رائعة في الحقيقة، حتى إنه في أثناء تدهور سعر المارك الحالي فإن الفرنسي في ستراسبورج يستطيع شراء واحدة مقابل مبلغ أقل من أصغر عملة عندهم وهي الـ «سو» وتساوي خمسة سنتيمات، ومعجزة أسعار الصرف هذه تخلق مشاهد شديدة الشراهة حيث يتزاحم شباب مدينة ستراسبورج في محل الفطائر الألماني ليلتهموا ويغترفوا لدرجة الغثيان من شرائح الفطائر

الألمانية الممتلئة بالقشدة في زخم مقابل 5 ماركات للشريحة وتفرغ محتويات المحل فيضحي نظيفاً في نصف الساعة.

وفي محل فطائر زرناه، رأينا رجلاً يرتدي «مريلة» ونظارات زرقاء، بدا أنه صاحب المحل، وكان يقوم بمساعدته رجل ألماني ذو مظهر عسكري برأس قصير متلاصق، وكان المكان يعج بأناس فرنسيين من كل الأعمار والأشكال والكل يلتهم الفطير، في حين تقوم فتاة في ثوب وردي وجوارب حريرية ووجه بديع رقيق وبأذنيها «قرطان» تلقي طلبات الناس من الفاكهة والمثلجات بقدر ما تستطيع، ولاتهتم كثيراً سواء وفت بطلبات الناس أم لا، فهناك كثير من الجنود بالمدينة، وقد ظلت تتطلع عبر النافذة ذاهبة غادية.

وكان المالك ومساعده غير راضيين ولا يبدو عليهما خاصة السرور حين تباع كل الفطائر، فالمارك يهبط بأسرع مما يخبزون. في هذه الأثناء يمر قطار صغير بديع في الشارع حاملاً العمال إلى منازلهم ومعهم أوعية طعامهم نحو ضواحي المدينة وتشق سيارات الأثرياء طريقها مثيرة سحابة من الأتربة تستقر فوق الأشجار وواجهات المباني، وبداخل محل الفطائر يبتلع اثنان من الصعاليك الصغار الفرنسيين آخر فطائرهما، وتمسح الأمهات الفرنسيات أفواه أطفالهن اللزجة ويمنحك ذلك مظهراً جديداً لتأثير العملة.

وعبر الكوبري، بينما تجد آخر شاربي الشاي وآكلي الفطائر لفترة ما بعد الظهر عائدين نحو ستراسبورج، ترى أول غارة قراصنة العملة آتية لتغزو «كيل» بدأت في الوصول من أجل عشاء رخيص. ويمر السيلان ببعضهما فوق الكوبري في حين يتطلع الجنديان الألمانيان ذوي المظهر غير المريح. وكما قال الصبي في الوكالة: «إنها طريقة لتوفير النقود».

العصيان المدني في الهند البريطانية

«21 مايو/ الماء 1930 افرنجي»

*** ويب ميللر**

«بدأ غاندي حركة معارضة ضد ضريبة الملح كجزء من حملته للعصيان

المدني، وقبض عليه في مايو اليوم الخامس منه عام 1930 افرنجي. لكن تابعيه بقيادة «إمام صاحب» تظاهروا عند ملاّحات «داهر سانا»، وهنا يرسل ويب تقريره لصحيفة «النيو فري مان».

تتكون «دونجري» من مجموعة صغيرة من الأكواخ التي يسكنها الوطنيون فوق السهل المترب، ولم تكن هناك أية وسائل للمواصلات ولم أجد أحداً يتحدث الإنجليزية، ولما كررت نطق كلمة «داهرسانا» مع الإشارة المستفسرة بطول الأفق، حصلت على الاتجاه وانطلقت عبر الريف على الأقدام خلال أسوار من نباتات التين الشوكي وحقول الذرة وتراب يصل سمكه إلى بوصة واحدة، وأنا أسأل عن طريقي بالإشارة، وبعد تجوال طوال ستة أميال عبر الريف وأنا مثقل بحمولة من «السندويشات» وزجاجتين ـ ربُعين ـ من المياه، تحت شمس كانت تلتهب ـ بالفعل ـ سخونة، مستفسراً كل وطني أُقابله، وصلت مكان اجتماع تابعي غاندي.

هناك عديد من المظلات ذات سقوف من القش ومحاطة بآجام من الصبار المرتفع، كانت هذه المظلات تعج ـ حرفياً ـ وتطن كخلية نحل بحوالى 2500 عضو مؤتمر ـ رجال غاندي ـ في الزي التقليدي الخشن المشغول بالمنزل من القطن والمسمى «دوتيس» وقبعات «كابات» غاندي المثلثة الشبيهة بقبعات جنود ما وراء البحار الأمريكيين وكانوا يثرثرون بانفعال، وحين وصلت أحاط بي مئات منهم وعليهم إمارات العداء في البداية، وبعدما علموا هويتي رحب بي بحرارة شديدة شباب من المتعلمين بالكليات ومتحدثي اللغة الإنجليزية وقدموني للسيدة «نايدو» الشاعرة الهندية الشهيرة، وهي ممتلئة الجسم، سمراء ولها ملامح قوية، بلا جوارب، ترتدي ثوباً قاتماً جافاً يدوي الصنع، كما ترتدي نعلاً، فرحبت بي، وأوضحت لي أنها مشغولة بتجهيز «قواتها» للتظاهر ضد شركة الملاّحات ولسوف تتحدث معي فيما بعد طويلاً. وهي قد تعلمت في انجلترا وتتحدث الإنجليزية بطلاقة. . .

ودعت السيدة «نايدو» الجميع للصلاة قبل بداية المسيرة، وركع جميع

المؤتمرين، ثم قامت بإذكاء الحماسة في الجميع: «إن جسم غاندي في الحبس لكن روحه معكم، ومكانة الهند بين أيديكم، وعليكم ألا تلجأوا لأي عنف مهما كانت الظروف، ولسوف تضربون فلا تقاوموا، بل ولا ترفعوا يداً لدرء ضرباتهم». وانتهت كلماتها بهتافات حماسية مدوية، ثم ببطء وسكون بدأ الجمع مسيرة النصف ميل نحو الملاّحات، وقليل منهم يحمل حبالاً لسحب أسوار الأسلاك الشائكة التي تحيط بالملاّحات.

وتعين منهم حوالى عشرين فرداً كحاملي نقالات «مسعفين» وقد ارتدوا شارات رديئة كُتب عليها بخط اليد بلون أحمر علامة «+» معلقة على صدورهم، وكانت نقالاتهم من البطاطين، أمّا «مانيلال غاندي» ـ وهو الابن الثاني له ـ فقد سار بين مقدمة المتظاهرين، وبينما يقترب المتجمهرون من الملاّحات أخذوا يترنمون بالمقولة الثورية «انقلاب ـ زنزاباد» ـ داعية للتمرد ـ وتصاعدت أصواتهم بهاتين الكلمتين أعلى فأعلى. . .

كانت الملاّحات محاطة بأغوار تمتلىء بالماء، ويحرسها 400 شرطي من رجال «السيورات» الوطنيين في سراويلهم القصيرة الكاكية اللون وعمائمهم البُنية، ويقودهم ستة من الموظفين البريطانيين الحكوميين، وهم يحملون عصيهم الشهيرة ـ طولها خمسة أقدام بأطراف من الصلب ـ واصطف خمسة وعشرون ضارب بندقية من الوطنيين داخل السور، عندئذ تجمع رجال غاندي في صمت وتوقفوا على مسافة مائة ياردة من السور، وتقدم صف متماسك من وسط الجماهير ليخوض مياه الأغوار، واقترب من الأسلاك الشائكة التي أحاطت بها شرطة «السيورات» رافعين هراواتهم مشرعة للضرب. وأمر موظفو الحكومة المتظاهرين بالتفرق بناء على التعليمات المفروضة مؤخراً بحظر اجتماع أكثر من خمسة أفراد في مكان واحد، فتجاهل الصف المتقدم ذلك التحذير في سكون وتقدم ببطء إلى الأمام، وأما أنا فوقفت مع المجموعة الرئيسية الواقفة على بعد مائة ياردة من السور. . . فجأة وبكلمة أمر واحد، اندفع عشرات من رجال الشرطة الوطنية نحو المتظاهرين المتقدمين وأمطروهم بوابل من هراواتهم الصلبة فوق رؤوسهم، ولم

يرفع أحد من المتظاهرين حتى يده ليحيد بها الضربات عن نفسه، لقد هبطوا لا مبالين، وكنت أسمع من حيث أقف صوت ارتطام الهراوات المؤلم على الرؤوس العارية.

ومع كل ضربة حبست الجماهير المحتشدة من المشاهدين أنفاسها ألماً وزفرت أنيناً موجعاً، وأما أولئك الذين ضُربوا فقد سقطوا ممددين فاقدي الوعي، أو يتلوون ألماً بجماجم مشروخة أو أكتاف مكسورة، وخلال دقيقتين أو ثلاث تغطت الأرض بالجثث، وأخذت بقع الدم الكبيرة تتسع على ملابسهم البيضاء، ويتقدم الأحياء حثيثاً وفي صمت للأمام دون أن يفسدوا ترتيبهم حتى يصابوا بدورهم. وحين سقط كل واحد من الطابور الأول، اندفع حملة النقالات دون أن تمسهم الشرطة لينقلوا المصاب إلى كوخ من البوص رُتب ليكون مستشفى مؤقتاً.

عندئذ تشكل طابور جديد، في حين التمس منهم قادتهم التمسك بضبط النفس، فساروا ببطء نحو الشرطة، ورغم أن كل واحد كان يدرك أنه خلال دقائق قليلة سيُضرب أو ربما يُقتل، إلا أنني لم ألحظ أية علامة للخوف أو الارتعاد، إذ ساروا بثبات ورؤوسهم مرفوعة، دون تشجيع بالموسيقى ولا تحميس، ولا أي احتمال لتجنب الإصابة أو الموت، وانطلق رجال الشرطة وبذات الأسلوب والآلية أسقط الطابور الثاني.

لم يكن هناك قتال ولا مقاومة، فالمتظاهرون يسيرون ببساطة حتى يضربوا فيسقطون أرضاً، ولم يكن هناك صراخ أنين فقط حين يسقطون، وليس هناك حملة نقالات بعدد يكفي لنقل الجرحى، إذ رأيت ثمانية عشر مصاباً يحملون في آنٍ واحد، بينما بقي اثنان وأربعون ممددين على الأرض بانتظار النقالات وهم ينزفون، وغرقت البطاطين المستخدمة كنقالات بالدماء. . .

وعند منتصف النهار وصل «ف. جـ. باتل» إنه قائد حركة «سوراج» منذ القبض على غاندي، وقد استقال لتوه من عمله كرئيس للمجلس التشريعي الهندي كرمز لاعتراضه على البريطانيين، وأحاط به العشرات من الرجال وركعوا وقبلوا أقدامه، وهو رجل مهذب جليل في حوالى الستين من عمره بلحية مسترسلة بيضاء

وشارب، مرتدياً نفس الرداء الخشن غير المصبوغ اليدوي الصنع، وقال «باتل» وهو جالس تحت شجرة: «إن أي أمل في التصافي مع بريطانيا قد ضاع للأبد، وإنني لأفهم أن أية حكومة تحبس الناس وتعاقبهم لأنهم اخترقوا القانون، ولكن لا أستطيع أن أفهم كيف يقاومون كما يفعل البريطانيون هذا الصباح».

وبحلول الساعة الحادية عشر وصلت درجة الحرارة إلى 116 درجة فهرنهايت في الظل، وتوقفت أنشطة أتباع غاندي، فعدت للمستشفى المؤقت لفحص المصابين. كانوا راقدين في صفوف على الأرض المجردة تحت ظل مأوى مفتوح سقفه من جريد النخل، وعددت 320 مصاباً، كان الكثير منهم فاقدي الوعي بجماجم مشروخة، وآخرون يتلوون بألم من الضرب في المعدة والركل في الخصيتين، وكان رجال غاندي قادرين على جمع عدد قليل من الأطباء الوطنيين الذين كانوا يبذلون أقصى ما وسعهم وسط ظروف غير ملائمة، ولم يتلق عشرات من المصابين أي علاج لمدة ساعات، ومات اثنان، كما انتهت المظاهرة لذلك اليوم بسبب الحرارة، وكنت الصحفي الأجنبي الوحيد الذي عاين ذلك المشهد المذهل وهو نموذج تقليدي للعصيان المدني غير المسلح أو «الساتياجراها».

مسيرات الجوع

«27 أكتوبر/التمور 1932 افرنجي»

*** وال هانينجتون**

«قامت الحركة القومية للعمال المتعطلين» بتنظيم مسيرات الجائعين، بهدف أن تلتقي هذه من جميع أرجاء البلاد في لندن، فيقومون بتقديم التماس ضد شرط إبراز «إثبات الموارد»، أمام مجلس العموم»..

في صباح اليوم التالي ـ 27 أكتوبر ـ وجدت جماهير العامة في لندن والتي هُرعت إلى الشوارع أن الشرطة الراكبة قد انتظمت أكثر من الواجبات الأمنية المعتادة في دوريات على طرق المرور، وكانت تلك إشارة واضحة للاستعدادت الشاقة للمقاومة التي أعدتها الشرطة، وبحلول منتصف النهار كان 100,000 عامل

«لندني» يتحركون باتجاه حديقة «الهايد بارك» من جميع أنحاء لندن لتقديم أعظم ترحيب للمتظاهرين بمسيرات الجوع، مما شوهد «بالهايد بارك».

عند الساعة الثانية، كانت الـ «هايد بارك» والشوارع المحيطة بميدان «ماربل آرك» قد تغممت بسحاب من العمال الآتين انتظاراً لوصول مسيرات الجوع، ويقدر أن هناك 5000 شرطي وضابط مرور قد تجمعوا حول الحديقة، بالإضافة لآلاف آخرين نقلوا للأحياء المجاورة استعداداً للاشتباكات. وأعلنت الصحافة ذلك الصباح أن جميع الإجازات قد أوقفت بالنسبة لجنود «كولدستريم جاردز» في عنابر «ويلينجتون» وأن يبقوا على أهبة الاستعداد في حالة وقوع اضطرابات.

وبينما أخذت المجموعات الأولى المتعددة من المتظاهرين تدخل الحديقة الساعة 2,30 مساء بدت علامات هائلة من الحماس، وكانت أكثر صيحات الترحيب دفئاً في لندن وقد انطلقت من 100,000 حنجرة في هايد بارك - هي رد الطبقة العمالية على حملة الأكاذيب المضللة التي شنتها الصحافة الرأسمالية ضد المتظاهرين.

وبينما دخلت آخر طلائع المتظاهرين بوابات الحديقة انفجرت الاضطرابات مع الشرطة، وقد بدأت مع الشرطة الراكبة الخاصة، حيث كانوا غير معتادين على تلك المهمة ففقدوا عقولهم، وما إن انسالت الجماهير الغفيرة قدماً نحو مكان الاجتماع حتى سحب أولئك هراواتهم في محاولة للسيطرة على بحر البشر الجامح، فأغضب هذا العمال، وبالذات لأنهم يشعرون بالمرارة تجاه تلك الشرطة الخاصة الذين أطلقوا عليها «شرطة الأرجل السوداء»، استدار العمال نحوهم وأجبروهم على الفرار، لكن القتال الذي كانوا مسؤولين عن بدايته استمر طوال ما بعد الظهر، في حين كان المتحدثون من المتظاهرين يخطبون في التجمعات الضخمة المنتشرة فوق البساط الأخضر، وأبقى العمال رجال الشرطة بعيدين عن مكان اللقاء.

وتقدم رجال الشرطة الراكبة عدة مرات فقط لتقوم آلاف العمال بردهم، بعدما اقتلعوا الحواجز ليستخدموها كأسلحة وسواتر لحماية اجتماعهم، كما سحبوا كثيراً

من الشرطة من فوق جيادهم، وامتد القتال من الشوارع إلى الحديقة عائداً ثانية إلى الشوارع إذ فشلت الهجمات المتتالية للشرطة الراكبة «الخيالة» في حصار العمال، بل إن رجال الشرطة «المترجلة» كثيراً ما حوصروا بقوات محكمة من العمال، ونشبت اشتباكات مرعبة وأصيب العديد من العمال والشرطة.

واستطاع المرء سماع هدير الجماهير وهي تقاتل بضراوة حول ميدان «ماربل آرك» وعلى طول شارع «أكسفورد» وعند أحد التقاطعات، تقدم أحد المخبرين من ذوي الملابس العادية نحو مفتش مباحث ليحادثه، وفيما هو يفعل ذلك، قام شرطي متحمس بضربه بعنف فوق رأسه بالعصا، وكان على وشك ركله بالقدم وهو راقد على الأرض، فمنعه ضابط يرتدي الزي الرسمي خطا للأمام ليمنعه من الاستمرار في الخطأ الأحمق الذي ارتكبه.

إصابات متعمدة

«مباراة كريكيت 13 ـ 19 يناير/ آي النار 1933 افرنجي»

*** و. هـ. فيرجسون**

رغم أن دوجرس جارداين ـ كابتن الفريق الانجليزي ـ قد بسط يده ـ إلى حد ما ـ في المباراة التجريبية الثانية بمدينة «ملبورن» عند نهاية العام، إلاّ أن ثورة البركان الحقيقية وقعت خلال المباراة التجريبية الثالثة في «آديلايد» حين منعوا جميع الأشخاص عدا من له عمل رسمي من دخول أرض الملعب أثناء تدريبات ما قبل مباراة نادي «ماري ليبون كريكيت» وقد كتب لهذه المباراة أن تكون شديدة الإثارة ويسجلها التاريخ كواحدة من أسوأ العروض الرياضية ـ من جوانب عديدة ـ.

وكان من سوء طالعي أن أشاهدها ولم يكن بذهني أي شك في أن لاعبي الكريكيت الأستراليين كانوا مرعوبين من نظرية هارولد لاروود بشأن «تسديد الكرة المستمرة إلى أرجل الخصوم» ـ بغرض إصابتهم ـ وهو ما أكدته أحداث المباراة تماماً.

إذ أصيب لاعب وراء الآخر جسدياً ولارووود ينفذ دون كلل المهمة التي أوكلها إليه الكابتن «جارداين» فتلقى اللاعب «بيل بونسفورد» عشرات السحجات وهو يدير ظهره كثيراً للكرة وذلك يؤكد حمق هذا الفعل المتعمدة غير المبرر، أما «بيل وودفول» الذي لا يُسرع بأقدامه أبداً، فحتى هو عانى أكثر من الباقين.

كنت شديد التعاطف مع زوجته التي كانت تخاف على سلامته، ولم تكن مسألة مفاجئة لنا، أن «وودفول» بعد أن تلقى ضربة عنيفة على صدره من توزيعة كرة أدارها «لارووود» قد حملوه لغرفة تغيير الملابس مصاباً كلية، وحين اضطروا لحمل اللاعب «بيرت أولد فيلد» - وهو لاعب محبوب من المشاهدين - إلى مقاعد الاحتياطي فاقد الوعي مصاباً من جراء كرة سريعة مرتفعة، وصل غيظ الجماهير لدرجة الغليان.

وأخبرني «مريس تيت» الذي لم يكن يلعب لإنجلترا عندئذ، قوله: «بيل، إنني خارج من هنا، فلا بد أن يصاب أحد أصابة خطيرة وسيبدأ الناس في الثورة» وشعرت أن بعض الرؤوس المنفعلة بين الجمهور قد تقفز فوق الأسوار وتحاول مهاجمة فريق الكريكيت الإنجليزي بالتأكيد، ولكن، بحمد اللّه، لم تصل المسألة لذلك الحد.

وفي محاولة من «بلوم وارنر» - الإنجليزي - لتصحيح الأمر، وهو ينظر لغرفة تغيير الملابس الخاصة بالفريق الأسترالي التي أضحت - حينذاك - أشبه بمركز إخلاء الخسائر أثناء الحروب، ومعبراً عن أسفه من أجل الإصابات التي أحدثتها ضربات الفريق الزائر السريعة، فتلقى رداً شديد الاحتقار، أضحى عنواناً رئيسياً للصحافة عبر العالم، من «وود فول» حين قال له: «لا أريد الحديث معك يا سيد وايز فهناك فريقان خارج غرفة الملابس، واحد منهما فقط يلعب الكريكيت، وإذا استمرت هذه «التكتيكات» - الأساليب - فسيكون من الأفضل عدم لعب المباراة طاب مساؤك».

حريق مبنى البرلمان الألماني «الرايخستاج»

«27 فبراير/ النوار 1933 افرنجي»

* د. سفتون ديلمر



«اعترف رجل ألماني، هو السيد «لوبيه» أثناء محاكمته أنه هو الذي بدأ حريق مبنى الرايخستاج، لكن ساد اعتقاد أن ذلك تم بتدبير من «النازي» الذين استغلوا حدوثه كمبرر لقمع المعارضة السياسية والحكم بسلطة ديكتاتورية».

«هذه علامة من الله، لو ظهر أن هذه النيران ـ كما أظن ـ من عمل الشيوعيين، عندئذ فلن يوقفنا شيء الآن عن تحطيم ذلك الحيوان القاتل بقبضة حديدية». أدلى «أدولف هتلر» المستشار الفاشيستي لألمانيا بذلك التصريح الدرامي ـ بحضوري ـ الليلة في صالة مبنى الرايخستاج المحترق.

اندلعت النيران الساعة 9,45 الليلة في صالة الاجتماعات للبرلمان، وقد تركزت في خمسة أركان مختلفة، ولا يوجد أي شك ـ مهما كان ـ بأنه عمل بفعل يد آثمة، وكان واحد من أولئك المجرمين ـ وهو رجل في الثلاثين من عمره ـ قد قبض عليه بواسطة الشرطة مندفعاً خارج المبنى مرتدياً حذاءً وسروالاً فقط، دون قميص أو معطف رغم البرودة الشديدة في برلين هذه الليلة.

وبعد خمس دقائق من اندلاع النيران، كنت خارج الرايخستاج أشاهد ألسنة اللهب تشق طريقها صاعدة القبة الضخمة نحو البرج، وتم فرض حصار حول

المبنى ولم يسمح لأي كان بالمرور منه، وبعد عشرين دقيقة ـ تقريباً ـ من المشاهدة المثيرة، رأيت فجأة سيارة «أدولف هتلر» السوداء الشهيرة تنسلّ مارة بي متبوعاً بسيارة أخرى تحمل حرسه الخاص، فاندفعت خلفهم ولحقت بطرفهم وهم يدخلون المبنى، ولم أشاهد هتلر أبداً بمثل هذه التعبيرات الغاضبة والحاسمة، فعيناه ـ الجاحظتان قليلاً بشكل دائم ـ كانتا في كامل جحوظهما خارج رأسه، وقد لحق بنا الكابتن «جورينج» يد هتلر اليمنى، ووزير الداخلية البروسي، والمسؤول عن كل شؤون الشرطة، وهو ذو وجه متورد ومثير.

قال «جورينج»: «إن ذلك بلا شك من عمل الشيوعيين، سيدي المستشار، وكان بعض مسؤولي الحزب الشيوعي موجودين هنا بالمبنى قبل عشرين دقيقة من حدوث الحريق، وقد نجحت في اعتقال واحد من المجرمين». فتدخل الدكتور جوبلز ـ رئيس دعاية الحزب النازي ـ بقوله: «ومن يكون؟». فأجابه: «لم نعلم بعد، ولكننا سوف نعتصر منه الجواب بلا شك يا دكتور» قالها بإطلالة منذرة حازمة حول فمه الرقيق الحساس.

ثم دخلنا إلى حجرة، وقال الكابتن جورينج: «تستطيع أن تشاهد ذلك بنفسك يا سيدي المستشار، الطريقة التي بدأوا بها النيران هنا». وأشار إلى البقايا المتفحمة للمزينات الحائطية الجميلة المصنوعة من خشب شجر البلوط، «إذ علقوا ملابس مبللة بالبترول فوق الأثاث هنا وأشعلوها».

وخطونا عبر ردهة أخرى تمتلىء بالدخان، وكانت الشرطة تعترض الطريق، فقال أحد الضباط وسلاحه بيده: «سيدي المستشار، قد تسقط الثريات بأي لحظة». وعند المنحنى وصلنا بعد ذلك لجزء من المبنى كان يحترق بالفعل، ورجال الإطفاء يصبون الماء على الكتل الملتهبة، فراقبهم هتلر لدقائق قليلة، يلمع بريق غضب وحشي من عينيه الشاحبتين الزرقاوتين، بعدئذ قابلنا السيد «فون بابن» المتحضر الألمعي كعادته.

مد «هتلر» يده، وأطلق وعيده ضد الشيوعيين ـ وهو ما ذكرته آنفاً ـ ثم تحول للكابتن «جورينج» متسائلاً: «هل كل المباني الأخرى سليمة؟» فأجاب الكابتن:

«لقد اتخذت كل الاحتياطات، والشرطة في أقصى حالات الاستنفار، وتم تخصيص حراسة لكل مبنى عام، ونحن بانتظار أي شيء». عندئذ التفت «هتلر» إليّ ليقول: «ليحمينا الله، هذا من فعل الشيوعيين، وها أنت تشهد بداية عصر جديد عظيم في التاريخ الألماني، وهذه النيران هي البداية».

وحينئذ لمس شيء ما معين الخطابة في عقله، فواصل حديثه: «هل ترى ذلك المبنى المشتعل»؟ - ثم جرف بيده فيما حوله بشكل درامي - «لو أن روح الشيوعية تلك سادت أوروبا شهرين آخرين، لاندلعت فيها النيران كلها مثل ذلك المبنى».. وعند الساعة 12,30 تمت السيطرة على النيران، ولم تزل غرفتان خاصتان بالصحافة تشتعل فيهما النار، ولكن توقف خطر امتداد الحريق، ورغم انهيار زجاج القبة وتحطمت فوق الأرض، إلاّ أن القبة ذاتها ظلت في مكانها، وحتى هذه اللحظة لم يكن ممكناً فصل الحطام المحترق، والبحث عن جثث لأي من المجرمين قد تكون حُصرت بالمبنى.

وفي الوزارة البروسية للأمن الداخلي، دعا الكابتن جورينج مؤخراً في هذه الليلة لاجتماع خاص لمناقشة الخطوات التي ستتخذ نتيجة للحريق، وتم عزل المنطقة كلها من بداية «براندينبرج» في الغرب حتى «ريڤر سبري» في الشرق بالعديد من نطاقات رجال الشرطة.

المحرقة في «بنارس»

«الهند - ديسمبر/الكانون 1933 افرنجي»

*** باتريك بلفور...**

لمعت «الساريهات» - الأردية الهندية للنساء - بألوانها الثرية كالأزرق الطاووس والكريمي والأصفر الكناري والبرتغالي والأخضر الزيتوني تحت أشعة الشمس بمرح، وهي التي لم تشرق بما يكفي لإبراز كل ألوان المشهد، وكان مبهجاً أن تتابع ذلك الحماس الآري للنظافة، وذلك الاستمتاع بالاستحمام قبل الفطور... لكنك حين تتفحص الأمر عن قرب - فقط - تتضح لك الطبيعة

الحقيقية لجماعة الاستحمام تلك، فهي تقوم بحركات طقسية تلقائية، وترانيم متواصلة تؤول لدوافع دينية أكثر منها اهتماماً بالصحة.

وعبر ماء آسن، أثقلته الفضلات والورود المتعفنة، ساقنا التيار نحو المحرقات المشتعلة، حيث ارتفع عمود من الدخان نحو السماء من كتلة من الرماد لم تعد تتعرف عليها كجثة، وكانت هناك محرقة مرتبة الأخشاب في كوم مستطيل قد أشعلت لتوها، والجثة ملتفة في القماش الأبيض برزت من منتصف الكوم، ورجل عجوز محاط بالورود يجلس القرفصاء فوق درجة عالية، وكان آخرون يسندونه ويدهنونه بالزيت والرمل، وقد أسلم نفسه كلية لما يفعلون محملقاً، وعينيه متسعتين باتجاه الشمس. فسألت الدليل: «لماذا يدلكونه هكذا؟». قال: «لأنه ميت».

ثم رأيتهم يفكونه من وضعه الساكن ويحملونه نحو كوم الخشب، رغم أنه لا يبدو أكثر ميتة من كثيرين من الأحياء المحيطين به، وقاموا بوضعه ووجهه لأسفل فوق المحرقة، وأداروا رأسه الحليقة نحو النهر، ثم كوّموا أخشاباً فوقه، وأشعلوا فيه النار بحزم القش صابين فوقه الزبد والدقيق والأرز وبخور خشب الصندل، وأُجريت الطقوس في عجلة وكمية كبيرة من الثرثرة، بينما يتحدث المشاهدون غير المهتمين فيما بينهم، وحين عدت - بعد حوالى عشر دقائق - كانت الرأس قد أضحت عظاماً متفحمة، وبقرة تلتهم في سكينة أكاليل الورود.

اعتقال «أوسيب ماندلشتام»

«31 مايو/الماء 1934 افرنجي»

*** ناديـزدا ماندلشتام**

«ما زالت الظروف التي أحاطت بوفاة «أوسيب ماندلشتام» - أعظم شاعر روسي معاصر - غامضة. وطبقاً لإحدى الروايات فهو قد مات في سيبيريا الشرقية في طريقه لمعسكرات الاعتقال، أما «أنا أخماتوڤا» - الشاعرة المذكورة هنا - فقد كانت مع أسرة ماندلشتام ساعة الاعتقال الموصوفة في النص».

تثاقل اليوم ماراً ببطء مؤلم، وفي المساء، بدا «داڤيد برودسكي» ـ المترجم ـ وكأنه لن ينصرف، ولم يكن بالمنزل ولا كسرة للطعام، فذهب «ماندلشتام» للجيران ليحاول إحضار شيء لعشاء أخماتوڤا. وتعشمنا أن يصاب برودسكي بالملل ويغادرنا، ولكن هيهات، إذ اندفع وراء ماندلشتام، وحين عاد كان لا يزال باقياً معه وبيده البيضة الوحيدة التي تمكن من جلبها، وواصل برودسكي تسميع الأبيات التي يحبها كثيراً ـ وهو يعاود الجلوس ثانية في مقعدة ـ من قصائد الشعراء المفضلين لديه، سلوتشيڤسكي وبولونسكي، ولم يكن هناك شيء لا يعرفه عن كل من الشعر الروسي والفرنسي، واستمر فقط في حديثه دون انقطاع مُقيِّماً وموحياً. وبعد منتصف الليل فقط أدركنا لماذا كان مزعجاً إلى هذا الحد. . .

ففجأة عند الساعة الواحدة صباحاً، سمعنا خبطاً حاداً ـ ومفهوماً ـ لا يمكن احتماله، قلت «لقد أتوا من أجل أوسيب وذهبت لأفتح الباب، كان بعض الرجال في أزيائهم المدنية يقفون بالخارج، وبدا أن هناك الكثير منهم، ولبرهة ضئيلة التمع لديّ شعاع خافت من الأمل أن الأمر ليس كذلك، إذ لم تميز عيني أزياءهم الرسمية تحت معاطفهم، والحقيقة أن المعاطف من هذا النوع ـ رغم أن القصد منها التخفي ـ تشبه معاطف القيصرة «أوكرانا» التي يميل لونها إلى حبوب البازلاء الخضراء، ولكني لم أدرك ذلك وقتها، وتبخّر كل أمل حالما خطا الضيوف الفضوليون إلى الداخل.

وتوقعت منهم أن يقولوا: «كيف حالكم؟» أو: «هل هذه شقة السيد ماندلشتام؟» أو شيئاً من هذا القبيل الذي يقوله أي زائر كي يسمح له فاتح الباب بالدخول، لكن «زوّار الليل» في عصرنا لا يأبهون لمثل هذه المراسم، ككل رجال الشرطة السرية في العالم على ما أعتقد. . . فبدون كلمة ولا لحظة تردد، وإنما في مهارة وسرعة تامتين دخلوا مارّين بي دون أن يدفعوا بي على أية حال، وامتلأت الشقة فجأة بالبشر وهم يفحصون ـ بالفعل ـ أوراق هويتنا، ويمرون بأيديهم فوق مؤخراتنا في حركة دقيقة مدربة، متحسسين جيوبنا للتأكد من أننا لا نحمل أسلحة مُخبأة.

وأتى ماندلشتام خارجاً من الحجرة الكبيرة، وسأل: «هل أتيتم من أجلي»؟ فنظر إليه أحد المخبرين ـ وهو رجل قصير ـ بما يمكن أن نَصِفها بابتسامة خافتة ثم قال: «أوراقك». . . وأخرج ماندلشتام أوراقه من جيبه، وبعد فحصها سلم إليه المخبر «أمر قبض» فقرأه ماندلشتام وأطرق برأسه، وبُلغة الشرطة السرية يعرف ذلك بأنه «عملية ليلية» وبعد فحص أوراقنا قدموا أوامر القبض، وتأكدوا من أنه لن تكون هناك مقاومة، فبدأوا يفتشون الشقة، وغرق برودسكي في مقعده، وجلس هناك بلا حراك كتمثال خشبي ضخم لإحدى القبائل المتوحشة، وتأفف وتنهد، بتعبير غاضب متألم فوق وجهه.

وحين انتهزت ـ لحظة ـ الحديث إليه طالبة ـ فيما أظن ـ أن يحضر بعض الكتب من فوق الرف ليأخذها ماندلشتام معه، أجاب بجفاء: «دعيه يحضرها بنفسه». وبدأ ينفخ من جديد، ونحو الصباح، حين سُمح لنا في النهاية بالمشي داخل الشقة بحرية ولم يعد «الفاحصون المتعبون» ينظرون إلينا تمعُناً ونحن كذلك، أوقف برودسكي نفسه فجأة ورفع يده عالياً كالتلاميذ وطلب السماح له بالذهاب إلى دورة المياه، فنظر إليه رجل الشرطة ـ الذي يريد البحث ـ باحتقار وقال: «تستطيع أن تمضي إلى منزلك»، فقال برودسكي بدهشة: «ماذا؟» وكرر الرجل كلامه «المنزل» وأدار له ظهره، فالشرطة السرية تحتقر معاونيها من المدنيين، ولا شك أن برودسكي قد أُمر بأن يبقى معنا ذلك المساء حتى لا نحاول تدمير مخطوطاتنا حين نسمع الدق على الباب.

قضية السيدة «راتنبري»

«مايو/الماء ـ يونيه/الصيف 1935 افرنجي»

*** جيمس أجيت**

الأربعاء 29 مايو. . . طلبت مني صحيفة «الديلي أكسبريس» أن أسجل انطباعاتي حول محاكمة «راتنبري» في قاعة «أولدبيلي»، وكانت الحقائق شديدة الوضوح ويصعب محاجتها، فالسيدة «راتنبري» وعمرها ثمان وثلاثون سنة، زوجة

لمهندس معماري عمره سبع وستون سنة، وكانت عشيقة لسائقها ذي الثمانية عشر عاماً المسمى «ستونر»، وقد ضرب شخص ما الزوج بمطرقة على رأسه، وألقى كل منهما الوزر على نفسه سواء في وقت واحد أو في أوقات مختلفة.

كانت القضية كلها أشبه بكتابات الروائيين الفرنسيين الكبار الثلاثة، فالطريقة التي أغرت بها المرأة الصبي لأن ينام معها كل ليلة ومع ابنها البالغ ستة أعوام في الغرفة، والزوج له غرفة نومه الخاصة باقٍ على لامبالاته الحسية، كل هذه العناصر تجدها في أدب «بلزاك» خالصة، وفي قفص الاتهام بدت السيدة «راتنبري» وتحدثت تماماً كما تخيلت بنفسي دائماً «إيمابوڤاري» بطلة من قصص «فلوبير»، وهي تتحدث وتبدو، وأخيراً هناك ذلك الجزء من شهادتها الذي وصفت فيه كيف ـ وهي تحاول أن تقلب زوجها ـ وطأت أولاً ـ وبالصدفة ـ طاقم أسنانه الصناعية، ثم حاولت إعادته في فمه حتى يمكنه التحدث إليها، فهذه العناصر تجدها خالصة في قصص «إميل زولا»، وتنقشع وضاعة الأمر كله بشيء واحد فقط، وذلك حين سألها المستشار عن أول شيء فكرت فيه حين دخل حبيبها للفراش تلك الليلة وأخبرها بما فعل، أجابت: «أول ما فكرت أن أحميه». وهذا سلوك يمكن أن يسميه الأديب «بلزاك» التضحية بالنفس، من الغريب أن هذا ـ بقدر ما رأيت ـ ما لم تذكره صحيفة واحدة.

الجمعة 31 مايو... تمت تبرئة السيدة راتنبري وحُكم على «ستونر» بالموت، والأمر الثاني ما كان يجب أن يحدث أبداً، ولو كنت بين المحلفين، لكنت أصررت على أن يكون الحكم «قتل غير متعمد»، وشيء سيء رغم أن ذلك قد يكون في القانون، لأن هناك شك في أن يؤدي طلب العفو المقدّم في تلك القضية إلى أثر ما...

الأربعاء 5 يونيه، ... بينما نجلس في السيارة، أتت الصحف بالعنوان التالي: «السيدة راتنبري تُطعن وتغرق»، ويقول: «إن السيدة راتنبري قامت بطعن نفسها ست مرات على ضفة النهر وغاصت فيه لتغرق نفسها». فقال: «ريجي آركل» إن ذلك الحادث أكثر ما رآه في الشوارع إثارة منذ خبر «غرق السفينة

تيتانيك»، وكان الخبران اللذان صدماني أكثر من غيرهما بهذا الصدد هما: «القبض على كريبن» الذي قرأته على رصيف الميناء في «لاندوودنو»، وما زلت أستطيع تحديد المكان الذي وقف عليه بالضبط، ثم عنوان الصحيفة الذي يعلن «موت ماري لويد» وأذكر كيف شدني ذلك للرصيف، في طريق «توتنهام كورت»...

الحملة الإيطالية على الحبشة
انسحاب جيش الإمبراطور إلى كوريم
«4 - 5 أبريل/ الطير 1936 افرنجي»

*** النقيب كونو ڤالوف**

«قام موسوليني بغزو الحبشة «أثيوبيا» يوم 3 أكتوبر 1935 افرنجي وكانت القوات الوطنية ضعيفة التسليح عارية الأقدام، والقوات الإيطالية باستخدامها الأسلحة الحديثة وغاز الخردل أحدثت بهم خسائر ضخمة، وهذا تقرير عن فرار الجيش الأثيوبي بعد هجومه غير الناجح على الإيطاليين عند «ماي تشاو» يوم 31 مارس كتبه النقيب كونو ڤالوف، وهو مستشار روسي أبيض في الشؤون العسكرية مع قوات الإمبراطور».

.. في الوقت نفسه حدث شيء ما على الجبهة، وكان الأثيوبيون قد هجروها، لأن انفجارات قذائف العدو - رغم أنها أقل تردداً - بدت شديدة القرب، وعرف كل واحد مدى حرج موقفنا.

كان من المحال أن تجد جندياً واحداً مستعداً لطاعة أي أمر ولو حتى في مكانه الصحيح، فانساب الجنود في كل اتجاه في جماعات غير منتظمة، فامتلأ بهم الجبل وعاد الإمبراطور لنقطة مراقبته بعد غداء متأخر، لكن كان هناك ضباب كثيف لا يستطيع المرء معه تمييز الأشياء إلاّ قليلاً، وقبل هبوط الليل عقدوا اجتماعاً جديداً، بدأوا بعده بقليل يفحصون الأمتعة التي تملأ الكهف - في مركز

المراقبة ـ لتحديد ما يمكن أخذه معهم، وكثر فتح الصناديق والأحمال، ومع اقتراب حلول الليل، بدأ الإمبراطور يوزع بنفسه ما لن يستطيع حمله معه من ذخائر وقطع من القماش وشراب وطعام محفوظ وتموين من كل الأنواع، فامتلأ الكهف بالجنود الذين أملوا في انتهاز الفرصة.

وحين رغب الإمبراطور في مغادرة الكهف، استطاع أن يشق طريقه بصعوبة شديدة، فهناك ضرب وصراخ وتدافع، وفي النهاية غادرت المجموعة بغنائمها...

غادرنا «إيا» الساعة 9,30 ويممنا شطر طريق «كوريم»، وخلفنا فجروا كل المدفعية وذخائر السلاح، وعلب البترول وصفائح الزيت التي دمرت معها كل أكوام القمصان الممزقة وأغطية الرأس الحريرية السوداء، كنا نأمل بها أن نجذب جماعة «الآزيبوجالا» لجانبنا.

وهجر الباقون محطة «الاتصال اللاسلكي» للميدان، وكان هبوطنا من الجبل مخيفاً خاصة وأن الليلة كانت شديدة الظلام، ومع كل دقيقة كان الطريق يزدحم.

فحين كان الأثيوبيون يسيرون، كان هدف كل واحد منهم أن يتخطى الآخرين، كما حاولت تلك الجماعة من الناس أن تشق طريقها عبر الحمير والبغال ومئات من الأثيوبيين الآخرين، فخلقت فوضى لا تصدق. واستغرقنا الليلة كلها لقطع العشرة كيلو مترات ـ تقريباً ـ التي تفصلنا عن بحيرة «أشانجي»، ولم أعد أرى الإمبراطور ولا أبناء «راس كاسا» الذين سافرت معهم من قبل، وأسير الآن مع مجموعة من الجنود.

وعند الفجر فقط لحق بي اثنان من حاشية الإمبراطور ـ فهما أيضاً فُصلا وسط الزحام ـ وأسرعنا، إذ قد تظهر الطائرات في أي لحظة، ففي الأيام الأخيرة تلك قصفوا بلا توقف الحدود غير المحمية لبحيرة «آشانجي»، وأضحى الطريقان منها للشمال وللجنوب ممتلئين بقطارات البضاعة والجنود، وبعد توقف قليل، قررت المضي قدماً نحو «كوريم»، لكن رفيقيّ لم يستمرا معي.

كانت الساعة السابعة «صباحاً» حين شوهدت أول طائرة، وانهالت القذائف على جنودنا في أنسحابهم، ثم ظهرت طائرات أخرى. وحين عبرت الممر وهبطت نحو الوادي، انهال القصف بلا حدود ووحشية، أربع عشرة طائرة استدارت وألقت قنابلها على السيل المتواصل من البشر الذي يشق طريقه إلى «كوريم»، فكان عليّ أن أرحل على يسار هذه الجماهير. . . ولن أنسى ما حييت الصورة التي رأيتها: الوادي المتسع الذي تفيض مياهه في موسم الأمطار، في جزء منه يقع مستوياً تحت شمس إفريقيا اللاهبة، وبجواره سطح البحيرة الأزرق يترجرج في يسر بفعل نسيم الهواء، وعلى طول الطريق يجر الناس أنفسهم، متناثرين في لحظة عند الاضطراب أو يترابطون في جماعات، وترى أربع، ست، ثماني قنابل تنفجر الواحدة تلو الأخرى، ساقطة على مسافة من الطريق فلا تصيب أحداً. . .

يسرع الناس الخطى، فتجد طائرة أخرى يبدو أنها تختار ضحاياها، لأنها تطير فوق رؤوسهم تماماً، وتسمع انفجاراً. . . وآخر يرتفع قاذفاً بكتل الطين والرمل والحجر، فيصاب الناس هذه المرة، ويصبح كل شيء حولي متناثراً، والتفت فيما حولي لأجد شخصاً يموت فوق الأرض، صورة تمر بهدوء، ويدفع ـ الخوف ـ الناس الأحياء قدماً في طريقهم بلا التفات للبائس الذي لا يستطيع متابعتهم لأنه فقد ساقيه، في الوقت نفسه قام حلفاؤنا «الآزيبوجالا» بإطلاق النار علينا من قمم التل حيث توجد قراهم، وحين يجدون بعض المتعثرين يقتلونهم، ويسلبون من الأجسام الدامية البنادق والذخيرة والملابس. أمامنا جزء من تل لا يمكن لأي منا تجنبه، فعلى جانب من الطريق توجد البحيرة وعلى الآخر الجبال، والممر ضيق، ووجد الطوفان البشري صعوبة في التضاغط والمرور.

كان كل واحد منا يعلم أن في كل شجيرة أو وراء كل صخرة رجلاً خائناً من «الآزيبو» متحفزاً، كما ينهمر سيل من القذائف فوق المارين مصيباً كل الحيوانات والبشر، فيا للحمير الأثيوبية المسكينة!. . . كم شاهدتها فوق الطريق وفكوكها متناثرة أشلاءً، وتفجرت عيونها من محاجرها، وبطونها شقتها القنابل. . . ثم عبرنا الممر الخطير بقعة وراء بقعة كلها قاتمة، كانت هي بقع الدماء التي جفت سراعاً تحت شمس تمتلىء بالحياة، وكانت هي ـ أيضاً ـ دليلنا للطريق. . . ،

فأسرعنا قُدماً فوق جثث ممددة ومتدحرجة، ومرة أخرى وجدت نفسي في مكان متسع حيث حاولت البقاء بعيداً عن التزاحم.

وخلف دوران في الطرق، سقطت قنبلة في التو، ورأيت الأثيوبي الذي أمامي ينحني فوق جسم ممدد ويسأل: «ماذا حدث؟»، فيجيبه الرجل المصاب: «إنها قنبلة، أعطني علاجاً من فضلك». قالها وهو يدير عينيه في رجاء نحوي «لا أريد أن أُترك وحدي» وهو يرانا، أنا والأثيوبيين الذين يأتون خلفي، نعدو على طول الطريق.

وبينما أمضي، أرى ثانية وجهاً لا يعدو أن يكون ـ الآن ـ فقاعة من اللحم الدامي، يتعلق به صبي صغير وهو يشهق باكياً باذلاً جهده لمساعدة الجريح، بينما يتساقط آخرون حولنا، كنا نجري ونجري، وفي النهاية اقتربنا من كهوف كوريم التي سوف تحمينا من رصاص «الآزيبو» والطائرات.

وفوق صف من التلال المغطاة بالشجيرات، تنتشر «التوكولز» الملكيات الصغيرة ذات الخصائص الأثيوبية المحاطة بأسوار من أعمدة خشبية، وعلى البعد فوق جبل صغير، توجد إقطاعية أكبر وأكثر نظاماً، تخص الحاكم المحلي، وهرعت أسفل التل ومضيت نحو المنحدر حيث توجد الكهوف.

وأسفل عند أقدامي حيث يتبدد البصر، يتمدد الوادي الذي يسكنه رجال «آزيبو جالا» المفزعين.

حان الوقت الذي أصل فيه لملجئي، ساعة جاءت طائرتان تحلقان ـ بالفعل ـ فوقي...

الاقتراب من أديس أبابا
تقرير لصحفي أمريكي مصاحب للطابور الفاشيستي المدرع
«18 أبريل/الطير 1936 افرنجي»

*** هربرت ماتيوز**

إن الصعود خلال ممر «آلاجي» كان سبباً للدهشة أمام المهارة الهندسية والقدرة الفيزيقية التي استطاعت حفر مثل ذلك الطريق من جانب جبل منحدر

يصعب على البغلة نفسها تسلقه، وبينما نصعد، تكشفت خلفنا مشاهد طبيعية كما لو كان امرؤ ما أخذ يقلب صفحات كل الرحلات التي قمت بها خلال شهور الحملة السبعة، وبالقرب من القمة وقفت لألقي نظرة أخيرة، وبعيداً نحو الشرق استطعت أن أرى الهضبة تغطس إلى أسفل حتى «دانكليا»، وهناك ترى منطقة «الآجامي» حيث ما زال رجال «الماريوتي» يطاردون قبيلة «الكاساسيبات» الفارة، و«التيجري» و«الإندرتا» و التيمبيان» و«السيري».

وهناك على البعد باتجاه الغرب، تحتفظ «رأس داسيان» بإطلالتها الخالدة فوق الأرض المتوحشة الرائعة... حتى الظهر، حققنا تقدماً رائعاً، ولكن حين كنا نقوم بهبوط طويل، عاق تقدمنا ازدحام - ظننا - أنه يحتوي على عشرات قليلة من السيارات، وفي الواقع كنا في فوضى مرورية تشمل 800 شاحنة تمتد لأكثر من خمسة وعشرين ميلاً، وتبقى ما لا يقل عن ثلاث وعشرين ساعة!!... إذ بقينا هناك بلا حراك حتى الحادية عشرة من الصباح التالي، وكانت الشاحنة التي تحمل معداتنا وخيامنا وفراشنا بعيدة في المؤخرة، مما يعني أن علينا النوم في السيارة «الفيات» وكانت ليلة شديدة الغرابة...

كنا في كل مكان في الحبشة، فوق أعالي الجبال التي تشعر منها بمشهد خلفي «بانوراما» ضخم دون أن تراه، والأحجام الهائلة للنجوم المدارية تبرز بكل بهائها الإشعاعي، والنيران تتقافز واحدة وراء الأخرى في خط لا ينتهي وراءنا، بدا ممتداً نحو أعماق لا نهائية، وسمعنا لمدة طويلة غمغمات وتحركات رفاقنا البشر التي تدعو للراحة وهم يعدون مثلنا لقضاء ليلة رومانسية بوضع غير مريح.

ودلل الميجور «برانكا» مرة أخرى على عبقريته النشطة حين جعل العمال يقيمون جهاز استقبال وأسمعونا - في الحال - نغمات روما ولندن وبرلين، فشعرنا أننا مستمعون فوق المريخ. نلتقط الصدى من عالم آخر، وبدا شيء غير مصدق أن تكون هناك أية صلة بيننا وبين أوروبا، حيث تأتينا تلك النغمات الآسرة لموسيقى «الجاز» وأغاني «نابولي» الحزينة، ونحن نجلس مرتعدين في هواء الليل البارد، خلال تلك الفترة في رحلة تاريخية.

وحول بعضهم مؤشر الراديو من روما إلى لندن، وكانت محطة الأخبار وبدت واضحة، لقد أرسلوا لهم تقريراً على ما يبدو أن الإيطاليين احتلوا «ديسي» ـ التي احتلت يوم 15 أبريل ـ لكن حكومة أديس أبابا أنكرت ذلك، لذا حاذر كل المستمعين للحفظ على حكمهم في الأمر، وحقيقة ـ على أية حال ـ أن وضع الحبشيين بدا «صعباً» إلى حد ما، ثم تلا ذلك تقرير عن معركة حدثت ـ على ما يظهر ـ شمال كوريم، حيث هاجمت قوة هائلة من الأثيوبيين الجيش الإيطالي بعنف وبالتالي أوقفت تقدمهم نحو الجنوب. وقمنا نحن ببعض إطلاقات النار السريعة، ليس هناك شك في هذا، فموقع القتال كان حيث نحن بالضبط، ودون أن ندرك أدنى فكرة عن ذلك، أقمنا هناك، وسط معركة دموية في الطريق لمدينة لم يحتلها الطليان بعد، يا. . ه يا لحمق هذا الفعل، إذ اندفع الإيطاليون في الضحك، ولكن كصحفي شعرت بالخجل من مهنتي، وذلك الصوت الزلق بلكنته «الأكسفوردية» المائعة، نصفها أُنثوي، ونصفها مذكر كان مزعجاً لدرجة يصعب وصفها، . . . يا لإنجلترا المسكينة. . .

من الحرب الأهلية الأسبانية

«26 أغسطس/ هانيبال 1936 افرنجي»

*** جـ.ل. ستير**

إن معركة ليلية داخل الغابة تعد من أروع ما يمكن رؤيته من مشاهد، فالتفاصيل المؤلمة للحرب تمتصها الظلمة بعيداً، فلا جنود مرهقون، ولا جرحى يغرقون في عرقهم، ولا موتى يرقدون ثقالاً فوق العشب المزعج اليابس، وتتجنب رؤية صناديق الذخيرة المتكسرة، والعلب المفتوحة وأكوام النفايات التي يخلفها المعسكر المؤقت، وبسرعة لا تشق الخنادق المحفورة الضفاف المعشوشبة، كما لا تشفق على الطرق والحقول الممتلئة ثقوباً غير منتظمة بفعل القذائف تحت عباءة من التراب، إذ تسمو الحرب لتصبح سيمفونية من الأضواء الزرقاء والصفراء بخلفية قائمة من الانفجارات، تقوم الرصاصات والقذائف فيها بدور الأوتار مع

رياح واعدة في أوركسترا متناغمة أبداً، إن الحرب ليلاً شيء خفي.

فهناك حيث تلمع غابات «زوبيلزو» بجانبها نحو «أرليتز»، تلمع الغابة المظلمة بآلاف وآلاف من خيوط البرق المتوهجة ونفثات ألسنة اللهب المستوية التي تضيء جذوع الشجر كخيوط منتصبة جامدة، وعند منتصف «زوبيلزو» حيث تقطع قبة التل الرملية الأضواء والسماء الليلية ذات النجوم، فتنعكس الشرارات الخيطية البارقة عائدة إليك، وفيما بين خروج شحنات المورتر تلمع كأوراق الزينة بلون أحمر، وبين انفجار قنابلها كشموع تضيء بالأصفر، تجد شرائط الزينة والمعلقات والشموع والوميض والعتمة خلفية لها، وما ذلك سوى شجرة عيد ميلاد عملاقة ومضاءة، تُبدى حيناً وتُخفى حيناً ـ من وسط أوراقها ـ زينات طفولتنا ـ والأسطح التي تلتقط وتشطر النار إلى جزيئاتها الرائعة من أشعة برتقالية وزرقاء كهربية وذهبية شديدة الهشاشة لمجرد اللمس.

وهم ساحر أمامي، أنا الذي جلست ملتفاً «ببيجامتي»، في انبهار طفولي، محملقاً عبر النهر الذي يدور تحت القمر، وأسمع صوت تحطيم لعبة عُلب الصفيح غير المؤذية، كالمعلقات التي تحتك بحدة معدنية مع أفرع شجرة عيد الميلاد المرتعشة حين تنزل منها الهدايا، والانفجارات الأعلى صوتاً هي الكسارات تُسحب حول شموع الاحتفال في «زوبيلزو» فلا قتل ولا عاهة أو عطش أو جوع أو ألم يمكن أن تراه عبر نظارة الميدان المتطفلة، وإنما روعة الحرب فقط تحت القمر، وأمام القوس اليقظ للجبل مع غابات الصنوبر...

الطائرات الألمانية تدمر «الجورنيكا»
الحرب الأهلية الأسبانية
«26 أبريل/الطير 1937 افرنجي»

*** نويل مونكس**

مررت ببلدة «جورنيكا» الساعة 3,30 مساءً تقريباً، وذلك الوقت بالتقريب بنيته على أساس أنني غادرت «بيلباو» الساعة 2,30. وكانت «جورنيكا» شديدة الازدحام

فاليوم يوم السوق، فمررنا عبر البلدة واتخذنا طريقاً قال أنطون: إنه سيؤدي بنا إلى مكان قريب من «ماركينا»، حيث توجد الجبهة ـ بقدر ما أعلم ـ، وكانت الجبهة هناك فعلاً لكن «ماركينا» لم تكن، لقد سوَّتها قاذفات القنابل بالأرض، كنا على بُعد ثمانية عشر ميلاً شرق جورنيكا حين انتحى «أنطون» جانباً من الطريق، وهو يضغط على الكابح «الفرامل» وبدأ في الصياح وأشار أمامه بعنف، ودق قلبي بشدة حين نظرت.

ففوق قمم بعض التلال، ظهر سرب من الطائرات، دستة ـ تقريباً ـ من القاذفات كانت تطير عالياً، ولكن أكثر انخفاضاً منها تجد ست مقاتلات «هينكل 52» تبدو وكأنها تحف بقمم الأشجار، تطير القاذفات إلى «جورنيكا»، بينما تبحث طائرات «الهينكل» عن غنيمة عشوائية، فرصدت موقع سيارتنا.

وملتفة كسرب من الحمام الزاجل اصطفت فوق الطريق وسيارتنا، ألقيت بنفسي ـ كذلك أنطون ـ في حفرة قنبلة سابقة على مسافة عشرين ياردة من جانب الطريق كانت ممتلئة لنصفها بالمياه، فزحفنا في الطين نصف راكعين نصف واقفين، ورأسانا مدفونان في الجانب الموحل من الحفرة، وبعد نظرة متفحصة نحو «الهينكلز» لم أعد للنظر إليها حتى طارت مبتعدة، وخلت ذلك دهراً، في حين أنه يقل عن عشرين دقيقة على وجه الاحتمال، وقامت الطائرات بعدة جولات على طول الطريق، وتشظت رصاصات الرشاش الآلي في الوحل أمامنا وخلفنا وكل ما حولنا، فبدأت أقشعر خوفاً، وأول أمس فقط، زودني «ستير» ـ أحد الخبراء الآن ـ بنصيحة مختصرة إذا ما واجهت القصف: «ابقَ راقداً منبطحاً بقدر ما يمكنك، ولا تنهض وتبدأ في الجري، وإلاّ سوف تُقصف بالتأكيد».

وحين رحلت «الهينكلز» وقد أفرغت حمولتها التي تشرفت بمعرفتها، عدوت أنا «أنطون» بسرعة لسيارتنا، وبالقرب منها تحترق سيارة عسكرية بشدة، وكان كل ما استطعنا فعله أن نسحب جثتين اخترقهما الرصاص إلى جانب الطريق. كنت أرتعد من أعلاي لأسفلي في قبضة أول خوف حقيقي خَبرتَهُ في حياتي... ثم تلاشت الرعدة فجأة وشعرت بالهدوء، تلك كانت أياماً في خبرة التقرير الصحفي

من الخارج حين كانت الخبرات الشخصية هي النسخة المرسلة، إذ لم تكن حرب قد استمرت ثمانية عشر عاماً بعد، وهي فترة طويلة تكفي أولئك الذين مروا بالحرب الأخيرة كي ينسوا، ولجيل ونصف ممن لا يعرفون شيئاً عن الحرب كي يهتموا بها، وقد تعودنا أن نطلق على تلك التقارير «قصص أنا»، وحين انتهت الحرب الأسبانية عام 1939 افرنجي كنا قد مللنا الكتابة عنها في أعماقنا كما لا بد وأن الناس قد ملّوا قراءتها. . .

عند سفح التلال المؤدية إلى «جورنيكا» خرجنا من الطريق العمومي، واتخذنا طريقاً آخر عائدين إلى «بيلباو»، وهناك إلى يسارنا باتجاه «جورنيكا»، تناهى لأسماعنا دوي القنابل، وأعتقد أن الألمان قد رصدوا تعزيزات تتحرك من «سانتاندر» لتثبيت الانسحاب، فواصلنا التقدم نحو «بيلباو».

وعند مقر الرئاسة كان «ستير» و «هولم» يكتبان برقيات عاجلة وطلبا مني الانضمام إليهما على العشاء في فندق «ستير». . .

تناولنا أول أطباقنا من الفول، ومكثنا بانتظار الطبق التالي من لحم الثور، عندئذ، اندفع موظف حكومي داخل قاعة الطعام والدموع في عينيه باكياً: «لقد دُمرت جورنيكا، ظلت الطائرات الألمانية تقصفها كثيراً».

كانت الساعة 9.30 مساء تقريباً، خبط الكابتن «روبيرتس» المائدة بقبضته الضخمة قائلاً: «خنازير متوحشون». وبعد خمس دقائق، كنت في سيارة ليموزين تابعة لـ «ميندیجورينز» نسبق الريح إلى «جورنيكا». وكنا لا نزال على مسافة عشرة أميال كاملة حين رأيت انعكاسات لهب حريقها في السماء. وبينما نقترب أكثر نشاهد على كلا الجانبين رجالاً ونساءً وأطفالاً يجلسون في ذهول، ورأيت أحد القساوسة وسط الناس فأوقفت السيارة وذهبت إليه وسألته: «ماذا حدث أيها الأب»؟ كان وجهه مغبراً وثيابه مهلهلة، ولم يتمكن من الحديث، وأشار لألسنة اللهب المتصاعدة فقط، التي لا تزال على مبعدة أربعة أميال ثم همس: «طائرات. . قنابل. . كثيراً. . . كثيراً». ووفقاً لتقاليد روايات «الأنا» الحديثة، كنت أول مراسل يصل «جورنيكا» وفي الحال دفعني للعمل معهم بعض جنود «الباسك» الذين يقومون بجمع الجثث المتفحمة التي التهمتها النيران، وكان

بعضهم يبكي كالأطفال، وسط اللهب والدخان والحصى المتطاير ورائحة اللحم البشري المحترق المُنفرة، وكانت المنازل تهوي داخل الأتون المشتعل.

وفي الميدان الذي يكاد يحيطه سور كامل من النيران، كان هناك حوالى مائة لاجىء ينوحون ويبكون ويتخابطون جيئةً وذهاباً، وأخبرني رجل - في منتصف العمر - يتحدث الإنجليزية عما حدث بقوله: «عند الساعة الرابعة، قبل أن ينتهي موعد السوق، أتت طائرات كثيرة وألقت بقنابلها، وبعضها كانت منخفضة وأطلقت رصاصاتها في الشوارع، كان الأب «آروناتيجي» رائعاً، لأنه صلى بالناس في الميدان أثناء سقوط القنابل». كان الرجل لا يعرفني كلية بقدر ما أعلم - وهو يخبرني بما حدث «لجورنيكا». وكانت معظم شوارع البلدة تبدأ أو تنتهي بالميدان، وكان مستحيلاً أن تسير في أي منها - الآن - إذ أصبحت كلها أسواراً من النيران، وتكوم الحطام عالياً، واستطعت أن أرى أشكالاً من الظلال بعضها ضخم وبعضها مجرد رماد، ودرت إلى خلف الميدان مع الأحياء، كانوا كلهم يروون نفس الحكاية»، طائرات... رصاص كثير... قنابل... ونيران»..

وخلال أربع وعشرين ساعة، حين ملأت تلك الرواية الكئيبة أسماع العالم كان فرانكو في طريقه ليسم أولئك الناس المرتعبين المشردين بأنهم كذبة، وكان بعض الخبراء البريطانيين المزيفين في طريقهم إلى «جورنيكا» وبعد أسابيع، حين استبدلت رائحة اللحم البشري المحترق بعلب البترول المسكوبة هنا وهناك بين الحطام، بواسطة جنود «مولا» أصدر الخبراء أحكامهم الزائفة «أن جورنيكا قد أُشعلت فيها النار عمداً بواسطة الثوار».

قناص فاشيستي وجريح...
الحرب الأسبانية الأهلية

«20 مايو/ الماء 1937 افرنجي»

*** جورج أورويل**

كنت على الجبهة حوالى عشرة أيام حين حدث ذلك، والمروو بتجربة

الإصابة برصاصة، مسألة مثيرة وأعتقد أنها تستحق أن توصف بالتفصيل.

كان ذلك عند ركن الساتر في الساعة الخامسة صباحاً، وهو دائماً وقت خطير، لأن الفجر ـ ينبلج من خلفنا، فإذا ما ألصقت رأسك فوق الساتر، يصبح محدداً بوضوح وخلفيته السماء، وكنت أتحدث مع الحراس تمهيداً لتغيير الحرس، وفجأة ووسط الكلام تماماً، شعرت ـ ومن الصعوبة بمكان وصف ما شعرت ـ مع أني أذكره بكل حيوية الذكرى، فمن الصعوبة الحديث عن الإحساس بوجود المرء في قلب الانفجار، إذ بدا أن هناك ضربة مدوية وخليط من الوميض حولي، ثم شعرت بصدمة هائلة بلا ألم، لكنها صدمة عنيفة، تماماً كما لو كنت خارجاً من تيار كهربائي مصحوباً بضعف مطلق، شعور بأنك ضربت و «اهتززت» حتى لم يبق منك شيء، وتراجعت «أكياس الرمل» الساترة أمامي إلى مسافة بعيدة، وإني لأتخيل أنك قد تشعر بنفس القدر من الإحساس لو صعقك البرق.

وعلمت في الحال أنني أصبت، ولكن بسبب ومضة الضوء البادية، اعتقدت أن بندقية قريبة مني هي التي انطلقت خطأ وأصابتني، وحدث كل هذا في أقل من ثانية، وفي اللحظة التالية تثنت ركبتاي وبدأت في السقوط، واصطدم رأسي بالأرض في خبطة عنيفة لكنه ـ لحسن حظي ـ لم يُصب، وشعرت بخدر وذهول ووعي بأني أصبت إصابة سيئة دون ألم في إحساس بشكل عام، وتحركت الدورية الأمريكية التي كنت أتحدث معها قدماً ليسألوني: «يا الله.. هل أصبت؟» وتجمع الناس حولي، وبدا اللغط المعتاد: «ارفعوه»، «أين أصيب»، «افتحوا قميصه!»... الخ.

وطلب الأمريكيون سكيناً ليفتحوا بها قميصي، وكنت أعرف أن هناك مُدية في جيبي فحاولت إخراجها، لكنني اكتشفت أن ذراعي اليمنى مشلولة الحركة، ولأنني لم أحس ألماً ما شعرت براحة غامضة، وأظن أن ذلك حدث كي تُسر زوجتي التي أرادت لي دائماً أن أُجرح، مما ينقذني من القتل حين تقوم المعركة الكبرى، وطرأ لي الآن فقط أن أتساءل أين أصبت، وما حجم الإصابة؟ فلم أشعر بشيء، لكنني كنت أعي أن الرصاصة قد أصابت مكاناً ما من مقدمة جسمي، وحين حاولت

الكلام، وجدتني بلا صوت، مجرد «صوصوة» خافته، ولكن في المحاولة الثانية، نجحت في السؤال عن مكان إصابتي، فقالوا في الزور، وقد أحضر هاري ويب ـ حامل نقالتنا ـ رباطاً وزجاجة من الكحول أعطوها لنا كإسعافات ميدانية.

وبينما هم يرفعونني تصبب من فمي الكثير من الدماء وسمعت جندياً أسبانياً خلفي يقول: إن الرصاصة قد مرت خالصة عبر الرقبة، وشعرت بالكحول الذي يلسع في الأحوال العادية بشكل مؤلم تغلغل في الجرح بَرْداً وسلاماً، ثم وضعوني أرضاً مرة أخرى في حين أحضر شخص ما نقالة، وأول ما علمت أن الرصاصة خرجت خالصة من خلال رقبتي، تأكدت أن الموت جاء، إذ لم أسمع بإنسان أو حيوان أصيب برصاصة عبر رقبته وعاش بعدها، وكانت الدماء تتساقط من جانب فمي ففكرت: «أن الشريان قد قطع» وتساءلت كم يبقى المرء حياً حين يُقطع الشريان العنقي؟ ليس كثيراً فيما أظن..

كان كل شيء ملطخاً بالدم، ولا بد أنه كان هناك ما يقرب من دقيقتين تأكدت خلالهما أنني قتلت، وكان ذلك ـ بدوره ـ مثيراً، وأعني أنه من الشيق أن تعرف ما تكون عليه أفكارك في مثل هذه اللحظات، وكانت أول أفكاري ـ شاملة بما فيه الكفاية ـ حول زوجتي، والثانية كانت الشعور بالأسى العنيف لتركي هذا العالم الذي، حينما نقول كل شيء عنه أو نفعل، يناسبني تماماً، وكان أمامي وقت لأشعر بكل ذلك في حيوية.

أثارت تلك الصدفة السيئة الغبية غضبي،.. فهي بلا معنى!!.. أن تُضرب هكذا، وليس حتى في معركة، وإنما في ذلك الركن السخيف من الخنادق بفضل لحظة لا مبالاة، وفكرت ـ كذلك ـ في الرجل الذي ضربني متسائلاً، كيف شكله؟ سواء كان أسبانياً أم أجنبياً، وإذا كان قد علم أنه أصابني، وهكذا... ولم أشعر بأي حقد عليه، وانعكس ذلك في داخلي بأنه طالما هو فاشيستي فسوف أقوم بقتله إذا تمكنت من ذلك، أما لو أسروه وأحضروه أمامي هذه اللحظة، إذن لقمت بمجرد تهنئته فقط على حسن تصويبه، وربما ـ رغم كل شيء ـ أنه في حالة احتضارك فعلاً تكون أفكارك مختلفة تماماً.

كانوا قد وضعوني لتوهم فوق النقالة، حين عادت ليدي المشلولة الحياة وبدأت تؤلمني بشدة، ولفترة تخيلت أنني كسرتها أثناء سقوطي ولكن الألم طمأنني، لأنني علمت أن إحساس المرء لا يصبح أكثر حدة حين تحضره الوفاة، فبدأت أشعر بشكل طبيعي وأن آسف لأولئك الأربعة المساكين الذين يغرقون في العرق ويتعثرون بالنقالة على أكتافهم. كانت المسافة لمركز الإسعاف ميلاً ونصف، والطغمة تسير فوق ممرات زلقة موحلة، وكنت أعلم ما هو ذلك العرق، إذ ساعدت منذ يوم أو يومين في نقل جندي جريح إلى هناك، ومسحت أوراق أشجار الحور الفضية - التي تحد خنادقنا في بعض المناطق - على وجهي، ورأيت أنه لشيء جميل أن تكون حياً في عالم ينمو فيه الحور الفضي، لكن طوال الوقت كان الألم في ذراعي حاداً يجعلني أسب وألعن ثم أحاول ألا أفعل، إذ في كل مرة أتنفس فيها بشدة ينبثق الدم من فمي.

ملاكمة لويس - شميلنج

«22 يونيه/الصيف 1938 افرنجي»

*** بوب كونسيداين**

«أصبح شميلنج بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل حين هزم «جاك شاركي» في مباراة عام 1930 افرنجي، وضرب «جولويس» بالقاضية في الجولة الثانية عشرة يوم 19 يونيه 1936 افرنجي في نيويورك، وفاز لويس باللقب العالمي عام 1937 افرنجي، ثم استعاده في مارس 1949 افرنجي حين اعتزل».

أنصت لهذا - يا عزيزي - لأنه يصدر عن شخص ما زالت كفه عرقانة وحَلْقُه جافاً وفكه فاغراً من الصدمة الهائلة لحظة مشاهدة «جولويس» يضرب «ماكس شميلنج» بالقاضية كانت شيئاً مرعباً تلك الضربة القاضية، فهي قصيرة حادة كاملة ولا رحمة فيها، كان جولويس يشبه «ياياً» نحاسياً منحنياً شديد الضخامة، تم لفّه بإحكام مرات ومرات عبر أسابيع من التدريبات حتى أصبح كتلة واعدة من السم الناقع.

وضرب شميلنج هذا «الياي»، ضربة بقبضة يده اليمنى الخاطفة في الدقيقة الأولى من المباراة، فانفجر «الياي» ـ وقد آلمه التوتر ـ فجأة كشحنة نحاسية من النشاط، وذراعين صلبتين بُنيتين، وهو يدير قبضتين لا تخطئان، غارقتين تحت الأضواء البيضاء الحارة لحلقة الملاكمة، وكان شميلنج في طريقهما، كرجل وقع واعتصرته المخالب المتسارعة لآلة محمومة مجنونة.

وكانت الجماهير ـ وهي أضخم وأكثر ما يمكن أن نتوقع رؤيته من بشر أتوا لرؤية مباراة ملاكمة في ملعب للكرة ـ قد عرفت أن هنا تكمن النهاية قبل أن تبدأ بالفعل، عرفت ذلك، فوقفت وأطلقت صرخة واحدة طويلة والناس الذين دفعوا ما قيمته 100 دولار لمقاعدهم لم يستخدموها، عدا أنهم وقفوا عليها، كأفضل وسيلة للإبقاء على المشهد لامعاً في ذاكرتهم.

كانت هناك أربع خطوات لضربة شميلنج القاضية.. فبعد ثوانٍ قليلة من توجيه شميلنج لضربته الوحيدة في المباراة، حاصره لويس بضربة خطافية صغيرة مميتة، دفعته إلى الحبال حتى إن يده اليمنى علقت بالحبل العلوي كالسكران المتعلق بأحد الأسوار، فهجم عليه لويس ضارباً بكل أجزاء جسمه حتى دفعه الحكم «دونوفان» بعيداً عن الحبال وقام بالعد «واحد»، وترنح شميلنج مبتعداً عن الحبال مذهولاً دائخاً، ونظر إلى ركنه كالتائه، وقبل أن يرد رأسه ثانية كان لويس فوقه من جديد، أولاً بضربة يسرى ثم باليمنى المرعبة التي أطلقت صوت «تكسير» حين اصطدمت بفك الملاكم الألماني، وسقط ماكس أرضاً مصاباً وهو يتقلب حتى العد «ثلاثاً»... ثم أخذ يشد نفسه لأعلى كما لو كان هواء الليل ثقيلاً كالماء الأسود، وقام لويس ـ وفتحتا أنفه كماسورتي بندقية ـ بخطوة هادئة ليتركه لنفسه.

سقط ماكس بسرعة، فاقداً وعيه، وأصابعه تلمس مشمع الأرضية كمتسكع هزلي أخرق يمارس تمارينه الصباحية، ركبتاه منحنيتان، ولسانه يتدلى من رأسه.

ثم نهض بما يكفي لضربه من جديد، هذه المرة سقط ووجهه القاتم غير الحليق قد دُفع وسط الحصى الملتصق.. وقفز لويس بعيداً بخفة وعيناه تلمعان

في سعادة، وبالنسبة «للمنشفة البيضاء» علامة الاستسلام التي رفض معاونو لويس استخدامها منذ عامين رفرفت الليلة فوق الحلقة شديدة البلل، قذفها «ماكس ماشون» - المدرب - متناسياً حقيقة أن مباريات الملاكمة لا تنتهي بهذا الأسلوب في نيويورك، فانتزعها الحكم من فوق الأرضية وأطاح بها لتخبط في الحبال وتعلق هناك معاقة مثل «شميلنج»، وعد «دوتوڤان» حتى «خمسة» عليه، شاعراً بعدم جدوى ذلك كله، ثم أوقف المباراة.

وبدأت الجماهير الضخمة تستبق أبواب الخروج، والعديد منهم الآن يقبل «لويس» كبطل للعالم، في حين يتمدد شميلنج على مقعده وعينيه قد ضاعتا هناك في ركنه، ونهض بعد ذا، ورداؤه الرمادي - الأسود المتسخ على كتفيه، وتسلل خلال الثلة السعيدة المحلقة حول لويس، وضع يده فوق «الزنجي» - يقصد لويس - وابتسم، كلاهما ابتسم، فهما قد كسبا ثروة، لأن «لويس» ساوت دقيقته 200,000 دولار وشميلنج 100,000 دولار، ولكن ما أن حَبَا «شميلنج» نحو قلب الأستاذ الكبير حتى أدرك آثار هزيمته، فهو الذي فاز باللقب بحيلة صناعية خادعة - وبصورة جزئية - وهزم لويس منذ عامين بمعونة ضربة ساحقة بعدما دق الجرس، الآن خدعه لويس ولسوف يُقرأ ذلك جيداً في ألمانيا، إذ أتته رسالة مبكرة ذلك اليوم من هتلر يناشده أن يفوز، إنها حيلة دنيئة مخاتلة، لكنها كلمة نموذجية إلى حد ما من شميلنج.

طائرات القوميين تقصف برشلونة
الحرب الأسبانية الأهلية

«سبتمبر/ الفاتح 1938 افرنجي»

*** مارسيل جونود**

«بينما يتراجع الجمهوريون أمام قوات الجنرال فرانكو القومية، انتقلت الحكومة الجمهورية من ڤالينسيا إلى برشلونة، التي كانت تعاني نقصاً حاداً في الغذاء. ومؤلف هذا النص «جونود» أصبح مدير عام الصليب الأحمر».

أصبح القتال الجوي إضافة جديدة لآلام المجاعة المرعبة، والاعتقالات ويأس كل الناس، كما أصبحت عاصمة إقليم كاتالونيا هدفاً خاصاً للطائرات القاذفة وتسقط قنابلها عشوائياً فوق المنازل والشوارع. وأذكر على وجه الخصوص صباح يوم من سبتمبر، رأيت فيه الطائرات آتية، وبرزت كالعادة من خلال تل «مونتجويش» وشقت طريقها نحو المدينة، فقفزت إلى أسفل السلالم ـ كل سلمتين في خطوة ـ، وهناك في الأسفل وجدت موظفي الصليب الأحمر الأسباني يجهزون الإسعاف للعمل، ولم يمض وقت طويل حتى جاء الاستدعاء، إذ سقطت القنابل فوق مدرسة في الحي القديم بالقرب من «الجينر اليداد».

قفزت في سيارة بها بعض المسعفين، وحين وصلنا، وجدنا أن سقف المدرسة والطوابق العليا قد انهارت دافنة مائة طفل تحت الأنقاض، فبدأنا العمل ـ يائسين ـ لفتح مجال بين الحطام، في الوقت الذي كان علينا فيه الحذر بالنسبة لمن يكون قد بقي حياً من الأطفال تحت هذه الأنقاض، وتدبرنا أمر إخراج عشر جثث كاملة فقط، وكل الجثث الأخرى تمزقت اشلاءً، كانت مسألة مخزية، رأيت واحداً من المسعفين يكشف عن رأس شقراء صغيرة، وآخرين يلتقطون ما يمكن أن يكون أقداماً للملائكة الصغار، ولم يبق ولا طفل واحد من أطفال المدرسة حياً. . .

إجلاء الأطفال عن لندن
الحرب العالمية الثانية
«1 سبتمبر/ الفاتح 1939 افرنجي»

*** هيلد مارشانت**

لم يحدث ذلك حتى صباح الجمعة الموافق 1 سبتمبر حين صدمني جو الحرب الحاد والمفجع حقيقة، فقد بدأ ذلك اليوم في حارة من حارات لندن، أمرني المكتب أن أقوم بتغطية عملية إجلاء لبعض من أطفال مدارس لندن، وكانت هناك استعدادات ضخمة لهذا المشروع، وهي استعدادات أثارت نقداً

عنيفاً، فالجلاء قد يشطر الأسرة البريطانية، ويفصل الأطفال والوالدين، ويفصم عرى العلاقة المنزلية التي تدعم قوتنا. ذهبت لعمارة سكنية للطبقة العاملة خلف طريق «جرايز إن» وفي الصباح المبكر رأيت طفلة لندنية نحيلة ضعيفة البنية تمضي في طريقها للمدرسة، تحمل لفة ورقية بُنية اللون في يدها وتسحبها معها، وبينما تستدير رأيت صندوقاً بُنياً يتخبط بين ساقيها الرقيقتين، كان يخبط عالياً وهابطاً مع كل خطوة وهو معلق بخيط رفيع فوق كتفها، إنها «فلورنس موريكامب» طفلة مدرسة إنجليزية معها قناع واق من الغازات بديلاً عن حقيبتها الصغيرة فوق كتفها.

ذهبت قدماً مع فلورنس للمدرسة، كانت مدرسة إشرافية ضخمة والفصول تزدحم بالأطفال واللفائف وأقنعة الغازات، وتكومت الطاولات والسبورات بكوم واحد في أحد الممرات، ولم يكونوا يذهبون للمدرسة من أجل الدراسة، كانوا في عطلة، وكان الأطفال سعداء ومتشوقين لأن والديهم أخبروهم بأنهم ذاهبون للريف، والعديد منهم - مثل عزيزتي الصغيرة فلورنس - لم يروا أبداً حقولاً خضراء، وكان ملعبهم هو الطريق الإسفلتي أو البقعة الرملية في المربع الإسمنتي للساحة الخلفية..

وراقبت المدرسين ينادون أسماءهم، ويربطون أرقام الأمتعة على معاطفهم، ويفحصون لفائفهم ليروا إذ ما كانت هناك ملابس دافئة ونظيفة لهم أم لا، وعلى بوابات المدرسة يقف شرطيان سمينان كانا يتركان الأطفال كي يمروا، ويطلبان بلطف من الوالدين عدم الاقتراب أكثر فلربما أزعجوا الأطفال، وهكذا كان الآباء والأمهات يودعونهم، فيفردون شعور البنات ويدعكون أنوف الأولاد ثم يقبلونهم بسرعة وخفة، ويقف الوالدان في الخارج، في حين يدخل الأولاد ليتم تسجيلهم في فصولهم، ودام انتظار طويل تماماً قبل أن يتلقى ذلك الجيش الصغير أوامره بالتحرك من مجلس تعليم مقاطعة لندن.

في الوقت نفسه جلست في ملعب المدرسة، أراقب أولئك الأطفال اللندنيين النحاف الذين لا يتعبون، وهم يلعبون ألعابهم العنيفة فوق أرض كرة الشبكة

الخابية الأثر، وكان الأمر مزعجاً، فالأمهات يلصقن وجوههن خلال السور السلكي محاولات رؤية ما يخصهن من أطفال، وفيما بين الآونة والأخرى ينادي الشرطي اسم أحد الأطفال وأمه التي نسيت قطعة من الشيكولاتة أو فرشة أسنان، أو تنتهز فرصة أخيرة لتخبر طفلها كي يكون طيباً أو ليكتب أو لتربط لابنتها قبعتها.

بدأ الأطفال - مصنفين ومصطفين - في الخروج من المدرسة، فتتبعت فلورنس، ووجهها الحيوي الرقيق يتلفت يمنه ويسرة، أبيض بين العديد من أغطية رأس «كابات» أطفال المدارس كحلية اللون، كانت تثرثر مع رفيقة أكبر منها تريد أن تعرف ماذا يشبه الريف وإلى أين يذهبون وما الألعاب التي سوف يلعبونها فوق العشب.

وعلى أحد جانبي طريق «جرايز إن» زحف هذا التمساح الملتوي نحو نفق المحطة، وعلى الجانب الآخر، أمهاتهم اللواتي كن يلوحن ويجرين مقابلهم لمشاهد أبنائهن حتى النهاية، وطلبت الشرطة منهن ألاّ يتبعن الأولاد لكنهن لم يستطعن ذلك، وشق الأولاد طريقهم داخل النفق...

اجتياح خط ماجينو العظيم

«15 مايو/الماء 1940 افرنجي»

*** إروين روميل**

«اجتاح الألمان خط ماجينو - وهو من نظم التحصينات العسكرية المنيعة على طول الجبهة الفرنسية الألمانية - في مايو 1940 افرنجي، وبحلول مساء 12 مايو، كان الألمان قد عبروا الجبهة الفرنسية البلجيكية وأطلوا على «الميوز» في قطاع لا يحوي سوى الفرقتين الثانية والتاسعة من الجيش الفرنسي دون مدافع مضادة للمدرعات أو مدفعية مضادة للطائرات لتواجه الألمان، وكان روميل يقود الفرقة السابعة المجنزرة البانزر»...

أصبح الطريق للغرب الآن مفتوحاً، والقمر في كبد السماء وبحساب الوقت

لا نتوقع ظلاماً كاملاً، وقد أصدرت أوامري بالفعل ـ بشأن خطة الاختراق ـ للدبابات المتقدمة أن تفرش الطريق ثم تنحدر مع الأسلحة الآلية والمضادة للدبابات، على مسافات متباعدة أثناء التقدم نحو «أفيزنيس»، والتي ستمنع ـ كما آمل ـ العدو من وضع ألغامه، وكان على بقية فرقة «البانزر» أن تتبعهم من الخلف عن قرب وراء دبابات المقدمة، وأن تكون جاهزة لإطلاق سيل من النيران على كلا الجناحين، وكانت هناك أوامري لدى كل الفرقة بأن تتبع «البانزر» محمولة بالشاحنات.

وتدحرجت الدبابات في طابور طويل الآن عبر خط الاستحكامات، ثم تقدمت أماماً نحو أول المنازل التي اشتعلت فيها النيران من إطلاقنا، وتحت ضوء القمر استطعنا رؤية جنود الفصيلة السابعة الراكبة البخارية يتحركون على أقدامهم بجوارنا، ويطلق مدفع آلي أو مدفع مضاد للدبابات نيرانه بين كل فترة، لكن قذائفهم لم تصل إلينا، في حين كانت مدافعنا تسقط نيراناً كثيفة مؤثرة على القرى والطريق على البعد أمام الفرقة، ثم زادت السرعة تدريجياً.

وقبل مرور وقت طويل توغلنا 500 ياردة ثم 1000 ثم 2000، فـ 3000 ياردة داخل منطقة التحصينات، وزأرت الآلات وهدرت الدبابات على ممراتها، وسواء كان العدو يطلق نيرانه أم لا، كان من المستحيل أن أحدد ذلك وسط الضجة الخارقة للأسماع، ثم عبرنا خط السكة الحديد إلى حوالى ميل جنوب غرب «سولر لوشاتو» عندها انحرفنا شمالاً للطريق الرئيسي، الذي وصلناه بسرعة، ثم قدماً للأمام على طول الطريق لنمر بأول المساكن.

وانزعج الناس في بيوتهم من جراء هدير دباباتنا وزئير وصلصلة مدرعاتنا وآلاتنا، واستلقى الجنود راقدين بجوار الطريق، ووقفت المركبات الحربية مرتكنة في أفنية الحقول وفي بعض الأماكن من الطريق نفسه، وتكوم المدنيون والجنود الفرنسيون ـ وقد استحالت وجوههم رعباً ـ في الخنادق بجوار الأسوار وبكل ثغرة بجانب الطريق، ثم مررنا بطوابير من اللاجئين والعربات التي هجرها أصحابها هاربين في فزع نحو الحقول، وللأمام مضينا، بسرعة ثابتة باتجاه هدفنا، وبين

الفينة والأخرى، أقوم بإلقاء نظرة سريعة على الخريطة تحت ضوء خافت، وإرسال عجالة لاسلكية للمقار الفرعية، كي تبعث بتقارير عن موقعها.

وهكذا كان تقدم الفرقة الخامسة والعشرين المدرعة، وكل لحظة أتطلع عبر الفتحة لأتأكد بنفسي أنه لم تعد هناك مقاومة، وأن الاتصالات مع المؤخرة قائمة، وقد امتدت أرض الريف المنبسطة حولنا تحت ضوء القمر البارد، لقد اخترقنا خط ماجينو، إنه شيء لا يصدق، مرت اثنتان وعشرون سنة منذ أن وقفنا لمدة أربعة أعوام ونصف أمام نفس العدو، وحُزنا نصراً بعد نصر، إلاّ أننا في النهاية خسرنا الحرب، أما الآن فها نحن نجتاح خط «ماجينو» الشهير ونتوغل في أرض العدو، إنه ليس مجرد حلم جميل، إنه حقيقة.

الشواطىء عند «دانكرك»

«1 يونيه/ الصيف 1940 افرنجي»

جون تشارلس أوستن

«بدأ إجلاء قوات المهام الحربية البريطانية من «دانكرك» يوم 26 مايو، وبحلول يوم 4 يونيه ـ وهو وقت انتهاء عملية الإجلاء ـ كان 198,000 جندي بريطاني، و 140,000 جندي فرنسي وبلجيكي قد تم إنقاذهم».

وبالتدريج وصلنا لذلك المكان على جانب آخر قناة تفصلنا عن البحر، حيث اضطررنا لترك مركباتنا العسكرية، لقد تحطمت في الظلام وألقيت في القناة، وتشكل الرجال بجوار الطريق، وبدأت المناداة على سجل الأسماء للمرة الأخيرة، وكان مشهداً مصيرياً، فضباط الصف «المساعدين» ينادون على أسماء «المدفعيين» في همس عال ويضعون علامة على الأسماء في قوائمهم تحت ضوء المشاعل والإجابة تأتي من الظلام، من حيث «لا مكان» ثم: «الكل حاضر، والوضع تمام يا سيدي».

ومرة أخرى، نبدأ نحن الخمسون مسيرنا، هذه المرة على الأقدام في جماعات ثلاثية، وسرت أنا والميجور في مقدمة الطابور، وما زاد في فرحنا بشدة

اكتشافنا أن الكوبري المار بالقناة لم يتحطم، وما إن نكون فوقه حتى تكون عقبة أخرى بيننا وبين المجهول قد زالت، وواصلنا سيرنا نحو «مالو ـ ليه ـ بان» عابرين السكة الحديد، سائرين خلال شارع «روزندال» المحطم، وقد انتصبت هياكل جدران مبانيه كآثار حضارة مندثرة، وكان الصوت الوحيد الذي تسمعه هو صوت «تكسر» الزجاج المفتت تحت أقدامنا، كما لو كنا نسير فوق بللورات من الثلج الصلب في يوم شتوي.

وانفلتت أشباح غامضة في الشوارع وعند الأبواب المكسورة وخارجها ثم تختفي في سكون عند النواصي، كانوا من السكان المشردين الذين احتجزهم تتابع الأحداث المتسارع وكانوا يعيشون في الأقبية، مع قليل من «النهابين» ومن المحتمل أن يكون بينهم قليل من الجواسيس، وأصبحت نيران المدفعية الألمانية الآن تنطلق بلا توقف، ووميض الانفجارات يضيء الأرض حولنا ثانية أو ثانيتين باستمرار.

ولم نعد بعد ذلك بمفردنا، إذ بدأنا نقابل جماعات صغيرة من مشاتنا يسيرون بنفس الاتجاه، وغالباً، بينما نقترب نسمع صياحاً صادراً من الظلام: «هل أنتم رفاق، . . نحن جماعة كينجز أون سكوتس بوردررز» أو اسم وحدة عسكرية أخرى ينادي عليها، وكان أولئك أجزاء من جنود المؤخرة عائدين، وما زالوا يسيرون في تشكيل جيد نحو الشواطىء ثم ازداد ضيق الطريق، وبالإضافة للصعوبات الناجمة عن السير فيه، كان الجنود يتدافعون من جراء صيحات الاستعجال الصادرة من خلفهم، التي رفعت من حدة توتر أعصابهم أكثر من القذائف ذاتها.

وأخيراً توقفنا لنرى سبب الهرج الموجود، كانت مجموعة من الجنود الفرنسيين المذعورين تحاول أن تقود شاحناتها في الليل وسط جنودنا السائرين، مصطدمين بهم لليمين واليسار ليوقعوا بهم في الخنادق على جانبي الطريق، وتبودلت الكلمات الغاضبة، وبدا أن معركة قد تنشب بصورة مؤكدة، ولحسن الطالع، تدبر السائقون الفرنسيون الأمر في اللحظة الأخيرة وتتابعوا وراء الجنود،

لقد كانت لحظة حرجة ـ كذلك ـ وكنا على استعداد لإطلاق النار لو استُدعي الأمر، فمضوا خلفنا في خطوة سير لفترة ما، حتى استداروا من طريق آخر.

أضحينا الآن في منطقة الكثبان التي ترتفع كأسنمة من الليل البهيم، وتلك بدورها تظللت بالأشباح القاتمة الساكنة للسيارات المهجورة، نصف غارقة وسط الرمل، أشكال خيالية ملتوية لهذه الهياكل المحترقة مع الحطام العجيب الشكل الذي تراكم في أكوام غير طبيعية بفعل الانفجارات، وتظللت كل هذه الأشباح السوداء بخلفية من اللهب الأحمر الغاضب وسط السماء، فتنعكس علينا عذاباً مبرحاً لحريق «دانكرك»، واتخذنا طريقنا ببطء بين الحطام، وأقدامنا تغوص حتى الكاحل في الرمال المترامية، حتى وصلنا لهياكل موحشة لما كان ذات مرة بيوتاً للنزهات.

كانت الجبهة كلها خط طويل واحد متصل من المباني المحترقة، سور عال من النيران يزأر ويتقاذف في ألسنة اللهب، والدخان يصب لأعلى ويتلاشى في ظلمة السماء فوق قمم السطوح، ومن اتجاه البحر، أتت الظلمة كثيفة وناعمة كالمخمل الأسود، عدا فيما بين لحظات تتبدى فيها سفينة أو مُدمرة غارقة فتضفي كثافة خفيفة على سطحه المتماسك، وأمامنا مباشرة، يمتد حاجز «مُول» البحري الضخم القاتم، من الشاطىء إلى أعماق البحر، تكاد بنهاية طرفه لا يدركها البصر.

وكان وراء هذا الحاجز البحري خلفية مرعبة هائلة من لهب تتقافز ألسنته مئات الأمتار في السماء من خزانات البترول، وعند طرف الحاجز من ناحية الشاطىء تنتصب إحدى المسلات الحجرية، وتتساقط حولها القذائف المتفجرة بانتظام لا ينقطع.

وعلى طول ممشى الحاجز، كانت القوات تخطو بإعياء ـ في جماعات مكونة من خمسين جندياً لكل جماعة ـ إنها من الناحية العملية بقايا كل الفرق الموجودة هنا، بلا غناء وقليل جداً من الكلام، فكل امرىء بلغ به الإرهاق أقصاه حتى إنه لا يريد أن يفقد أنفاسه، وأحياناً ما تصدر نداءات مفاجئة: «الجماعة أ، جرين

هواردز» أو «الجماعة جـ، إيست يوركس»، وهذه النداءات إما تأتي من متخلفين يحاولون العثور على وحداتهم التي فقدوها أو من «أدلة» يبحثون عن الجماعات التي كانوا يقودونها نحو الحاجز الصخري «مُول» لإتمام عملية الإجلاء.

انتهى المد، وعلى مدى الرمال الممتدة الواسعة، تستطيع أن تميز بصعوبة كتلاً شبه مستطيلة من الجنود تسير في سرايا، ومجموعات منتظمة هابطة نحو حافة البحر، وفيما بين آونة وأخرى تسمع النداء:

: «آلف، أين أنت؟».

: «دعنا نستمع إليك يا بيل».

: «من ذلك الطريق يا جورج»... إلخ.

ولم يكن سهلاً أمام أحد أن يبقى على اتصاله بصديقه وسط الظلام، وبين مثل هذه الجماعات العديدة الصغيرة من الجنود السائرين، فالكل يتشابه، وإذا ما توقفت لتنظر إلى الخلف لثوان قليلة، ستجد نفسك ملتحقاً بوحدة مختلفة تماماً من الجنود.

ومن حافة البحر، وعلى مسافات متباعدة، برزت ثلاثة صفوف طويلة رفيعة سوداء، أشبه بحواجز مياه خشبية واطئة، إنها طوابير من الجنود تنتظر أزواجاً، الواحد خلف الآخر ممتدين لعمق البحر، قابعين في صفوفهم حتى تأتي القوارب لنقلهم في كل مرة عشرون جندياً أو ما يقارب ذلك إلى البواخر وسفن القتال التي امتلأت بآخر الأحياء، ووقفت الطوابير هناك ثابتة ومنتظمة حتى لتظنها محكومة، لا تزاحم، ولا تدافع، ولا شبه فوضى كالتي تراها عند المداخل، حين تتوجه الجماهير لحضور مباراة لكرة القدم، إنها منتظمة أكثر - حتى - من طابور المسرح.

وعند ذلك الوقت، وقد خشيت أن يضل بعض رجالنا، بدأت أنادي: «الفرقة 2004 الميدانية.. 2004 الميدانية...» وكنا نجد صعوبة في العثور على مركز اتصالنا.. فقال الميجور: إنني لأتعجب أين يكون هذا المركز الملعون،...

أطلق نداءً آخر، ولو سمعونا سيردون علينا بالتعليمات، ويخبروننا بما يجب فعله».

وهكذا من هذه اللحظة بدأت النداء، لكن مركز الاتصالات فشل في الظهور، وفي الحال قررنا أن البقاء أكثر من ذلك فوق الممشى ونحن في انتظاره قد يتحول لكارثة، فالقذائف الثقيلة بدأت تنفجر على قمم البيوت المحطمة بجوار الممشى، فتسقط أكوام من الحجارة ومواد البناء فوق رؤوسنا، وقد عجلت رؤية مجموعة من الجنود الموتى والمحتضرين من رغبتنا في مغادرة الممشى، فسرنا - مارين فوق الجثث - هابطين المنحدر نحو الشاطىء المظلم، وأضحت واجهة «دانكرك» الآن مشهداً مذهلاً من الأسود والأحمر، لهب ودخان، والليل نفسه، يختلط الكل ليشكل خلفية «بانوراما» للموت والدمار الأسود والأحمر - طوال الوقت - عدا لحظة ومض بيضاء تبدو منخفضة في السماء أحياناً على بعد أميال من يسارنا أو يميننا من تدافع القذائف الضخمة لبطاريات الدفاع الساحلي في «كاليه» و «نيوبورت» نحو المدينة.

وعند الشاطىء، تشعر بنفسك في الحال محاطاً بجو مميت ممتلىء بالشر: رائحة دماء عفنة كريهة، وأعضاء مبتورة تملأ المكان، ولا مهرب من هذا، حتى ولا نسمة هواء تهب فتشتت تلك الرائحة المقيتة التي تتصاعد من الجثث الميتة التي تتمدد فوق الرمال، بعضها دام لعدة أيام، وكأنك تسير في «سلخانة - مذبح» في يوم حار، والظلام الذي يخفي بعضاً من مشاهد الرعب عن أعيننا، بدا وكأنه يُثقل من تلك العفونة المخيفة، فأثار ذلك لدينا انطباعاً بأن الموت يحوم حولنا قريباً جداً يكاد يلامسنا.

حوَّلنا وجوهنا نحو اتجاه الشاطىء مسرعين في خطونا لنمر خلال هذا الحزام الوبائي المُنَفِّر بأسرع ما يمكننا.

«ماء. . . ماء» ذلك كان صوت الأنين الذي صدر من الأرض أمامنا مباشرة، كان جندي مشاة جريح، وإصابته البالغة لا تُبقي أي أمل له في البقاء، وكانت زجاجات المياه معنا قد فرغت منذ فترة طويلة، ولكننا بحذر جمعنا بقاياها في

واحدة، فحصلنا على رشفة أو رشفتين، فركع رقيب بجوار الجندي المحتضر ورفع الزجاجة إلى شفتيه ثم مضينا في طريقنا، تاركين الزجاجة مع النقاط القليلة الأخيرة من الماء فيها بالقرب من يد الرفيق المسكين حتى يتمكن من ترطيب شفتيه من وقت لآخر.

قتال جوي فوق القنال

«3 سبتمبر/ الفاتح 1940 افرنجي»

*** ريتشارد هيلاري**

أطل فجر 3 سبتمر مظلماً وممتداً، بنسمة خفيفة تهز المياه «إيستواري» وقد لبس مطار «هورن تشرتشي» - الذي يبعد عن لندن 12 ميلاً من ناحية الشرق - غطاءه الصباحي الشاحب من الضباب الأصفر، مُضيفاً جواً من الكآبة على الأشباح القاتمة من طائرات الـ «سبيت فاير» على أطرافه، ومن وقت لآخر يمد منطاد جوي رأسه في ضخامة عبر الضباب كما لو كان يبحث عن ضحايا محتملين قبل أن يسقط كالوحش المنهار.

خرجنا إلى مدرج المطار حوالى الساعة الثامنة، وكانت طائراتنا قد نُقلت أثناء الليل من نقطة الانتشار إلى مأوى الطائرات، وتركوا الأدوات والزيوت والمعدات على الجانب البعيد من المهبط، وكنت شديد القلق، إذ كان القصف قد انهال علينا منذ فترة قصيرة، وتم تركيب غطاء كابينة قيادة جديدة لطائرتي، وهذا الغطاء لسوء حظي لم يكن ينزلق أثناء فتحه داخل مجراه تماماً، ومع نقص الطاقم الفني الأرضي والمعدات، بدأت أخشى أنه لن ينصلح أبداً، فلو أنه لم ينفتح، فلن أقدر على الخروج من الكابينة بالسرعة المطلوبة لو اضطرتني الظروف لذلك، وبمعجزة أحضر العم «جورج دينهولم» - قائد سربنا - ثلاثة رجال ومعهم «مِبْرَد» خشن وزيت للتزييت، فجلست أنا والعريف «البراد» فوق غطاء الكابينة بسرعة مجنونة، واستلمناه جزءاً جزءاً نَبْرُد، ونُزيت، نُزيت ونَبْرُدُ، حتى بدأ الغطاء يتحرك أخيراً، ولكن لشدة الأسف ببطء.

مع حلول الساعة العاشرة، حين زال الضباب، كانت الشمس تشع من سماء صافية، وكان الغطاء لا يزال ملتصقاً لنصف المسافة في مَجراه، وعند الساعة 10.15، حدث ما كنت أخشاه للحظة الأخيرة، إذ أتى هابطاً من مكبرات الصوت نداء ضابط المراقبة الخالي من الانفعال: «على السرب 603 الإقلاع ويقوم بدورية حول القاعدة، سوف تتلقون تعليمات أخرى في الجو. . . على السرب 603 الإقلاع بأسرع ما يمكن، لو سمحتم». . . وبينما كنت أضغط على مفتاح «البادي» - ستارتر - ويزأر المحرك ممتلئاً بالحركة خطا «العريف» للخلف وعقد أصابعه كعلامة مميزة، وشعرت بالغثيان المعتاد في فم معدتي كما لو كنت سأدخل سباقاً، ثم غرقت في الانشغال باستكمال الوضع عن الشعور بشيء آخر.

أقلع العم «جورج» وطائرات المقدمة وسط سحابة من الغبار، ثم تطلع «بريان كاربوري» عبر كابينته ورفع إبهامه، فأومأت إليه ثم انطلقت مقلعاً للمرة الأخيرة من مطار «هورن تشرتشي»، كنت الطيار رقم 3 في قاع «برايان» مع «ستامي ستابلتون» على اليمين، وكان القطاع الثالث مكوناً من طائرتين فقط، حتى تصبح قوة طائرات السرب ثماني طائرات، وتوجهنا جنوب شرق محلقين في مسار ثابت، وعلى ارتفاع 12,000 قدم تقريباً، ارتفعنا فوق السحب، فنظرت لأسفل لأرى السحب تنتشر من تحتي كطبقات من القشدة المخفوقة، كانت الشمس تتوهج فتجعل الرؤية صعبة حتى إنك لا ترى الطائرة التالية وهي تستدير، وكنت أحملق أمامي منفعلاً لأن ضابط المراقبة حذرنا من خمس عشرة طائرة على الأقل من مقاتلات العدو تقترب على ارتفاع كبير.

حين لمحناهم أول مرة، لم يقم أحد بالصياح، إذ أظن أننا جميعاً شاهدناهم بنفس اللحظة، ولا بد أنهم يطيرون أعلى منا بـ 500 أو 1000 قدم آتين مباشرة كسرب من الجراد، فتذكرت أن ألعنهم، ومضيت تلقائياً لخط المؤخرة، وفي اللحظة التالية كنا بينهم، وكان كل رجل وشأنه، وما إن رأونا حتى انتشروا ثم انفضوا، وأضحت العشر دقائق التالية فوضى من الآلات الراقصة والرصاصات المطاردة، ثم سقطت طائرة «ميسر شميت» تأكلها النيران على يميني وطائرة «سبيت فاير» تهرع مارة في نصف دورة.

كنت أتمايل وأدور في محاولة يائسة لضبط الارتفاع، والطائرة معلقة ـ عملياً في دوامة هوائية، عندئذ رأيت أسفلي تماماً على اليسار ـ وهو ما كنت أصلي من أجله ـ طائرة «ميسر شميت» تصعد مبتعدة عن طريق الشمس، فاقتربت منها إلى 200 ياردة، وبسرعة صببت على جانب واحد منها دفعة طلقات لثانيتين، فانخلع معدن الجناح واندفع الدخان الأسود من الطائرة، لكنه لم يهبط وكالأحمق لم أخل له الطريق، ولكن صوبت نحوه دفعة ذات ثلاث ثوان من الطلقات، فتدافعت ألسنة اللهب الحمراء لأعلى ثم تلاشى عن الرؤية.

في تلك اللحظة شعرت بانفجار مرعب أطار عصا القيادة من يدي، وارتعشت الطائرة كلها كحيوان مصاب، وفي ثانية شبت النيران بكابينة القيادة، وبسلوك غريزي تلمست لأفتح الغطاء فلم ينفتح حتى مزقت أحزمتي، وحاولت فتحه بالقوة، لكن ذلك استغرق وقتاً، وحين تهالكت في مقعدي وتلمست عصا القيادة كمحاولة لقلب الطائرة على ظهرها، كانت الحرارة شديدة لدرجة أحسست معها بأنني سأضيع، وأذكر لحظة الحزن الحاد، وأنا أفكر «إذن هذه هي النهاية» ووضعت يدي فوق عيني، وفقدت الوعي...

وحين استرددت رشدي، كنت خارج الطائرة أهوي بسرعة، فجذبت أنشوطة فك المظلة، واختبرت حالة هبوطي بالاهتزاز، وحين نظرت لأسفل رأيت رجل سروالي اليسرى وقد احترقت بكاملها، وأنني سوف أسقط في البحر، وأن الشاطىء الإنجليزي ـ للأسف الشديد ـ بعيد جداً، وعلى ارتفاع عشرين قدماً فوق سطح الماء حاولت فك مظلتي عني، لكنني فشلت، وغطست في الماء وهي تتوسدني، وأخبروني فيما بعد أن الطائرة قد هوت وهي تلف على ارتفاع 25,000 قدم، وأنني عند 10,000 قدم سقطت منها فاقد الوعي، وربما يكون هذا ما حدث، لأنني اكتشفت ـ فيما بعد ـ جرحاً كبيراً في قمة رأسي، قد يكون حدث وأنا أتخبط داخل الطائرة.

لم تكن المياه غير دافئة، ودهشت ـ فرحاً ـ حين وجدت أن حزام نجاتي أبقاني طافياً فوق الماء، نظرت لساعتي فلم أجدها، عندئذ وللمرة الأولى، ألاحظ

مدى احتراق يدي وحتى المعصم، كان الجلد ميتاً شديد البياض ويتدلى في مزق صغيرة، فشعرت بإعياء شديد من رائحة اللحم المحترق، وحين أغلقت إحدى عيني استطعت رؤية شفاهي، كانت متورمة كإطارات السيارات، وكانت أربطة المظلة تنغرس في جسمي بألم شديد، حتى إنني خمنت أن فخذي الأيمن قد احترق، فقمت بمحاولة أخرى لفك هذه الأربطة، لكنني توقفت بسرعة بسبب الألم الشديد في يدي، وبدلاً من ذلك، رقدت على ظهري وقدرت موقفي، فأنا على بعد كبير من الشاطىء ويداي محترقتان، وكذلك وجهي - مقدراً ذلك بسبب الألم الذي تحدثه الشمس فيه -.

ولم يكن من المتوقع أن يكون إنسان ما على الشاطىء قد رآني، والأكثر من ذلك لم يكن من المنتظر مرور أية سفينة بالجوار، وأستطيع أن أبقى طافياً. . . لمدة أربع ساعات - احتمالاً - في طوق نجاتي، وبدأت أشعر بأنني قد تسرعت في اعتبار نفسي محظوظاً إذ نجوت من الطائرة، فبعد حوالى نصف الساعة أخذت أسناني تصطك، ولكي أثبتها، داومت على أغنية بلا نغمة أخلفها من وقت لآخر بنداء لطلب النجدة وكان يمكن أن نجد هناك وقتاً باعثاً أكثر قليلاً من الصراخ لطلب النجدة وأنت وحيد في بحر الشمال، مع «نورس» وحيد يرافقك، إلا أن ذلك منحني إحساساً جنونياً بالارتياح، إذ إنني كتبت مرة قصة قصيرة كان بطلها - الذي سقط من إحدى السفن الملاحية - قد فعل ذلك تماماً وقد تم تجاهلها. . .

بدت المياه الآن أكثر برودة، لاحظت بدهشة أن الشمس قد غابت رغم أن وجهي ما زال يلتهب، فنظرت إلى يدي، ولما لم أرهما أدركت أنني قد عميت، هكذا أنا في طريقي للموت، وهكذا خطر لي الأمر أنني سوف أموت، وأنا لا أخشاه، وجاء هذا الإدراك مفاجأة، لأن سلوك اقترابي من الموت أخافني وأرعبني، ولكن مواجهة الموت فعلاً تركتني بلا وجل، وشعرت فقط بفضول عميق وإحساس بالراحة بأنه خلال دقائق قليلة أو ساعات سوف أعلم الإجابة الكبرى. هنا قررت أن يكون ذلك في دقائق قليلة، ولم أشعر بأي اضطراب تجاه

التعجيل بنهايتي، وللوصول إليها، قمت بفك صمام طوق نجاتي فانسل الهواء منه باندفاع وسقط رأسي تحت الماء، وقد قال بعض الناس الذين خبروا كل شيء إلا الموت في البحر، أن الغرق موت جميل، ولم أجده كذلك، وكنت ابتلعت كمية كبيرة من المياه قبل أن يطفو رأسي ثانية، لكنني التمست في ذلك راحة قليلة، فحاولت من جديد لأجد أنني لا أستطيع إبقاء وجهي تحت الماء إذ تشابكت مع مظلتي لدرجة لا أستطيع معها أن أتحرك، وطوال العشر دقائق التالية، مزقت يدي حتى اللحم في محاولة فك مظلة الهبوط.

كان «ياي الفك» قد أصبح محكماً، فرقدت على ظهري متعباً، وحينئذ بدأت في الضحك، ومع هذه اللحظة أصبحت غير طبيعي بالمرة ـ كاحتمال ـ وشككت فيما إذا كانت ضحكتي عاقلة بأكملها، لكن كان هناك شيء مضحك لا يمكن مقاومته في أن محاولة انتحاري الكبرى قد أحبطت بمثل تلك البساطة. . .

وقد كتب «جوته» ـ الأديب الألماني ـ مرة أن ليس لإنسان الحق في إنهاء حياته ما لم يعش هذه الحياة بطولها وعرضها ويدرك نفسه جيداً، ويبدو أن الإرادة الإلهية قد شاءت ألا أجلب على نفسي تعاسة الإنسان الكبرى. . .

وغالباً ما قيل أن الإنسان المحتضر يستدعي كل مشاهد حياته في لمحة شاملة خاطفة، أما أنا فقد فكرت في عودة السرب بصورة غامضة، وفي أمي بالمنزل، وفي الناس القلائل الذين سيفتقدونني من خارج أسرتي، وأستطيع حصرهم بعدد أصابع يد واحدة.

والشيء الذي أراحني بشكل هائل، أن أكتشف أنني لم أغرق نفسي لا في المباذل الوضيعة ولا في الصلاة لربي العظيم، ومن المقولات الساخرة القديمة لدى المؤمنين من الناس أن الملحدين يغيرون مبادئهم حين يأتيهم الموت، وقد سرني أن أثبت خطأهم، وإذ بدا لي أن بقائي هكذا قد يطول لفترة غير محددة في الانتظار، بدأت أشعر بوحدة مخيفة، وفكرت في وسيلة أحول بها ذهني عن محنتي، وتأكدت أنني سأدخل مرحلة غيبوبة فحاولت التعجيل بها، وشجعت عقلي على التجول بغموض وبلا هدف، والنتيجة أنني خبرت شعوراً ما من

السلام الداخلي، لكنني حين دفعت بنفسي للتفكير في شيء واضح، وجدتني ما زلت شديد التعقل فقط، وظللت أتنقل بين الاتجاهين مع تحقيق إنجاز متغير حتى التقطوني، وأذكر ـ كما الحلم ـ أنني سمعت واحداً يصيح، وبدا لي بعيداً جداً ولا اتصال لي به تماماً، عند ذاك شدتني أيدٍ ثابتة فوق الجانب، وفكوا عني مظلتي وبيسر شديد!! ثم دفعوا بزجاجة «براندي» بين شفتي المتورمتين، وقال صوت: «حسناً يا جو إنه واحد من رجالنا، وما زال حياً يرفس» ونجوت، لم أسترح ولم أغضب، لقد أخذتها بلا مبالاة.

وأدين بحياتي لقارب إنقاذ مدينة «مارجيت» إذ رآني المراقبون على الشاطىء وأنا أهوي، فظلوا يبحثون عني لمدة ثلاث ساعات، وبسبب مرورهم باتجاهات خاطئة، كادوا ييأسون ويعودون أدراجهم للشاطىء وعندئذ ـ لسخرية الموقف ـ يرى واحد منهم مظلة هبوطي، كانوا في تلك اللحظة على مسافة خمسة عشرة ميلاً، من «مارجيت».

وأثناء وجودي في الماء كنت أشعر بالخدر وبقليل جداً من الألم، أما الآن، ومع الدفء، فقد كان الألم شديداً يدفعني للصراخ، وأراحني الرفاق الطيبون بقدر ما يستطيعون، نصبوا سقفاً من القماش ليحمي وجهي من الشمس واتصلوا بالشاطىء لإعداد طبيب، وخيل لي أننا استغرقنا وقتاً لا نهائياً للوصول إلى الشاطىء، ووضعوني في سيارة إسعاف ومضوا بي مسرعين للمستشفى، وخلال كل هذه الخطوات كنت واعياً رغم عدم قدرتي على الرؤية، وهناك قطّعوا ملابسي. وأعطيت المعلومات المعتادة لإحدى الممرضات عن أقاربي ثم ـ براحة غير محدودة ـ شعرت بحقنة تحت الجلد تخترق ذراعي. . .

قصف أرصفة موانىء لندن

«7 سبتمبر/ الفاتح 1940 افرنجي»

*** ديزموند فلور**

«حول الألمان انتباههم إلى لندن بعد فشلهم في تدمير سلاح الجو الملكي

البريطاني، وكانت غارتهم على أرصفة «سورييه» مساء يوم 7 سبتمبر هي بداية قصف لندن. . . ».

. . . فجأة أخذنا نحملق عالياً، فالسماء اللامعة تقاطعت معها من الأفق للأفق خطوط لا حصر لها من الدخان، وكان المشهد جديداً تماماً، فشاهدناه مأخوذين، وتوقف كل العمل، واستدارت النجمات الفضية في رأس تلك الخطوط الدخانية نحو الشرق وهي تومض، وبدا هذا العرض خيالياً وغير ضار، بل هو جميل عند ذاك ـ وبزئير مدو ـ اهتزت له الأرض التي نقف عليها عبر لندن، قصفت أول دفعة من القنابل أرصفة الميناء، انبثق على أثرها دخان باللونين الأسود والبني على شكل نبات عش غراب هائل مشرب بحمرة خفيفة، وتصاعد نحو السماء المشرقة الشمس، وتعلقت هذه الأشكال في السماء وتمددت ببطء، حيث لم تكن هناك رياح، والحرائق العظيمة أسفلها تمدها بمزيد من الدخان مع مرور الوقت.

وفي صباح يومي الجمعة والسبت، ازدادت السماء قتامةً وسواداً، والدخان الزيتي يرتفع وينتشر في أعمدة ثقيلة ساكنة تغلق وجه الشمس.

أصبحنا الآن قريبين من الأرصفة، وتمددت أعمدة الدخان وأضحت ستارة ضخمة سدت مدى السماء، وتجعلك موجات الدخان مع ألسنة اللهب المفاجئة التي ترتفع لمئات الأقدام تدرك أن الأمر حقيقة حية، وليست خلفية مسرحية لأوبرا كابوسية فقط، وامتدت خراطيم المياه بطول الطريق، تعلو بعضها بعضاً، كطبق من المكرونة بتلك الرشاشات المائية الصغيرة الحزينة المتسللة من ثقوبها، كما هي طبيعة كل خراطيم الإطفاء دائماً. وكل دقيقتين أو ثلاث نلقي أنفسنا على مجاري الطريق الجانبية حين ينطلق صوت جرس عربة الحريق مدوياً خلفنا، وتمر العربة مارقة بسرعة غير معتادة بلون «الكاكاو» أو «الأخضر» أو «الأزرق» مع حروفها المذهبة، وهي فرق مكافحة الحرائق لمدن «برمينجهام» أو «شيفلد» أو «بورنموث»، ويمر بك شعور لم تخبره من قبل، الإثارة، مع تسابق عربات الإطفاء التي تصل للمساعدة من مناطق بعيدة، ورائحة النيران الزيتية الكريهة والدمار بتواتره المهين.

القصف في تشيلس

«14 سبتمبر/ الفاتح 1940 افرنجي»

* فرانسيس فاڤييل

تعد كنيسة «هولي رديمر» بناءً ضخماً زرته عدة مرات لمشاهدة الملجأ الموجود في قبوها، لأن بعض اللاجئين إلينا فضلوا فكرة هذا المخبأ، حتى إنهم أرادوا الانتقال إليه، وكان قريباً من «مستشفى تشيين»، وحين ذهب إلى هناك اثنان منهم لأول مرة ذهبت وراءهم للاطمئنان عليهم، وأقنعناهم بأن هذا المكان بعيد جداً، وأن ملجأهم الأول آمن تماماً مثله، كان ملجأ شعبياً عاماً ربما بسبب أن الآخرين ـ كلاجئينا ـ شعروا بألا وجود لمكان آمن من ذلك الذي يقع تحت رعاية الكنيسة، ولذا فحين سقطت القنبلة كان مزدحماً.

سجل سقوط القنبلة واحد من عمال هواتفنا في مركز السيطرة الساعة 18.35، وذكرت الرسالة أن هناك حريقاً وضحايا محاصرين في كنيسة «هولي رديمر» في «أبرتشيين رو» وتتابعت الطلبات من أجل الإسعاف متسارعة، بالإضافة إلى البطاطين لتغطية الموتى وخدمات المطافىء، وأتت التقارير تفيد بأن هناك العديد من الضحايا.

وقد أصابت القنبلة الكنيسة من خلال نافذة بصورة غير طبيعية تماماً ثم اخترقت الأرضية وانفجرت بين المحتمين بالملجأ، أغلبهم من السيدات والأطفال الصغار. وهنا فقد «جورج ثورب» ـ الذي كنا نعرفه باسم «بيرت» ـ حياته مع أولئك النسوة والأطفال الذين زارهم ليطمئنهم ـ كما كان يفعل دائماً، رغم أنه لم يكن حارس الملجأ، إذ علم أنهم على وشك فقد أعصابهم، وأنهم في حاجة لتعضيد معنوي أثناء الغارات الكثيفة، فاعتاد أن ينزل إليهم ليرفع من حماسهم ويشجعهم.

كان قد وزع «جو أوكمان» لمهمتها هذه اللحظة، وذهب هناك حين سقطت القنبلة وانفجرت بين الملتجئين تماماً، وكانت امرأة منهم قد أخبرتني عن ذلك حين زرتها فيما بعد في مستشفى «سانت لوقا»، كانت إصابتها سيئة وأوضحت أن

المشهد كان يمثل مذبحة، وفي الحقيقة أنها قارنته بعمل فني رأته من أعمال النحت حول مذبحة النساء والأطفال في «كاونبور» أثناء التمرد الهندي، شاهدت فيه الجثث والأطراف والدماء واللحم البشري كل ذلك مختلطاً بالقبعات الصغيرة والمعاطف والأحذية وكل الأمتعة الصغيرة التي يحملها الناس معهم للمخابىء. وقالت: إن الناس تطايروا أشلاء ـ بالمعنى الحرفي ـ وكانت الكارثة مفجعة وهي نفسها كانت خلف عمود تسبب في حمايتها إلى حدٍّ ما، وارتفع كوم من الجثث بينها وبين الانفجار، إذ كان الوقت ما زال في ضوء النهار ولم يذهب أحد لمرقده...

ووصلت «جو» مع «لين لانسديل» لمكان الحادث بسرعة، وتبعهم كل مراقبي خدمات الغارات الجوية، ولم يستطيعوا الوصول للقبو في البداية، لأن جثة امرأة ضخمة كانت تسد المدخل الوحيد، كما أشعل الانفجار النار في أكوام الفحم الضخمة المخزونة لتدفئة الكنيسة، وأدى الدخان المتصاعد منها إلى صعوبة الرؤية، وانهمكت «جو» و «لين» في العمل فوراً بالمضخات اليدوية لمحاولة إطفاء الحريق قبل أن يتحول المكان كله محرقة، وتمددت جثة «بيرت» هناك ووجهه لأسفل فأدارته «جو» التي كان يتحدث معها منذ دقائق قليلة فقط قبل سقوط القنبلة لتعدله، ثم قالت فيما بعد إنها ودت كثيراً أنها ما قامت بذلك، حتى يمكنها أن تتذكره وهو يوزع عليها واجباتها الأخيرة، ووصفوا لي معداته ـ التي أرسلت لموقع خدمته ـ بأنها كانت تلمع بالدماء ككل شيء كان بذلك القبو.

كان عمل مراقبي خدمات الغارات الجوية في تلك الليلة عظيماً، إذ مع حلول الساعة التاسعة مساءً، تم استخراج كل الضحايا ووضعوا على أرضية الكنيسة مع الحرس الداخلي في حالة استعداد. وتم إنجاز رائع قام به الدكتور «كاستيلو» والأب «فالي» من تارابور، ثم استقبلنا في مركز إسعافنا عدداً من الضحايا مرة أخرى، وتشمل بعض الكسور النادرة والمثيرة التي علقت عليها الدكتورة «جراهام كير» بغرض تعليمنا نحن أعضاء مجموعة متطوعي الإنقاذ، وكان في مراقبتها وهي تعمل بمهارة ونظافة وحيوية وتحد، درس جديد في حد ذاته.

بعد غارة كثيفة مصحوبة بالعديد من الضحايا مثل الأخيرة، كانت أمامنا مهمة تلقينا تفصيلات عنها - من وقت ما - من مركزنا، وكانت قياداتنا تكره إرسالنا لها، هي تجميع أعضاء كل جثة مع بعضها تمهيداً للدفن، وهذه الجثث - أو بمعنى آخر الأشلاء - موجودة في مشرحات مؤقتة، وهي مهمة كئيبة شعرت إزاءها «بيتي كومتون» أننا صغيرات وغريرات أمام تلك الأمور المخيفة، لكنما شخص ما لا بد وأن يقوم بها، وهكذا أرسلونا أزواجاً حين أصبح الأمر ضرورة مطلقة، وقد سألتني «بيتي» إذا ما كنت أرغب في الذهاب حيث إنني درست التشريح في «سليد».

وفي المرة الأولى التي مضيت إليها، كانت زميلتي فيها فتاة لم أكن أعرفها جيداً، اسمها «شيلا» وكان الموقف مقبضاً، رغم أن كل شيء تم كعمل روتيني وبالسرعة الممكنة، إلا أنه كان علينا تشكيل الجثة - بصورة أو بأخرى - وإعدادها للدفن حتى يمكن للأقارب أن يتخيلوا فقيدهم صالحاً لهذا الغرض دون رؤيته، لكنها كانت مهمة صعبة فكثير من الأعضاء مفقودة، وكما قال أحد عمال المشرحة: «إنها لعبة ألغاز الفك والتركيب تماماً، أليس كذلك يا آنستي»؟ وكانت العفونة هي أسوأ ما في الأمر، خاصة وأنك تدرك أن هذه الأشلاء المخيفة من اللحم كانت مرة بشراً يعيشون ويتنفسون، ثم خرجنا لندخن سيجارة حين لم نستطع الاستمرار في هذا العمل ببساطة - ورأى أحد الناس المتطفلين «شيلا» وهي تدخن فأرسل فيها تقريراً حول تدخينها وهي ترتدي الزي الرسمي وخروجها عن مهمتها فثارت «بيتي كومتون» لهذا، وهي التي تدعم دوماً فرقة متطوعي الإنقاذ، فهي كانت بالفعل على حق بترددها لإرسالنا للقيام بهذه المهمة، وأعتقد أن الجزارين هم من يجب أن يؤدوها.

بعد تلك الصدمة العنيفة الأولى، قررت أن آخذها على أنها مهمة روتينية منفصلة، إذ تشعر بارتياح بشع وكئيب حين يكتمل تركيب الجثة، ولكن إذا وجدت عضواً كبيراً جداً لاستكمال جثة تامة تقريباً، فعندئذ ستجد عضواً آخر يترك مساحات خالية محزنة فيها، كما كانت هناك دائماً أشلاء غريبة لا تصلح

للتركيب وكذلك هناك العديد من السيقان، ولو لم نمسك أنفسنا بشدة لأصابنا الغثيان لا محالة. والطريق الوحيد أمامي لأتحمل هذا أن أتخيل أنني عدت لفصول التشريح من جديد، لكن هناك كانت السيقان والأيدي التي درسنا عليها تشريح العضلات قد حفظت جيداً في الكحول ويصعب مشابهتها للجسم البشري تماماً، وأظن أن هذه المهمة أزاحت من أمامي فكرة أن الحياة الإنسانية لها قيمتها، إذ تتطاير أشلاءً بأي انفجار كتراب يذروه الريح.

هزيمة إيطاليا عند قرية «النبوية»

«12 ديسمبر/ الكانون 1940 افرنجي»

*** آلان مورهيد**

«استرد «ويفيل» خلال أسبوع من القتال ضد الإيطاليين 400 ميل مربع من الأرض وأسر 30,000 جندي وأعاد احتلال قرية «سيدي براني» - بمصر - يوم 11 ديسمبر».

. . . متتبعين عن قرب درب الدبابات الثقيلة التي شقته، وصلنا في النهاية لبلدة «النبوية» نفسها، وأمام ثغرات الحوائط تجد هنا وهناك رجلاً ممدداً فوق الأرض بلا حياة، أو متساقطاً بوحشية عند مدخل خندق تحوم فوقه سحابات الذباب، في حين تجد بعض الحمير والبغال - حوالى الستين أو السبعين منها - وقد أفاقت من صدمة ضجيج المعركة، يتشممون ما بين الحطام بألم ويأس بحثاً عن الشعير والماء، وحين لا يدرون شيئاً يرفعون رؤوسهم ويأخذون في النهيق بانفعال مؤثر، نحو الهواء الثقيل المحمل بالأتربة.

وقد تجمعت الدبابات الإيطالية الخفيفة عند بقعة على السور الغربي حيث تكومت لوقفة أخيرة وهناك استسلمت، وشق البعض الآخر طريقه داخل الحصن وأخذت تدور بهذا الطريق أو ذاك مبينة مدى افتقادها لأية معلومات لمواجهة الهجوم في اللحظة الأخيرة، ثم ترى جثة «ماليتي» وهي ممدة عند عتبة خيمته مغطاة بمعطفه القصير وقد لطخت لحيته بالرمال والعرق.

تهب الرياح الآن من «المدقات» العميقة الضخمة التي حفرتها الدبابات، وبالسير خلالها مضينا من خيمة لأخرى ومن خندق لآخر بواسطة ممر أرضي، فقابلنا أشياء غريبة حيثما ذهبنا، فأسرة الضباط مفروشة بملاءات نظيفة والأدراج تمتلىء بالأقمشة والعديد من الملابس الرائعة من كل نوع وأزياؤهم الرسمية مثقلة بالأشرطة الذهبية وتعج بالأوسمة ونياشين الاستعراضات، تراها معلقة على حواملها ومعها أحذيتهم ذات الرقبة بطلائها اللامع ومحلاة بمهمازها، وتجد كوفيات ـ منديل الرقبة ـ بلون أزرق خافت، وأحزمة مزينة بالشرائط وقبعات و«كابات» عليها زخارف مشغولة وريش الطيور.

عندئذ جاءنا أحد الهنود وهو يعدو عبر المعسكر حاملاً معه واحداً من هذه الأحزمة المذهبة والمفضضة، وهو من الجلد اللامع الذي يعلقه الفاشيست حول أكتافهم في الاستعراضات العسكرية، ثم وصلنا لعباءات كبيرة زرقاء خاصة بالفرسان تغمر الرجل حتى كاحله، كما أن طاولات الأدوية الشخصية الخاصة بالضباط في الخيام، تمتلىء بالعطور، وقد ترى عليها فرشاة مطلية بالفضة أو أسلحة صغيرة صنعت برقة وخيال مصانع السلاح الإيطالية الشمالية.

جلسنا وسط الرمال الممتدة وأكلنا من المخازن كرزاً محفوظاً وبعضاً من اللوز الأخضر، وعلباً ضخمة من اللحم المجمد وسمك «الرنجة»، وخبزاً تم إنضاجه بكيفية ما داخل هذه الصحراء، وخمراً من «فراسكاتي» و«فاليرنو» و«تشيانتي» حمراء وبيضاء، وكريمة «الكريستي» من منحدرات جبل ڤيزوڤ عند نابولي، كما كانت هناك قنينات خشبية من براندي حلو الطعم برائحة الفواكه، وزجاجات الشراب من أنواع أخرى مغلفة بعناية في أغطية من القش، وبالنسبة للمياه، كان الإيطاليون يشربون مياه «ريكوراوا» المعدنية وهي أفضل أنواعها بإيطاليا، وهذه مثل كل الأشياء الأخرى قد حملت إليهم في مئات الصناديق وعبر آلاف الأميال من بحر وصحراء بالسفن والعربات والبغال في فريق عمل واحد.

التخلص من قنبلة

«لانداف ـ يناير/ أي النار 1941 افرنجي»

* جون ميللر

بسبب ترحالي المستمر عبر البلاد في مهام تنقيبية غالباً ما كان المرء يُسأل عن نصيحته بشأن الأشياء غير المميزة التي تجدها متناثرة بعد الغارات، ويكون هناك شك في خطورتها، وأنا لم أر في حياتي «سلة خبز مولوتوف» ـ وهي شرك خداعي يسقط مجموعة من قذائف انفجارية من الطائرة ـ وسرتني صدفة إضافة ذلك لمعلوماتي، وهكذا ركبنا سيارة للشرطة ومضينا إلى «لانداف» وتقدمنا رجل الشرطة إلى حديقة أمامية لڤيلا ـ منزل ـ صغيرة شبه منفصلة، وهي واحدة من مجموعة دائرية رائعة، بحوائط بيضاء وأسطح مزينة خضراء وتحت سقف الردهة ينام طفل صغير في عربته. . .

وأشار الشرطي بيده نحو حوض الزهور الذي يحف الممر، وهناك على أقصى مداه رأينا لغماً مغناطيسياً من أضخم الأنواع يكاد يكون مدفوناً في التربة بكامله في وضع سيء وبحالة متزايدة الخطر، فأخرجنا كل الناس من المنازل في الحال، ولسوء الطالع كان المفجر أسفل اللغم، وكان عليّ أن أقوم بحسابات شديدة الهدوء مما هو معتاد في مثل هذه الحالات، والمنازل المحيطة رغم روعتها إلا أنها قد تساوي 1500 جنيه استرليني لكل منزل منها، وإذا ما دمرت كلها فلن تصاب مجهودات الحرب بأي ضرر، واللغم ـ على ما أرى ـ من النموذج المثالي، ولا يبدو أنه يهدد بأية أسرار، وبمعنى آخر هو علبة ـ في مصطلح مهنتنا ـ حيث يمكن تقبل الخطر.

وكان ممكناً أن أطلب من أحد الضباط معي الحفر تحت اللغم، والزحف في الحفرة ثم العمل في اللغم من أسفل، وبدلاً من ذلك، يمكنني أن أطلب غلاية وخرطوماً بخارياً، ثم أطلب من زميلي الوقوف عند اللغم ويقوم «بحل» المادة المتفجرة بالبخار، حتى يتبقى منها شيء قليل فإذا انفجرت، لا يفقد أحد شيئاً

سوى بعض النوافذ، لكن كلا الأسلوبين خطير، فذلك يعتمد فقط على هل هذا اللغم راقد فوق مكان حساس مثل «تحويلة الكهرباء» أو «مجمع خط الهواتف» أو «شبكة مياه» أو ما في ذلك القبيل؟ هنا قررت الوثوق بالحظ و بـ «وابور زلط» عادي من المجلس المحلي.

ومن المبادىء الرئيسية في التعامل مع الألغام أن تقوم بأي عملية محتملة من بعد 200 ياردة وتحت ستائر، لكن بعض العمليات يجب أن تنفذ واللغم بين قدميك فعلاً، وهذه الحالات لا يمكن تجنبها، ولكن هناك - أيضاً - عدداً مدهشاً من العمليات يمكن تنفيذها مع نهاية خط الـ 200 ياردة، وكانت خطة عملي هي إحكام ربط أحد طرفي حبل معدني في نتوء باللغم وربط الطرف الآخر «بوابور زلط».

وبلطف شديد يعود إلى أسفل التل ويسحب اللغم من حفرته ويعرض المفجر لملاحظتنا، ومتعة تلك العمليات أن كل شخص يسرع للمعاونة وكل شخص يريد التخلص من اللغم، ولم أطلب منهم شيئاً أبداً بلا رد ولأي أداة أحتاجها مهما كانت شاذة.. كانت الإجابة دائماً «نعم» فأحضروا بسرعة، وكذلك أحد السائقين الماهرين وعى تماماً ما يجب فعله، وفهم ضرورة عدم وجود هزات على الإطلاق بأي مرحلة من مراحل العملية، ثم ربطنا الحبل بإحكام واتخذنا ساتراً من موقع يمكننا من المشاهدة ومن الإشارة للسائق حتى يدع آلته تنزلق ببطء أسفل التل، وتحمل الحبل المعدني الجهد بصورة جيدة، ثم تحرك جسم اللغم الضخم ببطء لأعلى خارجاً من حوض الزهور، حين دوى انفجار مخيف فجأة.

وحين زال التراب، لم يبق شيء - من الناحية العملية - من دائرة البيوت الجميلة، والغريب أن الناس غضبوا، وقالوا: إن «هذا الشيء ظل راقداً هناك أكثر من أسبوع، ولو تركناه لحاله ما فقدوا بيوتهم».

غزو جزيرة «كريت»

«الإنزال الجوي الألماني - 20 مايو/الماء 1941 افرنجي»

*** البارون فان ديرهيت**

«بحلول يوم 11 مايو كانت كل الأراضي اليونانية الرئيسية وجزر بحر «إيجة»

عدا «كريت» تحت الاحتلال الألماني، وبعد الإنزال الجوي الألماني في «ماليمي» و«ريتمنون» و«إيراكليون»، دامت معركة «كريت» لمدة أسبوع قبل أن يضطر الجنرال «فري برج» ـ قائد قوات الحلفاء هناك ـ للجلاء عن الجزيرة. . . ».

. . . أيقظني جندي المراسلة الذي معي، وبدأت أستيقظ مع شعوري بالنعاس لأسمع هدير المحركات يرتفع أكثر فأكثر، كما لو كان آتياً من مسافة بعيدة، واستغرق الأمر مني دقيقة أو اثنتين لأتذكر أين أكون وما المهام التي أمامي، قال لي: «نحن نقترب من كريت يا سيدي» فنهضت وتوجهت نحو الباب المفتوح الذي جلس بجواره مسؤول القافزين، وكان واجبه متابعة كل الاستعدادات الأخيرة للقفز وتجهيزها ـ وحلقت طائرتنا في مجرى ثابت بالجو كما لو كانت بلا حراك تقريباً، وحين تطلعت فيما وراء الجناح الرمادي الفضي بصليبه الأبيض المميز، استطعت رؤية هدفنا ـ وهو ما زال صغيراً ـ مثل صخرة تبرز من البحر المتلألىء لمقابلتنا إنها جزيرة كريت، وببطء شديد كالنقاط الأخيرة المتساقطة من بئر جاف، مرت الدقائق واختلست النظر مرات ومرات لساعة يدي. . .

ليس هناك شيء مرعب ومتعب مثل انتظار لحظة القفز، وحاولت تهدئة نفسي وتصبيرها بلا جدوى، كما سيطر قلق غريب على معظم أولئك الطائرين معي، وإذ لم أتحمل أكثر من ذلك خطوت ثانية نحو الباب المفتوح. كنا نطير فوق الشواطىء تماماً، الشريط الرقيق للساحل، الذي يبدو من عل مثل شريط أبيض لامع، يفصل المياه الزرقاء عن الشاطىء الأصفر المائل للخضرة، وبدت الجبال خلفنا والطائرات تقترب منها تشبه طيوراً عملاقة تحاول الوصول لأوكارها بين الصخور.

كنا لا نزال نطير نحو الأرض في الداخل كما لو كنا نجري مقابل الجانب المظلم للجبل، وبدا كأننا سنلمس المنحدرات المائلة التي تظهر عليها الأشجار والمباني المنعزلة كاللعب. . .

عندئذ غطس جناح طائرتنا الأيسر ودرنا بعيداً عن الجبل، وبدأت الطائرة

تدور لكننا استقمنا بسرعة، وعند تلك اللحظة جاء صوت قائد الطائرة آمراً: «استعدوا للقفز» فنهض كل واحد وبدأ يحكم رباط «خطافه» في العمود الثابت الذي يمتد حتى مركز قلب الطائرة، وبينما نقف هناك نتأكد من ثبات «خطاطيفنا» لاحظنا أننا بدأنا نفقد الارتفاع، وأصبح ضغط الهواء عالياً يكاد يؤذي آذاننا.

ثم جاء الأمر «استعداداً للقفز» وفي خطوتين، كنت أمام الباب ورجالي يتضاغطون خلفي ويمسكون بالمقابض على كلا الجانبين، ثم صفق تيار الهواء خديَّ فشعرت كأنهما يرفرفان كعلمين صغيرين في الهواء.

وفجأة ظهرت سحابات صغيرة بيضاء وكثيرة في كل مكان، وبقت ثابتة في الهواء حولنا، وبدت غير مؤذية بصورة كافية مثل ندف ألياف القطن، لأن زئير محرك الطائرة أخفى دوي المدافع المضادة للطائرات.

وأسفل مني، كانت تقع قرية «إليكيانو» واستطعت أن أرى الناس يحملقون فينا وهم في الشوارع، وآخرين يجرون بعيداً ويختفون خلف الأبواب، وانزلقت ظلال طائراتنا كأيد شبحية فوق المنازل البيضاء الغارقة تحت الشمس، في حين تلمع مرآة ضخمة ـ خزان المياه ـ خلف القرية، ثم مظلات الهبوط وحيدة اللون تجرفها الرياح كأوراق الخريف نحوها.

أبطأت طائرتنا، وحانت اللحظة الحاسمة: «اقفزوا» فاندفعت بيدي ورجلي دافعاً يدي للإمام كما لو كنت أحاول التعلق بالصليب الأسود فوق الجناح، عند ذلك تملكني تيار الهواء ودرت عبر الفضاء والهواء يدوي بأذني.

القوات البريطانية تواجه مقاومة من قوات حكومة ڤيشي

«سوريا في يونيه/ الصيف 1941 افرنجي»

*** آلان مورهيد**

«خشية أن تقع سوريا تحت أيدي دول المحور، دخلتها القوات البريطانية

وقوات فرنسا الحرة من فلسطين يوم 8 يونيه 1941 افرنجي وقد واجههم الجنرال «دينتز» المعين من قبل حكومة فيشي الفرنسية وبعد قتال ضار، أرغم «دينتز» على توقيع هدنة في عكا يوم 14 يوليه».

. . . كنا نقيم بفندق يهودي أعلى جبل الكرمل في حيفا، وهو مكان رائع يمتلىء بأشجار الصنوبر وحدائق الأزهار، ومد البصر من هنا - بنفس المكان الذي رأى منه «إيليا» السحابة لا تعدو حجم كف الإنسان، ولمح أسفله - وسط حيفا - رهبان معبد بعل يمكن المرء من صورة متكاملة لكل مساحات الشاطىء بطول الساحل حتى سوريا، وعبر سهول أرمجدون، أتت الطائرات القاذفة التابعة لفرنسا «فيشي» ولدول المحور لتغير على الأسطول في ميناء حيفا عند أسفل الجبل ووسط الليل.

وقفنا في شرفات الفندق ورأينا السماء تصب بقذائف موجهة، أشبه بأبصال ملتهبة وزهور متفجرة تنطلق من مدافع الأسطول المضادة للطائرات، أحياناً تلمح وسط ضوء القمر قنبلة فضية هابطة، وطالما تعلم أنها ليست متوجهة إليك، فإنك تتابعها مشدوداً للانفجار القادم في البحر أو على طول شاطىء أسفل الفندق، وأحياناً يخطىء أحد المغيرين في حساب مدى حدة انحدارات جبل الكرمل فتراه يمسح قمم أشجار الصنوبر فوق رؤوسنا، وقد نسمع الطيار وهو يفتح محركاته للانقضاض القادم على الميناء.

وإنه لشيء شديد التلاحم أن يكون المرء في الآلة المهاجمة نفسها، ولا بد أن جبل «الكرمل» أضحى أفضل صامد للغارات الجوية في العالم.

وفوق تلك السلسلة من التلال حيث تأسست وحدات الكرمل، وحيث أدى «داود وجوليات» صراعهما الأخير، بنى اليهود فنادق حديثة ضخمة ومطاعم فيما بين الأشجار، وهنا كل مساء وليلة يأتي الناس من المدينة الحارة أسفل الجبل، ليستمعوا في حنين الماضي لمطرب من ألمانيا أو موسيقى صاخبة من أمريكا، وللرقص تحت الأشجار، وكان من الممكن - لو أردت - أن تنضم لرقصة مع الشاي فوق الجبل وبعد قليل تمضي إلى الجبهة في سوريا لمدة ساعة أو ساعتين

في المساء، وتعود عند الغسق وتصلي وقت العشاء في صالة للبيرة الألمانية في المدينة وفي ملهى ليلي فوق الجبل.

وكنت أرى الأسطول كل صباح من نافذة غرفة نومي، وهو يمخر عباب البحر بطول الشاطىء السوري، وسرعان ما يأتي دور القصف منحدراً عبر «أرماجدون» إلى نافذتي مع دخول قهوة الصباح.

كان الطريق عبر «عكا» إلى سوريا سليماً تقريباً وتحول الشاطىء نفسه إلى تلال متكورة ومزارع من القمح والزيتون والموز تمتد حتى الشاطىء الأصفر، وبحر رقيق دافىء أخضر الزرقة، وعادة قبل التوجه للمواقع الأمامية كنا نخلع ملابسنا على الشاطىء ونستحم لمدة نصف الساعة، ونشرب زجاجات «الكارمل هوك» التي أحضرناها من حيفا، حيث لم تزل غير ساخنة بعد، وغالباً ما يضفي الجليد متعة فوق قمة الجبل.

ولم يكن الأمر بمثل هذه البساطة أمام الجنود عند الجبهة، إذ كانوا يواجهون الجنود الجزائريين الأصلاب والفرق الأجنبية الفرنسية، والأكثر من ذلك مقاتلات الـ «دينوتين» وقاذفات الـ «جلين مارتين» التي كانت تصل تباعاً من شمال إفريقيا الخاضعة لفرنسا عن طريق إيطاليا وجزيرة رودس لقصف وتدمير المواقع البريطانية.

بيرل هاربور

«7 ديسمبر/ الكانون 1941 افرنجي»
من ذكريات رجل حرب سابق

*** جون جارسيا**

«أسفر الهجوم الياباني المفاجىء على أسطول الولايات المتحدة بالمحيط الهادي، الذي كان يلقي مراسيه في قاعدته البحرية على جزيرة «أوهو» في هاواي، عن تدمير 14 سفينة، و150 طائرة، وقتل أكثر من 2000 شخص، ثم ألقى بأمريكا في خضم الحرب».

كنت في السادسة عشرة من عمري، وأعمل كمتدرب على تركيبات الأنابيب

«المواسير» في ترسانة بيرل هاربور، ويوم السابع من ديسمبر 1941 افرنجي حوالى الساعة الثامنة صباحاً، أيقظتني جدتي وأعلمتني أن اليابانيين يقصفون ميناء «بيرل هاربور»، فقلت: «إنها مجرد تدريبات» إلا أنها قالت: «لا، إنها حقيقة، وقد طلب المنادي[1] كل من يعملون بالميناء للعودة إلى أعمالهم، فخرجت إلى الرواق واستطعت رؤية المدافع المضادة للطائرات تطلق نيرانها نحو السماء، فلم أتفوه بأكثر من «يا ولد!».

. . . كنت عندئذ على بعد أربعة أميال، فارتقيت دراجتي البخارية واستغرق وصولي هناك خمس أو عشر دقائق، كانت المسألة في معمعة، وكنت أعمل - أصلاً - على سفينة «شو» وكانت على حوض جاف، لكنها الآن تشتعل لهباً، فبدأت أتجه نحو ورشة تركيبات المواسير لأخذ صندوق عدتي حين قدمت موجة أخرى من الطائرات اليابانية، فدخلت تحت كتلة من السلالم الإسمنتية عند الحوض الجاف حيث توجد المدمرة «بنسلفانيا».

ثم جاء ضابط وطلب مني الذهاب إلى بنسلفانيا وأن أحاول إطفاء النيران، فاخترقت قنبلة سطح السفينة البحري وهو الثالث أسفل سطح السفينة العام، وتحته توجد المخازن والذخائر والبارود والقذائف، فقلت: «لا سبيل لذهابي هناك» فهي قد تنفجر في أي لحظة. كنت صغيراً وفي السادسة عشرة ولم أكن غبياً، ولا حتى مقابل اثني وستين سنتاً في الساعة أرضى بالذهاب «ضحكات» وبعد أسبوع، مثلت أمام محكمة الأسطول، وقد قضوا بأنني لم أكن في الخدمة وبالتالي فلا يمكن إصدار الأوامر لي.

ولم يكن هناك قانون طوارىء في ذلك الوقت، ولأنني كنت في السادسة عشرة ولأنني ألقيت بنفسي في الماء، فقد أسقطوا كل شيء ضدي، وكان أحد الضباط قد طلب مني النزول للماء وإحضار البحارة الذين انفجرت بهم السفينة، وكان بعضهم فاقد الوعي والآخر ميتاً، وهكذا قضيت بقية اليوم سابحاً في الميناء

(1) المنادي: مهنة تعرفها الموانىء لشخص مكلف بالنداء على عمال البواخر في ورودياتهم المختلفة بالميناء وذلك أثناء تواجدهم في منازلهم حين تكون مواعيد السفن أحياناً مجهولة. «المترجم».

مع بعض الوطنيين «الهاواييين» وقد أخرجت ما لا أدري عدده من الجثث، أحياءً وأمواتاً، وكان هناك رجل آخر يضعهم في سيارة إسعاف ويذهبون، وقد عملنا اليوم كله في ذلك.

وفي اليوم التالي ذهبت «بعدتي» إلى السفينة «وست ڤرجينيا» لقد تحول عاليها سافلها وانقلبت، ووجدنا عدداً من الرجال داخلها، وكانت السفينة «أريزونا» قد أغرقتها المياه تماماً وكذلك السفينة«أتاه» وكان هناك رجالاً أيضاً، وقضينا شهراً تقريباً نقطع الهيكل المعدني للسفينة «وست فرجينيا» ونحن نميلها للخلف على سطحها، وكان حوالى ثلاثمائة من الرجال الذين أخرجناهم من هناك أحياء عند اليوم الثامن عشر، واستغرق إطفاء النيران كلها أسبوعين، وكنا نعمل ليل نهار لمدة ثلاثة أيام، وكان هناك الكثير من الفوضى والإثارة، وقام بعض بحارتنا بإطلاق أسلحتهم عيار 5 بوصة نحو الطائرات اليابانية، وبالطبع لا تستطيع أن تسقط طائرة بقذيفة 5 بوصة، وكانت القذائف تهبط في «هونولولو» القريبة، تلك القذائف البحرية التي لم تنفجر، فقتلت وأصابت كثيراً من الناس في المدينة، لأن مداها كان عشرة أميال.

وعندما عدت بعد اليوم الثالث، أخبروني أن قذيفة أصابت منزل فتاتي، وكنا نذهب معاً إلى «أواهو» لمدة ثلاث سنوات تقريباً، وكان منزلها على بعد منازل قليلة من مسكني، وقالوا - في ذلك الحين - إنها قنبلة يابانية، وعلمنا فيما بعد أنها كات قذيفة أمريكية. لقد ماتت وهي تعد نفسها للذهاب للكنيسة في ذلك الوقت.

اليابانيون يقصفون مانيلا

«8 ديسمبر/ الكانون 1941 افرنجي»

كارلوس. ب - رومولو

«يوم 8 ديسمبر عام 1941 افرنجي، قامت القاذفات اليابانية المتمركزة في تايوان بضرب مطاري «كلارك» و«إبا» في الفليبين»، مدمرة أكثر من نصف

الأسطول الجوي للقوات الأمريكية بالشرق الأقصى، وقد استسلمت مانيلا لليابانيين يوم 2 يناير عام 1942 افرنجي».

لم يكن أمامنا فترة طويلة ننتظر خلالها بعد واقعة «بيرل هاربور» ففي اليوم التالي وقفت في شرفة مبنى «الهيرالد» ورأيت أول طلعات العدو الجوية تشق عنان السماء بارقة كالشهب العظيمة، أربع وخمسون وحشاً يابانياً طائراً تلمع فضية وسط أشعة شمس النهار، تطير في سربين هائلين على شكل «7» وعلا صوت أجراس الكنيسة فوق صافرات الإنذار ليعلن منتصف النهار، ورقدت مانيلا بلا حماية ولا استعداد تحت رحمة طائرات العدو، مدينة الأديرة قديمة مع ملاهي الليل الزاهية الواجهات وناطحات السحاب التي تطل على الأكواخ البدائية، مدينة الآثار والعصرية، والشرق والغرب.

ثم سمعت هيئة المراسلين بالهيرالد يتدافعون خارجين من المبنى إلى شارع «مورالا كالي» حيث سيق المواطنون بأرديتهم البيضاء الوطنية الناصعة بواسطة الشرطة تحت السور الأسباني القديم المغطى بالنباتات، بينما تجمعت النسوة تحت أشجار «الأكاسيا» في المنتزه، فوجدت نفسي أزمجر، فقليلات منهن فتحن مظلاتهن التماساً لمزيد من الحماية.

وخرج نصف دستة من القساوسة ذوي اللحى من كلية «سان جوان دو ليترا» على الباب التالي متطلعين لأعلى فرأوا الطائرات، فلموا معاطفهم البيضاء واندفعوا عائدين للمبنى، وتوقفت العاصمة عن الحركة، وتجمدت القطارات الكهربائية على خطوطها. السيارات، وعربات «الريكشا» التي تجرها مهور هزيلة، تم سحبها - برضوخ - نحو الرصيف، ولم تظهر أية علامة من علامات الاضطراب، وكان كل شخص يراقب الطائرات، فقد كنا نتوقع المغيرين منذ أخبار ضرب بيرل هاربور أمس، وفي خلال ساعات قلائل من ذلك الهجوم قامت طائرات يابانية أخرى بقذف قنابلها المدمرة فوق «داڤو» في الجنوب وفوق «أباري» في الشمال ومعسكر «جون هاي» في «باجويو» ومطاري «كلارك فيدل» و«إبافيلد»، وكانوا متأكدين من ضرب مانيلا عاصمة الفليبين.

واندفع شيء ما بين قدمي لقد كانت «كولا» قطة مكتبنا، إذ أزعجت صفارات الإنذار غرائزها الحيوانية.

وتوقف الأزيز وفي أماكنها سمعنا صوت هدير الطائرات.

هجوم ياباني بالطائرات والغواصات يغرق السفينتين «أمير ويلز» و«ريبولس» في سنغافورة.

«10 ديسمبر/ الكانون 1941 افرنجي»

* من مراسل على ظهر السفينة «ريبولس» سيسيل براون

«بعد شهرين من هذه الكارثة البحرية، سقطت سنغافورة بيد اليابانيين في 15 فبراير 1942 افرنجي».

... ضرب الطوربيد سفينتنا على بعد عشرين ياردة من موقعي، وشعرنا كأن السفينة تحطمت فوق رصيفها، وقذفني الارتطام لأربعة أقدام عبر السطح لكنني بقيت على أقدامي، وفي الحال بدا أن السفينة قد أخذت تميل تماماً.

ارتفع زئير التعليمات من مكبرات الصوت: «انفخوا أطواق النجاة»، فأخذت طوقي من الرف وكان من المشمع الأزرق بداخله أنبوب من المطاط، وربطت واحداً من الحبال حول وسطي وبدأت أربط الآخر حول رقبتي، وعند ذلك جاءت الأوامر «على كل الرجال الصعود إلى سطح السفينة بقدر الإمكان» لكن طائرة يابانية ألغت هذا الأمر إذ ضُرب السطح في الحال بضربة أخرى، وبسرعة لا يمكن تصديقها، أخذت السفينة «ريبولس» تميل نحو جانبها الأيسر ولم أبدأ بعد نفخ طوق نجاتي، فأنهيت ربط الحبل حول رقبتي وعلقت آلة التصوير الخاصة بي خارج طوق النجاة الفارغ، وكان «جالاغر»[1] قد ارتدى طوق نجاته وبدأ ينفخ في الأنبوبة المطاطية ليملأها، وحوّل هذا المجهود وجهه القوي الجميل إلى حمرة

---

(1) هو O'Dowd Gallagher المراسل الصحفي البريطاني الذي كتب هو أيضاً عن هذه الواقعة في روايته الشهيرة «انسحاب في الشرق» ونشرت عام 1942. «المترجم».

أشد مما كان عليه، وجاء صوت القبطان «تينانت» عبر مكبرات الصوت هادئاً: «كل الأيادي فوق السطح ـ استعدوا لمغادرة السفينة» ثم برهة صمت: و «ليكن الله معكم».

لم يكن هناك اضطراب أو فوضى أو إزعاج، فنحن الذين كنا على السطح الأوسط تحركنا نحو ممر جماعي يؤدي بنا إلى السطح الخلفي، وكنت أنا و«إبراهام» مصور الأدميرالية «البحرية» و«جالاغر» معاً، وكان هدوء كل شخص شيء مذهل، فلا تدافع، ومع ذلك لا تباطؤ، وبدا على شاب صغير أنه مستعجل ويحاول أن يشق طريقه نحو المقدمة في أول الممر كي يصل إلى السطح الخلفي بسرعة، فربت ضابط صغير على كتفه قائلاً بهدوء: «الآن، الآن، فنحن نتجه بنفس الطريق أيضاً»، فتماسك الشاب بنفسه في الحال، وبدأت «ريبولس» في الغرق.

وكان الطوربيد الذي حطم السفينة «أمير ويلز» على بعد نصف أو ثلاثة أرباع الميل أمامنا، منخفضاً أسفل الماء، وملفوفاً إلى حد ما بالدخان محطماً جانبها. وظل اليابانيون يجنحون حولنا مثل النسور الجارحة ويهاجمون «أمير ويلز» وقد سقط بعضها بقذيفة فهوت كالبرق البرتقالي المحترق فوق صفحة بحر الصين الجنوبي الزرقاء.

كان الرجال يكومون قوارب النجاة «الطوف» وأطواق النجاة، والمقاعد الخشبية وقطع الخشب وكل ما يمكنه أن يطفو، وعند وقوفي على حافة السفينة رأيت ـ شخصاً ـ هو الطالب البحري بيتر جلييس ذو الثماني عشرة عاماً، أسترالي من سيدني ـ يغطس من برج المراقبة الجوية عند قمة الشراع الرئيسي من ارتفاع 170 قدماً ويبدأ في السباحة بعيداً.

وأخذ الرجال يقفزون نحو البحر من البرج الرابع أو الخامس من أبراج المراقبة الجوية التي تحيط بالشراع الرئيسي مثل سلسلة من الأرفف البارزة، وأخطأ أحد الرجال تقدير مسافته وأثناء غوصه، ارتطم بجانب السفينة «ريبولس» محطماً كل عظمة في جسده، وتدحرج نحو البحر مثل كيس الإسمنت المبلل، وأساء آخر اتجاهه، فغاص من أحد هذه الأبراج ـ مباشرة ـ نحو المدخنة.

كان الرجال يجرون على طول السطح للوصول لمؤخرة السفينة، فهي أكثر غوصاً في الماء عند المؤخرة وستكون قفزاتهم من هناك من مسافة أقصر، وجرى اثنا عشر بحاراً إلى أقصى المؤخرة وقفزوا في الماء وابتلعهم «رفاص» السفينة، وما زالت محركات الـ«ريبولس» تدور، ويطفو خمسمائة أو ستمائة رأس فوق الماء، فانجرفت الرؤوس نحو المؤخرة، لأن السفينة ما زالت تشق طريقها، كما أن المد كان قوياً هنا أيضاً.

كان الرجال يتقافزون من جميع الاتجاهات حولي فوق الجانب، فجلست على حافة الـ «ريبولس» وخلعت حذائي، وكنت مغرماً بذلك الحذاء جداً إذ قام بصنعه من أجلي أحد الصينيين منذ أيام قلائل في سنغافورة، كان حذاءً ليناً ذا أربطة بنهايات معدنية، وكان مضبوطاً على قدمي بعناية كما يفعل المرء عندما يذهب للنوم فيضعه أسفل الفراش. ولم تكن لدي أية فكرة عما سيأتي بعد ذلك، ولا أي أفكار واضحة عن الكيفية التي سأنقذ بها نفسي، فالمسألة تخص كل إنسان بنفسه، وبينما أجلس هناك خطرت لي فجأة قناعة مسيطرة ومحكمة، فقلت هذه الكلمات بالفعل: «إنك لن تفلت أبداً من هذا الموقف يا سيسل». ثم رأيت رجلاً يقفز فيهبط فوق آخر مباشرة فقلت لنفسي: «عندما أقفز لا أريد أن أؤذي أحداً»، وكان هناك أسفل السفينة في الماء خليط من الزيت والحطام، ولم أرغب في القفز وسط ذلك أيضاً. وشعرت بعقلي يتخدر، فنظرت إلى السفينة «أمير ويلز» وكانت مدافعها تومض في حين يندفع اللهب بين الدخان الرمادي الكثيف.

كان عقلي لا يستطيع استيعاب ما تراه عيناي، فمن المستحيل أن أصدق غرق هاتين السفينتين الجميلتين القويتين الخارقتين، لكنهما تغرقان فعلاً، ولا شك في ذلك أبداً.

وكان الرجال ينزلقون فوق هيكل السفينة «ريبولس» الممتد حولها من الحافة بسمك ثلاث بوصات من الصلب، وحطم الرجال تلك الحافة وفجروها في الهواء ثم سقطت في الماء، فقلت لنفسي: «أنا لا أريد أن أهبط بهذه الطريقة» فإن ذلك قد يؤذي ظهورهم بصورة مفزعة.

وكان على بعد ثماني أقدام على يساري ثغرة مفتوحة في جانب السفينة عرضها ثلاثون قدماً، وشرائحها الحديدية منثنية وممزقة، فهيكل الـ«ريبولس». قد اخترق كما لو أن عملاقاً ضخماً قد قام بتمزيق علبة من الصفيح شيعاً.

ورأيت ضابطاً يقفز من فوق الجانب، من الفتحة تحت الخط ثم يغوص عائداً لداخل السفينة، والتفتُّ نصف التفاتة لألقي نظرة على سطح السفينة المنثني بجنون، فوجدت قسيس السفينة بجوار أحد المدافع، يتلو الطقوس الأخيرة «لمدفعي» يموت بجوار مدفعه، وظهر على القس أنه غير مبالٍ بالمرة بحقيقة وشك غرق السفينة في أية لحظة.

كان القفز على حوالى عشرين قدماً، وكان الماء دافئاً، ولم يكن ماءً وإنما زيتاً كثيفاً، وكانت حركتي الأولى أن أنظر في ساعتي الميقاتية «ستوب ووتش» وكانت قد تحطمت عند الساعة 12,35، أي بعد ساعة وعشرين دقيقة من وصول الطلعة اليابانية الأولى عبر 12,000 قدم كي تخترق السطح المدرع للسفينة «ريبولس».

ولم يطرأ لي أن أسبح بعيداً عن السفينة حتى شاهدت آخرين يضربون بأذرعهم مبتعدين، عندئذ لمست كم ذلك صعب، فالزيت ينتشر خلال ملابسي ويثقلها، واعتقدت أن أشباحاً ما تحت الماء تجذبني محاولة سحبي إلى أسفل، كما أن طوق النجاة الفارغ بعدما امتص الزيت كذلك، أدى إلى إحكام وتثبيت ربط الحبل حتى حبل الاحتياط حول عنقي، فقلت لنفسي: «إنني سوف اختنق حتى الموت. . . حتى الموت» فبالإضافة للأماكن المغلقة يلي خوفي منها خوفي - طوال حياتي - من الموت خنقاً، وتلك أول لحظة للخوف. وكنت أحمل خاتماً بيدي اليسرى، كانت «فارتا» قد ابتاعته لي في «بونتي ڤيتشيو» بفلورنسا حينما كنا نقضي شهر العسل، وكان الخاتم واسعاً قليلاً حول إصبعي، وبسبب الزيت المعلق بيدي خشيت أن أفقده فأحكمت قبضتي حتى لا ينزلق، وبدأت السباحة بعيداً ويدي اليسرى مغلقة وبيدي اليمنى أقوم بتجديفة واحدة، وأجذب الحبل المربوط حول عنقي في محاولة يائسة لإرخائة، ثم أعود لأجدف مرة أخرى سابحاً بعيداً عن السفينة.

وقد ساعد هذا الخاتم في إنقاذ حياتي، ولا بد أن شيئاً ما مثل ذلك قد ساهم في إنقاذ حياة مئات الرجال، إن عقولكم تحجر نفسها على أمور سخيفة وتافهة، مجترة أفكاركم ومثيرة الغريزة الطبيعية للإنسان نحو الاضطراب في مواجهة الموت، ورأيت «وسيلة نجاة» طولها ثمان عشرة بوصة وأربع بوصات في سمكها، وكانت أشبه بقطعة «سجق» فضممتها لي، وأخذت قطعة خشب ظاهرة تدعوني ـ أيضاً ـ كما اقترب برميل مني، لكنني رفضته لأن الزيت يمنعني من إمساكه، وكل ما حولي رجال يسبحون، والدم يسيل من وجوههم التي غطاها الزيت.

وكان الزيت يحرق عيني، كما لو كان أحدهم قد نخسهما بسيخين محميين، فهو أسوأ شيء وقد ابتلعت منه بالفعل وبدأ يشعرني بالغثيان، وعلى بعد خمسين قدماً من السفينة، وبعدما صعب عليَّ العوم أكثر في هذه اللحظة، رأيت قوس السفينة «ريبولس» يتأرجح نحو السماء قائماً مثل برج الكنيسة، وبرزت صفائحه الحديدية الداخلية الحمراء مرعبة وساكنة كالدماء التي تغطي وجوه الرجال حولي، عندئذ لطمني التفريغ الهوائي الناتج عن انزلاق 32,000طن من الصلب إلى أعماق البحر، فتعلق شيء ما قوي لا يقاوم بقدمي، وشعرت كما لو أن هناك من يحاول شد رجلي من مفصل الفخذ، لكنني كنت أكثر حظاً من آخرين، كانوا أقرب مني للسفينة فابتلعتهم من جديد، وعندما غرقت الـ«ريبولس» أطلقت موجة هائلة من الزيت، وتصادف أن كان فمي مفتوحاً، فابتلعت كمية لا تنسى، فأتعب ذلك معدتي بشدة.

غُرفُ الغاز في معسكر أوشفيتز

«25 ديسمبر/ الكانون 1941 افرنجي»

*** شهادة باق على قيد الحياة «صوفيا ليتفنيسكا»**

كان «أوشفيتز» أكبر معسكرات التعذيب النازية، يقع بالقرب من المدينة البولندية «أوسفيسم». وقد أسس هملر أول معسكر في 27 من أبريل 1940 افرنجي

وقد ألحق به معسكر «أوشفيتز 2» أو «بيركيناو» في أكتوبر 1941 افرنجي، خارج قرية «برزيزنكا» القريبة، حيث طور الجستابو وسائل معقدة وهائلة لإبادة الجنس، وتتراوح التقديرات حول أعداد الموتى في أوشفيتز من 1 مليون إلى 2,5 مليون شخص. . .».

- ماذا حدث في اليوم السابق لعيد الميلاد «رأس السنة»؟.

- كانت هنالك مجموعة منتقاة ضخمة في العنبر رقم 4 «عنبر المستشفى» أكثر من 3000 امرأة يهودية كان عليها أن تصطف في هذه المجموعة، التي كانت تحت إمرة «هوسلر» وكان علينا أن نغادر فراشنا بسرعة ونقف عراة تماماً في وضع انتباه أمامه وأمام الطبيبين، أنا وكيونيج، وأخذوا أرقام أولئك اللائي لم يتركن الفراش، ووضح أمامنا أنهن سيسقن إلى الموت.

وأولئك اللواتي تتسم أجسامهن بقبح المنظر أو الهزال الشديد أو من يكرهها هؤلاء الرجال لسبب أو لآخر، قاموا بأخذ أرقامهن كذلك وكان واضحاً ما يعنيه ذلك! . . وقاموا بأخذ رقمي كذلك، فأقمنا في العنبر رقم 4 لمدة ليلة وفي اليوم التالي أخذونا إلى عنبر 18، وعند حوالى الساعة الخامسة والنصف مساءً، وصلت اللواري «الشاحنات» وحملونا فيها، عراة تماماً كالحيوانات وساقونا إلى المحرقة.

- عندما وصلت إلى المحرقة ماذا حدث؟.

كانوا يملأون كل اللوري «الشاحنة» حتى آخرها أحياناً بالبطاطس أو بأحمال من الفحم، ثم اقتادونا إلى غرفة أوحت لي بانطباع أنها غرفة للاستحمام، إذ وجدت مناشف معلقة حولها وزجاجات رش معطر وحتى المرايا كانت موجودة. ولا أستطيع تحديد عدد الموجودات معنا بالغرفة لأنني كنت خائفة جداً ولا أعلم أيضاً ما إذا كانت الأبواب مغلقة أم لا، فالناس يبكون ويصرخون في بعضهم ويصطدم بعضهم بالآخر، وكان يوجد أناس أصحاء وأقوياء وضعفاء ومرضى. وفجأة رأيت دخاناً يأتي من نافذة صغيرة جداً عند السطح، وأخذت أكح بعنف، وسالت الدموع من عيني أنهاراً، وشعرت بإحساس في حلقي كما لو كنت

سأختنق، ولم أستطع حتى النظر للآخرين لأن كل منا يركز على ما كان يحدث لنفسه.

- وماذا كان أول شيء تتذكرينه بعد ذلك؟.

عند هذه اللحظة سمعتهم ينادون اسمي، ولم يكن لديّ القوة للرد عليهم، إلا أنني رفعت يدي، ثم شعرت بشخص يأخذني ويقذف بي خارج تلك الغرفة، وقام هوسلر بلفي في عباءة وأخذني فوق دراجة بخارية إلى المستشفى، حيث مكثت ستة أسابيع، وكنتيجة لتعرضي للغاز ما زالت حالات الصداع والأزمات القلبية تنتابني على فترات، وكلما خرجت للهواء الطلق تمتلأ عيناي بالدموع، وبناءً على ذلك أخذوني إلى القسم السياسي واتضح أن خروجي من غرفة الغاز كان بسبب أنني حضرت من سجن في لوبلين - ويبدو أن ذلك يحدث فرقاً في النتائج - وبخلاف ذلك فإن زوجي كان ضابطاً بولندياً.

داشاو: التجارب الطبية

«5 - 1941 افرنجي»

*** دكتور، فرانز بلاها**

«أقيم أول معسكر تجميع نازي في ألمانيا يوم 10 من مارس 1933 افرنجي، على بعد حوالى 12 ميلاً شمال مدينة ميونيخ، وأصبح معسكر «داشاو» نموذجاً لكل معسكرات الجستابو المنظمة، وكان أول وأهم معسكر تجرى فيه التجارب الطبية، وقد حكم على سبعة من أطباء داشاو بالموت فيما بعد في محكمة نورمبرج».

. . . . أنا فرانز بلاها، لأنني أقسمت جاداً، أقر وأعترف بما يلي:

إنني درست الطب في براغ وفيينا وستراسبورج وباريس وتسلمت إجازتي «الديبلومة» العالية في عام 1920 افرنجي. ومن 1920 حتى 1926 افرنجي عملت مساعداً في الطب المعملي، وفي 1926 افرنجي أصبحت رئيس المستشفى «إيجلاو» في «مورافيا» بتشيكوسلوفكيا، وقد اعتقلت كرهينة وأخذت أسيراً لتعاوني مع الحكومة التشيكية، وأرسلت كمسجون لمعسكر تجميع داشاو، في

أبريل 1941 افرنجي، وبقيت هناك حتى تحرير المعسكر في عام 1945 افرنجي وحتى يوليه من عام 1941 افرنجي، كنت أعمل في مؤسسة للعقاب. وبعد ذلك أرسلوني للمستشفى وخضعت للتجارب في مرض «التيفود» التي كان يجريها الدكتور «ميريل شتاد» وبعدها جعلوني موضوعاً لعملية تجريبية جراحية، نجحت في تجنبها حين صرحت لهم بأنني طبيب، ولو كان ذلك معلوماً من قبل لكنت عانيت كثيراً، لأن المتعلمين كانوا يعاملون بعنف في المؤسسة العقابية.

وفي أكتوبر من عام 1941 افرنجي أرسلوني للعمل في زراعة الأعشاب الطبية، ثم بعد ذلك للمعمل لتصنيعها. وفي يونيه من عام 1942 افرنجي أخذوني للمستشفى لأعمل جراحاً، وبعدها مباشرة أمروني بإجراء عمليات للمعدة في عشرين سجيناً أصحاء، ولأنني ما كنت لأفعل هذا فقد وضعوني في عيادة التشريح، حيث بقيت حتى أبريل 1945 افرنجي، أثناءها قمت بإجراء حوالى 7,000 حالة تشريح، وما مجموعه 12,000 حالة تشريح تمت تحت إشرافي.

ومن منتصف عام 1941 افرنجي لنهاية عام 1942 افرنجي تمت هذه العلميات لحوالى 500 سجين سليم، وكانت كلها لتعليم طلاب الطب والأطباء التابعين للجستابو وتشمل عمليات جراحة للمعدة، والمثانة، والغدد، والزور. وقد أجريت هذه العمليات بواسطة طلبة وأطباء لم تزد مدة تدريباتهم على عامين، رغم أنها معقدة وخطيرة، ومن المعتاد ألا تجرى سوى بواسطة جراحين لا تقل خبرتهم في المجال الجراحي عن أربعة أعوام، وقد مات العديد من السجناء على طاولات الجراحة، والعديد من الآخرين ماتوا بسبب انتكاسات متأخرة، وقد قمت بعمليات تشريح لكل الجثث، والأطباء الذين تابعوا هذه العلميات كانوا: «لانج» و«ميرميل شتا» و«ڤولتر» و«رامساور» و«كاهر» بالإضافة لممثل الفوهرر الدكتور لوليخ الذي كان يحضرها بعض المرات.

وخلال إقامتي في داشاو، اعتدت مشاهدة العديد من التجارب الطبية التي كانت تجرى على ضحايا بشرية، ولم يكن هؤلاء الأشخاص متطوعين على الأرضية، وقد مات أغلب أولئك المستخدمين في هذه التجارب من جرائها بسبب

سيولة الدم في الرئتين والمخ، وكان سعال الآخرين مصحوباً بالدم حال خروجهم، وكانت مهمتي أن آخذ الجثث وأرسل الأعضاء الداخلية إلى ميونيخ للدراسة بمجرد وفاتهم، وقد أجريت التجارب على حوالى من 400 إلى 500 فرد مسجون، أما أولئك الذين لم يموتوا، فقد أرسلوا إلى عنابر غير صحية حيث انتهوا بعد فترة قصيرة، واستطاع قلة منهم فقط الهروب، وأجرى الدكتور «راشر» ـ كذلك ـ تجارب حول أثر الماء على الأجسام الحية، وقد أجريت للبحث عن وسيلة لحفظ حياة الطيارين الذين يسقطون في المحيط.

كان الخاضع للتجربة يوضع في الماء المثلج ويبقى به حتى يفقد وعيه، ثم يؤخذ الدم من عنقه ويختبر مع كل درجة حرارة تنخفض إليها درجة حرارة الجسم، وكان هذا الانخفاض يحدد بواسطة مقياس حرارة شرجي، والبول أيضاً كان يختبر، وبقي بعض الرجال لفترة طالت من 24 ساعة حتى 36 ساعة، وكانت أكثر درجات حرارة جسم تصل إلى 19 درجة مئوية، لكن أغلب الرجال ماتوا عند درجة حرارة 25 مئوية أو 26 مئوية، وعندما كانو يخرجون الرجال من الماء المثلج، كانوا يحاولون إعادتهم للحياة بواسطة التدفئة الصناعية بالشمس، أو الماء الساخن أو العلاج الكهربي أو بواسطة الدفء الحيواني.

ومن أجل هذه التجربة الأخيرة، أحضروا عاهرات وكانوا يضعون جسم الرجل الفاقد الوعي بين امرأتين، وقد حضر «هملر» واحدة من مثل هذه التجارب واستطعت رؤيته من إحدى الأطلاق، وقد أجبروا على المشاركة في هذه العمليات، وقد أجرى الدكتور كالوس شيلينبخ حوالى 1200 عملية تجربة لمرض الملاريا فيما بين الأعوام 1941 و1945 افرنجي، وطلب هملر شخصياً من الدكتور شيلينبخ إجراء هذه التجارب. وكان الضحايا إما يعرضون لعض الناموس أو يحقنون بطفيليات الملاريا «سبوروزويتس» المستخلص من البعوض، وطبقت عليهم أنواع مختلفة من العلاج، مثل العلاج بالكينا والبريفر والنيوسالڤارسان والأنتي بايرين والبيراميدون وعقار يسمى 2516 بيهرنج.

وقمت بإجراء تشريح لجثث مات أصحابها من هذه التجارب على الملاريا،

ومن ثلاثين ضحية إلى أربعين يموتون من الملاريا نفسها، ومن ثلاثمائة شخص حتى أربعمائة ماتوا فيما بعد من أمراض ثبت أنها خطيرة، بسبب الحالة الصحية التي تنتج عن نوبات الملاريا، بالإضافة لوجود حالات وفاة تنتج من التسمم الناشىء عن الجرعات الزائدة من دواء النيوسالڤارسان والبيراميدون، وكان الدكتور شيلينبخ حاضراً وقت تشريح جثث مرضاه.

وفي عامي 1942 و1943 افرنجي تمت تجارب بواسطة الدكتور «سيجسموند راشر» لتحديد آثار تغييرات الضغط الجوي، وقد وضعوا حوالى 25 شخصاً في وقتٍ واحد في مكان صُنع خصيصاً بحيث يمكن التحكم في الضغط داخله زيادة ونقصاً، وكان الهدف تحديد آثار الارتفاعات العالية وحالات الهبوط المظلي السريعة على الكائنات الحية، ومن خلال نافذة في المكان رأيت الناس يرقدون على النوافذ فيما بين شوارع هذه العنابر، وقد حضرت بنفسي بعضاً من تجارب المياه الباردة تلك عندما كان الدكتور راشر غائباً، وشاهدت ملاحظات ورسومات بيانية على هذه الحالات بمعمل راشر، وقد استخدموا حوالى 300 شخص في مثل هذه العمليات مات أغلبهم، وعانى الكثير ممن عاشوا تخلفاً عقلياً، وأما من لم يقتلوا فقد أُرسلوا لعنابر سيئة وقتلوا هناك، مثل ضحايا تجارب الضغط الجوي، وأنا أعرف اثنين فقط عاشا ـ واحداً يوغسلافياً وآخر بولندياً ـ كلاهما يعاني من حالة عقلية سيئة.

وأصبحت عادة تمارس باستمرار أن تزال جلود السجناء الموتى، وقد أمروني أن أقوم بذلك في كثير من المناسبات، وقد طلب الدكتور ڤولتر ذلك الجلد البشري من ظهور الناس وصدورهم، وكان يعالج كيماوياً ثم يوضع في الشمس ليجف، بعد ذلك كان يقطّع إلى حجوم مختلفة للاستخدام كسروج وسراويل ركوب الخيل، والقفازات و «شباشب» المنزل و «النعال الخفيفة» و «حقائب السيدات». وكان رجال الجستابو يقدرون الجلد الموشوم، وكان جلد الروس والبولنديين يستخدم بهذا الشكل وغيرهم من النزلاء، أما جلد الألمان فكان ممنوعاً قطعه، وكان يجب اقتطاع هذا الجلد من السجناء الأصحاء وخاليي العيوب.

وأحياناً لا يكون لدينا جثث كافية ذات بشرة جيدة، فكان «راشر» عندئذ يقول: «حسناً سوف تحصلون على الجثث المطلوبة»، ونستلم في اليوم التالي عشرين أو ثلاثين جثة لناس صغار السن، أطلق عليها الرصاص في الرقبة أو ضربوا على رؤوسهم كيلا يخدش الجلد، وكنا نستلم طلبات بشأن جماجم وهياكل السجناء، وفي هذه الحالات كنا نغلي الجثة أو الجمجمة ثم تزال الأجزاء اللينة ونعفر العظام ونجففها ثم يعاد تجميعها، وفي حالة الجماجم كان من الضرورة الحفاظ على سلامة الأسنان، وعندما كنا نتسلم طلباً للجماجم من «أوراينبزج» كان رجال الجستابو يقولون: «سنحاول إحضار بعض الجماجم ذات الأسنان الجيدة لكم».

كانت الدفعات تأتينا باستمرار إلى داشاو من شتودوف وبلسين وأوشفيتز وماتهاوزن وبقية المعسكرات، وكان الكثير من هؤلاء يقضي من عشرة إلى أربعة عشر يوماً في الطريق بلا ماء أو طعام، وفي واحدة من هذه الدفعات التي وصلت في نوفمبر 1942 افرنجي وجدت دليلاً على حالة «توحش آدمية» إذ قام الأشخاص الأحياء بأكل لحوم الجثث الميتة، كما أن دفعة أخرى وصلت من معسكر كومبيين في فرنسا، أخبرني البروفيسور ليموزان أوف كليرمون فيران - الذي أصبح فيما بعد مساعداً لي - أن هذه الدفعة كانت تحوي 2000 شخص عندما بدأت وكان الغذاء متوافراً بدون ماء، فمات ثمانمائة «800» في الطريق فقذفوا بهم، وعندما وصلوا بعد اثني عشر يوماً مات أكثر من 500 شخص في القطار، ومن الباقين، مات الكثير بعد قليل من وصولهم، وقد حققت في هذه الدفعة لأن الصليب الأحمر الدولي كان قد اشتكى، وأراد رجال الجستابو الحصول على تقرير بأن حالات الوفاة حدثت في الطريق، فقمت بتشريح عدد من الجثث ووجدت أنهم ماتوا بسبب الاختناق ونقص الماء، وكان الوقت منتصف الصيف وكل عربة حشد فيها 120 شخصاً.

وقد حدثت وقائع كثيرة من الإعدامات بالغاز وإطلاق الرصاص أو الحقن بالعقاقير في المعسكر نفسه، وكانت غرفة الغاز قد اكتملت عام 1944 افرنجي

واستدعاني الدكتور راشر لفحص أول ضحية، ومن بين الأشخاص الثمانية أو التسعة ممن كانوا بالغرفة بقي ثلاثة فقط أحياء وظهر أن الباقين موتى، عيونهم حمراء ووجوههم متورمة، وتم قتل العديد من السجناء بهذه الطريقة، ثم يحولون بعد ذلك إلى المحرقة حيث كان يجب عليّ فحص أسنانهم بحثاً عن الذهب، فالأسنان الذهبية تقتلع، وكان الكثير من السجناء المرضى يقتلون بواسطة الحقن بالعقاقير أثناء وجودهم بالمستشفى، وبعض ممن قتلوا وصلوا لحجرة التشريح دون اسم أو رقم على العلامة التي كانت تربط عادة بإصبع قدمهم الكبير، وبدلاً من العلامة تجد عبارة «لا تُشرّح». . .

وقد قمت بإجراء عمليات التشريح لبعض هذه الجثث ووجدت أنهم كانوا أصحاء تماماً لكنهم ماتوا بواسطة الحقن، وأحياناً ما كان السجناء يقتلون فقط، بسبب أنهم مصابون بالدوسنتاريا أو القيء وبذلك يسببون للممرضات قلقاً، أما المرضى العقليون فكانوا يبادون باقتيادهم لغرفة الغاز ويحقنون هناك أو يطلق عليهم الرصاص، وكان الضرب بالرصاص أسلوباً شائعاً لتنفيذ الإعدام هناك. وكان السجناء يموتون بالرصاص بجوار المحرقة ثم يحملون داخلها، ورأيت أناساً يدفعون إلى الأفران وهم ما زالوا يتنفسون ويصدرون أصواتاً، ورغم ذلك فلو كانوا أحياءً بصورة واضحة فإنهم عادة يُضربون على رؤوسهم أولاً.

سقوط كوالا لامبور ـ المدينة تنتظر اليابانين

«11 يناير/آي النار 1942 افرنجي»

*** أيان موريسون**

«مع نهاية يناير عام 1942 افرنجيكان اليابونيون قد احتلوا كل ماليزيا عدا جزيرة سنغافورة».

كان المنظر الذي يقابل عيني المرء في المدينة خيالياً، فالسلطة المدنية قد انهارت والموظفون الأوروبيون والسكان غادروا المدينة، كما ذهب البيض من ضباط الشرطة والمساعدين المالاويين والهنود عائدين إلى منازلهم بالقرى

المجاورة، وكان النهب يتزايد بصورة لم أشاهدها من قبل، إذ ترك معظم المحلات الأجنبية الضخمة فارغاً تماماً مذ خرج البيض من المدينة، وأصبح النهب الآن لكل المحلات والملكيات مستمراً.

كان معظم المتجمهرين بالشوارع أساساً من طائفة «التاميل» أكثر فئات السكان فقراً، لذلك ـ فربما ـ كان لديهم حافز أقوى للنهب، ولكن كان هناك أيضاً عدد لا بأس به من الصينيين والمالاويين، وكنت تغرق إلى ركبتيك وسط الصناديق وأوراق الكرتون المقوى والأوراق التي تملأ الشوارع، كما ترى اللصوص يحملون كل ما يمكنك تخيله معهم، فهنا رجل يحمل ماكينة خياطة «سنجر» فوق كتفه، وهناك رجل صيني يحمل لفة طويلة من فراش الأرضيات مربوطة على ظهر دراجته، وتجد اثنين من التاميل يحملان جوالاً ضخماً من الأرز معلقاً على عصا، وهناك صبي تأميلي ينوء تحت حمل صندوق ضخم من السردين[1] النرويجي، وتجد راديوهات «أجهزة بث إذاعي» ولفات من القماش وعلب الأطعمة والأثاث وأجهزة الهاتف والسجاد ومضارب الجولف. كان هناك كل ما يمكن أن يتعاركوا من أجله بوحشية ويؤخذ بعيداً، حتى إن رجلاً أحضر عربة يجرها ثور إلى المدينة وبدأ في تحميلها بالبضائع في الشارع الرئيسي خارج «هوايتوايز».

وكان المنظر الذي صدمني أكثر، لعامل تاميلي صغير عار إلا من قطعة قماش خضراء صادفه حظ عظيم أن وجد علبه أسطوانية طويلة قطرها ثلاث بوصات وطولها قدم واحد مغلقة جيداً، فما الذي يمكن أن تحويه؟ من الواضح أن علبة كهذه يمكنها أن تحوي بعضاً من المنتجات الغربية النادرة والفخمة فقط، فجلس فوق حجر من الرصيف وهو يلف العلبة في يده، وتمنى لو كان يستطيع قراءة هذه اللغة الغريبة حتى يعرف ما بداخلها، وهل يجب أن يفتحها الآن أم ينتظر حتى يعود إلى منزله؟ وتملكه الفضول فقرر أن يفتحها وقام بنزع غلافها بعناية ثم خلع

(1) Sardines نوع منتشر من الأسماك القابلة للتمليح والحفظ. «المترجم».

الغطاء، فتدحرجت ثلاث كرات للتنس من نوع «سلازنجر» ببطء، وهبطت فوق الرصيف ثم انزلقت في وحل الشارع لتفقد بياضها الشاهق.

ذهبنا إلى مقر ممثل الحكومة المقيم لنرى ما إذا كان موجوداً أم لا، وكان بيتاً ضخماً واسعاً ذا لون أبيض وأرضيات مزروعة كالمنتزه بأشجار الورود محاطاً على بعد قليل بمكاتب رسمية أخرى، وكان المكان مهجوراً والعلم غير مرفوع، ولا يبدو أن هناك أي شخص حتى خلال مسافة أميال، وكان البيت الكبير خالياً، ولقد ذكرني ذلك إلى حد ما بقصة السفينة «ماري سيلست» التي وجدت في جنوب المحيط الأطلنطي تبحر بأقصى سرعتها لكن لا وجود لشخص واحد حتى فوق ظهرها ولا ما يشير أيضاً لما حدث لركابها.

وفي دار مفوض الحكومة وجدنا زجاجة ويسكي ممتلئة حتى نصفها والصودا فوق طاولة صغيرة بجوار الأريكة في حجرة الرسم، وفي الطابق الأول ثوب امرأة نصف مكوي موضوع فوق طاولة الكواء في غرفة من غرف النوم، ورسالتين موجهتين للحاكم مطبوعتين لكنهما بلا توقيع موضوعتين على الدرج في الطابق العلوي، وفي المكاتب الموجودة في الطابق الأرضي وجدنا الملفات لم تمس، ووضح أن الموظفين كانوا يُسقطون الأقلام وسط ما كانوا يفعلونه أو يقومون بإنهائه، وتوقفت سيارة شاحنة بجوار المبنى في حالة سليمة، وكانت صناديق من المزينات الفضية والخناجر ذات الصنعة الوطنية الفائقة التي تمثل هدايا ـ بلا شك ـ من أمراء الملايو، موضوعة في علب زجاجية في الصالة، وكانت الصورة الرسمية للملك والملكة تطل في ابتسام من الحوائط.

كانت تلك المباني الجميلة في ضواحي كوالا لامبور وهذه العمارات الواسعة بحدائقها المدارية البديعة حيث تينع أزهار البوجينڤيلايا والكانا والهيبسكوس وشجيرات الورود الأخرى والمتسلقات كلها في كامل تفتحها، مهجورة تماماً عدا ـ ربما ـ رجل صيني عجوز يخدم في خلف هذه الأملاك أو كلب لم يتمكن سيده من أخذه معه نحو الجنوب.

غرق السفينة تانجونج بينانج

«19 فبراير/النوار 1942 افرنجي»

«تقرير من راهبة ممرضة بريطانية»

*** أنون**

«كانت السفينة تانجونج بينانج تحمل 250 امرأة وطفلاً ويشمل ذلك ثماني راهبات ممرضات كلهم لاجئون من سنغافورة وقد أغرقتها مدمرة يابانية».

بقينا للنوم فوق ظهر السفينة خلال الليل، حين أضاء فجأة كشاف ضوئي فوقنا وبلا أي تحذير سمعنا إطلاق النار، ثم طلقة أخرى، وكلتاهما أصابتا السفينة، وعندما توقفوا عن الضرب وجدت نفسي بجوار الأخت لوبلان سميث والناس يرقدون موتى وجرحى، حاولنا، لكن ما كنا نستطيع عمله كان قليلاً لأن السفينة كانت تغرق بسرعة.

وألقينا بأنفسنا نحو الماء ثم تدبرنا أمر التقاط خشب عائم، ومررنا بأناس آخرين متشبثين بطوف فانضممنا إليهم، والتقطنا المزيد من الناس خلال الليل، وفي النهاية أصبحنا ستة عشر شخصاً يتشبثون بطوفين، ومعنا ضمن العدد ستة أطفال، اثنان منهم كانا أقل من عام في العمر، وفقدنا واحداً أو اثنين اليوم التالي إذ لم يستطيعا الاستمرار في التعلق بالطوف برغم محاولاتنا لإعادتهما، وقد ماتت الأخت لوبلان بعد ظهر ذلك اليوم بعد مجاهدة شجاعة، ثم انجرف منا اثنان آخران.

ويا للشمس الاستوائية التي تضرب رؤوسنا والعواصف المخيفة التي تهب في أحايين أخرى، والطعام مفقود، كانت المسألة مؤلمة.

في اليوم التالي جن الأطفال، وقضينا وقتاً رهيباً معهم ثم فقدناهم جميعاً، وفي تلك الليلة وجدت نفسي مع امرأة أخرى لذا تخلصنا من طوفنا واستخدمنا آخر صغيراً، واستطعنا رؤية جزر صغيرة على البعد، وهكذا حاولنا استخدام أيادينا في اليوم التالي للتجديف نحوها، لكن التيار كان ضدنا، فاضطررنا للتقدم

في دائرة، ومساء ذلك اليوم انزلقت تلك المرأة من الطوف تاركة إياي وحدي تماماً. وتم التقاطي في المساء الرابع 21 فبراير بواسطة طراد ياباني، وأخذوني إلى مونتوك في جزيرة بانكا.

لينينجراد أثناء الحصار

أبريل/الطير ـ يوليه/ناصر 1942 افرنجي»

*** أليكساندر. أ. فادييف**

«احتلت القوات الألمانية ضواحي مدينة لينينجراد مع نهاية شهر سبتمبر عام 1941 افرنجي، وخلال حصار الـ«900 يوم» التالية، مات مليونان من البشر بسبب انتشار الأسقربوط والمجاعة، بالإضافة للقصف الجوي والمدفعي وآثار الشتاء المرير لعامي 1941 ـ 1942 افرنجي».

لسوف أظل طوال حياتي محتفظاً بذكرى ذلك المساء من نهاية أبريل 1942 افرنجي عندما حلقت طائرتنا ـ في حراسة المقاتلات ـ على انخفاض شديد فوق بحيرة لادوجا وتحتنا يمتد ـ فوق الثلج المتكسر بفعل مد البحر في بعض أماكنه ـ الطريق الوحيد الذي ربط لينينجراد ببقية بلاد الوطن خلال الشتاء كله، والذي أسماه أهالي لينينجراد «طريق الحياة»، لقد تمزق ـ الآن ـ إلى أشلاء واختفى تماماً، وكان مجرد فيضان مائي فقط في بعض المناطق. وطارت الطائرة مباشرة نحو كرة الشمس المضببة الوردية التي تعلقت بقمم أشجار الصنوبر على طول شاطىء البحيرة خلفنا وسط بريق الربيع اللطيف.

ويستطيع أهالي لينينجراد ـ وأولهم النساء ـ أن يفخروا بإنقاذهم الأطفال أثناء الحصار، وكانوا قد أجلوا نسبة كبيرة من الأطفال من المدينة لكنني لا أشير إلى هؤلاء، وإنما أشير إلى الأطفال الصغار بالمدينة الذين واجهوا كل أعباء وخصوصيات المدينة، فقد أقيمت شبكة واسعة من رياض الأطفال بالمدينة وفرت لها المدينة المتضررة جوعاً أفضل ما تملكه.

وخلال فترة ثلاثة أشهر قمت بزيارة العديد من هذه الحضانات، إذ كنت كثيراً

ما أبقى جالساً في مكان ما من ميادين المدينة أو المنتزه في «ليسني»، وقضيت ساعات ـ دون أن يلحظني الأطفال ـ أراقب ألعابهم وأنصت لأحاديثهم. وفي أبريل حينما رأيت أطفال لينينجراد لأول مرة، كانوا قد خرجوا من أحرج لحظات حياتهم، لكن تجربة الشتاء القاسية ما زالت تحتفظ بآثارها فوق وجوههم وتنعكس على ألعابهم، تراها في الأساليب التي يلعب بها الأطفال بأنفسهم، فتجدهم يلعبون بشكل صامت حتى في الألعاب الجماعية بوجوه متجهمة، رأيت وجوه أطفال عبرت عن جدية متنامية وعيون أطفال تعكس تأملاً وحزناً عميقين، وهذه الوجوه والأعين تفصح عن مخاوف المجاعة أكثر مما تستطيعه هذه القصص ذاتها.

وخصصت كل الحدائق والميادين والأماكن الفضاء والأفنية كمنافع عامة، ونمت النباتات في كل مكان، وحيثما بدأت الزهور تنمو عبر الممرات والحدائق والمدافن، تجد شخوص نسوة ينحنين لالتقاط ما يصلح غذاءً من بينها، من أعشاب «الدانديلونز» و«السوريل» و«النيتل» و«الجوزفوت». وحين مروري بحقل «شومب دومار» الذي يقع الآن في الملكية العامة، رأيت الأفرع السفلية لأشجار الليمون قد امتلأت حتى إن اليد يمكن أن تصل إليها.

لكنك تستطيع التعرف على أهالي لينينجراد أكثر من أي شيء آخر بالطريقة التي ينظمون بها الميادين والحدائق على طول «نيڤسكي بروسبكت» وكعادتهم من قبل الحرب لم تعرض الزهور في الأماكن العامة فقط، وإنما كانت في أكثر آنية الزهور أناقة، وعند مفترقات الطرق يمكنك شراء الزهور من المشاتل الزراعية.

وكانت خيالات ضوء الشمس الخصبة التي تنشر ضوءاً أخضر مبهراً فوق مياه نهر «نيڤا» من قناتي «فونتانكا ومويكا»، هذا الخليط غير العادي من المياه والظلال الخضراء أخفى في ألوان لامعة كل آثار الدمار الذي حاق بالمدينة، فعادت جميلة من جديد، وفي المساء تعود جماعات النسوة والشباب الصغار شاقين طريقهم على أقدامهم أو بواسطة الترام «القطار الكهربائي» من الحقول المحروثة ومن الأراضي النائية، حاملين ملء أذرعهم من الخضروات وباقات الزهور.

وهبطت الليالي البيضاء فوق لينينجراد، وبإمكانك أن تقف لساعات فوق كوبري ترويتسكي وأسفله - بطول نهر نيڤا - حيث ينتصب بهو أعمدة البورصة القديمة وقصر الشتاء والقيادة البحرية في سكون جميل وسط ضباب زهور الليلك.

وتبقى نوافذ الأهلين في لينينجراد مشرعة ليلاً ونهاراً على وسعها، وتهبط أصوات موسيقى الإذاعات والمسجلات «الحاكي» إلى الشوارع. وحين تتجول بطول شارع هادىء ظليل فلسوف تسمع من مكان ما داخل نافذة مشرعة - فتاة تلعب على معزفها «البيانو» دروسها الموسيقية، ومن وقت لآخر ينبعث صوت مدرسها الحاد، ويشعرك التنزه على طول نهر نيڤا ليلاً بالراحة لترى بين جناحي كاتدرائية كازان، المنطاد الكبير الأشبه بالسمكة الفضية يتحرك بخفوت على أربطته مستعداً لدى لحظة الأمر، أن يرتفع نحو السماء.

خمس دقائق حاسمة
أعاقت حاملات الطائرات اليابانية

«معركة ميدواي، 4 يونيه/ الصيف 1942 افرنجي»

*** ميتسو فوشيدا**

«حال اقتراب الأسطول الياباني من جزيرة ميدواي في المحيط الهادي، هاجمته القوات الجوية والبحرية الأمريكية، وفي معركة الأيام الأربعة هذه - التي يُنظر إليها على أنها نقطة تحول في تاريخ الحروب بالمحيط الهادي - فقد اليابانيون أربع من حاملات الطائرات العملاقة وأغلب ربابنة البحار المهرة لديهم».

... استمرت الاستعدادات لهجمة مضادة باتجاه العدو على ظهر حاملاتنا الأربع، وخلال هجمات طوربيد العدو خرجت الطائرات واحدة وراء الأخرى من مرابضها بسرعة وانتظمت فوق سطح الإقلاع، ولم يكن هناك وقت نضيعه، ففي

الساعة 10,20 أصدر قائد البحرية الأدميرال «ناجومو» أوامره بالانطلاق فور الاستعداد، وعلى سطح الحاملة «آكاجي» كانت كل الطائرات في مواقعها ومحركاتها دائرة، وبدأت السفينة العملاقة تدرو باتجاه الريح، وفي خلال خمس دقائق ستكون كل طائراتها في الجو.

خمس دقائق! من كان يحلم أن دفة الحرب ستتحول كلية في مثل ذلك الوقت اليسير؟ فالرؤية كانت واضحة، والسحب كانت تتجمع على ارتفاع 3000 متر، وعلى أية حال، وبرغم وجود بعض الاستثناءات المؤقتة، إلا أنها توفر وسيلة اختفاء جيدة للاقتراب من طائرات العدو، وعند الساعة 10,24 جاءت أوامر الانطلاق من الكابينة بواسطة قنوات الصوت، ولوّح ضابط المراقبة الجوية بالعلم الأبيض، واستجمع قائد الطائرة الأولى «صفر» سرعته وأزَّ بطائرته من فوق سطح الحاملة، وعند هذه اللحظة صدرت صرخة فزعة «الجحيم أيها الغواصون»، فنظرت لأعلى لأرى ثلاث طائرات سوداء للعدو تنقض نحو سفينتنا، واستعدت مدافعنا الآلية لإطلاق بعض القذائف التخويفية نحوها، لكن الوقت كان قد تأخر، إذ أصبحت الظلال المارقة للقاذفات الأمريكية المهيبة أكثر اقتراباً، عندئذ طفت أعداد من أشياء سوداء فجأة على صفحات الهواء من أجنحتها، إنها قنابل، تسقط مباشرة نحوي فارتميت فوق السطح وزحفت خلف الحاجز الواقي للقيادة.

ووصلني الزئير المرعب لقاذفات القنابل أولاً متبوعاً بانفجار مدوٍ لضربة مباشرة، ولمع برق خاطف ثم انفجار ثانٍ أكثر صخباً من الأول، فهزتني موجة هواء ساخنة من الانفجار، وما زالت هناك صدمة أخرى لكنها أقل خطورة، وكان من الواضح أنها أخطأت الهدف قليلاً، ثم ساد هدوء شامل وتوقف هدير المدافع فجأة، فنهضت ونظرت إلى السماء، كانت طائرات العدو قد اختفت تماماً عن مدى الرؤية.

كان المهاجمون قد دخلوا بلا حائل، لأن مقاتلينا الذين تلقوا موجة الطوربيدات الجوية السابقة منذ دقائق قليلة مضت لم يعد أمامهم وقت ليصلوا لارتفاع القتال المطلوب. وعلى ذلك يمكن القول أن نجاح الطائرات المغيرة

الأمريكية القاذفة أمكن تحقيقه بفعل الإقدام المبكر لطائرات الطوربيد الخاصة بهم. ولم يكن أمام حاملاتنا ـ أيضاً ـ الوقت لتجنب الإصابة، لأن السحب قد أخفت اقتراب العدو حتى انفض الهجوم، لقد أمسكوا بنا «مكشوفين» في أقصى حالات الضعف، فسطح الحاملة مشحون بالطائرات المسلحة والممتلئة وقوداً استعداداً للهجوم.

وعندما نظرت حولي، ارتعبت لهول الدمار الذي حدث في ثوان. كانت هناك حفرة ضخمة وسط الإقلاع خلف رافعة السفينة الوسطى، والرافعة «الونش» نفسها التوت كعجينة الزجاج وسقطت في مربض الطائرات، والتفت الشرائح المعدنية للسطح حول نفسها لأعلى في تشكيلات غريبة، ووقفت الطائرات وذيلها لأعلى تأكلها نيران حية ودخان أسود مندفع.

وانهمرت الدموع المترددة فوق خدي وأنا أرى النيران تنتشر، وفزعت أمام احتمال حدوث انفجار كبير سيودي بالسفينة بالتأكيد، وسمعت «ماسودا» يصرخ «إلى الداخل! كل شخص ليس بيده عمل إلى الداخل». ولعدم قدرتي على تقديم مساعدة هبطت السلم مترنحاً نحو حجرة الاستعداد. كانت الحجرة قد امتلأت فعلاً بضحايا احترقت أجسامهم بشكل سيء فوق السطح، وتبع ذلك انفجار جديد مصحوباً بعدة انفجارات سريعة أخرى كل منها جعل برج القيادة يهتز، واندفع الدخان من المربض المحترق عبر ممرات السفينة وإلى برج القيادة وحجرة الاستعداد، فأرغمنا ذلك على البحث عن ملجأ آخر، وعندما عدت صاعداً إلى برج القيادة استطعت أن أرى الحاملتين «كاجا» و«سوريو» وقد أصيبتا وتصدر عنهما ألسنة من الدخان الكثيف، وكان منظراً مفجعاً.

تلقت «أكاجي» ضربتين مباشرتين، واحدة في الإطار الخلفي للرافعة الوسطى بالسفينة «الونش الأوسط»، والضربة الأخرى في حائط الصد الخلفي لسطح الإقلاع من الجانب الأيسر، وعادة ليست هذه الإصابات خطيرة بالنسبة لحاملة طائرات عملاقة، ولكن الانفجارات التالية من الوقود والذخائر وسَّعت مساحة الإصابة بالسفينة وهزَّت برج قيادتها وملأت الهواء بأشلاء ميتة، وبينما تنتشر النار

بين الطائرات المصطفة جناحاً بجوار جناح فوق سطح الإقلاع الخلفي، بدأت طوربيداتها في الانفجار، مما جعل التحكم في الحريق أمراً مستحيلاً، وتحولت منطقة المربض كلها إلى أتون ملتهب، وتحركت النيران بسرعة نحو برج القيادة.

الغارة على «دييب»

«19 أغسطس/ هانيبال 1942 افرنجي»

*** روس مونرو**

«استهدفت الغارة على «دييب» اختبار قوة الدفاعات الألمانية الساحلية وامتصاص غضب ستالين لفشل الحلفاء في إقامة جبهة قتالية ثانية في أوروبا، وكانت تلك الغارة تيهاً مكلفاً جداً، إذ اندفعت القوة الكندية - سيئة التدعيم - والمكونة من 6000 مقاتل ضد التحصينات القوية القريبة والمنيعة، ففقدوا أكثر من 3000 جندي منهم».

كنا على مقربة سبعة أو ثمانية أميال من «دييب» حين فاجأنا الإنذار الأول، كان على يسارنا سيل من الرصاص الكاشف في نقاط ضوئية زرقاء وبيضاء وسط الليل، والدوي الغاضب للبنادق الأتوماتيكية، ولم يكن ذلك وفقاً لخطة معينة، فبقي كل من في زورقنا بلا حراك كالطبول، وخفضنا رؤوسنا خلف الساتر الصلب في زورقنا الصغير، لكن المكان كان مزدحماً جداً حتى لو قرفصت فسوف تصدم شخصاً ما بجوارك، فجلست فوق كمية كبيرة من قذائف المورتر 3 بوصة.

اندفعت طلقات كاشفة أخرى فوق رؤوسنا وارتطم بعضها بالسواتر على جانبينا، وقام بحار ضخم - بجواري - بضبط مدفعه من نوع «لويس» عبر فتحة في مؤخرة الزورق، ورد على القذف بدفعات قصيرة من الطلقات، وبدت بقعة ضوء وسط الليل إنها لسفينة من العدو، زورق مسلح أو أكثر يبدو أنه من نوع الـ«إي بوتس» كان على بعد أقل من مائتي ياردة، وكان يطلق نيرانه نحو ستة قوارب بما فيها قاربنا الذي كان في المقدمة حينذاك، وفي الاتجاهات الأخرى أتت رصاصات ألمانية كاشفة أخرى، وربما هناك أربع سفن تطاردنا.

لم يكن بوسعنا فعل الكثير، إذ لم يكن يوجد أي تسليح على زوارق الهجوم هذه يسمح بالاشتباك البحري مع زوارق الـ«إي بوتس» أو الطرادات، ولم يبد قارب التعزيز الخاص بنا قريباً في هذه اللحظة بالذات، وظهر أننا في طريقنا للتمزق أشلاء وسط هذه المطاردة، وانكسر تشكيل أسطولنا الصغير الذي بدأناه قبل الهجوم على هيئة طابورين متقاربين.

نفخت حزام النجاة الخاص بي قليلاً، وصفرت طلقات كاشفة أخرى مارة بنا، ثم ومض ضوء كبير ودوي مدفع خلفنا، ووسط الوميض استطعنا رؤية واحدة من مدمراتنا تهرع لمساعدتنا، وأطلقت اثنتي عشرة دفعة من النيران نحو العدو فعادت سفنه واختفت باتجاه الساحل الفرنسي، ومن المحتمل أنها توجهت مباشرة نحو ميناء «دييب» ونشرت أخباراً حول اقتراب القوارب البريطانية.

حاول رئيس بحارتنا أن يأخذنا إلى قطاعٍ واحدٍ من الشاطىء، ثم وضح أنه مكان خاطىء وقبل أن يهبط استدار بالقارب مرة أخرى، وتحسسنا طريقنا وسط الضباب حتى الشريط الرملي الصغير الذي اتضح أنه شاطىء «بوي» وكان الضباب محدوداً، والثلاثون ياردة الأخيرة كانت صافية، وتناثرت رشاشات الماء الساخنة بفعل قذائف مدفعيتنا وقنابل المورتر التي أطلقت في طريقنا ولم تصبنا أيّ منها بأعجوبة.

كان أزيز مدافع الألمان المضادة للطائرات والمدافع الآلية تصم آذاننا، حتى إنك لا تسمع من بجوارك وهو يصيح، وزحف رجال قاربنا إلى أسفله وقد توترت الوجوه وتجهمت، قد أرعبهم القصف الألماني غير المتوقع، وكان ذلك بداية تعرفهم على ضجيج المعارك المخيف، فتصلبت أياديهم فوق أسلحتهم أكثر وانتظروا تلامس قاربنا مع الشاطىء كي يهبطوا. وارتطمنا بالشاطىء، وانزلق على قاعه وصب أول مقاتلي المشاة عليه فقفزوا وسط مياه ارتفاعها قدمين تقريباً، وانطلقت نحوهم طلقات البنادق الآلية، فتكومت الجثث على الشاطىء المائل، وجاهد البعض ليصل إلى الشاطىء فيسقط، بل إن الرصاصات وصلت القارب نفسه فقتلت وجرحت رجالنا.

وكنت قريباً من مؤخرة القارب على أحد جانبيه، أتطلع للقوس المفتوح من النيران على الجثث فوق الشاطىء، ورأيت المنحدر المؤدي لحاجز صخري على مسافة قصيرة ممتلئاً بضحايا التاج البريطاني، ولا بد أن هناك ستين أو سبعين ضحية منا راقدين ممددين بلا حراك فوق العشب الأخضر والأرض القاتمة، لقد قتلوا قبل أن يمنحوا فرصة لإطلاق رصاصة واحدة.

كانت دستة من المقاتلين الكنديين تجري بطول حافة الصخرة نحو الحاجز الصخري وهم يحملون أسلحتهم، بينما كان بعضهم يطلق نيرانه وهو يجري، لكن بعضهم لم يكن معه خوذة، والبعض الآخر كان جريحاً بالفعل وملابسهم ممزقة وملوثة بالدماء، وتساقطوا واحداً بعد الآخر وتدحرجوا فوق المنحدر إلى البحر.

لم أدر كم من الوقت حوصرنا فوق ذلك الشاطىء، ربما كان خمس دقائق وربما عشرين، ولم أشاهد مثل هذه المذبحة في أي جبهة أخرى. لقد كانت وحشية ومفزعة، وتصدمك حتى تفقد إحساسك، إذ ترى أكوام الموتى وتشعر بعدم جدوى الهجوم من هذه النقطة.

وكان هناك شاب صغير يزحف على بعد ستة أقدام مني، قام بمحاولات فاشلة للاندفاع أسفل المنحدر نحو الشاطىء، وفي كل مرة يعيده سيل من الرصاص لمكانه، وجرح في ذراعه، لكنه كان مصمماً على المحاولة من جديد فتقدم للأمام لتخترق معدته ومضة رصاصة كاشفة بيضاء - حمراء.

ولن أنسى أبداً صرخته المؤلمة وهو ينهار فوق سطح القارب الغارق في الدماء: «أيها المسيح علينا أن نهزمهم. . . علينا أن نهزمهم» ومات في دقائق قليلة. . .

وطوال بقية هذا الصباح، فقد الإنسان إحساسه بالزمن والتطورات وسط الأحداث المجنونة للمعركة، وبالرغم من أن الإبرار على شاطىء «بوي» قد فشل وأن الأرض الواقعة شرق «ديبب» ما زالت بأيدي الألمان، شعرت أن الهجوم الرئيسي بواسطة ثلاث فرق من المشاة والمدرعات قد استمر بصورة أفضل على الشاطىء المواجه للمدينة.

كانت قوارب الإبرار تتحرك بطول الساحل في موجات والمدمرات تتتابع مقتربة بصورة خطيرة لضرب مواقع العدو بقذائفها، وانتقلت من قارب لآخر لأعرف ما يجري، وقد أصابتنا قذائفهم عدة مرات عن قرب بواسطة الطائرات الألمانية السوداء الطويلة التي مرت مباشرة بغطائنا الجوي والمدفعي، ونشرت مدمراتنا وطائراتنا الدخان على طول الشاطىء وفي البحر، وأخيراً لمس زورق الإبرار الذي كنت فيه تلك اللحظة مع بعض التقديرات البحرية المنحدر المائي للشاطىء الرئيسي والذي يستمر حوالى ستين ياردة عند نقطة مواجهة لحاجز بحري عال وثم السهل الذي تبدو المدينة من ورائه.

كان الدخان في كل مكان، وتحت غطائه تقدم عدد من بحارتنا نحو الشاطىء والتقطوا جنديين مصابين من جراء الأسلاك الشائكة على الشاطىء وعادوا بهما إلى القارب.

أما أنا، فقد غصت في الماء شاقاً طريقي عبر الصخور الهشة متجهاً نحو الحاجز البحري، وكان هناك إطلاق نار من أسلحة آلية ثقيلة عند أطراف الشاطىء باتجاه الكازينو، وزحفت مجموعة من الرجال مسافة عشرين ياردة تحت حماية الحاجز البحري.

كان مصنع التبغ يشتعل بشدة، وسكت إطلاق النار للحظة، كانت من اللحظات القليلة التي تغفو فيها النيران وسط المعارك، واعتقدت أن جنودنا كُثُر في المدينة، ولكن السهل كان يبدو خالياً وعارياً.

لم يكن هناك تنظيم للشاطىء كما كان يجب، ورقد بعض الموتى بجوار الحاجز وفوق الصخور، فالهجوم هنا لم يمض كما خطط له كذلك، وسقطت سلسلة من قنابل المورتر على السهل.

ولوّح لنا بحارة الأسطول فطفقت عائداً نحو الزورق، في حين استؤنفت معركة الشاطىء من جديد، ووسط الدخان الخانق شققنا طريقنا عائدين إلى مياه زورقنا.

معركة العلمين[1]

نهاية الجيش الألماني بإفريقيا

«4 نوفمبر/الحرث 1942 افرنجي»

*** الجنرال بايرليين**

«شن مونتجمري هجومه عند مدينة العلمين يوم 23 أكتوبر، وبعد قتال استمر أسبوعاً، بقي لدى الألمان 90 دبابة فقط، ولدى البريطانيين 800 دبابة وعلى أية حال، ففي الثالث من نوفمبر، أصدر هتلر أوامره بالانسحاب».

. . . في صباح الرابع من نوفمبر، أقامت القوة الباقية من الجيش الألماني بإفريقيا مع الفرقة 90 الخفيفة، جبهة رفيعة على جانب التل الرملي الشاسع المسمى «تل الممبصرة» ورغم أن هذا التل لا يعدو ارتفاعه اثني عشر قدماً، إلا أنه موقع تحكم طبيعي، وإلى الجنوب يقع الجيش الإيطالي المسلح المنهك مثله مثل الألمان، وعند الفجر أرسلت تقريراً للجنرال «ريترڤون توما» قائد الجيش الألماني بإفريقيا بأنني على وشك التحرك نحو المنطقة الواقعة جنوب «الضبعة» حيث سأقيم مركزاً خلفياً للقيادة، ولأول مرة كان «توما» يرتدي زياً نظيفاً من كل علامات رتبته وشارات مركزه الشرفية، والتي كان لا يقلق نفسه من قبل بارتدائها في الصحراء، وقال لي «بايرليين، إن أوامر هتلر - بعدم الانسحاب - جزء من جنون غير متوازن، ولا يمكنني أن أوافق على الاستمرار أكثر من ذلك، إذهب أنت لمركز قيادة «الضبعة» ولسوف أبقى هنا وسأتحمل شخصياً مسؤولية الدفاع عن تل الممبصرة».

ولمست بوضوح أن «توما» محبط جداً ويرى ما سيحدث مستقبلاً بصورة تنذر بالسوء، وبقي الملازم هارتيجين - مساعده لشؤون المعسكر - مع الجنرال، وكان معه جهازاً للإرسال اللاسلكي، وارتدى الجنرال معطفه الرسمي والتقط معه

(1) العلمين: مدينة مصرية بالقرب من حدودها الوهمية مع ليبيا. «المترجم».

حقيبة قماشية، وتعجبت متسائلاً إذا ما كان الجنرال قد انتوى أن يموت، ثم غادرت تل الممبصرة وتوجهت نحو المؤخرة.

كانت الساعة الثامنة قبل أن يبدأ البريطانيون الهجوم بعد ساعة من التمهيد المدفعي تقريباً، وكانت جهودهم موجهة أساساً نحو تل «الممبصرة»، وكان الجيش الألماني إذا ما استجمع كل قواه يستطيع صد هجوم مائتي دبابة بريطانية.

وعند الساعة الحادية عشرة، ظهر الملازم هارتيجيني عند مركز قيادتي وهو يقول: «لقد أعادني الجنرال ڤون توما بجهاز الإرسال اللاسلكي فهو لا يحتاجه بعد ذلك، فكل دباباتنا ومدافعنا المضادة للمدرعات وللطائرات قد تم تدميرها في تل الممبصرة ولا أدري ما حدث للجنرال».

فصعدت ـ للحال ـ مدرعة، وقدتها نحو الشرق، وفجأة تساقط حولي سيل من الطلقات الخارقة، ووسط حرارة الظهر اللافحة استطعت أن أرى وحوشاً بعيدة أمامي يغلفها السواد، إنها دبابات مونتجمري من الفرقة العاشرة «هوسارز»، فقفزت من سيارتي المدرعة وتحت شمس الظهيرة اللافحة جريت بقدر ما تسعفني قوتي نحو تل «الممبصرة»، لقد كان مكاناً للموت للدبابات المحترقة والمدافع المضادة للطائرات المحطمة، ولا حياة تدب في المكان، حينئذ وعلى بعد مائتي ياردة تقريباً من حفرة الرمال التي كنت أرقد فيها، رأيت رجلاً يقف منتصباً بجوار دبابة محترقة غير مبال بالنيران الكثيفة التي تتقاطع من حوله، كان هو الجنرال ڤون توما.

كانت دبابات الـ«شيرمان» البريطانية قد توقفت في نصف دائرة متسعة وهي تضيق الخناق حول «تل الممبصرة»، فتساءلت: «ماذا يجب عليّ أن أفعل؟» فلربما يعدها الجنرال جبناً مني ألا أتقدم وأنضم إليه، لكن الجري خلال ستارة النيران الواقعة بيني وبين الجنرال توما ربما يكون موتاً محققاً، واستغرق تفكيري لحظة، عند ذاك واصلت الدبابات البريطانية تقدمها، ولم يعد هناك قصف فوق تل الممبصرة، ووقف توما هناك جامداً بلا حراك كعمود من الملح وبيده حقيبته القماشية، وتقدمت نحوه حاملة جنود من نوع «برن» وخلفها دبابتا «شيرمان»

وأشار الجنود البريطانيون للجنرال توما في اللحظة التي اندفعت فيها مائة وخمسون مركبة مقاتلة عبر تل الممبصرة كالفيضان.

جريت بعدها باتجاه الغرب، بقدر ما استطاعت قدماي حملي، وكانت سيارتي قد اختفت، وبعد لحظات قابلت مجموعة سيارات أخذتني لمركز القيادة في «الضبعة» فوجدت هناك «روميل» وأخبرته بما رأيت، وهنا تبدت لنا سحابات ضخمة من التراب واضحة باتجاهي الجنوب الشرقي والجنوب من مركز القيادة، كانت الدبابات الإيطالية للفرقة العشرين تحارب معركتها الأخيرة، معركة يائسة مع بضعة دبابات بريطانية ثقيلة كانت قد اخترقت جناح القوات الإيطالية الأيمن المفتوح، بعد أداء مقاومة باسلة أُبيد فيها الجند الإيطاليون.

وأحضر ضابط الإشارة في الجيش الألماني لروميل رسالة شفرية من الفرقة العاشرة «هوسارز» إلى مونتجمري اعترضتها وسائلنا اللاسلكية وكانت تقول: «لقد أسرنا لتونا جنرالاً يدعى ريتر ڤون توما».

شارع إنجليزي في الصحراء الغربية

«ديسمبر/ الكانون 1942 افرنجي»

*** كيث دوجلاس**

«عايش دوجلاس الحملة على شمال إفريقيا لكنه قتل في نورماندي».

. . . . بدأنا نزحف قدماً، مائلين نحو الغرب من جديد لمواجهة العدو، وبينما نتقدم، تذكرت كم جلسنا طويلاً خلال اشتباكي الأول على مدى مرمى حجر من مشاة العدو، وبدأت أنظر بحذر في الخنادق التي نعبرها، وعلى بعد مائتي ياردة من المتروكات الألمانية التي بدأت تنفث دخاناً قاتماً بغضب، نظرت نحو وجه رجل يرقد ملتوياً في حفرة فبدت تعبيرات حزنه حادة ومفجعة، وكان يحملق بوحشية ويأس لدرجة أنني ظننت ـ لوهلة ـ أنه حي، لقد كان أشبه بعمل فني من الشمع بالغ المهارة، لأن وضعه يوحي بمرض أو تقلص من الألم، وبدا عليه أنه يتحرك أو يتلوى لكنه كان جامداً. والتراب الذي عفر وجهه مثل وجه

الممثلين بقي فوق عينيه المفتوحتين على اتساعهما، وشدت حملقتهما انتباهي كحملقة البحارة القدامى، لقد حاول أن يغطي جروحه بمناشف ليقيها الذباب، وكانت مخلاته مفتوحة ويبدو أنه أخذ منها المناشف والملابس، ومالت بجواره زجاجة الماء «الزمزمية» وغطاؤها مفتوح. كانت المخلاة والمناشف شديدة السواد بسبب الدماء التي جفت عليها، وازدادت سواداً مع جحافل الذباب، وهذه الصورة ـ كما يقولون ـ تحكي بنفسها عن قصة ملأتني بشفقة لا جدوى منها.

وكان الرجال معي، يسيرون بطول مرعى عشبي كما لو كانوا يفتشون الأرض، فقلت لهم: «ليس في صالحكم التحديق لأسفل، لو كتب عليكم الموت لسوف تموتون، اجروا عبر السهل الآن ـ أسرعوا»، فبدأوا يهرولون بتردد، أما أنا فجريت قدماً، وفي الحال رأيت رجلين يزحفان أرضاً ويتثنيان كالدودة ببطء بنوع من الألم. وحال وصولي إليهما تعرف عليّ أحدهما واسمه روبين ضابط الملاحظة بخيّالة المدفعية الملكية، وكنت قد طلبت مساعدته صباح اليوم، تعرفت أولاً على سترته الصوفية ذات الجانب الجلدي وكتافته النحاسية اللامعة، ثم بعد ذلك تعرفت على وجهه: مجهد ومرهق من الألم، كانت قدمه اليسرى قد تهشمت حتى باطنها واختلطت ببقايا حذاء.

وبينما كنت أسأل روبن عما إذا كان «لديه رباط ضاغط» ويجيب في اعتذار أن «ليس لديه»، نظرت للرجل الثاني، كانت ملابسه فقط هي التي تميزه ككائن بشري مع أنها مهلهلة بدرجة سيئة، ووجه قد انمحت ملامحه، وكتلة من الخليط الأصفر حلت مكانه، وترمش عيناه داخل الكتلة بلا رموش، وفم ضخم يسيل منه اللعاب ويئن كطفل أنهكه البكاء.

لم تكن قدم روبن المهترئة تنزف، إذ غطتها عجينة من الدماء والرمال أو جلطة دموية، ورأيت من الأفضل تركها كما هي بدلاً من استعمال الرباط الضاغط فالهواء الآن قد أغلق الجرح، قلت لهما: «سوف أعود الآن وأحصل على ما يحملكما. . . عربة إسعاف أو أي شيء، فابقيا هنا» وجريت، وقبل أن أصل لمسافة مائة ياردة، شعرت بالعار، إذ اتهمني عقلي بأنني جريت كي أهرب بدلاً

من أن أجري طلباً للمساعدة، لكنني أسرعت مصمماً أن أخمد هذه الاتهامات بالحصول على مركبة من أي نوع وإحضارها لهما، ولو في مواجهة العدو لو استدعت الحاجة لذلك، وعلمت أنني لو استطعت أن أصل لقمة الحافة وأن أتوقف عن التفكير، ولو استطعت معرفة أين ذهبت فصيلتي، لكنت قادراً على إعادة تنظيم نفسي والعودة.

ستالينجراد

ديسمبر/ الكانون 1942 افرنجي

«وجهة نظر لجندي مشاة ألماني»

*** بينو زيبسر**

«شن السوفييت هجومهم المضاد يوم 19 نوفمبر 1942 افرنجي، وهدد الهجوم بحصار الألمان خارج مدينة ستالينجراد، وفي بدايات يناير 1943 افرنجي بدأت فرقة «كلييست الأولى بانزر» المدرعة انسحابها باتجاه الغرب نحو «روستوف» واستسلمت الفرقة الألمانية السادسة بقيادة باولوس يوم 2 فبراير عام 1943 افرنجي، وقد زاد نقص ملابس الشتاء من معدل الوفيات بين القوات الألمانية، وأوقفت حمولات القطارات من ملابس الشتاء بالقرب من الجبهة، لأن القيادة العليا الألمانية خشيت أن إرسالها قد يشجع الجنود على الاعتقاد بأنهم لن يستولوا على ستالينجراد قبل الشتاء».

. . . حينذاك، وذات ليلة، بدأت فترة التجمد العظيم، ورافقنا الشتاء، ـ كان الشتاء القاسي الثاني لنا في هذه البلاد اللعينة ـ ومثل عباءة سوداء طوى الصقيع الأرض، وحضرت شاحنات المؤن وسلمت لنا معاطفَ ثقيلة وقفازات وقبعات بواقيات الأذن، ورغم تلك المسألة فقد تجمدنا بشدة في خنادقنا، وفي الصباح تجدنا مشلولين من البرد، وبنادقنا ومدافعنا غطاها صقيع سميك تماماً، وكان تنفسنا بمجرد أن يخرج من أفواهنا كثيفاً كدخان السيجارة، ويتجمد في الحال فوق «رفرف» قبعاتنا مكوناً بلورات لامعة من الثلج.

وعندما تتساقط القذائف، فإن كل دفعة يتردد صوتها بصدى جديد جاف،

وكتل الأرض التي تُنثر عالياً تشبه قطعاً من الحجارة الجرانيتية، وتبدت لنا الحقيقة شيئاً فشيئاً، ولأنهم يسحبون برفقتهم كل المعدات التي كانت معهم، سقطت كل بقايا الفرق المنسحبة واحدة وراء الأخرى من كل الجوانب، قبل أن يتجمع العدو القادم ويفيض في قلب المعمعة.

وبالتدريج سدت طوابير المنقولات المتراكمة كل الطرق، وعلى الطريق تجد مدافع متفجرة وأسلحة من كل الأنواع والدبابات شاملة تلك التي خمدت لحاجتها للوقود، وغرست شاحنات كاملة التحميل وسط الجليد والتهمتها النيران، وهرعت مخازن الذخيرة فألقت كميات هائلة من المؤن والإمدادات طعاماً للنيران كيلا تقع بأيدي العدو، وأزيلت بالجملة استحكامات أقمناها بمجهود شاق، وتناثرت فوق الأرض لأميال عديدة حولنا معدات صغيرة كالخوذات المعدنية وأقنعة الغاز في صناديقها وفُرُش الأرضية وأواني الطهي وأكياس الذخيرة «البُلّ» وأدوات الحفر وحتى البنادق والأسلحة الآلية والقنابل اليدوية، كل هذه المعدات تم التخلص منها لكونها أصبحت عائقاً أمام الجنود، أو لأن من يحملونها أصبحوا جرحى في طوابير لا نهاية لها بأربطة أغرقتها الدماء وأزياء مهترئة، يستجمعون آخر بقايا قواهم لجر أجسادهم فوق الجليد، أو أن هذه المعدات تخص عدداً لا حصر له من الجنود أصبحوا بلا حراك وموتى، ولم نشعر بهم مثلما فعلنا مع كل تلك المعدات المهجورة.

وأصبحنا معزولين تماماً، فالجنود يدلكون أكتافهم المتعبة ويئنون تحت القذارة والقمل دائماً، مترنحين من موقع دفاعي لآخر، ونثرت الرياح الثلجية - في هذه المتاهات البيضاء الشاسعة التي تمتد فيما وراءنا نحو الشرق - ملايين البلورات من الجليد كالسكين نحو وجوههم غير الحليقة، وتمددت بشراتهم الآن مرتخية فوق العظام.

كم كان الإرهاق إلى مداه! والجوع إلى أقصاه، وقد أحرق الجلد فحوله إلى جلد مجعد، ويدفع بالدموع من العيون الخابية التي لا تكاد تستطيع أن تستمر مفتوحة تبعاً، فهو يخترق كل الملابس والأسمال إلى عمق نخاع عظامنا، وعندما

لا يستطيع المرء أن يبذل المزيد وعندما يتوقف سوط الخوف من الموت ـ حتى ـ عن أن يكون له معنى، يُهرع الجسم كآلة استهلكت آخر قطرة من وقودها مرهقاً نحو السكون، وسرعان ما تغطي طبقة رقيقة من الجليد ذلك الشيء، وتذكرك إصبع بارزة من الحذاء أو ذراع ممتدة، متجمدة حتى التحجر، بأن ما تراه الآن ككثيب أبيض مستطيل كان منذ قليل كائناً بشرياً . . .

ستالينجراد، بعد الاستسلام الألماني

«4 فبراير/ النوار 1943 افرنجي»

*** أليكساندر فيرث**

انطلقنا الساعة 3 مساءً في رحلتنا البطيئة ذات الخمسين ميلاً من مركز قيادة الجنرال «مالينين» نحو ستالينجراد، وأخبرنا سائقنا العسكري بأن الرحلة ستستغرق من أربع إلى خمس ساعات، لكنها استغرقت ما يقرب الثلاث عشرة ساعة. كنا نصف دستة في عربة «ڤان» سيئة بلا أي مقاعد، ونجلس أو نرقد ـ شبه رقود ـ على الحقائب أو بعض الأمتعة، ويزداد الجو برودة مع كل ساعة تمر، ولكي يزداد بؤسنا كان الباب الخلفي للسيارة بلا زجاج، لقد كنا في برودة كما لو أننا نقود سيارة مكشوفة.

ومن المؤسف أننا لم نكن مسافرين عبر منطقة القتال هذه خلال النهار، لكن الأمر لم يكن بأيدينا، وبالرغم من ذلك، تذكرت تلك الليلة باعتبارها من أغرب تجاربي خلال الحرب كلها، لسبب بسيط هو أنني لم أعرف برداً مثل ذلك في حياتي . .

في الصباح كانت درجة الحرارة ناقص 20° درجة مئوية « – 20°» ثم بعد ذلك أصبحت ناقص 30° درجة مئوية، ثم ناقص 35°، فناقص 40° وأخيراً وصلت لناقص 44°، وعلى المرء أن يجرب بنفسه العيش مع درجة حرارة ناقص 44° تحت التجمد ليدرك ما تعنيه الكلمة، فأنفاسك تتجمد، ولو أنك تنفست «زفيراً» فوق قفازك، فإن شريحة رقيقة من الثلج تتكون عليه في الحال، ولم نكن نستطيع

تناول أي طعام، لأن كل غذاءنا من خبز وسجق وبيض تحول إلى حجارة.

حتى لو ارتديت حذاءً مبطناً من الداخل من نوع «الڤالينكي» وزوجين من الجوارب الصوفية، فإنك مضطر ـ كذلك ـ لتحريك أصابع قدميك طوال الوقت كي تبقي على استمرار الدورة الدموية بها، وبدون الڤالينكي تكون «قرصة البرد» لقدميك أكيدة، والألمان ليست لديهم أحذية ڤالينكي، ولكي تحافظ على يديك بحالة جيدة، عليك أن تصفق بهما نصف الوقت أو تلعب بهما ألعاباً متخيلة، وذات مرة أخرجت قلماً لأكتب كلمات قليلة، وكانت الكلمة الأولى مضبوطة والثانية كما لو كتبها رجل مخمور، والأخيرتان كانتا كنبش رجل مشلول، ونفخت بسرعة في أصابعي المتجمدة وأعدتها للقفاز المبطن بالفرو.

وبينما تجلس في السيارة «الڤان» والكل مكوم فوق بعضه البعض وتشعر براحة نوعاً ما، فإنك لا تحتمل أن تتحرك عدا أصابعك وأصابع قدميك، وتمنح أنفك «دعكة» كل فترة، إلا أن نوعاً من الجمود العقلي والجسمي يسيطر عليك، وتشعر بنفسك مخدراً، ولهذا فعليك أن تنبه نفسك طوال الوقت. وعلى سبيل المثال، فإنني شعرت فجأة بالصقيع يتخلل ركبتي، وهو يجيد مهاجمة المناطق الرقيقة بين نهاية ملابسي الداخلية الإضافية وبداية رقبة حذاء الڤالينكي... لذا فإن اعتمادك الحقيقي الوحيد بخلاف الملابس، في مثل هذه الحالات سيكون على زجاجة الڤودكا[1] وهي ـ مشكورة ـ لا تتجمد وحتى رشفات صغيرة متتالية تجعل الأمر مختلف تماماً.

والإنسان يمكنه أن يدرك ماذا يكون عليه القتال في ظروف كهذه، لأن المرحلة الأخيرة من معركة ستالينجراد قد نشبت وسط طقس معتدل أقل قليلاً مما هو عليه في شهر فبراير تلك الليلة، وكلما اقتربنا من ستالينجراد يصبح السير أكثر إزعاجاً فوق طريق يمتلىء بالجليد، وهذه المنطقة ـ التي تفجرت فوقها المعركة منذ فترة قليلة ـ أضحت الآن تقع على بعد مئات الأميال من الجبهة، وكل القوات

(1) الڤودكا خمر روسية قوية.

تتحرك الآن من «ستالينجراد» نحو «روستوف» و«دونيتس».

وعند منتصف الليل واجهنا زحاماً مرورياً كبيراً، ويا للمشهد الذي مثله ذلك الطريق!! - لو أمكننا تسميته طريقاً - لأن ما كان طريقاً أصلياً وما كان جزءاً من سهول ملحقة به شغلتها المركبات المارة - التي كان أغلبها يتجه غرباً وبعضها يتجه شرقاً كذلك - أصبح لا يمكن تحديد مكانه، وبين المجريين من المرور كان هناك حائط غير منتظم من الجليد قذف هناك بواسطة العجلات والحوافر، وكانت شخصيات بادية الغرابة تقوم بتنظيم المرور، جنود في رداء أبيض طويل «للتخفية العسكرية» وأغطية رأس طويلة مدببة، جياد، فجياد، فجياد أكثر - تنفث بخاراً والثلج حول فتحات أنوفها، كانت تتثاقل عبر الجليد، تجر المدافع وعرباتها وعربات كبيرة مغطاة، ثم مئات من الشاحنات وأنوارها الكاشفة الأمامية تسطع.

وعلى جانب الطريق تتأجج نيران كبيرة، تملأ الهواء بسحب من الدخان الأسود الذي يحرق جفنيك، وتتراقص خيالات حول النار باحثة عن الدفء وآخرون يشعلون قطعة من الخشب، ثم يبدأون ناراً صغيرة خاصة بهم، حتى أضحى طول حافة الطريق سلسلة من النيران الصغيرة، كم تجعل النار من الناس سعداء في ليلة كهذه!! وقفز الجنود من الشاحنات ليحصلوا على ثوان من الدفء قليلة، ويتركون الدخان الأسود القذر يهب في وجوههم، ثم يهرعون بعدها خلف شاحناتهم ويقفزون فيها من جديد.

هكذا جرت تلك العملية التي لا نهاية لها بالخروج من ستالينجراد: شاحنات، وزلاجات تجرها الخيول، ومدافع وعربات مغطاة، وحتى جِمال تجر زلاجات يخطو العديد منها بهدوء عبر الجليد العميق كما لو كان رملاً، واستخدمت في ذلك كل وسائل النقل الممكنة، وكان آلاف من الجنود يسيرون أو يمشون في جماعات غير منتظمة نحو الغرب خلال تلك الليلة الباردة المميتة، لكنهم كانوا منتعشين وسعداء، وظلوا يتصايحون بشأن المدينة وعما فعلوه بها، نحو الغرب، نحو الغرب!!..

طريق الألمان في كورسان سالينت، بأوكرانيا الوسطى

«17 فبراير/ النوار 1943 افرنجي»

*** ميجور كامبوڤ، ضابط روسي**

. . . طوال تلك الليلة، كانت القوات الألمانية في حالة هستيرية، فالأبقار لقليلة المتبقية بالقرية ذبحت وأكلت بنهم وحشي، وحينما تم اكتشاف برميل من الكرنب المخلل في أحد الأكواخ، أدى ذلك إلى تشابك عنيف، فجميعهم كان يعاني نقصاً في الطعام منذ الحصار، ولأن الجيش الألماني كان في انسحاب مستمر، فلم يكن لديهم مخازن مؤن ضخمة في أي مكان بالقرب من الجبهة، ولذا كانت هذه القوات في كورسان تعيش غالباً على ما تنهبه من الأهالي المحليين، وقد فعلوا ذلك حتى قبل الحصار.

وقد كان لديهم ـ كذلك ـ الكثير من الشراب في تلك الليلة، لكن طائرات الـ «U - 2» بدأت الضرب، ثم نبهتهم القنابل والقذائف من سكرتهم، وبخروجهم من أكواخهم الدافئة كان عليهم أن يهجروا «شانديروڤكا» وهرعوا إلى الأودية القريبة من القرية، واتخذوا قراراً يائساً ـ حينذاك ـ بالاختراق في الصباح الباكر، ولم يكن لديهم بقية من الدبابات تقريباً، فكلها فقدت وهجرت خلال قتال الأيام السابقة، وما يملكونه من دبابات قليلة ما زالت لديهم الآن لا يوجد بها وقود، وفي الأيام القليلة الماضية كانت المنطقة التي تجمعوا بها صغيرة جداً، لدرجة أن طائرات النقل لم تعد تستطيع جلب أي شيء لهم، وحتى من قبل، تمكنت طائرات نقل قليلة من الوصول إليهم، وأحياناً ما كانت حمولات الطعام والوقود والذخيرة تسقط على خطوطنا.

وهكذا شكلوا من أنفسهم طابوريْ سير، كل طابور من حوالى 14,000 جندي في ذلك الصباح، وتقدموا في هذا التشكيل إلى «ليزيانكا» حيث يلتقي الواديان معاً، وكانت «ليزيانكا» فيما وراء خطوطنا الأمامية داخل ممر القتال، والفرق الألمانية على الجانب الآخر، تحاول أن تشق طريقها باتجاه الشرق، لكن «الممر»

كان شديد الاتساع بحيث لم يكن أمامهم المزيد من الفرص.

لقد كانوا يمثلون منظراً غريباً، هذان الطابوران الألمانيان اللذان حاولا اختراق الحصار، كان كل طابور منهما يشبه جمهرة ضخمة من الناس، وكانت رأس الحربة والجناحان مشكلين من جنود الجستابو من فصيلة «والونيا» وفرقة الفايكنج بزيهم الرمادي اللؤلؤي، وكانت صحتهم في حالة جيدة بالنسة لغيرهم، ثم داخل المثلث، سارت الرتب الدنيا من المشاة الألمان قريبة من المؤخرة جداً، وفي وسط ذلك مباشرة نواة منتقاة شكلها الضباط الذين تبدو عليهم آثار التغذية الحسنة كذلك، وقد ساروا هكذا باتجاه الغرب بطول الواديين المتوازيين، وبدأوا التحرك بعد الساعة الرابعة فجراً مباشرة أثناء الظلام التام، وكنا نعلم الاتجاه الذي سيأتون منه كما كنا قد أعددنا لهم خمسة خطوط: خطان من المشاة ثم خط من المدفعية ثم خطان من الدبابات والخيَّالة يقبعان في الانتظار. وتركناهم يمرون بالخطوط الثلاثة الأُوَل دون طلقة واحدة، فاندفع الألمان - ظانين أنهم قد ضللونا وأنهم نفذوا من الحصار - في صراخ جنوني فرح، وهم يطلقون رصاص مسدساتهم ومدافع التومي أثناء سيرهم، وقد برزوا الآن من الأودية ووصلوا إلى السهل المتسع.

ثم حدث كل شيء، كانت الساعة حوالى السادسة صباحاً عندما ظهرت دباباتنا وفرساننا فجأة، واندفعوا مباشرة وسط الطابورين الكثيفين، وما حدث عند ذاك يصعب وصفه، فالألمان قد هربوا في جميع الاتجاهات، وطوال الساعات الأربع التالية ذرعت دباباتنا السهل جيئةً وذهاباً وهي تحطمهم بالمئات، وتنافس فرساننا مع الدبابات فطاردوهم عبر الأخاديد حيث يصعب على الدبابات مطاردتهم، ولم تستخدم الدبابات مدافعها في أغلب الوقت كيلا تضرب فرساننا، وكان مئات من الفرسان يطيحون بسيوفهم وسط العدو ويذبحون الألمان بصورة لم يذبح بمثلها أحد بواسطة الفرسان من قبل.

ولم يكن هناك وقت لأخذ الأسرى، لقد كان الأمر نوعاً من مذبحة لا يوقفها شيء حتى ينتهي كل شيء، ففي منطقة صغيرة قتل أكثر من 20,000 ألماني، ولقد

كنت من قبل في ستالينجراد، ولكني لم أشاهد أبداً مثل هذه المذبحة المكثفة كما شاهدتها في حقول وأودية هذه البقعة الصغيرة من البلاد، وعند الساعة 9 صباحاً، انتهى كل شيء، واستسلم ثمانية آلاف جندي في ذلك اليوم، وكانوا جميعهم تقريباً قد ركضوا مسافة طويلة بعيدة عن المكان الرئيسي للمذبحة، وكانوا يختبئون في الغابات والأودية.

إعدام ضابط مخابرات من الحلفاء بواسطة اليابانيين

«غينيا الجديدة: 29 مارس/ الربيع 1943 افرنجي»

*** أنون ـ [من شاهد عيان ياباني]**

تجمعنا نحن الأربعة «كوروكاوا» و«نيشي جوش»، و«ياماتي»، و«أنا» أمام مقر القيادة الساعة 15,00، وأخبرنا قائد مجموعة «التاي» كوماي ـ الذي وصل لمركز المراقبة اليوم ـ بنفسه أنه سيقوم وفقاً لتقاليد الشرف العسكرية اليابانية «بوشيدو» ـ وبمشاعر متعاطفة ـ بقتل السجين شخصياً وبسيفه المفضل، لذا تجمعنا لنشهده، وبعد أن انتظرنا أكثر قليلاً من عشر دقائق، وصلت الشاحنة.

وقدم للسجين ـ الذي كان بجوار مقر الحراسة ـ آخر شربة ماء يتناولها، وخرج من استراحة الضباط الطبيب الجراح والميجور «كوماي» وقائد سرية القيادة متقلدين سيوفهم العسكرية، وحان الوقت. كان السجين مقيد اليدين، وقُص شعره الطويل لخصلات قصيرة متأرجحة، ومن المحتمل أنه كان يرتاب فيما سيحدث، لكنه كان متماسكاً أكثر مما كنت أعتقد، وبدون أية صعوبات وضعوه في الشاحنة وتحركنا نحو هدفنا.

كان مقعدي تالٍ لمقعد الجرّاح، وكان معنا حوالى عشرة حراس، ومع دقات الآلة الممتعة جرينا بسرعة على طول الطريق وسط ضوء الغسق المتقدم، وقد غربت الشمس الساطعة فيما وراء التلال الغربية، واندفعت أمامنا سحب ضخمة

وبدا الغروب يشمل ما حولنا، ولن يطول الأمر الآن، وكما ألممت بالمنظر فنحن الآن على وشك مشاهدة الحدث، ودق قلبي أسرع.

تلصصت النظر للسجين، كان قد أسلم نفسه للمصير المحتمل، كما لو كان يقول وداعاً للعالم، وبينما هو جالس في الشاحنة كان يتطلع حوله نحو التلال والبحر، ويبدو عليه الإغراق في تأملاته، فشعرت بلمسة شفقة وحولت أنظاري بعيداً. بدأت الشاحنة تجري بطول الشاطىء الآن، وتركنا خلفنا قطاع حراسة الأسطول ودخلنا قطاع حراسة الجيش، ورأينا نوبات الحراسة وسط الحقول العشبية هنا وهناك، وشكرتهم في أعماقي ليقظتهم الدائبة أثناء تقدمنا بالسيارة، فلا بد أنهم «أمسكوا به» خلال القصف الليلة قبل الماضية، وكانت هناك ثغرات ضخمة على جانب الطريق ملأتها مياه الأمطار، وبعد أكثر من عشرين دقيقة، وصلنا لمنطقة الهدف ونزلنا جميعاً.

ووقف الميجور كوماي وقال للسجين: «سوف نقتلك». وعندما أخبره بأنه سيقتل وفقاً لتقاليد الشرف العسكرية «بوشيدو» وبسيف ياباني، وأنه سيمنح دقيقتان أو ثلاث، أنصت وقد أحنى رأسه وقال كلمات قليلة بصوت خفيض. كان ضابطاً، وربما «ملازم طيار»، ومن الواضح أنه يريد أن يقتل بضربة سيف واحدة، إذ سمعته ينطق لفظة «واحدة» وجمد وجه الميجور وهو يجيبه «نعم».

وحان الوقت الآن، وجعلوا السجين يركع على حافة ثغرة أحدثتها القنابل ملأتها المياه وقد أسلم أمره، واتخذت الاحتياطات اللازمة بحصاره بالحرس ذوي السونكيات المشهرة، لكنه ظل هادئاً، بل إنه مد رقبته أكثر، لقد كان رجلاً شجاعاً حقاً، وعندما تخيلت نفسي مكانه، وتصورت أنه في دقيقة واحدة سأغادر الدنيا، وبرغم القصف المتكاثف يومياً الذي ملأني بكراهيتهم، إلا أن المشاعر الإنسانية جعلتني أشفق عليه.

وسحب الميجور سيفه المفضل، إنه سيف «الماسامون» الشهير الذي أراه لنا في مركز المراقبة، كان يبرق وسط الضوء ويبعث رعشة باردة في نخاعي، وربت على رقبة السجين برقة بظهر السيف، ثم رفعه فوق رأسه بكلتي يديه وهوى به

بقوة، وكنت أقف متوتر العضلات لكنني أغلقت عيني في تلك اللحظة.

وصدر حفيف صوت، لا بد أنه صوت تدفق الدماء من الشرايين، وسقط الجسد للأمام، ويا للدهشة لقد قتله بضربة واحدة.

وتجمع المشاهدون للأمام، وتدحرج الرأس ـ المفصول عن الجسد ـ أمامنا، وانبثق الدم القاتم خارجاً، لقد انتهى كل شيء فالرأس ميت شديد البياض كرأس دمية، وذهبت الوحشية التي شعرت بها منذ لحظات مضت ولا أشعر الآن بشيء، ولكن بالمشاعر الحقيقية لتقاليد «البوشيدو».

وضحك أحد ضباط الصف قائلاً: «حسناً» لسوف يذهب للنيرڤانا[1] الآن وأخذ أحد البحارة من السرية الطبية سيف الجراح وانتوى عمل إجراءات معتادة، فحول الجسم المسجى بلا رأس على ظهره، وقطع بطنه بضربة واحدة نظيفة، وهؤلاء الأجانب «الكيتو» سميكو الجلد حتى جلد بطنهم هو أيضاً سميك، ولم تسقط قطرة دم واحدة من الجثة، ثم دفعوها نحو الثغرة في الحال ودفنت.

هبت الرياح نائحة بحزن، واسترجعت المشهد مرة أخرى في ذاكرتي، وارتقينا الشاحنة وبدأنا طريق العودة، لقد أظلمت الدنيا الآن، ثم هبطنا من السيارة أمام مركز القيادة وودعت الميجور، وتسلقنا التل أنا والفني «كوروكاوا»، وسيظل هذا الموقف في ذاكرتي طوال حياتي ولو عدت لأهلي حياً، لسوف يكون مادة لرواية قصة، ولذا قمت بكتابتها الآن.

سقوط طيار ألماني

«تونس في 7 أبريل/الطير 1943 افرنجي»

*** ألان مورهيد**

اقتربت طائرة «ميسر شميت» بأجنحتها الفضية لمدى خمسة عشر أو عشرين

(1) النيرڤانا: مبدأ في العقيدة البوذية يعني انتقال الجسم للحالة الروحية القصوى. «المترجم».

قدماً فوق رؤوسنا. وبينما هي تزأر فوق الطريق، انطلق مدفع «بوفروس» بقذائفه نحو باطنها، واستمرت الطائرة لمدة نصف دقيقة في طريقها، وارتفعت بخفة وحلقت برشاقة لنصف دائرة في السماء، ثم هوت هابطة ببطنها نحو الأزهار البرية، فقفزنا في السيارة وقمنا بقيادتها مسافة ميلين حتى النهر، حيث توقعنا سقوط الطائرة، وجاءت قوات عديدة من جميع الاتجاهات من الذين شاهدوا الحادث يجرون عبر أعواد القمح التي تصل لارتفاع الكتف وتتناثر عليها بقع حمراء، ويتخلله حبوب المستردا وأزهار الليلك البيضاء، وفي دقائق قليلة وجدنا الطائرة، لقد هبطت دون تلف واضح فوق القمح الناعم، لكن الطيار كان قد اختفى، فتسلقت إلى كابينة القيادة وتسلمت عصا القيادة وزناد المدفع وكانا دافئين من أثر يد الطيار، ما زالا دافئين من قبضته التي أطلق بها مدافعه علينا في الطريق منذ دقيقة أو دقيقتين.

وعلى ضفة النهر، كان فلاح عربي يصيح ويتقافز، فجرى كل واحد نحو الاتجاه الذي كان يشير إليه، فوجدوا الطيار يختبىء في كومة تحت طرف ضفة النهر.

لم يبد أي مقاومة، وبقي هناك حتى وجده مطاردوه ثم نهض ببطء ويداه إلى أعلى رأسه، ومشى نحو طائرته ومسدس مصوب إلى ظهره.

لقد كان صبياً حسن الشكل بصورة ملفتة لا يزيد عمره على 23 أو 24 سنة، شعره ناعم وعيناه زرقاوان صافيتان، يرتدي حذاء القفز وبدلة الطيار لكن بلا غطاء رأس، وقام الجنود بتفتيشه وأخذوا من جيوبه مسدسه وحزام الطلقات ومحفظة جلدية، وبينما يفتشونه أشار الألماني طالباً سيجارة، ثم أشار لشخص ما كي يشعلها له، وقد فعل ذلك بصورة آلية ودون أن يتكلم، وكانت اليد التي تحمل السيجارة ترتعش بشدة فأشعل أحدهم له السيجارة.

ولسبب لم أفهمه، قام الرجل الذي يحمل المسدس بدفع الطيار الألماني نحو مكان وسط القمح يبعد 20 ياردة من الطائرة الساقطة، وبهدوء شديد خطا كل واحد للخلف بعيداً عن الطيار في نفس الوقت، وترك وحيداً وسط الأزهار البرية. وكان بإمكانك رؤية ما يفكر فيه بوضوح.

كان يفكر: إنهم سيقتلونني الآن إنها النهاية، إن الذي يحمل المسدس سوف يطلق الرصاص عليَّ. وتجمد وارتعشت اليد التي تحمل السيجارة وتوترت، وسالت قطرات قليلة من العرق فوق خط على جبهته ونظر أمامه مباشرة، واستغرق ذلك كله دقيقة واحدة، ثم وبنفس الأسلوب اللاإرادي تحرك الجنود البريطانيون نحوه مرة أخرى، دفعوه للسير معهم عائدين إلى الطريق، ولم يفهم قائد الطائرة ما يحدث للحظة.

ثم استرخى وسحب نفساً عميقاً من سيجارته، وأصبح واضحاً أنه يحدّث نفسه بنصف ارتياح: إن كل شيء على ما يرام، فهم لن يقتلوني.

ثم عدنا جميعاً إلى الطريق. وشعرنا بسرور أن انتهت المسألة على خير، وأن عقابه قد تحقق بسرعة كعدو أطلق علينا النار في الطريق، لكن ذلك التلاقي المادي مع الطيار ومع خوفه وصدمته، جعلت المرء فجأة يدرك أننا كنا نحارب كائنات بشرية لا مجرد آلات وأسلحة ومدافع، فتقريباً كانت المعركة بالنسبة لنا دائماً مسألة آلية، وكان العدو نوعاً من الشر المجرد على البعد، لكن بعد أسر كائن بشري الآن من تلك الأرض السوداء التي تفصل بيننا وبين العدو، فإن المرء يرغب في التحدث مع هذا الطيار ويجادله فيخبره أنه كان على خطأ.

هامبورج

«27 يوليه/ ناصر 1943 افرنجي»

إيلس ويندل

في ليلة الثلاثاء الموافق 27 من يوليه عادت قاذفات القنابل، ومات في تلك الغارة أكثر من 45,000 نسمة من هامبورج، و«ماما» وأصدقاؤها هبطوا إلى القبو، وكان مراقب الغارات الجوية قد خزّن الرمال والمياه وكوّم الأدوات اللازمة، جاهزة لأي حفر قد يكون ضرورياً.

وكانت أسوأ غارة عرفتها «ماما»، إذ تكوموا جميعاً هناك لعدة ساعات، والقنابل تنفجر بالقرب منهم، والانهيارات التي لا تتوقف للمساكن الساقطة، ثم تردد صوت أعلى انفجار فيما بينها، فجرى مراقب الغارات الجوية ثم عاد ووجهه

رمادياً يقول: «غادروا القبو فوراً، لقد سقطت قنبلة فوسفورية عند باب المدخل، هيا أسرعوا كلكم».

وبدأت فوضى لا يمكن وصفها، فالأمهات جذبن أطفالهن واندفعن بجنون، وسقط الناس بعضهم فوق بعض، وانفصلت «ماما» عن أصدقائها ولم ترهم مرة أخرى، وفي الخارج وسط الشارع، اندفع الناس بعيداً عن القنبلة على غير هدى، ولا يفكرون في شيء سواها، واقترب رجل عجوز من «ماما» ـ وكانت تقف وحيدة مشدوهة ـ وهو يقول: «تعالي معي» فالتقطت حقيبة ملابسها وتبعته، كان الجو حاراً في الطريق لدرجة لا تحتمل، فقالت له: «لا أستطيع أن أمضي في هذا، هناك قبو آخر لا يحترق لسوف أهبط إليه». فأجابها: «لا تكوني حمقاء فكل المنازل هنا سوف تلتهمها النيران حالاً، والمسألة، مسألة وقت فقط». هنا انضمت إليهم امرأة لها طفلان، فقال الرجل العجوز: «هيا بنا، فهذا أسلم طريق كما يبدو».

كانت هناك أسوار من اللهب تحيط بهم عندئذ، وفجأة وصلت للميدان عربة إطفاء للحريق يجرها حصانان فانحرفوا جانباً، وجرت طفلة فزعة بجوار الطريق وتبعتها أمها تاركة طفلها الآخر خلفها، وفي اللحظة التي وصلت الطفلة فيها إلى أحد المنازل المحترقة، سقطت بالقرب منها بضعة أخشاب مشتعلة فأمسكت بملابسها النار، وألقت الأم بنفسها على طفلتها لتحاول إطفاء النيران، وبينما تفعل ذلك، انهار الطابق العلوي كله للمنزل المقابل على الاثنين معاً.

فأمسك الرجل العجوز يد الصبي بقوة وأمره قائلاً: «أما أنت، فهيا معنا»... فأجابه الصبي: «لسوف أنتظر أمي». فقال الرجل وهو يحاول أن يجعل صوته خشناً: «لا، إن الجو تشتد حرارته هنا، وسوف ننتظر أمك بعيداً عن النار». فتدخلت «ماما» قائلة: «قد نجد طريقاً أفضل، عندئذ تستطيع العودة وتبحث عن أمك». فقال الصبي الصغير «حسناً» ومضوا في نفس الطريق الذي مضت فيه الجياد معتقدين أن للحيوانات غريزة قد تقودها إلى الأمان، وسقط الصبي، لكنه نهض، ثم سقط مرة أخرى، فقال الرجل: «نحن لا نستطيع الاستمرار بهذه

الصورة» وهو يجذبهم نحو أحد الأقبية، وأضاف: «يوجد ماء هنا، صبوه فوق معاطفكم، وسوف نضعها فوق رؤوسنا ونجرب هذه الطريقة».

وصعدوا للميدان ثانية، تطلع الرجل حوله بنظرة سريعة، وعندئذ قبض على يد الصبي وهو يقول للجميع: «والآن.. هيا من ذلك الطريق».. وأمسكت «ماما» بحقيبة ملابسها، فصرخ الرجل: «ارمها... وانقذي نفسك، إنك لا تستطيعين إحضارها معك أيضاً».

لكن «ماما» ما كانت لتتركها، فأخذت يد الصبي بيدها اليسرى، والحقيبة بيدها اليمنى، وفي الخارج وسط الميدان كان أشبه بالفرن، وانصب العرق من جسدها حين بدأوا في الجري، وتخلل الدخان قماش المعاطف المبللة وبدأ يخنقهم. كانت تستطيع حمل الحقيبة لياردات قليلة بعد، لكنها أسقطتها وتركتها بلا تفكير، وجرى الطفل الصغير بينهم وهو يعدو عدواً مضاعفاً ليلحق بسرعتهم، وسقط عدة مرات، لكنه كان ينهض على قدميه.

هل كانوا على نفس طريق الجياد؟ كانوا لا يعرفون، ومع كل دقيقة أو اثنتين كانوا يضطرون للالتفاف تجنباً للأخشاب المحترقة والأعمدة المتهاوية من المنازل المحيطة، وكانت الجثث ما زالت تحترق في الطريق وأحياناً كانوا يتعثرون بها، لكنهم استمروا في طريقهم ومعهم خطوات الصبي الصغير تعدو محدثة صوت تاب، تاب، تاب،... فيما بينهم، وكان هناك كلب ينبح بجنون في مكان ما، وبدا أنه أكثر بؤساً وضياعاً منهم، وفي النهاية وصلوا إلى مكان معشوشب صغير، فجروا إلى منتصفه وسقطوا على وجوههم والصبي الصغير وسطهم، وغطوا في نوم عميق كالحيوانات المرهقة، ولكن لدقائق قليلة، واستيقظ العجوز أولاً.

قال: «استيقظوا - وهو يهزها بعنف - إن النيران تحاصرنا»... وفتحت «ماما» عينيها، كانوا يرقدون في حقل صغير، وأخذت النيران تلتهم المنازل على أحد جانبيه، بل أكثر من النار، كانت هناك بعض المواد المتفجرة كذلك على ما يبدو، وانطلق لهب كبير نحوهم مباشرة، عالٍ بارتفاع المنازل نفسها، وضخم باتساع الشارع كله تقريباً.

وبينما هي تحملق مأخوذة، تحرك اللهب العملاق منسحباً، ثم تفجر للأمام نحوهم من جديد. فقالت «يا إلهي. . . ماذا يكون؟» قال العجوز: «إنها عاصفة من النيران. . . إنها بداية واحدة منها، هيا بنا، ليس لدينا وقت نضيعه، ففي دقيقة سيكون هناك عشرات من ألسنة اللهب مثل هذا وسوف تصل إلينا بسرعة، هيا يجب أن نجري، أعتقد أن هناك مجرى مائي صغير على الجانب الآخر لهذا الحقل».

نهضت «ماما» وانحنت فوق الصبي، وقالت: «يا للمخلوق الصغير البائس، أليس مخجلاً إيقاظه». . . وهزته بلطف: «استيقظ، علينا أن نجري من جديد».

ولم يتحرك الصبي، فانحنى الرجل وجذبه حتى قدميه، قائلاً: «هيا أيها الصبي. .» فتمايل الصبي، وسقط مرة أخرى، وركع الرجل على ركبتيه بجوار الفتى وأخذ بيديه، وصاح بصوت مرتعش: «لا. . . مستحيل، يا إلهي، إنه ميت».

وبدأت الدموع تنهمر فوق وجهه الذي سوده الدخان، وانحنى فوق الكائن الصغير وبدأ يهمس له: «لقد كنت طفلاً صغيراً رائعاً، صغيراً شجاعاً» وهو يمسح وجه الطفل في حنو امرأة عطوفة، واستطرد: «طالما تمتلىء مدينة هامبورج بصبية لهم مثل شجاعتك فهي لن تموت»: وقبّل وجهه برقة وقال: «نم جيداً أيها الصغير» لقد مت ميتة أرق من ميتة أختك وأمك، إذ احترقا أحياء كالفئران».

وثارت أعصاب «ماما»، وانطلق لسان آخر من اللهب من جانب الطريق، وزاد زئير اللهب، ووضح لدى الرجل الآن خطورة موقفهم، قالت المرأة: «هيا بنا مات الصبي ولا نستطيع لذلك دفعاً، هيا بنا، يجب أن نمضي» ولم يرفع الرجل بصره، وقال «لا. . . عليك أن تذهبي بنفسك، وسوف أموت مع هذا الصبي الصغير».

صرخت «ماما» عبر زئير الرياح «إنك لمجنون، هيا بنا»، ولم يجبها الرجل العجوز، وقبّل جبهة الطفل الصغير من جديد، وأمسكت «ماما» الرجل بيديها في يأس وحاولت جذبه بعيداً، ووصلت الشرارات لمعاطفهم الآن، وفجأة طيرت هبة

من الرياح الساخنة معاطفهم من فوق ظهورهم وقد أشعلتها في الهواء وأعاد ذلك الحياة للرجل، فقفز وبدأ يعدو، وبينما هما يعدوان عبر الحقل زحفت النيران خلفهما ومرة سقطا ونهضا ليعدوان من جديد، وبدا الحقل متسعاً أكثر فأكثر وهما يتسابقان نحو مجرى النهر، وفي النهاية وصلا إليه غير قادرين على نطق لفظة واحدة، وسقطا فوق الضفة وغرقا في النوم، وربما غشي عليهما أولاً ثم ناما بعد ذلك.

البحرية الأمريكية تهبط «تاراوا»

«20 نوفمبر/الحرث 1943 افرنجي»

*** روبيرت شيرود**

«كلف الهجوم الناجح على الدفاعات اليابانية فوق «تاراوا» بجزر جيلبرت القوات الأمريكية 3300 ضحية ما بين قتيل وجريح».

. . . تمشى جندي آخر من البحرية على الشاطىء بنشاط، وكشر عن أنيابه للرفيق الذي يجلس بعدي مباشرة، وبعدها سمعنا صوت طلقة رصاص، ودار الجندي حول نفسه وسقط فوق الأرض ميتاً ومن مكانه حيث سقط، على بعد أقدام قليلة، كان يتطلع إلينا، ولأنه ضرب «بالعرض» عبر صدغه، فقد جحظت عيناه على اتساعهما دهشة لما حدث له بصورة مفزعة، رغم أنه من المستحيل أن يكون قد عرف ما الذي ضربه، فصرخ الميجور «كراو»: ليذهب البعض ليمسك ابن ـ الداعرة ـ هذا، إنه خلفنا تماماً ـ هنا ـ ينتظر واحداً منا وهو يمر، ذلك القناص الياباني نعلم من صوت بندقيته أنه قريب جداً». .

فقفز جندي فوق الحاجز البحري، وبدأ يقذف كتلاً من متفجرات الـ «ت.ن.ت» نحو ملجأ صغير من جذوع أشجار جوز الهند على بعد خمسة عشر قدماً خلف الحاجز البحري الذي جلسنا مقابله، وارتقى جنديان آخران الحاجز، واحد منهم يحمل خزاناً أسطوانياً مزدوجاً مربوطاً على كتفيه، ويحمل الآخر فوهة قاذف لهب، وأخذ جندي آخر يتعامل مع الـ «ت.ن.ت» الذي تخلل

داخل الملجأ الصغير ليزيد من خروج الدخان والغبار، فاندفع شبح رقيق كاكي اللون خارجاً من المدخل الجانبي، فأمسكت به نيران قاذف اللهب ـ القابعة في انتظاره ـ بفيض من اللهب المركز، وحالما لمسته النار، توهج كقطعة من السيلولويد ومات في الحال، لكن الرصاص الموجود بحزام الاحتياطي معه انفجر لمدة ستين ثانية بعدما تحول إلى لا شيء تقريباً.

عيد ميلاد بمعسكر الأسرى اليابانيين

«كوتشينج ـ بورنيو 5 أبريل/الطير 1944 افرنجي»

*** أجنيس نيوتون**

«عاش جورج ووالديه فترة حجزهم، وفك أسرهم في أغسطس 1945 افرنجي».

في اليوم الخامس من أبريل، وصل جورج للرابعة من عمره، وكان ذلك عيد ميلاده الثاني في معسكر الأسرى، وكان هاري ـ والد جورج ـ في مركز الحراسة ولم يحصل جورج على هدية من والده.

وعند منتصف النهار، استخرجت أنا وليلى صندوق التغذية الخاص بالصليب الأحمر، وفتحنا كل شيء وقسمنا محتوياته إلى أربع وثلاثين قسماً وتطلب الأمر عملية حسابية، لكننا قمنا بها، وأحضر كل طفل طبقاً أو حوضاً لنا وأخذوا يراقبوننا بأعين متألقة.

ملأنا كل طبق بقطعة من السلمون والسردين والزبد ولحم الفخذ ولحم الخنزير المتبل وحلوى الجيلي والعنب المجفف والشوكولاتة والجبن، وصنعنا مهلبية بالأرز واللبن الذي أضفناه على الموجود، ثم طلبنا الأكواب، ووزعنا فيها القهوة بالسكر، وكافأنا الأمهات ـ لكونهن أمهات ـ بالسجائر، وكل طفل كان يأخذ طبقه ويقول بأدب: «شكراً.. وعيد سعيد لجورج» ثم يهرع لمنزله، وامتلأت الوجوه بالشحوب من الإثارة، إذ لم تكن هذه متعة أو سرور، إنها مشاركة متوترة ومفزعة ـ وإن تكن صادقة ـ في الجنة، وكنت قد تساءلت قبلاً، إذا ما كنت مخطئاً لعدم توفير هذه الأطعمة من أجل جورج، لإطعامه فترة طويلة، ولكنني حينما شاهدت تلك الوجوه، أدركت أنني كنت على حق.

وكانت متعة العطاء عند جورج في أن يجد شيئاً يمنحه للآخرين، وفخره أن يكون فاعلاً للخير، قد جعلاه يمرح طوال اليوم أمامي حتى وقت الليل حين أصبح طبيعياً تماماً، وكم أحببته حينذاك!..

الهجوم الأخير في كاسينو

«16 مايو/ الماء 1944 افرنجي»

تقدم الفرقة الثانية من رماة لانكشاير

*** فريد ماجدلاني**

«كانت كاسينو، وهي نقطة البدء في خط الدفاع الألماني الذي يعوق تقدم الحلفاء نحو روما، مسرحاً لثلاث معارك وحشية:

في 15 فبراير، دمرت إحدى الغارات الجوية للحلفاء دير بنديكتين ـ أسسه القديس بنديكت عام 592 افرنجي ـ وقد اعتقدوا مخطئين أنه محتل بواسطة الألمان، وسقطت دفاعات مونتي كاسينو ـ بعد ذلك ـ بأيدي القوات البولندية من الجيش الثامن يوم 18 مايو بعد إحاطتها على الجناحين بقوات بريطانية»..

الساعة 07,10، وقت الاستعداد، وصيحات الضباط المساعدين، ثم نكات ولعنات، وكوم المشاة على ظهورهم وأكتافهم معداتهم المعقدة: أسلحتهم والفؤوس والجواريف التي كان عليهم حملهما كذلك، حتى يمكنهم الحفر بسرعة للوصول لأهدافهم، وانقسم الأفراد إلى كتائب ثم سرايا وأخيراً إلى فصائل، من النكات واللعنات:

«ابل» جاهز للتحرك، «سيدي» ـ أبل = تعني القادر
«باكر» جاهز للتحرك، «سيدي» ـ باكر = تعني الخباز
«تشارلي» جاهز للتحرك، «سيدي» ـ تشارلي = تعني الغفير
«دوج» جاهز للتحرك، «سيدي» ـ دوج = تعني الكلب

وتحرك الطابور فوق الممر الذي التزمناه الليلة السابقة، وكان اليوم صباح الثلاثاء وخامس يوم للهجوم، وكانت عناوين الصحف في إنجلترا تعلن أن خط

جوستاف قد تم تدميره عدا نقطة «كاسينو» و«موناستيري هيل»، وكانت كلمة «عدا» هي كلمة التشغيل، وهي مهمتنا الآن، اختراق وحصار نقطتي كاسينو وموناستيري.

وعند دقات التاسعة، انطلق زئير يهز الأرض خلفنا، كما لو أن الـ 400 مدفع معاً ومرة واحدة قد انطلقت تقريباً، ومع صفير وعواء الـ 400 قذيفة تتسارع فوق رؤوسنا ثم تنشطر داخل الأرض، عند أقل من 500 ياردة أمامنا منفجرة في تردد إيقاعي هائل أعاد صدى تحدي المدافع، وكان لحناً من ألحان ڤاجنر.

ومنذ ذلك الحين فصاعداً، استمرت الضجة وتكرر هدير المدافع والدوي المضخم الهائل لانفجارات القذائف على مقربة منا، والصفير الوحشي الحاد فوق الرؤوس الذي يربط بينهما بحلقة وصل مجنونة، وأحياناً ما يتحول الصفير إلى عواء، وأخرى إلى أنات حارة، لكنها في أغلب الأوقات كانت مجرد صرخات حادة، غاضبة، مؤلمة، وكان غضبها شيئاً أساسياً، رغم أنها وبالتحديد حتى هذه اللحظة، كانت إعصاراً محكوماً، إلا أن سماعها شيء رائع، وساعة القتال الفعلي تقترب.

يفضل صانعو الأفلام السينمائية تقديم هذا المشهد، بمناظر للجنود وهم يزحفون بصورة دامية في حالة استعداد، وتصوير قريب مكبر لوجوه مكفهرة، في حين أن الأمر المذهل بشأن هذه اللحظات هو طبيعية وتقبل حقيقة المسألة لدى الجندي العادي، وحقيقة أن القلوب ترتعد بشدة وأن كل إنسان يلجأ لله، لكنك ـ في الواقع ـ لا تبدو متجهماً أو متوتراً، لسبب بسيط، هو أنك ستبدو أحمقاً لو فعلت هذا، ولسبب آخر، أن أمامك أشياء كثيرة تفعلها.

كان من مهام الفصيلتين المتقدمتين أن تسرعا بعد ثماني دقائق بالضبط من بعد فتح ستارة النيران، ولذا قضيناها في أشياء عادية مثل إحكام رباط الحذاء، ومساعدة بعضنا البعض في ترتيب المعدات، أو التبول أو فحص أسلحتنا للمرة الأخيرة، واختبار أجهزة اللاسلكي للتأكد من صلاحيتها، أو التهام قطعة من الشيكولاتة، وكان الضباط يتلون تعليماتهم النهائية ويصفون رجالهم في تشكيلات

قتال أو يجرون اتصالاً أخيراً مع قادة الدبابات الذين سيشتركون معهم في القتال. أما أولئك الذين كانوا في فصائل أخرى، فكانوا يحفرون كالشياطين لأنهم يعلمون أن الهدوء المؤقت هذا سيتلاشى بسرعة، حالما يرون الدبابات والفصيلتين المتقدمتين يبرزون فجأة.

وبعد لحظات قليلة، بدأ الطابور زمجرته كالصاعقة، وأضيف لصخبه زئير الدبابات «الشيرمان» وارتفعت غلالة ضخمة من الغبار والدخان ببطء من منطقة القصف لدرجة لا تستطيع معها رؤية الانفجارات بعد ذلك، وكانت أصوات المدافع زنة الخمسة وعشرين رطلاً تعلو من أول لآخر خطوط المدفعية بأسرع من طلقات المدافع الأتوماتيكية، إلى هذه الدرجة كانت كثرتها.

عند الساعة التاسعة وثماني دقائق تحركوا، وقاد «جيوف» فصيلته من الطرف الأيمن، و«مارك» فصيلته من الطرف الأيسر للضفة التي تخفينا عن العدو في الجبهة، عندئذ تحركت الدبابات «الشيرمان» للأمام مع صوت عميق من زئير محركاتها، جعلت ـ حتى ـ المحادثات العالية مستحيلة، وبدأت المعركة، وكان على «جيوف» و«مارك» أن يصلا خط البداية خلال عشر دقائق، تتحرك خلالها ستارة القصف 200 ياردة للأمام، وعلى «جيوف» و«مارك» أن يلتصقا بأطرافها بقدر الإمكان ربما على مدى 150 ياردة، وينتظرون حتى تتحرك قدماً مرة ثانية، وحينئذ، في أعقابها بسرعة، قد يعملون حرابهم ومدافعهم «البيرن» في قتل أي أحياء قد يبقون، وأثناء ذلك، تقوم الدبابات المصاحبة بقصف أية مواقع بعيدة للعدو قد تفكر بالتدخل.

عندئذ ستتحرك ستارة القصف 200 ياردة أخرى، وتتكرر العملية حتى نؤمن الهدف الأول ـ وهي مناطق المزارع في كل حالة ـ حينذاك ينطلق «كيڤين» عابراً بفصيلته من خلال فصيلة «جيوف» ويهاجم آخر هدف كانت علامته الشفرية كلمة «سنودروب» ـ نقطة جليد ـ وعندما يبرق «كيڤين» بالرمز الشفري «سنودروب». يكون عمل اليوم كله قد انتهى، وربما تكون «هاي واي سيكس» وهي الهدف الأخير على بعد 2000 ياردة أمامنا.

اليوم هو يوم حاسم، وسيتقرر فيه إذا ما كان هناك اختراق للعدو، أو مباراة ثابتة في التلاكم هنا في المدخل المنبسط لوادي «ليري» مع التركيز المكثف لرجالنا وأدواتنا تحت رحمة مركز المراقبة في موناستيري.

وكانت استجابة الألمان سريعة، ففي خلال دقائق قليلة من بداية قصفنا، بدأت القنابل ترد علينا، واختلط هدير قذائفنا بهدير قذائفهم، وموجة من النيران تمطر وراء الأخرى فوق المزارع والغابات الصغيرة عند مؤخرتنا، حيث تجمعت قوات إمدادنا جاهزة لمتابعتنا عقب الهجوم، وأخذت أشعة الشمس تزداد دفئاً مع كل دقيقة تمر وتصفي آخر حبيبات الضباب من الصباح، وبدا أن «الموناستيري»، الدير، يخفي الحرارة اللافحة كما يخفي الملاكم عباءته قبل أن يخطو نحو الحلقة للجولة الأخيرة، وهو يهطل في علو جليل فوق السهل حيث تمتد كل قواتنا أمامه، وكانت تلك اللحظة العظيمة، هي الحساب الأخير مع الدير.

اليوم ـ د ـ ناقص واحد
قوات المواجهة الأمريكية تغادر فرنسا

«5 يونيه/ الصيف 1944 افرنجي»

*** جنرال ماثيو.ب. ريدجواي**

نظرت لساعتي، كانت العاشرة مساءً، يوم الخامس من يونيه 1944 افرنجي «اليوم ـ د ـ ناقص 1» لجنود الفرقة 82 المحمولة جواً، وباقٍ 12 ساعة على حلول الساعة [هـ] لحظة بدء معركة نورماندي.

كنا نطير في تشكيل 7 «رأس السهم» وسط سرب بنفس التشكيل مثل رأس سهم عملاق دونما وجود لذيله.

كانت لحظات الضوء المتبقي من النهار فوق الجزيرة البريطانية «انجلند» طويلة، وما زال الضياء كاملاً، ولكن السماء باتجاه الشرق ـ فوق القنال الإنجليزي ـ أخذت في الإظلام، وبعد ذلك بساعتين أطبق الظلام، واستطعنا رؤية

التماعات اللهب الصفراء من المدافع الألمانية المضادة للطائرات فوق جزر القنال، وراقبناهم بفضول ودون خوف، كبطة شاهقة الطيران تراقب صيادها مدركين أننا على ارتفاع وبعد لا يصل إليه مدى نيرانهم، وجلس الرجال في الطائرة بهدوء غارقين في أفكارهم، ويمزحون قليلاً ثم ينفجرون بين لحظات وأخرى في ضحكات ماجنة، فالعصبية والتوتر والبرد ـ الذي يهب عبر الباب المفتوح ـ كان لها تأثيرها علينا جميعاً، وكل فترة، ينهض أحد المظليين ويخطو متثاقلاً نحو دورة المياه في ذيل الطائرة، ويجد أنه لا يستطيع المرور خلال الممر الضيق بمعداته التي يحملها، فيعود هامساً برأيه الهازئ من مصممي الطائرة س ـ 47. وعلى الفور مرر رئيس الطاقم دلواً معدنياً بين الجميع.

ولكن ذلك لم يحل المشكلة بصورة نهائية، فالمرء المقيد والمحمل بمعدات قتال كاملة، يجد أن الوصول لأجزاء معينة من جسمه شيء شديد الصعوبة، ولا تصبح محاولاته أكثر يسراً ـ وهو يعلم ـ أن رفاقه يراقبون، ويومئون بسخرية ويقدمون نصائحهم في كرم بالغ.

تقدمت الطائرات الضخمة جناحاً بجوار جناح في تشكيلها المحكم، فعبرنا نحو ساحل فرنسا، وكنت جالساً أمام الممر القادم من باب الخارج مباشرة، وكنت أستطيع أن ألمس أن القتال كان هائجاً حتى على بعد 1500 قدم حيث كنا، لأننا عبرنا فوق سفينة من إحدى الورديات في نقاط المراقبة لملاحينا، وكان الضوء الذي ترسله لنا يتراقص كقطعة من الفلين وسط تيار مائي، ولم تظهر أية أضواء فوق الأرض، ولكن وسط الضوء الشاحب للقمر القادم استطعت رؤية المزارع والحقول أسفلنا بوضوح، وأذكر كم بدت الأرض مسالمة حينئذ، كل منزل وسور وطريق، وكل نهير صغير يسبح في ضوء القمر الفضي، وأحسست أنه لولا ارتفاع ضجة آلات الطائرة لسمعت كلاب المزرعة تنبح، وديكة الجرن تصيح.

اليوم ـ د ـ 6 يونيه/ الصيف 1944 افرنجي

«وجهة نظر جندي ألماني..»

*** أنون**

في ليلة السادس من يونيه، لم يتوقع أحد منا الغزو بعد ذلك، إذ كانت هناك رياح قوية وغطاء سميك من السحب، ولم تضايقنا طائرات العدو ـ في ذلك اليوم ـ أكثر من المعتاد، لكن ـ عندئذ ـ وسط الليل، امتلأت السماء بطائرات لا حصر لها، وتساءلنا: «ماذا سوف تدمره الليلة؟» لكنه بدأ... وكنت بنفسي بجوار جهاز اللاسلكي، وتتابعت الرسائل واحدة وراء الأخرى، المظليون هبطوا هنا والبعض أفاد عن هابطين هناك، وأخيراً: «إبرار ساحلي يقترب» وانطلقت بعض مدافعنا بأقصى ما تستطيعه، وفي الصباح شوهدت قوات بحرية ضخمة، وكان هذا آخر تقرير من مراكز المراقبة المتقدمة أمكنهم إرساله لنا قبل أن يُغلبوا على أمرهم، وكان آخر تقرير تسلمناه حول الموقف، ولم يعد ممكناً تكوين فكرة عما يحدث، فالاتصالات اللاسلكية اختلطت وقطعت كوابل الهواتف وفقد ضابطنا السيطرة على الموقف، وأفادنا رجال المشاة ـ الذين كانوا يكرون عائدين ـ أن مواقعهم على الساحل قد استولى عليها العدو، أو أن ملاجئنا القليلة في قطاعنا قد تم قصفها أو فجرت إلى فتات.

ووسط هذه المعمعة تماماً، تلقيت أوامر بالذهاب بسيارتي للاستطلاع باتجاه الساحل، ومع عدد قليل من الجنود اتصلت بضابط «ملازم»، وكانت تعليماته أن نعيد السيطرة على قرية مجاورة، وبينما هو لا يزال في حديثه معي ليشرح الموقف، قدمت دبابة بريطانية نحونا من الخلف، ومن اتجاه لم نتوقع أن يأتي منه العدو، وفي الحال فتحت الدبابة نيرانها علينا، ولم تكن المقاومة مسألة مطروحة للسؤال فلقد رأيت مجموعة من الجنود البولنديين يذهبون نحو العدو يحملون مدافعهم الآلية ملوّحين بأيديهم، أما الضابط وأنا فقد اختفينا وسط الشجيرات، وحين حاولنا المرور للحاق بخطوطنا في المساء، أمسك المظليون البريطانيون بنا، وفي البداية شعرت بنوع من الإحباط بالطبع، أنا،

الجندي العجوز، أسير حرب بعد ساعات قليلة من الغزو، ولكنني عندما رأيت المعدات خلف جبهة العدو، لم أستطع سوى القول لنفسي: «أيها الرجل العجوز، كم كنت محظوظاً».

وعندما أشرقت الشمس صباح اليوم التالي، رأيت أسطول الغزو يقبع بعيداً عن الشاطئ، سفينة بجوار الأخرى وبدون مساحة خالية، كانت القوات والأسلحة والدبابات والذخائر والمركبات تهبط منها في نهر متدفق.

الألمان يواجهون عدواً جديداً

«7 يونيه/ الصيف 1944 افرنجي»

تقرير كتبه أحد ضباط هيئة الأركان، من الفرقة 17 س.س. بانزر المدرعة

*** أنون**

تلقت فرقتنا يوم 7 يونيه أوامر بمغادرة منطقة القيادة في «توارس» والتحرك نحو جبهة الغزو في نورماندي، وكان كل فرد في شوق لرؤية القتال من جديد، سعداء بأن حالة ما قبل الغزو من الشك والانتظار قد انتهت أخيراً. كانت طوابيرنا الميكانيكية تتجمع بطول الطريق في اتجاه شواطئ الغزو.. ثم حدث شيء تركنا في ذهول، إذ سرت زخات من النيران على طول الطابور وغطت الأتربة الطريق، وأخلى كل شخص مركبته هارباً نحو الحقول القريبة، والتهمت النيران العديد من المركبات بالفعل، وتوقف هذا الهجوم فجأة كما بدأ دماره فجأة منذ خمس عشرة دقيقة، وبدأ الرجال يعودون أدراجهم للطابور من جديد، شاحبي الوجوه مرتعشي الأجسام يتعجبون كيف بقوا أحياء مع هذا السيل من الطلقات؟ وكانت تلك أول مواجهتنا لطائرات «الجابو» القاذفة المقاتلة، وأصبح طابور السير الآن ممزقاً، فكل جندي معني بشؤونه الخاصة كي يخرج من هذا الطابور الملتهب بأسرع ما يمكنه، وفي الحال لم يعد هناك أحد، إذ بعد ساعة من ذلك بدأ كل شيء من جديد، وإن كان أكثر سوءاً هذه المرة، وعند انتهاء هذا الهجوم، امتلأ الطريق كله بقطع

المدافع المضادة للطائرات ـ التي كانت فخر فرقنا ـ والمحركات المشتعلة، ومعدات الحرب المحترقة.

ونُودي على المسيرة بالتوقف، واختبأت كل المركبات المتبقية في ظلال الشجيرات أو الأجران، ولم يجرؤ أحد على إظهار نفسه في الخلاء بعد ذلك، وبدأ الجنود ينظرون لبعضهم البعض، وكان ذلك الأمر مختلفاً عما كنا نعتقده، لقد كانت تجربتنا الأولى مع عدونا الجديد، الأمريكيين، وخلال الأيام القليلة التالية، اكتشفنا كم هو جاد في تنفيذ عمله، ورغم أننا الآن نرحل أثناء الليل فقط، وعبر طرق ثانوية محاطة بأسوار نباتية وشجيرات، إلا أننا قابلنا حطاماً لا يحصى يقدم شهادة مبينة بأن العديد من قائدي المركبات لم يستفيدوا جيداً من تجربتنا المريرة التي مررنا بها.

اليوم ـ د ـ زائد واحد. المظليون

«7 يونيه/ الصيف 1944 افرنجي»

*** جيمس ـ ج ـ براموبل**

نبح أحد الكلاب عند اقترابي، ورأيت من زاوية عيني شبحاً مبهماً ينسل من خلف كومة القش إلى ظلال الجرن، ولم أجد إجابة لدقاتي على الباب في البداية، إذ يبدو أن الأسرة تغط في نوم عميق، فدققت بشدة، وسمعت هذه المرة خطوات فوق السلالم وهمهمات مفاجأة من الأصوات الفرنسية، واقتربت الخطوات من الباب، ثم تراجعت وترددت، ثم اقتربت ثانية وفتح الباب.

وفي سبيلي لانتقاء الكلمات المناسبة لنقدم بها أنفسنا في عبارات هادئة ـ ورقيقة ـ تقابل التعبير الطبيعي للفرنسيين وغريزتهم التي لا تخطئ لتوقع اللحظة الدرامية، . . . ولكن عند رؤيتي للفلاحة متوسطة العمر واضحة الأمومة، اختفت حواجز الزمن، وعدت بذاكرتي لعام 1939 افرنجي، كسائح إنجليزي في نزهة يتجول طالباً زجاجة «سيدار» يشربها أو بعض الجبن الطري. قلت: «المعذرة

سيدتي، نحن مظليون إنجليز، ونشكل جزءاً من الغزو الذي أنزله الحلفاء». . .
وسادت لحظة ريب هنيهة ثم أحاطتني المرأة بذراعيها وفاضت الدموع من عينيها، وبين قبلاتها، كانت تصيح داعية زوجها لإحضار المصابيح والخمر، وحملوني في لحظة ـ بسيل من الترحيب ـ إلى المطبخ الدافئ المضاء بالشموع، وظهرت زجاجات «الكونياك» و«الكالفادوس» فوق المائدة، وهبط الأولاد السلالم في صخب، ووجدنا أنفسنا مجموعة شريرة المظهر من المحاربين المستخفين، محاطة وغارقة بعواطف سنوات أربع قريبة، وطلب الفلاح وزوجته منا البقاء والشرب والضحك والمصافحة مرات ومرات، وأرادوا التواصل معنا كي يخبرانا عن كل ما حدث أثناء الاحتلال ولمشاركتنا كراهيتهم العميقة للألمان، ووضح أن اللحظة التي انتظراها منذ زمن طويل لا يجب إفسادها بذكر الحقائق حتى يتم امتصاص كل الانفعالات لآخر قطرة فيها، وقد تأثرت بقدر تأثرهم فنهضت ـ وقد تسللت رشفات «الكالفادوس» النارية فأدفأتني ـ في نخب هذه اللحظة التي كانت ـ بالتأكيد ـ واحدة من أعظم المناسبات في حياتي ناسياً كل شيء حول الإنزال والطوابير وبطاريات المدفعية تماماً.

وكان منظر رفاقي ـ فقط ـ المنزعجين أمام كل هذا الانفعال الذي يملأ الحديث وشرب الزجاجة وراء الأخرى ـ هو الذي ذكرني فجأة بالهدف الذي جئنا من أجله، ثم بدأت بأدب شديد أصر على الحصول على إجابات عن أسئلة كانوا قد تجنبوها أكثر من مرة، ـ أين نحن الآن؟، ـ كم تبعد عنا أقرب مجموعة ألمانية؟ ـ وقد تجاهلوا الأسئلة مرة أخرى، بالقول: «يا إلهي، لا تتركونا الآن، يا للمساكين التعساء! . . . إنهم مبتلون بشدة. .» وكان الوقت يمر ويسوء، واستطعت في النهاية أن أتدبر أمر الحصول على ما أردناه، بوصلة جيب ووعد بأن يكون دليلنا إلى الطريق الوعر عبر المستنقعات إلى «ڤارافيل»، وذهبت أنا و «هودج» في طريقنا، تاركين حملة المدافع الخفيفة ـ رفاقنا الذين غلبهم أول لقاء مع الكرم الفرنسي، ليناموا بعده وسط القش.

القنابل الطائرة

من ذكريات صبي في الثامنة

«الصيف/ يونيه 1944 افرنجي»

* ليونيل كينج

«أطلق الألمان حوالى 8000 قنبلة طائرة موجهة على بريطانيا فيما بين يونيه وسبتمبر 1944 افرنجي وهي قنابل من نوع ڤي ـ واحد 1 ـ V».

في ليلة 12 يْونيه، سقطت أول، قنابل هتلر من نوع الـ ڤي ـ واحد على لندن وانتشرت أنباء الجنوب الشرقي من مقاطعة «كنت» حتى «سوسيكس» وسواحلها عن طائرات «بأنوف نفاثة» و«نيران شاملة» وأصوات آلة غريبة، وقد توقفت بعض هذه الأشياء الطائرة فوق «كنت» فجأة وسقطت يتبعها انفجار هائل، وكانت الانفجارات من الأشياء التي اعتادتها الأسرة عندنا، إذ كنا قد انتقلنا من «ويستهام» في بداية الحرب وقضيت ليالي لا تحصى في المخبأ الموجود بالحديقة غير قادر على النوم بسبب شخير «ناني» والآن يحدث ذلك أيضاً وقت النهار.

وأول مرة ذات مساء، كانت نوافذ منزلنا وأبوابه مفتوحة في يوم من أيام يونيه الصافية، وتبدى طنين قنبلة قادمة بصورة لا تخطئها الأذن، أتاحت لنا إنذاراً بسيطاً، وما هي إلا عشر ثوان، حتى شقت الآلة طريقها فوق رؤوسنا تماماً، وتردد صدى انفجار غريب على بعد نصف ميل منا.. ودار «الصبي ذو القدم» ـ تقصد مراقب الغارات الجوية ـ كما تدعوه أمي بدراجته وهو يكرر أخباره: «الإصابة في طريق «كينج إدوارد».. هناك حطام في كل مكان، وهناك فرق الإطفاء والحرس ـ أيضاً ـ ما زالوا ينقبون في الحطام، لقد رأيت القذيفة وهي قادمة، لقد كنت فوق السطح»... وكنت أغار كثيراً من سطح منزله إذ بإمكانك رؤية أي شيء هناك...

وسأل دوج: «أين طريق «كينج ادوارد» يا أمي». فأجابته: «إنه بجوار «كونتي جراوند» حيث يعيش السيد جيبونز، وأنت تعلم، أنه يعمل مع والدك في الحرس الوطني».

وفي اليوم التالي، يممنا شطر الملجأ عندما سمعنا الأزيز، ثم شقت القنبلة الهواء - كما لو كانت فوق المنزل - ثم تناثرت وسط الحياة من جديد فضحكت أنا و«دوج» بصوت عال، فلقد كان الأمر مجرد نكتة، وطلبت أمنا أن نهدأ، وتوقف طنين الآلة، ثماني ثوان انتظار، ثم انفجار غير مرئي ومخيب للتوقعات. . . فقالت أمي: «سوف أرى أين سقط عندما أمر بالمحلات بعد دقيقة» واستطردت: «لا تفتحوا الباب لأي طارق».

وفيما بعد أخبرتنا أن القذيفة سقطت على خط سكة حديد فرعي خلف أحد المطاحن، وقد دمرت ثلاث عربات قديمة للسكة الحديد كما أخبرها العامل.

وهبطت العديد من قذائف الڤي - واحد فوق المباني الحكومية التي تصدر عنها صفارات الإنذارات ضد الغارات الجوية، وكانت كلها تصدر صفاراتها طوال الوقت تقريباً، وعندما كانت القذيفة تعلن عن مقدمها، أغوص أنا و«دوج» داخل المخبأ ولا ننسى حمل قطنا «جيمي» إذا ما كان أمامنا. وأحياناً ما تكون أمي بالخارج تتسوق، فنذهب نحن للمخبأ وحدنا، ولم نقلق أو نخشى شيئاً فكل شيء ينتهي في ثوان على أية حال.

وذات مساء مثل ذلك، سقطت قذيفة «ڤي - واحد» في طرف الشارع، فقفزنا خارجين من الملجأ وشاهدنا انفجاراً من الغبار والنفايات يعلو قمم أسقف المنازل، وكنت ترى قطع الطوب وألواح الخشب وهي تمخر عباب السماء الصافية، وبدا الانفجار بعد ثوان قليلة مثل المظلة المهترئة، وتزاحم المرور من جديد في الطريق، وجرينا عبر المنازل إلى الباب الأمامي، وتدافعت جماعات من الناس نحو الطريق بعضهم فوق الدراجات والكثير منهم في اضطراب كبير إلى المشهد، وكنا نعرف الكثير منهم بمجرد مرآهم، صاح «دوج»: «انظر، إن ذلك الرجل يذهب إلى هناك من محل الزيت». إذ إننا لم نره في هذا الجانب المقابل من قبل، وهدأت سحابة الغبار الآن، وبدأت سيارات الإسعاف الأولى تشق طريقها نحو «مركز العلاج» في الكنيسة المقابلة، وكان البعض يساعد أناساً أشبه بالمقودين وبعضهم يرتعد، وصاحت أمي عندما ظهرت: «عودوا إلى المنزل، فإن

«ناني» سوف تعود إليكم من العمل حالاً، وسوف تخبركم بكل أنباء ذلك».

ووصلت «ناني» فيما بعد، وكانت القنبلة الطائرة قد سقطت بجوار مصنعها.

«إن مسز «لي» قد تضررت بهذه القذيفة، إذ سقطت فوق منزلها في «ليهول رود» فهو في منطقة هناك، وعندما انفجرت القذيفة أخبرها رئيس الوردية بأنها يمكنها الذهاب للاطمئنان على مسكنها، وذهبت معها، وقد مضينا بعد حدوث ذلك مباشرة بدقيقتين أو ثلاث»...

ولم تخل الحادثة من طرافة بالنسبة لي «ولدوج» وقد رأى أحد المراقبين الجويين القذيفة قادمة، وهو فوق سقف منزل جنكنز، فألقى بنفسه من فوق حافة السطح الذي يعلو الأرض بثمانين قدماً».

هجوم الروس، صيفاً..

«يوليه/ ناصر 1944 افرنجي»

*** أليكساندر ڤيرت**

تمتلئ كل القلوب بالسعادة ـ اليوم ـ في موسكو، ففي كل ليلة يعلن صوت رجالي عميق ومألوف ـ يتحدث كرجل يلقي أوامره للجنود ـ عن نصر كبير جديد مرة أو مرتين وأحياناً ثلاث مرات... وبعد عشر دقائق من ذلك تضيء قذائف المدفعية وآلاف من الصواريخ الملونة ليل وسماء الصيف، وكان دائماً نفس المشهد، ولكن الأمر يبقى منذراً بالخطورة في المقابل، إذ إن المناطق الجديدة التي يستردها الروس الآن تقع في ليتوانيا البعيدة أو في بيلوروسيا الغربية، وفي كل ليلة، داخل ملايين المنازل الروسية تلوح أعلام ورقية صغيرة وقطع من الخيوط الملونة، وعلامات الأقلام الحمراء من معظم المناطق السوڤييتية المحررة من أيدي العدو.

وأضحت الانهيارات الحالية أكبر كارثة يواجهها الألمان منذ ستالينجراد. فخسائرهم تتزايد وتقترب من نصف المليون ألماني، والحصار يحيط فرقهم واحدة

وراء الأخرى ويمسحها، ومئات الآلاف يقتلون، وأُخذ حوالى مائة ألف آخرين أسرى، ووصل رقم القادة الواقعين تحت الأسر خمسة وعشرين قائداً تقريباً. . . ومن الأسرى المائة ألف ـ أو يزيد ـ تم استعراض سبعة وخمسين ألفاً منهم وسط شوارع موسكو وفي مقدمتهم قادتهم، وقد جمعهم الروس في مضمار للسباق طوال يومين وأعطوهم الكثير من الطعام والشراب، بل قدموا لهم حتى الموسيقى، ثم أخذوهم إلى محطة السكة الحديدية في مجموعات بكل واحدة عشرة أو خمسة عشر ألفاً منهم.

وكانت الميادين المشمسة متسعة للشوارع المحيطة بموسكو بمبانيها ذات العشرة أو الاثني عشر طابقاً قد امتلأت بمئات الآلاف من البشر الذين حضروا لمشاهدة الألمان. . وكان التزاحم مبهراً ومشجعاً، فالفتيات في أثواب الصيف الخفيفة التي هي عادة بيضاء، ورفاق شباب يرتدون قمصاناً بيضاً ذات رقبة مفتوحة وسراويل خفيفة، والأطفال يتكومون هنا وهناك، وتسلق العديد منهم أعمدة النور أو أسطح العربات والقطارات الكهربائية، كما صعد العديد منهم فوق أسطح المنازل الصغيرة.

كانت موسكو تبدو في أكثر أيامها إشراقاً وبريقاً، وفي ميادينها الواسعة الحديثة لا تجد أدنى علامة لآثار القنابل، وعندما كان الألمان يفكرون بعاصمتهم، فلا بد أن منظر موسكو قد آلمهم بشكل كبير.

وكانت الجماهير في موسكو منتظمة بصورة ملحوظة، ويشاهدون الألمان في سيرهم أو مرورهم المتثاقل بأزيائهم الرسمية القذرة ذات اللون الأخضر القاتم، ذلك اللون الطيني الأخضر المائل للرمادي الذي قال عنه أحد الأشخاص، إنه أهدر نصف روسيا الأوروبية وما زال يفسد جزءاً كبيراً من أوروبا، وكان أغلب الجنود الألمان يترنحون طوال الطريق ونظراتهم كنظرات كلب يموت، في حين بدت الدهشة على الصغار منهم وهم يتطلعون لمشهد موسكو التي اعتقدوا أنها تختلف تماماً عما رأوا.

وكانوا يمعنون النظر في الجماهير النظيفة المرحة التي يبدو عليها الرخاء على

جانبي الطريق، وقليل من الألمان هم من كانوا ينظرون بامتعاض، وكان أهالي موسكو يتفرجون دون استهزاء أو استنكار، وكنت تسمع قليلاً من الصبية فقط وهم يتصايحون: «انظروا للألمان، وانظروا لأنوفهم القبيحة»... لكن الناس تبادلوا ملاحظاتهم بصوت رقيق، وسمعت فتاة صغيرة قابعة فوق كتف أمها تقول: «أمي هل أولئك الناس هم الذين قتلوا أبي؟» واحتضنت الأم طفلتها وبكت...

قصف «كاين»

7 يوليو/ ناصر 1944 افرنجي»

*** ديزموند فلور**

بدأت العملية مساء يوم 7 يوليو، عندما قصفت 600 طائرة «لانكاستر» و«هاليفاكس»، المواقع الدفاعية شمال «كاين» قبل الغسق مباشرة، وكانت تلك أول مرة تستخدم فيها القاذفات الثقيلة في دعم مباشر لهجوم القوات البرية، ولا بد أن ذلك كان بمثابة صدمة للفرقة الثانية عشرة س.س، والفرقة السادسة عشرة من الألمان. وقد ألقينا الحمولة كاملة بشكل مرعب، وبالنسبة لمن يراقب منا ما يحدث من الأرض بصورة آمنة، كان أمامه هول شرير وإن كان موحياً حول المشهد، إذ كانت الأرض قد دخلت ظلال العتمة تماماً، والسماء ذاتها كانت لامعة الزرقة مما يتبع يوماً حرارته بلا سحب.

لكن الطابور الطويل من القاذفات إذ تمدد عائداً نحو انجلترا على مدى البصر لا زال وسط ضوء الشمس، وتلألأ معدنها مثل أضواء خيالية أمام السماء المظلمة، وألقى أدلة الطريق حمولاتهم من الأضواء الكاشفة فوق الهدف واستدارت بعيداً نحو اليمين، وكانت الطلقات الكاشفة التي استخدموها كنوع من المطر الذهبي يهبط ببطء في شلالات متسعة مثل رشاش من حبات الجواهر المترددة في الانقياد للجاذبية الأرضية.

وسرعان ما امتلأت السماء بحلقات الدخان من الطلقات المضادة للطائرات مثل شبكة عملاقة، كانت القاذفات تطير فيما بين فتحاتها منزعجة، وفي الحقيقة لا بد أن بعضها قد أصيب بفعل الانفجارات أو تمزق بواسطة ملايين الشظايا،

ولكن مشهدها من أسفل بدا وكأنها لا تعير الأمر اهتماماً، وبعد ذلك تصاعد دخان أسود كفطر نباتي من منطقة الهدف تندلع منه ألسنة اللهب الحمراء والصفراء، متصاعدة نحو السماء بنفس البطء الذي تهبط به الأضواء الكاشفة، وفوقه كانت القاذفات ما زالت تتوالى، وأذكر واحدة منها فقط ارتكنت بعيداً، مصابة لتبحث عن مكان للهبوط. . .

معسكرات الإبادة النازية، ميدانيك

«23 يوليه/ ناصر 1944 افرنجي»

* أليكساندر فيرت

في بولنده، بضواحي مدينة «لوبلين» تم تحويل «ميدانيك» إلى معسكر إبادة لليهود عام 1942 افرنجي، ووفقاً لبعض التقريرات، مات هناك حوالى 1,5 مليون شخص، في البداية كان الضحايا يعرضون لإطلاق نار بصورة جماعية، وفيما بعد تم بناء غرف الغاز التي تستخدم الـ «زيكلون ـ ب». وبعد التمرد الذي حدث في معسكر «سوبيبور» في نوفمبر 1943 افرنجي تم قتل الأسرى بمعسكر ميدانيك، وحاول البوليس السري «الجستابو» الألماني إخفاء معالم المذبحة.

كان أول رد فعل لي بالنسبة «لميدانيك» هو الشعور بالدهشة، وتخيلت أموراً مخيفة وشريرة فيما وراء الكلمات. فهو لم يكن شيئاً مما اعتقدت إذ بدا غير مؤذ من الخارج، وكان أول استفهام لي عند وقوفنا لدى ما يشبه بناءً ضخماً للعمال بقولي: «هل هذا هو؟». وخلفنا ارتفعت مباني لوبلين العالية والمتعددة الأبراج، وكان هناك تراب كثير فوق الطريق، والعشب ذو لون أخضر قاتم كئيب، وقد انفصل المعسكر عن الطريق بواسطة سورين من السلك الشائك، لكن هذه الأسلاك لم توح بالشر، إذ قد توضع بالضرورة خارج أي مبنى عسكري أو شبه عسكري.

وكان المكان ضخماً يشبه مدينة كاملة من العنابر الملونة بالأخضر الخفيف، وكان هناك العديد من البشر جنوداً ومدنيين، وقامت دورية بولندية بفتح البوابة

الشائكة، كي تمر سياراتنا لوسط الفناء الرئيسي ذي العنابر الضخمة الخضراء على كلا جانبيه، ثم توقفنا خارج عنبر ضخم عليه عبارة «سيء وللتطهير رقم 2»، وقال أحد الأشخاص: «في هذا يأتون بأعداد ضخمة ممن يصلون للمعسكر».

وكان داخل هذا العنبر مصنوعاً من الإسمنت وتنفذ من الحائط صنابير المياه، وحول الحجرة كانت توجد عدة مقاعد طويلة، حيث يضعون عليها ملابسهم ثم تجمع بعد ذلك. وهكذا كان المكان الذي اقتيدوا إليه، أو ربما دعوهم بأدب قائلين: «نرجوكم أن تخطو بهذا الطريق من فضلكم»، هل ارتاب أحد منهم أثناء استحمامهم بعد رحلة طويلة، ماذا سوف يحدث بعد دقائق قليلة؟ وعلى أية حال، فبعد انتهاء الاستحمام طلبوا منهم الذهاب للغرفة التالية، وعند هذه النقطة، لا بد لأكثر الناس ثقة من أن يتعجب، إذ إن الغرفة التالية كانت سلسلة ضخمة من الأبنية الإسمنتية المربعة، حجم كل منها ربع حجم حجرة الاستحمام تقريباً وبعكسها لا يوجد بها نوافذ.

وكان العراة ـ رجالاً مرة ـ ونساءً مرة ثانية ـ وأطفالاً مرة ثالثة ـ يساقون من الحمام إلى هذه العلب الإسمنتية المظلمة ـ والتي يصل مربعها لخمس ياردات ـ ويعبئونها بحوالى 200 أو 250 فرداً في كل واحدة، وكان المكان مظلماً تماماً عدا فتحة لضوء السماء في السقف وفتحة المراقب في الباب. وبدأت عملية الخنق بالغاز، في البداية ضخوا بعض الهواء الساخن من السقف، ثم تساقطت البلورات الشاحبة الزرقة الرائعة لغاز الزيكلون فوق الناس، وتبخرت وسط الهواء الرطب الساخن بسرعة، وبأي شكل من دقيقتين حتى عشر دقائق كان كل شخص قد مات، وكان هناك ست علب إسمنتية، ـ غرف للغاز ـ بجانب بعضها، وقال بعض الأدلاء: «إن حوالى 2000 شخص يمكن أن يكونوا انتهوا هنا مجموعة وراء الأخرى». .

ولكن ما نوع الأفكار التي مرت بذهن أولئك الناس خلال الدقائق الأولى القليلة أثناء سقوط بلورات الغاز، هل أمكن لأحد أن يبقى معتقداً أن هذه العملية المهينة ـ بحشرهم داخل علبة بهذا الحجم والبقاء عراة تحتك ظهورهم بالعراة الآخرين ـ له علاقة بعملية التطهير لمنع العدوى!؟.

في بادئ الأمر، كانت المسألة صعبة الفهم، دون بذل مجهود ما باستخدام الخيال، إذ كان هناك عدد من الأبنية الإسمنتية الكئيبة التي لو كانت أبوابها أكثر اتساعاً قليلاً وفي مكان آخر غير هذا، لظنها البعض صفاً من الجراجات الصغيرة الجميلة، ولكن الأبواب!.. كانت من الصلب الثقيل ولكل منها مزلاج صلب ثقيل، وتوجد في وسط الباب «فتحة للمراقبة» وهي دائرة قطرها ثلاث بوصات تحوي حوالى مائة فتحة تقريباً... وهل استطاع الناس وسط موتهم المفجع أن يلحظوا عين رجل البوليس النازي وهو يراقبهم؟ وعلى أية حال فرجل البوليس النازي لم يكن أمامه ما يخشاه، لأن عينيه تحميهما شبكة من الصلب فوق فتحة المراقبة، بل ومثل صانع الخزائن المنيعة الفخور بما صنع كتب صانع الباب اسمه حول فتحة المراقبة [أويرت، من برلين].

بعد ذلك لفت انتباهي أثر أزرق فوق الأرضية كان باهتاً جداً، لكنه ما زال يقرأ، كان أحدهم قد كتب بطبشور أزرق كلمة «ڤيرجاست» ورسم فوقها جمجمة وعظمتين متقاطعتين، ولم أكن أعرف هذه الكلمة من قبل، لكن من الواضح أنها تعني «مكان مزود بالغاز» وليس فقط ذلك وإنما مع الزائدة الحرفية القَبْلية (ver) فتعني «تم التسميم بالغاز» أي أن هذه المهمة انتهت والآن إلى الشحنة الجديدة، وهذا الطبشور الأزرق تمت الكتابة به حين لم يكن يوجد سوى كوم من الجثث العارية داخل الغرفة، ولكن كم من الصرخات واللعنات والتضرعات - ربما - قيلت داخل غرفة الغاز هذه منذ دقائق قليلة؟... ومع ذلك فالحوائط الإسمنتية سميكة، والسيد «أويرت» قام بعمل رائع، كي لا يسمع أحد شيئاً من الخارج، وحتى لو حدث ذلك، فالناس بالمعسكر يعلمون كل شيء عنه...

وهنا خارج العنبر الـ «سيء وللتطهير رقم 2» وعند الحارة الجانبية المؤدية للميدان الرئيسي، كانت الجثث في شاحنات مغطاة بالمشمع المضاد للماء، ينقلون للمحرقة في الطرف الآخر للمعسكر على بعد نصف ميل، وبين الموقعين توجد عشرات من العنابر مطلية بنفس اللون الأخضر الفاتح، ويوجد على بعضه لوحات مكتوبة وبعضها لا توجد عليه، وهكذا تجد عنبر «إفيكتن كامر» و«فراود

بيكليرنج كامر» حيث يضع الضحايا ملابسهم وأمتعتهم وتصنف ملابس السيدات قبل إرسال ذلك إلى مخازن لوبلين المركزية ثم إلى ألمانيا.

وعند الطرف الآخر من المعسكر تجد أكواماً هائلة من الرماد، فيما بينها ترى - إذا اقتربت أكثر - أنها ليست رماداً كاملاً، إذ تحوي كتلاً من العظام البشرية الصغيرة: عظام رقبة، وسلاميات أصابع، وقطعاً من الجماجم، بل وعظمة فخذ صغيرة لا يمكن أن تكون إلا لطفل، وفيما وراء هذه الأكوام يوجد سهل مائل تنمو عليه أفدنة كثيرة من الكرنب، وكان كرنباً ضخماً ونامياً، مغطى بطبقة من الغبار، وسمعت أحدهم يشرح ذلك: «طبقة من السماد ثم طبقة من الرماد وتلك هي الطريقة التي نمى بها... فهذا الكرنب ينمو على رماد البشر، وقد اعتاد رجال البوليس السري الألماني حمل معظم هذا الرماد إلى مزرعتهم النموذجية على مسافة من المعسكر، وهي مزرعة جيدة الإدارة، وهم يحبون تناول ذلك الكرنب الضخم، وكذلك السجناء يأكلون هذا الكرنب رغم أنهم يدركون احتمال تحولهم إلى كرنب هم أنفسهم قبل مرور وقت طويل»..!!

كان مخزن «تشوبان» يشبه محلاً ضخماً ذا خمسة طوابق، وهو جزء من مصنع القتل الهائل في ميدانيك، هنا تصنف وتفصل ممتلكات مئات الآلاف من المقتولين وتعبأ للتصدير إلى ألمانيا، وفي واحدة من الغرف الكبرى كانت توجد آلاف من الحقائب والأكياس، وبعضها ما زالت بياناته مكتوبة بوضوح، وكانت هناك غرفة كتب عليها «أحذية الرجال» وأخرى «أحذية النساء» وهنا تجد آلاف الأزواج من الأحذية كلها من نوع أكثر جودة مما تراه في المخزن الكبير بجوار المعسكر.

ثم تجد بهواً طويلاً يمتلئ بآلاف من أثواب النساء، وبهواً آخر بآلاف من المعاطف، وحجرة أخرى بها أرفف خشبية ضخمة بطول الحجرة، عبر منتصفها وعلى امتداد الحوائط، وتشبه مخازن «وولورث» الشهيرة، تكومت فيها مئات من أمواس وفرش الحلاقة وآلاف من برايات الأقلام، وفي الحجرة التالية لها، تجمعت لعب الأطفال: الدببة والدمى والسيارات الصفيح بالمئات، وألعاب الغاز

البسيطة ودمية «ميكي ماوس» أمريكية الصنع. . وغير ذلك. . حتى إنني وجدت وسط كوم من النفاية مخطوطة قيمة لمعزوفة آلة الكمان «ڤيولينا سوناتا» «أوب. . 15» كتبها شخص اسمه أرنست. ج. ڤيبيل من براغ، تُرى ماذا تخفي تلك المخطوطة من قصة وراءها؟.

هجوم أمريكي في نورماندي..

«24 ـ 25 يوليه/ ناصر 1944 افرنجي»

*** جنرال بايبرلين**

«بعد إقامة رأس الجسر الحربي في نورماندي والاستيلاء على «سانت لو» يوم 8 يوليه، اخترق الأمريكيون الدفاعات الألمانية عند «اڤرانشيز» يوم 31 يوليه، وهذا التقرير كتبه قائد كبير كان يقود فرقة البانزر التي واجهتهم».

. . . وحتى يوم 23 يوليو تقريباً، كانت القوات الأمريكية قد سيطرت على مواقع متقدمة مناسبة لأغراض هجومهم واستولوا على «سانت لو» وكانت فرقة البانزر ليهر «المدرعة الألمانية» تسيطر على قطاع مساحته 6000 ياردة غرب المدينة، ومع تمركز الاحتياطي الضعيف فقد تشكلت منطقة دفاعية مقدارها 4000 ياردة في العمق، وبقيت الخمسون أو الستون دبابة مع المدافع ذاتية الدوران المضادة للمدرعات وهي الموجودة مع الفرقة متمركزة في مواقعها الثابتة في حين «تموقع» سلاح المدفعية الخفيفة المضادة للمدرعات وقاذفو فرقة البانزر في المواقع الميدانية الأرضية.

ويوم 24 يوليو هاجمت 400 قاذفة أمريكية قطاعنا، ولكن دون إحداث خسائر كبيرة، وتمكنت سرية الدفاع الجوي التابعة لي من إسقاط عشر من طائراتهم، ولم يحدث الهجوم الأرضي المتوقع. . ولكن في اليوم التالي، قامت القوات الجوية للحلفاء بشن أعنف غارة حدثت طوال الحرب وبدور تكتيكي، وعلمت فيما بعد من مصادر أمريكية أنه في يوم 25 يوليو قامت قوة من 1600 طائرة من نوع «فلايينج فورترس» والقاذفات الأخرى بقصف قطاع فرقة «البانزر ليهر» من الساعة

التاسعة صباحاً حتى منتصف النهار تقريباً، وانمحت وحدات كاملة كانت تسيطر على الجبهة تقريباً برغم وجود أفضل المعدات الممكنة من دبابات ومدافع مضادة للمدرعات ومدافع ذاتية التدوير.

وقد نثرت سجادة القصف أماماً وخلفاً، فأزالت مواقع المدفعية وانقلبت الدبابات ودفنت وسويت مواقع المشاة بالأرض ودمرت الطرق والممرات، ومع نهاية الظهر كانت المنطقة كلها تشبه قطعة من أرض القمر، وحفرات القنابل تتلامس الحافة مع الحافة، ولم يعد هناك أي أمل في إخراج أي من أسلحتنا، وقطعت كل وسائل اتصالاتنا ولم نتمكن من إصدار أي تعليمات، وكانت الصدمة على قواتنا لا يمكن وصف آثارها، فقد جن العديد من الجنود واندفعوا في هوس وسط السهل حتى أصابتهم الشظايا المتناثرة، وبالتبادل مع العاصفة القادمة من السماء، انصبت قذائف المدفعية الأمريكية بلا عدد نحو مواقعنا تصليها ناراً حامية.

معسكر بيركيناو

«أغسطس/ هانيبال 1944 افرنجي»

شهادة طبيب يهودي/ روماني

*** دكتور تشارلز سيجسموند بندل**

«أقيم معسكر «بيركيناو» الضخم المعقد في أكتوبر 1941 افرنجي، غير بعيد من معسكر الإبادة في «أوشفيتز»، والدكتور يوسف مينجيل ـ المولود عام 1911 افرنجي ـ الذي عينه هيملر رئيساً لأطباء معسكر «أوشفيتز»، أشرف على التجارب الطبية على النزلاء، هرب إلى أمريكا الجنوبية بعد الحرب».

... منحني الدكتور يوسف مينجيل شرف إلحاقي بالمحرقة، وكان يطلق على الذين يعملون هناك «سوندر كوماندو»، وهم قادة مفضلون يصل عددهم إلى 900 فرد، وكانوا جميعهم من المنفيين.

في البداية عشت في المعسكر مع السجناء الآخرين، ولكني انتقلت فيما بعد إلى موقع المحرقة نفسها، وكانت أول مرة أبدأ العمل فيها في أغسطس

1944 افرنجي لم يعدم أحد بالغاز حينئذ، ولكن 150 سجيناً سياسياً «روسياً وبولندياً» اقتيدوا واحداً وراء الآخر إلى المقابر وأطلق عليهم الرصاص هناك وبعد ذلك بيومين، حين ألزموني بمجموعة اليوم، رأيت غرفة الغاز وهي تعمل، وفي هذه المرة، كانت المجموعة من «جيتو» في مدينة لودز، ومات 80,000 خنقاً بالغاز.

ـ أيمكنك وصف ما حدث في ذلك اليوم؟.

وصلت الساعة السابعة صباحاً مع الآخرين، ورأيت دخاناً أبيض ما زال يرتفع من الخنادق مشيراً إلى أن دفعة كاملة قد أُبيدت أو اختنقت أثناء الليل.

وفي المحرقة رقم 4 كانت النتيجة التي تحققت غير كافية بوضوح، فالعمل لم يكن يسير بالسرعة المطلوبة ولذا حفروا خلف المحرقة ثلاثة خنادق كبيرة، بطول 12 متراً وعرض 6 أمتار، وبعد قليل وجدوا أن نتيجة العمل حتى مع هذه الخنادق الأربعة غير كاف، ولذلك ففي وسط هذه الخنادق شقوا قناتين يسيل من خلالهما الدهن والشحم البشري كي يستمر العمل بصورة أسرع، وكانت طاقة هذه الخنادق خيالية، فالمحرقة رقم 4 كانت قادرة على إحراق 1000 شخص خلال النهار، ولكن نظام هذه الخنادق كان قادراً على التعامل مع نفس العدد خلال ساعة واحدة.

ـ هل تصف لنا العمل اليومي؟.

عند الساعة الحادية عشرة يصل رئيس القسم السياسي على دراجته البخارية ليخبرنا ـ كالعادة ـ أن دفعة جديدة قد وصلت، وكان يجب إعداد الخنادق التي سبق أن وصفتها فتنظف، ويوضع فيها الخشب وينثر فوقه البترول حتى يشتعل أسرع، وعند الساعة الثانية عشرة تكون الدفعة الجديدة قد وصلت، تحوي من 800 إلى 1000 فرد، وكان عليهم أن يخلعوا ملابسهم في فناء المحرقة ويمرون بالحمام ويشربون القهوة بعد ذلك. وتصدر إليهم الأوامر بوضع حاجياتهم على جانب وكل الأشياء الثمينة على الجانب الآخر، ويدخلون بعدها صالة كبيرة ويأمرونهم بالانتظار حتى يصل الغاز، وبعد خمس أو عشر دقائق يصل الغاز.

وكانت أكبر إهانة للطب ولفكرة الصليب الأحمر، أن يصل الغاز في سيارة إسعاف الصليب الأحمر، عند ذاك ينفتح الباب وتعبأ غرف الغاز بالبشر، وهي غرف توحي بأن السقف على وشك الوقوع فوق رؤوسهم، إذ كان شديد الانخفاض، وبفعل الضربات المختلفة من العصي يدفعون لدخولها والبقاء فيها لأنهم حين يدركون أنهم يذهبون لحتفهم كانوا يحاولون الخروج ثانية، وفي النهاية ينجح الآخرون في غلق الأبواب، ثم يسمع المرء صرخات وصيحات ويبدأون في العراك مع بعضهم ويدقون على الحوائط، ويستمر ذلك مدة دقيقتين ثم يسود صمت كامل، وتفتح الأبواب بعد ذلك بخمس دقائق، ولكن من المستحيل الدخول إلا بعد عشرين دقيقة أخرى، حينذاك يبدأ «القادة المفضلون» عملهم.

وعندما تفتح الأبواب تسقط مجموعة من الجثث إلى الخارج لأنها كانت متزاحمة داخل الغرفة، وكانت الجثث متلاصقة تماماً وكان يصعب فصل الواحدة عن الأخرى تقريباً، ويخرج المرء بانطباع أنهم قاوموا الموت بشدة، وأي شخص رأى غرفة غاز وقد امتلأت لارتفاع متر ونصف بالجثث لن ينسى ذلك أبداً، وهنا يبدأ العمل المضبوط لأولئك «السوندر كوماندو»، فعليهم سحب الجثث للخارج وهي ما زالت دافئة ومغطاة بالدماء، وقبل إلقائها في الخنادق يجب أن تمر على الحلاق وطبيب الأسنان، لأن الحلاق يقوم بقص الشعر ويقوم طبيب الأسنان بخلع كل أسنان الجثث.

ثم يبدأ جحيم حقيقي ويحاول «السوندر كوماندو» العمل بأقصى سرعة، فيجرون الجثث من معاصمها بسرعة جنونية، أناس كانت لهم وجوه بشر من قبل، لم أتمكن من التعرف عليها بعد ذلك، إذ أصبحوا كالشياطين، محامي من «سالونيكا» ومهندس كهربائي من بودابست وغيرهما.. لم يعودوا كائنات بشرية لأنهم حتى أثناء العمل، تنهال عليهم ضربات العصي والهراوات المطاطية وأثناء استمرار ذلك العمل، يقومون بإطلاق الرصاص على الناس الموجودين أمام الخنادق، من الذين لم يمكنهم إدخالهم غرف الغاز بسبب شدة ازدحامها، وبعد ساعة ونصف يتم العمل كله، ويقومون بالتعامل مع دفعة جديدة في المحرقة رقم 4.

سقوط «أخن»

17 أكتوبر/ التمور 1944 افرنجي»

*** جورج موشا**

«كانت آخن - مدينة تشامبرلين - أول مدينة كبرى ألمانية يستولي عليها الحلفاء، وهذا التقرير حرره مراسل حربي تشيكي»...

... كنت قد عدت تواً إلى بروكسل بعد أربعة أيام من قتال الشوارع في مدينة آخن، ورأيت مدينة الأباطرة الألمان تلك تُكتسح بعدما رفضت عرضاً بالاستسلام المشرف، ووجدت أناسها يسقطون لدرجة اليأس بكارثة مزدوجة هجومنا من جانب ومساوئ سادتهم النازيين من جانب آخر، وحين اقتربت من «آخن» أول مرة كانت المدينة تحترق، وكنت أرى، من موقع مراقبة أمريكي فوق المدينة تماماً، أعمدة هائلة من الدخان تتصاعد نحو السماء حيث ترى حوالى ستين طائرة قاذفة للحلفاء تأخذ تشكيلاتها بحرية للهجوم ثم تنقض بوحشية على أهدافها، وحين تهبط القنابل تندلع ألسنة من اللهب الأحمر بين المنازل التي تنتصب هناك دون علامات للحياة فيها. لقد كان مشهداً غريباً.. فلا مدافع للعدو ولا حركة في الشوارع، وإنما الانفجارات التي لا تتوقف بصوت كالرعد فقط، ثم بعد ذلك دخلنا المدينة حيث تقوم على جانبي الطرق المهجورة هياكل المنازل.. الخالية المحترقة، وتناثر الزجاج والحطام وفروع الشجر على الأرصفة، وفي كل شارع تقريباً يوجد مبنى يحترق مثل الشعلة، ووصلنا إلى ملجأ إسمنتي ضخم على سطح الأرض، وهذه الملاجئ كانت كثيبة وقاتمة ذات طوابق متعددة فوق وتحت سطح الأرض، حيث كان يختبئ مئات المدنيين للأسابيع الخمسة الأخيرة في ظلمة وعفونة، وقام ضباط الجيش والشرطة بإغلاق مدخل الملجأ، ولم يسمح لأحد بالخروج منه، بينما ينهب الجنود ورجال الجستابو المدينة. يستولون في شراهة جنونية على ممتلكات شعبهم، بالرغم من أنه لا يوجد أمل بفرارهم بما يحملون، ورفض الجيش فتح الملجأ، وحوصر لعدة ساعات بواسطة الجنود الأمريكيين، وعند ذاك عرض أحد الضباط الألمان أن يستسلم، لو سُمح له بأن يأخذ معه كل حاجياته بالإضافة إلى جندي المراسلة الخاص به.

ولم يبذل الملازم «وكر» أي جهد لقبول هذا العرض الغريب، وهدد الضابط الألماني باستخدام قاذفات اللهب معه، وقد أثمر تهديده، ثم فتحت الأبواب وخرج أبأس وأتعس سكان ما تحت العالم - رأيتهم في حياتي - وبينما يخطو الناس نحو الضوء ينبهرون ثم يلتقطون أنفاساً من الهواء الطلق، وفي النهاية يبدأون الغمغمة ويتدافعون ويصرخون ثم تصدر اللعنات، وتقاطر عليَّ بعض منهم وهم يلوحون بقبضاتهم «أين كنتم طوال هذه الفترة؟»، ويصيحون «لماذا لم تأخذوننا سريعاً من أولئك الشياطين؟». وكان موقفاً مذهلاً، إذ كان هؤلاء سكان أول مدينة ألمانية يحتلها الحلفاء، يبكون بفرح هستيري وسط حطام منازلهم.

«لقد كنا نصلي يومياً من أجل أن تأتوا» هكذا قالت امرأة ذات وجه شاحب رقيق، مستطردة: «لا يمكنكم تخيل ما اضطررنا لاحتماله منهم».. ثم تتوالى الإهانات حول الفوهرر[1] واصفة إياه بالكلب المتوحش واللص ورجل العصابة... كلها وصفوا بها ذلك المحبوب هتلر!.. ولا يوجد أحد يمكنه أن يكره ويلعن بدقة مثل الألمان وكانوا يشتعلون بالكراهية تجاه النازي ولم تكن حيلة فبالتأكيد ما كان ليخدعني ذلك.

لقد كان انهيار أمة بعد أن لعبت بالأوراق الخاطئة لخمس سنوات طوال، وربما كان غضب أحد أفراد العصابة الشريرة خذله قائده، لكنها كراهية تجدها فقط في الحروب الأهلية...

قصف درسدن

14 فبراير/ النوار 1945 افرنجي»

*** مارجريت فريير**

«تعد مدينة درسدن واحدة من أجمل مدن العالم، إنها «فلورنس على جبال الألب» لكنها تحطمت تماماً خلال يومي 13 - 14 فبراير عام 1945 افرنجي بواسطة 800 طائرة أمريكية وبريطانية».

(1) الفوهرر: اللقب الألماني الذي يطلق على هتلر، ويعني القائد بالألمانية. «المترجم».

وقفت بجوار المدخل وانتظرت حتى توقف تصاعد اللهب، ثم انحدرت مسرعة مخترقة هذه وتلك نحو الشارع، وكنت أحمل حقيبتي بيد وأرتدي معطفاً من الفراء الأبيض الذي أصبح الآن شيئاً آخر إلا الأبيض، كما كنت أرتدي حذاء برقبة وسروالاً طويلاً، وكان ارتدائي لهذا الحذاء اختياراً حسناً، وأثمر فيما بعد.

وبسبب الشرارات المتطايرة وعاصفة النيران، لم أستطع رؤية أي شيء في البداية، كان بانتظاري في الخارج جحيم السحرة، فلا وجود للشارع وإنما حطام فقط يصل ارتفاعه لمتر كامل من الزجاج وكمرات الحديد والأحجار والحفر الغائرة، وحاولت التخلص من شرارات اللهب. بنفضها باستمرار عن معطفي، لكن بلا جدوى، فتوقفت لأقوم بهذا وتعثرت، فناداني شخص ما خلفي بقوله: «اخلعي معطفك، لقد بدأ يحترق»... إذ وسط الحرارة الرهيبة المتزايدة لم ألحظ حتى معطفي، فخلعته وألقيته... وكانت تبعدني قليلاً امرأة تصرخ باستمرار: «إن مأواي يحترق... مأواي ينهار» وترقص في الطريق، وبينما أستمر في طريقي بقيت أسمع صراخها ولكني لم أرها مرة أخرى، فجريت وتعثرت أين،...؟ إنني حتى لم أعرف أين أنا بعد ذلك، إذ فقدت كل إحساسي بالاتجاه، لأن كل ما استطعت رؤيته لا يبعد أكثر من ثلاث خطوات قُدماً.

وفجأة سقطت في حفرة كبيرة، حفرة أحدثتها قنبلة عرضها حوالى ستة أمتار وعمقها متران، وانتهيت هناك أسفلها، راقدة فوق ثلاث نسوة، فهززتهن من ملابسهن وبدأت أصرخ فيهن مخبرة إياهن بضرورة الخروج من الحفرة، لكنهن لم يتحركن للحظة، واعتقدت أنني صدمت صدمة عنيفة بسبب هذا الحادث، وبدا أنني فقدت كل الانفعالات الوجدانية، فتسلقت طريقي عبر السيدات بسرعة، جاذبة حقيبتي ورائي، وزحفت على أطرافي الأربعة خارجة من الحفرة.

وعلى يساري شاهدت فجأة امرأة، وما زلت أذكرها حتى يومنا هذا ولن أنسى ذلك أبداً، كانت تحمل لفة بين يديها، لقد كانت اللفة طفلاً، كانت تجري، وتسقط، ثم طار الطفل في مسار قوسي وسط النيران، وكان ذلك فقط ما شاهدته عيناي، وبقت المرأة راقدة فوق الأرض ثابتة تماماً، لماذا؟ ومن أجل أي شيء؟

أنا لا أعرف لكنني تعثرت فقط، كانت العاصفة النيرانية لا تُصدق، كانت تصدر صيحات استغاثة وصرخات من أماكن متعددة، لكن كل ما حولي كان أتوناً واحداً كبيراً، وأمسكت منديلاً مبتلاً آخر أمام فمي، إذ كانت يداي ووجهي تحترق وأشعر كما لو أن الجلد يتدلى منهم في شرائح.

وعلى يميني رأيت محلاً ضخماً محترقاً يقف عنده كثير من الناس فانضممت إليهم، لكنني فكرت: «لا، لا يمكنني البقاء هنا كذلك، فهذا المكان محاط تماماً بالنيران» وتركت كل هؤلاء الناس ورائي، ومضيت قدماً، إلى أين؟.

ففي كل لحظة وباتجاه هذه الأماكن، تكون مظلمة حيث لا تكون هناك نيران ولم تكن لديّ أدنى فكرة حول ما كانت عليه تلك الشوارع، لكن، على وجه الخصوص، كان الناس - من تلك البقع السوداء - يخرجون رافعين أيديهم صارخين، ويتكرر ذلك مرات ومرات، وكانت الإجابة من أي إنسان وبأي مكان نفس الإجابة: «لا تستطيع أن تمضي هناك، لقد وصلنا من هناك تواً، وكل شيء يحترق».

كان أمامي شيء يمكن أن يكون شارعاً ممتلئاً برشاش متساقط من الشرارات الملتهبة التي تشبه حلقات ضخمة من النار حين تصدم الأرض، ولم يكن أمامي خيار إذ لا بد من عبوره، فضغطت منديلاً مبتلاً آخر إلى فمي ودخلت وسط ذلك تماماً لكنني سقطت وأيقنت بعدم قدرتي على المضي، كانت الحرارة شديدة.. شديدة ويداي ملتهبتان كالنار، فأوقعت حقيبتي ولم أعد أهتم وشعرت بوهن شديد وعلى الأقل لم يعد هناك ما أشده معي بعد ذلك.

ومضيت إلى حيث الظلمة، ورأيت - فجأة - أناساً مرة أخرى أمامي مباشرة، كانوا يصرخون ويلوحون بأيديهم، وعندئذ لشدة رعبي وذهولي رأيت كيف أن واحداً وراء الآخر على ما يبدو، يتركون أنفسهم ليتساقطوا على الأرض ببساطة، وكان لديّ شعور أنهم كانوا يتعرضون لإطلاق النار، ولكن عقلي لم يفهم ما كان يحدث بالفعل، واليوم أدركت أن أولئك التعساء كانوا ضحايا نقص الأوكسجين، فهم يسقطون مغشياً عليهم ثم يحترقون حتى الرماد..

سقطت حينئذ متعثرة في امرأة واقعة على الأرض، وبينما أنا ملقاة على مقربة، رأيت احتراق ملابسها فتملكني رعب مجنون جعلني أكرر من لحظتها جملة واحدة باستمرار لنفسي: «إنني لا أريد أن أحترق حتى الموت، لا لا احتراق لا أريد أن أحترق». . وسقطت مرة أخرى وشعرت بأني لن أقوى على النهوض ثانية، لكن الخوف من النيران دفعني للنهوض من جديد زاحفة مترنحة ضاغطة منديلي الأخير على فمي.

ولا أدري كم من البشر سقطت فوقهم، فقط كل ما أعلمه أن شعوري، هو يجب ألا أحترق، وهنا انتهت كل مناديلي، وكانت درجة الحرارة مرعبة، فلم أستطع الاستمرار فمكثت راقدة فوق الأرض، وفجأة ظهر جندي أمامي، فلوّحت له، ثم كررت التلويح بيدي، فقدم نحوي، فهمست في أذنه - إذ كان صوتي قد تلاشى - «أرجوك، خذني معك - فأنا لا أريد أن أحترق» لكن ذلك الجندي كان أضعف من أن يرفع نفسه كي يرفعني، فوضع يديَّ متقاطعتين على صدري وخطا بعدها من فوقي، فتبعته ببصري حتى اختفى في مكان ما من الظلام.

حاولت النهوض قائمة من جديد، لكن كل ما استطعت تدبيره هو أن أزحف للأمام على أربع، وما زلت أشعر بجسمي وأدرك أنني ما زلت حية، وفجأة وقفت، لكن هناك شيء خطأ، فكل شيء يبدو بعيداً ولا أستطيع أن أسمع أو أرى بعد ذلك. . وكما أدركت فيما بعد مثل كل الآخرين، كنت أعاني من نقص الأوكسجين ولا بد أنني ترنحت لعدة خطوات أخرى قاسية للأمام عندما فجأة استنشقت هواءً نقياً، كان هناك نسيم جديد!، فتنشقت نفساً آخر بعمق، وصفت حواسي، وكان أمامي شجرة مكسورة، وبينما أعدو نحوها علمت أنني قد أُنقذت، لكنني لم أدرك أن هذا المنتزه هو منتزه «بيرجيرڤايز».

ومشيت قليلاً لأجد سيارة، فسررت وقررت قضاء الليل فيها، كانت مليئة بالحقائب والصناديق، ولكنني وجدت فراغاً كافياً فوق المقاعد الخلفية أنضغط عليه، وكانت ضربة حظ أخرى لي أن نوافذ السيارة كلها كانت مكسورة بحيث

وجب عليّ البقاء يقظة لإخراج الشرارات التي تجنح داخل السيارة، ولا إدري كم من الوقت بقيت هناك، حين هبطت يدٌ فجأة فوق كتفي وصوت رجل يقول: «مرحباً. . يجب أن تخرجي من عندك». . فانزعجت، إذ من الواضح أن شخصاً ما قرر إخراجي من مخبئي الأمين فقلت وخوفي يملأ صوتي: «أرجوك، اسمح لي بالبقاء هنا، ولسوف أعطيك كل ما أملك من مال معي» - وأنا أفكر في ذلك الآن يبدو لي الأمر مضحكاً - لكن الإجابة التي حصلت عليها كانت: «لا. . . أنا لا أريد نقودك. . . السيارة تأكلها النيران». . . يا الله، فقفزت من السيارة فوراً وتمكنت من رؤية إطاراتها الأربعة تشتعل، ولكن لم أكن قد لاحظت ذلك بسبب الحرارة الهائلة. . .

ونظرت الآن نحو الرجل وتعرفت عليه، فهو الرجل الذي أطبق ذراعي فوق صدري، وعندما سألته عن ذلك، أكد ما حدث، ثم بدأ الجندي يبكي. . . وبدأ يضرب ظهري مغمغماً بكلمات حول الشجاعة والحملة الروسية لكن هذا، وهو هنا، هنا الجحيم، ولم أستطع تحديد معنى ما يقول، فقدمت له سيجارة.

ومشينا قليلاً ثم لمحنا شبحين زاحفين، كانا رجلين أحدهما عامل بالسكة الحديد وكان يبكي لأنه - وسط الدخان والحطام - لم يعرف الطريق لمنزله، والآخر مدني هرب من أحد الأقبية مع ستين شخصاً، لكنه اضطر لترك زوجته وأولاده خلفه بسبب ظروف بالغة الشناعة، وأصبح الرجال الثلاثة يبكون الآن، لكنني وقفت هناك فقط غير قادرة على ذرف دمعة واحدة، كنت كأنني أشاهد فيلماً، وقضينا نصف الليلة معاً جالسين فوق الأرضية مرهقين حتى إن الحوار بيننا لم يتواصل، ولم يضايقنا الانفجار المتوالي، لكن الصرخات الجوفاء المستنجدة التي كانت تتوالى من جميع الاتجاهات أضحت مخيفة، وعند الساعة السادسة صباحاً، افترقنا.

وقضيت كل ساعات النهار التالية في المدينة باحثة عن خطيبي وسط الموتى لأنه يصعب أن ترى أحياء في أي مكان، وما شاهدته كان مرعباً لدرجة يصعب عليَّ وصفها، موتى، موتى، موتى في كل مكان، بعضهم كان أسود حتى

التفحم، والبعض الآخر يرقدون لم تتغير أشكالهم كما لو كانوا نائمين، سيدات بمرايل المنزل وأخريات بأطفالهن يجلسن في عربات الترام كما لو كن قد حيين منذ لحظات فقط، سيدات كثيرات، وفتيات صغيرات، وأطفال عديدون، وجنود يمكن تمييزهم فقط بواسطة الرقائق المعدنية على أحزمتهم، وغالبيتهم تقريباً عراة، البعض يتعلق بالآخر في مجموعات كما لو كانوا يتشبثون ببعضهم البعض، من وسط بعض الحطام تبرز أذرع، ورؤوس، وسيقان، وجماجم متطايرة.

وامتلأت خزانات المياه الثابتة لحافتها بالموتى، وفوقهم قطع ضخمة من أحجار البناء على رؤوسهم، وبدا كأن الناس قد انسحقوا، على أجسادهم بقع صفراء وبنية ضخمة، أناس ما زالت ملابسهم تتوهج... وأعتقد أنني كنت غير قادرة على فهم معنى الوحشية أكثر من ذلك... إذ كان هناك العديد من الأطفال الرضع كذلك أُخرسوا بصورة مرعبة، وكل الناس يرقدون متقاربين كأن هناك من قام برصهم شارعاً، شارعاً بدقة...

ثم ذهبت خلال حديقة «جروسر» وكان أمامي شيء واحد أدركه، إذ كنت أدفع باستمرار الأيادي الممتدة نحوي، من أناس يطلبون مني أن آخذهم معي، ويتعلقون بي، لكنني كنت شديدة الضعف لدرجة لا أستطيع معها حمل أحد سوى نفسي، وكان عقلي يلمس ذلك بغموض كالرؤية من وراء حجاب، وفي الحقيقة، كنت في حالة لم أدرك فيها أن هناك هجوماً ثالثاً على درسدن، وفي النهاية في المساء، أصابني انهيار في «اوسترا - أليه» حيث أخذني رجلان لصديقة تعيش في ضواحي المدينة.

طلبت مرآة، فلم أتعرف على نفسي، إذ كان وجهي كتلة من الفقاقيع الصديدية وكذلك كان يداي، وعيناي متقرحتين ومنتفختين، وجسمي مغطى بعلامات سوداء وثقوب، ولم أفهم حتى يومنا هذا، كيف تعرضت لهذه العلامات التي اخترقت بشرتي حيث كنت أرتدي سروالين طويلين وسترة، ويحتمل أن هذه الشرارات النارية قد قامت بشق طريقها خلال ملابسي.

القوات الأمريكية تتقدم نحو ألمانيا

«مارس/ الربيع 1945 افرنجي»

*** ليستر آتويل . .**

ترك الألمان منطقة الراين تسقط، وتراجعوا يتقهقرون تاركين المتاريس وفصائل من الجنود للاشتباك معنا لتأخير تقدمنا، وأحياناً خلال الأسبوع التالي بذل العدو جهداً لعمل صمود يائس، فقط كي يمنع الأعداد الكبيرة من جنوده الذين يلقون بأسلحتهم ويهرعون للاستسلام لنا، وبعد مسيرة غير منتظمة والانهيار والتراجع، تم تخطي العديد من المتاريس وظل الجيش الألماني الجريح يتراجع أكثر.

ويبرز من اشتباكات الإعاقة التي قام بها الألمان رغم قصر دوامها وعدم جدواها الواضحين، كواحد من أفظع أحداث الحرب حين كنا نتقدم هابطين أحد الطرق في قافلة وخرجت علينا دبابة ألمانية من غابة صغيرة، مطلقة قذائفها على مدى قريب، فقتلت اثنين من رجالنا، ثم اختفت عن الرؤية من جديد.

توقفت القافلة، وتقدمت جماعتان من الرماة وأحاطت بالغابة الصغيرة تلك، وقد اكتشفوا أنها تحوي سرية من الجنود الألمان القابعين في دشم عميقة، وظلت الدبابات الألمانية تبرز لتضرب ثم تختفي، وبعد فترة ظهرت أربع دبابات من قوتنا كل واحدة من اتجاه مختلف وهي تقدف فوق امتداد الغابة الرقيق فيضاناً طويلاً من الجازولين الملتهب، وتحول المكان إلى أتون مشتعل خلال ثوان قليلة، وكنا نسمع صرخات وأنات الجنود الألمان عبر ستائر النيران العالية، وحاول قليلون منهم الزحف وسط اللهب، لكنهم قتلوا بأسلحتنا الآلية، وخلال نصف ساعة عدنا لمسيرنا قُدماً،وكل ما تبقى من الغابة الصغيرة كان سهل عميق من الفحم الذهبي المتأجج يفزعك أن تراه أو تفكر فيه تحت شمس الربيع.

الحرفيون الإيطاليون يساعدون الحلفاء

بالقرب من تريستي «13 أبريل/ الطير 1945 افرنجي»

*** جيوفري كوكس**

. . . في المنطقة الجديدة، وقفت مجموعة من «الصُنّاع» ذوي الكوفيات

الحمراء وهم ينتظرون، وكان جنودنا قد أوقفوهم بجوار ضفة النهر كأشخاص مشتبه فيهم، وشرحوا بحماس شديد أنهم أرادوا مساعدتنا وأنهم لا يتوهمون، إذ إن البعض أخبرهم باختباء العديد من الألمان بالمنطقة، وقالوا إن أحدهم ضابط دون شك، فالجدائل الذهبية شوهدت على كتفيه، فهل يمكنهم الاستمرار في بحثهم عن أولئك المختبئين؟.

واستغرق فحص أوراقهم خمس دقائق فقط وإطلاق سبيلهم، وخصصنا - في نفس اللحظة - جزءاً من سرية دفاع القيادة لنفس المطلب، وقلت لقائد مجموعة «الصُنّاع» ذي اللحية: «إن أي أسير تتمكنون منه ستكون له قيمة كبيرة» فكشر عن أنيابه قائلاً: «نعم، نعم، سيدي».. وبعد نصف ساعة ترددت أصوات طلقات نارية أسفل النهر، ثم بعد ساعة من ذلك عاد الحرفيون، لقد وجدوا الألمان المختبئين، ثلاثة منهم، وواحداً كان ضابطاً بالفعل، وأين كان ذلك الضابط؟، آه.. لقد حاول الهرب، إنه أحمق، شديد الغباء، وهاك وثائقه، ثم سلموا لنا ربطة ملوثة بالدم، ففتحت غلاف دفتر الدفع، وكان ضابطاً حقاً، بالمدفعية المضادة للمدرعات. وسقطت صورتان من الدفتر، كان الوجه فيهما يبدو خارجاً من لقطات الدعاية الخاصة برجال الشرطة النازي، فهنا العينان الغائرتان والفم الدقيق القاسي والخدود ذات الندوب المتقاطعة والشعر الأصفر الناعم والرأس المربع الألماني، كنموذج مثالي للإنسان النازي.

وكانت كل التفصيلات بالدفتر تبرز الصورة، إذ كان صاحبها بقوات الشرطة النازية منذ بدايات الفكر النازي «الهتلري»، وكانت قائمة أوسمة تملأ صفحة كاملة في ظهر الدفتر، وسام للحملة على النمسا وآخر لتشيكوسلوفاكيا وثالث لبولندا، والصليب الحديدي من الدرجة الأولى في «كريميا» لقيامه بتدمير معدتين من أسلحة العدو، ووجدنا هذا الوسام «الصليب الحديدي» بين الأوراق. وشريطه ذو الألوان الحمراء والسوداء والبيضاء قد لطخته بقع بنية تميل للحمرة.

وكان دفتر ضابط المدفعية هذا يمتلئ بالصور الخاصة بقوات الصاعقة والجنود والأخوات ذوات القمصان «البلوزات» البيضاء والجونلات «الجيبات» السوداء

وصورة لأب قوي البنية وشعر قصير وصور لضباط شباب بنفس الوجوه المتكررة، وهو الطراز الذي أطلقه هتلر على أوروبا شجاع، جسور، كفء، حتى اقترب الآن من نهايته في حقل إيطالي وقد أصيب بواسطة صبي مزارع إيطالي يحمل بندقية من نوع «استين» في ظهره، وهو يزحف مختبئاً، كما علمت فيما بعد . . .

نهاية الحرب لأسير بريطاني
معسكر الأسرى الثالث ـ د ـ بمدينة برلين

«14 ـ 29 أبريل/ الطير 1945 افرنجي»

*** نورمان نوريس**

اصطففنا لاستعراضنا، ولكن بسبب النشاط الجوي المكثف لم يصدر القائد الألماني أوامره حتى الساعات المبكرة من الصباح، وبينما تنفرج البوابات للمرة الأخيرة أمامنا كي نسير عبرها، كان عدد كبير من المواطنين المدنيين ـ غالبيتهم من النساء ـ يتوسلون إلينا كي نأخذهم معنا، وطوقت امرأة رقبة جورج هاملت بذراعيها وقبلته راجية السماح لها بالذهاب معه، وعلى أية حال لم ينفذ أي طلب من ذلك، ثم سرنا بعيداً عن الأكواخ والأسلاك الشائكة، وحتى حراس المعسكر الذين يمشون معنا كانوا سعداء بالتوجه نحو الغرب، ومع تقدم القوات الروسية واكتشافهم الأحوال السيئة التي يعاني منها مواطنوهم في ظل هذه القوات، تصبح الدهشة أقل، إذ يفضلون الوقوع بين أيدي الأمريكيين والبريطانيين.

وفي صباح يوم 16 من أبريل وصلنا بوتسدام، وقد تمت الإغارة الجوية عليها الليلة السابقة وكان الخراب يملأ أرجاءها، وعديد من الجنود الألمان يترنحون بلا أمل، ولكن بينما نمضي عبر هذا الخراب، كانت هناك قوات من الشرطة النازية تقيم المتاريس في محاولة يائسة لإيقاف التقدم الروسي، وترى الاضطراب والفزع سائداً بين السكان وأذاع حراسنا أقاويل بأن الروس قد يقتلوننا نحن مثل الألمان إذا ما وصلوا إلينا.

وبعد ذلك وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى «سينزكي» وكان هناك أمر مريب بشأن هذا المكان، إذ امتلأ بالقوات الألمانية بنسبة مرتفعة من الضباط بينهم، وبدا كما لو كان يستخدم مركزاً للقيادة وحتى حراسنا لم يكونوا سعداء بالبقاء هناك ولهذا مضينا في السير ثم استرحنا أسفل بعض الأشجار، وبعد ساعة من ذلك جاءت طائرة روسية لقصف القرية وبدون أي اعتراض انقضت للأمام وللخلف، كما لو كان طاقمها يمتّع نفسه، وكان حراسنا القليلون في حالة اضطراب مثلنا تماماً، إذ إلى أين نذهب بعد ذلك؟ حين صادفتنا ضربة حظ، بظهور أسير حرب فرنسي، وبعد محاولة صعبة للتفاهم بلغات مختلفة، فهمنا منها أننا لو تبعناه فسوف يأخذنا إلى مركز لممثل الصليب الأحمر.

وخلال مدة بسيطة من الزمن وصلنا إلى مقر ريفي رائع بعدد من الأكواخ المتناثرة، وبدا أنه مجتمع صغير يكفي نفسه بزراعة الأرض وكثير من منتجات الألبان، وكان المنزل نفسه فخماً تتدلى ثريات ضخمة من سقف الصالة الرئيسية وتزين حوائطه رؤوس حيوانات كثيرة، وعند الطابق العلوي مع نهاية السلالم تنتصب غوريلا محنطة ضخمة، وهنا كانت تعيش إحدى البارونات ومعها ابنتها وقد استقبلتنا ببرود، وفيما بعد، اكتشفنا أن زوج الابنة كان ضابطاً بقوات الشرطة النازية ويحارب على الجبهة الشرقية، وسمحت لنا البارونة باستخدام الجرن كي ننام فيه، لكنها أخبرت حراسنا بأننا نستطيع الحصول على بطاطس فقط للأكل. وكم تلمظنا ونحن نشاهد الدجاج الطليق والخنازير في حظائرها، وفوق ذلك كله، البقر الواقف جاهزاً للحلب في مرابعها النظيفة. والبارونة - في خيلائها حتى النهاية - لا بد أنها تعلم أن الأمر مسألة وقت فقط حين نستطيع الحصول على ما نريد بالفعل.

ارتدى ملاحظ المزرعة حذاءه ذا الرقبة الطويلة التقليدي، وحاول تنفيذ رغبات البارونة، ولكن مع اقتراب القصف الناري بتقدم القوات الروسية يوماً بعد يوم، لم يعد متأكداً من نفسه، وكان بين عمال المزرعة عدد من العمال البولنديين رجالاً ونساء واثنان من أسرى الحرب الروس، وبعد فترة اتصلنا بممثل الصليب

الأحمر وكان يستخدم المكان كمقر للإدارة وهو سويسري الجنسية، يبدو من النوع الغامض، فنظرنا إليه بريبة، ولمحنا فيه اهتماماً شديداً بالبارونة، وعلى كل فقد منحنا بعضاً من أغذية وسجائر الصليب الأحمر فأنقذت موقفنا، رغم أننا لاحظنا أن البارونة كانت تدخن كذلك بشراهة... وبعد يومين، نهضنا لنجد أن حراسنا الباقين قد غادرونا أثناء الليل عدا واحداً، كان عمره على الأقل ستين عاماً، وكان لا يعرف ما يجب أن يفعله، وفي النهاية طلب مشورتنا، ولأننا رأينا أنه سيستمر ولأنه لم يسبب لنا أية متاعب في الماضي، كانت النصيحة فوراً بلا حيوية: «تخلص من زيك العسكري واهرع إلى منزلك». واختفى عبر الحقول وهو يشكرنا بسخاء.

وأصبحنا الآن في موقف حرج إلى حد ما، كالساندوتش بين الألمان وبين القوات الروسية المتقدمة، ومع تقدم الضرب المدفعي بحثنا عن مكان أكثر أمناً، وباستكشاف المزرعة ومبانيها وجدنا معملاً لاستخلاص الكحول من البطاطا، وتحته توجد أقبية مبنية بإحكام من الطوب، فقررنا أن نجرب حظنا هناك. واكتشفنا أن اختيارنا كان حكيماً حين وجدنا في أحد الأركان مقاعد وأغطية للفراش كان ملاحظ المزرعة قد قام بنقلها هنا من أجل أسرته.

وبينما يقترب الروس أكثر، بدأت القذائف وطلقات المورتر تسقط في المزرعة وحولها... وتمركز ضاربو المدافع المضادة للمدرعات من الألمان لمقاومة الهجوم الروسي المدرع فأطلقوا نيراناً مروعة، وقال الروسيان الأسيران اللذان انضما إلينا الآن داخل الأقبية بأنهما قد يتصلان بالقوات المتقدمة الروسية عندما تصل، وكان وجودهما معنا مسألة صدفة حسنة حقيقية، وأصبح القصف المدفعي باختلاطه مع انفجارات قذائف المورتر، شديد التركيز.

وكان الروس يصبون حمماً نارياً فوق المنطقة، وأمكننا رؤية صفوف طويلة من القوات الألمانية وهي تجري عبر الحقول، وقد تغطت أزياءهم وأحذيتهم بالوحل أثناء محاولاتهم تجنب النيران المدمرة، وبعضهم جاء فاراً عبر المزرعة نفسها بنظرات فزعة تملأ عيونهم وهم يجاهدون من أجل الهرب حتى وسط بحر

من الطين والوحل، وقتل اثنان من أسرى الحرب البولنديين وهما يراقبان القتال من فناء المزرعة بانفجار قذيفة مورتر، وتمزقا بصورة غير مسبوقة، وفتاة بولندية أصيبت في قدمها وهي تجري عبر الفناء إصابة خطيرة، وحملناها إلى أسفل الأقبية حيث قام «كليف كيرك باتريك» بما أمكنه من معاونة.

وحاول اثنان من أسرى الحرب البريطانيين الانتقال لمكان أفضل للرؤية فأصيبا كذلك، واحد شوهت بشرة وجهه تماماً من انفجار لقذيفة مورتر، لكن المأساة الحقيقية - التي تهمنا كبريطانيين بقدر كبير - حدثت بعد ذلك بقليل.

فمع تقدم الدبابات الروسية فوق الأرض المجاورة للمزرعة، كان أحد المدافع الألمانية المضادة للدبابات ما زال يطلق نيرانه، لذا صب الروس الآن نيراناً مهلكة نحو طاقم هذا المدفع الباقي فأزالتهم من الوجود تماماً، ولسوء الحظ كان رقيب أول فصيلتنا قد احتمى بمنزل قريب من موقع ذلك المدفع ومعه أحد رجالنا، فاخترقت قذيفة دبابة ثقيلة حوائط المنزل محطمة رأسيهما معاً، وكانت مأساة حقيقية إذ بعد أربع سنوات من الأسر يقتلان قبل دقائق من الحرية.

وبدأت الأرض تهتز تحت ثقل تقدم المدرعات، وأخيراً في النهاية رأينا أول دبابة روسية تخطر وسط فناء المزرعة. فجرى الروسيان - أسيرا الحرب - عبر الفناء نحوها، يصيحان ويلوحان بأيديهما. ورأينا قائد الدبابة يظهر من برجها ويقفز نحو الأرض ويدخل معهما في نقاش، وبعد برهة قصيرة كنا جميعاً نتصافح ونتعانق، وحال وصول أطقم الدبابات الأخرى استقبلناهم بنفس الحرارة، وهكذا، بحلول يوم 29 من أبريل 1945 افرنجي أصبحنا أحراراً في النهاية. . .

ولكي يخفف الروس المقاومة الألمانية لمزيد من التقدم، استخدموا سلاحاً مميزاً هو قذائف «الكاتيوشا» أو ما أسموه «بجهاز ستالين» وهو صاروخ متحرك يطلق عدداً مذهلاً من الشظايا، وقد وضعوا صفوفاً طويلة منه عبر الحقول، واحداً بجوار الآخر، وبلمسة يد يصب ما يبدو أنه سيل منهمر من النيران نحو الألمان المنسحبين، وأثناء انسحابهم قمنا بلف جثتي رفيقينا في أكياس ودفناهما بقلوب حزينة وسط الحديقة الخاصة بالضيعة.

والآن طالما أن الروس قد سيطروا فالبارونة تتلقى الأوامر بدلاً من أن تصدرها، وخلال برهة قصيرة تم سلق الدجاج وذبح الخنازير ولأول مرة منذ أربعة أعوام، نحصل على لبن طازج بوفرة، وحاول ملاحظ المزرعة الاعتراض، لكنهم أمروه بالصمت، وقررت أنا «وجيم» تفتيش منزله، وهو كنازٍ متحمس، لا بد لديه أشياء فخمة يرى عرضها دون شك.

وبينما نحن ندور داخل غرفة نومه، سمعنا صوت خطوات ترتقي السلم، وعندما رآنا مضى بهدوء إلى الأدراج بطاولة ملابسه وصرخ فينا كي نخرج، فتجاهله «جيم» وذهب نحو طاولة الحائط فوجدناها مغلقة، وبعد جهد بذله في فتحها استدار نحو الألماني وسأله عن المفتاح، فبصق الألماني على «جيم»، وفي هذه اللحظة سمعنا وقع أقدام ثقيلة فوق درج السلم، وفتح الباب ببطء، وخطا إلى الحجرة جندي روسي طوله يصل لستة أقدام منتصباً بقبعته الفرو فبدا ضخماً. . وعلى وسطه يتمنطق بمسدسين كبيرين، وعندما رآنا ابتسم لنا، لكن الابتسامة تلاشت حين وقع بصره على الألماني.

كان يستطيع الحديث بقليل من الألمانية، وتدبرنا أمر الشرح له بأننا نريد فتح طاولة الحائط فسحب واحداً من مسدساته وصوبه إلى رأس الألماني، ولم أر في حياتي مفتاحاً يبرز ودرجاً يفتح بمثل السرعة التي تم بها ذلك الأمر، ووجدنا داخله خزيناً كبيراً من السجائر والسيجار وتبغ الغليون، لا بد على صاحبه أن يكون نازياً طيباً ويقدر كم هي نادرة تلك السلع في ألمانيا، وحين سمعت زوجته أصوات الحركة عندنا انضمت إلينا.

وبعد تفريغ كل مخزون التبغ، بدأنا في قسمته مع صديقنا المنقذ، ورفض في البداية قبول أي شيء قائلاً إننا وجدناه وبالتالي فهو يخصنا لكننا صممنا على ملء جيوبه بجزء من الغنيمة، وعلى سبيل المساهمة بدوره قال إنه إذا تسبب الألماني بأية مضايقات لنا فلسوف يأخذه إلى أسفل ويطلق عليه النار، وعندما سمع ذلك الحديث الألماني وزوجته انهارا من الخوف، لكنني و «جيم» رفضنا عرض صديقنا وهبطنا السلم معه حيث مضينا بعيداً بحثاً عن كنز آخر. . .

ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا الصرخة المدوية «حريق»! تتردد عالية. وبسرعة لا تصدق رأينا ألسنة اللهب تتسابق عبر ضيعة البارونة، وتساقطت النيران الجائعة فوق الأثاث الرقيق والآثار النفيسة والتهمت النيران المنزل بوحشية على الفور. . . وبينما ينهار السلم وقفت الغوريلا عند رأسه مثل الوحش الروماني عند مدينة «بومبي» ومالت ببطء للأمام ثم غاصت وسط الأتون برأسها أولاً إلى أسفل، كيف بدأت النيران؟ كان سؤالاً غامضاً. . وكان تخميناً هو أن البارونة قامت بتدمير الضيعة بدلاً من استيلاء الروس عليها، وخلال فترة بسيطة لم يتبق منها شيء، سوء الهيكل الفحمي لبناء كان ذات مرة عظيماً. . .

لينبرج « 20 أبريل/الطير 1945 افرنجي»

من ذكريات ضابط دبابة بريطاني

*** ديزموند فلور. . .**

كان أمامنا عشرة أيام من الراحة في مدينة قديمة ساحرة غير مدمرة، وهنا قمنا بتغيير جنازير الدبابات 10 ملم لآخر مرة، وكانت مدينة لينبرج واحدة من أهم مدن التمريض في ألمانيا، وكان أطباء «فيرماخت»[1] قد بقوا في حالة تأهب لمعاونة مرضاهم، ومن الغريب أن يتجول المرء حول هذه المدينة المحببة القديمة ويقابل عند ناصية كل شارع عدواً يكرهه غير مسلح ومشغول بمهمة إنسانية عالمية هي رعاية الجرحى والمرضى، وبدوا معها وُدَعاء تماماً، لكن الجانب المظلم من القمر كان قد توهج في رعبه الشيطاني قريباً جداً منا، وكان قائدنا الملازم أول «تايلور» في مدينة «بيلسن» يتسلم مسؤولية المعسكر من «كرامر» ومعه بطارية المدافع من فرقة «الهوسار أوكسفورد» للحراسة.

وفي لينبرج وعبر الشارع من أول مركزنا الذي كان عبارة عن صف من منازل

(1) Vermacht تعني بالألمانية جيش الدفاع وكانت قواته تختلف عن جنود الـ S.S أي قوات الشرطة النازية المسؤولة أصلاً عن معسكرات التعذيب والإبادة. «المترجم»

الطبقة المتوسطة المريحة والحديثة وحتى منتصف المدينة تقريباً، يوجد مستشفى صغير من الأكواخ الخشبية، ويرقد في هذه الأكواخ مجموعات من أجراء العمل الروس - رجالاً ونساءً - من شغيلة أحد المصانع هوجم منذ فترة ليست بعيدة بواسطة سلاح الجو الملكي، وبينما تتساقط القنابل غادر العديد من العمال آلاتهم وهربوا بحثاً عن ملجأ عبر منطقة فضاء تحيط بالمصنع، وهناك صاروا هدفاً سهلاً لقوات البوليس الألماني النازي، الذين أطلقوا عليهم النار بمتعة غريبة لا يستطيع تفسيرها سوى هيملر نفسه.

وأما هؤلاء الذين بقوا في المصنع فقد دفنوا - موتى أو أحياء - تحت الأنقاض، وحينما انتهى الهجوم جمعوا أولئك الجرحى الذين أمكن جمعهم دون صعوبات في هذه الأكواخ على بعد خمس وعشرين ياردة من البطارية 146 بمركز القيادة، الذي أُقيم في منزل كان صاحبه يتجول دائماً فيه ليرى إذا ما كنا خدشنا له طلاءه أم لا؟.

وكان أقرب مبنى لنا هو المشرحة، التي وضعوا فيها جثث الموتى الروس الذين ماتوا متأثرين بجراحهم، وكانت بعض الجثث العارية في أكوام على طاولات قد ظلت هناك لفترة طويلة، وفي الأكواخ جاء أحد الأطباء مرة، وكانت هناك ممرضة ألمانية واحدة، حتى لو تمنت أن تفعل فهي لا تستطيع أن تفعل إلا القليل، وكان الروس يرقدون بأعين ذابلة شديدي الضعف بلا حراك، في أسمال رمادية كانت ذات يوم ملابس الفراش، ليستحموا في عرقهم وفي صديد جراحهم المهملة، وأخذ رجالنا الطعام والسجائر والحلوى، ولمس الكثيرون معنى الاحتلال الألماني، وقد حضر خادمي العزيز «مولينز» - وهو من بيرمودا - عائداً متأثراً بأكثر مما تعبر عنه الكلمات إذا ذهب ليؤدي واجباته، وبعد زيارته العطوفة ظل يغمغم: «لقد قبّلوا يدي... لقد قبّلوا يدي...».

بيلسن

«24 أبريل/الطير 1945 افرنجي»

*** باتريك جوردون ووكر**

«لم يكن بمعسكر التجميع النازي في بيلسن - بالقرب من سيلي - غرفاً

للغاز، لكن ما يقارب 37,000 سجين ماتوا هناك من الجوع والمرض والعمل المجهد، وكان أول معسكر حرره الحلفاء يوم 15 من أبريل 1945 افرنجي وكان القائد جوزيف كرامر المعروف بقسوته قد شنق بواسطة البريطانيين يوم 17 نوفمبر 1945 افرنجي».

ذهبت إلى بيلسن، وكانت منطقة شاسعة محاطة بالأسلاك الشائكة وكان يقوم بحراسته جنود مجريون كانوا بالجيش الألماني، والآن يخدموننا دون أي تردد، وهم يوفرون لنا عدداً كبيراً من الرجال في الوقت المناسب وخارج المعسكر، الذي يقع وسط شجيرات وأشجار الصنوبر ونباتات أخرى، علقت عليه - حديثاً - وبدقة لافتات كبيرة مكتوب عليها بالأحمر: «خطر... التيفوس».

وقمنا بقيادة سياراتنا إلى داخل ما أصبح معسكراً ضخماً للتدريب، فيما يشبه معسكرات أبيردين[1] حيث وجدنا ضباط وجنود فرقة فرسان أوكسفورد الذين بدأوا يروون لنا قصصاً عن معسكرات التجميع، وهو يقع جنوب منطقة التدريب وخلف أسواره الشائكة الخاصة به، ولم يكن مسموحاً حتى لأفراد قوات الدفاع الألمانية بالاقتراب منه، إذ كانت حراسته تتم كلية بواسطة جنود الشرطة النازية رجالاً ونساءً، وهذا ما اكتشفته حول تسليم المعسكر الذي تم في الخامس عشر، وقد حصلت على هذه القصة من ديريك سينجتون وهو ضابط سياسي ومن ضباط وجنود فرقة فرسان أوكسفورد.

انتشر التيفوس في المعسكر، وتم ترتيب خطوات الهدنة حتى نتسلمه، واقترح الألمان في الأصل أن نمر متجنبين المعسكر، في الوقت الذي قد يموت فيه آلاف وآلاف من الناس أو يقتلون، فرفضنا هذه الشروط، وطلبنا انسحاب الألمان وتجريد جنود الشرطة النازيين من أسلحتهم، وكان بعض رجال هذه القوات قد تركوا تحت قيادة كرامر القائد الأعلى لقوات الصاعقة الألمانية الذي كان في معسكر أوشفتيز، وكان من الواضح أنهم سمعوا روايات خيالية حول

(1) Aberdeen. مدينة باسكوتلندا. «المترجم».

القوات وأن بإمكانهم الاستمرار في القيام بالحراسة وأننا سوف نتركهم أحراراً وما إلى ذلك. وكان أقصى ما لدينا حفنة من الجنود، فبقي رجال النازي هناك هذه الليلة، أول ليلة من ليالي الحرية، ومات مئات من الناس فرحاً...!!.

وفي اليوم التالي وصل بعض جنود الفرسان المتطوعين، وتجمع الناس حولهم يقبّلون أياديهم وأرجلهم، وتناثرت جثث ـ مات أصحابها ـ وعليها كل مظاهر التحلل وتكومت فوق بعضها في أكوام، وكانت هناك جثثاً أيضاً وسط مجموعات الناس، فالناس يتساقطون موتى في كل مكان، وأناس يمشون وهم هياكل عظمية فقط، وهناك امرأة حضرت لأحد الجنود ـ وكان يحرس مخزن الألبان المخصص لإطعام الأطفال ـ وتسوَّلت منه اللبن من أجل طفلها، فأخذ الجندي الطفل ووجد أنه مات منذ أيام وأسْوَدَّ وجهه وجف تماماً، واستمرت المرأة تستجدي اللبن، فقام الجندي بصب بعض القطرات فوق الشفاه الميتة، فبدأت المرأة تهلل من الفرحة، وحملت الطفل في انتصار، ثم تعثرت وسقطت بعد ياردات قليلة. وقد حصلت على هذه القصة وقصص أُخرى في تسجيلات بصوت الجنود الذين عايشوها.

وفي اليوم السادس عشر، تم القبض على كرامر ورجال الشرطة النازية، وأخذوه واحتفظوا به في الثلاجة مع بعض الأسماك العفنة من ضباط جيشه، وهو راحل للمؤخرة، أما الباقون ـ رجالاً ونساءً ـ فقد احتفظنا بهم تحت الحراسة لننقذهم من غضب النزلاء، وكان الرجال يخرجون للعمل وتحميل اللواري «الشاحنات» بالجثث، وتم إحصاء ما يقارب 35,000 جثة، أكثر عدداً من الأحياء الفعليين، الذين كان عددهم يصل لـ 30,000، وكان جنود الشرطة النازيون يُقتادون ويُدفع بهم للسير فوق الجثث المشحونة ليقوموا بتفريغها داخل المقابر الجماعية المفتوحة التي أقاموها من قبل، وكانوا قد أرهقوا بشدة لدرجة أنهم سقطوا أعياءً بين الجثث، وكانت جماعات ثائرة تتجمع حولهم، ولذا وجب إبقاؤهم تحت الحراسة المشددة، وانتحر اثنان منهم داخل الزنزانة، وقفز اثنان آخران من الشاحنة وهربا وضاعا وسط الزحام، لكنهما ماتا بالرصاص، فالأول

قفز وسط حوض إسمنتي للماء وأطلقوا عليه وابلاً من الرصاص، والآخر سقط برصاصة في بطنه.

أما نساء الشرطة النازية، فقد خصصن للطهي وحمل الأشياء الثقيلة وحاولت إحداهن الانتحار، وقال النزلاء عنها إنها كانت أشد قسوة ووحشية من الرجال، وكن جميعهن صغيرات السن في العشرينيات من عمرهن، كما حاولت إحداهن الاختباء متنكرة في زي سجين وتم اكتشافها والقبض عليها.

وكان المعسكر ممتلئاً، لأن الناس يُجلبون هنا من الشرق والغرب، فبعض الناس كانوا يجلبون من «نورد هاوزن» على مسيرة خمسة أيام بدون طعام، والعديد منهم كانوا يسيرون لمدة يوم أو يومين، ولم يكن هناك طعام في المعسكر سوى بعض أكوام الجذور فقط ووسط أكداس الموتى، وبعض هذه الجثث كانت لأناس تملكهم الجوع لدرجة أنهم حاولوا سرقة هذه الجذور رغم حراسة النازيين لها، فأُصيبوا بطلقاتهم هنا وهناك، ولم يكن هناك ماء ولا شيء سوى هذه الجذور، وبعض الجزر المسلوق العفن الذي يكفي لمئات قلائل من البشر.

وقد تصارع الرجال والنساء من أجل هذه الدرنات الفجة غير المطبوخة، كما كانت هناك جثث ميتة سوداء وزرقاء ومتورمة، وهياكل عظمية استخدمت كوسائد للمرضى، وفي اليوم التالي الذي تسلمنا فيه، قام النزلاء باغتيال سبعة من قادة العنابر - أغلبهم من البولنديين - وكان البعض منهم لا يزال يضرب الناس، وقد ألقينا القبض على امرأة ضربت زميلتها بلوح من الخشب، واعترفت بهدوء وصراحة بالتهمة وكنا نعتقل أولئك وأمثالهم.

وكانت هناك دفينة مخبأة من الجواهر الشخصية والممتلكات قد تم اكتشافها في عدة حقائب، وعندما ذهبنا إلى المعسكر بعد خمسة أيام من تحريره، كانت الجثث لا تزال تملأ المكان ورأيت منها حوالى ألف، ففي أحد الأماكن جرفوا مئات الجثث إلى المقبرة الجماعية بواسطة البلدوزرات، وفي مكان آخر كان الجنود المجريون يضعون الجثث في مقبرة أبعادها 60×60 قدماً وعمقها 30 قدماً، وكانت تمتلئ لنصفها تقريباً.

كانت أعمال حفر خنادق شبيهة أخرى ما زالت مستمرة، وقد مات حوالى خمسة آلاف شخص مذ دخلنا المعسكر، كانوا يموتون أمام عيني هياكل متأوهة تقترب من الآدمية، جُن أغلبهم والأجساد تتكوم فقط، يحمل العديد منهم جروحاً غائرة وآثار طلقات نارية وندوب مرعبة.

والتقط البعض رجلاً إنجليزياً ـ كان يعيش في أوشتند ـ وهو شبه ميت، وكان بظهره جرح ناري كبير ويتكلم بصعوبة، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن زمن إصابته، ولا بد أنه كان ملقى فاقداً نصف وعيه حين أطلق عليه رجل البوليس الحربي النازي الرصاص وهو يتجول هنا وهناك، إذ كان ذلك شيئاً عادياً تماماً، ومشيت حول المعسكر لأجد رائحة الموت في كل مكان، وبعد ساعات قليلة تعتاد عليها ولا تلفت نظرك بعد ذلك، فكل الناس أصيبوا بالتيفوس والدوسنتاريا.

وذهبت مع إحدى المجموعات، ورأيت نسوة يقفن عاريات تماماً، يستحممن فيما بينهن وعلى مسافة قريبة منهن أكوام من الجثث، بينما ترى النسوة اللائي يعانين من الدوسنتاريا يتبرزن في الخلاء، ثم يعدن مترنحات أشباه موتى إلى عنابرهن، في حين يرقد البعض وسط الأنين فوق الأرض ويشعر المرء بأنه ارتد للبدائية الأولى.

وباستجلاب المياه إلى المعسكر، عد ذلك عملاً عظيماً، إذ تم ضخه من خارج المعسكر، ثم نُقل بواسطة خراطيم إلى جميع أرجائه من منافذ متعددة، وكان هناك صنابير للمياه العذبة النظيفة في كل مكان وعربات المياه تتحرك أيضاً من مكان لآخر، كما قام قسم الخدمات بالجيش الملكي بمجهود طيب في جلب الطعام للمعسكر.

وذهبت إلى جناح المصابين بالتيفوس، وكان يمتلأ بكثافة من الناس الراقدين في أسمال قذرة من الملاءات فوق الأرضية يأنون ويتأوهون، وجلس بجوار الباب جندي بريطاني يتحدث مع الناس ويشجعهم، ولكنهم لم يفهموا ما كان يقوله بينما يصب لهم اللبن من وعاء كبير، فقمت بجمع عدة نساء ممن يتحدثن

الإنجليزية والألمانية وبدأت في عمل تسجيلات صوتية، وكان المثير للدهشة هو عدد اللائي تدبرن أمر الحفاظ على أنفسهن نظيفات وصحيحات، وأجمعن كلهن أنه بين يوم ويومين كن يعانين من الجوع والضعف.

كانت هناك ثلاث طبقات رئيسية في المعسكر، الأصحاء الذين تدبروا أمر الحفاظ على أنفسهم بلطف، لكن جميع هؤلاء تقريباً أصيبوا بالتيفوس، ثم المرضى الذين كانوا في عناية أصدقائهم قلّوا أو كثروا، ثم فئة العالم السفلي المتسعة ممن فقدوا كل مظاهر احترامهم لأنفسهم، وهم يهيمون في المعسكر بثياب بالية يحيون وسط قذارة كريهة، وهم يقضون حاجاتهم وسط الناس، وغالباً ما يكونون مجانين أو أشباه ذلك، ويطلق عليهم المساجين الآخرون لقب «الموسولمين»[1] وهؤلاء هم الذين ما زالوا يموتون مثل الذباب ولا يقوون على المشي إلا بصعوبة، وحتى الآن لا يمكن إنقاذ الآلاف منهم، ولو أمكن ذلك فسيكونون بقية حياتهم اليائسة وسط مصح نفسي.

وكان هناك عدد كبير من الفتيات بالمعسكر أغلبهن يهوديات من أوشفيتز، وكان يجب أن يحافظن على صحتهن ليبقين على قيد الحياة. وأخبرني البعض بنفس القصص مرات ومرات، عن الحملات التي التقطوا فيها الناس بلا تمييز وقادوهم إلى غرف الغاز، وإلى المحرقة حيث مات الكثيرون حرقاً وهم أحياء، فقط الإنسان ذو الصحة الجيدة هو الذي كان له أن يحيا، والحياة والموت كانت مسألة صدفة محضة.

ووصل الأثرياء اليهود مع ممتلكاتهم، وكانوا قادرين على الاحتفاظ ببعض منها، كان هناك الصابون والعطور وأقلام الحبر والساعات، كل ذلك وسط احتمال حدوث موت مفاجيء حاسم، ووسط عمل فدائي يعود منه الناس لهذه المقبرة مضروبين حتى الموت لدرجة أنهم كانوا متأكدين أن الحملة القادمة

(1) Mussulmen هذا المصطلح يطلق على المسلمين، ويبدو أن هناك خلط متعمد للإساءة للإسلام هنا بالربط غير المباشر بين المذكورين في النص وبين حقيقة اللفظ. «المترجم».

ستلتقطهم من أجل غرف الغاز ووسط الموت الفظيع والمفجع وأقصى قذارة يمكن تخيلها.

وكان الناس في معسكر أوشفيتز قد أنقذوا بانتقالهم بعيداً للعمل في مدن مثل «هامبورج»، ثم ينقلون عائدين إلى «بيلسن» كما سبق أن ذكرنا وفي أوشفيتز حلقوا لكل امرأة شعرها حتى تصبح صلعاء تماماً.

وقابلت فتيات صغيرات رائعات كان شعرهن بطول بوصة واحدة، وما زالت أرقامهن موسومة على أذرعتهن اليسرى، علامة شرف سيحملنها طوال حياتهن.

وكان من الأشياء غير العادية، أولئك الرجال والنساء ـ كانوا قلة فقط ـ الذين حافظوا على أنفسهم في نظافة ورقة كاملتين. ففي اليوم الأول وضعت الكثيرات مساحيق التجميل وأحمر الشفاه، وبدا أن مخازن النازي قد اقتحمت ونهبت وأخرجوا منها الملابس، وجاءني مئات من الناس بخطاباتهم فأخذتها وأرسلتها للندن كي ترسل بالبريد لكل أنحاء العالم، لكن الكثيرين فقدوا أقاربهم، إذ كان المرء كثيراً ما يسمع العبارات: «إن أمي وأبي قد احترقا». «لقد ماتت أختي حرقاً».. وهكذا... وكان الجيش البريطاني يؤدي ما يستطيعه، فالكثير من الوحدات كانت تتنازل ـ اختياراً ـ عن بطاطينها، وحين كنت هناك وصل خمسون ألف منها وتم غسلها، وكذلك الحلوى والشوكولاتة وعيينات الطعام وزعت عن طيب خاطر.

عند ذلك ذهبنا إلى كوخ الأطفال، وكانت الأرضيات ممتلئة بالجثث ولم يكن هناك وقت لتحريكها، فجمعنا بعضاً من الفتيات الروسيات من عمر 12 إلى 14 سنة، والأولاد والفتيات الهولنديين من 9 سنوات إلى 15 سنة، وأنشدوا بعضاً من الأغاني، وكان الأطفال الروس شديدي التأثر ممتلئي الأجسام باديي النظافة، إذ كانوا يرعونهم بشدة وسط المجاعة، وقد أنشدوا بعضاً مما تذكروه قبل الأسر، وهم يبدون سعداء الآن.

أما الأطفال الهولنديون فقد كانوا في المعسكر لفترةٍ أطول، وكانوا شديدي الهزال والشحوب، ووقفنا وظهورنا للجثث في الخارج، في الهواء الطلق ووسط

أشجار الصنوبر وأشجار السور بالقرب من السرو الشائك الذي يحيط بالمعسكر، كان الرجال يشنقون لساعات طويلة كل وقت، معلقين من أذرعهم وأياديهم مربوطة خلف ظهورهم، في «بيلسين» كانت الضربات في الورش مستمرة والوفيات منتشرة هناك، وقبل أن أغادر المعسكر مباشرة اكتشفوا هناك محرقة، وكانت قصة أوشفيتز قد روتها لي «هيلين» - ولم تذكر باقي اسمها - وهي تشيكوسلوفاكية الجنسية.

وعندما كانت النساء يُعطين فرصة الخروج للعمل في مكان ما في مناطق العمل مثل هامبورج، كانت الأمهات بأطفالهن يمنحن - حقيقة - الفرصة بين حياتهن أو حياة أطفالهن فالأطفال لا يمكن أخذهم هناك، وكانت الكثيرات يفضلن البقاء مع أطفالهن ومواجهة موت مؤكد، والبعض اخترن ترك أطفالهن، لكن انتشر بين أطفال السادسة من العمر أنهم إذا ما تركوا فإنهم يوجهون في الحال لغرفة الغاز، وكانت هناك مشاهد مخيفة بين الأطفال وأماتهم، حتى إن أحد الأطفال كان غاضباً لدرجة أن أمه رغم أنها غيرت رأيها وبقيت معه إلا أنه لم يحادثها حتى ماتت. . . وفي تلك الليلة عندما عدت حوالى الساعة الحادية عشرة شديد الإرهاق رأيت حاخام اليهود مرة أخرى، وتحدثت معه وهو في طريقه للفراش، وانهار فجأة وهو يبكي.

وفي الصباح التالي، غادرت هذا المعسكر الأشبه بالجحيم، وأثناء مغادرته مررت بالتعفير المضاد للقمل حتى أتخلص منه، وحملت تسجيلاتي كذلك، ودعني أقل لك يا من بالمنزل: إن هذا معسكر واحد فقط وهناك الكثير مثله، وهذا هو ما تحارب من أجله، وليست هناك دعاية في أي مما سبق، فهي الحقيقة البسيطة والواضحة.

سقوط برلين

«1 مايو/الماء 1945 افرنجي»

تقرير لمواطن ألماني

*** كلاوس فورمان**

«. . . ومع يوم 25 أبريل طوَّق الروس برلين، واتصلت قواتهم بالقوات

الأمريكية عند الألب، وبعد الأمر الصادر للجيش الثاني عشر الألماني بإخلاء برلين، انتحر «هتلر» يوم 30 أبريل 1945 افرنجي».

وصل الاضطراب قمته داخل المدينة، وهجرت أفواج من الجنود مواقعها في برلين، وبعضهم كان يطلق عليه الرصاص في مكانه أو يشنق فوق أقرب شجرة، بعض قليل منهم كان يتأرجح فوق شجرة قريبة من منزلنا جداً بملابسهم الداخلية فقط وعلى صدورهم لافتات معلقة تقرأ: «لقد خان الفوهرر»[1]، وألصق المتوحشون مذكرات صغيرة فوق المنازل تقول: «أيها الجبناء الأقذار الغزاة» و«لقد سجلناهم جميعاً في قوائمنا». كما ذهب رجال الشرطة النازية إلى محطة القطار الأرضي، وانتقوا قليلاً من الرجال من بين الملتجئين للمحطة - وممن لم تعجبهم وجوههم وأطلقوا عليهم الرصاص هنا وهناك.

وكان نقمة الحي الذي نسكنه واحداً من رجال الشرطة النازيين ذو ساق واحدة من رجال الفوهرر، يسير على عكازين متصلباً وسلاح آلي جاهز معه متبوعاً برجاله، وكل من لا يعجبه شكلاً يرديه قتيلاً في الحال، وقامت عصابته بالنزول إلى الأقبية دون تحديد، وسحبوا كل الرجال إلى خارجها وسلموهم بنادق وأمروهم بالتوجه إلى جبهة القتال وكل من تردد قتلوه فوراً... وكانت الجبهة على بعد شوارع قليلة من المكان، وعند ناصية الشارع في مقابل منزلنا اتخذت فرقة من قوات البوليس النازي - من أصل بلجيكي - مواقعها، رجال متوحشون مقدامون ليس لديهم ما يخشون فقده ويقاتلون لآخر طلقة معهم، ورقد شباب هتلر المسلحون في صفوف تالية للجيش الروسي الأبيض القلاسوفي.

وقد انخفضت معنوياتنا بسبب القصف الجوي المتكرر في الشهور الأخيرة، ولكن الآن، مع صفير أول قذيفة فوق رؤوسنا، بدأ الضغط النفسي الرهيب ينزاح عنا، ولم يعد الأمر يكلفنا كثيراً بعد ذلك، فمهما يكن باستطاعة النازيين من الفرنسيين أو البلجيكيين - ذوي الأصل الوالوني - أو حتى الشباب الهتلري

(1) Fuher بالألمانية وتعنى القائد وكانت تطلق على هتلر. «المترجم».

المتعصب بمدافعهم الـ 2 سم المضادة للطائرات أن يفعلوه، فالنهاية آتية وكل ما وجب علينا فعله هو أن نحاول البقاء على قيد الحياة خلال هذه المرحلة الأخيرة.

لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين فكل شيء نفد، والماء فقط كان موجوداً في قبو أحد المنازل على بعد عدة شوارع، ولكي يحصل المرء على الخبز يجب أن يقف بطابور ممتلىء بمئات البشر يرتدون خوذات كثيفة من الصلب، أمام المخبز الساعة 3 صباحاً، وعند الساعة الخامسة صباحاً يبدأ الطابور الروسي ويستمر بلا انقطاع حتى التاسعة أو العاشرة.

وتتضاغط الطوابير المتزاحمة أمام المخبز باتجاه الحوائط، ولكن لا أحد يترك مكانه، وغالباً ما تنقضي ساعات التزاحم بلا طائل، ويباع الخبز كله قبل وصول المرء عند البائع، ويمكن له أن يبتاع الخبز بعد ذلك إذا ما استطاع إحضار نصف دلو من الماء.

كانت الطائرات الروسية منخفضة الطيران ذات المدافع الآلية تحصد الناس وهم يقفون دون تمييز في طوابيرهم، وتودي بحياة عدد كبير من الجماهير المنتظرة وترى الجثث الميتة في كل الشوارع ملقاة حيث سقطت. . .

وفي اللحظة الأخيرة، قام أصحاب المحلات الذين كانوا يكومون بضائعهم بحمية شديدة وهم لا يعلمون إلى متى سوف يستمر السماح لهم بذلك ببيعها الآن، . . . وكان الأمر متأخراً جداً، إذ من أجل عبوة صغيرة من القهوة ونصف رطل من السجق «اللحم المحفوظ» قدم آلاف من الناس أرواحهم، ومزق السيل المنهمر من القذائف ثقيلة العيار أجساد النسوة بالمئات وهن ينتظرن وسط صالة السوق، وحملوا الموتى والجرحى معاً فوق عربات الأيدي ونقلوا بعيداً، في حين بقيت النسوة الأخريات اللواتي كُتِبَ لهن البقاء بالانتظار صابرات مستسلمات متجهمات، حتى أنهين مشترواتهن البائسة.

وبدأ الحصار يضيق حول العاصمة وتوقفت الغارات الجوية، وأصبح خط الجبهة شديد الاختلاط، فلا يمكن للطائرات أن تميز فيه العدو من الصديق، وتقدمت ببطء وبثقة دبابات الـ 52 ـ T للأمام عبر شوارع «برينزلاور»

و«شونهاوزر» و«كايسر ستراس»، وانهالت قذائف المدفعية من ثلاث اتجاهات في كثافة متواصلة، وفوق ذلك يستطيع المرء سماع أزيز المدافع الآلية وصفير الطلقات. وأصبح من المتعذر الآن مغادرة القبو، وتوقف الجدال والعراك فيما بيننا وأضحينا يداً واحدة فجأة، وكان مع كل الرجال تقريباً مسدسات، فجلسنا في أقصى ركن من القبو كي لا ترانا دوريات الشرطة النازية، وكنا قد صممنا على إنهاء حياة أي رجل من قوات النازي ممن قد يحاولون اقتحام مكاننا.

وبتوجيهات من «أسطى بناء» كان مجنداً في روسيا لمدة عامين، قمنا بترتيب موارد تموييننا، فخصصنا قوائم للمهام من ثلاثة أو اثنين للخروج وجلب الماء والخبز ووفرنا لأنفسنا خوذات من الصلب ثم قمنا بجمع وتكديس جبال من الحطام أمام حوائط القبو حتى تحمينا من قذائف الدبابات...

وهدأت قوات النازي تماماً، ولم يأخذ أحد نداءات قوات الدفاع بجدية الآن رغم أن إذاعة «برلين» واصلت بث نداءاتها حتى 24 من إبريل، وأعلنت نشرة رقيقة وهي آخر مجلة من إعلام جوبلز المسماة «الدبابة الدب» عند تنحي جورينج وسقوط مقعد الحكومة عن فلينزبرج.

وغادرنا القبو على مراحل طويلة، وغالباً ما كنا لا نستطيع تحديد النهار من الليل، واقترب الروس أكثر وتقدموا عبر أنفاق القطارات تحت الأرضية مسلحين بقاذفات اللهب، وكانت طلائعهم المتقدمة قد اتخذت مواقعها بالقرب منا، وترتع طلقاتهم فوق المنازل المواجهة، ويتعثر بعض الألمان المرهقين ويدخلون ليتسولوا بعضاً من الماء كانوا في الواقع مجرد أطفال، وأذكر واحداً بوجه شاحب مرتعش قال: «سوف نتم ما نفعله جيداً، ونشق طريقنا للشمال الغربي» لكن عينيه أنكرتا معنى كلماته ونظر نحوي في يأس، وكان ما أراد قوله هو: «أخفني، امنحني ملجأ، لقد نالني ما فيه الكفاية» وكنت أتمنى لو ساعدته، لكن أحداً منا لم يجرؤ على الكلام، فكل منا قد يقتل الآخر على أنه غريمه...

وكان أحد الرجال العجائز ممن سكنوا معنا قد أصابته شظية قذيفة منذ عدة أيام ونزف حتى الموت، ورقدت جثته بجوار المدخل وبدأت تفرز رائحتها

الكريهة بالفعل، فرفعناه فوق عربة واقتدناه نحو مبنى محترق لأحدى المدارس حيث علقت لافتة تقول: «مركز تجميع جثث، ڤيين ميستر ستراس» فتركناه هناك، وانتهز واحد منا الفرصة ليرتدي حذاء كان لأحد رجال الشرطة الموتى، وكانت أول مجموعات النسوة الهاربات قادمات من المناطق الشمالية للمدينة، وبحث بعضهن عن ملجأ في قبونا، ويخبرننا وهن يبكين أن الروس ينهبون كل المنازل، ويمزقون الرجال ويغتصبون النساء والفتيات، فغضبت صائحاً أن كفانا ما سمعناه من دعاية جوبلز السخيفة وأن وقتها قد مضى فلو كان هذا كل ما يملكون عمله فليذهبوا إلى مكان آخر.

وبينما تقبع المدينة تحت وحشية نيران المدفعية والسلاح بدأ المواطنون ينهبون المحلات، وانسحب آخر الجنود بعيداً جداً، وفي مكان ما من المدينة المحترقة كان شباب هتلر ورجال النازي يتجمعون في حمية مجنونة، واندفعت الجماهير تخترق الأقبية والمخازن، وبينما تصفر الطلقات عبر الهواء تدافعوا من أجل علبة سمك محفوظ أو كيس تبغ. وفي صباح الأول من مايو أصيبت شقتنا بقذيفة من عيار 21 سم ودمرت تقريباً، وفي نفس اليوم أفادنا ناقلو المياه بأنهم رأوا جنوداً من الروس ولم يستطيعوا تحديد مكانهم بدقة، وكانوا مشغولين بالقتال من شارع إلى شارع «قتال المدن» الذي كان يتقدم ببطء، وتوقفت المدفعية لبعض الوقت في حين توقف إطلاق البنادق كذلك يوم 2 مايو عند الظهر في منطقتنا، فخرجنا من القبو.

ومن ركن الشارع، كان المشاة الروس يتقدمون ببطء يرتدون خوذات من الصلب وقنابل يدوية معلقة في أحزمتهم وأحذيتهم، واختفى جنود الشرطة النازيون واستسلمت شبيبة هتلر واندفعت بوني[1] ولفت ذراعيها حول جندي سيبيري ذي عينين مسحوبتين فبدت عليه الدهشة، فذهبت في الحال ومعي دلوين لأبحث عن الماء، لكني لم أكد أصل لناصية أول شارع حتى وجدت كل الرجال موقوفين هناك، مشكلين في طابور ثم انطلقوا نحو الشرق.

---

(1) Bunny اسم زوجة كاتب التقرير. «المترجم».

وعلى مسافة قصيرة خلف قصر أليكساندر كانت الأمور تجري في فوضى واضطراب كبيرين، كانت الممرضات الروسيات المسلحات ببنادق آلية توزعن أرغفة الخبز على الجموع الألمانية، وانتهزت انتشار الفوضى لأختفي وأعود لمكاني آمناً، ويعلم الله إلى أين ذهب الباقون!.

وبعد الموجة الأولى من المقاتلين، تبعها جنود الاحتياط والإمداد الذين قاموا بتحريرنا بأسلوب روسي حقيقي، فعند ناصية شارعنا رأيت جنديين روسيين يهاجمان امرأة كبيرة نوعاً وهي تصرخ ويغتصبانها أمام مرأى الجماهير المصدومة بالمشهد، فجريت نحو المنزل بأقصى ما أستطيع ووجدت «بوني» بخير حتى هذه اللحظة، ثم قمنا بتتريس الغرفة المتبقية من شقتنا بالحطام والكمرات المهترئة بطريقة لا يشك معها أحد من الخارج أن هناك من يحيا بداخلها.

أما الأقبية التي كانت مظلمة تماماً فقد أضحت الآن مسرحاً لمشهد لا يمكن تصديقه، إذ ألقى المتضورون جوعاً بأنفسهم الواحد نحو الآخر وهم يتصايحون كالحيوانات ويتدافعون ويتقاتلون للوصول لما يمكن الوصول إليه، واستطعت أنا إمساك عبوتين من السكر، وقليل من علب المؤونة وستين عبوة من التبغ وكيساً صغيراً من القهوة أخذتها بسرعة عائداً للمنزل قبل العودة للمزيد.

وكانت الغارة الثانية ناجحة أيضاً، فقد وجدت فطائر وعلباً من الزبدة وعلبة ضخمة من الساردين[1] لكن الأمور بدأت تفلت الآن، لأن الجنود الروس أطلقوا النيران بشكل عشوائي وسط الجمهور - حتى لا يسقطوا تحت أقدام تزاحمهم - ببنادقهم الآلية فسقط العديد منهم قتلى. ولا أذكر كيف استخلصت نفسي من هذا الخليط الصارخ الباكي، فكل ما أذكره هو أنه حتى وسط هذه الفوضى المطلقة، كان الجنود الروس يغتصبون النسوة في أحد الأركان.

وجعلتني بوني أعدها في نفس الوقت بألا أحاول التدخل لو حدث لها أي شيء، وكانت هناك قصص في منطقتنا حول رجال قتلوا وهم يحاولون حماية

(1) Sardin نوع من الأسماك الفضية المنتشرة في البحر المتوسط والصالحة للحفظ. «المترجم».

زوجاتهم، وفي المساء دخل روسيان شقتنا أثنا جلوس بوني على السرير ومعها طفلنا، فتطلعا نحوها لبعض «الوقت» ووضح أنهما لم يتأثرا بها، ولم نكن قد استحممنا طوال أسبوعين، وكنت قد حذرت بوني ألا تهندم نفسها لأنني اعتقدت أنها كلما كانت أكثر قذارة وإهمالاً كلما كانت أكثر أمناً، لكن السيدين لم يبد عليهما الاكتراث لا بالمستوى ولا بالنظافة كذلك، فذهب أحدهما نحو بوني قائلاً في صوت متوعد: «أيتها السيدة - تعالي» وكنت على وشك التدخل لكن الجندي الآخر صاح: قف، وغرس بندقيته الآلية في صدري ووسط يأس صحت «أهربي بسرعة» لكن ذلك كان بالطبع مستحيلاً ورأيتها تضع الطفل بهدوء جانباً وقالت لي: «لو سمحت يا حبيبي أرجوك ألا تنظر»، فتحولت نحو الحائط.

وعندما نال الروسي الأول كفايته تبادلا المواقع، وكان الثاني يثرثر بالروسية طوال الوقت، وانتهى كل شيء أخيراً، فربت الرجل فوق كتفي وهو يقول: «لا تغضب فالجندي الروسي طيب».

«هجوم الكاميكاز

9 مايو/ الماء 1945 افرنجي»

*** ميشيل موينهيان**

«أغرق هجوم الكاميكاز «وتعني الريح المقدسة» 34 سفينة بين أكتوبر 1944 افرنجي وبين نهاية الحرب، وفي أوكيناوا وقعت أسوأ خسارة أصابت الأسطول الأمريكي في معركة واحدة، وكانت الطائرات المستخدمة من طائرات الخدمة العادية محملة بالقنابل وخزانات الوقود الإضافية عادة التي قد تنفجر عند الالتحام، كما أنزلوا صاروخاً له قائد، ولم يكن أمام هذا القائد أي وسيلة للهرب».

وبرزت في السماء الصافية للمساء طائرات الكاميكاز اليابانية منقضّة للمرة الثانية خلال خمسة أيام - على وحدات الأسطول البريطاني الكثيفة بالمحيط الهادىء. كانت الطائرتان الأوليان تخترقان ستارة النار المضادة للطائرات،

وتتوجهان نحو حاملة الطائرات التي تنطلق منها هذه النيران، وضربت الاثنتان سطح الطيران على الحاملة، وكلتاهما قفزتا بضربة حظ من هناك إلى البحر حطاماً ملتهباً، وهجوم الكاميكاز ليس كأي شيء يعرفه المرء في حروب الغرب، ففي خلفية ذهن أي إنسان توجد باستمرار فكرته عن طيار مندفع بارد الدم، آخر طموحاته أن الموت يمكن أن يكون مجداً، وأخبرونا أنهم يرتدون نوعاً من الزي الاحتفالي والطقسي.

وقد حظيت برؤية مشهد مذهل لانقضاضة موت لطيار كاميكازي ثالث من مكاني ببرج سفينة القيادة، فقد تميز اقترابه كالعادة بالتماعات مدافع الطراد والمدمرة والحاملة وسفن القتال وحلقات الدخان المتصاعدة المتكاثرة وسط السماء الصافية.

كان الطيار قادماً على مستوى منخفض، وكنا نراه وهو يطير على مستوى ثابت عبر الأسطول الآن، ثم يدور في حلقة متبوعاً بالقذائف المتفجرة، وبدا أنه يحيا فترة ساحرة وهو يشق ـ دون أن يصاب ـ سيل الدفاع الجوي القاتل، ثم رأيناه على بعد أقل من ميل يدور لمواجهة حاملة طائرات أخرى، وكان يقترب من مقتله فالسماء حوله ملطخة وصاخبة من القذائف المتفجرة، وانضمت إليها الآن نيران مدفعية سطح السفينة المقصودة، وصعد الياباني فجأة ثم انقضّ وكان الأمر مسألة ثوان معدودة فقط، ليصل فوق وسط سطح الطيران على الحاملة بدقة كما لو كان من طيارينا أنفسهم.

وضاع كل شيء في الحال وسط فوضى من الدخان واللهب، واختفى جسم السفينة كله خلف موجات من الدخان الأسود وانطلقت من ألسنة اللهب المتصاعدة من انفجار خزانات وقود الطائرة. وبدا حينئذ أن السفينة قد صمت بحارتها، لأن لا أحد يستطيع الحياة وسط هذا الأتون المشتعل، ولكن في خلال نصف الساعة تم إخماد النيران وإزاحة الدخان وتلاشيه في ضوء الشمس، ومن النظارات المكبرة استطعنا رؤية سطح الحاملة المدرع يعج بالنشاط، وكانت مساحة سطح الإقلاع قد تفحمت وحدثت ثغرة وسطها، لكن التلف كان تافهاً أمام

كل ذلك الخضم من اللهب والدخان، فمنذ أسابيع قليلة مضت ضربت تلك الحاملة بواسطة أحد طياري الكاميكاز إلا أن الطائرات أقلعت من سطحها خلال سبع دقائق.

نجازاكي

«9 أغسطس/ هانيبال 1945 افرنجي»

*** ويليام ـ ت ـ لورنس**

«القنبلة الذرية التي أسقطت فوق نجازاكي ـ بعد ثلاثة أيام من إسقاط مثيلتها على هيروشيما ـ قتلت حوالى 35,000 شخص ودمرت 1,8 ميل مربع من الأرض».

كنا في طريقنا لقصف الأرض الرئيسية لليابان وكان سربنا يتكون من ثلاث طائرات ذات تصميم خاص من نوع «بـ 29 سوبر فورت» وكانت اثنتان منها لا تحملان أية قنابل، لكن طائرة القيادة كانت في طريقها حاملة قنبلة ذرية أخرى وهي الثانية خلال ثلاثة أيام، تجمع في مادتها النشطة طاقة تفجيرية تعادل 20,000 طن من مادة الـ ت ـ ن ـ ت المتفجرة وفي حالات مثلى تصل إلى 40,000 طن.

وكانت أمامنا أهداف مختارة متعددة، واحد منها المركز الصناعي والبحري الضخم في نجازاكي على الشاطىء الغربي لجزيرة كيوشو، وهي واحدة من جزر الوطن الياباني الرئيسية.

وقد راقبت تجميع هذه «الظاهرة» ـ نتاج الفكر البشري ـ خلال اليومين الماضيين، وكنت ضمن المجموعة الضئيلة من العلماء وممثلي الجيش والأسطول الذين حق لهم حضور طقوس شحنها في الطائرة «السوبر فورت» الليلة الماضية، ومع خلفية شكلتها سماء متوعدة مظلمة تسفر على مرات متباعدة عن أضواء بارقة.

وإنه لشيء رائع أن تشاهد هذه «الآلة» التي يكمن في تصميمها قضاء ملايين الساعات البشرية من المجهود العقلي المركز في التاريخ دون شكل، إذ لم تتركز قوى العقل البشري بمثل ذلك على مشكلة واحدة من قبل، وهذه القنبلة الذرية

تختلف عن سابقتها التي ألقيت منذ ثلاثة أيام بنتائج أكثر بشاعة على هيروشيما.

وكنت قد رأيت المادة الذرية قبل وضعها داخل القنبلة، وهي ليست خطيرة التداول بحد ذاتها، وإنما فقط في ظل ظروف محددة تنتج داخل مجمع القنبلة، مما يدفعها لإطلاق طاقتها، وحتى عندئذ، فهي تحدث انقساماً ضئيلاً من مجمل محتوياتها فقط وهو انقسام من الكبر بحيث يؤدي - على أية حال - إلى أضخم انفجار على وجه الأرض.

وباختصار، عند منتصف الليل ساد حذر مطلق، وتمت استعدادات هائلة للعناية بكل تفاصيل المهمة، وللتأكد من أن القنبلة الذرية تخدم الغرض الذي وُجهت لأجله تماماً، وتوضيح كل هدف بدوره على خرائط تفصيلية وبالصور الجوية، وتمت إعادة تسميع تفصيلات العملية بالطبع: الملاحة والطقس، والارتفاعات وأماكن الهبوط عند الطوارىء، ووضح أن للأسطول غواصات وقوارب إنقاذ تعرف باسم «دامبوس» و «سوبر دامبوس» تتمركز عند نقاط استراتيجية متعددة بالقرب من مواقع الأهداف، مستعدة لإنقاذ الطيارين في حالة اضطرارهم للهبوط بالمظلات.

وباختصار انتهت المدة بصلاة قلقة وراء القس، ثم تقدمنا نحو صالة الطعام «الميس» لتناول إفطار الصباح الباكر التقليدي قبل الخروج لمهمة القصف.

وحملتنا قافلة من الشاحنات إلى مبنى الإمداد للتجهيزات الخاصة المعدة لمهام القتال، وهي تشمل سترة الإنقاذ ومظلة وقارب نجاة وقناع أوكسجين وبدلة طيران وبدلة أخرى للإنقاذ، وبقيت أمامنا ساعات قليلة على موعد الإقلاع، لكننا ذهبنا جميعاً إلى ساحة الطيران ووقفنا متحلقين في مجموعات صغيرة، أو جلسنا داخل العربات «الجيب» نتجاذب الحديث أحياناً حول مهمتنا إلى الامبراطورية كما كانت تعرف اليابان حينذاك.

كان قائد المهمة الميجور «تشارلس» و«سويني» ذا الخمسة والعشرين عاماً من رقم 124 ميدان هاميلتون مدينة نورث كوينسي بولاية ماساتشوستس، وكانت طائرته تحمل القنبلة الذرية وتسمى «ذي جريت أرتيست» لكن الاسم لم يكن

مكتوباً على جسم الطائرة الفضي الهائل بطولها غير المعتاد ومراوحها ذات الريشات الأربع بأطرافها المدببة البرتقالية، وبدلاً من ذلك حملت الرقم «77»، ولاحظ أحدنا أنه رقم الحظ ومكتوب بالأحمر وسط إطار حديدي.

أقلعنا عند الساعة 3,50 صباحاً ويممنا شطر الشمال الغربي في خط مستقيم نحو «الإمبراطورية». كانت الليلة تمتلىء بالسحب وتنذر بالمخبوء مع نجيمات قليلة تتناثر هنا وهناك تبرق عبر السماء، وقد توقعت تقارير الأرصاد الجوية وجود عواصف في جزء من الطريق أمامنا، ولكن يصفو الطيران للمراحل النهائية والقصوى في رحلتنا الأسطورية.

كنا على بعد ساعة من قاعدتنا تقريباً حين هبت العاصفة، ولاقت طائرتنا الكبيرة بعض الصدمات الثقيلة وسط الليل العميق حولنا، لكنها احتوت هذه الصدمات برشاقة أكثر مما لو كانت طائرة تجارية ضخمة، مولدة إحساساً جديداً في طبيعة الانزلاق الجوي أكثر من معنى «الرجرجة»، فهي كالسفينة الضخمة في المحيط التي تركب الأمواج، عدا أن الأمواج الهوائية في هذه الحالة أكثر ارتفاعاً، وإيقاع تموجها أسرع.

ولفت نظري ضوء سماوي غريب يتسلل عبر النافذة العليا في كابينة القيادة، وبينما أتمعن خلال الظلام فيما حولنا، رأيت ظاهرة مذهلة، إذ أضحت المراوح الدائرية العملاقة أشبه بأسطوانات كبيرة مضاءة بلهب أزرق، كما ظهر نفس اللهب الأزرق على النوافذ الزجاجية المقواة عند مقدمة الطائرة وعلى أطراف أجنحتها العملاقة.

وبدأ الأمر كما لو كنا نركب عاصفة الريح عبر الفضاء، في مركبة من اللهب الأزرق. . كان ذلك ـ على قدر التخمين ـ ناتجاً من شحنات زائدة من الكهرباء الأستاتيكية المتجمعة على أطراف المراوح وفوق المواد غير الموصلة للكهربية من بلاستيك «الدائن» النوافذ، وتركزت أفكاري بقلق على الحمولة النفيسة في الطائرة المختفية أمامنا، هل كان هناك شبهة خطر مثل هذا تؤدي بهذا الضغط الكهربي الثقيل في الغلاف الجوي حولنا إلى احتمال إطلاق قنبلة؟.

عبرت عن مخاوفي للكابتن «بوك» الذي بدا غير مبال، ولم يضطرب أمام أجهزة التحكم، وأكد مخاوفي بسرعة «أنها ظاهرة شائعة تبدو غالباً فوق الطائرات، ولقد رأيتها مرات عدة في مهمات القصف، وهي تعرف بنيران القديس إيملو».

ومضينا قدماً خلال الليل وخرجنا بسرعة من العاصفة، وعادت مركبتنا تبحر مرة أخرى في مجال ناعم ومستقيم للأمام، في خط مباشر إلى الإمبراطورية.

وضح لنا مقياس الارتفاع أننا نطير في الفضاء على ارتفاع 17,000 قدم. ومقياس الحرارة سجل درجة حرارة خارج الطائرة بثلاث وثلاثين درجة مئوية تحت الصفر وهي حوالى 30 درجة فهرنهايت بالسلب، وداخل قمرتنا المحكمة الضغط، كانت درجة الحرارة تعادل درجة حرارة غرفة مكيفة الهواء والضغط يماثل ضغطاً على ارتفاع 8,000 قدم، وقد حذرني الكابتن «بوك» - على كل حال - للإبقاء على قناع الأوكسجين الخاص بي على مقربة مني في حالة الطوارىء، إذ - يقول شارحاً - قد يحدث شيء ما خطأ في أجهزة الضغط داخل المركبة أو يكون هناك ثقب في القمرة تحدثه نيران الدفاع الجوي.

وتبدت أولى علامات الفجر بعد الخامسة بقليل، وقام الرقيب «كوري» من مدينة هوبستون بولاية إلينوي - وكان يسمع باستمرار تقارير البث اللاسلكي بواسطة سماعتي الأذن في حين بقي هو نفسه صامتاً - بتحية الصباح بالقيام على قدميه والحملقة عبر النافذة، قائلاً لي: إن رؤية النهار شيء رائع، لقد ملأني خوف من «هستيريا الأماكن المغلقة» التي سادت هذه القمرة خلال الليل».

وكوري طراز نمطي للشباب الأمريكي، ويبدو أصغر من سنواته العشرين ولا يحتاج الأمر لصعوبة في قراءة أفكاره، ووجدت نفسي أعلق على قوله: «إنها مسافة بعيدة من هوبستون» فأجابني: «نعم» وهو مشغول بفك شفرة رسالة قادمة من الفضاء. ثم سألني: «أتعتقد أن تلك القنبلة الذرية سوف تنهي الحرب» وصوته مفعم بالأمل، فأكدت له قوله: «إن هناك فرصة طيبة لتقوم هذه القنبلة بهذه الحيلة، ولكن إذا لم يتم ذلك، حينئذ سوف تنهيها القنبلة التالية أو الاثنتان بالتأكيد إذ لا توجد أمة تستطيع الصمود أمام قوتها لمدة طويلة» وهذا ليس رأيي

الخاص إذ سمعته يتردد حولي منذ ساعات قلائل قبل إقلاعنا، وبالنسبة لأي إنسان شاهد هذه القنبلة النارية بشرية الصنع وهي تعمل، كما حدث لي منذ أقل من شهر مضى في صحراء نيومكسيكو، لا يعد هذا الرأي إغراقاً في التفاؤل.

وعند الساعة 5,50 كان الضوء كاملاً في الخارج، لقد فقدنا أثر سفينة القيادة، لكن الملازم «جودفري» وهو ملاح طائرتنا، أخطرني بأننا قد أعددنا لهذه العوارض المفاجئة عدتها، إذ حددنا نقطة للتجمع في السماء فوق جزيرة يوكوشيما الصغيرة، جنوب شرق كيوشو عند الساعة 10 . 9 وكان علينا أن ندور هناك وننتظر بقية تشكيلنا..

وجاء عروسنا قاذف القنابل الملازم ليفي ليدعوني لأحتل مقعده في الصف الأمامي في المقدمة الشفافة لمركبتنا، فوافقت متلهفاً، إذ من هذه النقطة المتميزة وسط الفضاء، بارتفاع 17,000 قدم فوق المحيط الهادي يستطيع المرء رؤية مئات الأميال على كل جوانبه أفقياً ورأسياً، وعند ذلك الارتفاع يتداخل المحيط الشاسع أسفلنا مع السماء فوقنا ليبدوا معاً غلافاً واحداً عظيماً للأرض.

كنت داخل هذه القبة السماوية، أركب السحب البيضاء المتراكمة العملاقة تاركاً نفسي معلقاً وسط فضاء لانهائي، وأسمع دوران المحركات خلفي، لكن صوتها أصبح لا قيمة له في الحال أمام اللانهائية التي حولنا، ولم يمض وقت حتى ابتلعه الفضاء، وهناك نقطة يبتلع الفضاء فيها الزمن كذلك ويعيش المرء لحظات أبدية تملؤها وحدة قاهرة كما لو أن الحياة كلها قد تلاشت من الأرض وبقيت أنت الحي الوحيد عليها منفرداً ترتحل عبر فضاء ما وراء النجوم.

وارتد عقلي إلى المهمة المكلف بها بسرعة، ففي مكان ما وراء هذه الجبال الشاسعة من السحب البيضاء أمامي تقع اليابان، أرض عدونا، وعلى مدى أربع ساعات من الآن، توجد واحدة من مدنها تصنع أسلحة الحرب لاستخدامها ضدنا، وسوف تمحى من الخريطة بأعظم سلاح صنعه الإنسان في واحد من عشرة أجزاء من المليون من الثانية، انقسام زمني لا يمكن قياسه بواسطة أي ساعة وإعصار هوائي يسحق آلافاً من مبانيها وعشرات الآلاف من سكانها.

ولكن حتى هذه اللحظة، لا أحد يدري أي واحدة من تلك المدن المتعددة ستكون هدفاً للموت، فالاختيار الأخير متروك للقدر، والرياح السائدة فوق اليابان ستحدد القرار، فلو أنها تسوق سحباً كثيفة فوق الهدف الأول ستكون هذه المدينة قد أنقذت، على الأقل في الوقت المحدد، ولن يعلم واحد من سكانها أبداً أن رياح القدر الخيرة قد مرت فوق رؤوسهم، وستدمر نفس الريح مدينة أخرى.

كانت طائرات الأرصاد أمامنا أو نحن كنا في طريقها لنكتشف إلى أين تهب الريح، وعند نصف الساعة السابقة لتوقيت الهدف سنعلم ما قررته الريح.. هل يشعر الإنسان بشفقة أو عطف.. نحو أولئك البؤساء «الملاعين» الذين على وشك الموت؟ ليس والإنسان يفكر في واقعة «بيرل هاربور» وفي مسيرة الموت على «باتان». ثم أفادني الكابتن «بوك» أننا على وشك الصعود للارتفاع المحدد للقصف، وقام باستخدام مفاتيح قليلة على لوحة التحكم أمامه إلى اليمين، وتابعت السحب البيضاء والمحيط في حالة تغير أسفلنا ومقياس الارتفاع على لوحة قاصف القنابل... ووصلنا لارتفاعنا الساعة التاسعة، وكنا عند ذاك فوق المياه اليابانية مقتربين من أرض وطنهم، وتحرك الملازم جودفري نحوي لينظر عبر جهاز «الرادارسكوب» وأمامي برزت حدود نقطة الالتقاء، وسوف نلقي طائرة القيادة حالاً ونتقدم نحو المرحلة الأخيرة لرحلتنا.

وصلنا إلى يوكوشيما الساعة 9,12، وهناك على بعد 4,000 قدم أمامنا كانت الـ «جريت أرتيست» بحمولتها الثمينة، ورأيت الملازم جودفري والرقيب كوري يلفون مظلاتهم فقررت أن أفعل مثلهم. وبدأنا ندور، فرأينا مدناً صغيرة على الشريط الساحلي، متجاهلة وجودنا، فواصلنا الدوران بانتظار الطائرة الثالثة من تشكيلنا.

كانت الساعة 9,56 عندما بدأنا التوجه نحو الساحل، وقد أرسل لنا كشافو الطقس رسائل شفرية حل الرقيب كوري شفرتها، تعلمنا أن الهدف الأول واضح تماماً مثله مثل الهدف الثاني.

وبدا أن رياح القدر تفضل أن تظل مدناً يابانية معينة بلا أسماء، ثم التففنا حولهما مرات ومرات ولم نجد أية ثغرة في المظلة السحابية الكثيفة التي تغطيهما، ثم اختار القدر نجازاكي كهدف أخير.

كنا ندور بعض الوقت حين شاهدنا حلقات سوداء من الدخان تخرج من السحب البيضاء نحونا مباشرة، حوالى خمس عشرة دفعة من الطلقات المضادة للطائرات في تتابع سريع كانت كلها منخفضة، فغير الكابتن «بوك» خط السير، تبعتها على الفور ثماني دفعات من هذه القذائف فوق ارتفاعنا تماماً ولكن بعدما أصبحنا بعيدين عنها إلى اليسار، وقمنا بالطيران باتجاه الجنوب مع القناة، وعند الساعة 11,33 عبرنا الساحل ويممنا مباشرة نحو نجازاكي على بعد مائة ميل ناحية الغرب، وهنا درنا مرة أخرى حتى وجدنا ثغرة وسط السحب وكانت الساعة 12,01 وهدف مهمتنا قد وصل.

سمعنا إشارة ما قبل الاستعداد على جهاز اللاسلكي، فوضعنا نظارات الوقاية ثم راقبنا مناورات طائرات القصف على بعد نصف ميل أمامنا.. وقال أحدنا: «ها هي تسقط»!.. ومن بطن الـ «جريت أرتيست» هبطت وهي أشبه بشيء أسود قاتم..

هنا مال الكابتن «بوك» بالطائرة حول نفسها ليتفادى البقاء في المدى المؤثر، ولكن رغم أننا كنا نستدير مبتعدين في الاتجاه المضاد، ورغم حقيقة انتشار ضوء النهار داخل قمرة القيادة، لاحظنا جميعاً ضوءاً بارقاً هائلاً، نفذ عبر زجاج نظاراتنا الأسود الواقي وأغرق قمرتنا في ضوء مكثف، ثم رفعنا نظاراتنا بعد الإضاءة الأولى، لكن الضوء ما زال سائداً ضوء أخضر مائل للزرقة أضاء السماء كلها فيما حولنا، وصدمت موجة انفجار مركبتنا بعنف وجعلتها تهتز من رأسها حتى ذيلها، وتبع ذلك أربعة انفجارات أخرى في تتابع سريع، كل منها أحدثت فرقعة كطلقات المدافع تضرب طائرتنا من جميع الاتجاهات.

ورأى المشاهدون في ذيل طائرتنا كرة عملاقة من النار ترتفع كما لو كانت تخرج من باطن الأرض قاذفة حلقات هائلة من الدخان الأبيض، وبعد ذلك رأوا

عموداً من النيران القرمزية ارتفاعه 10,000 قدم ينطلق باتجاه السماء في سرعة مذهلة، وبمرور الوقت قامت طائرتنا بدورة أخرى في اتجاه الانفجار الذري، ووصل عمود النار القرمزي الآن لمستوى ارتفاعنا، كان قد مر على الانفجار الآن 45 ثانية فقط.

ووسط ذهولنا، رأيناه ينطلق لأعلى مثل ظاهرة طبيعية آتية من جوف الأرض بدلاً من الفضاء الخارجي، ويكاد يصبح ظاهرة حية كلما تصاعد باتجاه السماء مخترقاً السحاب الأبيض، ولم يعد دخاناً بعد ذلك أو غباراً أو حتى سحابة من النار لقد كان شيئاً حياً، نوعاً جديداً من الكائنات ولد أمام أعيننا غير المصدقة مباشرة، وفي حالة من حالات تطوره محتوياً ملايين السنين في لمحات خاطفة، تمثل وجود الانفجار في هيئة عمود طوطم عملاق مربع الشكل، وقاعدته طولها حوالى ثلاثة أميال تتضاءل تدريجياً لتصل إلى ميل عند قمته وقاعه بني اللون، بينما لون وسطه أصفر صمغي وقمته بيضاء، لكنها كانت قاعدة طوطم نابضة بالحياة محفور عليها شتى الأقنعة المهولة التي تنظر بازدراء نحو الأرض.

عندئذ بدأ كما لو كان هذا الشيء قد استقر في حالة ثبات، ثم انطلق من قمة ما يشبه نبات عش الغراب الضخم زاد في ارتفاع عمود الانفجار إلى 45,000 قدم وكانت قمة عش الغراب بدورها أكثر مرونة من العمود ذاته، يفور ويغلي في غضب أبيض من الرغوة «الكريمية» اللون، ويزيد متصاعداً لأعلى ثم يهبط باتجاه الأرض، آلاف من عيون الماء الساخنة تجمعت في واحدة، ويظل يقاوم في غضب شديد كمخلوق يجاهد لكسر قيوده التي تشده لأسفل، وفي ثوان قليلة حرر نفسه من جذعه الضخم وسبح لأعلى في سرعة عظيمة، يحمله قصوره الذاتي إلى طبقة الاستراتوسفير لارتفاع 60,000 قدم تقريباً، ولكن ما إن تم ذلك حتى برزت سحابة عش غراب آخر أصغر في حجمها من الأولى من باطن العمود، كما لو كان الوحش المبتور قد بدأ رأسه الجديد ينمو.

وبينما يتبعثر عش الغراب الأول في أرجاء السماء تغير شكله إلى ما يشبه الزهرة، تنحني وريقاتها العملاقة إلى أسفل من لون الكريم «المائل للبياض من

الخارج ووردية اللون من الداخل»، وحين تطلعنا إليه من مسافة 200 ميل تقريباً كان ولا يزال يحتفظ بهذا الشكل، وأمكن رؤية العمود الفائر بألوانه المتعددة من نفس المسافة، كجبل هائل بأقواس قزح متخالطة في حالة تمازج، ومادة شديدة الحيوية قد تداخلت مع هذه الأقواس.

وكانت القمة المرتعشة للعمود تتصاعد إلى ارتفاعات عظيمة عبر السحب البيضاء ليبدو كوحش مما قبل التاريخ تطوق عنقه ياقات من الفراء تمتد في كل اتجاه على أقصى امتداد البصر.

زيارة إلى هيروشيما

«9 سبتمبر/ الفاتح 1945 افرنجي»

*** مارسيل جونود**

«قتلت القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما ما بين 70,000 إلى 80,000 إنسان وجرحت أكثر من 70,000 شخص آخرين».

كانت القمة العارية لجبل فيوجياما بادية - تماماً - للنظر عند الأفق، أثناء تحليقنا فوق «البحيرة» التي تبدو أسفلنا كسجادة من اللافندر الأزرق تلمحها وسط الألوان الخضراء والصفراء بجزرها ذات الغابات والانحدارات المتعددة.

ونحو منتصف النهار، ظهرت بقعة بيضاء ضخمة على الأرض أسفلنا، وكانت هذه الصحراء الطبشورية تشبه - غالباً - قطعة من العاج تحت الشمس محاطة بحطام الحديد الملتوي وأكوام الرماد، وكان هذا هو كل ما تبقى من هيروشيما[1].

كان الصحفي قد وصف لنا المباني الرئيسية للمدينة، وهي مبنية من الإسمنت المسلح «المقوى» وتؤدي إلى خضم من المنازل اليابانية المنخفضة الأسطح

(1) ألفت نظر القارىء هنا إلى أن الكاتبة تبدأ وصف رحلتها من الفقرة التالية وهي في سيارة يرافقها أحد الصحفيين اليابانيين. «المترجم».

والممتدة لأكثر من ستة أميال حتى التلال الغابية التي استطعت رؤيتها على البعد، وقال وهو يشرح: «كانت المدينة لم تتحطم تماماً وإنما عانت قليلاً من القصف، وكانت هناك فقط غارتان صغيرتان واحدة يوم التاسع عشر من مارس الماضي، بواسطة سرب من طائرات البحرية الأمريكية، والأخرى يوم الثلاثين من أبريل بواسطة الطائرة «فلاينج فورترس»، ويوم السادس من أغسطس، لم تكن هناك حتى سحابة واحدة فوق هيروشيما، وهبت ريح معتدلة لا تكاد تدرك من الجنوب، وكانت الرؤية واضحة تماماً لمسافة عشرة أو اثنا عشر ميلاً، وعند الساعة السابعة وتسع دقائق صباحاً دوت صفارات إنذار الغارات الجوية، وظهرت في السماء أربع طائرات أمريكية من نوع «ب ـ 29» واستدارت اثنتان منها نحو شمال المدينة، ثم تحولتا للجنوب واختفتا باتجاه بحر «شوهو» أما الأخريان فبعدما حلقتا بأجواء «شوكاي» القريبة، انطلقتا بسرعة شديدة باتجاه الجنوب نحو بحر بنجو».

وعند الساعة 7.31 دوت صفارات الأمان، وبعدما شعر الناس بالأمن خرجوا من مخابئهم ومضوا إلى شؤونهم وبدأ عمل اليوم.

وفجأة تبدى ضوء أبيض ذو حمرة، بارقاً وسط السماء مصحوباً بهزة غير طبيعية تبعته في الحال ـ تقريباً ـ موجة من الحرارة الخانقة وريح جرفت كل شيء في طريقها.

وخلال ثوان قليلة، احترق آلاف من الناس في الطرقات والحدائق ووسط المدينة لدرجة التفحم بموجة من الحرارة اللافحة، وقتل الكثيرون في الحال، وسقط الكثيرون يتلوون ألماً فوق الأرض ويصرخون من العذاب الرهيب الناتج من حروقهم، وكل شيء كان ينتصب قائماً في طريق الانفجار من حوائط ومنازل ومصانع وأية مبان أخرى، دُمّر وأضحى حطاماً يدور وسط الإعصار ويرفعه نحو السماء، وعربات الترام طارت ثم قذفت جانباً كأنها بلا وزن ولا مادة، وانخلعت القطارات من قضبانها كأنها ألعاب أطفال، وعانت الجياد والكلاب والماشية ذات ما عاناه الإنسان.

كان كل كائن حي قد شُل في عالم من الألم الذي لا يمكن وصفه، حتى النباتات لم تتفادى المصير إذ راحت الأشجار وسط اللهب، وفقدت سيقان الأرز خضرتها، واحترق العشب فوق الأرض وأضحى قشاً ذاوياً.

وفيما وراء منطقة الموت الشامل - التي لم يبق فيها شيء حي - انهارت البيوت في زوبعة من الكمرات والطواب والأعمدة، ومن مركز الانفجار وحتى ثلاثة أميال تالية سُحقت البيوت بسيطة البناء كما لو كانت مبنية من الورق المقوى وقُتل من بداخلها أو جُرح، أما أولئك الذين تدبروا أمر خلاصهم بمعجزة ما، فقد وجدوا أنفسهم محاصرين بحلقة من النيران، والقِلة التي نجحت في شق طريقها للأمان، ماتوا - بصورة عامة - بعد عشرين أو ثلاثين يوماً بعد ذلك بسبب الآثار المؤجلة لأشعة جاما القاتلة، وبقت بعض المباني الحجرية أو ذات الإسمنت المسلح، لكن داخلها فُرغ تماماً من الهيكل بفعل الانفجار.

وبعد نصف ساعة من الانفجار، وبينما السماء لا تزال بلا سحب حول هيروشيما بدأ مطر خفيف في التساقط فوق المدينة واستمر لمدة خمس دقائق. وكان سببه الارتفاع المفاجيء لدرجة حرارة الجو ارتفاعاً شديداً. حيث تكثف ثم سقط على هيئة مطر، عند ذلك هبت ريح عاصفة، وامتدت النيران بسرعة مخيفة لأن معظم البيوت اليابانية مبنية فقط من الخشب والقش، وعند المساء بدأت النيران تخبو ثم انطفأت ولم يعد هناك ما يحترق، ومحيت هيروشيما من الوجود، وتوقف الياباني عن الحديث، ثم أطلق صيحة واحدة في انفعال متماسك ولا يوصف «انظروا».

كنا عندئذ على بعد أربعة أميال من كوبري «آيوي» الذي كان تحت القصف مباشرة، لكن أسطح المنازل فيما حولنا كانت قد فقدت مادة بنائها، وجف العشب على طول الطريق. وعلى بعد ثلاثة أميال من مركز الدمار كانت المنازل محطمة تماماً وسقطت أسطحها وبرزت الكمرات من حطام حوائطها لكن - حتى ذلك المشهد - كان منظراً عادياً تمثله المدن التي دمرتها انفجارات معتادة لكنها شديدة، وعلى بعد ميلين ونصف من مركز المدينة، كانت كل المنازل محترقة

ومدمرة، وتجد فقط آثار الأساسات وأكوام الحطام وقطعاً حديدية متفحمة وصدأة هي الباقية، وكانت هذه المنطقة تشبه المناطق المدمرة في «طوكيو» و«أوزاكا» و«كوبي» بعد الحريق الشامل الذي ألم بها، وعند ثلاثة أرباع الميل من مركز الانفجار لم يبق شيء على الإطلاق، إذ اختفى كل شيء، كان خراباً حجرياً مفروشاً بالحطام والكتل الإسمنتية الملتوية، وجرفت حرارة النار المتوهجة كل عائق أمامها، وكل ما تبقى منتصباً كان قطعة أو اثنتين من حجارة الحائط وبعض المواقد القليلة التي أضحت غريبة الشكل على قواعدها.

هبطنا من السيارة، وشققنا طريقنا ببطء وسط الدمار إلى وسط المدينة، وكان هناك سكون مطبق يحكم مدينة الموتى.

إعدام مجرمي الحرب النازيين

«16 أكتوبر/التمور 1946 افرنجي»

*** كينجز يوري سميث**

«يوم الأول من أكتوبر عام 1946 افرنجي، أصدرت المحكمة الدولية العسكرية في نورمبرج أحكامها بعد 216 جلسة محاكمة، ومن المتهمين الأربعة والعشرين الأصليين، حكم على اثني عشر منهم بالإعدام شنقاً، منهم «مارتين بورمان» الذي حوكم غيابياً، وكان مؤلف هذا التقرير «كينجز يوري سميث» من وكالة الخدمات الإخبارية العالمية قد اختير بواسطة العديدين ليمثل الصحافة الأمريكية عند تنفيذ الأحكام».

. . . خدع هيرمان ڤيلهم جورينج مشنقة الحلفاء وعدالتهم بإقدامه على الانتحار في زنزانة سجنه قبل شنق القادة النازيين العشرة الآخرين الذين حكمت عليهم محكمة نورمبرج بفترة قصيرة، بابتلاعه مادة السيانيد كان يخفيها في مظروف من النحاس أثناء رقاده على سرير زنزانته.

وكان الرجل الثاني - في عصره - وسط القيادة النازية قد مات قبل موعد شنقه بساعتين، وكانت المشنقة منصوبة داخل صالة ألعاب صغيرة بارقة الأضواء في فناء

السجن على بعد 35 ياردة من الزنزانة التي قضى فيها آخر أيامه المهينة.

وأخذ «جواشيم ڤون ريبنتروب» وزير الخارجية في العهد السيء لحكم أدولف هتلر مكان جورينج كأول شخص يقدم للمشنقة، وكان آخر من سيرحل من هذه الحياة ـ خلال دورة كاملة لساعتين ـ هو «أرثر سيين أنكورات» الحاكم النازي السابق لهولندا والنمسا، وفيما بين هذين القائدين القويين، واجهت المشنقة الآتي أسماؤهم ترتيباً:

الفيلد مارشال «ڤيلهلم كييتل»، وقائد شرطة الأمن النازي «أرنست كالتن برونر»، وراعي الثقافة النازية بالبلدان الأجنبية «الفريد روزنبرج»، وحاكم بولندا النازي «هانز فرانك»، ووزير داخلية النازي «ڤيلهلم فريك» ورئيس قطاع أعمال السخرة «فريتزسوكيل» والكولونيل جنرال «الفريد جودل» و «جوليوس ستريبخر» الذي رأس حملة حكومة هتلر ضد السامية.

وقد أبدى غالبية هؤلاء العشرة الشجاعة أثناء سيرهم نحو المشنقة، فبعضهم كان متحدياً، والبعض الآخر كان هادئاً في حين طلب البعض الرحمة من اللّه القادر.

وأدلى الجميع ـ عدا روزنبرج ـ بتصريحات مختصرة نهائية فوق خشبة المشنقة، لكن الوحيد الذي أشار إلى هتلر والإيديولوجية النازية في لحظاته الأخيرة كان «جوليوس ستريبخر».

انتصبت ثلاث منصات خشبية سوداء اللون داخل صالة الألعاب الرياضية وهي حجرة اتساعها 33 قدماً وطولها 80 قدماً بحوائط ذات طلاء بلاستيكي تبدو عليه التشققات، وكانت الصالة قد استخدمت منذ ثلاثة أيام فقط بواسطة حرس الأمن الأمريكي للعبة كرة السلة، كانت منهم مشنقتان تعملان بالتبادل والثالثة احتياطية لاستخدامها عند الحاجة، وتم شنق الرجال واحداً في كل مرة، ولكن كي ينتهي تنفيذ الأحكام بسرعة، كانت الشرطة العسكرية تحضر رجلاً في الوقت الذي ما زال فيه سابقه يتدلى عند نهاية الحبل.

وارتقى الرجال العشرة العظام ـ يوماً ما ـ في حكم الرايخ الألماني الذي كان مقدراً له البقاء ألف سنة ـ ، الثلاث عشرة درجة الخشبية إلى منصة ارتفاعها ثمانية أقدام ومساحتها ثمانية أقدام كذلك، وكانت الحبال تتدلى من عارضة مثبتة على عمودين حبلاً جديداً لكل رجل، وكلما انزلقت القاعدة المتحركة، سقطت الضحية من مدى البصر إلى داخل المنصة التي كان قاعها محاطاً بالأخشاب على ثلاثة جوانب، ومغطى بستارة قائمة من النسيج على الجانب الرابع، كي لا يرى أحد سكرات موت الرجال المتدلين بأعناق محطمة.

ودخل «ڤون» ريبنتروب حجرة تنفيذ الإعدام الساعة 1,11 صباحاً بتوقيت نورمبرج، وأوقفه اثنان من رقباء الجيش في الحال داخل الباب واقتربا كل واحد من جانب وأمسكا بذراعيه، في حين رفع رقيب آخر كان يتبعه القيود عن يديه واستبدل بذلك رباطاً جلدياً. وكان مخططاً في الأصل، السماح للمحكوم عليهم بالسير من زنزاناتهم إلى غرفة التنفيذ وأيديهم بلا قيود، لكن قيدت أياديهم فور انتحار جورينج.

كان «ڤون» ريبنتروب قادراً على الاحتفاظ بثبات مظهره حتى النهاية، فمشى متماسكاً نحو المنصة بين حارسيه، لكنه لم يجب عندما سأله أحد الضباط الواقفين أسفل المنصة عن اسمه بصورة رسمية أولاً، وعندما أعاد الضابط النداء، أجاب بصوت يقرب من الصياح: «جواشيم ڤون ريبنتروب» ثم صعد الدرجات دون أية علامة على التردد.

وعندما دار حول المنصة ليواجه الشهود بدا كأنه يكز أسنانه ويرفع رأسه بالزهو القديم، وعندما سئل إذا ما كان لديه أية رسائل أخيرة، أجاب: «فليحم اللّه ألمانياً» باللغة الألمانية ثم أضاف: «هل أستطيع أن أضيف شيئاً آخر»؟ فأومأ له المترجم بالإيجاب فنطق ساحر الديبلوماسية النازية السابق آخر كلماته بصوت جهوري ونبرات ثابتة: «إن رغبتي الأخيرة هي أن تحقق ألمانيا وجودها، وأن يتم التوصل لتفاهم ما بين الشرق والغرب، وآمل أن يعم السلام العالم».

وبينما يضعون القناع الأسود في موضعه فوق وجهه، كان ينظر أمامه تماماً. .

حينئذ ثبت الجلاد الحبل وشد الرافعة وانزلق «ڤون ريبنتروب» بعيداً إلى مصيره. . . وكان المارشال «كيبتل» وهو بعد ڤون ريبنتروب في ترتيب المحكوم عليهم ـ أول قائد عسكري ينفذ فيه حكم الإعدام تحت المفهوم الجديد للقانون الدولي، وكان المبدأ يقول: إن الجنود المحترفين لا يحق لهم النفاد من العقوبة لشنهم حرباً عدوانية وسماحهم بارتكاب جرائم ضد الإنسانية بدعوى تنفيذهم الأوامر الصادرة من القيادة الأعلى كواجب ملزم.

كان كيبتل قد دخل الغرفة بعد دقيقتين من سقوط القاعدة المتحركة تحت أقدام ريبنتروب أثناء تدلي الأخير من طرف حبل مشنقته، لكنه كان مختفياً داخل المنصة الأولى، وكل ما يمكن رؤيته منه هو الحبل المشدود. ولم يبد كيبتل متوتراً مثل ڤون ريبنتروب، إذ كان رافعاً رأسه أثناء تقييد يديه ومشى منتصب القامة نحو المشنقة بمظهر عسكري، وعندما سئل عن اسمه أجاب بصوت عال، ثم صعد المشنقة كما لو كان يصعد منصة استعراض لتحية الجيوش الألمانية، كما لم يبد عليه ـ بالتأكيد ـ احتياجه لمعاونة الحرس الذي كان يسير بجواره ممسكاً بذراعيه، وعندما دار فوق قمة المنصة تطلع للجمهور بالتعالي الحديدي لضابط بروسي مزهو.

وخرجت كلماته الأخيرة بصوت واضح كامل، وترجمت إلى: «إني أدعو اللّه العظيم أن يرحم الشعب الألماني إذ إن هناك أكثر من 2 مليون جندي ألماني ذهبوا لحتفهم من أجل الوطن قبلي وإني أتبع الآن أبنائي، كلنا لألمانيا»، وبعدما سقطت جثته ذات الزي الرسمي والحذاء الطويل الأسود، اتفق المشاهدون على أن كيبتل أظهر شجاعة أكثر فوق منصة المشنقة مما أبداه في قاعة المحكمة، حيث حاول إبعاد مسؤوليته وإسنادها لشبح هتلر مدعياً أن كل ذلك كان خطأ الفوهرر، وأنه كان ينفذ فقط الأوامر ولا يتحمل أية مسؤولية.

ومع تدلي كل من ريبنتروب وكيبتل من مشنقتيهما حدث توقف بسيط في الإجراءات، وسأل الضابط الأمريكي المسؤول عن تنفيذ الأحكام الجنرال الأمريكي الممثل للولايات المتحدة في اللجنة الإشرافية للحلفاء عما إذا كان

للموجوديين أن يدخنوا للحظة، ومع الإجابة المؤكدة شرعت السجائر في الأيدي مع كل شخص ـ تقريباً ـ من الثلاثين الحاضرين.

وكان الضباط والجنود يسيرون هنا وهناك بعصبية واضحة ويتحدثون بكلمات قليلة مع بعضهم البعض بصوت هامس، بينما يخط مراسلو الحلفاء من الصحفيين ملاحظاتهم بانفعال حول ذلك الحادث التاريخي رغم بشاعته، وبعد دقائق قليلة دخل طبيب من الجيش الأمريكي ومعه طبيب آخر من الجيش الروسي يحملان سماعتيهما إلى المنصة الأولى ورفعا الستارة واختفيا داخلها وخرجا الساعة 1,30 صباحاً وتحدثا مع ضابط أمريكي فدار الضباط ثم واجه الشهود الرسميين «مقرقعاً» أصابعه لجذب الانتباه ليقول: «قد مات الرجل».

فظهر جندیان يحملان نقالة ورفعاها إلى داخل المنصة، وصعد الجلاد درجات المشنقة وأخرج سكيناً ضخماً ـ من النوع المستخدم مع الفرق الغذائية ـ من غمده المعلق على جانبه ثم قطع الحبل.

ثم أبعدوا جثة ڤون ريبنتروب الطرية، التي لا زالت فوقها الغمامة السوداء إلى طرف الغرفة الأقصى، ووضع خلف ستارة من القماش الأسود، وقد استغرق ذلك كله أقل من عشر دقائق.

واستدار الضابط المسؤول إلى المشاهدين قائلاً: «أطفئوا سجائركم الآن من فضلكم، أيها السادة».. وخرج ضابط آخر من الباب متوجهاً إلى عنبر المحكوم عليهم لإحضار الرجل التالي، وكان «أرنست كلاتن برونر»، ودخل غرفة التنفيذ الساعة 1,36 صباحاً مرتدياً سترة «سويتر» تحت معطفه الأزرق المبطن، بوجهه المقطب العبوس المحفور بندوب قديمة، كان هذا الخليفة المفزع لـ «رينهارد هيدريخ» له نظرة مخيفة وهو يتطلع بأرجاء الغرفة... ثم بلل شفتيه وهو يستدير لصعود المشنقة بعصبية واضحة، لكنه سار بثبات، وأجاب عن اسمه بصوت هادىء منخفض، وعندما دار فوق سطح المنصة، واجه ـ أولاً ـ قس المذهب الكاثوليكي الروماني للجيش الأمريكي مرتدياً مسوح رهبان الفرنسيسكان، وعندما دُعي ليدلي بآخر أقواله، أجاب: «لقد أحببت الشعب الألماني ووطني بقلب

صادق وقمت بواجبي بناءً على قوانين شعبي، وآسف إذ كان يقود الشعب أناس لم يكونوا من العسكريين وأن هذه الجرائم التي ارتكبت لم أعلم عنها شيئاً».

ذلك الرجل، كان أحد وكلائه واسمه رودلف هوس، قد اعترف أثناء إحدى المحاكمات بأنه تحت تعليمات، «كالتن برونر» قتل بالغاز 3 مليون إنسان في معسكر أوشڤيتز، وبينما توضع الغمامة السوداء فوق رأسه كان كلاتن برونر لا يزال يتكلم بصوت منخفض، مستخدماً عبارة ألمانية كانت ترجمتها:

«أتمنى لك حظاً سعيداً يا ألمانيا»، وكان شنقه الساعة 1,39 صباحاً وأعلن موت الفيلد مارشال كييتل الساعة 1,44 صباحاً، وبعد ثلاث دقائق تالية رفع الحراس جثته وجهزت المشنقة «لألفرد روزنبرج»، وكان روزنبرج متجهماً ذا وجنات غائرة أثناء تطلعه نحو المحكمة، وكانت سحنته بنية فاتحة لكنه لم يبد عصبياً، ومشى بخطوات راسخة إلى أعلى المنصة، وبخلاف إدلائه باسمه وبالإجابة بـ «لا» على سؤال عما إذا كان لديه ما يقوله، فهو لم يلفظ بحرف، وبرغم إلحاده المعلن إلا أن قساً بروتستانتياً قد صاحبه وتبعه حتى المشنقة ووقف بجواره يصلي، ونظر «روزنبرج» للراهب مرة بلا تعبير على وجهه وبعد تسعين ثانية فقط كان يتأرجح من طرف حبل الجلاد، وكان شنقه الأسرع تنفيذاً من بين العشرة. ثم ساد صمت بسيط في الإجراءات حتى إعلان موت كلاتن برونز الساعة 1,52 صباحاً.

وكان «هانز فرانك» ـ التالي في مسيرة الموت ـ الوحيد الذي دخل الغرفة والابتسامة تطفو على ملامحه من المحكوم عليهم، وبرغم عصبيته وابتلاعه ريقه باستمرار، أعطى ـ هذا الرجل الذي انقلب للعقيدة الرومانية الكاثوليكية بعد القبض عليه ـ انطباعاً بأنه استراح لاحتمالات تكفيره عن أفعاله الآثمة، وأجاب عن اسمه بهدوء، وعندما سئل عن أية أقوال أخيرة، أجاب بصوت خفيض كاد يكون همساً: «إنني شاكر للمعاملة الطيبة أثناء أسري، وأطلب من الله أن يتغمدني برحمته»، وأغمض عينيه وابتلع ريقه أثناء وضع الغمامة السوداء فوق رأسه.

وكان الرجل السادس الذي توجب عليه مغادرة زنزانته السجن والسير

بمعصميه المقيدين إلى غرفة الموت، عمره 69 عاماً وهو «ڤيلهلم فريك» الذي دخل غرفة الإعدام الساعة 2,05 صباحاً بعد إعلان موت «روزنبرج» بست دقائق، وقد بدا عليه أنه أقل ثباتاً من الآخرين، لدرجة أنه تعثر في الدرجة الثالثة عشرة من سلم المشنقة، وكانت كلماته الوحيدة: «عاشت ألمانيا للأبد» قبل أن يغمى، ويسقط أسفل المشنقة.

وقدم «جوليوس ستريبخر» ظهوره الميلودرامي «العنيف» الساعة 2,12 صباحاً، وبينما يرفعون قيوده ويربطون يديه كان ـ ذلك الرجل القزمي القبيح ـ مرتدياً بذلة رقيقة الخيوط وقميصاً أنيقاً أزرقاً مزرراً حتى عنقه دون ربطة عنق ـ وكان مشهوراً خلال أيام سلطته بأزيائه اللامعة ـ.

نظر حول الثلاث منصات الخشبية المنتصبه أمامه مهددة، ثم تطلع بأرجاء الحجرة واستقرت عيناه للحظة على مجموعة المشاهدين القلائل، وعند هذا الوقت كانت يداه قد قيدتا بإحكام خلف ظهره، وحارسان، واحد على كل ذراع يقتادانه إلى المشنقة رقم واحد على يسار المدخل، فقطع بثبات الستة أقدام الباقية لأول درجة من السلم الخشبي لكن وجهه كان متقلصاً، وبينما يوقفه الحارسان عند أسفل درجات السلم للتثبت من هويته رسمياً، أطلق صرخته المدوية «هايل هتلر» ـ فبعثت الصرخة قشعريرة في ظهري، وأثناء خفوت صدى صوته قال ضابط أمريكي يقف بجوار السلم بصوت حاد: «اسأل الرجل عن اسمه» ورداً على استفسار المترجم صاح «ستريبخر»: «أنتم تعرفون اسمي جيداً». وأعاد المترجم سؤاله، فاستسلم المحكوم عليه قائلاً: «جوليوس ستريبخر».

وما إن وصل المنصة حتى صاح: «الآن تذهب روحي للّه»... ودفعوه للأمام في الدرجتين الأخيرتين نحو بقعة الموت أسفل حبل الجلاد، وكان الحبل قد رُبط إلى عمود خشبي بواسطة الجلاد، ودار «ستريبخر» دورة لمواجهة المشاهدين وحملق فيهم ثم صاح فجأة: «إنه عيد بيوريم لعام 1946م»، ـ بيوريم احتفال يهودي يتم في الربيع لإحياء ذكرى مقتل هامان، وهو جلاد اليهود الذي كان يعدمهم في العهد القديم ـ، فقال الضابط الأمريكي الموجود عند المنصة:

«إسأل الرجل إذا كانت لديه كلمات أخيرة»، وعندما ترجمها المترجم، صرخ «ستريبخر»: «إن البولشفيك سيشنقوكم يوماً ما». . وعندما وضعت الغُمامة السوداء فوق رأسه، قال: «إنني مع اللّه»، وبينما كانوا يثبتونها كان صوته المتباعد يمكن سماعه يقول: «إديل، يا زوجتي العزيزة». . عندئذ انفتحت القاعدة المتحركة محدثة صوتاً قوياً، فسقط لأسفل وهو يركل بقدميه، وعندما «طقطق» الحبل مشدوداً بالجثة المتأرجحة بوحشية، كانت الأنات تسمع من داخل المنصة المغطاة.

وفي النهاية هبط الجلاد من فوق المشنقة، ورفع الستارة القماشية السوداء ثم اختفى داخلها، وحدث شيء ما وضع حداً لتلك الأنات وجعلت الحبل يسكن، وبعدما انتهى الأمر، لم أكن في حالة تسمح لي بالسؤال عما فعله الجلاد، ولكني أؤكد من جانبي، أنه تعلق بالجثة المتأرجحة وجذبها لأسفل، إذ أجمعنا كلنا أن ستريبخر قد «خنق». .

ثم تبع ذلك رفع جثة «فريك» الذي أعلن موته الساعة 2,20 صباحاً ثم أحضر «فريتز سوكيل» لمواجهة نهايته. وكان يرتدي سترة «سويتر» بلا معطف، وعيناه وحشيتان، وأثبت «سوكيل» أنه أكثر الرجال تحدياً بالإضافة لـ «ستريبخر»، فهنا يوجد الرجل الذي وضع الملايين تحت السخرة بصورة لم تعرف منذ عصر ما قبل المسيحية، وبعدما تطلع فيما حول الغرفة من فوق المنصة صاح فجأة: «إنني أموت بريئاً، والحكم خطأ، وليرع اللّه ألمانيا ويجعلها عظيمة مرة أخرى، عاشت ألمانيا، وليحم اللّه عائلتي». وانفتحت القاعدة المتحركة تحت قدميه الساعة 2,26 صباحاً، وكما حدث في حالة ستريبخر، صدر أنين عال من وسط المشنقة والأنشوطة تلف بإحكام بفعل ثقل جثته.

وكان التاسع في عملية الموت هو «ألفريد جودل» بياقة معطفه السوداء للزي العسكري الألماني نصف مطوية عند الظهر، كما لو كانت قد وضعت على عجل، ودخل «جودل» غرفة الموت المقيتة تبدو عليه علامات عصبية واضحة، وكان يبلل شفتيه باستمرار وملامحه مخطوفة ومرتعبة حين مشى ـ ليس بنفس

الثبات الذي كان عليه «كيتل» في طريقه إلى درجات سلم المشنقة، إلا أن صوته كان هادئاً حين نطق بآخر كلماته على الأرض: «تحياتي لك يا ألمانيا». . . وعند الساعة 2,34 صباحاً، غطس «جودل» وسط الفتحة السوداء للمنصة وقد شنق هو «وسوكيل» معاً حتى أُعلن عن وفاة الأخير بعد ست دقائق ثم رُفعا.

وكان «سيس انكورات» التشيكوسلوفاكي المولد ـ والذي عينه هتلر حاكماً لهولندا والنمسا ـ آخر ممثل ظهر في هذا المشهد غير المتوازي، إذ دخل الغرفة الساعة $2,38\ ^1/_2$ صباحاً، مرتدياً نظارات جعلت من وجهه ملمحاً كاريكاتورياً سهل التذكر، ونظر حوله وعلامات عدم الثبات بادية عليه، وهو يعرج على قدمه الخشبية اليسرى متجهاً إلى المشنقة وصعد الدرجات ببطء بمساعدة حارسيه، وحينما نطق كلماته الأخيرة، كان صوته منخفضاً، لكنه كان حاداً، فقال: «آمل أن تكون هذه الإعدامات، هي الفصل الأخير لمأساة الحرب العالمية الثانية، وأن يكون الدرس المستقى من هذه الحرب هو أن يسود السلام والتفاهم بين الشعوب، وإنني لأؤمن بألمانيا»، وسقط للموت الساعة 2,45 صباحاً.

ومع تدلي جثتي «جودل» و «سيس انكورات»، وبانتظار الإعلان الرسمي للموت، فتحت أبواب الصالة الرياضية من جديد، ودخل بعض الحراس يحملون جثة «جورينج» فوق نقالة، لقد نجح في إفساد خطط اللجنة الإشرافية للحلفاء بإرغامه على قيادة مسيرة المحكوم عليهم من زعماء النازي إلى حتفهم، لكن ممثلي اللجنة صمموا أن يأخذ جورينج مكانه ـ على الأقل ـ كرجل ميت تحت ظلال المشنقة.

فقام الحراس بوضع النقالة فيما بين المشنقة الأولى والثانية وبرزت قدما جورينج العاريتان الضخمتان من أسفل نهاية بطانية كاكية اللون من مخازن الجيش الأمريكي، وتدلت ذراع واحدة داخل كم من الحرير الأزرق بجواره، ثم أمر الضابط المسؤول عن الإجراءات برفع البطانية حتى يستطيع الشهود وممثلو الحلفاء رؤية موت جورينج تحديداً بأنفسهم، إذا لم يرغب الجيش في انتشار أية أساطير حول تمكن جورينج من الهرب.

وبينما ترفع البطانية، انكشف جورينج بملابسه الحريرية السوداء «بيجاما» وسترة زرقاء فوقها وكانت كلها تنضح ماءً، وكان واضحاً أن ذلك البلل نتيجة لجهود أطباء السجن من أجل إنقاذ حياته، وكان وجه ذلك الانتهازي السياسي الجوال لا يزال مفعماً بآلام لحظاته الأخيرة المفجعة، وملامحه المتحدية للنهاية.

ثم قاموا بتغطيته بسرعة، لقد كان سيد الحرب النازي هذا ـ الذي يشبه شخصية بُعثت من حكم أسرة بورجيا ـ مختلطاً بالدماء والجمال، ثم حملوه خلف الستارة القماشية إلى صفحات التاريخ السوداء.

حادثة ثأر بالجزيرة العربية

«نوفمبر/الحرث 1946 افرنجي»

*** ويلفرد ثيسيجر**

«عاش المؤلف «ويلفرد ثيسيجر» مع بدو جنوب الجزيرة العربية، قبل اكتشاف البترول الذي غير الإقليم وحطم أساليب الحياة القديمة».

. . . غادرنا «شيسور» يوم 9 نوفمبر، في صقيع الفجر البارد، وكانت الشمس مرتكنة على حافة الصحراء كرة حمراء بلا حرارة، وسرنا كالمعتاد حتى أصبح الجو دافئاً والجِمال تخطو أمامنا ككتلة متحركة من الأرجل والأعناق، ثم بدأنا واحد وراء الآخر ـ كلما أخذنا التعب ـ نركب ظهورها، ونستقر في مقاعدنا، طوال الساعات الباقية أمامنا، وغنى العرب ـ وكان صياحاً قبلياً هادراً ـ، فأسرعت الجِمال المتأرجحة خطاها مائلة للأمام نحو الأرض المسطحة، إذ إننا تركنا التلال خلفنا وعلى طريق تحد الرمال العظيمة، ولمحنا الآثار القديمة للظباء، كما رأينا غزالاً يتقافز بأرجل يابسة عبر السهل، واندفعت عدة أرانب من الشجيرات الملحية الذاوية وسط المجاري المائية الغائرة.

وحادثنا «ابن مطلوق» عن الغارة التي قُتل فيها الصغير «سهيل»، كان هو ومعه أربعة عشر من رفاقه قد فاجأوا قطيعاً من الجِمال لقبيلة «صقر» فأطلق الراعي عليهم طلقتين قبل هروبه ممتطياً أسرع جِماله، وأصابت إحدى الرصاصتين الصبي

«سهيل» في صدره وحمل «بخيت» ولده الذي يموت بين ذراعيه وهم عائدون عبر السهل، بالجِمال السبعة المغنومة.

وحين أصيب «سهيل» كان الوقت متأخراً من الصباح، وعاش حتى الغروب تقريباً متوسلاً شربة ماء ليس معهم منها شيء، وقادوا جِمالهم طوال الليل تجنباً لمطاردة متوقعة، وعند شروق الشمس رأووا بعض الماعز ومخيماً صغيراً لقبيلة «صقر» تحت شجرة بواد غائر، وكانت هناك امرأة ترج الزبدة في قربة جلدية وطفل وطفلة يحلبان الماعز وجلس بعض الأطفال الصغار تحت الشجرة، ورأى الطفل القادمين أولاً فحاول الهرب لكنهم حاصروه أمام صخرة واطئة، وكان عمره في حوالى الرابعة عشرة أي أصغر قليلاً من «سهيل» ولم يكن مسلحاً.

وعندما احتاطوه وضع إبهاميه في فمه علامة على الاستسلام، ثم طلب الرحمة ولم يجبه أحد، وانزلق بخيت من فوق جمله وسحب خنجره، ثم أغمده في ضلوع الصبي فسقط عند أقدامه وهو يئن: «أبتاه... أبتاه...» ووقف بخيت أمامه حتى مات، فارتقى سرجه مرة أخرى وهدأ حزنه قليلاً بالقتل الذي ارتكبه تواً، وبينما «ابن مطلوق» يتحدث، محملقاً خلال السهل المستوي بعينيه الناريتين الدمويتين.. تخيلت المشهد بوضوح رهيب، ذلك الشبح الصغير، طويل الشعر والرداء البسيط يزحف فوق الأرض، والبركة الدموية المتزايدة والذباب المتجمع الشره، والعويل الموجع لامرأة ذات رداء أسود والأطفال المفزوعين، والصراخ المتواصل المرتعش لطفل صغير...

السباق القومي الكبير

«29 مارس/الربيع 1947 افرنجي»

*** جون هيلسوب**

«عندما واجه الناس نقصاً في الغذاء والوقود بعد الحرب، التمسوا السكينة في الرياضة، وأصدرت سكرتارية المجلس فرماناً بأن يعقد السباق القومي الكبير لعام 1947 افرنجي يوم «سبت» حتى لا يقطع يوماً من أيام العمل الأسبوعي».

. . . كان هناك سبعة وخمسون منا مصطفين عند خط البداية مثل السردين في علبة، وكان موقع «كامي» ثلث المسافة من الداخل فيما بين «ريرمامنت» و «سوم تشيكن»، وكالعادة كان هناك عناد من الخيول وفوضى، مع صيحة البداية «ابتعدوا عن الشرائط». . .

ثم ظهرت البوابة فقفزنا فوقها، وغالبيتنا في حالة لهفة كما لو أن أمامنا مسافة خمسة أشواط[1] فقط سنجريها آخذين في الاعتبار تعسر التسابق بعد مطر هذا الصباح، وكانت الخطوة المعتادة في ميدان السباق صعبة للجواد بحيث إنه لا يمكنه الاحتفاظ بدوامها في نفس الوقت الذي يتمكن فيه من استكمال السبق.

وانسحق «كامي» حين بدا الميدان وعراً، لكنه ثبت على خطوة متأرجحة لم تكن كافية للبقاء على قرب من حائط المتقدمين الصامد، ووجدنا نفسينا نعبر السور الأول جيداً ونصبح خلفه ولكن دون أية تدخلات، إذ عبره «كامي» بقفزة صحيحة كما لو كان حصاناً من نوع «الإينتري» الأصيل، فهو يرتفع جيداً ثم يهبط دون تعثر.

كان بنفس المنطقة جوادان أو ثلاثة أشبه «بكامي» وجواد آخر أو اثنان بالمنطقة القريبة، فانطلقت لمسافة طويلة ملتفة نوعاً ما نحو الخارج، لسببين، أولاً: المضي خلال هذا الطريق أقل «خضخضة» واهتزازاً، ثانياً: أردت أن يخلو «كامي» تماماً من أية إصابات أو مفاجآت قد تؤدي بجواد في مثل رهافته إلى السقوط أرضاً.

كان لا يزال يقفز بدقة، وفي الحقيقة لم يُنزل كامي قدمه مرة بصورة خاطئة طول الطريق، وقد أمدني تأرجحه ـ حتى مع ثباته ـ بالثقة، كما جعلني كمال قفزاته ـ إذ يقدر طول كل سور جيداً قبل عبوره ـ أشعر أنه أينما انتهى فلسوف يكمل السباق بالتأكيد.

وبينما نستدير نحو الريف لأداء آخر دورة، بدأ «كامي» ينهب المضمار

---

(1) الشوط هنا يساوي $^1/_8$ من الميل الإنجليزي.

بالتدريج، وقفز حاجز «بيتشر» للمرة الثانية، وأصبح أملنا في النصر المحتمل شيئاً أكثر من مجرد الطموح لدى كل قافز للحواجز، وكان هناك ـ على ما أعتقد ستة أو ثمانية جياد أمامي هي التي ما زال قائدوها فوق ظهورها، ولكن أغلبهم كانوا متعبين، وأثناء اجتيازي لهم ألقى أحد قائدي هذه الخيول بكلمة تشجيع لي، تعني الكثير في سباق من هذا النوع على الأقل، إذ قال «عمل رائع، ياجوني، استمر».

وحين اجتزنا الطريق المتبقي به حاجزان فقط علينا عبورهما، استطعت رؤية «البرنس ريجنت» أمامي متعباً بشكل واضح، وما زالت المسافة الباقية غير بسيطة، والسترة الخضراء «للوف كون» والأخرى الخضراء على أزرق للفائز ـ فيما بعد ـ الذي لم أستطع معرفة شخصيته كمعظم المشاهدين فيما أعتقد.

وعند وصولي للحاجز قبل الأخير كان هناك جوادان ينطلقان أمامي، وفي الداخل يوجد «البرنس ريجنت»، فأدركت عندئذ بألا أمل لي في الفوز، خاصة وأن «كامي»، قد تعب، فالمشوار المضني قد أجهد بنيته الرقيقة، في حين دفعته شجاعته وقوة تحمله على الاستمرار، إلا أنه قفز الحائل بدقة وتوجه نحو الأخير، ومعنا على مسافة مستوى واحد تقريباً ـ على ما أظن ـ «البرنس ريجنت» لكنه كان مرهقاً، وهبطنا بسلام مع الامتداد الطويل إلى خط الفوز المنشور أمامنا وكلانا متعب، لكن «البرنس ريجنت» كان مضروباً بالتأكيد، فأخرجت سوطي وظللت أضرب به الهواء دون أن أمس «كامي»، فاستجاب لي بنبل، وبالتدريج تخطى جواد السيد «رانك» ليأخذنا إلى المرتبة الثالثة.

وهكذا قاد سائقو الجياد الفائزة خيولهم عائدين إلى الأسوار الثلاثة، أسوار غير المسرجة والمخصصة للأول والثاني والثالث، وأمامي تقدم الفائز «كوجو» يرافقه فارسان من الشرطة ومحاطاً بمجموعة من الناس وفيهم مالك الجواد نفسه والمدرب والأصدقاء، والكل يجري بجواره ليربتوا على ظهر الجواد ويهنئون قائده.

وبالنسبة لي، كانت مشاعري تتسم بالاعتراف المركب بالجميل ذي الثلاثة

اتجاهات، للجواد لشجاعته وللطريقة التي حملني بها «ولتوم ماسون» المدرب وصاحب الحالة الجميلة «لكامي» ولله من أجل الحظ الذي رافق رحلتنا.

ستالينجراد «1949 افرنجي»

* جون شتاينبك

. . . وعبر الشارع تجد فندق «انتوريست» المعاد إصلاحه حيث توجب علينا أن نقيم، وقد أعطينا غرفتين كبيرتين تطل نوافذها على حطام وأحجار مكسورة وكتل إسمنتية وطلاء مسحوق، وسط ذلك الدمار نبت عشب غريب قاتم مما يبدو نامياً في الأماكن المحطمة، وخلال الوقت الذي أمضيناه في ستالينجراد، زاد ارتباطنا أكثر فأكثر بهذا الدمار الشاسع لأنه لم يكن مهجوراً، فتحت الحطام توجد أقبية وفتحات يعيش بداخلها الكثير من الناس، كانت ستالينجراد مدينة ضخمة وكان بها عمارات كبيرة والعديد من الشقق، أما الآن فليس بها شيء من ذلك، عدا المباني الجديدة في الضواحي.

وكان على سكانها أن يقطنوا مكاناً ما، فعاشوا في أقبية المباني حيث كانت الشقق يوماً ما، وقد نتطلع عبر نافذتنا فتظهر فتاة فجأة من خلف كومة كبيرة من الحطام في طريقها للعمل صباحاً وهي تضع اللمسات الأخيرة لشعرها بواسطة مشط، في زي كامل نظيفة الملابس، وقد تتمايل وهي تمشي وسط الأعشاب البرية في طريق العمل، كيف عاشوا هكذا؟ لا نجد لدينا إجابة، وكيف استطاعوا الحياة تحت الأرض وبقوا محتفظين بنظافتهم وكرامتهم وأنوثتهم. كما خرجت سيدات البيوت من حفرات أخرى وذهبن إلى السوق، رؤوسهن مغطاة بمناديل الرأس، وفي أيديهن سلال المشتروات، كان ذلك سخرية بطولية عجيبة في حياتنا المعاصرة.

كان هناك استثناء واحد مرعب إلى حد ما، فخلف الفندق مباشرة وفي مكان تطل عليه نوافذنا، كانت هناك كومة من النفايات: عظام وقشر بطيخ وبقايا بطاطس ومثل هذه الأشياء التي تلقى إلى القمامة، وعلى بعد ياردات قليلة، كثيب

صغير يشبه مدخلاً في جوف جذع شجرة، وكل صباح باكر تزحف فتاة صغيرة خارجة من هذه الحفرة لها ساقان طويلتان وقدمان عاريتان، ويداها رقيقتان رفيعتان وشعرها متشابك قذر، كانت مغطاة بسنوات طويلة من القذارة، لدرجة أن بشرتها استحالت للون البني، وعندما رفعت وجهها بدا واحداً من أجمل الوجوه التي رأيناها.

كانت عيناها ماكرتين كعيني ثعلب لكنهما لم تكونا بشريتين، وكان وجهها سليم النمو لا يعبر عن تخلف عقلي، ويبدو أنه في مكان ما وسط رعب القتال الدائر في المدينة، حدث شيء ما فجأة فارتمت في هدوء النسيان.

كانت تجلس القرفصاء على مؤخرتها وتأكل قشر البطيخ وتمتص العظام الملقاة من حساء الناس الآخرين، وتبقى هناك عادة لمدة ساعتين قبل أن تملأ معدتها، حينئذ تخرج وسط العشب وتستلقي لتنام تحت الشمس، وكان وجهها منحوت بوداعة محببة وتسير على ساقيها الطويلتين بمهارة الحيوان المتوحش، وكان الناس الآخرون ـ الذين يقطنون الأقبية المجاورة ـ نادراً ما يتحدثون إليها.

ولكن ذات صباح، رأيت امرأة تخرج من حفرة أخرى وتعطيها نصف رغيف من الخبز فتعلقت به الفتاة بشدة وأمسكته فوق صدرها، فبدت ككلب نصف متوحش تجاه المرأة التي منحتها الخبز، ونظرت إليها بريبة حتى رجعت إلى قبوها، عندئذ استدارت ودفنت وجهها في شريحة الخبز السوداء، وتطلعت لقطعة الخبز كالحيوان بعينين تتحركان جيئة وذهاباً، وبينما هي تقضم الخبز انزلق جانب من قمصيها المهلهل القذر عن صدرها الصغير المتسخ، فجذبت يدها ـ بتلقائية شديدة ـ القميص وغطت به صدرها وثبتته في مكانه وعرتها ملامح أنثوية منكسرة القلب.

وقد تعجبنا، فكم يمكن أن يوجد من أمثال هذه؟ هذه النفوس التي لا تتحمل الحياة وسط القرن العشرين بعد ذلك، ولجأت ليس إلى التلال والمرتفعات وإنما إلى هضاب الماضي البشري، وإلى البدائية الأولى في المتعة والألم وغريزة البقاء، كان ذلك وجهاً تحلم به لمدة طويلة.

حادثة ميدان الطرف الأغر

«23 سبتمبر/ الفاتح 1950 افرنجي »

*** كينجز لي مارتن**

بعد ظهر الأحد الماضي قرر طفل وطفلة، عمرهما سبع سنوات تقريباً، بمنتهى الوضوح، أن يقوما بالاستحمام في نافورات ميدان الطرف الأغر، وبسعادة ودون اعتراض خلعا ملابسهما بالقرب من مقعد يشغله ثلاثة من الكبار بدت على ملامحهم تعبيرات اللامبالاة وكأن «ذلك ليس من شأننا». . وحالما انتهى الطفلان من خلع ملابسهما انطلقا بفرح نحو النافورة واستحما وسط الرذاذ المتطاير وصرخا بمتعة وقفزا إلى أحد جوانب الحوض وأرجحا أصابع أقدامهما في الماء الأزرق، بعد ذلك، وهما يتضاحكان اندفعا عائدين إلى المقعد وجففا جسميهما بملابسهما الداخلية، ثم انطلقا من جديد نحو الماء.

كان الطفلان لا يزالان يتمتعان بوقت رائع، وكذلك المارة حين هبط عليهم القانون، كان شرطياً شاباً مبتسماً، أتى يخطو حول الميدان ثم عبره متجهاً للطفلين، وقام أحد الأصدقاء ـ الواقفين بالقرب ـ ولم يكن قد سمع ما قاله الشرطي ـ بمساعدة الصبي في تثبيت حمالات بنطاله ثم عقد أزرار ثوب الفتاة، فقال أحد الواقفين: «يمكنني القول أنه حصل على أطفال مما يريد». . وانصرف الطفلان بعيداً ورأسيهما مطأطأين تقريباً، وبالتفاتتهما فجأة، شاهدا رجل الشرطة يتبعهما وبدلاً من الهرب عادا إليه، فاقتادهما عبر حركة المرور بأمان وهو يمسك يداً من كل منهما في إحدى يديه، وكان ذلك أكثر من تعبير حي عن حاجة الأطفال لمسبح عام يصعب التعبير عنه بغير هذا، ولن يستطيع أي شخص القول أن هذين الصغيرين يأبهان بالتحذير التربوي الشائع «سأقول للشرطي».

الحرب الكورية.. ضحية مدنية بالقرب من نامشان جان

«17 أكتوبر/ التمور 1950 افرنجي»

*** ريجينالد تومسون**

«بدأت الحرب الكورية في يونيه 1950 عندما هاجمت كوريا الشمالية الشيوعية

ـ مدفوعة من الاتحاد السوفييتي ـ كوريا الجنوبية، عابرة خط عرض 38 بينهما، وانضمت الأمم المتحدة للحرب بجانب كوريا الجنوبية، كما ساعدت جمهورية الصين الشعبية كوريا الشمالية، وبعد مقتل 5 مليون شخص، انتهت الحرب يوم 27 يوليه 1953 افرنجي بواسطة هدنة ثبتت الحدود القائمة بين الشمال والجنوب».

كنا نمضي مع رجال مقاطعة «أرجيلشاير»، والطريق يخترق حقول الأرز دونما غطاء وكوبري يقود عبر مصرف نهري عميق مع الطريق يلتوي حول انثناءة التل حتى «هانجسو ـ ري»، ولكن كانت هناك مأساة الحرب أولاً، إذ سمعنا قرقعة السلاح، دفعة أو دفعتين من طلقات الأسلحة الأتوماتيكية في مكان ما على اليمين، وامرأة فلاحة ملقاة داخل مجرى مائي صغير بجوار الطريق وطفلاها الصغيران يحبوان عليها، فقمت بتصويرها وهي راقدة هناك في سلام، يبدو عليها النوم فقط، لكنها كانت ميتة، جلس طفل منهما فوق بطنها ويداه الصغيرتان تسعيان نحو وجهها تتحسسان وتجذبان شفتيها ويزداد فزعاً، وبلا استجابة تدمى صرخاته ـ كما علمها وهو يحاول أن يرضع من النهدين الدافئين المترعين حتى هذه اللحظة ـ الميت حتى يصحو، وجلس الطفل الآخر وسط نوع من الذهول الرافض عند قدمي أمه الميتة.

وحاول واحد منا أن يحول الطفل الصغير بتفاحة، لكن لا شيء يستطيع استئصال حزنه العميق، وصدمنا ذلك بقوة، وقد ذكرنا بالمعنى الذي لا ينسى للحرب، وطلبنا عربة إسعاف طبية، وأخذ أحد المسعفين الطفلين بين يديه ليبدءا حياة اليُتم المكتوبة لهما، وتركت المرأة وحيدة داخل الحفرة. . .

الحرب الكورية

الانسحاب الأمريكي من نهر تشونج شون.

«27 ـ 28 نوفمبر/الحرث 1950 افرنجي»

*** ريجينالد تومسون**

«بعد الإبرار البحري لـ«مارك آرثر» عند «أنشون». الذي قطع خطوط إمداد كوريا

الشمالية، تقدم الأمريكيون باتجاه الشمال عابرين خط العرض 38، رغم تحذيرات الصين بأن تخطيه سيجبرها على التدخل، ويوم 25 نوفمبر عام 1950 افرنجي دخل 180,000 متطوع صيني الحرب، وبحلول يوم 15 ديسمبر أرغمت قوات الحلفاء على التراجع حتى نهاية خط 38».

. . . لقد كانت لعبة «ضربات الرجل الأعمى» وسط هذه التلال الوعرة غير المنتظمة، التي يتحرك فيها العدو بحرية ويفلت بسهولة من أسلحة الأمريكيين التي تترصده نهاراً، ثم ينقضّ عليهم - بلا رؤية - ليلاً بغضب هائل ونظام بديع، فلا طلقة واحدة يضربها الصيني ما لم يكن على بعد ثلاثين ياردة من الهدف، في الوقت الذي ارتبط فيه الأمريكيون بالطريق بأثقالهم الكبيرة من سلاح غير مجد، فالمدافع كانت تتدحرج للخلف والطوابير الضخمة كانت تتراجع وسدت المركبات الضخمة حارات الطريق الضيقة لمسافة مائة ميل تتلاصق المقدمات في المؤخرات، وفي الخلف عبر نهر تشونج شون، كانت الفرقة 25 قادمة من مناطقه الضحلة، في حين وزع الكلولونيل «ستيڤنس» حرس المؤخرة حول مقدمة كوبري «باكشون» وعلى الطريق حتى «سينانجو»، لكن كان هناك عدو بسيط يعوق سيره هو الشعور المخيف بضرورة التعجيل، قبل أن يجرف النهر هذه السدود البشرية الرقيقة ويبتلع الجيش الثامن كله.

ولطخ الدخان المتصاعد من عشرة آلاف نار مشتعلة وجه القمر، وألقى بالوجوه المصدومة للاجئين المجهدين في ظلال قاتمة كمنحوتات فوق تاج الأعمدة القديمة، تكرار لا نهاية له من الشخصيات، هي قصة الإنسانية تطل برأسها.

ولم يكن هناك نوم ولا راحة أثناء الليل، ففي خلال خمس ثوان من النداءات بالبروجي[1] يتم الهجوم سبعة رجال من كل عشرة مغطون - بالمعنى الحرفي

(1) bugle: آلة نفخ نحاسية تستخدم في إصدار تعليمات عسكرية معينة مثل: الجمع - التفرق - الإنذار - تحية العلم. . الخ وتسمى البروجي. «المترجم».

للكلمة ـ بقنابل يدوية متلامسة فوق عصي، والثلاثة الباقون بالبنادق الآلية، وقد هوجمت سرية القيادة ليلة السابع والعشرين من نوفمبر، وبينما تحاول الانسحاب عبر نهر «تشونج شون»، كان الصينيون منتظرين ـ تماماً ـ على الضفتين بالمدافع الآلية الموجهة لمؤخرة الأمريكيين ودمرت قذيفة «بازوكا» دبابة أمريكية، وفي الأضواء المفزعة للدبابة المشتعلة جاهدت السرية لتشق طريقها بواسطة الدبابات الباقية حاملة الجنود عبر النهر المتجمد، وقد تجمدت السيارات «الجيب» ملتصقة بالأرض، كما قاوم الرجال وسط المناطق الضحلة عبر نقطة العبور بأحذيتهم الثقيلة الصقيع المتجمد في كتل كبيرة على أقدامهم، وتنشر أسلحة العدو الآلية رعب الموت عبر الليل.

وحالما أصبح مساعد قائد السرية وراء النهر، حتى عاد ثانية بدبابة لينقذ المزيد من رجاله تحت وابل من الرصاص، وانفجرت قنبلة يدوية على خوذته الحديدية، وبمعجزة قام الرجل المذهول واقفاً، ليجمع عشرة من رفاقه ويصل للدبابة ثم يعود، وحمل الآخرون الجرحى على ظهورهم، والموقف من وجهة نظر عسكرية كان يعتبر كارثة، إذ لم يكن هناك أبداً طلب بالبقاء ومواجهة هذه الهجمات أو باستعادة الأرض المفقودة نهاراً، لأنها هُجرت، أو حتى بالتقدم للأمام. . . فالقوات المدربة والمنظمة فقط هي التي تستطيع أن تفعل ذلك، وهؤلاء الرجال تصرفوا وفعلوا ما قاموا به ببطولة كما يجب أن يكون عليه الرجال.

لكن توجههم حين يهاجمون كان بوضوح تام: «فنلخرج من هنا أياً ما كان الأمر». . ويفعلون. . وغالباً ما كانوا يدفعون للبقاء، لكن ذلك كان يعني تدريباً شاقاً وضباطاً حازمين وكذلك ضباط الصف وخطة نيران ونظام متشدد وكلها أمور يفتقدونها.

وكان غريباً أنه في النهار، أمكننا التحرك وسط جو من الظلام الموحش، أشبه بمن يتحرك في أرض الظلال والأشباح والموتى، وكان احتمالاً مرعباً البقاء وسط التلال المشتعلة التي تنتصب بقممها وحوافها من ضفاف «تشونج شون»

العالية وإلى علو فريد، وكأن محيطاً قد تجمد ثم أبرز فجأة - وسط العاصفة - عصبة متوحشة من التلال.

كنا مثل «قطعة اللحم في الساندوتش والصينيون هم الخبز» هذا ما قاله أحد الجنود، وساد هدوء ومرح بين الأمريكيين لم أعهده من قبل، ويمكنك أن تلمس بوضوح التفاوت الكبير وسط الجنس البشري حيث توجد الطبقة المتوسطة، ففي القمة الضباط العظام من الدرجة الأولى، وعند القاع ناس الدرجة الأولى السفلى، لكن الشعب الذي خرج منه كل هؤلاء الضباط ورجال الخدمة المدنية وبقية المتعلمين الذين يشكلون خلفية وتكاملاً، كان غير موجود هناك.

وقال أحد الرقباء: «إنه يبدو مثل الصينيين لا يرغب في وجودنا فوق نهر «يالو» وهو يقود جماعة متعبة بحثاً عن وسيلة نقل». قالها دون أثر للمرارة في صوته، كان الأمر معه ميسراً، وهم - أيضاً - يستطيعون استرداده، فالكل يعلم أن الحرب الكورية قد انتهت.

الحرب الكورية: الأب «بليسديل» والأطفال اللاجئين

«سيول: ديسمبر/ الكانون 1950 افرنجي»

*** رينيه كاتفورت**

عند الفجر، ارتدى القس «بليسديل» ملابسه في تلك الحجرة المثلجة قليلاً والموجودة أعلى ملجأ الأطفال في سيول، فوضع سترته الواقية من الجليد ذات غطاء للرأس وجاكتةً «سترة» إضافيةً أخرة، لأن الريح السيبيرية «الشمالية» كانت تصفِّر في أركان عنبر المدرسة الرمادي الكبير، والذي أحرج الحكومة كي تعيره له، وكان الماء في حوضه متجمداً ودورة الفجر الرابعة والخمسين - والأخيرة له - سوف تكون بصورة استثنائية، دورية غير سارة.

وقرقع حذاؤه على طول البلاطات الحجرية في الممر البارد حيث يؤدي إلى الباب الرئيسي وكانت الشاحنة تنتظر، ووقفت الممرضتان الكوريتان كالعادة فوق الحصى المغطى بالجليد تحت ضوء الشمس المشرقة الأصفر المائل للرمادي

جاهزتان للعمل، مراهقتان ذاتا ضفائر ووجهاهما القمريان هادئان وعطوفان كوجوه البقر . . .

وصعدوا الشاحنة وألقوا بتعليماتهم للسائق، إلى نهاية طريق الجامعة ثم مع خطوط الترام حتى البوابة الجنوبية المشهورة ذات الأسطح الستة العالية والمحكمة كالقلعة، ثم عبر طريق «البلاك ماركت» ومنه إلى النهر عبر المدينة الصامتة، حيث تبدأ الآن فقط أولى مجموعات اللاجئين في الحركة، وهم يجمعون لفائفهم ورباطاتهم حولهم استعداداً لمسيرة اليوم.

وحتى وصول الأب «بليسديل» لطريق «ريڤر سايد» كان قد مَرّ خلال المرحلة الأولى العادية للتجاوب مع الريح بتلك الغضبة اليومية المتجددة، إذ يمكن أن توجد أعمال شريرة بمثل هذه الكثرة، واستراح الآن في سيارته المفتوحة ممدّداً للخلف، ومعجباً بالمهارة اليسيرة للسعات الريح وهي تخترق جسده واصلةً للعظم.

ويوجد ممر كثيب متفرع من شارع «ريڤرسايد» ممتلىء بأعواد القش المكسورة والنفايات التي يمكن أن تتعفن لو سمح لها البرد بذلك، ويؤدي هذا الممر إلى أقواس كوبري السكة الحديد عبر نهر «هان». وعند مدخل الممر، واحدة من قاطنات حارات سيول[1] امرأة مرهقة، متهالكة، وفي الثامنة والعشرين من عمرها، تقف في انتظار الشاحنة، وهي واحدة من «نظام» القس الاستخباري، وعندما أمدت الممرضتين بمعلوماتها، تلقت مقابلها 500 وون «واحد شلنج»، لقد استيقظت عند الفجر وطال انتظارها نصف ساعة وسط الريح من أجل هذا الثمن.

ودارت عجلات الشاحنة فوق السطح المتجمد للطريق عابرة إياه هابطة طريقاً رملياً صغيراً، ثم توقفت عند القوس الثاني من الكوبري، وكان الكوبري في ركنه

(1) Slum: الشوارع الخلفية للمدن حيث تعيش الطبقات الفقيرة وأقرب تسمية لها في العربية هي الحارات رغم أن العامية المصرية أقرب تعبيراً بالقول «حواري». «المترجم».

البعيد مرصوصاً بكتل خشبية توجد أمامها أكياس أرز متسخة مبقعة بالقذارة وصلبة كالخشب، فأزاح القس الطبقات الأربع الأولى من كوم الأكياس كاشفاً عن منظر مرعب. كان طفلاً عارياً مغطى تقريباً بالأسمال البالية راقداً فوق كومة من فضلاته «برازه» وسط نوع من الأعشاش شقه لنفسه بين أجولة الأرز، لا يكاد يستطيع رفع نفسه فوق أحد كوعيه، لكن ما تزال لديه بعض القوة الكافية لسحب شفتيه المقرحتين من لثته الدامية «ليزوم» ويبصق نحو الأب كقطيطة غاضبة.

ولم تكن رقبته أكثر سُمكاً من «مقبض مكنسة» وبطنه تبدو عليها أقصى مظاهر التضور جوعاً، وبدا برقبته غير المتناسبة مع عينيه الجاحظتين كفرخ طير مذعور أزعج داخل عشه.

وبعد التعامل باحتراس مع هذا الشيء المفزع الذي واصل العض «والخربشة» بضعف ووهن رغم أنه لم يصدر صوتاً، تقدم الأب وهو يحمله بين ذراعيه نحو الشاحنة، حيث لفته الممرضتان الكوريتان في بطانية ونجحتا في جعله يبتلع قليلاً من اللبن الدافيء، قامتا بصبه من قنينة حافظة للحرارة، عندئذ أعطى الأب لسائق السيارة عنواناً آخر وتحركت دورية الفجر نحو موقع آخر.

وعند الساعة الحادية عشرة، عند عودة الأب لدار اليتامى «الملجأ» كانت شاحنته مملوءة.

قال الأب: «إنهم ضحايا الحرب الحقيقيون» بصوت الحذر والمتردد الذي يخلو من التعبير، ثم يستطرد «إن تسعة أعشار العدد الذي نجده، كان قد فُقد أو هُجر وسط طوابير اللاجئين ولن يأخذهم أحد ما لم يكن قريباً لهم، ولدينا من أولئك الأطفال في الملجأ 800، وعادة ما يتحسنون في وقت قصير، لكن الحالات السيئة تميل للصمت التام، حتى بعدما يصبحون أقوياء من جديد فهم لا يهتمون بالاندماج مع الآخرين، ولديّ طفل صغير لم يقل كلمة واحدة لمدة ثلاثة أشهر سوى «نعم» و«لا».

صيد الأرانب

«3 نوفمبر/الحرث 1952 افرنجي»

*** جو إيكيرلي**

«جو - ر - إيكيرلي «1896 - 1967 افرنجي» مؤلف كتاب «كلبي تيوليب» كان محرراً شهيراً للقسم الأدبي بصحيفة «ليسز» لعدة سنوات طوال».

. . . أخذنا - أنا وڤيكتور - الصغير برنارد معنا وكان في العاشرة من عمره، وابناً لأحد النصابين الذين قضوا في السجن بعض السنوات، وهو طفل فضولي بعينين زرقاوين ضخمتين غير ماكرتين إلى حد ما، وقد توسل إلينا كي نأخذه معنا، وهو يرتدي ما أشبه بأزياء الحرب: سروال هندي مصنوع من قماش بال وحذاء طويل مطاطي ومعه عصا حديدية يقول عنها إنها بندقية، ولم نمض بعيداً حتى ميَّز «تريب» - كلب الفندق - مكان أحد الأرانب وسط أكمة من أشجار التوت البري ثم قتله، واستغرق وقتاً لقتله بسبب كثافة نمو النباتات الأرضية التي وجدناهما فيها، حتى إنه لم يصل للأرانب مباشرة.

وكان قد قيل عنه أنه ليس ماهراً في القتل على أية حال، وما إن أسرع للإمساك به حتى صأى[1] الأرنب بصوت عال وكان تأثير ذلك على برنارد مثيراً جداً فأصيب - تقريباً - بالهستيريا التي تملكته تماماً «لا، لا، ياه، انظروا. . . انظروا. . . دعوني، . . دعوني، ها هو. . . أوقفوه، ياه. . أوقفوه». وكل هذه التعبيرات العجيبة، وحاول أن يندفع نحو الشجيرة ويقفز حولها، وبدأ يصرخ ويجذب نفسه، وفيما بين الفينة والأخرى يتطلع إلى وجهي ويكشف عن نوع من الابتسامة، ثم يندفع عائداً إلى الشجيرة ثانية، كل هذا خلال دقيقة.

وكان ڤيكتور طيباً معه، فأمره بحزم أن يسلك سلوكاً جيداً، قائلاً له إنه سوف يعيده للمنزل إذا ساء التصرف، ثم جذب الأرنب - الذي ما زال حياً رغم نزيفه -

(1) اخترت الفعل صأي لقربه من صوت صراخ الأرنب أثناء مطاردته. «المترجم».

من بين الشجيرات وقضى عليه بضربة واحدة من يده، حينئذ أخبر برنارد أنه يجب ألا يكون سخيفاً إلى هذا الحد وأن الأرانب حيوانات ضارة يجب أن تقتل وأنه إذا شاء أن يخرج للصيد فعليه أن يعتاد ذلك، فتمالك برنارد نفسه ورغب في ذلك، فسمحنا له بحمل جثة الأرنب.

لكنه كان يعلق على فترات أثناء سيرنا بقوله: «لقد سمعته يصيء، لقد سمعته يصرخ» وفيما بعد وطالما كان مذعوراً من حمله من رجليه بيده، قررنا ربط مقود كلبي في الأرنب حتى يتمكن من إلقائه فوق كتفه، وقبل أن أفعل ذلك أمسك ڤيكتور الأرنب من أذنيه وهزه حتى تتساقط فضلاته وبوله، عندئذ ربط «مقودي» حول رجليه وشد رباط العقدة بإحكام، فصرخ الطفل المسكين: «ليس بهذه الشدة، ليس بهذه الشدة». وهو يعتقد أن الأرنب ما زال يشعر بالإلم، ثم بدا عليه أنه نسي وأصبح صياداً عظيماً، ومثّل أنه يصيد المزيد من الأرانب والطيور بعصاه الحديدية.

وبالطبع كان مثيراً للاشمئزاز أن يذكر الإنسان شيئاً حول الحيوانات والحشرات الضارة، بل وكرهته أيضاً، لكن الحياة عودتني على مخاوفها، وهذه الفترة ستظل عالقة في ذكريات برنارد بوضوح طوال حياته - ورغم أنه أراد الخروج لصيد الأرانب، ظل دائماً يريد أرنباً خاصاً به - ولا يستطيع أحد أن يؤكد أن ذلك سيؤثر على حياته بالخير أو بالشر، إلا أن تلك كانت صدمة مفزعة له وللحيوانات الضارة!! يا للبشر المغرورين، هل الأرض ملك خاص لهم؟ ألا تظنهم الأرانب جيراناً ضارة بالمثل، إذا أمكن القول؟ وأليسوا هم في الحقيقة خطر أكبر للعالم الحي كله أكثر من الأرانب نفسها؟.

الوصول لقمة «إيڤرست»

«29 مايو/ الماء 1953 افرنجي»

*** جيمس «جان» موريس**

«كانت البعثة الناجحة لقمة «إيڤرست» لعام 1953 افرنجي، بقيادة السير «جون

هنت» ووصلت القمة ذات الـ 29,002 قدم ارتفاعاً من ناحية «نيبال» في حين وصلها المتسلقون السابقون من ناحية التبت».

عاد سادة «إيڤرست» «هيلاري» و«نتسنج» لهذا المخيم «22,000 قدم» من «ساوث كول» بعد ظهر أمس بانفعالات وهاجة مشرقة ومنتصرة، وقد أحضرا معهما أخبارهما.

لقد كان يوماً متميزاً رائعاً بين ثلوج الوادي الغربي، وكل شيء كان متموجاً ولامعاً مع هضبة «نوبتس» المذهلة التي تشع في خفوت بلمعان السطح الجليدي الذائب في لزوجة غريبة، وتصاعدت زوبعة من الجليد الناعم تدفعها الرياح لأعلى من حافة «لوتس» كجني يخرج من قمقمه، ويأتي من أسفل الوادي صفير حاد ومفاجىء بين المرة والمرة كجندل تعلو أصوات اصطدام المياه به من المرتفعات، وقمة «إيڤرست» ذاتها وحافتها الصخرية تشق عباب السماء الزرقاء بلا هيبة، كانت كديمومتها صلبة ومحيرة.

لقد كان يوماً للأخبار العظيمة، فهناك داخل المخيم على الجانب الشمالي من الوادي كانت هناك ـ صباح أمس ـ بالفعل حالة من التوتر واحتراق الأعصاب رغم إثارتها الممتعة، إذ عند الساعة 9 صباحاً في اليوم السابق الموافق 29 من مايو، شوهد المتسلقان الشهيران للقمة بمعرفة مجموعتهما المساندة: «جريجوري»، و«لو» وشيربا[1] يعبران القمة الجنوبية عند ارتفاع 28,500 قدم تقريباً، ويتقدمان بهمة نحو الحافة الأخيرة.

كان الجو صحواً، اختفت الرياح التي عصفت بالمخيم السابع في «كول الجنوبية» طوال الأيام السابقة، وكان «هيلاري» و«تنسنج» معروفين بأنهما أمهر متسلقين في العالم، وكانا يستخدمان دائرة مفتوحة للأوكسجين جيدة الاختيار، وقد جلب التقارير كل من «بورديلون» و«إيڤانز» من القمة الجنوبية التي وصلاها يوم 26 مايو في المحاولة الأولى للبعثة، موضحة أن الحافة المجهولة الأخيرة لم تكن غير قابلة للعبور رغم صعوبتها دون شك.

---

(1) Sherpa اسم يطلق على مواطني جبال الهملايا على الحدود بين «نيبال» و «التبت». «المترجم».

وبسبب هذه العوامل المشجعة الكثيرة، فإن الآمال في المخيم الرابع كانت مرتفعة لدرجة الخطورة، وكان الإحساس بالمشاعر المتوترة والقناعات المكبوتة العنيفة تقوى بحدة عندما شوهدت - قبل الغداء مباشرة - خمسة أشباح رقيقة تشق طريقها خلال المعبر عند قمة واجهة «لوتس»، وهؤلاء يمكن أن يكونوا فريق القمة ومعاونيهم من كول الجنوبية فقط، وكانوا ينتقلون بسرعة، وبمرور ثلاث ساعات يمكن أن يصلوا للوادي، فامتلأ المخيم - الآن - بالتوقعات المؤلمة، وجلس - هنا - الكولونيل «هنت» فوق صندوق خشبي بلا حركة وقد تشابكت قبعته المقاومة للماء مع رأسه بشدة، وابيضّ وجهه بطبقة «كريمية» اللون ملتصقة من الجليد، بينما فرد أربعة من المتسلقين جرائدهم - بلا عمل - في الخيمة الهرمية الكبيرة، وجلس أحد الرجال - خارجها - مرتدياً نظارته، يكتب تقريراً عن تقدم المجموعة الهابطة.

قال المراقبون: «لا بد أنهم يتوجهون للمخيم السادس، إنهم يختفون الآن خلف تلك القمة الجليدية ذات الشرخ الرأسي التي تعرفونها إثنان منهم يجلسان أرضاً، وها هما ينهضان من جديد.. باق ساعة أخرى فقط، فما الفرق؟». في النهاية، بعد الساعة 1,30 مباشرة، وبينما يذيع جهاز البث الإذاعي نبأ إخفاق المحاولة الأولى برزت المجموعة الجديدة فوق مرتفع أرضي على بعد 300 ياردة - أو ما يقارب ذلك - يعلو المخيم ببزاتهم الواقية من الرياح ذات اللون الأزرق الحاد والحيوي في مقابل لون الجليد اللامع، وكان «هيلاري» و«تنسنج» يقودان المجموعة، وارتفعت في صوت واحد صيحات الانفعالات السحرية - بلا أسلاك توصيل - في كل أرجاء المعسكر، إن قمة إيڤرست قد تم تسلقها.

واندفع الجميع فجأة فوق المنحدر الجليدي وسط الشمس المشرقة لاستقبال مجموعة الاقتحام، وبدا «هيلاري» منتعشاً بصورة غير عادية رافعاً بلطته الجليدية محيياً، وتزلق «تنسنج» منثنياً في الجليد وابتسم، وفي لحظة أحاطهم الجميع، وتعانقت الأيدي بانفعال، وأُخذت الصور، كما ارتفع أزيز آلة التصوير السينمائي، وتقاطعت الضحكات مع التهنئة.

واتخذ «هيلاري» و«تنسنج» ـ اللذان أصبحا الآن رفاق تسلق قدامي ـ وضعاً تصويرياً والأيدي متشابكة، وتوهج وجه «هيلاري» لكنه تحكم في انفعالاته وكشف «تنسنج» عن ابتسامة رائعة من السعادة، وبينما تهبط المجموعة من التل إلى المخيم، جاءت مجموعة من مواطني الهملايا «الشيربا» على استحياء لتقدم الاحترام لأعظم متسلق للجبال، وتلقى «تنسنج» تحيتهم كملك متواضع، فانحنى له البعض وعقدوا أياديهم كما في الصلاة وصافحه البعض برشاقة وخفة لا تكاد الأصابع تتلامس، كما انحنى أحد المتقدمين وضفيرته تتدلى كي يلمس يد «تنسنج» بجبهته.

كان أحد المتسلقين الإنجليز من الجيل القديم قد كتب «لقد نسينا أنفسنا طويلاً. . . كي نتصافح فوق القمة». . . وهذه البعثة نسيت نفسها لدرجة أن المرء كان يتخيل أن القطارات الشمسية كانت تطلق بخاراً من التأثر في كل مكان. وفجأة استدار كل متسلق ـ لا إرادياً ـ نحو الكولونيل «هنت» المتأمل في خلفية المشهد، وكان أولهم هيلاري وتنسنج، وصافحوه في حالة اعتراف بحقيقة أن سعادة ونجاح فريق المغامرة هذا يعود لمعاونته الصدوقة التي قادت بلا توقف ـ كما يبدو ـ هذه البعثة إلى النجاح.

وحول وجبة من البيض المقلي المعد في طبق من الألمنيوم داخل الخيمة الهرمية، روى هيلاري قصة التسلق الأخير. . .

كانت الساعة 11,30 صباحاً يوم 29 مايو عام 1953 افرنجي حين خطوا آخر خطواتهما فوق الهضبة الأخيرة المغطاة بالثلوج من قمة إيفرست، ووصفها هيلاري بأنها قمة جميلة متوازنة الأبعاد كمخروط من الجليد، ومختلفة تماماً عن تلك الحافة الصخرية الوعرة التي هي كل ما يمكن أن يرى منها من أسفل، وكان المنظر الأرضي غير متراءٍ، إذ كانا شديدي الارتفاع حين ينظرا البعد بشكل واضح، وكل ما كان أسفلهما بدا مسطحاً ومتصلاً.

إلى الشمال تبدى الطريق المتجه للقمة ـ الذي علق عليه متسلقو بعثات ما قبل الحرب آمالهم ـ عند مستوياته العليا كمانع شديد الانحدار، وقضى تنسنج

الخمس عشرة دقيقة فوق القمة يأكل كعك النعناع ويلتقط الصور، التي خلع من أجلها هيلاري قناع الأوكسجين دون أن يصاب بأذى، وأخرج تنسنج أعلاماً مختلفة ورفعها عالياً أثناء تصوير هيلاري لهم، وقد احتوى حبل الأعلام هذا على علم الاتحاد وعلم نيبال وعلم الأمم المتحدة، ورقد ـ باعتباره بوذياً مخلصاً ـ على الأرض لتقدمة بعض الحلوى وقطع الشيكولاته والبسكويت. .

الثور الذكي

«سان لوكار دو باراميدا ـ أسبانيا ربيع 1957 افرنجي»

*** نورمان لويس**

حملوا المساعد الأول للمصارع بعيداً فوق نقالة مصاباً بصدمة، ووجه مكسور ومشوه، في حين تدافع الآخرون ـ بعدما رفضوا أداء أدوارهم ـ خارجين من الحلقة بحركة تكاد لا تكون مسموعة متلقين ـ لدهشتي ـ كامل تأييد الجمهور، ووقف أغلب المشاهدين «الألفين أو الثلاثة آلاف ـ يلوحون بمناديلهم باتجاه مقصورة الرئيس مطالبين بإخراج الثور، أما الثور نفسه فهو ضخم، حذر، ويقف بصورة مخيفة ممركزاً نفسه في مواجهة الحائل[1] الذي وقف خلفه المصارع كاردينو ومعاونوه الثلاثة متزاحمين وعلى وجوههم التعبير الذي قد يلمحه المرء فوق وجوه الصاعدين إلى المشنقة، وأحياناً ما يندفع أحد المعاونين ويحيطه بعباءته البائسة، فيطارده الثور عائداً متلمساً الطريق وراءه حول ركن الحائل بقرنيه، كمن يتحسس بلا أمل وبإصبع ضعيف وراء محارة تراجعت إلى داخل أعماق صدفتها، وكانت الجماهير واقفة طوال الوقت تصدر زئيرها الضخم المختلط تعبيراً عن رفضها الجماعي».

ووصلت مصارعة الثور إلى نقطة سكون، فأي ثور لا يمكن مصارعته بصورة

---

(1) burladero في الأسبانية تطلق على الحائل الخشبي الذي يقف وراءه مصارع الثور أثناء الخطوات التمهيدية التي تسبق دخوله الحلبة. «المترجم».

سليمة بواسطة رجل مسلح بسيف فقط، قبل أن يستثار الثور ويظل يتقافز لفترة طويلة مجهداً نفسه في محاولة التخلص من الحراب الصغيرة المغروسة في جلد رقبته؟ وأراد راع عجوز لفحته الشمس أن يخبر كل مجاوريه ـ بعضهم كانوا مجرد سكان من أهل المدينة ـ بمدى سوء هذا الثور: «لقد عرفت منذ أن وقعت عيناي عليه في الحظيرة، فقلت إن شخصاً ما كان عليه أن يلعب مع هذا الحيوان الشرير، وليس لهم الحق في إطلاقه داخل الحلقة مع المسيحيين. . . ». ثم صاح في «كاردينو»: «ألن تصارعه يا بني؟ إنك لا تحيد عن الحق إذا رفضت الخروج إليه، وتركت هذا الشيطان يمزقك» وكان ذلك اتجاه الجمهور بوجه عام.

وقد أدهشني ذلك إلى حد ما. . إذا كانوا متعاطفين مع موقف المصارعين الحساس، ولم يرغبوا في استمرار المصارعة على هذه الأسس، وعندما برز الرجال الأربعة من خلف الحائل واشتبك معهم الثور وألقوا بعباءاتهم في وجهه هاربين التماساً للنجاة، صرخت الفتيات، فقام الرجال بلعنهن في غضب بسبب المخاطرة التي تنشأ عن تلك الصرخات، وكره الجمهور هذا الثور.

وكان منظمو المصارعة مثلهم مثل أغلب الكتّاب المعروفين في هذا الموضوع، مدمنين لمغالطة «التعاطف البشري»، فالثيران التي تتقدم بوضوح ويمكن التنبؤ بحركاتها ولهذا يسهل مصارعتها، هي ثيران «نبيلة» و«صريحة» و«بسيطة» و«شجاعة»، وتوصف بأنها «تتعاون بإخلاص» خلال الخمس عشرة دقيقة المعتادة التي تعد هدفاً عاجلاً وعقدة ونهاية وجودها، وغالباً ما تتلقى هذه الثيران تصفيق متواصل من جمهور قدر جهدها، وذلك أثناء سحبها بواسطة الجياد الثلاثة وأرجلها مرفوعة نحو السماء إلى خارج الحلقة، ولا تجد لدى أي واحد من الجمهور الأسباني أدنى تعاطف نحو ثور واحد من كل ألف ثور قد يملك ذرة زائدة من الذكاء، فالثور المثالي له خصائص شخصية قاذف القنابل البريطاني أو المحارب الصيني في القرن الماضي، حيث كان يفترض أن يحمل مصباحاً عند الهجوم ليلاً، حتى يمنح عدوه فرصة متساوية.

وفي صبيحة اليوم التالي عرض تقرير يصنف هذا الثور كثور «مروض» رغم

أنه كان أشد الحيوانات ـ التي رأيتها بحياتي ـ عدوانية، إذا ما إن يبدو أمامه إنسان وعلى مدى بصره حتى ينقضّ عليه كنمر مفترس، ولكن كان واضحاً أن «الترويض» مصطلح مهني يطلق على صفة ليست من طبيعة الثيران، دفعته ليس إلى رفض العباءة كبديل للإنسان فقط وإنما أدت به لمحاولة منع هرب الإنسان، وذلك بتغيير اتجاه الاشتباك معه كذلك.

وأثار هذا الذكاء الشرير والذي في غير موضعه ردود فعل ثائرة كثيرة، وكنت جالساً داخل «الباريرا» ـ وهي أول صف من المقاعد خلف طريق المرور ـ وأسفل مكاني تماماً، كان أحد مصوري الصحافة يعمل بآلة تصوير «لييكا» مزودة بعدسات تقريب طويلة المدى، فقام مدفوعاً بانفعاله بالانحناء فوق السور وضرب الثور على خطمه بآلته الثمينة، وهبط أحد المشاهدين شاهراً مسدساً إلى الممر، حيث أوقفه رجال الشرطة وعمال الحلقة وحملوه خارجاً.

وكان موقف المسؤولين سيئاً، لأن التعليمات حالما طبقت تمنع طرد أي ثور بأي مبرر سوى عدم قدرته الفيزيقية «الجسمانية» على مواصلة القتال بصورة سليمة، أو بسبب فشل المصارع في قتل الثور خلال الخمس عشرة دقيقة من لحظة إشهاره لسيفه وتقدمه لملاقاته، ولكن من الناحية الجسمانية كان هذ الثور ذا شكل هائل، ورغم مضي نصف ساعة فإن الفترة الثالثة من المصارعة والتي يشير إليها الأسبان أحياناً بـ«حظ الموت»، لم تبدأ بعد.

وكانت محصلة هذه السخرية المزعجة انحداراً لا يمكن تجنبه، لكن ذلك علمني شيئاً لم أفهمه من قبل، أن مصارعي الثيران ـ أو بعضاً منهم على الأقل ـ يمكن أن يكونوا شجعاناً بطريقة غير عادية تماماً.

وأرسلوا طالبين الحراب السوداء، وهي حراب من النوع العادي ملفوفة في ورق أسود، واستخدامها يفترض وجود احتقار عام موجه للثور أشبه بتجريد ضابط من رتبته العسكرية وشاراته لقاء جبنه في مواجهة العدو وقبل إقالته غير المشرِّفة، وتدبر المساعدون أمر غرس حربتين من الحراب الست وهم يعدون فزعاً من خلف الحائل، فدفعهما أحد الرجال كالسهام الضخمة غير المنتظمة في

كتفي الثور بينما يقوم آخر بجذب انتباهه نحوه بعباءته، وبعد ذلك استل كاردينو - غير مبال بنداءات الجمهور - سيفه وأمسك بـ«الموليتا» - وهي مربع من القماش الأحمر مفرودة على إطارين خشبيين تحل محل العباءة حين تبدأ المرحلة الأخيرة من الدراما - ثم تقدم نحو الثور متبوعاً بمساعديه الثلاث الواضح الارتعاب، وبرغم أن كاردينو ظل واقفاً في الظل طوال العشر دقائق الأخيرة، إلا أن جبهته وخديه كانت تلمع من العرق، وكان فمه مفتوحاً كعداء وصل بعد سباق شاق.

ولم يكن هناك واحد من بين المشاهدين يريد رؤية كاردينو يُقتل، وإنما كانوا يبغون إزاحة هذا الوحش غير الطبيعي كثور بأية وسيلة، عادلة أو ظالمة، لكن قواعد حلقة الثيران لا تتيح حلاً لمثل هذا النوع من الطوارىء.

وليس هناك من مخرج سوى أن يشهر كاردينو سيفه ومنديله الأحمر ويحاول البقاء حياً لخمس عشرة دقيقة، التي تسمح التنظيمات بعدها لرئيس الحلقة بأن يأمر بإدخال الناقلات إلى الحلقة لتأخذ ثوراً لا يمكن قتله، وأظهر كاردينو شجاعته بالقتال الحقيقي مع الثور، وربما لم يستطع السماح لنفسه بتحطيم شهرته إذا ما ترك هذا الثور دون قتله مهما كانت الظروف التي أدت لذلك قوية الأسباب.

تقدم والصرخات غير المؤثرة فيه من الجمهور تنطلق وراءه، ونظر على مدى سيفه، ثم طعن به وبطريقة ما تخلص من القرون المشرعة، ولم تكن تلك مصارعة للثيران جيدة وكان واضحاً حتى للغرباء، فمصارعة الثيران الجيدة كمشهد، هي مجموعة تشكيلات متتابعة لحيوان وإنسان، مركبة ثم متلاحمة فميعاد تشكيلها وتحمل غالبها مظهر قضاء وقت الفراغ، ولا تحوي شيئاً من المناوشات غير الرشيقة أو غير المجدية التي هي كل ما سمحت به الظروف لكاردينو، وذات مرة اصطدم السيف بمقدمة عظام جبهة الثور، وفي مرة ثانية أثلم كاردينو حد سيفه فوق كتلة قرنيه، وفي مرات عديدة انغرس السيف بوصة أو اثنتين في عضلات رقبة الثور، ويهزه الثور ليطير في الهواء.

استمر الأمر لمدة نصف ساعة على وجه الاحتمال وخلافاً للتعليمات، لم

يدخلوا الناقلات، إما بسبب إصرار الرئيس على إنقاذ ماء وجه كاردينو ولو على حساب المخاطرة بحياته، أو لأن الناقلات لم تكن جاهزة حيث يجب أن تكون.

وفي النهاية انقلب الثور الذكي رأساً وقد أرهقته «وخزات الدبوس» التي لا تحصى والتي من المحتمل أنه لم يشعر بها، ثم تلقى «الضربة القاضية» وسحبوه بعيداً مصحوباً بغمغمات الجمهور اللاعنة، أما كاردينو الذي بدا فجأة قد تقدم في العمر، فقد استقبلته دورة منتصرة حول الحلقة بواسطة جمهور أسعدته كثيراً رؤيته حياً.

الحرب الڤيتنامية

ضحية من ڤيتنام الجنوبية 1965 افرنجي»

*** جاڤين يونج**

«تصاعدت الحرب الڤيتنامية (1955 ـ 1975 افرنجي) بسرعة خلال عام 1965 افرنجي وبدت سيطرة الفدائيين الشيوعيين على ڤيتنام الجنوبية وشيكة، وكرد على ذلك، تم إرسال 18,000 جندي أمريكي إلى هذا البلد مع نهاية السنة».

. . . عام 1965 افرنجي قبل هبوط القوات الأمريكية بكثافة في فيتنام، بدا الجيش الفيتنامي متوجهاً نحو الدمار الكلي، إذ كان يخسر معركة أو اثنتين كل أسبوع معظمها في اشتباكات قريبة جداً من سايجون، وذات يوم رحلت من سايجون إلى مدينة مي ـ تو بجوار النهر، وإلى جنوب العاصمة، في حافلة مزدحمة بالمدنيين والعسكريين الڤيتناميين، وكانت أربطة مشتريات السوق والدجاج تصطدم بأرضية الحافلة تحت المقاعد، وعبرنا كباري محمية بأكياس الرمال والأسلاك الشائكة، وأحياناً كان الجنود يوقفون السائق ويتطلعون في الركاب، وانحنى اثنان من الڤيتناميين الضاحكين فوق كتفي وقالا: ألست خائفاً من الڤيتكونج؟ فلربما يهاجمون الحافلة؟

وبعد يوم، كنت أسير ونظارتي من نوع «ليتز» مربوطة حول عنقي، في طابور من الجنود الڤيتناميين على طول الضفاف الضيقة التي تقسم حقول الأرز في دلتا نهر ميكونج، وكان الطابور جزءاً من قوة أكبر وجهت معاً لتطهير منطقة ذات عدة

أميال مربعة من قوات الفيتكونج وهي تمتلىء بالأشجار ونباتات الأرز والمدرعات البرمائية والقرى.

وأحياناً ما كنا نسمع طائرة من ذوات المحركات تطير فوق رؤوسنا، ثم الأصوات العميقة للمدفعية، وفي الطرقات الأكثر اتساعاً كان من الممكن تخطي الطابور المفرد، ومن ثم سرت بجوار الجندي الفيتنامي الشاب الذي كان يسير أمامي، وكان أشبه بجندي لُعبة فخوذته كبيرة بشكل غريب وبندقيته الأمريكية طويلة جداً وثقيلة، كما كشفت ملابسه العسكرية ـ داكنة الخضرة ـ عن نحافة جسمه الشديدة، ولطخت شقوق صغيرة قاتمة من العرق إبطيه وجزءاً من ظهره الضئيل، ثم أشار إلى حذائي المبطن وقال بإعجاب: «حذاؤك... ممتاز»!. فقلت: «أعطيك إياه». «لا.. أنت ضخم، وأنا صغير..»، ثم بعد برهة صمت نظر إليّ ثانية «موطنك أمريكا؟»... ـ«لا.. إنجلترا»، ـ: «موطني أنا هو ناترانج، أرأيت ناترانج؟»..

حتى هذه اللحظة لم أرها، وكان عليّ أن أفعل ذلك فيما بعد، وكانت مدينة صغيرة جميلة تطل على بحر الصين الجنوبي ولها شواطىء رائعة، وكان في تلك الأيام هناك مطعم فرنسي يقدم وجبات الجمبري الطازجة.

قال الجندي وهو يبتسم: «الصيد البحري كثير في ناترانج».. ولم أكن قابلت الكثير من الفيتناميين حتى ذلك الحين، فنظرت إليه باهتمام، وإلى حيث ينحدر الخط الرقيق من عظام وجنتيه الشرقيتين إلى فمه الدقيق، ولم أجد أثراً ولا لشعرة واحدة، لا بد أنه لا يزيد عن التاسعة عشرة من عمره... وكانت السماء قد بدأت تمطر، واتسعت القبعة الداكنة على ظهر صديقي بسرعة أثناء سقوط الماء من خوذته، فقلب بندقيته موجهاً فوهتها لأسفل على كتفه كي لا يدخل المطر في ماسورتها، ثم وضع يده فوق كمي وابتسم لي: «أنت الصديق رقم واحد، فلتأت إلى ناترانج، اتفقنا»؟ ـ قلت: «السوف آتي إلى ناترانج»..

ولوح رقيب في نفاد صبر ووضع إصبعه فوق شفته، وفي سكون الآن، عدا تساقط المطر وقرقعة سلاح أو صوت كحة يحدث مصادفة، اقتربنا من خط

أشجار حين انفجرت إحدى القذائف، وكان انطباعي أن هناك بركاناً صغيراً قد ثار فجأة من الأرض وليس شيئاً هبط من السماء، وشعرت بهزة عنيفة عبر كعب حذائي، وعندئذ رماني الانفجار فوق الأرض، ورقدت هناك بانتظار قذائف أخرى، لكنه لم يكن كميناً أو حتى هجوماً مكثفاً، ثم زأرت قذيفة أخرى بعيداً عني، ثم ساد سكون عميق، فدق قلبي وارتعدت يداي عندئذ سمعت صوتاً آدمياً قريباً مني تماماً نصفه شهيق ونصفه متماسك، وخوذه واقعة فوق الأرض كصدفة بحر مهجورة، وبجوارها كان صديقي من ناترانج ممسكاً معدته بيد، ويدفع الأرض بيده الأخرى في ضعف محاولاً النهوض، فذهبت هناك وأوقفته ووضعت يدي اليسرى حول كتفه، وجعلته ينحني للخلف مستنداً على ركبتي، لكني لم أعرف ما يجب أن أفعله بعد ذلك.

كانت عيناه مغلقتين، والمطر يتصبب خلال شعره ويسقط على وجهه ورقبته، وكانت هناك رائحة فظيعة، ففتحت قميصه المبلل ورأيت أسفل عظام صدره خليط من العظام والقماش الملطخ بالسواد والمطر والدماء والعصارة المرارية وكل ما يمكن أن يخرج من البطون التي مزقتها الشظايا، وانفرجت جفونه وتأوه: «إنه يؤلمني» قالها في خور، كان يموت، وتلمس باحثاً عن يدي بطريقة غير مجدية، وكنت أحاول مسح المطر عن وجهه، أن أضمه لهذا الخليط السائل الدافىء، ولم أشعر بأدنى غثيان وتملكتني فكرة أننا قد نبقيه حياً فيما بيننا، وهمس من جديد: «إنه يؤلمني»، وفي الركن الداخلي من جفنه الرقيق المطبق كنصف القمر سكنت قطرة من الماء. مطر؟ أم دمعة؟

وحضر الناس في الحال وحملوه بعيداً عاجزاً، ورأسه تتدلى للوراء كما لو أن فقرة من عنقه قد نزعت.

وتركوني ويداي وملابسي تفوح برائحة المذبحة، وسقط شريط نظارتي الذي كان حول رقبتي حتى إن زجاجها انزلق مع الدماء والعصارة، وبدا أن هناك شيئاً ما دخل عدساتها، إذ فيما بعد، مهما مسحتها، ظلت البقع والعتامات باقية، ولم تكن هناك من قبل. . .

الحرب الڤيتنامية ـ مراسل مع قوات الڤيتكونج بالقرب من هانوي

«10 ديسمبر/ الكانون 1965 افرنجي»

*** جيمس كاميرون**

«كان القصف الأمريكي الذي لا يتوقف لڤيتنام الشمالية هو المظهر السائد في حرب ڤيتنام».

خلال ساعات النهار لا يتحرك شيء فوق طرق ڤيتنام الشمالية، لا سيارة ولا شاحنة، ولا بد أن المنظر كان يبدو من الجو كما لو أن البلد ليست بها وسائل نقل على الإطلاق، إذ إن الفكرة ـ بالطبع ـ أن الطرق والكباري هي التي تقصف، وهي لا تعود آمنة بعد شروق الشمس ولا حتى بالقرب منها.

وفي حقول الأرز، يحصد الفلاحون محصولهم الثالث لهذا العام الذي كان وفيراً بصفة خاصة، ويتحركون بين سيقان الأرز وبأيديهم المناجل، منحنين تحت أغطية من أوراق الشجر، وسيلة التخفية التي تضفي على كل واحد مسحة احتفالية خافتة مثل أولئك المزارعين الكثر وسط الخضرة.

وتنتصب في أركان الحقول فوهات البنادق أشبه ما يكون بحزم من القمح وتمتد الطريق طويلة وخالية، وتمضي من اللامكان إلى اللامكان، عندئذ تغرب الشمس ويبدأ كل شيء في التحرك، فعند الغسق تصبح الطرق ممتلئة بالحياة، تدور المحركات وتتلاشى القوافل عبر الظلام خلف ذؤابات أنوارها الأمامية المقنعة ممتدة لأميال عديدة: شاحنات روسية ثقيلة، بطاريات مدافع مضادة للطائرات، كلها مدفونة تحت أكوام من الأغصان والأوراق وأعواد القش الضخمة المتتابعة بلا انقطاع، فڤيتنام الشمالية مهجورة نهاراً، أما ليلاً فهي تمور بالحركة المكتومة وهو روتين متعب، العمل نهاراً والتحرك ليلاً.

وبهذا الأسلوب ذهبت بسيارتي إلى ما يسمى بـ«مناطق القتال» في مقاطعة تان ـ هوا المركزية، وكانت مسرحاً من الفضاء البدائي فهي سهل يمتلىء بجبال

صغيرة حادة وغريبة الشكل، كما لو أن رشاشاً من الأجرام السماوية قد سقط هناك، وكأننا نركب سيارة «جيب» سوڤييتية وسط ألوان مائية صينية.

وأعظم المعالم في «تان - هاوا» ذلك الكوبري الشهير «هام - رونج» هوجم أكثر من مائة مرة بواسطة 1000طائرة على الأقل، فتشقق والتوى وتحولت المنطقة المحيطة به إلى فوضى فظيعة، لكن الكوبري ظل يحمل الطريق وخط السكة الحديد، ويقع بين تلين شديدي الانحدار وكانت تصعب إصابته الكاملة، إذ يحتاج الأمر لقصف مائل وشديد الانحدار.

وفي قرية نان - نجانج وهي قريبة من الكوبري، قدموني للآنسة «نجوين تي هانج» بطلة العمل وبطلة الشعب، وواضح أنها ثبتت بمعيار الاحتفالية المحلية كرمز لمقاومة الأمة، وكانت قد قادت وفداً إلى موسكو ذات مرة. وهي لبقة وأنيقة وصغيرة في أواخر العشرينيات من عمرها، ترتدي «البلوزة» البيضاء وسروالاً عريضاً أسود اللون، وهي رائعة مثلها مثل 99,9 في المائة من الفتيات الڤيتناميات فهن جميلات، ولم تعتبر التقاط صورة لها شيئاً جديداً. وتقود الآنسة هانج وحدات الميليشيا النسائية المسلحة وقد استعرضت صفوفهم من أجلي - ويا لها من سخرية مزعجة - جماعة من الفتيات الناضجات الصغيرات يتقافزن في خنادق الجنود ويشرعن بنادقهن نحو السماء، والآنسة هانج تبدو شامخة تماماً كما تظهر في صورتها.

كان كل شيء يبدو كالعقيدة الملموسة، فهذا الكوبري الحيوي الذي تحميه جماعة الفتيات الصغيرات الجميلات جعلني أشعر بالذهول والندم.

وعندئذ ووسط هذا العرض، وأثناء عودتي من النهر إلى القرية انتشر صوت صفارات الإنذار وأصبحت لعبة الحرب حقيقة بعد كل شيء ماثلة في هدير الطائرات فوق رؤوسنا ودوي المدافع المضادة للطائرات وكل ما أعرفه، إذ لم أكن متأكداً وصخب رقيق متتابع من فتيات الآنسة هانج الصغيرات في داخل الخنادق.

ولم تأت الطائرات خلفنا هذه المرة، إذ شقت طريقها إلى مهابطها جنوباً،

وقد التمست القرية ساتراً بطريقة فلسفية، لكن بمرور الوقت إنثال الأطفال نحو المخابىء في حين كانت الطائرة ـ دون شك تبتعد أميالاً.

وتعددت أمثال هذه الغارات أثناء تجوالي في البلاد، ومن العدل أن يحاول المرء تحليل ردود فعله، لكن ذلك ليس سهلاً فما كان يطرأ ـ في اعتقادي ـ ليس هو انفعال الخوف إذ لم أكن في خطر محدد، ولا في فزع عقلي شديد، بل كان هناك نوع من الشعور بالغضب ضد التمدين في الوقاحة التي شعر المرء بها، ويا للخيلاء والتعدي على السلوك القديم، هؤلاء الناس في ڤيتنام الشمالية أناس مسالمون، ذوو حياء وشديدو الفقر، فهل سوف ينسف هذا النوع من العمل الشيوعية من رؤوسهم؟.

الحرب الڤيتنامية، كسب العقول والقلوب
قرية تويلون ـ ڤيتنام الجنوبية
«23 أغسطس/ هانيبال 1967 افرنجي»

*** جون بيلجر**

«في وسط عام 1966 افرنجي، سمحت الولايات المتحدة بشن حملات «فرض السلام» عازلة القرى لتحميها من الفدائيين، وقامت برش مناطق شاسعة لإبادة الأشجار التي قد توفر الحماية للڤيتكونج».

. . . حينما هبط الرقيب ميلڤين موريل ورفاقه من القوات البحرية الأمريكية في قرية تويلون بالطائرة العمودية غرب دانانج حاملاً التعليمات بضرورة بيع كتيب «الحريات الأساسية كما جاءت محددة بصفحة 233 من برنامج صنع السلام» ويعمل في نفس الوقت على كسب قلوب وعقول الناس ـ راجع نفس الكتاب ص86 تحت عنوان WHAM ـ لم يروا أحداً، لا طفلاً ولا دجاجة، فالسكان تابعوهم وهم يهبطون من السماء، ولجأ معظمهم إلى حقول الأرز أو وقفوا صامتين في ظلال منازلهم.

صاح الرقيب موريل في مكبر صوت: «هيا اخرجوا، إننا أصدقاؤكم» قالها بالإنجليزية، ثم صاح من جديد وسط الصمت الساخن: «فليخرج كل واحد، لقد أحضرنا لكم أرزاً وحلوى وفرش أسنان». ثم قال مازحاً كما اعتاد الجنود في الحرب: «أنصتوا، أيها الناس أخرجوا من أينما كنتم وإلا أتينا وأخرجناكم». فخرج سكان تويلون من أماكنهم وتجمعوا لاستلام عبوات التموين من الأرز الأمريكي المعجزة من نوع «انكل بنز» وشيكولاته من نوع «هيرشي» و 7000 فرشة أسنان في أربعة ألوان، ومجلات فكاهية للأطفال مثل سوبرمان وغيرها.

وفي حفل صغير منفصل و ـ كاد أن يكون مؤثراً ـ أهدى لرئيس المقاطعة أربعة أحواض صفراء اللون متحركة وتعمل بالبطاريات، وقال الرقيب موريل: «لو أن هذه الأشياء ضمن متطلباتكم، فسوف يأتي منها المزيد من حيث جاءت». وعندما انتهى كل شيء وصفق الأطفال عند الإشارة، ذكر الرقيب موريل في مفكرته عن اليوم: «في البداية، لم يتضح أنهم فهموا أننا قدمنا لمعاونتهم، وعلى أية حال، فقد اقتنعوا بخلاف هذا، وعندئذ آمنوا وأصبحوا في جانبنا... وأعتقد أنهم يحترمون مظهرنا من قوة وإنسانية وأظن أن النقيب سوف يسر من ذلك».

وكانت مجموعة القوات البحرية التي حضرت معها إلى تويلون تسمى «كاك» وهي الحروف الأولى من «جماعة القتال المزدوج» والتي تعني أن دورها عسكري ومدني في آن واحد، أولاً تتحرك وحدة الـ «كاك» إلى القرية وتحميها ـ سواء طلب ذلك القرويون أم لم يطلبوا ـ وذلك بحفر الخنادق ووضع الأشراك الخداعية والأسلاك الشائكة، ثم يعلنون أن القرية أصبحت صديقة، ويبدأون في بيع كتاب «الحريات الأساسية المحددة في صفحة 233 من برنامج صنع السلام» للرجال الكبار والصغار والنساء والأطفال...

وهناك ـ على أية حال ـ مشكلة: إذ كانت قوات الولايات المتحدة البحرية تفضل محاربة الڤيتناميين على بيع كتيب «الحريات الأساسية» وكسب عقولهم وقلوبهم، حيث قال موريل: «سوف أقول هذا لأولئك الناس فهم يفعلون ما يؤمرون، وأعتقد أن الأمر كما كنت أقوله دائماً من يملك المدفع يحدد الكلام».

وفي تويلون، بعد أسبوع من ذلك وصل النقيب «ريتشارد ترويبول» فقال الرقيب موريل: «حسناً، إن فمي لعاجز، لكن بالتأكيد إنه لشيء حسن أن أراك سيدي».

ـ كيف حال الأمور هنا؟ يا موريل؟ كيف حال برنامجنا الصحي؟ وفرش الأسنان وأدوات النظافة هل أحدثت تأثيراً؟.

ـ نعم بالفعل يا سيدي، ففرش الأسنان توزعت كثيراً، لكن بالنسبة لإدخالهم الحمامات وما إلى ذلك، أخشى ـ حسناً ـ إن هؤلاء الناس قد اعتادوا فعل ما يفعلونه لآلاف السنين ويبدو أنهم يفضلونه هكذا.

ففكر النقيب ثم قال: «لا تقل مستحيل، يا موريل، سوف أرسلك مع حمام متنقل كامل يوم الخميس».. أجابه: نعم... سيدي».

الحرب الڤيتنامية، الفصيلة 11 مشاة تهدىء قرية ماي لاي

«16 الربيع/ مارس 1968 افرنجي»

*** مراسل مجلة التايم**

«لم تبد أخبار مذبحة قرية «ماي لاي» حتى نوفمبر 1969 افرنجي، وكانت تحقيقات الجيش الأمريكي حول الواقعة قد بدأت في سبتمبر 1968 افرنجي، وقد حوكم الملازم «ويليام كالي» عسكرياً لقتل 159 ڤيتنامياً مدنياً».

تتبع «ويست» وهو قائد جماعة في سرية يقودها الملازم «جيفري لا كروس» سرية «كالي» إلى قرية ماي لاي، وقال: «كان كل فرد يطلق نيرانه، وأُحرقت بعض الأكواخ، وقام بعض الجنود الصغار بإطلاق النار على الأطفال». ووسط الفوضى - استمر يقول في ادعائه ـ كان من الصعب التمييز بين الآباء والأمهات، لأن كل منهما كان يرتدي قميصاً وسروالاً «بيجاما» أسودين وقبعة مخروطية، وقد ساعد هو وجماعته في الإحاطة بالنساء والأطفال.

وعندما كان واحد من رجاله يعترض بقوله: «لا أستطيع إطلاق النار على أولئك الناس»، يخبره «ويست» بتحويل المجموعة إلى الكابتن «ميدينا» وعلى الطريق خارج القرية، يتذكر «ويست» خندقاً مملوءاً بالموتى والمحتضرين من المدنيين، كما مرت سريته بصبي ڤيتنامي باكٍ وهو مجروح في يده وفي إحدى رجليه، فسمع «ويست» جندياً يسأل: «وماذا بشأن ذلك الصبي؟». عندئذ انطلقت رصاصة وسقط الصبي، فقال ويست: «إن الطفل لم يفعل شيئاً، ولم يكن معه سلاح». وقال جندي آخر في المجموعة التابعة لـ «كالي» وهو الجندي ڤارنادو سيمبسون، 22 سنة: «كل واحد ممن دخلوا القرية كان مصمماً على القتل، كنا قد فقدنا كثيراً من زملائنا وكانت القرية مركزاً منيعاً لقوات الڤيتكونج، فاعتبرنا أهلها إما من الڤيتكونج أو من المتعاونين معهم».

وكانت سريته قد وصلت من الجناح الأيسر، واستطرد: «وأثناء تقدمي نحو القرية، كان هناك رجل وامرأة وطفل يهربون من القرية متجهين نحو بعض الأكواخ، فطلبت منهم بلغتهم أن يتوقفوا فلم يستجيبوا، وكان لديّ تعليمات بإطلاق النار عليهم ففعلت، هذا ما قمت به أطلقت عليهم الرصاص، السيدة والطفل الصغير الذي كان في الثانية من عمره تقريباً»..

وقدم «بول داڤيد ميدلو» 22 سنة ـ بسرية كالي ـ تقريراً مفصلاً، وهو يقول: اخترقت مجموعتي قرية ماي لاي وهي تقود الرجال والنساء والأطفال والرضع نحو مركز القرية فيما يشبه «الجزيرة الصغيرة»... ثم جاء الملازم كالي وقال: «أنتم تعرفون ما يجب فعله معهم أليس كذلك؟» فأجبته: «نعم»، «فغادرنا، ثم عاد بعد عشر دقائق ليقول: «كيف حدث أنك لم تقتلهم بعد»؟ فأخبرته أنني لم أعتقد أنه يريد منا قتل أولئك الناس وأنه يريد منا حراستهم فقط. فقال: «لا، أريدهم موتى»... وهكذا بدأ يطلق النار عليهم وأمرني أن أبدأ الضرب، فصببت أربع دفعات ـ 68 طلقة ـ عليهم، وربما أكون قد قتلت عشرة أو خمسة عشر شخصاً منهم، «وهكذا بدأنا نجمع أناساً أكثر، كان معنا سبعة أو ثمانية أشخاص وضعناهم في كوخ ثم دفعنا بقنبلة يدوية في الداخل معهم وعند ذاك كان مع

زملائنا حوالى من سبعين إلى خمسة وسبعين شخصاً تجمعوا وسط أحد المنخفضات، فألقينا بمن معنا معهم». وأخبرني الملازم كالي بقوله «ميدلو . . . أمامنا عمل آخر . .» وهكذا تقدم نحو الناس وبدأ يدفعهم للخلف ثم بدأ إطلاق النار، فدفعناهم جميعاً وبدأنا إطلاق الأسلحة الآلية عليهم.

ووفقاً لما أدلى به الجندي «جاي روبيرتس»، فإن الجنود الهائجين لم يكونوا مشغولين فقط بالقتل رغم أن ذلك بدا واضحاً في أذهانهم، ـ وذلك ما أخبر به روبرتس مجلة لايف ـ: «فخارج القرية كانت توجد تلك الكومة الضخمة من الجثث وأتى طفل نحيف ـ بمعنى الكلمة ـ وكان يرتدي قميصاً ولا شيء غير ذلك إلى تلك الكومة وأمسك بيد أحد الموتى، فاتخذ أحد الجنود الذين كانوا خلفي وضع الاستعداد على بعد ثلاثين متراً فقط من الصبي وقتله برصاصة واحدة» . . كما تابع روبرتس كذلك الجنود وهم يعاكسون مجموعة من النساء ومعهن فتاة مراهقة في حوالى الثالثة عشر من عمرها وترتدي «بيجاما» سوداء وسحب أحد الجنود الفتاة وبدأ بمساعدة الآخرين في تعريتها، كما روى روبرتس، قال الجندي: «فلنر من أي شيء مصنوعة هي؟»: فقال آخر: «من طلقات الڤيتكونج». وهو يخبر الفتاة الصغيرة أنها كانت عاهرة لقوات الڤيتكونج، وقال ثالث: «إنني قاس» وبينما هو يقومون بتعرية الفتاة والجثث والأكواخ المحترقة تحيط بهم، حاولت أم الفتاة مساعدتها وهي تنشب أظفارها في الجنود . . .

وواصل روبرتس تقريره: «وحاولت امرأة ڤيتنامية أخرى ـ هي خائفة من أجل سلامتها ـ إيقاف المرأة عن الاعتراض، فركل أحد الجنود الأم وقام آخر بصفعها قليلاً»، هنا قفز «هاييبرل» ـ وهو مصور الفرقة ـ ليلتقط صورة لمجموعة النساء، وكانت الصورة توضح الفتاة ذات الثلاثة عشر عاماً وهي تختبىء خلف أمها محاولة غلق أزرار قميص «بيجامتها» وعندما أبصروا «رون» غادروا المكان واستداروا بعيداً كما لو كانت الأمور طبيعية، عند ذاك سأل أحد الجنود: حسناً، ماذا سوف نفعل بهن؟ أجاب آخر «اقتلهن» فسمعت انطلاق سلاح الـ م 60، وهي بندقية آلية خفيفة، وعندما التفتنا كن والأطفال معهن قد ماتوا جميعاً.

أوائل البشر فوق سطح القمر

«21 يوليو/ ناصر 1969 افرنجي»

* نيل أرمسترونج. وإدوين. إ. ألدرين

«أُطلقت سفينة الفضاء «أبولو 2» يوم 16 يوليه، حاملة «نيل أرمسترونج» والملازم أول «ميشيل كولينز» والنقيب «إدوين ألدرين» وعند الساعة 3,56 بالتوقيت العالمي البريطاني(1) من يوم 21 يوليه، خطا أرمسترونج أولى خطواته من سلم المركبة القمرية «إيجل» فوق سطح القمر».

* **نيل أرمسترونج**: كانت أكثر ذكرياتي إثارة هي المناظر ذاتها، ومن بين كل المشاهد الملحوظة التي رأيناها، كان أكثر تأثيراً في نفسي ونحن في الطريق إلى القمر عندما حلقنا عبر ظله، كنا لم نزل على بعد آلاف الأميال منه لكننا قريبون بما فيه الكفاية كي يملأ القمر نافذتنا الدائرية تقريباً، كان يخسف الشمس من موقعنا، وكانت الهالة الشمسية واضحة للرؤية حول أطراف القمر كضوء عملاق أشبه بالعدسة أو الطبق ممتدة إلى عدة أقطار قمرية، كانت شيئاً رائعاً، لكن القمر كان أكثر من هذا، كنا وسط ظله ولذا لم يكن هناك أي جزء منه تضيئه الشمس، كان مضاءً فقط بأشعة الأرض فجعلته يبدو رمادي اللون مائلاً للزرقة، وظهر المشهد كله كما لو كان ذا ثلاثة أبعاد، كنت واعياً - في الحقيقة - وعياً بصرياً بأن القمر - واقعاً - كروياً وليس أسطوانة، إذ بدا وكأنه يرينا دائرته تقريباً، وتماثله شكلاً مع أرضنا، وبنوع من الترحيب كنت متأكداً أنه سيكون مضيفاً كريماً، فقد كان بانتظار أوائل ضيوفه لزمن طويل.

«وبعد الهبوط قمراً» إن السماء سوداء اللون، هل تعرف أنها سماء شديدة القتامة لكنها ما زالت تبدو شبيهة بضوء النهار أكثر منها بالسواد أثناء تطلعنا من النافذة، وكان شيئاً غريباً، لكن السطح بدا دافئاً وجذاباً، وكان الموقف وكأنك تشعر بالخروج بلا شيء عدا لباس البحر «المايوه» لتستمتع بقليل من الشمس، ومن

(1) British Summer Tim: BST.

مكاني بدا السطح ذا لون رملي «الأصفر البني»، ومن الصعب أن نبرر ما حدث إذ - فيما بعد - حينما أمسكت هذه المادة بيدي لم تكن رملاً بالمرة، كانت سوداء، رمادية إلى غير ذلك، وكان ذلك نوعاً من التأثير الضوئي، ولكن خارج النافذة. كان السطح يبدو كثير الشبه برمل الصحراء الفاتح لا الرمل الأسود.

إدوين - إ - ألدرين «فوق القمر»: اختفى اللون الأزرق لحذائي كلية ليتحول إلى - وما زلت لا أعرف كيف أصف هذا اللون بالضبط - لون رمادي كاكاوي، وبدا وهو يغطي معظم الجزء المضاء من حذائي، وجزئيات دقيقة جداً. . .

«وفيما بعد» كان القمر بيئة طبيعية وجميلة جداً لمن يعمل فيها، فلها العديد من مزايا فراغ الجاذبية، لكنها - بمعنى ما - أقل في تفردها من صفر الجاذبية، حيث يجب عليك دوماً أن تولي اهتماماً بنقاط التثبيت لتأمينها فتعطيك وسيلة من وسائل الرفع. ففي مكان جاذبيته جزء واحد من ستة أجزاء من الجاذبية الأرضية، هو القمر، يكون لديك إحساس متميز بكونك في «مكان ما» وبينما نحن نقوم بإنزال مختبراتنا على سطحه، كان علينا أن نلقي بأشياء مثل الحبال والأربطة. . . إلخ، وبعضاً منها أضعناه، فالأشياء كانت تمضي بحركة بطيئة كسولة ولو حاول إنسان قذف كرة للأمام وللخلف وسط هذا الجو، لشكل له ذلك صعوبة في البداية لتكييف نفسه مع هذا المسار، ولكني أعتقد أنه يمكنه التكيف ببساطة تماماً.

والأريج متميز تماماً، وبالنسبة لي كانت هناك رائحة واضحة من المادة القمرية، نفاذة مثل البارود أو كبسولات طلقات المسدس، وحملنا كمية معقولة من تراب القمر إلى داخل المركبة معنا، وسواء فوق أرديتنا وأحذيتنا أو فوق جهاز التحميل الذي استخدمناه لإحضار الصناديق والأجهزة إلى الداخل، فقد أدركنا الرائحة تماماً.

مسيرة المحاربين القدامى

«مقاطعة واشنطن 25 أبريل/ الطير 1971 افرنجي»

*** جون بيلجير**

«زاد الغزو الأمريكي لكمبوديا عام 1970 افرنجي - وذلك لتدمير قواعد قوات

الڤيتكونج ـ من كثافة المظاهرة المعارضة للحرب الڤيتنامية بأرجاء العالم، ولم تنته الحرب حتى أبريل 1975 افرنجي، عندما استسلمت حكومة ڤيتنام الجنوبية، وسقطت سايجون دون مقاومة».

لقد تلاشت الحقيقة، إن ميكي ماوس قد مات، وبدا الرفاق الطيبون رفاق سوء تحت قناع التنكر، والمتكلم هنا هو ويليام ويمان من مدينة نيويورك في التاسعة عشرة من عمره ومع ذلك كان قد فقد رجليه، ويجلس على مقعد متحرك فوق درجات سُلم الكونجرس الأمريكي، وسط جمهور من 300,000 مواطن في أضخم مظاهرة شهدتها أمريكا، ويرتدي ملابس قتال خضراء بالية وقد تمزقت سترته «الجاكته» في موضع رفع عنه أوسمته وميدالياته التي نالها مقابل فقد رجليه، ومع مئات المحاربين القدامى في ڤيتنام كان يحرضهم فوق درجات سلم مبنى الكابيتول ويصفهم بأنهم نفايات، والآن يقول لأولئك الذين شكلوا حلقة من الشفقة حوله: «قبل أن أفقد هذين القدمين، قتلت وقتلت، وكلنا فعلنا ذلك، فيا أيها المسيح لا تحزن من أجلي». . .

وبقي المحاربون القدامى طوال الأسبوع في واشنطن، ولم يحدث من قبل في هذه البلاد أن سار الجنود الشباب في مظاهرات ضد الحرب التي شاركوا فيها وما زالت تدور رحاها حتى هذه اللحظة، وأوقفوا رئيس أمريكا وزوجته في الطريق وأخبروهما بالمذبحة وما فعلوه ووصفوه بأنه من الصور المخزية، وساروا أو حاولوا السير ككتيبة من الوجوه الجامدة المتصلبة نحو وزارة الدفاع، حيث حاولوا تسليم أنفسهم احتجاجاً، ليقوم أحد الجنرالات المتغابين ذوو النجمة الواحدة فيخبرهم: «آسفون، نحن لا نأخذ المساجين الأمريكيين هنا».

صاح «دالي جريندا» ربان سطح على إحدى المدمرات ـ سابقاً ـ من مكبر صوت واصفاً كيف ساعد على اقتلاع قرية ڤيتنامية للمارة ساعة الذروة بقوله: «أنصتوا لهذا أيها الأصدقاء، كانت القرية بأكملها تحترق، لكن طائرات المراقبة أفادتنا عن أناس يهربون عبر الحقول الفسيحة، وهكذا تحولنا إلى القذائف المتشظية وبدأنا الفتك بالناس عند ذاك أطلقنا القنابل الفوسفورية وشاهدناهم وهم يحترقون». . .

ويؤدي وجود المحاربين القدامى اليوم في واشنطن إلى اضطراب عميق في المزاج الأمريكي، فيقول رقيب شرطة يعمل بالكابيتول: «يا للجحيم! أفضل أن ألقي شارتي الرسمية قبل المساس بأي واحد من أولئك الرفاق».

ويقوم الآن أحد رجال الأعمال ـ وكان ماراً تلك اللحظة ـ بإفساح طريق من أجل «بيل لويڤي» الذي قضى عامين بالمستشفيات العسكرية، وسوف يحتاج دائماً لعكازين، كما جاء زوجان كبيران ـ الرجل بغطاء رأس رياضي أحمر، وزوجته في رداء من اللون الأزرق الفاتح ـ من جورجيا لرؤية واشنطن في الربيع، ويتظاهران الآن برفقة امرأة فقدت ابناً لها في ڤيتنام، وحتى مجموعة ضخمة من السيدات من جماعة «بنات الثورة الأمريكية» ـ وهي هيئة قد تدهش العالم بشكل ممتع في المستقبل، وقد تصادف أنها تجتمع في واشنطن اليوم، وقفن مؤيدات، وكدن يبكين عند مرور مظاهر المذبحة بجوارهن، وهي تشمل «جاك سوك» من كاليفورنيا وهو يرتدي قناعاً مخيفاً لريتشارد نيكسون وهو يبتسم. وعندما يسأل أحدهم «جاك» ـ على سبيل الضحك ـ ماذا يمكن أن يكون شكله هو؟ يرفع «جاك» القناع ويكشف عن وجه يبدو كأنه فزع لتوه من صب الأحماض عليه، ويقول «السلام».

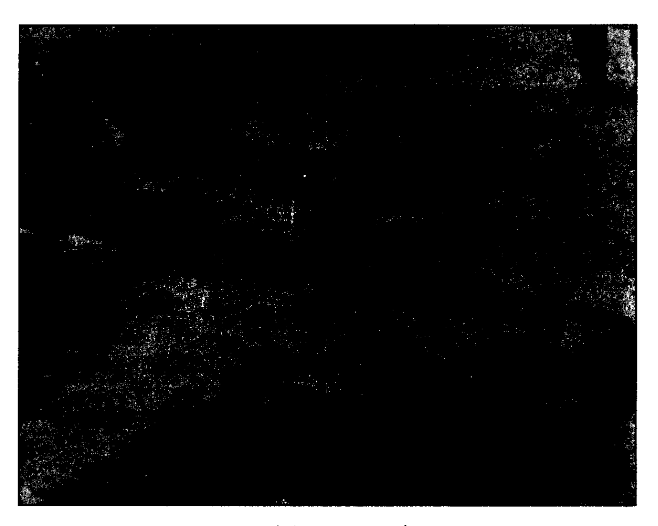
«كانوا المسيحيين»... المذبحة في شاتيلا

«16 ـ 17 سبتمبر/ الفاتح 1982 افرنجي»

*** روبرت فيسك**

«قامت القوات الإسرائيلية بغزو جنوب لبنان يوم 6 يونيه، وتم إجلاء قوات منظمة التحرير الفلسطينية إلى سوريا مع نهاية أغسطس تحت الإشراف الأمريكي، وسمحت القوات الإسرائيلية لرجال الميليشيا اللبنانية باجتياح مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا، وكان سعد حداد ـ في حينها ـ ضابطاً خارجاً على الجيش اللبناني».

.. كانوا في كل مكان، في الطريق والحارات والأفنية الخلفية والحجرات



مذبحة صبرا وشاتيلا

المهدمة وتحت الأحجار المتكسرة وعبر أطراف أكوام القمامة، وكان القتلة ـ رجال الميليشيا المسيحية ـ الذين سمحت لهم إسرائيل بدخول المعسكر لمطاردة «الإرهابيين»[1] منذ أربع عشرة ساعة، قد غادروا المكان في التوّ، وفي بعض الحالات كانت الدماء لا تزال رطبة فوق الأرض، وعندما رأينا مائة جثة معاً توقفنا عن الحصر.

وحتى بعد أربع وعشرين ساعة على انتهاء مذبحة الفلسطينيين في شاتيلا لم يكن هناك أحد متأكد من عدد القتلى هناك، فعلى امتداد كل ممر كانت هناك جثثاً للنساء وللشباب والأطفال والشيوخ، مكومين معاً في كثرة مرعبة وساكنة حيث اغتيلوا بالسكاكين أو بالأسلحة الآلية.

وكشف كل ممر عبر الحطام عن المزيد من الجثث، كما اختفى المرضى الذين كانوا بالمستشفى الفلسطيني ببساطة بعدما أمر المسلحون أطباء المستشفى بمغادرته، وكانت هناك علامات على مقابر جماعية حفرت على عجل، وربما يكون ألف شخص قد ذبحوا هناك، وربما نصف مثل هذا العدد مرة أخرى.

(1) يطلق الغرب بتأثيرات صهيونية إعلامية واضحة لفظ «إرهابي» على كل فدائي فلسطيني. «المترجم».

وقد لا تظهر القصة الحقيقية لما حدث في شاتيلا ليلة الجمعة وصباح السبت للعيان أبداً، لأن غالبية الشهود إما موتى أو لا يريدون الكشف أبداً عن خطيئتهم، وما هو مؤكد أنه عند الساعة السادسة من ليلة الجمعة، شوهدت شاحنات تحمل مسلحين يرتدون الزي الخاص بالجناح العسكري اليميني للمسيحيين المتطرفين، ويحملون شاراته مع جيش العقيد سعد حداد المنشق من جنوب لبنان، وقد رآهم المراسلون الصحفيون يدخولون البوابة الجنوبية للمخيم. . .

كانت هناك نيران مشتعلة وأصوات طلقات نارية كثيفة، وكانت القوات والمدرعات الإسرائيلية تقف على حدود المخيم، ولم تحرك ساكناً لإيقاف المسلحين الذين كانوا حلفاء لهم منذ بدأ غزوهم للبنان وتركوهم يدخلون.

قال متحدث رسمي باسم وزارة الخارجية الإسرائيلية فيما بعد: إن الميليشيا قد أرسلت إلى مخيم شاتيلا لاصطياد بعضاً من الـ 2000 «إرهابي» فلسطيني الذين كانت إسرائيل تزعم وجودهم داخل المخيم، وصدرت الأوامر بمنع المراسلين من الدخول.

وما وجدناه داخل المخيمات الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي لا يغط الوصف تماماً، بالرغم من أنه قد يسهل إعادة سرده في عمل سينمائي أو في نثر بارد لتقرير طبي، لكن التفاصيل يجب أن تروى ـ بما أن ذلك في لبنان ـ لأن الحقائق سوف تتغير خلال الأسابيع القادمة حين تقوم الميلشيات المسلحة والجيوش والحكومات بإلقاء اللوم على بعضها بسبب الرعب الذي حل بالمدنيين الفلسطينيين. . .

داخل البوابات الجنوبية، كان من المعتاد وجود منازل ذات حوائط إسمنتية وطابق واحد، وحينما سرنا عبر المدخل الطيني لمخيم شاتيلا وجدنا كل هذه المباني قد فُجرت بالديناميت وسويت بالأرض، وكانت هناك مظروفات نارية فارغة على الطريق الرئيسي وأسراب من الذباب تحوم خلال الحطام، وفي نهاية «زقاق» على يميننا لا يبعد أكثر من خمسين ياردة من المدخل، رقدت كومة من الجثث. .

كان يوجد أكثر من «دستة» منهم، شباب صغار تداخلت أياديهم وأرجلهم وسط مأساة الموت، أُطلق الرصاص عليهم من مدى قريب ليخترق الخد الأيمن أو الأيسر، تمزق الرصاصة خطاً من اللحم متجهاً حتى الأذن ثم تدخل المخ،

والبعض منهم كانت به ندبات كريمية اللون وحديثة أسفل الجانب الأيسر من «الزور» وقاموا بإخصاء واحد منهم، وكانت عيونهم مفتوحة حين بدأ الذباب يتجمع، والأصغر بينهم ربما يكون له من العمر اثنتا عشرة أو ثلاث عشرة سنة.

وعلى الجانب الآخر من الطريق الرئيسي مع ممر يمضي وسط الحطام، وجدنا جثث خمس من النساء وعديد من الأطفال، السيدات في منتصف العمر وجثثهن ممددات فوق كومة من الحطام، واحدة ترقد فوق ظهرها وقد تمزق رداؤها، ويبرز من خلفها رأس فتاة صغيرة، وللفتاة شعر قصير مموج قاتم وعيناها تحملقان فينا، يعلو وجهها الفزع، كانت ميتة.

وطفلة أخرى كانت ملقاة على الطريق كزهرة مقطوفة، تلطخ فستانها الأبيض بالطين والتراب، ولا يمكن أن يزيد عمرها على ثلاث سنوات وقد تفجرت مؤخرة رأسها برصاصة أطلقت نحو المخ، وامرأة أخرى كانت تحمل طفلاً رقيقاً تلصقه بجسمها، وقد قتلت الرصاصة التي مرت مخترقة صدرها الطفل أيضاً، وعلى يميننا كان هناك ما يبدو أنه متراس من الإسمنت والطين، وما إن وصلناه حتى وجدنا كوع إنسان واضحاً فوق سطحه وحجراً ضخماً تم تحويله ليكون جزءاً من جذعه، وكان الأمر كما لو أن الجثث قد جرفها «بولدوزر» إلى جانب الطريق كما فعلوا حقيقة، إذ يقف ـ ومقعد سائقه الخالي ـ بكل الذنب عند نهاية الطريق.

وفيما وراء هذا السد من الأرض والجثث، كان هناك كوم بدا أنه مجموعة أجولة أمام حائط حجري أحمر، وكان علينا عبور هذا المتراس للوصول إليها محاولين ألا ندوس فوق تلك الجثث المدفونة أسفله بصعوبة.

وأسفل الحائط المنخفض تمدد خط من الشباب والأطفال مسجين على الأرض، وقد أطلق عليهم الرصاص من ظهورهم وهم وقوف مقابل الحائط في إعدام طقسي، وسقطوا في الحال مرتجفين مرتعدين حيث كانوا...

وكان في حائط الإعدام وكوم الجثث بعضاً مما يذكرنا بشيء رأيناه قبلاً.. وبعد قليل فقط، أدركنا كم هو شديد الشبه بتلك الصور القديمة لعمليات الإعدام في أوروبا المحتلة أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان هناك ما قد يصل لاثنتي عشرة أو عشرين جثة ترقد بعضها فوق بعض.

كان الأمر دائماً كذلك، ووجدت منزلاً غير محطم وصغير ببوابة معدنية بُنية اللون تؤدي إلى فناء صغير دفعني شيء غريزي لفتحها، كان القتلة قد غادروها منذ لحظة. هناك كانت امرأة صغيرة راقدة فوق الأرض على ظهرها كما لو كانت تأخذ حماماً شمسياً وسط الحرارة ويسيل الدم من ظهرها رطباً، رقدت وقدماها مضمومتان ويداها مفرودتان كأنها رأت مخلصها(1) في لحظاتها الأخيرة، كان وجهها وديعاً وعيناها مغلقتين تكاد تشبه السيدة العذراء، ولا تجد ما يشير إلى موتها إلا الثقب الصغير في صدرها والبقع الدموية عبر الفناء فقط.

كان هناك قتال داخل المخيم، إذ كان الطريق منزلقاً لكثرة ما به من طلقات الرصاص الفارغة وكبسولات الذخيرة بالقرب من جامع مخيم صبرا، حتى هذه الأسلحة كانت من الطرز السوفيتية التي استخدمها الفلسطينيون.

كان من الواضح أن الفدائيين كانوا هنا، وفي وسط هذا الجزء من الطريق يوجد هناك نموذج خشبي محفور يشبه بندقية «الكلاشنكوف» بدرجة لا تصدق، لكن فوهتها كانت مشطورة نصفين، كانت مجرد لعبة. وعبر مخيم شاتيلا الصوت غير المجسم لضابط إسرائيلي وهو يعلن من خلال جهاز «التانوي» من قمة حاملة جنود مدرعة «ابتعدوا عن الطريق»... كان يصيح: نحن نبحث عن الإرهابيين فقط، أخلوا الطريق، سوف نطلق النار»..

وبعد ساعة من ذلك عند كاليري سمعان ـ بعيداً عن شاتيلا ـ أطلق شخص ما النار على الجنود، فألقيت بنفسي في خندق بجوار ضابط إسرائيلي، فصب الإسرائيليون أنهاراً من الرصاص نحو بناء مهدم بجوار الطريق، لتتطاير أجزاء منه إلى السماء كأوراق الحلوى المتطايرة، وبقينا ـ أنا والضابط ـ متكومين داخل الخندق طوال خمس عشرة دقيقة، وسألني عن شاتيلا، فأخبرته بما رأيت عند ذاك قال: «سأخبرك بشيء.. كان من المفروض أن يذهب رجال سعد حداد معنا لكنا اضطررنا لإطلاق النار على اثنين منهم أمس فقتلنا واحداً وجرحنا الآخر، وأخذنا اثنين آخرين، لأنهم كانوا يقومون بأعمال سيئة، هذا كل ما أستطيع قوله».

(1) المُخلِّص هو يسوع المسيح. «المترجم».

«هل كان ذلك في شاتيلا»؟ لكنه لم يجب على ذلك أبداً.

ثم قام عامل الاتصالات الشاب الذي كان راقداً خلفنا في الوحل، بالزحف قريباً مني ـ كان صغيراً ـ وأشار إلى صدره «نحن الإسرائيليين لا نفعل مثل هذه الأشياء. إنهم المسيحيون»..

سقوط الرئيس ماركوس

«مانيلا ـ الفلبيين 24 ـ 25 فبراير/النوار 1986 افرنجي»

*** جيمس فنتون**

«نظراً للمواجهة الشعبية الرافضة وللتمرد بين صفوف الجيش، غادر ماركوس قصر «مالاكانانج» في طائرة هـ 3 عمودية من سلاح الجو الأمريكي مساء يوم الثلاثاء 25 فبراير. ويبدأ تقرير جيمس فنتون يوم 24 فبراير عند وصوله للقصر لاستقصاء تقرير قال إن ماركوس قد عُزل، والجزء الثاني يصف عودته للقصر مساء يوم إقلاع الرئيس، وإميلدا هي زوجة الرئيس، أما معسكر «كريم» فهو مركز تمرد الجيش».

كان هناك شيء غريب يحدث، حيث توجد حديقة الخضروات ـ وكانت قد زرعت بناءً على تعليمات إميلدا، كجزء من مشروع للحيوانات الأليفة ـ.

كانوا يضعون ـ آنئذ ـ الحشائش، وحديقة التماثيل كذلك، رفعوا منها كل التماثيل الحجرية ونُزعت، وكان العمال يلاحظوننا ونحن نمر بجوارهم، وبجوار البوابة القريبة كانت توجد بعض الدبابات ومركز المراقبة الأمنية يعمل. فقال أحد الأشخاص: «إنه شيء غير عادي، أليس كذلك؟ فالأسلوب الذي يواصلون به عملهم كما لو كان شيء لم يحدث، فتلك المنصة لا بد أنهم تلقوا تعليمات بإقامتها من أجل الافتتاح، والآن ذهب ماركوس ومع ذلك يستمرون في إقامتها». وبينما نمر عبر نقطة مراقبة أمنية بدأ صوت يتحدث في خطاب عام، كان يعطي تعليمات للجنود بالتهيؤ لاستخدام الأسلحة الصغيرة في التعامل مع أي هجوم، وكان يحدد سياسة ماركوس المفترضة حول عملية الانتخابات بكاملها، وهي التسامح المطلق.

فسألت: «صوت مِنْ هذا؟». وكانت الإجابة: «إنه صوت ماركوس ولا بد أنه تسجيل»..

عدونا صاعدين السلم الكبير واستدرنا يميناً نحو الغرفة الأمامية، وهناك كان ماركوس جالساً بنفسه وإميلدا والأسرة كلها حوله، وعلى يمينه ثلاث أو أربع جنرالات، وقد اختاروا الغرفة الأمامية بدلاً من الصالة الرئيسية، لأن الحاضرين من الصحفيين والمصورين كانوا قلائل، ولم تكن لترى ذلك الحشد العظيم من رجالات الجيش الذي كان بالأمس. ونظرت بإمعان نحو ماركوس وفكرت، إنه ليس هو، إن ذلك يشبه الإكتوبلازم[1] أو يشبه «ميكون العظيم»، وكان يتحدث بأسلوب محدد وقانوني نجح في أن يبدو معقولاً وهراء في آن واحد، وكان يضع يده اليسرى أسفل المنضدة، فراقبت اليد برهة، عسى أن أعرف هل تم إخفاء هذه اليد عن عمد؟ لكن الأمر لم يكن كذلك.

كان الجنرال ڤير يرتعش في اضطراب واضح، وكنت أتساءل هل لثته متورمة أم ماذا؟ خطا الجنرال للأمام، وطلب تصريحاً بضرب معسكر «كريم»، الذي كانت تحوم فوقه طائرتان أف ـ 5 تابعتان للحكومة، كما قال الجنرال ـ وخارج هذا المكان تماماً أخبرني شخص ما بأن الجماهير في معسكر «كريم» اعتقدوا أن الطائرتين في صفهم، لأنهم كانوا يهللون كل لحظة تظهر فيها الطائرتان ـ فأفاد ماركوس الجنرال بأن الطائرتين لن تستخدما، فتزايد فزع «ڤير» ثم قال: «سيدي، إن القوات البحرية جاهزة للهجوم فور مغادرة المدنيين للمعسكر في الحال، سيدي الرئيس، هذا ما أتيت لأجله بناءً على أوامرك كي نضربهم بسرعة، إذ علينا منع الطائرات العمودية التي حصلوا عليها من الحركة...». ـ كان ماركوس قد أرسل طائرات عمودية مقاتلة ضد المعسكر، لكن طياريها وصلوا ملوحين بأعلام بيضاء، وانضموا للمتمردين ـ وانفجر ماركوس في يأس ونفاد صبر كما لو كان هذا يحدث طوال الليل وأنه تعب ومل من الجنرال «ڤير» قائلاً: إن أمري هو ألا تهجموا... لا... لا... تماسكوا، ولا هجوم.

زادت ثورة «ڤير» وقال: «إن مفاوضاتنا وحوارنا الأول لم ينجحا سيدي

(1) يقصد أن ماركوس تحول إلى شبح. «المترجم».

الرئيس فأجاب ماركوس: كل ما يمكنني قوله أننا قد نصل للمرحلة التي نضطر فيها لاستخدام الأسلحة الثقيلة، لكنك سوف تستخدم الأسلحة الصغيرة باليد، أو المحمولة كتفاً في الوقت الحالي» قال ڤير: «إن قواتنا الهجومية تؤخر».

كتبت صحيفة «الكريستيان ساينس مونيتور» - التي تحت كوعي - «إن ذلك أمر غريب، إنه فعل غبي». .

قال ڤير: «وهناك كثير من المدنيين بالقرب من قواتنا، ولا نستطيع الاستمرار في الانسحاب، إذ يستحيل التراجع طوال الوقت، سيدي الرئيس».

كان ذلك الحديث يذاع مباشرة على القناة الرابعة، كان ماركوس يشاهده عبر جهاز بث للعرض، وأخيراً قام ڤير بأداء التحية وخطا للخلف وخرج مع الضباط الآخرين، وقد نسيت من كانوا، مثلما كان ماركوس - حينما كان يقدمهم لنا - قد نسي أسماءهم واحتاج لمن يذكره، وانسحبت الأسرة بدورها كذلك.

وحدثت واقعة حينذاك لم أفهم مغزاها في ذلك الوقت إذ بدأ جهاز التليفزيون يبث شوشرة بيضاء، فتقدم أحد الجنود وحرك المفاتيح، كانت القنوات الأخرى تعمل لكن القناة الرابعة كانت قد ضربت من الجو، واستولى المتمردون على المحطة الحكومية، وذلك ما لا بد أن ماركوس قد أدركه لكنه لم يضطرب، وبدت الحادثة كأنها إزعاج تافه، وكما لو أن التلفزيون في لحظة عدم إرساله ببساطة[1] استدرت عائداً، وسرت مع الطريق إلى «مالاكانانج».

كانت قدماي تقرقعان فوق الزجاج المكسور والأحجار، وسألت شرطياً عما إذا كان يعتقد أن مواصلة السير آمنة، فأجاب بنعم. وكان هناك بعض من رجال ماركوس يختبئون في الشوارع الجانبية لكن القتال كان قد توقف كله، وجاء طفل يعدو ماراً بي وهو يصيح: «إيه، يا صاحب، ما الأمر؟» ولم ينتظر إجابة.

وعندما وصلت إلى مرمى البصر من القصر، رأيت الناس يتسلقون أسواره، وما إن تسلقت معهم حتى طارت إحدى البوابات منفتحة أمامهم، كان الجميع

(1) من هنا يبدأ الجزء الخاص بزيارته الثانية للقصر. «المترجم».

ينسلون للداخل، ويتوجهون مباشرة لمكتب الصحافة القديم، وخطر لي ـ فجأة ـ أن القليل جداً منهم هو من يعرف أين يوجد القصر ذاته.

كانت الوثائق تتطاير خارج المبنى مع صيحات الجمهور الجذلة، فبدأت أعدو. كان بينج خلفي مباشرة يمتلىء بالنشوة وآلات التصوير تتخابط حول عنقه، فشققنا طريقنا نحو ما يشبه الصالة، حيث أخبرنا مدني مسلح بأننا لا نستطيع التقدم أكثر من هذا. فتزاحم عليه الصحفيون يتوسلون السماح لهم بإلقاء نظرة، كان ذلك الرجل قد أرسلته قوات المتمردين بعد أن أقسم ـ كما قال ـ بأنه لن يدع أحداً يمر، وكانت كل الأمور ـ كما أخشى ـ في حالة توتر، قام أحد المصورين الفيليبينيين بالسير عابراً الحارس، ثم تبعه آخر، عندئذ تبعهما بينج.

وفي النهاية كنت أنا الوحيد الباقي، ففكرت. حسناً طالما لم يطلق عليهم النار فلن يفعل ذلك معي، وتعجلت المرور به بالطريقة التي يفعلها المرء حين يتوقع ركلة للخلف، فقال الحارس: «أنت يا رجل، قف». ولكن أثناء ملاحقته لي حتى ركن الحجرة اكتشفنا أنه يقف في المكان الخطأ، إذ إن الناس في جماعات أتوا من طريق آخر وجالوا بين الصناديق والحقائب بحثاً عما ينفع فيها، ولم تجد مياه «إيفيان» المعدنية من يأخذها، ولكن كل شيء آخر كان يختفي بسرعة، ولحقت بزميلي «بينج» الذي كان يحملق في صندوق مناشف منسوجة بالأحرف الأولى، وأدركنا أنها تحمل الحروف الأولى من اسم إميلدا، وكان باق منها زوجان، كانا شديدي الإغراء لنا.

ولم أستطع تصديق إمكانية عثورنا على غرف ماركوس الخاصة، وكنت أعلم عدم جدوى السؤال، فصعدنا بعض سلالم الخدم التي أذكر أنني رأيت أسفلها آنية تحمل طبقين ضخمين من العقيق الأخضر، وكانا من الضخامة لدرجة تدل على فساد الذوق، وفي الطابق الأول فتح أحد الأبواب ووجدنا أنفسنا في القاعة الكبيرة التي عقد فيها المؤتمر الصحفي، وكان هذا هو الجزء الوحيد الذي يمكن للناس أن يتعرفوا عليه حيث شاهدوا ماركوس تليفزيونياً من هنا غالباً، وجرى الناس وجلسوا فوق عرشه، وبدأوا يمثلون مؤتمرات صحفية ساخرة، ويصدرون

الأوامر مقلدين صوته العميق ثم ينفجرون في الضحك، أو يكتفون بالحملقة المندهشة من روعة الغرف، التي كانت كلها مضاءة ولم يكلف أحد نفسه بإطفاء الأنوار حين غادروها.

وتذكرت أنني حينما جئت هنا للمرة الأولى بعد الانتخابات بيوم، تسللت إميلدا داخل الحجرة وجلست في أحد جوانبها، ولا بد أنها دخلت من هذا الاتجاه، فذهبت لأتحقق.

والآن، لبرهة قصيرة أصبحت بعيداً عن الازدحام ومعي شخص فيليبيني فقط خجول ومذهول تماماً. . . وقد أدركنا أننا وجدنا طريقنا إلى حجرات ماركوس الخاصة، كانت هناك مكتبة، ونظر رفيقي بدهشة لأجزاء الكتب ذات الأغلفة الجلدية، في حين أعجبت أنا بمجموعة كتب الآداب المصنفة بعناية وتبدو على كعوبها أرقامها، تلك كانت المكتبة المرجعية لمجموعة كنوز إميلدا الشهيرة، ولا بد أنها مررت إصبعها على هذه الكتب وهي تفكر: «إنني أفضل واحداً منها، أو إنني حصلت على اثنين من تلك في نيويورك»، أو «تلك توجد في منزلنا في لندن». وبعد ذلك كانت هناك حجرة الاستقبال بالصورة المعلقة المزدوجة لآل ماركوس، حيث وقفت ببساطة ـ على ما أذكر ـ أنا ورفيقي نقول: «إنها رائعة أليس كذلك؟». والأمر لم يكن أنها جميلة، لأنها بدت كما لو كانت مشتراة من محلات هارودز[1]، والمسألة أنه بعد كل التزاحم والفوضى أننا هبطنا في ذلك المكان الآمن والفخم فقط، وكان رفيقي لم يشاهد أبداً مثل هذا ولم يأخذ أي شيء وحتى لم يجرؤ على لمس الأثاث أو المزينات، لأننا لم نصدق ـ كلانا ببساطة ـ أننا هناك وأن ماركوس لم يعد هناك.

وأتمنى أن استطيع تذكر ذلك جيداً، على سبيل المثال، بدا لي أنني رأيت في كل حجرة ـ تقريباً فوق كل مساحة متوافرة ـ صورة موقعة من نانسي ريجان، لكن ذلك يصعب أن يكون حقيقة، إذ كان مجرد إحساس بأن هناك الكثير من وجود نانسي. .

(1) محلات هارودز الشهيرة في لندن التي يملكها آل محمد الفايد الآن. «المترجم».

وكان بحجرة أخرى بيانو ضخم فجلست إليه، فقال رفيقي «هل يمكنك العزف؟» فتفاخرت قائلاً: «قليلاً» فأنا أستطيع عزف مقطوعة باخ «مدخل إلى سي» وهذا ما نجحت في عزفه.. لكن رفيقي كان يود - بوضوح - شيئاً آخر أكثر إثارة.

وجاء جندي حاملاً بندقيته وقال: «لو سمحتم، تعاونوا معنا» وبدا عليه أنه مندهش أكثر من المكان مثلنا تماماً، وخرجنا، وعندما عدت إلى أسفل سلم الخدم لاحظت أن طبقي العقيق الخضراوين قد اختفيا، لكن ما زال هناك بعض من مياه «إيفيان» أمامي، وكنت شديد العطش كما حدث، لكن الثورة طلبت مني أن أتعاون، وهكذا..

الفهرس